سورة الكهف

مائة وإحدى عشرة آية مكية

قال ابن عباس: إنها مكية غير آيتين منها، فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزاري. وعن قتادة أنها مكية. وعن رسول الله: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت؟ هي سورة الكهف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما الكلام في حقائق قولنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد سبق، والذي أقوله هاهنا: إن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدمًا على التحميد، ألا ترى أنه يقال: سبحان الله والحمد لله؟

إذا عرفت هذا فنقول: إنه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[الإسراء: ١] وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾.

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾[الإسراء: ١] ثم ذكر بعده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيهًا على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله، والأمر في الحقيقة كذلك لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملاً للأرواح البشرية وناقلاً لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية، ولا شك أن هذا الثاني أكمل، وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقامًا أن يصير (العبد)

عالمًا في ذاته معلمًا لغيره، ولهذا روي في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**مَنْ تعلم وعلم فذاك يدعى عظيمًا في السماوات**»(١).

الفائدة الثانية: أن الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق، وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحي عليه من فوق إلى تحت، ولا شك أن هذا الثاني أكمل.

الفائدة الثالثة: أن منافع الإسراء به كانت مقصورة عليه، ألا ترى أنه تعالى قال هنالك: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ومنافع إنزال الكتاب عليه متعدية، ألا ترى أنه قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة.

المسألة الثانية: المشبهة استدلوا بلفظ الإسراء في السورة المتقدمة وبلفظ الإنزال في هذه السورة على أنه تعالى مختص بجهة فوق. والجواب عنه مذكور بالتمام في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

المسألة الثالثة: إنزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا: أما كونه نعمة عليه فلأنه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والإكرام وأسرار أحوال الملائكة والأنبياء وأحوال القضاء والقدر، وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا، وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات، وتصيير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت، فلا شك أن ذلك من أعظم النعم. وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب، وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات، فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه، فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه، فعلَّمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ثم إنه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: أنا قد ذكرنا أن الشيء يجب أن يكون كاملاً في ذاته ثم يكون مكملاً لغيره، ويجب أن يكون تامًّا في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير. إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ إشارة إلى كونه مكملاً لغيره لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير. ونظيره قوله في أول سورة البقرة في صفة الكتاب: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إشارة إلى كونه في

(١) أخرجه زهير بن حرب في كتاب (العلم) (١/ ٨/ ٧) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٧/ ٤٥٦) كلاهما من طريق بشر بن منصور عن ثور عن عبد العزيزي بن ظبيان قال: قال المسيح ابن مريم... فذكره.

نفسه بالغًا في الصحة وعدم الإخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى كونه سببًا لهداية الخلق وإكمال حالهم فقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ قائم مقام قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قائم مقام قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهذه أسرار لطيفة.

البحث الثاني: قال أهل اللغة: العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد منه وجوه: **أحدها**: نفي التناقض عن آياته كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. **وثانيها**: أن كل ما ذكر الله من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولا خلل في شيء منها ألبتة. **وثالثها**: أن الإنسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجهًا إلى عالم الآخرة وإلى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بني على طريق عالم القيامة حتى أن المسافر إذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التي يجب رعايتها في هذا السفر ثم يرتحل منه متوجهًا إلى عالم الآخرة، فكل ما دعاه في الدنيا إلى الآخرة ومن الجسمانيات إلى الروحانيات ومن الخلق إلى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية إلى الاستنارة بالأنوار الصمدانية، فثبت أنه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾. **الصفة الثانية للكتاب**: وهي قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قال ابن عباس: يريد مستقيمًا. وهذا عندي مشكل لأنه لا معنى لنفي الاعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وأنه باطل، بل الحق ما ذكرناه وأن المراد من كونه: ﴿قَيِّمًا﴾ أنه سبب لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيمًا للأطفال، فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم.

البحث الثالث: قال الواحدي: جميع أهل اللغة والتفسير قالوا: هذا من التقديم والتأخير والتقدير: أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا. وأقول: قد بينا ما يدل على فساد هذا الكلام لأنا بينا أن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ يدل على كونه كاملاً في ذاته، وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ يدل على كونه مكملاً لغيره، وكونه كاملاً في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملاً لغيره، فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه.

البحث الرابع: اختلف النحويون في انتصاب قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ وذكروا فيه وجوهًا: **الأول**: قال صاحب (الكشاف) لا يجوز جعله حالاً من الكتاب لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ فهو داخل في حيز الصلة فجعله حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يوجب الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وأنه لا يجوز. قال: ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير: ولم يجعل له عوجًا وجعله قيمًا. **الوجه الثاني**: قال الأصفهاني الذي نرى فيه أن يقال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ حال وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجًا قيمًا. **الوجه الثالث**: قال السيد صاحب (حل العقد) يمكن

أن يكون قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ لأن معنى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أنه جعله مستقيمًا فكأنه قيل: أنزل على عبده الكتاب وجعله قيمًا. **الوجه الرابع:** أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي حال كونه قائمًا بمصالح العباد وأحكام الدين.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أنزل على عبده الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة، أردفه ببيان ما لأجله أنزله فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ و(أنذر) متعدٍّ إلى مفعولين كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[النبأ: ٤٠] إلا أنه اقتصر هاهنا على أحدهما وأصله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الذين كفروا ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ كما قال في ضده: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والبأس مأخوذ من قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾[الأعراف: ١٦٥] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسًا وبآسة وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي صادرًا من عنده، قال الزجاج: وفي: (لدن) لغات يقال: لدن ولدي ولد، والمعنى واحد. قال: وهي لا تتمكن تمكن (عند) لأنك تقول هذا القول صواب عندي ولا تقول صواب لدني، وتقول عندي مال عظيم و(المال) غائب عنك ولدني لما يليك لا غير وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بسكون الدال مع إشمام الضم وكسر النون والهاء وهي لغة بني كلاب. ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ واعلم أن المقصود من إرسال الرسل إنذار المذنبين وبشارة المطيعين، ولما كان دفع الضرر أهم عند (ذوي) العقول من إيصال النفع، لا جرم قدم الإنذار على التبشير في اللفظ، قال صاحب (الكشاف): وقرئ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ بالتخفيف والتثقيل وقوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعني خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾. **قال القاضي: الآية دالة على صحة قولنا في مسائل:** أحدها: أن القرآن مخلوق وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بالإنزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فإن القديم لا يجوز عليه التغير. الثاني: وصفه بكونه كتابًا والكتب هو الجمع وهو سمي كتابًا لكونه مجموعًا من الحروف والكلمات، وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث. الثالث: أنه تعالى أثبت الحمد لنفسه على إنزال الكتاب، والحمد إنما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة. الرابع: أنه وصف الكتاب بأنه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك، فثبت أنه محدث مخلوق. **وثانيها: مسألة خلق الأعمال:** فإن هذه الآيات تدل على قولنا في هذه المسألة من وجوه: **الأول:** نفس الأمر بالحمد لأنه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب إذ الانتفاع به إنما يحصل إذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه، وهو إنما يفعل ذلك لو كان مستقلاً بنفسه، أما إذا لم يكن مستقلاً بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر في اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيمًا أثر في استقامة فعله، أما إذا كان العبد قادرًا على الفعل مختارًا فيه بقي لعوج الكتاب واستقامته أثر في فعله. **والثاني:** أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سببًا لكفر البعض وأنزل الباقي ليؤمن البعض الآخر، فمن أين أن الكتاب قيم لا عوج فيه؟ لأنه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك. **والثالث:** قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وفيه

دلالة على أنه تعالى أراد منه ﷺ إنذار الكل، وتبشير الكل وبتقدير أنه يكون خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى لم يبق للإنذار والتبشير معنى لأنه تعالى إذا خلق الإيمان فيه حصل، شاء أو لم يشأ، وإذا خلق الكفر فيه حصل، شاء أو لم يشأ، فبقي الإنذار والتبشير على الكفر والإيمان جاريًا مجرى الإنذار والتبشير على كونه طويلاً قصيرًا وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه. **والرابع:** وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فإن كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم ألبتة. **الخامس:** إيجابه لهم الأجر الحسن على ما عملوا، فإن كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا إيجاب ولا استحقاق.

المسألة الرابعة: قال: قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يدل على أنه تعالى إنما يفعل أفعاله لأغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول: إن فعله غير معلل بالغرض، واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت في هذا الكتاب فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] والمعطوف يجب كونه مغايرًا للمعطوف عليه، فالأول عام في حق كل من استحق العذاب. والثاني خاص بمن أثبت لله ولدًا، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهًا على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا هاهنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى.

المسألة الثانية: الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف: **أحدها:** كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. **وثانيها:** النصارى حيث قالوا: المسيح ابن الله. **وثالثها:** اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والكلام في أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وتمامه مذكور في سورة مريم. ثم إنه تعالى أنكر على القائلين بإثبات الولد لله تعالى من وجهين: **الأول:** قوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾ فإن قيل: اتخاذ الله ولدًا محال في نفسه فكيف قيل ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؟ قلنا: انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وقد يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به. ونظيره قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على أن القول في

الدين بغير علم باطل، والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً. وتمام تقريره مذكور في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]وقوله: ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي ولا أحد من أسلافهم، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة.

النوع الثاني مما ذكره الله في إبطاله: قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرئ: (كَبُرَتْ كَلِمَةٌ) بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية، قال الواحدي: ومعنى التمييز أنك إذا قلت: (كبرت المقالة أو الكلمة) جاز أن يتوهم أنها كبرت كذبًا أو جهلاً أو افتراء، فلما قلت (كلمة) ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير: كبرت الكلمة كلمة: فحصل فيه الإضمار، أما من رفع فلم يضمر شيئًا كما تقول (عظم فلان) فلذلك قال النحويون: والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة!!

البحث الثاني: قوله: ﴿كَبُرَتْ﴾ أي كبرت الكلمة. والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فصارت مضمرة في (كبرت) وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة.

البحث الثالث: احتج النظام في إثبات قوله: (أن الكلام جسم) بهذه الآية قال: إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة، والحركة لا تصح إلا على الأجسام. والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفَس عن الحلق، فلما كان خروج النفَس سببًا لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة.

البحث الرابع: قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جدًّا عند العقل؛ كأنه يقول: هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم ألبتة لكونه في غاية الفساد والبطلان، فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد؛ لأنهم مع أنها قولهم، عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها. ثم قال تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ومعناه ظاهر، واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب: فعندنا أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه، سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا؟ ومن الناس من قال: شرط كونه كذبًا أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق. وهذا القيد عندنا باطل، والدليل عليه هذه الآية فإنه تعالى وصف قولهم بإثبات الولد لله بكونه كذبًا، مع أن الكثير منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلاً، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب، سواء علم القائل بكونه مطابقًا أو لم يعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يَعْظُم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذرًا ومبشرًا، فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول ﷺ عنه.

البحث الثاني: قال الليث: بخع الرجل نفسه، إذا قتلها غيظًا من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء: أصل البخع الجهد. يقال: بخعت لك نفسي، أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت: بخع الأرضَ، أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي: بخعت الأرضَ بالزراعة، إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة. وبخع الرجل نفسه إذا نهكها. وعلى هذا معنى: ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها، ولكن أهل التأويل كلهم قالوا: قاتل نفسك ومهلكها. والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي من بعدهم، يقال مات فلان على أثر فلان، أي بعده. وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحي وتبطله بالكلية، فإذا كان موته قريبًا من موت الأول كان موته حاصلاً حال بقاء آثار الأول، فصح أن يقال: مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ المراد بالحديث القرآن. قال القاضي: وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث، وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه قديم. وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله: ﴿أَسَفًا﴾ الأسف المبالغة في الحزن، وذكرنا الكلام فيه عند قوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ سورة[الأعراف ١٥٠] وعند قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه. الأول: أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف. الثاني: يجوز أن يكون مفعولاً له أي للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير. والثالث: قال الزجاج: ﴿أَسَفًا﴾ منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

البحث السادس: الفاء في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ جواب الشرط وهو قوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ قُدم عليه ومعناه التأخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: وجه النظم كأنه تعالى يقول: يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح، والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون ويتمردون مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم. فأنت أيضًا يا محمد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير هذه الزينة: فقال بعضهم: النبات والشجر وضَمَّ بعضهم إليه الذهب والفضة والمعادن، وضَمَّ بعضهم إليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الأرض. وبالجملة: فليس بالأرض إلا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان، وأشرف أنواع الحيوان الإنسان. وقال القاضي: الأولى أنه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ فمن يبلوه يجب أن لا يدخل في ذلك، فأما سائر النبات والحيوان فإنهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به، وقوله: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أي للأرض، ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الأرض زينة للأرض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب.

أما قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند دخولها في الوجود، فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز، واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالمًا بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع، وإلا لزم انقلاب علمه جهلاً وذلك محال والمفضي إلى المحال محال، ولو كان ذلك واجبًا فالذي علم وقوعه يجب كونه فاعلاً له ولا قدرة له على الترك، والذي علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل، وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادرًا على شيء أصلاً بل يكون موجبًا بالذات، وأيضًا فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك، لأن ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله، فالقول بكونه تعالى عالمًا بالأشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفي العبودية وذلك باطل، فثبت أنه تعالى إنما يعلم الأشياء عند وقوعها، وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال: يجري قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ على ظاهره.

وأما جمهور علماء الإسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا: إنه تعالى من الأزل إلى الأبد عالم بجميع الجزئيات، فالابتلاء والامتحان محالان عليه، وأينما وردت هذه الألفاظ فالمراد أنه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان. وقد ذكرنا هذه المسألة مرارًا كثيرة.

المسألة الثانية: قال القاضي: معنى قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هو أنه يبلوهم ليبصرهم أيهم أطوع لله وأشد استمرارًا على خدمته لأن من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى أنه كلف لأجل ذلك لا لأجل أن يعصى، فدل ذلك على بطلان قول من يقول: خلق بعضهم للنار.

المسألة الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ تدل ظاهرًا على أن أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة، وأصحابنا قالوا: هذا محال لأن التعليل بالغرض إنما يصح في حق من لا يمكنه

تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة، وهذا يقتضي العجز وهو على الله محال.

المسألة الرابعة: قال الزجاج: ﴿أَيُّهُمْ﴾ رُفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملاً أم ذاك. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ والمعنى أنه تعالى بَيَّن أنه إنما زين الأرض لأجل الامتحان والابتلاء لا لأجل أن يبقى الإنسان فيها متنعمًا أبدًا لأنه يُزهد فيها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ الآية ونظيره قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾ الآية[طه: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ الآية[الانشقاق: ٣]. والمعنى أنه لا بد من المجازاة بعد فناء ما على الأرض، وتخصيص الإبطال والإهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت على أن الأرض أيضًا لا تبقى، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ٤٨] قال أبو عبيدة: الصعيد: المستوي من الأرض، وقال الزجاج: هو الطريق الذي لا نبات فيه، وقد ذكرنا تفسير الصعيد في آية التيمم، وأما الجرز فقال الفراء: الجرز: الأرض التي لا نبات عليها، يقال: جرزت الأرض فهي مجروزة، وجرزها الجراد والشاء والإبل إذا أكلت ما عليها، وامرأة جروز، إذا كانت أكولاً، وسيف جراز إذا كان مستأصلاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾[السجدة: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرًا على تخليق السماوات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خالية عن الكل، كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم؟! هذا هو الوجه في تقرير النظم، والله أعلم.

المسألة الثانية: قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحًا فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا ذكر

فيه الله وحَدَّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه! ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفته وأخبِروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طَوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول. فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد. وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه فقال رسول الله ﷺ: «أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا» ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة ليلة! فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف[(١)].

المسألة الثالثة: الكهف: الغار الواسع في الجبل، فإذا صغر فهو الغار، وفي الرقيم أقوال: الأول: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين وحنانًا والأواه والرقيم. الثاني: روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها القرية التي خرجوا منها. وهو قول السدي. الثالث: قال سعيد بن جبير ومجاهد: الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص، كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشُد ذلك اللوح على باب الكهف، وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا: الرقيم: الكتاب، والأصل فيه المرقوم، ثم نُقل إلى فعيل، والرقم: الكتابة، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[المطففين: ٩] أي مكتوب، قال الفراء: الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم، ونظن أنه إنما سمي رقيمًا لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه، وقيل: الناس رقموا حديثهم نقرًا في جانب الجبل. وقوله: ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ المراد أحسبت أن واقعتهم كانت عجيبة في أحوال مخلوقاتنا، فلا تحسب ذلك فإن تلك الواقعة ليست عجيبة في جانب مخلوقاتنا. والعجب هاهنا مصدر سمي المفعول به، والتقدير كانوا معجوبًا منهم، فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ لا يجوز أن يكون (إذ) هنا متعلقًا بما قبله على تقدير: أم حسبت إذ أوى الفتية لأنه كان بين النبي وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذي أووا فيه إلى

---

(١) أورده ابن إسحاق في (سيرته) (١/ ١٧٨) قال: حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال... فذكره ضمن حديث طويل.

الكهف، بل يتعلق بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ أوى، ومعنى أوى الفتية إلى الكهف صاروا إليه وجعلوه مأواهم قال: فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء. وقوله ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يدل على عظمة تلك الرحمة وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أي أصلح، من قولك هيأت الأمر فتهيأ: ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال، وفي تفسير اللفظ وجهان: الأول: التقدير: وهيئ لنا أمرًا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين. الثاني: اجعل أمرنا رشدًا كله كقولك رأيت منك رشدًا. ثم قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ قال المفسرون: معناه أنمناهم، وتقدير الكلام أنه تعالى ضرب على آذانهم حجابًا يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة، والتقدير: (ضربنا عليهم حجابًا) إلا أنه حذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بني عليها القبة ثم إنه تعالى بَيَّن أنه ضرب على آذانهم في الكهف وهو ظرف المكان وقوله ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ظرف الزمان.

وفي قوله ﴿عَدَدًا﴾ بحثان:

الأول: قال الزجاج: ذكر العدد هاهنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شيء مما يعد إذا ذكر فيه العدد ووُصف به أريد كثرته؛ لأنه إذا قل فُهم مقداره بدون التعديد أما إذا أكثر فهناك يحتاج إلى التعديد فإذا قلت أقمت (أيامًا عددًا) أردت به الكثرة.

البحث الثاني: في انتصاب قوله (عددًا) وجهان: أحدهما: نعت لسنين المعنى سنين ذات عدد أي معدودة، هذا قول الفراء وقول الزجاج، وعلى هذا يجوز في الآية ضربان من التقدير: أحدهما: حذف المضاف. والثاني: تسمية المفعول باسم المصدر. قال الزجاج: ويجوز أن ينتصب على المصدر، المعنى تعد عدًّا. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ يريد من بعد نومهم يعني أيقظناهم بعد نومهم.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾. فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ اللام لام الغرض فيدل على أن أفعال الله معللة بالأغراض، وقد سبق الكلام فيه.

المسألة الثانية: ظاهر اللفظ يقتضي أنه تعالى إنما بعثهم ليحصل له هذا العلم، وعند هذا يرجع إلى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا؟ فقال هشام: (لا يعلمها إلا عند حدوثها) واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق، ونظائر هذه الآية كثيرة في القرآن منها ما سبق في هذه السورة ومنها قوله في سورة البقرة: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي آل عمران: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

المسألة الثالثة: (أَيّ) رُفع بالابتداء و(أَحْصى) خبره، وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم

فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في لفظة (أَيُّ) بل بقيت على ارتفاعها، ونظيره قوله: (اذهب فاعلم أيهم قام) قال تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾[القلم: ٤٠] وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[مريم: ٦٩] وقرىء (لِيُعلم) على فعل ما لم يسم فاعله وفي هذه القراءة فائدتان: إحداهما: أن على هذا التقدير لا يلزم إثبات العلم المتجدد لله بل المقصود أنا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق. والثانية: أن على هذا التقدير يجب ظهور النصب في لفظة أي، لكن لقائل أن يقول: الإشكال بعد باقٍ لأن ارتفاع لفظة (أي) بالابتداء لا بإسناد يعلم إليه. ولمجيب أن يجيب فيقول: إنه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لأن العوامل النحوية علامات ومعرفات، ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد، والله أعلم.

المسألة الرابعة: اختلفوا في الحزبين: فقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكًا بعد ملك، فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب. والقول الثاني: قال مجاهد: الحزبان من هذه الفتية لأن أصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا في أنهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف: ١٩] فالحزبان هما هذان، وكان الذين قالوا (ربكم أعلم بما لبثتم) هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. القول الثالث: قال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم.

المسألة الخامسة: قال أبو علي الفارسي قوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾ ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، فأما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق، فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه، بل الصواب أن أحصى فعل ماضٍ وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وأمدًا مفعول به لأحصى، و(ما) في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ مصدرية والتقدير أحصى أمدًا للبثهم، وحاصل الكلام لنعلم أي الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث، ونظيره قوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[المجادلة: ٦] وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[الجن: ٢٨].

المسألة السادسة: احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات، وهو استدلال ظاهر، ونذكر هذه المسألة هاهنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض في الدليل على جواز الكرامات: نفتقر إلى تقديم مقدمتين:

المقدمة الأولى: في بيان أن الولي ما هو؟ فنقول: هاهنا وجهان: الأول: أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير، فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية. الثاني: أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالي عن كل أنواع المعاصي ويديم توفيقه على الطاعات.

واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥] وأقول: الولي هو القريب في اللغة، فإذا كان العبد قريبًا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه، وكان الرب قريبًا منه برحمته وفضله وإحسانه فهناك حصلت الولاية.

المقدمة الثانية: إذا ظهر فعل خارق للعادة على الإنسان فذاك إما أن يكون مقرونًا بالدعوى أو لا مع الدعوى. والقسم الأول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الإلهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين، فهذه أربعة أقسام: القسم الأول: ادعاء الإلهية وجَوَّز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نُقل أن فرعون كان يدعي الإلهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده، وكما نُقل ذلك أيضًا في حق الدجال. قال أصحابنا: وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضي إلى التلبيس. والقسم الثاني: وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لأنه إما أن يكون ذلك المدعي صادقًا أو كاذبًا فإن كان صادقًا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الأنبياء، وإن كان كاذبًا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة. وأما القسم الثالث: وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في أنه هل يجوز أن يدعي الكرامات ثم إنها تحصل على وفق دعواه أم لا. وأما القسم الرابع: وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده، وعند المعتزلة لا يجوز. وأما القسم الثاني: وهو أن تظهر خوارق العادات على يد إنسان من غير شيء من الدعاوى، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحًا مَرضيًّا عند الله، وإما أن يكون خبيثًا مذنبًا. والأول هو القول بكرامات الأولياء، وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة إلا أبا الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي. وأما القسم الثالث: وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودًا عن طاعة الله تعالى، فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام في هاتين المقدمتين: **إذا عرفت ذلك فنقول:** الذي يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والأخبار والآثار والمعقول: **أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات:**

الحجة الأولى: قصة مريم عليها السلام، وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها.

الحجة الثانية: قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين، وأنه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [الكهف: ١٧] ومن الناس من تمسك في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ

أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٣٩] وقد بينا أن ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال. أجاب القاضي عنه بأن قال: لا بد من أن يكون فيهم أو في ذلك الزمان نبي يصير ذلك علمًا له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات. قلنا: إنه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء لأن إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لأن الناس لا يصدقونه في هذه الواقعة؛ لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤوا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين، وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للأولياء وإحسانًا إليهم.

أما الأخبار فكثيرة:

الخبر الأول: ما أخرج في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَصَبِيٌّ فِي زَمَنِ جُرَيْجٍ النَّاسِكِ وَصَبِيٌّ آخَرُ، أَمَّا عِيسَى فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ، وَأَمَّا جُرَيْجٌ فَكَانَ رَجُلاً عَابِدًا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ فَكَانَ يَوْمًا يُصَلِّي إِذِ اشْتَاقَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ يَا رَبِّ الصَّلاَةُ خَيْرٌ أَمْ رُؤْيَتُهَا؟ ثُمَّ صَلَّى فَدَعَتْهُ ثَانِيًا فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ وَكَانَ يُصَلِّي وَيَدَعُهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أُمِّهِ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ، وَكَانَتْ زَانِيَةٌ هُنَاكَ فَقَالَتْ لَهُمْ: أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجًا حَتَّى يَزْنِيَ فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانَ هُنَاكَ راع يأوي بالليل إلى أصل صومعته فَلَمَّا أَعْيَاهَا رَاوَدَتِ الرَّاعِيَ عَلَى نَفْسِهَا فَأَتَاهَا فَوَلَدَتْ ثُمَّ قَالَتْ: وَلَدِي هَذَا مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَاهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَشَتَمُوهُ، فَصَلَّى وَدَعَا ثُمَّ نَخَسَ الْغُلاَمَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ بِيَدِهِ: يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ؟ فَقَالَ: الرَّاعِي. فَنَدِمَ الْقَوْمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ. وَقَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ - فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَبَنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَأَمَّا الصَّبِيُّ الآخَرُ فَإِنَّ امْرَأَةً كَانَ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا تُرْضِعُهُ إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيلٌ ذُو شَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا. فَقَالَ الصَّبِيُّ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ مَرَّتْ بِهَا امْرَأَةٌ ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ وَعُوقِبَتْ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ: إِنَّ الشَّابَّ كَانَ جَبَّارًا مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ قِيلَ إِنَّهَا زَنَتْ وَلَمْ تَزْنِ وَقِيلَ إِنَّهَا سَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ، وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ»(١).

الخبر الثاني: وهو خبر الغار وهو مشهور في (الصحاح) عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَأَوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ وَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ بَابَ الْغَارِ فَقَالُوا: وَاللَّهِ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (واذكر في الكتاب مريم...) (٣/ ١٢٦٨) حديث رقم/ ٣٢٥٣ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٧٦/ ٢٥٥٠) كلاهما من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة... به.

فَنَامَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَوْمًا فَلَمْ أَبْرَحْ عَنْهُمَا، وَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَجِئْتُهُمَا بِهِ فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا، فَقُمْتُ وَالْقَدَحُ فِي يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى ظَهَرَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ هَذَا ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ!! فَانْفَرَجَتِ انْفِرَاجًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ الآخَرُ: كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ وَكَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَرَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي وَأَعْطَيْتُهَا مَالاً عَظِيمًا عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَدِرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لاَ يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَفُكَّ الْخَاتَمَ إِلا بِحَقِّهِ! فَتَحَرَّجْتُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَتَرَكْتُهَا وَتَرَكْتُ الْمَالَ مَعَهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ!! فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ»، قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ وَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرَتِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرَتِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَ ذَلِكَ كُلَّهُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ!! فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ عَنِ الْغَارِ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ» وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه (١).

الخبر الثالث: قوله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ» (٢) ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله.

الخبر الرابع: روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْبَقَرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، وَإِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَتَكَلَّمُ!!» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آمَنْتُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا» (٣).

الخبر الخامس: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسْمَعُ رَعْدًا أَوْ صَوْتًا فِي السَّحَابِ: أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَى تِلْكَ الْحَدِيقَةِ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِيهَا فَقُلْتُ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ. قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِحَدِيقَتِكَ هَذِهِ إِذَا صَرَمْتَهَا؟ قَالَ: وَلِمَ تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي) (٢/ ٧٧١) حديث رقم/ ٢١٠٢ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٩٩) حديث رقم/ ٢٧٤٣ كلاهما من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٢٤/ ٢٦٢٢) وابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ٤٠٣) حديث رقم/ ٦٤٨٣ كلاهما من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. . . به.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة) باب (قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا) (٣/ ١٣٣٩) حديث رقم/ ٣٤٦٣ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٥٧/ ٢٣٨٨) كلاهما من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة. . . به.

قُلْتُ: لِأَنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ فَإِنِّي أَجْعَلُهَا أَثْلَاثًا فَأَجْعَلُ لِنَفْسِي وَأَهْلِي ثُلُثًا وَأَجْعَلُ لِلْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ثُلُثًا وَأُنْفِقُ عَلَيْهَا ثُلُثًا)(١) (أما الآثار): فلنبدأ بما نقل أنه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات، ثم بما ظهر عن سائر الصحابة: أما أبو بكر رضي الله عنه: فمن كراماته أنه لما حُملت جنازته إلى باب قبر النبي ﷺ ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب. فإذا الباب قد انفتح وإذا بهاتف يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب. وأما عمر رضي الله عنه: فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته. **وأحدها:** ما روي أنه بعث جيشًا وأمر عليهم رجلًا يدعى سارية بن الحصين، فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر: يا سارية الجبل الجبل. قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، غَزَوْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي وَقْتِ الْخُطْبَةِ فَهَزَمُونَا، فَإِذَا بِإِنْسَانٍ يَصِيحُ يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، الْجَبَلَ فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ فَهَزَمَ اللَّهُ الْكُفَّارَ وَظَفِرْنَا بِالْغَنَائِمِ الْعَظِيمَةِ بِبَرَكَةِ ذَلِكَ الصَّوْتِ(٢). قلت: سمعت بعض المذكرين قال: كَانَ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «أَنْتُمَا مِنِّي بِمَنْزِلَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ»(٣) فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد ﷺ، لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم.

الثاني: روي أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة، وكان لا يجري حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء، فلما جاء الإسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة إلى عمر، فكتب عمر على خزفة: أيها النيل إن كنت تجري بأمر الله فاجرِ، وإن كنت تجري بأمرك فلا حاجة بنا إليك! فألقيت تلك الخزفة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك.

الثالث: وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال: اسكني بإذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٨/ ٢٩٨٤) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٦/ ٧٩٢٨) كلاهما من طريق وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير الليثي عن أبي هريرة... به.

(٢) إسناده حسن: البيهقي في (الأعتقاد) (١/ ٣١٤) حديث رقم/ ٢٨٩ من طريق ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر... به. وأورده الألباني في (الصحيحة) (١١١٠) وقال: صحيح.

(٣) ضعيف: أخرجه الآجري في (الشريعة) (٣/ ٤٥٢) حديث رقم/ ١٢٩٣ من طريق بقية بن الوليد عن ثور بن يزيد عن عبد الله بن بشر الكندي عن عبد الله بن عمرو بن العاص... به. ورواه أيضا في الحديث رقم/ ١٢٩٤ من طريق ابن الفرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عمر... به. ورواه أيضا برقم/ ١٢٩٥ من طريق سمرة بن حجر قال: حدثني حمزة بن أبي حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر... به. وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٢٠٨٧ من طريق ابن أبي فديك عن المغيرة بن عبد الرحمن عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه عن جده... به. وابن أبي عاصم في (السنة) (٣/ ٢٢٥) حديث رقم/ ١٠٢١ من طريق ثور بن يزيد عن عبد الله بن نسير الكندي عن عبد الله بن عمرو... به. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٢٦٩) وقال: موضوع.

الرابع: وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة: يا نار اسكني بإذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال.

الخامس: روي أن رسول ملك الروم جاء إلى عمر فطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا: ليس له ذلك، وإنما هو في الصحراء يضرب اللبن، فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر رضي الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب، فعجب الرسول من ذلك وقال: إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة! ثم قال في نفسه: إني وجدته خاليًا فأقتله وأخلص الناس منه. فلما رفع السيف أخرج الله من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئًا فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم.

وأقول: هذه الوقائع رويت بالآحاد، وهاهنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات - ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول، لو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لأحد من أول عهد آدم إلى الآن ما تيسر له، فإنه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات.

وأما عثمان رضي الله عنه: فروى أنس قال: سرت في الطريق فرفعت عيني إلى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال: ما لي أراكم تدخلون عليَّ وآثار الزنا ظاهرة عليكم؟ فقلت: أجاء الوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكن فراسة صادقة. **الثاني:** أنه لما طُعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

الثالث: أن جهجاهًا الغفاري انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته، فوقعت الأكلة في ركبته.

وأما علي كرم الله وجهه: فيروى أن واحدًا من محبيه سرق وكان عبدًا أسود فأتى به إلى علي فقال له: أسرقت؟ قال: نعم. فقطع يده فانصرف من عند علي عليه السلام فلقيه سلمان الفارسي وابن الكرا، فقال ابن الكرا: من قطع يدك؟ فقال: أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول. فقال: قَطَع يدك وتمدحه؟ فقال: ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار! فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليًا فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات، فسمعنا صوتًا من السماء: ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فإذا اليد قد برأت بإذن الله تعالى وجميل صنعه.

أما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئًا قليلاً:

الأول: روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحًا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد، فخرج الأسد إليَّ يريدني فقلت: يا أبا الحارث أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! فَتَقَدَّمْ وَدَلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ ثُمَّ

هَمْهَمَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي وَرَجَعَ [(١)].

الثاني: روى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده، وكانت الليلة شديدة الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله.

الثالث: قالوا لخالد بن الوليد: إن في عسكرك من يشرب الخمر. فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلاً على فرس ومعه زق خمر، فقال: ما هذا؟ قال: خل. فقال خالد: اللهم اجعله خلا. فذهب الرجل إلى أصحابه فقال: أتيتكم بخمر ما شربتِ العرب مثلها! فلما فتحوا فإذا هو خل فقالوا: والله ما جئتنا إلا بخل؟ فقال: هذا والله دعاء خالد بن الوليد.

الرابع: الواقعة المشهورة وهي أن خالد بن الوليد أكل كفًّا من السم على اسم الله وما ضره [(٢)].

الخامس: روي أن ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع، فطرد السبع من طريقهم ثم قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء.

السادس: روي أن النبي ﷺ بَعَثَ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فِي غَزَاةٍ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَطْلُوبِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ فَدَعَا بِاسْمِ اللَّهِ الأَعْظَمِ وَمَشَوْا عَلَى الْمَاءِ.

وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها.

وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه:

الحجة الأولى: أن العبد ولي الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] والرب ولي العبد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥] وقال: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١] فثبت أن الرب، ولي العبد وأن العبد ولي الرب، وأيضًا الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. **وإذا ثبت هذا فنقول:** العبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما

---

(١) ذكره الواقدي في (فتوح الشام) (١/ ٢٧٨) قال الواقدي: ولقد حدثني معمر بن رواحة عن القاسم عن خزامة بن عمرو وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١٣/ ١٠٩) حديث رقم/ ٧١٨٦. وأحمد في (فضائل الصحابة) (٢/ ٨١٥) حديث رقم/ ١٤٧٨ والبيهقي في (دلائل النبوة) (٨/ ١٧١) حديث رقم/ ٣٠٣٢ جميعًا من طريق يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر قال: نزل خالد... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٥٨٢) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو متصل ورجالهما ثقات، إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد، والله أعلم.

أمره الله وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد بل هو أَوْلى لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به، فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أَوْلى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠].

الحجة الثانية: لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أن المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله هذه العطية: والأول: قدح في قدرة الله وهو كفر، والثاني: باطل فإن معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله - أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة أو تسخير حية أو أسد، فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفًا في مفازة فأي بعد فيه؟!

الحجة الثالثة: قال النبي ﷺ حكاية عن رب العزة: «مَا تَقَرَّبَ عَبْدٌ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَلِسَانًا وَقَلْبًا وَيَدًا وَرِجْلاً، بِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَمْشِي»[(١)]. وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله ولا في بصرهم ولا في سائر أعضائهم، إذ لو بقي هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره. إذا ثبت هذا فنقول: لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء، فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفًا واحدًا أو شربة ماء في مفازة؟!

الحجة الرابعة: قال عليه السلام حاكيًا عن رب العزة: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[(٢)] فجعل إيذاء الولي قائمًا مقام إيذائه، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾[الأحزاب: ٣٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[الأحزاب: ٥٧] فجعل بيعة محمد ﷺ بيعة مع الله ورضاء محمد ﷺ رضاء الله وإيذاء محمد ﷺ إيذاء الله، فلا جرم كانت درجة محمد ﷺ أعلى الدرجات إلى أبلغ الغايات، فكذا هاهنا لما قال: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ» دل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولي قائمًا مقام إيذاء نفسه، ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة: «مَرِضْتَ فَلَمْ تَعُدْنِي، اسْتَسْقَيْتُكَ فَمَا سَقَيْتَنِي، اسْتَطْعَمْتُكَ فَمَا أَطْعَمْتَنِي فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟!»[(٣)] وكذا في السقي والإطعام.

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (التواضع) (٥/ ٢٣٨٤) حديث رقم/ ٦١٣٧ من طريق عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة... به.

(٢) انظر سابقه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٩٠/ ٢٥٦٩) من طريق ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة... به.

فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات، فأي بعد في أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلبًا أو وردًا؟

الحجة الخامسة: أنا نشاهد في العرف أن من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له في الدخول عليه في مجلس الأنس، فقد يخصه أيضًا بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره، بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فإنه يتبعه هذه المناصب، فجعل القرب أصلاً والمنصب تبعًا، وأعظم الملوك هو رب العالمين فإذا شَرَّف عبدًا بأنه أوصله إلى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورَفَع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه، فأي بُعد في أن يُظهر بعض تلك الكرامات في هذا العالم مع أن كل هذا العالم بالنسبة إلى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض.

الحجة السادسة: لا شك أن المتولي للأفعال هو الروح لا البدن، ولا شك أن معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه في تفسير قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النمل: ٢٠] وقال عليه السلام: «أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي» ولهذا المعنى نرى أن كل من كان أكثر علمًا بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلبًا وأقل ضعفًا؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية. وذلك لأن عليًّا كرم الله وجهه في ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الأجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الأرواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة، فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره، وكذلك العبد إذا واظب على الطاعات بلغ إلى المقام الذي يقول الله: كنت له سمعًا وبصرًا. فإذا صار نور جلال الله سمعًا له سمع القريب والبعيد، وإذا صار ذلك النور بصرًا له رأى القريب والبعيد، وإذا صار ذلك النور يدًا له قدر على التصرف في الصعب والسهل والبعيد والقريب.

الحجة السابعة: وهي مبنية على القوانين العقلية الحكمية، وهي أنا قد بينا أن جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السماوات ونوع المقدسين المطهرين، إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره صار في ذلك الاستغراق إلى حيث نسي الوطن الأول والمسكن المتقدم، وصار بالكلية متشبهًا بهذا الجسم الفاسد، فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شيء من الأفعال، أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها في تدبير هذا البدن، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة، وفاضت عليها من تلك الأنوار، قويت على التصرف في أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال، وذلك هو الكرامات، وفيه دقيقة أخرى وهي أن مذهبنا أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة، وفيها النورانية والكدرة، وفيها الحرة والنذلة، والأرواح الفلكية أيضًا كذلك، ألا ترى إلى جبريل

كيف قال الله في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] وقال في قوم آخرين من الملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦] فكذا هاهنا فإذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية، القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة، ثم انضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد، أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف في هيولي عالم الكون والفساد بإعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة. ولنقبض هاهنا عنان البيان فإن وراءها أسرارًا دقيقة وأحوالاً عميقة من لم يصل إليها لم يصدق بها، ونسأل الله الإعانة على إدراك الخيرات.

واحتج المنكرون للكرامات بوجوه:

الشبهة الأولى: - وهي التي عليها يعولون وبها يضلون - أن ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلاً على النبوة فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة؛ لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلاً، وذلك باطل.

والشبهة الثانية: تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه: «لَنْ يَتَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ» قالوا: هذا يدل على أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب إليه بأداء النوافل، ثم إن المتقرب إليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات فالمتقرب إليه بأداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك.

الشبهة الثالثة: تمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] والقول بأن الولي ينتقل من بلد إلى بلد بعيد لا على الوجه طَعْن في هذه الآية، وأيضًا أن محمدًا ﷺ لم يصل من مكة إلى المدينة إلا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال: إن الولي ينتقل من بلد نفسه إلى الحج في يوم واحد.

الشبهة الرابعة: قالوا: هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات إذا ادعى على إنسان درهمًا فهل نطالبه بالبينة أم لا؟ فإن طالبناه بالبينة كان عبثًا لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب، ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»(١) فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل.

الشبهة الخامسة: إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقًا للعادة، وذلك يقدح في المعجزة والكرامة.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٣/ ٦٢٦) حديث رقم/ ١٣٤١ من طريق محمد بن عبيد الله عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. . . به. وقال: هذا حديث في إسناده مقال، ومحمد بن عبيد الله العزرمي يضعف في الحديث من قبل حفظه، ضعفه ابن المبارك وغيره. والدارقطني في (سننه) (٤/ ١٥٧/ ٨) من طريق الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. . . به. ورواه الشافعي في (مسنده) (١/ ١٩١) من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس. . . به.

والجواب: عن الشبهة الأولى: أن الناس اختلفوا في أنه هل يجوز للولي دعوى الولاية؟ فقال قوم من المحققين: إن ذلك لا يجوز، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية، والسبب في هذا الفرق أن الأنبياء عليهم السلام إنما بُعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة، فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر، وإذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم، فإقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان، أما ثبوت الولاية للولي فليس الجهل بها كفرًا ولا معرفتها إيمانًا، فكان دعوى الولاية طلبًا لشهوة النفس، فعلمنا أن النبي يجب عليه إظهار دعوى النبوة والولي لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق.

أما الذين قالوا: يجوز للولي دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه:

الأول: أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرأً عن المعصية، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقًا في دعوى النبوة، وإن اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقًا في دعوى الولاية، وبهذا الطريق لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعنًا في معجزات الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: أن النبي ﷺ يدعي المعجزة ويقطع بها، والولي إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لأن المعجزة يجب ظهورها، أما الكرامة (فـ) لا يجب ظهورها.

الثالث: أنه يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة.

الرابع: أنا لا نُجوز ظهور الكرامة على الولي عند ادعاء الولاية إلا إذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبي، ومتى كان الأمر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبي ومؤكدة لرسالته، وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعنًا في نبوة النبي بل يصير مقويًا لها.

والجواب عن الشبهة الثانية: أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل؛ أما الولي فإنما يكون وليًا إذا كان آتيًا بالفرائض والنوافل، ولا شك أنه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق.

والجواب على الشبهة الثالثة: أن قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] محمول على المعهود المتعارف، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم. وهذا هو

الجواب عن الشبهة الرابعة: وهي التمسك بقوله عليه السلام: «البينة على المدعي».

والجواب عن الشبهة الخامسة: أن المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وكما قال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن

ما يظهر عليهم من الكرامات في الأوقات النادرة قادحًا في كونها على خلاف العادة.

المسألة السابعة: في الفرق بين الكرامات والاستدراج، اعلم أن من أراد شيئًا فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهًا عند الله تعالى، سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة، بل قد يكون ذلك إكرامًا للعبد وقد يكون استدراجًا له، ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة من القرآن:

أحدها: الاستدراج، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله، كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله، وتحقيقه أنه ثبت في العلوم العقلية أن تكرر الأفعال سبب لحصول الملكة الراسخة، فإذا مال قلب العبد إلى الدنيا ثم أعطاه الله مراده، فحينئذٍ يصل الطالب إلى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة، وحصول اللذة يزيد في الميل، وحصول الميل يوجب مزيد السعي، ولا يزال يتأدى كل واحد منهما إلى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة، ومعلوم أن الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف، فلا جرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة إلى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج.

وثانيها: المكر، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وثالثها: الكيد، قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

ورابعها: الإملاء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وخامسها: الإهلاك، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال في فرعون: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠] فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات. بقي علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات فنقول: إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى، فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه، ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقًا لها وحينئذٍ يستحقر غيره ويتكبر عليه، ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة، فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجًا لا كرامة؛ فلهذا المعنى قال المحققون: أكثر ما اتفق من الانقطاع عن

حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات. فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء.

والذي يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه:

الحجة الأولى: أن هذا الغرور إنما يحصل إذا اعتقد الرجل أنه مستحق لهذ الكرامة لأن بتقدير أن لا يكون مستحقًا لها امتنع حصول الفرح بها، بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه، فثبت أن الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه، وثبت أن الفرح بالكرامة لا يحصل إلا إذا اعتقد أنه أهل ومستحق لها، وهذا عين الجهل لأن الملائكة قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وأيضًا قد ثبت بالبرهان اليقيني أنه لا حق لأحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق؟!

الحجة الثانية: أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه، فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق، والفرح بغير الحق حجاب عن الحق، والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور؟!

الحجة الثالثة: أن من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقًا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه، ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلاً، ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير، وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور، وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل. رأيت في بعض الكتب أنه قرأ المقرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فقال: علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى (ذكره) عندك، فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع، وإن لم يبق معك فهو مرفوع مقبول.

الحجة الرابعة: أن صاحب الكرامة إنما وجد الكرامة لإظهار الذل والتواضع في حضرة الله، فإذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل إلى الكرامات، فهذا طريق ثبوته يؤديه إلى عدمه فكان مردودًا، ولهذا المعنى لما ذكر النبي ﷺ مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها (ولا فخر) يعني لا أفتخر بهذه الكرامات وإنما أفتخر بالمُكرم والمعطي.

الحجة الخامسة: أن ظاهر الكرامات في حق إبليس وفي حق بلعام كان عظيمًا ثم قيل لإبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقيل لبلعام ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقيل لعلماء بني إسرائيل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] وقيل أيضًا في حقهم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] فبيّن أن وقوعهم في الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد.

الحجة السادسة: أن الكرامة غير المكرم، وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل، وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل، ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه: (أما إليك فلا)، فالاستغناء

بالفقير فقر والتقوّي بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والإقبال بالكلية على الحق خلاص، فثبت أن الفقير إذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته. أما إذا كان لا يشاهد في الكرامات إلا المُكرم ولا في الإعزاز إلا المُعز ولا في الخلق إلا الخالق، فهناك يحق الوصول.

الحجة السابعة: أن الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات إبليس وفرعون، قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] وكل من ادعى الإلهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض إلا تزيين النفس وتقوية الحرص والعُجْب، ولهذا قال عليه السلام: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ...»، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: «وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بنفسه» (١).

الحجة الثامنة: أنه تعالى قال: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية.

الحجة التاسعة: أن النبي ﷺ لَمَّا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، تَرَكَ الْمُلْكَ (٢)، ولا شك أن وجدان المُلك الذي يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات، ثم إنه ﷺ ترك ذلك الملك واختار العبودية؛ لأنه إذا كان عبدًا كان افتخاره بمولاه، وإذا كان ملكًا كان افتخاره بعبيده، فلما اختار العبودية لا جرم جعل السنة التي في التحيات التي رواها ابن مسعود (وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) (٣) وقيل في المعراج: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٥/ ٣٢٨) حديث رقم/ ٥٤٥٢ من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعرة قال حدثنا حميد بن الحكم الجرشي قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك... به. ورواه أيضًا في (٦/ ٤٧) حديث رقم/ ٥٧٥٤ من طريق الوليد بن عبد الواحد التميمي عن ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عمر... به. ورواه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٢١٣) حديث رقم/ ٣٢٤ من طريق علي بن عبد العزيز حدثنا حجاج حدثنا حماد عن عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة... به. ورواه أيضًا (١/ ٢١٥) حديث رقم/ ٣٢٦ من طريق أحمد بن يونس حدثنا أيوب بن عتيبة حدثنا الفضل بن بكر العبدي حدثنا قتادة عن أنس بن مالك... به. والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٤٧١) حديث رقم/ ٧٤٥ من طريق أحمد بن يونس حدثنا أيوب بن عتبة عن الفضل بن بكر عن قتادة عن أنس... به. ورواه أيضًا في (٥/ ٤٥٢) حديث رقم/ ٧٢٥٢ من طريق عبيد الله بن محمد حدثني بكر بن سليم الصواف عن أبي حازم عن الأعرج عن أبي هريرة... به. وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٣٠٥٠) وقال: حسن.

(٢) **حسن**: أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ١٧١) حديث رقم/ ٦٧٤٣ والبيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٤٩) حديث رقم/ ١٣١٠٥ كلاهما من طريق الزبيدي قال: حدثني الزهري عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث... فذكره. ورواه أبو الشيخ في (العظمة) (٢/ ٧٠٠/ ٣٠) من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس... به.

(٣) مسلم في (صحيحه) (١/ ٢١٠/ ٢٣٤) من طريق جبير من تغير بين مالك الحضرمي عن عقبة بن عامر الجهني... به.

الحجة العاشرة: أن محب المولى غير، ومحب ما للمولى غير، فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى، فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على أنه ما كان محبًا للمولى بل كان محبًا لنصيب نفسه، ونصيب النفس إنما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب إلا نفسه، وما كان المولى محبوبًا له بل جعل المولى وسيلة إلى تحصيل ذلك المطلوب. والصنم الأكبر، هو النفس كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]فهذا الإنسان عابد للصنم الأكبر حتى أن المحققين قالوا: لا مضرة في عبادة شيء من الأصنام مثل المضرة الحاصلة في عبادة النفس، ولا خوف من عبادة الأصنام كالخوف من الفرح بالكرامات.

الحجة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شيء من هذه الأفعال والأحوال.

المسألة الثامنة: في أن الولي هل يعرف كونه وليًا؟ قال الأستاذ أبو بكر بن فورك: لا يجوز. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيري: يجوز. **وحجة المانعين وجوه:**

الحجة الأولى: لو عرف الرجل كونه وليًا لحصل له الأمن بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]لكن حصول الأمن غير جائز، ويدل عليه وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]واليأس أيضًا غير جائز لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]والمعنى فيه أن الأمن لا يحصل إلا عند اعتقاد العجز، واليأس لا يحصل إلا عند اعتقاد البخل، واعتقاد العجز والبخل في حق الله كفر، فلا جرم كان حصول الأمن والقنوط كفرًا. الثاني: أن الطاعات وإن كثرت إلا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالبًا لا يحصل الأمن. الثالث: أن الأمن يقتضي زوال العبودية، وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة، والأمن يقتضي ترك الخوف. الرابع: أنه تعالى وصف المخلصين بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]قيل: رغبًا في ثوابنا، ورهبًا من عقابنا. وقيل: رغبًا في فضلنا، ورهبًا من عدلنا. وقيل رغبًا في وصالنا، ورهبًا من فراقنا. والأحسن أن يقال: رغبًا فينا، ورهبًا منا.

الحجة الثانية: **على أن الولي لا يعرف كونه وليًا**: أن الولي إنما يصير وليًا لأجل أن الحق يحبه لا لأجل أنه يحب الحق، وكذلك القول في العدو، ثم إن محبة الحق وعداوته سران لا يطلع عليهما أحد، فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر في محبة الحق وعداوته لأن الطاعات والمعاصي محدثة، وصفات الحق قديمة غير متناهية، والمحدث المتناهي لا يصير غالبًا للقديم غير المتناهي. وعلى هذا التقدير فربما كان العبد في الحال في عين المعصية إلا أن نصيبه من الأزل عين المحبة. وربما كان العبد في الحال في عين الطاعة ولكن نصيبه من الأزل عين

العداوة، وتمام التحقيق أن محبته وعداوته صفة، وصفة الحق غير معللة، ومن كانت محبته لا لعلة، فإنه يمتنع أن يصير عدوًّا بعلة المعصية، ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع أن يصير محبًّا لعلة الطاعة، ولما كانت محبة الحق وعداوته سرين لا يطلع عليهما، لا جرم قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

الحجة الثالثة: على أن الولي لا يعرف كونه وليًا: أن الحكم بكونه وليًّا وبكونه من أهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ولم يقل (مَن عمل حسنة فله عشر أمثالها)، وهذا يدل على أن استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل، والذي يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره في الكفر ثم أسلم في آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد، وهذا دليل على أن العبرة بالخاتمة لا بأول العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فثبت أن العبرة في الولاية والعداوة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة، فظهر أن الخاتمة غير معلومة لأحد، فوجب القطع بأن الولي لا يعلم كونه وليًّا.

أما الذين قالوا إن الولي قد يعرف كونه وليًا: فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان. أحدهما: كونه في الظاهر منقادًا للشريعة. الثاني: كونه في الباطن مستغرقًا في نور الحقيقة، فإذا حصل الأمران وعرف الإنسان حصولهما عرف لا محالة كونه وليًا، أما الانقياد في الظاهر للشريعة فظاهر، وأما استغراق الباطن في نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله، وأن لا يكون له استقرار مع شيء سوى الله. والجواب: أن تداخل الأغلاط في هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر، والتجربة خطر، والجزم غرور، ودون الوصول إلى عالم الربوبية أستار، تارة من النيران، وأخرى من الأنوار، والله العالم بحقائق الأسرار، ولنرجع إلى التفسير.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ⑬ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ⑭ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑮﴾

اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي على وجه الصدق: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله، ثم قال تعالى في صفاتهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ألهمناها الصبر وثبتناها: ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ وفي هذا القيام أقوال: الأول: قال مجاهد: كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال

رجل منهم أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئًا ما أظن أن أحدًا يجده، قالوا: ما تجد؟ قال أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض. القول الثاني: أنهم قاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار، وقالوا: ربنا رب السماوات والأرض، وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبَّت الله هؤلاء الفتية، وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار، وأقروا بربوبية الله، وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والأنداد. والقول الثالث: - وهو قول عطاء ومقاتل - أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم. وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ معنى الشطط في اللغة مجاوزة الحد، قال الفراء: يقال: قد أشط في السوم إذا جاوز الحد، ولم يُسمع إلا أشط يُشط إشطاطًا وشططًا، وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط إذا جاوز الحد، ومنه قوله: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢] وأصل هذا من قولهم: (شطت الدار) إذا بعدت، فالشطط البعد عن الحق، وهو هاهنا منصوب على المصدر، والمعنى: لقد قلنا إذًا قولاً شططًا. أما قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ هذا من قول أصحاب الكهف، ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الأصنام ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ - هلا يأتون - ﴿عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجة بينة، ومعنى (عليهم) أي على عبادة الآلهة، ومعنى الكلام أن عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول، ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول، ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية فقال: إنه تعالى استدل على عدم الشركاء والأضداد بعدم الدليل عليها فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية. ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني أن الحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه، وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفراء: هو جواب (إذ) كما تقول: إذ فعلت كذا فافعل كذا، ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يبسطها عليكم: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية (مَرفِقًا) بفتح الميم وكسر الفاء والباقون (مِرفَقًا) بكسر الميم وفتح الفاء، قال الفراء: وهما لغتان واشتقاقهما

من الارتفاق. وكان الكسائي ينكر في مرفق الإنسان الذي في اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء، والفراء يجيزه في الأمر وفي اليد وقيل: هما لغتان إلا أن الفتح أقيس والكسر أكثر، وقيل: المِرفق ما ارتفقت به، والمَرفق بالفتح المرافق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قرأ ابن عامر (تَزْوَرُّ) ساكنة الزاي المعجمة مشددة الراء مثل تَحْمَرُّ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (تَزَاور) بالألف والتخفيف والباقون (تَزَّاور) بالتشديد والألف والكل بمعنى واحد، والتزاور هو الميل والانحراف، ومنه زاره: إذا مال إليه والزور الميل عن الصدق، وأما التشديد فأصله تتزاور سُكنت التاء الثانية وأُدغمت في الزاي، وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تَزْوَرُّ فهو من الازورار.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ أي أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم، وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى، ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو، ومعناه أنك لو رأيته على هذه الصورة.

البحث الثالث: قوله: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمين وأصله أن (ذات) صفة أقيمت مقام الموصوف لأنها تأنيث (ذو) في قولهم: رجل ذو مال، وامرأة ذات مال، والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين.

وأما قوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ **ففيه بحثان:**

البحث الأول: قال الكسائي: (قرضت المكان) أي عدلت عنه. وقال أبو عبيدة: القرض في أشياء فمنها القطع، وكذلك السير في البلاد أي إذا قطعها. تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب: إنما قرضته. فقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال.

البحث الثاني: للمفسرين هاهنا قولان: القول الأول: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهي مصونة عن العفونة والفساد. والقول الثاني: أنه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع. وكذا القول حال غروبها، وكان ذلك فعلًا خارقًا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف، وهذا قول الزجاج، واحتج على صحته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمرًا معتادًا مألوفًا فلم يكن ذلك من آيات الله، وأما إذا حملنا الآية على هذا الوجه الثاني

كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله. واعلم أنه تعالى أخبر بعد ذلك أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء، قال: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي من الكهف، والفجوة متسع في مكان، قال أبو عبيدة: وجمعها فجوات، ومنه الحديث: «فإذا وَجَدَ فَجْوَةَ نَصَّ» ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: الذين قالوا: إنه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته. قالوا: المراد من قوله ذلك: أي ذلك التزاور والميل. والذين لم يقولوا به قالوا: المراد بقوله ذلك: أي ذلك الحفظ الذي حفظهم الله في الغار تلك المدة الطويلة - من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته. ثم بَيَّن تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصونًا عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه، فكذلك رجوعهم أولاً عن الكفر ورغبتهم في الإيمان كان بإعانة الله ولطفه فقال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مثل أصحاب الكهف: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ كدقيانوس الكافر وأصحابه، ومناظرات أهل الجبر والقدر في هذه الآية معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن معنى قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ على ما ذكرناه في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ [الكهف: ١٧] أي لو رأيتهم لحسبتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ وهو جمع يقظ ويقظان، قاله الأخفش وأبو عبيدة والزجاج، وأنشدوا لرؤبة:

وَوَجَدُوا إِخْوَانَهُمْ أَيْقَاظَا

ومثله قوله: نَجِد ونَجْدان وأنجاد، وهم رقود أي نائمون وهو مصدر سمي المفعول به، كما يقال: قوم ركوع وقعود وسجود، يوصف الجمع بالمصدر، ومن قال: (إنه جمع راقد) فقد أبعد لأنه لم يجمع فاعل على فُعول، قال الواحدي: وإنما يُحسبون ﴿أَيْقَاظًا﴾ لأن أعينهم مفتحة وهم نيام، وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم يظن أنهم أيقاظ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ واختلفوا في مقدار مدة التقليب: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن لهم في كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على أيمانهم تسع سنين ثم يُقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودًا تسع سنين وقيل: لهم تقليبة واحدة في يوم عاشوراء. وأقول: هذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها، ولفظ القرآن لا يدل عليه، وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يُعرف؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم. وأقول: هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر، فلمَ لا يقدر على حفظ

أجسادهم أيضًا من غير تقليب؟! وقوله: ﴿وَذَاتَ﴾ منصوبة على الظرف لأن المعنى ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في ناحية ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ أو على ناحية ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا إنهم هربوا ليلاً من مَلِكهم، فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه. وقال كعب: مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارًا، فقال لهم الكلب: ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم. وقال عبيد بن عمير: كان ذلك كلب صيدهم. ومعنى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي يلقيهما على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين، ومنه الحديث في الصلاة: «أَنَّهُ نَهَى عَنِ افْتِرَاشِ السَّبُعِ» وقال: «لاَ تَفْتَرِشْ ذِرَاعَيْكَ افْتِرَاشَ السَّبُعِ» قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ يعني فناء الكهف، قال الزجاج: الوصيد فناء البيت وفناء الدار، وجمعه وصائد ووصد، وقال يونس والأخفش والفراء: الوصيد والأصيد لغتان مثل الوكاف والإكاف. وقال السدي: (بِالْوَصِيدِ) الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت، ثم قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أشرفت عليهم، يقال: اطلعت عليهم أي أشرفت عليهم، ويقال: أطلعت فلانًا على الشيء فاطلع. وقوله: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ قال الزجاج: قوله: ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم: فررت: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي فزعًا وخوفًا، قيل في التفسير: طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام، فلهذا السبب لو رآهم الرائي لهرب منهم مرعوبًا، وقيل: إنه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعًا شديدًا، فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به. وهذا هو الأصح وقوله: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قرأ نافع وابن كثير: (لملِّئت) بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام، وروي عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة، قال الأخفش: الخفيفة أجود في كلام العرب، يقال: ملأتني رعبًا، ولا يكادون يعرفون ملأَّتني، ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله:

فَيَمْلأُ بَيْتَنَا أقِطًا وَسَمْنًا (١)

وقول الآخر:

وَمِنْ مالاً عَيْنَيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبِيضِ كَالدُّمَى(٢)

---

(١) هذا أول البيت لعمرو بن قميئة والبيت هكذا:

فَتَمْلأُ بَيْتَنَا أَقِطًا وَسَمْنًا وَحسبُكَ مِن غِنًى شَبعٌ وَرِيُ

وعمرو بن قميئة وهو بن ذريح بن سعد بن مالك الثعلبي البكري الوائلي النزاري. ١٧٩ - ٨٥ ق هـ/ ٤٤٨ - ٥٤٠ م شاعر جاهلي مقدم، نشأ يتيمًا وأقام في الحيرة مدة وصحب حُجرًا أبا امرئ القيس الشاعر، وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلى قيصر فمات في الطريق فكان يقال له (الضائع).

(٢) البيت للشاعر عمر بن أبي ربيعة، وقد تقدمت ترجمته.

وقال الآخر:

لاَ تَـمْـلأِ الـدَّلْـوَ وَعَـرِّقْ فِـيـهَـا [١]

وقال الآخر:

امْـتَـلأَ الْـحَـوْضُ وَقَـالَ قَـطْـنِـي

وقد جاء التثقيل أيضًا، وأنشدوا للمخبل السعدي:

وَإِذْ قَتَلَ النُّعْمَانُ بِالنَّاسِ مُحْرِمًا فَمُلِّئَ مِنْ عَوْفِ بْنِ كَعْبٍ سَلاَسِلُهْ

وقرأ ابن عامر والكسائي (رعُبًا) بضم العين في جميع القرآن والباقون بالإسكان.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

اعلم أن التقدير: وكما زدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم، فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساؤل تنازع واختلاف في مدة لبثهم. فإن قيل: هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا؟ قلنا: لا يبعد ذلك لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ ﴾ أي كم مقدار لبثنا في هذا الكهف: ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ ﴾ قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار؛ فلذلك قالوا: (لبثنا يومًا) فلما رأوا الشمس باقية قالوا: (أو بعض يوم)، ثم قال تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾، قال ابن عباس: هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك إلى الله تعالى؛ لأنه لما نظر إلى أشعارهم وأظفارهم وبشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعَلِم أن مثل ذلك التغير لا يحصل إلا في الأيام الطويلة. ثم قال: ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم (بورْقكم) ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ (ها) مكسورة الواو ساكنة الراء، وقرأ ابن كثير (بورقكم) بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف في الكاف، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه، والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا، ويدل عليه ما روي أن

(١) هذا البيت للمخبل السعدي، وقد تقدمت ترجمته.

عرفجة اتخذ أنفًا من ورق، وفيه لغات: وَرِق ووَرْق ووِرْق مثل كَبِد وكَبْد وكِبْد، ذكره الفراء والزجاج قال الفراء: وكسر الواو أردؤها. ويقال أيضًا للورق الرقة، قال الأزهري: أصله وَرَق مثل صلة وعدة.

قال المفسرون: كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم يعني بالمدينة التي يقال لها اليوم طرسوس، وهذه الآية تدل على أن السعي في إمساك الزاد أمر مهم مشروع وأنه لا يبطل التوكل. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾. قال ابن عباس: يريد ما حل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوسًا وفيهم قوم يخفون إيمانهم. وقال مجاهد: كان ملكهم ظالمًا، فقولهم: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ يريدون أيها أبعد عن الغصب، وقيل: أيها أطيب وألذ، وقيل: أيها أرخص، قال الزجاج: قوله: ﴿أَيُّهَا﴾ رفع بالابتداء، و ﴿أَزْكَىٰ﴾ خبره و ﴿طَعَامًا﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي يكون ذلك في سر وكتمان، يعني دخول المدينة وشراء الطعام ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يُخبرن بمكانكم أحدًا من أهل المدينة: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا ويُشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم، من قولهم: (ظهرت على فلان) إذا علوته و(ظهرت على السطح) إذا صرت فوقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾[الصف: ١٤] أي عالين، وكذلك قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[التوبة: ٣٣] أي ليعليه. وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم، والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل، كقوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾[هود: ٩١] وقوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾[الدخان: ٢٠] وأصله الرمي، قال الزجاج: أي يقتلوكم بالرجم، والرجم أخبث أنواع القتل: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي يردوكم إلى دينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة. قال الزجاج: قوله: ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ يدل على الشرط، أي ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبدًا. قال القاضي: ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين: فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر. فإن قيل: أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر حتى إنهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة؟ فكيف قالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه، بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة، فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ

كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

اعلم أن المعنى: كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم، وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة، فكذلك أعثرنا عليهم أي أطلعنا غيرهم على أحوالهم، يقال: عثرت على كذا أي علمته وقالوا: إن أصل هذا أن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه فعرفه، فكان العثار سببًا لحصول العلم والتبين فأطلق اسم السبب على المسبب. واختلفوا في السبب الذي لأجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين: الأول: أنه طالت شعورهم وأظفارهم طولاً مخالفًا للعادة، وظهرت في بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على أن مدتهم قد طالت طولاً خارجًا عن العادة. والثاني: أن ذلك الرجل لما دخل إلى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام، قال صاحب الطعام: هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم، وإنها كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر، فلعلك وجدت كنزًا. واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل إلى ملك البلد فقال الملك: من أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال: بعت بها أمس شيئًا من التمر، ذوخرجنا فرارًا من الملك دقيانوس. فعرف ذلك الملك أنه ما وجد كنزًا وأن الله بعثه بعد موته. ثم قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني أنا إنما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم أن وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر، روي أن ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفًا، فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك، وقيل: بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان فقال بعضهم: الجسد والروح يُبعثان جميعًا. وقال آخرون: الروح تُبعث، وأما الجسد فتأكله الأرض. ثم إن ذلك الملك كان يتضرع إلى الله أن يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في هذه المسألة، فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف، فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للأجساد؛ لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يُبعث. فقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ متعلق بأعثرنا، أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم. واختلفوا في المراد بهذا التنازع فقيل: كانوا يتنازعون في صحة البعث، فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته، وقالوا: كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين، فكذلك يقدر على حشر الأجساد بعد موتها. وقيل: إن الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم إلى كهفهم فأماتهم الله، فعند هذا اختلف الناس: فقال قوم: إنهم نيام كالكَرَّة الأولى. وقال آخرون: بل الآن ماتوا. والقول الثالث: أن بعضهم قال: الأَوْلى أن يُسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحدٌ ولا يقف على أحوالهم إنسان. وقال آخرون: بل الأَوْلى أن يبنى على باب الكهف مسجد. وهذا القول يدل على أن أولئك الأقوام كانوا

عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة. والقول الرابع: أن الكفار قالوا: إنهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنيانًا، والمسلمون قالوا: كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجدًا. والقول الخامس: أنهم تنازعوا في قدر مكثهم. والسادس: أنهم تنازعوا في عددهم وأسمائهم.

ثم قال تعالى: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ . **وهذا فيه وجهان:**

أحدهما: أنه من كلام المتنازعين، كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم.

الثاني: أن هذا من كلام الله تعالى ذكره ردًا للخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ قيل: المراد به الملك المسلم، وقيل: أولياء أصحاب الكهف، وقيل: رؤساء البلد: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ نعبد الله فيه ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. **ثم قال تعالى:** ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ عائد إلى المتنازعين. روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيًا: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطوريًا: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

قال أكثر المفسرين: هذا الأخير هو الحق ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك (جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف) ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا: إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، وأنهم قالوا قولاً متقررًا متحققًا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس.

الوجه الثاني: قالوا: إنه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو، فوجب أن تحصل به فائدة زائدة صونًا للفظ عن التعطيل، وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال: المراد منها تخصيص هذا القول بالإثبات والتصحيح.

الوجه الثالث: أنه تعالى أتبع القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه، فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الأولان، وأن يكون القول الثالث مخالفًا لهما في كونهما رجمًا بالظن.

والوجه الرابع: أنه تعالى لما حكى قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قال بعده: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فإتباع القولين الأولين بكونهما رجمًا بالغيب وإتباع هذا

القول الثالث بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ يدل على أن هذا القول ممتاز عن القولين الأولين بمزيد القوة والصحة.

والوجه الخامس: أنه تعالى قال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وهذا يقتضي أنه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل، وكل من قال من المسلمين قولاً في هذا الباب قالوا: إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول. كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: كانوا سبعة وأسماؤهم هذا: يمليخا، مكسلمينا، مسلثينا، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوس، ودبرنوس، وسادنوس، وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في مهماته، والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم، واسم كلبهم قطمير، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: أنا من ذلك العدد القليل. وكان يقول: إنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

الوجه السادس: أنه تعالى لما قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ والظاهر أنه تعالى لما حكى الأقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل؛ لأنه يبعد أنه تعالى ذكر الأقوال الباطلة ولم يذكر ما هو الحق، فثبت أن جملة الأقوال الحقة والباطلة ليست إلا هذه الثلاثة، ثم خص الأولين بأنهما رجم بالغيب، فوجب أن يكون الحق هو هذا الثالث.

الوجه السابع: أنه تعالى قال لرسوله؛ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم في هذا الباب، وهذا إنما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة، وأيضًا أنه تعالى قال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ ويبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبي ولا يحصل للنبي، فعلمنا أن العلم بهذه الواقعة حصل للنبي عليه السلام، والظاهر أنه لم يحصل ذلك العلم إلا بهذا الوحي؛ لأن الأصل فيما سواه العدم، وأن يكون الأمر كذلك فكان الحق هو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾.

واعلم أن هذه الوجوه وإن كان بعضها أضعف من بعض إلا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام، والله أعلم. **بقي في الآية مباحث.**

البحث الأول: في الآية حذف والتقدير: (سيقولون هم ثلاثة) فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه.

البحث الثاني: خص القول الأول بسين الاستقبال، وهو قوله: (سيقولون)، والسبب فيه أن حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه.

البحث الثالث: الرجم هو الرمي، والغيب ما غاب عن الإنسان، فقوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ معناه أن يرى ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة، يقال: فلان يرمي بالكلام رميًا، أي يتكلم من غير تدبر.

البحث الرابع: ذكروا في فائدة الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وجوهًا: الوجه الأول: ما ذكرنا أنه يدل على أن هذا القول أَوْلى من سائر الأقوال. وثانيها: أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظًا يدل على الاستئناف، فقالوا (وثمانية)، فجاء هذا الكلام على هذا القانون، قالوا: ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وقوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] هو العدد الثامن مما تقدم، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية، ومعناه ما ذكرناه، قال القفال: وهذا ليس بشيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الواو في النعت الثامن، ثم قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا هو الحق؛ لأن العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التي حدثت في الماضي والمستقبل لا تحصل إلا عند الله تعالى، وإلا عند من أخبره الله عنها، وقال ابن عباس: أنا من أولئك القليل. قال القاضي: إن كان قد عرفه ببيان الرسول صح، وإن كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف، ويمكن أن يقال: الوجوه السبعة المذكورة وإن كانت لا تفيد الجزم إلا أنها تفيد الظن. واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين: عن المراء والاستفتاء: أما النهي عن المراء فقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد، بل يقول: هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف وترك القطع. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وأما النهي عن الاستفتاء فقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، وذلك لأنه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم.

واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا: لأن قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل: ظنًّا بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا: (رجم بالظن) مكان قولهم ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قوله:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ (١)

أي المظنون، هكذا قاله صاحب الكشاف، وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله، ثم إنه تعالى لما ذم هذه الطريقة رَتَّب عليه من استفتاء هؤلاء الظانين، فدل ذلك على أن الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله. وجواب مثبتي القياس عنه قد ذكرناه مرارًا.

---

(١) هذا الشطر الثاني من بيت لقصيدة من البحر الطويل للشاعر زهير بن أبي سُلمى، وقد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: إن القوم لما سألوا النبي ﷺ عن المسائل الثلاثة، قال عليه السلام: «أجيبكم عنها غدًا» ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي خمسة عشر يومًا وفي رواية أخرى أربعين يومًا، ثم نزلت هذه الآية. اعترض القاضي على هذا الكلام من وجهين: الأول: أن رسول الله ﷺ كان عالمًا بأنه إذا أخبر عن أنه سيفعل الفعل الفلاني غدًا فربما جاءته الوفاة قبل الغد، وربما عاقه عائق آخر عن الإقدام على ذلك الفعل غدًا، وإذا كان كل هذه الأمور محتملاً، فلو لم يقل إن شاء الله ربما خرج الكلام مخالفًا لما عليه الوجود، وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه السلام، أما إذا قال (إن شاء الله) كان محترزًا عن هذا المحذور، وإذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشيء ولم يقل فيه إن شاء الله. الثاني: أن هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب. ويمكن أن يجاب عن الأول: أنه لا نزاع أن الأَوْلى أن يقول (إن شاء الله) إلا أنه ربما اتفق له أنه نسي هذا الكلام لسبب من الأسباب فكان ذلك من باب ترك الأولى والأفضل، وأن يجاب عن الثاني أن اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدًا منها.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا، وفيه قولان: الأول: التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن يأذن لك في ذلك القول، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك أنك تفعل الفعل الفلاني إلا إذا أذن الله لك في ذلك الإخبار. القول الثاني: أن يكون التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إلا أن تقول: (إن شاء الله) والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال: سأفعل الفعل الفلاني غدًا. لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد، ولم يبعد أيضًا لو بقي حيًّا أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق، فإذا كان لم يقل: (إن شاء الله) صار كاذبًا في ذلك الوعد، والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام، فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول: ﴿ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ حتى أن بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود، لم يَصِر كاذبًا فلم يحصل التنفير.

المسألة الثالثة: اعلم أن مذهب المعتزلة أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة!! وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الإيمان من المؤمن، وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة وإرادة العبد مغلوبة.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال العبد لأفعلن كذا غدًا إلا أن يشاء الله والله إنما يدفع عنه الكذب إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد، فإن على هذا القول يكون التقدير أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله بخلافه، فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتي، فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل، أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة فإنها لا تصلح عذرًا في هذا الباب؛ لأن المغلوب لا يمنع الغالب. إذا ثبت هذا فنقول: أجمعت الأمة على أنه إذا قال: والله لأفعلن كذا ثم قال: إن شاء الله دافعًا للحنث فلا يكون دافعًا للحنث إلا إذا كانت إرادة الله غالبة، فلما حصل دفع (الحنث) بالإجماع وجب القطع بكون إرادة الله تعالى غالبة وأنه لا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله، وأصحابنا أكدوا هذا الكلام في صورة معينة، وهو أن الرجل إذا كان له على إنسان دَين وكان ذلك المديون قادرًا على أداء الدين فقال: والله لأقضين هذا الدين غدًا، ثم قال: إن شاء الله فإذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث، وعلى قول المعتزلة أنه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث، ولما أجمعوا على أن لا يحنث علمنا أن ذلك إنما كان لأن الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع أن ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الإخلال به، وثبت أنه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده، وقد يأمر بالشيء ولا يريده وهو المطلوب، فإن قيل: هب أن الأمر كما ذكرتم إلا أن كثيرًا من الفقهاء قالوا: إذا قال الرجل لامرأته: (أنت طالق إن شاء الله) لم يقع الطلاق فما السبب فيه؟ قلنا: السبب هو أنه لما علّق وقوع الطلاق على مشيئة الله لم يقع إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق، ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا أولاً حصول هذه المشيئة، لكن مشيئة الله تعالى غيب، فلا سبيل إلى العلم بحصولها إلا إذا علمنا أن متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق، فعلى هذا الطريق لا نعرف حصول المشيئة إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق، ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا وقوع المشيئة، فيتوقف العلم بكل واحد منها على العلم بالآخرة، وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا: الطلاق غير واقع.

المسألة الرابعة: احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قالوا: الشيء الذي سيفعله الفاعل غدًا سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ﴾ ومعلوم أن الشيء الذي سيفعله الفاعل غدًا فهو معدوم في

الحال، فوجب تسمية المعدوم بأنه شيء. والجواب أن هذا الاستدلال لا يفيد إلا أن المعدوم مسمى بكونه شيئًا، وعندنا أن السبب فيه أن الذي سيصير شيئًا يجوز تسميته بكونه شيئًا في الحال، كما أنه قال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]والمراد سيأتي أمر الله.

أما قوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه كلام متعلق بما قبله، والتقدير أنه إذا نسي أن يقول: (إن شاء الله) فليذكره إذا تذكره. وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو لم يحصل التذكر إلا بعد مدة طويلة ثم ذكر إن شاء الله، كفى في دفع الحنث. وعن سعيد بن جبير: بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم. وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء في مجلسه. وعن عطاء يستثني على مقدار حلب الناقة الغزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً. واحتج ابن عباس بقوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ لأن الظاهر أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ هو الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وقوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الأوقات، فوجب أن يجب عليه هذا الذكر في أي وقت حصل هذا التذكر، وكل من قال: (وجب هذا الذكر) قال: إنه إنما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب، واعلم أن استدلال ابن عباس رضي الله عنهما ظاهر في أن الاستثناء لا يجب أن يكون متصلاً، أما الفقهاء فقالوا إنا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شيء من العقود والأيمان، يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رحمه الله: هذا يرجع عليك، فإنك تأخذ البيعة بالأيمان أتفرض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضي به.

واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه. وأيضًا فلو قال (إن شاء الله) على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر، ودافع للحنث بالإجماع مع أن المحذور الذي ذكرتم حاصل فيه. فثبت أن الذي عولوا عليه ليس بقوي، والأَوْلى أن يحتجوا في وجوب كون الاستثناء متصلاً بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد، قال تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: ٣٤]فالآتي بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه؛ لأجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما إذا كان متصلاً لأن الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد، بدليل أن لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيئًا، فهو جارٍ مجرى نصف اللفظ الواحدة [1]، فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة، وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا أنه لم يلزم شيء، بخلاف ما إذا كان الاستثناء متصلاً فإنه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم.

---

(١) هكذا في الأصل: (اللفظ الواحدة). والصواب أن يقال: (اللفظ الواحد، أو اللفظة الواحدة).

والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف، وعلى هذا القول ففيه وجوه:

أحدها: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، والمراد منه الترغيب في الاهتمام بذكر هذه الكلمة. **وثانيها:** واذكر ربك إذا اعتراك النسيان ليُذكرك المَنسي. **وثالثها:** حَمَله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها.

وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لأن تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام في هذه القضية وجعله كلامًا مستأنفًا يوجب صيرورة الكلاء مبتدأ منقطعًا، وذلك لا يجوز.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ . **وفيه وجوه:**

الأول: أن ترك قوله: ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ليس بحسن وذكره أحسن من تركه، وقوله: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ المراد منه ذكر هذه الجملة.

الثاني: إذا وَعَدهم بشيء وقال معه (إن شاء الله) فيقول: عسى أن يهديني ربي لشيء أحسن وأكمل مما وعدتكم به.

والثالث: أن قوله: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة أني نبي من عند الله صادق القول في ادعاء النبوة – ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدًا من نبأ أصحاب الكهف. وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة في قصة أصحاب الكهف. **وفي قوله:** ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ **قولان:**

الأول: أن هذا حكاية كلام القوم، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكذا إلى أن قال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أي أن أولئك الأقوام قالوا ذلك، ويؤكده أنه تعالى قال بعده: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضًا ما روي في مصحف عبد الله: (وقالوا ولبثوا في كهفهم).

والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ هو كلام الله تعالى فإنه أخبر عن كمية تلك المدة.

وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فهو كلام قد تقدم، وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يوجب أن ما قبله حكاية، وذلك لأنه تعالى أراد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي (ثَلاثَمِائَةِ سِنِينَ) بغير تنوين والباقون بالتنوين، وذلك

لأن قوله: ﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ لأنه لما قال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ لم يعرف أنها أيام أم شهور أم سنون فلما قال (سنين) صار هذا بيانًا لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ فكان هذا عطف بيان له، وقيل: هو على التقديم والتأخير أي لبثوا سنين ثلثمائة. وأما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب في الإضافة ثلثمائة سنة إلا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: ﴿نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[الكهف: ١٠٣].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ المعنى: وازدادوا تسع سنين فإن قالوا: لمَ لم يقل: ثلثمائة وتسع سنين؟ وما الفائدة في قوله: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾؟ قلنا: قال بعضهم: كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية، وهذا مشكل لأنه لا يصح بالحساب هذا القول، ويمكن أن يقال: لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين. ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ معناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيها، وإنما كان أولى بأن يكون عالمًا به لأنه موجد للسماوات والأرض ومدبر للعالم، وإذا كان كذلك كان عالمًا بغيب السماوات والأرض فيكون عالمًا بهذه الواقعة لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ وهذه كلمة تذكر في التعجب، والمعنى ما أبصره وما أسمعه!! وقد بالغنا في تفسير كلمة التعجب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٧٥] ثم قال تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾. **وفيه وجوه:**

الأول: ما لأصحاب الكهف من دون الله من ولي، فإنه هو الذي يتولى حفظهم في ذلك النوم الطويل.

الثاني: ليس لهؤلاء المختلفين في مدة لبث أهل الكهف ولي من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم، فإذا كانوا محتاجين إلى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير إعلامه؟!

الثالث: أن بعض القوم لما ذكروا في هذا الباب أقوالاً على خلاف قول الله، فقد استوجبوا العقاب، فبيَّن الله أنه ليس لهم من دونه ولي يمنع الله من إنزال العقاب عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد أن يقول قولاً بخلافه، والأصل أن الاثنين إذا كانا لشريكين فإن الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعًا لكل واحد منهما من إمضاء الأمر على وفق ما يريده. وحاصله يرجع إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢] فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وقرأ ابن عامر (ولا تشرك) بالتاء والجزم على النهي والخطاب عطفًا على قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أو على قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ والمعنى: ولا تسأل أحدًا عما أخبرك الله به من

عدة أصحاب الكهف واقتصِر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحدًا في طلب معرفة تلك الواقعة. وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر، والمعنى أنه تعالى لا يفعل ذلك.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف وفي مكانهم:

أما الزمان الذي حصلوا فيه: فقيل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإن موسى ذكرهم في التوراة، ولهذا السبب فإن اليهود سألوا عنهم. وقيل: إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الوقت الذي بين عيسى عليه السلام وبين محمد ﷺ. وقيل: إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح، وحكى القفال هذا القول عن محمد بن إسحاق. وقال قوم: إنهم لم يموتوا ولا يموتون إلى يوم القيامة.

وأما مكان هذا الكهف: فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم. قال: فوجَّه ملك الروم معي أقوامًا إلى الموضع الذي يقال إنهم فيه. قال: وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعني من الدخول عليهم. قال: فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم. قال: وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره. ثم قال القفال: والذي عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف أو موضع آخر، والذي أخبر الله عنه وجب القطع به، ولا عبرة بقول أهل الروم إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف. وذُكر في الكشاف عن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله مُن هو خير منك. فقال: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا. فقال لابن عباس: لا أنتهي حتى أعلم حالهم. فبعث أناسًا فقال لهم: اذهبوا فانظروا. فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأحرقتهم. **وأقول:** العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نص، وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل إليه.

المسألة الخامسة: اعلم أن مدار القول بإثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة: أحدها: أنه تعالى قادر على كل الممكنات. والثاني: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات. وثالثها: أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات. فإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت القول بإمكان البعث والقيامة، فكذلك ها هنا ثبت أنه تعالى عالم قادر على الكل، وثبت أن بقاء الإنسان حيًا في النوم مدة يوم ممكن، فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكنًا، بمعنى أن إله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة. وأما الفلاسفة فإنهم يقولون أيضًا: لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب في هيولي عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة.

وأقول: هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في

هذا العالم فسورة بني إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد ﷺ من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة، وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضًا حالة عجيبة، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب وهو أيضًا حالة عجيبة.

والمعتمد في بيان إمكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة في هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التي ذكرناها. ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا علي بن سينا ذكر في باب الزمان من كتاب الشفاء أن أرسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف، ثم قال أبو علي: ويدل التاريخ على أنهم كانوا قبل أصحاب الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد مَن عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك. والله تعالى نهاه عن ذلك ومَنَعه عنه، وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل، ثم إنه تعالى جعل الأصل في هذا الباب شيئًا واحدًا وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه وعلى العمل به، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

وفي الآية مسألة وهي: أن قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذي أُوحي إليك والزم العمل به. ثم قال: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه.

وهذه الآية يمكن التمسك بها في إثبات أن تخصيص النص بالقياس غير جائز لأن قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب، وذلك يقتضي وجوب العمل بمقتضى ظاهره، فإن قيل: فيجب ألا يتطرق النسخ إليه. قلنا: هذا هو مذهب أبي مسلم الأصفهاني فليس يبعد، وأيضًا فالنسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلاً؟!

أما قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ، قال أهل اللغة: هو من لحد وألحد إذا مال، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل: ١٠٣] والمُلحد: المائل عن الدين والمعنى: ولن تجد من دونه ملجأ في البيان والرشاد.

اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء

الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتُعَين لهم وقتًا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] فبيَّن فيها أنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتُعظم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزنًا سواء غابوا أو حضروا. وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل. ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] ففي تلك الآية نُهي الرسول ﷺ عن طردهم، وفي هذه الآية أَمَره بمجالستهم والمصابرة معهم، فقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أصل الصبر الحبس، ومنه نهى رسول الله ﷺ عَنِ الْمَصْبُورَةِ وَهِيَ الْبَهِيمَةُ تُحْبَسُ فَتُرْمَى [(١)].

أما قوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ . **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (بالغُدوة) بضم الغين والباقون (بالغداة) وكلاهما لغة.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وجوه: الأول: المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الأوقات، كقول القائل: ليس لفلان عمل بالغداة والعشي إلا شتم الناس. الثاني: أن المراد صلاة الفجر والعصر. الثالث: المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة، وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة، والعشي هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من اليقظة إلى النوم ومن الحياة إلى الموت، والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يقال: عداه، إذا جاوزه ومنه قولهم: عدا طوره وجاء القوم عُدا زيدًا وإنما عدي بلفظة (عن) لأنها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرئ: (ولا تُعْدِ عينيك) (ولا تُعَدِّ عينيك) من أعداه وعَدَّاه نقلاً بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله شعر:

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ لاَ ارْتِجَاعَ لَهُ [(٢)]

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الأشربة) باب (الشراب من في السقاء) (٣/ ٣٣٥) حديث رقم/ ٣٧١٩ والترمذي في كتاب (الأطعمة) باب (في أكل لحوم الجلالة) (٤/ ٢٣٨) حديث رقم/ ١٨٥ من طريق هشام... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الضحايا) باب (النهي عن لبن الجلالة) (٧/ ٢٧٥) حديث رقم/ ٤٤٦٠ من طريق هشام... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٦٦) حديث رقم/ ١٩٨٩ من طريق هشام... به. والدارمي في كتاب (الأضاحي) باب (النهي عن مُثلة الحيوان) (١/ ٥٤٨) حديث رقم/ ١٩٧٥ من طريق قتادة... به. وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٤٦) حديث رقم/ ٢٥٥٢ من طريق حماد بن سلمة... به. كلاهما عن قتادة... به.

(٢) هذا أول بيت من البحر البسيط للشاعر النابغة الذبياني وهو النابغة الذبياني ١٨ ق هـ/ ٦٠٥ م وهو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو امامة. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره عليه. كان حظيًا عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب منه النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمنًا. ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه.

والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول الله ﷺ عن أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم.

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نصب في موضع الحال، يعني أنك (إنْ) فعلت ذلك لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا. ولما بالغ في أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات إلى أقوال الأغنياء والمتكبرين فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى هو الذي يخلق الجهل والغفلة في قلوب الجهال لأن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ يدل على هذا المعنى. قالت المعتزلة: المراد بقوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أنا وجدنا قلبه غافلاً وليس المراد خلق الغفلة فيه، والدليل عليه ما روي عن عمرو بن معديكرب الزبيدي أنه قال لبني سليم: قاتلناكم فما أجبناكم، وسألناكم فما أبخلناكم، وهجوناكم فما أفحمناكم. أي ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين. ثم نقول: حَمْل اللفظ على هذا المعنى أَوْلى ويدل عليه وجوه: الأول: أنه لو كان كذلك لما استحقوا الذم. الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ولو كان تعالى خلق الغفلة في قلبه لما صح ذلك. الثالث: لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلاً لوجب أن يقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه. لأن على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة، وهي إنما تعطف بالفاء لا بالواو، ويقال: كسرته فانكسر ودفعته فاندفع. ولا يقال: وانكسر واندفع. الرابع: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ولو كان تعالى أغفل في الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك إلى اتباعه هواه. والجواب: قوله المراد من قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ أي وجدناه غافلاً، وليس المراد تحصيل الغفلة فيه.

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن الاشتراك خلاف الأصل فوجب أن يعتقد أن وزن الإفعال حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر، وجَعْله حقيقة في التكوين مجازًا في الوجدان أَوْلى من العكس، وبيانه من وجوه: **أحدها**: أن مجيء بناء الإفعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان، والكثرة دليل الرجحان. وثانيها: أن مبادرة الفهم من هذا البناء إلى التكوين أكثر من مبادرته إلى الوجدان، ومبادرة الفهم دليل الرجحان. وثالثها: أنا إن جعلناه حقيقة في التكوين أمكن جعله مجازًا في الوجدان لأن العلم بالشيء تابع لحصول المعلوم، فجَعْل اللفظ حقيقة في المتبوع ومجازًا في التبع موافق للمعقول، أما لو جعلناه حقيقة في الوجدان مجازًا في الإيجاد لزم جعله حقيقة في التبع مجازًا في الأصل وأنه عكس المعقول فثبت أن الأصل جعل هذا البناء حقيقة في الإيجاد لا في الوجدان.

الوجه الثاني: في الجواب عن السؤال: أنا نسلم كون اللفظ مشتركًا بالنسبة إلى الإيجاد وإلى الوجدان إلا أنا نقول: يجب حمل قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ على إيجاد الغفلة؛ وذلك لأن الدليل العقلي دل على أنه يمتنع كون العبد موجدًا للغفلة في نفسه، والدليل عليه أنه إذا حاول إيجاد الغفلة فإما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة أو يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين، والأول باطل، وإلا لم يكن بأن تحصل له الغفلة عن هذا الشيء أولى بأن تحصل له الغفلة عن شيء آخر؛ لأن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها إلى كل تلك الأنواع على السوية، أما الثاني فهو أيضًا باطل لأن الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه، فعلى هذا لا يمكنه أن يقصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا إذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا، ولا يمكنه أن يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا إلا إذا تصور كذا لأن العلم بنسبة أمر إلى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين. فثبت أنه لا يمكنه القصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا مع الشعور بكذا، لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا؛ فثبت أن العبد لا يمكنه إيجاد هذه الغفلة إلا عند اجتماع الضدين وذلك محال، والموقوف على المحال محال، فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها في العباد هو الله، وهذه نكتة قاطعة في إثبات هذا المطلوب، وعند هذا يظهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ هو إيجاد الغفلة لا وجدانها، أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارًا وأطوارًا بالعلم والداعي، أما قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فالبحث عنه سيأتي إن شاء الله تعالى.

أما قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ لو كان المراد إيجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء، لا ذكر الواو.

فنقول: هذا إنما يلزم لو كان خلق الغفلة في القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى، كما أن الكسر من لوازمه حصول الانكسار، وليس الأمر كذلك لأنه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى؛ لاحتمال أن يصير غافلاً عن ذكر الله، ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفًا لا ينافي مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال. وذكر القفال في تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوهًا أخرى: فأحدها: أنه تعالى لما صب عليهم الدنيا صبًا وأدى ذلك إلى رسوخ الغفلة في قلوبهم، صح على هذا التأويل أنه تعالى حصَّل الغفلة في قلوبهم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦]. والوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ أي تركناه غافلاً فلم نَسِمْه بسمة أهل الطهارة والتقوى وهو من قولهم (بعير غفل) أي لا سمة عليه. وثالثها: أن المراد من قوله (أغفلنا قلبه) أي خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه. فيقال في الوجه الأول: إن فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر في حصول الغفلة في قلبه أو لا يؤثر؟ فإن أثر كان أثّر إيصال اللذات إليه سببًا لحصول الغفلة في قلبه، وذلك عين القول بأنه

تعالى فعل ما يوجب حصول الغفلة في قلبه، وإن كان لا تأثير له في حصول هذه الغفلة بطل إسناده إليه، وقد يقال في الوجه الثاني: إن قوله (أغفلنا قلبه) بمنزلة قوله (سودنا قلبه وبيضنا وجهه) ولا يفيد إلا ما ذكرناه، ويقال في الوجه الثالث إن كان لتلك التخلية أثر في حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا، وإلا بطل استناد تلك الغفلة إلى الله تعالى.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خاليًا عن ذكر الحق ويكون مملوءًا من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق، وتحقيق القول أن ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة؛ لأن الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة، والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله، وما سوى الله فهو ممكن الوجود لذاته، والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق، وإذا توجه القلب إلى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات؛ فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة، فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ والإقبال على الخلق هو المراد بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

المسألة الثالثة: قيل: ﴿فُرُطًا﴾ أي مجاوزًا للحد، من قولهم: فرس فرط، إذا كان متقدمًا الخيل، قال الليث: الفرط: الأمر الذي يفرط فيه، يقال: كل أمر فلان فرط. وأنشد شعرًا:

لقد كلفني شططا ... وأمرا خائبا فرطا

أي مضيعًا، فقوله: (وكان أمره فرطًا) معناه أن الأمر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه - يكون مخصوصًا بإيقاع التفريط والتقصير فيه، وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وإنما عمله لدنياه، فبيَّن تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم أنهم مقصرون في مهماتهم مُعْرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة، والحاصل أنه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والإعراض عن غير ذكر الله فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ووصف هؤلاء الأغنياء بالإعراض عن ذكر الله تعالى والإقبال على غير الله وهو قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هؤلاء، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت جالسًا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضًا من العرى وقارئ يقرأ القرآن فجاء رسول الله ﷺ فقال: «ماذا كنتم تصنعون؟» قلنا: يا رسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نستمع. فقال عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ إِلَى أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ» ثم جلس وسطنا وقال: «أَبْشِرُوا يَا صَعَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمِقْدَارِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير النظم وجوه:

الأول: أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت الفقراء آمنا بك، قال بعده: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي قل لهؤلاء: إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، فإن قبلتموه عاد النفع إليكم وإن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة.

الوجه الثاني في تقرير النظم: يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله، والحق الذي جاءني من عنده أن أصبر نفسي مع هؤلاء الفقراء ولا أطردهم ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا.

والوجه الثالث في تقرير النظم: أن يكون المراد هو أن الحق الذي جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحًا لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار، فإن قيل: أليس أن العقل يقتضي ترجيح الأهم على المهم فطَرْد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم.

قلنا: أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمسلَّم إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان من هذا حاله وصفته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ صريح في أن الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره. فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن. ولقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر، وصريح العقل أيضًا يدل له، فإن العقل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار له.

إذا عرفت هذا فنقول: حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزمه أن يكون كل قصد واختيار مسبوقًا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال، فوجب

انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارت إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة، عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المُعارض لم يترتب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة. فالإنسان مضطر في صورة مختار، ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله هذا المعنى في باب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فقال: فإن قلت إني أجد في نفسي وجدانًا ضروريًا أني إن شئت الفعل قدرت على الفعل وإن شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بي لا بغيري. وأجاب عنه وقال: هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل، بل العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام، فحصول المشيئة في القلب أمر لازم، وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضًا أمر لازم، وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ . **فيه فوائد**:

الفائدة الأولى: الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعي - محال.

الفائدة الثانية: أن صيغة الأمر لا لمعنى الطلب في كتاب الله كثيرة ثم نُقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير.

الفائدة الثالثة: أنها تدل على أنه تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين، بل نفع الإيمان يعود عليهم، وضرر الكفر يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] واعلم أنه تعالى لما وصف الكفر والإيمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة، وبذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح:

أما الوعيد فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ يقول: اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها والأنفة في غير محلها، فعندما استحسن بهواه وأنِف عن قبول الحق لأجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين، فهذا كله ظلم ووضع للشيء في غير موضعه. فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الأقوام نارًا وهي الجحيم، ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين:

الصفة الأولى: قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ والسرادق هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئًا شبيهًا بذلك يحيط بهم من جميع الجهات، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار، بل هي محيطة بهم من كل الجوانب. وقال بعضهم: المراد من هذا السرادق الدخان الذي وصفه الله في قوله: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقالوا: هذه الإحاطة بهم إنما تكون قبل دخولهم النار، فيغشاهم هذا

الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط.

والصفة الثانية: لهذه النار: قوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قيل في حديث مرفوع: إنه دردي الزيت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال: هذا هو المهل. قال أبو عبيدة والأخفش: كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل. وقيل: إنه الصديد والقيح. وقيل: إنه ضرب من القطران. ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل، قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤، ٥] ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء. قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقال في آية أخرى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فإذا استغاثوا من حر جهنم صُب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص. وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وارد على سبيل الاستهزاء كقوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

ثم قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي أن الماء الذي هو كالمهل بئس الشراب؛ لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغًا عظيمًا. ثم قال تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال قائلون: ساءت النار منزلاً ومجتمعًا للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة، قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين، والمعنى: بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار، كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة. وقال آخرون: مرتفقًا أي متكأ، وسمي المرفق مرفقًا لأنه يُتكأ عليه، فالاتكاء إنما يكون للاستراحة، والمرتفق موضع الاستراحة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان لأن العطف يوجب المغايرة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ظاهره يقتضي أنه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجرًا، وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد. وعند

المعتزلة لذات الفعل، وهو باطل لأن نعم الله كثيرة وهي موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لأن أداء الواجب لا يوجب شيئًا آخر.

المسألة الثالثة: نظير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ - قول الشاعر:

إنَّ الخَلِيفَةَ إنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الخَوَاتِيمُ[1]

كرر أن تأكيدًا للأعمال والجزاء عليها.

المسألة الرابعة: أولئك خبر (إنَّ) و(إنا لا نضيع) اعتراض ولك أن تجعل (إنا لا نضيع) و(أولئك) خبرين معًا ولك أن تجعل (أولئك) كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم.

واعلم أنه تعالى لما أثبت الأجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه: أولها: صفة مكانهم وهو قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والعدن في اللغة عبارة عن الإقامة، فيجوز أن يكون المعنى: أولئك لهم جنات إقامة. كما يقال هذه دار إقامة، ويجوز أن يكون العدن اسمًا لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف أماكنها، وقد استقصينا فيه فيما تقدم، وقوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ويمكن أن يكون المراد أن نصيب كل واحد، من المكلفين جنة على حدة وذكر أن من صفات تلك الجنات أن الأنهار تجري من تحتها وذلك لأن أفضل المساكن في الدنيا البساتين التي يجري فيها الأنهار. وثانيها: إن لباس أهل الدنيا إما لباس التحلي، وإما لباس التستر، أما لباس التحلي فقال تعالى في صفته: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ والمعنى أنه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: سوار من ذهب لأجل هذه الآية، وسوار من فضة لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وأما لباس التستر فقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والمراد: من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والأول هو الديباج الرقيق وهو الخز، والثاني هو الديباج الصفيق، وقيل أصله فارسي معرب وهو إستبره، أي غليظ، فإن قيل: ما السبب في أنه تعالى قال في الحلي: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله وقال في السندس والإستبرق ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فأضاف اللبس إليهم، قلنا: يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم، وأن يكون الحلي إشارة إلى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم. وثالثها: كيفية جلوسهم فقال في صفتها: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾. قالوا: الأرائك جمع أريكة وهي سرير في حجلة، أما السرير وحده فلا يسمى أريكة.

ولما وصف الله تعالى هذه الأقسام قال: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ والمراد أن يكون هذا في مقابلة ما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

---

(١) البيت للشاعر جرير.

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية فقال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي مثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وقيل هما المذكوران في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضًا فقال المؤمن: اللهم إني أشتري منك أرضًا في الجنة بألف. فتصدق به، ثم بنى أخوه دارًا بألف فقال المؤمن: اللهم إني اشتري منك دارًا في الجنة بألف. فتصدق به، ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم إني جعلت ألفًا صداقًا للحور العين ثم اشترى أخوه خدمًا وضياعًا بألف فقال المؤمن: اللهم إني اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به، ثم أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله.

وأما قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات:

الصفة الأولى: كونها جنة، وسُمي البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار، وأصل الكلمة من الستر والتغطية.

والصفة الثانية: قوله: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي وجعلنا النخل محيطًا بالجنتين، نظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] أي واقفين حول العرش محيطين به، والحفاف جانب الشيء والأحفة جمع، فمعنى قول القائل: (حف به القوم) أي صاروا في أحفته وهي جوانبه قال الشاعر:

لَهُ لَحَظَاتٌ فِي حَفَافَيْ سَرِيرِهِ ... إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ[1]

قال صاحب (الكشاف): حفوه: إذا طافوا به، وحففته بهم، أي جعلتهم حافين حوله، وهو متعدٍّ إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانيًا كقوله: غشيته وغشيته به. قال: وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين في كرومهم وهي أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة، وهو أيضًا حسن في المنظر.

الصفة الثالثة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ والمقصود منه أمور: أحدها: أن تكون تلك الأرض جامعة للأقوات والفواكه. وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض. وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (كلا) اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان، و(كلتا) اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان. وإذا أضيفا إلى المُظهر كانا بالألف في الأحوال الثلاثة كقولك: جاءني كلا أخويك، ورأيت كلا أخويك، ومررت بكلا أخويك. وجاءني كلتا أختيك، ورأيت كلتا أختيك، ومررت بكلتا أختيك، وإذا أضيفا إلى المضمر كانا في الرفع بالألف، وفي الجر والنصب بالياء، وبعضهم يقول مع المضمر بالألف في الأحوال الثلاثة أيضًا. وقوله: ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ حمل على اللفظ لأن (كلتا) لفظه لفظ مفرد ولو قيل (أتتا) على المعنى لجاز، وقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص، والظلم النقصان، يقول الرجل: (ظلمني حقي) أي نقصني.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين. وفي قراءة يعقوب (وفجَرنا) مخففة وفي قراءة الباقين (وفجرنا) مشددة، والتخفيف هو الأصل لأنه نهر واحد والتشديد على المبالغة لأن النهر يمتد فيكون كأنهار و﴿خِلَالَهُمَا﴾ أي وسطهما وبينهما. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. ومنه يقال: (خللت القوم) أي دخلت بين القوم.

---

[1] البيت من البحر الطويل للشاعر إبراهيم بن هرمة، وقد تقدمت ترجمته.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ عاصم بفتح الثاء والميم في الموضعين وهو جمع ثمار أو ثمرة، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم في الحرفين والباقون بضم الثاء والميم في الحرفين. ذكر أهل اللغة أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما، وبالفتح حمل الشجر، قال قطرب: كان أبو عمرو بن العلاء يقول: الثمر: المال والولد. وأنشد للحارث بن كلدة:

وَلَــقَــدْ رَأَيْــتُ مَــعَــاشِــرًا ... قَــدْ أَثْــمَــرُوا مَــالاً وَوَلَــدا(١)

وقال النابغة:

مَـهْـلاً فِـدَاءٌ لَـكَ الأَقْـوَامُ كُـلُّـهُـمْ ... مَـا أَثْـمَـرُوهُ أَمِـنْ مَـالٍ وَمِـنْ وَلَـدِ(٢)

وقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي أنواع من المال، مِن (ثمر ماله) إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة. أي كان مع الجنتين أشياء من النقود. ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والمعنى أن المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله وبالبعث، والمحاورة مراجعة الكلام، من قولهم: (حار) إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ﴾ [الانشقاق: ١٤، ١٥]، فذكر تعالى أن عند هذه المحاورة قال الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه، وحاصل الكلام أن الكافر ترفَّع على المؤمن بجاهه وماله، ثم إنه أراد أن يُظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور، وأخبره بصنوف ما يملكه من المال. فإن قيل: لمَ أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلنا: المراد أنه ليس له جنة ولا نصيب في الجنة التي وعد المتقون المؤمنون وهذا الذي ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدًا منهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو اعتراض وقع في أثناء الكلام، والمراد التنبيه على أنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرته على البعث، كان واضعًا تلك النعم في غير موضعها، ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فجمع بين هذين: فالأول قَطْعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد أبدًا مع أنها متغيرة متبدلة.

فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: (ما أظن أن تبيد هذه أبدًا) مع أن الحدس يدل

(١) هذا البيت للحارث بن حلزة وهو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي. ٥٤ ق.هـ/ ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل بادية العرق، وهو أحد أصحاب المعلقات. كان أبرص فخورًا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، جمع بها كثيرًا من أخبار العرب ووقائعهم حتى صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلزة.

(٢) تقدمت ترجمته.

على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية؟ قلنا: المراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده، ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعًا وعاقبة، وانتصابه على التمييز، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًّا له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء. والمقدمة الأولى كاذبة فإنَّ فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية.

قرأ نافع وابن كثير (خيرًا منهما)، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون (منها)، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها.

ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: أن الإنسان الأول قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا الثاني كَفَّره حيث قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر.

البحث الثاني: هذا الاستدلال يحتمل وجهين: الأول: يرجع إلى الطريقة المذكورة في القرآن وهو أنه تعالى لما قدر على الابتداء وجب أن يقدر على الإعادة، فقوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ إشارة إلى خلق الإنسان في الابتداء. الوجه الثاني: أنه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثًا، وإنما خلقك للعبودية، وإذا خلقك لهذا المعنى وجب أن يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب، وتقريره ما ذكرناه في سورة يس، ويدل على هذا الوجه قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أي هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز في العقل مع هذه الحالة إهماله أمرك.

ثم قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قال أهل اللغة: (لكنا) أصله (لكن أنا) فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون (لكن) فاجتمعت النونان فأدغمت نون (لكن) في النون التي بعدها ومثله:

وَتَقْلِينَنِي لَكِنَّ إِيَّاكَ لاَ أَقْلِي

أي لكن أنا لا أقليك و(هو) في قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ ضمير الشأن وقوله: ﴿اللَّهُ رَبِّي﴾ جملة من المبتدأ والخبر واقعة في معرض الخبر لقوله: (هو) فإن قيل: قوله: (لكِنَّا) استدراك لماذا؟ قلنا لقوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال لأخيه: أكفرت بالله لكني مؤمن موحد. كما تقول: زيد غائب لكن عمرو حاضر.

البحث الثاني: قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمي ونافع في رواية: (لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) في الوصل بالألف. وفي قراءة الباقين: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ بغير ألف والمعنى واحد.

ثم قال المؤمن: ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ذكر القفال فيه وجوهًا: أحدها: إني لا أرى الفقر

والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى وأصبر إذا ابتلى ولا أتكبر عندما ينعم عليَّ ولا أرى كثرة المال والأعوان من نفسي. وذلك لأن الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكًا في إعطاء العز والغنى. وثانيها: لعل ذلك الكافر مع كونه منكرًا للبعث كان عابد صنم، فبَيَّن هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشركاء. وثالثها: أن هذا الكافر لما عجَّز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساويًا للخلق في هذا العجز وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك.

ثم قال المؤمن للكافر: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فأمره أن يقول هذين الكلامين: **الأول:** قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: أن تكون (مَا) شرطية ويكون الجزاء محذوفًا والتقدير أي شيء شاء الله كان. **والثاني:** أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف وتقديره الأمر ما شاء الله، واحتج أصحابنا بهذا على أن كل ما أراده الله وقع وكل ما لم يرده لم يقع. وهذا يدل على أنه ما أراد الله الإيمان من الكافر، وهو صريح في إبطال قول المعتزلة، أجاب الكعبي عنه بأن تأويل قولهم: (ما شاء) مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد. كما قالوا: (لا مرد لأمر الله) لم يُرد ما أمر به العباد. ثم قال: لا يمتنع أن يحصل في سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه ما نهى عنه، واعلم أن الذي ذكر الكعبي ليس جوابًا عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص، وقياس الإرادة على الأمر باطل لأن هذا النص دال على أنه لا يوجد إلا ما أراده الله، وليس في النصوص ما يدل على أنه لا يدخل في الوجود إلا ما أمر به، فظهر الفرق، وأجاب القفال عنه بأن قال: هلا إذا دخلت بستانك قلت ما شاء الله؟ كقول الإنسان: هذه الأشياء الموجودة في هذا البستان ما شاء الله، ومثله قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وهم ثلاثة، وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] أي قولوا هذه حطة. وإذا كان كذلك كان المراد من هذا الشيء الموجود في البستان شيء شاء الله تكوينه، وعلى هذا التقدير لم يلزم أن يقال: كل ما شاء الله وقع. لأن هذا الحكم غير عام في الكل بل مختص بالأشياء المشاهدة في البستان. وهذا التأويل الذي ذكره القفال أحسن بكثير مما ذكره الجبائي والكعبي، وأقول: إنه على جوابه لا يدفع الإشكال على المعتزلة لأن عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد، فلا يصح أيضًا على قول المعتزلة أن يقال: (هذا واقع بمشيئة الله). اللهم إلا أن نقول المراد أن هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى إلا أن هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل. والكلام الثاني الذي أمر المؤمن الكافر بأن يقوله: هو قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي لا قوة لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله وإقداره.

والمقصود أنه قال المؤمن للكافر: هلا قلت عند دخول جنتك: (الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله) اعترافًا بأنها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فإن أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خربها، وهلا قلت: (لا قوة إلا بالله) إقرارًا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو

بمعونة الله وتأييده لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله. ثم إن المؤمن لما علَّم الكافر الإيمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ من قرأ (أقل) بالنصب فقد جعل (أنا) فصلاً و(أقل) مفعولاً ثانيًا، ومن قرأ بالرفع جعل قوله: ﴿أَنَا﴾ مبتدأ وقوله ﴿أَقَلَّ﴾ خبر والجملة مفعولاً ثانيًا لترن، واعلم أن ذكر الولد هاهنا يدل على أن المراد بالنفر المذكور في قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ الأعوان والأولاد، كأنه يقول له: إن كنت تراني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وأنصارًا في الدنيا الفانية: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ إما في الدنيا، وإما في الآخرة. ويرسل على جنتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذابًا وتخريبًا، والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب، أي مقدارًا قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك، وقيل: حسبانًا أي مرامي، الواحد منها حسبانة وهي الصواعق: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي فتصبح جنتك أرضًا ملساء لا نبات فيها، والصعيد وجه الأرض، زلقًا أي تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقًا. ثم قال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي يغوص ويسفل في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي فيصير بحيث لا تقدر على رده إلى موضعه.

قال أهل اللغة في قوله: ﴿مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائرًا، وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال: فلان زَوْر وصَوْم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ويقال نساء نَوْح أي نوائح. ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك، ومنه قوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] ومثله قولهم: (أتى عليه) إذا أهلكه من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليًا عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ وهو كناية عن الندم والحسرة، فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التي وعظه أخوه فيها وعذله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على عروشها، فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم، فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها، ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهي سقطت على الجدران. وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ والمعنى أن المؤمن لما قال: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فهذا الكافر تذكّر كلامه وقال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

فإن قيل: هذا الكلام يوهم أنه إنما هلكت جنته بشؤم شركه، وليس الأمر كذلك لأن أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] وقال النبي ﷺ: «خُصَّ البَلاءُ

بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فالأمثل»[١] وأيضًا فلما قال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فوجب أن يصير مؤمنًا فلمَ قال بعده: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

والجواب عن السؤال الأول: أنه لما عظمت حسرته لأجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان مُعْرِضًا في كل عمره عن طلب الدين، فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي الحرمان عن الدنيا والدين عليه، فلهذا السبب عظمت حسرته.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إنما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدًا غير مشرك لبقيت عليه جنته، فهو إنما رغب في التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا، فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولاً عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِئَةٌ) بالياء لأن قوله: ﴿فِئَةٞ﴾ جمع فإذا تقدم على الكناية جاز التذكير، ولأنه رعاية للمعنى. والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لأن الكناية عائدة إلى اللفظة وهي الفئة.

البحث الثاني: المراد من قوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هو أنه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله، أي هو الله تعالى وحده القادر على نصرته، ولا يقدر أحد غيره أن ينصره.

ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ .

المسألة الأولى: اختلف القراء في ثلاثة مواضع من هذه الآية: أولها: في لفظ (الولاية) ففي قراءة حمزة والكسائي بكسر الواو وفي قراءة الباقين بالفتح، وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: كسر الواو لحن. قال صاحب (الكشاف): الولاية بالفتح: النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك. وثانيها: قرأ أبو عمرو والكسائي قوله: (الحق) بالرفع والتقدير: هنالك الولاية الحق لله. وقرأ الباقون بالجر صفة لله. وثالثها: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر (عقبًا) بضم القاف، وقرأ عاصم وحمزة عقبًا بتسكين القاف.

المسألة الثانية: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ فيه وجوه. الأول: أنه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر عَلِمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر، وعرفنا أن الأمر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقال: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي في مثل ذلك الوقت وفي مثل ذلك المقام تكون الولاية لله، يوالي أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار إليهم فقوله: (هنالك) إشارة إلى الموضع والوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه وإذلال أعدائه (فِيهِمَا).

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (العلم) باب (في القصص) (٣/ ١٥٨٦) حديث رقم/ ٣٦٦٦ وأحمد في (مسنده) (٣/ ٦٣) والبغوي في (شرح السنة) (٧/ ٢٥٥) حديث رقم/ ٣٨٨٧ جميعًا من طريق جعفر... به. المعلي بن زياد صدوق قليل الحديث، والعلاء بن بشير قال الحافظ: مجهول.

والوجه الثاني في التاويل: أن يكون المعنى: في مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويلتجئ إليه كل محتاج مضطر. يعني أن قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كلمة ألجئ إليها ذلك الكافر فقالها جزعًا مما ساقه إليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها.

والوجه الثالث: المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني أنه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصَدَّق قوله في قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويعضده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه.

والوجه الرابع: أن قوله (هنالك) إشارة إلى الدار الآخرة، أي في تلك الدار الآخرة الولاية لله. كقوله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] ثم قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي في الآخرة لمن آمن به والتجأ إليه: ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه. وقد ذكرنا أنه قرئ عقبًا بضم القاف وسكونها وعُقبى على فُعلى وكلها بمعنى العاقبة.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أن المقصود: اضرب مثلاً آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين: ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم ذكر المثل فقال: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وحينئذٍ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيمًا، وهو النبت المتكسر المتفتت. ومنه قوله: هشمت أنفه وهشمت الثريد. وأنشد:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِأَهْلِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[(١)]

وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ بتكوينه أولاً وتنميته وسطًا وإبطاله آخرًا، وأحوال الدنيا أيضًا كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة، ثم تتزايد قليلاً قليلاً، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء؛ ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به.

---

(١) هذا البيت للشاعر عبد الله بن الزبعري وهو عبد الله بن الزبعرى السهمي القرشي، وأمه عاتكة الجمحية بنت عبد الله بن عمير. ١٥ هـ/ ٦٣٦ م. شاعر قريش في الجاهلية، وكان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال حسان فيه أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ، فأمر له بحلة. وقد سجل في شعره حادثة الفيل وحرمة مكة ومنعتها، وتحدث عن حرب الفجار وبلاء بني المغيرة فيها.

والباء في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه وجوه:

الأول: التقدير: فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الأنواع بسبب هذا الماء، وذلك لأن عند نزول المطر يقوى النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض، ويصير في المنظر في غاية الحسن والزينة.

والثاني: فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفًا. وكان حق اللفظ على هذا التفسير (فاختلط بنبات الأرض) ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾

لما بَيَّن تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء، مشرفة على الزوال والبوار والفناء، بَيَّن تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل، وسنعقد منه قياس الإنتاج وهو أن (المال والبنون) زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، ينتج إنتاجًا بديهيًّا أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض. ومن المقتضى البديهي أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنًا، فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد. ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية، وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة، وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة؛ لأن خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] في بيان أن الإدراكات العقلية أفضل من الحسية، وإذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هي السعادات الأخروية، فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية، والله أعلم.

والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالاً: قيل: إنها قولنا: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) وللشيخ الغزالي رحمه الله في تفسير هذه الكلمات وجه لطيف، فقال: روي أن من قال: (سبحان الله) حصل له من الثواب عشر مرات، فإذا قال (والحمد لله) صارت عشرين، فإذا قال: (ولا إله إلا الله) صارت ثلاثين، فإذا قال: (والله أكبر) صارت أربعين. قال: وتحقيق القول فيه أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق في معرفة الله وفي محبته، فإذا

قال (سبحان الله) فقد عرف كونه سبحانه منزهًا عن كل ما لا ينبغي، فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة، فإذا قال مع ذلك (والحمد لله) فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزهًا عن كل ما لا ينبغي فهو المبدأ لإفادة كل ما ينبغي ولإفاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة، فلا جرم قلنا تَضَاعَفَ الثواب فإذا قال مع ذلك (ولا إله إلا الله) فقد أقر بأن الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي، فهو المبدأ لكل ما ينبغي وليس في الوجود موجود هكذا إلا الواحد، فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة، فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فإذا قال (والله أكبر) معناه أنه أكبر وأعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله، فقد صارت مراتب المعرفة أربعة، لا جرم صارت درجات الثواب أربعة.

والقول الثاني: أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس.

والقول الثالث: أنها الطيب من القول، كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

والقول الرابع: أن كل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته، فهو الباقيات الصالحات، وكل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك، وذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه فهو فان لذاته، هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات إليه عملاً باطلاً وسعيًا ضائعًا. أما الحق لذاته فهو الباقي لا يقبل الزوال، لا جرم كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولا يفنى.

ثم قال تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي كل عمل أريد به وجه الله فلا شك أن ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الأمل يكون خيرًا وأفضل؛ لأن صاحب تلك الأعمال يؤمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن خساسة الدنيا وشرف القيامة، أردفه بأحوال القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ والمقصود منه الرد على المشركين الذي افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأعوان. واختلفوا في الناصب لقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ على وجوه: أحدها: أنه يكون التقدير واذكر لهم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]

الثاني: أنه يكون التقدير: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ حصل كذا وكذا، يقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن القول مضمر في هذا الموضع، فكان المعنى أنه يقال لهم هذا في هذا الموضع. الثالث: أن يكون التقدير ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ والأول أظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه ذكر في الآية من أحوال القيامة أنواعًا.

النوع الأول: قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (تُسَيَّر) على فعل ما لم يسم فاعله والجبال بالرفع بإسناد (تسير) إليه اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] والباقون (نسير) باسناد فعل التسيير إلى نفسه (تعالى و) الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير، والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارًا بقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ والمعنى واحد لأنها إذا سيرت فمُسَيرها ليس إلا الله سبحانه. ونقل صاحب (الكشاف) قراءة أخرى وهي (تسير الجبال) بإسناد تسير إلى الجبال.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ ليس في لفظ الآية ما يدل على أنها إلى أين تسير، فيحتمل أن يقال: إنه تعالى يسيرها إلى الموضع الذي يريده، ولم يبين ذلك الموضع لخلقه، والحق أن المراد أنه تعالى يسيرها إلى العدم لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] ولقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

والنوع الثاني من أحوال القيامة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وفي تفسيره وجوه: أحدها: أنه لم يبق على وجهها شيء من العمارات، ولا شيء من الجبال، ولا شيء من الأشجار، فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها، وهو المراد من قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]. وثانيها: أن المراد من كونها بارزة أنها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها، فهي بارزة الجوف والبطن، فحذف ذكر (الجوف)، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤] وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]. وثالثها: أن وجوه الأرض كانت مستورة بالجبال والبحار، فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة.

والنوع الثالث من أحوال القيامة: قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحدًا، أي لم نترك من الأولين والآخرين أحدًا إلا وجمعناهم لذلك اليوم. ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] ومعنى لم نغادر: لم نترك، يقال: غادره وأغدره، إذا تركه، ومنه الغدر ترك الوفاء، ومنه الغدير لأنه ما تَرَكَتْه السيول، ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لأنها تجعلها خلفها.

ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم، فقال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الصف وجوه: أحدها: أنه تعرض الخلق كلهم على الله صفًّا واحدًا ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضًا، قال القفال: ويشبه أن يكون الصف راجعًا إلى الظهور والبروز، ومنه اشتق الصفصف للصحراء. وثانيها: لا يبعد أن يكون الخلق صفوفًا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي يكون بعضها خلف بعض، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفًّا: صفوفًا كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي أطفالاً. وثالثها: صفًّا أي قيامًا، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦] قالوا: قيامًا.

المسألة الثانية: قالت المشبهة: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفًّا، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان، وأجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم في الموضع الذي يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضًا عليه، لا على أنه تعالى يحضر في مكان وعُرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه، لأنهم خُلقوا صغارًا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم، بل المراد أنه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين في الدنيا على فقراء المؤمنين بالأموال والأنصار: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إلى قوله ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] ثم قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي كنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث والقيامة، فالآن قد تركتم الأموال والأنصار في الدنيا وشاهدتم أن البعث والقيامة حق. ثم قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ والمراد أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين أو في الشمال، والمراد الجنس وهو صحف الأعمال: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون: يا ويلتنا، ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وهي عبارة عن الإحاطة بمعنى لا يترك شيئًا من المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة: ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ إلا ضبطها وحصرها، قال بعض العلماء: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر؛ لأن تلك الصغائر هي التي جرتهم إلى الكبائر

فاحترزوا من الصغائر جدًا: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ في الصحف عتيدًا، أو جزاء ما عملوا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ معناه أنه لا يكتب عليه ما لم يفعل، ولا يزيد في عقابه المستحق، ولا يعذب أحدًا بجرم غيره، **بقي في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الجبائي: هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في مسائل: أحدها: أنه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالمًا. وثانيها: أنه لا يعذب الأطفال بغير ذنب. وثالثها: بطلان قولهم (لله أن يفعل ما يشاء ويعذب من غير جرم لأن الخلق خلقه) إذ لو كان كذلك لما كان لنفي الظلم عنه معنى لأن بتقدير أنه إذا فعل أي شيء أراد لم يكن ظلمًا منه، لم يكن لقوله (إنه لا يظلم) فائدة فيقال له.

أما الجواب عن الأولين فهو المعارضة بالعلم والداعي، وأما الجواب عن هذا الثالث فهو أنه تعالى قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُحَاسَبُ النَّاسُ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةٍ: يُوسُفَ، وَأَيُّوبَ، وَسُلَيْمَانَ: فَيَدْعُو بِالْمَمْلُوكِ وَيَقُولُ لَهُ: مَا شَغَلَكَ عَنِّي فَيَقُولُ جَعَلْتَنِي عَبْدًا لِلْآدَمِيِّ فَلَمْ تُفَرِّغْنِي. فَيَدْعُو يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَقُولُ: كَانَ هَذَا عَبْدًا مِثْلَكَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي. فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَدْعُو بِالْمُبْتَلِي فَإِذَا قَالَ: شَغَلْتَنِي بِالْبَلَاءِ. دَعَا بِأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: قَدِ ابْتَلَيْتُ هَذَا بِأَشَدَّ مِنْ بَلَائِكَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي. فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْغِنَى وَالسَّعَةِ فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ: فَيَقُولُ: شَغَلَنِي الْمُلْكُ عَنْ ذَلِكَ. فَيُدْعَى بِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: هَذَا عَبْدِي سُلَيْمَانُ آتَيْتُهُ أَكْثَرَ مَا آتَيْتُكَ فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي اذْهَبْ فَلَا عُذْرَ لَكَ. وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»(١) وعن معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَنْ يَزُولَ قَدَمُ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ بِهِ»(٢).

المسألة الثالثة: دلت الآية على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب، وهذا متفق عليه بين المسلمين إلا أنهم اختلفوا في تفسيره: فقالت المعتزلة: الكبيرة ما يزيد عقابه على ثواب فاعله، والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله. واعلم أن هذا الحد إنما يصح لو ثبت أن الفعل

(١) أورده أهل التفسير في كتبهم بغير إسناد.

(٢) **صحيح**: أخرجه الدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من كره الشهرة والمعرفة) (١/ ١٢٩) حديث رقم/ ٥٣٩ وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٥٤٤) وقال: رواه الخطيب في (التاريخ) (١١/ ٤٤١) وهذا سند لا بأس به في الشواهد. رجاله ثقات غير عبد المجيد وصامت ففيهما ضعف. (قلت): وللحديث شاهد موصول من حديث أبي برزة الأسلمي. وأخرجه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب (في القيامة) (٤/ ٦١٢) حديث رقم/ ٢٤١٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو برزة الأسلمي اسمه فضلة بن عبيد رضي الله عنه. وأورده الألباني في (الصحيحة) (٩٤٦).

يوجب ثوابًا وعقابًا، وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها في سورة البقرة، في إبطال القول بالإحباط والتكفير، بل الحق عندنا أن الطاعات محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان أقوى في كونه جهلاً بالله كان أعظم في كونه كبيرة، وكل ما كان أقوى في كونه إضرارًا بالغير كان أكثر في كونه ذنبًا أو معصية، فهذا هو الضبط.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين، وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى، وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد وكيف أتواضع له؟! وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا: كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء؟! فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا تنبيهًا على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس، ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾. فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر، وذكر القاضي وجهًا آخر فقال: إنه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب، وكأن الله تعالى يريد أن يذكر هاهنا أنه ينادي المشركين ويقول لهم: أين شركائي الذي زعمتم؟ وكان قد علم تعالى أن إبليس هو الذي يحمل الإنسان على إثبات هؤلاء الشركاء، لا جرم قدم قصته في هذه الآية إتمامًا لذلك الغرض. ثم قال القاضي: وهذه القصة وإن كان تعالى قد كررها في سور كثيرة إلا أن في كل موضع منها فائدة مجددة.

المسألة الثانية: أنه تعالى بيّن في هذه الآية أن إبليس كان من الجن، وللناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال: **الأول**: أنه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن ولهم فيه وجوه: الأول: أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. والثاني: أن الجن سمُوا جنًّا للاستتار والملائكة كذلك

فهم داخلون في الجن. الثالث: أنه كان خازن الجنة ونُسب إلى الجنة كقولهم كوفي وبصري. وعن سعيد بن جبير أنه كان من الجنانين الذين يعملون في الجنات حي من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خُلقوا رَواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير.

والقول الثاني: أنه من الجن الذين هم الشياطين والذين خُلقوا من نار وهو أبوهم.

والقول الثالث: قول من قال: كان من الملائكة فمُسِخ وغُير. وهذه المسألة قد أحكمناها في سورة البقرة.

وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة.

بقي أن يقال: إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن إبليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك الأمر؟ وأيضًا لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم؟ وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء.

ثم قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وفي ظاهره إشكال لأن الفاسق لا يفسق عن أمر ربه، فلهذا السبب ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: قال الفراء: ففسق عن أمر ربه، أي خرج عن طاعته. والعرب تقول: فسقت الرطبة من قشرها، أي خرجت، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرٍ غَائِرَا فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا (١)

الثاني: حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال: لما أُمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر، والمعنى أنه لولا ذلك الأمر السابق لما حصل الفسق، فلأجل هذا المعنى حسن أن يقال: فسق عن أمر ربه. الثالث: قال قطرب: فسق عن أمر ربه رده كقوله واسأل القرية واسأل العير.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المقصود من هذا الكلام أن إبليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم، فوجب أن يكون هو أشرف من آدم، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم: إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم، فلما علمتم أن إبليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة؟! هذا هو تقرير الكلام.

فإن قيل: إن هذا الكلام لا يتم إلا بإثبات مقدمات: فأولها: إثبات إبليس. وثانيها: إثبات ذرية إبليس. وثالثها: إثبات عداوة بين إبليس وذريته وبين أولاد آدم. ورابعها: أن هذا القول

(١) تقدمت ترجمته الشاعر رؤبة.

الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بإبليس. وكل هذه المقدمات الأربعة لا سبيل إلى إثباتها إلا بقول النبي محمدﷺ . فالجاهل بصدق النبي جاهل بها. إذا عرفت هذا فنقول: المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيًا صادقًا أو ما عرفوا ذلك؟ فإن عرفوا كونه نبيًا صادقًا قبلوا قوله في كل ما يقوله، فكلما نهاهم النبيﷺ عن قول انتهوا عنه، وحينئذٍ فلا حاجة إلى قصة إبليس وإن لم يعرفوا كونه نبيًا جهلوا كل هذه المقدمات الأربعة ولم يعرفوا صحتها، فحينئذٍ لا يكون في إيرادها عليهم فائدة.

والجواب: أن المشركين كانوا قد سمعوا قصة إبليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن إبليس إنما تكبر على آدم بسبب نسبه، فإذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرًا لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع.

المسألة الثانية: قال الجبائي في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد، إذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر إبليس أقل من ضرر الله عليهما، فكيف يوبخهم بقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ تعالى الله عنه علوًّا كبيرًا. بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من إبليس بل الضرر كله من الله. والجواب: المعارضة بالداعي والعلم.

المسألة الثالثة: إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين: أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله؛ لأن الداعي لهم إلى ترك دين محمدﷺ هو النخوة وإظهار العُجْب. فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتدٍ بإبليس، وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق، فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته.

ثم قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ إلى من يعود؟ فيه وجوه: أحدها: - وهو الذي ذهب إليه الأكثرون - أن المعنى: ما أشهدت الذي اتخذتموهم أولياء خلق السماوات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٦٦] يعني ما أشهدتهم لأعتضد بهم. والدليل عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي وما كنت متخذهم. فوضع الظاهر موضع المضمر بيانًا لإضلالهم. وقوله: ﴿عَضُدًا﴾ أي أعوانًا. وثانيها: -وهو أقرب عندي- أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك. فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم. بدليل قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة، بل هم قوم كسائر الخلق، فلمَ أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له:

لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة، فلمَ تُقدم عليها؟!
والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات. وفي هذه الآية المذكورة الأقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ والمراد بالظالمين أولئك الكفار.
وثالثها: أن يكون المراد من قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم: السعيد من حكم الله بسعادته في الأزل والشقي من حكم الله بشقاوته في الأزل، وأنتم غافلون عن أحوال الأزل. كأنه تعالى قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل، بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) قرئ (وما كنت) بالفتح، والخطاب لرسول الله ﷺ، والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم. وقرأ علي رضوان الله عليه: (متخذًا المضلين) بالتنوين على الأصل. وقرأ الحسن: (عُضْدًا) بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين، وقرئ: (عَضْدًا) بالفتح وسكون الضاد (وَعُضُدًا) بضمتين (وَعَضَدًا) بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد، من عضده إذا قواه وأعانه.

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء بإبليس، عاد بعده إلى التهويل بأحوال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ **وفيه أبحاث**:

البحث الأول: قرأ حمزة: (نَقُولُ) بالنون عطفًا على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ و﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ و ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ والباقون قرأوا بالياء.

البحث الثاني: (واذكر يوم نقول) عطفًا على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾.

البحث الثالث: المعنى: واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة إذ يقول الله لهم: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ أي ادعوا من زعمتم أنهم شركاء لي حيث أهلتموهم للعبادة، ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم. والمراد بالشركاء الجن فدعوهم، ولم يذكر تعالى في هذه الآية أنهم كيف دعوا الشركاء لأنه تعالى بيّن ذلك في آية أخرى وهو أنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ [غافر: ٤٧] ثم قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي لم يجيبوهم إلى ما دعوهم إليه ولم يدفعوا عنهم ضررًا وما أوصلوا إليهم نفعًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ **وفيه وجوه: الأول**: قال صاحب (الكشاف): الموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقًا ووبقًا، إذا هلك، وأوبقه غيره، فيجوز أن يكون مصدرًا كالمورد والموعد، وتقرير هذا الوجه أن يقال: إن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى - دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم، فأدخل الله تعالى

هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى الجنة، وصار الملائكة إلى حيث أراد الله من دار الكرامة، وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادي في جهنم. **الوجه الثاني:** قال الحسن: (مَوْبِقًا) أي عداوة والمعنى عداوة هي في شدتها هلاك. ومنه قوله: لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا. **الوجه الثالث:** قال الفراء: البين: المواصلة أي جعلنا مواصلتهم في الدنيا هلاكًا في يوم القيامة. **الوجه الرابع:** الموبق: البرزخ البعيد أي جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخًا بعيدًا يهلك فيه الساري لفرط بعده، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ وفي هذا الظن قولان: الأول: أن الظن هاهنا بمعنى العلم واليقين. والثاني: - وهو الأقرب - أن المعنى أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة؛ لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها. كما قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقوله: ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي مخالطوها، فإن مخالطة الشيء لغيره إذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي لم يجدوا عن النار معدلاً إلى غيرها لأن الملائكة تسوقهم إليها.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾

اعلم أن أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، وبيّن تعالى بالوجوه الكثيرة أن قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين، قال بعده: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وهو إشارة إلى ما سبق، والتصريف يقتضي التكرير، والأمر كذلك لأنه تعالى أجاب عن شبهتهم التي ذكروها من وجوه كثيرة، ومع تلك الجوابات الشافية والأمثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لا يتركون، المجادلة الباطلة فقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل، وانتصاب قوله (جدلاً) على التمييز، قال بعض المحققين: والآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام جادلوهم في الدين حتى صاروا هم مجادلين لأن المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل.

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قالت المعتزلة: الآية دالة على أنه لم يوجد ما يمنع من الإقدام على الإيمان، وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه حصل المانع. قال أصحابنا: العلم بأنه لا يؤمن مضاد لوجود الإيمان. فإذا كان ذلك العلم قائمًا كان المانع قائمًا. وأيضًا حصول الداعي إلى الكفر قائم وإلا لما وجب؛ لأن الفعل الاختياري بدون الداعي محال، ووجود الداعي إلى الكفر مانع من حصول الإيمان. وإذا ثبت هذا ظهر أن المراد مقدار الموانع المحسوسة.

البحث الثاني: المعنى أنه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الإسلام، وثبت أنه لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة، والأعذار زائلة، فلمَ لم يقدموا على الإيمان؟! ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو عذاب الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي (قبلًا) بضم القاف والباء جميعًا وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء وقيل مقابلة وعيانًا، والباقون (قبلًا) بكسر القاف وفتح الباء أي عِيانًا أيضًا، وروى صاحب الكشاف (قبلًا) بفتحتين أي مستقبلاً. والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا، واعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين؛ لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين، ثم بيَّن تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعًا، وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق. وهذا يدل على أن الأنبياء كانوا يجادلونهم لما بينا أن المجادلة إنما تحصل من الجانبين، وبيَّن تعالى أيضًا أنهم اتخذوا آيات الله وهي القرآن وإنذارات الأنبياء هزوًا، وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة. قال النحويون: (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ يجوز أن تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفًا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إنذارهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل، وَصَفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان.

الصفة الأولى: قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لا ظلم أعظم مِن كفر من تَرِد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ما قدمت يداه، أي مع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم.

الصفة الثانية: (قوله): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء في سورة الأنعام، والعجب أن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ متمسك القدرية، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلما نجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر، والتجربة تكشف عن صدق قولنا، وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الغفور: البليغ المغفرة، وهو إشارة إلى دفع المضار، ذو الرحمة: الموصوف بالرحمة، وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة لا في الرحمة، لأن المغفرة ترك الإضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادرًا عليها، أما فعل الرحمة فهو متناهٍ لأن ترك ما لا نهاية له ممكن، أما فعل ما لا نهاية له فمحال، ويمكن أن يقال: المراد أنه يغفر كثيرًا لأنه ذو الرحمة ولا حاجة به إليها فيهبها من المحتاجين كثيرًا، ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ثم قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو إما يوم القيامة، وإما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (وقوله): ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ (أي) منجى ولا ملجأ، يقال: وأل، إذا لجأ، ووأل إليه إذا لجأ إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم، أشار إليها ليعتبروا، و(تلك) مبتدأ، والقرى صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأصناف الأجناس و(أهلكناهم) خبر والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي وضربنا لإهلاكهم وقتًا معلومًا لا يتأخرون عنه، كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك: الإهلاك أو وقته، وقرئ (لمهلكهم) بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة، أي لهلاكهم أو وقت هلاكهم، والموعد وقت أو مصدر، والمراد: إنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم نَدَعْ أن نضرب له وقتًا ليكونوا إلى التوبة أقرب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ

إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي أن موسى عليه السلام ذهب إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم، وهذا وإن كان كلامًا مستقلاً في نفسه إلا أنه يُعِين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين، أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه - ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضَع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا. وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيًا من عند الله تعالى أن يكون عالمًا بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيًا صادقًا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين.

المسألة الثانية: أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة. وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوفًا ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس صاحب موسى بن عمران، وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقيل: هو كان نبيًا قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس: كذب عدو الله[1]، واعلم أنه كان ليوسف عليه السلام ولدان أفرائيم وميشا فولد أفرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته، وأما ولد ميشا فقيل: إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران، ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم، والخضر هو الذي خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، وموسى بن ميشا معه، هذا هو قول جمهور اليهود، واحتج القفال على صحة قولنا: إن موسى هذا هو صاحب التوراة، قال: إن الله تعالى ما ذكر موسى في كتابه إلا وأراد به صاحب التوراة، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه، ولو كان المراد شخصًا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وإزالة الشبهة، كما أنه لما كان المشهور في العرف من أبي حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين، فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلاً سواء، لقيدناه مثل أن نقول: قال أبو حنيفة الدينوري. وحجة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (العلم) باب (ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم) (١/ ٥٦) حديث رقم/ ١٢٢ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٨٠) كلاهما من طريق عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير . . . به.

الذين قالوا: موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد أن أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه بالمعجزات القاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر أكابر الأنبياء - يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة. وأجيب عنه بأنه لا يبعد أن العالم الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر متعارف معلوم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في فتى موسى: فالأكثرون على أنه يوشع بن نون، وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي هريرة عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ يقول: فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ[1]. **والقول الثاني**: أن فتى موسى أخو يوشع وكان صاحبًا لموسى عليه السلام في هذا السفر. **والقول الثالث**: روى عمرو بن عبيد عن الحسن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ قال: يعني عبده، قال القفال: واللغة تحتمل ذلك، روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي**»[2] وهذا يدل على أنهم كانوا يسمون العبد فتى والأمة فتاة.

المسألة الرابعة: قيل: إن موسى عليه السلام لما أعطي الألواح وكلمه الله تعالى قال: مَن الذي أفضل مني وأعلم؟ فقيل: عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر، وفي رواية أخرى أن موسى عليه السلام لما أوتي من العلم ما أوتي ظن أنه لا أحد مثله، فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال: يا موسى انظر إلى هذا الطير الصغير يهوي إلى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع، فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر. قال الأصوليون: هذه الرواية ضعيفة لأن الأنبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لا نهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية، وكل قدر متناهٍ فإن الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وإذا كانت هذه المقدمات معلومة، فمن المستبعد جدًّا أن يقطع العاقل بأنه لا أحد أعلم مني، لا سيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الأشياء وشدة براءته عن الأخلاق الذميمة كالعُجب والتيه والصلف. والرواية الثالثة: قِيلَ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ سَأَلَ رَبَّهُ: أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُنِي وَلاَ يَنْسَانِي. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى؟ قَالَ: الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلاَ يَتَّبِعُ الْهَوَى. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَبْتَغِي عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ عَسَى أَنْ يُصِيبَ كَلِمَةً تَدُلُّهُ عَلَى هُدًى أَوْ تَرُدُّهُ عَنْ رَدًى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنْ كَانَ فِي عِبَادِكَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا...) (٤/ ١٧٥٧) حديث رقم/ ٤٤٥٠ من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (٢/ ٢٩٩) حديث رقم/ ٢١٠ . وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (لايقول المملوك ربي وربتي) (٤/ ٢١١٩) حديث رقم/ ٤٩٧٥ والإمام أحمد في (مسنده) (٢/ ٤٢٣/ ٤٩١/ ٥٠٨) جميعًا من طريق محمد بن سيرين... به. وأورده الشيخ الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٣٦٨).

مِنِّي فَادْلُلْنِي عَلَيْهِ. فَقَالَ: أَعْلَمُ مِنْكَ الْخَضِرُ. قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُهُ؟ قَالَ: عَلَى السَّاحِلِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ. قَالَ يَا رَبِّ: كَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُ فَقَدْتَهُ فَهُوَ هُنَاكَ. فَقَالَ لِفَتَاهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَأَخْبِرْنِي. فَذَهَبَا يَمْشِيَانِ وَرَقَدَ مُوسَى وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ وَطَفَرَ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الْغَدَاءِ طَلَبَ مُوسَى الْحُوتَ فَأَخْبَرَهُ فَتَاهُ بِوُقُوعِهِ فِي الْبَحْرِ، فَرَجَعَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي طَفَرَ الْحُوتُ فِيهِ إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَعَرَّفَهُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنَا عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَنِي اللَّهُ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ أَنَا. فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِهَا فَنَقَرَ فِي الْمَاءِ فَقَالَ الْخَضِرُ: مَا يَنْقُصُ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مِقْدَارَ مَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ (١).

أقول نسبة ذلك القدر القليل الذي أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء إلى كلية ماء البحر نسبة متناهٍ إلى متناهٍ، ونسبة معلومات جميع المخلوقات إلى معلومات الله تعالى نسبة متناهٍ إلى غير متناهٍ، فأين إحدى النسبتين من الأخرى والله العالم بحقائق الأمور.

ونرجع إلى التفسير، أما قوله تعالى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ قال الزجاج قوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ ليس معناه لا أزول؛ لأنه لو كان كذلك لم يقطع أرضًا. أقول يمكن أن يجاب عنه بأن الزوال عن الشيء عبارة عن تركه والإعراض عنه، يقال: زال فلان عن طريقته في الجود، أي تركها، فقوله: (لا أبرح) بمعنى لا أزول عن السير والذهاب، بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل. وأقول: المشهور عند الجمهور أن قوله (لا أبرح) معناه لا أزول، والعرب تقول: لا أبرح ولا أزال ولا أنفك ولا أفتأ بمعنى واحد. قال القفال: وقالوا: أصل قولهم (لا أبرح) من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال. يقال: زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت، إلا أن المستعمل في هذه اللفظة (يزال) فقوله: (لا أبرح) أي أقيم لأن البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدمًا للعدم فيكون ثبوتًا، فقوله: لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل. فإن قيل: إذا كان قوله (لا أبرح) بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر. قلنا: حذف الخبر لأن الحال والكلام يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غاية مضروبة تستدعي شيئًا هي غاية له فيكون المعنى (لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين) ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه، يعني ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ. كما تقول: لا أبرح المكان. وأما مجمع البحرين فهو المكان الذي وُعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره، وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين، فإن صح بالخبر الصحيح شيء

---

(١) تقدم قريبا.

فذاك وإلا فالأولى السكوت عنه، ومن الناس من قال: البحران موسى والخضر لأنهما كانا بحري العلم. وقرئ: (مجمِع) بكسر الميم.

ثم قال: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي أسير زمانًا طويلاً وقيل: الحقب: ثمانون سنة. وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[النبا: ٢٣] وحاصل الكلام أن الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم، وما أعلمه موضعه بعينه، فقال موسى عليه السلام: لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرًا واحدًا أو أمضي دهرًا طويلاً حتى أجد هذا العالم. وهذا إخبار من موسى بأنه وطَّن نفسه على تحمُّل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ والمعنى فانطلقا إلى أن بلغا مجمع بينهما، والضمير في قوله (بينهما) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: مجمع بينهما أي مجمع البحرين، وهو كأنه إشارة إلى (قَوْلِ) موسى (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين) أي فحقق (اللَّهُ) ما قاله. والقول الثاني: أن المعنى: فلما بلغ الموضع الذي يجتمع (فِيهِ) موسى وصاحبه الذي كان يقصده لأن ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه، ولأجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكر الحوت صار إليه. وهو معنى حسن، والمفسرون على القول الأول.

ثم قال تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: الروايات تدل على أنه تعالى بَيَّن لموسى عليه السلام أن هذا العالم موضعه مجمع البحرين، إلا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حيًّا علامة على مسكنه المعين. كمن يطلب إنسانًا فيقال له: إن موضعه محلة كذا من الري فإذا انتهيت إلى المحلة فسل فلانًا عن داره وأين ما ذهب بك فاتبعه فإنك تصل إليه. فكذا ههنا قيل له: إن موضعه مجمع البحرين فإذا وصلت إليه رأيت الحوت انقلب حيًّا وطفر إلى البحر، فيحتمل أنه قيل له: فهنالك موضعه. ويحتمل أنه قيل له: فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فإنك تجده.

إذا عرفت هذا فنقول: إن موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة إلى البحر وسارت، وفي كيفية طفرها روايات أيضًا: قيل: إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملحة فطفرت وسارت. وقيل: إن يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء. وقيل: انفجر (ت) هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة فحييت وطفرت إلى البحر. فهذا هو الكلام في صفة الحوت.

البحث الثاني: المراد من قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب، فإن قيل: انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلاً على الوصول إلى المطلوب، فكيف يعقل

حصول النسيان في هذا المعنى؟

أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرًا، فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم، فجاز حصول النسيان. وعندي فيه جواب آخر وهو أن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيهًا لموسى عليه السلام على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر.

أما قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ **ففيه وجوه. الأول:** أن يكون التقدير: سرب في البحر سربًا إلا أنه أقيم قوله (فاتخذ) مقام قوله (سرب) والسرب هو الذهاب ومنه قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. الثاني: أن الله تعالى أمسك إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه، فلما جاوز أي موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيرًا وتعبا وجاعا: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال الفتى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ الهمزة في (أرأيت) همزة الاستفهام ورأيت على معناه الأصلي، وقد جاء هذا الكلام على ما هو المتعارف بين الناس فإنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه: أرأيت ما حدث لي؟ كذلك هاهنا كأنه قال: أرأيت ما وقع لي منه إذ أوينا إلى الصخرة؟ فحذف مفعول (أرأيت) لأن قوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يدل عليه.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: أنه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير: فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبًا، والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجري مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان.

البحث الثاني: قال الكعبي: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلق ذلك النسيان وما أراده، وإلا كانت إضافته إلى الله تعالى أوجب من إضافته إلى الشيطان لأنه تعالى إذا خلقه فيه لم يكن لسعي الشيطان في وجوده ولا في عدمه - أثر. قال القاضي: والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الإنسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر؛ لأن ذلك لا يصح أن يكون إلا من قبل الله تعالى.

البحث الثالث: قوله ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الهاء في ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان.

ثم قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ **وفيه وجوه: الأول:** أن قوله (عجبًا) صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر اتخاذًا عجبًا. ووجه كونه عجبًا انقلابه من المكتل وصيرورته حيًّا وإلقاء نفسه في البحر على غفلة منهما. **والثاني:** أن يكون المراد منه ما ذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب. **الثالث:** قيل: إنه تم الكلام عند قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ثم قال بعده: (عجبًا) والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها. وقيل: إن قوله

(عجبًا) حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي قال موسى: ذلك الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر. وقوله: (نبغ) أصله نبغي فحذفت الياء طلبًا للتخفيف لدلالة الكسرة عليه، وكان القياس أن لا يحذف لأنهم إنما يحذفون الياء في الأسماء وهذا فعل، إلا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم؟ فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضًا مع غير الساكن. ثم قال فارتدا على آثارهما أي فرجعا.

وقوله: ﴿قَصَصًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه مصدر في موضع الحال، أي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما.

والثاني: أن يكون مصدرًا لقوله (فارتدا على آثارهما)، لأن معناه فاقتصا على آثارهما.

وحاصل الكلام أنهما لما عرفا أنهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم، رجعا وعادا إليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: **قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه بحثان:**

البحث الأول: قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبيًا واحتجوا عليه بوجوه: **الأول:** أنه تعالى قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] والمراد من هذه الرحمة: النبوة. ولقائل أن يقول: نسلم أن النبوة رحمة، أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علّمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد، وكل من علّمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيًا يعلم الأمور بالوحي من الله. وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله، وذلك لا يدل على النبوة.

الحجة الثالثة: أن موسى عليه السلام قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [الكهف: ٦٦] والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم. وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبيًّا أما في غير تلك العلوم فلا.

الحجة الرابعة: أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وأما موسى فإنه أظهر التواضع له حيث قال: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى، ومن لا يكون نبيًّا لا يكون فوق النبي.

وهذا أيضًا ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها. فلمَ قلتم: إن ذلك لا يجوز؟ فإن قالوا: لأنه يوجب التنفير. قلنا: فارسال موسى إلى التعلم منه بعد إنزال الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة - يوجب التنفير. فإن قالوا: إن هذا لا يوجب التنفير. فكذا القول فيما ذكروه.

الحجة الخامسة: احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ومعناه فعلته بوحي الله، وهو يدل على النبوة. وهذا أيضًا دليل ضعيف وضَعْفه ظاهر.

الحجة السادسة: ما روي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل. فقال موسى عليه السلام: من عرفك هذا؟ قال: الذي بعثك إليّ. قالوا: وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة، ولقائل أن يقول: لمَ لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات؟

البحث الثاني: قال الأكثرون: إن ذلك العبد هو الخضر، وقالوا: إنما سمي بالخضر لأنه كان لا يقف موقفًا إلا أخضر ذلك الموضع، قال الجبائي: قد ظهرت الرواية أن الخضر إنما بُعث بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل. فإن صح ذلك لم يجز أن يكون هذا العبد هو الخضر. وأيضًا: فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر، وقد ثبت أنه يجب أن يكون نبيًّا، فهذا يقتضي أن يكون الخضر أعلى شأنًا من موسى صاحب التوراة، لأنا قد بينا أن الألفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على أن ذلك كان يترفع على موسى، وكان موسى يُظهر التواضع له إلا أن كون الخضر أعلى شأنًا من موسى غير جائز لأن الخضر إما أن يقال إنه كان من بني إسرائيل أو ما كان من بني إسرائيل: فإن قلنا: إنه كان من بني إسرائيل (فقد) كان من أمة موسى لقوله تعالى: حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧] والأمة لا تكون أعلى حالاً من النبي، وإن قلنا: إنه ما كان من بني إسرائيل. لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وهذه الكلمات تقوي قول من يقول: إن موسى هذا غير موسى صاحب التوراة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية، وللشيخ أبي

حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللدنية.

وأقول: تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول: إذا أدركنا أمرًا من الأمور وتصورنا حقيقة من الحقائق، فإما أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق أو لا نحكم وهو التصور، وكل واحد من هذين القسمين فإما أن يكون نظريًا حاصلاً من غير كسب وطلب، وإما أن يكون كسبيًا، أما العلوم النظرية فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب، مثل تصورنا الألم واللذة، والوجود والعدم، ومثل تصديقنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأن الواحد نصف الاثنين. وأما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداء بل لا بد من طريق يتوصل به إلى اكتساب تلك العلوم، وهذا الطريق على قسمين: أحدهما: أن يتكلف الإنسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها إلى استعلام المجهولات. وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروي والاستدلال، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتم إلا بالجهد والطلب. والنوع الثاني: أن يسعى الإنسان بواسطة الرياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة، فإذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل، وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية.

إذا عرفت هذا فنقول: جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية: فقد تكون النفس نفسًا مشرقة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية، فلا جرم كانت أبدًا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والأنوار الإلهية، فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام، وهذا هو المراد بالعلم اللدني وهو المراد من قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وأما النفس التي ما بلغت في صفاء الجوهر وإشراق العنصر، فهي النفس الناقصة البليدة التي لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم إلا بمتوسط بشري يحتال في تعليمه وتعلمه، والقسم الأول بالنسبة إلى القسم الثاني كالشمس بالنسبة إلى الأضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة إلى الجداول الجزئية وكالروح الأعظم بالنسبة إلى الأرواح الجزئية. فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ، ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ . **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو ويعقوب (رَشَدًا) بفتح الراء والشين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بضم الراء والشين، والباقون بضم الراء وتسكين الشين، قال القفال: وهي لغات في معنى واحد، يقال: رَشَد ورُشْد مثل نَكَر ونُكْر، كما يقال سَقَم وسُقْم وشَغَل وشُغْل وبَخَل وبُخْل وعَدَم وعُدْم. وقوله ﴿رُشْدًا﴾ أي علمًا ذا رشد، قال القفال: قوله: ﴿رُشْدًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الرشد راجعًا إلى الخضر، أي مما علمك الله وأرشدك به. والثاني: أن يرجع ذلك إلى موسى ويكون المعنى: على أن تعلمني وترشدني مما علمت.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر: **فأحدها**: أنه جعل نفسه تبعًا له لأنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ . **وثانيها**: أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك؟ وهذا مبالغة عظيمة في التواضع. **وثالثها**: أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم. **ورابعها**: أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وصيغة (مِن) للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضًا مُشعر بالتواضع كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزأ من أجزاء ماله. **وخامسها**: أن قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم. **وسادسها**: أن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال. **وسابعها**: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليَّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم؛ ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه حرفًا. **وثامنها**: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: (لا إله إلا الله) فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها، لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ. إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها. وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض. **وتاسعها**: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء. **وعاشرها**: أنه ثبت بالإخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة - أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيًا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد. **والحادي عشر**: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولاً ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم. **والثاني عشر**: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كانه قال: لا أطلب منك على هذه

المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم .

ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى : اعلم أن المتعلم على قسمين : متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض، ومتعلم حصَّل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض . ثم إنه يريد أن يخالط إنسانًا أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم، فهذا القسم الثاني شاق شديد، وذلك لأنه إذا رأى شيئًا أو سمع كلامًا فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرًا إلا أنه كان في الحقيقة حقًّا صوابًا، فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال وتعوَّد الكلام والجدال - يغتر ظاهره ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته، وحينئذٍ يُقْدم على النزاع والاعتراض والمجادلة، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر، فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة، وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ إشارة إلى أنه ألف الكلام وتعوَّد الإثبات والإبطال والاستدلال والاعتراض، وقوله : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هي، وقد ذكرنا أنه متى حصل الأمران صعب السكوت وعسر التعليم، وانتهى الأمر بالآخرة إلى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر .

المسألة الثانية : احتج أصحابنا بقوله : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ على أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل . قالوا : لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل، لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر، فيلزم أن يصير قوله : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ كذبًا، ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل .

أجاب الجبائي عنه : أن المراد من هذا القول أنه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه، يقال في العرف : (إن فلانًا لا يستطيع أن يرى فلانًا و(لا) أن يجالسه) إذا كان يثقل عليه ذلك . ونظيره قوله تعالى : ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠] أي كان يشق عليهم الاستماع . فيقال له : هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وإنه لا يجوز . وأقول : مما يؤكد هذا الاستدلال الذي ذكره الأصحاب قوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ استبعد حصول الصبر على ما لم يقف الإنسان على حقيقته، ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم، ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعدًا، لأن القادر على الفعل لا يبعد منه إقدامه على ذلك الفعل، ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل .

ثم حكى الله تعالى عن موسى أنه قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى : احتج الطاعنون في عصمة الله الأنبياء بهذه الآية فقالوا : إن الخضر قال

لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وكل واحد من هذين القولين يُكذب الآخر، فيلزم إلحاق الكذب بأحدهما، وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الأنبياء عليهم السلام، والجواب أن يُحمل قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على الأكثر الأغلب، وعلى هذا التقدير فلا يلزم ما ذكروه.

المسألة الثانية: لفظة (إن كان كذا) تفيد الشك فقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معناه ستجدني صابرًا إن شاء الله كوني صابرًا، وهذا يقتضي وقوع الشك في أن الله هل يريد كونه صابرًا أم لا. ولا شك أن الصبر في مقام التوقف واجب، فهذا يقتضي أن الله تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه، وهذا يدل على صحة قولنا: إن الله تعالى قد يأمر بالشيء مع أنه لا يريده. قالت المعتزلة: هذه الكلمة إنما تُذكر رعاية للأدب فيما يريد الإنسان أن يفعله في المستقبل. فيقال لهم: هذا الأدب إن صح معناه فقد ثبت المطلوب، وإن فسد فأي أدب في ذكر هذا الكلام الباطل؟

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب؛ لأن تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية، والعاصي يستحق العقاب لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] وهذا يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب.

المسألة الرابعة: قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ نسبة إلى قلة العلم والخبر، وقول موسى له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ تواضع شديد وإظهار للتحمل التام والتواضع الشديد، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات، وأما المعلم فإن رأى أن في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعًا وإرشادًا إلى الخير، فالواجب عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم.

ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي لا تستخبرني عما تراه مني مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدئ لتعليمك إياه وإخبارك به، وفي قراءة ابن عامر (فلا تسألَنّ) محركة اللام مشددة النون بغير ياء. وروى عنه (لا تسألني) مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع، وفي قراءة الباقين (لا تسألنِ) خفيفة والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أن موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا، فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فركباها، وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة، وأقول: لعله أقدم

على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق إلى أهلها، فعند ذلك قال موسى له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي: (لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا) بفتح الياء على إسناد الغرق إلى الأهل، والباقون (لتُغرق أهلها) على الخطاب، والتقدير: لتغرق أنت أهل هذه السفينة.

البحث الثاني: أن موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الأمر المنكر بحسب الظاهر – نسي الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ما قال.

واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين: الأول: أنه ثبت بالدليل أن ذلك العالم كان من الأنبياء، ثم قال موسى عليه السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإن صدق موسى في هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبي، وإن كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام. **الثاني:** أنه التزم أن لا يعترض على ذلك العالم، وجرت العهود المؤكدة لذلك، ثم إنه خالف تلك العهود وذلك ذنب.

والجواب عن الأول: أنه لما شاهد موسى عليه السلام منه الأمر الخارج عن العادة قال هذا الكلام، لا لأجل أنه اعتقد فيه أنه فعل قبيحًا، بل لأنه أحب أن يقف على وجهه وسببه، وقد يقال في الشيء العجيب الذي لا يُعرف سببه: إنه إمر يقال أمِر الأمر، إذا عظُم وقال الشاعر:

داهِـــيَـــةً دهْـــيَـــاءَ

وعلى الثاني: أنه فعل بناء على النسيان. ثم إنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي بشيء: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يقال: رهقه، إذا غشيه، وأرهقه إياه، أي ولا تغشني من أمري عسرًا، وهو اتباعه إياه، يعني ولا تُعسر عليّ متابعتك ويسِّرها عليَّ بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: (عُسُرًا) بضمتين.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ، بدليل أنه يقال: (رأيُ الشيخ خير من مشهد الغلام) جعل الشيخ نقيضًا للغلام، وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب، وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق، وذلك إنما يكون في الشباب، وأما تناول هذا اللفظ للصبي الصغير فظاهر.

وليس في القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفردًا؟ وهل كان مسلمًا أو كان كافرًا؟ وهل كان منعزلاً؟ وهل كان بالغًا أو كان صغيرًا؟ وكان اسم الغلام بالصغير أليق وإن احتمل الكبير إلا أن قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أليق بالبالغ منه بالصبي؛ لأن الصبي

لا يُقتل وإن قتل، وأيضًا فهل قتَله بأن حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر؟ فليسَ في لفظ القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقسام.

فعند هذا قال موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (زاكية) بالألف والباقون (زكية) بغير ألف، قال الكسائي: الزاكية والزكية لغتان ومعناهما: الطاهرة. وقال أبو عمرو: (الزاكية) التي لم تذنب و(الزكية) التي أذنبت ثم تابت.

البحث الثاني: ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس إلا لأجل القصاص بالنفس، وليس الأمر كذلك لأنه قد يحل دمه بسبب من الأسباب، وجوابه أن السبب الأقوى هو ذلك.

البحث الثالث: النكر أعظم من الإمر في القبح، وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لأن ذلك ما كان إتلافًا للنفس لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق، أما هاهنا حصل الإتلاف قطعًا فكان أنكر. وقيل: إن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي عجبًا والنكر أعظم من العجب، وقيل: النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس، فهو أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر، ومنهم من قال: الإمر أعظم. قال: لأن خرق السفينة يؤدي إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذ القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد، وأيضًا الإمر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر. وأنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه ما زاد على أن ذكره ما عاهده عليه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وهذا عين ما ذكره في المسألة الأولى إلا أنه زاد هاهنا لفظة (لك) لأن هذه اللفظة تؤكد التوبيخ، فعند هذا قال موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته، وهذا كلامُ نادم شديد الندامة، ثم قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ والمراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولاً وثانيًا، مع قرب المدة.

وبقي مما يتعلق بالقراءة في هذه الآية ثلاثة مواضع:

الأول: قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم (نكرًا) بضم الكاف في جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان.

الثاني: الكل قرؤوا: (فَلا تُصاحِبْنِي) بالألف إلا يعقوب فإنه قرأ: (لاَ تَصْحَبْنِي) من صحب والمعنى واحد.

الثالث: في ﴿لَّدُنِّي﴾ قراءات: الأولى: قراءة نافع وأبي بكر في بعض الروايات عن عاصم: (مِنْ لَدُنِي) بتخفيف النون وضم الدال. الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: (لَدُنِّي) مشددة النون وضم الدال. الثالثة: قرأ أبو بكر عن عاصم بالإشمام وغير إشباع. الرابعة: (من لُدْني) بضم اللام وسكون الدال في بعض الروايات عن عاصم، وهذه القراءات كلها لغات في هذه اللفظة.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾﴾

اعلم أن تلك القرية هي أنطاكية وقيل هي الأيلة وهاهنا سؤالات: **الأول:** أن الاستطعام ليس من عادة الكرام، فكيف أقدم عليه موسى وذلك العالم؛ لأن موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى أنه تعالى حكى عنه أنه قال في قصة موسى عند ورود ماء مدين: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]. الجواب: أن إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع، بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ وكان من الواجب أن يقال: استطعما منهم؟ والجواب أن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر:

لَيتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنعِبُ دَائِمًا ... كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ[(١)]

السؤال الثالث: أن الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب، وذلك أمر غير منكر، فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لأجله ترك العهد الذي التزمه مع ذلك العالم في قوله: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ وأيضًا مثل هذا الغضب لأجل ترك الأكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلاً عن كليم الله.

الجواب: أما قوله: (الضيافة من المندوبات) قلنا: قد تكون من المندوبات، وقد تكون من الواجبات بأن كان الضيف قد بلغ في الجوع إلى حيث لو لم يأكل لهلك، وإذا كان التقدير ما ذكرناه لم يكن الغضب الشديد لأجل ترك الأكل يومًا. فإن قالوا: ما بلغ في الجوع إلى حد الهلاك بدليل أنه قال: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ وكان يطلب على إصلاح ذلك الجدار أجرة، ولو كان قد بلغ في الجوع إلى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل، فكيف يصح منه طلب الأجرة؟ قلنا: لعل ذلك الجوع كان شديدًا إلا أنه ما بلغ حد الهلاك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول: (يضيفوهما) يقال: ضافه إذا كان له ضيفًا، وحقيقته مال إليه، مِن ضاف السهم عن الغرض. ونظيره: زاره من الازورار، وأضافه وضَيَّفه: أنزله، وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ «كَانُوا أَهلَ قَريَةٍ لِئَامًا»[(٢)].

البحث الثاني: رأيت في كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية

---

(١) هذا البيت لجرير وتقدمت ترجمته.

(٢) تقدم.

استحيوا، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ بحمل من الذهب وقالوا: يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء تاءً حتى تصير القراءة هكذا: (فأتوا أن يضيفوهما). أي أتوا لأن يضيفوهما، أي كان إتيان أهل تلك القرية إليهما لأجل الضيافة، وقالوا: غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم. فامتنع رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ تَغْيِيرَ هَذِهِ النُّقْطَةِ يُوجِبُ دُخُولَ الْكَذِبِ فِي كَلَامِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْقَدْحَ فِي الْإِلَهِيَّةِ» فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ أي فرأيا في القرية حائطًا مائلاً، فإن قيل: كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة مع أن الإرادة من صفات الأحياء؟ قلنا: هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة، وله نظائر في الشعر، قال:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وأنشد الفراء:

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْعَلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ(١)

وقال الراعي

فِي مهمة فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إِذَا أَرَدْنَ نُصُولا(٢)

ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ يقال: انقض، إذا أسرع سقوطه، من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته. وقيل: انقض فعل من النقض كأحمر من الحمرة، وقرئ (أن ينقض) من النقض، و(أن ينقاض) من انقاضت العين إذا انشقت طولاً. وأما قوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: نقضه ثم بناه، وقيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيده فقام واستوى، وكان ذلك من معجزاته، واعلم أن ذلك العالم لما فعل ذلك وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار إلى الطعام، فلأجل تلك الضرورة نسي موسى ما قاله من قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ فلا جرم قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي طلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات، وقرئ: (لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً) والتاء تخذت أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع، واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ .

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: قوله: (هذا) إشارة إلى ماذا؟ والجواب من وجهين: الأول: أن موسى عليه

(١) تقدمت ترجمة الفراء.

(٢) الراعي النميري تقدمت ترجمته.

السلام قد شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالاً آخر يحصل الفراق حيث قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ أي هذا الفراق الموعود. الثاني: أن يكون قوله (هذا) إشارة إلى السؤال الثالث، أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾؟ الجواب: معناه هذا فراق حصل بيني وبينك، فأضيف المصدر إلى الظرف، حكى القفال عن بعض أهل العربية أن البين هو الوصل لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[الأنعام: ٩٤] فكان المعنى هذا فراق بيننا، أي اتصالنا، كقول القائل: أخزى الله الكاذب مني ومنك، أي أحدنا، هكذا قاله الزجاج.

ثم قال العالم لموسى عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة، وأصل التأويل راجع إلى قولهم: آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه، فإذا قيل: ما تأويله؟ فالمعنى: ما مصيره..

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد، وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر، كما قال عليه السلام: «**نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ**» وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل كانت مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر؛ وذلك لأن الظاهر أنه يَحرم التصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسألة الأولى وفي الثانية – من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن تخريق السفينة تنقيص لملك الإنسان من غير سبب ظاهر، وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل في المسألة الثالثة تحمُّل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر، وفي هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنيًّا على الأسباب الظاهرة المعلومة، بل كان ذلك الحكم مبنيًّا على أسباب معتبرة في نفس الأمر، وهذا يدل على

أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع بها على حقائق الأشياء، فكانت مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع والأحكام بناء الأمر على الظواهر، وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء وحقائق الأمور والاطلاع على أسرارها الكامنة، فبهذا الطريق ظهر أن مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام.

إذا عرفت هذا فنقول: المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو أن عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى؛ فهذا هو الأصل المعتبر في المسائل الثلاثة.

أما المسألة الأولى: فلأن ذلك العالم عَلِم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق، لغصبها ذلك الملك، وفاتت منافعها على مُلاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها، وبين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها، ولا شك أن الضرر الأول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثاني الذي هو أعظمهما.

وأما المسألة الثانية: فكذلك لأن بقاء ذلك الغلام حيًّا كان مفسدة للوالدين في دينهم وفي دنياهم، ولعله علم بالوحي أن المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للأبوين، فلهذا السبب أقدم على قتله.

والمسألة الثالثة: أيضًا كذلك لأن المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه، لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام، وفيه ضرر شديد.

فالحاصل أن ذلك العالم كان مخصوصًا بالوقوف على بواطن الأشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هي عليها في أنفسها، وكان مخصوصًا ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنة، وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور، فلا جرم ظهر التفاوت بينهما في العلم.

فإن قال قائل: فحاصل الكلام أنه تعالى أطلعه على بواطن الأشياء وحقائقها في نفسها، وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه، وموسى عليه السلام إنما ذهب إليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم أن يُظهر له علمًا يمكن له تعلمه، وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة في ذكرها وإظهارها؟

والجواب: أن العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة، وأما العلم ببواطن الأشياء فإنما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية، ولهذا قال تعالى في صفة علم ذلك العالم: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام أن كمال الدرجة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على البواطن والتطلع على حقائق الأمور.

المسألة الثانية: اعلم أن ذلك العالم أجاب عن المسألة الأولى بقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ

﴿لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ **وفيه فوائد:**

الفائدة الأولى: أن تلك السفينة كانت لأقوام محتاجين متعيشين بها في البحر، والله تعالى سماهم مساكين، واعلم أن الشافعي رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين؛ لأنه تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة.

الفائدة الثانية: أن مراد ذلك العالم من هذا الكلام أنه ما كان مقصودي من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها، بل مقصودي أن ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب، فجعلتُ هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم، فإن ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب، فإن قيل: وهل يجوز للأجنبي أن يتصرف في ملك الغير لمثل هذا الغرض؟ قلنا: هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع، فلعل هذا المعنى كان جائزًا في تلك الشريعة، وأما في شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد، فإنا إذا علمنا أن الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الإنسان، فإن دفعنا إلى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقي، فحينئذٍ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الإنسان إلى قاطع الطريق ليسلم الباقي، وكان هذا منا يعد إحسانًا إلى ذلك المالك.

الفائدة الثالثة: أن ذلك التخريق وجب أن يكون واقعًا على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية؛ إذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها، وحينئذٍ لم يكن تخريقها جائزًا.

الفائدة الرابعة: لفظ الوراء على قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ فيه قولان: الأول: أن المراد منه (وكان أمامهم ملك يأخذ)، هكذا قاله الفراء، وتفسيره قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي أمامهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وتحقيقه أن كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه، فكل ما غاب عنك فهو وراءك وأمام الشيء وقدامه إذا كان غائبًا عنه متواريًا عنه، فلم يبعد إطلاق لفظ وراء عليه. والقول الثاني: يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذي يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه.

وأما المسألة الثانية وهي قتل الغلام: فقد أجاب العالم عنها بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ قيل: إن ذلك الغلام كان بالغًا وكان يقطع الطريق ويُقْدم على الأفعال المنكرة، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات، وكان يصير ذلك سببًا لوقوعهما في الفسق، وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر، وقيل: إنه كان صبيًا إلا أن الله تعالى علم منه أنه لو صار بالغًا لحصلت منه هذه المفاسد.

وقوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن، والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه، وقوله: ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا﴾ فيه

قولان: الأول: أن يكون المراد أن ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر، كقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]أي لا تحملني على عسر وضيق. وذلك لأن أبويه لأجل حب ذلك الولد يحتاجان إلى الذب عنه، وربما احتاجا إلى موافقته في تلك الأفعال المنكرة. والثاني: أن يكون المعنى أن ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار، فإن قيل: هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان لمثل هذا الظن؟ قلنا: إذا تأكد ذلك الظن بوحي الله جاز.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولدًا خيرًا. من هذا الغلام زكاة، أي دينًا وصلاحًا، وقيل: إن ذكره الزكاة هاهنا على مقابلة قول موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]فقال العالم: أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين خيرًا بدلاً عن ابنهما هذا ولدًا يكون خيرًا منه، كما ذكرته من الزكاة، ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكأن موسى عليه السلام قال: أقتلت نفسًا طاهرة لأنها ما وصلت إلى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة من المعاصي؟ فقال العالم: إن تلك النفس وإن كانت زاكية طاهرة في الحال، إلا أنه تعالى علم منها أنها إذا بلغت أقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولدًا أعظم زكاة وطهارة منه، وهو الذي يعلم الله منه أنه عند البلوغ لا يقدم على شيء من هذه المحظورات. ومن قال: إن ذلك الغلام كان بالغًا قال: المراد من صفة نفسه بكونها زاكية أنه لم يظهر عليه ما يوجب قتله. ثم قال: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي يكون هذا البدل أقرب عطفًا ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما، والرحم الرحمة والعطف. روي أنه وُلدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبيًا هدى الله على يديه أمة عظيمة.

بقي من مباحث هذه الآية موضعان في القراءة. **الأول:** قرأ نافع وأبو عمرو (يبدلهما) بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك في التحريم: (أن يُبَدِّله أزواجًا) [التحريم: ٥]وفي القلم: (عسى ربنا أن يُبدِّلنا) [القلم: ٣٢]والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال، وهما لغتان أبْدَل يبدل وبدل يبدل. الثاني: قراءة ابن عامر في إحدى الروايتين عن أبي عمرو (رحمًا) بضم الحاء والباقون بسكونها، وهما لغتان، مثل نُكْر ونُكُر وشُغْل وشُغُل.

وأما المسألة الثالثة وهي إقامة الجدار: فقد أجاب العالم عنها بأن الداعي له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز، وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحًا، ولما كان ذلك الجدار مشرفًا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمرني بإقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح. وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال: ﴿إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وسماه أيضًا مدينة حيث قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ .

الفائدة الثانية: اختلفوا في هذا الكنز: فقيل: إنه كان مالاً. وهذا هو الصحيح لوجهين.

الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال. والثاني: أن قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال. وقيل: إنه كان علمًا بدليل أنه قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] وقيل: كان لوحًا من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء. وعن جعفر بن محمد: كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء. وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله مال الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدي خير منه؟ قال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون. وذكروا أيضًا أن ذلك الأب الصالح كان الناس يضعون الودائع إليه فيردها إليهم بالسلامة.

فإن قيل: اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ما عرف أحد منهما؟ فإن كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار. وإن كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به؟

الجواب: لعل اليتيمين كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالمًا به، ثم (إن) ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط. ولما قرر العالم هذه الجوابات قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمُّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه. ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع.

بقي في الآية سؤال، وهو أنه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد؟

والجواب: أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه فقال: أردت أن أعيبها. ولما ذكر القتل عَبَّر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهًا على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يُقْدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى؛ لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، **وفيها مسائل:**

المسألة الأولى: قد ذكرنا في أول هذه السورة أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح، فالمراد من قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو ذلك السؤال.

المسألة الثانية: اختلف الناس في أن ذا القرنين من هو؟ وذكروا فيه أقوالاً:

الأول: أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني. قالوا: والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] وأيضًا بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠] وأيضًا بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وبدليل أن السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ إنه مبني في أقصى الشمال، فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا المُلْك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدًا على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفيًّا مستترًا.

والمَلك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر، وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف، ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم، وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر. ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه، فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس، ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً مَلَك الأرض بالكلية أو ما يقرب منها، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر، وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني.

ثم ذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوهًا: الأول: أنه لقب بهذا اللقب لأجل بلوغه قرني الشمس أي مطلعها ومغربها، كما لُقب أردشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد.

والثاني: أن الفرس قالوا: إن دارا الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلبوس، فلما قرب منها وجد منها

رائحة منكرة فردها على أبيها فيلبوس، وكانت قد حملت منه بالإسكندر فولدت الإسكندر بعد عودها إلى أبيها، فبقي الإسكندر عند فيلبوس وأظهر فيلبوس أنه ابنه وهو في الحقيقة ابن دارا الأكبر. قالوا والدليل عليه أن الإسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال لدارا: يا أبي أخبرني عمن فعل هذا لأنتقم لك منه! فهذا ما قاله الفرس، قالوا: وعلى هذا التقدير فالإسكندر أبوه دارا الأكبر وأمه بنت فيلبوس، فهو إنما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم. وهذا الذي قاله الفرس إنما ذكروه لأنهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم، وهو في الحقيقة كذب، وإنما قال الإسكندر لدارا: يا (أبي) على سبيل التواضع وأكرَمَ دارا بذلك الخطاب.

والقول الثاني: قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية: قيل: إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميري، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال:

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسْلِمًا مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُفَنِّدِي(١)
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدِ

ثم قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي كذا، كذي النادي وذي نواس وذي النون وغير ذلك.

والقول الثالث: أنه كان عبدًا صالحًا مَلَّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة، وإن كنا لا نعرف أنه من هو. **ثم ذكروا في تسميته بذي القرنين وجوهًا:**

الأول: سأل ابن الكوا عليًّا رضي الله عنه عن ذي القرنين وقال: أمَلِك هو أم نبي؟ فقال: لا مَلِك ولا نبي، كان عبدًا صالحًا ضُرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله، فضُرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله، فسمي بذي القرنين وملك ملكه.

الثاني: سمي بذي القرنين لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس.

الثالث: قيل: كان صفحتا رأسه من نحاس.

الرابع: كان على رأسه ما يشبه القرنين.

الخامس: (كَان) لتاجه قرنان.

السادس: عن النبي ﷺ: **«سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا»**. **يعني شرقها وغربها** (٢).

---

(١) هذا البيت لأمية بن الصلت، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) **غريب**: رواه الدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف من قول الزهري فقال: حدثنا مسلم بن عبد الله الحسيني، حدثنا الخضر بن داود، حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز بن عمران عن سليمان بن أسيد عن ابن شهاب الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها فسمي ذا القرنين.

السابع: كان له قرنان، أي ضفيرتان.

الثامن: أن الله تعالى سخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه.

التاسع: يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشًا كأنه ينطح أقرانه.

العاشر: رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها، فسمي لهذا السبب بذي القرنين.

الحادي عشر: سمي بذلك لأنه دخل النور والظلمة. **والقول الرابع:** أن ذا القرنين ملك من الملائكة، عن عمر أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين. فقال: اللهم اغفر. أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة!

فهذا جملة ما قيل في هذا الباب، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه، وهو أن مثل هذا المُلك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا، والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر، فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو إلا أن فيه إشكالاً قويًّا وهو أنه كان تلميذ أرسطاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في ذي القرنين هل كان من الأنبياء أم لا؟ منهم من قال: إنه كان نبيًّا واحتجوا عليه بوجوه: الأول: قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة. والثاني: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ هو أنه تعالى آتاه في النبوة سببًا. الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبيًّا. ومنهم من قال: إنه كان عبدًا صالحًا وما كان نبيًّا.

المسألة الرابعة: في دخول السين في قوله: ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ معناه إني سأفعل هذا إن وفقني الله تعالى عليه وأنزل فيه وحيًا وأخبرني عن كيفية تلك الحال.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة، ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب المُلك من حيث إنه مَلَك مشارق الأرض ومغاربها. والأول أَوْلى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك، وحَمْل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أَوْلى. ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قالوا: السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة، فقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: أعطيناه من كل شيء من الأمور التي يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء، ثم إن الذين قالوا: إنه كان نبيًّا قالوا: من جملة الأشياء النبوة، فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل إلى تحصيل النبوة.

والذين أنكروا كونه نبيًا قالوا: المراد به وآتيناه من كل شيء يحتاج إليه في إصلاح ملكه سببًا. إلا أن لقائل أن يقول: إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل. ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ومعناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شيء سببه فإذا أراد شيئًا أتبع سببًا يوصله إليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (فاتبع) بتشديد التاء، وكذلك (ثم اتبع) أي سلك وسار، والباقون (فأتبع) بقطع الألف وسكون التاء مخففة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سببًا يوصله إليه حتى بلغه. أما قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ **ففيه مباحث:**

الأول: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (في عين حامية) بالألف من غير همزة أي حارة، وعن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال: «أَتَدْرِي يَا أَبَا ذَرٍّ أَيْنَ تَغْرُبُ هَذِهِ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ»(١)؛ وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر، والباقون (حمئة)، وهي قراءة ابن عباس، واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية: (حامية) بألف فقال ابن عباس: (حمئة)، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجَّه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، والحمئة ما فيه ماء، وحمأة سوداء، واعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعًا.

البحث الثاني: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، وأيضًا قال: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف) (٤/ ٣٧) حديث رقم/ ٤٠٠٢ من طريق يزيد بن هارون عن سفيان بن حسين... به مختصرًا إلى قوله (عليه حامية) وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٦٥) حديث رقم/ ٢١٤٩٧ قال: حدثنا زيد بن هارون عن سفيان... به. والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٧) حديث رقم/ ٢٩٦١ من طريق محمد بن مسلمة الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سفيان بن حسين... به. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وابن منده في معرفة أسامي أرواق النبي ﷺ (١/ ٤١) من طريق عمر بن علي ويزيد بن هارون عن سفيان بن حسين... به. وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٥/ ٤٠٢) حديث رقم/ ٢٤٠٣ وقال: صحيح.

موجود، وأيضًا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يُعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟! **إذا ثبت هذا فنقول:** تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ من وجوه: الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره. الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضًا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء، فقوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة. الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة. وهذا في غاية البعد؛ وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفًا قمريًا فإذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا: حصل هذا الكسوف في أول الليل. ورأينا المشرقيين قالوا: حصل في أول النهار. فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا، فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر، ووقت الضحوة في بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس في بلد رابع، ونصف الليل في بلد خامس، وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات، كان الذي يقال: إنها تغيب في الطين والحمأة كلامًا على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه. ثم قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ الضمير في قوله (عندها) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الشمس ويكون التأنيث للشمس؛ لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس. والقول الثاني: أن يكون الضمير عائدًا إلى العين الحامية، وعلى هذا القول فالتأويل ما ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾. **وفيه مباحث:**

الأول: أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة، وذلك يدل على أنه كان نبيًا، وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء، فهو عدول عن الظاهر.

البحث الثاني: قال أهل الأخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة، قال ابن جريج: هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب.

البحث الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يدل على أن سكان آخر المغرب كانوا كفارًا، فخيَّر الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على

كفرهم، وبين المن عليهم والعفو عنهم، وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين، كما خَيَّر نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم، وقال الأكثرون: هذا التعذيب هو القتل، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء، ثم قال ذو القرنين: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ نفسه) أي ظلم نفسه بالإقامة على الكفر. والدليل على أن هذا هو المراد أنه ذكر في مقابلته: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ثم قال: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي بالقتل في الدنيا: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكرًا فظيعًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالنصب والتنوين، والباقون بالرفع والإضافة، فعلى القراءة الأولى يكون التقدير (فله الحسنى جزاء) كما تقول: لك هذا الثوب هبة، وأما على القراءة الثانية ففي التفسير وجهان. الأول: فله جزاء الفعلة الحسنى، والفعلة الحسنى هي الإيمان والعمل الصالح. والثاني: أن يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى، ويكون المعنى: فله ذا الجزاء الذي هو المثوبة الحسنى، والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى، وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهورة، كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾[النحل: ٣٠] و﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥] ثم قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما، وتقدير هذا يسر، كقوله: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[الإسراء: ٢٨] وقرئ: (يُسُرًا) بضمتين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن أولاً أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس، أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس، فبَيَّن الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا، وفيه قولان: الأول: أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم؛ فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب واغلة في الأرض أو غاصوا في الماء، فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش، حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق.

والقول الثاني: أن معناه أنه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدًا، ويقال في كتب الهيئة: إن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك، وذُكر في كتب التفسير أن بعضهم قال: سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم، فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة. فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الأخرى، ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي عليَّ ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعتِ الشمس إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سربًا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج.

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ **وفيه وجوه:**

الأول: أي كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ما بلغ، وقد علمنا حين مَلَّكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به.

والثاني: كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه السلام في هذا الذكر.

والثالث: كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب، قضى في هؤلاء كما قضى في أولئك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين.

والرابع: أنه تم الكلام عند قوله (كذلك) والمعنى أنه تعالى قال: أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين. ثم قال بعده: ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي كنا عالمين بأن الأمر كذلك.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب أتبع سببًا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين، وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الأمور. وهاهنا مباحث:

الأول: قرأ حمزة والكسائي (السُّدين) بضم السين (وسَدًّا) بفتحها حيث كان، وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما في كل القرآن، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما في كل القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السَّدين وسَدًّا ههنا بفتح السين فيهما وضمها في يس في الموضعين.

قال الكسائي: هما لغتان، وقيل: ما كان من صنعة بني آدم فهو (السَّد) بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو (السُّد) بضم السين والجمع سدد. وهو قول أبي عبيدة وابن الأنباري، قال صاحب الكشاف: السُّد بالضم فُعْل بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه، والسَّد بالفتح مصدر حدث يُحدثه الناس.

البحث الثاني: الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال، وقيل: جبلان بين أرمينية وبين أذربيجان، وقيل: هذا المكان في مقطع أرض الترك، وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجَّه إنسانًا إليه من ناحية الخزر، فشاهده ووَصَف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع، وذكر ابن (خرداذبة) في كتاب المسالك والممالك أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه، فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه، وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه

باب مقفل، ثم إن ذلك الإنسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند. قال أبو الريحان: مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة، والله أعلم بحقيقة الحال.

البحث الثالث: أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما، أي من ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي أمة من الناس: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يُفقِهُونَ) بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم، والباقون بفتح الياء والقاف، والمعنى أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن قيل: كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟!

والجواب: أن نقول (كاد) فيه قولان: الأول: أن إثباته نفي ونفيه إثبات، فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يدل على أنهم لا يفهمون شيئًا، بل يدل على أنهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة. والقول الثاني: أن (كاد) معناه المقاربة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا. وعلى هذا القول فلا بد من إضمار، وهو أن يقال: لا يكادون يفهمونه إلا بعد تقريب ومشقة من إشارة ونحوها، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الأول في تفسير (كاد).

البحث الرابع: في يأجوج ومأجوج قولان: **الأول**: أنهما اسمان أعجميان موضوعان، بدليل منع الصرف. **والقول الثاني**: أنهما مشتقان، وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز. وقرأ الباقون ياجوج وماجوج. وقرئ في رواية آجوج ومأجوج.

والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوهًا: **الأول**: قال الكسائي: يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها، فلسرعتهم في الحركة سُموا بذلك، ومأجوج من موج البحر. **الثاني**: أن يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته، فلشدتهم في الحركة سُموا بذلك. **الثالث**: قال القتيبي: هو مأخوذ من قولهم: أج الظليم في مشيه يئج أجًا: إذا هرول وسمعت حفيفه في عَدْوه. **الرابع**: قال الخليل: الأج: حَب كالعدس والمج: مج الريق، فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما. واختلفوا في أنهما من أي الأقوام: فقيل: إنهما من الترك، وقيل: ﴿يَأْجُوجَ﴾ من الترك ﴿وَمَأْجُوجَ﴾ من الجيل والديلم. ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبرًا. ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب في الأظفار وأضراسًا كأضراس السباع. واختلفوا في كيفية إفسادهم في الأرض فقيل: كانوا يقتلون الناس. وقيل: كانوا يأكلون لحوم الناس. وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئًا أخضر. وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام، والله أعلم بمراده.

ثم إنه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين أنهم قالوا لذي القرنين: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن

تجعل بيننا وبينهم سدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي خراجًا والباقون خرجًا. قيل: الخراج والخرج واحد، وقيل: هما أمران متغايران، وعلى هذا القول اختلفوا: قيل: الخرج (بغير ألف) هو الجُعل لأن الناس يُخرج كل واحد منهم شيئًا منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء، والخراج هو الذي يجبيه السلطان كل سنة. وقال الفراء: الخراج هو الاسم الأصلي والخرج كالمصدر. وقال قطرب: الخرج الجزية، والخراج في الأرض. فقال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي﴾ أي ما جعلني مكينًا من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخراج فلا حاجة بي إليه. وهو كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦] قرأ ابن كثير: (ما مكنني) بنونين على الإظهار، والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام. ثم قال ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي لا حاجة لي في مالكم، ولكن (أعينوني) برجال وآلة أبني بها السد. وقيل: المعنى: (أَعِينُونِي) بمال أصرفه إلى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسي، والردم هو السد، يقال: ردمت الباب أي سددته، وردمت الثوب رقعته لأنه يسد الخرق بالرقعة، والردم أكثر من السد، من قولهم: ثوب مردوم، أي وُضعت عليه رقاع.

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أن ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطعه، قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة، قراءة الجميع (آتوني) بمد الألف إلا حمزة فإنه قرأ (ائتوني) من الإتيان، وقد روي ذلك عن عاصم والتقدير ائتوني بزبر الحديد. ثم حذف الباء كقوله: شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ فيه إضمار، أي فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا.

واعلم أن هذا معجز قاهر لأن هذه الزبر الكثيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار، لم يقدر الحيوان على القرب منها، والنفخ عليها لا يمكن إلا مع القرب منها، فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها. قال صاحب الكشاف: قيل: بُعد ما بين (السدين) مائة فرسخ. (والصدفان) بفتحتين: جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان وقرئ: (الصُّدُفَيْنِ) بضمتين. و(الصُّدْفَيْنِ) بضمة وسكون. والقِطر: النحاس المذاب لأنه يقطر، وقوله: ﴿قِطْرًا﴾ منصوب بقوله: ﴿أُفْرِغْ﴾ وتقديره آتوني قطرًا: ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ثم قال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ فحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء وقرئ: (فَمَا اصْطَاعُوا) بقلب السين صادًا (أَنْ يَظْهَرُوهُ) أن يعلوه، أي ما قدروا

على الصعود عليه لأجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لأجل صلابته وثخانته، ثم قال ذو القرنين: (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) فقوله (هذا) إشارة إلى السد، أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني فإذا دنا مجيء القيامة جعل السد دكًا، أي مدكوكًا مسوى بالأرض. وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك، وقرئ (دكاء) بالمد أي أرضًا مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وهاهنا آخر حكاية ذي القرنين.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

اعلم أن الضمير في قوله (بعضهم) عائد إلى: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فيه وجوه: الأول: أن يوم السد ماج بعضهم في بعض خلفه لما مُنعوا من الخروج. الثاني: أن عند الخروج يموج بعضهم في بعض، قيل: إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد، يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون. والقول الثالث: أن المراد من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة. وكل ذلك محتمل إلا أن الأقرب أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكًا فعنده ماج بعضهم في بعض وبعده نُفخ في الصور وصار ذلك من آيات القيامة، والكلام في الصور قد تقدم وسيجيء من بعد، وأما عرض جهنم وإبرازه حتى يصير مكشوفًا بأهواله فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم، وبيَّن تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا، أما العمى فهو المراد من قوله: ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق، وأما الصمم فهو المراد من قوله: ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني أن حالتهم أعظم من الصمم لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة.

واحتج الأصحاب بقوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ على أن الاستطاعة مع الفعل وذلك لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا. قال القاضي: المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم إياه، كقول الرجل: لا أستطيع النظر إلى فلان.

قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ

﴿أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بَيَّن من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول، أتبعه بقوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله؟! وهو استفهام على سبيل التوبيخ.

المسألة الثانية: قرأ أبو بكر ولم يرفعه إلى عاصم: (أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بسكون السين ورفع الباء. وهي من الأحرف التي خالف فيها عاصمًا، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى هذا التقدير فقوله: (حَسْب) مبتدأ، (أن يتخذوا) خبر، والمعنى أفكافيهم وحَسْبهم أن يتخذوا كذا وكذا. وأما الباقون فقرؤوا: (أفحَسب) على لفظ الماضي، وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى: أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعًا.

المسألة الثالثة: في العباد أقوال: قيل: أراد عيسى والملائكة. وقيل: هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم. وقيل: هي الأصنام سماهم عبادًا كقوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأعراف: ١٩٤]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ وفي النزل قولان: الأول: قال الزجاج إنه المأوى والمنزل. والثاني: أنه الذي يقام للنزيل وهو الضيف، ونظيره قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤] ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ قيل إنهم هم الرهبان كقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية: ٣] وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن علي أن ابن الكواء سأله عنهم فقال: هم أهل حروراء. والأصل أن يقال: هو الذي يأتي بالأعمال يظنها طاعات وهي في أنفسها معاصٍ، وإن كانت طاعات لكنها لا تُقبل منهم لأجل كفرهم، فأولئك إنما أتوا بتلك الأعمال لرجاء الثواب، وإنما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الأجر والفوز يوم القيامة، فإذا لم يفوزوا بمطالبهم بَيَّن أنهم كانوا ضالين.

ثم إنه تعالى بين صنعهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ . **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: لقاء الله عبارة عن رؤيته، بدليل أنه يقال: (لقيت فلانًا) أي رأيته، فإن قيل: اللقاء عبارة عن الوصول، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر: ١٢] وذلك في حق الله تعالى محال، فوجب حمله على لقاء ثواب الله، والجواب أن لفظ اللقاء وإن كان في الأصل عبارة عن الوصول والملاقاة إلا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور، والذي يقولونه من أن المراد منه لقاء ثواب الله، فهو لا يتم إلا بالإضمار، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه إلى الإضمار.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ على أن القول بالإحباط والتكفير حق، وهذه المسألة قد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة فلا نعيدها.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ وفيه وجوه: الأول: أنا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار. الثاني: لا نقيم لهم ميزانًا لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات. الثالث: قال القاضي: إن من غلبت معاصيه صار ما في فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل في الوزن شيء من طاعته. وهذا التفسير بناء على قوله بالإحباط والتكفير.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه وفصَّلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة، وقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ثم بيَّن تعالى أن ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين: أحدهما: كفرهم. الثاني: أنهم أضافوا إلى الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزوًا، فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزؤوا بهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد، ولما ذكر في الكفار أن جهنم نُزُلهم، أتبعه بذكر ما يُرغب في الإيمان والعمل الصالح فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

المسألة الثانية: عطف عمل الصالحات على الإيمان، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، وذلك يدل على أن الأعمال الصالحة مغايرة للإيمان.

المسألة الثالثة: عن قتادة: الفردوس وسط الجنة وأفضلها. وعن كعب: ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية، وعن النبي ﷺ أنه قال: **«الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْفِرْدَوْسُ مِنْ فَوْقِهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّ فَوْقَهَا عَرْشَ الرَّحْمَنِ وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»**[1].

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٧٥) حديث رقم/ ٢٥٣١ من طريق يزيد بن هارون... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣١٦) حديث رقم/ ٢٢٧٤٧ قال: حدثنا يزيد... به. والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٥٣) حديث رقم/ ٢٦٩ من طريق همام... به. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٩٣) حديث رقم/ ١٨٢ من طريق همام... به. وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٣٨) حديث رقم/ ٣٥٢١١ من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن=

المسألة الرابعة: قال بعضهم: إنه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلاً للمؤمنين، والكريم إذا أعطى النزل أولاً فلا بد أن يُتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها إلا رؤية الله. فإن قالوا: أليس أنه تعالى جعل في الآية الأولى جملة جهنم نزلا الكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر، فكذلك هاهنا جعل جملة الجنة نزلاً للمؤمنين مع أنه ليس له شيء آخر بعد الجنة، والجواب: قلنا: للكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوبًا عن رؤية الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فجعل الصلاء بالنار متأخرًا في المرتبة عن كونه محجوبًا عن الله، ثم قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ الحِول: التحول، يقال: حال من مكانه حولاً، كقوله (عاد في حبها عودًا) يعني لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت في السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشَرح أقاصيص الأولين، نبه على كمال حال القرآن فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط، والمعنى: لو كُتبت كلمات علم الله وحكمه، وكان البحر مدادًا لها والمراد بالبحر الجنس، لنفد قبل أن تنفد الكلمات.

تقرير الكلام أن البحار كيفما فُرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية، ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يفي ألبتة بغير المتناهي. قرأ حمزة والكسائي (ينفد) بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات، وروي أن حيي بن أخطب قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]! فنزلت هذه الآية يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

المسألة الثانية: احتج المخالفون على الطعن في قول أصحابنا أن كلام الله تعالى واحد بهذه الآية، وقالوا: إنها صريحة في إثبات كلمات الله تعالى: وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى، قال الجبائي: وأيضًا قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ يدل على أن

=عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال... فذكره. وصححه الألباني في (الصحيحة) (٩٢١) وأخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٢٨) حديث رقم/ ٣٦٣٧. من طريق فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ... فذكره بنحوه.

كلمات الله تعالى قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه. وأيضًا قال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يجيء بمثل كلامه، والذي يجاء به يكون محدثًا، والذي يكون المحدث مثلاً له فهو أيضًا محدث. وجواب أصحابنا أن المراد منه الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الأزلية.

واعلم أنه تعالى لما بيَّن كمال كلام الله أمَر محمدًا ﷺ بأن يسلك طريقة التواضع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إليَّ أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد. والآية تدل على مطلوبين: الأول: أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر وهي قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. والثاني: أن كون الإله تعالى: إلهًا واحدًا يمكن إثباته بالدلائل السمعية، وقد قررنا هذين المطلوبين في سائر السور بالوجوه القوية، ثم قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ والرجاء هو ظن المنافع الواصلة إليه، والخوف: ظن المضار الواصلة إليه، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته، والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله، وهذه المناظرة قد تقدمت، والعجب أنه تعالى أورد في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف: ١٠٥]. وثانيها: قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] وثالثها: قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح، ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة، لا جرم اعتبر فيه قيدان: أن يؤتى به لله، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك، فقال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن زهير، قال لرسول الله ﷺ: إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه أحد سرني. فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبَلُ مَا شُورِكَ فِيهِ»(١) وروي أيضًا أنه قال له: «لَكَ أَجْرَانِ: أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلاَنِيَةِ»(٢) فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يُقتدى به، والمقام الأول مقام المبتدئين، والمقام الثاني مقام الكاملين.

والحمد ﷺ رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) ذكره الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٢/ ٢١٣) وقال: قلت: غريب. وذكره الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس.

(٢) **ضعيف**: أخرجه هناد في (الزهد) (٢/ ٤٤٤) حديث رقم/ ٨٨٠ قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيب ابن أبي ثابت عن أبي صالح قال... فذكره. ووصله الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٩٤) حديث رقم/ ٢٣٨٤ من طريق حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن أبي هريرة... فذكره وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه حبيب بن أبي ثابت... فذكره موصولاً. وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٥٨) حديث رقم/ ٣٦٨٥٩ من طريق إسماعيل، عن حبيب بن أبي ثابت، أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: يا رسول الله... فذكره بنحوه. وضَعَّفه الألباني في ضعيف السنن، ولعل تضعيفه علته حبيب بن أبي ثابت وهي كثير الإرسال والتدليس وقد عنعنه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

وهي مكيَّة في قول جميعِ المفسرين. ورُويَ عن فرقة أنَّ أوّلَ السورةِ نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾ [الآية:٨]، والأوّل أصحُّ.

ورُوي في فضلِها من حديث أنسٍ أنَّه قال: مَن قَرَأَ بها أُعْطِيَ نوراً بين السماء والأرض، ووُقيَ بها فتنةَ القبر(١).

وقال إسحاقُ بنُ عبد الله بنِ أبي فَرْوَةَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أَدُلُّكم على سورة شيَّعها سبعون ألف مَلَكٍ، مَلأَ عِظَمُها ما بين السماء والأرض، لتاليها مِثْلُ ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورةُ أصحابِ الكهف، مَن قَرَأَها يومَ الجمعة، غُفِرَ له إلى الجمعة الأُخرى وزيادةُ ثلاثةِ أيَّام، وأُعطِيَ نوراً يبلغ السماءَ، ووُقِيَ فتنةَ الدجال» ذكره الثعلبيُّ، والمهدوِيُّ أيضاً بمعناه(٢). وفي «مسند الدَّارِمِيِّ»(٣) عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: مَن قَرَأَ سورةَ الكهف ليلةَ الجمعة، أَضاءَ له من النُّور

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤ .

(٢) وأخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٠٣) عن إسماعيل بن أبي رافع قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض...» الخبر بنحوه. وإسماعيل بن أبي رافع يروي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وكلاهما ضعيف، تنظر ترجمتهما في تهذيب الكمال وغيره من كتب التراجم.

(٣) برقم (٣٤١٠)، وأخرجه أيضاً القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص١٣١ ، وابن الضريس في فضائل القرآن (٢١١). وأخرجه مرفوعاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فيما بينَه وبينَ البيت العتيقِ.

وفي «صحيح مسلم»[١] عن أبي الدَّرْدَاءِ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن حَفِظَ عَشْر آيات من أوَّل سورةِ الكهف، عُصِمَ من الدجال». وفي رواية: «من آخر الكهف»[٢]. وفي «مسلم»[٣] أيضاً من حديث النواسِ بن سَمْعان: «فمن أدركه ـ يعني الدجالَ ـ فليَقرأ عليه فواتحَ سورةِ الكهف». وذكره الثعلبيُّ.

قال سَمُرةُ بنُ جُنْدُب: قال النبيُّ ﷺ: «مَن قَرَأَ عَشْر آياتٍ من سورةِ الكهف حِفْظاً، لم تضرَّه فتنةُ الدَّجَّال، ومن قَرَأَ السورةَ كلَّها، دخل الجنَّة[٤]».

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ ذكر ابنُ إسحاق[٥] أنَّ قريشاً بعثوا النَّضْر بنَ الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبارِ يهودَ وقالوا لهما: سَلاهم عن محمَّد، وصِفَا لهم صِفَتَه، وأَخبِراهم بقوله، فإنَّهم أهلُ الكتاب الأوَّل، وعندهم عِلْمٌ ليس عندنا من عِلْم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينةَ، فسألا أحبارَ يهودَ عن رسولِ الله ﷺ، ووَصَفا لهم أَمْرَه، وأخبراهم ببعضِ قوله، وقالا لهم: إنَّكم أهلُ التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبِنا هذا. فقالت لهما أحبارُ يهودَ: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإنْ أخبركم بهنَّ، فهو نبيٌّ مرسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجلُ مُتَقَوِّل، فرَوْا فيه رأيكم، سَلُوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان

(١) برقم (٨٠٩).

(٢) مسلم (٨٠٩) إثر الرواية السابقة.

(٣) في كتاب الفتن وأشراط الساعة برقم (٢١٣٧) إثر الحديث (٢٩٣٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ونقله عنه ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ - ٣٠٦ بتمامه.

أَمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ؟ وسَلُوه عن رجل طوَّاف قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها، ما كان نَبَؤه؟ وسَلُوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتَّبعوه؛ فإنَّه نبيٌّ، وإن لم يفعل، فهو رجلٌ متقوِّل، فاصنعوا في أَمْرِه ما بَدَا لكم.

فأَقبل النضرُ بنُ الحارث وعقبةُ بنُ أبي مُعَيط حتى قدما مكَّة على قريش فقالا: يا معشرَ قريشٍ! قد جئناكم بفَصْل ما بينَكم وبين محمَّد ﷺ، قد أَمَرَنا أحبارُ يهودَ أنْ نسأله عن أشياءَ أَمَرُونا بها، فإنْ أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل، فالرجل متقوِّل، فرَوْا فيه رأيكم.

فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد، أَخبِرنا عن فِتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، قد كانت لهم قصةٌ عَجَبٌ؟ وعن رجل كان طوَّافاً قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها؟ وأَخْبرنا عن الروح ما هي؟

قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثنِ. فانصرفوا عنه، فمكثَ رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون خَمْسَ عشرة ليلةً، لا يُحْدِث اللهُ إليه في ذلك وَحْياً، ولا يأتيه جبريلُ، حتى أَرْجفَ[1] أهلُ مكَّة وقالوا: وَعَدَنا محمَّدٌ غداً، واليوم خمسَ عشْرة ليلةً، وقد أَصبحنا منها لا يُخبِرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أَحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكَّة، ثم جاءه جبريلُ عليه السلام من عندِ الله عزَّ وجلَّ بسورةِ أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيَّاه على حزنِه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أَمْرِ الفِتْية، والرجلِ الطوَّاف، والرُّوح.

قال ابنُ إسحاق: فذُكر لي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لجبريلَ: «لقد احتبستَ عنِّي يا جبريلُ حتى سُؤت ظنًّا» فقال له جبريلُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

فافتتح السورةَ تبارك وتعالى بحمده، وذِكْرِ نبوَّة رسولِه ﷺ لِمَا أنكروا عليه من

---

(١) أرجفَ القومُ: إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن. لسان العرب (رجف).

ذلك فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: محمَّداً، إنَّك رسولٌ مِنِّي، أي: تحقيقٌ لِمَا سألوا عنه من نبوَّتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ أي: معتدلاً لا اختلافَ فيه.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: عاجلَ عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي: من عندِ ربِّك الذي بعثك رسولاً.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: دارَ الخُلد لا يموتون فيها، الذين صدَّقوك بما جئتَ به مما كذَّبك به غيرُهم، وعَمِلوا بما أمرتهم به من الأعمال.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشاً في قولهم: إنَّا نعبدُ الملائكة وهي بناتُ الله. ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقَهم وعَيْبَ دينهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لقولهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنِه عليهم حين فاتَه ما كان يَرجوه منهم، أي: لا تفعل. قال ابنُ هشامٍ[(١)]: «باخع نفسك» أي: مُهْلكٌ نفسَك، فيما حدَّثني أبو عبيدة[(٢)]. قال ذو الرُّمَّة[(٣)]:

ألا أيُّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه   بشيءٍ نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

وجمعها: باخعونَ وبَخَعة. وهذا البيت في قصيدةٍ له. وتقول العربُ: قد بَخَعْتُ له نُصْحِي ونَفْسي، أي: جَهَدت له[(٤)].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابنُ إسحاق[(٥)]:

---

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٢.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٩٣.

(٣) ديوانه ٢/ ١٠٣٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٣.

(٥) ونقله عن ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٣.

أي: أيُّهم أتبعُ لأمري، وأعملُ بطاعتي.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ أي: الأرض، وإنَّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإنَّ المرجعَ إليَّ فأجْزِي كلًّا بعمله، فلا تأسَ ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها. قال ابنُ هشامٍ: الصَّعيد: وَجْهُ الأرض، وجمعه: صُعُد. قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْياً صغيراً:

كأنه بالضُّحَى تَرمِي الصعيدَ به ... دبَّابةٌ في عِظام الرأسِ خُرْطوم[1]

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «إيَّاكم والقعودَ على الصُّعُدات»[2] يريد: الطُّرُق. والجُرُز: الأرض التي لا تُنبِت شيئاً، وجمعها: أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز، وسِنُونَ أجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطرٌ، وتكون فيها جُدوبةٌ ويبس وشِدَّة[3]. قال ذو الرمّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّحْزُ والأَجرازُ ما في بطونها ... فما بقِيتْ إلا الضَّلوعُ الجراشِعُ[4]

قال ابنُ إسحاق: ثم استقبل قصَّةَ الخبرِ فيما سألوه عنه من شأْنِ الفتية فقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: قد كان من آياتي فيما وضعتُ على العباد مِن حجَّتي ما هو أعجبُ من ذلك. قال ابنُ هشام[5]: والرَّقيم: الكتابُ الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه: رُقُم. قال العَجَّاج[6]:

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ٣٨٩ ، وقال شارحه: والدبابة: الخمر، والخرطوم: أول ما ينزل ويؤخذ من الدَّنِّ، والمعنى: كأن هذا الولدَ ـ يعني الظبيَ ـ بالضحى تبطحه خمر من النعاس، وإنما ينام لرِيِّه من اللبن.

(٢) أورده بهذا اللفظ ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (صعد)، وأخرجه أحمد (٢٧١٦٣) عن أبي شريح الخزاعي بلفظ: «إياكم والجلوس على الصعدات...» مطولاً، وعنون له البخاري في كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري (٢٤٦٥) عن النبي ﷺ قال: إياكم والجلوس على الطرقات.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٠٣ ، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ص٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٤) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٢٩٦ بنحوه، قال شارحه: والنحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المنتفخ الجنبين.

(٥) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٦) ديوانه ص٢٨٥ ، والعجَّاج هو: عبد الله بن رؤبة بن لبيد.

ومُسْتَقَرَّ المُصْحَفِ المُرَقَّمِ

وهذا البيت في أُرْجوزة له.

قال ابنُ إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بصِدْقِ الخبر: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابنُ هشام[1]: والشَّطَطُ: الغُلُوُّ ومجاوزةُ الحقِّ. قال أعشى بني[2] قيس بنِ ثَعْلبة[3]:

أتنتهونَ ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيْت والفُتُلُ

وهذا البيت في قصيدة له، قاله ابنُ إسحاق.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾. قال ابن إسحاق: أي: بحجَّة بالغة .﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا . وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال ابنُ هشام: تزاوَرَ: تميَّل، وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبِيُّ يصف بلداً:

جَدْبِ المُنَدَّى عن هَوانا أَزْوَرُ يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ[4]

---

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٤.

(٢) في (ظ): بن.

(٣) ديوانه ص١١٣.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥، وهو في الصحاح: (عشزر)، والمندَّى: حيث يُرتَع، والخِمْس من أظماء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. الصحاح (خمس).

وهذان البيتان في أرجوزة له.

و﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ تجاوزُهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضنَ أقوازَ مُشْرِفٍ شِمالاً وعن أيْمانِهِنَّ الفوارِسُ[(١)]

وهذا البيت في قصيدةٍ له. والفَجْوة: السَّعةُ، وجمعها: الفِجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومَك مَخْزاةً ومنقصةً حتى أُبيحُوا وحَلُّوا فَجْوةَ الدار[(٢)]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الحجَّة على من عَرَفَ ذلك من أمورهم من أهلِ الكتاب ممَّن أَمَرَ هؤلاء بمسألتك عنهم في صِدْقِ نبوَّتك بتحقيق الخبر عنهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال ابنُ هشام: الوصيد: الباب. قال العبسيُّ، واسمه عبدُ بنُ وهب:

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ[(٣)]

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً: الفِناء، وجمعه: وصائد، ووُصُد، ووُصْدان.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أهلُ السلطان والمِلْكِ منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا . سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبارَ اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . [وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تُكابرهم. ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنَّهم لا عِلْم لهم بهم.

---

(١) السيرة النبوية ١/٣٠٥، والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٢٠، وجاء فيه: أجواز، بدل: أقواز، والقَوْز: الكثيب الصغير من الرمل، والفوارس: رملٌ بالدهناء. وينظر الصحاح (قوز).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥، وفيه: وخَلَّوا، بدل: وحَلُّوا.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ وفيه وفي (ظ): عبيد، بدل: عبد، وأورده أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١/ ١١٩ ونسبه إلى زهير بن أبي سلمى، ولم نقف عليه في ديوانه.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ] [١] إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: لا تقولنَّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا: إنِّي مخبركم غداً، واستثنِ مشيئةَ الله، واذْكُر ربَّك إذا نسِيتَ، وقل عسى أن يهديني ربِّي لخبرِ ما سألتموني عنه رَشَداً، فإنَّك لا تدري ما أنا صانعٌ في ذلك.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي: سيقولونَ ذلك. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: لم يَخْفَ عليه شيءٌ مما سألوك عنه [٢].

قلت: هذا ما وقَع في السيرة من خبرِ أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه. ويأتي خبرُ ذي القرنين، ثم نعود إلى أوَّل السورةِ فنقول:

قد تقدَّم معنى «الحمد لله» [٣].

وزعم الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء وأبو عبيد وجمهورُ المتأوِّلين أنَّ في أوَّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأنَّ المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً [٤].

و﴿قَيِّمًا﴾ نصب على الحال [٥] ـ وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قَيِّماً [٦] ـ وقول الضحَّاك فيه حسن، وأن المعنى: مستقيم، أي: مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فسادَ ولا

---

(١) ما بين حاصرتين في (ظ).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦ ، والخبر أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٣ - ١٤٤ عن ابن عباس مختصراً.

(٣) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ ، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٦ ، وللفراء ٢/ ١٣٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤ .

تناقضَ[١]. وقيل: «قيِّماً» على الكتب السابقة يُصدِّقها. وقيل: «قَيِّماً» بالحُجج أبداً.

﴿عِوَجًا﴾ مفعول به، والعِوَج، بكسر العين: في الدِّين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار، وقد تقدَّم[٢]. وليس في القرآن عِوَجٌ، أي: عيبٌ، أي: ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: أي: لم يجعله مخلوقاً، كما روي عن ابنِ عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] قال: غير مخلوق[٣]. وقال مقاتل: «عِوَجاً»: اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بــودِّي لــلــصــديــق تــكــرُّمــاً ولا خيرَ فيمن كان في الودِّ أعْوَجَا[٤]

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر محمَّدٌ أو القرآنُ. وفيه إضمارٌ، أي: لينذرَ الكافرين عقابَ اللهِ. وهذا العذابُ الشديدُ قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة.

﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عندِه[٥]. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «من لدْنه» بإسكان الدَّالِ وإشمامِها الضَّمَّ وكسرِ النون، والهاء موصولةٌ بياء. الباقون «لَدُنْهُ» بضمِّ الدَّالِ وإسكانِ النون وضمِّ الهاء[٦]. قال الجوهريُّ: وفي «لدن» ثلاثُ لغات: لَدُن، ولَدَى، ولَدُ. وقال:

مِــن لَــدُ لَــحْــيَــيْــه إلــى مُــنْــحُــورِهِ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٤١.

(٢) ٥/ ٢٣٣ - ٢٣٤، وينظر النكت والعيون ٤/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٣.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٥ وعزاه إلى قتادة.

(٦) السبعة ص٣٨٨، والتيسير ص١٤٢.

(٧) الصحاح (لدن)، وأورد البيت ابن منظور في لسان العرب (لدن) ونسبه إلى غيلان بن حريث، وقال: قال ابن بري: وأنشده سيبويه: إلى منخوره، أي: منخزه. اهـ، وكذا جاء في الصحاح، وفي (ظ) و(د).

المُنْخور: لغةٌ في المَنْخَر[١].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنَّة. ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غاية. وإن حملتَ التبشيرَ على البيان، لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأَجْر الحسن: الثوابُ العظيمُ الذي يؤدِّي إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهودُ، قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله. وقريشٌ قالت: الملائكةُ بناتُ الله[٢]. فالإنذار في أوَّل السورة عامٌّ، وهذا خاصٌّ فيمن قال لله ولد.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ «مِن» صِلَةٌ، أي: ما لهم بذلك القولِ عِلْم؛ لأنَّهم مقلِّدة، قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كلمة» نصبٌ على البيان، أي: كَبُرَت تلك الكلمةُ كلمةً. وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ ويحيى بنُ يَعْمَر وابنُ أبي إسحاق «كلمةٌ» بالرفع، أي: عَظُمتْ كلمةٌ، يعني قولَهم: «اتَّخذ الله ولداً»[٣]. وعلى هذه القراءة فلا حاجةَ إلى إضمار. يقال: كبر الشيء: إذا عَظُمَ. وكَبِرَ الرجلُ: إذا أسنَّ[٤]. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في موضعِ الصفة. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً.

---

(١) في (ظ) و(د): المنخور لغة في المنخر.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥، وتفسير الرازي ٢١/ ٧٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٤، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص٧٨.

(٤) الصحاح (كبر).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ «باخع» أي: مُهلِكٌ وقاتلٌ، وقد تقدَّم[١]. «آثارِهِمْ»: جمع أثَر، ويقال: إثْر[٢]. والمعنى: على أثَر تولِّيهم وإعراضِهم عنك. ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزناً وغضباً على كفرهم، وانتصبَ على التفسير[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا﴾ «ما» و«زينةً» مفعولان[٤]. والزينةُ: كلُّ ما على وجه الأرض، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارئه. وقال ابن جُبير عن ابنِ عباس: أراد بالزينة الرجالَ، وقاله مجاهد. وروى عكرمةُ عن ابنِ عباس أنَّ الزينةَ الخلفاءُ والأمراءُ[٥]. وروى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد عن ابنِ عباس في قوله تعالى: «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» قال: العلماءُ زينةُ الأرض[٦]. وقالت فرقةٌ: أراد النَّعَم والملابس والثمارَ والخُضْرةَ والمياه، ونحوَ هذا مما فيه زينةٌ، ولم يدخل فيه الجبالُ الصُّمُّ، وكلُّ ما لا زينة فيه كالحياتِ والعقارب. والقول بالعموم أَوْلى، وأنَّ كلَّ ما على الأرض فيه زينةٌ من جهة خَلْقه وصنْعه وإحكامه[٧]. والآيةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨ ، وينظر ما تقدم أول السورة ص٢٠٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ .

(٦) ينظر زاد المسير ٥/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ - ٤٩٧ .

بَسْطٌ في التسلية، أي: لا تهتمَّ يا محمد للدنيا وأهلِها؛ فإنَّا إنَّما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلِها، فمنهم من يتدبَّر ويؤمن، ومنهم من يَكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظُمنَّ عليكَ كفرُهم، فإنَّا نُجازيهم.

الثانية: معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ الدنيا خَضِرةٌ حُلوةٌ، والله مستخلفُكم فيها، فينظرُ كيف تعملون». وقوله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم ما يُخرج اللهُ لكم من زَهرةِ الدنيا» قالوا: وما زهرةُ الدنيا؟ قال: «بركاتُ الأرض» خرَّجهما مسلمٌ وغيرُه مِن حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ[١]. والمعنى: أنَّ الدنيا مستطابَةٌ في ذَوْقِها، مُعجِبةٌ في منظرها، كالثمر المُسْتَحْلَى[٢] المُعْجِب المرأى[٣]، فابتلى اللهُ بها عبادَه؛ لينظرَ أيَّهم أحسنُ عملاً. أي: مَن أزهدُ فيها وأَتركُ لها، ولا سبيلَ للعباد إلى معصية ما زيَّنه اللهُ إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمرُ يقول فيما ذكر البخاريُّ[٤]: اللَّهُمَّ إنَّا لا نستطيعُ إلا أن نفرحَ بما زيَّنته لنا، اللَّهُمَّ إني أسألكَ أن أنفقَه في حقِّه. فدعا اللهَ أن يعينه على إنفاقه في حقِّه. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن أَخذَه بطيبِ نَفْسٍ، بُورِكَ له فيه، ومن أَخذَه بإشراف نفسٍ، كان كالذي يأكلُ ولا يشبع»[٥]. وهكذا هو المكثِر من الدنيا لا يَقنَعُ بما يَحصلُ له منها، بل همَّته جَمْعُها؛ وذلك لعدمِ الفَهْم عن الله تعالى ورسوله، فإنَّ الفتنةَ معها حاصلةٌ، وعدمَ السلامة غالبةٌ، وقد أَفلحَ من أَسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه.

وقال ابنُ عطية[٦]: كان أبي ﷺ يقول في قوله: «أحسن عملاً»: أَحسنُ العملِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٢) و(١٠٥٢): (١٢٢) على الترتيب، والأول أخرجه أيضاً أحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والثاني أحمد (١١٠٣٥)، وابن ماجه (٣٩٩٥). وهما عند البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) بنحوهما.

(٢) في (د) و(ظ): كالتمر المستجلي.

(٣) في (ظ): للرأي. والكلام من المفهم ٧/ ٣١٢ .

(٤) في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: هذا المال خضرة حلوة، قبل حديث (٦٤٤١).

(٥) تقدم آنفاً.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ .

أخذٌ بحقٍّ، وإنفاقٌ في حقٍّ مع الإيمان، وأداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارم، والإكثارُ من المندوب إليه.

قلت: هذا قولٌ حسنٌ، وجيزٌ في ألفاظه، بليغٌ في معناه، وقد جمعَه النبيُّ ﷺ في لفظٍ واحد، وهو قوله لسفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفِيِّ لما قال: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك ـ في رواية: غيرك ـ قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استقِم» خرَّجه مسلم[(١)]. وقال سفيان الثَّورِيُّ: «أحسنُ عملاً»: أزهدُهم فيها[(٢)]. وكذلك قال أبو عصام العسقلانيُّ: «أحسنُ عملاً»: أتْرَكُ لها[(٣)].

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في الزهد فقال قوم: قِصَرُ الأمل وليس بأكل الخشِن ولبسِ العَباء، قاله سفيان الثَّوْرِيُّ[(٤)]. قال علماؤنا: وصدَق ﷺ! فإنَّ مَن قَصُر أملُه، لم يتأنَّق في المطعوماتِ، ولا يتفنَّن في الملبوسات، وأَخَذَ من الدنيا ما تيسَّر، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ.

وقال قومٌ: بُغْضُ المحمدةِ وحُبُّ الثناء. وهو قول الأوزاعِيِّ ومن ذهب إليه.

وقال قومٌ: تَرْكُ الدنيا كلِّها هو الزهد، أَحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه. وهو قول فُضيلٍ. وعن بشرِ بنِ الحارث قال: حُبُّ الدنيا: حبُّ لقاءِ الناس، والزهدُ في الدنيا: الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيلِ أيضاً: علامةُ الزهدِ في الدنيا الزهدُ في الناس. وقال قومٌ: لا يكون الزاهدُ زاهداً حتى يكون تَرْكُ الدنيا أحبَّ إليه من أخذها، قاله إبراهيمُ بنُ أدهم[(٥)]. وقال قومٌ: الزهد: أن تزهدَ في الدنيا بقلبِك، قاله ابنُ المبارك. وقالت فرقةٌ: الزهدُ: حبُّ الموت[(٦)]. والقول الأوَّل يعمُّ هذه الأقوالَ بالمعنى، فهو أولى.

---

(١) برقم (٣٨)، وهو عند أحمد (١٥٤١٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٤٥ (١٢٧٠٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ١٦٦ - ١٦٨ .

(٥) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٠٦ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

تقدَّم بيانه[١]. وقال أبو سهلٍ: تراباً لا نباتَ به، كأنَّه قُطع نباتُه. والجَرْز: القَطْع، ومنه سنة جُرُزٌ. قال الراجز:

قـد جَـرفَـتْـهـنَّ الـسِّـنُـونُ الأَجْـرَاز[٢]

والأرضُ الجُرُز: التي لا نباتَ فيها ولا شيءَ من عمارةٍ وغيرها، كأنَّه قُطِعَ وأُزيل. يعني: يومَ القيامة، فإنَّ الأرضَ تكون مستويةً لا مستتَر فيها[٣]. النحاس[٤]: والجُرُزُ في اللغة: الأرضُ التي لا نباتَ بها. قال الكسائيُّ: يقال: جُرِزَت الأرضُ تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها: إذا أكلوا كلَّ ما جاء فيها من النباتِ والزرع، فهي مَجْرُوزة وجُرُز[٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

مذهب سيبويه أنَّ «أَمْ» إذا جاءت دون أن يتقدَّمها ألفُ استفهامٍ أنَّها بمعنى «بل» وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: «أَمْ» عطف على معنى الاستفهام في «لعلك»، أو بمعنى ألف الاستفهامِ على الإنكار. قال الطبريُّ: وهو تقريرٌ للنبيِّ ﷺ على حسابِه أنَّ أصحابَ الكهف كانوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا يعظم ذلك بحسَب ما عظمه عليك السائلونَ من الكَفَرة، فإنَّ سائرَ آياتِ اللهِ أعظمُ من قصَّتهم وأشيعُ، هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابنِ إسحاق[٦]. والخطاب

(١) في بداية هذه السورة.

(٢) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٩٤ ، والطبري ١٥/ ١٥٤ ، والجوهري في الصحاح (جرز) ولم ينسبوه.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ ، والتعريف والإعلام ص١٠٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢١٦ ، والجرز فيها أربع لغات كما في الصحاح (جرز).

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٧٢ - ١٧٨ ، وتفسير الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وتفسير مجاهد ١/ ٣٧٣ .

للنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ المشركين سألوه عن فِتْيةٍ فُقدوا، وعن ذي القرنين، وعن الروح، وأبطأ الوَحْيُ على ما تقدَّم(١). فلما نزل قال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: أحسبتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهف والرَّقِيم كانوا من آياتنا عجباً، أي: ليسوا بعَجَب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجبُ مِن خبرهم(٢). الكلبي: خَلْقُ السماواتِ والأرضِ أعجبُ من خبرهم. الضحاك: ما أَطْلَعتُكَ عليه من الغيبِ أعجبُ. الجُنيد: شأنُكَ في الإسراء أعجبُ. الماورديُّ: معنى الكلام النفيُ، أي: ما حسبت لولا إخبارنا(٣). أبو سهل: استفهامُ تقريرٍ، أي: أحسبتَ ذلك فإنَّهم عجبٌ.

والكهف: النَّقْب المتَّسعُ في الجبل، وما لم يتَّسع منها فهو غارٌ. وحكى النَّقاش عن أنس بنِ مالك أنَّه قال: الكهفُ: الجبلُ، وهذا غيرُ شهير في اللغة(٤).

واختلف الناسُ في الرَّقيم، فقال ابنُ عباس: كلُّ شيءٍ في القرآن أعلمه إلا أربعةً: غِسْلين وحَنَان والأوَّاه والرَّقيم(٥). وسُئِلَ مرَّة عن الرَّقيم فقال: زعَم كعبٌ أنَّها قريةٌ خرجوا منها(٦). وقال مجاهد: الرقيمُ: وادٍ(٧). وقال السُّدِّيُّ: الرقيمُ: الصخرةُ التي كانت على الكهف. وقال ابنُ زيد: الرقيمُ: [كتابٌ غَمَّ اللهُ علينا أمرَه، ولم يشرحْ لنا قصَّته. وقالت فرقةٌ: الرقيم](٨): كتابٌ في لوح مِن نُحاس. وقال ابنُ عباس: في لوح من رَصاصٍ كَتب فيه القومُ الكفارُ ـ الذين فرَّ الفتيةُ منهم ـ قصَّتَهم وجعلوها

---

(١) في أول السورة.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧، والوسيط ٣/ ١٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٥، وزاد المسير ٥/ ١٠٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، وفيه: وحكى النحاس، بدل: وحكى النقاش.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧، وذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧، والطبري ١٥/ ١٥٨.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧، والطبري ١٥/ ١٥٨.

(٨) ما بين حاصرتين ليس في (ظ).

تاريخاً لهم، ذكروا وقتَ فَقْدِهم، وكم كانوا، وبين من كانوا[١]. وكذا قال الفرَّاء، قال: الرقيمُ: لوحٌ من رَصاص، كُتب فيه أسماؤهم وأنسابُهم ودينُهم وممَّن هربوا[٢]. قال ابنُ عطيَّة[٣]: ويظهر من هذه الرواياتِ أنَّهم كانوا قوماً مؤرِّخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة، وهو أمرٌ مفيدٌ. وهذه الأقوالُ مأخوذةٌ من الرَّقْم، ومنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٢٠] ومنه الأَرقمُ؛ لتخطيطه. ومنه رَقْمة الوادي، أي: مكان جَرْي الماء وانعطافه.

وما رُوي عن ابنِ عباس ليس بمتناقضٍ؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ إنَّما سمعه مِن كَعْب. والقولَ الثانيَ يجوز أن يكونَ عَرَفَ الرقيمَ بعده. وروى عنه سعيدُ بنُ جُبير قال: ذكَر ابنُ عباس أصحابَ الكهف فقال: إنَّ الفتيةَ فُقِدوا، فطلبهم أهلُوهم فلم يجدوهم، فرُفع ذلك إلى الملك فقال: ليكونَنَّ لهم نبأٌ، وأحضر لوحاً من رصاصٍ فكَتب فيه أسماءَهم وجعله في خِزانته، فذلك اللوحُ هو الرقيمُ[٤].

وقيل: إنَّ مؤمِنَيْن كانا في بيت الملك فكتبا شأنَ الفتية وأسماءَهم وأنسابَهم في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوتٍ من نُحاس وجعلاه في البنيان، فالله أعلم[٥].

وعن ابن عباس أيضاً: الرقيمُ: كتابٌ مرقومٌ كان عندهم فيه الشَّرْعُ الذي تمسَّكوا به من دِيْنِ عيسى عليه السلام. وقال النقَّاش عن قَتادةَ: الرقيمُ: دراهمهم. وقال أنسُ ابنُ مالك والشَّعْبيُّ: الرقيمُ: كلبُهم. وقال عكرمة: الرقيمُ: الدَّواةُ[٦]. و قيل: الرقيمُ: اللوحُ من الذهب تحت الجدارِ الذي أقامه الخَضر. وقيل: الرقيمُ: أصحابُ الغارِ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧.

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٣٤.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٠٩ بنحوه.

(٥) عرائس المجالس ص٤٢٦.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧، وزاد المسير ٥/ ١٠٨.

الذي انطبقَ عليهم، فذكر كلُّ واحدٍ منهم أَصلح عمله[١].

قلت: وفي هذا خبرٌ معروفٌ أخرجه الصحيحان[٢]، وإليه نحا البخاريُّ. وقال قوم: أَخبر اللهُ عن أصحاب الكهف، ولم يُخبِر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيمُ: بلدةٌ بالرُّوم فيها غارٌ فيه أَحَدَ وعشرونَ نَفْساً، كأنَّهم نيامٌ على هيئة أصحابِ الكهف، فعلى هذا هم فِتْيةٌ آخرونَ جرى لهم ما جَرى لأصحاب الكهف[٣]. والله أعلم. وقيل: الرقيم: وادٍ دونَ فلسطين فيه الكهف[٤]، مأخوذ من رَقْمة الوادي: وهي موضعُ الماء، يقال: عليك بالرَّقْمة وَدَعِ الضَّفَّة، ذكره الغزنوي[٥]. قال ابنُ عطيَّة[٦]: وبالشام ـ على ما سمعتُ به من ناسٍ كثير ـ كهف فيه موتى، يزعم مجاوِروه أنَّهم أصحابُ الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرقيم، ومعهم كلبٌ رِمَّة. وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قريةٍ تسمَّى «لَوْشة» كهفٌ فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمَّة، وأكثرهم قد تجرَّد لحمه، وبعضُهم متماسك، وقد مضتِ القرونُ السالفةُ، ولم نجد من عِلْم شأنهم أَثَارة، ويزعم ناسٌ أنَّهم أصحابُ الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمس مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ، وقريبٌ منهم بناء رُوميٌّ يسمَّى الرقيم، كأنَّه قَصْرٌ مُخْلِق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاةٍ من الأرض خَرِبة،

---

(١) أخرج أحمد (١٨٤١٧)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٤١)، وفي الأوسط (٢٣٢٨)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٧٩ عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن الرقيم: أن ثلاثة نفر دخلوا في كهف فوقع قطعة من الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم... الحديث. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٤٠: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير، والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرج البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم... الحديث.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٧ - ١٥٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر عرائس المجالس ص٤١٥ - ٤١٦.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٦١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١.

وبأعلى غَرناطة مما يلي القبلةَ آثارُ مدينة قديمة روميَّة يقال لها: مدينة دَقْيُوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنَّما هم غيرهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول في حقِّ أصحابِ الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. وقال ابنُ عباس لمعاوية لما أرادَ رؤيتَهم: قد منَع اللهُ من هو خيرٌ منك عن ذلك، وسيأتي في آخر القصَّة[1].

وقال مجاهدٌ في قوله: «كانوا من آياتنا عَجَباً» قال: هم عَجَبٌ.كذا روى ابنُ جُريج عنه، يذهب إلى أنَّه ليس بإنكار على النبيِّ ﷺ أن يكون عنده أنَّهم عَجَب. وروى ابنُ نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجبِ آياتنا[2].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ رُوي أنَّهم قومٌ من أبناء أشرافِ مدينة دقيوس الملكِ الكافر، ويقال فيه: دقينوس. ورُوي أنَّهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الرُّوم واتَّبعوا دينَ عيسى. وقيل: كانوا قبلَ عيسى، والله أعلم[3].

وقال ابنُ عباس: إنَّ مَلِكاً من الملوك - يقال له: دقيانوس - ظهرَ على مدينة من مدائنِ الرُّوم يقال لها: أُفْسُوس. وقيل هي: طَرَسوس، وكان بعد زمنِ عيسى عليه السلام فأمر بعبادةِ الأصنام، فدعا أهلَها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعةُ أحداثٍ يعبدون اللهَ سراً، فرُفع خبرُهم إلى الملك وخافوه، فهربوا ليلاً، ومرُّوا براعٍ معه كلبٌ

---

(١) عند تفسير الآية (٢٧) من هذه السورة، وتخريج كلام ابن عباس هناك.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ .

فتَبعهم، فآوَوْا إلى الكهف، فتبعهم الملك إلى فَمِ الغارِ، فوجد أثَرَ دخولهم ولم يجد أثَر خروجهم، فدخلوا فأعمى اللهُ أبصارَهم فلم يَرَوا شيئاً، فقال الملك: سُدُّوا عليهم بابَ الغارِ حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً[(١)].

وروى مجاهد عن ابنِ عباس أيضاً أنَّ هؤلاء الفتية كانوا في دِيْنِ مَلِكٍ يعبد الأصنامَ ويذبح لها ويَكفرُ بالله، وقد تابعه على ذلك أهلُ المدينة، فوقع للفتية عِلْم من بعض الحواريين ـ حسبما ذكر النقَّاش، أو: من مؤمني الأُمم قبلهم ـ فآمنوا بالله ورأوا ببصائرِهم قبيحَ فعلِ الناس، فأخذوا نفوسَهم بالتزام الدِّين وعبادةِ الله، فرُفع أمرُهم إلى الملك، وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضَرهم الملِكُ إلى مجلسه، وأمرهم باتباع دينِه والذَّبح لآلهته، وتوعَّدهم على فِراق ذلك بالقتل، فقالوا له فيما روي: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾. وروي أنَّهم قالوا نحوَ هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملِكُ: إنَّكم شبانٌ أَغمار لا عقولَ لكم، وأنا لا أَعجل بكم بل أَستأني، فاذهبوا إلى منازلِكم ودبِّروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرَب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنَّه سافر خلال الأَجَلِ، فتشاور الفِتيةُ في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدُهم: إنِّي أَعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يُدخِل فيه غنمَه، فلْنذهب فَلْنَختَفِ فيه حتى يفتحَ اللهُ لنا، فخرجوا فيما رُوِيَ يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحوِ طريقهم؛ لئلا يشعرَ الناسُ بهم. ورُوي أنهم كانوا مُتَّفِقين[(٢)]، فحضر عيدٌ خرجوا إليه، فركبوا في جملة الناس، ثم أَخذوا باللَّعبِ بالصَّوْلجان حتى خَلَصوا بذلك[(٣)].

وروى وهبُ بنُ منبِّه أنَّ أولَ أمرهم إنَّما كان حواريٌّ لعيسى ابنِ مريم جاء إلى مدينة أصحابِ الكهف يريد دخولَها، فأَجَرَ نفسَه من صاحب الحمَّام وكان يعمل فيه، فرأَى صاحبُ الحمام في أعماله بركةً عظيمةً، فألقى إليه بكلِّ أمره، وعرف ذلك

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) في (ز) و(م) والمحرر الوجيز: «مثقفين».

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨.

الرجلَ فتيانٌ من المدينة، فعرَّفهم اللهَ تعالى، فآمنوا به واتَّبعوه على دينه، واشتهرت خلطتُهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملِك بامرأةٍ أراد الخَلْوةَ بها، فنهاه ذلك الحوارِيُّ، فانتهى، ثم جاء مرَّة أُخرى فنهاه، فشتَمه، وأَمضى عَزْمه في دخول الحمَّام مع البَغِيِّ، فدخل فماتا فيه جميعاً، فاتُّهِم ذلك الحواريُّ وأصحابُه بقتلهما، ففرُّوا جميعاً حتى دخلوا الكهفَ[1]. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فرُوِيَ أنَّه كان كلبَ صيدٍ لهم، ورُوِيَ أنَّهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ فاتَّبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلبُ معهم، قاله ابن عباس. واسمُ الكلب: حمران، وقيل: قطمير[2].

وأما أسماءُ أهل الكهف فأعجميَّة، والسَّنَدُ في معرفتها واهٍ. والذي ذكره الطبريُّ[3] هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلِّم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالوَرِقِ إلى المدينة عند بَعْثهم مِن رقدتهم، ومرطوس، وكشوطوش، ودينموس، ويطونس، وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلبُ لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانية: هذه الآية صريحةٌ في الفرار بالدِّين وهجرةِ الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوفَ الفتنة وما يلقاهُ الإنسانُ من المحنة. وقد خرج النبيُّ ﷺ فارًّا بدِيْنه، وكذلك أصحابُه، وجلس في الغار حسبما تقدَّم في سورة النحل[4]. وقد نصَّ اللهُ تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدَّم[5]. وهجروا أوطانَهم، وتركوا أرضَهم ودِيارَهم وأهاليهم وأولادَهم وقراباتهم وإخوانَهم، رجاءَ السلامة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩ ، وعرائس المجالس ص٤٢٣ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧ - ٣٩٩ ، والطبري ١٥/ ١٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩ ، وينظر المحبَّر ص٣٥٦ ، وعرائس المجالس ص٤١٩ .

(٣) في التفسير ١٥/ ١٦٥ - ١٦٦ ، وينظر المحبَّر ص٣٥٦ ، وعرائس المجالس ص٤١٩ .

(٤) ١٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٥) ١٠/ ٢١٠ وما بعدها.

بالدِّين والنجاةِ من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخَلْق والانفراد بالخالق، وجواز الفِرارِ من الظالم هي سُنَّة الأنبياءِ صلوات الله عليهم والأولياءِ. وقد فضَّل رسولُ الله ﷺ العزلةَ، وفضَّلها جماعةُ العلماء لا سيما عند ظهور الفتنِ وفساد الناس، وقد نصَّ اللهُ تعالى عليها في كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ»[1].

قال العلماء: الاعتزالُ عن الناس يكون مرَّة في الجبال والشِّعاب، ومرَّة في السواحل والرِّباط، ومرَّة في البيوت، وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنةُ فأَخْفِ مكانَك وكُفَّ لسانَك». ولم يخصَّ موضعاً مِن موضع[2]. وقد جعلت طائفةٌ من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشَّرِّ وأهلِه بقلبِك وعملِك، وإن كنتَ بين أظهرهم. وقال ابنُ المبارك في تفسير العزلة: أن تكونَ مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فَخُضْ معهم، وإن خاضوا في غيرِ ذلك فاسكت[3].

وروى البَغَوِيُّ عن ابنِ عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «المؤمن الذي يُخالط الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يُخالِطهم ولا يَصبِرُ على أذاهم»[4]. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ قال: «نِعْمَ صوامعُ المؤمنين بيوتُهم» من مراسيل الحسن وغيره[5].

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وينظر العزلة للخطابي ص٦٢ - ٦٣ .

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وأورد الحديث بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (٦٩٨٧) ، وأبو داود (٤٣٤٣)، والخطابي في العزلة ص٦٣ - ٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

(٣) التمهيد ١٧/٤٤٦ .

(٤) أبو القاسم البغوي في الجعديات (٧٤٤)، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (٣٥٨٥)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وحسَّن الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٥١٢ إسناد ابن ماجه، مع أن فيه عبد الواحد بن صالح، وهو مجهول، كما ذكر ذلك ابن حجر في التقريب، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٩ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٩ من مرسل الحسن، وأخرجه أيضاً ابن عدي مرفوعاً من حديث أنس، وقال: وهذا زاد فيه ابن بنت مطر هذا أنس والنبي ﷺ، وإنما هذا من قول الحسن... وابن بنت مطر هذا أظهر أمراً في الضعف، وأحاديثه عامتها مسروقة سرقها من قوم ثقات ويوصل أحاديثه. اهـ، وهو عند ابن المبارك في زوائد الزهد ص٤ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٩ ، والخطابي في العزلة ص٧٠ - ٧١ عن أبي الدرداء موقوفاً بنحوه، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٢ .

وقال عقبةُ بنُ عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاةُ يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبةُ أمسِك عليك لسانَك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك»[١]. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ خير مالِ الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القطر، يَفِرُّ بدينه من الفتن». خرَّجه البخاريُّ[٢].

وذكر عليُّ بنُ سعد، عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومئة فقد حلَّت لأمتي العُزْبة والعُزْلة والترهُّب في رؤوس الجبال»[٣].

وذكر أيضاً عليُّ بنُ سعد، عن عبد الله بنِ المبارك، عن مبارك بنِ فضالة، عن الحسن يرفعه إلى رسولِ الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمانٌ لا يَسْلَم لذي دِينٍ دينُه إلا مَن فرَّ بدينه مِن شاهقٍ إلى شاهق، أو جِحْر إلى جِحْر، فإذا كان ذلك، لم تُنَل المعيشةُ إلا بمعصيةِ الله، فإذا كان ذلك، حلَّت العُزْبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تَحِلُّ العُزْبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟! قال: «إذا كان ذلك كان فسادُ الرجل على يدي أبوَيْه، فإن لم يكن له أبوان، كان هلاكُه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجةٌ، كان هلاكُه على يدي ولدِه، فإن لم يكن له ولدٌ، كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعيِّرونه بضِيْق المعيشة ويكلِّفونه ما لا يُطيق، فعند ذلك يُورِدُ نفسَه المواردَ التي يهلك فيها»[٤].

قلت: أحوالُ الناس في هذا الباب تختلف، فرُبَّ رجلٍ تكون له قوَّة على سكنى الكهوفِ والغِيران في الجبال، وهي أرفعُ الأحوال؛ لأنَّها الحالةُ التي اختارها اللهُ لنبيِّه ﷺ في بداية أمره، ونصَّ عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٥)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) برقم (٣٦٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، وشَعَف الجبال: جمع شَعَفَة، وهي رأس الجبل.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الخطابي في العزلة ص٦٦ - ٦٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٥، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٢١.

ورُبَّ رجلٍ تكون العُزْلة له في بيته أخفَّ عليه وأسهلَ، وقد اعتزل رجالٌ من أهل بدر، فلزموا بيوتَهم بعد قَتْلِ عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

ورُبَّ رجلٍ متوسِّط بينهما فيكون له من القوَّة ما يَصبِرُ بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر، ومخالفٌ لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك: حدَّثنا وُهَيب بنُ الوَرْد قال: جاء رجل إلى وهب بنِ منبِّه فقال: إنَّ الناسَ وقعوا فيما فيه وقعوا! وقد حدَّثت نفسي ألا أخالطَهم. فقال: لا تَفعلْ! إنَّه لابُدَّ لك من الناس، ولابُدَّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً، أعمَى بصيراً، سَكوتاً نَطُوقاً[(١)].

وقد قيل: إنَّ كلَّ موضع يَبعد عن الناس فهو داخلٌ في معنى الجبال والشِّعاب، مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرِّباط والذِّكْر، ولزوم البيوت؛ فراراً عن شرورِ الناس. وإنَّما جاءت الأحاديثُ بذِكْر الشِّعاب والجبال واتِّباع الغنم ـ والله أعلم ـ لأنَّ ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعتزَل فيها، فكلُّ موضع يَبعُد عن الناس فهو داخلٌ في معناه، كما ذكرنا، والله الموفِّق وبه العصمةُ[(٢)].

وروى عقبةُ بنُ عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَعْجَب ربُّك من راعي غنم في رأس شَظِيّة الجبل يؤذِّن بالصلاة ويصلِّي، فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاةَ، يخاف منِّي، قد غفرتُ لعبدي وأدخلته الجنة». خرَّجه النَّسائيُّ[(٣)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لما فَرُّوا ممَّن يطلبهم، اشتغلوا بالدُّعاء ولجؤوا إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: مغفرةً ورزقاً.

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٦.

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٥٠.

(٣) في المجتبى ٢/ ٢٠، وفي الكبرى (١٦٤٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٤٤٢)، وأبو داود (١٢٠٣) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٢/ ٣٦ : الحديث رجال إسناده ثقات. والشظيَّة: قطعة مرتفعة في رأس الجبل. النهاية (شظي).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا[١] مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابنُ عباس: مخرجاً من الغارِ في سلامة[٢]. وقيل: صواباً. ومن هذا المعنى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَزَبَه أمرٌ، فَزِع إلى الصلاة[٣].

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

عبارةٌ عن إلقاء اللهِ تعالى النومَ عليهم. وهذه من فصيحاتِ القرآن التي أقرَّت العربُ بالقصور عن الإتيانِ بمثله. قال الزجَّاج[٤]: أي: منعناهم عن أن يَسمعوا؛ لأنَّ النائمَ إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربْنا على آذانهم بالنوم، أي: سَدَدْنا آذانَهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى «فضربنا على آذانهم» أي: فاستجبنا دعاءَهم، وصَرَفْنا عنهم شرَّ قومهم، وأنمناهم. والمعنى كلُّه متقارب. وقال قُطْرُب: هذا كقولِ العرب: ضرَب الأميرُ على يد الرعيَّة؛ إذا منعهم الفسادَ، وضرب السيِّدُ على يد عبدِه المأذون له في التجارة؛ إذا منعَه من التصرُّف. قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضَرِيراً:

ومن الحوادثِ لا أبالَكَ أنَّني ... ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأسدادِ[٥]

وأما تخصيصُ الآذان بالذكر؛ فلأنَّها الجارحةُ التي منها عظم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نومُ نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نومٌ إلا مع[٦] تَعَطُّل السمع. ومن ذِكْر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» خرَّجه الصحيح. أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويلِ النوم، لا يقومُ الليل[٧].

---

(١) بعدها في (ظ): أي يسِّر.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٢.

(٣) سلف ١/ ٢٦٢.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١، وينظر تفسير البغوي ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٥/ ١١٤.

(٥) المفضليات ص٢١٦، والاختيارين ص٥٥٩، ومنتهى الطلب ١/ ٤١٥. وضُربت عليه الأرضُ بالأسداد: سُدَّت عليه الطرق، وعميت عليه مذاهبه. القاموس (سدد).

(٦) في (م): من.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، و مسلم (٧٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

و﴿عَدَدًا﴾: نعت للسنين، أي: معدودة، والقصد به العبارةُ عن التكثير؛ لأنَّ القليلَ لا يحتاج إلى عدد؛ لأنَّه قد عُرِف[١]. والعَدُّ: المصدر، والعدد: اسم المعدود، [٢]كالنَّفَض والخَبَط[٢]. وقال أبو عبيدة: «عدداً» نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيَّن اللهُ تعالى عددَ تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من بَعْدِ نومهم. ويقال لمن أُحْيِيَ أو أُقِيمَ من نومه: مبعوثٌ؛ لأنَّه كان ممنوعاً من الانبعاثِ والتصرُّف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ «لنعلم» عبارةٌ عن خروج ذلك الشيء إلى الوجودِ ومشاهدته، وهذا على نحوِ كلام العرب، أي: لنعلمَ ذلك موجوداً، وإلا فقد كان اللهُ تعالى عَلِمَ أيَّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهْرِيُّ «ليعلم»: بالياء[٣].

والحزبان: الفريقان. والظاهر من الآية أنَّ الحزبَ الواحد هم الفتيةُ إذ ظنُّوا لبثَهم قليلاً. والحزبَ الثاني أهلُ المدينة الذين بُعِثَ الفِتْيةُ على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسِّرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدَّة أصحابِ الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية[٤].

و«أحصى»: فعلٌ ماضٍ. و«أمداً»: نصب على المفعول به، قاله أبو عليٍّ[٥]. وقال

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٥، وللزجاج ٣/ ٢٧١ بنحوه.

(٢-٢) في (د) و(ظ): كالنقص والخيط.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠، وقراءة الزهري في البحر المحيط ٦/ ١٠٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

الفرَّاء[١]: نصب على التمييز. وقال الزجَّاج[٢]: نصب على الظرف، أي: أيُّ الحزبين أَحصى للبثِهم في الأمد، والأمد: الغاية. وقال مجاهد[٣]: «أمداً»: معناه عدداً، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري[٤]: «أمداً» منصوب بـ«لبثوا». ابن عطية[٥]: وهذا غير مُتَّجه، وأما من قال: إنَّه نصب على التفسير، فيلحقه من الاختلال أن «أفعل» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في الشاذِّ، و«أحصى» فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن «أفعل» في الرباعي قد كثر، كقولك: ما أعطاه للمال، وآتاه للخير. وقال في صفة حوضِه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن»[٦]. وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضْيع[٧].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: «لنعلمَ أيُّ الحزبين أحصى» اختلافاً وقع في أمدِ الفِتْية، عقَّب بالخبر عن أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلَم من أمرهم بالحقِّ الذي وقع.

وقوله تعالى: «إنّهم فِتْيَةٌ» أي: شبابٌ وأحداث حكم لهم بالفتوَّة حين آمنوا بلا واسطة، كذلك قال أهلُ اللسان: رأس الفتوَّة الإيمان. وقال الجُنيد: الفتوَّة: بَذْلُ النَّدى وكفُّ الأذى وتَرْكُ الشكوى. وقيل: الفُتوَّة: اجتنابُ المحارم واستعجالُ المكارم[٨].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ .

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ١٧٨ .

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٩٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٨) ينظر مدارج السالكين ٢/ ٣٤٢ .

وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جدًّا؛ لأنَّه يعمُّ بالمعنى جميعَ ما قيل في الفتوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يسَّرناهم للعمل الصالح، من الانقطاعِ إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادةٌ على الإيمان[١]. وقال السُّدِّيُّ: زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافةَ أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّهَ بهم، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه اللهُ، فقال: يا قومِ! لِمَ تطردونني، لم ترجمونني! لم تضربونني! فوالله لقد عرفتُ اللهَ قبل أن تعرفوه بأربعينَ سنةً، فزادهم اللهُ بذلك هُدًى[٢].

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزمٍ وقُوَّة صبرٍ، أعطاها اللهُ لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: «رَبُّنَا رَبُّ السماواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً». ولما كان الفَزَع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلالَ، حَسُنَ في شدَّة النفس وقوَّة التصميم أن يُشْبِه الرَّبْطَ، ومنه يقال: فلانٌ رابطُ الجَأْش، إذا كان لا تَفْرَق نفسُه عند الفَزَع والحرب وغيرها. ومنه الرَّبْط على قلبِ أمِّ موسى[٣]. وقولُه تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصفَ مقامِهم بين يدي الملك الكافر، كما تقدَّم، وهو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) عرائس المجالس ص٤١٩ - ٤٢٠ بنحوه.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٤) ٩/ ٤٦٦.

مَقام يَحتاج إلى الرَّبْط على القلب حيث خالفوا دينَه، ورفضوا في ذات الله هيبته[١].

والمعنى الثاني فيما قيل: إنَّهم أولادُ عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراءَ تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أنَّ ربِّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: «ربُّنا ربُّ السماوات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً»[٢]. أي: لئن دعَوْنا إلهاً غيرَه، فقد قلنا إذاً جَوْراً ومحالاً.

والمعنى الثالث: أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثِهم بالعَزْم إلى الهروب إلى اللهِ تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلانٌ إلى أَمْرِ كذا، إذا عزَم عليه بغاية الجِدِّ[٣].

الثانية: قال ابن عطية[٤]: تعلَّقت الصوفيَّة في القيام والقول بقوله: «إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض».

قلت: وهذا تعلّقٌ غيرُ صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا اللهَ على هدايته، وشكروا لِمَا أَولاهم من نعمه ونِعْمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعينَ إلى ربِّهم، خائفين من قومهم، وهذه سنَّة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضَرْبِ الأرض بالأقدام والرَّقص بالأكمام! وخاصَّةً في هذه الأزمان عند سماعِ الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان، هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرامٌ عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان[٥] إن شاء الله تعالى. وقد تقدَّم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية[٦]. وقال الإمام أبو بكر الطَّرَسُوشِيُّ وسئل عن مذهب الصوفيَّة فقال: وأما

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) زاد المسير ٥/ ١١٠، وتفسير الرازي ٢١/ ٩٧ - ٩٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٥) عند الآية (١٨).

(٦) ص٨١ فما بعد من هذا الجزء.

الرَّقص والتواجد فأوَّل من أحدثه أصحابُ السَّامِرِيِّ؛ لمَّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العِجْل، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومُنا، أي: أهلُ عصرنا وبلدِنا، عبدوا الأصنامَ تقليداً من غير حجَّة. ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هَلَّا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجَّة على عبادتهم الصَّنَم. وقيل: «عليهم» راجع إلى الآلهة، أي: هلَّا أقاموا بيِّنةً على الأصنام في كونها آلهةً، فقولهم: «لولا» تحضيضٌ بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك، لم يجب أن يُلتفَت إلى دعواهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قولِ الله لهم. أي: وإذ اعتزلتموهم فأْووا إلى الكهف. وقيل: هو من قولِ رئيسِهم يمليخا، فيما ذكر ابن عطية[2]. وقال الغَزْنَوِيُّ: رئيسهم مكسلمينا قال لهم ذلك، أي: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: إنَّكم لم تتركوا عبادته، فهو استثناءٌ منقطع.

قال ابنُ عطية[3]: وهذا على تقدير أنَّ الذين فرَّ أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا عِلْم لهم به، وإنَّما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإنْ فرضنا أنَّهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل، لكنَّهم يشركون أصنامَهم معه في العبادة، فالاستثناءُ متَّصل؛ لأنَّ الاعتزالَ وقع في كلِّ ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨، وزاد المسير ٥/ ١١٦.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ - ٥٠٢، وقراءة ابن مسعود ذكرها الطبري في التفسير ١٥/ ١٨٢.

مصحف عبد الله بنِ مسعود: «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة: هذا تفسيرها.

قلت: ويدلُّ على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ[١] عن عطاءٍ الخُراسانِيِّ في قوله تعالى: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله» قال: كان فِتيةٌ من قوم يعبدون الله، ويعبدون معه آلهةً، فاعتزلت الفتيةُ عبادةَ تلك الآلهة، ولم تعتزل عبادةَ الله.

ابن عطية[٢]: فعلى ما قال قتادة تكون «إلّا» بمنزلة «غير»، و«ما» مِن قوله: «وما يعبدون إلا الله» في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله: «اعتزلتموهم». ومُضمَّن هذه الآية أنّ بعضهم قال لبعضٍ: إذا فارَقْنا الكفَّارَ وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكهفَ مأوًى ونتكلْ على الله؛ فإنَّه سيبسط لنا رحمتَه، وينشرها علينا، ويهيِّئ لنا من أمرنا مِرْفَقاً. وهذا كلُّه دعاءٌ بحسَب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمْرِ آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بنِ الحسين ﷺ: كان أصحابُ الكهف صياقلةً. واسم الكهف: حيوم[٣].

﴿مِّرۡفَقٗا﴾ قُرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يُرتفق به. وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه، ومنهم من يجعل: «المَرْفق» بفتح الميم، الموضع كالمسجد، وهما لغتان[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: ترى

---

(١) في حلية الأولياء ٥/ ٢٠٠ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ .

(٣) عرائس المجالس ص٤٢٠ ، ٤٢٣ وفيه أن أصحاب الكهف كانوا صيارفة، وأن اسم الكهف كان الوصيد، وقيل: خيرم.

(٤) قرأ نافع وابن عامر: بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون: بكسر الميم وفتح الفاء. السبعة ص٣٨٨ ، والتيسير ص١٤٢ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٤ .

أيُّها المخاطَب الشمسَ عند طلوعها تَميلُ عن كهفهم. والمعنى: إنَّك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أنَّ المخاطَب رآهم على التحقيق(١).

و«تزاور»: تتنحَّى وتميل، من الازورار. والزَّوَر: المَيْل. والأزور في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كما قال ابن أبي رَبيعة(٢):

... وجَنْبِي خِيفَةَ القومِ أزْوَرُ

من اللفظة قول عنترة(٣):

فازوَرَّ من وَقْع القَنَا بلَبَانه

وفي حديث غَزْوة مُؤْتة أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى في(٤) سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة(٥).

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «تزَّاوَرُ» بإدْغام التاء في الزاي، والأصل: «تتزاور». وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: «تَزَاوَرُ» مخففَّة الزاي. وقرأ ابن عامر «تَزْوَرُّ» مثل تحمرُّ(٦). وحكى الفرَّاء(٧) «تزوارُّ» مثل تحمارُّ، كلُّها بمعنًى واحد.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء، على معنى: تتركهم، قاله مجاهد(٨).

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٩٩.

(٢) في ديوانه ص٦٥، والبيت بتمامه فيه:

وخُفِّض عني الصوت أقبلتُ مشية الـ حباب وشخصي خشية الحي أزور

(٣) في ديوانه ص٣٠، وتمامه: وشكا إليَّ بعَبْرة وتحمحم

(٤) بعدها في (ظ): الجنة.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٣، والخبر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٦٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٥٩ - ١٦٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٨٠.

(٦) السبعة ص٣٨٨، والتيسير ص١٤٢.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.

(٨) في تفسيره ١/ ٣٧٤.

وقال قتادة: تَدَعهم[١]. النحّاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنَّه يقال: قرضه يقرضه: إذا تركه، والمعنى: أنَّهم كانوا لا تُصيبهم شمسٌ ألبتة؛ كرامةً لهم، وهو قول ابن عباس[٢].

يعني أنَّ الشمسَ إذا طلعت مالت عن كهفهم ذاتَ اليمين، أي: يمينَ الكهف، وإذا غربت تمرُّ بهم ذاتَ الشمال، أي: شمالَ الكهف، فلا تصيبهم في ابتداءِ النهار ولا في آخرِ النهار. وكان كهفُهم مستقبِلَ بنات نَعْش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً وجاريةً لا تَبلغهم لتؤذيهم بحرِّها، وتغيِّر ألوانهم، وتُبْلِي ثيابهم[٣]. وقد قيل: إنَّه كان لكهفهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجبٌ من جهة الدَّبُور وهم في زاويته. وذهب الزجَّاج[٤] إلى أن فِعْلَ الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون بابُ الكهف إلى جهة تُوجِبُ ذلك.

وقرأت فرقة: «يقرضهم» بالياء، من القَرْضِ وهو القَطْع، أي: يقطعهم الكهف بظلِّه من ضوء الشمس[٥].

وقيل: «وإذا غربت تقرضهم» أي: يصيبهم يسيرٌ منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي: تعطيهم الشمسُ اليسيرَ من شعاعها. وقالوا: كان في مَسِّها لهم بالعَشِيِّ؛ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أنَّ الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفتُه لا إلى كهف آخر يتأذَّوْن فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صَرْفُ الشمس عنهم بإظلالِ غمامٍ أو سببٍ آخر. والمقصود بيانُ حِفْظهم عن تطرُّق البلاء وتغيُّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذِّي بحرٍّ أو بَرْدٍ.

---

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠، والطبري ١٥/ ١٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.

(٣) الوسيط ٣/ ١٣٩.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٠٨.

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: من الكهف. والفَجْوَة: المتَّسع، وجمعها فَجَوات وفِجَاء[١]، مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات. وقال الشاعر:

ونحن مَلأْنا كلَّ وادٍ وفَجْوةٍ رجالاً وخيلاً غيرَ ميلٍ ولا عُزْلِ[٢]

أي: كانوا بحيث يصيبهم نسيمُ الهواء.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ لطف بهم، وهذا يقوِّي قولَ الزجَّاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينُهم مفتوحةً وهم نائمون، فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً[٣]. وقيل: تحسبهم أيقاظاً؛ لكثرة تقلُّبهم كالمستيقظ في مضجعه[٤]. و﴿أَيۡقَاظٗا﴾ جمع يَقِظ ويَقْظان، وهو المنتبه[٥].

﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ كقولهم: وهم قومٌ ركوع وسجود وقعود، فوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ قال ابن عباس: لئلَّا تأكلَ الأرضُ لحومَهم[٦]. قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقليبتان.و قيل: في كل سنة مرَّة[٧]. وقال مجاهد: في كلِّ سبع سنين مرَّة. وقالت فرقة: إنما قُلِّبوا في التسع الأَواخر، وأما في الثلاث مئة فلا[٨]. وظاهر كلام المفسرين أنَّ التقليبَ كان من فعل اللهِ، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٦.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٤.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٦٢، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٧.

(٦) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٨٦، ١٩١.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤، ولم ينسب القول الأول إلى مجاهد، بل إلى فرقة أيضاً، والذي ورد في المصادر أن القول الثاني ـ وهو إنما قُلِّبوا في التسع الأواخر ـ هو قول مجاهد، ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٣، والنكت والعيون ٣/ ٢٩١، وزاد المسير ٥/ ١١٨.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ قال عمرو بنُ دِينار: إنَّ ممَّا أُخِذَ على العقرب ألَّا تضرَّ أحداً قال في ليله أو في نهاره: صلى الله على نوح[١]. وإنَّ ممَّا أُخِذَ على الكلب ألَّا يضرَّ من حَمَل عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد[٢].

أكثر المفسرين على أنَّه كلب حقيقةً، وكان لصيدِ أحدِهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل. واختُلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبيّ[٣]. تحصيله: أيَّ لون ذكرتَ أصبتَ، حتى قيل: لون الحجر، وقيل: لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه، فعن عليٍّ: ريَّان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سَلَام: بسيط[٤]. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطمير، ذكره الثعلبيُّ.

وكان اقتناءُ الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعةً، فمرُّوا براعٍ معه كلب فاتَّبَعَهم على دينهم. وقال كعب: مرُّوا بكلب فنبح لهم، فطردوه مراراً، فقام الكلبُ على رجليه ورفع يدَيْه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحِبُّ أحبَّاء الله تعالى، فناموا حتى أحرسَكم[٥].

الثانية: ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية، نقص من أَجْره كلَّ يوم قيراطان»[٦]. وروى الصحيح أيضاً عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع، انْتُقِص من أجره كلَّ يوم قيراط». قال الزهريُّ: وذُكر لابنِ عمر قولُ أبي هريرة فقال:

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٥٦ ، من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وأخرجه الأصبهاني في طبقات المحدثين ٣/ ٤٠٤ من قول الحسن ﷺ.

(٢) ينظر حياة الحيوان للدميري ٢/ ٣٠٤ .

(٣) في عرائس المجالس ص٤١٩ .

(٤) في عرائس المجالس: بطيط.

(٥) الوسيط ٣/ ١٣٩ ، وعرائس المجالس ص٤٢٥ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١ .

(٦) سلف ٧/ ٣١٢ .

يَرحم اللهُ أبا هريرة! كان صاحبَ زرع[١]. فقد دلَّت السُّنَّة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أَجْرِ من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، إما لترويعِ الكلبِ المسلمينَ وتشويشِه عليهم بنباحه، أو لمَنْع دخول الملائكةِ البيتَ، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعيُّ، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعةَ فيه، والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين: «قيراطان»، وفي الأخرى: «قيراط». وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدُّ أذًى من الآخر، كالأسود الذي أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بقَتْله، ولم يُدخله في الاستثناء حين نهى عن قَتْلها، كما هو منصوص في حديث جابر، أخرجه الصحيح، وقال: «عليكم بالأسود البَهيم ذي النُّقطتين فإنه شيطان»[٢]. ويحتمل أن يكون ذلك؛ لاختلافِ المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكَّة ينقص قيراطان، وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذُه، فلا ينقص، كالفرس والهِرَّة، والله أعلم.

الثالثة: وكلب الماشية المباح اتخاذُه عند مالكٍ هو الذي يَسْرَح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السُّرَّاق. وكلب الزرع هو الذي يَحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السُّرَّاق. وقد أجاز غيرُ مالك اتخاذَها لسُرَّاق الماشية والزرع. وقد تقدَّم في «المائدة»[٣] من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابنُ عطية[٤]: وحدَّثني أبي ﷺ، قال: سمعت أبا الفضل الجوهريَّ في جامع مصر يقول على منبر وَعْظه سنةَ تسعٍ وستينَ وأربع مئة: إنَّ مَن أحبَّ أهلَ الخير، نال من بركتهم، كلبٌ أحبَّ أهلَ فَضْلٍ وصَحِبَهم، فذكره اللهُ في محكم تنزيله.

---

(١) سلف ٧/ ٣١٢.

(٢) سلف ٧/ ٣١٣.

(٣) ٧/ ٢٩٩ وما بعدها.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤.

قلت: إذا كان بعضُ الكلاب قد نال هذه الدرجةَ العليا بصُحبته ومخالطته الصلحاءَ والأولياءَ حتى أخبر اللهُ تعالى بذلك في كتابه جلَّ وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحِّدين المخالطين المحبِّين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليةٌ وأُنْسٌ للمؤمنين المقصِّرين عن درجاتِ الكمال، المحبِّين للنبيِّ ﷺ وآلِه خيرِ آل[١].

روى الصحيح عن أنس بنِ مالك قال: بينا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد، فلقِيَنا رجلٌ عند سُدَّة المسجد فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها» قال: فكأنَّ الرجلَ استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أحِبُّ اللهَ ورسوله. قال: «فأنتَ مع من أحببتَ»[٢]. في رواية قال أنس بنُ مالك: فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبيِّ ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أُحِبُّ اللهَ ورسولَه وأبا بكر وعمرَ، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم[٣].

قلت: وهذا الذي تمسَّك به أنس يَشمل من المسلمين كلَّ ذي نفس، فكذلك تعلَّقت أطماعنا بذلك وإن كنَّا مقصِّرين، ورجونا رحمةَ الرحمن وإن كنَّا غيرَ مستأهلين، كلبٌ أحبَّ قوماً فذكرَه اللهُ معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحبُّ النبيِّ ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة[٤]: لم يكن كلباً حقيقةً، وإنَّما كان أحدَهم، وكان قد قعد عند باب الغارِ طليعةً لهم[٥]؛ فسُمِّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع[٦] كما سُمِّي

---

(١) ينظر لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٤) واللفظ له.

(٣) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٩٢.

(٥) بعدها في (د) و(ز) زاد الناسخ قوله: قال ابن عطية ما ذكر موصلاً هنا موضعه وإنما تأخر عن موضعه. اهـ.

(٦) قوله: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع. تأخَّر في (م) وجاء بعد قوله: قال ابن عطية. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

النجمُ[١] التابعُ للجوزاء كلباً؛ لأنَّه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبَّار[٢]. قال ابنُ عطية[٣]: أمَا إنَّ هذا القولَ يُضعِفه ذِكْرُ بَسْطِ الذراعين فإنَّها في العرف من صفة الكلب حقيقةٌ، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «ولا يبسط أحدُكم ذراعَيْه انبساطَ الكلب»[٤].

وقد حكى أبو عمر المطرِّز في كتاب «اليواقيت» أنَّه قُرئَ: «وكالئهم[٥] باسط ذراعيه بالوصيد». فيحتمل أن يريد بالكالئ[٦] هذا الرجل على ما روي؛ إذ بَسْطُ الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رَفْعِ الوجه للتطلُّع هي هيئة الرِّيبة المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالئ الكلبَ. وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ: «وكالبهم» يعني: صاحبَ الكلب[٧].

قوله تعالى: ﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضِيِّ؛ لأنَّها حكايةُ حال ولم يقصد الإخبارَ عن فعل الكلب[٨].

والذراع: مِن طَرَف المرفق إلى طَرَف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بَسَطَ ذراعيه؛ لطول المدَّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوحَ العين.

والوصِيد: الفِناء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير[٩]، أي: فناء الكهف،

---

(١) ليست في (د) و(ظ).

(٢) في (ظ): الخيار. وفي (ز): الحبار. وفي المحرر الوجيز: الحيار. اهـ. والجبَّار: اسم الجوزاء. القاموس المحيط (جبر).

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٤) سلف ٢/ ٢٦ .

(٥) في النسخ: وكالبهم. في الموضعين وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ١٠٩ ، وروح المعاني ١٥/ ٢٢٦ ، قال أبو حيان: قرئ: وكالئهم، اسم فاعل من كَلأَ، إذا حَفِظَ.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): بالكالب، والمثبت من (ز) والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٧) الكشاف ٢/ ٤٧٥ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ وورد عنده أبو جعفر، بدل: جعفر.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، والكشاف ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٩) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ١٩٢ ، وينظر تفسير مجاهد ١/ ٣٧٥ .

والجمع وصائد ووُصُد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً[(١)]. وأنشد:

بأرضٍ فضاءٍ لا يُسَدُّ وصِيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

وقد تقدَّم[(٢)]. وقال عطاء: عتبة الباب[(٣)]، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدتُ البابَ وآصدته، أي: أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأُصول[(٤)]، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور: بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وثَّاب: بضمِّها[(٥)]. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: لو أشرفتَ عليهم لهربتَ منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لِمَا حفَّهم اللهُ تعالى من الرُّعب، واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشةِ مكانهم، وكأنَّهم آواهم اللهُ إلى هذا المكان الوَحْشِ في الظاهر لينفرَ الناسُ عنهم. وقيل: كان الناسُ محجوبين عنهم بالرعب، لا يَجْسُر أحدٌ منهم على الدُّنوِّ إليهم. وقيل: الفرار منهم؛ لطول شُعورهم وأظفارهم، ذكره المهدويُّ والنحَّاس والزجَّاج والقشيريُّ[(٦)]. وهذا بعيد؛ لأنَّهم لما استيقظوا قال بعضُهم لبعض: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. ودلَّ هذا على أنَّ شعورَهم وأظفارَهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنَّما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابنُ عطية[(٧)]: والصحيح في أمرهم أنَّ الله عزَّ وجلَّ حَفِظَ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكونَ لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبْلَ لهم ثوبٌ، ولم تغيَّر صفةٌ، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالمَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١٩٤ .

(٢) سلف ص٢٠٣ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٤ .

(٤) الصحاح (وصد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، وينظر الكشاف ٢/ ٤٧٦ ، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٠٩ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها، لكانت عليه أهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة: «لَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئت، ثم مُلِئت. وقرأ الباقون: «لَمُلِئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهرُ في اللغة(١). وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعديِّ(٢):

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْرِماً فملِّئَ من كعبِ بن عوف سلاسِلُه

وقرأ الجمهور: ﴿رُعْبًا﴾ بإسكان العين. وقرأ بضمِّها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان(٣). و«فراراً» نصب على الحال، و«رعباً» مفعول ثانٍ أو تمييز(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ البعث: التحريك عن سكون(٥). والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدًى وقلَّبناهم، بعثناهم أيضاً، أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وفِتْيانِ صِدْقٍ قد بَعثْتُ بسُحْرَةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوانِ(٦)

---

(١) السبعة ص٣٨٩، والتيسير ص١٤٣، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه.

(٢) المُخَبَّل السعدي هو: ربيع بن مالك بن ربيعة، والبيت في اللسان (فتك).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٦) القائل امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٩١، قال شارحه: والعاثي: المتناول للشيء، والسُّحْرة: السَّحَر الأعلى، أول الأسحار.

أي: أيقظت: واللام في قوله: «ليتساءلوا» لام الصيرورة، وهي لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فبعْثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنَّهم دخلوه غُدوةً، وبعثَهم اللهُ في آخر النهار، فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا: اللهُ أعلم بالمدَّة[١].

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ **فيه سبع مسائل:**

الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقُهم كأخفافِ الرُّبَع[٢]، ذكره النحاس.

وقرأ ابنُ كَثير ونافع وابن عامر والكسائيُّ وحفص عن عاصم: «بورِقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم: «بوَرْقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرةَ؛ لثقلها، وهما لغتان[٣]. وقرأ الزجَّاج[٤]: «بوِرْقكم» بكسر الواو وسكون الراء.

ويُروى أنَّهم انتبهوا جِياعاً، وأنَّ المبعوثَ هو تمليخا، كان أصغرَهم، فيما ذكر الغَزْنوِيُّ. والمدينة: أُفسُوس، ويقال: هي طَرسوس، وكان اسمها في الجاهلية: أفسوس، فلما جاء الإسلامُ سمَّوها: طرسوس[٥]. وقال ابنُ عباس: كان معهم دراهمُ عليها صورةُ الملِك الذي كان في زمانهم[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ قال ابنُ عباس: أحلُّ ذبيحةً؛ لأنَّ أهلَ بلدهم كانوا يذبحون على اسمِ الصنم، وكان فيهم قومٌ يُخْفُون إيمانَهم. ابن

---

(١) الوسيط ٣/ ١٤٠.

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٨/٧١ دون عزو، قال ابن الأثير في النهاية (ربع): الرباع بكسر الراء، جمع رُبَع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع، وقيل: ما ولد في أول النتاج.

(٣) السبعة ص٣٨٩، والتيسير ص١٤٣، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٢.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٥.

(٦) الوسيط ٣/ ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ١٢١، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠٣.

عباس: كان عامَّتُهم مجوساً[١]. وقيل: «أزكى طعاماً» أي: أكثر بركةً. قيل: إنَّهم أَمروه أن يشتري ما يُظنُّ أنَّه طعام اثنين أو ثلاثة؛ لئلا يُطَّلع عليهم، ثم إذا طُبخ كفى جماعة، ولهذا قيل ذلك الطعام: الأرز. وقيل: كان زبيباً. وقيل: تمراً، فالله أعلم. وقيل: «أزكى»: أطيب. وقيل: أرخص[٢].

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُخبِرنَّ. وقيل: إن ظُهِر عليه، فلا يوقعنَّ إخوانَه فيما وقع فيه.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجَّاج[٣]: معناه بالحجارة، وهو أخبثُ القتل. وقيل: يرموكم بالسَّبِّ والشَّتم[٤]، والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّه كان عازماً على قَتْلهم، كما تقدَّم في قَصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت ـ على ما ذكر ـ قِتْلَةَ مخالفِ[٥] دينِ الناس، إذ هي أشفى لجملة[٦] أهل ذلك الدِّين من حيث إنَّهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البِعْثة بالوَرِق دليلٌ على الوَكالة وصحَّتها. وقد وكَّل عليُّ بن أبي طالب أخاه عَقيلاً عند عثمان ﷺ، ولا خلافَ فيها في الجملة[٧]. والوَكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، ألا ترى إلى عبد الرحمن بنِ عَوف كيف وكَّل أميَّة بنَ خَلَف بأهله وحاشيته بمكَّة، أي: يحفظهم، وأميَّة مُشرِك، والتزم عبدُ الرحمن لأميَّة من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك؛ مجازاةً لصنعه، روى البخاريُّ عن عبد الرحمن بنِ عوف قال: كاتبتُ أميَّة بنَ خَلَف كتاباً بأن يحفظني في صاغِيَتي بمكَّة وأحفظه في صاغِيَته

---

(١) تفسير الرازي ٢١/١٠٣.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢١٢ - ٢١٤، والنكت والعيون ٣/ ٢٩٤، وزاد المسير ٥/ ١٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢١٥ وعزاه إلى ابن جريج.

(٥) في النسخ: ما ذكر قبله مخالفة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٦، والكلام منه.

(٦) في المحرر الوجيز: لحملة.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨١.

بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمنَ، قال: لا أَعرفُ الرحمنَ! كاتِبْني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبدَ عمرٍو... وذكر الحديث[١]. قال الأصمعيُّ: صاغية الرجل: الذين يَميلون إليه ويأتونه، وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو ويَصْغَى إذا مال، وكلُّ مائل إلى الشيء أو معه، فقد صغا إليه وأَصغى، من كتاب «الأفعال»[٢].

الرابعة: الوكالة عقدُ نيابةٍ، أذِن اللهُ سبحانه فيه؛ للحاجة إليه، وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كلُّ أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونةٍ من غيره، أو بترفُّه[٣]، فيستنيب من يريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحَّتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣].

وأما من السنة: فأحاديث كثيرة، منها حديث عروة البارِقِيِّ، وقد تقدَّم في آخر الأنعام[٤]. روى جابر بنُ عبد الله قال: أَردتُ الخروجَ إلى خَيْبَر، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت له: إنِّي أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيتَ وكيلي، فخذ منه خمسةَ عشَر وَسْقاً، فإن ابتغى منك آيةً، فضع يدك على تَرْقُوَته» خرَّجه أبو داود[٥]. والأحاديث كثيرة في هذه المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفايةٌ.

الخامسة: الوكالة جائزة في كلِّ حقٍّ تجوز النيابةُ فيه، فلو وكَّل الغاصبُ، لم يجز، وكان هو الوكيلَ؛ لأنَّ كلَّ محرَّم فعله، لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نُكْتة بديعة، وهي أنَّ الوكالة إنَّما كانت مع التَّقِيَّة[٦]

(١) البخاري (٢٣٠١).

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٩ ، والأفعال للسرقسطي ٣/ ٣٨٣ ، ولابن القطاع ٢/ ٢٥٦ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦ ، وفيه: يترفَّه، بدل: بترفُّه.

(٤) ٩/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) في سننه (٣٦٣٢)، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٤٣٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨٠ . قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ٥١ : رواه أبو داود من طريق وهب بن كيسان عن جابر بسند حسن. اهـ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦ - ١٢١٧ .

(٦) في (ظ): البقية.

خوفَ أن يشعرَ بهم أحدٌ؛ لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العُذر متفَق عليه، فأمَّا من لا عذرَ له، فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسُحْنون: لا تجوز. قال ابنُ العربيِّ[١]: وكأنَّ سُحنونَ تلقَّفه من أسد بنِ الفُرات، فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم، وإذلالاً لهم، وهو الحقُّ؛ فإنَّ الوكالةَ معونةٌ ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن، فأمَّا أهلُ الدين والفَضْل، فلهم أن يوكِّلوا وإن كانوا حاضرين أصحَّاء، والدليل على صحَّة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرَّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبيِّ ﷺ سِنٌّ من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا له سِنَّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقَها، فقال: «أعطوه» فقال: أوْفَيْتَنِي، أوْفَى الله لك. قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ خيرَكم أحسنُكم قضاء». لفظ البخاري[٢]. فدلَّ هذا الحديث ـ مع صحَّته ـ على جواز توكيلِ الحاضر الصحيح البدن، فإنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر أصحابه أن يُعطوا عنه السِّنَّ التي كانت عليه، وذلك توكيلٌ منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيُّ ﷺ مريضاً ولا مسافراً، وهذا يردُّ قولَ أبي حنيفة وسُحنون في قولهما: إنَّه لا يجوز توكيلُ الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلافُ قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ جواز الشركة؛ لأنَّ الوَرِق كان لجميعهم. وتضمَّنت جوازَ الوكالة؛ لأنَّهم بعثوا من وكلَّوه بالشراء. وتضمَّنت جواز أكْلِ الرُّفقاء وخَلْطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضُهم أكثرَ أكْلاً من الآخر[٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] حسبما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٤]. ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدَّق عليه فيخلطه بطعام لغنيٍّ ثم يأكل معه: إنَّ

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢١٩، والكلام السابق منه.

(٢) في «صحيحه» (٢٣٠٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٠١)، وأحمد (٩١٠٦).

(٣) أحكام القرآن للهراسي ٣/ ٢٦٥، ولابن العربي ٣/ ١٢١٨ بنحوه.

(٤) ٣/ ٤.

ذلك جائزٌ. وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامَه بطعام غيره ثم يأكل معه: إنَّ ذلك جائزٌ. وقد كان رسول الله ﷺ وكَّل من اشترى له أُضْحية. قال ابنُ العربي[(١)]: ليس في الآية دليلٌ على ذلك؛ لأنَّه يحتمل أن يكون كلٌّ واحد منهم قد أعطاه منفرداً، فلا يكون فيه اشتراك، ولا مُعَوَّل في هذه المسألة إلا على حديثين: أحدهما: أنَّ ابنَ عمر مَرَّ بقوم يأكلون تمراً فقال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الإقران[(٢)] إلا أن يستأذن الرجلُ أخاه[(٣)]. الثاني: حديث أبي عبيدة في جيش الخَبَط[(٤)]. وهذا دون الأوَّل في الظهور؛ لأنَّه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يُعطيهم كَفافاً من ذلك القوت، ولا يَجمعهم عليه.

قلت: ومما يدلُّ على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و«أَعْثر» تعديةُ عَثَر بالهمزة، وأصل العِثار في القدم[(٥)].

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمَّة المسلمة الذين بُعث أهلُ الكهف على عهدهم. وذلك أنَّ دقيانوس مات ومضت قرون، وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح،

---

(١) في أحكام القرآن ٣/١٢١٨ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): الاقتران، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٥)، ومسلم (٢٠٤٥)، وأحمد (٥٠٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥)، وأحمد (١٤٣١٥)، قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٩ : والخَبَط: ورق السَّلَم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٠٦ .

فاختلف أهلُ بلده في الحشر وبَعْثِ الأجساد من القبور، فشكَّ في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنَّما تُحشَر الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تُبعَث الروح والجسد جميعاً، فكبُر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيَّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرَّع إلى الله تعالى في حجَّة وبيان، فأعثر اللهُ على أهل الكهف(١).

فيقال: إنَّهم لما بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزقٍ منها، اسْتُنْكِر شخصُه واسْتُنْكرت دراهمه(٢)؛ لبُعد العهد، فحُمل إلى الملك، وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعلَّ هذا من الفِتْيَة الذين خرجوا على عَهْد دِقيانوس الملك، فقد كنت أدعو اللهَ أن يُرِيَنِيهم، وسأل الفتى، فأخبره(٣)، فسُرَّ الملِكُ بذلك وقال: لعلَّ اللهَ قد بعث لكم آيةً، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلَّا يَرْعَبُوا، فدخل عليهم فأعلمهم الأمرَ، وأنَّ الأمَّةَ أمَّةُ إسلام، فرُوِي أنَّهم سُرُّوا بذلك، وخرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنَّهم ماتوا ـ حين حدَّثهم تمليخا ـ ميتة الحقِّ، على ما يأتي. ورجع من كان شكَّ في بَعْث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى: «أعثرنا عليهم».

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الملكُ ورعيته أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثَ حقٌّ.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم، وهابوا الدخولَ عليهم، فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً، فقال الذين هم على دين الفتية: اتَّخِذوا عليهم مسجداً. وروي أنَّ طائفةً كافرةً قالت: نبني بِيعةً أو مصنعاً(٤)، فمانعهم

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

(٢) في (ظ): وَرِقه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٥.

(٤) في (ظ): مصنع، وفي (د): مضيعاً، وفي (م): مضيفاً، والمثبت من (ز) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧، والكلام منه.

المسلمون، وقالوا: لنتخذنَّ عليهم مسجداً. وروي أنَّ بعضَ القوم ذهب إلى طَمْسِ الكهف عليهم وتَرْكِهم فيه مغيَّبين.

ورُوي عن عبيد بنِ عمير[١] أنَّ اللهَ تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أَثَرهم، وحجبهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان؛ ليكون مَعْلَماً لهم.

وقيل: إنَّ الملكَ أراد أن يدفنَهم في صندوق من ذهب، فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردتَ أن تجعلنا في صندوق من ذهب، فلا تفعل؛ فإنَّا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فدَعْنا[٢].

وتنشأ هنا مسائلُ ممنوعةٌ وجائزةٌ؛ فاتِّخاذ المساجد على القبور والصلاةُ فيها والبناء عليها، إلى غيرِ ذلك مما تضمَّنته السنة من النهي عنه، ممنوعٌ لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذيُّ عن ابنِ عباس قال: لعن رسولُ اللهِ ﷺ زوَّارات القبور والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُج[٣]. قال الترمذيُّ: وفي الباب عن أبي هريرة[٤] وعائشة[٥]، حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان[٦] عن عائشة أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة ذكرتا كنيسةً رَأَيْنها بالحبشة - فيها تصاويرُ - لرسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بَنَوْا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخَلْق عند الله تعالى يوم القيامة». لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرِّم على المسلمين أن يتَّخذوا قبورَ الأنبياء والعلماء مساجدَ. وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا

---

(١) في (د) و(م): عبد الله بن عمر، والمثبت من (ز) و(ظ) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩٦.

(٣) أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥٧٥) مختصراً، وهو عند أحمد (٢٦٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٠).

(٦) سلف ٢/ ٢٩٤.

تُصَلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» لفظ مسلم[١]. أي: لا تتخذوها قبلةً فتصلُّوا عليها أو إليها، كما فعل اليهود والنصارى؛ فيؤدي إلى عبادةِ من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذَّر النبيُّ ﷺ عن مِثْلِ ذلك، وسَدَّ الذرائعَ المؤدِّية إلى ذلك فقال: «اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على قوم اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجدَ»[٢].

وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بنِ عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِق يَطرحُ خَميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها، كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنةُ اللهِ على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذِّر ما صنعوا[٣].

وروى مسلم[٤] عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّص القبرُ، وأن يُقعدَ عليه، وأن يُبنى عليه. وخرَّجه أبو داود والترمذيُّ أيضاً عن جابر قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تُجَصَّص القبور، وأن يُكتَب عليها، وأن يُبْنَى عليها، وأن توطأ[٥]. قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الصحيح عن أبي الهَيَّاج الأسديِّ قال: قال لي عليُّ بنُ أبي طالب: ألا أبْعَثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألَّا تَدَعَ تمثالاً إلا طَمَسته، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سوَّيته. في رواية: ولا صورةً إلا طمستها. وأخرجه أبو داود والترمذيُّ[٦].

قال علماؤنا: ظاهره مَنْعُ تسنِيم القبور ورَفْعِها، وأن تكون لاطئةً. وقد قال به بعضُ أهل العلم، وذهب الجمهور إلى أنَّ هذا الارتفاعَ المأمورَ بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفةُ قبر نبيِّنا محمد ﷺ وقبرِ صاحبَيْه

---

(١) سلف ١٢/ ٢٤٧ .

(٢) المفهم ٢/ ١٢٨ و٦٢٨، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٧٢ من حديث عطاء بن يسار ﷺ مرسلاً.

(٣) سلف ٢/ ٢٩٥ .

(٤) في صحيحه (٩٧٠)، وهو عند أحمد (١٤١٤٩).

(٥) أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٢١٦٥)، وابن ماجه (١٥٦٢).

(٦) مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، وهو عند أحمد (٧٤١).

رضي الله عنهما ـ على ما ذكر مالك في «الموطأ»[١] ـ وقبر أبينا آدمَ ﷺ، على ما رواه الدارقطنيُّ[٢] من حديث ابنِ عباس. وأما تعليةُ البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهليَّة تفعله تفخيماً وتعظيماً، فذلك يُهدَم ويُزال؛ فإنَّ فيه استعمالَ زينة الدنيا في أوَّل منازلِ الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظِّم القبورَ ويَعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام[٣].

والتسنيم في القبر: ارتفاعُه قَدْرَ شبر، مأخوذ من سَنام البعير[٤]. ويُرَشّ عليه بالماء؛ لئلَّا ينتثرَ بالريح. وقال الشافعيُّ: لا بأس أن يطيَّن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يُجصَّص القبر، ولا يطيَّن، ولا يُرفَع عليه بناء، فيسقط[٥].

ولا بأسَ بوضْع الأحجار؛ لتكون علامةً؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدَّثنا مُسدَّد، حدَّثنا نوح بن درّاج، عن أبان بنِ تغْلِب، عن جعفر بنِ محمد، قال: كانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ تزور قبرَ حمزة بنِ عبد المطلب كلَّ جمعةٍ وعلَّمته بصخرة، ذكره أبو عمر[٦].

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت، وهو جائز لا سيَّما في الأرض الرِّخْوة. ورُوي أنَّ دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حَجَر[٧]، وأنَّ يوسفَ عليه السلام

---

(١) المفهم ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ ، ولم نقف عليه في الموطأ، وأخرج البخاري (١٣٩٠) عن سفيان التمَّار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنَّماً. اهـ قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٢٥٧ : زاد أبو نعيم في المستخرج: وقبر أبي بكر وعمر كذلك. اهـ. وأخرج أبو داود (٣٢٢٠) من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

(٢) في سننه (١٨١٢)، وفيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول، وهو متروك.

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٧ .

(٤) تهذيب اللغة ١٦/ ١٦ ، والصحاح (سنم).

(٥) الأم ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وبدائع الصنائع ٢/ ٣٥٩ .

(٦) في التمهيد ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٧) ذكر الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ٣٩٥ أن بنهر تستر فيما يقال تابوت دانيال.

أوصى بأن يُتَّخذ له تابوتٌ من زجاج ويُلقَى في رَكِيَّة؛ مخافةَ أن يُعبَد، وبقي كذلك إلى زمانِ موسى صلوات الله عليهم أجمعين، فدلَّته عليه عجوزٌ، فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام[١]. وفي الصحيح عن سعد بنِ أبي وَقّاص أنَّه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتَّخذوا لي لَحْداً، وانْصِبوا عليَّ اللَّبِن نَصْباً، كما صُنع برسول الله ﷺ[٢].

اللَّحد: هو أن يشقَّ في الأرض ثم يُحفَر قبرٌ آخرُ في جانب الشَّقِّ من جانب القِبْلة إن كانت الأرض صُلْبةٌ، يُدخَل فيه الميتُ ويُسَدّ عليه باللَّبِن. وهو أفضلُ عندنا من الشَّقِّ؛ لأنَّه الذي اختاره اللهُ تعالى لرسول الله ﷺ[٣]. وبه قال أبو حنيفة قال: السُّنَّة اللَّحد. وقال الشافعي: الشَّقُّ.ويكره الآجُرُّ في اللَّحد. وقال الشافعي: لا بأس به؛ لأنَّه نوعٌ من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأنَّ الآجرَّ لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبِلَى، فلا يليقُ به الإحكام. وعلى هذا يسوَّى بين الحجر والآجرّ. وقيل: إنَّ الآجُرَّ أثر النار فيكره تفاؤلاً، فعلى هذا يفرَّق بين الحجر والآجرّ. قالوا: ويستحبُّ اللَّبِن والقَصَب؛ لما رُوي أنَّه وضع على قبر النبيِّ ﷺ حُزْمةٌ من قصب[٤]. وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بنِ الفضل الحنفيّ رحمه الله أنَّه جوَّز اتخاذَ التابوت في بلادهم؛ لرخاوة الأرض. وقال: لو اتُّخذ تابوتٌ من حديد، فلا بأس به، لكن ينبغي أن يُفرَش فيه التراب، وتطيَّن الطبقةُ العليا مما يلي الميتَ، ويُجعل اللَّبِن الخفيفُ على يمين الميت ويساره؛ ليصير بمنزلة اللَّحد[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٧ بنحوه، والركيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٦)، وأحمد (١٤٥٠).

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ عن الشعبي أن النبي ﷺ جعل على لحده طَنُّ قصب. والطُّنُّ: حزمة القصب. القاموس (طنن).

(٥) ذكره بنحوه الكاساني في بدائع الصنائع ٢/ ٣٥٤ .

قلت: ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ المدينةَ سَبِخة[١]، قال شُقْران: أنا والله طرحتُ القطيفةَ تحت رسولِ الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذيُّ: حديث شُقران حديثٌ حسن غريب[٢].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ الضمير في «سيقولون» يراد به أهلُ التوراة ومعاصري محمَّد ﷺ. وذلك أنَّهم اختلفوا في عددِ أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص[٣].

وقيل: المراد به النَّصارى، فإنَّ قوماً منهم حضروا النبيَّ ﷺ من نَجْران، فجرى ذِكْر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبِيَّة: كانوا ثلاثةً رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطورية: كانوا خمسةً سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعةً ثامنهم كلبهم[٤].

وقيل: هو إخبارٌ عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبيِّ ﷺ عن أصحاب الكهف.

والواو في قوله: «وثامنهم كلبهم» طريق النحويين أنَّها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم؛ لتفصِّل أمرهم، وتدلَّ على أنَّ هذا غاية[٥] ما قيل، ولو سقطت،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المراسيل ٤١٦ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٦ عن الحسن مرسلاً، وجعل القطيفة في قبر النبي ﷺ أخرجه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سنن الترمذي (١٠٤٧)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٦٨)، والطبراني في الكبير (٧٤٠٩).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٤ .

(٥) في (ظ): نهاية. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ والكلام منه.

لصحَّ الكلام. وقالت فرقة، منها ابنُ خَالَويْه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبيُّ عن أبي بكر بنِ عَيَّاش أنَّ قريشاً كانت تقول في عددها: ستَّة سبعة وثمانية، فتُدخل الواو في الثمانية(١). وحكى نحوه القَفَّال، فقال: إنَّ قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتِيج إلى الزيادة عليها، استؤنف خبرٌ آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّٰٓئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. يدلُّ عليه أنَّه لمَّا ذكر أبواب جهنم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. وقال: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] فالسبعة نهاية العدد عندهم، كالعشَرة الآن عندنا(٢).

قال القُشيريُّ أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعةُ نهاية عندهم! ثم هو منقوضٌ بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الاسمَ الثامنَ بالواو.

وقال قومٌ ممن صار إلى أنَّ عددَهم سبعة: إنَّما ذكر الواو في قوله: «سبعة وثامنهم» لينبِّه على أن هذا العددَ هو الحقُّ، وأنَّه مباين للأعداد الأُخَر التي قال فيها أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدِّمتين: «رَجْماً بالغيب» ولم يذكره في الجملة الثالثة، ولم يَقدَح فيها بشيء، فكأنَّه قال لنبيِّه: هم سبعة وثامنهم كلبهم.

والرَّجْم: القول بالظنِّ، يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه، ومرجوم ومُرَجَّم(٣)، كما قال:

وما الحربُ إلا ما علمتُم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ(٤)

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٦ ،وزاد المسير ٥/ ١٢٥ .

(٣) لسان العرب (رجم).

(٤) القائل زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص١٨ .

قلت: قد ذكر الماورديُّ[١] والغَزْنَوِيُّ: وقال ابن جريج ومحمد بنُ إسحاق: كانوا ثمانيةً، وجعلا قوله تعالى: «وثامنهم كلبهم» أي: صاحبُ كلبهم. وهذا مما يقوِّي طريقَ النحويين في الواو، وأنَّها كما قالوا[٢]. وقال القُشيرِيُّ: لم يذكر الواوَ في قوله: رابعهم، سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلبُ الحكمة والعلَّة في مثل هذه الواو تكلّفٌ بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ ذِكۡرَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يردَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ. ثم أخبر أنَّ عالِمَ ذلك من البشر قليلٌ. والمراد به قوم من أهل الكتاب[٣]، في قول عطاء. وكان ابنُ عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعةً وثامنهم كلبهم[٤]، ثم ذكر السبعةَ بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير، كلب أنمر، فوق القَلَطِيّ ودون الكركيّ[٥]. وقال محمد بن سعيد بن المُسَيِّب: هو كلب صينيٌّ. والصحيح أنَّه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدِّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يُقدَّر له. قال: وكتبه أبو عمرٍو الحِيريِّ عنِّي[٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي: لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو ردُّ عِلْم عدَّتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر

(١) في النكت والعيون ٣/ ٢٩٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، وفي تاريخه ٢/ ٥ ، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٦ ، وعبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤ ، وعرائس المجالس ص٤١٩ ، والقَلَطي: القصير جداً من الناس والسنانير والكلاب. وورد في النسخ: الكردي، بدل الكركي. والمثبت من عرائس المجالس، والكركي: طائر كبير معروف. حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٧٣ .

(٦) عرائس المجالس ص٤١٩ .

أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتجَّ على أمر مقدَّر في ذلك[١]. وفي هذا دليل على أنَّ الله تعالى لم يبيِّن لأحد عدَدَهم فلهذا قال: «إلا مِرَاءً ظاهراً» أي: ذاهباً، كما قال:

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢]

ولم يبح له في هذه الآية أن يمارِي، ولكن قوله: «إلَّا مِرَاءً» استعارةٌ من حيث يماريه أهلُ الكتاب، سمِّيت مراجعته لهم مِراءً، ثم قيد بأنّه ظاهر، ففارق المراءَ الحقيقيَّ المذمومَ. والضمير في قوله: «فيهم» عائدٌ على أهل الكهف. وفي قوله: «منهم» عائدٌ على أهل الكتاب المعارِضين. وقوله: «فلا تمار فيهم» يعني في عِدَّتهم، وحذفت العدَّة؛ لدلالة ظاهر القول عليها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنَّه عليه الصلاة والسلام سأل نصارى نَجْران عنهم، فنُهي عن السؤال[٤]. وفي هذا دليل على مَنْع المسلمين من مراجعة أهلِ الكتاب في شيء من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام على قوله للكفار حينَ سألوه عن الرُّوح والفِتية وذي القرنين: غداً أُخبركم بجواب أسئلتكم،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٢١، وصدره:

وعيَّرها الواشون أنّي أحبُّها

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨، والوسيط ٣/١٤٣.

ولم يستثنِ في ذلك. فاحتبسَ الوحيُ عنه خمسة عشر يوماً حتى شقَّ ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة. وأُمِرَ في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا، إلّا أن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ[(١)]، حتى لا يكون محقِّقاً لحكم الخبر، فإنَّه إذا قال: لأفعلنَّ ذلك ولم يفعل، كان كاذباً، وإذا قال: لأفعلنَّ ذلك إن شاء الله، خرج عن أن يكون محقِّقاً للمخبَر عنه. واللام في قوله «لشيء» بِمنزلة «في»، أو كأنَّه قال: لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطيَّة[(٢)]: وتكلَّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآيةُ ليست في الأيمان وإنما هي في سُنَّة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: «إلا أن يشاء الله» في الكلام حَذْف يقتضيه الظاهر، ويحسِّنه الإيجاز، تقديره: إلا أن تقول: إلا أَنْ يشاء الله، أو إلا أن تقول: إن شاء الله، فالمعنى: إلا أَنْ تذكر مشيئةَ الله، فليس: «إلا أن يشاء الله»، من القول الذي نُهِي عنه.

قلت: ما اختاره ابنُ عطيَّة وارتضاه هو قول الكسائيِّ والفَرَّاء والأَخفش[(٣)]. وقال البصريون: المعنى: إلا بمشيئةِ الله. فإذا قال الإنسان: أَنا أَفعل هذا إن شاء الله، فمعناه: بمشيئة الله. قال ابنُ عطيَّة[(٤)]: وقالت فرقة: «إلا أن يشاء الله» استثناءٌ من قوله: «ولا تقولنَّ». قال: وهذا قول حكاه الطبريُّ[(٥)] وردَّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى. وقد تقدَّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة»[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨ ، وللأخفش ٢/٦١٨ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٥) في التفسير ١٥/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٦) ٨/١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأَمْر بالذِّكْر بعد النسيان، واختلف في الذِّكْر المأمور به، فقيل: هو قوله: «وقل عسى أن يَهْدِيني ربّي لأقرب من هذا رَشَداً». قال محمَّد الكوفيُّ المفسِّر: إنَّها بألفاظها مما أُمِر أن يقولها كلُّ من لم يَسْتَثْنِ، وإنَّها كفارةٌ لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاءٌ مأمور به دون هذا التخصيص[١]. وقيل: هو قوله: «إن شاء الله» الذي كان نَسِيَه عند يمينه. حُكي عن ابن عباس[٢] أنَّه إن نسيَ الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة؛ لم يَحنَث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد[٣].

وحكى إسماعيل بنُ إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: «واذكر ربك إذا نسيت» قال: يَستثني إذا ذَكَره[٤]. الحسن: ما دام في مجلس الذِّكْر[٥]. ابن عباس: سنتين[٦]، ذكره الغزنويُّ قال: فيحمل على تَدارك التبرُّك بالاستثناء؛ للتخلُّص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكماً؛ فلا يصحُّ إلا متصلاً. السُّدِّي: أي: كل صلاة نسيها إذا ذَكَرها[٧]. وقيل: استثنِ باسمِه؛ لئلا تنسى. وقيل: اذكره متى ما نسيتَه. وقيل: إذا نسيتَ شيئاً، فاذكره يُذَكِّرْكَه. وقيل: اذكره إذا نسيتَ غيرَه أو نسيتَ نفسك؛ فذلك حقيقةُ الذِّكْر.

وهذه الآية مخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهي استفتاحُ كلام على الأصحِّ، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعدُ تعمُّ جميعَ أُمَّته؛ لأنَّه حكم يتردَّد في الناس لكثرة وقوعِه. والله الموفِّق.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٥ (١٢٧٥٨)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ ، وفيه: بعد سنتين.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ وعزاه إلى مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدَّة لَبثهم، وفي قراءة ابنِ مسعود: «وقالوا لبثوا»[١]. قال الطبريُّ[٢]: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدَّة بعد الإعثار عليهم إلى مدَّة النبيِّ ﷺ، فقال بعضهم: إنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة وتِسْعَ سنين، فأخبر اللهُ تعالى نبيَّه أنَّ هذه المدَّة في كونهم نياماً، وأنَّ ما بعد ذلك مجهولٌ للبشر. فأمر اللهُ تعالى أن يردَّ عِلْم ذلك إليه.

قال ابن عطيَّة[٣]: فقوله على هذا: «لبثوا» الأوَّل يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإعثارِ إلى مدَّة محمَّد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء[٤]. مجاهد: إلى وقت نزولِ القرآن. الضَّحَّاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنَّه لما قال: «وازدادوا تسعاً» لم يَدْرِ الناس أهيَ ساعات، أم أيام، أم جُمَع، أم شهور، أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيلَ بحسَب ذلك، فأمر اللهُ تعالى بِرَدِّ العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمةٌ. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنَّها أعوام، والظاهر من أَمْرهم أنَّهم قاموا ودخلوا الكهفَ بعد عيسى بيسيرٍ، وقد بقيت من الحواريين بقيَّة. وقيل غير هذا على ما يأتي.

قال القشَيْريُّ: لا يُفهَم من التِّسع تسعَ ليال وتسعَ ساعات؛ لسَبْق ذكر السنين، كما تقول: عندي مئة درهم وخمسة، والمفهوم منه خمسةُ دراهم. وقال أبو علي: «وازدادوا تسعاً» أي: ازدادوا لبثَ تسع، فحذف. وقال الضحَّاك: لما نزلت: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة» قالوا: سنين، أم شهور، أم جُمَع، أم أيام؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: «سنين»[٥]. وحكى النقَّاش ما معناه أنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة شمسيَّة بحساب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٢٩، والكشاف ٢/ ٤٨١.

(٢) في التفسير ١٥/ ٢٣١، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٤) في (ظ) والمحرر الوجيز: بالبلى. وهما بمعنى.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٠، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٦ (١٢٧٦٧).

الأيام، فلما كان الإخبارُ هنا للنبيِّ العربيِّ، ذكرت التسع، إذ المفهوم عنده من السنين القمريَّة، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابَيْن[١]. ونحوه ذَكَر الغزنويُّ. أي: باختلاف سِنِي الشمس والقمر؛ لأنَّه يتفاوت في كلِّ ثلاث وثلاثين وثُلُث سنةٍ سنةٌ، فيكون في ثلاث مئة، تسع سنين.

وقرأ الجمهور: «ثلاث مئةٍ سنينَ» بتنوين مئة ونَصْب سنين، على التقديم والتأخير، أي: سنين ثلاث مئة، فقدَّم الصفةَ على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً، أو عَطْفَ بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و«سنين» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائيُّ بإضافة مئة إلى سنين، وترك التنوين، كأنَّهم جعلوا سنينَ بمنزلة سنة، إذ المعنى بهما واحد[٢]. قال أبو عليٍّ[٣]: هذه الأعداد التي تُضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلاث مئة رجل وثوب، قد تُضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله: «ثلاث مئة سنة»[٤]. وقرأ الضحاك «ثلاث مئة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تَسْعاً» بفتح التاء[٥]، وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة: التقدير: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاث مئة[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآنِ فيهم،

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٢) السبعة ص٣٨٩ - ٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ .

(٣) في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٣٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٧٩ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨١ ونسباها إلى أُبَيٍّ. وينظر البحر المحيط ٦/ ١١٧ .

(٥) الشواذ ص٧٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٨ .

على قول مجاهد. أو إلى أَنْ ماتوا، على قول الضَّحَّاك. أو إلى وقت تغيُّرهم بالبِلَى، على ما تقدَّم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدَّة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادةً ونقصاناً[1]. أي: لا يَعلم عِلْم ذلك إلا الله أو مَن علَّمه ذلك ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحدَ أبصرُ مِن الله ولا أسمعُ[2]. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى: «أَبصر به» أي: بوَحْيِه وإرشادِه هداكَ وحُججكَ والحقَّ من الأمور، وأَسمع به العالم، فيكونان أمرين لا على وجه التعجُّب[3]. وقيل: المعنى: أَبصرهم وأَسمعهم ما قال الله فيهم[4].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيٌّ يتولَّى حِفْظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في: «لهم» على معاصري محمَّد ﷺ من الكفَّار[5]. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدَّة لُبثهم وَلِيٌّ دون الله يتولَّى تدبيرَ أَمرهم، فكيف يكونون أعلمَ منه، أو كيف يتعلَّمون من غيرِ إعلامه إيَّاهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قرئ بالياء ورَفْع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابنُ عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَريُّ: ﴿ولا تُشْرِكْ﴾ بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيِّ ﷺ، ويكون قوله: «ولا تشرك» عطفاً على قوله: «أبصر به وأسمع». وقرأ مجاهد: «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجَزْم. قال يعقوب: لا أَعرف وجهَه[6].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ - ٥١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥١١ ، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ .

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا، أو هم نيامٌ وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنَّه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجَبَله، فمشى الناسُ معه إليه، فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظامُ أهل[1] الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قومٌ فَنُوا وعُدِموا منذ مدَّة طويلة، فسمعه راهبٌ فقال: ما كنتُ أحسِب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابنُ عمِّ نبيِّنا ﷺ. وروت فرقةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: لَيَحُجَّنَّ عيسى ابنُ مريم ومعه أصحابُ الكهف فإنَّهم لم يَحجُّوا بعدُ». ذكره ابن عطيَّة.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أنَّ عيسى ابنَ مريم عبدُ الله ورسولُه، وأنَّه يمرُّ بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِراً أو يَجمع اللهُ له ذلك فيجعل اللهُ حوارِيَّه أصحابَ الكهف والرقيم، فيمرُّون حجَّاجاً، فإنَّهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبرَ بكماله في كتاب «التذكرة»[2]. فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يومِ القيامة، بل يموتونَ قُبيلَ الساعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قيل: هو من تمامِ قصةِ أصحاب الكهف، أي: اتبعِ القرآنَ، فلا مُبدِّلَ لكلماتِ اللهِ، ولا خُلفَ فيما أَخبر به من قصةِ أصحاب الكهف[3]. وقال الطبري[4]: لا مغيِّر لما أوعدَ بكلماتِه أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه، ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنتَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إنْ لم تتبعِ القرآنَ وخالفته ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأً. وقيل: موئلاً[5]. وأصلُه الميلُ، ومَن لجأتَ إليه، فقد

(١) في (ظ): أصحاب. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١ والكلام منه.

(٢) ص٦٨٦ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ٢٣٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٠١ .

مِلْتَ إليه. قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخرُ قصةِ أصحاب الكهف.

ولما غزا معاويةُ غزوةَ المضيق نحو الروم وكان معه ابنُ عباس، فانتهى إلى الكهفِ الذي فيه أصحابُ الكهف، فقال معاويةُ: لو كُشِف لنا عن هؤلاء فننظرَ إليهم، فقال ابنُ عباس: قد منعَ الله مَن هو خَيرٌ منك عن ذلك، فقال: «لو اطلعتَ عليهم لولَّيْتَ منهم فِراراً» فقال: لا أنتهي حتى أعلمَ علمَهم، وبعثَ قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهفَ، بعثَ الله عليهم ريحاً فأخرجتهم[(١)]، ذكره الثعلبي أيضاً. وذَكر[(٢)] أنَّ النبيَّ ﷺ سألَ الله أن يريَه إياهم، فقال: إنَّك لن تراهم في دارِ الدنيا، ولكن ابعثْ إليهم أربعةً من خيارِ أصحابك ليبلِّغوهم رسالتَك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبيُّ ﷺ لجبريلَ عليه السلام: كيف أبعثُهم؟ فقال: ابسط كساءَك، و أَجلِسْ على طرفٍ من أطرافه أبا بكر، وعلى الطرفِ الآخر عمرَ، وعلى الثالث عثمانَ[(٣)]، وعلى الرابع عليَّ بنَ أبي طالب، ثم ادع الريحَ الرُّخاءَ المسخرة لسليمان، فإنَّ الله تعالى يأمُرها أن تطيعَك، ففعل فَحملتهم الريحُ إلى بابِ الكهفِ، فقَلعوا منه حجراً، فحَمل الكلبُ عليهم، فلمَّا رآهم حَرَّك رأسَه، وبَصبَص بذَنَبه، وأوْمأ إليهم برأسه أنِ ادخلوا فدَخلوا الكهفَ، فقالوا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ الله على الفِتية أرواحَهم، فقاموا بأجمعِهم وقالوا: وعليكم السلام[(٤)] ورحمةُ الله وبركاته، فقالوا لهم: معشرَ الفِتْية، إنَّ النبيَّ محمد بنَ عبد الله ﷺ يقرأُ عليكم السلامَ، فقالوا: وعلى محمدٍ رسولِ الله السلامُ ما دامتِ السماواتِ والأرضُ، وعليكم بما أبلغتُم، وقَبِلوا دينَه، وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسولَ الله منَّا السلام، وأخذوا مضاجعَهم وصاروا إلى رَقدتِهم إلى آخرِ الزمان عندَ خروجِ المهدي. فيقالُ: إنَّ المهديَّ يسلِّمُ عليهم فيُحييهم الله ثم يَرجعون إلى رَقدتِهم فلا يقومونَ حتى تقومَ الساعة، فأخبرَ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/٢٣٤٨ (١٢٧٢٠)، وتغليق التعليق ٤/٢٤٤ ،و صححه ابن حجر هنا وفي فتح الباري ٦/٥٠٥ ، ووقع في تغليق التعليق: غزوة المصيف، وفي الفتح: الصائفة.

(٢) أي: الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢ .

(٣) في عرائس المجالس: أبا ذر، فيه أنه على الطرف الرابع من الكساء.

(٤) في (م): عليكم.

جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردَّتهمُ الريحُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «كيف وجدتموهم؟» فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تُفرِّق بيني وبينَ أصحابي وأصهاري، واغفر لمن أحبَّني وأحبَّ أهلَ بيتي وخاصَّتي وأصحابي»(١).

وقيل: إنَّ أصحابَ الكهفِ دخلوا الكهفَ قبل المسيح، فأخبر اللهُ تعالى المسيحَ بخبرهم، ثم بُعثوا في الفَتْرة بين عيسى ومحمدٍ ﷺ(٢). وقيل: كانوا قبلَ موسى عليه السلام، وأنَّ موسى ذَكَرهم في التوراةِ، ولهذا سألتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ. وقيل: دَخلوا الكهفَ بعد المسيح، فالله أعلمُ أيَّ ذلك كان(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في سورة الأنعام(٤) وقد مضى الكلامُ فيه(٥). وقال سلمانُ الفارسيُّ ﷺ: جاءتِ المؤلَّفةُ قلوبُهم إلى رسولِ الله ﷺ: عُيينةُ بنُ حِصْن، والأقْرعُ بن حابس [وذووهم(٦)] فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّك لو جلستَ في صدرِ المجلسِ ونَحَّيتَ عنا هؤلاءِ وأرواح جِبابهم ـ يعنونَ سلمانَ وأبا ذَرٍّ وفقراءَ المسلمين، وكانت عليهم جبابُ الصوفِ لم يكن عليهم غيرُها ـ جلسنا إليكَ وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزلَ الله تعالى: «واتلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربِّك لا مبدّلَ لكلماته ولن تَجِدَ من دونه مُلْتَحداً. واصْبر نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ

---

(١) عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ١١٣ .

(٤) آية ٥٢ .

(٥) ٨/ ٣٨٩ .

(٦) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، وهي من تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وأسباب النزول للواحدي ص٣٠٦-٣٠٧ ، والوسيط ٣/ ١٤٥ .

والعَشِيِّ يريدون وجهه ـ حتى بلغَ ـ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادِقها» يَتهددُهم بالنار، فقام النبيُّ ﷺ يلتمسُهم حتى إذا أصابَهم في مؤخرِ المسجدِ يذكرون الله قال: «الحمدُ لله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أن أَصبرَ نفسي مع رجالٍ من أُمتي، معكم الْمَحْيا ومعكم المماتُ»[١].

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: طاعته. وقرأ نصرُ بن عاصم، ومالكُ بن دِينار، وأبو عبد الرحمن: «ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ» وحجتُهم أنَّها في السَّوادِ بالواو. وقال أبو جعفر النَّحاس: وهذا لا يلزمُ؛ لكتبِهم الحياةَ والصلاةَ بالواو، ولا تكادُ العربُ تقول: الغدوة؛ لأنَّها معرفة[٢]، وروي عن الحسن: «ولا تُعْدِ عينيك عنهم»[٣] أي: لا تتجاوزْ عيناك إلى غيرِهم من أبناءِ الدنيا طلباً لزينتها؛ حكاه اليزيدي[٤]. وقيل: لا تحتقرُهم عيناك، كما يقال: فلان تَنْبُو عنه العين، أي: مستحقراً[٥].

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تتزيَّن بمجالسةِ هؤلاء الرؤساءِ الذين اقترحوا إبعادَ الفقراء من مجلسِك[٦]، ولم يُرِد النبيُّ ﷺ أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نَهاه عن أن يفعلَه، وليس هذا بأكثر من قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان الله أعاذَه من الشرك. و«تريد» فعلٌ مضارع في موضع الحالِ، أي: لا تعدُ عيناك مريداً[٧]؛ كقولِ امرئ القيس:

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما ... نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا[٨]

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) في (د) و(م): معروفة، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤، والكلام منه. وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٦ - ٢٣٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١١٩، والإملاء للعكبري ٢/ ٥٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٢، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٧.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩.

(٧) الوسيط ٣/ ١٤٥، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥.

(٨) في ديوانه ص٦٦.

وزعم بعضُهم أنَّ حق الكلامِ: لا تَعْدُ عينيك عنهم؛ لأن «تَعْدُ» متعدٍّ بنفسه. قيل له: والذي وَردت به التلاوةُ من رفعِ العينين يؤول إلى معنى النصبِ فيهما، إذ كان «لا تَعدُ عيناك عنهم» بمنزلة لا تنصرفْ عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم: لا تَصرِفْ عينيك عنهم، فالفعلُ مسندٌ إلى العينين، وهو في الحقيقةِ موجَّه إلى النبيِّ ﷺ[(١)]؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] فأسندَ الإعجابَ إلى الأموال، والمعنى: لا تُعْجبْكَ يا محمدُ أموالُهم. ويزيدُك وضوحاً قولُ الزجاج[(٢)]: إن المعنى: لا تصرفْ بصرَكَ عنهم إلى غيرِهم من ذوي الهيئاتِ والزينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ رَوى جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قولِه تعالى: «ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا» قال: نزلت في أُمَيَّة بنِ خلف الجُمَحِيِّ، وذلك أنَّه دعا النبيَّ ﷺ إلى أمرٍ كَرِهه من تجرُّدِ الفقراء عنه، وتقريبِ صناديدِ أهلِ مكة، فأنزلَ الله تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» يعني: مَنْ ختمنا على قلبِه عن التوحيد، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يعني: الشرك[(٣)]، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قيل: هو من التفريطِ الذي هو التقصيرُ وتقديمُ العجزِ بتركِ الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدِّ، وكان القومُ قالوا: نحن أشرافُ مُضَرَ، إن أسلمنا أسلمَ الناس. وكان هذا من التكبرِ والإفراط في القول[(٤)]. وقيل: «فُرُطاً» أي: قُدُماً في الشرِّ؛ من قولهم: فَرَط منه أمرٌ، أي: سبقَ[(٥)]. وقيل: معنى: «أغفلنا قلبه» وَجدناه غافلاً، كما تقول: لقِيت فلاناً فأَحمدتُه، أي: وجدته محموداً. وقال عمرو بنُ

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٨١، وكلامه في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) أسباب النزول ص٣٠٧، والوسيط للواحدي ٣/ ١٤٦، وفيه: «طرد» بدل «تجرد»، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٥) وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٢: وكان أمره فرطاً، فيه خمسة تأويلات: أحدها: ضيقاً، وهو قول مجاهد. الثاني: متروكاً، قاله الفراء. الثالث: ندماً، قاله ابن قتيبة. الرابع: سرفاً وإفراطاً، قاله مقاتل. الخامس: سريعاً، قاله ابن بحر.

معدِ يكَرِب لبني الحارث بنِ كعب: واللهِ لقد سألناكم فَما أبخلناكم، وقَاتلناكم فما أَجْبَنَّاكم، وهَاجَيناكم فما أفحمناكم. أي: ما وجدناكم بخلاءَ ولا جبناء ولا مُفْحَمين[١]. وقيل: نزلت: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» في عُيينةَ بن حِصن الفَزارِي[٢]؛ ذكره عبدُ الرزاق، وحكاه النحاسُ[٣] عن سفيانَ الثوري. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ «الحقُّ» رَفعٌ على خبرِ الابتداءِ المضمر، أي: قل: هو الحقُّ[٤]. وقيل: هو رفعٌ على الابتداءِ، وخبرُه في قوله: «مِن ربكم». ومعنى الآية: قل يا محمدُ لهؤلاءِ الذين أغفلنا قلوبَهم عن ذكرنا: أيها الناس، مِن ربكم الحقُّ، فإليهِ التوفيقُ والخِذلان، وبيده الهُدَى والضَّلال، يهدي من يشاءُ فيؤمِنُ، ويُضِل مَن يشاء فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، فالله يؤتي الحقَّ مَن يشاء وإن كان ضعيفاً، ويَحرِمه من يشاء وإن كان قويًّا غَنيًّا، ولستُ بطاردِ المؤمنين لِهَواكم، فإنْ شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفُروا، وليسَ هذا بترخيصٍ وتخييرٍ بين الإيمانِ والكفر، وإنَّما هو وعيدٌ وتهديدٌ. أي: إن كفرتم فقد أعدَّ لكم النارَ، وإن آمنتم فَلكم الجنةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للكافرين الجاحدين[٥]

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ .و نقل محققه الدكتور محمود الطناحي رحمه الله عن هامش الأصل قولَ جمال الدين ابن هشام: هذه المقالةُ أعني كون «أغفلنا» بمعنى وجدناه غافلاً، تقدَّمه إليها ابنُ جني، نصَّ عليها في المحتسب وغيره، وحامله عليها الاعتزال.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٨ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٢٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري[١]: السُّرادِقُ واحدُ السُّرادِقات التي تُمَدُّ فوقَ صَحن الدار، وكلُّ بيتٍ من كُرْسُف فهو سُرادق. قال رؤبة[٢]:

يا حَكَمَ بنَ المنذر بنِ الجارُودْ سُرادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودْ

يقال: بيتٌ مُسَرْدَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرَوِيزَ وقتلَه النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة:

هو المُدْخِلُ النعمانَ بيتاً سماؤه صُدورُ الفُيولِ بعد بَيتٍ مُسَرْدَقِ[٣]

وقال ابن الأعرابي: «سرادقها» سورُها. وعن ابنِ عباس: حائطٌ من نار[٤]. الكلبي: عنقٌ تخرجُ من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة[٥]. القتَبي[٦]: السرادقُ الحُجرة[٧] التي تكونُ حولَ الفسطاط. وقاله ابنُ عُزيز[٨]. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «والمرسلات» حيث يقول: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾[٩][١٠] وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣] قاله قتادة. وقيل: إنَّه البحر المحيطُ بالدنيا. وروى يَعْلَى بنُ أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحرُ

---

(١) في الصحاح (سردق).

(٢) في ملحق ديوانه ص١٧٢ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ ، ونسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٢٠٣ ، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٣١٤ إلى رجل من بني الحِرماز.

(٣) البيت في ديوان سلامة ص١٨٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٩ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٩/ ٣٩٤ إلى الأعشى.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٧ .

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(٧) في (م): الحجزة.

(٨) في نزهة القلوب ص٢٧٧ .

(٩) آية ٣٠ .

(١٠) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧ .

هو جهنمُ» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ ثم قال: «واللهِ لا أدخلُها أبداً ما دمت حيًّا، ولا يُصيبني منها قطرةٌ». ذكره الماوَردِيُّ[١]. وخَرَّج ابنُ المبارك[٢] من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «لسرادقِ النارِ أربعُ جُدُر كُثُفٍ كلُّ جدارٍ مسيرةُ أربعين سنةً». وخرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ[٣]، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

قلتُ: وهذا يدلُّ على أن السرادقَ ما يعلو الكفارَ من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصِف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ قال ابنُ عباس: المُهْلُ ماءٌ غليظ مثلُ دُرْديِّ الزيتِ. مجاهد: القَيْح والدَّم. الضحاكُ: ماءٌ أسود، وإنَّ جهنم لسوداء، وماؤها أسودُ، وشجرُها أسود، وأهلُها سُود[٤]. وقال أبو عبيدة: هو كلُّ ما أُذيب من جواهرِ الأرض من حديدٍ ورَصاص، ونُحاس وقَزْدير، فَتَموَّجَ بالغليان، فذلك المُهْلُ[٥]. ونحوه عن ابن مسعود[٦]. قال سعيد بنُ جُبير: هو الذي قد انتهى حَرُّه[٧]. وقال: المهلُ ضربٌ من القَطِران، يقال: مَهلتُ البعيرَ فهو ممهول. وقيل: هو السمُّ[٨]. والمعنى في هذه الأقوالِ متقاربٌ. وفي الترمذي[٩] عن النبيِّ ﷺ في قوله: «كالمهل» قال: «كعَكَرِ الزيت فإذا قرَّبه إلى وجهِه سقطت فَرْوةُ وجهِه» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ إنما نعرفُه من حديث رِشْدِين بنِ سعد، ورِشْدينُ قد تُكُلِّم فيه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣، وقولُ النبي ﷺ أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧، وأحمد (١٧٩٦٠).

(٢) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣١٦).

(٣) في سننه برقم (٢٥٨٤).

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٩.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٤٠٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٨.

(٧) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٠.

(٨) ينظر اللسان (مهل).

(٩) برقم (٢٥٨١)، من حديث أبي سعيد.

من قِبَلِ حفظِه. وخَرَّج عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٦] قال: «يُقرَّب إلى فيه فيَكرهُه، فإذا أُدْنِيَ منه شوَى وجهَه وَوقعتْ فَروةُ رأسِه، فإذا شَرِبه قَطَّع أمعاءَه حتى يخرج من دبرِه، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] يقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» قال: حديثٌ غريبٌ[(١)].

قلت: وهذا يدلُّ على صحةِ تلك الأقوال، وأنَّها مرادةٌ، والله أعلم. وكذلك نصَّ عليها أهلُ اللغة. في «الصحاحِ»[(٢)]: «المهلُ»: النحاسُ المُذابُ. ابن الأعرابي: المهلُ: المذابُ من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهلُ: دُرديُّ الزيت. والمهل أيضاً: القيحُ والصديدُ. وفي حديثِ أبي بكرٍ: ادفنوني في ثَوْبَيَّ هذين؛ فإنهما للمُهل والتراب[(٣)].

و﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه: مجتمعاً كأنَّه ذهبَ إلى معنى المرافقةِ[(٤)]. ابنُ عباس: منزلاً. عطاء: مقرًّا[(٥)]. وقيل: مهاداً. وقال القتَبيُّ[(٦)]: مجلساً. والمعنى متقاربٌ، وأصلُه من المتَّكأ، يقال منه: ارتفقتُ، أي: اتكأتُ على المرفقِ، قال الشاعرُ:

قالت له وارتَفَقتْ ألَا فتًى ... يسوقُ بالقوم غَزالاتِ الضُّحا[(٧)]

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٣).

(٢) مادة (مهل) دون قول ابن الأعرابي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٧).

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٧٦ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٥٣ ، وهو في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٠ .

(٦) تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(٧) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٢ ، والنوادر ص١٢٨ ، وأمالي القالي ٢/ ٩٦ ، وأمالي الزجاجي ص١٢ . وقال أبو زيد في النوادر ص١٢٨ : ويقال: لقيت فلاناً غزالة الضحى، ورَأْدَ الضحى، وكَهْرَ الضحى، كل ذلك بعد ما تنبسط الشمس وتُضحي غزالة.

ويُقال: ارتفقَ الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نومٌ. قال أبو ذُؤيب الهُذَلي:

نـام الـخَـلـي وبِـتُّ الـلـيـل مُـرتَـفِـقـاً كـأنَّ عَـيْـنَـي فـيـهـا الـصَّـابُ مَـذْبُـوحُ[١]

الصابُ: عُصارةُ شجرٍ مرٌّ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لمَّا ذَكرَ ما أَعدَّ للكافرين من الهوانِ، ذَكَر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب، وفي الكلامِ إضمارٌ، أي: لا نضيعُ أجرَ مَن أحسن منهم عملاً، فأمَّا مَن أحسن عملاً من غيرِ المؤمنين، فعملُه مُحْبَطٌ[٣]. و«عملاً» نُصِب على التمييز[٤]، وإن شئتَ بإيقاعِ «أحسن» عليه. وقيل: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» كلامٌ معترض، والخبرُ قولُه: «أولئك لهم جنات عدن»[٥] و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة، أي: وسطُها وسائرُ الجناتِ مُحْدِقَةٌ بها، وذُكِرت بلفظ الجمع لسَعتِها؛ لأنَّ كل بُقعة منها تصلحُ أن تكونَ جنة[٦]. وقيل: العَدْن الإقامةُ[٧]، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقامَ به[٨]. وعَدَنْت البلدَ:

---

(١) ديوان الهذليين ص١٠٤، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٥٣، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٠، والنكت والعيون ٣/ ٣٠٤.

وفي ديوان الهذليين: مشتجراً، بدل: مرتفقاً.

وصدره عند أبي عبيدة في مجاز القرآن:

إنـي أرقـت فـبـت الـلـيـل مـرتـفـقـاً

(٢) الصحاح (صوب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤، والطبري ١٥/ ٢٥٤.

(٦) ذكر نحوه الرازي في التفسير ٢١/ ١٢٢.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢١٨.

توطنته. وعَدَنَتِ الإبلُ بمكانِ كذا: لزمتْه فلم تَبرحْ منه، ومنه «جناتُ عَدْن» أي: جنات إقامة. ومنه سُمِّيَ المَعْدِن، بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركزُ كلِّ شيءٍ مَعدِنُه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى، وعَدَنُ بلدٌ؛ قاله الجوهريُّ[١].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢]. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار. قال سعيد بن جُبَير: على كلِّ واحد منهم ثلاثةُ أسوِرة: واحدٌ من ذهب، وواحدٌ من وَرِق، وواحدٌ من لؤلؤ[٣].

قلت: هذا منصوصٌ في القرآن، قال هنا: «من ذهب» وقال في «الحج» و«فاطر»[٤]: ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وفي «الإنسان»[٥]: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾. وقال أبو هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تبلغُ الحِلْيَة من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء» خرَّجه مسلم[٦].

وحكى الفرَّاء: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي. وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى؛ ذكره النحاس[٧]. والسِّوار سِوارُ المرأة، والجمعُ أسورة، وجمع الجمع أساورةٌ. وقُرِئ: «فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب» [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] و[الحج: ٢٣] قاله الجوهري[٨].

---

(١) في الصحاح (عدن). والمقصود بمدينة عدن: المدينة المشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٩ .

(٢) ينظر ١/ ٣٥٩ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٤) [الحج: ٢٣] و[فاطر: ٣٣].

(٥) آية: ٢١ .

(٦) برقم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٨) في الصحاح (سور).

وقال ابنُ عُزَيز[١]: أساور جمع أَسوِرة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يُلبَس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَة، فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك. قال النحاس[٢]: وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار، وقُطرب صاحبُ شذوذ، قد تركه يعقوب وغيرُه، فلم يذكره.

قلت: قد جاء في «الصحاح»: وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار[٣]. وقال المفسرون: لمَّا كانتِ الملوك تلبَسُ في الدنيا الأساورَ والتِيجانَ، جعلَ الله تعالى ذلك لأهلِ الجنةِ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّنْدُس: الرقيقُ النحيف، واحدُه سندسةٌ؛ قاله الكسائي[٥]. والإستبرق: ما ثَخُن منه ـ عن عكرمة[٦] ـ وهو الحرير. قال الشاعر:

تَراهنَّ يَلْبَسْنَ المشاعرَ مَرَّةً وإستبرقُ الديباجِ طَوْراً لباسُها[٧]

فالإستبرقُ الدِيباج. ابن بحر: المنسوجُ بالذهب[٨]. القُتَبي[٩]: فارسي معرب. الجوهري[١٠]: وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيحُ أنَّه وِفاقٌ بين

(١) في نزهة القلوب ص٨٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣ .

(٣) الصحاح (سور). ومثل قول أبي عمرو هذا قولُ الكسائي في ما تلحن فيه العامة ص١١٦ : ويقال: سِوار المرأة، للذي يكون في يدها، ويقال: إسوار بالألف وبغير ألف. فلم يتفرد قطرب بذلك.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٥) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٣٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧ قال: الإستبرق الديباج الغليظ.

(٧) نسبه الطبري ١٥/ ٢٥٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ إلى المرقش.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٠٥ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(١٠) في الصحاح (برق).

اللغتين؛ إذ ليس في القرآنِ ما ليس من لغةِ العرب[١]، على ما تقدَّم، والله أعلم.

وخَصَّ الأخضرَ بالذكر؛ لأنه الموافقُ للبصر؛ لأن البياضَ يُبدِّد النظرَ ويُؤلم، والسوادَ يُذَم، والخضرةُ بينَ البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاعَ. والله أعلم.

روى النسائيُّ عن عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص قال: بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله، أخبرنا عن ثيابِ الجنة، أَخَلْقٌ يُخلَق أم نَسجٌ ينسج؟ فضحكَ بعضُ القوم. فقال لهم: «مِمَّ تضحكون من جاهلٍ يسأل عالماً؟» فجلسَ يسيراً أو قليلاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «أينَ السائلُ عن ثيابِ الجنة؟» فقال: هاهو ذا يا رسول الله، قال: «لا بل تَشَقَّق عنها ثمرُ الجنةِ» قالها ثلاثاً[٢].

وقال أبو هريرة: دارُ المؤمنِ درَّةٌ مجوّفة في وسطها شجرةٌ تُنبِتُ الحُلَلَ، ويأخذُ بأصبعِه ـ أو قال بأصبَعيه ـ سبعينَ حُلَّةً منظمة بالدرِّ والمَرْجان. ذكره يحيى بنُ سلام في «تفسيره»، وابنُ المبارك في «رقائقِه»[٣]. وقد ذكرنا إسنادَه في كتابِ «التذكرة»[٤]. وذُكر في الحديثِ أنَّه يكون على كلِّ واحد منهم الحلةُ لها وجهان لكلِّ وجهٍ لونٌ، يتكلمان بصوتٍ يَستحسنه سامعُه، يقول أحدُ الوجهين للآخر: أنا أكرمُ على وَليِّ الله منك، أنا أَلي جسدَه وأنتَ لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرمُ على وليِّ اللهِ منك، أنا

(١) قال الجواليقي في المعرب ص٥٢ – ٥٣ : فأما ما ورد منه، فقد اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: كتاب الله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية. وأسنده إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره. وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى.
وقال الشافعي في الرسالة ص٤٢ : والقرآن يدل على أنْ ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٤١)، وهو عند أحمد (٦٨٩٠).

(٣) الزهد (زوائد نعيم بن حماد) (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٩ ، وهناد في الزهد (١٢٥). وفي إسناده أبو المُهَزِّم واسمه يزيد بن سفيان، وهو متروك. وأورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢ من طريق يحيى بن سلام.

(٤) ص٥٠٢ .

أبصِر وجهَه وأنتَ لا تُبصر[١].

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ «الأرائك» جمعُ أَرِيكة، وهي السُّرُر في الحِجال[٢]. و قيل: الفرش في الحِجال؛ قاله الزجاج[٣]. ابن عباس: هي الأَسرَّةُ من ذهب، وهي مكلَّلة بالدُّر والياقوت عليها الحِجال[٤]. الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أَيْلة، وما بينَ عدن إلى الجابية.

وأصلُ «متكئين» مُوْتَكئين، وكذلك اتكأ أصلُه اوتكأ، وأصل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنه: التوكُّؤ للتحاملِ على الشيء، فقُلبت الواو تاءً وأُدغمت[٥]. ورجل تُكَأة[٦] كثير الاتكاء.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني: الجنات، عكس «وساءت مرتفقاً». وقد تقدَّم. ولو كان «نِعْمَتْ» لجاز؛ لأنه اسم للجنةِ. وعلى هذا «وحسنت مرتفقاً».

ورَوى البَراء بن عازِب، أنَّ أعرابيًّا قامَ إلى رسول الله ﷺ في حجةِ الوداع، والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفاتٍ على ناقتِه العَضْباء فقال: إني رجلٌ مسلمٌ، فأخبرني عن هذه الآية «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيدٍ منك، هم هؤلاء الأربعةُ: أبو بكر وعمر، وعثمان وعليّ، فأعْلِم قومَك أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم». ذكره الماورديُّ[٧]. وأَسنده النحاسُ في كتاب «معاني القرآن»[٨] قال: حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال: حدَّثنا محمد بن

---

(١) أورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢، عن أبي هريرة قال: بلغني أنَّ ولي الله...، فذكره.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥، والحجال جمع حَجَلة، وهي بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. الصحاح (حجل).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٤.

(٤) الوسيط ٣/ ١٤٧.

(٥) ينظر سر الصناعة ١/ ١٤٦.

(٦) في (د) و(م): وُكَأة، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح (وكأ).

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤.

(٨) ٤/ ٢٣٥.

حميد قال: حدَّثنا يحيى بن الضُّرَيْس، عن زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازِب قال: قام أعرابي...؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلي في كتاب «الإعلام»[1]. وقد روينا جميعَ ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثلٌ لمن يَتعززُ بالدنيا ويستنكفُ عن مجالسة المؤمنين، وهو متَّصل بقوله: «واصبر نفسك». واختُلف في اسمِ هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلتْ في أخوين من أهلِ مكة مخزوميَّين، أَحدُهما مؤمنٌ وهو أبو سلمة عبدُ الله بنُ عبد الأسد بنِ هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيِّ ﷺ. والآخرُ كافرٌ وهو الأسود[2] بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورةِ الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]، وَرِث كلُّ واحدٍ منهما أربعةَ آلاف دينار، فأنفقَ أحدُهما مالَه في سبيلِ الله، وطلبَ من أخيهِ شيئاً فقالَ ما قال...؛ ذكره الثعلبيُّ والقُشَيرِيُّ. وقيل: نزلتْ في النبيِّ ﷺ وأهلِ مكةَ. وقيل: هو مَثَلٌ لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر. وقيل: هو مَثَلٌ لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابِه مع سلمان وصُهيب وأصحابِه؛ شبَّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا، في قولِ ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمُه قرطوش[3] وهما اللذان وصفَهما اللهُ تعالى في

---

(١) التعريف والإعلام ص١٠١، من طريق النحاس.

(٢) في (ظ): الأسد.

(٣) في (ظ) و(ف): قرطوس، وبعدها في (ظ): القزويني قرطيس. وبعدها في (د): القرنوي قرطوش. وبعدها في (ز): العرنوي قطروش.

سورةِ الصَّافات[١]. وكذا ذكر محمد بنُ الحسن المقرئ قال: اسمُ الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش[٢]، وأنَّهما كانا شريكين ثم اقتَسما المالَ فصارَ لكل واحدٍ منهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمنُ منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألفِ الثانية ثياباً فكسا العُراةَ، وبالألفِ الثالثة طعاماً فأطعمَ الجُوَّع، وبَنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأمَّا الآخرُ فنكحَ بماله نساءً ذواتَ يَسارٍ، واشترى دوابَّ وبقراً فاستَنتجَها فنَمت له نماءً مُفْرِطاً، واتَّجر بباقيها فربحَ حتى فاقَ أهلَ زمانه غِنًى، وأدركتِ الأوَّل الحاجةُ، فأراد أن يستأجر[٣] نفسَه في جنة يخدُمها فقال: لو ذهبتُ لشريكي وصاحبي فسألتُه أن يستخدمَني في بعضِ جناته رجوتُ أن يكونَ ذلك أصلحَ بي، فجاءَه فلم يَكَد يصل إليه من غلظِ الحُجَّاب، فلمَّا دخل عليه وعَرَفه وسألَه حاجتَه قال له: ألم أكن قاسمتك المالَ شطرين[٤] فما صنعتَ بمالِكَ؟ قال: اشتريتُ به من الله تعالى ما هو خيرٌ منه وأَبقى. فقال: أئِنَّك لمن المُصَدِّقين؟! ما أظنُّ الساعةَ قائمة، وما أراكَ إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتِك إلا الحرمان، أوما تَرى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آلَ إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْتُ وسَفُهتَ أنتَ، اخرجْ عني. ثم كان من قصةِ هذا الغنيِّ ما ذكره الله تعالى في القرآنِ من الإحاطةِ بثمره وذهابِها أصلاً بما أرسلَ عليها من السماءِ من الحُسْبان[٥]. و قد ذكر الثعلبيُّ هذه القصةَ بلفظٍ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانيةُ آلافِ دينار. وقيل: وَرِثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدُهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبُه: اللهمَّ إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، وإني اشتريتُ منك أرضاً

---

(١) ينظر بحر العلوم ٢/ ٢٩٨ ، والمحرر ٣/ ٥١٥ ، والكشاف ٢/ ٤٨٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٤ .

(٢) في (ظ) و(ز): قرطس، وفي (د) قرطش، وفي التعريف والإعلام ص١٠٢ ، والكلام منه: موطس.

(٣) في (م): يستخدم.

(٤) في (م) و(د) و(ز): نصفين، والمثبت من (ظ) و(ف) ومن التعريف والإعلام ص١٠٢ ، والكلام منه.

(٥) التعريف والإعلام ص١٠٢ .

في الجنةِ بألف دينار، فتَصدَّقَ بها، ثم إنَّ صاحبَه بنى داراً بألفِ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري[1] منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها، ثم تزوج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً تزوج امرأةً بألف دينار، وإني أخطب إليكَ من نساءِ الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خَدَماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّقَ بألف دينار. ثم أصابته حاجةٌ شديدةٌ فقال: لعلَّ صاحبي ينالُني معروفُه، فأتاهُ فقال: ما فعلَ مالُك؟ فأخبره قصتَه فقال: وإنَّك لمن المُصدِّقين بهذا الحديث! والله لا أُعطيكَ شيئاً![2] ثم قال له: أنتَ تعبدُ إله السماء، وأنا لا أعبدُ إلا صنماً، فقال صاحبُه: والله لأعِظَنَّه، فوعظَه وذكَّره وخوَّفه. فقال: سِرْ بنا نَصطدِ[3] السمكَ، فَمن صادَ أكثر فهو على حقٍّ؛ فقال له: يا أخي! إنَّ الدنيا أحقرُ عند الله من أن يجعلَها ثواباً لمحسن، أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروجِ معه، فابتلاهما الله، فجعلَ الكافرُ يرمي شبكتَه ويسمِّي باسم صنمِه، فتطلع متدفِّقةً[4] سمكاً. وجعلَ المؤمنُ يرمي شبكتَه ويسمي باسمِ الله، فلا يطلُع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثرُ منك في الدنيا نصيباً ومنزلةً ونَفَراً[5]، كذلك أكون أفضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقولُ بزعمك حقًّا. قال: فَضجَّ المَلَك الموَكَّل بهما، فأمرَ الله تعالى جبريلَ أن يأخذَه فيذهب به إلى الجِنان فيرِيَه منازلَ المؤمنِ فيها، فلما رأى ما أَعدَّ الله له قال: وعزَّتك لا يَضرُّه ما ناله من الدنيا بعدَ ما يكون مصيرُه إلى هذا؛ وأَراه منازلَ الكافرِ في جهنم فقال: وعزَّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيرُه إلى هذا[6]. ثم إنَّ

---

(١) في (ظ) و(ز) و(ف): اشتريت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٦١ .

(٣) في النسخ الخطية: نصطاد.

(٤) في (ظ) و(ز): مندفقة.

(٥) في (د) و(ز): وكفراً، وفي (ف): وبقراً.

(٦) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٦٢١) عن عطاء الخراساني مرسلاً.

الله تعالى تَوفَّى المؤمن وأهلكَ الكافر بعذاب من عندِه، فلما استقرَّ المؤمن في الجنة ورأى ما أعدَّ اللهُ له؛ أَقبلَ هو وأصحابُه يتساءلون، فقال: «إني كان لي قَرِينٌ. يقول أئنك لمِن المصدِّقين» الآية، فنادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ! هل أنتم مطَّلِعون، فاطلعَ إلى جهنم فرآه في سواءِ الجحيم، فنزلت «واضرب لهم مَثَلاً».

بيَّن الله تعالى حالَ الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبينَ حالَهما في الآخرةِ في سورة الصافات في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[1].

قال ابنُ عطية[2]: وذَكرَ إبراهيمُ بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائبِ البلادِ أنَّ بحيرة تِنّيس[3] كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين، فباعَ أحدهما نصيبَه من الآخر فأنفق في طاعةِ الله حتى عيَّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرَّقها الله تعالى في ليلة، وإياها عَنَى بهذه الآية.

وقد قيل: إنَّ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لهذه الأمةِ، وليس بخبر عن حال متقدمةٍ، لتزهدَ في الدنيا وترغبَ في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي[4]. وسياقُ الآيةِ يدلُّ على خلافِ هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أطَفْناهما من جوانبهما بنخلٍ[5]. والحِفافُ الجانب، وجمعه أحِفّة[6]؛ ويقال: حَفَّ القومُ بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أي: طافوا به، ومنه ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا حول

---

(١) آية ٥١ حتى ٦١ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٥ .

(٣) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. معجم البلدان ٢/ ٥١ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٦ .

(٥) الطبري ١٥/ ٢٥٧ .

(٦) في (ظ): أحفية.

الأعناب النخلَ، ووسطَ الأعناب الزرعَ. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: كلُّ واحدةٍ من الجنتين ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ تامًّا[١]، ولذلك لم يقل: آتتا. واختُلف في لفظ «كِلْتا وكِلَا» هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهلُ البصرة: هو مفرد؛ لأن «كِلا وكلتا» في توكيدِ الاثنينِ نظيرُ «كُلٍّ» في المجموع، وهو اسمٌ مفردٌ غيرُ مثنى؛ فإذا وَلِيَ اسماً ظاهراً[٢] كان في الرفع والنصب والخفض على حالةٍ واحدة، تقول: رأيتُ كِلا الرجلين، وجاءني كِلا الرجلين، ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر؛ قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيت كِلَيْهِما، ومررتُ بكليهما، كما تقول: عليهما. وقال الفراء[٣]: هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ، فخفِّفت اللام وزيدت الألفُ للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يُتكلم بواحد، ولو تُكُلم به لقيل: كِلْ وكلْت وكِلان وكِلْتان. واحتجَّ بقول الشاعر:

في كِلْتِ رجْليها سُلَامى واحدَهْ كِلتاهما مَقْرونةٌ بزائده[٤]

أرادَ: في إحدى رجليها فأفردَ. وهذا القولُ ضعيفٌ عند أهلِ البصرة؛ لأنه لو كان مثنى؛ لوجب أن تكون ألفُه في النصب والجر ياءً مع الاسمِ الظاهر، ولأنَّ معنى «كِلا» مخالفٌ لمعنى «كل»؛ لأن «كلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدلُّ على شيءٍ مخصوص،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٦١، وتهذيب اللغة ٤/ ٣.

(٢) قوله: ولي اسماً ظاهراً، كذا وقع في النسخ والصحاح (كلى) والكلام منه، وكذا نقله ابن منظور في اللسان (كلى)، وفي العبارة نظر، والصواب فيها أن يقول: وليه اسم ظاهر.
وينظر الإنصاف ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) ينظر معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣، والكلام بحرفيته في الصحاح (كلى) وعنه نقل المصنف.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٢، والصحاح، واللسان (كلى) وخزانة الأدب ١/ ١٢٩ دون نسبة.
وقال البغدادي في الخزانة ١/ ١٢٩- ١٣٠: رأيت في حاشية الصحاح أنَّ هذا البيت من رجز يصف به نعامة، فضمير رجليها عائد على النعامة. والسُّلامَى على وزن حُبارَى: عظم في فِرسِن البعير، وعظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل، والجمع سلاميات، والفرسِن بكسر أوله وثالثه، هو للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

وأمَّا هذا الشاعر؛ فإنما حَذفَ الألف للضرورة، وقدَّر أنها زائدة، وما يكون ضرورةً لا يجوز أن يُجعَل حجة، فثبت أنه اسمٌ مفرد كَمِعَى، إلا أنه وُضع ليدل على التثنيةِ، كما أنَّ قولهم: «نحن» اسمٌ مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدلُّ على ذلك قولُ جرير:

كِلَا يَوْمَيْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ وإنْ لم نأتِها إلَّا لِماما[1]

فأخبر عن «كلا» بيومٍ مفرد، كما أفردَ الخبرَ بقوله: «آتت» ولو كان مثنى لقالَ: آتتا، ويوما. واختُلف أيضاً في ألفِ «كلتا»؛ فقال سيبويهِ[2]: ألفُ «كلتا» للتأنيثِ والتاءُ بدلٌ من لام الفعل وهي واو، والأصل كِلْوا، وإنما أُبدلت تاء؛ لأنَّ في التاء علمَ التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياءً مع المضمر، فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث.

وقال أبو عمر الجَرْمِيُّ: التاء ملحقةٌ والألف لام الفعل، وتقديرها عندَه: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم؛ لقالوا في النسبة إليها: كِلْتَوِيّ، فلما قالوا: كِلَوِيّ، وأسقطوا التاء دلَّ على أنهم أَجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت: أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري[3].

قال أبو جعفر النحاس[4]: وأَجازَ النحويون في غير القرآن الحملَ على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى: الجنتان[5] كلتاهما آتتا، وأجازَ الفراء[6]:

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٧٧٨، وفيه: صدق بدل صد، وقال محمد بن حبيب في شرحه: أي: يوم صالح، كما تقول: رجل صدق، أي: صالح.
والبيت في كتاب الشعر للفارسي ١/ ١٢٦، والصحاح (كلى).

(٢) ينظر الكتاب ٤/ ٣١٧.

(٣) في الصحاح (كلى).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): المختار، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣، ونقل كلامه من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٥.

كلتا الجنتين آتى أكلَه، قال: لأنَّ المعنى: كل[١] الجنتين. قال: وفي قراءةِ عبدِ الله «كلُّ الجنتين آتى أكله»[٢]. والمعنى على هذا عندَ الفراء[٣]: كل شيءٍ من الجنتين آتى أكله. والأُكُل، بضمِّ الهمزة: ثمرُ النخل والشجرِ وكلُّ ما يُؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم[٤]. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشَققنا وسطَ الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابنُ أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم[٥]، وكذلك قوله: «وأحيط بثَمَره» جمع ثمرة.

قال الجوهري: الثمرةُ واحدةُ الثمرِ والثمرات، وجمعُ الثَّمر ثمار، مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمعُ الثمارِ ثُمُر، مثل كتاب وكُتُب، وجمعُ الثُّمُرِ أثمار؛ مثل أعناق وعُنُق. والثُّمر أيضاً المالُ المُثَمَّر؛ يخفف ويثقَّل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسَّره بأنواع المال[٦]. الباقون بضمِّها في الحرفين[٧]. قال ابن عباس: ذهبٌ وفضةٌ وأموال[٨]. وقد مضى في «الأنعامِ» نحوُ هذا مبيَّناً[٩] وذكر النحاس[١٠]: حدثنا أحمدُ بن شعيب قال: أخبرني عمران بن بكار قال: حدثنا

---

(١) في إعراب القرآن: أكل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٣ ، والكشاف ٢/ ٤٨٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٤٣ .

(٤) ١٢/ ٨١ .

(٥) ينظر السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ ، والبحر المحيط ٦/ ١٢٥ .

(٦) الصحاح (ثمر)، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ .

(٧) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ .

(٨) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٦٠ ، بلفظ: أنواع المال.

(٩) ٨/ ٤٧٤ .

(١٠) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٠ .

إبراهيم بنُ العلاء الزبيدي قال: حدَّثنا شعيب بنُ إسحاق قال: حدثنا[١] هارون قال: حدثني أبان بن تغلب[٢]، عن الأعمش، أنَّ الحجاج قال: لو سمعتُ أحداً يقرأ «وكان له ثُمر» لقطعتُ لسانَه؛ فقلت للأعمش: أتأخذُ بذلك؟ فقال: لا! ولا نَعْمَة عينٍ[٣]. فكان يقرأ «ثُمْر» ويأخذه من جمعِ الثمر. قال النحاس: فالتقديرُ على هذا القولِ أنه جَمعَ ثمرة على ثِمار[٤]، ثم جمعَ ثمار على ثُمُر؛ وهو حسنٌ في العربيةِ إلا أنَّ القولَ الأول أشبهُ والله أعلم؛ لأنَّ قولَه: «كلتا الجنتين آتت أكلها» يدل على أنَّ له ثمراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويُجاوبه. والمحاورةُ المجاوبة، والتحاورُ التجاوب. و يقال: كلَّمته فما أَحارَ إليَّ جواباً، وما رجعَ إليَّ حَويراً ولا حَوِيرةً، ولا مَحُورةً ولا حِوَاراً، أي: ما ردَّ جواباً[٥]. ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الرهطُ وهو ما دون العشرةِ[٦]. وأراد هاهنا الأتباعَ والخدمَ والولد، حسبما تقدَّم بيانُه.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ قيل: أخذَ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُرِيه إيَّاها[٧]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفرِه[٨]، وهو جملةٌ في موضعِ الحال. ومَن

---

(١) ليست في (م).

(٢) قوله: ابن تغلب، في (د) و(ز) و(م): عن ثعلب، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ .

(٣) نَعِمَك وأَنْعَم بك عيناً: أقرَّ بك عين من تحبه. القاموس المحيط (نعم)، وذكر فيها اثنا عشر وجهاً.

(٤) في (ظ): أثمار.

(٥) الصحاح (حور).

(٦) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٠٩ .

(٧) الوسيط ٣/ ١٤٨ .

(٨) الطبري ١٥/ ٢٦٢ .

أدخلَ نفسه النار بكفره؛ فهو ظالمٌ لنفسِه، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أنكر فَناءَ الدنيا[١]، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: لا أحسِبُ البعثَ كائناً، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: وإن كان بعثٌ، فكما أعطاني هذه النعمَ في الدنيا، فسيعطيني أفضلَ منه؛ لكرامتي عليه[٢]، وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وإنَّما قال ذلك، لمَّا دَعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكةَ والمدينةِ والشَّام «منهما»، وفي مصاحفِ أهلِ البصرة والكوفةِ «منها» على التوحيد، والتثنيةُ أولى؛ لأنَّ الضمير أقربُ إلى الجنتين[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ يهوذا أو تمليخا، على الخلافِ في اسمِه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وَعَظه وبيَّن له أن ما اعترفَ به من هذه الأشياء التي لا يُنكرها أحدٌ أبدعُ من الإعادة. و«سوَّاك رجلاً» أي: جَعلك معتدلَ القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاءِ، ذَكَراً[٤] «لكنَّ[٥] هُوَ اللهُ رَبِّي» كذا قَرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية[٦]، ورُوي عن الكسائي. «لكنَّ هو الله» بمعنى لكنَّ الأمرَ هو اللهُ ربي، فأُضمِر اسمُها فيها. وقرأ الباقون «لكنا» بإثباتِ الألف[٧]. قال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخير، تقديره: لكنَّ الله هو ربي أنا، فحُذِفت الهمزةُ من «أنا»

---

(١) في (م) و(د) و(ز): الدار، والمثبت من (ف) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٥، والوسيط ٣/ ١٤٩، وزاد المسير ٥/ ١٤٢.

(٢) الوسيط ٣/ ١٤٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، وزاد المسير ٥/ ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) الطبري ١٥/ ٢٦٣.

(٥) في (ظ) و(د) و(م): لكنَّا، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لما في فتح القدير ٣/ ٢٨٧.

(٦) لم نقف عليهما عند غير المصنف.

(٧) السبعة ص٣٩١، والتيسير ص١٤٣.

طلباً للخفة؛ لكثرة الاستعمال، وأُدغِمت إحدى النونين في الأخرى، وحُذِفت ألف «أنا» في الوصل وأُثبتت في الوقف[١].

وقال النحاس[٢]: مذهبُ الكسائي والفرّاء والمازِنِيّ أنّ الأصلَ: لكن أنا، فأُلقيت حركةُ الهمزة على نون لكن، وحُذِفت الهمزةُ، وأُدغمتِ النونُ في النون، فالوقفُ عليها لكنّا، وهي ألفُ أنا؛ لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصلُ لكن أنا، فحُذِفت الألف فالتقتْ نونان، فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لـهَـنَّـكِ مـن عَـبْـسِـيَّـة لَـوَسِـيـمَـةٌ عـلـى هَـنَـوَاتٍ كـاذبٍ مـن يـقـولـهـا[٣]

أرادَ: لله إنَّك، فأسقطَ إحدى اللّامين من (لله)، وحذفَ الألف من إِنَّك. وقال آخرُ فجاءَ به على الأصل:

وتَـرمـيـنـنـي بـالـطَّـرْف أي أنـتَ مـذنـبٌ وتَـقْـلِـيـنَـنـي لـكـنَّ إيَّـاكِ لَا أَقْـلِـي[٤]

أي: لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورَوَوْا عن عاصم «لكنَّا[٥] هو الله ربي» وزعمَ أنَّ هذا لحن، يعني: إثبات الألف في الإدراجِ. قال الزجاج[٦]: إثباتُ الألفِ في «لكنا هو الله ربي» في الإدراج جيد؛ لأنه قد حُذفت الألف من أنا، فجاؤوا بها عِوضاً. قال: وفي قراءةِ أُبَيٍّ «لكنْ أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمُسيَّبي[٧] عن نافع

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٦ - ٤٥٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤.

(٣) البيت في الصحاح (لهن)، والخزانة ١٠/ ٣٤٤.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤، والمغني ص١٠٦ و ٥٢٣ و ٥٣٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٠، والخزانة ١١/ ٢٢٥.

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧، والكلام منه: لكننا.

(٦) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٧.

(٧) في (م): المسيلي، وفي (ظ): المثنى، وهما تحريف، والمسيَّبي هو: إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب إمام جليل عالم بالحديث قيم في قراءة نافع ضابط لها محقق فقيه، قرأ على نافع وغيره. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٥٧.

ورُويس عن يعقوب «لكنا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف[١]. وقال الشاعر:

أنا سيفُ العشيرةِ فاعرفوني حُميْداً قد تَذَرَّيْتُ السَّناما[٢]

وقال الأعشى:

فكيفَ أنا وانتحالي القوافـ يَ بعدَ المشيبِ كَفى ذاكَ عارا[٣]

ولا خلافَ في إثباتِها في الوقف.

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ «هو» ضميرُ القصةِ والشأن والأمر، كقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ دلَّ مفهومُه على أنَّ الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتملُ أنه أراد: لا أرى الغنى والفقرَ إلا منه، وأَعلم أنه لو أرادَ أن يَسلُب صاحبَ الدنيا دنياه قَدَر عليه، وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أرادَ: جحودُك البعثَ مصيرُه إلى أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيزُ الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجَّزه سبحانه وتعالى شبَّهه بخلقه، فهو إشراك[٤].

---

(١) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧.

(٢) البيت في أساس البلاغة (ذري) منسوباً إلى حَميد بفتح الحاء، وفي معاني الزجاج ٣/ ٢٨٧ دون نسبة، وقال في الخزانة ٥/ ٢٤٣: وحُميد يروى مصغراً ومكبراً، وتذريت السنام بمعنى علوته، ونسب ياقوت هذا البيت في حاشية الصحاح إلى حُميد بن بحدل، وحميد مضاف إلى جده لأنه حميد بن حريث بن بحدل من بني كلب بن وبرة وينتهي نسبه إلى قضاعة وهو شاعر إسلامي، وكانت عمته ميسون بنت بحدل أم يزيد بن معاوية.

(٣) ديوان الأعشى ص١٠٣ وروايته هناك:

فما أنا أم ما انتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا

وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٥٥٢ كما رواه المصنف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢١/ ١٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: بالقلب، وهو توبيخٌ ووصيةٌ من المؤمن للكافر، وردٌّ عليه، إذ قال: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» و«ما» في موضعِ رفع، تقديرُه: هذه الجنةُ هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمرُ ما شاء الله، أو هو ما شاء الله، أي: الأمر مشيئةُ الله تعالى. وقيل: الجوابُ مضمر، أي: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون[١]. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: ما اجتمعَ لك من المال فهو بقدرةِ الله تعالى وقوتِه لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنَزَع البركةَ منه فلم يجتمع[٢].

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكلِّ مَن دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: قال لي حفص بنُ مَيْسرة: رأيتُ على باب وهب بن منبِّه مكتوباً «ما شاء الله لا قوّة إلا بالله»[٣]. وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمةٍ من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوزِ الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله إذا قالها العبدُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أَسلمَ عبدي واستسلم»[٤]. أخرجه مسلم في «صحيحه»[٥] من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى، أو

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠، والكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٢٨.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٦٦) و(٨٤٢٦).

(٥) برقم (٢٧٠٤) (٤٥).

يا عبد الله بن قيس، ألا أدُلُّك على كلمة من كنزِ الجنة، في رواية: على كنزٍ من كنوز الجنة؟» قلت: ما هي يا رسولَ الله؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلكَ على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى، فقال: «لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[(١)]. وروي أنه مَن دخل منزله أو خرجَ منه فقال: باسم الله ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، تنافرت عنه الشياطينُ من بين يديه، وأنزلَ الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشةُ: إذا خرج الرجل من منزله فقال: باسم الله. قال المَلَك: هُديتَ، وإذا قال: ما شاء الله. قال المَلك: كُفِيت، وإذا قال: لا قوةَ إلا بالله. قال المَلك: وُقيت. خَرَّجه الترمذيُّ[(٢)] من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال ـ يعني: إذا خرجَ من بيتِه ـ: باسمِ الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوة إلا بالله؛ يقال له[(٣)]: كُفِيت ووُقِيت وتنحَّى عنه الشيطان» هذا حديث حسن[(٤)] غريب صحيح[(٥)] لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خَرَّجه أبو داود[(٦)] أيضاً وزاد فيه: فقال له: «هُدِيت وكُفيت ووُقيت».

وأخرجه ابن ماجه[(٧)] من حديث أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا خرجَ الرجل من بابِ بيته أو باب دارِه، كان معه مَلَكان موكَّلان به، فإذا قال: باسم الله، قالا: هُديت. وإذا قال: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، قالا: وُقيت. وإذا قال: توكَّلت على الله، قالا: كفيت. قال: فيلقاه قَريناه فيقولان: ماذا تريدان من رجلٍ قد هُدِيَ ووُقِي وكُفِي؟».

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٤) (٤٧) دون قوله: العلي العظيم، وهو عند البخاري (٦٣٨٤).

(٢) في سننه (٣٤٢٦)، وحديث عائشة وما قبله لم نقف عليهما.

(٣) ليست في (م) و(د) و(ز).

(٤) ليست في (م) و(د) و(ز)، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي، وينظر الأذكار للنووي ص٣٣ .

(٥) ليست في (م) و(د) و(ز) و(ف)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٦) برقم (٥٠٩٥).

(٧) في سننه برقم (٣٨٨٦)، وفي إسناده هارون بن هارون وهو ضعيف.

وقال الحاكم أبو عبد الله في «علوم الحديث»[١]: سُئل محمدُ بنُ إسحاق بن خزيمة عن قولِ النبيِّ ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه ـ يعني: الجنة ـ: يدخلني الضعفاء» مَنِ الضعيف؟ قال: الذي يُبرئ نفسَه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. وقال أنس بنُ مالك: قال النبيُّ ﷺ: «مَن رأى شيئاً فأعجَبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله لم يضرَّه عين»[٢]. وقد قال قومٌ: ما من أحدٍ قالَ: ما شاء الله كان، فأصابه شيءٌ إلا رَضِيَ به. ورُوي أنَّ من قال أربعاً أَمِنَ من أربع: مَن قال هذه أَمِنَ من العين، ومن قال: حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، أَمِن من كيدِ الشيطان، ومَن قال: وأُفوض أمري إلى الله، أَمِن مكرَ الناس، ومَن قال: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين، أَمِن من الغمِّ.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ «إنْ» شرط «تَرَنِ» مجزوم به، والجوابُ «فعسى ربِّي»، و«أنا» فاصلةٌ لا موضع لها من الإعراب، ويجوزُ أن تكون في موضعِ نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بنُ عمر: «إن ترنِ أنا أقلُّ منك» بالرفع؛ يَجعلُ «أنا» مبتدأً، و«أقل» خبرَه، والجملةَ في موضعِ المفعولِ الثاني، والمفعولُ الأول النونُ والياء؛ إلا أنَّ الياء حُذِفت؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها، وإثباتُها جيِّد بالغ وهو الأصلُ؛ لأنَّها الاسم على الحقيقةِ[٣]. و﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعل، أي: فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة. وقيل: في الدنيا، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: مرامي من السماء، واحدُها حُسْبانة؛ قاله الأخفشُ والقُتَبِيُّ وأبو عبيدةَ[٤]، وقال ابنُ الأعرابي: والحسبانةُ السحابةُ، والحسبانة

---

(١) ص٨٤.

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٧)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي وهو ضعيف.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٥، والكشاف ٢/ ٤٨٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٣، وقول الأخفش نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

الوِسادةُ، والحسبانةُ الصَّاعقة[١]. وقال الجوهري[٢]: والحُسبان، بالضم: العذابُ. وقال أبو زياد الكلابي: أصابَ الأرض حسبانٌ، أي: جراد. والحُسبانُ أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا. قال الزجاجُ[٣]: الحسبانُ من الحساب، أي: يرسل عليها عذابَ الحساب، وهو حسابُ ما اكتسبتْ يداك. فهو من بابِ حذف المضاف. والحسبان أيضاً: سهامٌ قصار يُرمَى بها في طلقٍ واحد[٤]، وكان من رَمْي الأكاسرةِ. والمرامي من السماءِ عذابٌ. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني: أرضاً بيضاء لا ينبتُ فيها نباتٌ، ولا يثبتُ عليها قدم، وهي أضَرُّ أرضٍ بعد أن كانت جنةً أنفعَ أرضٍ[٥]. و«زلقاً» تأكيد لوصفِ الصعيد، أي: تزلُّ عنها الأقدامُ لملاستِها. يقال: مكانٌ زَلَقٌ، بالتحريك، أي: دَحْضٌ، وهو في الأصل مصدرُ قولِك: زَلِقت رجلُه تَزْلَقُ زَلَقاً، وأزلَقها غيرُه. والزَّلَقُ أيضاً عَجزُ الدابةِ. قال رُؤْبةُ:

كأنَّها حَقْباءُ بَلْقاءُ الزَّلَقْ[٦]

والمَزْلَقُ والمَزْلَقة[٧]: الموضعُ الذي لا يثبت عليه قدمٌ. وكذلك الزَّلَّاقةُ. والزَّلْقُ: الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقاً حلقه؛ قاله الجوهريُّ[٨]. والزَّلَقُ: المحلوق، كالنَّقْض

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢.

(٢) في الصحاح (حسب).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٠.

(٤) نسبه في تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢ إلى ابن شُميل.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٦) ديوان رؤبة ص١٠٤، والرجز في تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١، والخزانة ١/ ٨٦، وقال البغدادي: والحقباء: مؤنث الأحقب، وهو حمار الوحش سمي بذلك لبياض في حَقويه، شبه الناقة بالأتان الوحشية، وهي في الجلادة والسرعة مثلها. والبلقاء: مؤنث الأبلق. والزَّلق: عجز الدابة، أي: المكان الذي تزلق اليد عن كفلها أبيض وأسود.

(٧) في (م): والمَزلقة والمُزلقة، وفي (ز) و(د): والمزلقة والزلقة، وسقطت إحداهما من (ف) و(ظ)، والمثبت من الصحاح ومقاييس اللغة (زلق).

(٨) في الصحاح (زلق).

والنَّقض. وليس المرادُ أنَّها تصيرُ مَزْلقة، بل المرادُ أنَّها لا يبقى فيها نباتٌ كالرأسِ إذا حُلق لا يَبقى عليه شعر؛ قاله القشَيْرِيُّ.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً، فتكون أعدمَ أرضٍ للماء بعد أنْ كانت أوجدَ أرض للماء[١]. والغَوْرُ مصدرٌ وُضِع موضعَ الاسمِ، كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ، وعَدْلٌ ورِضاً، وفَضْلٌ وزَوْرٌ، ونساء نوحٌ، ويستوي فيه المذكرُ والمؤنث، والتثنيةُ والجمع[٢]. قال عمرو بن كُلثوم:

تـظَـلُّ جـيـادُه نَـوْحـاً عـلـيـه ... مُـقـلَّـدة أعـنـتَـهـا صُـفُـونـا[٣]

آخر:

هَـرِيـقـي مـن دمـوعِـهـمـا سِـجـامـا ... ضُـبـاعَ وجـاوبـي نَـوحـاً قـيـامـا[٤]

أي: نائحات. وقيل: أويصبح ماؤها ذا غَوْر، فحذف المضافَ، مثلُ «واسأل القَرْيَةَ» ذكره النحاس[٥]. وقال الكسائي: مياه[٦] غَوْرٌ. وقد غار الماءُ يَغُور غَوْراً وغُؤوراً، أي: سفَل في الأرض، ويجوزُ الهمزُ لانضمامِ الواو. وغارت عينُه تَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، دخلت في الرأسِ، وغارت تَغار لغةٌ فيه. وقال:

أغـارتْ عـيـنُـه أم لـم تَـغـارَا[٧]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٣) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠، وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ٢/ ٩٩، وصدره ثمة: تركنا الخيل عاكفة عليه، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧ دون نسبة، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٤.

ووقع في النسخ الخطية: جيادنا. والصافن: القائم. ويقال: الذي يرفع إحدى قوائمه من الإعياء يعتمد على سنبكها.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٤، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠١ دون نسبة. وضباع: ترخيم ضباعة، وهو اسم امرأة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): ماء، والمثبت من (ظ) و(ف)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨، والكلام منه.

(٧) عجز بيت نسبه في الصحاح (غور) إلى ابن أحمر.

وغارتِ الشمسُ تغور غِياراً، أي: غربت. قال أبو ذُؤيب:

هل الدهرُ إلّا ليلةٌ ونهارُها وإلا طلوعُ الشمسِ ثم غيارُها[1]

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع ردَّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلبَ غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرةُ أخيه وإنذارُه[2].

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه مُضمرٌ، وهو المصدر، ويجوز أن يكونَ المخفوضُ في موضعِ رفع[3]. ومعنى «أُحِيط بثمره»، أي: أُهْلِك مالُه كلُّه، وهذا أوَّلُ ما حقق اللهُ تعالى به إنذارَ أخيه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: فأصبح الكافرُ يضربُ إحدى يديه على الأخرى ندماً؛ لأنَّ هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلِّب مِلكه فلا يرى فيه عوضَ ما أنفق، وهذا لأنَّ المِلك قد يُعبَّر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي: في مِلكه مال[4]. ودلَّ قولُه: «فأصبح» على أن هذا الإهلاكَ جرى بالليل، كقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [ن: ١٩] ويقال: أنفقتُ في هذه الدار كذا، وأنفقتُ عليها[5]. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية قد سقط بعضُها على بعض، مأخوذٌ من: خَوَتِ النجوم تخوي خَيًّا: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سَقطت ولم تُمْطر في نَوْئها، وأخْوَت مثلُه. وخوَت الدار خَواء ممدود[6]: أقْوَت،

(١) ديوان الهذليين ص٢١، والصحاح (غور)، وهو في مجالس ثعلب ص٥٨٣ دون نسبة.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٠٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٨.

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٨.

(٥) ينظر زاد المسير ٥/١٤٦.

(٦) ليست في (م).

وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢] ويقال: ساقطة، كما يقال: فهي خاوية على عروشها، أي: ساقطة على سقوفها[١]. فجمعَ عليه بين هلاك الثمرِ والأصل، وهذا من أعظمِ الجوائح، مقابلةً على بَغْيه[٢].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: يا ليتني عرفتُ نعمَ الله عليَّ، وعرفتُ أنَّها كانت بقدرةِ الله ولم أكفرْ به. وهذا ندمٌ منه حينَ لا ينفعه الندم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «فِئَةٌ» اسمُ «تكن»، و«له» الخبر. «يَنْصُرونه» في موضعِ الصفةِ، أي: فئة ناصرة، ويجوزُ أن يكونَ «ينصرونه» الخبرَ، والوجهُ الأوّلُ عندَ سيبويهِ أوْلى[٤]؛ لأنه قد تقدَّم «له». وأَبو العباس[٥] يُخالِفه، ويحتجُّ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقد أجازَ سيبويهِ الآخر، و«ينصرونه» على معنى فئة؛ لأنَّ معناها أقوام، ولو كان على اللفظِ لقال: ولم تكنْ له فئةٌ تنصره[٦]، أي: فرقة وجماعة يلتجئ إليهم.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً؛ قاله قتادة. وقيل: مُسترِدًّا بدلَ ما ذهبَ منه[٧]. وقد تقدَّم اشتقاقُ الفئةِ في «آل عمران»[٨]. والهاءُ عوضٌ من الياءِ[٩] التي نقصَت من

(١) الصحاح (خوى)، وتهذيب اللغة ٧/ ٦١٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٦ .

(٤) ينظر كتاب سيبويه ٤/ ٥٦ .

(٥) أي: المبرد، وكلامه في المقتضب ٤/ ٩٠ - ٩١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٥/ ٢٧٠ .

(٨) ٥/ ٣٨ .

(٩) قال ابن الشجري في أماليه ٢/ ٢٧٨ : والمحذوف من «فئة» واوٌ، وجمعها فئات، وهي من قولهم: فَأَوْتُ: إذا شققتَ وفرَّقتَ؛ لأنَّ الفئة كالفِرقة.

وسطه، أَصلُه فِيءُ مثلُ فِيع؛ لأنَّه من فاء، ويُجمعُ على فِئون وفِئات، مثل شِيَات ولِدَات[١] وهبات[٢]. أي: لم تكن له عشيرةٌ[٣] يمنعونَه من عذابِ الله، وضلَّ عنه مَنِ افتخرَ بهم من الخدمِ والولد.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ اختُلفَ في العامل في قوله: «هنالك» وهو ظرف؛ فقيل: العاملُ فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أي: ما نُصِر ولا انتصرَ هنالك، أي: لِمَا أصابَه من العذاب. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قوله: «منتصِراً»، والعاملُ في قوله: «هنالك»: «الولايةُ»، وتقديرُه على التقديم والتأخير: الولايةُ لله الحقِّ هنالك، أي: في القيامة[٤]. وقرأ أبو عمرو، والكسائيُّ: «الحقُّ» بالرفع[٥] نعتاً للولاية. وقرأ أهلُ المدينة وحمزةُ: «الحقِّ» بالخفضِ نعتاً لله عزَّ وجلَّ، والتقديرُ: لله ذي الحق. قال الزَّجاجُ[٦]: ويجوزُ «الحقَّ» بالنصب على المصدرِ والتوكيد، كما تقول: هذا لك حقًّا. وقرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: «الوِلاية» بكسر الواو، الباقون بفتحِها[٧]، وهما بمعنًى واحدٍ كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيل: الوَلايةُ بالفتح من الموالاة، كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١]. وبالكسر يعني: السلطان والقدرة والإمارة[٨]، كقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الصحاح (فيأ).

(٢) في (م): مئات، وفي (د) و(ز): هيات، والمثبت من (ظ) و(ف).

(٣) نسبه في النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٦ وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٦٩، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٠.

(٤) وقال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٩: العامل فيه منتصراً. وقال ابن الشجري في أماليه ١/ ١٦٨: هنالك ظرف في موضع الحال، والعامل فيه قوله: (لله) وذو الحال المضمرُ المستكنُّ في (لله).

(٥) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢.

(٦) ينظر معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٩، وكلام الزجاج وما قبله من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩.

(٧) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢.

(٨) الكشاف ٢/ ٤٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩.

﴿لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] أي: له الملكُ والحكمُ يومئذٍ، أي: لا يُردُّ أمرُه إلى أحد، والمُلك في كل وقتٍ لله، ولكن تَزولُ الدَّعاوَى والتَّوَهُّماتُ يومَ القيامة. وقال أبو عبيد: إنَّها بفتحِ الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق[١].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: اللهُ خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثَمَّ غيرٌ يُرْجَى منه، ولكنَّه أرادَ: في ظنِّ الجُهَّال، أي: هو خيرُ مَنْ يُرجَى[٢]. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش، وحمزة ويحيى: «عُقْباً» ساكنة القاف، الباقون بضمِّها[٣]، وهما بمعنًى واحد؛ أي: هو خيرُ عاقبةٍ لمن رَجاه وآمنَ به. يقال: هذا عاقبةُ أمرِ فلان وعُقباه[٤] وعُقْبُه، أي: آخره.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: صِفْ لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طَردَ فقراءِ المؤمنين مَثلَ الحياةِ الدنيا، أي: شَبِّهها[٥] ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إنَّ النبات اختلط بعضُه ببعض حين نزل عليه الماء[٦]؛ لأنَّ النبات إنما يختلطُ ويكثر بالمطر. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»[٧] مبيَّناً.

---

(١) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٩.

(٢) ينظر زاد المسير ٥/ ١٤٨.

(٣) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢، عن عاصم وحمزة، وزاد عليهما في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩ الحسن، وذكر قراءة الأعمش أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣١.

(٤) بعدها في (ظ): وعقيبه، وفي (ف): وعقبه، وينظر الطبري ١٥/ ٢٧١، والصحاح ومقاييس اللغة (عقب).

(٥) ينظر الطبري ١٥/ ٢٧٢.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩.

(٧) ١٠/ ٤٧٧.

وقالت الحكماء: إنَّما شبَّه تعالى الدنيا بالماء؛ لأنَّ الماءَ لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحدٍ، ولأن الماءَ لا يستقيم على حالةٍ واحدة كذلك الدنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفنَى، ولأن الماءَ لا يَقدِر أحدٌ أن يدخلَه ولا يبتلَّ، كذلك الدنيا لا يَسلم أحدٌ دخلها من فتنتِها وآفتها، ولأنَّ الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً[1]، وإذا جاوزَ المقدار كان ضارًّا مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفعُ وفضولُها يضرُّ. وفي حديثِ النبيِّ ﷺ قال له رجل: يا رسولَ الله، إني أريدُ أن أكونَ من الفائزين، قال: «ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد؛ فإنَّ القليلَ منها يكفي، والكثير منها يُطغي»[2]. وفي «صحيح» مسلم عن النبيِّ ﷺ: «قد أفلحَ مَن أسلم ورُزِق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه»[3]. ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي: متكسِّراً من اليُبس متفتِّتاً، يعني: بانقطاعِ الماءِ عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالةِ الكلام عليه[4]. والهَشْم: كسرُ الشيءِ اليابس. والهشيمُ من النبات اليابسُ المتكسرُ، والشجرةُ البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشِيمةُ كَرَمٍ؛ إذا كان سَمْحاً. ورجلٌ هَشِيم: ضعيفُ البدن. وتهشَّم عليه فلان إذا تعطَّف. واهتشم ما في ضَرعِ الناقةِ إذا احتلبَه. ويقال: هَشَمَ الثَّرِيد، ومنه سُمِّيَ هاشمُ بنُ عبدِ مناف واسمُه عمرو، وفيه يقولُ عبدُ الله بن الزِّبعْرَى:

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ[5]

---

(١) في (ظ) و(ف): مبقياً.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (١٠٥٤)، وهو عند أحمد (٦٥٧٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩.

(٥) الصحاح (هشم)، والبيت في ديوان عبد الله ص٥٣ في ما ينسب إلى عبد الله بن الزبعرى وإلى غيره من الشعراء، وفي أمالي المرتضى ٢/ ٢٦٩، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ - ١٥٦. ومسنتون من أسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

وكان سببُ ذلك أنَّ قريشاً أصابتهم سِنونَ ذهبْنَ بالأموالِ، فخرج هاشمٌ إلى الشأم، فأمرَ بخبز كثيرٍ فخُبِز له، فحمله في الغرائر على الإبلِ حتى وافى مكةَ، وهشَمَ ذلك الخبز، يعني: كَسَّره وثَرَده، ونحر تلك الإبلَ، ثم أمر الطُّهاةَ فطبخوا، ثم كفأ القدورَ على الجِفان فأشبعَ أهلَ مكة؛ فكان ذلك أولَ الحِباء[1] بعدَ السنةِ التي أصابتهم؛ فسُمِّيَ بذلك هاشماً[2].

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تُفرقه؛ قاله أبو عبيدة[3]. ابن قتيبة: تنسِفُه[4]. ابن كَيْسان: تذهبُ به وتجيء. ابنُ عباس: تُديره[5]، والمعنى متقاربٌ. وقرأ طلحةُ بنُ مُصَرِّف «تذريه الريح»[6]. قال الكسائي: وفي قراءةِ عبد الله «تَذريه»[7]. يقال: ذَرَتْه الريحُ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذرِيه[8] ذَرْياً، وأذرته تُذْريه إذْراء[9] إذا طارتْ به. وحكى الفراءُ[10]: أذريتُ الرجلَ عن فرسِه، أي: قلبتَه. وأنشد سيبويهِ والفراءُ:

فقلتُ له صَوِّبْ ولا تَجهدَنَّهُ ... فيُذْرِك من أُخرَى القَطاةِ فتَزْلَقِ[11]

---

(١) في (ف): الحياة، والحِباءُ: العطاء بلا جزاء ولا مَنٍّ. القاموس (حبو).

(٢) ينظر الروض الأنف ١/ ١٦١ .

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٥ .

(٤) تفسير غريب القرآن ص٢٦٨ .

(٥) في (ز): تدبره.

(٦) أي بالإفراد، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ ، وزاد النخعيَّ والأعمش، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣٣ عن عدد من القراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٨ .

(٨) ليست في (د) و(ز).

(٩) الصحاح (ذرا)، والطبري ١٥/ ٢٧٢ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ .

(١١) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص١٧٤ ، وهو عند سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠١ وعزاه إلى عمرو ابن عمار الطائي ووقع في الكتاب: فيُدْنِك من الإدناء، وعند الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ ، والطبري ١٥/ ٢٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ دون نسبة، وقال الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٤٢٥ : يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له، ومعنى صوِّب: خذ القصدَ في السير وارفق بالفرس ولا تجهده. وأُخرى القطاةِ: آخرها، والقطاة: مقعد الردف. ويُروى: فيُذرِك أي: يرمي بك، يقال: أذراه عن فرسه إذا رمى به. وجاء في (د) و(ز) و(ظ): صوِّت.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ[١] والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوزُ «زينتا» وهو خبر الابتداءِ في التثنيةِ والإفراد. وإنَّما كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المالِ جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوَّة ودفعاً[٢]، فصارا زينةَ الحياة الدنيا، لكن معه قرينةُ الضَّعَة[٣] للمال والبنين؛ لأن المعنى: المالُ والبنون زينةُ هذه الحياة المحتقرة؛ فلا تُتبعوها نفوسَكم[٤]. وهو رَدٌّ على عُيينةَ بن حِصْن وأمثالِه لمَّا افتخروا بالغنى والشرفِ، فأخبر تعالى أنَّ ما كان من زينةِ الحياة الدنيا فهو غرورٌ يمرُّ ولا يبقى، كالهشيمِ حين ذَرتْه الريحُ، إنَّما يبقى ما كان من زادِ القبر وعُدد الآخرة[٥]. وكان يقال: لا تعقد قلبكَ مع المال؛ لأنه فَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساءِ؛ لأنَّها اليومَ معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان؛ لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: ما يأتي به سَلْمان وصُهيب وفقراءُ المسلمين من الطاعات[٦] ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ .

(٣) في (م): الصفة.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠١ ، والطبري ١٥/ ٢٧٣ بنحوه.

(٦) الوسيط ٣/ ١٥١ .

أملاً من ذي المال والبنين دونَ عمل صالح[١]، وليس في زينةِ الدنيا خير، ولكنه خَرَج مخرجَ قولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: خير في التحقيق ممَّا يَظنُّه الجهالُ أنه خير في ظنِّهم.

واختلف العلماءُ في «الباقيات الصالحات»، فقال ابنُ عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة عمرو[٢] بن شُرَحْبِيل: هي الصلواتُ الخمس[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها كلُّ عملٍ صالح من قول أو فعل يبقى للآخرةِ. وقاله ابنُ زيد ورجَّحه الطبري[٤]، وهو الصحيحُ إن شاء الله؛ لأنَّ كل ما بقي ثوابُه، جازَ أن يقالَ له هذا. وقال عليٌّ ﷺ: الحرثُ حرثان، فحرثُ الدنيا المالُ والبنون، وحرثُ الآخرةِ الباقياتُ الصالحات، وقد يَجمعُهن الله تعالى لأقوام[٥].

وقال الجمهور: هي الكلماتُ المأثورُ فضلها: سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم[٦]. خرَّجه مالك في «موطئه»[٧] عن عمارة بنِ صياد، عن سعيد بن المسيِّب، أنه سمعه يقولُ في الباقياتِ الصالحات: إنها قولُ العبدِ: الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله. أسنده النَّسائيُّ عن أبي سعيدِ الخُدْريِّ، أن رسول الله ﷺ قال: «استكثِروا من الباقياتِ الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبيرُ والتهليلُ والتسبيحُ والحمدُ لله ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله»[٨]. صحَّحه أبو محمد عبدُ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٢) في (م): وعمرو.

(٣) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٠ - ٢٨١ عنهما ورجَّحه.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٠٣.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٧) الموطأ ١/ ٢١٠، وهو عند الطبري ١٥/ ٢٧٩.

(٨) لم نقف عليه عند النسائي، وعزاه المزي في تحفة الأشراف ٣/ ٣٦٢ إليه في عمل اليوم والليلة وذكر إسناده، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٢/ ٨٩١، وهو عند أحمد (١١٧١٣).

الحق رحمه الله. وروى قتادةُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقُه وقال: «إنَّ المسلم إذا قالَ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تَحاتَّت خطاياه كما تَحاتَّ هذا، خُذهنَّ إليك أبا الدرداء قبلَ أن يُحال بينَك وبينهن؛ فإنَّهن من كنوزِ الجنةِ وصفايا الكلام، وهنَّ الباقياتُ الصالحات». ذكره الثعلبي، وخرَّجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليك بسبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ فإنَّهنَّ يعني يَحطُطْنَ الخطايا كما تَحطُّ الشجرةُ ورقَها»[١]. وأخرجه الترمذي[٢] من حديث الأعمش، عن أنسِ بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بشجرةٍ يابسةِ الورقة فضربها بعَصاهُ فتناثرَ الورقُ فقال: «إنَّ الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتُساقِطُ من ذنوبِ العبد كما تَساقَطَ ورقُ هذه الشجرة». قال: هذا حديثٌ غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظرَ إليه[٣]. وخرَّج الترمذي[٤] أيضاً عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَقِيتُ إبراهيمَ عليه السلام ليلةَ أسْرِيَ بي فقال: يا محمدُ، أَقرئ أمتَك مني السلامَ، وأَخبرهم أنَّ الجنةَ طيبةُ التُّربةِ عذبةُ الماء، وأنَّها قِيعان وأنَّ غِراسها سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال: حديثٌ حسنٌ غريب، خرَّجه الماوردي[٥] بمعناه. وفيه: فقلتُ: وما غِراسُ الجنةِ؟ قال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله». وخرَّج ابنُ ماجه[٦] عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ به وهو يَغرِسُ غَرْساً فقالَ: «يا أبا هريرةَ، ما الذي تغرس؟» قلت: غراساً. قال: «ألا أدُلُّك على غِراسٍ خيرٍ من هذا، سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يُغرسُ لك بكلِّ واحدة شجرةٌ في

(١) سنن ابن ماجه (٣٨١٣)، وضعَّفه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٤ .

(٢) في سننه (٣٥٣٣).

(٣) قوله: ولا نعرف للأعمش سماعاً... ونظر إليه، ليس في السنن

(٤) في سننه (٣٤٦٢).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ - ٣١١ دون إسناد.

(٦) في سننه (٣٨٠٧)، وحسَّن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٣ .

الجنةِ». وقد قيل: إنَّ الباقياتِ الصالحاتِ هي النياتُ والهَمَّاتُ؛ لأنَّ بها تُقبَل الأعمال وتُرفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هنَّ البناتُ؛ يدلُّ عليه أوائلُ الآية، قال الله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثمن قالَ: «والباقياتُ الصالحات» يعني: البنات الصالحات هنَّ عندَ الله لآبائهنَّ خيرٌ ثواباً، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهنَّ. يدُلُّ عليه ما روته عائشةُ رضي الله عنها قالت: دَخلتْ عليَّ امرأةٌ مسكينة... الحديث، وقد ذكرناه في سورةِ النحل في قوله: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية[1]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لقد رأيتُ رجلاً من أمتي أُمِر به إلى النار، فتعلَّق به بناتُه وجَعلنَ يَصْرُخنَ ويَقُلن: ربِّ إنه كان يُحسنُ إلينا في الدنيا، فَرحِمَه اللهُ بهنَّ»[2]. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] قال: أبدلهما منه ابنةً فتزوجها نبيٌّ، فَولدت له اثني عشر غلاماً كلُّهم أنبياءُ[3].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعضُ النحويين: التقديرُ: والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربك يومَ نُسيِّر الجبال. قال النحاسُ: وهذا غلطٌ من أجلِ الواو[4]. وقيل: المعنى: واذكر يومَ نُسيِّر الجبال[5]، أي: نزيلها من أماكِنها من

---

(١) ٥٩ .

(٢) أخرج نحوه ابن ماجه (٣٦٦٩)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٩) من حديث عقبة بن عامر بلفظ: من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهنَّ وأطعمهنَّ وسقاهنَّ وكساهنَّ من جِدَتِه، كنَّ له حجاباً من النار يوم القيامة. لفظ ابن ماجه.

(٣) نسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨١ لابن عباس وقال: سبعين بدل اثني عشر نبيًّا. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ : وهذا بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ .

على وجهِ الأرض، ونُسيرها كما نسيرُ السحاب؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨]. ثم تكسرُ فتعود إلى الأرضِ[١]؛ كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥-٦]. وقرأ ابنُ كَثير والحسن، وأبو عمرو وابن عامر: «ويوم تُسَيَّر» بتاءٍ مضمومة وفتحِ الياء، و«الجبالُ» رفعاً على الفعل المجهول[٢]. وقرأ ابن مُحَيْصِن[٣] ومجاهد: «ويوم تَسير الجبالُ» بفتح التاءِ مخففاً من سار، «الجبال» رفعاً. دليلُ قراءةِ أبي عمرو: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]. ودليلُ قراءةِ ابن محيصِن: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠]. واختار أبو عبيد[٤] القراءة الأولى: «نُسيِّر» بالنون؛ لقوله: «وحشرناهم».

ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترُها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي: قد اجتُثت ثمارُها وقُلِعت جبالها، وهُدم بنيانُها، فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهلُ التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أي: برزَ ما فيها من الكنوز والأموات[٥]؛ كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤] وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] وهذا قولُ عطاء[٦].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: إلى الموقف، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك؛ يقال: غَادرتُ كذا، أي: تركته. قال عنترةُ:

غَادَرْتُه مُتَعَفِّراً أوصالُه ... والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجَدَّلِ[٧]

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢ .

(٢) السبعة ص٣٩٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، و قراءة الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٣) القراءات الشاذة ص٨٠ .

(٤) في (ظ): عبيدة.

(٥) الطبري ١٥/ ٢٨١ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ ، والوسيط ٣/ ١٥٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥ .

(٧) ديوانه ص٦٠ .

أي: تركته. والمغادرةُ التركُ، ومنه الغَدْر؛ لأنه تركُ الوفاءِ. وإنَّما سُمِّي الغديرُ من الماءِ غديراً؛ لأنَّ الماء ذهبَ وتركَه. ومنه غدائرُ المرأة؛ لأنها تجعلُها خلفَها[١]. يقول: حَشرنا بَرَّهم وفاجِرَهم وجنَّهم وإنسَهم.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قول تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ «صفًّا» نُصِب على الحال[٢]. قال مقاتل: يُعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كلُّ أمةٍ وزمرة صفًّا، لا أنهم صفٌّ واحد[٣]. وقيل: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] أي: جميعاً[٤]. وقيل: قياماً[٥]. وخرَّج الحافظُ أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ مَنْدَه في «كتابِ التوحيد» عن معاذ ابنِ جبل، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تباركَ وتعالى يُنادي يومَ القيامة بصوتٍ رفيع غيرِ فظيعٍ: يا عبادي، أنا اللهُ لا إله إلا أنا أَرحمُ الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرعُ الحاسبين، يا عبادي، لا خوف عليكم اليومَ، ولا أنتم تحزنون، أَحْضِروا حجَّتكم، ويَسِّروا جواباً؛ فإنكم مسؤولون محاسبون، يا ملائكتي، أَقيموا عبادي صفوفاً على أطرافِ أناملِ أقدامِهم للحساب»[٦].

قلت: هذا الحديثُ غايةٌ في البيان في تفسيرِ الآية، ولم يَذكُره كثيرٌ من المفسرين، وقد كتبناه في «كتاب التذكرة»[٧]، ومنه نقلناهُ والحمد لله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: يقال لهم: لقد جئتمونا حُفاةً عُراة، لا

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ - ٣١٢ ، والرازي ٢١/ ١٣٣ .

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣١٢ ، والوسيط ٣/ ١٥٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٦٥ ، دون نسبة.

(٤) نسبه في زاد المسير ٥/ ١٥١ إلى مقاتل.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥ .

(٦) ينظر الدر المنثور ٤/ ٢٢٦ .

(٧) ص٢٥٣ - ٢٥٤ .

مالَ معكم ولا ولداً. وقيل: فرادى[١]؛ دليلُه قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقد تقدَّم. وقال الزجاجُ[٢]: أي: بعثناكم كما خَلقناكم.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطابٌ لمنكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أنْ لن تُبعثوا، وأن لن نجعلَ لكم موعداً للبعث[٣]. وفي «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً» قلت: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضُهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض»[٤]. «غُرْلاً» أي: غير مختونين. وقد تقدمَ في «الأنعامِ» بيانُه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «الكتاب» اسمُ جنس[٦]، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّها كتبُ الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مُقاتل. الثاني: أنه وضع الحساب؛ قاله الكَلْبيُّ، فعبَّر عن الحساب بالكتاب؛ لأنَّهم يُحاسبون على أعمالهم المكتوبة[٧]. والقولُ الأوّل أظهرُ؛ ذكره[٨] ابنُ المبارك[٩] قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم ـ شكَّ

---

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٢.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٩).

(٥) ٨/ ٤٦٣.

(٦) الوسيط ٣/ ١٥٢.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣١٢.

(٨) في (ظ) و(ف): ذكر.

(٩) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣٩٦).

نُعيم ـ عن إسماعيل بنِ عبد الرحمن، عن رجلٍ من بني أسد قال: قال عمرُ لكعْب: وَيْحكَ يا كعب، حدِّثنا من حديث الآخرة، قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رُفِع اللوحُ المحفوظُ فلم يبقَ أحدٌ من الخلائق إلا وهو ينظرُ إلى عملِه، قال: ثم يُؤتى بالصحفِ التي فيها أعمالُ العباد فتُنثر حولَ العرش، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ قال الأسدي: الصَّغيرةُ ما دون الشركِ، والكبيرةُ الشركُ. «إلا أَحصاها» قال كعب: ثم يُدعَى المؤمنُ فيُعطى كتابَه بيمينه، فينظر فيه فإذا حسناتُه بادِياتٌ للناس وهو يقرأُ سيئاتِه؛ لكيلا يقولَ: كانت لي حسناتٌ فلم تُذكَر، فأحبَّ الله أن يُريَه عملَه كلَّه حتى إذا استنقض[1] ما في الكتابِ وجدَ في آخر ذلك كلِّه أنه مغفورٌ وأنَّك من أهل الجنة، فعند ذلك يُقبِل إلى أصحابِه ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠] ثم يدعى الكافر[2] فيُعطَى كتابَه بشماله ثم يُلَفُّ فيجعل من وراءِ ظهره ويُلْوَى عنقُه، فذلك قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابِه فإذا سيئاتُه بادياتٌ للناس وينظر في حسناتِه؛ لكيلا يقول: أفأُثاب على السيئات.

وكان الفُضيل بنُ عِياض إذا قرأ هذه الآيةَ يقول: يا ويلتاه! ضِجُّوا إلى الله تعالى من الصَّغائر قبل الكبائر[3]. قال ابنُ عباس: الصغيرةُ التبسمُ، والكبيرةُ الضحك[4]. يعني: ما كان من ذلك في معصيةِ الله عزَّ وجلَّ؛ ذكره الثعلبيُّ. وحكى الماوَرْدِيُّ عن ابنِ عباسٍ أنَّ الصغيرةَ الضحكُ[5].

---

(١) في (م) و(ز): استنقص، وفي (ف): استفض، وفي الزهد لابن المبارك استنفض. وكلُّها بمعنى التناهي والتلاشي.

(٢) في (د) و(م): بالكافر، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف)، والزهد لابن المبارك (٣٩٦).

(٣) ذكره الرازي ٢١/ ١٣٤ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٣/ ١٥٢، والبغوي ٣/ ١٦٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٢، وأخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥، وقال ابن عطية ٣/ ٥٢١: وهذا مثال.

قلت: فيحتمل أن يكونَ صغيرةً إذا لم يكن في معصيةٍ؛ فإنَّ الضحكَ من المعصية رِضاً بها، والرضا بالمعصيةِ معصيةٌ، وعلى هذا تكون كبيرةً، فيكون وجهُ الجمع هذا. والله أعلم. أو يُحمل الضحكُ فيما ذكر الماورديُّ على التبسمِ، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩]. وقال سعيد بن جبير: إنَّ الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل، والكبيرةَ المواقعةُ والزِّنى[١]. وقد مضى في «النساء» بيانُ هذا[٢]. قال قتادة: اشتكى القومُ الإحصاء، وما اشتكى أحدٌ ظلماً، فإياكم ومحقَّرات الذنوبِ؛ فإنَّها تجتمعُ على صاحبها حتى تهلكه[٣]. وقد مضى ومعنى «أحصاها» عدَّها وأحاطَ بها، وأُضيفَ الإحصاءُ إلى الكتاب توسُّعاً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: وجدوا إحصاءَ ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاءَ ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يأخذُ أحداً بجُرْمِ أحد، ولا يأخذه بما لم يَعمَلْه؛ قاله الضحاكُ[٤]. وقيل: لا يَنقُص طائعاً من ثوابِه، ولا يزيد عاصياً في عقابه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفًى[٦]. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآيةِ سؤال، يقال: ما معنى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه»؟ ففي هذا قولان أحدهما: وهو

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢، والبغوي ٣/ ١٦٦.

(٢) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٦٦.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٣٤، والنكت والعيون ٣/ ٣١٣، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٦) ١/ ٤٣٣ وما بعدها.

مذهبُ الخليل وسيبويه أنَّ المعنى: أَتاه الفسقُ لمَّا أُمِر فعَصَى، فكان سببَ الفسق أمْرُ ربه، كما تقول: أَطعمته عن جوع. والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن [المستنير] قُطْرب أن المعنى: ففسقَ عن ردِّ أمرِ ربه[١].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وقفَ عزَّ وجلَّ الكفرةَ على جهة التوبيخ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذرِّيَّته أولياءَ وهم لكم عدوٌّ، أي: أعداء، فهو اسمُ جنس. ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادةِ الله. أو بئس إبليسُ بدلاً عن الله[٢]. واختُلِف هل لإبليس ذريةٌ من صلبِه؟ فقال الشَّعبيُّ: سألني رجلٌ فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إنَّ ذلك عُرْسٌ لم أَشهدْه، ثم ذكرت قوله: «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمتُ أنه لا تكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إنَّ إبليسَ أدخلَ فرجَه في فرجِ نفسه فباض خمسَ بيضات، فهذا أصلُ ذريته[٣]. وقيل: إن الله تعالى خلقَ له في فخذه اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيَخرجُ له كلَّ يوم عشرُ بيضات، يخرج من كل بيضةٍ سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمُهم عند أبيهم منزلةً أعظمُهم في بني آدم فتنةً. وقال قومٌ: ليس له أولادٌ ولا ذرية، وذرِّيتُه أعوانُه من الشياطين. قال القُشيري أبو نصر: والجملةُ أنَّ الله تعالى أخبرَ أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يُوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفيةٌ في كيفيةِ التوالد منهم وحدوثِ الذريةِ عن إبليس، فيتوقَّف الأمرُ فيه على نقلٍ صحيحٍ.

قلت: الذي ثبتَ في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميديُّ في «الجمعِ بين الصحيحين» عن الإمام أبي بكر البرقاني، أنَّه خَرَّج في كتابِه مسنداً عن أبي محمد

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥ ، وما بين حاصرتين سقط منه ومن النسخ،وقد صرح بأنه قطرب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٥٤ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧ - ١٦٨ ، ونسب قول مجاهد إلى قتادة بنحوه.

عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخر مَن يخرج منها، فبها باض الشيطانُ وفرَّخ»[1]. وهذا يدلُّ على أن للشيطان ذريةً من صلبه، والله أعلم. قال ابنُ عطية[2]: وقولُه: «وذريته» ظاهرُ اللفظِ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يَأمرون[3] بالمنكر، ويحملون على الباطل.

وذكر الطبري[4] وغيره أنَّ مجاهداً قال: ذريةُ إبليس الشياطينُ، وكان يَعدُّهم:

زَلَنْبُور: صاحبُ الأسواق، يضع رايتَه في كل سوقٍ بين السماء والأرض، يجعل تلك الرايةَ على حانوتِ أوَّلِ مَن يفتح وآخرِ مَن يغلق.

وثَبْر: صاحبُ المصائب، يأمر بضربِ الوجوه، وشقِّ الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب.

والأعورُ: صاحبُ أبواب الرِّبا[5].

ومِسْوَط: صاحبُ الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواهِ الناس فلا يَجِدون لها أصلاً.

وداسم: الذي إذا دخلَ الرجلُ بيتَه فلم يُسلِّم ولم يذكرِ اسمَ الله بصَّرَه من المتاع ما لم يُرفع، وما لم يُحسَن موضعُه، وإذا أكلَ ولم يذكر اسمَ الله، أكلَ معه. قال الأعمشُ: وإني ربما دخلتُ البيتَ فلم أذكرِ الله ولم أُسلِّم، فرأيت مطهرةً فقلتُ: ارفعوا هذه، وخَاصمتُهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعوذُ بالله منه[6].

زاد الثعلبي وغيرُه عن مجاهد:

(١) الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣/ ٣٦١، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢.

(٣) في النسخ: «يأتون» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٤) في التفسير ١٥/ ٢٩٢.

(٥) في (ز) و(م): «الزنى».

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٣.

والأبيضُ، وهو الذي يوسوس للأنبياء.

وصخر وهو الذي اختلسَ خاتمَ سليمانَ عليه السلام[١].

والولهان وهو صاحبُ الطهارة يوسوسُ فيها[٢].

والأقيس وهو صاحبُ الصلاة يوسوس فيها.

ومُرَّة وهو صاحبُ المزامير وبه يُكْنَى.

والهفاف[٣] يكونُ بالصحارَى يُضلُّ الناسَ ويُتيهُهم، ومنهم الغيلان.

وحكى أبو مطيع مكحولُ بنُ الفضل النسفي في «كتابِ اللؤلؤيات» عن مجاهد، أنَّ الهفافَ هو صاحب الشراب، ولقوس صاحبُ التحريش، والأعورَ صاحبُ أبواب السلطان. قال: وقال الدَّرانيُّ: إنَّ لإبليس شيطاناً يقال له: المتقاضي، يتقاضى ابنَ آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرِّ منذ عشرين سنة، فيُحدِّث به في العلانية.

قال ابن عطية[٤]: وهذا وما جانَسه ممَّا لم يأتِ به سندٌ صحيح، وقد طوَّل النقاشُ في هذا المعنى، وجلب حكاياتٍ تبعد عن الصحةِ، ولم يمرَّ بي في هذا صحيح إلا ما في «كتاب مسلم»[٥] من أنَّ للصلاةِ شيطاناً يسمى خِنْزب. وذكر الترمذيُّ أنَّ للوضوء شيطاناً يسمى الولهان[٦].

قلت: أما ما ذُكر من التعيينِ في الاسم فصحيح، وأما أنَّ له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوعٌ به، وقد ذكرنا الحديثَ الصحيح في أنَّ له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢٥.

(٢) أخرج أحمد (٢١٢٣٨ زوائد)، والترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، من حديث أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: للوضوء شيطان يقال له: الولهان، فاتقوه، أو قال: فاحذروه. وفي إسناده خارجة بن مصعب وهو متروك الحديث.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢.

(٥) برقم (٢٢٠٣)، وهو عند أحمد (١٧٨٩٧)، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

(٦) تقدم تخريجه آنفاً.

وفي «صحيح» مسلم عن عبدِ الله بنِ مسعود قال: إنَّ الشيطانَ ليتمثل في صورةِ الرجلِ، فيأتي القومَ فيحدِّثُهم بالحديث من الكذب، فيتفرَّقون فيقول الرجل منهم: سمعتُ رجلاً أعرفُ وجهه ولا أدري ما اسمُه يحدِّث(١).

وفي «مسند» البَزَّار عن سلمان الفارسي قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا تكونَنَّ إن استطعتَ أَوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخرَ مَنْ يخرجُ منها؛ فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها ينصِبُ رايتَه»(٢).

وفي «مسند» أحمد بنِ حنبل قال: أنبأنا عبدُ الله بنُ المبارك قال: حدَّثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبحَ إبليسُ بَثَّ جنودَه فيقول: مَنْ أَضلَّ مسلماً أَلبستُه التاجَ. قال: فيقول له القائل: لم أَزلْ بفلانٍ حتى طلَّق زوجتَه. قال: يُوشِك أن يتزوَّج. ويقول آخر: لم أزل بفلانٍ حتى عَقَّ. قال: يوشِك أن يَبَرَّ. قال: ويقول القائل: لم أَزلْ بفلان حتى شَرِب. قال: أنت! قال: ويقول: لم أَزلْ بفلان حتى زَنَى. قال: أنت! قال: ويقول: لم أزل بفلانٍ حتى قَتَل. قال: أنتَ أنتَ(٣).

وفي «صحيح» مسلم عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً. قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبينَ أهلِه، قال: فيُدنيهِ، أو قال: فيلتزمه ويقول: نِعْمَ أنتَ»(٤). وقد تقدَّم.

وسمعتُ شيخَنا الإمامَ أبا محمد عبدَ المعطي بثَغْرِ الإسكندريةِ يقول: إنَّ شيطاناً

---

(١) صحيح مسلم (٧).

(٢) مسند البزار (٢٥٤١)، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٣) لم نقف عليه في مسند أحمد، ولم يذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند، ولا في إتحاف المهرة ١٠/ ٣٨، وعزاه لابن حبان والحاكم، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١١٤ إلى الطبراني في الكبير. وأخرجه ابن حبان (٦١٨٩)، والحاكم ٤/ ٣٥٠، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٣) (٦٧)، وهو عند أحمد (١٤٣٧٧).

يقالُ له البَيضاوي يتمثلُ للفقراءِ المواصلين في الصيامِ، فإذا استحكمَ منهمُ الجوعُ وأضرَّ بأدمِغتِهم، يكشفُ لهم عن ضياءٍ ونورٍ حتى يملأَ عليهم البيوتَ، فيظنُّون أنَّهم قد وصلوا، وأنَّ ذلك من اللهِ، وليسَ كما ظنُّوا.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: الضميرُ عائد على إبليس وذريته[١]، أي: لم أُشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلقِ أنفسهم، بل خلقتُهم على ما أردت. وقيل: ما أَشهدت إبليسَ وذريته خلقَ السماوات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أي: أنفس المشركين، فكيفَ اتخذوهم أولياءَ من دوني؟[٢]. وقيل: الكنايةُ في قوله: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» ترجعُ إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فَتتضمنُ الآيةُ الردَّ على طوائف من المنجِّمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباءِ وسواهم مِن كل مَن ينخرطُ[٣] في هذه الأشياء. وقال ابنُ عطية[٤]: وسمعتُ أبي ﷺ يقولُ: سمعتُ الفقيهَ أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي[٥] بالمهدية يقول: سمعتُ عبدَ الحق الصِّقِلِّيَّ يقول هذا القول، ويتأوَّل هذا التأويلَ في هذه الآية، وأنَّها رادةٌ على هذه الطوائف، وذكر هذا بعضُ الأصوليين. قال ابنُ عطية وأقولُ: إن الغرضَ المقصود أولاً بالآية هم إبليسُ وذريتُه، وبهذا الوجه يتجهُ الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعربِ والمعظمين للجنِّ، حين يقولون:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٤.

(٢) زاد المسير ٥/ ١٥٤.

(٣) في (ظ): يتخوض، وفي (ز) و(ف): يتخرص.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د): المهدي.

أعوذُ بعزيزِ هذا الوادي، إذ الجميعُ من هذه الفرق متعلقون[١] بإبليس وذريتِه وهم أَضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمضلِّين، وتندرجُ هذه الطوائفُ في معناهم. قال الثعلبي: وقال بعضُ أهلِ العلم: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردٌّ على المنجِّمين أنْ قالوا: إنَّ الأفلاكَ تُحدِث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقولُه: «والأرضِ» ردٌّ[٢] على أصحابِ الهندسة حيثُ قالوا: إنَّ الأرضَ كُريَّة[٣] والأفلاكَ تجري تحتها، والناس ملصَقون عليها وتحتها، وقولُه: «ولا خلق أنفسهم» ردٌّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائعَ هي الفاعلةُ في النفوس. وقرأ أبو جعفر: «ما أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء[٤] بدليل قولِه: «وما كنت متخذ» يعني: ما استعنتُهم على خلقِ السماوات والأرض ولا شاورتُهم. ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ يعني: الشياطين. وقيل: الكفار[٥] ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً[٦]. يقال: اعتضدتُ بفلانٍ إذا استعنتَ به وتَقوَّيتَ[٧]. والأصلُ فيه عَضُدُ اليد، ثم يوضعُ موضعَ العون؛ لأنَّ اليدَ قِوامُها العَضدُ. يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أَعانه وأعزَّه. ومنه قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] أي: سَنُعينك بأخيك. ولفظُ العضدِ على جهةِ المثَل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عونِ أحد. وخَصَّ المضلِّين بالذكر لزيادةِ الذمِّ والتوبيخ. وقرأ أبو جعفر والجَحْدَريّ: «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء[٨]، أي: وما كنت يا محمدُ متخذَ المضلِّين عضداً[٩]. وفي عضد ثمانيةُ أوجه[١٠]: «عَضُداً» بفتح

(١) في النسخ الخطية: متعلقين، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣.

(٢) في النسخ الخطية: ردًّا.

(٣) في النسخ الخطية: أكرية.

(٤) النشر ٢/ ٣١١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٥، عن قتادة.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٤، والصحاح (عضد).

(٨) وقع في النسخ: أبو جعفر الجحدري دون واو، وهو خطأ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وقراءة أبي جعفر من العشرة وهي في النشر ٢/ ٣١١.

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٤٨٨.

(١٠) ذكر ستة أوجه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠، وذكر خمساً الزجاج في معاني القرآن =

العين وضم الضاد، وهي قراءةُ الجمهور، وهي أَفصحُها. و«عَضْداً» بفتح العين وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و«عُضُداً» بضم العينِ والضاد، وهي قراءةُ أبي عمرو والحسن. و«عُضْداً» بضم العين وإسكانِ الضاد، وهي قراءةُ عكرمة. و«عِضَداً» بكسر العين وفتح الضاد، وهي قراءةُ الضحاك. و«عَضَداً» بفتح العين والضاد، وهي قراءةُ عيسى بن عمر. وحكى هارون القارئ «عَضِداً». واللغةُ الثامنةُ «عِضْداً» على لغةِ مَن قال: كِتْف وفِخْذ[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: اذكروا يومَ يقول الله: أينَ شركائي؟ أي: ادعوا الذينَ أشركتُموهم بي، فليمنعوكم من عذابي، وإنَّما يقول ذلك لعبدةِ الأوثان[٢]. وقرأ حمزةُ ويحيى وعيسى بنُ عمر: «نقول» بنون. الباقون بالياء[٣]؛ لقوله: «شركائي» ولم يقل: شركائنا، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: لم يُجيبوهم إلى نصرِهم، ولم يكفُّوا عنهم شيئاً، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال أنسُ بن مالك: هو وادٍ في جهنمَ من قيح ودم[٤]. وقال ابنُ عباس: أي: وجعلنا بينَ المؤمنين والكافرين حاجزاً. وقيل: بينَ الأوثان وعَبَدتِها[٥]، نحو قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]. قال ابنُ الأعرابي: كلُّ شيءٍ حاجزٌ بينَ شيئين فهو مَوْبِق. وذكر ابنُ وهب، عن مجاهدٍ في قولِه تعالى: «مَوْبِقا» قال: وادٍ في جهنمَ يقال له: مَوْبق. وكذلك قال نَوْفُ البِكَاليُّ إلا أنه قال: يحجزُ بينَهم وبينَ المؤمنين[٦]. عِكرمة: هو نهرٌ في جهنم يسيل ناراً، على حافتيه حياتٌ مثل البغالِ الدُّهم[٧]، فإذا ثارت إليهم

= ٣/ ٢٩٤- ٢٩٥ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨٨ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ جميع القراءات إلا قراءة هارون القارئ، وينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٨٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٥ ، والسمرقندي ٢/ ٣٠٣ ، وإعراب النحاس ٢/ ٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ ، دون ذكر عيسى بن عمر، وزاد طلحةَ والأعمش.

(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ ، ونحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٥٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ .

لتأخذهم، استغاثُوا منها بالاقتحام في النار. ورَوى يزيد[١] بنُ درهم، عن أنس بنِ مالك قال: «مَوْبقا» وادٍ من قيح ودم في جهنم[٢]. وقال عطاء والضحاكُ: مَهْلِكاً في جهنم، ومنه يقال: أَوبَقَتْه ذنوبُه إِيباقاً[٣]. وقال أبو عبيدة[٤]: موعداً للهلاك. الجوهري: وَبَق يبِق وُبوقا: هَلَك، والمَوْبِق مثلُ الموعِد، مَفعِلٌ من وعد يَعِد، ومنه قولُه تعالى: «وجعلنا بينهم موبقا». وفيه لغةٌ أخرى: وَبِق يَوْبَق وَبَقاً، وفيه لغةٌ ثالثة: وَبِق يَبِق بالكسرِ فيهما، وأوبقه أي: أَهلكه[٥]. وقال زهير:

ومَن يَشتري حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ يَصُنْ عِرضَه من كلِّ شَنْعاءَ مُوبِقِ[٦]

قال الفرّاء[٧]: جَعلَ تواصلَهم في الدنيا مَهلِكاً لهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ «رأى» أصلُه رَأَيَ، قُلبت الياءُ ألفاً؛ لانفتاحها وانفتاحِ ما قبلها، ولهذا زعمَ الكوفيون أنَّ «رأى» يكتب بالياء، وتابَعهم على هذا القولِ بعضُ البصريين، فأمَّا البصريونَ الحذَّاقُ، منهم محمدُ بنُ يزيد، فإنَّهم يكتبونَه بالألف. قال النحاس: سمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: سمعت محمدَ بنَ يزيد يقول: لا يجوزُ أن يُكتَب مضى ورمَى وكلُّ ما كان من ذواتِ الياء إلَّا بالألف، ولا فرقَ بينَ ذواتِ الياء وبين ذوات الواو في الخطِّ، كما أنَّه لا فرقَ بينهما في اللفظ، ولو وجبَ أن يكتب ذواتُ الياء بالياء؛ لوجبَ أن يكتب ذواتُ الواوِ بالواو، وهم مع هذا

---

(١) في (م): زيد، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/٢٩٨ ، وابن حبان في الثقات ٥/٥٣٨ في ترجمة يزيد، والبيهقي في البعث والنشور (٥٢٠).

(٣) تفسير البغوي ٣/١٦٨ .

(٤) في مجاز القرآن ١/٤٠٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣١٦ .

(٥) الصحاح (وبق).

(٦) ديوان زهير ص٢٥٢ ، وفيه: ومن يلتمس بدل يشتري. وقال شارحه: شنعاء: قبيحة، وموبق: مهلك، ووقع في النسخ الخطية: عن كل شنعاء، والمثبت من (م)، وديوان زهير.

(٧) في معاني القرآن ٢/١٤٧ .

يُناقِضونَ فيكتبون رمى بالياء ورماهُ بالألف، فإن كانتِ العلةُ أنه من ذوات الياء؛ وجبَ أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضُحاً جمع ضَحْوة، وكُساً جمع كِسوة، وهما من ذواتِ الواو بالياء، وهذا ما لا يحصلُ ولا يثبتُ على أصل[١]. ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ «فظنّوا» هنا بمعنى اليقين والعلم[٢]، كما قال:

فَقلْتُ لهمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ[٣]

أي: أيقنوا، وقد تقدم[٤]. قال ابنُ عباس: أيقنوا أنَّهم مواقعوها[٥]. وقيل: رَأَوها من مكان بعيدٍ فتوهَّموا أنَّهم مُواقِعوها، وظنُّوا أنَّها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: «إنَّ الكافرَ ليرى جهنمَ ويظنُّ أنَّها مُواقِعَتُه من مسيرةِ أربعينَ سنةً»[٦]. والمواقعةُ ملابسةُ الشيءِ بشدَّةٍ[٧]. [وعن علقمةَ أنه قرأ][٨]: «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَافُّوهَا» أي: مجتمعون فيها، واللَّفف الجمعُ، ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مَهْرَباً؛ لإحاطتها بهم من كلِّ جانب. وقال القتبي[٩]: مَعْدِلاً ينصرفون إليه. وقيل: ملجأً يلجؤون إليه، والمعنى واحدٌ. وقيل: ولم تجدِ الأصنامُ مَصرِفاً للنار عن المشركين[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦١ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٥٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٥ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٣ .

(٣) صدر بيت لدريد بن الصمة الجشمي وهو في ديوانه ص٤٧ وروايته ثمة:

علانيةً ظنوا بألفي مدجج   سراتُهم في الفارسيِّ المسرَّدِ

(٤) ٢/ ٧٢ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٦) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، والطبري ١٥/ ٢٩٩ ، من حديث أبي سعيد الخدري. وفي إسناده: دراج عن أبي الهيثم سليمان بن عمرو العُتْواري، وروايته عنه ضعيفة.

(٧) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٨) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٤ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩ .

(١٠) النكت والعيون ٣/ ٣١٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ يحتملُ وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبرِ والقرونِ الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائلِ الربوبية[١]، وقد تقدَّم في «سبحان»[٢]، فهو على الوجهِ الأوّل زجرٌ، وعلى الثاني بيان.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: جدالاً ومجادلةً، والمرادُ به النضرُ بن الحارث وجدالُه في القرآن. وقيل: الآيةُ في أُبيِّ بنِ خلف. وقال الزجاجُ: أي: الكافرُ أكثرُ شيءٍ جدلاً؛ والدليلُ على أنه أرادَ الكافرَ قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[٣].

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُؤتَى بالرجلِ يومَ القيامة من الكفارِ فيقولُ الله له: ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك؟ فيقول: ربِّ آمنتُ بك، وصدَّقت برسلك، وعملتُ بكتابك. فيقول الله له: هذه صحيفتُك ليس فيها شيءٌ من ذلك. فيقول: يا رب، إني

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١٧.

(٢) ص٨٧ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٦.

لا أقبلُ ما في هذه الصحيفةِ. فيقال له: هذه الملائكةُ الحَفَظةُ يشهدون عليك. فيقول: ولا أقبلُهم يا رب، وكيفَ أقبلهم ولا هم من عندي، ولا من جهتي؟ فيقول الله تعالى: هذا اللوحُ المحفوظ أمُّ الكتاب قد شهدَ بذلك. فقال: يا رب، ألم تُجِرني من الظلمِ؟ قال: بلى. فقال: يا رب، لا أقبلُ إلا شاهداً عليَّ من نفسي. فيقولُ الله تعالى: الآنَ نبعثُ عليك شاهداً من نفسِك. فيَتفكَّرَ مَن ذا الذي يشهدُ عليه من نفسِه، فيُخْتَم على فيه، ثم تنطقُ جوارحُه بالشركِ، ثم يُخلَّى بينَه وبينَ الكلام، فيدخلُ النارَ وإنَّ بعضَه لَيلعن بعضاً، يقول لأعضائِه: لَعنكُنَّ اللهُ فَعنكنَّ كنتُ أُناضل. فتقولُ أَعضاؤه: لعَنكَ الله، أفتعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يُكْتَم حديثاً. فذلك قولُه تعالى: «وكان الإنسان أكثَر شيءٍ جدلاً»[1]. أخرجه مسلمٌ[2] بمعناه من حديثِ أنس أيضاً.

وفي «صحيح» مسلمٍ، عن عليٍّ، أنَّ النبيَّ ﷺ طَرقه وفاطمةَ فقال: «ألا تُصلُّون؟» فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما أنفسُنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثَنا بعثنا، فانصرفَ رسولُ الله ﷺ حينَ قلت له ذلك، ثم سَمعتُه وهو مُدبِرٌ يضرب فخذَه ويقول: «وكانَ الإنسانُ أكثَرَ شيء جدلا»[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآنُ والإسلامُ ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام[4]، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سُنتُنا في إهلاكِهم[5]، أي: ما مَنعهم عن الإيمان إلَّا حكمي عليهم بذلك، ولو حكمت عليهم بالإيمان؛ آمنوا. وسنةُ الأوّلين: عادةُ الأوّلين في عذابِ الاستئصال[6]. وقيل: المعنى: وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلَّا طلبُ أن تأتيَهم سنةُ

(١) لم نقف عليه بهذه السياقة.

(٢) برقم (٢٩٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٧٥)، وهو عند البخاري (١١٢٧).

(٤) زاد المسير ٥/ ١٥٧، والنكت والعيون ٣/ ٣١٨.

(٥) البغوي ٣/ ١٦٨.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣١٨.

الأوّلين، فحذف، وسنةُ الأوّلين: معاينةُ العذاب، فطلبَ المشركون ذلك، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾(١) الآية [الأنفال: ٣٢]. «أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قِبَلاً» نصب على الحال(٢)، ومعناه عِياناً؛ قاله ابن عباس(٣). وقال الكلبيُّ: هو السيفُ يومَ بَدْر. وقال مقاتل: فجأةً. وقرأ أبو جعفر وعاصم، والأعمش وحمزة، ويحيى والكسائي: «قُبُلاً»(٤) بضمتين أرادوا به أصنافَ العذابِ كلِّه؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل. النحاس: ومذهب الفراء(٥) أن «قُبُلا» جمع قَبِيل أي: متفرِّقاً يتلو بعضُه بعضاً. ويجوزُ عنده أن يكونَ المعنى عِياناً. وقال الأعرج ـ وكانت قراءتُه «قُبُلاً» ـ معناه: جميعاً. وقال أبو عمرو ـ وكانت قراءتُه «قِبَلاً» ـ ومعناه: عِياناً(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالجنةِ لمن آمن. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُخوِّفين بالعذابِ مَن كفر(٧). وقد تقدَّم. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ قيل: نزلت في المقتسمين، كانوا يُجادلون في الرسولِ ﷺ، فيقولون: ساحرٌ ومجنونٌ، وشاعرٌ وكاهنٌ كما تقدّم(٨). ومعنى «يدحِضوا»: يزيلوا ويُبطِلوا. وأصلُ الدَّحْض الزَّلَق. يقال: دَحَضتْ رِجلُه، أي: زَلِقت، تَدْحَض دَحْضاً، ودَحَضَتِ الشمسُ عن كبد السماءِ: زالت، ودَحَضت حُجَّتُه دُحوضاً: بَطلت، وأدحضَها الله. والإدحاضُ الإزلاق(٩). وفي وصفِ الصراط: «ويُضرَب الجِسرُ على جهنم، وتَحِلُّ

(١) البغوي ٣/ ١٦٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢ ، و«قِبَلا» التي قرأ بها المصنف هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر كما في السبعة ص٣٩٣ .

(٣) البغوي ٣/ ١٦٩ .

(٤) السبعة ص٣٩٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، والنشر ٢/ ٣١١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٤٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢ .

(٧) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٥ ، وسلف ٨/ ٣٨٤ .

(٨) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ١٥٤ ، وسلف ١٢/ ٢٥٥ .

(٩) الصحاح (دحض).

الشفاعةُ فيقولون: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم» قيل: يا رسولَ الله، وما الجِسرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّة»[١]، أي: تَزلَقُ فيه القدمُ. قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَهُ وحِدْتَ كما حَادَ البعِيرُ عن الدَّحْضِ[٢]

﴿وَاتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ يعني: القرآن[٣] ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ من الوعيدِ ﴿هُزُوًا﴾. و«ما» بمعنى المصدر أي: والإنذار. وقيل: بمعنى الذي[٤]، أي: اتخذوا القرآنَ[٥] والذي أُنذِروا به من الوعيدِ هُزواً، أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٦]. وقيل: هو قولُ أبي جهل في الزُّبدِ والتَّمرِ: هذا هو الزقُّوم[٧]. وقيل: هو قولُهم في القرآنِ: هو سحرٌ وأضغاثُ أحلامٍ وأساطيرُ الأوَّلين، وقالوا للرسول: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] و﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه ممَّن وُعِظ بآياتِ ربه، فتهاونَ بها وأعرضَ عن قبولِها[٨]، ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ترك كفرَه ومعاصيَه فلم يتبْ منها[٩]، فالنسيانُ هنا بمعنى التركِ. وقيل: المعنى: نسيَ ما قدَّم لنفسه وحصَّل من العذاب، والمعنى متقاربٌ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري، ووقع في (م): مزلقة بدل مزلة.

(٢) ديوان طرفة ص١٧٢، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٤٠٨، ودون نسبة عند الطبري ١٥/٣٠٢، وروايته:

رَدِيتُ ونجَّس اليشكريَّ حذاره وحاد كما حاد البعيرُ عن الدحض

(٣) تفسير السمرقندي ٢/٣٠٣.

(٤) الكشاف ٢/٤٨٩.

(٥) البغوي ٣/١٦٩.

(٦) ٤/١٠١.

(٧) سلف في سورة الإسراء، عند الآية (٦٠).

(٨) تفسير الرازي ٢١/١٤٢.

(٩) إعراب النحاس ٢/٤٦٢.

يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسببِ كفرِهم، أي: نحن مَنَعْنا الإيمانَ من أن يدخلَ قلوبهم وأسماعهم ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى الإيمان[1] ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ نزل في قومٍ معينين[2]، وهو يردُّ على القَدَريةِ قولَهم، وقد تقدَّم معنى هذه الآيةِ في «سبحان»[3] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: للذنوب، وهذا يختصُّ به أهلُ الإيمان دون الكفرةِ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]. «ذو الرحمة» فيه أربعُ تأويلات: أحدها: ذو العفو. الثاني: ذو الثواب، وهو على هذين الوجهين مختصٌّ بأهلِ الإيمان دون الكفر. الثالث: ذو النعمةِ. الرابع: ذو الهدى، وهو على هذين الوجهين يعمُّ أهلَ الإيمانِ والكفر؛ لأنه يُنعِمُ في الدنيا على الكافرِ، كإنعامِه على المؤمن، وقد أوضحَ هُداه للكافرِ كما أوضحه للمؤمنِ، وإنِ اهتدى به المؤمنُ دون الكافر[4]. ومعنى قوله: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: من الكفرِ والمعاصي[5] ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنَّه يُمهل، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي: أجلٌ مقدَّر يُؤخَّرون إليه[6]، نظيرُه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] أي: إذا حلَّ لم يتأخرْ عنهم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: ملجأ؛ قاله ابنُ عباس وابن زيد[7]، وحكاه الجوهريُّ في «الصحاح». وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلاً وَوُؤُولاً على فُعول، أي: لجأ، وواءَل منه على فَاعَلَ،

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧.

(٣) ص٩٥ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠.

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠.

(٧) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥.

أي: طلب النجاة[١]. وقال مجاهد: مَحْرِزاً. قتادةُ: وليًا[٢]. وأبو عبيدة[٣]: مَنْجًى. وقيل: مَحيصاً، والمعنى واحدٌ. والعربُ تقول: لا وَأَلَتْ نفسُه، أي: لا نَجت[٤]، ومنه قولُ الشاعر:

لا وَأَلتْ نفسُك خَلَّيْتَها ... للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَم[٥]

وقال الأعشى[٦]:

وقد أخالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ ... وقد يُحاذِرُ منِّي ثم ما يَئِلُ

أي: ما ينجو[٧].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ «تلك» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. «القرى» نعتٌ أو بدل. و«أهلكناهم» في موضعِ الخبرِ محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: أهل القرى. ويجوزُ أن تكون «تلك» في موضع نصب على [قول] مَن قال: زيداً ضربته[٨]. أي: وتلك القرى التي قَصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عادٍ وثمودَ ومدينَ وقوم لوط أهلكناهم لمَّا ظلموا وكفروا. ﴿وجَعَلنا لِمُهْلَكِهِمْ موعداً﴾ أي: وقتاً معلوماً لم تَعْده[٩]. و«مُهْلَك» من أُهلِكوا، وقرأ عاصم: «مَهْلَكهم» بفتح الميمِ واللام[١٠]

---

(١) الصحاح (وأل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٧٨.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٨.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠، والبيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، وهو شاعر جاهلي، والبيت في النوادر ص٥٥، وهو دون نسبة عند الطبري ١٥/ ٣٠٤، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٨.
وقال البغدادي في الخزانة ٩/ ٢٨٦: وقوله: لا وألت نفسك..إلخ، هذا دعاء على رجل استأسر لأعدائه دون أن يجرح.

(٦) في ديوانه ص١٠٩.

(٧) زاد المسير ٥/ ١٦٠.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣، وما بين حاصرتين منه.

(٩) الكشاف ٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

(١٠) هذه رواية أبي بكر عن عاصم، وروى حفص عن عاصم: بفتح الميم وكسر اللام. «السبعة» ص٣٩٣.

وهو مصدرُ هَلَك، وأجازَ الكسائيُّ والفراء: «لِمَهْلِكِهِم» بكسر اللامِ وفتحِ الميم. النحاس: [قال الكسائي]: وهو أحبُّ إليَّ؛ لأنَّه من هَلك. الزجاج: اسمٌ للزمانِ، والتقديرُ: لوقتِ مَهْلِكهم، كما يقال: أتت الناقةُ على مَضْرِبِها[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ الجمهورُ من العلماءِ وأهلِ التاريخ أنَّه موسى بنُ عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقةٌ منها نَوْفٌ البِكَاليُّ: إنه ليس ابنَ عمران، وإنَّما هو موسى بنُ منشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوب، وكان نبيًّا قبل موسى بنِ عمران[٢]. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ عباس في «صحيح» البخاري[٣] وغيرِه. وفتاه: هو يوشعُ بنُ نون. وقد مضى ذكرُه في «المائدةِ» وآخرَ «يوسف»[٤]. ومَن قال: هو ابنُ منشا؛ فليسَ الفتى يوشعَ بنَ نون. «لَا أَبْرَحُ» أي لا أزال أسِير[٥]؛ قال الشاعر:

وأبرحُ ما أدامَ اللهُ قومي ... بحمدِ اللهِ مُنْتَطِقاً مُجِيدًا[٦]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ ، وما بين حاصرتين منه، والتيسير ص١٤٤ ، والسبعة ص٣٩٣ ، والنشر ٢/ ٣١١ .

وقوله: أتت الناقة على مضربها، قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ : أي: على زمان ضِرابها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) في المائدة ٧/ ٤٠٣ وما بعدها، وفي يوسف ١١/ ٤٦٤ .

(٥) الطبري ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) البيت لخداش بن زهير العامري، نسبه إليه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٨٢ ، وهو عند الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ دون نسبة. وفي المعاني الكبير: رخيَّ البال، بدل: بحمد الله. وقال ابن قتيبة: =

وقيل: «لَا أَبْرَحُ» لا أفارقك[(١)] ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحرُ فارس والروم، وقاله مجاهد[(٢)]. قال ابنُ عطية: وهو ذراعٌ يخرج من البحرِ المحيط من شمالٍ إلى جنوب في أرضِ فارس من وراء أَذْرَبِيجان، فالركنُ الذي لاجتماعِ البحرين مما يلي بَرَّ الشامِ هو مجمعُ البحرين[(٣)] على هذا القولِ. وقيل: هما بحر الأرْدُنِّ وبحر القُلْزُم[(٤)]. وقيل: مجمعُ البحرين عندَ طنجة؛ قاله محمد ابن كعب[(٥)]. ورُوي عن أُبيِّ بنِ كعب أنه بأفريقية. وقال السُّديُّ: الكُرُّ والرَّسُّ بأرمينية. وقال بعضُ أهل العلم: هو بحرُ الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النَّقاشُ، وهذا ممَّا يُذكر كثيراً. وقالت فرقةٌ: إنَّما هما موسى والخضر، وهذا قولٌ ضعيف[(٦)]، وحُكي عن ابنِ عباس، ولا يصحُّ[(٧)]؛ فإنَّ الأمر بُيِّنَ من الأحاديث أنَّه إنما رُسِم[(٨)] له بحر ماء.

وسببُ هذه القصةِ ما خرَّجه الصحيحان[(٩)] عن أُبيِّ بن كعب، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا، فعتَبَ الله عليه؛ إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمَجْمَع البحرين هو أعلمُ منك. قال موسى: يا ربِّ، فكيفَ لي به؟ قال: تأخذُ معك

= منتطقاً فيه قولان، أحدهما أن يشد الدرع عليه بالنطاق، ويروى عن يونس أنه قال: تقول: انتطق الرجل فرسه إذا قاده، مجيداً: أقود فرساً تلد الجياد.

(١) النكت ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧ .

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٣ .

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٠٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧ ، وقول السدي في المفهم ٦/ ١٩٥ .

(٧) المفهم ٦/ ١٩٥ .

(٨) في (م): وسم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٨ والكلام منه.

(٩) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

حُوتاً فتجعَلُه في مِكتَلٍ، فحيثُما فَقدتَ الحُوتَ فهو ثَمَّ» وذكر الحديثَ، واللفظُ للبخاري.

وقال ابنُ عباس: لمَّا ظهر موسى وقومُه على أرض مصرَ، أنزلَ قومَه مصر، فلما استقرت بهمُ الدار، أَمره اللهُ: أنْ ذَكِّرهم بأيام الله، فخطب قومَه فذكَّرهم ما آتاهم اللهُ من الخير والنعمة؛ إذ نجَّاهم من آلِ فرعون، وأهلكَ عدوَّهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلَّم الله نبيكم تكليماً، واصطفاه لنفسِه، وألقى عليَّ محبةً منه، وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه، فجعلكم أفضلَ أهل الأرض، ورزَقكم العزَّ بعد الذلِّ، والغنى بعدَ الفقر، والتوراةَ بعدَ أن كنتم جهالاً، فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: عَرَفنا الذي تقول، فهل على وجهِ الأرض أحدٌ أعلمُ منكَ يا نبيَّ الله؟ قال: لا؛ فعتبَ اللهُ عليه حين لم يردَّ العلم إليه، فبعثَ الله جبريل: أن يا موسى، وما يُدريكَ أين [أضع] علمي؟ بلى! إنَّ لي عبداً بمجمَعِ البحرين أعلم منك، وذكر الحديث(١).

قال علماؤنا: قولُه في الحديث: «هو أعلمُ منك» أي: بأحكامِ وقائعَ مفصَّلة، وحُكمِ نوازلَ معينة، لا مطلقاً، بدليل قولِ الخضرِ لموسى: إنَّك على علم علَّمكه اللهُ لا أعلمُه أنا، وأنا على علمٍ عَلَّمنيه لا تَعلمُه أنت، وعلى هذا فيصدقُ على كلٍّ واحد منهما أنَّه أعلمُ من الآخر بالنسبةِ إلى ما يعلمُه كلٌّ واحد منهما ولا يعلمُه الآخر، فلما سمعَ موسى هذا تشوَّفت نفسُه الفاضلة، وهمتُه العالية، لتحصيل علمِ ما لم يعلم، وللقاءِ مَن قيل فيه: إنه أعلمُ منك، فعزم فسألَ سؤالَ الذليل: بكيف السبيل؟ فأُمِر بالارتحالِ على كل حال. وقيل له: احملْ معك حوتاً مالحاً في مِكْتل - وهو الزِّنْبيل - فحيثُ يَحيا وتَفقِدُه، فثَمَّ السبيلُ، فانطلقَ مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طَلِباً قائلاً: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين»(٢). ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ بضمِّ الحاءِ والقافِ وهو الدهرُ، والجمع أحقاب. وقد تُسكن قافُه فيقال: حُقْب، وهو ثمانونَ سنة، ويقال:

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

أكثر من ذلك، والجمع حِقاب، والحِقْبةُ، بكسرِ الحاء: واحدةُ الحقَب وهي السِّنون[١].

الثانية: في هذا من الفقهِ: رحلةُ العالم في طلب الازديادِ من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادمِ والصاحبِ، واغتنام لقاءِ الفضلاءِ والعلماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السلفِ الصالحِ، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسختْ لهم في العلومِ أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكرِ والأجرِ والفضل أفضلُ الأقسام[٢]. قال البخاري[٣]: ورحلَ جابرُ بنُ عبدِ الله مسيرةَ شهرٍ إلى عبدِ الله بن أُنيس في حديثٍ واحد[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» للعلماءِ فيه ثلاثةُ[٥] أقوال:

أحدها: أنه كان معه يخدُمه، والفتى في كلامِ العرب الشابُّ، ولما كان الخَدَمةُ أكثرَ ما يكونون فتياناً قيل للخادمِ: فتًى على جهةِ حسنِ الأدب، ونَدبتِ الشريعةُ إلى ذلك في قولِ النبي ﷺ: «لا يقل أَحدُكم: عبدي ولا أمتي، وليقل: فَتايَ وفتاتي» فهذا ندبٌ إلى التواضع، وقد تقدَّم هذا في «يوسف»[٦]. والفتى في الآية هو الخادمُ وهو يوشعُ بنُ نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام.

ويقال: هو ابنُ أختِ موسى عليه السلام. وقيل: إنَّما سُمي فتى موسى؛ لأنَّه لزِمَه ليتعلمَ منه وإن كان حرًّا، وهذا معنى الأوَّل. وقيل: إنَّما سماه فتًى؛ لأنه قام مقامَ الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]،

---

(١) الصحاح (حقب)، وقد نقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم.

(٢) المفهم ٦/ ١٩٦ .

(٣) في الصحيح قبل حديث (٧٨).

(٤) ليست في (د) و(ز) و(م)، وهي من (ظ) و(ف) وصحيح البخاري.

(٥) ليست في (ظ) و(ف)، وفي أحكام ابن العربي ٣/ ١٢٣٢ ، والكلام منه قال: فيه قولان.

(٦) ١١/ ٣٥٣ ، وما بعدها.

وقال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠] قال ابنُ العربي[١]: فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنه عبدٌ، وفي الحديث: أنه كان يوشعَ بنَ نون. وفي التفسيرِ: أنه ابنُ أخته، وهذا كلُّه ممَّا لا يُقطع به، والتوقفُ فيه أسلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» قال عبدُ الله بنُ عَمرو: والحُقب ثمانونَ سنة. مجاهد: سبعونَ خريفاً. قتادة: زمان[٢]. النحاسُ: الذي يعرفُه أهلُ اللغةِ أنَّ الحُقبَ والحِقبة زمانٌ من الدهرِ مبهمٌ غيرُ محدود، كما أنَّ رهطاً وقوماً مبهمٌ غيرُ محدود، وجمعُه أحقاب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الضميرُ في قوله: «بينهما» للبحرين؛ قاله مجاهد[٤]. والسَّرَب: المسلكُ؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: جَمَد الماءُ فصار كالسَّرَب[٥]. وجمهورُ المفسرين أنَّ الحوت بقي موضعُ سلوكِه فارغاً، وأن موسى مشَى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرةٍ في البحر، وفيها وجد الخَضِرَ. وظاهرُ الروايات والكتابِ أنَّه إنما وجدَ الخضرَ في ضفةِ البحر. وقوله: «نسيا حوتهما» وإنَّما كان النسيانُ من الفتى وحدَه فقيل: المعنى:

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٢، وما قبله منه.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٣١٠ - ٣١١، وقول مجاهد في التفسير ١/ ٣٧٨.

(٣) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ و ٥/ ١٣٠.

(٤) في التفسير ١/ ٣٧٨، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣١١.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٣١٤، وقول مجاهد في السرب ذكره في النكت والعيون ٣/ ٣٢٣.

نسيَ أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله، فنسبَ النسيان إليهما للصحبة[١]، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنَّما يخرج من المِلحِ، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسلُ من الإنس لا من الجن. وفي «البخاري»[٢]: فقال لفتاه: لا أُكلفك إلا أن تخبرَني بحيثُ يُفارقك الحوتُ، قال: ما كلَّفتَ كثيراً، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: «وإذ قال موسى لفتاه» يوشع بن نون ـ ليست عن سعيد[٣] ـ قال: فبينا هو في ظلِّ صخرةٍ في مكانٍ ثَرْيَانَ إذ تَضَرَّبَ[٤] الحوتُ وموسى نائمٌ فقال فتاه: لا أُوقظه، حتى إذا استيقظَ نسيَ أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخلَ البحر، فأمسكَ الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنَّ أثرَه في حَجَر. قال لي عمرو[٥]: هكذا كأنَّ أثرَه في حَجَر، وحَلَّقَ بينَ إبهاميه واللتين تَلِيانِهما. وفي روايةٍ[٦]: وأمسكَ الله عن الحوتِ جِرْيَةَ الماءِ فصار عليه مثلَ الطاق[٧]، فلما استيقظَ، نسيَ صاحبُه أن يخبره بالحوتِ، فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً» ولم يجدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوزَ المكانَ الذي أَمَر الله به، فقال له فتاه: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وقيل: إنَّ النسيانَ كان منهما؛ لقولِه تعالى: «نسِيا» فنَسَب النسيانَ إليهما[٨]،

---

(١) الكلام بنحوه في المفهم ٦/١٩٦ - ١٩٧، والمحرر الوجيز ٣/٥٢٨.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ٨/ ٤١٤: القائل ليست عن سعيد هو ابن جريج، ومراده أن تسمية الفتى ليست عنده في رواية سعيد بن جبير.

(٤) ثريان، أي: مبلول، من: ثرّى التربة تثرية: بلَّها. وتضرَّب: تحرَّك وماج. القاموس (ثري) و(ضرب).

(٥) أي: عمرو بن دينار، والقائل هو ابن جريج كما في فتح الباري لابن حجر ٨/٤١٦.

(٦) عند البخاري (٤٧٢٥).

(٧) الطاق: هو النَّقْب الذي يُدخَل منه كما في المفهم ٦/١٩٦.

(٨) الكلام بنحوه في زاد المسير ٥/ ١٦٥ - ١٦٦، والكشاف ٢/٤٩١.

وذلك أنَّ بدوَّ حملِ الحوت كان من موسى؛ لأنَّه الذي أُمِرَ به، فلما مضيا؛ كان فتاه هو الحاملَ له حتى أويا إلى الصخرةِ نزلا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: الحوتَ هناك منسيًّا[1] ـ أي: متروكاً ـ فلما سألَ موسى الغداءَ؛ نسبَ الفتى النسيانَ إلى نفسِه عند المخاطبة، وإنَّما ذكر الله نسيانَهما عند بلوغ مَجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان؛ لأن النسيانَ التأخير، من ذلك قولُهم في الدعاء: أَنسأَ الله في أجلك، فلمَّا مَضيا من الصخرة أخَّرا حوتَهما عن حملِه فلم يحمله واحدٌ منهما، فجازَ أن يُنسَب إليهما؛ لأنَّهما مضيا وتركا الحوت.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألةٌ واحدة، وهو اتخاذُ الزادِ في الأسفار، وهو ردٌّ على الصوفيةِ الجَهَلة الأغمار الذين يقتحمونَ المهامهَ والقِفار زعماً منهم أنَّ ذلك هو التوكلُ على الله الواحدِ القهار، هذا موسى نبيُّ الله وكليمُه من أهل الأرض قد اتخذَ الزادَ مع معرفته بربه، وتوكله على ربِّ العباد. وفي «صحيح» البخاري[2]: إنَّ ناساً من أهلِ اليمن كانوا يحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحنُ المتوكلون، فإذا قدِموا سألوا الناسَ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقد مَضى هذا في «البقرة»[3].

واختُلِف في زادِ موسى ما كان، فقال ابن عباس: كان حوتاً مملوحاً في زِنبيل، وكانا يُصيبان منه غداءً وعشاءً، فلما انتهيا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر، وضعَ فتاهُ المِكتلَ، فأصابَ الحوتَ جريُ البحرِ، فتحرك الحوتُ في المكتلِ، فقلبَ المكتلَ وانسربَ الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصةَ الحوتِ لموسى. وقيل: إنَّما كان الحوتُ دليلاً على موضعِ الخضر؛ لقولِه في الحديث: احملْ معكَ حوتاً في مِكتلٍ، فحيثُ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٢٣، وزاد المسير ٥/ ١٦٦.

(٢) برقم (١٥٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ، على هذا فيكون تَزوَّدا شيئاً آخر غيرَ الحوت، وهذا ذكره شيخُنا الإمامُ أبو العباس واختاره[١]. وقال ابنُ عطية[٢]: قال أبي ﵁: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ يقول في وعظِه: مشَى موسى إلى المناجاة فبقي أربعينَ يوماً لم يحتجْ إلى طعام، ولمَّا مشى إلى بَشَرٍ لحِقَه الجوعُ في بعضِ يوم.

وقوله: «نَصَباً» أي: تعباً، والنَّصَب: التعبُ والمشقة. وقيل: عَنى به هنا الجوعَ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الإخبار بما يجدُه الإنسانُ من الألمِ والأمراض، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في الرضا، ولا في التسليمِ للقضاء، لكنْ إذا لم يصدرْ ذلك عن ضجرٍ ولا سخط.

وفي قوله: «وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أنْ مع الفعلِ بتأويلِ المصدر، وهو منصوبٌ بدلَ اشتمالٍ من الضميرِ في «أنسانيه» وهو بدلُ الظاهرِ من المضمرِ، أي: وما أنساني ذكرَه إلا الشيطان، وفي مصحف عبد الله: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنَّما ذكره يوشعُ في مَعرضِ الاعتذارِ؛ لقولِ موسى: لا أُكلفُك إلا أن تُخبرَني بحيثُ يُفارقُك الحوت، فقال: ما كَلَّفتَ كثيراً، فاعتذرَ بذلك القول[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتملُ أن يكونَ من قولِ يوشع لموسى، أي: اتخذَ الحوتُ سبيلَه عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «واتخذ سبيله في البحر» تمامَ الخبر، ثم استأنفَ التعجب[٤] فقالَ من نفسه: «عجباً» لهذا الأمرِ. وموضعُ العجبِ أن يكونَ حوتٌ قد ماتَ فأُكِل شقُّه الأيسرُ ثم حَييَ بعدَ ذلك. قال أبو شجاع في «كتابِ الطبري»[٥]: رأيتُه ـ أُتِيت به ـ فإذا هو شِقُّ حوتٍ وعينٌ

---

(١) المفهم ٦/ ١٩٧، والحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩.

(٣) المفهم ٦/ ١٩٧ - ١٩٨، وقراءة عبد الله ﵁ في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩، وعندهما «أذكركه» بدل «أذكره».

(٤) في (م) و(د): التعجيب.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣١٥.

واحدة، وشِقٌّ آخرُ ليس فيه شيءٌ. قال ابنُ عطية[(١)]: وأنا رأيتُه والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرةٌ رقيقة ليست تحتَها شوكة. ويحتمل أن يكون قولُه: «واتّخَذَ سَبِيلَهُ» إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إمَّا أن يخبرَ عن موسى أنَّه اتخذَ سبيلَ الحوت من البحرِ عجباً، أي: تَعجَّب منه. وإمَّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنه اتخذَ سبيلَه عجباً للناس.

ومن غريبِ ما رُوي في البخاريِّ[(٢)] عن ابنِ عباس من قصصِ هذه الآية، أنَّ الحوتَ إنَّما حَيِيَ؛ لأنَّه مَسَّه ماءُ عينٍ هناك تُدعَى عينَ الحياة، ما مَسَّت قطُّ شيئاً إلا حَيِيَ. وفي «التفسيرِ»: إنَّ العلامةَ كانت أن يَحيا الحوتُ، فقيل: لمَّا نزل موسى بعد ما أجهده السفرُ على صخرةٍ إلى جنبها ماءُ الحياة، أَصابَ الحوتَ شيءٌ من ذلك الماءِ فحيِيَ. وقال الترمذيُّ[(٣)] في حديثِه: قال سفيان: يزعمُ ناسٌ أنَّ تلك الصخرةَ عندها عينُ الحياة، ولا يصيبُ ماؤها ميتاً[(٤)] إلا عاش. قال: وكان الحوتُ قد أُكِلَ منه، فلما قطرَ عليه الماءُ عاشَ. وذكر صاحبُ كتابِ «العروس» أنَّ موسى عليه السلام توضَّأ من عينِ الحياةِ، فقَطَرتْ من لحيتِه على الحوتِ قطرةٌ فحيِيَ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾[(٥)] أي: قالَ موسى لفتاه: أَمرُ الحوتِ وفَقدُه هو الذي كنا نطلب، فإنَّ الرجل الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يَقصَّان آثارَهما لئلا يُخطِئا طريقَهما[(٦)] وفي «البخاري»[(٧)]: فوجدا خضراً على طِنْفِسةٍ خضراء على كَبِدِ البحرِ مُسَجًّى بثوبه، قد جعل طَرفَه تحت رجليه، وَطرَفَه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى،

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩، وما قبله منه.

(٢) برقم (٤٧٢٧).

(٣) في السنن (٣١٤٩).

(٤) في (ظ) و(م): شيئاً، والمثبت من (د) و(ف) و(ز)، وسنن الترمذي.

(٥) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف، وابن كثير يثبت الياء فيهما جميعاً في الوصل والوقف كما في السبعة ص٣٩١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩.

(٧) برقم (٤٧٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكشف عن وجهِه وقال: هل بأرضِي[١] من سلام؟! مَن أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنُك؟ قال: جئتُ لتعلِّمني مما عُلِّمت رشداً، الحديث.

وقال الثعلبيُّ في كتابِ «العرائس»[٢]: إنَّ موسى وفتاه وَجدا الخضرَ وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجهِ الماء وهو مُتَّشِح بثوبٍ أخضرَ، فسلَّم عليه موسى، فكشفَ عن وجهِه فقال: وأنَّى بأرضِنا السلام؟! ثم رفعَ رأسَه واستوى جالساً وقال: وعليك السلامُ يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومَن أخبرك أنِّي نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراكَ بي ودَلَّك عليَّ؛ ثم قال: يا موسى، لقد كان لك في بني إسرائيل شغلٌ، قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعَك وأتعلَمَ من علمك، ثم جلسا يتحدَّثان، فجاءت خُطَّافةٌ وحملت بمنقارِها من الماء، وذكر الحديثَ على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ العبدُ هو الخضرُ عليه السلام في قولِ الجمهور، وبمقتضى الأحاديثِ الثابتة. وخالفَ مَن لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحبُ موسى بالخضر بل هو عالِمٌ آخر. وحكى أيضاً هذا القول القُشيريّ، قال: وقال قومٌ: هو عبدٌ صالح[٣]، والصحيح أنَّه كان الخضر، بذلك وردَ الخبرُ عن النبي ﷺ. قال مجاهد: سُمِّي الخضرَ لأنَّه كان إذا صلَّى اخضرَّ ما حوله[٤]. وروى الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سُمِّي الخضرَ؛ لأنه جلسَ على فروةٍ بيضاء فاهتزت[٦] تحتَه خضراء» هذا حديث صحيح غريب[٧]. الفروةُ هنا

---

(١) في (م): بأرضك.

(٢) ص٢٢٧ ، وفيه: قائم على طنفسة بدل نائم، ولعل في النسخة التي اعتمدها المصنف زيادة على المطبوع الذي بين أيدينا.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، دون ذكر القشيري.

(٤) البغوي ٣/ ١٧٢ .

(٥) في سننه (٣١٥١).

(٦) في (م) و(د) و(ز): فإذا هي تهتز، والمثبت من (ف) و(ظ) وسنن الترمذي.

(٧) في سنن الترمذي: حديث حسن صحيح.

وجهُ الأرض؛ قاله الخَطَّابيُّ وغيرُه. والخضرُ نبيٌّ عند الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالح غير نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنبوّته؛ لأن بواطنَ أفعالِه هل كانت[1] إلا بوحي. وأيضاً فإنَّ الإنسانَ لا يتعلم ولا يَتَّبع إلا مَن فوقه، وليس يجوزُ أن يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليس بنبيٍّ. وقيل: كان مَلَكاً أمرَ الله موسى أن يأخذَ عنه ممَّا حملَه من علمِ الباطن[2]. والأوّلُ الصحيحُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمةُ في هذه الآيةِ النبوةُ[3]. وقيل: النعمة[4]. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الغيب. ابن عطية[5]: كان علمُ الخضرِ[6] معرفةَ بواطنَ قد أُوحيتْ إليه، لا تُعطي ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها، وكان علمُ موسى علمَ الأحكامِ والفتيا بظاهرِ أقوالِ الناسِ وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قولُه تعالى: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ» هذا سؤالُ الملاطِف، والمخاطِب المستنزل المبالغ في حسنِ الأدب، المعنى: هل يتفقُ لك ويَخِفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيعُ أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[7]؟

(١) في (م): لا تكون، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، والكلام منه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٢٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٤ ، وزاد: الطاعة وطول الحياة.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ .

(٦) بعدها في (م): علم.

(٧) أخرجه أحمد (١٦٤٣١)، والبخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ.

وعلى بعضِ التأويلات يجيء كذلك قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآيِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢][1] حسب ما تقدم بيانُه في «المائدة».

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المتعلم تبعٌ للعالم وإن تفاوتتِ المراتب[2]، ولا يُظَن أنَّ في تعلمِ موسى من الخضر ما يدلُّ على أنَّ الخضر كان أفضلَ منه، فقد يَشذُّ عن الفاضلِ ما يعلمه المفضول، والفضلُ لمن فضَّله الله، فالخضرُ إن كان وليًّا فموسى أفضلُ منه؛ لأنه نبيٌّ والنبي أفضلُ من الوليِّ، وإن كان نبيًّا فموسى فَضَلَه بالرسالة[3]. والله أعلم. «ورشداً» مفعولٌ ثانٍ بـ «تعلمني».

﴿قَالَ﴾ الخضرُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: إنك يا موسى، لا تطيقُ أن تصبرَ على ما تراه من علمي[4]؛ لأن الظواهرَ التي هي علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأً ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريقِ الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ والأنبياءُ لا يُقِرُّون على منكر، ولا يجوزُ لهم التقرير[5]. أي: لا يسعك السكوتُ جرياً على عادتك وحُكمك. وانتصب «خُبْراً» على التمييزِ المنقولِ عن الفاعل. وقيل: على المصدرِ الملاقي في المعنى، لأنَّ قوله: «لَمْ تُحِطْ» معناه: لم تَخبُرْه، فكأنه قال: لم تَخبره خُبراً، وإليه أشارَ مجاهد. والخبيرُ بالأمورِ هو العالمُ بخفاياها وبما يختبرُ منها[6].

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: سأصبرُ بمشيئةِ الله، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قد ألزمتُ نفسي طاعتَك. وقد اختلف في الاستثناءِ، هل هو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ .

(٣) المفهم ٦/ ٢١٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ : عملي، والكلام منه.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٧٣ .

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٢ . وفي تفسير مجاهد ١/ ٣٨١ : خُبراً: يعني: علماً.

يشملُ قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» أم لا؟ فقيل: يشملُه كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقيل: استثنى في الصَّبر فصبَرَ، وما استثنى في قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» فاعترضَ وسأل[١]. قال علماؤنا: إنَّما كان ذلك منه؛ لأنَّ الصبر أمرٌ مستقبل ولا يَدري كيف يكون حالُه فيه، ونفيُ المعصيةِ معزومٌ عليه حاصلٌ في الحال، فالاستثناءُ فيه ينافي العزمَ عليه. ويمكنُ أن يُفرِّق بينَهما بأنَّ الصبر ليس مكتسباً لنا بخلافِ فعلِ المعصية وتركها، فإنَّ ذلك كلَّه مكتَسبٌ لنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أكونَ أنا الذي أُفسره لك، وهذا من الخضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لِما يَقتضي دوامَ الصحبةِ، فلو صَبَر ودَأَب؛ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثرَ من الاعتراضِ، فتَعيَّن الفراقُ والإعراض[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: في «صحيح» مسلم والبخاري[٣]: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجأ[٤] إلا والخضرُ قد قلعَ منها لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتَها لتغرقَ أهلها «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ - ١٢٣٤ .

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٣ ، وما قبله منه.

(٣) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) بعدها في (م): موسى.

تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً». قال وقال رسولُ الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نِسياناً قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حَرْفِ السفينة فَنقَر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلمي وعِلمُك من علم الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر».

قال علماؤنا: حرفُ السفينةِ: طَرفُها، وحَرْف كلِّ شيءٍ: طرفُه، [ومنه حرف الجبل][(١)] وهو أعلاه المحدَّد. والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٥٥] أي: من معلوماته، وهذا من الخضرِ تمثيلٌ، أي: معلوماتي ومعلوماتك لا أثرَ لها في علمِ الله، كما أنَّ ما أَخذَ هذا العصفورُ من هذا البحرِ لا أثر له بالنسبةِ إلى ماء البحرِ، وإنَّما مثَّل له ذلك بالبحرِ؛ لأنَّه أكثر ما نُشاهدُه ممَّا بينَ أيدينا، وإطلاقُ لفظِ النقصِ هنا تجوُّز قُصِدَ به التمثيلُ والتفهيمُ؛ إذ لا نقصَ في علمِ الله، ولا نهايةَ لمعلوماته. وقد أوضحَ هذا المعنى البخاريُّ فقال: والله ما علمي وما علمُك في جنبِ علمِ الله إلا كما أخذَ هذا الطيرُ بمنقارِه من البحر[(٢)].

وفي «التفسير» عن أبي العالية: لم يرَ الخضرَ حين خرقَ السفينة غيرُ موسى وكان عبداً لا تراه إلا عينُ مَن أرادَ الله له أن يريه، ولو رآه القومُ لمنعوه من خرقِ السفينة. وقيل: خرج أهلُ السفينةِ إلى جزيرة، وتخلَّف الخضرُ فخرقَ السفينة. وقال ابنُ عباس: لمَّا خرقَ الخضر السفينةَ تنحَّى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنتُ أَصنع بمصاحبةِ هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتابَ الله عليهم غدوةً وعشيّة فيطيعوني! قال له الخضرُ: يا موسى، أَتريدُ أن أخبرك بما حدَّثتَ به نفسَك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقتَ، ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[(٣)].

الثانية: في خرقِ السفينة دليلٌ على أنَّ للوليِّ أن يَنقُصَ مالَ اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخافَ على رَيْعه ظالماً فيُخرِّبَ بعضَه[(٤)]. وقال أبو يوسف: يجوزُ للوليِّ أن

---

(١) ما بين حاصرتين من المفهم ٦/ ٢١٥، والكلام منه.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٥ - ٢١٦.

(٣) ص٢٢٨.

(٤) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٤.

يصانعَ السلطان ببعض مالِ اليتيم عن البعض. وقرأ حمزةُ والكسائي: «لِيَغْرَقَ» بالياء «أَهْلُهَا» بالرفع فاعل يَغرَق[(١)]، فاللامُ على قراءةِ الجماعةِ في «لِتغرِق» لامُ المآلِ مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]. وعلى قراءةِ حمزةَ لامُ كي، ولم يقل: لتُغرقني؛ لأنَّ الذي غَلبَ عليه في الحال فرطُ الشفقةِ عليهم، ومراعاةُ حقِّهم. و«إِمْراً» معناه عجباً؛ قاله القتبيُّ[(٢)]. وقيل: منكَراً؛ قاله مجاهد[(٣)]. وقال أبو عبيدة: الإمرُ: الداهيةُ العظيمةُ؛ وأنشد:

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّي نُكْرَا   داهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرَا[(٤)]

وقال الأخفشُ: يقالُ: أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَر [أَمْراً] إذا اشتدَّ، والاسمُ الإِمْرُ[(٥)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ في معناه قولان: أحدُهما: يُروى عن ابنِ عباس قال: هذا من معاريضِ الكلام[(٦)]. والآخر: أنَّه نسي فاعتذر. ففيه ما يدلُّ على أنَّ النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخلُ تحتَ التكليف، ولا يتعلقُ به حكم طلاقٍ ولا غيره، وقد تقدَّم، ولو نسي في الثانيةِ لاعتذرَ[(٧)].

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ في «البخاري»[(٨)]: قال يَعْلَى: قال

---

(١) التيسير ص١٤٤، والسبعة ص٣٩٥.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩.

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٩، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٣٦.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٤٠٩، والرجز عند الطبري ١٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧. وفي الصحاح (أمر).

(٥) الصحاح (أمر) والمفهم ٦/ ٢٠٤، وما بين حاصرتين منهما.

(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٨ بهذا اللفظ عن أبي بن كعب.

(٧) وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٧١ قولاً ثالثاً أنه بمعنى الترك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

(٨) برقم (٤٧٢٦)، وسلف في تفسير الآية ٦٤ من هذه السورة.

سعيد: وجدَ غلماناً يلعبون فأخذَ غلاماً كافراً، فأضجعه ثم ذبَحه بالسكين، «قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» لم تعملْ بالحِنْثِ. وفي «الصحيحين» و«صحيح الترمذي»[١]: ثم خرجا من السفينةِ فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذ أبصرَ الخضرُ غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ رأسه بيدِه فاقتلَعه بيده فقتلَه، قال له موسى: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» قال[٢]: وهذه أشدُّ من الأولى. «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً». لفظ البخاري. وفي «التفسيرِ»: إنَّ الخضرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبون فأخذَ بيدِه غلاماً ليس فيهم أضوأُ منه، وأخذ حجراً فضرب به رأسَه حتى دَمَغه، فقتله[٣]. قال أبو العالية: لم يَرَه إلا موسى، ولو رأَوه لحالوا بينَه وبين الغلام.

قلت: ولا اختلافَ بين هذه الأحوال الثلاثةِ، فإنه يحتملُ أن يكون دَمَغه أوَّلاً بالحجر، ثم أضجعه فذبَحه، ثم اقتلعَ رأسه؛ والله أعلمُ بما كان من ذلك، وحسبُك بما جاءَ في «الصحيح».

وقرأ الجمهورُ: «زَاكِيَةً» بالألف. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر: «زَكِيَّةً» بغير ألفٍ وتشديدِ الياء[٤]؛ قيل: المعنى واحد؛ قاله الكسائي. وقال ثعلب: الزكيةُ أبلغُ. قال أبو عمرو: الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ، والزكيةُ التي أَذنبت ثم تابت[٥].

قوله تعالى: «غلاما» اختلفَ العلماء في الغلام، هل كان بالغاً أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريقَ بين قريتين، وأبوه من عظماءِ أهل إحدى القريتين، وأمُّه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضرُ فصرعه، ونزع رأسَه عن جسده[٦].

---

(١) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩).
(٢) القائل سفيان بن عيينة كما صرَّح به البخاري (١٢٢)، وذكره في إرشاد الساري للقسطلاني ٧/ ٢٢٠ .
(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤ بنحوه.
(٤) التيسير ص١٤٤ ، والسبعة ص٣٩٥ .
(٥) المفهم ٦/ ٢٠٥ ، وفيه أنَّ قول أبي عمرو في الزكية: التي ما حلَّ ذنبها.
(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤ .

قال الكلبي: واسمُ الغلام شمعون. وقال الضَّحاك: حيسون. وقال وهب: اسمُ أبيه سلاس، واسمُ أمِّه رُحْمَى[(١)]. وحكى السهيليُّ أنَّ اسمَ أبيه كازير، واسمَ أمه سهوى[(٢)]. وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قالَ موسى: زاكية لم تذنب. وهو الذي يقتضيه لفظُ الغلام؛ فإنَّ الغلامَ في الرجال يقال على مَن لم يبلغ، وتقابلُه الجاريةُ في النساء. وكان الخضرُ قتله لِمَا علمَ من سِرِّه، وأنه طُبع كافراً كما في صحيح الحديث، وأنَّه لو أدركَ لأرهقَ أبويه كفراً. وقَتلُ الصغيرِ غيرُ مستحيل إذا أذنَ الله في ذلك؛ فإنَّ الله تعالى الفعالُ لما يريد، القادرُ على ما يشاء[(٣)].

وفي كتابِ «العرائس»: إنَّ موسى لمَّا قال للخضر: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّة» ـ الآية ـ غضبَ الخضرُ واقتلع كتفَ الصبيِّ الأيسر، وقشرَ اللحمَ عنه، وإذا في عظمِ كتفِه مكتوبٌ: كافرٌ لا يؤمنُ بالله أبداً[(٤)]. وقد احتجَّ أهلُ القولِ الأول بأنَّ العرب تُبقي على الشابِّ اسمَ الغلام[(٥)]، ومنه قولُ ليلى الأخيلية:

شَفَاها من الدَّاءِ العُضالِ الذي بِها غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقَاها[(٦)]

وقال صفوان لحسان:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عَنِّي فإنَّني غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ[(٧)]

وفي الخبر: إنَّ هذا الغلامَ كان يفسد في الأرض، ويُقسِم لأبويه أنَّه ما فَعل، فيقسمان على قَسَمِه، ويحميانه ممَّن يطلبه. قالوا: وقوله: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» يقتضي أنه لو

(١) المفهم ٦/ ٢٠٥ .
(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .
(٣) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٢٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٧٢ .
(٤) عرائس المجالس ص٢٢٨ .
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ .
(٦) سلف ٥/ ١٢٢ .
(٧) البيت في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٨ ، والبداية والنهاية ٦/ ٢٠١ . وذُباب السيف: حَدُّه أو طرفه المتطرف كما في القاموس (ذبب).

كانَ عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدلُّ على كبَرِ الغلام، وإلَّا فلو كان لم يحتلم، لم يجب قتلُه بنفسٍ[١]. وإنما جاز قتلُه؛ لأنه كان بالغاً عاصياً. قال ابنُ عباس: كان شابًّا يقطعُ الطريق[٢]. وذهب ابن جبير إلى أنَّ بلغَ سنَّ التكليف لقراءةِ أُبيٍّ وابنِ عباس «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» والكفرُ والإيمان من صفاتِ المكلَّفين، ولا يُطلَق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعيةِ لأبويه، وأبوا الغلامِ كانا مؤمنين بالنص فلا يَصدقُ عليه اسمُ الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يُصار إليه[٣].

والغلامُ من الاغتلامِ وهو شدةُ الشَّبَق.

قوله تعالى: ﴿نُّكْرًا﴾ اختلف الناسُ أيُّهما أبلغُ «إمرا» أو قوله: «نكرا» فقالت فرقة: هذا قَتلٌ بيِّن، وهناك مُترقَّب؛ فـ«نكرا» أبلغُ. وقالت فرقة: هذا قَتلُ واحدٍ، وذاك قتلُ جماعة فـ«إمرا» أبلغ. قال ابنُ عطية[٤]: وعندي أنَّهما لمعنيين وقوله: «إِمْراً» أفظعُ وأهولُ من حيثُ هو متوقع عظيم، و«نُكراً» بيِّن في الفساد؛ لأنَّ مكروهَه قد وقع. وهذا بَيِّن. قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ شرطٌ وهو لازم، والمسلمون عند شروطِهم، وأحقُّ الشروطِ أن يُوفَّى به ما التزمَه الأنبياء، والتُزِمَ للأنبياء. وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يدلُّ على قيامِ الاعتذار بالمرةِ الواحدةِ مطلقاً، وقيامِ الحجةِ من المرة الثانيةِ بالقطع؛ قاله ابنُ العربي[٥]. ابنُ عطية: ويشبهُ أن تكونَ هذه القصةُ أيضاً أصلاً للآجالِ في الأحكامِ التي هي ثلاثة، وأيامُ التلومِ[٦] ثلاثة، فتأمله[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٦.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧.

(٣) المفهم ٦/ ٢١١.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٤، وما قبله منه.

(٦) في (م): المتلوم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢.

قوله تعالى: «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أي: تتابعني. وقرأ الأعرجُ: «تَصْحَبَنِّي» بفتحِ التاءِ والباء وتشديدِ النون. وقرئ: «تَصْحَبْنِي» أي: تتبعني. وقرأ يعقوب «تُصْحِبْنِي» بضمِّ التاء وكسر الحاء، ورواها سهل، عن أبي عمرو[(١)]؛ قال الكسائي: معناهُ: فلا تتركني أَصحَبُك. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً» أي: بلغتَ مبلغاً تُعذر به في تركِ مصاحبتي. وقرأ الجمهور: «مِنْ لَدُنِّي» بضمِّ الدال، إلا أنَّ نافعاً وعاصماً خفَّفا النون، فهي «لدن» اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في غلامي وفرسي، وكُسر ما قبلَ الياء كما كُسر في هذه. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «لَدْنِي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيفِ النون، ورُوي عن عاصم: «لُدْنِي» بضمِّ اللام وسكون الدال، قال ابنُ مجاهد[(٢)]: وهي غلطٌ. قال أبو علي: هذا التغليطُ يُشبه أن يكونَ من جهة الروايةِ، فأمَّا على قياسِ العربية؛ فهي صحيحةٌ[(٣)]. وقرأ الجمهور: «عُذْراً»، وقرأ عيسى: «عُذُراً» بضمِّ الذال، وحكى الداني أنَّ أُبيًّا روى عن النبيِّ ﷺ: «عُذْري» بكسرِ الراء وياءٍ بعدها[(٤)].

مسألة: أسندَ الطبريُّ[(٥)] قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه، فقال يوماً: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صَبَر على صاحبِه لرأى العجبَ ولكنَّه قال: «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»». والذي في «صحيحِ» مسلم قالَ رسولُ الله ﷺ: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل، لرأى العجبَ ولكنَّه أَخذته من صاحبِه ذَمَامةٌ ولو صَبَرَ؛ لرأى العجبَ» قال: وكان إذا ذَكَر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسِه: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى أخي كذا»[(٦)]. وفي البخاري عن النبيِّ ﷺ قال: «يرحمُ الله

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ قراءة الأعرج إلى ابن مسعود، وقراءة يعقوب إلى الجحدري والنخعي. وقراءة يعقوب ذكرها البغوي ٣/ ١٧٥.

(٢) في السبعة ص٣٩٦، وما قبله منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٦٢.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣.

(٥) في التفسير ١٥/ ٣٤٥، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣.

(٦) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

موسى، لوَدِدْنا أنه صَبَر حتى يقصَّ علينا من أمرِهما»[١].

الذَّمامةُ بالذالِ المعجمةِ المفتوحة، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذالِ وكسرها، وهي الرقةُ، والعارُ من تَرْكِ الحرمةِ: يقال: أخذتني منك مَذَمَّةٌ ومَذِمَّة وذَمامة، وكأنه استحيا من تكرارِ مخالفتِه، وممَّا صدرَ عنه من تغليظِ الإنكارِ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ۝٧٨﴾

فيه ثلاثَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ في «صحيح» مسلم[٣] عن أُبيِّ بنِ كعب، عن النبيِّ ﷺ: «لئاماً»، فطافا في المجالس فـ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يقول: مائل. قال: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضرُ بيده قال له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضيِّفونا، ولم يُطعِموننا ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾. ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «يرحمُ الله موسى، لوَدِدْتُ أنَّه كان صَبَر حتى يقصَّ علينا من أخبارِهما».

الثانية: واختلفَ العلماءُ في القرية، فقيل: هي أَيْلة[٤]؛ قاله قتادةُ، وكذلك قال محمد بنُ سيرين، وهي أبخلُ قرية وأَبعدُها من السماء. وقيل: أَنطاكية. وقيل: بجزيرةِ الأندلس، رُوي ذلك عن أبي هريرة وغيرِه، ويذكر أنها الجزيرةُ الخضراء. وقالت

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٦.

(٣) برقم (٢٣٨٠): ١٧٢.

(٤) في (م): أبلة، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ٢٠٧، وإكمال المعلم ٧/ ٣٧٧، وعرائس المجالس ص٢٢٩، ووقع في تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧، والوسيط ٣/ ١٦٠، والمحرر ٣/ ٥٣٣، وزاد المسير ٥/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٣٠: الأُبُلَّة.

فرقة: هي أبو جوزان[١] وهي بناحيةِ أذْرَبيجان. وحكى السُّهيليُّ وقال: إنَّها برقة[٢]. الثَّعلبي: هي قريةٌ من قرى الروم يقالُ لها: ناصرة، وإليها تُنسَب النصارى[٣]. وهذا كلُّه بحسب الخلاف في أي ناحيةٍ من الأرضِ كانت قصةُ موسى، والله أعلمُ بحقيقةِ ذلك[٤].

الثالثة: كان موسى عليه السلام حينَ سقى لبنتي شعيب أحوجَ منه حين أتى القريةَ مع الخضر، ولم يَسألْ قوتاً بل سقى ابتداءً، وفي القريةِ سألا القوت، وفي ذلك للعلماءِ انفصالاتٌ كثيرة، منها أنَّ موسى كان في حديث مَدْين منفرداً، وفي قصةِ الخضرِ تبعاً لغيره[٥].

قلتُ: وعلى هذا المعنى يَتمشّى قولُه في أوّلِ الآية لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً» فأصابه الجوعُ مراعاةً لصاحبِه يوشع. والله أعلم.

وقيل: لمَّا كانَ هذا سفرَ تأديب، وُكِل إلى تكلُّف المشقة، وكان ذلك سفرَ هجرةٍ، فوُكِل إلى العونِ والنُّصرةِ والقوة[٦].

الرابعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على سؤالِ القوت، وأنَّ مَن جاع وجبَ عليه أن يطلب ما يردُّ جوعَه خلافاً لجهالِ المتصوفة. والاستطعامُ سؤالُ الطعام، والمرادُ به هنا سؤالُ الضيافة، بدليل قوله: «فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا» فاستحقَّ أهلُ القرية لذلك أن يُذمُّوا، ويُنسبوا إلى اللُّؤمِ والبخل، كما وصفَهم بذلك نبيُّنا عليه الصلاةُ والسلام[٧]. قال قتادةُ في هذه الآيةِ: شرُّ القُرَى التي لا تُضيِّف الضيفَ، ولا تعرفُ لابنِ السبيل حقَّه.

---

(١) في (م): بَاجَروان، والمثبت من النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ ، والكلام منه: أبو حوران.
(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .
(٣) عرائس المجالس ص٢٢٩ .
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ .
(٦) في (م): بالقوت، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ ، والكلام منه.
(٧) أخرجه أحمد (٢١١٢٠) في الزوائد، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، من حديث أبي بن كعب ﷺ.

ويظهرُ من ذلك أنَّ الضيافة كانت عليهم واجبةً، وأنَّ الخضر وموسى إنَّما سألا ما وجبَ لهما من الضِّيافة، وهذا هو الأليقُ بحالِ الأنبياء، ومنصبِ الفضلاء والأولياء، وقد تقدَّم القولُ في الضيافةِ في «هود»[١] والحمدُ لله. ويعفو اللهُ عن الحريريّ[٢] حيثُ استخفَّ في هذه الآيةِ وتَمجَّن، وأتى بخَطَلٍ من القول وزلَّ، فاستدلَّ بها على الكُدْيةِ[٣] والإلحاحِ فيها، وأنَّ ذلك ليس بمعيبٍ على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال:

وإنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقصةٌ عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قلت: وهذا لعبٌ بالدين، وانسلالٌ عن احترام النبيين، وهي شِنْشِنَةٌ أدبية، وهفوةٌ سخافية؛ ويرحمُ الله السلفَ الصالح، فلقد بالغوا في وصيةِ كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ فإياك أن تلعبَ بدينك[٤].

الخامسة: قولُه تعالى: «جِدَاراً» الجدارُ والجَدْرُ بمعنًى، وفي الخبر: «حتى يبلغَ الماءُ الجَدْرَ». ومكانٌ جَدِيرٌ: بُني حَواليه جدارٌ، وأصلُه الرفع. وأَجدرتِ الشجرةُ: طلعت، ومنه الجُدَرِيُّ[٥].

السادسة: قوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» أي: قَرُب أن يسقط[٦]، وهذا مجازٌ وتوسُّع، وقد فسَّره في الحديث بقوله: «مائل» فكانَ فيه دليلٌ على وجودِ المجازِ في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور[٧]. وجميعُ الأفعالِ التي حقُّها أن تكونَ للحي الناطقِ متى أُسندِت إلى جمادٍ أو بهيمة، فإنَّما هي استعارة، أي: لو كان مكانَهما إنسانٌ،

---

(١) ١١/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧ ، وأثر قتادة أخرجه الطبري ١٥/ ٣٤٧ .

(٢) هو: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري، له: درة الغواص في وهم الخواص، والملحة، والمقامات. (ت٥١٦هـ). السير ١٩/ ٤٦٠ - ٤٦٥ .

(٣) الكُدية: حِرفةُ السائلِ المُلِحّ. المعجم الوسيط (كدى).

(٤) المفهم ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وقول الحريري في مقاماته ص٣٢٦ .

(٥) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤ - ٦٣٥ . والخبر أخرجه البخاري (٤٥٨٥)، وسلف ٦/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٣٥٠ .

(٧) المفهم ٦/ ٢٠٨ .

لكان ممتثلاً لذلك الفعل، وهذا في كلام العربِ وأشعارِها كثيرٌ[١]، فمن ذلك قولُ الأعشى:

أتـنْـتَـهـون ولَا يَـنْـهَـى ذَوِي شَـطَـطٍ كـالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ[٢]

فأضافَ النَّهيَ إلى الطعنِ، ومن ذلك قولُ الآخر:

يُـرِيـدُ الـرمـحُ صـدرَ أَبِـي بَـرَاءٍ ويـرغـبُ عـن دمـاءِ بـنـي عـقـيـل[٣]

وقال آخر:

إنَّ دهـراً يـلُـفُّ شَـمْـلي بِـجُـمْـلٍ لَـزمَـانٌ يَـهُـمُّ بـالإحـسـان[٤]

وقال آخر:

فـي مـهـمـهٍ فُـلِـقـت بـه هـامـاتُـهـا فَـلْـقَ الـفـؤوس إذا أَردن نُـصُـولاً[٥]

أي: ثبوتاً في الأرض، من قولهم: نَصَل السيفُ إذا ثَبَت في الرميَّة؛ فشبَّه وقعَ السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوسِ في الأرض، فإنَّ الفأسَ يقعُ فيها ويثبت لا يكاد يخرج[٦]. وقال حسانُ بنُ ثابت[٧]:

لَـوَ انَّ الـلُّـؤمَ يُـنـسـبُ كـان عَـبْـداً قـبِـيـحَ الـوجـهِ أعْـوَرَ مـن ثَـقِـيـفِ

وقال عَنْتَرة:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٢) ديوان الأعشى ص١١٣ ، وسلف ١/ ٣٢٠ .

(٣) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤١٠ ونسبه للحارثي، وفي تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧ ، والصناعتين ص٢٨٤ دون نسبة.

(٤) البيت في الطبري ١٥/٣٤٨ ، والصحاح (دهر)، وتهذيب اللغة ٦/ ١٩٢ ، بهذه السياقة، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٢١٩ بلفظ: بسعدى بل بجمل. ولفظه في ديوان بشار بن برد ٢/ ٥٤٥ :

إنَّ دهـراً يـضـم شـمـلي بـسـلـمـى لـزمـان قـد هـمَّ بـالإحـسـان

(٥) البيت للراعي النميري في ديوانه ص٢٢٢ ، وفي ديوان المعاني ٢/ ١٢٣ .

(٦) المفهم ٦/٢٠٨ - ٢٠٩ . وما قبله فيه.

(٧) في ديوانه ص١٦١ .

فـازْوَرَّ مـن وَقْـعِ الـقَـنَـا بِـلَـبَـانِـه وشَـكَـا إلـيَّ بـعَـبْـرَةٍ وتَـحَـمْـحُـمِ

وقد فَسَّر هذا المعنى بقوله:

لو كان يَدْرِي ما الْمُحَاوَرَةُ اشتكَى(١)

وهذا في هذا المعنى كثيرٌ جدًّا. ومنه قولُ الناس: إنَّ داري تنظرُ إلى دارِ فلان(٢). وفي الحديث: «اشتكتِ النارُ إلى ربِّها»(٣).

وذهبَ قومٌ إلى منعِ المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإِسْفَرايِني(٤) وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني(٥) وغيرهما، فإنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ وكلامَ رسوله حَمْلُه على الحقيقةِ أولى بذي الفضلِ والدِّين؛ لأنه يَقصُّ الحقَّ كما أخبرَ الله تعالى في كتابِه. وممَّا احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجازِ؛ لزمَ وصفُه بأنَّه مُتجوِّز أيضاً، فإنَّ العدولَ عن الحقيقةِ إلى المجاز يقتضي العجزَ عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محالٌ(٦)، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ

---

(١) صدر بيت لعنترة، وعجزه: ولكان لو علم الكلام مكلمي، وهو وما قبله في شرح المعلقات لابن النحاس ٢/ ٤٤.

وقال النحاس: ازورَّ: مال. والتحمحم: صوت مقطع وليس بالصهيل.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، وما قبله منه.

(٣) أخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧): ١٨٥، من حديث أبي هريرة.

(٤) هو: ركن الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، من تصانيفه: كتاب جامع الخلي في أصول الدين، وغيرها. (ت٤١٨هـ). السير ١٧/ ٣٥٣.

ونقل مَنْعَه للمجاز ابن العربي في المحصول ص٣١.

(٥) هو: الظاهري صاحب كتاب الزهرة في الآداب والشعر، وكتاب التقصي في الفقه. (ت٢٩٧هـ). السير ١٣/ ١٠٩ وما بعدها.

ونقل مَنْعَه للمجاز الرازي في المحصول ١/ ٣٣٣.

(٦) المحصول للرازي ١/ ٣٣٣.

أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧]، و«اشتكتِ النارُ إلى ربها»[(١)]، «واحتجت النار والجنة»[(٢)] وما كان مثلَها حقيقة، وأنَّ خالقَها الذي أنطق كلَّ شيء أنطقَها.

وفي «صحيح» مسلم من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «فيُختَم على فِيهِ ويقالُ لفخذه: انطقي، فتنطقُ فخذُه ولحمه وعظامُه بعملِه وذلك لِيُعذِر من نفسه، وذلك المنافقُ وذلك الذي يَسخطُ الله عليه»[(٣)]. هذا في الآخرة.

وأمَّا في الدنيا؛ ففي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقومُ السَّاعةُ حتى تُكلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، وحتى تُكلِّمَ الرجلَ عذَبَةُ سَوْطِهِ، وشِراكُ نَعلِه، وتُخبرَه فَخذُه بما أحدثَ أهلهُ مِن بعدِه» [قال أبو عيسى]: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديثٌ حسنٌ غريب[(٤)].

السابعة: قوله تعالى: «فَأَقَامَه» قيل: هدمَه ثم قعد يبنيه[(٥)]، فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» لأنه فعلٌ يَستحقُّ أجراً. وذكر أبو بكر الأنباري، عن ابنِ عباس، عن أبي بكر، عن رسولِ الله ﷺ أنه قرأ «فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه». قال أبو بكر: وهذا الحديثُ إنْ صحَّ سندُه فهو جارٍ من الرسولِ عليه الصلاة والسلام مجرى التفسيرِ للقرآن، وإنَّ بعضَ الناقلين أدخلَ [تفسير][(٦)] قرآنٍ في موضعٍ فَسَرى أنَّ ذلك قرآنٌ نَقصَ من مُصحف عثمان، على ما قاله بعضُ الطاعنين. وقال سعيد بنُ جبير: مَسحه بيدِه وأقامه فَقام[(٧)]، وهذا القولُ هو الصحيح،

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وهذا لفظ حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند مسلم (٢٩٦٩) بلفظ: قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله.

(٤) سنن الترمذي (٢١٨١)، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أحمد (١١٧٩٢).

(٥) الطبري ١٥/ ٣٥٠.

(٦) زيادة من (م) يقتضيها السياق.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٥١.

وهو الأشبهُ بأفعالِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء. وفي بعض الأخبار: إنَّ سُمْكَ ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن، وطولَه على وجهِ الأرض خَمسُمائة ذراعٍ، وعرضَه خمسون ذراعاً، فأقامه الخضرُ عليه السلام أي: سوَّاه بيده فاستقام. قاله الثَّعلبي في كتاب «العرائس»[١]. فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» أي: طعاماً تأكله[٢]، ففي هذا دليلٌ على كراماتِ الأولياء، وكذلكَ ما وصفَ من أحوالِ الخضر عليه السلام في هذا الباب كلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة، هذا إذا تَنزَّلنا على أنَّه وليٌّ لا نبيٌّ.

وقوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» يدلُّ على نبوّتِه وأنه يوحَى إليه بالتكليفِ والأحكام، كما أُوحي للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام غير أنَّه ليس برسول، والله أعلم[٣].

الثامنة: واجبٌ على الإنسانِ ألَّا يتعرض للجلوس تحتَ جدار مائل يُخاف سقوطُه، بل يسرع في المشي إذا كان مارًّا عليه؛ لأنَّ في حديثِ النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرَّ أحدكم بطِرْبالٍ مائل فليُسرِعِ المشي»[٤]. قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: كان أبو عبيدة يقول: الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة؛ والبناء المرتفع؛ قال جرير:

أَلْوَى بِهَا شَذبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ[٥]

يقال منه: وَكَن يَكِن إذا جلسَ. وفي «الصحاح»: الطِّرْبالُ: القطعةُ العاليةُ من

(١) عرائس المجالس ص٢٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤.

(٣) المفهم ٦/ ٢٠٩.

(٤) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١٨، وما بعده منه.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٦٠، وقال شارحه: ألوى بها: ذهب بها حيث أراد. شذب العروق: ليس عليه لحم. وَكَنَت: جلست. طربال: حصن معروف.

الجدار، والصخرةُ العظيمةُ المشرفة من الجبل، وطَرابيلُ الشامِ صوامعُها. ويقال: طَرْبَل بَوْلَه إذا مدَّه إلى فوق[(١)].

التاسعة: كراماتُ الأولياءِ ثابتة على ما دلَّت عليه الأخبارُ الثابتة، والآياتُ المتواترة، ولا يُنكِرها إلا المبتدعُ الجاحد، أو الفاسقُ الحائد، فالآياتُ ما أخبرَ الله تعالى في حقِّ مريم من ظهورِ الفواكهِ الشَّتويةِ في الصيف، والصَّيفيةِ في الشتاء ـ على ما تقدم ـ وما ظهر على يدِها حيثُ أَمرتِ النخلةَ وكانت يابسةً فأثمرت، وهي ليست بنبيَّة، على الخلاف. ويدلُّ عليها ما ظهرَ على يد الخضرِ عليه السلام من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار. قال بعضُ العلماء: ولا يجوزُ أن يقالَ: كان نبيًّا؛ لأنَّ إثباتَ النبوةِ لا يجوز بأخبارِ الآحادِ، لا سيَّما وقد رُوي من طريقِ التواتر ـ من غيرِ أن يحتملَ تأويلاً ـ بإجماعِ الأمةِ قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا نبيَّ بعدي»[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والخضرُ وإلياس[(٣)] جميعاً باقيان مع هذه الكرامةِ، فوجبَ أن يكونا غيرَ نبيين[(٤)]؛ لأنَّهما لو كانا نبيين، لوجبَ أن يكونَ بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، إلا ما قامتِ الدلالةُ في حديثِ عيسى أنَّه ينزلُ بعده.

قلت: الخضرُ كان نبيًّا ـ على ما تقدم ـ وليس بعدَ نبينا عليه الصلاةُ والسلام نبيٌّ، أي: يَدَّعي النبوَّةَ بعده أبداً. والله أعلم.

العاشرة: اختلفَ الناسُ، هل يجوزُ أن يعلمَ الوليُّ أنه وليٌّ أم لا؟ على قولين[(٥)]:

أحدهما: أنه لا يجوز، وأنَّ ما يظهر على يديه يجبُ أن يلاحظه بعينِ خوفِ

---

(١) الصحاح (طربل).

(٢) سلف ١/٣٩٨.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): دانيال، والمثبت من (ظ).

(٤) قال بذلك القشيري في رسالته ٤/١٦١، وينظر المفهم ٦/٢١٧.

(٥) ذكر هذه المسألة القشيري في رسالته ٤/١٥٠ - ١٥١.

المكر؛ لأنه لا يأمنُ أن يكون مكراً واستدراجاً له، وقد حُكِي عن السَّريِّ أنه كان يقول: لو أنَّ رجلاً دخل بستاناً فكلَّمه من رأسِ كل شجرة طيرٌ بلسانٍ فصيح: السلامُ عليك يا وليَّ الله، فلو لم يخفْ أن يكون ذلك مكراً، لكانَ ممكوراً به[١]. ولأنه لو علم أنَّه وليٌّ لزالَ عنه الخوف، وحصلَ له الأمن. ومِن شرطِ الوليِّ أن يستديمَ الخوف إلى أن تتنزلَ عليه الملائكة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، ولأنَّ الوليَّ مَن كان مختوماً له بالسعادة، والعواقبُ مستورةٌ ولا يدري أحدٌ ما يُختَم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[٢].

القول الثاني: أنَّه يجوز للوليِّ أن يعلمَ أنه وليٌّ؛ ألا تَرى أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يجوزُ أن يعلم أنَّه وليٌّ، ولا خلافَ أنه يجوزُ لغيره أن يعلمَ أنه وليُّ الله تعالى، فجاز له أن يعلمَ ذلك. وقد أخبرَ النبي عليه الصلاة والسلام مِن حالِ العَشرة مِن أصحابه أنَّهم من أهلِ الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوالُ خوفِهم، بل كانوا أكثرَ تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وأشدَّ خوفاً وهيبة، فإذا جازَ للعشرةِ ذلك ولم يُخرجْهم عن الخوفِ، فكذلك غيرُهم.

وكان الشِّبْليُّ يقول: أنَا أَمَانُ هذا الجانب، فلما ماتَ ودُفن عبرَ الدَّيلمُ دجلةَ ذلك اليوم، واستَولَوا على بغداد[٣]، ويقول الناس: مُصيبتانِ موتُ الشبليِّ وعبورُ الديلم. ولا يقالُ: إنه يحتملُ أن يكون ذلك استدراجاً؛ لأنه لو جازَ ذلك؛ لجازَ ألَّا يَعرِف النبيُّ أنه نبيٌّ ووليُّ الله؛ لجوازِ أن يكونَ ذلك استدراجاً، فلمَّا لم يجز ذلك؛ لأنَّ فيه إبطالَ المعجزاتِ لم يَجُزْ هذا، لأنَّ فيه إبطالَ الكرامات. وما رُوي من ظهورِ

(١) الرسالة القشيرية ٤/ ١٥٦.

(٢) سلف ١/ ٢٩٦.

(٣) ذكر هذا القول صاحب الديباج المذهب ١/ ٣٦٣. والديلم: جيل سُمُّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وإقليم الديلم يشمل قُومِس وجرجان وطبرستان والدَّيلمان والخزر. معجم البلدان ٢/ ٥٤٤، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري ص٢٧١.

الكراماتِ على يدي بِلْعام[١] وانسلاخِه عن الدينِ بعدها لقولِه: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فليس في الآيةِ أنه كان وليًّا ثم انسلختْ عنه الوِلاية. وما نُقِل أنه ظهرَ على يديه ما يجري مَجرى الكراماتِ هو أخبارُ آحادٍ لا تُوجِب العلمَ[٢]. والله أعلم.

والفرقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ أنَّ الكرامةَ من شرطها الاستتارُ، والمعجزةَ من شرطِها الإظهارُ. وقيل: الكرامةُ ما تظهرُ من غيرِ دعوى، والمعجزةُ ما تظهر عند دَعوى الأنبياءِ، فيُطالَبون بالبرهانِ، فيظهرُ أثر ذلك[٣]. وقد تقدَّم في مقدِّمةِ الكتاب[٤] شرائطُ المعجزة، والحمدُ لله تعالى وحدَه لا شريكَ له.

وأمَّا الأحاديثُ الواردةُ في الدِّلالةِ على ثبوتِ الكَرامات، فمن ذلك ما خرَّجه البخاريُّ[٥] من حديث أبي هريرة قال: بعثَ رسول الله ﷺ عشرةَ رَهْط سريةً عَيْناً وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريَّ، وهو جدُّ[٦] عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب ﷺ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدأة وهي بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحيٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لَحيان، فنَفَّروا إليهم قريباً من مائتي راجلٍ كلُّهم رامٍ، فاقتصُّوا آثارَهم حتى وجدوا مأْكلهم تمراً تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمرُ يثرب، فاقتصوا آثارَهم، فلمَّا رآهم عاصم وأصحابه لَجؤوا إلى فَدْفَد[٧]، وأحاط بهم القومُ، فقالوا لهم: انزلوا فأعطونا بأيديكم[٨] ولكم العهدُ والميثاق، ولا[٩] نقتلُ منكم أحداً؛ فقال عاصمُ بنُ ثابت أميرُ

(١) هو بِلعام بن باعوراء، ينظر ما تقدم في ٩/ ٣٨٣ .

(٢) ذكر بعضاً من أخباره ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٣٩٦ - ٤٠٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ٤/ ١٤٨ .

(٤) ١/ ١١٢ وما بعدها.

(٥) في صحيحه (٣٠٤٥).

(٦) وقال القسطلاني في إرشاد الساري ٥/ ١٦٣ : وقال مصعب الزهري: إنما هو خال عاصم لا جده؛ لأن عاصم بن عمر بن الخطاب أمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح أخت عاصم بن ثابت وكان اسمها عاصية. قال الكرماني: وعليه الأكثر.

(٧) الفدفد: المرتفع. القاموس (فدد).

(٨) في (د) و(م): أيديكم.

(٩) في (م): ألا.

السرية: أما أنا[١] فوالله لا أنزلُ اليوم في ذمةِ الكافر، اللهمَّ أَخبِرْ عنَّا نبيَّك، فَرَموا بالنَّبل فقتلوا عاصماً في سبعةٍ، فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهد والميثاقِ، وهم: خُبَيبٌ الأنصاري وابنُ الدَّثِنة ورجلٌ آخر[٢]، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتارَ قِسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أوّلُ الغدر! والله لا أصحبكم؛ إنَّ لي في هؤلاء لأسوةً - يريدُ القتلى - فجرَّروه وعالجوه على أنْ يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، فانطلقوا بخُبيبٍ وابن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكةَ بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذي قتلَ الحارثَ بن عامرٍ يوم بدر، فلبث خُبيب عندهم أسيراً؛ فأخبرني[٣] عبيدُ الله بنُ عياض أنَّ بنتَ الحارث أخبرته أنهم حينَ اجتمعوا، استعارَ منها موسى يَسْتحِدُّ بها فأعارته، فأخذَ ابناً[٤] لي وأنا غافلةٌ حتى أتاه، قالت: فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده، ففزِعتُ فزعةً عرفها خُبيبٌ في وجهي، فقال: أتخشَيْنَ أن أقتلَه؟ ما كنتُ لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خُبيب؛ واللهِ لقد وجدتُه يوماً يأكل من قِطْفِ عنبٍ في يده، وإنَّه لموثَقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمر؛ وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله تعالى خُبيباً، فلمَّا خرجوا به من الحرمِ ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خُبيب: دعوني أركعْ ركعتين، فتركوه فركعَ ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أنَّ ما بي جزعٌ من الموت لزدت؛ ثم قال[٥]: اللهمَّ أَحْصِهِم عدداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تُبقِ منهم أحداً، ثم قال:

ولستُ أُبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أيِّ شِقٍّ كان لِلهِ مَصْرَعي
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[٦]

(١) ليست في (د) و(م).
(٢) هو عبد الله بن طارق البلوي كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٤.
(٣) في (م) و(د): فأخبر.
(٤) في (م): ابن. وهو أبو الحسين بن الحارث بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٥.
(٥) قوله: من الموت لزدت ثم قال. ليس في النسخ الخطية.
(٦) وقال القسطلاني ٥/ ١٦٥: وقال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لخبيب.

فقتله بنو الحارث، وكان خُبيب هو الذي سنَّ الركعتين لكلِّ امرئ مسلم قُتل صَبْراً، فاستجاب الله تعالى لعاصم يومَ أصيب، فأُخبر النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابُه خبرَهم وما أُصيبوا. وبعثَ ناسٌ من كفارِ قريش إلى عاصم حين حُدِّثوا أنه قُتل ليُؤتَوا بشيء منه يعرفونه، وكان قد قَتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعثَ الله على عاصم مثلَ الظُّلَّةِ من الدَّبْر[1] فَحَمَتْه من رُسلِهم، فلم يَقدِروا على أن يَقطعوا من لحمِه شيئاً.

وقال ابن إسحاق[2] في هذه القصة: وقد كانت هذيل حين قُتِل عاصمُ بن ثابت أرادوا رأسَه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد، وقد كانت نذرت حين أصابَ ابنيها بأُحُد: لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربَنَّ في قِحْفِهِ[3] الخمرَ فمنَعهم الدَّبْر، فلمَّا حالت بينَه وبينهم قالوا: دعوه حتى يُمسِي فتذهب عنه فنأخذه، فبعثَ الله تعالى الوادي فاحتمل عاصماً فذهبَ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهداً ألَّا يمسَّ مشركاً ولا يمسه مشركٌ أبداً في حياتِه، فمنَعه الله تعالى بعدَ وفاتِه مما امتنعَ منه في حياته.

وعن عمرو بنِ أمية الضَّمْري: وكان رسولُ الله ﷺ بَعثه عيناً وحدَه فقال: جئتُ إلى خشبةِ خُبَيب فرقيتُ فيها وأنا أتخوف العيونَ، فأطلقته، فوقعَ في الأرض، ثم اقتحمتُ فانتبذتُ قليلاً، ثم التفتُّ فكأنما ابتلعتْه الأرضُ. وفي رواية أخرى زيادة: فلم يُذكر لخبيب رِمَّةٌ حتى الساعة. ذكره البيهقي[4].

الحادية عشرة: ولا يُنكر أن يكونَ للوليِّ مالٌ وضَيْعةٌ يصونُ بها مالَه وعياله،

---

(١) جماعة النحل والزنابير. القاموس (دبر).

(٢) في السير والمغازي ص٣٢٩ - ٣٣٠ ، وقد نقله المصنف بواسطة ابن هشام في السيرة ٢/ ١٧١ .

(٣) القِحف: العظم الذي فوق الدماغ. الصحاح (قحف).

(٤) في دلائل النبوة ٣/ ٣٣٢ ، وهو عند أحمد (١٧٢٥٢)، وإسناده ضعيف، فيه إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن مجمع الأنصاري، وهو ضعيف وقد اضطرب فيه. وفي (م): فلم نذكر لخبيب رمة.

وحسبُك بالصحابةِ وأموالهم مع ولايتهم وفضلِهم، وهم الحجةُ على غيرهم. وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراجِ قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوِّل الماءَ بمِسْحاته، فقال: يا عبدَ الله، ما اسمُك؟ قال: فلان، الاسم الذي سمعه في السَّحابة، فقال له: يا عبد الله، لَمَ سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤُه يقول: اسقِ حديقةَ فلان لاسمك، فما تصنعُ فيها؟ قال: أمَّا إذ قُلتَ هذا، فإني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدقُ بثلثِه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثَه»، وفي رواية «وأجعلُ ثلثَه في المساكين والسائلين وابن السبيل»(١).

قلت: وهذا الحديثُ لا يناقضُه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تَتخذوا الضيْعةَ فتركَنوا إلى الدنيا» خرَّجه الترمذي(٢) من حديثِ ابنِ مسعود وقال فيه: حديثٌ حسن؛ فإنَّه محمولٌ على من اتخذَها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها، وأمَّا منِ اتخذَها معاشاً يصونُ بها دينَه وعيالَه؛ فاتخاذُها بهذه النيةِ من أفضلِ الأعمال، وهي من أفضلِ الأموال؛ قال عليه الصلاةُ والسلام: «نِعم المالُ الصالح للرجلِ الصالح»(٣). وقد أكثرَ الناسُ في كراماتِ الأولياء، وما ذكرناهُ فيه كفايةٌ، واللهُ الموفقُ للهداية.

الثانية عشرة: قولُه تعالى: «لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» فيه دليلٌ على صحةِ جوازِ الإجارة، وهي سنةُ الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانُه في سورة «القصص»(٤) إن شاءَ

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤)، وهو عند أحمد (٧٩٤١).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٨)، وهو عند أحمد (٣٥٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٥٤، وإسناده ضعيف لضعف المغيرة بن سعد بن الأخرم.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

(٤) عند الآية ٢٦ .

الله تعالى. وقرأ الجمهورُ: «لَاتَّخَذْتَ» وأبو عمرو: «لَتَخِذْتَ» وهي قراءةُ ابنِ مسعود والحسن وقتادة[١]، وهما لغتان بمعنى واحد من الأَخْذ[٢]، مثل قولك: تَبِع واتّبع، وتَقى واتّقى[٣]. وأدغم بعض القرّاء الذّالَ في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبيِّ بن كعب: لو شئت لأوتيت أجراً[٤]. وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: «هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ» بحكم ما شرطتَ على نفسِك[٥]. وتكريره: «بيني وبينك» وعدوله عن بيننا؛ لمعنى التأكيد. قال سيبويه: كما يقال: أخزى اللهُ الكاذبَ منِّي ومنك، أي: منَّا[٦]. وقال ابن عباس: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلبِ شيء من الدنيا، فكان سببَ الفِراق[٧]. وقال وهب بنُ مُنَبِّه: كان ذلك الجدار جداراً طوله في السماء مئة ذراع.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» تأويل الشيء: مآله، أي: قال له: إنِّي أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنَّها حُجَّة على موسى، وعجباً له. وذلك أنَّه لما أنكر أمر خَرْقِ السفينة نُوديَ: يا موسى، أين كان تدبيرُك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليمِّ؟ فلما أنكر أمرَ الغلام قيل له: أين إنكارُك هذا مِن وكزك القِبْطيَّ وقضائِك عليه؟ فلما أنكر إقامةَ الجدار نُوديَ: أين هذا مِن رَفْعِك حجرَ البئر لبناتِ شعيب دون أجرٍ؟![٨]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ ، والكلام منه، والتيسير ص١٤٥ ، والسبعة ص٣٩٦ .

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ .

(٥) المفهم ٦/ ٢١٠ .

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٠٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٨ .

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤١١ .

(٨) عرائس المجالس ص٢٣١ - ٢٣٢ .

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استدلَّ بهذا مَن قال: إنَّ المسكينَ أحسنُ حالاً من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة براءة[1]. وقد قيل: إنَّهم كانوا تجاراً، ولكن من حيث هم مسافرون عن قلَّة في لجَّة بحر، وبحال ضَعْف عن مدافعة خَطْب، عَبَّر عنهم بمساكين، إذ هم في حالة يُشفَق عليهم بسببها، وهذا كما تقول لرجل غنيٍّ وقع في وَهْلَة أو خَطْب: مسكينٌ[2]. وقال كعب وغيره: كانت لعشَرة إخوةٍ من المساكين ورثوها من أبيهم، خمسة زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر[3]. وقيل: كانوا سبعةً، لكل واحد منهم زَمانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقَّاش أسماءَهم[4]، فأمَّا العمّال منهم؛ فأحدهم كان مجذوماً، والثاني: أعور، والثالث: أعرج، والرابع: آدر، والخامس: محموماً لا تنقطع عنه الحمَّى الدَّهرَ كلَّه، وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطيقون العمل: أعمى وأصمُّ وأخرس ومُقْعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم، ذكره الثعلبيُّ.

وقرأت فرقة: «لِمَسَّاكِينَ» بتشديد السين[5]، واختلف في ذلك فقيل: هم مَلَّاحو

---

(١) ١٠/٢٤٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦ ، والمفهم ٦/ ٢١٠ .

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، وقرأ بها سيدنا علي بن أبي طالب كما في البحر المحيط ٦/ ١٥٣ .

السفينة، وذلك أنَّ المسَّاك هو الذي يُمسِك رجل السفينة، وكلُّ الخدمة تصلح لإمساكه، فسمِّي الجميعُ مسَّاكين. وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكين: دَبَغة المُسُوك، وهي الجلود، واحدها: مَسْك. والأظهر قراءة: «مساكين» بالتخفيف، جمع مسكين، وأنَّ معناها: إنَّ السفينةَ لقوم ضعفاء ينبغي أن يُشفَق عليهم[1]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب، يقال: عِبتُ الشيءَ فعاب، إذا صار ذا عَيب، فهو معِيب وعائب[2].

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير: «صحيحةٍ»[3]، وقرأ أيضاً ابن عباس وعثمان بن عفان: «صالحةٍ»[4]. و«وراء» أصلها بمعنى خَلْف، فقال بعض المفسرين: إنَّه كان خَلْفه وكان رجوعهم عليه[5]. والأكثر على أنَّ معنى «وراء» هنا أمام، يَعضُده قراءةُ ابنِ عباس وابنِ جبير: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْباً»[6]. قال ابن عطيَّة[7]: «وراءهم» هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظَ إنَّما تجيء مراعًى بها الزمان، وذلك أنَّ الحادث المقدَّم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خَلْف، وذلك بخلاف ما يظهر باديَ الرأي، وتأمَّل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت، تَجِدْها تَطَّرِد، فهذه الآية معناها: إنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك، ومن قرأ: «أمامهم» أراد في المكان، أي: كأنَّهم يسيرون إلى بلد. وقوله عليه الصلاة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٢) الصحاح (عيب).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ١٥/ ٣٥٦ .

(٤) قراءة ابن عباس أخرجها البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري ١٥/ ٣٥٦ ، وقراءة عثمان بن عفان ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٥ .

(٦) تقدمت القراءة قريباً.

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

والسلام: «الصلاةُ أمامك»[١] يريد في المكان، وإلَّا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، وتأمَّل هذه المقالةَ فإنَّها مريحةٌ من شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري[٢]: «وكان وراءهم ملك» قال قتادة: أَمامهم، ألا تراه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وهي بين أَيديهم. وهذا القول غيرُ مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسنُ بنُ أبي الحسن يضجُّ منها، قاله الزجَّاج[٣].

قلت: وما اختاره هذا الإمامُ قد سبقه إليه في ذلك ابنُ عرفة قال الهَرويُّ: قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٦] وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو عليٍّ قُطْرُب أنَّ هذا من الأضداد، وأنَّ وراء في معنى قُدَّام، وهذا غيرُ محصَّل؛ لأنَّ أمام ضدُّ وراء، وإنَّما يصلح هذا في الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان، لجاز وإن كان أَمامه؛ لأنَّه يَخْلفه إلى وقت وعده، وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيريُّ وقال: إنَّما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أمامك: إنَّه وراءك، قاله الفرَّاء[٤]، وجوَّزه غيرُه، والقوم ما كانوا عالمينَ بخبر الملك، فأخبر اللهُ تعالى الخضرَ حتى عَيَّب السفينةَ، وذكره الزجَّاج[٥]. وقال الماورديُّ[٦]: اختلف أهلُ العربية في استعمال «وراء» موضعَ «أمام» على ثلاثة أقاويل: أحدها: يجوز استعمالها بكلِّ حال، وفي كل مكان، وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي: من أَمامهم: وقال الشاعر:

أترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِي وطاعتي وقَوْمِي تَميمٌ والفَلَاةُ وَرَائِيَا[٧]

(١) سلف ٣/ ٣٤٢.

(٢) في التفسير ١٥/ ٣٥٤.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٥.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٧) نسب هذا البيت لسوَّار بن المُضَرَّب، ونسب أيضاً لمساور بن حمثان، وسلف ١٢/ ١٢٠.

يعني: أمامي.

والثاني: أنَّ «وراء» تستعمل في موضع «أمام» في المواقيت والأزمان؛ لأنَّ الإنسانَ يَجُوزها فتصير وراءَه، ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنَّه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحَجَرين متقابلين، كلُّ واحد منهما وراءَ الآخر، ولا يجوز في غيرها، وهذا قول علي بن عيسى.

واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هُدَد بنُ بُدَد. وقيل: الجَلَنْدي[١]، وقال السهيليُّ[٢]: وذكر البخاريُّ اسمَ الملك الآخذ لكلِّ سفينة غصباً فقال: هو [هُدَد بن بَدد، وذكر اسم الغلام المقتول فقال هو:] جَيْسور، وهكذا قيَّدناه في «الجامع» من رواية أبي يزيد المَرْوزيِّ، وفي غير هذه الرواية: حَيْسور بالحاء[٣]، وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حسنون[٤]. وكان يأخذ كلَّ سفينة جيِّدة غصباً، فلذلك عابها الخضرُ وخَرَقَها، ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقَّق وجهها، وجواز إصلاح كلِّ المال بإفساد بعضه[٥]، وقد تقدَّم. وفي «صحيح مسلم»[٦] وجهُ الحكمةِ بِخَرْق السفينة وذلك قوله: فإذا جاء الذي يُسخِّرها، وجدها منخرقةً فتَجاوَزها، فأصلحوها بخشبة، الحديث. وتحصَّل من هذا الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦][٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، والمفهم ٦/ ٢١٠ ، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٩ .

(٢) في التعريف والإعلام ص١٠٤ - ١٠٥ ، وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠ .

(٣) في (د): جيسور بالجيم.

(٤) في (م): حيسون. وفي التعريف والإعلام ص١٠٥ : جنون. وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠ .

(٥) المفهم ٦/ ٢٠٤ .

(٦) برقم (٢٣٨٠).

(٧) المفهم ٦/ ٢١٠ - ٢١١ .

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء في صحيح الحديث: «أنَّه طُبع يوم طُبع كافراً»[١] وهذا يؤيِّد ظاهره أنَّه غيرُ بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ قيل: هو من كلام الخضرِ عليه السلام، وهو الذي يَشهد له سياقُ الكلام، وهو قول كثيرٍ من المفسِّرين[٢]، أي: خِفْنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، وكان اللهُ قد أباح له الاجتهادَ في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلامِ الله تعالى وعنه عبَّر الخضر، قال الطبريُّ[٣]: معناه: فعلمنا، وكذا قال ابن عباس أي: فعلمنا، وهذا كما كنى عن العِلْم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكي أنَّ أُبيًّا قرأ: «فَعَلِمَ ربُّك». وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرَّقت بينهما خشيةَ أن يقتتلا، أي: كراهةَ ذلك. قال ابن عطيَّة[٤]: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ـ وإن كان اللفظُ يدافعه ـ أنَّها استعارةٌ، أي: على ظنِّ المخلوقين والمخاطبين لو عَلموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فخاف ربك»[٥] وهذا بيِّن في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لعل» و«عسى» وأنَّ جميعَ ما في هذا كلِّه من ترجٍّ وتوقُّع وخوف وخشية إنَّما هو بحسبكم أيُّها المخاطبون. و«يرهقهما»: يجشِّمهما ويكلِّفهما، والمعنى أن يلقيهما حبُّه في اتِّباعه، فيضلَّا ويتدينا بدِينه.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور: بفتح الباء وشدِّ الدال، وقرأ عاصم: بسكون الباء وتخفيف الدال[٦]، أي: أن يرزقهما اللهُ ولداً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٣٨٠)، وأحمد (٢١١١٨) عن أُبي بن كعب ﷺ.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٣ .

(٣) في التفسير ١٥/ ٣٥٧-٣٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٥) أخرجها عنه الطبري ١٥/ ٣٥٧ .

(٦) السبعة ص٣٩٧ ، والتيسير ص١٤٥ .

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: ديناً وصلاحاً، يقال: بدَّل وأبدل، مثل مَهَّلَ وأمهل، ونَزَّل وأنزل. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن عامر[١]: «رُحُماً» بالضمِّ، قال الشاعر:

وكـيـف بـظـلـمِ جـاريـةٍ ومـنـهـا الـلِّـيـنُ والـرُّحُـمُ[٢]

الباقون بسكونها[٣]، ومنه قول رُؤْبَةَ بنِ العَجَّاج:

يـا مُـنْـزِلَ الـرُّحـمِ عـلـى إدريـسَـا ومُـنْـزِلَ الـلَّـعْـنِ عـلـى إبـلـيـسَـا[٤]

واختلف عن أبي عمرو[٥].

و«رحماً» معطوف على «زكاة» أي: رحمة، يقال: رَحِمه رَحْمةً ورُحْماً، وألفه للتأنيث، ومذكَّره رُحْم. وقيل: الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم، قرأها ابن عباس: «وأَوْصَلَ رُحْماً» أي: رَحِماً[٦]. وقرأ أيضاً: «أزكى منه». وعن ابن جبير وابن جريج أنَّهما بُدِّلا جاريةً[٧]، قال الكلبيُّ: فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبيًّا، فهدى اللهُ تعالى على يديه أمَّةً من الأمم. قتادة: ولدت اثني عشَر نبيًّا. وعن ابن جريج أيضاً أنَّ أمَّ الغلام يوم قُتل كانت حاملاً بغلام مسلم، وكان المقتولُ كافراً. وعن ابن عباس: فولدت جاريةً ولدت نبيًّا، وفي رواية: أبدلهما اللهُ به جاريةً ولدت سبعين نبيًّا[٨]، وقاله جعفر بنُ محمد عن أبيه[٩]، قال علماؤنا: وهذا بعيد، ولا تُعرف كثرة الأنبياء

(١) في النسخ: ابن عباس، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ والعبارة منه، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ بفتح الراء وكسر الحاء.

(٢) القائل الوليد بن يزيد، والبيت في ديوانه ص١١١ .

(٣) قرأ ابن عامر بضمِّ الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، واختلف عن أبي عمرو فروي عنه تسكين الحاء وتحريكها. السبعة ص٣٩٧ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٤) ملحق ديوان رؤبة ص١٧٥ .

(٥) تقدم الكلام عليها قريباً.

(٦) المفهم ٦/ ٢١٣ ، وفيه: ومذكَّره رحيم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ١٧٧ .

إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم[(١)].

ويستفاد من هذه الآية تهوينُ المصائب بفَقْد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سَلَّم للقضاء، أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء[(٢)]. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل، ولو بقي، كان فيه هلاكُهما، فالواجب على كلِّ امرئٍ الرضا بقضاءِ الله تعالى، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمن فيما يَكره خيرٌ له من قضائه له فيما يُحب[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وَصْفهما باليتم، واسمهما أَصرم وأصيرم[(٤)]. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد بلوغٍ» هذا هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسمُ اليُتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما[(٥)]. وقد تقدَّم[(٦)] أن اليُتمَ في الناس من قِبَلِ فَقْدِ الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قِبَلِ فَقْدِ الأمّ.

ودلَّ قوله: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ على أنَّ القريةَ تسمَّى مدينةً، ومنه الحديث: «أُمرتُ بقرية تأكل القُرَى»[(٧)] وفي حديث الهجرة: «لمن أنت» فقال الرجل: من أهل

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٢) المفهم ٦/ ٢١٣ .

(٣) عرائس المجالس ص٢٣٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢١١)، والطبري ١٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٧٢).

(٤) في (م): وصريم. وكذا في التعريف والإعلام ص١٠٥ ، والمثبت من (د) و(ظ) و(ز) و(ف)، والمفهم ٦/ ٢١٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ - ٥٣٧ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٩ ، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٧ ، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: حفظتُ عن رسول الله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل». قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠١ : وقد أعلَّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسَّنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه.

(٦) ٢/ ٢٢٩ ، والكلام من المفهم ٦/ ٢١٤ .

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المدينة[١]، يعني: مكّة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلف الناس في الكنز، فقال عِكرِمة وقتادة: كان مالاً جسيماً[٣]. وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع، وقد مضى القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: كان عِلْماً في صُحُفٍ مدفونة[٥]. وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمن يؤمن بالقَدَر كيف يَحزن، عجبتُ لمن يؤمنُ بالرزق كيف يتعب، عجبتُ لمن يؤمن بالموت كيف يَفرح، عجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يَغفل، عجبتُ لمن يؤمن بالدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يَطمئن لها، لا إله إلا الله محمَّد رسول الله[٦]. وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة[٧]، ورواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنَّه والدهما دِنْيةً[٩]. وقيل: هو الأبُ السابع، قاله جعفر بنُ محمد. وقيل: العاشر، فَحُفِظا فيه وإن لم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) في كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، واللفظ له، والكلام من المفهم ٥/ ٢٧٧ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ): واسم هذه المدينة، قاله مقاتل.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٦٥ .

(٤) ١٠/ ١٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٦٢ بنحوه.

(٦) عرائس المجالس ص٢٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٧ ، وزاد المسير ٥/ ١٨١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن عمر مولى غفرة، ولم نقف عليه من قول عكرمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٠) عن أبي ذر مرفوعاً، وأبو الليث السمرقندي ٢/ ٣٠٨ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ ، عن أنس مرفوعاً، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٣٥ عن علي مرفوعاً، وعزاه لابن مردويه، وينظر الكافي الشاف ص١٠٤ .

(٩) في (د): زينة، وفي (ظ): دفنه.

يُذْكَرا بصلاح[١]، وكان يسمَّى: كاشحاً[٢]، قاله مقاتل. واسم أمِّهما: دنيا، ذكره النقَّاش.

ففيه ما يدلُّ على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بَعدُوا عنه. وقد روي أنَّ اللهَ تعالى يحفظ الصالحَ في سبعة من ذرِّيَّته، وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦][٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقتضي أنَّ الخضر نبيٌّ، وقد تقدَّم الخلاف في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير. ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قرأت فرقة: «تَسْتَطِعْ». وقرأ الجمهور: «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خطِّ المصحف[٤]. **وهنا خمس مسائل:**

الأولى: إن قال قائل: لم يُسمَع لفتى موسى ذِكْر في أوَّل الآية ولا في آخرِها، قيل له: اختلف في ذلك، فقال عكرمة لابن عباس: لم يُسمَع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال: شرب الفتى من الماء فخلَّد، وأخذه العالِم فطبَّق عليه سفينة ثم أرسله في البحر، وإنَّها لتموج به فيه إلى يوم القيامة، وذلك أنَّه لم يكن له أن يشرب منه، فشرب منه. قال القشيريُّ: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون، فإنَّ يوشعَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ إلا أنه لم يذكر جعفر بن محمد، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ - ١٦٣، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٦.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، والبغوي ٣/ ١٧٧، والمفهم ٦/ ٢١٤ وفيه أن اسمه: كاسحاً. وكذا في (ظ).

(٣) المفهم ٦/ ٢١٤، وأخرج ابن المبارك في الزهد ١/ ١١١ - ١١٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٤٨، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٥٩ عن محمد بن المنكدر أنه قال: إن الله عزَّ وجلَّ ليحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٣٦ وقال بعده: وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ مثله. اهـ ولم نقف عليه.

وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

ابنَ نون قد عُمِّر بعد موسى وكان خليفتَه، والأظهر أنَّ موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس[١]: يحتمل أن يكون اكتفى بذِكْر المتبوع عن التابع، والله أعلم.

الثانية: إن قال قائل: كيف أضاف الخضرُ قصَّةَ استخراج كنز الغلامين للهِ تعالى، وقال في خرق السفينة: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» فأضاف العيبَ إلى نفسه؟ قيل له: إنَّما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى؛ لأنَّها في أمر مستأنف في زمن طويل غيبٍ من الغيوب، فحسُن إفرادُ هذا الموضع بذِكْر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك، الذي أعلمه اللهُ تعالى أنه يريده. وقيل: لما كان ذلك خيراً كلَّه أضافه إلى اللهِ تعالى، وأضاف عيبَ السفينة إلى نفسِه؛ رعاية للأدب، لأنَّها لفظةُ عيب، فتأدَّب بأن لم يُسند الإرادةَ فيها إلا إلى نفسِه، كما تأدَّب إبراهيمُ عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأسند الفِعْلَ قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسِه المرضَ، إذ هو معنى نقص ومصيبة[٢]، فلا يُضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يُستحسَن منها دونَ ما يُستقبَح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشَّرَّ إليه، وإن كان بيده الخيرُ والشرُّ والضرُّ والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير.

ولا اعتراضَ بما حكاه عليه الصلاة والسلام عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه يقول يوم القيامة: «يا ابنَ آدم مرضتُ فلم تَعُدْني، واستطعمتُك فلم تُطعمني، واستسقيتك فلم تَسقني»[٣] فإنَّ ذلك تَنزُّلٌ في الخطاب، وتلطُّف في العتاب، مقتضاه التعريف بفَضْل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال، وقد تقدَّم هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

---

(١) في المفهم ٦/ ٢٠٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

(٣) سلف ٢/ ٤٣٨.

ولله تعالى أن يُطلِق على نفسه ما يشاء، ولا نُطلِق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة، جلَّ وتعالى عن النقائص والآفات علوًّا كبيراً. وقال في الغلام: «فأردنا» فكأنَّه أضاف القَتْلَ إلى نفسه، والتبديلَ إلى الله تعالى. والأشدُّ كمال الخَلْق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»[1]، والحمد لله.

الثالثة: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قومٌ من زنادقة الباطنيَّة إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ[2] الأحكام الشرعيَّة، فقالوا: هذه الأحكام الشرعيَّة العامة إنَّما يُحكم بها على الأغبياء[3] والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص فلا يَحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنَّما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرِهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم، عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهيَّة، والحقائق الربانيَّة، فيقفون على أسرار الكائنات، ويَعلمون أحكام الجزئيَّات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليَّات، كما اتفق للخضر؛ فإنَّه استغنى بما تجلَّى له من العلوم، عمَّا كان عند موسى من تلك الفُهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المُفْتون[4]. قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكُفْر، يُقتَل قائلُه ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإنَّ اللهَ تعالى قد أجرى سنَّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلَم إلا بواسطة رُسُله السفراء بينه وبين خَلْقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعَه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ

---

(١) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٢) في النسخ: هذه، والمثبت من المفهم ٦/ ٢١٨، الكلام منه.

(٣) في (ظ) والمفهم: الأغبياء، وفي (م): الأنبياء. والمثبت من (ز) و(د).

(٤) سلف ٨/ ٤٥٨.

ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعيُّ، واليقين الضروريُّ، واجتماع السلف والخَلَف على أن لا طريقَ لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرَف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إنَّ هناك طريقاً آخرَ يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يُستغنى عن الرسل، فهو كافر، يُقتَل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جوابٍ، ثم هو قول بإثباتِ أنبياء بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جَعله اللهُ خاتمَ أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسولَ. وبيان ذلك أنَّ من قال: يأخذ عن قلبه، وأنَّ ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنَّه يعمل بمقتضاه، وأنَّه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسِه خاصَّة النبوَّة، فإنَّ هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روح القدس نَفثَ في رُوْعي» الحديث[١].

الرابعة: ذهب الجمهور من الناس إلى أنَّ الخضرَ مات ﷺ. وقالت فرقة: حيٌّ؛ لأنَّه شرب من عين الحياة، وأنه باقٍ في الأرض، وأنَّه يحجُّ البيت. قال ابن عطيَّة[٢]: وقد أَطنب النقَّاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليٍّ بن أبي طالب

---

(١) المفهم ٦/ ٢١٩ ، والحديث أخرجه الشافعي في مسنده (١/ ١٣ - ١٤ بدائع المنن)، والبغوي في شرح السنة (٤١١٠)، من حديث المطلب بن حنطب مرفوعاً مرسلاً، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧ ، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والعسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢٠٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤ ، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من طرق، عن ابن مسعود مرفوعاً وبعضه منقطع، والآخر مرسل. وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٩١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٧١ : رواه البزار وفيه: قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٦ - ٢٧ من حديث أبي أمامة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١١٦ : وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أبي الزبير عن جابر عند الحاكم ٢/ ٤ وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال العسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢١٠ : النفث بالفم شبيه بالنفخ، ومعنى رُوعي: في خَلَدي ونفسي.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وما قبله منه.

وغيره، وكلُّها لا تقوم على ساقٍ. ولو كان الخضرُ عليه السلام حيًّا يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ»[١].

قلت: إلى هذا ذهب البخاريُّ، واختاره القاضي أبو بكر بن العربي[٢]، والصحيح القول الثاني، وهو أنَّه حيٌّ على ما نذكره. والحديث خرَّجه مسلم في «صحيحه»[٣] عن عبد الله بن عمر قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة صلاةَ العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ» قال ابن عمر: فَوَهَل[٤] الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدَّثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ» يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن.

ورواه أيضاً من حديث جابر بنِ عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموتَ بشهر: «تسألوني عن الساعة وإنَّما عِلْمها عند الله وأُقسم بالله، ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة تأتي عليها مئة سنة» وفي أخرى: قال سالم: تذاكرنا أنَّها هي مخلوقة يومئذ. وفي أخرى: «ما من نفسٍ منفوسة اليوم يأتي عليها مئة سنة وهي حيَّة يومئذ». وفسَّرها عبد الرحمن صاحبُ السقاية قال: نقص العمر[٥].

وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) التعريف والإعلام ص١٠٤ .

(٣) برقم (٢٥٣٧)، وهو عند البخاري (١١٦)، وأحمد (٥٦١٧).

(٤) وَهَل: غلط، ووهَلت إليه وَهَلاً: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره. المفهم ٦/ ٤٩١ .

(٥) صحيح مسلم الأولى برقم (٢٥٣٨): (٢١٨)، والثانية برقم (٢٥٣٨): (٢٢٠)، والثالثة برقم (٢٥٣٨): (٠٠)، وكلام عبد الرحمن صاحب السقاية إثر هذه الرواية.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٣٩).

قال علماؤنا: وحاصل ما تضمَّنه هذا الحديثُ أنّه عليه الصلاة والسلام أَخبر قبل موته بشهر أنَّ كلَّ من كان من بني آدم موجوداً في ذلك الوقت لا يزيد عمرُه على مئة سنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس مَنْفوسة» وهذا اللفظ لا يتناول الملائكةَ ولا الجنَّ؛ إذ لم يصحَّ عنهم أنَّهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: «ممَّن هو على ظهر الأرض أحدٌ» وهذا إنَّما يقال بأصل وَضْعه على من يعقل، فتعيَّن أنَّ المرادَ بنو آدم. وقد بيَّن ابنُ عمر هذا المعنى، فقال: يريد بذلك أن يَنْخرم ذلك القَرْن. ولا حجَّة لمن استدل به على بطلانِ قول من يقول: إنَّ الخضر حيٌّ؛ لعموم قوله: «ما من نفس منفوسة» لأنَّ العمومَ وإن كان مؤكَّد الاستغراق، فليس نَصًّا فيه، بل هو قابلٌ للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنَّه لم يمت ولم يقتل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجَّالَ مع أنَّه حيٌّ؛ بدليل حديث الجَسّاسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبةِ بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله[(١)].

وقد قيل: إنَّ أصحابَ الكهف أحياءٌ ويحجُّون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدَّم. وكذلك فتى موسى في قول ابنِ عباس كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب «العرائس»[(٢)] له: والصحيح أنَّ الخضر نبيٌّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار، وروى محمد بن المتوكل، عن ضمرة[(٣)]، عن عبد الله بن سوَّار قال: الخضر عليه السلام من وَلَدِ فارس، وإلياس من بني إسرائيل، يلتقيان كلَّ عام في الموسم. وعن عمرو بن دينار قال: إنَّ الخضر وإلياس لا يزالان حيَّين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رُفع، ماتا.

---

(١) المفهم ٦/ ٤٩٠ ، وحديث الجساسة أخرجه مسلم (٢٩٤٢) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٢) ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) ليست في (د).

وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللَّخمي في «شرح الرسالة» له للقشيري حكاياتٍ كثيرةً عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنَّهم رأوا الخضر عليه السلام ولَقوه، يفيد مجموعها غايةَ الظَّنِّ بحياته مع ما ذكره النقَّاش والثعلبيُّ وغيرهما.

وقد جاء في «صحيح مسلم»[(١)]: «أنَّ الدجَّالَ ينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينةَ، فيخرج إليه يومئذٍ رجلٌ هو خير الناس، أو: من خير الناس» الحديث، وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أنَّ هذا الرجلَ هو الخضرُ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا في كتاب «الهواتف»[(٢)] بسند يوقفه إلى عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ أنَّه لَقِيَ الخضرَ وعلَّمه هذا الدعاء، وذكر أنَّ فيه ثواباً عظيماً ومغفرةً ورحمة لمن قاله في إثر كل صلاة، وهو: يا من لا يَشغله سمعٌ عن سمع، ويا من لا تَغلطه المسائل، ويا من لا يتبرَّم من إلحاح الملحِّين، أذقني بَرْد عفوك، وحلاوةَ مغفرتك.

وذكَر أيضاً عن عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الدعاء بعينه نحواً مما ذكر عن عليِّ ابنِ أبي طالب ﷺ في سماعِه من الخضر[(٣)]. وذكَر أيضاً اجتماعَ إلياس مع النبيِّ عليه الصلاة والسلام[(٤)]. وإذا جاز بقاءُ إلياس إلى عهد النبيِّ ﷺ جاز بقاءُ الخضر، وقد ذكَر أنَّهما يجتمعان عند البيت في كلِّ حول، وأنَّهما يقولان عند افتراقهما: ما شاء الله ما شاء الله، لا يَصرِف السوءَ إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمةٍ فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل[(٥)]. وأما خبر

---

(١) برقم (٢٩٣٨).

(٢) ص٥٢ ، وفي إسناده صالح بن أبي الأسود، قال عنه الذهبي: واهٍ.

(٣) الهواتف ص٥٧ .

(٤) الهواتف ص٧٨ - ٧٩ ، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٧ ، قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه. وسيأتي مطولاً في الصافات (١٢٣).

(٥) من قوله: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف... إلى هنا نقله من التعريف والإعلام ص١٠٧ .

إلياس فيأتي في «والصافات»[١] إن شاء الله تعالى. وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»[٢] عن عليٍّ ﷺ قال: لما توفي النبيُّ ﷺ وسُجِّي بثوب، هتف هاتفٌ من ناحية البيت يسمعون صوتَه ولا يرونَ شخصه: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته، السلامُ عليكم أهلَ البيت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥]، إنَّ في الله خَلَفاً من كلِّ هالك، وعِوضاً من كلِّ تالف، وعَزاء من كلِّ مصيبة، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإنَّ المصابَ من حُرِمَ الثوابَ. فكانوا يرون أنَّه الخضر عليه الصلاة والسلام، يعني: أصحاب النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

والألف واللام في قوله: «على الأرض»[٣] للعهد لا للجنس، وهي أرض العرب، بدليل تصرُّفهم فيها وإليها غالباً، دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمعَ اسمُه، ولا يُعلَم علمه. ولا جواب عن الدجَّال.

قال السهيليُّ[٤]: واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً، فعن ابنِ منبِّه أنَّه قال: إيليا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سمالجين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأنَّ أباه كان مَلِكاً، وأنَّ أُمَّه كانت بنت فارس واسمها ألها، وأنَّها ولدته في مغارة، وأنَّه وجد هنالك وشاة ترضعه في كلِّ يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربَّاه، فلما شَبَّ وطلب الملِكُ ـ أبوه ـ كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصُّحف التي أُنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممَّن أَقدم عليه من الكتَّاب ابنُه الخضرُ وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطَّه ومعرفته، وبحث عن جليَّة أمره، عرف أنَّه ابنُه، فضمَّه لنفسه، وولَّاه أمر الناس، ثم إنَّ الخضرَ فرَّ من الملك لأسباب يَطول ذكرها إلى أن وجد عينَ الحياة فشرب منها،

(١) عند الآية (١٢٣).

(٢) ٢/ ١٦٢ ، والمؤلف نقله عن ابن عبد البر بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) في قوله ﷺ: «أريتكم ليلتكم هذه...» الحديث المتقدم قريباً، والكلام من المفهم ٦/ ٤٩٠ .

(٤) في التعريف والإعلام ص١٠٣ - ١٠٤ ، وفيه: عمائيل، بدل: عاميل.

فهو حيٌّ إلى أن يَخرج الدجَّالُ، وأنَّه الرجلُ الذي يقتله الدجَّالُ ويقطعه، ثم يحييه اللهُ تعالى. وقيل: لم يدرك زمنَ النبيِّ ﷺ، وهذا لا يصحُّ. وقال البخاريُّ وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بنُ العربي رحمه الله تعالى: إنَّه مات قبل انقضاءِ المئة، من قوله عليه الصلاة والسلام: «إلى رأس مئة عام لا يَبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحدٌ»(١) يعني: من كان حيًّا حين قال هذه المقالة. قلت: قد ذكرنا هذا الحديثَ والكلامَ عليه، وبيَّنا حياةَ الخضر إلى الآن، والله أعلم.

الخامسة: قيل: إنَّ الخضرَ لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أَوصني. قال: كن بَسَّاماً ولا تكن ضَحَّاكاً، ودعِ اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِبْ على الخطَّائين خطاياهم، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قال ابن إسحاق(٣): وكان من خبر ذي القرنين أنَّه أُوتيَ ما لم يؤتَ غيرُه، فمدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارقِ الأرض ومغاربِها، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخَلْق. قال ابن

(١) سلف تخريجه قريباً.
(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠ ، والتعريف والإعلام ص١٠٦ .
(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

إسحاق: حدَّثني من يسوق الأحاديثَ عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أنَّ ذا القرنين كان من أهل مصر، اسمه مَرْزبان بنُ مَرْدبة اليونانيُّ من ولد يونان بنِ يافث بنِ نوح[١].

قال ابنُ هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندريَّة فنُسبت إليه. قال ابن إسحاق: وقد حدَّثني ثورُ بنُ يزيد، عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعيِّ ـ وكان خالدٌ رجلاً قد أدرك الناس ـ أنَّ رسول الله ﷺ سُئلَ عن ذي القرنين فقال: «مَلِكٌ مسح الأرضَ من تحتها بالأسباب». وقال خالد: وسمع عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهمَّ غفْراً، أما رضيتم أن تُسمُّوا بأسماء الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟![٢] قال ابنُ إسحاق: فالله أَعلم أي ذلك كان؟ أقال رسولُ الله ﷺ ذلك أم لا؟ والحقُّ ما قال.

قلت: وقد روي عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ مثلَ عمر، سمع رجلاً يدعو آخَرَ: يا ذا القرنين، فقال عليٌّ: أما كفاكم أن تسمَّيتم بأسماءِ الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟! وعنه: أنه عَبْد مِلك ـ بكسر اللام ـ صالح، نصح اللهَ فأيَّده[٣]. وقيل: هو نبيٌّ مبعوثٌ فتح الله تعالى على يدَيْه الأرض. وذكر الدارقطنيُّ في كتاب «الأخبار» أن مَلَكاً يقال له: رباقيل كان ينزل على ذي القرنين، وذلك المَلَك هو الذي يطوي الأرضَ يوم القيامة وينقضها، فتقع أقدامُ الخلائقِ كلِّهم بالساهرة، فيما ذكر بعضُ أهل العلم.

وقال السهيليُّ: وهذا مشاكل بتوكيله بذي القرنين الذي قَطَع الأرضَ مشارقَها ومغاربَها، كما أنَّ قصةَ خالد بنِ سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال المَلَك الموكَّل بها، وهو مالِكٌ عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٩ - ٣٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥)، وفيهما أن اسمه: مرزبا بن مردبه.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥) و(٩٨٦).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ .

ذكر ابنُ أبي خَيْثَمة في كتاب «البدء» له خالدَ بنَ سِنان العبسيَّ، وذكر نبوَّته، وذكر أنَّه وُكِّلَ به من الملائكة مالكٌ خازن النار، وكان من أعلام نبوَّته أنَّ ناراً يقال لها: نار الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارةٍ فتأكلُ الناسَ ولا يستطيعون ردَّها، فردَّها خالدُ بن سنان فلم تَخرُج بعد[١].

واختلف في اسم ذي القرنين، وفي السبب الذي سُمِّيَ به بذلك اختلافاً كثيراً:

فأمَّا اسمه فقيل: هو الإسكندر المَلِك اليوناني المقدوني، وقد تُشدَّد قافُه فيقال: المقّدوني[٢]. وقيل: اسمه هرمس. ويقال: اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بنُ ذي يزن الحِميريُّ من ولد وائل بنِ حمير[٣]، وقد تقدَّم قولُ ابنِ إسحاق. وقال وهب بن منبِّه: هو روميٌّ. وذكر الطبريُّ حديثاً عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّ ذا القرنين شابٌّ من الروم. وهو حديثٌ واهي السَّند، قاله ابن عطيَّة[٤]. قال السُّهيليُّ[٥]: والظاهر من عِلْم الأخبار أنَّهما اثنان: أحدهما: كان على عهد إبراهيمَ عليه السلام، ويقال: إنَّه الذي قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنَّه كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام. وقيل: إنَّه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان.

وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقيل: إنه كان ذا ضفيرتين من شَعَر فسمِّي بهما، ذكره الثعلبيُّ وغيره[٦]. والضفائر: قرون الرأس، ومنه قول الشاعر[٧]:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٢٩٨ (١١٧٩٣)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٩-٦٠٠ عن ابن عباس، قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ .

(٣) التعريف والإعلام ص١٠٨ ، وفيه: من ولد وائل بن حمير.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ ، والخبر عند الطبري ١٥/ ٣٩٠ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٨ ، وجاء فيه: بيوراسف بن أندراسف.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ ، وعرائس المجالس ص٣٦٢ .

(٧) القائل عمر بن أبي ربيعة، والبيت في ديوانه ص٤٣ .

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخذاً بِقُرُونِها   شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقيل: إنَّه رأى في أوَّل ملْكه كأنَّه قابضٌ على قرني الشمس، فقصَّ ذلك، ففسِّر أنَّه سيغلِب ما ذرت عليه الشمسُ، فسمِّي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنَّما سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه بلغ المغربَ والمشرقَ، فكأنَّه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنَّه لما بلغ مطلعَ الشمس كشف بالرؤية قرونَها، فسمِّي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها. وقال وهب بن منبِّه: كان له قرنان تحت عمامته[١].

وسأل ابنُ الكَوَّاء علياً ﷺ عن ذي القرنين أنبيًّا كان أم ملِكاً؟ فقال: لاذا ولاذا، كان عبداً صالحاً، دعا قومه إلى الله تعالى، فشجُّوه على قرنه، ثم دعاهم، فشجُّوه على قرنه الآخرَ، فسمِّي ذا القرنين[٢].

واختلفوا أيضاً في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفَتْرة بعد عيسى. وقيل: كان في وقتِ إبراهيم وإسماعيل، وكان الخضر عليه السلام صاحبَ لوائه الأعظم، وقد ذكرناه في «البقرة»[٣]. وبالجملة فإنَّ اللهَ تعالى مكَّنه وملَّكه ودانت له الملوك، فرُوي أنَّ جميعَ ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وإسكندر، والكافران: نمروذ وبختنصر[٤]، وسيملكها من هذه الأمة خامسٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهو المهديُّ. وقد قيل: إنَّما سُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنَّه كان كريمَ الطرفين من أهل بيت شريف من قِبَل أبيه وأمِّه. وقيل: لأنَّه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيٌّ. وقيل: لأنَّه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً. وقيل: لأنَّه أُعطيَ عِلْم الظاهر والباطن. وقيل: لأنَّه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنَّه مَلَك فارس والروم[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٣٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٧٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٠) بنحوه.

(٣) ٤/٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/٥٣٨ ، وذكر الخبر أبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٠ ونسبه إلى مجاهد.

(٥) عرائس المجالس ص٣٦٢ -٣٦٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٨٣ - ١٨٤ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال عليٌّ ﷺ: سخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له في النور، فكان الليلُ والنهارُ عليه سواء[١]. و في حديث عقبة بنِ عامر أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال: «إنَّ أوَّلَ أمره كان غلاماً من الروم فأُعطي ملكاً، فسار حتى أتى أرضَ مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرَها. فقال له الملَك: تلك الأرض كلُّها وهذا السواد الذي تراه محيطاً بها هو البحر، وإنَّما أراد اللهُ تعالى أن يُريَك الأرضَ، وقد جعل لك سلطاناً فيها، فَسِرْ في الأرض فعلِّم الجاهلَ وثبِّت العالم» الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شيء علماً يتسبَّب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد[٣]. وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخَلْق. وقيل: من كلِّ شيء يستعين به الملوك، من فَتْح المدائن وقهر الأعداء[٤]. وأصل السبب: الحبل، فاستعير لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء[٥].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «فَأَتْبَعَ سَبَباً» مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «فَاتَّبَعَ سَبَباً» بوَصْلها[٦]، أي: اتَّبع سبباً من الأسباب التي أوتيها. قال الأخفش: تَبعته وأَتبعته بمعنى، مثل ردِفته وأَردفته[٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] ومنه الإتباع في

---

(١) الوسيط ٣/ ١٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٨ ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٦٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٨ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٥/ ٣٧١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٥ .

(٦) السبعة ص٣٩٧ - ٣٩٨ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٧) الصحاح (تبع).

الكلام، مثل حَسَنٌ بَسَنٌ، وقَبِيح شَقِيح. قال النحَّاس(١): واختار أبو عبيد قراءةَ أهلِ الكوفة قال: لأنَّها من السَّيْر، وحكى هو والأَصْمَعيُّ أنَّه يقال: تَبِعه واتَّبعه، إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومثله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. قال النحَّاس(٢): وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه، لا يُقبَل إلا بعلَّة أو دليل. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ ليس في الحديث أنَّهم لحقوهم، وإنَّما الحديث: لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر، وحصَّل فرعونَ وأصحابَه، انطبق عليهم البحرُ. والحقُّ في هذا أن تبعَ واتَّبع وأَتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحاق، وألَّا يكون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «حامِيةٍ» أي: حارَّة. الباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء(٣)، تقول: حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً ـ بالتسكين ـ إذا نزعت حَمْأتها. وحَمِئت البئرُ حَمَأً ـ بالتحريك ـ كثرت حَمْأتها. ويجوز أن تكون: «حامِيةٍ» من الحمأة، فخفِّفت الهمزة وقُلبت ياء. وقد يُجمَع بين القراءتين فيقال: كانت حارَّة وذات حَمْأة(٤). وقال عبد الله بنُ عمرو: نظر النبيُّ ﷺ إلى الشمس حيث غَربت، فقال: «نارُ اللهِ الحاميةُ، لولا ما يَزَعُها من أَمْرِ الله لأَحرقت ما على الأرض»(٥). وقال ابن عباس: أَقْرَأَنِيْها أُبَيٌّ كما أَقرأه رسولُ الله ﷺ: «في عين حَمِئَة»(٦)، وقال معاوية: هي «حامية»، فقال عبد الله بنُ عمرو بنِ العاص: فأَنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حَكَماً

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٣) السبعة ص٣٩٨، والتيسير ص١٤٥، وحجة القراءات ٥/ ١٦٩ - ١٧٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨.

(٥) أخرجه أحمد (٦٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٣١: رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٨٦)، والترمذي (٢٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨.

وقالوا: يا كعبُ كيف تَجِدُ هذا في التوراة؟ فقال: أَجدها: تغرب في عين سوداء، فوافق ابنَ عباس[١]. وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيُّ:

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً ... مَلِكاً تدينُ له الملوك وتَسْجُدُ

بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يَبتغي ... أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ

فرأى مغِيبَ الشَّمسِ عند غروبِها ... في عينِ ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حِرْمَدِ

الخُلُب: الطين. والثأْط: الحمأة. والحِرْمِد: الأسود[٢].

وقال القفَّال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنَّه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جِرْمها ومسِّها؛ لأنَّها تدور مع السماء حولَ الأرض من غير أن تلتصقَ بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفةً، بل المراد أنَّه انتهى إلى آخِر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عينٍ حمئة، كما أنَّا نشاهدها في الأرض الملساء كأنَّها تدخل في الأرض، ولهذا قال: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً» ولم يُرد أنَّها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنَّهم أولُ من تطلع عليهم.

وقال القتبيُّ: ويجوز أن تكون هذه العينُ من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءَها أو معها أو عندها، فيقام حرفُ الصفة مقامَ صاحبه، والله أعلم.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جَابَرْس، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا، يسكنها قومٌ من نسلِ ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح، ذكره السُّهيليُّ[٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١١، والطبري ١٥/ ٣٧٥، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٤ - ١٦٥، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٦٦.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٧، وعرائس المجالس ص٣٦٦.

(٣) في التعريف والإعلام ص١٠٨.

وقال وهب بن منبِّه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إنِّي باعثك إلى أمم الأرض وهم أُمم مختلفةٌ ألسنتهم، وهم أُمم جميع الأرض، وهم أصناف: أُمَّتان بينهما طول الأرض كله، وأُمَّتان بينهما عَرْض الأرض كلّه، وأُمم في وسط الأرض منهم الجنُّ والإنسُ ويأجوج ومأجوج، فأمَّا اللتان بينهما طولُ الأرض فأمَّة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأمَّا الأُخرى فعند مطلعها ويقال لها: منسك. وأمَّا اللتان بينهما عَرْض الأرض، فأمَّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، وأمَّا الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. فقال ذو القرنين: إلهي! قد ندبتني لأمرٍ عظيم لا يَقدر قَدْره إلا أنت، فأَخبرني عن هذه الأُمم بأي قوَّة أُكاثرهم؟ وبأي صبر أُقاسيهم؟ وبأي لسان أُناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوَّة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك[1] بما حملتك، أشرحُ لك صدرَك فتسمع كلَّ شيء، وأثبت لك فهمَك فتفقه كلَّ شيء، وأُلبسك الهيبةَ فلا يروعك شيء، وأُسخِّر لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك، يهديك النورُ من أمامك، وتحفظك الظلمةُ من ورائك.

فلما قيل له ذلك، سار بمن اتَّبعه، فانطلق إلى الأمَّة التي عند مغرب الشمس؛ لأنَّها كانت أقربَ الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعاً لا يحصيها إلا الله تعالى، وقوَّة وبأساً لا يطيقه إلا الله، وأَلسنة مختلفة، وأهواءً مُتشتِّتة، فكاثرهم بالظُّلمة، فضرب حولهم ثلاثَ عساكر من جند الظلمة قَدْر ما أحاط بهم من كلِّ مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليه بالنور، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر وصدَّ عنه، فأدخل على الذين تَولَّوا الظلمةَ، فغشيتهم من كلِّ مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفِهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كلِّ مكان، فتحيَّروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجُّوا[2] إلى الله تعالى بصوت

(١) في عرائس المجالس ص٣٦٥ : سأطوقك. والكلام منه.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٦٦ : ضجوا. والكلام منه.

واحد: إنَّا آمنا، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوةً، ودخلوا في دعوته، فجنَّد من أهل المغرب أمماً عظيمة، فجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه مِن خلفه، والنور أمامَهم يقودُه ويدلُّه، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمَّةَ التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخَّر الله تعالى يدَه وقلبه وعقله ونظره فلا يُخطئ إذا عمل عملاً، فإذا أتوا مخاضة أو بحراً، بنى سفناً من ألواح صغار مثل النعال، فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميعَ من معه من تلك الأمم، فإذا قطعَ البحار والأنهار، فتَقَها ودفع إلى كلِّ رجل لوحاً، فلا يكترث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفَعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشَهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأُخرى حتى انتهى إلى منسك عند مَطْلع الشمس، فعمل فيها وجنَّد منها جنوداً كفعله في الأُولى، ثم كَرَّ مقبلاً حتى أخذ ناحيةَ الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمَّة التي تقابل هاويل بينهما عَرْض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها.

ثم عطَف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجنِّ والإنس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع التُّرك من المشرق، قالت له أمَّة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إنَّ بين هذين الجبلين خَلْقاً من خَلْق الله تعالى كثيراً ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشبَ، ويفترسون الدوابَّ والوحش كما تفترسها السباع، ويأكلون حشراتِ الأرض كلها من الحيَّات والعقارب والوزغ وكلِّ ذي روح مما خَلَق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خَلْق ينمو نماءَهم في العام الواحد، فإن طالت المدَّة فسيملؤون الأرضَ، ويُجلون أهلها، فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ وذكر الحديث(١)، وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوعٌ منهم ما فيه كفاية.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٦٤ - ٣٦٨، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠ - ٣٩٨، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال القشيريُّ أبو نصر: إن كان نبيًّا فهو وحيٌّ، وإن لم يكن نبيًّا فهو إلهام من الله تعالى.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قال إبراهيم بن السريّ[١]: خَيَّره بين هذين، كما خيَّر محمَّداً ﷺ فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] ونحوه.

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: المعنى أنَّ اللهَ تعالى خيَّره بين هذين الحكمين.

قال النحَّاس[٢]: وردَّ عليُّ بنُ سليمان عليه قولَه؛ لأنَّه لم يصحَّ أنَّ ذا القرنين نبيٌّ فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربِّه عزَّ وجلَّ: «ثم يُردُّ إلى ربِّه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذِّبه» فيخاطب بالنون؟ قال: التقدير: قلنا يا محمَّد، قالوا: يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحَّاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيءٌ. أمَّا قوله: «قلنا يا ذا القرنين» فيجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ خاطبه على لسان نبيٍّ في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيِّه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأمَّا إشكال: «فسوف نعذِّبه ثم يردُّ إلى ربِّهِ» فإنَّ تقديرَه أنَّ الله تعالى لما خَيَّره بين القَتْل في قوله: «إمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» وبين الاستبقاء في قوله جلَّ وعزَّ: «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» قال لأولئك القوم: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: أقام على الكُفْر منكم: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تاب من الكفر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال أحمد بن يحيى: «أن» في موضع نصب في «إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً» قال: ولو رُفعت كان صواباً، بمعنى: فإمَّا هو، كما قال:

فسِيْرا فإمَّا حاجةٌ تقضيانها وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ[٣]

(١) وهو أبو إسحاق الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩، وما بعده منه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ - ٤٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٨، وتفسير الطبري ١٦/ ١٠٩، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤١٦.

﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: «فَلَهُ جَزاءُ الْحُسْنَى» بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و«الحسنى» في موضع خفض بالإضافة، ويحذف التنوين للإضافة[1]، أي: له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وفي الجنة، فأضاف الجزاءَ إلى الجنَّة، كقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف:١٠٩]، قاله الفرَّاء[2]. ويحتمل أن يريد: بـ«الحسنى» الأعمال الصالحة. ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، أي: أُعطيه وأتفضَّل عليه.

ويجوز أن يحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون «الحسنى» في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابنِ أبي إسحاق: «فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى» إلا أنَّك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين: «فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى» منصوباً منوَّناً، أي: فله الحسنى جزاءً. قال الفرَّاء: «جزاءً» منصوب على التمييز. وقيل: على المصدر، وقال الزجَّاج: هو مصدر في موضع الحال، أي: مجزياً بها جزاء[3].

وقرأ ابنُ عباس ومسروق: «فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى» منصوباً غيرَ منوَّن. وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، مثل «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» في أحد الوجهين. النحَّاس[4]: وهذا عند غيره خطأ؛ لأنه ليس موضعَ حذف تنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره: فله الثواب جزاءَ الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تقدَّم معناه أنَّ أتبع واتَّبع بمعنًى، أي: سلك طريقاً ومنازل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن: بفتح الميم

---

(١) السبعة ص٣٩٨، والتيسير ص١٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٥٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٥٩، وكلام الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ - ٤٧٢، وما قبله منه.

واللام[١]، يقال: طَلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعاً ومَطْلَعاً. والمطلَع والمطلِع أيضاً: موضع طلوعها، قاله الجوهريُّ[٢]. المعنى أنَّه انتهى إلى موضعِ قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحدٌ من الناس، والشمس تَطلعُ وراءَ ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

وقد اختلف فيهم، فعن وهب بن منبِّه ما تقدَّم، وأنَّها أُمَّةٌ يقال لها: منسك، وهي مقابلة ناسك، وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لها: الزنج[٣]. وقال الكلبيُّ: هم تارس وهاويل ومنسك، حفاة عراة عماة عن الحقّ[٤]، يتسافدون مثلَ الكلاب، ويتهارجون تهارجَ الحمر.

وقيل: هم أهل جَابَلْق، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لهم بالسريانية: مرقيسا. والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس، ولكلٍّ واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كلِّ بابين فرسخ، ووراء جَابَلْق أُمم، وهم: تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، مرَّ بهم ليلةَ الإسراء، فدعاهم فأجابوه، ودعا الأُمم الآخَرين فلم يجيبوه، ذكره السهيليُّ[٥] وقال: اختصرت هذا كلَّه من حديثٍ طويل رواه مقاتل بنُ حيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ. ورواه الطبريُّ مسنداً إلى مقاتل يرفعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجاباً يَستترون منها عند طلوعها. قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقرُّ عليه بناء، وهم

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٨٧ ، والبحر المحيط ٦/ ١٦١ .

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٢ ، والطبري ١٥/ ٣٨٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٦٧ ، والوسيط ٣/ ١٦٥ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٩ ، والخبر أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٧٥ .

يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثِهم[١]، يعني: لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنُّهم منها.

وقال أميَّة: وجدتُ رجالاً بسمرقند يحدِّثون الناسَ، فقال بعضهم: خرجتُ حتى جاوزتُ الصينَ، فقيل لي: إنَّ بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرتُ رجلاً يرينيهم حتى صبَّحتهم، فوجدتُ أحدَهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يُحسِن كلامَهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيمَ جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر كيف تَطلعُ الشمس، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصَّلصلة، فغشيَ عليَّ، ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت أَدخلوني سرباً لهم، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم، خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج[٢].

وقال ابنُ جريج: جاءهم جيش مرَّة، فقال لهم أهلُها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرحُ حتى تَطلُع الشمس. ثم قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيشٍ طلعت عليهم الشمس هاهنا، فماتوا. قال: فولَّوا هاربين في الأرض[٣].

وقال الحسن: كانت أرضُهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعَون كما تتراعى البهائم[٤].

قلت: وهذه الأقوال تدلُّ على أن لا مدينة هناك، والله أعلم. وربما يكون منهم من يدخل في النهر، ومنهم من يدخل في السّرب، فلا تناقضَ بين قولِ الحسن وقتادة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينيَّة وأذْرَبيجان. روى عطاء الخراساني عن ابنِ عباس: «بين السدين»: الجبلين: أرمينيَّة وأذْرَبيجان[1]. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يُفْقِهُونَ» بضمِّ الياء، وكسر القاف، من أفقه: إذا أبان، أي: لا يُفقِهون غيرَهم كلاماً. الباقون: بفتح الياء والقاف، أي: يَعلمون[2]. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يَفقهون من غيرهم ولا يُفقِهون غيرَهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: قالت له أُمَّة من الإنس صالحة: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال الأخفش[3]: من همز «يأجوج» فجعل الألِفين من الأصل يقول: يأجوج: يَفْعول، ومأجوج: مَفْعول؛ كأنَّه من أجيج النار. قال: ومن لا يهمز، ويجعل الأَلِفين زائدتين يقول: «ياجوج» من يَجَجت، وماجوج من مَجَجت. وهما غير مصروفين، قال رؤبة:

لـو أن يـاجـوجَ ومـاجـوجَ مَـعَـا   وَعَـادَ عَـادٌ واسـتـجـاشـوا تُـبَّـعَـا

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٧.

(٢) السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٥، والطبري ١٥/ ٣٨٧.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢١.

ذكره الجوهريُّ[١].

وقيل: إنَّما لم ينصرفا؛ لأنَّهما اسمان أعجميَّان، مثل: طالوت وجالوت، غير مشتقين، علَّتاهما في مَنْع الصَّرْف: العُجمة والتعريف والتأنيث. وقالت فرقةٌ: هو معرَّب، من أَجَّ وَأَجَجَ، علَّتاه في مَنْع الصَّرْف: التعريفُ والتأنيث[٢].

وقال أبو عليٍّ[٣]: يجوز أن يكونا عربيَّين، فمن همز «يأجوج» فهو على وزن يَفْعُول، مثل يَربوع، من قولك: أَجَّت النارُ، أي: ضويت، ومنه: الأَجيج، ومنه: ملح أُجاج، ومن لم يهمز، أمكن أن يكون خفَّف الهمزة، فقلبها ألفاً، مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مَفْعول، من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق، ومن لم يَهمز، فيجوز أن يكون خفَّف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولاً مِن مَجَّ، وترك الصرف فيهما؛ للتأنيث والتعريف، كأنَّه اسم للقبيلة.

واختلف في إفسادهم: سعيد بن عبد العزيز: إفسادُهم أَكْل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنَّما كان متوقَّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرُّز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظُّلْم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر[٤]، والله أعلم.

وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنَّهم ولد يافث. روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «وُلد لنوح سامٌ وحامٌ ويافثُ، فولد سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، والخير فيهم، وولد يافثٌ يأجوجَ ومأجوجَ والتركَ والصقالبةَ، ولا خيرَ فيهم، وولد حامٌ القبطَ والبربر والسودان»[٥].

---

(١) في الصحاح (أجج)، والبيت في ديوان رؤبة ص٩٢ ، ورواية الشطر الأول هكذا:

والنـاس أحـلافـاً عـلـيـنـا شـيـعـا

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٣) في الحجة ٥/ ١٧٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والغَشْم: الظلم والغصب. لسان العرب (غشم).

(٥) أخرجه البزار (٢١٨ كشف الأستار) وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا =

وقال كعب الأحبار: احتلم آدمُ عليه السلام، فاختلط ماؤه بالتراب، فأسِفَ، فخلقوا من ذلك الماء، فهم متَّصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأمّ[١]. وهذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ الأنبياءَ ـ صلوات الله عليهم ـ لا يحتلمون[٢]، وإنَّما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره[٣].

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يموت رجل منهم حتى يُولَد لصلبه ألفُ رجل»[٤]. يعني: يأجوج ومأجوج.

وقال أبو سعيد: هم خمس وعشرون قبيلةً من وراء يأجوج ومأجوج، لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يَخرُج من صلبه ألفُ رجل، ذكره القشيريُّ.

وقال عبد الله بن مسعود: سَألتُ النبيَّ ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: «يأجوج ومأجوج أُمَّتان، كلُّ أمَّة أربع مئة ألف أمة[٥]، كلُّ أمَّة لا يَعلم عددَها إلا اللهُ، لا يموت الرجل منهم حتى يُولَد له ألفُ ذَكَر من صُلْبه، كلُّهم قد حمل السلاح» قيل: يا رسولَ اللهَ صِفْهم لنا. قال: «هم ثلاثةُ أصناف، صِنْف منهم أمثال الأَرْز ـ شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومئة ذراع ـ وصِنْف عرضه وطوله

= الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد. اهـ
وأخرجه أحمد في العلل ٣/ ٣٥ ، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٢ - ٤٣ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.

(١) الوسيط ٣/ ١٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٨١ ، والتذكرة ص٦٩٦ .

(٢) أخرج الطبراني في الكبير ١١/ ٢٢٥ (١١٥٦٤) وفي الأوسط (٨٠٥٨)، عن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، إنما الاحتلام من الشيطان. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٦٧ : رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٥٩ عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) التذكرة ص٦٩٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠ .

(٥) ليست في (د) و(ز).

سواء، نحواً من الذراع، وصِنْف يفترش أُذُنه ويَلتحف بالأُخرى، لا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم، مُقدِّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يَشربون أنهارَ الشرق وبحيرة طبريَّة، فيمنعهم الله من مكَّة والمدينة وبيت المقدس»[١].

وقال عليٌّ ﷺ: وصِنْف منهم في طول شِبْر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحَمام، وتسافد البهائم، وعُواء الذِّئاب، وشعور تَقِيْهم الحرَّ والبرد، وآذان عِظام، إحداها وَبرة يشتون فيها، والأُخرى جلدة يصيفون فيها[٢]، يحفرون السَّدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيُعيده الله كما كان، فيقولون: ننقبه غداً إن شاء الله تعالى، فينقبونه ويَخرجون، ويتحصَّن الناس بالحصون، فيَرمون إلى السماء فيُردُّ السهم عليهم ملطَّخاً بالدم، ثم يُهلكهم الله تعالى بالنَّغَف[٣] في رقابهم. ذكره الغزنويُّ.

وقال عليٌّ عن النبيِّ ﷺ: «يأجوج أُمَّة لها أربع مئة أمير، وكذا مأجوج لا يَموت أحدُهم حتى يَنظُر إلى ألف فارس من ولده»[٤].

قلت: وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة، خرَّجه ابن ماجه في «السنن» قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفرون كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيُعيده اللهُ أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتهم، وأراد الله تعالى أن يَبعثهم على الناس، حفَروا، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، فاستثنوا، فيَعودون إليه وهو كهيئتِه حين تركوه، فيحفرونه ويَخرجون على الناس فيَنْشِفون الماء،

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠ - ٤٠١ موقوفاً مختصراً، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٨٦٧) عن حذيفة بن اليمان ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٦ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

(٢) التذكرة ص٦٩٦ .

(٣) النَّغَف: دود يكون في أنوف البعير والغنم. النهاية (نغف).

(٤) التذكرة ص٦٩٤ .

ويتحصَّن الناسُ منهم في حصونهم، فيَرْمُون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدمُ الذي اجْفَظَّ(١) فيقولون: قَهرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهلَ السماء، فيبعث الله تعالى عليهم نغَفاً في أقفائهم فيقتلهم بها» قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ دوابَّ الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكَراً من لحومهم»(٢). قال الجوهريُّ(٣): شَكِرت الناقةُ تَشكَر شَكَراً فهي شكِرة، وأشكر الضرع: امتلأ لبناً.

وقال وهب بن منبِّه: رآهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منَّا، لهم مخاليب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأحناك كأحناك الإبل، وهم هُلْبٌ، عليهم من الشعر ما يُواريهم، ولكلٍّ واحد منهم أُذُنان عظيمتان، يَلتحِف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أَجَلَه، لا يَموتُ حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكراً، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى(٤). وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك: الترك: شِرْذمة من يأجوج ومأجوج خرَجت تُغِيرُ، فجاء ذو القرنين فضرب السَّدَّ، فبقيت في هذا الجانب(٥). قال السُّدِّيُّ: بُني السَّدُّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلةٌ واحدة دون السَّدِّ، فهم التُّرك. وقاله قتادة.

---

(١) في النسخ: أحفظ. وكذا في شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٥١٧ حيث قال: لعل هذا من كلام الراوي بتقدير: هذا الذي أحفظه. اهـ. والمثبت من سنن ابن ماجه (٤٠٨٠) وشرحه مصباح الزجاجة ٢/ ٢٠١ . قال السيوطي في شرحه على سنن ابن ماجه ١/ ٢٩٩ : الذي اجْفَظَّ: أي ملأها، أي: ترجع السهم عليهم حال كون الدم محفوفاً وممتلئاً عليها، فكأن قوله: عليها الدم اجفظَّ: جملة حالية من قوله: فترجع. فلفظ: جفظ، من باب احمرَّ من الجفظ. وفي القاموس (جفظ): الجفيظ: المقتول المنتفخ، والجَفْظ: الملء.

(٢) ابن ماجه (٤٠٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٦٣٢)، والترمذي (٣١٥٣)، والحاكم ٤/ ٤٨٨ ، قال الترمذي: حديث حسن غريب وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٣) في الصحاح (شكر)، وفيه: واشتكر الضرع، بدل: وأشكر الضرع.

(٤) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٥) زاد المسير ٥/ ١٩٠ .

قلت: وإذا كان هذا، فقد نعت النبيُّ ﷺ التُّركَ كما نعت يأجوجَ ومأجوجَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون التُّركَ، قوماً وجوهُهم كالمجانّ المُطْرَقَة، يلبَسون الشَّعر ويمشون في الشّعر» في رواية: «ينتعلون الشَّعر» خرَّجه مسلم وأبو داود وغيرهما[1].

ولما عَلِمَ النبيُّ ﷺ عددَهم وكثرتَهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم»[2]. وقد خرج منهم في هذا الوقت أُمم لا يُحصيهم إلا اللهُ تعالى، ولا يردُّهم عن المسلمين إلا اللهُ تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مُقدِّمتهم.

وروى أبو داود[3] عن أبي بَكْرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل ناس من أمَّتي بغائط يسمُّونه البصرة عند نهر، يقال له: دِجْلة، يكون عليه جِسْر، يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين» قال ابنُ يحيى: قال أبو معمر: «وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قنطوراء عِراض الوجوه، صغار الأعين،حتى ينزلوا على شاطئ النهر، فيتفرَّق أهلُها ثلاث فِرَق، فِرْقة يأخذون أذنابَ البقر والبرِّيَّة وهلكوا، وفِرْقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفِرْقة يجعلون ذراريهم خَلْف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء». الغائط: المُطمئنُّ من الأرض. والبصرة: الحجارة الرخوة، وبها سمِّيت البصرة. وبنو قنطوراء: هم التُّرك. يقال: إنَّ قنطوراء اسمُ جارية كانت لإبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولاداً جاء من نَسْلهم الترك[4].

---

(١) الرواية الأولى عند مسلم (٢٩١٢): (٦٥)، وأبي داود (٤٣٠٣)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٤ - ٤٥، وهي عند البخاري (٢٩٢٨)، وأحمد (٧٢٦٣) بنحوه، والثانية عند مسلم (٢٩١٢): (٦٣)، وأبي داود (٤٣٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٣ - ٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٧٦ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) في سننه برقم (٤٣٠٦).

(٤) معالم السنن ٦/ ١٦٨.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهام على جهة حُسْن الأدب[(١)]. «خَرْجاً»: أي: جُعْلاً. وقُرئ: «خراجاً»[(٢)] والخرج أخصُّ من الخراج. يقال: أدِّ خَرْج رأسك وخَرَاج مدينتك. وقال الأزهريُّ[(٣)]: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية، وعلى الغلَّة. والخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج: المصدر[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: ردماً، والرَّدم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتَّصل. وثوب مردَّم، أي: مرقَّع، قاله الهرويُّ[(٥)]. يقال: رَدَمْتُ الثُّلْمة أردِمها بالكسر ردماً، أي: سددتها. والردم أيضاً الاسم، وهو السَّدُّ[(٦)].

وقيل: الردم أَبلغ من السَّدِّ، إذ السَّدُّ: كلُّ ما يسدُّ به، والردم: وَضْع الشيء على الشيء، من حجارة أو تراب أو نحوه، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع. ومنه: ردَّم ثوبَه، إذا رقَعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنترة:

هــل غــادَر الــشــعــراءُ مــن مُــتَــرَدَّمِ

أي: من قول يُركَّب بعضه على بعض[(٧)].

وقُرئ: «سَدًّا»: بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه: الضَّمُّ هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضمُّ لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٤٠٠ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) في تهذيب اللغة ٧/ ٤٧ – ٥٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٣ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٦) الصحاح (ردم)، وفيه: تردَّم ثوبَه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والبيت في ديوان عنترة ص١٥ ، وتمامه: أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّم

عمرو بن العلاء وأبو عبيدة[١]: ما كان من خِلْقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّمِّ، وما كان من صُنْع البشر، فهو بالفتح. ويَلزم أهلَ هذه المقالة أن يقرؤوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله «بين السُّدَّيْنِ» بالضَّمِّ، وهي قراءة حمزة والكسائيّ[٢]. وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكسَ ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عيناك فهو سُدٌّ، بالضمِّ، وما لا ترى فهو سَدٌّ، بالفتح.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على اتِّخاذ السجون، وحبس أهلِ الفساد فيها، ومنعهم من التصرُّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القُدْرة والملك خيرٌ من خَرْجكم وأموالكم، ولكن أَعينوني بقوَّة الأبدان، أي: برجال وعمل منكم بالأبدان[٣]، والآلة التي أَبني بها الردمَ، وهو السَّدُّ. وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة، فإنَّ القومَ لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحدٌ ولَوَكَلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربَّما أربى ما ذكروه له على الخرج.

وقرأ ابن كثير وحده: «مَا مَكَّنَنِي» بنونين، وقرأ الباقون: «مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي»[٤].

الثانية: في هذه الآية دليل على أنَّ الملِك فرضٌ عليه أن يقوم بحماية الخَلْق في

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما قبله منه، وقرأ بالفتح حمزة والكسائي. السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٦.

(٢) السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٥، وحجة القراءات للفارسي ٥/ ١٧١، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما بعده منه أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢.

(٤) السبعة ص٤٠٠، والتيسير ص١٤٦.

حفظ بيضتهم، وسدِّ فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، لكان عليهم جَبْرُ ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يسوِّي في العطاء بينهم على قَدْر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صُفْراً فأطلعتِ الحوادثُ أمراً، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغْنِ ذلك فأموالهم تُؤخَذ منهم على تقدير، وتُصْرَف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكفَّ عنهم ما يَحذرونه من عاديَة يأجوج ومأجوج، قال: لستُ أحتاج إليه، وإنَّما أحتاج إليكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإنَّ الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أنَّ الأموالَ لا تغني عنهم، فإنَّه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوُّع بخدمة الأبدان أولى. وضابط الأمر أنَّه لا يحلُّ مالُ أحدٍ إلا لضرورة تَعرِض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سرًّا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر، والله تعالى الموفِّق للصواب[١].

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني زُبَر الحديد وناولونيها. أمرَهم بنقل الآلة، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاء العطيَّة التي بغير معنى الهبة، وإنَّما هو استدعاء للمناولة؛ لأنَّه قد ارتبط من قوله: إنَّه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبقَ إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان[٢].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٦ .
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

و«زُبَرَ الْحَدِيدِ»: قِطَع الحديد. وأصل الكلمة: الاجتماع، ومنه: زُبْرة الأسد؛ لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرتُ الكتابَ، أي: كتبته وجمعت حروفه[١].

وقرأ أبو بكر والمفضَّل: «ردماً ايتوني»[٢] من الإتيان الذي هو المجيء، أي: جيئوني بزُبَر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل، على نحو قول الشاعر:

أَمَـرْتُـكَ الـخـيـرَ . . .

حذف الجار فنصب الفعل[٣]. وقرأ الجمهور: «زُبَرَ» بفتح الباء. وقرأ الحسن: بضمِّها، وكلٌّ ذلك جمع زُبْرة، وهي القطعة العظيمة منه[٤].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ يعني: البناء، فحذف لقوَّة الكلام عليه. ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة[٥]: هما جانبا الجبل، وسُمِّيا بذلك؛ لتصادفهما، أي: لتلاقيهما. وقاله الهرويُّ[٦] وابن عباس[٧]، كأنَّه يُعرِض عن الآخر، من الصدوف، قال الشاعر:

كـلَا الـصَّـدَفَـيـن يَـنْـفُـذُه سَـنَـاهَـا تَـوقَّـد مـثـلَ مِـصـبـاحِ الـظَّـلامِ[٨]

ويقال للبناء المرتفع: صدف، تشبيه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مرَّ

---

(١) تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٦ - ١٩٨ ، والصحاح (زبر).

(٢) قراءة أبي بكر في السبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، والبيت لعمرو بن معديكرب وهو في ديوانه ص٣٥ ، وسلف ٤/ ١٢٣ وهو بتمامه:

أمرتك الخير فاصنع ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، والقراءة في البحر المحيط ٦/ ١٦٤ .

(٥) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤ .

(٦) في (ز) و(د) و(ف): الزهري، والمثبت من (ظ) وزاد المسير ٥/ ١٩٣ ، والكلام في تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٦ .

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٠٦ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٤٣ ونسبه لعمرو بن شاش.

بصدف مائل أَسرع المشيَ. قال أبو عبيد[١]: الصدف والهدف: كلُّ بناء عظيم مرتفع.

ابن عطيَّة: الصَّدَفان: الجبلان المتناوِحان[٢]، ولا يقال للواحد: صَدف، وإنَّما يقال: صَدَفان، للاثنين؛ لأنَّ أحدَهما يصادف الآخَرَ. وقرأ نافع وحمزة والكسائيُّ: «الصَّدَفَيْنِ»: بفتح الصاد وشدِّها وفتح الدال، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطاب ﷺ وعمر ابن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة؛ لأنَّها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «الصُّدُفين»: بضمِّ الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «الصُّدْفَيْنِ»: بضمِّ الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف. فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون: بفتح الصاد وضمِّ الدال. وقرأ قتادة: «بين الصَّدْفَين» بفتح الصاد وسكون الدال، وكلُّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجبلان المتناوِحان[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ إلى آخر الآية، أي: على زُبَر الحديد بالأكيار، وذلك أنَّه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبُر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تَحمى، والحديد إذا أُوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً» ثم يُؤتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسَب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتدَّ ولصق البعض بالبعض، استأنف وَضْع طاقةٍ أُخرى، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صَلْداً[٤].

قال قتادة: هو كالبُرْد المحبَّر، طريقةٌ سوداءُ، وطريقةٌ حمراءُ[٥].

ويُروى أنَّ رسولَ الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله! إنِّي رأيت سَدَّ يأجوج

---

(١) في غريب الحديث ١/ ٧٧ - ٧٨ ، وما قبله منه، والحديث أورده ابن الأثير في النهاية (صدف).

(٢) التناوح: التقابل. القاموس (نوح)، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، وينظر مجاز القرآن ١/ ٤١٤ ، والسبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٦٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٢ .

ومأجوج، قال: «كيف رأيته» قال: رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: «قد رأيته»[(١)].

ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار. ومعنى ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: أعطوني قِطْراً أُفرغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ: «ائتوني» فالمعنى عنده: تعالوا أُفرغ عليه نحاساً.

والقِطْر عند أكثر المفسرين: النحاس المذاب[(٢)]، وأصله من القَطْر؛ لأنَّه إذا أُذيب، قَطَرَ كما يقطر الماء. وقالت فرقة: القِطْر: الحديد المذاب[(٣)]. وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتقٌّ من قَطَر يَقطُر قَطْراً[(٤)]. ومنه: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يَعلُوه ويَصعدوا فيه؛ لأنَّه أملسُ مستوٍ مع الجبل، والجبل عالٍ لا يُرام[(٥)]. وارتفاع السَّدِّ مئتا ذِراع وخمسون ذِراعاً[(٦)]. روي في طوله ما بين طَرَفي الجبلين مئة فَرْسَخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً[(٧)]، قاله وهب بن منبِّه.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨)، وابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ١٢ عن أبي بكرة الثقفي. قال ابن حجر: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح، لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور لأن كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة... اهـ. وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٤ عن قتادة مرسلاً.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٩ ونسبه لابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك.

(٣) منهم أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٤١٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٢.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٤٤.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣.

﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لبُعْد عَرْضه وقوَّته، وروي في «الصحيح»[١] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه» وعقَد وهب بن منبِّه بيده تسعين ـ وفي رواية ـ وحَلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، وذكر الحديث.

وذكر يحيى بن سلَّام، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يخرقون السَّدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً، فيعيده الله كأشدِّ ما كان حتى إذا بلغت مُدَّتهم وأراد اللهُ أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيخرقونه ويَخرجون على الناس» الحديث وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: «فَمَا اسْطَاعُوا» بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه، كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاءَ فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاءَ فقال: استاع يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: «فما اسطّاعوا» بتشديد الطاء، كأنَّه أراد: استطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشدَّدها، وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو عليٍّ: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش: «فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً» بالتاء في الموضعين[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ القائل: ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم،

---

(١) البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٢) ص٣٨٠ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وقراءة حمزة في السبعة ص٤٠١، والتيسير ص١٤٦، وكلام أبي علي في الحجة ٥/ ١٧٨.

والقوَّة عليه، والانتفاع به في دَفْعِ ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عَبْلة: «هذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ ربي»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم[٢]. ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: مستوياً بالأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١] قال ابن عرفة: أي: جعلت مستويةً لا أَكَمة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال اليزيدي: أي: مستوياً، يقال: ناقة دكَّاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتبيُّ[٣]: أي: جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الكلبيُّ: قِطَعاً متكسِّراً، قال:

هل غيرُ غادٍ دَكَّ غاراً فانهدم[٤]

وقال الأزهريُّ: يقال: دككته، أي: دققته. ومن قرأ: «دَكَّاءَ» أراد جعل الجبلَ أرضاً دكَّاء: وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلاً، وجمعها دكاوات[٥].

وقرأ حمزة وعاصم والكسائيُّ «دكاء» بالمدِّ على التشبيه بالناقة الدكَّاء، وهي التي لا سنامَ لها، وفي الكلام حذف، تقديره: جعله مثل دكاء، ولابدَّ من تقدير هذا الحذف؛ لأنَّ السَّد مذكَّر فلا يوصف بدكَّاء. ومن قرأ: «دَكًّا» فهو مصدر دَكَّ يدك، إذا هَدم ورَضّ، ويحتمل أن يكون «جعل» بمعنى خَلَق. وينصب «دَكًّا» على الحال. وكذلك النصب أيضاً في قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) في غريب القرآن ص٢٧١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٤٥ ، ونسب البيت لأغلب.

(٥) ينظر الصحاح (دكك)، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ ، والقراءة في السبعة ص٤٠٢ ، والتيسير ص١٤٦ ، والحجة ٥/ ١٨٢-١٨٣ .

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الضمير في «تركنا» لله تعالى، أي: تركنا الجنَّ والإنسَ يوم القيامة يَموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ «يومئذ» أي: وقت كمال السَّدِّ يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لهم عبارةٌ عن الحيرة، وتردُّد بعضهم في بعض، كالمولهين من هَمٍّ وخوف، فشبَّههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض[1]. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يوم انفتاح السَّدِّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم[2].

قلت: فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنَّه تقدَّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي»، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ تقدَّم في «الأنعام»[3]. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ يعني: الجنَّ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٦٥ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٦٩.

(٣) ٨/ ٤٣٠ .

والإنسَ في عَرَصات القيامة .﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أبرزناها لهم[١] .﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في موضع خفض، نعت «للكافرين» .﴿فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أي: هم بمنزلة من عينه مغطاة، فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى[٢] .﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يطيقون أن يَسمعوا كلامَ الله تعالى، فهم بمنزلة مَنْ صَمَّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: ظنَّ. وقرأ عليٌّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن: «أَفَحَسْبُ» بإسكان السين وضمِّ الباء، أي: كَفَاهم .﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ يعني: عيسى والملائكة وعُزَيراً[٣] .﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ولا أعاقبهم؟! ففي الكلام حذف. وقال الزجَّاج: المعنى: أفحسبوا أن ينفعهم ذلك .﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَزْنًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً» الآية، فيه دلالة على أنَّ مِن الناس مَن يعمل العمل وهو يظنُّ أنَّه محسن، وقد حَبِطَ سعيه، والذي يوجب إحباطَ السعي إما فسادُ الاعتقاد أو المراءاةُ، والمراد هنا الكُفْر[٤]. روى البخاريُّ[٥] عن مصعبٍ قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحَرُوريَّة؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنَّة، فقالوا: لا طعامَ فيها ولا شراب، والحروريَّة: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٢ ، والقراءة قرأ بها علي وابن عباس وابن يعمر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن كثير بخلاف ونعيم بن ميسرة والضحاك ويعقوب وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص٨٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٤ .

(٤) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٨ .

(٥) في صحيحه برقم (٤٧٢٨).

مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] وكان سعد يُسمِّيهم الفاسقين.

والآية معناها التوبيخ، أي: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في عبادة من سواي. قال ابن عباس: يريد كفَّار أهل مكة. وقال عليٌّ: هم الخوارج أهلُ حروراء[١]. وقال مَرَّة: هم الرهبان أصحابُ الصوامع[٢]. وروي أنَّ ابنَ الكوَّاء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له: أنت وأصحابُك[٣]. قال ابن عطيَّة[٤]: ويضعف هذا كلَّه قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وليس من هذه الطوائف من يَكفُر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنَّما هذه صفة مشركي مكَّة عبدة الأوثان، وعليٌّ وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظِّهم من هذه الآية. و«أعمالاً» نصب على التمييز. و«حبِطت» قراءة الجمهور: بكسر الباء. وقرأ ابن عباس «حبَطت»: بفتحها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ قراءة الجمهور: «نقيم» بنون العظمة. وقرأ مجاهد: بياء الغائب، يريد: فلا يقيم اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ عبيد بن عمير: «فلا يقوم»، ويلزمه أن يقرأ: «وزنٌ»، وكذلك قرأ مجاهد: «فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ»[٥]. قال عبيد بن عمير: يُؤتَى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة[٦].

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٣، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٣ - ٤٢٤، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وقراءة ابن عباس ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٦٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦ - ٥٤٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧، وذكرها العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٤١ دون نسبة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٩ - ١٧٠، وابن أبي حاتم في التفسير ٥/ ١٤٤٠ (٨٢٢٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٧٠.

قلت: هذا لا يقال مثله من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعاً في «صحيحي البخاري ومسلم»[١] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمينُ يومَ القيامة لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾». والمعنى: أنَّهم لا ثوابَ لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنةَ لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنةَ له فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدريُّ: يُؤتَى بأعمال كجبال تِهامة، فلا تَزِنُ شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنَّه قال: فلا قَدْرَ لهم عندنا يومئذ[٢]، والله أعلم.

وفي هذا الحديث من الفقه ذمُّ السِّمن لمن تكلَّفه؛ لما في ذلك من تكلُّف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدلُّ على تحريم الأكل الزائد على قَدْرِ الكفاية المبتغى به التَّرفُّه والسِّمن. وقد قال ﷺ: «إنَّ أبغضَ الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين». ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبيِّ ﷺ قال: «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عِمران: فلا أدري أذَكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثم إنَّ من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون، ويَخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمن» وهذا ذمٌّ. وسبب ذلك أنَّ السِّمَنَ المكتسَب إنَّما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدَّعَة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبدُ نفسه لا عبدُ ربِّه، ومن كان هذا حاله، وقَع لا محالةَ في الحرام[٣]، وكلُّ لحم تولَّد عن سُحتٍ، فالنار أولى به، وقد ذمَّ الله تعالى الكفَّار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبَّه بهم، ويتنعَّم بتنعُّمهم في كلِّ أحواله وأزمانه، فأين حقيقةُ الإيمان، والقيام بوظائف

---

(١) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ .

(٣) المفهم ٧/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والحديث الأول سلف ٨/ ٤٥٥ ، وحديث عمران أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): (٢١٥).

الإسلام؟! ومن كثر أكله وشربه، كثر نَهَمُه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائماً، وليلَه نائماً. وقد مضى في «الأعراف» هذا المعنى[(١)]، وتقدَّم فيها ذكر الميزان[(٢)]، وأن له كفَّتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة.

وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش ساقِ ابنِ مسعود وهو يصعد النخلة: «تضحكون من ساقٍ تُوزَن بعمل أهل الأرض»[(٣)] فدلَّ هذا على أنَّ الأشخاص تُوزَن، ذكره الغزنويُّ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ «ذلك» إشارة إلى تَرْك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء، «جزاؤهم» خبره، و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو «ذلك»، و«ما» في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ مصدريَّة، والهزء: الاستخفاف والسُّخرية[(٤)]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال قتادة: الفردوس رَبوة الجنَّة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها[(٥)]. وقال أبو أمامة الباهليُّ: الفردوس سُرَّة الجنَّة[(٦)]. وقال كعب: ليس في الجنان جنَّة أعلى من جنَّة الفردوس،

(١) ٩/ ١٩٦ .

(٢) ٩/ ١٥٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧)، وأبو يعلى (٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٨٥١٦) من حديث علي بن أبي طالب بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٨ - ٢٨٩ بعد أن عزاه إلى أحمد وأبي يعلى والطبراني: رجالهم رجال الصحيح غير أم موسى، وهي ثقة.
وأخرجه أيضاً أحمد (٣٩٩١)، والبزار (٢٦٧٨)، وأبو يعلى (٥٣١٠)، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٢٧ من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٩ : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق... وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. اهـ. واستحمش الرجل حَمْشاً وحَمَشاً: صار دقيق الساقين.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦ .

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣١ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦٧ .

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٨ ، والطبري ١٥/ ٤٣١ .

فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[١]. وفي «صحيح البخاري»[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاةَ وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخِله الجنَّة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نبشِّر الناس؟ قال: «إنَّ في الجنَّة مئةَ درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللهَ تعالى فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: ـ وفوقه عَرْشُ الرحمن، ومنه تَفجَّر أنهارُ الجنة».

وقال مجاهد: والفردوس: البستان بالروميَّة[٣]. الفرَّاء[٤]: هو عربي. والفردوس: حديقة في الجنَّة. وفردوس: اسمُ روضة دون اليمامة. والجمع فراديس، قال أميَّة بن أبي الصلت الثقفي:

كانت منازلُهم إذ ذاك ظاهرةً فيها الفَراديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس: موضع بالشام. وكَرْمٌ مُفَرْدَس، أي: مُعرَّش[٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها. والحِول: بمعنى التحويل، قاله أبو عليٍّ. وقال الزجَّاج[٦]: حال من مكانه حِوَلاً كما يقال: عَظُم عِظَماً. قال: ويجوز أن يكون من الحيلة، أي: لا يحتالون منزلاً غيرَها. قال الجوهريُّ[٧]: التحوُّل: التنقُّل من موضع إلى موضع، والاسم: الحِول، ومنه قوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً».

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٨٠.

(٢) برقم (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣٢.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٣١.

(٥) الصحاح (فردس)، دون قول أمية، وهو في ديوانه ص٩٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣١٥.

(٧) في الصحاح (حول).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ نفد الشيءُ: إذا تمَّ وفرَغ، وقد تقدَّم. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: زيادةً على البحر عدداً أو وزناً. وفي مصحف أبيٍّ: «مِدَاداً» وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد[١]. وانتصب «مدداً» على التمييز أو الحال[٢].

وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لهم النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أُوتيَ التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ الآية[٣].

وقيل: قالت اليهود: إنَّك أُوتيت الحكمةَ، ومن أُوتيَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً، ثم زعمت أنَّك لا عِلْم لك بالرُّوح؟! فقال اللهُ تعالى قل: وإن أُوتيت القرآنَ وأوتيتم التوراةَ، فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلةٌ[٤]. قال ابن عباس: «كَلِمَاتُ رَبِّي» أي: مواعظ ربِّي. وقيل: عنى بالكلمات الكلامَ القديمَ الذي لا غايةَ له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبَّر عنه بلفظ الجمع؛ لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنَّه ينوب منابَها، فجازت العبارةُ عنها بصيغة الجمع؛ تفخيماً، وقال الأعشى:

ووجهٌ نقيُّ اللونِ صافٍ يَزينُهُ ... مع الجِيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ[٥]

فعبَّر باللَّبَّات عن اللَّبَّة. وفي التنزيل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: ٢٣] وكذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

(١) القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٩، وذكرها الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٢٣، وأبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٥، والطبري ١٥/ ٤٣٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٦.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣١٥ بنحوه.

(٥) ديوان الأعشى ص١٢٧، واللَّبَّة: المنحر. القاموس (لبب).

﴿كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لأنَّه ناب منابَ أمَّة. وقيل: أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدلُّ على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى[١]. وقال السُّدِّيُّ: أي: إن كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفدَ البحر قبل أن تنفدَ صفاتُ الجنَّة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحرُ قبل أن ينفدَ ثوابُ من قال: لا إله إلا الله. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ» بالياء؛ لتقدُّم الفعل[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا أعلم إلا ما يعلِّمني الله تعالى، وعِلْم الله تعالى لا يحصى، وإنَّما أُمِرت بأن أبلِّغكم بأنَّه لا إله إلا الله. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يرجو رؤيته وثوابَه، ويخشى عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ قال ابن عباس: نزلت في جُنْدَب بنِ زهير العامريِّ، قال: يا رسول الله إنِّي أَعمل العملَ لله تعالى، وأُريد وجهَ الله تعالى، إلَّا أنَّه إذا اطُّلِع عليه سرَّني، فقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ ولا يَقبلَ إلا الطيِّبَ، ولا يَقبل ما شُورِكَ فيه» فنزلت الآية. وقال طاوس: قال رجل: يا رسولَ الله! إنِّي أحبُّ الجهادَ في سبيل الله تعالى، وأُحبُّ أن يُرى مكاني، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجلٌ للنبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! إنِّي أتصدَّق وأَصِلُ الرَّحِم ولا أَصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك منِّي وأُحمَد عليه فيسرُّني ذلك وأُعجَب به، فسكت رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣].

قلت: والكلُّ مراد، والآية تعمُّ ذلك كلَّه وغيرَه من الأعمال. وقد تقدَّم في سورة «هود»[٤] حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أوَّل الناس. وقد

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٤٧.

(٢) السبعة ص٤٠٢، والتيسير ص١٤٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨.

(٤) ١١/٨٤.

تقدَّم في سورة النساء[١] الكلامُ على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية.

وقال الماورديُّ[٢] وقال جميعُ أهل التأويل: معنى قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» إنه لا يرائي بعمله أحداً. وروى الترمذيُّ الحكيم رحمه الله تعالى في «نوادر الأصول»[٣] قال: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثنا مكيُّ بن إبراهيم قال: حدَّثنا عبد الواحد بنُ زيد، عن عبادة بن نُسَيٍّ، قال: أتيت شدادَ بنَ أوس في مصلَّاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ يوماً، إذ رأيت بوجهه أَمْراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، ما الذي أَرى بوجهك؟ قال: «أمراً أتخوَّفه على أمَّتي من بعدي» قلت: ما هو يا رسولَ الله؟ قال: «الشِّرك والشهوة الخفيَّة» قلت: يا رسولَ الله! وتُشرِكُ أمَّتك مِن بعدك؟ قال: «يا شدَّاد أما إنَّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حَجَراً ولا وَثَناً، ولكنَّهم يُراؤون بأعمالهم. قلت: والرياء شِرْك هو؟ قال: «نعم». قلت: فما الشهوة الخفيَّة؟ قال: «يُصبِح أحدُهم صائماً فتعرض له شهواتُ الدنيا فيفطر». قال عبد الواحد: فلقيتُ الحسنَ، فقلت: يا أبا سعيدٍ! أَخبِرني عن الرياء أَشِرْك هو؟ قال: نعم، أما تقرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدَّثنا محمد بن أبي بكر قال: حدَّثنا المعتمر ابنُ سليمان، عن ليث، عن شَهْرِ بن حوشب قال: كان عبادةُ بنُ الصامت وشدَّاد بن أوس جالسين، فقالا: إنَّا نتخوَّف على هذه الأمَّة من الشِّرْك والشهوة الخفيَّة، فأمَّا الشهوة الخفيَّة فمِن قِبَلِ النساء. وقالا: سمعنا رسولَ الله ﷺ يقول: «من صلَّى صلاةً يُرائي بها فقد أَشركَ، ومن صام صياماً يُرائي به فقد أشرك» ثم تلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ

(١) ٦/ ٢٩٩.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٥٠.

(٣) ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧١٤٤)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٠، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠) من طرق، عن عبد الواحد بن زيد، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: عبد الواحد بن زيد متروك.

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفيَّة بخلاف هذا، وقد ذكرناه في «النساء»[٢].

وقال سهل بن عبد الله: وسئل الحسنُ عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحبَّ أن تُكتَم حسناتُك، ولا تحبَّ أن تُكتَم سيئاتُك، فإن أظهر اللهُ عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ الآية [المؤمنون: ٦٠]، يؤتون الإخلاصَ، وهم يخافون ألا يُقبَل منهم، وأما الرياء: فطلب حظِّ النفس من عملها في الدنيا، قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبينَ الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهو رياء.

وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يُفضِي الرياء بصاحبه إلى استهزاءِ الناس به، كما يُحكى أنَّ طاهرَ بنَ الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صِرْتَ إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلتُ العراقَ منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائمٌ. فقال: يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعيُّ أنَّ أعرابيًّا صلَّى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أَحسنَ صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم[٣]. أين هذا من قول الأشعثِ بنِ قيس وقد صلَّى فخفَّف، فقيل له: إنَّك خفَّفت. فقال: إنَّه لم يُخالِطها رياء[٤]. فخلص من تنقُّصهم بنفي الرياء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢١٦)، وأحمد (١٧١٤٠)، والبزار (٣٤٨٢)، والطبراني في الكبير (٧١٣٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٤) من طرق، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن شداد بن أوس بنحوه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠ - ٢٢١ : رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثَّقه أحمد وغير واحد، وبقية رجاله ثقات.

(٢) ٦/ ٢٩٩ .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣١٩ ، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦ .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٣٣٤ ، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦ ، عن أشعب بن جبير، واسمه أشعث، وهو الذي يضرب به المثل في الطمع. سمط اللآلي ٣/ ٩٥٨ ، وفوات الوفيات ١/ ١٩٧ .

عن نفسه، والتصنُّع من صلاته، وقد تقدَّم في «النساء»[١] دواء الرياء من قول لقمان، وأنَّه كتمان العمل.

وروى الترمذيُّ الحكيم[٢]: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحِمَّاني قال: أنبأنا جرير، عن ليث، عن شيخٍ، عن مَعْقِل بنِ يَسَار قال: قال أبو بكر وشَهِدَ به على رسول الله ﷺ، قال: ذكَر رسولُ الله ﷺ الشِّرْكَ، قال: «هو فيكم أخفى من دَبيب النمل، وسأدلُّك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللَّهمَّ إنِّي أَعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأَستغفركَ لما لا أَعلم، تقولها ثلاث مرات».

وقال عمر بن قيس الكندي: سمعتُ معاويةَ تلا هذه الآيةَ على المنبر ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فقال: إنَّها لآخِرُ آيةٍ نزلت من السماء[٣]. وقال عمر: قال النبيُّ ﷺ: «أُوحيَ إليَّ أنَّه من قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رُفعَ له نورٌ ما بين عدن إلى مكَّة، حَشْوه الملائكة يصلُّون عليه ويستغفرون له»[٤].

وقال معاذ بن جبل: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ أوَّل سورة الكهف وآخِرها، كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها، كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٥].

---

(١) ٦/٢٩٩.

(٢) في نوادر الأصول ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، والمروزي في مسند أبي بكر برقم (١٨) من طريق ليث، به.

وأخرجه أيضاً المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى (٥٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦) من طريق ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة، عن أبي بكر الصديق بنحوه مطولاً. ووقع عند ابن السني: أبي مجلز، بدل: أبي محمد، وفي إسنادهما: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، والراوي عنه، وهو مجهول.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/٤٤١ - ٤٤٢، والطبراني في الكبير ١٩/٣٩٢ (٩٢١).

(٤) أخرجه البزار (٢٩٧). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٦٠) وقال: رواه البزار، ورواته ثقات إلا أن أبا قرَّة الأسدي لم يروِ عنه ـ فيما أعلم ـ غير النضر بن شميل.

(٥) أخرجه أحمد (١٥٦٢٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/١٩٧ (٤٤٣)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٥) عن معاذ بن أنس ﷺ. وفي إسناده: زبَّان بن فائد الحمراوي، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أنَّه قال له رجل: إنِّي أُضمر أن أقومَ ساعةً من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردتَ أن تقوم أيَّ ساعةٍ شِئْتَ من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ إلى آخِر السورة، فإنَّ اللهَ تعالى يُوقِظك متى شئتَ من الليل، ذكر هذه الفضائل الثعلبيُّ ﷺ.

وفي «مسند الدارمي»[1] أبي محمد، أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن عبدة، عن زرٍّ بن حبيش، قال: من قرأ آخِر سورة الكهف لساعة يُريد أن يقوم من الليل، قامها، قال عبدة: فجرَّبناه، فوجدناه كذلك. قال ابن العربي[2]: كان شيخنا الطُّرْطُوشيُّ الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمانُ في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان، وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

تمَّت سورةُ الكهف، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

---

(١) برقم (٣٤٠٩).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٧

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين][١]

تفسير سورة الكهف

وهى مكية.

ذكر ما ورد فى فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفى الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة ـ أو: سحابة ـ قد غشيته، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة ، به[٢]. وهذا الرجل الذى كان يتلو هو: أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم فى تفسير البقرة[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همّامَ بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من حَفظ عَشْرَ آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال» .

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، والترمذى[٤] من حديث قتادة، به[٥]. ولفظ الترمذى: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف» ، وقال: حسن صحيح .

طريق أخرى: قال [الإمام][٦] أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبى الجعد يحدّث عن معدان، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال» .

ورواه مسلم أيضًا والنسائى، من حديث قتادة، به[٧] . وفى لفظ النسائى: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

حديث آخر : وقد رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن ثَوْبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»[٨] . فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن

---

(١) زيادة من ت .

(٢) المسند (٤/ ٢٨١) وصحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥) .

(٣) فى أول تفسير سورة البقرة، فى فضلها .

(٤) فى ف : «الترمذى والنسائى».

(٥) المسند (٥/ ١٩٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨٦) .

(٦) زيادة من ف .

(٧) المسند (٦/ ٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٦) .

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٤) .

أبى الدرداء .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زبَّان بن فايد(١)، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نورًا من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نورًا ما بين الأرض إلى السماء(٢)» انفرد به أحمد ولم يخرجوه(٣) (٤) .

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوْيْه [فى تفسيره](٥) ،بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبى مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، سطع له نور من تحت قدمه إلى عَنَان السماء، يضىء له يوم القيمة، وغُفر له مابين الجمعتين»(٦) .

وهذا الحديث فى رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى(٧) الإمام: «سعيد بن منصور» فى سننه، عن هُشَيْم بن بشيرِ(٨) ،عن أبى هاشم(٩)، عن أبى مِجْلَز، عن قيس بن عباد(١٠)، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أنه قال: من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق .

هكذا وقع موقوفا، وكذا(١١) رواه الثورى، عن أبى هاشم(١٢)، به(١٣) .من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل(١٤) بن محمد الشَّعرانى، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو هاشم، عن أبى(١٥) مجْلَزْ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه، عن الحاكم(١٦)، ثم قال البيهقى: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبى هاشم بإسناده أن النبى ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت

---

(١) فى ت: «زياد بن واقد»، وفى ف: «ثوبان بن فايد» .

(٢) فى ف: «السماء والأرض» (٣) فى ت: «يخرجه».

(٤) المسند (٤/٤٣٩) .

(٥) زيادة من ف .

(٦) ذكره المنذرى فى الترغيب (١/٥١٣)وقال: «رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به» .

(٧) فى ت : «رواه». (٨) فى ت :«بشر» . (٩) فى ت،أ : «هشام».

(١٠) فى ف: «عبادة». (١١) فى ت : «وهكذا» . (١٢) فى ت : «هشام» .

(١٣) ورواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣١) قال: حدثنا هشيم به موقوفًا. وسيأتى الاختلاف على هشيم .أما رواية الثورى: فرواها النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٩٠) من طريق عبد الرحمن عن سفيان الثورى به موقوفًا .وقد حقق الفاضل محمد طرهونى فى كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/٣٣٧) روايتى الرفع والوقف فأجاد وأفاد، جزاه الله خيرًا، ثم رجح أنه موقوف فى حكم المرفوع .

(١٤) فى ت: «الفضل». (١٥) فى ت :« أبو» .

(١٦) المستدرك (٢/٣٦٨) والسنن الكبرى للبيهقى (٣/٢٤٩) .

له نورًا يوم القيامة»[١]. [والله أعلم][٢] .

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى من حديث عبد الله بن[٣] مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنى، عن على بن الحسين، عن أبيه، عن على مرفوعًا : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه»[٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

[رب وفقنى][٥]

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ .

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند[٦] فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد فى الأولى والآخرة؛ ولهذا حَمَد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة[٧] أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدى إلى صراط مستقيم، بينا واضحا جلياً[٨]، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ أى: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾ أى : مستقيماً.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا، عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الأخرى ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أى: من عند الله الذى لا يُعَذّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد .

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾أى: مثوبة عند الله جميلة ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ ﴾ فى ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائمًا لازوال له ولا انقضاء .

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ [٩] قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢٨) «مجمع البحرين» واختلف فيه على شعبة، فرواه غندر عن شعبة موقوفًا .
(٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عن».
(٤) المختارة برقم (٤٣٠) وقال: «عبد الله بن مصعب لم يذكره البخارى، ولا ابن أبى حاتم فى كتابيهما» .
(٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : «عن» . (٧) فى ف: «نعم» .
(٨) فى ت: «جليل» . (٩) فى ت : «الذى»وهو خطأ.

نعبد الملائكة، وهم بنات الله .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه من علم ﴿ وَلا لآبَائِهِمْ ﴾ أى: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ : نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة.

وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجلا، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ، كما يقال: عَظُم قولُك، و كبر[١] شأنُك .

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تبشيع لمقالتهم[٢] واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى مُعَيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود[٣] عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم[٤] أمره وبعض قوله، وقالا[٥]: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بِهِن، فإن أخبركم بهن، فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَول فَرَوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم[٦] قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبَؤه[٧]؟ [وسلوه عن الروح، ماهو؟][٨] فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يامعشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال[٩] لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليه فى ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف[١٠] أهل مكة وقالوا :وعدنا محمد غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لايُخبرنا بشىء عما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحى عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبَرَ ماسألوه عنه من أمر الفتية[١١] والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥][١٢] .

(١) فى ت: «وعظم» .
(٢) فى ت: «لمقالهم» .
(٣) فى ت: «يهودى» .
(٤) فى أ: «له» .
(٥) فى ت: «وقال» .
(٦) فى أ: «فإنه» .
(٧) فى ت، أ: «بناؤه» .
(٨) زيادة من الطبرى .
(٩) فى ت: «فقالوا» .
(١٠) فى ت: «أوجب» .
(١١) فى ت : «الفقيه» .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٧) .

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ .

يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ[1] فى حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: **﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾** [فاطر: ٨]، وقال: **﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾** [النحل: ١٢٧]، وقال: **﴿لَعَلَّكَ[2] بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا[3] يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** [الشعراء: ٣] .

باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾**، يعنى: القرآن. **﴿أَسَفًا﴾** يقول: لاتهلك نفسك أسفًا .

قال قتادة: قَاتِلٌ نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنى متقارب، أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مُزيَّنة بزينة زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾** .

قال قتادة، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة[4]، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا[5]، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[6] .

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: **﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾** أى: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شىء عليها هالكاً **﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾**: لايُنْبت ولا ينتفع به، كما قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾** يقول: يهلك كل شىء عليها ويبيد. وقال مجاهد: **﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾**: بلقعاً.

وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات.

وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شىء، ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[7]﴾** [السجدة: ٢٧].

وقال محمد بن إسحاق: **﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾** يعنى الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله[8]، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

---

(١) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه» . (٢) فى ت: «ولعلك»، وفى أ: «لعلكم» وهو خطأ.
(٣) فى ت، أ: «على ألا» وهو خطأ . (٤) فى ف، أ: «حلوة خضرة». (٥) فى أ: «يعملون، واتقوا الدنيا».
(٦) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٤٢) من طريق أبى مسلمة عن أبى نضرة به .
(٧) فى أ: «أفلا تبصرون». (٨) فى ت: «المرجع إلى الله»، وفى ف، أ: «إلى الله المرجع» .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

هذا إخبار عن قصة أصحاب[(١)] الكهف [والرقيم][(٢)]، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: **﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾** يعنى: يامحمد **﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾** أى: ليس أمرهم عجيبا[(٣)] فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر[(٤)]، ولا يعجزه شىء أعجب من أخبار أصحاب الكهف [والرقيم][(٥)] كما قال ابن جريج[(٦)]، عن مجاهد: **﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾** يقول: قد كان من آياتنا ماهو أعجب من ذلك!

وقال العوفى، عن ابن عباس: **﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾** يقول: الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب [(٧)] الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت[(٨)] من حججى على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

[وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم»][(٩)] فقال العوفى، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلَة. وكذا قال عطية العوفى، وقتادة .

وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو : غار الوادى، و «الرقيم»: اسم الوادى .

وقال مجاهد: «الرقيم»: كان[(١٠)] بنيانهم[(١١)]، ويقول بعضهم: هو الوادى الذى فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: «الرقيم» ، قال: يزعم كعب أنها القرية .

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذى فيه الكهف .

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن [مجاهد، عن][(١٢)]، ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس.

وقال ابن جريج: أخبرنى وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران .

---

(١) فى أ: «أهل» .
(٢) زيادة من ت .
(٣) فى ت،ف، أ: «عجيب» .
(٤) فى ت: «قدير» .
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ت: «جرير» .
(٧) فى ت: «أصحاب أهل».
(٨) فى ت: «ما أظهر» .
(٩) زيادة من ف.
(١٠) فى أ: «كتاب» .
(١١) فى ت: «كتابتهم بهم».
(١٢) زيادة من ف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَنَانًا، والأواه، والرقيم .

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدرى ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان ؟

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: [الرقيم](١): لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف(٢)، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] .

وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى(٣) مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم .

وقوله: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَؤُوا إلى غار فى جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا، أى: اجعل عاقبتنا رشداً(٤)، كما جاء فى الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشدًا»، وفى المسند من حديث بُسْر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة» .

وقوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه(٥) ليشترى لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله(٦) :

سَبْقَ الجَوَاد إذَا استَولى عَلَى الأمَد

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

---

(١) زيادة من ف . (٢) فى أ: «أهل الكتاب» . (٣) فى ت: «من» .
(٤) فى ت: «عاقبته رشد»، وفى ف، أ: «عاقبته رشدا». (٥) فى ف، أ: « معينة».
(٦) هو النابغة الذبيانى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٧).

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾.

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية ـ وهم الشباب ـ وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا[١] فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا[٢] أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحَلَق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره[٣]، ممن ذهب لى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ[٤] هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر[٥] أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم ـ والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه[٦] لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمـر محفوظ فى كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا[٧] أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد

(١) فى أ: « وغشوا». (٢) فى ف: «وكذا». (٣) فى ت: «ونحوه».
(٤) فى أ: « زدناهم» وهو خطأ. (٥) فى ت: «ذكروا». (٦) فى ف: « فإنهم».
(٧) فى ت، ف: « فعرفوا».

منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم[١]، ويتبرز عنهم ناحية. فكان[٢] أول من جلس منهم [وحده][٣] أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذى رواه البخارى تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول اللهﷺ: «الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف »[٤] .وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث سهيل[٥] ،عن أبيه، عن أبى هريرة عن النبى[٦] ﷺ[٧].

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل[٨] أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدرى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون ـ والله ياقوم ـ أنه ما [٩] أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا[١٠] شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فإنى [والله][١١] رأيت ما قومى عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذى يستحق أن يعبد [وحده][١٢] ولا يشرك به شيء هو الله الذى خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما . فقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه[١٣]، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولن: لنفي التأبيد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: هلاّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس،أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه،كما جاء فى

(١) فى ف، أ: «عنهم». (٢) فى ت، ف: «وكان». (٣) زيادة من ت،ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٣٦).
(٥) فى أ: «سهل». (٦) فى ف، أ: «عن رسول الله ».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٨).
(٨) فى ت: «وانه جعل كل»، وفى ف : «أنه كل». (٩) فى ت: « إنما».
(١٠) فى ت: «لا». (١١، ١٢) زيادة من ف. (١٣) فى ت: « عليهم».

الحديث: « يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن »[١] ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار اللَّه تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك فى قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أى: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير اللَّه، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أى: يبسط عليكم رحمة[٢] يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ [أى][٣]: الذى أنتم فيه، ﴿مِّرْفَقًا﴾ أى: أمرًا ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هُراباً إلى الكهف، فآووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى اللَّه عليه خبرهم. كما فعل بنبيه [محمد][٤] ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش فى الطلب، فلم يهتدوا إليه مع[٥] أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبى ﷺ حين رأى جزع الصديق فى قوله: يارسول اللَّه، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه[٦] لأبصرنا، فقال: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟ »، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب[٧] الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا[٨] على باب الغار الذى دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، فَفُعل [لهم][٩] ذلك. وفى هذا نظر، واللَّه أعلم؛ فإن اللَّه تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾.

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أى: يتقلص الفىء يمنة[١٠]، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَّزَاوَرُ﴾ أى: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شىء عند الزوال فى مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أى: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه،

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٢) فى ت، ف: «رحمته». (٣) زيادة من ت، ف، أ. (٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «ثم». (٦) فى أ: «قدمه». (٧) فى ف، أ: «أهل».
(٨) فى ت، ف: «ووقفوا». (٩) زيادة من ف. (١٠) فى ت: «عنه»، وفى أ: «يمينه».

وهذا بيّنٌ لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه[١]: أنه[٢] لو كان باب الغار من ناحية الشرق[٣] لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب[٤] لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين[٥] ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ تَّقْرِضُهُمْ﴾ : تتركهم.

وقد أخبر اللَّه تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد[٦] شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: [هو][٧] قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. واللَّه أعلم بأي بلاد اللَّه هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا اللَّه ورسوله إليه[٨]، فقد قال رسول الله ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى [الجنة][٩] ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم[١٠]، قاله ابن عباس.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ؛ ولهذا قال :﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ .

ثم قال :﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه اللَّه اهتدى، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب اللَّه على آذانهم بالنوم، لم تنطبق[١١] أعينهم؛ لئلا[١٢] يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر[١٣]:

---

(١) في ت: «فبانه». (٢) في ف: «أن». (٣) في ف، أ: «المشرق».
(٤) في أ: «المغرب». (٥) في ت: «فتعي». (٦) في ت: «ولا تضر».
(٧) زيادة من ف. (٨) في ت: «الله». (٩) زيادة من ف، وفي ت: «الله».
(١٠) في ت: «ثيابهم وأبدانهم»، وفي ف، أ: «ثيابهم وأجسادهم». (١١) في ت: «تطبق».
(١٢) في ت: «كيلا».
(١٣) هو حميد بن ثور، والبيت في ديوانه (ص١٠٤) أ. هـ مستفادًا من حاشية ط الشعب.

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلَتَيهِ وَيَتّقِي بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون فى العام مرتين.

قال ابن عباس: لو لم يقلبوا[١] لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير[٢]: الوصيد: الفناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج[٣]: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض[٤] ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ـ كما ورد فى الصحيح[٥] ـ ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن[٦]. وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباخ الملك، وكان قد وافقهم على الدين فصحبه كلبه، فاللَّه أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صَدَقَة بن عمر الغَسَّانى، حدثنا عباد المِنْقَرى، سمعت الحسن البصرى، رحمه الله، يقول: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنْقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه: بهموت. وهبط آدم، عليه السلام، بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان[٧].

وقد تقدم[٨] عن شعيب الجبائى أنه سماه: حمران.

واختلفوا فى لونه[٩] على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

---

(١) فى ت: «تتقلبون»، وفى أ: «يتقلبوا».
(٢) فى ف: «ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة».
(٣) فى أ: «جرير».
(٤) فى ف: «ربض».
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٢٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.
(٦) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٨٠) وأبو داود فى السنن برقم (٢٢٧) والنسائى فى السنن (١/ ١٤١) من حديث على بن أبى طالب مرفوعًا: «لاتدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».
(٧) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ١٤٣).
(٨) فى ت: «وقيل».
(٩) فى ت: «كونه».

وقوله تعالى: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم[1] يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة[2] البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أى: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم[3] كان فى آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أى: اللَّه أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدُّد فى كثرة نومهم، فاللَّه أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك[4]، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقى منها؛ فلهذا قالوا: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها والألف اللام للعهد.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيِّب[5] المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر[6]:

قَبَائِلُنا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلاثَةٌ ... وَلَلسَّبْعُ أزْكَى مِنْ ثَلاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيرا.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ[7] كل ما يقدر عليه ﴿ وَلا يُشْعِرَنَّ﴾ أى: يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا . إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى: إن علموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم[8] بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم[9] فى ملتهم التى هم عليها أو

---

(١) فى أ: «أو يمسهم». (٢) فى ف: «الحكمة والحجة». (٣) فى ف: «وإيقاظهم».
(٤) فى ت: «إن ذلك». (٥) فى ت: «يطيب».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/١٤٨) غير منسوب.
(٧) فى ف، أ: « وليتخفف». (٨) فى ف: «يزالون يعذبونكم». (٩) فى ف: «يعيدوكم».

يموتوا، وإن واتوهم على العود[١] فى الدين فلا فلاح لكم[٢] فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال[٣]: ﴿ ولن تفلحوا إذًا أبدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث اللّه أهل الكهف حجة[٤] ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، فى شراء شىء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس[٥]، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر :

أما الدّيارُ فإنّها كَديارهِم ... وأرَى رجالَ الحَى غَيْرَ رجَاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التى يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا[٦] خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير فى نفسه ويقول: لعل بى جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: واللّه ما بى شىء[٧] من ذلك، وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة[٨]، وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولىّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير فى حاله، وماهو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف : مُتَوَلّى البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى،

---

(١) فى ف: «وافوهم على العودة». (٢) فى ت، ف: «لهم». (٣) فى ف: «قالوا».
(٤) فى ت: «وحجة». (٥) فى ت: «دقوس». (٦) فى ت، ف: «ولا».
(٧) فى ت: «شتى». (٨) فى ت: «النفقة».

فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى اللَّه عليهم خبره[١] ، ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس[٢]، ففرحوا به وآنسوه الكلام، ثم ودعوه[٣] وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم اللَّه، عز وجل، فاللَّه أعلم.

قال قتادة : غزا[٤] ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا**[٥] **عَلَيْهِم** ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ **لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ **فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ .

حكى ابن جرير فى القائلين[٦] ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فاللَّه أعلم[٧] .

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر ؛ لأن النبى ﷺ قال: « لعن اللَّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[٨] يحذر مافعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى اللَّه عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شىء من الملاحم وغيرها .

﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿ **رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾ أى: قول بلا علم، كمن[٩] يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿ **وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

---

(١) فى ت، ف: «خبرهم». (٢) فى ت: « تيدرسين»، وفى ف: «بيدوسيس». (٣) فى ت،ف: «دعوه».
(٤) فى ت: «وعن». (٥) فى ت: «أعثرناهم» وهو خطأ. (٦) فى ت: «القائل».
(٧) فى ت: «والله أعلم».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٣٣٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٩) فى أ: «لمن».

وقوله: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن[1] عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[2]، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه .

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثْتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وَضَح الوَرِق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم فى عبادة الله، يبكون[3] ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا[4]، وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم، ومجسيميلنينا وتمليخا[5]، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش.

هكذا وقع فى هذه الرواية، ويحتمل[6] هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائى أن اسم كلبهم حمران[7]. وفى تسميتهم بهذه[8] الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقًّى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: سهلاً هيِّنًا؛ فإن الأمر فى معرفة[9] ذلك لا يترتب عليه كبير[10] فائدة ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لاشك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه[11] من الكتب والأقوال.

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾.

هذا إرشاد من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عز وجل، علام الغيوب، الذى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه [قال][12] : « قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على

---

(١) فى ت: «ابن». (٢) فى ت: «يسار». (٣) فى ت، ف أ: «يتلون».
(٤) فى هـ : «مكيليممنينا»، والمثبت من ت، ف، أ. (٥) فى ف: «شمليخا». (٦) فى ف، أ: «ويحتمل أن يكون».
(٧) فى ت: «خمران». (٨) فى ت: «بهذا». (٩) فى ت: «معرفته».
(١٠) فى ف: «كثير». (١١) فى ف: «على من تقدمه». (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

سبعين امرأة - وفى رواية تسعين امرأة. وفى رواية: مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل اللَّه، فقيل له - وفى رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء اللَّه. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان»، قال رسول اللَّه ﷺ: «والذى نفسى بيده، لو قال: «إن شاء اللَّه» لم يحنث، وكان دَرَكًا لحاجته»، وفى رواية: «ولقاتلوا فى سبيل اللَّه فرساناً أجمعون[1]»[2].

وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم». فتأخر الوحى خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصرى.

وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس فى الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فى ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال[3]: حدثنى به ليث بن أبى سليم، يرى[4] ذهب كسائى هذا.

ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية، عن الأعمش، به[5].

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أى: إذا نسى أن يقول فى حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسُنَّة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون [ذلك][6] رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذى قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أى: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى الحُلْوانى، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[7]. [وهذا تفسير باللازم][8].

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن الحارث الجُبيلى[9]، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن

---

(١) فى ت، ف: «أجمعين».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٢) رواية المائة، وبرقم (٦٧٢٠) رواية التسعين، وصحيح مسلم برقم (١٦٥٤).

(٣) فى ف: «فقال». (٤) فى ت: «ترى».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥١) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٦٨).

(٦) زيادة من ف. (٧) المعجم الكبير (١٢/ ١٧٩). (٨) زيادة من ف.

(٩) فى ت، ف: «الحبلى».

مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَيْن، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله.

وروى الطبراني، أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثن إذا ذكرت. وقال: هي خاصة برسول[1] الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تَفَرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين[2] [3].

ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، عز وجل، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد [في ذلك][5]، وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾.

هذا خَبَر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة [سنة][6] وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت مابين كل مائة [سنة][7] بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك [علم][8] في ذلك وتوقيف[9] من الله، عز وجل[10]، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خَلْقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب،

---

(١) في ت: «يارسول»، وفي ف: «لرسول».
(٢) في ف: «حصين».
(٣) المعجم الأوسط برقم (٣٣٥٧) «مجمع البحرين».
(٤) في ت: «سبب الذكر».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧، ٨) زيادة من ف.
(٩) في ت: «توفيق».
(١٠) في ت، ف: «تعالى».

وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال: وفى[١] قراءة عبد الله: «وقالوا: ولبثوا»، يعنى أنه قاله الناس[٢].

وهكذا قال ـ كما قال قتادة ـ مُطرِّف بن عبد الله.

وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أى: إنه لبصير بهم سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لايخفى عليه من ذلك شىء.

ثم روى عن قتادة فى قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر[٣] من الله ولا أسمع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لامعقّب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾.

يقول تعالى آمرًا رسوله [عليه الصلاة والسلام][٤] بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه[٥] إلى الناس: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: لا مغير[٦] لها ولا محرف ولا مؤوّل.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: [عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: وليًا ولا مولى][٧]. قال ابن جرير: يقول[٨]: «إن أنت يامحمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أى: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

---

(١) فى ت: «ومن». (٢) فى أ: «ابن عباس». (٣) فى ت: «أنصر».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت «وابتلاغه».
(٦) فى ت، ف: «أى غير مغير». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «ويقول».

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: اجلس[1] مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت فى أشراف قريش، حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده[2]، ولا يجالسهم[3] بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب [وخباب][4] وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلا تَطْرُدِ[5] الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس[6] مع هؤلاء ، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى، عن إسرائيل، عن المقدام بن شُرَيْح، ، عن أبيه، عن سعد ـ هو ابن أبى وقاص ـ قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا!. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، ، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما[7]، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى [8].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى التَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدّث عن أبى أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قُص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلىَّ من أن أعتق أربع رقاب»[9].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا هاشم[10]، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت كُرْدُوس بن قيس ـ وكان قاص العامة بالكوفة ـ يقول: أخبرنى رجل من أصحاب بدر: أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لأن أقعد فى مثل هذا المجلس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب». قال شعبة: فقلت: أى مجلس؟ قال: كان قاصا[11] [12].

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة[13] إلى طلوع الشمس، أحَبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلىّ من أن أعتق

(١) فى ت: «يجلس». (٢) فى ت ، ف: «وحدهم». (٣) فى ت: «تجالسهم».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت : «يطرد». (٦) فى ت : «فى المجلس».
(٧) فى ت: ، ف : «اسمهما».
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣).
(٩) المسند (٥/ ٢٦١).
(١٠) فى ت : «هشام». (١١) فى ت: «وقاص».
(١٢) المسند (٣/ ٤٧٤) وكردوس بن قيس لم يوثقه إلا ابن حبان.
(١٣) فى ت : «الغد».

ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين[١] ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا[٢] عشر ألفاً[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر أبى[٤] مسلم ـ وهو الكوفى ـ أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبى ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم».

هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر مرسلاً. وحدثناه يحيى بن المعلى، عن[٥] منصور، حدثنا محمد[٦] بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر أبى مسلم[٧]، عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا: جاء رسول الله ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٩]، حدثنا ميمون المَرئى، حدثنا ميمون بن سِيَاه، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتُكُم حسنات»[١٠]. تفرد به أحمد، رحمه الله.

وقال الطبرانى: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد[١١]، عن أبى حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حُنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ، وهو فى بعض أبياته: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافى الجلد[١٢]، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى الله أن أصبر نفسى معهم»[١٣].

عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبى داود فى الصحابة[١٤]. وأما أبوه فمن سادات الصحابة،

---

(١) فى ت: «وسبعين». (٢) فى ت: «اثنتا».
(٣) مسند الطيالسى برقم(٢١٠٤) ويزيد بن أبان ضعيف.
(٤) فى ت: «أى». (٥) فى ت، ف: « بن ». (٦) فى ت: «أحمد».
(٧) فى ت: «الأغر بن أبى مسلم».
(٨) مسند البزار برقم(٢٣٢٥، ٢٣٢٦) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦٤): «وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدام وهو متروك».
(٩) فى ف، أ: «بكير».
(١٠) المسند (٣/ ١٤٢) وميمون المرئى ضعيف.
(١١) فى ت: «زيدى». (١٢) فى ف: «الجلود».
(١٣) ورواه ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة كما فى أسد الغابة(٣/ ٣٥٣) من طريق أبى حازم به.
(١٤) وتعقبه ابن الأثير بقوله: «ولا يصح، وإنما الصحبة لأبيه ولأخيه أبى أمامة، وله رؤية».

رضى الله عنهم .

وقوله: ﴿ ولا تعْدُ عيْناكَ عنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

﴿ ولا تُطِعْ منْ أغْفلْنا قلْبَهُ عن ذِكْرِنا ﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿[واتَّبع هواهُ](١) وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿ ولا تمُدَّنَّ عيْنيك إلى ما متَّعْنا به أزْواجًا منْهُمْ زهْرة الْحياة الدُّنْيا لنفْتنهُمْ فيه ورزْقُ ربّك خيْرٌ وأبْقى﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَقُلِ الْحقُّ من رَّبِّكُمْ فمن شاء فلْيُؤْمن ومن شاء فلْيكْفُرْ إنَّا أعْتدْنا للظَّالمين نارًا أحاط بهمْ سُرادقُها وإن يسْتغيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالْمُهْل يشْوي الْوُجُوه بئْس الشَّرابُ وساءتْ مُرْتفقًا (٢٩) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فلْيُؤْمن ومن شاء فلْيكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿ إنَّا أعْتدْنا﴾ أى: أرصدنا ﴿للظَّالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نارًا أحاط بهمْ سُرادقُها﴾ أى: سورها .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درَّاج، عن أبى الهيثم(٢)، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لسُرادق النار أربعة جُدُر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة».

وأخرجه الترمذى فى «صفة النار» وابن جرير فى تفسيره، من حديث دراج أبى السَّمح به(٣) .

[وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿ أحاط بهمْ سُرادقُها﴾، قال: حائط من نار](٤).

قال ابن جرير: حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبدالله ابن أمية، حدثنى محمد بن حيى بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: « البحر هو جهنم» قال: فقيل له: [كيف ذلك ؟](٥) فتلا هذه الآية ـ أو: قرأ هذه الآية ـ: ﴿نارًا أحاط بهمْ سُرادقُها﴾، ثم قال: « والله لا أدخلها أبداً أو: ما دمت حياً ـ ولا تصيبنى منها قطرة»(٦).

وقوله: ﴿ وإن يسْتغيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالْمُهْل يشْوى الْوُجُوه بئْس الشَّرابُ وساءتْ مُرْتفقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل(٧) دردى الزيت.

(١) زيادة من ف. (٢) فى ت: «هشيم».
(٣) المسند(٣/ ٢٩) وسنن الترمذى برقم(٢٥٨٤) وتفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧). ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٤، ٥) زيادة من ف.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧).
(٧) فى ت: «قيل».

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح . وقال عكرمة: هو الشيء الذى انتهى حَرّه: وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئاً من الذهب فى أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل .

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهى سوداء وأهلها(١) سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار ؛ ولهذا قال: ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم فى سُرادِق النار عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « ماء كالمهل ». قال(٢): «كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» (٣)، وهكذا رواه الترمذى فى «صفة النار» من جامعه، من حديث رِشْدِين بن سعد(٤)، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به(٥) . ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، ، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لَهِيعة، عن دَرّاج، واللَّه أعلم (٦).

وقال عبد اللَّه بن المبارك، وبَقِيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد اللَّه بن بُسْر، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال : «يقرب إليه فيتكرّهه، فإذا قرب منه شَوَى وجههَ ووقعت فروةُ رأسه، فإذا شربه(٧) قطع أمعاءه ، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾».

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا(٨) منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًا مرّ بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم(٩) وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود.

ولهـذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه(١٠) الصفات [الذميمة](١١) القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أى: بئس هذا الشراب(١٢)، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ(١٣) مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة، كما قال: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤].

(١) فى ف،أ: «شجرها».
(٢) فى ت: « قال كالمهل».
(٣) المسند(٣/ ٧٠).
(٤) فى ت: « بن الأسعد».
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨١).
(٦) فى ت: «فالله أعلم».
(٧) فى ت، ف : «شرب».
(٨) فى ت، ف: «فيأكلون».
(٩) فى ت: «جلود».
(١٠) فى ت: «بهذا».
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ف، أ: «شرابا».
(١٣) فى ف:« يسقى».

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أي: وساءت النار][١] منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق[٢] كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال [لهم][٣] فرعون: ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿ يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله ههنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس: لباس[٤] رقاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾: الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث [في][٥] الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[٦] فيه القولان.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلَة، والحجلة كما يعرفه[٧] الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السُّرُر في الحجال[٨].

وقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي: حسنت منزلا ومقيلا ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾] [الكهف: ٢٩][٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

---

(١) زيادة من ف. (٢) في ت: «للارتفاع». (٣) زيادة من ت.
(٤) في ت، ف، أ: «ثياب». (٥) زيادة من ت، ف.
(٦) صحيح البخاري برقم (٥٣٩٨).
(٧) في ت، ف: «تعرفه».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/٣٣٩).
(٩) زيادة من ف.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾.

يقول الله تعالى بعد ذكر[١] المشركين المستكبرين عن مجالسة[٢] الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم[٣] مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أى: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل[٤] المحدقة فى جنباتهما، وفى خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ فى غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أى: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أى: ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ أى: والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا.

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون[٥] جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشُب، وقرأ آخرون: ﴿ثَمَر﴾ بفتح الثاء والميم.

فقال ـ أى صاحب هاتين [الجنتين][٦] ـ: ﴿ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أى: أكثر خدماً وحشماً وولداً.

قال قتادة: تلك ـ و الله ـ أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أى: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها[٧] من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف[٨]، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة ومَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنّ لى هناك أحسن من هذا لأنى مُحظى[١٠] عند ربى، ولولا كرامتى[١١] عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠] وقال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز

(١) فى ت، ف: «ذكره».
(٢) فى ت: «مجالسهم».
(٣) فى ت، ف، أ: «لهم ولهم».
(٤) فى ف، أ: «بالنخيل».
(٥) فى ت: « فيك».
(٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «فيهما».
(٨) فى ت: «ولايسلم».
(٩) فى ت: «بالأخرى».
(١٠) فى ت، ف: «محض».
(١١) فى ت: «إكرامى».

وجل، وكان سبب نزولها فى العاص بن وائل، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: **﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾**؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** [البقرة، ٢٨٠]، أى: كيف تجحدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد[1] إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شىء؛ ولذا[2] قال: **﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾** أى: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية **﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾** أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: **﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾** هذا تحضيض وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: **﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾**؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شىء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: **﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده:

حدثنا جَرَّاح بن مَخْلَد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عَوْن، حدثنا عبد الملك بن زُرَارَة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: **﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: **﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾**[3].

---

(١) فى ف: «استناد». (٢) فى ف: «ولهذا».

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمر بن يونس به.

قال الحافظ أبو الفتح الأزدى: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثنى شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبى رُهْم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله». تفرد به أحمد[١].

وقد ثبت فى الصحيح[٢]، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر[٤] بن عيسى، حدثنا أبو عوَانة، عن أبى بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لى نبى الله ﷺ: « يا أبا هريرة، أدلك[٥] على كنز من كنوز الجنه تحت العرش؟». قال: قلت: نعم، فداك أبى وأمى. قال: « أن تقول لا قوة إلا بالله ». قال أبوبَلْج: وأحسب أنه قال: « فإن الله يقول: أسلم عبدى واستسلم». قال: فقلت لعمرو ـ قال أبو بَلْج: قال عَمْرو: قلت لأبى هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [٦].

وقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهرى: أى عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها ؛ولهذا قال: ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أى: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز الذى لا ينبت شيئاً .

وقوله: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أى: غائراً فى الأرض، وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها[٧]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه ،كما قال الشاعر[٨]:

تَظَلّ جيادُهُ نَوْحاً عَلَيه   تُقَلّدُهُ أعنّتَها صفُوفا

بمعنى: نائحات عليه .

---

(١) المسند (٢/ ٤٦٩).

(٢) فى ف: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١٠) وصحيح مسلم برقم(٢٧٠٤).

(٤) فى ف، أ: «بكير».

(٥) فى ت، ف: «ألا أدلك».

(٦) المسند (٢/ ٣٣٥).

(٧) فى ت، ف: « أسفل».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٣) غير منسوب.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان[1] على جنته، التى اغتر بها[2] وألهته عن الله، عز وجل ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال قتادة: يُصَفِّق كفيه متأسفًا متلهفاً على الأموال التى أذهبها عليه ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ أى: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ﴾ أى: فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ [بقوله][3] ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا فى قراءة ﴿الْوَلَايَةُ ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة[4] لله، أى: هنالك[5] كل أحد[6] من مؤمن أو كافر[7]، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من ﴿الْوِلَايَةُ ﴾ أى: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿الْحَقُّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: الأعمال التى تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾.

---

(١) فى ت: «الحسنات».
(٢) فى ت: «اعتز».
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت: «الولاية».
(٥) فى ت: «هناك».
(٦) فى ف: «واحد».
(٧) فى ف: «وكافر».

يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه[١] الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أى: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال[٢] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال[٣]، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال فى سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] . وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»[٤].

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى[٥] لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولاحول ولا قوة إلا بالله . رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حَيْوَة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضى الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: « من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى[٦] صلاة الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلي العشاء غُفر له ما

(١) فى ت: «وعلا». (٢) فى ت: «ذات يمين وذات شمال». (٣) فى ت: «هذه الحالة وهذه الحالة».

(٤) سبق تخريجه عند تفسير الآية الثامنة من هذه السورة.

(٥) فى ت: «هن». (٦) فى ت، ف: «يصلى».

بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ[(١)] ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها[(٢)] وبين صلاة العشاء وهى الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولاقوة إلا بالله[(٣)]. تفرد به[(٤)].

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد[(٥)]، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن عَجْلان، عن عمارة قال: سألنى سعيد بن المسيب عن ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال[(٦)]: لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرنى عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن نافع بن سَرْجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر،[وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبى رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر][(٧)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن الحسن وقتاده فى قوله: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنّ الباقيات الصالحات.

قال ابن جرير: وجدت فى كتابى عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبى نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقْبُرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، منَ الباقيات الصالحات»[(٨)].

قال: وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن درّاجًا أبا السمح حدّثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هى[(٩)] يا رسول الله؟ قال: «الملة». قيل: وما هى يارسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وهكذا، رواه أحمد، من حديث دراج، به[(١٠)].

وبه قال ابن وهب: أخبرنى أبو صَخْر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله

---

(١) فى ف، أ: «لعله يتمرغ». (٢) فى ت: «بينهما». (٣) فى أ: «بالله العلى العظيم».
(٤) المسند (١/ ٧١).
(٥) فى ف: «جياد». (٦) فى ف: «فقال». (٧) زيادة من ف.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧).
(٩) فى أ: «وماهن».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧) والمسند (٣/ ٧٥).

حَدّثه قال: أرسلنى سالم إلى محمد بن كعب القرظى، فقال: قل له: القنى عند زاوية القبر، فإن لى إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال له سالم: متى جعلت فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله ؟» فقال: مازلت أجعلها. قال: فراجعه[1] مرتين أو ثلاثاً، فلم ينزع، قال: فأثبت[2]. قال سالم: أجل فأثبت[3]، فإن أبا أيوب الأنصارى حدثنى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عرج بى إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا معك ؟ فقال: محمد. فرحب بى وسَهَّل، ثم قال: مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيّبة وأرضها واسعة. فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثنى رجل من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض، حتى ظننا أنه قد حدث فى السماء شىء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدى أمراء، يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم، فليس منى ولا أنا منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم[5] فهو منى وأنا منه. ألا وإن «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر هُنّ الباقيات الصالحات»[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن كثير، عن زيد، عن أبى سلام [عن][7] مولى لرسول الله ﷺ [أن رسول الله ﷺ][8] قال: «بخ بخ لخمس ما أثقلهن فى الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه[9] والده». وقال: «بخ بخ لخمس من لقى الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب[10]»[11].

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح، حدثنا الأوزاعى، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضى الله عنه، [فى سفر][12] فنزل منزلاً، فقال لغلامه: «ائتنا بالشَّفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه. فلا تحفظوها على[13]، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا[14] هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك[15] شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير

---

(١) فى ف، أ: «فراجعته». (٢) فى ف، أ: «فابيت». (٣) فى أ: «فابيت».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/١٦٦).
(٥) فى أ: «ولم يمالئهم على ظلمهم».
(٦) المسند (٤/٢٦٧).
(٧، ٨) زيادة من ف، والمتند. (٩) فى ت: «فيحتسبنه». (١٠) فى ت، ف: «والحساب».
(١١) المسند (٤/٢٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٨٨): «رجاله رجال الصحيح».
(١٢) زيادة من ف، والمسند. (١٣) فى ت: «على ذلك». (١٤) فى أ: «فاكثروا».
(١٥) فى ت: «وأشكرك».

ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[١].

ثم رواه أيضاً والنسائى[٢]، من وجه آخر عن شداد، بنحوه [٣].

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفى، حدثنى أبى، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفيع الجدلى، عن سعد بن جنادة، رضى اللَّه عنه، قال: كنت فى أول من أتى النبى ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلى[٤] من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأتيت النبى ﷺ فأسلمت، وعلمنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، وعلمنى هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: « هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل »[٥].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هى ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التى تبقى لأهلها فى الجنة، ما دامت السموات والأرض .

وقال العوفى، عن ابن عباس : هُنَّ الكلام الطيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾[الطور: ٩، ١٠] أى: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال:

---

(١) المسند (٤/ ١٢٣).

(٢) فى ت: «فالنسائى».

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم(١٢٢٧).

(٤) فى ت، ف، أ: «من أهلى الطائفة».

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٥١) وفيه الحسين العوفى ضعيف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥ ـ ١٠٧]. يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا وادى ولا جبَل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أى: بادية ظاهرة، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد، وقتاده: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾][1] لا خَمَرَ فيها ولا غَيَابة. قال قتادة: لا بناءَ ولا شَجَر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أى: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩, ٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدى الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، يحتمل أنهم يقومون[2] صفوفاً صفوفا، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أى: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى: كتاب الأعمال، الذى فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أى: ياحسرتنا وويلنا[3] على ما فرطنا فى أعمارنا ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبرانى، بإسناده المتقدم فى الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْن، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبى ﷺ: «اجمعوا، من وجد عُودًا فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاماً، فقال النبى ﷺ: «أترون هذا؟ فكذلك تُجْمَع والذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتُم هذا. فليتق الله رجل ولا

(١) زيادة من ف. (٢) فى ف، أ: «أن يقوموا». (٣) فى ت، ف، أ: «وويلتنا».

يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاة عليه»[١].

وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يومَ القيامة [يعرف به]»[٢].

أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «يُرْفَع لكل غادر لواء يوم القيامة][٣] عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان»[٤].

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحدا من خلقه، بل يغفر[٥] ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، [ثم ينجي أصحاب المعاصي][٦] ويُخلَّد فيها الكافرون[٧] ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] ، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا[٨] تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات في هذا[٩] كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس[١٠] فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمَعَه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشُر الله، عز وجل، الناس يوم القيامة ـ أو قال: العبادَ ـ عُرَاةَ غُرْلاً بُهْمًا» قلت: وما بهمًا ؟ قال: «ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه[١١] منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه[١٢] منه حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله، عز وجل، عُراة غُرْلاً بُهْمًا ؟ قال:

---

(١) المعجم الكبير (٦/ ٥٢).
(٢) المسند (٣/ ١٤٢).
(٣) زيادة من ف.
(٤) صحيح البخاري برقم (٣١٨٦) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٧).
(٥) في ت، ف: «يعفو».
(٦) زيادة من ف.
(٧) في ف: «الكافرين».
(٨) في ت: «ولا» وهو خطأ.
(٩) في ت: « في هذه»، وفي ف: «فيهما».
(١٠) في ت: «أنس».
(١١، ١٢) في ت ، ف، أ: « أقضيه».

«بالحسنات والسيئات»[١].

وعن شعبة، عن العوام بن مُزَاحم، عن أبى عثمان، عن عثمان بن عفان، رضى اللّه عنه؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن الجمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة»[٢]. رواه عبد اللّه بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخر، قد ذكرناها عند قوله: ﴿ونضع[٣] الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠)﴾.

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى اللّه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة»[٤].

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول اللّه ﷺ، أنه قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، خُلق[٥] آدم مما وصف لكم»[٦]. فعند الحاجة نضح[٧] كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل فى خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلق من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦].

قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح [عنه][٨][٩].

---

(١) المسند (٣/ ٤٩٥).
(٢) زوائد المسند (١/ ١٢).
(٣) فى ت: «ويضع».
(٤) عند تفسير الآية: ٣٤.
(٥) فى ت، ف، ومسلم: «وخلق».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).
(٧) فى أ: «نضح لكم».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٠).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ـ قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخُلقت الملائكة من نور غير هذا الحى ـ قال: وخلقت الجن الذين ذُكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان [السماء][١] الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء اللَّه أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك فى قلبه كبر[٢] لا يعلمه إلا اللَّه. فاستخرج اللَّه ذلك الكبر منه حين[٣] أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: من خزان [الجنان، كما يقال للرجل: مكى، ومدنى، وبصرى، وكوفى. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: هو من خزان][٤] الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد، به.

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء[٥] الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خَلَّاد بن[٦] عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس ـ قبل أن يركب المعصية ـ من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنا.

وقال ابن جُرَيْج، عن صالح مولى التَّوْأمة وشريك بن أبى نَمِر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط اللَّه عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً ـ لعنه اللَّه ـ ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت فى معصية فارجه.

وعن سعيد بن جُبَيْر أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون فى الجنة.

وقد رُوى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، واللَّه أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه [الأمة من][٧] الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء[٨]، من الجهابذة النقاد، والحفاظ

(١) زيادة من ت، ف، أ.
(٢) فى ف: «كبر فى قلبه».
(٣) فى ت: «حتى».
(٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت، ف: «السماء».
(٦) فى ف: «عن».
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى أ: «البررة والنجباء».

الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى، خاتم الرسل، وسيد البشر[عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات][1]، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس [منه][2]، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعَل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال[3]: فَسَقت الرُّطَبَة: إذا خرجت من أكمامها[4]، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث[5] والفساد.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى﴾ أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ .أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ .وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دونى عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقى للسموات[6] والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولامشير ولا نظير، كما قال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ .وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك : أعواناً.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً:

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من ف.
(٣) فى أ: «تقول».
(٤) فى أ: «كمامها».
(٥) فى أ: «للعنت».
(٦) فى ف، أ: « خلق السموات».

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما[(١)] أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ][(٢)]وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مَهْلكًا[(٣)].

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالى[(٤)] حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾: وادياً فى جهنم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: واد فى جهنم، من قيح ودم.

وقال الحسن البصرى: ﴿مَّوْبِقًا﴾: عداوة.

والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً فى جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر[(٥)] أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير فى قوله: ﴿بَيْنَهُم[(٦)]﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ. هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠].

---

(١) فى ت: «بما». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «هلكًا».
(٤) فى أ: «البكائى». (٥) فى أ: «خير». (٦) فى ت: «بينهما».

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين[1] جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: ليس[2] لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها.

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن درّاج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله[3] ﷺ أنه قال: «إن الكافر يرى[4] جهنم، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين[5] سنة»[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن[7] لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل فى الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»[8].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤)﴾.

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا[9] يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى على بن الحسين، أن حسين بن على أخبره، أن على بن أبى طالب أخبره، أن رسول اللَّه[10] ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول اللَّه، إنما أنفسنا بيد اللَّه، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثَنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يَرْجع إلىّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ[11] يضرب فخذه [ويقول][12]: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. أخرجاه فى الصحيحين[13].

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) فى ت، ف، أ: «وليس». (٣) فى ف، أ: «عن النبى».
(٤) فى ف، أ: «ليرى». (٥) فى ف: «أربعمائة».
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت: «أبى» وهو خطأ.
(٨) المسند(٣/ ٧٥).
(٩) فى ف: «لئلا». (١٠) فى ف، أ: «النبى». (١١) فى ت، ف، أ: «يقول».
(١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٣) المسند(١/ ١١٢) وصحيح البخارى برقم (١١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٧٧٥).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾.

يخبر تعالى عن تمرد[(١)] الكفرة فى قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات [والآثار][(٢)] والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ائْتِنَا[(٣)] بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك][(٤)].

ثم قال: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: يرونه عياناً مواجهة [ومقابلة][(٥)]، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: قبل العذاب مبشرين[(٦)] من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين[(٧)] مَنْ كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث[(٨)] بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾.

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم[(٩)] ممن ذكر بآيات الله[(١٠)] فأعرض عنها، أى: تناساها وأعرض

---

(١) فى ت: «ثمود». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، أ: «فاتنا» وهو خطأ.
(٤، ٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت، ف، أ: «مبشرون». (٧) فى ت، ف، أ: «ومنذرون».
(٨) فى ت، أ: «أبعث». (٩) فى أ: «وأى عبادى أظلم». (١٠) فى ف: «ربه».

عنها، ولم يصغ[١] لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا[٢] هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمم معنوى عن الرشاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك[٣] ـ يا محمد ـ غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا[٤] مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات فى هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت[معلوم][٥] معين، لايزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول[٦] وأعظم نبى، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابى ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾.

سبب قول موسى [عليه السلام][٧] لفتاه ـ وهو: يُوشع بن نُون ـ هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

---

(١) فى ت: «يضع». (٢) فى ت: «يفهم»، وفى ف، أ: «يفهموه». (٣) فى ف، أ: «وربك».
(٤) فى ت: «ماترك عليها» وهو خطأ. (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٧) زيادة من ف، أ.

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نسَاؤهم ... بِبَطْحَاء ذى قار عيابَ اللطَّائم[١]

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب.

وقال محمد بن كعب القُرظى: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير، رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب فى لغة قيس[٢]: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهراً. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب[٣]، وكان فى مكتل مع يوشع [عليه السلام][٤]، وطَفَر من المكتَل إلى البحر، فاستيقظ يُوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السَّرَب فى الأرض.

قال ابن جريج[٥]: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة[٦].

وقال محمد ـ [هو][٧] بن إسحاق ـ عن الزهرى، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت[٨] مكان الحوت الذى فيه، فانجاب كالكُوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وقال قتادة: سَرب من البر[٩]، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل[١٠] ماء جامداً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشع

(١) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٦).

(٢) فى ف، أ: «العرب».
(٣) فى ف، أ: «فاضطربت».
(٤) زيادة من ت، ف، أ.
(٥) فى ت: «جرير».
(٦) فى ت، ف، أ: «كصخرة».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى أ: «غير مثبت».
(٩) فى ت، أ: «الحر».
(١٠) فى ت، أ: «صار».

هو الذى نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من[(١)] المالح فى أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذى نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا [نَصَبًا][(٢)]﴾ أى: الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: [«وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان][(٣)]، ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى: هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أى: يقصان أثر مشيهما، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. بذلك قال البخارى:

حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البِكَالِىّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عَدُوّ الله، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فَسُئِل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يارب، وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله[(٤)] بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو[(٥)] ثم. فأخذ حوتا، فجعله بمكتل[(٦)]، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه[(٧)] يُوشع بن نون عليهما[(٨)] السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه، فسقط فى البحر واتخذ[(٩)] سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جِريةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوزَا المكان الذى أمره الله به. قال له فتاه[(١٠)]: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا[(١١)] يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخَضِر: وأنّى بأرضك السلام!. قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لاتعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله عَلّمكه الله لا

---

(١) فى ف، أ: «على».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) زيادة من ف، أ، وفى هـ: «أن أذكره».
(٤) فى أ: «فتجعله».
(٥) فى أ: «منهم».
(٦) فى ف: «فى مكتل».
(٦) فى ف: «فتاه».
(٨) فى ت، ف: «عليه».
(٩) فى ف: «فاتخذ».
(١٠) فى ت: «قتادة» وهو خطأ.
(١١) فى ف: «فرجعان».

أعلمه. فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ قال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوه[1]، فعرفوا الخضر، فحملوهم[2] بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت[3] إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿قال ألم أقل[4] إنك لن تستطيع معي صبرا . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فنزل[5] على حرف السفينة فنقر فى البحر نَقْرة، [أو نقرتين][6]، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه [بيده][7] فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلت نفسا زكية[8] بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾؟! قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني[9] عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض[10]﴾ قال: مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فأقامه﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً» وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[11].

ثم رواه[12] البخارى عن قتيبة، عن سفيان بن عُيينة... فذكر نحوه[13]، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يُوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها ـ قال: فوضع موسى رأسه فنام ـ قال سفيان: وفى حديث غير[14] عمرو قال: وفى أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي: فأصاب[15] الحوت من ماء تلك العين، قال، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا﴾. كذا قال: وساق[16] الحديث. ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى

---

(١) فى ف، أ: «يحملوهم».
(٢) فى ت: «فحملوه»، وفى ف، أ: «فحملوا».
(٣) فى ف، أ: «عمدت».
(٤) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.
(٥) فى ف، أ: «فوقع».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «زاكية».
(٩) فى ف: «قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٠) فى ت: «ينقض فأقامه».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٥).
(١٢) فى أ: «ورواه».
(١٣) فى ت، ف، أ: «فذكره بنحوه».
(١٤) فى ت، ف، أ: «عن».
(١٥) فى ت: «قال: فأصاب».
(١٦) فى أ: «وسباق».

وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدارُ ما غمس هذا العصفورُ منقاره وذكر تمامه بنحوه(١).

وقال البخارى أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال: أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير ـ يزيد أحدهما على صاحبه ـ وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس فى بيته، إذ قال: سلونى. فقلت: أى أبا عباس، جعلنى الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل ـ أما عمرو فقال لى: قال(٢): كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لى: قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « موسى رسول الله، ذكَّر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولى، فأدركه رجل فقال: أى رسول الله، هل فى الأرض(٣) أحد أعلم منك ؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أى رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أى رب، اجعل لى علماً أعلم ذلك به» . قال لى عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لى يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى حيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال: « فبينا(٤) هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان(٥)، إذ تَضرَّب(٦) الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره، وتَضرَّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جَرْيَة الماء حتى كأن أثره فى حجر». [قال: فقال لى عمرو: هكذا كأن أثره فى حجر](٧)، وحلق بين إبهاميه والتى تليهما: ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا**﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النصب» ليست هذه عن سعيد ـ أخبره، فرجعا فوجدا خَضراً. قال: قال(٨) عثمان بن أبى سليمان: على طَنفَسَة خضراء على كبد(٩) البحر. قال سعيد بن جبير: مُسَجى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك ؟ قال: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً . قال: يكفيك(١٠) التوراة(١١) بيدك، وأن الوحى يأتيك!. ياموسى، إن لى علماً لا ينبغى لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغى لى أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر[فقال: والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر](١٢)، حتى إذا ركبا فى السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل(١٣) أهل هذا الساحل إلى(١٤) هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح؟. قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، وَوَتَدَ فيها وتداً. قال موسى: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ**

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٧).
(٢) فى أ: « فقال وقال».
(٣) فى ت: «هل على الأرض»، وفى ف: «هل فى الناس».
(٤) فى ت: «فبينما». (٥) فى ف، أ: «يريان». (٦) ف أ: «يضرب».
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى. (٨) فى ف، أ: «قال لى». (٩) فى ت: «كبده».
(١٠) فى أ: «أما يكفيك»، وفى ت: «الا تكفيك (١١) فى ف: «أما يكفيك أن التوراة».
(١٢) زيادة من ف، أ، والبخارى. (١٣) فى ت: «فحمد». (١٤) فى ت، أ: «إلى أهل».

شيئًا إمرًا﴾. قال مجاهد: منكراً. قال: **﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا﴾** كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً **﴿قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا . فانطلقا﴾** حتى لقيا غلاماً فقتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: **﴿قتلت نفسًا زكية﴾** لم تعمل بالحنث[١]. وابن عباس قرأها **﴿زكية﴾** ـ **﴿زاكية﴾**: مُسلمَة، كقولك[٢]: غلاماً زكيا فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد][٣] بيده هكذا، ورفع يده فاستقام ـ قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ـ قال: **﴿لو شئت لاتخذت عليه أجرًا﴾** قال سعيد: أجراً نأكله **﴿وكان وراءهم ملك﴾** وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: «أمامهم ملك» يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول[٤] اسمه ـ يزعمون ـ جَيسُور[٥] **﴿ملك يأخذ كل سفينة غصبًا﴾** فأردت إذا هى مرت به أن يدعها بعيبها، فإذا جاوزه[٦] أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. **﴿فكان أبواه مؤمنين﴾** وكان كافراً، **﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا﴾**. أن يحملهما حُبّه على أن يتابعاه[٧] على دينه **﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة﴾** كقوله: **﴿قتلت نفسًا زكية﴾**، **﴿وأقرب رحمًا﴾**: هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل[٨] خضر. وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية. وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[٩].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خطب موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره منى. فَأمرَ أن يلقى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان[١٠]، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة[١١]، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوفاً بن امرأة كعب، يزعم عن كعب أن موسى النبى الذى طلب العالم إنما هو موسى بن ميشا ؟ قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوف يقول هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوفاً يقول[١٢] ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذب نوف. ثم قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: أى رب، إن كان فى عبادك أحد[١٣] هو أعلم منى، فدلنى عليه. فقال له: نعم، فى عبادى من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه[١٤] وأذن له فى لقيه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوت مليح، قد قيل له: إذا[١٥] حيى هذا الحوت فى مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من

(١) فى ت: «لم تعلم بالحنث»، وفى ف، أ: «لم تعمل الحنث».
(٢) فى ت: «كقوله».
(٣) زيادة من ف، أ، والبخارى.
(٤) فى ت: «المقصود».
(٥) فى أ: «حيسون».
(٦) فى أ: «جاوزوا».
(٧) فى ت: «تبايعاه».
(٨) فى أ: «قتله».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٦).
(١٠) تفسير عبد الرزاق (١/٣٤١، ٣٤٢).
(١١) فى ف، أ: «عيينة».
(١٢) فى ت: «فيقول».
(١٣) فى ت: «واحد».
(١٤) فى ف، أ: «بمكان».
(١٥) فى أ: «إنه إذا».

شرب منه خلد، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيى. فلما نزلا ومس الحوت الماء حيىَ﴿ **فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**﴾ فانطلقا فلما جاوز مُنْقَلَبَه قال: موسى لفتاه: ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا**﴾، قال الفتى ـ وذكر ـ: ﴿**أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبًا**﴾. قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف فى كساء له، فسلم موسى، فردّ عليه العالم ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك فى قومك لَشُغل؟. قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿**قال إنك لن تستطيع معي صبرًا**﴾ وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد عُلِّم ذلك ـ فقال موسى: بلى. قال: ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا**﴾؟ أى: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿**قال ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا**﴾ وإن رأيتُ ما يخالفنى، قال: ﴿**فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء**﴾ [وإن أنكرته][(١)] ﴿ **حتى أحدث لك منه ذكرًا**﴾: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرّضان الناس، يتلمسان[(٢)] من يحملهما، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرّ بهما من السفن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما[(٣)]، فلما اطمأنا فيها ولجّجَت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها. ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها، فقال: له موسى ـ ورأى أمراً أفظع به ـ: ﴿**أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا . قال لا تؤاخذني بما نسيت**﴾ أى: بما تركت من عهدك، ﴿**ولا ترهقني من أمري عسرًا**﴾. ثم خرجا[(٤)] من السفينة فانطلقا، حتى أتيا[(٥)] أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس فى الغلمان غلام أظرفُ منه ولا أثري[(٦)] ولا أوضأ[(٧)] منه، فأخذه بيده، وأخذ[(٨)] حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبى صغير قتله لا ذنب له[(٩)] قال: ﴿**قتلت نفسًا زكية**[(١٠)]﴾ أى: صغيرة ﴿**بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني**[(١١)] **عذرًا**﴾ أى: قد أعذرت[(١٢)] فى شأنى. ﴿**فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض**﴾، فهدمه ثم قعد يبنيه، فضجر موسى مما يراه[(١٣)] يصنع من التكليف، وما ليس عليه صبر، قال: ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرًا**﴾ أى: قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يُضَيِّفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً فى عمله؟. قال: ﴿ **هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا**﴾ ـ وفى قراءة أبىّ بن كعب: «كل سفينة صالحة» ـ وإنما عبتها[(١٤)] لأرده عنها، فسلمت[(١٥)] حين رأى

---

(١) زيادة من ف ،أ، والطبرى.
(٢) فى ف، أ: «يلتمسان».
(٣) فى ت: «فحملوها».
(٤) فى ت: «خرجاه».
(٥) فى ف، أ: «حتى إذا أتيا».
(٦) فى ف ، أ: «ولا أبرأ».
(٧) فى أ: «ولا أضوأ».
(٨) فى ف: «فأخذ».
(٩) فى ف: «عليه».
(١٠) فى أ: «زاكية».
(١١) فى ف: « قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٢) فى ت: «عددت»، وفى أ: «عذرت».
(١٣) فى أ : «رآه».
(١٤) فى أ: «عيبتها».
(١٥) فى ف: «فسلمت منه».

العيب الذى صنعت بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى: ما فعلته عن نفسى، ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً [(١)].

وقال العوفى، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر، أنزل قومه [(٢)]، فلما استقرت بهم الدار، أنزل الله: أن ذكرهم بأيام الله. فخطب قومه، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم، وما استخلفهم الله فى الأرض، وقال: كلم الله نبيكم تكليماً، واصطفانى لنفسه، وأنزل علىّ محبة منه، وآتاكم الله من كل ما سألتموه؛ فنبيكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها. فقال له رجل من بنى إسرائيل: هم[(٣)] كذلك يا نبى الله، قد عرفنا الذى تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام[(٤)]، فقال: إن الله [عز وجل][(٥)] يقول: وما يدريك أين أضع علمى؟ بلى[(٦)]. إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك ـ قال ابن عباس: هو الخضر ـ فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن ائت البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب. فلما طال سفر موسى نبى الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع[(٧)] الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس، حتى يكون صخرة[(٨)]، فجعل نبى الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام، وأنى يكون السلام بهذه[(٩)] الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال[(١٠)] الخضر: أصاحب بنى إسرائيل؟ [قال: نعم][(١١)] فرحب به وقال: ما جاء[(١٢)] بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألنى عن شىء أصنعه حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وقال الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٠).
(٢) فى ت، ف، أ: «قومه مصر». (٣) فى أ: «هن».
(٤) فى ف: «جبريل عليه السلام إلى موسى عليه السلام»، وفى أ: «جبريل إلى موسى عليه السلام».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «بل». (٧) فى أ: «حتى يتتبع».
(٨) فى ت: «حتى يكون مثل الحجر». (٩) فى أ: «وأنّى يكون هذا السلام بهذا». (١٠) فى ف، أ: «فقال له».
(١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: «ما حاجتك». (١٣) زيادة من ف، أ.

والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا ؛ فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لُقيّه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فَقَدت[١] الحوت [فهو ثمة][٢] فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فوجدا عبدنا [٣] خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه[٤] [٥].

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك [الرجل][٦] العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال بتلطف[٧]، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أى: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: أنت لا تقدر أن تصاحبنى، لما ترى [منّى][٨] من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور[٩] من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكنْ ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له[١٠] موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أى: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أى: ولا أخالفك فى شىء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أى: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة[١١]، عن أبيه، عن ابن

---

(١) فى ت: «بعدت». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عبداً».
(٤) فى ت: «كتابه العزيز».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٣).
(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت، ف، أ: «تلطف». (٨) زيادة من أ.
(٩) فى أ: «مأمور». (١٠) فى أ: «أى». (١١) فى ف: «عرة».

عباس قال: سأل موسى ربه، عز وجل، فقال[١]: رب، أى عبادك أحب إليك ؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى. قال: فأى عبادك أقضى ؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أى رب، أى عبادك أعلم ؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أى رب، فهل فى أرضك[٢] أحد أعلم منى ؟ قال: نعم. قال: فمن هو ؟ قال الخضر. قال: فأين[٣] أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التى ينفلت[٤] عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم[٥] كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إنى أريد أن تصحبنى[٦]. قال: إنك لن تطيق[٧] صحبتى. قال: بلى. قال: فإن صحبتنى ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به فى البحر[٨] حتى انتهى إلى مجمع البحور[٩]، وليس فى الأرض[١٠] مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقى منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ! قال: ياموسى، فإن علمى وعلمك فى علم الله كقَدْر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به،، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر. وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألاَّ يسأله عن شىء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه[١١] من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا فى السفينة. وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول ـ يعنى بغير أجرة ـ تكرمة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة فى البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها[١٢]، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر[١٣]:

لدُوا للمَوت وابْنُوا للخَرَاب

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مذكرا[١٤] بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته[١٥] قصداً،

---

(١) فى ت، ف، أ: «فقال أى». (٢) فى ت ف، أ: «فى الأرض». (٣) فى ف، أ: «وأين».
(٤) فى ت، ف: «يتفلت» (٥) فى ت: «وسلم». (٦) فى ت: «تستصحبنى».
(٧) فى ت: «تستطيع». (٨) فى ت: « فصار فى البحر»، وفى ف، أ: «فسار به إلى البحر». (٩) فى ف، أ: «البحرين».
(١٠) فى ت: «فى البحر» (١١) فى ف، أ: «يبتدئ به». (١٢) فى ت: «ألواح».
(١٣) هو أبو العتاهية، والبيت فى ديوانه (ص٤٦) أ. هـ. مستفاداً من ط ـ الشعب.
(١٤) فى ت: «مذكوراً». (١٥) فى ت: «عملته».

وهو[١] من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر علىّ فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ،ولم تعلمه[٢] أنت. ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق علىّ وتُشدد[٣]علىّ؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً» .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا ﴾ أى: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم[٤]، فقتله، فروى أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم.

فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً[٥]﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنث[٦]، ولا حملت إثماً بعد، فقتلته ؟! ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أى: ظاهر النكارة. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى: إن اعترضت عليك بشىء بعد هذه المرة ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى: قد أعذرت إلىّ مرة بعد مرة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب قال: كان النبى ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث[٧] مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً» [مثقلة][٨] [٩].

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين[١٠] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾. روى

---

(١) فى ف: «وهى» . (٢) فى ت: «تعلم» . (٣) فى ت، ف: «ولا تشدد» .
(٤) فى ف: «وأضوأهم» . (٥) فى ت: «زاكية بغير نفس» . (٦) فى أ: «الخبث» .
(٧) فى ف، أ: «ثبت» . (٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٨٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٨٤) من طريق حمزة الزيات به.
(١٠) فى أ: «الأولتين».

ابن جرير[(١)] ،عن ابن سيرين أنها الأيلة[(٢)]، وفى الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما»[(٣)] أى: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط.

وقوله: ﴿ فَأَقَامَهُ﴾ أى: فردّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم فى الحديث أنه ردّه بيديه، ودعمه حتى ردّ ميله[(٤)]. وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ[(٥)] عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى ألاّ تعمل لهم مجاناً [(٦)] ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [أى: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، فهو فراق بينى وبينك][(٧)] ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أى: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ .

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر اللّه الخضر، عليه السلام، على [(٨)] باطنة فقال إن: السفينة[(٩)] إنما خرقتها لأعيبها؛[لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة، أى: جيدة ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها][(١٠)] ، لأرده عنها لعيبها[(١١)]، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

و[قد][(١٢)] روى ابن جريج[(١٣)] عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى؛ أن اسم ذلك الملك هُدَدُ[(١٤)] بن بُدَدَ، وقد تقدم أيضاً فى رواية البخارى، وهو مذكور فى التوراة فى ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم فى التوراة، واللّه أعلم[(١٥)] .

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ .

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور. وفى الحديث عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ قال: « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

---

(١) فى أ: «جريج» . (٢) فى ت :«الأيكة» .
(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٩/٥) من طريق أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، رضى الله عنهما.
(٤) فى ت : «بيده وعمه حتى ردّ مثله» . (٥) فى ت: «اتخذت» وهو خطأ. (٦) فى ت: «يعمل مجانا» .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ت، ف، أ: «على حكمة».
(٩) فى ت: «فقال له السفينة»، وفى ف: «أما السفينة». (١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) فى ت: «لعينها» . (١٢) زيادة من ف، أ . (١٣) فى ت: «جرير».
(١٤) فى أ: «هود». (١٥) فى ف: «فالله أعلم».

﴿وَكُفْرًا﴾ أى: يحملهما حبه على متابعته على الكفر.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فليرض[١] امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه[٢] فيما يحب.

وصح فى الحديث: «لا يقضى الله للمؤمن قضاء[٣] إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقوله [تعالى][٤]: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.

وقال قتادة: أبر بوالديه.

وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج[٥].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾.

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجدار[٦] إنما أصلحه[٧] لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال العوفى عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد فى حديث مرفوع ما يقوى ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليَحْصَبى، عن عياش[٨] بن عباس القتبانى[٩]، عن ابن حُجَيرة[١٠]، عن

---

(١) فى ت، ف، أ: «فرضى».
(٢) فى ف: «من قضائه له».
(٣) فى أ: «للمؤمنين قضاء».
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت: «ابن جرير».
(٦) فى ت: «الجار».
(٧) فى ف: «أصلحته».
(٨) فى ت، ف، أ: «عباس».
(٩) فى أ: «الغسانى».
(١٠) فى هـ: «أبى حجيرة» والصواب ما أثبتناه من مسند البزار.

أبى ذر، رضى الله عنه، [رفعه][(١)] قال: «إن الكنز الذى ذكر[(٢)] اللَّه فى كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب[(٣)]؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضَحِكَ[(٤)]؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه»[(٥)].

بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضى المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلى: فى حديثه وهم[(٦)].

وقد روى فى هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنى يعقوب، حدثنى الحسن ابن حبيب بن ندبة[(٧)]، حدثنا سلمة[(٨)]، عن نعيم العنبرى ـ وكان من جلساء الحسن ـ قال: سمعت الحسن ـ يعنى البصرى ـ يقول فى قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن[(٩)] بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه.

وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عبد اللَّه بن عياش[(١٠)]، عن عُمَر[(١١)] مولى غُفْرَة[(١٢)] قال: إن الكنز الذى قال اللَّه فى السورة التى يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصْمَت مكتوبا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبٌ لمن عرف النار[(١٣)] ثم ضحك! عجبٌ[(١٤)] لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجبٌ لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى، حدثتنا هَنَّادَة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبى حماد ابن الوليد الثقفى يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول اللَّه تعالى[(١٥)]: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبت للموقن[(١٦)] بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت للموقن[(١٧)] بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً.

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافى قول عكرمة: إنه كان مالاً لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم[(١٨)]، وهو حكم ومواعظ، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، وتشمل بركة

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ف، أ: «ذكره». (٣) فى ف، أ: «ينصب».
(٤) فى ت، ف: «يضحك»، وفى أ: «ضحك».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٢٩) «كشف الأستار» وقد روى موقوفًا من طرق عن ابن عباس وعلى، رضى الله عنهما، لكن أسانيدها ضعيفة.
(٦) ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٥). (٧) فى ف، أ: «بدنة». (٨) فى ت: «مسلم».
(٩) فى ت، ف: «يؤمن». (١٠) فى أ، ف: «بن عباس». (١١) فى ف: «عن عمرو».
(١٢) فى ف: «عفرة». (١٣) فى ت: «عجبت لمن عرف الموت». (١٤) فى ت: «عجبت».
(١٥) فى ف: «عز وجل». (١٦) فى ت: «للموقف». (١٧) فى ت: «للموتى».
(١٨) فى ف: «علما».

عبادته لهم فى الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء فى القرآن ووردت السنة[١] به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. [فاللَّه أعلم][٢].

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾: ههنا أسند الإرادة إلى اللَّه تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم[٣] لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ وقال فى الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال فى السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فاللَّه أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى: هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة اللَّه بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدى الغلام، وولدى الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى﴾، لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخَضر، عليه السلام، مع ما تقدم من[٤] قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردى فى تفسيره.

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً. بل كان ولياً. فاللَّه أعلم.

وذكر ابن قتيبة فى المعارف أن اسم الخضر بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، عليه السلام[٥].

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووى فى تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا فى ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث. ولا يصح شىء من ذلك، وأشهرها أحاديث[٦] التعزية، وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبى ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض»[٧]، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول اللَّه ﷺ [ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ][٨] وأصحابه؛ لأنه عليه السلام[٩] كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّين ما[١٠] وسعهما إلا اتباعى»[١١]، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ، إلى غير ذلك من الدلائل.

---

(١) فى ف: «به السنة». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت: «الحكم».
(٤) فى ف: «فى». (٥) المعارف (ص٤٢). (٦) فى ت: «حديث».
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٦٣) من حديث عمر، رضى الله عنه.
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى أ: «ﷺ». (١٠) فى ت، ف: «لما».
(١١) ذكره ابن أبى العز فى شرح الطحاوية فى سياقه وعلق عليه الشيخ ناصر الألبانى فى تخريج الطحاوية بقوله: «كذا الأصل، وكأنه يشير إلى الحديث الذى ذكره شيخه ابن كثير فى تفسير سورة الكهف بلفظ: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى». وهو حديث محفوظ، دون ذكر «عيسى» فيه، فإنه منكر عندى لم أره فى شىء من طرقه، وهى مخرجة فى إرواء الغليل برقم (١٥٨٩)».

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن مُنبِّه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ [فى الخَضر قال][١] : « إنما سمى «خضراً»؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تحته [تهتز][٢] خضراء »[٣].

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً فى صحيح البخارى، عن همام، عن أبى هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما سمى الخضِر؛ لأنه جلس على فَرْوَة، فإذا هى تهتز [من خلفه][٤] خضراء»[٥].

والمراد بالفروة ههنا[٦] :الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل: المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال :﴿ [مَا لَمْ] [٧]تَسْطِع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف، بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، واللَّه أعلم.

فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة[٨] ،حدثنى ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء [فخلد، فأخذه][٩] العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[١٠] .

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

(١) زيادة من ف،أ، والمسند.
(٢) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٣) المسند (٢/٣١٢).
(٤) زيادة من ف، أ، والبخارى.
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٢).
(٦) فى ت: «ههنا بالفروة».
(٧) زيادة من ف .
(٨) فى ف: «مسلم».
(٩) زيادة من ف ، أ، والطبرى، وفى هـ: «فحار» .
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/١٨٢) .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ يامحمد ﴿ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أى: عن خبره. وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون[1] منهم ما يمتحنون به النبى ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف فى الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقد أورد ابن جرير ههنا، والأموى فى مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر، أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبى ﷺ عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً[2] من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك فى السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب». وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل. والعجب أن أبا زُرْعَة الرازى، مع جلالة قدره، ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى ابن فيليبس المقدونى، الذى تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل، عليه السلام، أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه[3] الخضر، عليه السلام، وأما الثانى فهو، اسكندر بن فيليبس المقدونى اليونانى، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذى تؤرخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل، كما ذكره الأزرقى وغيره، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم، عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً[4] من أخباره فى كتاب «البداية والنهاية»[5]، بما فيه كفاية، ولله الحمد.

قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمى ذا القرنين لأن؛ صفحتى رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان فى رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت، عن أبى الطفيل قال: سئل على، رضى الله عنه، عن ذى القرنين، فقال: كان عبداً ناصحَ الله فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فضربوه[6] على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمى ذا القرنين.

وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبى بَزَّة عن أبى الطفيل، سمع علياً يقول ذلك.

ويقال: إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع[7] قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتى[8] الملوك، من التمكين والجنود[9]، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر

---

(١) فى ت: «يسألونك».
(٢) فى ت: «ماشيا».
(٣) فى أ: «وكان وزيره».
(٤) فى ف، أ: «طرفا صالحاً».
(٥) البداية والنهاية (٢/ ٩٥).
(٦) فى ت، ف، أ: «فضرب».
(٧) فى ت، ف: «تطلع».
(٨) فى ف: «تؤتى».
(٩) فى ف: «من الجنود والتمكن».

بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها .

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعنى علماً .

وقال قتادة أيضاً فى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لَهيعة: حدثنى سالم بن غَيْلان، عن سعيد بن أبى هلال؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال[١] لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن اللّه تعالى قال: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾.

وهذا الذى أنكره معاوية، رضى اللّه عنه، على كعب الأحبار هو الصواب[٢] ، والحق مع معاوية فى الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو[٣] عليه الكذب» يعنى: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس فى صحيفته[٤]، ولكن الشأن فى صحيفته[٥] أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق[٦] ،ولا حاجة لنا مع خبر اللّه ورسول اللّه [ﷺ[٧]] إلى شىء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير[٨] ،وفساد عريض. وتأويل كعب قول اللّه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك، ولا إلى الترقى[٩] فى أسباب السموات. وقد قال اللّه فى حق بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٢٣] أى: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر اللّه له الأسباب، أى: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتى من كل شىء مما[١٠] يحتاج إليه مثله سبباً، واللّه أعلم.

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى، من طريق قتيبة، عن أبى عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز[١١] قال : كنت عند على، رضى اللّه عنه، وسأله رجل عن ذى القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب ؟ فقال سبحان اللّه سخر له السحاب، وقَدَّر له الأسباب، وبسط له اليد[١٢].

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ

(١) فى ت: «يقول» .
(٢) فى أ : «الطنوب» .
(٣) فى أ: «لنتلوا» .
(٤، ٥) فى ف، أ: «صحفه» .
(٦) فى أ: «مخلق».
(٧) زيادة من ف، أ .
(٨) فى ت: «كبير».
(٩) فى ف: «الرقى».
(١٠) فى أ: «ما» .
(١١) فى ت، ف، أ: «حماد» .
(١٢) المختارة برقم (٤٠٩) .

نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعنى: بالسبب المنزل][1] . وقال مجاهد: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

وفى رواية عن مجاهد: ﴿ سَبَبًا ﴾ قال: طريقا فى[2] الأرض .

وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها [3].

وقال الضحاك: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: المنازل [4].

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدى.

وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشىء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق[5] زنادقتهم وكذبهم[6] .

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لاتفارقه[7] .

والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين[8] من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس[9] . وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب[10]، حدثنى نافع بن أبى نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول[11] ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن منى، ولكنى أجدها فى الكتاب تغيب فى طينة سوداء[12] .

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد[13] بن أوس، عن مِصْدَع، عن ابن

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى هـ، ت، ف: «طرفى»، والمثبت من الطبرى، أ.
(٣) فى ت: «ومغاربها» .
(٤) فى ت: «المنزل».
(٥) فى ت: «واختلاف» .
(٦) فى ف: «وكذبتهم» .
(٧) فى ت: «يفارقه» .
(٨) فى ت: «على أحد الروايتين» .
(٩) فى ت: «إبليس» .
(١٠) فى ت: «حدثنا وهب» .
(١١) فى ف، أ: «يقرأ» .
(١٢) تفسير الطبرى (١٦/ ١٠) .
(١٣) فى ت: «سعيد» .

عباس، عن أبيّ بن كعب؛ أن النبى ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَة﴾[١].

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى.

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب[٢].

قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَة﴾ فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا[٣] العوام، حدثني مولى لعبد اللَّه بن عمرو، عن عبد اللَّه قال: نظر رسول اللَّه ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «فى نار اللَّه الحامية [فى نار اللَّه الحامية][٤]، لولا ما يزعها من أمر اللَّه، لأحرقت ما على الأرض».

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون[٥]. وفى صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد اللَّه بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، واللَّه أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد ـ يعنى ابن بشر ـ حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف «تغرب فى عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها[٦] إلا ﴿حَمِئَة﴾ فسأل معاوية عبد اللَّه ابن عمرو كيف تقرؤها: فقال عبد اللَّه: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: فى بيتى نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ [فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنى أجد الشمس تغرب فى التوراة][٧] فى ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أنى عندكما أفدتك[٨] بكلام تزداد فيه بصيرة فى حمئة. قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تُبَّع، فيما ذكر به ذا القرنين فى تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَغَ المشَارِقَ والمغَارِبَ يَبْتَغِى ... أَسْبَابَ أمْرٍ مِنْ[٩] حكيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأى مَغيبَ[١٠] الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِها ... فِى عَيْنِ ذِى خلُب وَثَاط[١١] حَرْمَدِ[١٢][١٣]

قال[١٤] ابن عباس: ما الخُلُب؟ قلت: الطين بكلامهم. [يعنى بكلام حمير][١٥]. قال: ما الثاط؟

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٥٣٦).
(٢) فى ت: «المصيب».
(٣) فى ت: «حدثنا».
(٤) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٥) المسند (٢/ ٢٠٧).
(٦) فى ت: «تقرأها».
(٧) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٨) فى أ: «لأفدتك».
(٩) فى ت: «من أمر».
(١٠) فى ت أ: «فوجد مغاب» وفى ف: «فرأى مغاب».
(١١) فى أ: «وأناط».
(١٢) فى ت: «وقاص»، وفى ف: «وناط».
(١٣) البيتان فى لسان العرب، مادة (ثأط) وهما لأمية بن أبى الصلت.
(١٤) فى ف: «فقال».
(١٥) زيادة من ت، ف.

قلت: الحمأة. قال: فما الحرْمَد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل.

وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فقال كعب: والذى نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت فى التوراة غير ابن عباس، فإنا نجدها فى التوراة: تغرب فى مدرة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: فى تفسير ابن جريج ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وُجُوب الشمس حين تجب.

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أى: أمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن اللّه تعالى مكنه منهم[1]، وحكمه فيهم، وأظفره بهم[2] وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى[3]. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه[4] فى قوله: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أى: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل: وقال السدى: كان يحمى لهم بقر النحاس ويضعهم فيها[5] حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم وبيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، واللّه أعلم.

وقوله[6]: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفيه[7] إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى: تابعنا على ماندعوه إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند اللّه، عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾.

يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها[8]، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى اللّه عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل[9] الإقليم المتاخم لهم. وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب[10] الأرض طولها والعرض[11]، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

(١) فى ت: «فيهم».
(٢) فى ت: «وأظفره عليهم»، وفى ف، أ: «وأظهره عليهم».
(٣) فى ف، أ: «وافتدى».
(٤) فى ت: «وثباته».
(٥) فى ف: «فيه».
(٦) فى ت: «فقوله».
(٧) فى أ: «وفى هذا».
(٨) فى ت: «من مطلع الشمس إلى مغربها».
(٩) فى أ: «قتال».
(١٠) فى ف، أ: «يخرب».
(١١) فى ف، أ: «طولها وعرضها».

قَوْمٍ أى: أمة ﴿ **لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا** ﴾ أى: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حُمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل[1] بن أبى الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: ﴿**لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ قال: إن أرضهم[2] لاتحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا[3] فى المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال[4] الحسن: هذا حديث سمرة[5].

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لاتنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب، حتى إذا زالت[6] الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

وعن سلمة بن كُهَيْل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلأحدهم أذنان يفترش إحداهما [7]ويلبس الأخرى.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ قال: هم الزنج [8].

وقال ابن جريج فى قوله: ﴿**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم[9] حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها[10] جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيفُ جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين فى الأرض.

وقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا**﴾ قال مجاهد، والسدى: علماً، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لايخفى علينا منها شىء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿**لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ**

---

(١) فى أ: «سهيل». (٢) فى ت: «أرضيكم». (٣) فى ت: «فقعدوا»، وفى أ: «يغوروا».

(٤) فى ت، ف: «فقال».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٢) من طريق إبراهيم بن المستمر، عن أبى داود به.

(٦) فى ت: «غربت». (٧) فى ف، أ: «واحدة».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٤٦).

(٩) فى ت: «أسرابا بهم». (١٠) فى أ: «بها».

وبينهم ردمًا ﴿٩٥﴾ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارًا قال آتوني أفرغ عليه قطرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن اللَّه تعالى يقول : يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمَّتين، ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»[(١)].

وقد حكى النووى[(٢)] ،رحمه اللَّه، فى شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك[(٣)] ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، [ثم][(٤)] لا دليل عليه لا من عقل ولا [من][(٥)] نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث[(٦)] المفتعلة، واللَّه أعلم .

وفي مسند[(٧)] الإمام أحمد، عن سَمُرَة؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبوالعرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»[(٨)]. فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، قال: [إنما[(٩)]سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من[(١٠)] هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة[(١١)]. وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً فى سير ذى القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم، [وطولهم][(١٢)] وقصر بعضهم، وآذانهم[(١٣)]. وروى ابن أبى حاتم أحاديث غريبة فى ذلك لا تصح [(١٤)] أسانيدها، واللَّه أعلم .

وقوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [أى][(١٥)]: لاستعجام كلامهم وبعدهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.
(٢) فى أ: «النواوى».
(٣) شرح النووى (٣/ ٩٧).
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) زيادة من ت، ف.
(٦) فى ت: «من الأكاذيب».
(٧) فى ف، أ: «المسند».
(٨) المسند (٥/ ٩).
(٩) فى أ: «وإنما».
(١٠) فى أ: «فمن».
(١١) فى أ: «وجرأة».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) تفسير الطبرى (١٦/ ١٤).
(١٤) فى ف، أ: «لايصح».
(١٥) زيادة من ف، أ.

عن الناس.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً، يعنى: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين[١] خير لى من الذى تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه، ولكن ساعدونى ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾، والزبر: جمع زُبْرَة، وهى القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهى كاللبنة[٢]، يقال: كل لبنة [زنة][٣] قنطار بالدمشقى، أو تزيد عليه.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أى: أجج[٤] عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه[٥] بالبرد المحبر.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يارسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لى» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء. وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل[٦].

وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه[٧] معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه[٨] أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً [٩] من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال[١٠] شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين،

---

(١) فى أ: «والتمكن». (٢) فى أ: «اللبنة». (٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «أججوا». (٥) فى أ: «شبه».

(٦) وقد روى موصولاً من طرق: فرواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف(٢/ ٣١٢) من طريق أبى الجماهر ـ سعيد بن بشير ـ عن قتادة، عن رجل، عن أبى بكرة الثقفى: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إنى قد رأيته، فذكر نحوه. ورواه البزار فى مسنده كما فى تخريج الكشاف(٢/ ٣١٣) من طريق عبد الملك بن أبى نعامة، عن يوسف بن أبى مريم، عن أبى بكرة بنحوه مطولا. ورواه ابن مردويه أيضًا من طريق سفيان، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبى ﷺ، فذكر نحوه.

(٧) فى ف، أ: « وجهز». (٨) فى ت : «وعلى». (٩) فى ف، أ : «سرحًا».

(١٠) فى ت، ف، أ: «عالٍ منيف».

وشاهدوا أهوالاً وعجائب.

ثم قال اللّه تعالى :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا [١] فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم[٢] يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد اللّه أن يبعثهم على الناس[٣] [حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس][٤] قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء اللّه. ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته[٥] حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون[٦] على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، [فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء][٧]. فيبعث الله عليهم نغفا[٨] فى أقفائهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم»[٩].

ورواه أحمد أيضاً عن حسن ـ هو ابن موسى الأشيب ـ عن سفيان، عن قتادة، به[١٠]. وكذا رواه [١١] ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عوانة، عن قتادة[١٢]. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى ف، أ: «يصعدوا من».
(٢) فى ت: «لا».
(٣) فى أ: «على النار».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٥) فى أ: «كهيئة».
(٦) فى ت: «ويخرجونهم».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٨) فى أ: «نغيفا».
(٩) المسند (٢/ ٥١٠).
(١٠) المسند(٢/ ٥١١).
(١١) فى أ: «رواه الإمام».
(١٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٣).

وهذا إسناد قوى، ولكن فى[1] رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه[2] إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه[3] إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء اللَّه»، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه[4] ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم[5] بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، واللَّه أعلم.

ويؤكد ما قلناه[6] ـ من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شىء منه، ومن نكارة هذا المرفوع ـ قول الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن [زينب بنت أبى سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن][7] زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ- قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبى ﷺ من نومه. وهو محمر وجهه، وهو يقول: « لا إله إلا اللَّه! ويل للعرب[8] من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ». وحَلَّق. قلت: يا رسول اللَّه، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ».

هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه، من حديث الزهرى[9]، ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء[10] عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة[11] الإسناد، منها رواية الزهرى عن عروة، وهما تابعيان ومنها[12] اجتماع أربع نسوة فى سنده، كلهن يروى بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية[13]، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضى اللَّه عنهن.

وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا وهيب[14]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين . وأخرجه البخارى ومسلم من حديث وهيب[15]، به[16].

---

(١) فى ف، أ: «ولكن متنه فى». (٢) فى ف: «فيه». (٣) فى ف، أ: «فيه».
(٤) فى ت: «كان كثيرًا ما يجالسه». (٥) فى ت: «فيقرهم». (٦) فى أ: «قلنا».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: «للغريب».
(٩) المسند (٦/٤٢٨) وصحيح البخارى برقم (٧١٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٠).
(١٠) فى أ: «إسناد». (١١) فى ت: «صياغة». (١٢) فى أ: «وفيما».
(١٣) فى أ: «منهم صاحبيه».
(١٤، ١٥) فى ت: «وهب».
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧١٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨١).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى: لما بناه ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أى: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث[١] فى الأرض والفساد. ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دَكَّاء ﴾ أى: ساواه[٢] بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أى: مساوياً للأرض[٣].

وقال عكرمة فى قوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جعله دَكَّاءَ﴾ قال: طريقاً كما كان.

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أى: كائناً لا محالة.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ [يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] [٤]﴾ أى: الناس يومئذ أى: يوم يدك[٥] هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدى فى قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى][٦] عند قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ .وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَق ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ قال ابن زيد فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ [٧]فى الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمى[٨]، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بنى فزارة[٩] فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا[١٠] الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا[١١] الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يميناً وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا[١٢] الأرض فيقول: «ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج اللَّه خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن فى الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن اللَّه فرض علىّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من

---

(١) فى أ: «العبث». (٢) فى ت، أ: «واساه». (٣) فى ت: «الأرض».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ت: «بذكر».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) فى ت: «ينفخ». (٨) فى أ: «العمى». (٩) فى أ: «قرارة».

(١٠ـ ١٢) فى أ: «قد تطبقوا».

خلقه. فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة. فيقول: ماهى؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم فى النار. فتزفر النار[١] زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مُرسل إلا جثا لركبتيه[٢].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم فى بعض.

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهانى[٣]، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبى إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتايس[٤] ومنسك»[٥].

هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائى من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبى أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٦].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: والصور كما جاء فى الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم فى الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

وفى الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القَرْن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[٧].

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أى: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

---

(١) فى أ: «جهنم».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣).

(٣) فى ف، أ: «الأصبهانى».

(٤) فى ت، ف: «تاريس».

(٥) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٢٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦): «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات».
تنبيه: وقع فى مجمع الزوائد «تاول وتاريس ومنسك» وعند الطيالسى «تاويل وتاريس وتارليس ومنسك» وفى المطالب العالية «تاويل وتاريس وناسك».

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٤).

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣١) وقال: «هذا حديث حسن».

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أى: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم.

وفى صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها][(١)]»[(٢)].

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ أى: تعاموا وتغافلوا وتصاموا[(٣)] عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

ثم قال ﴿ أَفَحَسِبَ[(٤)] الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعدّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصْعَب قال: سألت أبى ـ يعنى سعد بن أبى وقاص ـ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾: أهم الحَرُورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى الله عنه، يسميهم الفاسقين[(٥)].

(١) زيادة من ف، أ، ومسلم.
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢).
(٣) فى أ: «تصامموا».
(٤) فى ت: «أفحسبتم» وهو خطأ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٨).

وقال على بن أبى طالب[١]، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية.

ومعنى هذا عن على، رضى الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء[٢]، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل[٣] وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] وقوله[٤] تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أى: نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير[٥].

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا المغيرة، حدثنى أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين[٦] يوم القيامة، لايزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾». وعن يحيى بن بُكَيْر، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبى الزناد، مثله[٧].

هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً[٨]. وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن صالح مولى التَّوْأمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبى كريب، عن أبى الصلت، عن ابن أبى الزناد، عن صالح مولى

---

(١) فى ت: «طلحة». (٢) فى أ: «هو». (٣) فى ت: «وقيل».

(٤) فى ت، ف، أ: «وقال». (٥) فى ت: «من الخير». (٦) فى ت: «السمين العظيم».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٩).

(٨) فى ت: «مغلقًا».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٥).

التوأمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً [١] فذكره بلفظ البخارى سواء .

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمَارة[٢]، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له. فلما قام على النبى ﷺ قال: «يابريدة، هذا ممن لايقيم اللّه له يوم القيامة وزناً»[٣] .

ثم قال: تفرّد به واصل مولى أبى عنبسة[٤] وعون[٥] بن عُمَارة[٦]، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر[٧] ، عن أبى يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة، اقرؤوا : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٨] .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات اللّه ورسله هزواً، استهزؤوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا باللّه ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس.

قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية .

وقال كعب، والسدى، والضحاك: هو البستان الذى فيه شجر الأعناب.

وقال أبو أمامة[٩] :الفردوس: سرة[١٠] الجنة.

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

وقد روى هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير[١١] ،عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبى ﷺ: « الفردوس[١٢] :ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها»[١٣] .

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٢) فى ت: «عامر» .

(٣) مسند البزار برقم (٢٩٥٦) «كشف الأستار».

(٤) فى ت: «مولى عن عبيد»، وفى ف، أ: «مولى أبى عيينة» .

(٥) فى ف، أ: «وعنه عون» . (٦) فى ت : «عامر» . (٧) فى ت: «سمرة» .

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٩) فى ت : «أسامة» . (١٠) فى ت : «شجرة» . (١١) فى ف ، أ: «بشر» .

(١٢) فى ت: «والفردوس» .

(١٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٢١٣) من طريق أبى الجماهر، عن سعيد بن بشير به .

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس ابن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله[١] ابن جرير، رحمه الله[٢].

وفي الصحيحين: « إذ سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط[٣] الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة »[٤].

وقوله: ﴿ نُزُلاً ﴾ أي: ضيافة، فإن النزل هو الضيافة.

وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقيمين ساكنين[٥] فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي: لا يختارون[٦] غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر[٧]:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْب لاَ أنَا بَاغياً ... سواها ولا عَنْ حُبِّها أتَحوّلُ

وفي قوله: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم[٨] فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً[٩] ولا رحلة[١٠] ولا بدلاً[١١].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب[١٢] به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة[١٣] عليه، ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ [أي: لفرغ البحر][١٤] قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور[١٥] كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.

---

(١) في أ: «ذكر ذلك كله».

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٠) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٧٤) من طريق روح بن عبادة، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) في ت: «وأوسطه».

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٤٢٣).

(٥) في ف، أ: «ماكثين». (٦) في ت: «لا تختارون».

(٧) هو النابغة الجعدي، والبيت في مغني اللبيب (ص٢٦٥) أ.هـ مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.

(٨) في أ: «أنه قد توهم». (٩) في ت: «ضعفا». (١٠) في أ: «رحيلة».

(١١) في ت، ف، أ: «بديلا». (١٢) في ف: «يكتب». (١٣) في ت، ف، أ: «والدلالات».

(١٤) زيادة من ت، ف، أ. (١٥) في ت: «البحر».

يقول: لو كان البحر مدادا [لكلمات الله][(١)]، والشجر كله أقلام[(٢)]، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق مانقول[(٣)]، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة [(٤)] كحبة من خردل فى خلال الأرض [كلها][(٥)].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾.

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفى، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت[(٦)].

يقول لرسوله محمد ﷺ[(٧)]: **﴿ قُلْ ﴾** لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: **﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾** فمن زعم[(٨)] أنى كاذب، فليأت بمثل ماجئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما[(٩)] أخبرتكم به من الماضى، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق[(١٠)] فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى اللّه عليه، وأنا أخبركم **﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ ﴾** الذى أدعوكم إلى عبادته، **﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾** لا شريك له، **﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾** أى: ثوابه وجزاءه الصالح، **﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ﴾**، وهو ما كان موافقاً لشرع اللّه، **﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾** وهو الذى يراد به وجه اللّه وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لابد أن يكون خالصاً للّه، صواباً [(١١)] على شريعة رسول اللّه [ﷺ][(١٢)]. وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن طاوس قال: قال رجل: يارسول اللّه، إنى أقف المواقف أريد وجه اللّه، وأحب أن يرى موطنى. فلم يرد عليه رسول اللّه ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: **﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾**.

وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بنى هاشم، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئنى عما أسألك عنه: أرأيت رجلاً يصلى، يبتغى وجه اللّه، ويحب أن يُحْمَد، ويصوم ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، ويحج ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شىء، إن اللّه تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معى شريك [(١٣)] فهو له كله، لاحاجة لى فيه». [(١٤)]

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «والشجر أقلام كلها».
(٣) فى ت، أ: «يقول».
(٤) فى أ: «الجنة».
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المعجم الكبير(١٩/ ٣٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤): «رجاله ثقات».
(٧) فى ت، ف، أ: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٨) فى ف، أ: « يزعم».
(٩) فى أ: «مما».
(١٠) فى ت، أ: «المطابق».
(١١) فى ت: «صوابًا خالصاً له».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى أ: «شرك».
(١٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون[١] له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا. فكثر المحتسبون[٢] وأهل النُّوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: « ما هذه النجوى ؟ [ألم أنهكم عن النجوى][٣]». قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أى نبىّ الله، إنما كنا فى ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ » قال: قلنا: بلى. قال: « الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل »[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد ـ يعنى ابن بَهْرَام ـ قال: قال شَهْر بن حَوْشَب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يمينى بشماله، وشمال أبى الدرداء بيمينه، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى، والله أعلم بما نتناجى به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان[٥] أن تريا الرجل من ثبج المسلمين ـ يعنى من وسط ـ قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم[٦] حرامه، ونزل عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما يَحُور[٧] رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضى الله عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من الشهوة الخفية والشرك». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفراً. أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . وأما الشهوة الخفية[٨] فقد عرفناها، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلى لرجل، أو يصوم لرجل، [أو تصدق له، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له][٩] أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ [يقول][١٠] : «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك؟» فقال[١١] عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن [حَشْده][١٢] عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى »[١٣].

طريق [أخرى][١٤] لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نُسىّ، عن شداد بن أوس، رضى الله عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شىء سمعته من رسول الله ﷺ [يقوله فذكرته][١٥] فأبكانى، سمعت رسول الله يقول: « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية ». قلت: يارسول الله، أتشرك أمتك [من بعدك؟][١٦] قال: « نعم،

---

(١) فى ت، ف: « تأذن»، وفى أ : «نأذن». (٢) فى أ: «المجسسون».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) المسند(٣/ ٣٠) وفى إسناده ربيح بن عبد الرحمن قال أحمد: ليس بمعروف، وقال البخارى: منكر الحديث.
(٥) فى أ: «ليوشكان». (٦) فى ت: «فحرم». (٧) فى ت، ف، أ: « لايجوز منكم إلا كما يجوز».
(٨) فى أ : «حفية». (٩، ١٠) زيادة من ف، أ، والمسند. (١١) فى ف، أ: «قال». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند (٤/ ١٢٥). (١٤ـ ١٦) زيادة من ف، أ.

أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه [١]».

ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذَكْوَان، عن عبادة بن نُسيّ، به[٢]. وعبادة فيه ضعف وفى سماعه من شداد نظر.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين[٣] بن علىّ بن جعفر الأحمر، حدثنا علىّ ابن ثابت، حدثنا قيس بن[٤] أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه يوم القيامة: أنا خير شريك، من [٥] أشرك بى أحداً فهو له كله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، يرويه عن ربه، عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا منه برىء، وهو للذى أشرك». تفرّد به من هذا الوجه [٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول اللّه ؟قال: «الرياء، يقول اللّه يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» [٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٨]، أخبرنا عبد الحميد ـ يعنى ابن جعفر ـ أخبرنى أبى، عن زياد بن ميناء، عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله للّه أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك».

وأخرجه الترمذى وابن ماجه،[من حديث محمد بن][٩]بكر [١٠] وهو البُرسانى، به[١١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثنى أبى - يعنى عبد العزيز بن أبى بكرة[١٢] - عن أبى بكرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من سمَّع سمَّع اللّه به، ومن راءى راءى اللّه به»[١٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبى سعيد

---

(١) فى أ: «صيامه».
(٢) المسند(٤/ ١٢٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٥).
(٣) فى ف، أ: «الحسن».
(٤) فى أ: «عن».
(٥) فى أ: «فمن».
(٦) المسند (٢/ ٣٠١) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(٩٣٨) من طريق محمد بن جعفر به.
(٧) المسند(٥/ ٤٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢): «رجاله رجال الصحيح».
(٨) فى ف، أ: «بكير».
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) فى ف، أ: «بكير».
(١١) المسند (٤/ ٢١٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٣).
(١٢) فى ف، أ: «بكر».
(١٣) المسند(٥/ ٤٥).

الخدرى، عن رسول اللَّه ﷺ قال: « من يرائى يرائى اللَّه به، ومن يسمع يسمع اللَّه به »(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثنى عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً فى بيت أبى عبيدة؛ أنه سمع(٢) عبد اللَّه بن عمرو يحدث ابن عمر(٣)، أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع اللَّه به ، سامع خلقه وصغره وحقره »[قال](٤): فذرفت عينا عبد اللَّه(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلى، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبوعمران الجونى، عن أنس، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تعرض أعمال بنى آدم بين يدى اللَّه، عز وجل، يوم القيامة فى صحف مختومة(٦)، فيقول اللَّه: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يارب، واللَّه ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهى، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى».

ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصرى ليس به بأس (٧).

وقال ابن وهب: حدثنى يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد اللَّه(٨) بن قيس الخزاعى، أن رسول اللَّه ﷺ قال:« من قام رياء وسمعة، لم يزل(٩) فى مقت اللَّه حتى يجلس»(١٠).

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص، عن عوف(١١) بن مالك، عن ابن مسعود، رضى اللَّه عنه، قال : قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك(١٢) استهانة استهان بها ربه، عز وجل»(١٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكونى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش(١٤) ،حدثنا عمرو بن قيس الكندى؛ أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن(١٥).

---

(١) المسند (٣/ ٤٠).
(٢) فى أ: «ليسمع».
(٣) فى أ: «عمرو». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند(٢/ ١٦٢).
(٦) فى أ:«مختمة».
(٧) مسند البزار برقم (٣٤٣٥) «كشف الأستار».
(٨) فى أ: «عبد الرحمن». (٩) فى ت، أ: «يزد».
(١٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٣): «رواه الطبرانى وفيه يزيد بن عياض وهو متروك». وله شاهد من حديث أبى هند الدارى رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٠).
(١١) فى ت، ف، أ: «عروة». (١٢) فى أ: «فذلك».
(١٣) مسند أبى يعلى (٩/ ٥٤) وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية(٣/ ١٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢١): «فيه إبراهيم ابن مسلم الهجرى وهو ضعيف».
(١٤) فى ت، أ: «ابن عباس».
(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية [هى][١] آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها[٢] ولا يغير حكمها[٣]، بل هى مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، واللّه أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من قرأ فى ليلة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كان له من نور، من عدن أبين إلى [مكة][٤] حَشْوُهُ الملائكة»[٥]. غريب جداً.

آخر [تفسير][٦]سورة الكهف ولله الحمد[٧]

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «آية تنسخها».
(٣) فى ت، ف: «بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) مسند البزار برقم (٣١٠٨) «كشف الأستار»، وأبو قرة الأسدى جهله الذهبى وابن حجر، وقال الذهبى: «تفرد عنه النضر بن شميل». وقال ابن حجر: «أخرج ابن خزيمة حديثه فى صحيحه وقال: لا أعرفه بعدالة ولا جرح».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، غفر الله لمن كتبه ولمن كان سببًا فى كتابته.

[٣٩٦ظ] /
سورة الكهف

مكيّة،[١] قال ابن عبّاس: غيرَ آيتين،[٢] وهي[٣] مائة وعشر آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ (١)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابَ الكامل الغنيّ عن الوصف بالكمال المعروف بذلك مِن بين الكتب الحقيقَ باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المُنزَل حينئذ، كما مرّ مرارًا.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّيّة ما في حيّز الصلة لاستحقاق الحمد، وإيذانٌ بعِظَم شأن التنزيل الجليل، كيف لا، وعليه يدور فَلَك سعادة الدارين. وفي التعبير عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالعبد مضافًا إلى ضمير الجلالة تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة، وتشريفٌ له أيُّ تشريف، وإشعارٌ بأنّ شأن الرسول أن يكون عبدًا للمرسِل، لا كما زعمت النصارى في حقّ عيسى عليه السلام.

وتأخير المفعول الصريح عن الجارّ والمجرور مع أنّ حقّه التقديمُ عليه، ليتّصل به قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: شيئًا مِن العِوَج بنوع اختلال في النظم وتنافٍ في المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحقّ، وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان، وأمّا قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه، ١٠٧/٢٠]، مع كون الجبال مِن الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يُدرَك مِن العِوَج بحاسّة البصر؛ بل إنّما يوقَف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسيّة،

---

١ ط س + وهي مئة وإحدى عشرة آية.
٢ انظر: تفسير الرازي، ٤٢١/٢١.
٣ س – قال ابن عبّاس غير آيتين، وهي.

ولمّا كان ذلك ممّا لا يُشعَر به بالمشاعر الظاهرة عُدّ مِن قبيل ما في المعاني. وقيل: الفتحُ في اعوجاج المنتصِب كالعُود والحائط، والكسرُ في اعوجاج غيره عينًا كان أو معنى.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾

﴿قَيِّمًا﴾ بالمصالح الدينيّة والدنيويّة للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده مِن الإنذار والتبشير، فيكون وصفًا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على ما قبله مِن الكتب السماويّة شاهدًا بصِحّتها ومهيمِنًا عليها أو متناهيًا في الاستقامة، فيكون تأكيدًا لِما دلّ عليه نفيُ العِوَج مع إفادة كونِ ذلك مِن صفاته الذاتيّة اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة، لا أنّه نُفي عنه العِوَج مع كونه مِن شأنه.

وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدِّمة معطوفة على الصلة بمضمَر ينبئ عنه نفيُ العِوَج، تقديرُه: جعلَه قَيِّمًا، وإمّا على تقدير كونها حاليّة، فهو على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛[1] إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف. / وقُرِئ: "قِيَمًا".[2] [٣٩٧و]

﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾،[3] والفاعلُ ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه. والإطلاق عن ذِكر المفعول الأوّل للإيذان بأنّ ما سِيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأنّ الأوّل ظاهر لا حاجةَ إلى ذِكره، أي: أنزل الكتاب لينذِر بما فيه الذين كفروا به. ﴿بَأْسًا﴾ أي: عذابًا ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادرًا مِن عنده نازلًا مِن قِبَله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم، وقُرِئ: "مِنْ لَدْنِهِ"[4] بسكون الدال مع إشمام الضمّة وكَسْرِ النون لالتقاء الساكنين وكَسْرِ الهاء للإتباع.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

[3] في الآية السابقة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الرفاعي عن يحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف[1] ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمالَ الصالحة التي بُيِّنت في تضاعيفه. وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدّد الأعمالِ الصالحة واستمرارها، وإجراءُ الموصول على موصوفه المذكور لِما أنّ مَدار قَبول الأعمالِ هو الإيمان. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنّة وما فيها مِن المَثوبات الحُسنى.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حالٌ مِن الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾.[2] ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ مِن غير انتهاء، أي: خالدين فيه، وهو نصب على الظرفية لـ﴿ماكثين﴾. وتقديم "الإنذار" على "التبشير" لإظهار كمال العناية بزَجْر الكفّار عمّا هم عليه مع مراعاة تقديمِ التخلية على التحلية.

وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ متعلّقًا بفِرقة خاصّة ممّن عمّه الإنذار السابق مِن مستحقّي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي: وينذرَ مِن بين سائر الكفَرة هؤلاء المتفوِّهين بمِثل هاتيك العظيمة خاصّة، وهم كفّار العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله تعالى، واليهودُ القائلون: عزيرٌ ابن الله، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن الله.

وتركُ إجراءِ الموصول على الموصوف، كما فُعل في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء، ٩/١٧] للإيذان بكفاية ما في حيّز الصلة في الكُفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة للدلالة / على تحقّق صدور تلك [٣٩٧ظ] الكلمة القبيحة عنهم فيما سبَق. وجعلُ المفعول المحذوف فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدّي إلى خروج سائر أصناف الكفَرة عن الإنذار والوعيد، وتعميمُ الإنذار هناك للمؤمنين أيضًا بحَمْله على معنى مجرّد الإخبار بالخبر الضارّ مِن غير اعتبار حُلول المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس، ٢/١٠] يُفضي إلى خُلوّ النظم الكريم عن الدلالة

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٢ في الآية السابقة.

على حلول البأس الشديد على مَن عدا هذه الفِرقة. ويجوز أن يكون الفاعل في الأفعال الثلاثة ضميرَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾،[1] أو ضميرَ الرسول عليه السلام.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتّخاذه سبحانه وتعالى ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعليّة لاعتماد الظرف، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والجملةُ حاليّة أو مستأنَفة لبيان حالهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيء مِن عِلم أصلًا، لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلوم أو إمكانِه؛ بل لاستحالته في نفسه ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلّدوهم فتاهوا جميعًا في تِيه الجهالة والضلالة. أو ما لهم عِلم بما قالوه أهو صواب أم خطأ؟ بل إنّما قالوه رميًا بقول عن عمًى وجهالة مِن غير فكر ورويّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، ٦/١٠٠]، أو بحقيقة ما قالوه وبعِظَم رُتبته في الشناعة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠]، وهو الأنسَب بقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظُمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لِما فيها مِن نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بكبرياء جنابه.[2]

والفاعلُ في ﴿كَبُرَتْ﴾ إمّا ضميرُ المقالة المدلول عليها بـ﴿قَالُوا۟﴾،[3] و﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التميز، أو ضمير مُبهَم مفسَّر بما بعده مِن النكرة المنصوبة تمييزًا كـ"بئس رجلًا"، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، تقديره: كبُرت هي كلمة خارجة مِن أفواههم. وقرئ: "كَبْرَتْ"[4] بإسكان الباء مع إشمام الضمّ، وقُرِئ: "كَلِمَةٌ"[5] بالرفع.

---

١ الكهف، ١٨/١.

٢ م ط س: بجناب كبريائه [صُحِّح في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وابن أبي عبلة وأبو حَيْوَة وحُميد والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٩.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لـ"الكلمة" مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوّه بها. وإسنادُ الخروج إليها مع أنّ الخارج هو الهواء المتكيّف بكيفيّة الصوت لملابسته بها. ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون في ذلك الشأن ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾[1] إلّا قولًا كذِبًا لا يكاد يدخُل تحت إمكان الصدق أصلًا، والضميران لهم ولآبائهم.

مُثِّل حاله عليه السلام في شِدّة الوجد على إعراض القوم وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاك نفسه إثرَ فوت ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسّفًا على مفارقتهم وتلهّفًا على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيل حَمْلًا له عليه السلام على الحذَر والإشفاق مِن ذلك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ﴾ أي: مُهلِك ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ غمًّا ووَجْدًا على فراقهم. وقرئ بالإضافة.[2]

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ الذي عُبِّر عنه في صدر السورةِ بـ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾.[3] وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما سبَق عليه. وقرئ: بـ"أنْ"[4] المفتوحةِ، أي: لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ ﴿بَـٰخِعٌ﴾ بحَمْله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف، ١٨/١٨].

﴿أَسَفًا﴾ مفعول له لـ﴿بَـٰخِعٌ﴾، أي: لفَرْط الحُزن والغضبِ، أو حالٌ ممّا فيه مِن الضمير، أي: متأسِّفًا عليهم. ويجوز حَمْل النظم الكريم على الاستعارة التبعيّةِ بجعل التشبيه بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل. وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة، ٢/٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف وتعليل لِما في "لعلّ"[5] مِن معنى الإشفاقِ، أي: إنّا جعلنا ما عليها ممّن عدا مَن وُجِّه إليه التكليف مِن الزخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ[6] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

---

١ س + أي.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.
٣ الكهف، ١٨/١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.
٥ في الآية السابقة.
٦ ط س: جعل.

﴿زِينَةً﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل إن حُمل على معنى التصيير، أو حال إن حُمل على معنى الإبداع. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿زِينَةً﴾، أو بمحذوف هو صفة لها، أي: كائنة لها، أي: ليتمتّع بها الناظرون مِن المكلَّفين وينتفعوا بها نظرًا واستدلالًا، فإنّ الحيّاتِ والعقاربَ مِن حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة مِن قبيل المنافِع؛ بل كلُّ حادث داخلٌ تحت الزينة مِن حيث دلالتُه على وجود الصانع ووَحدتِه، فإنّ الأزواج والأولاد أيضًا مِن زينة الحياة الدنيا؛ بل أعظمُها، ولا يمنع ذلك كونُهم مِن جملة المكلَّفين، فإنّهم مِن جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة، ومِن جهة كونهم مكلَّفين داخلون تحت الابتلاء.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، / أي: جعلنا ما جعلنا لنُعاملَهم معاملةَ مَن [٣٩٨ظ] يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنُجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبيَّن المحسِن مِن المسيء، وامتازت طبقات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المترتِّبة على أنظارهم وتفاوتِ درجات أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، كما قرّرناه في مطالع سورة هود.[١]

و"أيّ" إمّا استفهاميّة مرفوعة بالابتداء و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُها، والجملةُ في محلّ النصب معلِّقة لفعل البلوى؛[٢] لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كـ"السؤال" و"النظر"، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعيّة، وإمّا موصولة[٣] بمعنى "الذي" و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُ مبتدأ مضمَر، والجملةُ صلة لها، وهي في حيّز النصب بدلًا مِن مفعول ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، والتقديرُ: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملًا، فحينئذ يحتمل أن يكون الضمّة في ﴿أَيُّهُمْ﴾ للبناء، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم، ٦٩/١٩] على أحد الأقوال، لتحقُّق شرط البناء الذي هو الإضافة لفظًا وحذفُ صَدْر الصلة، وأن تكون للإعراب؛ لأنّ ما ذُكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه.

---

١ وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]. «منه».

٢ وفي هامش م: أيّ مُصحِّحة لتعقيبه بحرف الاستفهام، كما ذُكر في سورة هود. «منه». | في تفسير الآية السابعة منها.

٣ السياق: "أيّ" إمّا استفهاميّة... وإمّا موصولة...

وحُسن العمل: الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأمّلُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقها والتمتّعُ بها حسبما أذِن له الشرع وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعَله الكفَرة وأصحاب الأهواء.

وإيراد صيغةِ التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط، للإشعار بأنّ الغاية الأصليّة للجعل المذكور إنّما هو ظهور كمال إحسانِ المحسِنين، على ما حُقِّق في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨﴾

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ مِن المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلّيّة، وإنّما أُظهِر في مَقام الإضمار لزيادة التقرير، أو لإدراج المكلَّفين فيه.

﴿صَعِيدًا﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل، والصعيد: التراب أو وجه الأرض. قال أبو عبيدةَ: هو المستوي مِن الأرض.[1] وقال الزجّاج: «هو الطريق الذي لا نباتَ فيه».[2] ﴿جُرُزًا﴾ ترابًا لا نباتَ فيه / بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظار ويتشرَّف بمشاهدته الأبصار، يقال: أرض جرُز: لا نباتَ فيها، وسَنة جرُز: لا مطرَ فيها. قال الفرّاء: جُرِزَت الأرض فهي مجروزة، أي: ذهب نباتها بقَحْط أو جَراد، ويقال: جرَزها الجراد والشاة والإبل إذا أكلتْ ما عليها.[3] [٣٩٩و]

وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة مِن التعليل، والمعنى: لا تحزَن بما عاينْتَ مِن القوم مِن تكذيب ما أنزلنا عليك مِن الكتاب، فإنّا قد جعلنا ما على الأرض مِن فنون الأشياء زينة لها لنختبرَ أعمالهم فنُجازيَهم بحسبها، وإنّا لَمُفنون جميع ذلك عن قريب ومُجازون لهم بحسب أعمالهم.

---

١ انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٣٩٣/١؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

٢ معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٢٦٩/٣؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

٣ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٣٤/٢؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمراد إنكار حُسبان أمّته. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" التي هي للانتقال مِن حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستفهام عند الجمهور، وبـ"بل" وحدَها عند غيرِهم، أي: بل أحسبت ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة مدّة طويلة مِن الدهر، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ مِن بين آياتنا التي مِن جملتها ما ذكرناه مِن جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار إليها، ثمّ جعلِ ذلك كلّه صعيدًا جرُزًا كأن لم تغْنَ بالأمس.

﴿عَجَبًا﴾ أي: آيةً ذات عجَب، وَضْعًا له موضعَ المضاف، أو وصفًا لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ﴿كَانُوا۟﴾ و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال منه، والمعنى أنّ قصّتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن تعاجيب خَلْق الله تعالى؛ بل هي عندها كالنزْر الحقير.

و﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الغار الواسع في الجبل. و﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: كلبُهم. قال أميّةُ بن أبي الصَّلْت:[١]

وليس بها إلّا الرقيمُ مُجاورًا   وصِيدَهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ[٢]

وقيل: هو لوح رصاصي أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهف. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبه. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانُهم بين غَضْبانَ[٣] وأيْلةَ[٤]

---

١ هو أميّة بن أبي الصلت بن ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غِيَرة بن قسيّ (ت. ٥هـ/٦٢٦م). أمّه رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف. شاعر جاهلي حكيم مِن أهل الطائف. قرأ الكتب المتقدّمة مِن كتب الله عزّ وجلّ ورغب عن عبادة الأوثان. وكان يُخبِر أنّ نبيًا يُبعَث ويؤمِّل أن يكون هو ذلك النبيّ، فلمّا بلغه بعثة النبيّ عليه الصلاة السلام كَفَر حسدًا له، ولمّا سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ١/٤٥٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٢/٢٣.

٢ البيت لأميّةَ في ديوانه، ص ٣٧٥؛ وهو له في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٢٨.

٣ وفي هامش م: اسم جبل. «منه». | جبل غَضْبان: جبل في أطراف الشام، بينه وبين أيلة مكان أصحاب الكهف، انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤/٢٠٦.

٤ وفي هامش م: هي القرية التي كانت حاضرة البحر. «منه». | أَيْلَة: بالفتح، مدينة على ساحل >

دون فلسطين.[١] وقيل: أصحاب الرقيم آخرون، وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغار فنجَوا / بذِكر كلّ منهم أحسنَ عمله،[٢] على ما فُصِّل في الصحيحين.[٣] [٣٩٩ظ]

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾

﴿إِذۡ أَوَى﴾ ظرفٌ لـ﴿عَجَبًا﴾ لا لـ﴿حَسِبۡتَ﴾، أو مفعول لـ"اذكُرْ" أي: حين التجأ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ أي: أصحاب الكهف. أوثرَ الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم مِن حال الفتوّة، فإنّهم كانوا فتية مِن أشراف الروم أرادهم دِقيانوسُ على الشِّرك فهربوا منه بدينهم، ولأنّ صاحبيّة الكهف مِن فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه. ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ بجبلهم بنجلوس[٤] واتّخذوه مأوًى.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِن خزائن رحمتك الخاصّة المكنونة عن عيون أهل العادات، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿ءَاتِنَا﴾، أو بمحذوف وقَع حالًا مِن مفعوله الثاني قُدِّمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخّرت لكانت صفة له أي: آتنا كائنة مِن لدنك. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ خاصّة تستوجب المغفرة والرِّزق والأمن مِن الأعداء، ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي نحن عليه مِن مهاجَرة الكفّار والمثابَرة على طاعتك. وأصلُ التهيئة إحداث هيئة الشيء، أي: أصلحْ ورتِّب وأتممْ لنا مِن أمرنا ﴿رَشَدٗا﴾ إصابة للطريق الموصِل إلى المطلوب واهتداءً إليه، وكلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَيِّئۡ﴾ لاختلافهما في المعنى.

وتقديم المجرورَين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبرازِ الرغبة في المؤخَّر بتقديم أحواله، فإنّ تأخير ما حقُّه التقديم عمّا هو مِن أحواله المرغِّبة فيه، كما يورث شوقَ السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه

< بحر القلزم [البحر الأحمر] ممّا يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأوّل الشام، وقيل: مدينة بين الفسطاط ومكّة على شاطئ بحر القلزم، وقيل: هي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٩٢/١.

١ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٩/٢.

٣ صحيح البخاري، ٩١/٣ (٢٢٧٢)؛ صحيح مسلم، ٢٠٩٩/٤ (٢٧٤٣).

٤ وفي هامش م: كذا في تفسير الكواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٢٨٩ظ.

واعتنائه بحصوله لا محالةَ، وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تقدير تعلّقه بـ﴿ءَاتِنَا﴾. وتقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾[1] للإيذان مِن أوّل الأمر بكون المسئول مرغوبًا فيه لديهم، أو اجعل أمرنا رشَدًا كلَّه على أنّ ﴿مِن﴾ تجريديّة مثلُها في قولك: "رأيتُ منك أسدًا".

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم على طريقة التمثيل المبنيّ على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحِجاب عليها. وتخصيص الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم لِما أنّها المحتاج إلى الحَجْب عادة، إذ هي الطريقة للتيقّظ غالبًا لاسيَّما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق. وقيل: الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة.[2] وحملُه على تعطيلها كما في قولهم: "ضرَب الأمير على يد الرعيّة"، أي: منَعهم مِن التصرُّف،[3] مع عدم ملاءمته لِما سيأتي مِن البعث لا يدلّ على النوم مع أنّه المراد قطعًا.

و"الفاء" في ﴿فَضَرَبْنَا﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء، ٧٦/٢١] بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فإنّ الضرب المذكور وما ترتَّب عليه مِن التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغير ذلك إيتاءُ رحمة لدُنّيّة خافية عن أبصار المتمسِّكين بالأسباب العاديّة استجابةً لدعوتهم.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه. ﴿عَدَدًا﴾ أي: ذواتَ عدد / أو تُعَدّ عددًا على أنّه مصدر، أو معدودةً على أنّه بمعنى المفعول. ووصفُ السنين بذلك إمّا للتكثير وهو الأنسَب بإظهار كمال القدرة، أو للتقليل وهو الأليَق بمقام إنكار كون القصّة عجبًا مِن بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنّ مدّة لُبثهم كبعض يوم عنده عزّ وجلّ. [٤٠٠و]

---

[1] ط س: لدنًا.

[2] كذا في فتوح الغيب للطِّيبي، ٤١٦/٩.

[3] هذا القول منقول عن قُطْرُب في تفسير القرطبي، ٣٦٣/١٠.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم مِن تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بنون العظمة، وقرئ بالياء مبنيًا للفاعل[1] بطريق الالتفات. وأيًا ما كان فهو غاية للبعث:

لكن لا بجعل العِلم مجازًا مِن الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِحّ وقوعه غايةً للبعث الحادث مِن العِلم الحالي الذي يتعلّق به الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]، ونظائرهما التي يتحقّق فيها العِلم بتحقّق متعلَّقه قطعًا، فإنّ تحويل القِبلة قد ترتَّب عليه تحزُّب الناس إلى متَّبِع ومنقلِب، وكذا مداولة الأيّام بين الناس ترتَّب عليه تحزُّبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزِل فيه، وتعلَّق بكلّ مِن الفريقين العِلم الحالي والإظهار والتمييز، وأمّا بَعْث هؤلاء فلم يترتَّب عليه تفرُّقهم إلى المَحصيّ وغيره حتّى يتعلَّق بهما العِلم أو الإظهار والتمييز ويتسنّى نَظْم شيء مِن ذلك في سِلك الغاية، وإنّما الذي ترتَّب عليه تفرُّقهم إلى مقدِّر تقديرًا غيرَ مصيب ومُفوّض إلى العِلم الربّاني، وليس شيء منهما مِن الإحصاء في شيء.

بل بحَمْل النظم الكريم على التمثيل[2] المبنيّ على جَعْل العِلم عبارة عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّب على السبب، وليس مِن ضرورة الاختبار صدورُ الفعل المختبِر به عن المختبَر قطعًا، بل قد يكون لإظهار عَجْزه عنه على سَنن التكاليفِ التعجيزيّة، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢]، وهو المراد ههنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة مَن يختبرهم.

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الفريقين المختلفَين في مدّة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ أي: للُبثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي: غاية فيظهَر لهم عجزهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنَع الله تعالى بهم

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

[2] السياق: لكن لا بجَعْل العلم مجازًا... بل بحمل النظم...

مِن حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينًا بكمال قدرته وعِلمه، ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانِهم وآيةً بيّنة لكفّارهم.

وقد اقتُصر ههنا مِن تلك الغايات الجليلة على ذِكر مبدئها الصادر عنه عزّ وجلّ، وفيما سيأتي على ما صدَر عنهم مِن التساؤل المؤدّي إليها، وهذا أَولى مِن تصوير التمثيل بأن يقال: بعثناهم بَعْث مَن يريد أن يعلَم... إلخ، حسبما وقَع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣] على أحد الوجوه حيث حُمل على معنى: فعلنا ذلك فِعْل مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان مِن غير الثابت، إذ ربّما يتوهّم منه استلزام الإرادة لتحقّق المراد، فيعود المحذور فيُصار إلى جعل إرادة العِلم عبارة عن الاختبار، فاختبِر واختر.

هذا وقد قرئ: "لِيُعْلَمَ" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًا للفاعل[٢] مِن الإعلام على أنّ المفعول الأوّل محذوف، والجملةُ المصدّرة بـ﴿أَيُّ﴾ في موقع المفعول الثاني فقط إن جُعل العِلم عِرفانيًا، وفي موقع المفعولين إن جُعل يقينيًا، أي: ليُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى... إلخ، وروى عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ أحد الحزبين الفِتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينة مَلِكًا بعد مَلِك.[٣] وقيل: كلاهما مِن غيرهم. والأوّل هو الأظهر، فإنّ "اللام" للعهد ولا عهدَ لغيرهم.

[٤٠٠ظ] و"الأمد" بمعنى "المدى" / كـ"الغاية" في قولهم: "ابتداء الغاية" و"انتهاء الغاية"، وهو مفعول لـ﴿أَحْصَىٰ﴾، والجارُّ والمجرور حال منه قُدِّمت عليه لكونه نكرة. وليس معنى إحصاء تلك المدّة ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المتّصلة الذاتيّة، فإنّه لا يُسمّى إحصاء، بل ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها مِن تلك الحيثيّة إلى مراتب الأعداد، على ما يُرشِدك إليه كون تلك المدّة عبارة عمّا سبَق مِن السنين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٥١.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ٤٣٣/١٢.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ٥٤١/١٣؛ تفسير الرازي، ٤٣٠/٢١؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٦/١٢.

ويجوز أن يُراد بـ"الأمد" معناه الوضعي بتقدير المضاف، أي: لزمان لُبثِهم وبدونه أيضًا، فإنّ اللُّبث عبارة عن الكون المستمرّ المنطبق على الزمان المذكور، فباعتبار الامتداد العارضِ له بسببه يكون له أمد لا محالةَ، لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرّ باعتبار كمّيّته المتّصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتدّ بالذات، وهو آنُ انبعاثهم مِن نومهم، فإنّ معرفته مِن تلك الحيثيّة لا تخفى على أحد ولا تُسمّى إحصاء كما مرّ،[1] بل باعتبار كمّيّته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معيَّنة مِن مراتب العدد، كما حُقِّق في الصورة الأولى.

والفرق بين الاعتبارين أنّ ما تعلّق به الإحصاء في الصورة السابقة نفسُ المدّة المنقسمة إلى السنين، فهو مجموع ثلاثمائةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرة منتهى تلك المدّة المنقسمة إليها، أعني السنة التاسعة بعد الثلاثمائة.

وتعلُّق الإحصاء بالأمد بالمعنى الأوّل ظاهر، وأمّا تعلُّقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لِما تحته مِن مراتب العدد واشتماله عليها.

هذا على تقدير كون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون موصولة حُذف عائدها مِن الصلة أي: للذي لبثوا فيه مِن الزمان الذي عُبّر عنه فيما قبل بسنين عددًا. فالأمدُ بمعناه الوضعي على ما تحقّقتَه. وقيل: "اللام" مَزيدة، والموصول مفعول، و﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ على التمييز.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل؛ لأنّه الموافق لِما وقَع في سائر الآيات الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف، ٧/١٨] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء، ١١/٤] إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، ولأنّ كونه فعلًا ماضيًا يُشعِر بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم على البعث لا بالإحصاء المتأخِّر عنه وليس كذلك.

---

[1] في كلامه على تفسير الآية الخامسة مِن سورة يونس، وتفسير الآية الثانيةَ عشرةَ مِن سورة الإسراء.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٠/٢.

وادّعاءُ أنّ مجيء أفعل التفضيل مِن المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنّه عند سيبويهِ قياس مطلقًا، وعند ابن عصفور[١] فيما ليست همزتُه للنقل،[٢] ولا ريبَ في أنّ ما نحن فيه مِن ذاك القبيل، وامتناعُ عمَله إنّما هو / في غير التمييز مِن [٤٠١و] المعمولات، وأمّا أنّ التمييز يجب كونه فاعلًا في المعنى فلمانع أن يمنعه بصحّة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزنًا أو تقطيعًا، أو يقالَ: إنّ العامل في ﴿أَمَدًا﴾ فعل محذوف يدلّ عليه المذكور، أي: يُحصي لِما لبثوا أمدًا، كما في قوله:

وأضـــرَبَ مـنّـا بـالـسـيـوف الـقـوانـسـا[٣]

وحديث الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشيرَ إليه مِن فائدة الموافقة للنظائر،[٤] فمع ما فيه[٥] مِن الاعتساف والخلَل بمَعزِل مِن السَّداد؛ لأنّ مؤدّاه أن يكون المقصود بالاختبار إظهارَ أفضل الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقّق أصل الإحصاء فيهما. ومِن البيّن ألّا تحقُّقَ له أصلًا، وأنّ المقصود بالاختبار إظهارُ عجز الكلّ عنه رأسًا، فهو فعل ماضٍ قطعًا. وتوهُّم إيذانه بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنّ صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية. والله تعالى أعلمُ.

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ١٣﴾

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِل فيما سلف مِن قوله تعالى:

---

١ هو عليّ بن مؤمن بن محمّد بن عليّ الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (ت. ٦٦٩هـ/١٢٧١م). النحوي وحامل لواء العربيّة بالأندلس في عصره. وُلد بإشبيليّة ومات بتونس. وله مصنّفات مشهورة، مِن أبرز كتبه: **المقرَّب**، **الممتع في التصريف**، **وشرح الحماسة**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٢١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٧.

٢ وفي هامش م: أي: إلى التعدية. «منه».

٣ وفي هامش م: صدره:

أكـرُّ وأحـمـى لـلـحـقـيـقـة مـنـهـمُ

وقبله:

فلم أرَ مثلَ الحيّ حيًّا مُصبَّحًا
ولا مثلَنا يوم التقينا فوارسا

وهما للعبّاس بن مرداس السُّلمي في **ديوانه**، ص ٩٢-٩٣؛ **والأصمعيّات** للأصمعي، ص ٢٠٥. والعجزُ موضع الاستشهاد بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤.

٤ الكلام في هذا الوجه مذكور في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩-٥٢٠؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٤٩-٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤-٤٣٥.

٥ السياق: وأمّا ما قيل... فمع مافيه...

﴿إِذْأَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾... إلى آخره،[١] أي: نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم، وقد مرّ بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام. ﴿نَبَأَهُم﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن وخطر. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر محذوف، أو حالٌ مِن ضمير ﴿نَقُصُّ﴾ أو مِن ﴿نَبَأَهُم﴾، أو صفة له على رأي مَن يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقصّ قَصصًا ملتبِسًا بالحقّ، أو نقصّه ملتبِسين به، أو نقصّ نبأهم ملتبِسًا به، أو نبأهم الملتبِس به.

ونبأهم حسبما ذكَره محمّد بن إسحاقَ بن يسار أنّه قد مرَج أهل الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغَت[٢] ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان ممّن بالغ في ذلك وعتا عُتوًّا كبيرًا دِقيانوس، فإنّه غلا فيه غلوًّا شديدًا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد، وقتَل مَن خالفه مِن المتمسّكين بدين المسيح عليه السلام، وكان يتتبّع الناس فيُخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمَن رغِب في الحياة الدنيا الدنيّة يصنع ما يصنع، ومَن آثَر عليها الحياة الأبديّة قتَله وقطَّع آرابه وعلّقها في سُور المدينة وأبوابها.

فلمّا رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم، وقيل: كانوا مِن خواصّ المَلِك، قاموا فتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ واشتغلوا بالصلاة والدعاء. فبينما هم كذلك إذ دخَل عليهم أعوان الجبّار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إنّ لنا إلهًا ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروته لن ندعوَ مِن دونه أحدًا، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه أبدًا، فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمَر فنُزِع ما عليهم مِن الثياب الفاخرة وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينة / نَينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأمّلوا [٤٠١ظ]
في أمرهم فإن تبِعوه وإلّا فعَل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدِّين والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلّ منهم مِن بيت أبيه شيئًا فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي، فأوَوا إلى الكهف، فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار، وفوّضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحِسان

---

[١] الكهف، ١٨/١٠.

[٢] س: طفت.

ويلبَس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتجسَّس ما فيها مِن الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدِم الجبّار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنّهم عصَوهم ونهَبوا أموالهم وبذّروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلمّا رأى يمليخا ما رأى مِن الشرّ رجَع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل مِن الزاد، فأخبرهم بما شاهده[1] مِن الهَول ففزِعوا إلى الله عزّ وجلّ وخرّوا له سُجّدًا، ثمّ رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرَب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم.

فخرج دِقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحد أن يدخُله، فلمّا ضاق بهم ذرعًا قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا جوعًا وعطشًا وليكن كهفُهم قبرًا لهم ففعل. ثم كان مِن شأنهم ما قصّ الله عزّ وعلا عنهم.[2]

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ استئناف تحقيقي مبنيّ على تقدير السؤال مِن قِبَل المخاطَب. و"الفِتْية" جَمْعُ قِلّة للفتيّ كـ"الصِّبية" لـ"الصبيّ". ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ أوثرَ الالتفات للإشعار بعلّيّة وصف الربوبيّة لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم مِن المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه مِن الدِّين، وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنه، وفيه التفات مِن الغَيبة إلى ما عليه سبكُ النظم سِباقًا وسِياقًا مِن التكلّم.

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: قوّيناها حتّى اقتحموا مضائق الصبر على هَجْر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، / واجترأوا على الصَّدْع بالحقّ مِن غير [٤٠٢و] خوف وحِذار والردّ على دِقيانوسَ الجبّار.

---

[1] ط س: شهده.

[2] ط س: منهم. | بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٦٣-١٧١.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾ منصوب بـ﴿رَبَطْنَا﴾، والمرادُ بقيامهم انتصابهم لإظهار شِعار الدِّين، قال مجاهد: خرجوا مِن المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد، فقال أكبرُهم: إنّي لأجد في نفسي شيئًا أنّ ربّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك،[١] فقاموا جميعًا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ضمّنوا دعواهم ما يُحقِّق فحواها ويقضي بمقتضاها، فإنّ ربوبيّته عزّ وجلّ لهما يقتضي ربوبيّته لِما فيهما أيَّ اقتضاء. وقيل: المراد قيامهم بين يدي الجبّار مِن غير مبالاة به حين عاتبهم على تَرْك عبادة الأصنام.[٢] فحينئذ يكون ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾... إلخ،[٣] منقطِعًا عمّا قبله، صادرًا عنهم بعد خروجهم مِن عنده.

﴿لَن نَّدْعُوَاْ﴾ لن نعبد أبدًا ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ معبودًا آخرَ لا استقلالًا ولا اشتراكًا. والعدول عن أن يقال: "ربًّا" للتنصيص على ردّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامهم آلهةً، وللإشعار بأنّ مدار العبادة وَصْف الألوهيّة، وللإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الألوهيّة لا بطريق المالكيّة المجازيّة.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَط، أي: تجاوزٍ عن الحدّ، أو قولًا هو عين الشطَط، على أنّه وُصِف بالمصدر مبالغة، ثمّ اقتُصر على الوصف مبالغة على مبالغة، وحيث كانت العبادة مستلزِمة للقول لِما أنّها لا تَعرى مِن الاعتراف بألوهيّة المعبود والتضرّع إليه قيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا﴾. و﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء، أي: لو دعَونا مِن دونه إلهًا واللهِ لقد قلنا قولًا خارجًا عن حدّ العقول مُفرِطًا في الظلم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم، ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيان له، ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبرُه، وفيه معنى الإنكار، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ تخصيص فيه معنى الإنكار والتعجيز، أي: هلّا يأتون ﴿عَلَيْهِم﴾ على ألوهيّتهم أو على صحّة

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٧٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٤٤-٥٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

٣ في الآية الآتية.

اتّخاذهم لها آلهةً ﴿بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍ﴾ بحجّة ظاهرة الدلالة على مُدّعاهم، وهو تبكيت لهم وإلقامُ حجَر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك

[٤٠٢ظ] عُلوًّا كبيرًا، / والمعنى أنّه أظلمُ مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم على إنكار الأظلميّة مِن غير تعرّض لإنكار المساواة، كما مرّ تحقيقه في سورة هود.[1]

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم في الاعتقاد، أو أردتُم الاعتزال الجسماني. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلّا الله، أو وعبادتَهم إلّا عبادةَ الله، وعلى التقديرين فالاستثناءُ متّصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكّة، ومنقطِعٌ على تقدير تمحُّضهم في عبادة الأوثان، ويجوز كون ﴿مَا﴾ نافيةً على أنّه إخبار مِن الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد معترِض بين ﴿إِذ﴾ وجوابه.

﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفرّاء: هو جواب ﴿إِذ﴾، كما تقول: إذ فعلتَ فافعل كذا.[2] وقيل: هو دليل على جوابه، أي: إذ اعتزلتموهم اعتزالًا اعتقاديًا فاعتزلوهم اعتزالًا جسمانيًا، أو إذ أردتُم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسُطْ لكم ويوسّعْ عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهِّلْ لكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده مِن الفرار بالدِّين ﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفِقون وتنتفِعون به. وقرئ بفتح "الميم" وكسر "الفاء"[3] مصدرًا كـ"المَرجِع". وتقديم ﴿لَكُم﴾ في الموضعين لِما مرّ مرارًا مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المؤخَّر مِن منافعهم والتشويق إلى وروده.

---

١ في تفسير الآية الثامنةَ عشرةَ منها.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٣٦/٢؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٣٩/١٢.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه لظهور جريانهم على موجَب الأمر به لكونه صادرًا عن رأي صائب، وتعويلًا على ما سلف مِن قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾،[1] وما لحِق مِن إضافة الكهف إليهم وكونهم في فجوة منه.

والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب، وليس المراد به الإخبارَ بوقوع الرؤية تحقيقًا؛ بل الإنباءُ[2] بكون الكهف بحيث لو رأيتَه ترى الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتزاوَر وتتنحّى، بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإدغام "التاء" في "الزاء"،[3] و"تَزْوَرّ"[4] كـ"تحمرّ"، و"تَزْوَارّ"[5] كـ"تَحْمَارّ"، و"تَزْوَئِرّ"،[6] وكلّها مِن الزَّوَر: وهو المَيل.

[٤٠٣و] ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ / الذي أَوَوا إليه، فالإضافة لأدنى ملابسة. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ يمين الكهف عند توجّه الداخل إلى قعره، أي: جانبه الذي يلي المَغرِب فلا يقع عليهم شُعاعها فيؤذيَهم، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عند غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطَعهم مِن "القطيعة والصَّرْم" ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمال الكهف، أي: جانبه الذي يلي المَشرِق. وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على مِنهاج خرق العادة كرامةً لهم.

---

١ الكهف، ١٨/١٠.

٢ وفي هامش م: يتضمّن الإنباء معنى الإيذان والإشعار. «منه».

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

٤ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وأيّوب السَّخْتياني وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي والوليد بن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ جملة حاليّة مُبيّنة لكون ذلك أمرًا بديعًا، أي: تراها تميل عنهم يمينًا وشمالًا ولا تحوم حولهم، مع أنّهم في متّسع مِن الكهف معرَّض لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يد التقدير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنع الله بهم مِن تزاوُر الشمس وقَرْضِها حالتَي الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شُعاعِها ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العجيبة الدالّة على كمال عِلمه وقدرته وحقّيّة التوحيد وكرامة أهلِه عنده سبحانه وتعالى. وهذا قبل أن سدّ دِقيانوسُ باب الكهف.

وقيل: كان باب الكهف شماليًّا مستقبلَ بنات النعش،[1] وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرِق رأس السرطان ومغربِه،[2] والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلُع مائلةً عنه مقابِلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المَغرِب، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبَيه وتُخلِّل عفونتَه وتُعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيَ أجسادهم ويُبليَ ثيابهم، ولعلّ مَيلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أُوقِع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم. فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنه، وأمّا جعلُه إشارة إلى حفظ الله سبحانه إيّاهم في ذلك الكهف تلك المدّة الطويلة، أو إلى اطّلاعه سبحانه لرسوله[3] صلّى الله عليه وسلّم على أخبارهم فلا يساعده إيراده في تضاعيف القصّة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ بالتوفيق له / ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح. [٤٠٣ظ] والمراد إمّا الثناء عليهم والشهادة لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه مِن نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيهُ على أنّ أمثال هذه الآية كثيرة ولكنّ المنتفِع بها مَن وفّقه الله تعالى للاستبصار بها.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلق فيه الضلال لصَرْف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبدًا وإن بالغتَ في التتبع والاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصرًا ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذُكر مِن الفلاح لاستحالة وجوده في نفسه، لا أنّك لا تجِده مع وجوده أو إمكانه.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

[2] وفي هامش م: التذكير باعتبار أنّه برج.

[3] ط س: لرسول الله.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾ بفتح "السين"، وقرئ بكسرها[١] أيضًا، والخطابُ فيه كما فيما سبق. ﴿أَيۡقَاظٗا﴾ جمع "يَقِظ" بكسر "القاف" وفتحها: وهو اليقظان. ومدارُ الحُسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر. وقيل: كثرة تقلّبهم.[٢] ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾. ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ أي: نِيام، وهو تقرير لِما لم يُذكَر فيما سلَف اعتمادًا على ذِكره السابق مِن الضرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ في رقدتهم ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ نصب على الظرفية، أي: جهةً تلي أَيمانهم، ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما يليها مِن أبدانهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: لو لم يُقلَّبوا لأكلَتْهم الأرض.[٣] قيل: لهم تقلُّبتان في السَّنة.[٤] وقيل: تقلُّبة واحدة يوم عاشوراء.[٥] وقيل: في كلّ تسع سنين.[٦] وقرئ: "يُقَلِّبُهُمْ"[٧] على الإسناد إلى ضمير الجلالة، و"تَقَلُّبَهُمْ"[٨] على المصدر منصوبًا بمضمر ينبئ عنه ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾، أي: وترى تقلُّبَهم.

﴿وَكَلۡبُهُم﴾ قيل: هو كلب مرّوا به فتبِعهم فطردوه مِرارًا فلم يرجِع، فأنطقه الله تعالى فقال: لا تخشَوا جانبي فإنّي أحبّ أحبّاء الله فناموا حتّى أحرُسَكم.[٩] وقيل: هو كلبُ راعٍ قد تبِعهم على دينهم،[١٠] ويُؤيِّده قراءة "كَالِبُهُمْ"،[١١] إذ الظاهر

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٨٦/١٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥.

٤ مَرويّ عن أبي هريرة في التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

٦ مرويّ عن مجاهد في التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عِمران بن حِطّان عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٥٤.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل والحسن وعِمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٥٣.

٩ مرويّ عن الكلبي في اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣١/٢-٣٣٢.

١٠ مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣١/٢.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر الصادق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

لُحوقه بهم. وقيل: هو كلبُ صيدِ أحدهم أو زرعِه أو غنمِه. واختُلف في لونه، فقيل: كان أنمرَ، وقيل: أصفرَ، وقيل: أصهبَ، وقيل: غير ذلك،[١] وقيل: كان اسمه قطمير،[٢] وقيل: زبّان،[٣] وقيل: تتود،[٤] وقيل: قطمون، / وقيل: ثور.[٥] قال [٤٠٤و] خالد بن مَعْدان:[٦] «ليس في الجنّة مِن الدوابّ إلّا كلب أصحاب الكهف وحمارُ بلعم».[٧] وقيل: لم يكن ذلك مِن جنس الكلاب؛ بل كان أسدًا.[٨]

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ﴾ حكايةُ حال ماضية، ولذلك أُعمِل اسم الفاعل،[٩] وعند الكسائي وهشام[١٠] وأبي جعفر مِن البصريّين يجوز إعماله مطلقًا.[١١] والذراع: مِن المِرفق إلى رأس الإصبع الوسطى. ﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾ أي: بموضع الباب مِن الكهف.

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصل الاطّلاع الإشراف على الشيء بالمعايَنة والمشاهَدة، وقرئ بضمّ "الواو"،[١٢] ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾

---

١ هذه الأقوال مع أخرى في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفيهما أنّ القول بأنّ لونه أصفر مرويّ عن مقاتل.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٣ مرويّ عن عليّ في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعها «ريّان».

٤ مرويّ عن الأوزاعي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «بتور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعه «يشور».

٥ مرويّ عن السُدّي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «تور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢، وفي مطبوعه «يور».

٦ هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، أبو عبد الله (ت. ١٠٤هـ/٧٢٢م). الإمام شيخ أهل الشام. قيل: أصله مِن اليمن وإقامته في حمص، تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة والعلم والهيبة. أدرك سبعين مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحدّث عن خلق مِن الصحابة. روى عن ثوبان وأبي أمامة الباهلي ومعاوية وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وأرسل عن معاذ وعائشة وأبي الدرداء وغيرهم، روى عنه محمّد بن إبراهيم التيمي وحسان بن عطيّة وغيرهم. كان كثير التسبيح، فلمّا مات بقيت إصبعه تتحرّك وكأنّه يسبّح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣٦/٤-٥٤٠؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٩/٢.

٧ معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٨ مرويّ عن ابن جُريج في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

١٠ هو هشام بن معاوية، أبو عبد الله (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م). نحوي ضرير مِن أهل الكوفة، وهو أحد أعيان أصحاب الكسائي. له مِن الكتب: الحدود، المختصر، القياس، كلّها في النحو. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٣٢٨/٢؛ والأعلام للزركلي، ٨٨/٨.

١١ انظر تفصيل أقوالهم في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ٣٢٤/١٠-٣٤٥.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

هربًا ممّا شاهدتَ منهم، وهو إمّا نصب على المصدريّة مِن معنى ما قبله، إذ التولية والفِرار مِن وادٍ واحد، وإمّا على الحاليّة بجعل المصدر بمعنى الفاعل، أي: فارًّا، أو بجعل الفاعل مصدرًا مبالغة، كما في قولها:[١]

فــإنّــمــا هــيَ إقــبــالٌ وإدبــارُ[٢]

وإمّا على أنّه مفعول له.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وقرئ بضمّ العين،[٣] أي: خوفًا يملأ الصدر ويُرعِبه، وهو إمّا مفعول ثانٍ أو تمييز. وذلك لِما ألبسهم الله عزّ وجلّ مِن الهَيبة والهيئة، كانت أعينهم مفتّحة كالمستيقِظ الذي يريد أن يتكلّم. وقيل: لطول أظفارهم وشُعورهم.[٤] ولا يساعده قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،[٥] وقولُه: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾،[٦] فإنّ الظاهر مِن ذلك عدم اختلاف أحوالِهم في أنفسهم. وقيل: لعِظم أجرامِهم.[٧]

ولعلّ تأخيرَ هذا مِن[٨] ذِكر التولية للإيذان باستقلال كلّ منهما في الترتّب على الاطّلاع، إذ لو رُوعيَ ترتيب الوجود لَتبادر إلى الفهم ترتُّب المجموع مِن حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرُّعب بالفِرار، كما هو المعتاد.

وعن معاويةَ رضي الله عنه:[٩] لمّا غزا الروم فمرّ بالكهف، قال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَن هو خير منك، حيث قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، قال معاوية:[١٠] لا أنتهي حتّى أعلم / عِلمَهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظُروا، ففعلوا فلمّا دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحًا فأحرقتهم.[١١] وقرئ بتشديد "اللام"[١٢] [٤٠٤ظ]

---

١ وفي هامش م: خنساء. «منه».

٢ مضى تخريجه عند تفسير الآية السادسة والأربعين مِن سورة هود.

٣ قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٥ في الآية الآتية.

٦ في الآية الآتية.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٨ س: عن.

٩ ط س – رضي الله عنه.

١٠ ط س + رضي الله عنه.

١١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

١٢ قرأ بها ابن نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

على التكثير، وبإبدال "الهمزة" ياء مع التخفيف[١] والتشديد.[٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم وحفِظنا أجسادَهم مِن البِلى والتحلّل آيةً دالّة على كمال قدرتنا بعثناهم مِن النوم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضًا فيترتَّب عليه ما فُصّل مِن الحِكَم البالغة. وجعلُه غايةً للبعث المعلَّل فيما سبَق بالاختبار مِن حيث إنّه مِن أحكامه المترتِّبة عليه والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثاره.

﴿قَالَ﴾ استئناف لبيان تساؤلِهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم واسمه مَكْسَلِينيا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في منامكم؟ لعلّه قاله لِما رأى مِن مخالفة حالهم لِما هو المعتادُ في الجملة. ﴿قَالُواْ﴾ أي: بعضُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قيل: إنّما قالوه لِما أنّهم دخلوا الكهف غُدوةً وكان انتباههم آخرَ النهار،[٣] فقالوا: لبثنا يومًا، فلمّا رأوا أنّ الشمس لم تغرُب بعدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظنّ الغالب، فلم يُعزَوا إلى الكذِب.

﴿قَالُواْ﴾ أي: بعض آخرُ منهم بما سنَح لهم مِن الأدلّة أو بإلهام مِن الله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدّة لُبثِكم وإنّما يعلمها الله سبحانه. وهذا ردّ منهم على الأوّلين بأجمل ما يكون مِن مراعاة حُسن الأدب، وبه يتحقّق التحزّب إلى الحزبين المعهودين فيما سبَق. وقد قيل: القائلون جميعُهم ولكن في حالتين. ولا يساعده النظم الكريم؛ فإنّ الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بأنّ الكلام جارٍ على منهاج المحاورة والمجاوبة، وإلّا لقيل: ثمّ قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

٢ قرأ بها أبو جعفر. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٢.

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قالوه إعراضًا عن التعمّق في البحث وإقبالًا على ما يُهمّهم بحسب الحال، / [1] كما ينبئ عنه "الفاء". و"الورِق": [٤٠٥و] الفِضّة مضروبة أو غيرَ مضروبة. ووصفُها باسم الإشارة يُشعر بأنّ القائل ناولها بعض أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلك. وقرئ بسكون "الراء"،[2] وبإدغام "القاف" في "الكاف"،[3] وبكسر "الواو" وبسكون "الراء" مع الإدغام.[4] وحَمْلُهم لها دليل على أنّ التزوّد لا ينافي التوكّل على الله تعالى.

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ﴾ أي: أهلها ﴿أَزۡكَىٰ﴾ أحلُّ وأطيبُ، أو أكثرُ وأرخصُ ﴿طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي: مِن ذلك الأزكى طعامًا ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ وليتكلّف اللُّطف في المعاملة كيلا يُغبَن، أو في الاستخفاء لئلّا يُعرف ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ مِن أهل المدينة، فإنّه يستدعي شيوع أخباركم، أي: لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأوّل تأسيس وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطّف.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾

﴿إِنَّهُمۡ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي، أي: لِيبالِغْ في التلطّف وعدمِ الإشعار؛ لأنّهم ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في ﴿أَيُّهَا﴾، ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي: يُصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهًا، مِن العَود بمعنى الصيرورة، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف، ٨٨/٧]. وقيل: كانوا أوّلًا على دينهم.[5] وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار الذي هو أشدّ شيء عندهم كراهة. وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة؛ لأنّ الظاهر مِن حالهم هو الثبات على الدِّين المؤدّي إليه.

---

١ وقع هنا اضطراب في الألواح في نسخة المؤلّف، فتقدّمت عشر منها على عشر بعدُ.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٣/٢.

وضمير الخِطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في بعث[١] المبعوث على الاستخفاء وحثّ الباقين على الاهتمام بالتوصية، فإنّ إمحاض النُّصح أدخلُ في القَبول واهتمامَ الإنسان بشأن نفسه أكثرُ وأوفرُ.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إن دخلتُم فيها، ولو بالكُره والإلجاء، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة. وفيه مِن التشديد في التحذير ما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

[٤١٥ظ] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لِما مرّ مِن ازديادهم / في مراتب اليقين ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا مِن أحوالهم العجيبة ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعث، أو أنّ كلّ وعدِه أو كلَّ موعوده فيدخُل فيه وعده بالبعث والبعث الموعود دخولًا أوليًا، ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا خُلف فيه، أو ثابت لا مردَّ له؛ لأنّ نومهم وانتباههم كحال مَن يموت ثمّ يُبعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة التي هي عبارة عن وقت بَعْث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكّ في قيامها، فإنّ مَن شاهد أنّه جلّ وعلا توفّى نفوسهم وأمسَكها ثلاثمائة سنةٍ وأكثرَ حافظًا أبدانَها مِن التحلّلِ والتفتّت ثمّ أرسلها إليها، لا يبقى له شائبة شكّ في أنّ وعده تعالى حقّ وأنّه يبعث مَن في القبور فيردّ إليهم أرواحَهم فيُحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَعْثَرْنَا﴾ قُدِّم عليه الغاية إظهارًا لكمال العناية بذِكرها، لا لقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ كما قيل؛[٢] لدِلالته على أنّ التنازع يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ليرتفع الخلاف ويتبيّنَ الحقّ. قيل: المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث:

---

[١] م ط س: حَمْل [صُحِّح في هامش م ط].

[٢] القول في التبيان للعكبري، ٢/٨٤٢.

فمِن مُقِرّ له، وجاحدٍ به، وقائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخرَ يقول ببعثهما معًا.[١]

قيل: كان مَلِك المدينة حينئذ رجلًا صالحًا مؤمنًا، وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فُصِّل، فدخَل المَلِك بيته وأغلق بابه ولبس مِسْحًا وجلس على رماد وسأل ربّه أن يُظهِر الحقّ، فألقى الله عزّ وجلّ في نفس رجل مِن رُعيانهم فهدَم ما سدّ به دِقيانوسُ باب الكهف ليتّخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى، فجرى بينهم مِن التقاوُل ما جرى.[٢]

رُوي أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة أخرج الدِّرهم ليشتريَ به الطعام وكان على ضَرْب دِقيانوسَ، فاتّهموه بأنّه وجَد كنزًا، فذهبوا به إلى المَلِك فقصّ عليه القِصّة، / فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأنّ فِتية فرّوا بدينهم مِن دِقيانوسَ فلعلّهم [٤١٦و]
هؤلاء، فانطلق المَلِك وأهل المدينة مِن مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم، ثمّ قالت الفِتية للملك: نستودعك الله ونُعيذك به مِن شرّ الإنس والجنّ، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فألقى المَلِك عليهم ثيابه، وجعَل لكلّ منهم تابوتًا مِن ذهَب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعَلها مِن الساج،[٣] وبنى على باب الكهف مسجِدًا.[٤] وقيل: لمّا انتهَوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتّى أدخُل أوّلًا لئلّا يفزعوا، فدخل فعمِيَ عليهم المدخل فبنَوا ثمّة مسجِدًا.[٥]

وقيل: المتنازَع فيه أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دِقيانوسَ مِن الأحوال والأهوال ويتلقَّون ذلك مِن الأساطير وأفواه الرجال.

---

١ مرويّ عن عكرمة بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦١؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٢ مرويّ بمعناه عن ابن إسحاق في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٩-٢٠٠؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٣ السّاج: خشب يجلب مِن الهند. لسان العرب لابن منظور، «سوج».

٤ مروي عن وهب بن منبّه بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٧-١٩٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٤.

وعلى التقديرين فـ"الفاء" في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالُواْ﴾ فصيحة،[١] أي: أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا، أي: قال بعضهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم﴾ أي: على باب كهفِهم ﴿بُنْيَٰنًا﴾ لئلّا يتطرّقَ إليهم الناس، ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ مِن كلام المتنازِعين، كأنّهم لمّا رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم مِن حيث النسب ومِن حيث العددُ ومِن حيث اللُّبث في الكهف قالوا ذلك تفويضًا للأمر إلى علّام الغيوب، أو مِن كلام الله سبحانه ردًّا لقول الخائضين في حديثهم مِن أولئك المتنازِعين.

وقيل: هو أمرهم[٢] وتدبيرهم عند وفاتهم،[٣] أو شأنهم في الموت والنوم، حيث اختلفوا في أنّهم ماتوا أو ناموا كما في أوّل مرّة، فـ﴿إِذْ﴾ حينئذ متعلّق بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم المَلِك والمسلمون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ معطوف على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ هذا القول ليس ممّا يستمرّ ويتجدّد كالتنازع. وقيل: متعلّق بـ"اذكر" مضمَرًا. وأمّا تعلّقه بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ فيأباه أنّ إعثارهم ليس في زمان تنازُعهم فيما ذُكر؛ بل قبله. وجعلُ وقت التنازع ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ[٤] / تعسّفٌ لا يخفى، مع أنّه لا مخصِّص لإضافته إلى التنازُع، وهو مؤخّر في الوقوع. [٤١٦ظ]

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصّتهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أهل الكتاب والمسلمين، لكن لا على وجه

---

١ كما في فتوح الغيب للطِّيبي، ٤٣٣/٩؛ وشرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤١٩و.

٢ وفي هامش م: أي: المتنازع فيه. «منه».

٣ القول في الكشف عن مشكلات الكشّاف للقزويني، ١٩٥و.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٣/٢-٣٣٤.

إسناد كلّ منها إلى كلّهم؛ بل إلى بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ أي: هم ثلاثة أشخاص رابعهم، أي: جاعلُهم أربعة بانضمامه إليهم كلبُهم. قيل: قالته اليهود،[١] وقيل: قاله السيّد مِن نصارى نَجرانَ وكان يعقوبيًّا.[٢] وقرئ: "ثَلَاثٌّ"[٣] بإدغام "الثاء" في "التاء".

﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قيل: قالته النصارى، أو العاقب منهم وكان نَسطوريًّا.[٤] ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ رميًا بالخبر الخفيّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه، أو ظنًّا بالغيب مِن قولهم: "رجَم بالظنّ" إذا ظنّ. وانتصابه على الحاليّة مِن الضمير في الفعلين جميعًا، أي: راجمين، أو على المصدريّة منهما، فإنّ الرَّجم والقول واحد، أو مِن محذوف مستأنَف أو واقع موقعَ الحال مِن ضمير الفعلين معًا، أي: يرجُمون رجمًا، وعدم إيراد "السين" للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقّن مِن هذا الوحي وما فيه ممّا يُرشدهم إلى ذلك مِن عدم نظمِه في سِلك الرَّجْم بالغيب. وتغييرُ سَبكه بزيادة "الواو" المفيدة لزيادة وَكادة النسبة فيما بين طرفيها، لا بوحي آخرَ كما قيل.

﴿قُل﴾ تحقيقًا للحقّ وردًّا على الأوّلين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: أقوى عِلمًا ﴿بِعِدَّتِهِم﴾ بعددهم ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ﴾ أي: ما يعلم عِدّتهم، أو ما يعلمهم فضلًا عن العِلم بعِدّتهم ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ مِن الناس قد وفّقهم الله للاستشهاد بتلك الشواهد.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حين وقعت "الواو" انقطعت العِدّة، وعليه مدار قوله رضي الله تعالى عنه: أنا مِن ذلك القليل.[٥] ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولَما احتاج إلى الاستشهاد بـ"الواو"، ولكان المسلمون أسوة له في العِلم بذلك.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٤/٢.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٧.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٢.
٥ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٧٩/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥.

وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه أنّهم سبعةُ نفر أسماؤهم: يمليخا ومَكْشَلِينِيا ومَشْلِينِيَا، هؤلاء أصحابُ يمين الملك، وكان عن يساره مَرْنُوش ودَبَرْنُوش وشَاذَنُوش وكان يستشير هؤلاء الستّةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي وافقهم
[٤١٧و] حين / هربوا مِن ملكهم دِقيانوسَ واسمه كَفِيشَطَيْوش.[١]

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ "الفاء" لتفريع النهي على ما قبله، أي: إذ قد عرفتَ جَهْل أصحاب القولين الأوّلَين فلا تُجادلهم ﴿فِيهِمْ﴾ في شأن الفِتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قَدْر ما تعرَّض له الوحيُ مِن وَصْفهم بالرَّجْم بالغيب، وعدمِ العِلم على الوجه الإجمالي، وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه مِن غير تصريح بجَهْلهم وتفضيح لهم، فإنّه ممّا يُخِلّ بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِن الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإنّ فيما قُصّ عليك لَمَندوحةً عن ذلك، مع أنّه لا عِلمَ لهم بذلك. وقال عطاء: إلّا قليل مِن أهل الكتاب.[٢] فالضمائر الثلاثة في الأفعال الثلاثة لهم وما ذُكر مِن الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحّة القولِ الثالث، وفيه مَحيصٌ عمّا في الأوّل مِن التكلّف في جعل أحد الأقوال المحكيّة المنظومة في سِمْط واحد ناشئًا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه، ووضوحٌ في سبب حذف المفعول في ﴿لَا تُمَارِ﴾، والمعنى حينئذ: وإذ قد وقفتَ على أنّ كلّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تُجادِلْهم إلّا جدالًا ظاهرًا نطَق به الوحيُ المُبين، مِن غير تجهيل لجميعهم، فإنّ فيهم مُصيبًا وإن قلّ.

والنهيُ عن الاستفتاء لدَفْع ما عسى يُتوهَّم مِن احتمال جوازه أو احتمالِ وقوعه بناءً على إصابة بعضهم، فالمعنى: لا تراجِعْ إليهم في شأن الفِتية ولا تُصدِّق القول الثالث مِن حيث صدورُه عنهم؛ بل مِن حيث التلقّي مِن الوحي.

---

١ ط س: كَفِيْشَيْطَطَيُوس. | وفي هامش م: كذا ذكره الإمام الواحدي في الوسيط. «منه». | وهو عن ابن عبّاس في التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٢/٣، عن عليّ رضي الله عنه في اللباب لابن عادل، ٤٥٧/١٥؛ وقريب منه عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥. وأكثر هذه الأسماء واردة في مطبوعاتها على غير هيئة رسمها ههنا.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٢.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لأجل شيء تعزِم عليه ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يُستقبل مِن الزمان مطلقًا فيدخُل فيه الغدُ دخولًا أوّليًا، فإنّه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه عليه السلام فقال: «ائتوني غدًا أُخبرْكم»،[1] ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتّى شقّ عليه وكذّبتْه قريش. وما قيل مِن أنّ المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النصّ، يردّه أنّ ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي، فإنّ وسعة المجال دليل القدرة. فليُتأمّل.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ / استثناء مفرَّغ مِن النهي، أي: لا تقولنّ ذلك في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: "إن شاء الله"، أو في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله، لا مطلقًا؛ بل مشيئةَ إذنٍ، فإنّ النسيان أيضًا بمشيئته تعالى. ولا مساغَ لتعليقه بـ﴿فَاعِلٌ﴾[2] لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناء اعتراضها النهيَ. وقيل: الاستثناء جارٍ مَجرى التأبيد، كأنّه قيل: لا تقولنّه أبدًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ[3] لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧].[4] [٤١٧ظ]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بقولك: "إن شاء الله" متداركًا له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نسيان ثمّ ذكرتَه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ولو بعد سَنة ما لم يحنَث».[5] ولذلك جُوّز تأخير الاستثناء، وعامةُ الفقهاء على خلافه؛ إذ لو صحّ ذلك

---

[1] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١٥؛ وبلفظه في التفسير البسيط للواحدي، ٤٦٠/١٣ (الإسراء، ٨٥/١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[2] في الآية السابقة.

[3] م ط س: كان

[4] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[5] بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

لَما تقرّر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يُعلم صِدق ولا كذِب. قال القرطبيّ: هذا في تدارُك التبرّك والتخلّص عن الإثم، وأمّا الاستثناء المغيّر للحُكم فلا يكون إلّا متّصلًا.[١] ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربّك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ الاستثناء مبالغة في الحثّ عليه، أو اذكر ربّك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليُذكِّرك المنسيَّ. وقد حُمل على أداء الصلاة المَنْسيّة عند ذِكرها.[٢]

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أي: يوفّقني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيء أقربَ وأظهرَ مِن نبأ أصحاب الكهف مِن الآيات والدلائل الدالّة على نُبوّتي. ﴿رَشَدًا﴾ إرشادًا للناس ودلالة على ذلك، وقد فعل عزّ وعلا ذلك، حيث آتاه مِن البيِّنات ما هو أعظمُ مِن ذلك وأبينُ، كقصص الأنبياء المتباعدِ أيّامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، أو لأقربَ رشدًا وأدنى خيرًا مِن المنسيّ.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ أحياءً مضروبًا على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وهي جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أُجمِل فيما سلف وأشيرَ إلى عزّة مناله. وقيل: إنّه حكاية كلام أهل الكتاب فإنّهم اختلفوا في مدّة لُبثهم كما اختلفوا في عِدّتهم، فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة.[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنّه قال: «عند أهل الكتاب أنّهم لبِثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة، والله تعالى ذكَر السنة القمريّة، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلاثمائة وتسعَ سنين».[٤] و﴿سنينَ﴾ عطف بيان لـ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾. وقيل: بدل.[٥] وقرئ على الإضافة[٦] وضعًا للجمع موضعَ المفرد،

---

[١] انظر: تفسير القرطبي، ٣٨٦/١٠.

[٢] هذه الوجوه جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٦/٢. وبعضه عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[٤] معالم التنزيل للبغوي، ١٦٥/٥.

[٥] الوجه في التبيان للعكبري، ٨٤٤/٢؛ وهو في اللباب لابن عادل، ٤٦٣/١٢.

[٦] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

وممّا يُحسّنه ههنا أنّ علامة الجمع فيه جبرٌ لِما حُذف في الواحد، وأنّ الأصل في العدد إضافته إلى الجمع.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما غاب فيهما وخفيَ مِن أحوال أهلهما، و"اللام" / للاختصاص العِلمي دون [٤١٨و] التكويني، فإنّه غير مختصّ بالغيب. ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ دُلّ بصيغة التعجّب على أنّ شأن عِلمه سبحانه بالمبصَرات والمسموعات خارج عمّا عليه إدراكُ المدرِكين، لا يحجُبه شيء ولا يحُول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفيّ والجليّ. و"الهاء" ضمير الجلالة، ومحلُّه الرفع على الفاعليّة، و"الباء" مَزيدة عند سيبويهِ، وكان أصله "أبصَرَ"، أي: صار ذا بَصَر، ثمّ نُقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له، أو لزيادة "الباء" كما في "كفى به"؛ والنصبُ على المفعوليّة[1] عند الأخفش، والفاعلُ ضمير المأمورِ وهو "كلّ أحد"، و"الباء" مَزيدةٌ إن كانت "الهمزة" للتعدية ومعدِّيةٌ إن كانت للصيرورة. ولعلّ تقديمَ أمر إبصاره تعالى لِما أنّ الذي نحن بصدده مِن قبيل المبصَرات.

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماواتِ والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يتولّى أمورهم وينصُرهم استقلالًا ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ﴾ في قضائه، أو في عِلم الغيب ﴿أَحَدٗا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا، وهو كما ترى أبلَغ في نفي الشريك مِن أن يقال: "مِن وليّ ولا شريك"، وقرئ على صيغة نهي الحاضر[2] على أنّ الخِطاب لكلّ أحد.

ولمّا دلّ انتظام القرآن الكريم لقصّة أصحاب الكهف مِن حيث إنّها بالنسبة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن المغيَّبات على أنّه وحيٌ معجِز، أمَره عليه السلام

---

[1] السياق: ومحلُّه الرفع... والنصبُ...

[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

بالمداومة على دراسته فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ولا تسمَعْ لقولهم: ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّله.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مَلجأ تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: دائبين على الدعاء في جميع الأوقات. وقيل: في طرفَي النهار.[1] وقرئ: "بِالغُدْوَةِ"[2] على أنّ إدخال "اللام" عليها وهي علَم في الأغلب على تأويل التنكير، والمرادُ بهم فقراء المؤمنين مثل صُهيبٍ وعمّارٍ وخبّابٍ ونحوهم، وقيل: أصحاب الصُّفَّة وكانوا نحو سبعمائة رجل.[3]

[٤١٨ظ] قيل: إنّه قال قوم / مِن رؤساء الكفَرة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نحِّ هؤلاء المواليَ الذين كأنّ ريحهم ريح الضأن حتّى نجالسَك، كما قال قوم نوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦] فنزلت.[4] والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيّز الصلة مِن الخَصلة الداعية إلى إدامة الصحبة. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: مريدين لرضاه تعالى وطاعته.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يجاوِزْهم نظرك إلى غيرهم، مِن "عَدَاه"، أي: جاوزه، واستعمالُه بـ"عن" لتضمينه معنى النُبوّ، أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، مِن "عدَوتُه عن الأمر"، أي: صرفتُه عنه على أنّ المفعول

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٢.
[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢، ٣١٠.
[3] مرويّ عن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٦/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٢.
[4] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٢.

محذوف لظهوره. وقرئ: "وَلَا تُعْدِ عَيْنَيْكَ"،[١] "ولا تُعَدِّ عَيْنَيْكَ"[٢] مِن الإعداء والتعدية. والمراد نُهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيّهم طموحًا إلى زِيّ الأغنياء.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحابِ الدنيا، وهي حال مِن "الكاف" على الوجه الأوّل مِن القراءة المشهورة ومِن الفاعل على الوجه الثاني منها، وضميرُ ﴿تُرِيدُ﴾ لـ"العينين"، وإسنادُ الإرادة إليه مجاز، وتوحيدُه للتلازم، كما في قوله:

لِمَن زُحْلُوفةٌ[٣] زَلُّ[٤] بها العينان تنهلُّ[٥]

ومِن المستكِنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلناه غافلًا لبطلان استعداده للذِّكر بالمرّة، أو وجدناه غافلًا، كقولك: "أجبَنتُه وأبخَلتُه" إذا وجدتَه كذلك، أو هو مِن "أَغفَل إبِلَه"، أي: لم نَسِمه بالذِّكر. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طَرْد الفقراء عن مجلسك فإنّهم غافلون عن ذِكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون مِن الدعاء في مجامع الأوقات. وفيه تنبيه على أنّ الباعث له إلى ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته، وانهماكُه في الحسّيّات حتّى خفيَ عليه أنّ الشرف بحِلْية النفس لا بزينة الجسد. وقرئ: "أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ"[٦] على إسناد الفعل إلى القلب، أي: حسِبَنا غافلين عن ذِكرنا إيّاه بالمؤاخذة، مِن "أغفلتُه" إذا وجدتَه غافلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٥٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعرج والحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٥٩.

٣ هذا اللفظ يُروى "زُحْلُوفة" و"زُحْلُوقة". **لسان العرب** لابن منظور، «زلل».

٤ كذا ضبطها المؤلِّف. وهي "زُلُّ"، أي: زَلَقٌ. **لسان العرب** لابن منظور، «زلل».

٥ البيت لامرئ القيس في ملحق ديوانه ٤٧٣؛ **وأمالي ابن الشجري**، ١/١٨٣؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٧٤؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٧٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فايد وابن أبي عبلة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٥٩.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ ضياعًا وهلاكًا، أو متقدِّمًا للحقّ والصواب نابذًا له وراء ظهره، مِن قولهم: "فرَس فُرُط"، أي: متقدِّم للخيل، أو هو بمعنى / الإفراط والتفريط، فإنّ الغفلة عن ذِكره سبحانه تؤدّي إلى اتّباع الهوى المؤدّي إلى التجاوُز والتباعُد عن الحقّ والصواب. والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعِلّيّة ما في حيّز الصلة للنهي عن الإطاعة. [٤١٩و]

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الغافلين المتّبعين هواهم: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ما أوحيَ إليَّ الحقُّ لا غيرُ كائنًا مِن ربّكم، أو الحقُّ المعهود مِن جهة ربّكم لا مِن جهتي حتّى يُتصوَّر فيه التبديل أو يُمكنَ التردّد في اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إمّا مِن تمام القول المأمور به، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص، ٣٩/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة، ١٤٧/٢]، أي: عَقيبَ تحقّق أنّ ما أوحيَ إليَّ حقّ لا ريبَ فيه، وأنّ ذلك الحقّ مِن جهة ربّكم، مَن شاء أن يؤمِن به فليُؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلّل بما لا يكاد يصلُح للتعلّل، ومَن شاء أن يكفُر به فليفعلْ، وفيه مِن التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودًا وعدمًا ما لا يخفى.

وإمّا تهديد[١] مِن جهة الله تعالى، و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به، والمعنى: قلْ لهم ذلك، وبعد ذلك مَن شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقك فيه فليُؤمن ومَن شاء أن يكفُر به أو أن يكذِّبَك فيه فليفعلْ.

---

[١] السياق: إمّا مِن تمام... وإمّا تهديد...

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لِما يفيده مِن الزجر عن الكفر أو لِما يُفهَم مِن ظاهر التخيير مِن عدم المبالاة بكفرهم وقلّة الاهتمام بزَجْرهم عنه، فإنّ إعداد جزائه مِن دواعي الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأوّل هو تعليل للأمر بما ذُكر مِن التخيير التهديدي، أي: قلْ لهم ذلك، إنّا أعتدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هيّأنا للكافرين بالحقّ بعد ما جاء مِن الله سبحانه. والتعبير عنهم بـ"الظالمين" للتنبيه على أنّ مشيئة الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحدّ ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي: يُحيط بهم، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: فُسطاطها، شُبِّه به ما يحيط بهم مِن النار. وقيل: السُّرادِق: الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاط. وقيل: سُرادِقها: دُخانها. وقيل: حائط مِن نار.[1]

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ مِن العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالحديد المُذاب. وقيل: كدُرْديّ الزيت،[2] وهو على طريقة قوله:

فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ[3]

/ ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ إذا قُدِّم ليُشرَب انشوى الوجه لحرارته. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هو كعَكَر الزيت فإذا قرُب إليه سقطت فَرْوةُ وجهه».[4] [٤١٩ظ]

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النار ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ متّكأ، وأصل الارتفاق نصب المِرْفق تحت الخدّ، وأنّى ذلك في النار؟ وإنّما هو لمقابلة قوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.[5]

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٣ وفي هامش م: صدره:
غضِبتْ تميمٌ أن تُقتَّلَ عامرٌ
يومَ النِّسار فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ
والبيت لبِشر بن أبي خازم في ديوانه، ص ١٨٠. وهو مِن مُجمهرته في جمهرة أشعار العرب للقرشي، ٥١٩/١؛ وله في الصحاح للجوهري، «عتب»، «صلم»، وفيه: الصيلم: الداهية، ويُسمّى السيف صَيْلمًا، أي: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. وأراد المؤلِّف ما فيه مِن التهكّم. والبيت بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٤ مسند أحمد، ٢١٠/١٨ (١١٦٧٢)؛ سنن الترمذي، ٥٣٧/٤ (٢٥٨١)؛ جامع البيان للطبري، ٢٥٠/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢-٥٢٩.

٥ الكهف، ٣١/١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محلّ التعليل للحثّ على الإيمان المُنفهِم مِن التخيير، كأنّه قيل: وللذين آمنوا، ولعلّ تغييرَ سَبْكه للإيذان بكمال تنافي مآلَي الفريقين، أي: إنّ الذين آمنوا بالحقّ الذي أوحيَ إليك، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بُيّن في تضاعيفه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى هي الثانية مع ما في حيّزها، والراجع محذوف، أي: مَن أحسنَ منهم عملًا، أو مستغنًى عنه، كما في قولك: "نِعْمَ الرجلُ زيدٌ" أو واقعٌ موقعَه الظاهر، فإنّ مَن أحسنَ عملًا في الحقيقة هو الذي آمَن وعمِل الصالحاتِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ[1] ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ استئناف لبيان الأجر، أو هو الخبر وما بينهما اعتراض، أو هو خبر بعد خبر.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة والثانية بيانيّة صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، والتنكير للتفخيم، وهو جمع "أَسوِرة"، أو "أسْوار" جَمْع "سِوار". ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ خُصّت الخُضرة بثيابهم لأنّها أحسن الألوان وأكثرها طراوة، ﴿مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي: ممّا رقّ مِن الدِّيباج وما غلُظ. جُمع بين النوعين للدلالة على أنّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعين. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على السُّرُر على ما هو شأن المتنعِّمين. ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ أي: الأرائك ﴿مُرۡتَفَقٗا﴾ أي: متّكَأً.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾

---

[1] م ط س: تحتها.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي: للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ مفعولان لـ﴿ٱضۡرِبۡ﴾ أوّلهما ثانيهما؛ لأنّه المحتاج إلى التفصيل والبيان، أي: اضرب للكافرين والمؤمنين، لا مِن حيث أحوالُهما المستفادة ممّا ذُكر آنفًا مِن أنّ للأوّلين في الآخرة كذا وللآخِرين كذا؛ بل مِن حيث عصيانُ الأوّلين مع تقلّبهم في نِعَم الله تعالى وطاعة الآخِرين مع مكابدتهم مشاقّ الفقر، مثلًا[1] حالَ[2] رجلين مقدَّرين أو محقَّقين هما أخوان مِن بني إسرائيلَ أو شريكان: كافر اسمه قُطروسُ، ومؤمنٌ اسمه يَهوذا، / اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر [٤٢٠و] بنصيبه ضِياعًا وعَقارًا، وصرَف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارّ، فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى.

وقيل: هما أخوان مِن بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأشدّ، ومسلِم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشدّ[3] زوجُ أمّ سلمة رضي الله عنها أوّلًا.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ مِن كروم متنوّعة، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لـ﴿رَجُلَيۡنِ﴾. ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أي: جعلنا النخل محيطة بهما مؤزَّرًا بها كرومُهما، يقال: "حفّه القوم" إذا أطافوا به، و"حففتُه بهم" جعلتُهم حافّين حوله، فيزيده "الباء" مفعولًا آخرَ، كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكون كلّ منهما جامعًا للأقوات والفواكه متواصل العِمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل. وقرئ

---

١ وفي هامش م: مفعول ثانٍ.

٢ وفي هامش م: مفعول أوّل.

٣ هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو سلمة (ت. ٣هـ/٦٢٦م). أمّه بَرّة بنت عبد المطّلب بن هاشم، هو أخو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الرضاعة وابن عمّته بَرّة، وهو الصحابي السيّد الكبير. أحد السابقين الأوّلين هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا ومات بعدها بأشهر وله أولاد صحابة كعمر وزينب وغيرهما. وتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجه أمّ سلمة رضي الله عنها التي روت القول عند المصيبة. انظر: الاستيعاب، ١٦٨٢/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥٠/١.

بسكون "الكاف"،[١] وقرئ: "كُلُّ الجَنَّتَيْنِ آتَى أُكُلَهُ".[٢] ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ لم تنقص مِن أُكُلها ﴿شَيْـًٔا﴾ كما يُعهَد ذلك في سائر البساتين، فإنّ الثمار غالبًا تكثُر في عام وتقِلّ في آخرَ، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فيما بين كلّ مِن الجنّتين ﴿نَهَرًا﴾ على حِدَة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما، وقرئ بالتخفيف.[٣] ولعلّ تأخيرَ ذِكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل مع أنّ الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كلّ مِن إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنّتين، كما في قصّة البقرة ونحوها.[٤] ولو عُكس لانفهم أنّ المجموع خَصلة واحدة بعضُها مترتِّب على بعض، فإنّ إيتاء الأكل متفرِّع على السَّقْي عادة. وفيه إيماء إلى أنّ إيتاء الأُكُل لا يتوقَّف على السَّقْي، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور، ٣٥/٢٤].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع مِن المال غيرُ الجنّتين، مِن "ثمَّر مالَه" إذا كثّره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو جميع المال مِن الذهب والفضّة والحيوان وغير ذلك.[٥] وقال مجاهدٌ: هو الذهب والفضّة خاصّة.[٦]

[٤٢٠ظ] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ / أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾ أي: صاحبَه المؤمن، وإن جاز العكس، أي: يراجعه في الكلام مِن "حار" إذا رجَع، ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حشَمًا وأعوانًا، أو أولادًا ذُكورًا؛ لأنّهم الذين ينفِرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ التي شُرحت أحوالها وعَدَدها وصفاتها وهيئاتها. وتوحيدُها

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

٤ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين مِن سورة البقرة في قصّة البقرة، وذكره في تفسير الآية الحادية والخمسين بعد المائة مِن تلك السورة.

٥ بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٢٦٠/٢.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٥٩/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧١/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

إمّا لعدم تعلّقِ الغرَض بتعدّدها، وإمّا لاتّصال إحداهما بالأخرى، وإمّا لأنّ الدخول يكون في واحدة فواحدة، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارّ لها بعُجبه وكفره.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن ذِكر دخول جنّته حالَ ظلمه لنفسه، كأنّه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنّةُ، أي: تفنى ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمده وتمادي غفلتِه واغتراره بمُهلته. ولعلّه إنّما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنّتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمْرِه بتحصيل الباقيات الصالحات.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: مِن هذه الجنّة، وقرئ: "مِنْهُمَا"،[1] أي: مِن الجنّتين ﴿مُنقَلَبًا﴾ مَرجِعًا وعاقبة. ومدار هذا الطمع واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنّه تعالى إنّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدرِ أنّ ذلك استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ٣٧﴾

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئناف كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ جملة حاليّة كما مرّ، فائدتُها التنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ ما يتلوه كلام معتنًى بشأنه مَسُوق للمحاورة: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظنّ الساعة قائمة ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: في ضمن خَلْق أصلك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منه متضمِّن لخَلْقه منه، لِما أنّ خَلْق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلْقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليًّا مستتبِعًا لجريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠-٣١١.

مِن التراب خَلْقًا للكلّ منه. وقيل: خَلَقك منه؛ لأنّه أصل مادّتك إذ به يحصُل الغذاء الذي منه تحصُل النطفة، فتدبّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادّتك القريبة، فالمخلوق واحد والمبدأ متعدِّد، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عَدّلك وكمّلك إنسانًا ذكرًا أو صيّرك رجلًا. والتعبير عنه تعالى بالموصول للإشعار بعِلّيّة ما في حيّز الصلة لإنكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطَق به قوله عزّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾... إلى آخره [الحج، ٥/٢٢].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

[٤٢١و] ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله "لَكِنْ أَنَا" وقد قرئ كذلك،[١] / فحُذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الإدغامُ، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ وتلك الجملة خبر "أنا" والعائدُ منها إليه الضمير. وقرئ بإثبات ألِف "أنا" في الوصل والوقف جميعًا،[٢] وفي الوقف خاصّة،[٣] وقرئ: "لَكِنَّهْ"[٤] بالهاء، و"لَكِنْ"[٥] بطرح "أنا"، و"لَكِنْ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبِّي".[٦] ومدارُ الاستدراك قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾،[٧] كأنّه قال: أنت كافر لكنّي مؤمن موحِّد.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فيه إيذان بأنّ كفره كان بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي: هلّا قلتَ عندما دخلتَها. وتقديم الظرف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.

٢ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم وخلف ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد وهارون وعديّ كلّهم عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٢.

٧ في الآية السابقة.

على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القول في آن الدخول مِن غير ريث، لا للقصر.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة المَحلّ، أو أيَّ شيء شاء الله كان على أنّها شرطيّة منصوبة والجواب محذوف، والمراد تحضيضُه على الاعتراف بأنّها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هلّا قلت ذلك اعترافًا بعجزك وبأنّ ما تيسّر لك مِن عِمارتها وتدبير أمرها إنّما هو بمعونته تعالى وإقداره. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله لم يضُرّه».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ ﴿أَنَا۠﴾ إمّا مؤكِّد لياء المتكلِّم أو ضمير فَصْل بين مفعولي الرؤية إن جُعلت عِلْميّة و﴿أَقَلَّ﴾ ثانيهما، وحال إن جُعلت بصَريّة فيكون ﴿أَنَا۠﴾ حينئذ تأكيدًا لا غيرُ؛ لأنّ شرط كونه ضميرَ فَصْل توسُّطه بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، وقرئ: "أَقَلُّ"[١] بالرفع خبرًا لـ﴿أَنَا۠﴾ والجملة مفعول ثانٍ للرؤية أو حال. وفي قوله تعالى: ﴿وَوَلَدٗا﴾ نُصرةٌ لمَن فسّر النفَر بالولد.[٢]

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقَّع مِن صنع الله سبحانه / أن يقلِبَ ما بي وبك مِن الفقر والغنى [٤٢١ظ] فيرزُقني لإيماني جنّة خيرًا مِن جنّتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنّتك ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا﴾ هو مصدر بمعنى الحِساب كـ"البُطلان" و"الغفران"، أي: مقدارًا قدّره الله تعالى وحسَبه، وهو الحكم بتخريبها. وقيل: عذابَ حُسبان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٨.

٢ الكهف، ١٨/٣٤.

وهو حساب ما كسَبت يداه.[١] وقيل: مَراميَ جمعُ "حُسْبانة": وهي الصواعق.[٢] ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للأوّلَين أكثرُ.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ مصدر أريدَ به المفعول مبالغةً، أي: أرضًا ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها مِن البناء والشجر والنبات.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ﴾،[٣] وعلى الوجه الثالث على ﴿يُرْسِلَ﴾[٤] ﴿مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض أُطلِق عليه المصدر مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبدًا ﴿لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ فضلًا عن وجدانه وردِّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أمواله المعهودةُ مِن جنّتيه وما فيهما، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ، وهو عطفٌ على مقدَّر، كأنّه قيل: فوقع بعض ما توقَّع مِن المحذور وأُهلِك أمواله، وإنّما حُذف لدلالة السباق والسياق عليه، كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهرًا لبطن وهو كناية عن الندم، كأنّه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عِمارتها مِن المال، ولعلّ تخصيصَ الندم به دون ما هلَك الآن مِن الجنّة لِما أنّه إنّما يكون على الأفعال الاختياريّة، ولأنّ ما أنفق في عِمارتها كان ممّا يمكن صيانته عن طوارق الحدَثان، وقد صرَفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتّع بها أكثرَ ممّا يتمتّع به، وكان يرى أنّه لا ينالها أيدي الردى، ولذلك قال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا، فلمّا ظهَر له أنّها ممّا يعتريه الهلاك

---

[١] قول الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ٢٨٩/٣؛ وعزاه إليه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣١/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

ندِم على ما صنَع بناء على الزعم الفاسد مِن إنفاق ما يمكن ادّخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوالِ.

﴿وَهِيَ﴾ أي: الجنّة مِن الأعناب المحفوفة بنخل ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها. وتخصيص حالها بالذِّكر دون النخل والزرع إمّا لأنّها العُمدة وهما مِن متمِّماتها، وإمّا لأنّ ذِكر هلاكِها مُغنٍ عن ذِكر هلاك الباقي؛ لأنّها حيث هلكت وهي مُشيَّدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأَولى، وإمّا لأنّ الإنفاق في عمارتها أكثر. وقيل: / أرسل الله تعالى عليها نارًا فأحرقتها وغار ماؤها.[١] [٤٢٢و]

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على ﴿يُقَلِّبُ﴾ أو حال مِن ضميره، أي: وهو يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، كأنّه تذكّر موعظة أخيه وعلِم أنّه إنّما أُتيَ مِن قِبل شِركه فتمنّى لو لم يكن مُشرِكًا فلم يُصبه ما أصابه. قيل: ويحتمل أن يكون ذلك توبة مِن الشِّرك وندمًا على ما فرَط منه.[٢]

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣﴾

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرئ بالياء التحتانيّة[٣] ﴿فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدِرون على نصره بدفع الإهلاك، أو على ردّ المهلَك أو الإتيان بمثله، وجمعُ الضمير باعتبار المعنى، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران، ١٣/٣]. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه القادر على ذلك وحدَه، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعًا بقوّته عن انتقامه سبحانه.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ۝٤٤﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وفي تلك الحال ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: النُصرة له وحدَه لا يقدِر عليها أحد، فهو تقرير لِما قبله، أو ينصُر فيها أولياءه المؤمنين

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

على الكفرة كما نصَر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، ويعضُده قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقرئ: "الوِلَايَةُ"[١] بكسر "الواو" ومعناها المُلك والسلطان، أي: هنالك السلطان له عزّ وجلّ لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه، أو لا يُعبد غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا[٢] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، فيكون تنبيهًا على أنّ قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾... إلخ،[٣] كان عن اضطرار وجزَع عمّا دهاه على أسلوب قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، ٩١/١٠].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠].

وقرئ برفع ﴿ٱلْحَقِّ﴾[٤] على أنّه صفة لـ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ وبنصبه على أنّه مصدر مؤكِّد، وقرئ: "عُقُبًا"[٥] بضمّ "القاف"، و"عُقْبَى"[٦] كـ"رُجعى"، والكلُّ بمعنى العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعة زوالها لئلّا يطمئنّوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحًا بالمرّة، أو بيّنْ لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمَثل. ﴿كَمَآءٍ﴾ استئناف لبيان المَثل، أي: هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ويجوز كونه مفعولًا ثانيًا لـ﴿ٱضْرِبْ﴾ على أنّه بمعنى "صيّر".

[٤٢٢ظ] ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ / اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضًا مِن كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماء في النبات حتّى روِيَ ورفّ،[٧] فمقتضى الظاهر حينئذ

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

٢ م: وإذا.

٣ الكهف، ٤٢/١٨.

٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩.

٧ رفّ النبات: اهتزّ وتنعّم، ويقال ذلك للشيء إذا كثُر ماؤه مِن النِّعمة والغضاضة حتّى كاد يهتزّ. لسان العرب لابن منظور، «رفف».

"فاختلط بنبات الأرض". وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فإنّ كلًّا مِن المختلِطَين موصوف بصفة صاحبه.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتفّ إثرَ بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشومًا مكسورًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرّقه، وقرئ: "تُذْرِيهِ"[1] مِن "أذراه وتذروه الريح". وليس المشبَّه به نفسَ الماء؛ بل هو الهيئة المنتزَعة مِن الجملة، وهي حال النبات المُنبَت بالماء، يكون أخضرَ وارفًا ثمّ هشيمًا تُطيّره الرياح كأن لم يَغْنَ بالأمس.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا على الكمال.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخِرون به مِن محسِّنات الحياة الدنيا، كما قال الأخ الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[2] إثرَ بيان شأن نفسها بما مرّ مِن المَثَل.

وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكيّة آنفًا وقولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة لعراقته فيما نِيط به مِن الزّينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنّه زينة ومُمِدّ لكلّ أحد مِن الآباء والبنين في كلّ وقت وحين. وأمّا البنون فزَيْنهم وإمدادهم إنّما يكون بالنسبة إلى مَن بلَغ مَبلغ الأبوّة، ولأنّ المال مَناط لبقاء النفس والبنين[3] لبقاء النوع، ولأنّ الحاجة إليه أمسُّ مِن الحاجة إليهم، ولأنّه أقدم منهم في الوجود، ولأنّه زينة بدونهم مِن غير عكس، فإنّ مَن له بنونَ بلا مال فهو في ضِيق حال ونكال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود والضحّاك وعُبيد بن عُمير وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩؛

٢ الكهف، ٣٤/١٨.

٣ م ط: البنون [صُحّح في هامش.م ط].

وإفراد الزِّينة مع أنّها مسنَدة إلى الاثنين لِما أنّها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً كأنّهما نفسُ الزينة، والمعنى أنّ ما يفتخرون به مِن المال والبنين شيء يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُربِ الاضمحلال، فكيف بما هو مِن أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها؟

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي أعمال الخير. وقيل: هي الصلوات الخمس.[١] وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبرُ.[٢] وقيل: كلُّ ما أُريدَ به وجه الله تعالى.[٣] / وعلى كلّ تقدير يدخُل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين [٤٢٣و] يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهَه دخولًا أوّليًا، أمّا صلاحها فظاهر وأمّا بقاؤها فبقاء عوائدها عند فَناء كلّ ما تطمح إليه النفس مِن حظوظ الدنيا.

﴿خَيۡرٌ﴾ أي: ممّا نُعت شأنه مِن المال والبنين. وإخراجُ بقاء تلك الأعمال وصلاحها مُخرَجَ الصفات المفروغ عنها مع أنّ حقّهما أن يكونا مقصودَي الإفادة لاسيّما في مقابلة إثبات الفناء لِما يقابلها مِن المال والبنين على طريقة قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل، ٩٦/١٦] للإيذان بأنّ بقاءها أمر محقَّق لا حاجةَ إلى بيانه؛ بل لفظ ﴿ٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ اسم لها لا وصف، ولذلك لم يُذكَر الموصوف، وإنّما الذي يُحتاج إلى التعرّض له خيريّتُها.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيان لِما يظهَر فيه آثار خيريّتها بمنزلة إضافة الزِّينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليّتها فيها[٤] مِن المال والبنين مع مشاركة الكلّ في الأصل، إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريّة في الآخرة. ﴿ثَوَابٗا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٤/١٥-٢٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

٢ مرويّ عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٥/١٥-٢٧٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٥-١٧٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

٣ مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس وقتادة وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٨٠/١٥-٢٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

٤ ط س - فيها.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كلّ ما كان يؤمّله في الدنيا، وأمّا ما مرّ مِن المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله. وتكرير ﴿خَيْرٌ﴾ للإشعار باختلاف حيثيّتَي الخيريّة والمبالغة فيها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر، أي: اذكر حين نقلَعها مِن أماكنها ونُسيّرها في الجوّ على هيئاتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧]، أو نُسيِّر أجزاءها بعد أن نجعلها هباءً مُنبثًّا. والمراد بتذكيره تحذير المشركين ممّا فيه مِن الدواهي. وقيل: هو معطوف على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة. وقرئ: "تُسَيَّرُ"[1] على صيغة البناء للمفعول مِن "التفعيل" جريًا على سَنن الكِبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيّنِه، وقرئ: "تَسِيْرُ".[2]

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جميع جوانبها، والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤيةُ، وقرئ: "تُرَى"[3] على صيغة البناء للمفعول. ﴿بَارِزَةً﴾ أمّا بروزُ ما تحت الجبال فظاهر، وأمّا ما عداه فكانت الجبال تحُول بينه وبين الناظر قبل ذلك، فالآن أضحى قاعًا صَفْصَفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا.

﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ﴾ جمعناهم إلى الموقف مِن كل أَوْب. وإيثار صيغة الماضي / بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿تَرَى﴾ للدلالة على تحقّق الحَشر المتفرّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عُطف عليه منفيًّا وموجَبًا. [٤٢٣ظ]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وكِرداب، والثقفي ومِنهال عن يعقوب، ومحبوب والأزرق عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي عن بعض القرّاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩.

وقيل: هو للدلالة على أنّ حَشْرهم قبل التسيير والبروز ليُعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك.[١]

﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ﴾ أي: لم نترُك ﴿مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ يقال: "غادره وأغدَره" إذا تركه، ومنه الغَدْر الذي هو تَرْك الوفاء، والغديرُ الذي هو: ما يتركه السيل في الأرض الغائرة. وقرئ بالياء،[٢] وبالفوقانيّة[٣] على إسناد الفعل إلى ضمير ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾، كما في قوله: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق، ٤/٨٤].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شُبِّهت حالهم بحال جند عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة[٤] وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تربية المهابة والجَري على سَنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى. ﴿صَفّٗا﴾ أي: غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرُّض فيه لوَحدة الصفّ وتعدُّده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يجمَع الله الأوّلين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفًا».[٥]

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وَجْه يكون حالًا مِن ضمير ﴿عُرِضُواْ﴾، أي: مقولًا لهم، أو وقلنا لهم، وأمّا كونه عاملًا في ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ﴾[٦] كما قيل فبعيدٌ مِن جزالة التنزيل الجليل، كيف لا، ويلزم منه أنّ هذا القول هو المقصود بالأصالة دون سائر القوارع مع أنّه خاصُّ التعلّق بما قبله مِن العَرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض.

---

١ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠.

٤ وفي هامش م: حيث لم يقل علينا. «منه».

٥ مسند أحمد، ٣٨٤/١٥ (٩٦٢٣)؛ صحيح البخاري، ١٣٤/٤ (٣٣٤٠).

٦ في الآية السابقة.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نعت لمصدر مقدَّر، أي: مجيئًا كائنًا كمجيئكم عند خَلْقنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿جِئْتُمُونَا﴾، أي: كائنين كما خلقناكم أوّلَ مرّة حُفاةً عُراة غُرْلًا، أو ما معكم شيء ممّا تفتخرون به مِن الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام، ٩٤/٦].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ إضراب وانتقال مِن كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع، أي: زعمتُم في الدنيا أنّه لن نجعَل لكم أبدًا وقتًا نُنجِز فيه ما وعدناه مِن البعث وما يتبَعه. و"أن" مخفَّفة / مِن المثقَّلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرها [٤٢٤و]
لكونه جملة فعليّة متصرِّفة غيرَ دعاء. والظرف إمّا مفعول ثانٍ للجَعْل وهو بمعنى التصيير والأوّلُ هو ﴿مَّوْعِدًا﴾، أو حال مِن ﴿مَّوْعِدًا﴾ وهو بمعنى الخَلْق والإبداع.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ عطفٌ على ﴿عُرِضُوا۟﴾[1] داخل تحت الأمور الهائلة التي أُريدَ تذكيرُها بتذكير وقتها وأُورِدَ فيه ما أُوردَ في أمثاله مِن صيغة الماضي دلالة على التقرّر أيضًا، أي: وُضع صحائف الأعمال. وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس. والمراد بوضعها إمّا وضعُها في أيدي أصحابها يمينًا وشمالًا وإمّا في الميزان. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة، فيدخُل فيهم الكفَرة المنكِرون للبعث دخولًا أوّليًّا. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِن الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نَقيرًا وقِطْميرًا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ مُنادين لهَلَكتهم التي هلكوها مِن بين الهلَكات مستدعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هول ما لاقوه، أي: يا ويلتنا احضُري فهذا أوان حضورك. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أيُّ شيء له؟ وقولُه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي:

---

[1] في الآية السابقة.

حواها وضبطها، جملة حاليّة محقّقة لِما في الجملة الاستفهاميّة مِن التعجّب، أو استئنافيّة مبنيّة على سؤال نشأ مِن التعجّب، كأنّه قيل: ما شأنه حتّى يُتعجَّب منه؟ فقيل: لا يغادر سيّئةً صغيرةً / ولا كبيرة إلّا أحصاها. [٤٢٤ظ]

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا مِن السيّئات، أو جزاءَ ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطورًا عتيدًا. ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتبَ ما لم يُعمَل مِن السيّئات، أو يزيد في عقابه المستحقّ فيكون إظهارًا لمَعدَلة القلم الأزلي.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: اذكر وقت قولنا لهم: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ سجودَ تحيّة وتكريم، وقد مرّ تفصيله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعًا امتثالًا بالأمر ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنّه لم يسجُد؛ بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ كلام مستأنَف سِيق مَساقَ التعليل لِما يفيده استثناء اللعين مِن الساجدين، كأنّه قيل: ما له لم يسجُد؟ فقيل: كان أصلُه جنّيًا،[١] ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته كما ينبئ عنه "الفاء"، أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر الله تعالى، إذ لولاه لَما أبى. والتعرّض لوَصْف الربوبيّة النافية للفِسق لبيان كمال قبح ما فعَله.

والمراد بتذكير قصّته تشديدُ النكير على المتكبّرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكِفين عن الانتظام في سِلك فقراء المؤمنين ببيان أنّ ذلك مِن صنيع إبليسَ وأنّهم في ذلك تابعون لتسويله، كما ينبئ[٢] قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾... إلخ، فإنّ الهمزة للإنكار والتعجيب و"الفاء" للتعقيب، أي: أعَقيبَ عِلمكم بصدور تلك القبائح عنه تتّخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: أولاده وأتباعه؟ جُعلوا ذرّيّته مجازًا. قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ. وقيل: يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبيض / فتنفلِق البيضة مِن جماعة مِن الشياطين. [٤٢٥و]

---

[١] ط س: خبيثًا.

[٢] ط س + عنه.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي، ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أن إبليسَ وذرّيّته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٧٧]، وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون، ٦٣/٤]، وإنّما فُعل به ذلك تشبيهًا له بالمصادر نحو "القَبول" و"الولوع". وتقييد "الاتّخاذ" بالجملة الحاليّة لتأكيد الإنكار وتشديده، فإنّ مضمونها مانع مِن وقوع الاتّخاذ ومُنافٍ له قطعًا.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه ﴿بَدَلًا﴾ مِن الله سبحانه إبليسُ وذرّيّته. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وَضْع الظالمين موضعَ الضمير مِن الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أنّ ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتّخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك مِن خَباثة المَحتِد والفِسق والعداوة، أي: ما أحضَرتُ إبليسَ وذرّيّته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث خلقتُهما قبل خَلْقهم ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضهم خَلْق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء، ٤/٢٩].

هذا ما أجمع عليه الجمهور حِذارًا مِن تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس. / ولك أن تُرجع الضمير الثانيَ إلى "الظالمين" وتلتزمَ التفكيك بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإنّ نفيَ إشهاد الشياطين خَلْق الذين يتولّونهم هو الذي يدور عليه إنكار اتّخاذهم أولياء بناء على أنّ أدنى ما يصحّح التولّيَ حضورُ الوليّ خَلْق المتولّى وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولّي قطعًا. [٤٢٥ظ]

وأمّا نفيُ إشهاد بعض الشياطين خَلْق بعض منهم فليس مِن مداريّة الإنكار المذكور في شيء، على أنّ إشهاد بعضهم خَلْق بعض إن كان مصحِّحًا

لتولّي الشاهد بناءً على دلالته على كماله باعتبار أنّ له مدخلًا في خلق الشهود في الجملة فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناءً على قصوره عمّن شهِد خَلْقه، فلا يكون نفيُ الإشهاد المذكور متمحِّضًا في نفي الكمال المصحِّح للتولّي عن الكلّ، وهو المَناط للإنكار المذكور.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: متّخذَهم، وإنّما وُضع موضعَه المُظهَر ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالإضلال وتأكيدًا لِما سبق مِن إنكار اتّخاذهم أولياءَ. ﴿عَضُدًا﴾ أعوانًا في شأن الخَلْق، أي:[1] في شأن مِن شئوني حتّى يُتوهّم شركتهم في التولّي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبيّة.

وفيه تهكّمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكة عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثار نفيِ الإشهاد على نفي شهودهم ونفيِ اتّخاذِهم أعوانًا على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنّهم مقهورون تحت
[٤٢٦و] قدرته تعالى /[2] تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم، وأنّهم بمَعزِل مِن استحقاق الشهود والمعونة مِن تلقاء أنفسِهم مِن غير إحضار واتّخاذ. وإنّما قُصارى ما يُتوهّم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغ بأمر الله عزّ وجلّ ولم يكد ذلك يكون.

وقيل: الضميرُ للمشركين، والمعنى: ما أشهدتُهم خَلْق ذلك، وما أطلعتُهم على أسرار التكوين، وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يحويها غيرهم حتّى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تَلتفتْ إلى قولهم طمعًا في نُصرتهم للدين فإنّه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين. ويعضُده القراءة بفتح "التاء"[3] خطابًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: ما صحّ لك الاعتضادُ بهم.

---

[1] ط س: أو.

[2] هنا ينتهي اختلاط الترتيب في عشرة الألواح في نسخة المؤلِّف.

[3] قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

ووصفهم بالإضلال لتعليل نفي الاتّخاذ، وقرئ: "مُتّخِذًا المُضِلّين"[١] على الأصل، وقرئ: "عُضْدًا"[٢] بضمّ العين وسكون الضاد، وبفتح وسكون[٣] بالتخفيف، وبضمّتين[٤] بالإتباع، وبفتحتين[٥] على أنّه جمع "عاضد" كـ"رَصَد" و"راصد".

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للكافرين توبيخًا وتعجيزًا، وقرئ بنون العظمة.[٦] ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد مِن دونه تعالى. وقيل: إبليسُ وذرِّيّته.[٧] ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادوهم للإغاثة. وفيه بيان لكمال اعتنائهم بإعانتهم على طريقة الشفاعة؛ إذ معلومٌ ألّا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك. وفي إيراده مع ظهوره تهكمٌ بهم وإيذانٌ بأنّهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلّا بالتصريح به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمَدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان، أو مصدر مِن "وبَق وُبوقًا" كـ"وثب وثوبًا"، أو "وبِق وَبَقًا" كـ"فَرِح فَرَحًا"، إذا هلَك، أي: مَهلِكًا يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة وهي في الشِّدّة نفس الهلاك، كقول عمرَ رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلَفًا ولا بغضُك تلَفًا».[٨] وقيل: البين:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ونُعيم، وعبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وهارون، وخارجة والخفّاف وأبي زيد كلّهم عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٦ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٢.

٨ الأدب المفرد للبخاري، ٤٤٨ (١٣٢٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٥/٢.

الوصل،[1] أي: وجعلنا تواصُلهم في الدنيا هلاكًا في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد / بـ"الشركاء" الملائكة وعُزيرًا وعيسى عليهم السلام ومريمَ، وبالمَوبِق البرزخَ البعيدَ، أي: جعلنا بينهم أمدًا بعيدًا يهلك فيه الأشواط لفَرْط بُعده؛ لأنّهم في قَعر جهنّمَ وهم في أعلى الجنان. [٤٠٥ظ]

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ۝٥٣﴾

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحًا بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالطوها واقعون فيها، أو ظنّوا إذ رأوها مِن مكان بعيد أنّهم مواقعوها الساعةَ ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ انصرافًا أو معدِلًا ينصرِفون إليه.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ أي: كرَّرنا وأوردنا على وجوه كثيرة مِن النَّظم ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ مِن جملته ما مرّ مِن مَثل الرجُلين ومَثل الحياة الدنيا، أو مِن كلّ نوع مِن أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحُسن واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقَّوه بالقَبول فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بحسب جِبِلَّته ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ أي: أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منه الجدل، وهو ههنا شدّة الخُصومة بالباطل والمماراة مِن "الجَدْل" الذي هو الفتْل. والمجادلةُ: المُلاواة؛ لأنّ كلًّا مِن المُجادِلَين يلتوي على صاحبه. وانتصابُه على التمييز، والمعنى أنّ جدَله أكثر مِن جدَل كلّ مجادِل.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ۝٥٥﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أهلَ مكّةَ الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ مِن أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه مِن الإشراك ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: القرآن العظيم

[1] وهو قول الفرّاء في معاني القرآن، ١٤٧/٢؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣٥/٢.

الهادي إلى الإيمان بما فيه مِن فنون المعاني الموجبة له، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمّا فرَط منهم مِن أنواع الذنوب التي مِن جملتها مجادلتُهم للحقّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ / أي: إلّا طلبُ إتيان سُنّتهم أو إلّا انتظارُ إتيانها، أو [٤٠٦و]
إلّا تقديرُه، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وسنّتُهم الاستئصال.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا، جَمْع "قَبيل"، أو عِيانًا كما في قراءة "قِبَلًا"[1] بكسر "القاف" وفتح "الباء"، وقرئ بفتحتين،[2] أي: مستقبَلًا، يقال: "لقِيتُه قِبَلًا وقُبُلًا وقَبَلًا". وانتصابُه على الحاليّة مِن الضمير أو ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، والمعنى أنّ ما تضمّنه القرآن الكريم مِن الأمور المستوجِبة للإيمان بحيث[3] لو لم يكن مِثلَ هذه الحكمة القويّة لَما امتنع الناس مِن الإيمان، وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمَم ملتبِسين بحال مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات والسؤالِ عن قصّة أصحاب[4] الكهفِ ونحوها تعنُّتًا ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُزيلوه عن مركزه ويُبطلوه مِن "إدحاض القدم" وهو إزلاقها، وهو قولهم للرسل عليهم السلام: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس، ١٥/٣٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، ونحوُهما.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ التي تخِرّ لها صُمّ الجبال ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: أُنذروه مِن القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو إنذارَهم، ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً، وقرئ بسكون الزاء[5] وهو ما يُستهزأ به.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٩.

[3] وفي هامش م: خبر "أنّ".

[4] س: أصحاف.

[5] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبّرها ولم يتذكّر بها. وهذا السَّبك وإن كان مدلوله الوضعي نفيَ الأظلميّة مِن غير تعرّض لنفي المساواة في الظلم إلّا أنّ مفهومه العُرفي أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وبناءُ الأظلميّة على ما في / حيّز الصلة مِن الإعراض عن القرآن للإشعار [٤٠٦ظ] بأنّ ظُلمَ مَن يجادل فيه ويتّخذه هزوًا خارجٌ عن الحدّ. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عَمِلَه مِن الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما ذُكر مِن المجادَلة بالباطل والاستهزاء بالحقّ ولم يتفكّر في عاقبتها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان"، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لِما دلّ عليه الكلام أي: منعناهم أن يقفوا[١] على كُنهه، أو مفعول له، أي: كراهةَ أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: جعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ ثِقَلًا يمنعهم مِن استماعه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء البتّةَ مدّةَ التكليف. و﴿إِذًا﴾ جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبيّ عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنّه قال عليه السلام: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعُهم... إلخ، وجَمْعُ[٢] الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار[٣] معناه، كما أنّ إفراده في المواطن الخمسة المتقدِّمة باعتبار لفظه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: الموصوف بها، خبرٌ بعد خبر. وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة

---

[١] س: يَقفوه.
[٢] وفي هامش م: مبتدأ.
[٣] وفي هامش م: خبر.

للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأنّ المغفرة تَرْكُ المضارّ وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى مِن العذاب، وأمّا الرحمة فهي فعل وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلّا ما يتناهى.

وتقديم الوصف الأوّل لأنّ التخلية قبل التحلية، أو لأنّه أهمُّ بحسب الحال، إذ المقام مقام بيانِ تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها، كما يُعرب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد[1] / مؤاخَذتهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن [٤٠٧و]
المعاصي التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربّهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا مِن المُوبقات، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك.

وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدّة[2] الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوها للإيذان بأنّ النفيَ المستفاد مِن مقدَّم الشرطيّة متعلِّق بوَصْف السرعة كما ينبئ عنه تاليها. وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المُضيّ لإفادة أنّ انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة، فإنّ المضارع الواقع مَوقعَ الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى، كما حُقِّق في موضعه.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة، والجملة معطوفة على مقدَّر كأنّه قيل: لكنّهم ليسوا مؤاخَذين بغتةً، ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾ البتّةَ ﴿مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ مَنجى أو مَلجأ، يقال: "وأل"، أي: نجا، و"وأل" إليه، أي: لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: قرى عاد وثمودَ وأضرابها، وهي مبتدأ على تقدير المضاف، أي: وأهلُ تلك القرى، خبرُه قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، أو مفعول مضمرٍ مفسَّرٍ به ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم مِن القبائح. وتركُ المفعول إمّا لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم،

---

[1] وفي هامش م: فإنّ ترتيب تعجيل العذاب على نفس المؤاخذة غيرُ مفيد. «منه».

[2] وفي هامش م: الشِّدّة مستفادة مِن صيغة المغالبة الدالّة على المبالغة.

أي: لمّا فعلوا الظلم. و﴿لَمَّا﴾ إمّا حرف كما قال ابن عصفور،[١] وإمّا ظرف استعمل للتعليل، وليس المراد به الوقت المعيَّن الذي عمِلوا فيه الظلم؛ بل زمان ممتدّ مِن ابتداء الظلم إلى آخره.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: عيّنّا لهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ أي: وقتًا معيَّنًا لا محيدَ لهم عن ذلك. وهذا استشهاد على ما فُعل بقريشٍ مِن تعيين الموعد ليتنبهوا

[٤٠٧ظ] لذلك ولا يغترّوا / بتأخّر العذاب. وقرئ بضمّ "الميم" وفتح "اللام"،[٢] أي: إهلاكهم، وبفتحهما.[٣]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ نصب بإضمار فعل، أي: اذكُرْ وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشعُ بن نونٍ بن أفرائيمَ بن يوسفَ عليه السلام، سُمّيَ فتاه إذ كان يخدمه ويتّبعه. وقيل: كان يتعلّم منه،[٤] ويُسمّى التلميذُ فتًى وإن كان شيخًا، ولعلّ المرادَ بتذكيره عَقيب بيان أنّ لكلّ أمّة موعدًا تذكيرُ ما في القصّة مِن موعد الملاقاة مع ما فيها مِن سائر المنافع الجليلة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ مِن "برِح" الناقص كـ"زال يزال"، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبر اعتمادًا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجّه إلى السفر واتّكالًا على ما يعقُبه مِن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ فإنّ ذلك غايةٌ تستدعي ذا غاية يؤدّي إليها، ويجوز أن يكون أصل الكلام "لا يبرَحُ مسيري حاصلًا حتّى أبلُغ"، فيُحذَف المضاف ويُقام المضاف إليه مُقامَه، فينقلب الضمير البارز المجرور المحلّ مرفوعًا مستكِنًّا، والفعلُ مِن صيغة الغَيبة إلى التكلّم.[٥]

ويجوز أن يكون مِن "برِح" التامّ كـ"زال يزول"، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتّى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هو ملتقى بحر فارسَ والروم ممّا يلي المشرِق.

---

١ هذا رأي ابن خروف كما نقل الرضيُّ في شرح الكافية ٢٣٠/٣.

٢ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

٥ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٦/٢.

وقيل: طَنجَةُ.[١] وقيل: هما الكُرّ[٢] والرَّسّ[٣] بإِرْمِينِيَةَ.[٤] وقيل: إفريقيّة.[٥] وقرئ بكسر "الميم"[٦] كـ"مَشرِق".

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أسير زمانًا طويلًا أتيقّن معه فوات المطلَب. والحُقُب: الدهر أو ثمانون سَنة، وكان منشأ هذه العزيمة أنّ موسى عليه السلام لمّا ظهَر على مصرَ مع بني إسرائيلَ واستقرُّوا بها بعد هلاك القِبط[٧] أمره الله عزّ وجلّ أن يذكّر قومه النعمةَ فقام فيهم خطيبًا بخطبة بديعة رقّت بها القلوب وذرَفت العيون، / فقالوا له: مَن أعلمُ الناس؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ [٤٠٨و] العلم إليه عزّ وجلّ، فأوحى إليه: بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمَع البحرين وهو الخَضِر عليه السلام.[٨] وكان في أيّام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدّمة ذي القرنين الأكبر وبقيَ إلى أيّام موسى.[٩]

وقيل: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه: «أيُّ عبادِك أحبّ إليك؟» قال: «الذي يذكرُني ولا ينساني». قال: «فأيُّ عبادك أقضى؟» قال: «الذي يقضي بالحقّ

---

١ مَرويّ عن محمّد بن كعب في جامع البيان للطبري، ٣٠٩/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢. | طَنْجة: مدينة على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء، مِن البرّ الأعظم وبلاد البربر، وهي مدينة أزليّة خصبة آثارها باقية وبناؤها بالحجارة قائمة على البحر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٣/٤.

٢ الكُرّ: نهر بين أرمينيّة وأران، يشقّ مدينة تفليس، وبينه وبين برذعة فرسخان، ثمّ يجتمع هو ونهر الرسّ بالجمع ويصبّ في بحر الخَزَر وهو بحر طبرستان، وقيل: هو موضع بفارس، والمشهور الأوّل. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٥١/٤.

٣ الرَّسّ: قرية باليمامة يقال لها فلج، وقيل: وادي أذربيجان وحدّ أذربيجان ما وراء الرَّسّ، وقيل: ديار لطائفة مِن ثمود. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٣/٣-٤٤.

٤ مرويّ عن السدّي في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٣٧٦/٧؛ وتفسير القرطبي، ٩/١١.

٥ مرويّ عن أُبيّ بن كعب في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عُبيد بن مُسلم بن يسار وعُبيد بن عُمير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧١.

٧ القبط: كلمة يونانيّةُ الأصل بمعنى سُكّان مصر، ويقصد بهم اليوم: المسيحيون مِن المصريّين. انظر لِما قيل فيهم في المصادر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٩١/١٤؛ ولبّ اللباب للسيوطي، ص ٢٠٣.

٨ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

٩ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

ولا يتّبع الهوى». قال: «فأيُّ عبادك أعلمُ؟» قال: «الذي يبتغي عِلمَ الناس إلى عِلمه عسى أن يصيب كلمةً تدلُّه على هدى أو تردّه عن ردى»، فقال: «إن كان في عبادك مَن هو أعلمُ منّي فدلَّني عليه»، قال: «أعلمُ منك الخَضِر» قال: «أين أطلبه؟» قال: «على ساحل البحر عند الصخرة». قال: «يا ربِّ كيف لي به؟» قال: «تأخذ حوتًا في مِكْتل فحيثما فقَدته فهو هناك». فأخذ حوتًا فجعله في مِكْتل، فقال لفتاه: «إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني» فذهبا يمشيان.[1]

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ "الفاء" فصيحة كما أشيرَ إليه ﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي: مجمَع البحرين، و﴿بَيۡنِهِمَا﴾ ظرف أضيفَ إليه اتّساعًا، أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وُجدان المطلوب، أي: نسيا تفقُّد أمره وما يكون منه. وقيل: نسيَ يُوشَع أن يقدِّمه وموسى عليهما السلام أن يأمره فيه بشيء.[2]

رُوي أنّهما لمّا بلغا مجمَع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتًا إلّا حيَّ وضعا رءوسَهما على الصخرة فناما، فلمّا أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش،[3] وقد كانا أكلا منه، وكان ذلك بعد ما استيقظ يُوشَع عليه السلام. وقيل: توضّأ عليه السلام مِن تلك / العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع في الماء.[4] [٤٠٨ظ]

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ مسلَكًا كالسَّرَب وهو: النَّفَق. قيل: أمسك الله عزّ وجلّ جِرْيَة الماء على الحوت فصار كالطاق عليه،[5] معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. وانتصاب ﴿سَرَبٗا﴾ على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾، و﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ حال منه أو مِن "السبيل"، ويجوز أن يتعلّق بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾.

---

[1] مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٢١-٣٢٢؛ وبعضه في شعب الإيمان للبيهقي، ٢/١٧١ (٦٧١)؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٧.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

[3] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/٩١ (٤٧٢٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

[5] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٤/١٥٤ (٣٤٠١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: مجمَع البحرين الذي جُعل موعدًا للملاقاة، قيل: أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: ما نتغذّى به، وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعبًا وإعياءً. قيل: لم ينصَبْ ولم يجُعْ قبل ذلك.[١] والجملة في محلّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء، إمّا باعتبار أنّ النصَب إنّما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمّا باعتبار ما في أثناء التغذّي مِن استراحة ما.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه عليهما السلام: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وذِكرُ الإواء إليها مع أنّ المذكور فيما سبَق مرّتين بلوغ مجمَع البحرين لزيادة تعيين محلّ الحادثة، فإنّ المجمَع محلّ متّسِع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العُذر فإنّ الإواء إليها والنومَ عندها ممّا يؤدّي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارة للمعرفة التامّة والمشاهَدة الكاملة.

ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليهما السلام ممّا اعتراه هناك مِن النسيان مع كون ما شاهده مِن العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جُعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب، وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خَطْب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويله / وتعجيبَ صاحبه [٤٠٩و]
منه وأنّه ممّا لا يُعهَد وقوعُه، لا استخبارُه[٢] عن ذلك كما قيل.[٣]

والمفعول محذوف اعتمادًا على ما يدلّ عليه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المَنسيّ. وإيقاع النسيان

---

١ بمعناه في صحيح البخاري، ١٥٤/٤ (٣٤٠١).

٢ وفي هامش م: معطوف على قوله: "تعجيب موسى عليه السلام". «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

على اسم الحوت دون ضمير الغَداء مع أنّه المأمور بإتيانه للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه ليس مِن قبيل نِسيان المسافر زادَه في المنزل، وأنّ ما شاهده ليس مِن قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء مِن حيث هو غَداء وطعام؛ بل مِن حيث هو حوت كسائر الحِيتان مع زيادة، أي: نسِيتُ أن أذكُر لك أمره وما شاهدتُ منه مِن الأمور العجيبة.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ بدَل اشتمال مِن الضمير، أي: ما أنساني أن أذكُره لك. وفي تعليق "الإنساء" بضمير الحوت أوّلًا وبذِكره له[1] ثانيًا على طريق الإبدال المنبئ عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أنّ متعلَّق النسيان أيضًا ليس نفس الحوت؛ بل ذِكر أمره. وقرئ: "أَنْ أُذَكِرَهُ"،[2] وإيثارُ ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ على المَصدر للمبالغة، فإنّ مدلوله نفس الحدَث عند وقوعه، والحالُ وإن كانت غريبة لا يُعهَد نسيانُها، لكنّه لمّا تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام وألِفها قلّ اهتمامه بالمحافظة عليها.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ بيان لطرَف مِن أمر الحوت منبئ عن طرَف آخرَ منه، وما بينهما اعتراض قُدّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنّه قيل: حَيِيَ واضطرب ووقَع في البحر واتّخذ سبيله فيه سبيلًا عجبًا. فـ﴿عَجَبٗا﴾ ثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، والظرفُ حال مِن أوّلهما أو ثانيهما، أو هو المفعول الثاني و﴿عَجَبٗا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: اتّخاذًا عجبًا وهو كون مسلَكه / كالطاق والسَّرَب، [٤٠٩ظ]
أو مصدرُ فعل محذوف، أي: أتعجَّب منه عجبًا، وقد قيل: إنّه مِن كلام موسى عليه السلام. وليس بذاك.[3]

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتَ مِن أمر الحوت

---

١ وفي هامش م: عليه السلام.

٢ ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ مِن كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "أَنْ أُذَكِرَكَهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٢.

٣ القول والردّ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ وقرئ بإثبات الياء،[1] والضميرُ العائد إلى الموصول محذوف، أصلُه "نبغيه"، أي: نطلُبه لكونه أمارة للفوز بالمَرام. ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصٗا﴾ يقُصّان قصصًا، أي: يتّبعان آثارهما اتّباعا أو مقتصّين حتّى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ۝٦٥﴾

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف. والجمهور على أنه الخَضِر واسمه بَلْيا بن مَلكان. وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم السلام.[2] ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوّة، كما يُشعِر به تنكير "الرحمة" واختصاصها بجَناب الكبرياء، ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ خاصًّا لا يُكتنه كُنهه ولا يُقادَر قَدره وهو عِلم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝٦٦﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن السِّباق، كأنّه قيل: فماذا جرى بينهما مِن الكلام؟ فقيل: قال له موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانًا منه في اتّباعه له على وجه التعلّم ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ أي: عِلمًا ذا رُشد أرشُد به في ديني، والرُّشد: إصابة الخير، وقرئ بفتحتين،[3] وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، ومفعول ﴿عُلِّمۡتَ﴾ محذوف، وكلاهما منقول مِن "عَلَم" المتعدّي إلى مفعول واحد.

ويجوز كونه عِلّة لـ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أو مصدرًا بإضمار فعله، ولا ينافي نبوّته وكونه صاحب شريعة أن يتعلّم مِن نبيّ آخرَ ما لا تعلُّقَ له بأحكام شريعته مِن أسرار العلوم الخفيّة، ولقد راعى في سَوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام.

---

[1] قرأ بإثباتها وصلًا نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وقرأ بإثباتها في الحالين ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٦/٢.

[2] الاسم والقولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٧/٢.

[3] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: / ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، كأنّه ممّا لا يصِحّ ولا يستقيم وعلّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إيذانًا بأنّه يتولّى أمورًا خفيّةَ المدار مُنكَرة الظواهر، والرجلُ الصالح لاسيّما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئزّ عند مشاهدتها. [٤١٠و]

وفي صحيح البخاري قال الخَضِر:[1] «يا موسى إنّي على عِلم مِن عِلم الله تعالى علَّمنيه لا تعلَمه، وأنت على عِلم مِن عِلم الله علّمكَه الله لا أعلَمه».[2] و﴿خُبْرًا﴾ تمييز، أي: لم يُحط به خبرك.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترض عليك. وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناء بالتيمّن ولئلّا يُتوهَّم تعلّقه بالصبر. ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على ﴿صَابِرًا﴾، أي: ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ. وفي وَعْد هذا الوُجدان مِن المبالغة ما ليس في الوَعْد بنفس الصبر وتَرْكِ العصيان، أو على ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ فلا محلّ له مِن الإعراب. والأوّل هو الأَولى لِما عرفتَه، ولظهور تعلُّقِه بالاستثناء حينئذ. وفيه دليل على أنّ أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ أذِن له في الإتّباع بعد اللّتيّا والتي،[3] و"الفاء" لتفريع الشرطيّة على ما مرّ مِن التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تُشاهده مِن أفعالي، أي: لا تفاتحني بالسؤال عن حِكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتّى أبتدئ ببيانه.

---

[1] س - الخضِر.

[2] صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

[3] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

وفيه إيذانٌ بأنّ كلّ ما صدَر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتّةَ، وهذا مِن أدب المتعلِّم مع العالم والتابع مع المتبوع.

وقرئ: "فَلَا تَسْأَلَنِّي"[١] بالنون المثقَّلة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخَضِر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة، وأمّا يُوشَعُ فقد صرَفه موسى عليه السلامِ / إلى بني إسرائيلَ. قيل: إنّهما مرّا بسفينة فكَلّما أهلها فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول.[٢] [٤١٠ظ]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ استعمال[٣] "الركوب" في أمثال هذه المواقع بكلمة ﴿فِى﴾ مع تجريده عنها في مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦]، على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه لِما[٤] أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود، ٤١/١١]، لا لِما قيل: مِن أنّ في ركوبها معنى الدخول. ﴿خَرَقَهَا﴾ قيل: خرقها بعد ما لجَّجُوا، حيث أخذ فأسًا فقلع مِن ألواحها لوحَين ممّا يلي الماء، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ مِن الإغراق، وقرئ بالتشديد[٥] مِن التغريق، و"لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا"[٦] مِن الثلاثي. ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: عظيمًا هائلًا مِن "أَمِرَ الأمرُ" إذا عظُم، قيل: الأصل "أَمِرٌ" فخفّف.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لِما قاله مِن قبلُ وتحقيق لمضمونه متضمِّن للإنكار على عدم الوفاء بوعده.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٢/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٣ وفي هامش م: مبتدأ.

٤ وفي هامش م: خبر.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأيّوب السَّخْتِياني وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٤.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٣/٢.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بنسياني أو بالذي نسِيتُه، أو[1] بشيء نسيتُه، وهو وصيّته بألّا يسأله عن حكمة ما صدَر عنه مِن الأفعال الخفيّة الأسباب قبل بيانه، أراد[2] أنّه نسيَ وصيّته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في **صحيح البخاري** مِن أنّ الأوّل كان مِن موسى نسيانًا،[3] أو أخرَج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يُوهِمه أنّه قد نسِيَ ليبسُطَ عُذره في الإنكار، وهو مِن معاريض الكلام التي يُتّقى بها الكذب مع التوسّل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان التّرْك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ مِن وصيّتك أوّل مرّة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تُغْشِني ولا تُحمِّلني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتّباعه إيّاه ﴿عُسْرًا﴾ أي: لا تُعسِّر عليّ متابعتَك ويسِّرْها عليّ بالإغضاء وتَرْكِ المناقشة. وقرئ: "عُسُرًا"[4] / بضمّتين. [٤١١و]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَانطَلَقَا﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فقَبِل عُذره فخرجا مِن السفينة فانطلقا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: كان الغلام يلعب بالغلمان ففتَل عُنقه، وقيل: ضرَب برأسه الحائط،[5] وقيل: أضجعه فذبحه بالسكّين.[6]

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة عن الذنوب، وقرئ: "زَاكِيَةً".[7] ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس محرَّمة؟ وتخصيص نَفْي هذا المُبيح بالذِّكر مِن بين سائر المبيحات مِن الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان لأنّه الأقرب إلى الوقوع نظرًا إلى حال الغلام.

---

١ س: أي.

٢ وفي هامش م: موسى.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

٤ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٦ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٣٤١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٧ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وخلف ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣١٣/٢.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم بجَعْل ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام ههنا مِن جملة الشرط، وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه السلام في معرِض الجزاء المقصود إفادته، مع أنّ الحقيق بذلك إنّما هو ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام مِن الخوارق البديعة، لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلّة وقوعها في نفس الأمر ونُدرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك رُوعيت تلك النكتة في الشرطيّة الأولى، لِما[1] أنّ صدور الخوارقِ منه عليه السلام خرج بوقوعه مرّة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفس عن ترقّبه إلى ترقّب أحوال موسى عليه السلام، هل يُحافِظ على مراعاة شرطه بموجَب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخرَ، أو يُسارِع إلى المناقشة كما مرّ في المرّة الأولى؟ فكان المقصود إفادةَ ما صدَر عنه عليه السلام ففُعِل ما فُعِل. ولله درُّ شأن التنزيل.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ القتل أقبَح والاعتراضَ عليه أدخَلُ فكان جديرًا بأن يُجعَل عُمدة في الكلام فليس مِن دَفْع الشبهة في شيء؛ بل هو مُؤيِّد لها، فإنّ كون القتل أقبَح مِن مبادي قلّة صدوره عن المؤمن العاقل ونُدرةِ وصول خبرِه إلى الأسماع، وذلك ممّا يستدعي / جَعْله مقصودًا بالذات وكونَ الاعتراض عليه أدخَل مِن موجبات كثرة صدوره عن كلّ عاقل، وذلك ممّا لا يقتضي جَعْله كذلك. [٤١١ظ]

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قيل: معناه أنكرُ مِن الأوّل، إذ لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُك الأوّل بالسدّ ونحوه. وقيل: الأمر أعظم مِن النُّكر؛ لأنّ قَتْل نفس واحدة أهون مِن إغراق أهل السفينة.[3]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ زِيد ﴿لَكَ﴾ لزيادة المكافحة بالعِتاب على رَفْض الوصيّة وقلّة التثبّت والصبر لمّا تكرّر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتّى زاد في[4] النكير في المرّة الثانية.

---

[1] وفي هامش م: خبر "لعلّ".

[2] وفي هامش م: ومَن توهّم أنّ ذلك لِما أنّ خَرْق السفينة لم يتعقّب الركوب وقد تعقّبَ القتلُ لقاء الغلام فقد نأى مِن الحقّ بمراحل. «منه».

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

[4] س - في.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، وقُرئ مِن الإفعال،[١] أي: لا تجعلني صاحبك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدتَ مِن قِبلي عُذرًا حيث خالفتُك ثلاث مرّات. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، لو لبِث مع صاحبه لأبصَر أعجبَ الأعاجيب».[٢]

وقُرئ: "لَدُنِي"[٣] بتخفيف "النون"، وقُرئ بسكون "الدال"[٤] كـ"عَضْد" في "عَضُد".

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكيةُ.[٥] وقيل: أُبُلَّةُ،[٦] وهي أبعدُ أرض الله مِن السماء. وقيل: هي برقة.[٧] وقيل: بلدة بأندلس.[٨] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري والنخَعي، واليماني وسهل بن حمّاد عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[٢] بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٤٥؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/١٩٢؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢/٣٠٥-٣٠٦.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى والحسين والجُعفي عن أبي بكر عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[٥] أنطاكية: مدينة تاريخيّة تقع على الضفّة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠ كم مِن شاطئ البحر المتوسّط في محافظة هتاي التركيّة. وانظر لِما قيل فيها: **معجم البلدان** للحموي، ١/٢٦٦.

[٦] مرويّ عن محمّد بن سيرين في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٤٧؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤١. | الأُبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة البَصرة العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البَصرة، وهي أقدم مِن البصرة. وهي مِن أجمل البلاد ونهرها مِن جِنان الدنيا المذكورة عند القدماء. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٧٧.

[٧] بَرقَة: بفتح الباء والقاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندريّة وإفريقيّة، واسم مدينتها انطابلس، فيها فواكه وخيرات كثيرة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٣٨٩-٣٩٠.

[٨] القولان في **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٣/٥٣٣.

«كانوا أهلَ قرية لئامًا».[١] وقيل: شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ في محلّ الجرّ على أنّه صفةٌ لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، ولعلّ العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفة لـ"الأهل" لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإنّ الإباء مِن الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبَحُ وأشنَعُ. «رُوي أنّهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم»[٣] ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف مِن الإضافة،[٤] يقال: "ضافه" إذا كان له ضيفًا، و"أضافه وضيَّفه" أنزَله وجعله ضيفًا له. وحقيقةُ "ضاف" مالَ إليه مِن "ضاف السهمُ عن الغرَض"، / ونظيرُه "زاره" مِن الازورار. [٤١٢و]

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يداني أن يسقُط، فاستُعيرت الإرادةُ للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك. والانقضاض: الإسراعُ في السقوط وهو "انفعال" مِن القضّ، يقال: قضضتُه فانقضّ، ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقيل: هو "افْعِلال" مِن النقض كـ"احمرّ"[٥] مِن الحُمرة.[٦] وقُرئ: "أَنْ يُنْقَضَ"[٧] مِن النَّقْض، و"أَنْ يَنْقَاصَ"[٨] مِن "انقاصت السنّ" إذا انشقّت طولًا. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: مسَحه بيده فقام. وقيل: نقَضه وبناه. وقيل: أقامه بعمود عمَده به. قيل: كان سَمكُه مائة ذراع.[٩]

﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ تحريضًا له على أَخذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضًا بأنّه فضول لِما في ﴿لَوۡ﴾ مِن النفي، كأنّه لمّا رأى الحِرمان ومِساس الحاجة

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

٢ مَرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٣٤٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وأبي رَزين وأبي رجاء والأعمش وشِبل وابن الزُّبير ومجاهد والمفضّل والزّعفراني وابن مُحيصن وأبان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٦.

٥ س: احمرار.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعكرمة وابن يعمُر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٩ هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر. و"اتّخذ" افتعَل مِن "تخِذ" بمعنى "أخذ"، كـ"اتّبع" مِن "تبِع" وليس مِن "الأخذ" عند البصريّين. وقُرئ: "لَتَخِذْتَ"،[1] أي: لأخذتَ، وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتِّساعًا، وقد قُرئ على الأصل،[3] والمشارُ إليه إمّا نفس الفِراق كما في "هذا أخوك"، أو الوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك، أو السؤال الثالث، أي: هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ "السين" للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: رَجْع الشيء إلى مآله، والمراد به ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبَّأ به دون التأويل، وهو خلاص السفينة مِن اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام مِن شرّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز. وفي جَعْل صلة الموصول عدمَ استطاعة / موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال: "بتأويل [٤١٢ظ]
ما فعلتُ" أو "بتأويل ما رأيتَ" ونحوهما نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة. وقيل: كانت لعشرة إخوة، خمسةٌ منهم زَمْنى وخمسةٌ ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾،[4] وإسنادُ العمل إلى الكلّ حينئذ إنّما هو بطريق التغليب، أو لأنّ عمل الوكلاء بمنزلة عدم الموكِّلين. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٢.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامَهم، وقد قُرِئ به،[1] أو خلفَهم، وكان رجوعُهم عليه لا محالةَ، واسمه جُلَندى بن كركر. وقيل: منولة بن جلندى الأزدي.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحة، وقد قُرِئ كذلك،[2] ﴿غَصْبًا﴾ مِن أصحابها. وانتصابه على أنّه مصدر مبيِّن لنوع الأخذ، ولعلّ تفريعَ إرادة تعييب السفينةِ على مَسكَنة أصحابها قبل بيان خوف الغَضب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها، إذ هي المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأنّ الأقوى في المداريّة هو الأمر الأوّل، ولذلك لا يُبالى بتخليص سُفن سائر الناس مع تحقّق خوف الغَضب في حقّهم أيضًا، ولأنّ في التأخير فصلًا بين السفينة وضميرها مع توهّم رجوعه إلى الأقرب.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ لم يصرِّح بكفرانه أو بكُفره إشعارًا بعدم الحاجة إلى الذِّكر لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ فخِفنا أن يُغشيَ الوالدَين المؤمنَين ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويُلحِق بهما شرًّا وبلاء، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلَّهما بضلاله فيرتدّا بسببه.

وإنّما خشيَ الخَضِر عليه السلام منه ذلك لأنّ الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سِرّ أمرِه. وقُرِئ: "فَخَافَ رَبُّكَ"،[3] أي: كرِه سبحانه كراهةَ مَن خاف / سوء عاقبة الأمر فغيّره، ويجوز أن يكون القراءةُ المشهورة على الحكاية [٤١٣و]
بمعنى "فكرِهنا"، كقوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم، ١٩/١٩].

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ بأن يرزُقهما بدلَه ولدًا خيرًا ﴿مِنْهُ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إليهما ما لا يخفى مِن الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارةً مِن الذنوب والأخلاق الرديئة، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: رحمةً وعطفًا.

قيل: وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ فولدت نبيًا هدى[1] الله تعالى على يده أمّة مِن الأمَم. وقيل: ولدت سبعين نبيًا. وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلَهما.[2] وقُرِئ: "يُبَدِّلَهُمَا"[3] بالتشديد، وقرئ: "رُحُمًا"[4] بضمّ الحاء أيضًا، وانتصابه على التمييز مثل ﴿زَكَوٰةً﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهودُ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلّ التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها مِن اليتيمين وأبيهما الصالح. قيل: اسماهما أصرَم وصريم واسم المقتول جيسون.[5]

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مِن فضّة وذهب، كما رُوي مرفوعًا.[6] والذمُّ[7] على كنزهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة، ٣٤/٩] لمَن[8] لا يؤدّي زكاتهما وسائر حقوقهما. وقيل: كان لوحًا مِن ذهب مكتوبًا فيه: عجبتُ لمَن يؤمن بالقدر كيف يحزَن؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالرزق كيف يتعَب؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمَن يؤمن بالحساب كيف يغفُل؟

---

[1] س + أي.

[2] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

[3] قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

[6] سنن الترمذي، ٣٧٦/٥ (٣١٥٢)؛ المعجم الصغير للطبراني، ١٧٤/٢ (٩٧٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٥/٥.

[7] وفي هامش م: مبتدأ.

[8] وفي هامش م: خبر.

وعجبت لمَن يعرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنّ إليها؟ لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.[١] وقيل: صحفٌ فيها عِلم.[٢]

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أنّ سعيَه في ذلك / كان لصلاحه. قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء.[٣] [٤١٣ظ]

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكُك ومدبِّر أمورك، ففي إضافة الربّ إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها مِن الأمور المذكورة. ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ مِن تحت الجدار، ولولا أنّي أقمته لانقضّ وخرج الكنز مِن تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلّيّة.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر في موقع الحال، أي: مرحومَين منه عزّ وجلّ، أو مفعول له، أو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَرَادَ﴾، فإنّ إرادة الخير رحمة. وقيل: متعلِّق بمضمَر، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمور التي شاهدتَها رحمة مِن ربّك،[٤] ويعضُده إضافة الربّ إلى ضمير المخاطَب[٥] دون ضميرهما، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سِلك البيان، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتها في الفخامة. ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: لم تستطع، فحُذف "التاء" للتخفيف. ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ مِن الأمور التي رأيته أي: مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودة، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه، وعلى كلّ حال فهو فذلكة لِما تقدَّم، وفي جعل الصلة عينَ ما مرّ[٦] تكريرٌ للنكير وتشديد للعِتاب.

---

[١] مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٢] مَرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٢-٣٦٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٣] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٤.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٢.

[٥] وفي هامش م: حسبما وقفتَ عليه مِن السرّ. «منه».

[٦] وفي هامش م: مِن عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر. «منه».

تنبيه: اختلفوا في حياة الخَضِر، فقيل: إنّه حيّ، وسببُه أنّه كان على مقدّمة ذي القرنين، فلمّا دخل الظلماتِ أصاب الخَضِر عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب مِن مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. قالوا: وإلياس أيضًا في الحياة يلتقيان كلّ سنة بالموسم. وقيل: إنّه ميّت، لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى العشاء ذاتَ ليلة، ثم قال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقَى ممّن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»،[1] ولو كان الخَضِر حينئذ حيًّا لَما عاش بعد مائة عام.[2] رُوي أنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أن يفارقه، قال له: «أوصِني»، قال: «لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبْه لتعمَل به».[3]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾

[٤١٤و] / ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألوه عليه السلام[4] على وجه الامتحان، أو سأله قريشٌ بتلقينهم. وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب. وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلقوسَ اليوناني، وقال ابن إسحاقَ: اسمه مَرزُبان بن مَرْدِبة مِن ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسودَ.[5] وقيل: اسمُه عبد الله بن الضحّاك. وقيل: مصعبُ بن عبد الله بن فينانَ بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلانَ بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ.[6] وقال السهيليّ: قيل: إنّ اسمه مَرْزُبان بن مُدرِكة، ذكره ابن هشام وهو أوّل التبابِعة.[7] وقيل: إنّه أفريدون بن النعمان الذي قتل الضحّاك.[8]

---

١ صحيح البخاري، ٣٤/١ (١١٦)؛ صحيح مسلم، ١٩٦٥/٤ (٢٥٣٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٥.

٢ هذان القولان في الخَضِر مع الاستدلال المذكور جاءا بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٥.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٥.

٤ ط س – عليه السلام.

٥ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٨/٥. وانظر: اللباب لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٦ القولان في البداية والنهاية لابن كثير، ٥٣٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٥٥/١٢. وأوّلهما في الرّوض الأنف للسُّهيلي، ١٨٠/٣.

٧ التبابِعة: هم مِن ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد، وهم مِن ملوك اليمن. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ٤٣٨/١؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ٤٢٥/١.

٨ انظر: الرّوض الأنف للسُّهيلي، ١٧٨/٣-١٧٩. والكلام بلفظ قريب عن السُّهيلي في البداية والنهاية لابن كثير، ٥٤٠/٢-٥٤١؛ واللباب لابن عادل، ٥٥٥/١٢.

وذكر أبو الريحان البيروتي[١] في كتابه المسمى بـ**الآثار الباقية عن القرون الخالية** أنّ ذا القرنين هو أبو كرِب سميّ بن عيرين بن أفريقيس الحِميري وأنّ مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التُّبّع اليماني حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدّي مسلمًا مَلِكًا علا في الأرض غيرَ مفنَّدِ
بلَغ المَشارق والمَغارب يبتغي أسبابَ أمرٍ مِن حكيم مُرشدِ[٢]

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا مِن اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن.[٣]

قال الإمام الرازي: والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ مَن بلغ مُلكُه مِن السَّعة والقوّة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل إنّما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ. يُروى أنّه لمّا مات أبوه جَمع مُلكَ الرُّوم بعد أن كان / طوائفَ، [٤١٤ظ] ثمّ قصَد ملوكَ العرب وقهَرهم، ثمّ أمعن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر،[٤] ثم عاد إلى مصرَ فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسمه، ثمّ دخَل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المَقدِس وذبح في مذبَحه، ثمّ انعطف إلى إرمينيّةَ وبابِ الأبواب[٥]

---

١ هو محمّد بن أحمد الخوارزمي البيروني، أبو الريحان (ت. ٤٤٠هـ/١٠٤٧م). فيلسوف رياضي مؤرّخ مِن أهل خوارزم، أقام في الهند سبع سنين ومات في بلده. اطّلع على فلسفة اليونانيين والهنود. وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. صنّف كتبًا متقنة منها: **الآثار الباقية في القرون الخالية**، **والاستيعاب في صفة الأسطرلاب**، **وتاريخ الأمم الشرقية**. انظر: **معجم الأدباء** للحمَوي، ٢٣٣٠/٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٣١٤/٥.

٢ البيتان لأبي كرِب أسعد الكامل بن مَلْكِيكرب بن تُبّع الأكبر الحِميري في **شعراء حِمير**، ١١٠/٣، مع بعض اختلاف في الرّواية؛ وهما لبعض الحميريّين في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٠/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٣ انظر: **الآثار الباقية** للبيروني، ص ٤٧. والكلام بلفظ قريب عن البيروني في **تفسير الرازي**، ٤٩٤/٢١؛ **واللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٤ البحر الأخضر: هو محيط بالدنيا جميعها كإحاطة الهالة بالقمر، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمشرق وهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج، والأخرى في المغرب تخرج مِن عند سلا فتمرّ بالزقاق الذي بين البرّ الأعظم مِن بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس، وتمرّ بأفريقيّة إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينيّة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٤٤/١.

٥ باب الأبواب: هي مدينة على بحر طبرستان؛ وهو بحر الخَزَر، وعلى المدينة سور مِن الحجارة ممتدّ مِن الجبل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٠٣/١.

ودان له العراقيّون والقِبط والبربر،[١] ثمّ توجّه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارًا إلى أن قتله صاحب حرسه، واستولى على ممالك الفُرس وقصدَ الهِند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ[٢] وغيرَها مِن المُدن العظامِ، ثم قصَد الصين وغزا الأمَم البعيدة ورجع إلى خراسانَ[٣] وبنى بها مدائنَ كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ[٤] ومات. انتهى كلام الإمام.[٥]

ورُوي أنّ أهل النجوم قالوا له: «إنّك لا تموت إلّا على أرض مِن حديد وتحت سماء مِن خشب»، وكان يدفِن كنزَ كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه، فبلغ بابل فرعَف وسقَط عن دابّته، فبُسطت له دروع فنام عليها، فآذته الشمس فأظلّوه بتُرس، فنظر فقال: «هذه أرض مِن حديد وسماء مِن خشب»، فأيقَن بالموت، فمات وهو ابن ألف وستّمائة سنةٍ.[٦] وقيل: ثلاثة آلاف سنةٍ. قال ابن كثير: وهذا غريب.[٧] وأغربُ منه: ما قاله ابن عساكر[٨] مِن أنّه بلغني أنّه عاش ستًّا وثلاثين سنةً أو اثنتين وثلاثين سنةً، وأنّه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام.[٩] فإنّ ذلك لا ينطبق إلّا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره.

---

١ البربر: شعب أكثره قبائل تسكن الجبال في شمال إفريقيّة. قيل: مختلف في نسبتهم للعرب، قيل مِن العرب، وقيل: مِن غسّان وغيرهم، وقيل: هم مِن حمير ومصر، وقيل: أخلاط مِن كنعان والعماليق. انظر: **قلائد الجمان** للقلقشندي، ٣٤/١.

٢ سَرَنْديب: هي جزيرةٌ كبيرةٌ في المحيط الهندي جنوب الهند، أطلق عليها العرب قديمًا اسم جزيرة سرنديب، وعُرِفت أيضًا باسم سيلان، وانظر فيها: **معجم البلدان** للحموي، ٢١٥/٣.

٣ خُراسان: بلاد واسعة أوّل حدودها ممّا يلي العراق أَزاذْوار قصبة جوَين وبَيهق، وآخرُ حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها وإنّما هي أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات مِن البلاد منها نيسابور وهَراة ومرو وأبيوَرد وسرخس وغيرها وما يتخلّل ذلك مِن المدن التي دون نهر جيحون. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٥٠/٢.

٤ شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمَذان. أحدثها زُور بن الضحّاك، ومعنى "شهر" بالفارسيّة: المدينة. وأهل نواحيها كلّهم أكراد. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٧٥/٣.

٥ انظر: **تفسير الرازي**، ٤٩٣/٢١-٤٩٤.

٦ انظر: **اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٧ انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٤/٢-٥٤٦.

٨ هو عليّ بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم (ت. ٥٧١هـ/١١٧٦م). ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي، المؤرّخ الحافظ الرحّالة الشافعي. مولده ووفاته في دمشق. وكان محدّث الديار الشاميّة، مِن أبرز كتبه: **تاريخ دمشق، والإشراف على معرفة الأطراف، ومعجم الصحابة**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٠٥/٢١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٧٣/٤.

٩ انظر: **تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٣٤٦/١٧.

قلتُ: وكذا ما ذكَره الإمام مِن قَصْدِ بني إسرائيلَ وورودِ بيت المَقدِس / [١] [٤١٥و]
والذبحِ في مذبَحه، فإنّه ممّا لا يكاد يتأتّى نسبتُه إلى الأوّل.[٢]

واختُلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته. فقيل: كان نبيًّا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[٣] وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدِّين وكمالُه بالنبوّة، ولقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾،[٤] ومِن جملة الأشياء النبوّةُ، ولقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[٥] ونحوِ ذلك. وقيل: كان مَلَكًا، لِما رُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: اللّٰهمّ غُفرًا، أمَا رضِيتم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتّى تسمَّيتُم بأسماء الملائكة.[٦]

قال ابن كثير: والصحيح أنّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنّما كان مَلِكًا صالحًا عادلًا مَلَك الأقاليم وقهَر أهلها مِن الملوك وغيرهم ودانت له البلاد، وأنّه كان داعيًا إلى الله تعالى سائرًا في الخلق بالمَعْدَلة التامّة والسلطان المؤيَّد المنصور، وكان الخَضِر على مقدّمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو مِن المَلِك بمنزلة الوزير.

وقد ذكَر الأزرقي[٧] وغيره أنّه أسلَم على يدَيْ إبراهيمَ الخليل عليه السلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ. ورُوي أنه حجّ ماشيًا فلمّا سمِع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقّاه ودعا له وأوصاه بوصايا، ويقال: إنّه أُتيَ بفرس ليركب فقال: لا أركَب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشّره إبراهيمُ عليه السلام[٨] بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم.

---

١ هنا ينتهي ما وقع مِن اضطراب الألواح في نسخة المؤلّف.

٢ وفي هامش م: وستعرف أنّ مَن بنى الإسكندريّة وقتل دارا أيضًا هو الثاني. «منه».

٣ في الآية الآتية.

٤ في الآية الآتية.

٥ الكهف، ١٨/٨٦.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٥؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٢/٥٣٧.

٧ هو محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الأزرقي، أبو الوليد (ت. نحو ٢٥٠هـ/ ونحو ٨٦٥م). مؤرّخ مِن أهل مكّة، يمانيّ الأصل، له مِن المصنّفات أخبار مكّة وما جاء فيها مِن الآثار. انظر: الأعلام للزركلي، ٦/٢٢٢.

٨ س – عليه السلام.

وقال أبو الطُّفيل:[١] سُئل عنه عليّ كرَّم الله وجهه أكان نبيًا أم مَلِكًا؟ فقال: لم يكن نبيًا ولا مَلِكًا لكن كان عبدًا أحبَّ الله فأحبّه وناصَح الله فناصَحه سُخِّر له السحاب ومُدّ له الأسباب.[٢]

[٤٢٦ظ] / واختُلف في وجه تسميته بذي القَرنين. فقيل: لأنّه بلغ قَرنَي الشمس مَشرِقَها ومَغربَها. وقيل: لأنّه مَلَك الرُّوم وفارسَ، وقيل: الرُّومَ والتُّركَ. وقيل: لأنّه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القَرنين. وقيل: لأنّه كان له ذؤابتان. وقيل: لأنّه كانت صفحتا رأسه مِن النُّحاس.[٣] وقيل: لأنّه دعا الناس إلى الله عزّ وجلّ فضُرِب بقَرنه الأيمن فمات، ثمّ بعثه الله تعالى فضُرِب بقرنه الأيسر فمات، ثمّ بعثه الله تعالى.[٤] وقيل: لأنّه رأى في منامه أنّه صعِد الفَلَك فأخذ بقَرنَي الشمس. وقيل: لأنّه انقرض في عهده قَرنان. وقيل: لأنّه سُخِّر له النور والظُّلمة فإذا سرَى يهديه النور مِن أمامه وتحُوطه الظُّلمة مِن ورائه. وقيل: لُقِّب به لشجاعته.[٥]

هذا وأمّا ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير: إنّه الإسكندر بن فيليسَ بن مصريمَ بن هرمسَ بنِ ميطونَ بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونة بن شرخونَ بن روميةَ بن ثونط بن برقيل[٦] بن رومي بن الأصفرِ بن العنزِ بن العيصِ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل عليهما السلام. كذا نسبه ابن العساكرَ:[٧] المقدوني

---

١ هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني القرشي، أبو الطفيل (ت. ١٠٠هـ/٧١٨م). شاعر كنانة وأحد فرسانها ومن ذوي السيادة، وُلد يوم وقعة أحد ومات بمكّة، وهو آخر مَن مات مِن الصحابة رضوان الله عليهم، وعاش إلى أيّام معاوية وما بعدها. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تسعة أحاديث. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٦٩٦/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٥٥/٢-٢٥٦.

٢ إلى هنا ينتهي النقل بلفظ قريب عن **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٧/٢-٥٣٩؛ وبعضه في **تفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥. وحديث أبي الطُّفيل بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥.

٣ هذه الأقوال الستّة في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢. وبعضها في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥-٣٧١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥. وأكثرها في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٨/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٤ مَرويّ عن أبي الطُّفيل عن عليّ في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥؛ **والبداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٩/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٥ أكثر هذه الأقوال في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢.

٦ م ط س: نوفيل [صُحّح في هامش م].

٧ س: عساكر.

اليوناني المصري باني الإسكندريّة الذي يؤرّخ بأيّامه الروم، وكان متأخِّرًا عن الأوّل بدهر طويل أكثرَ مِن ألفَي سَنةٍ، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو مِن ثلاثمائة سنةٍ وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوفَ، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذلّ ملوك الفُرس ووطئ أرضهم.[١]

ثم قال:[٢] وإنّما بيّنا هذا لأنّ كثيرًا مِن الناس يعتقد أنّهما واحدٌ، وأنّ المذكور / في القرآن العظيم هو هذا المتأخِّر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، [٤٢٧و] والأوّل كان عبدًا صالحًا مؤمنًا ومَلِكًا عادلًا وزيرُه الخَضِر عليه السلام، وقد قيل: إنّه كان نبيًا. وأمّا الثاني فقد كان كافرًا وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوف، وقد كان ما بينهما مِن الزمان أكثرَ مِن ألفَي سنةٍ فأين هذا مِن ذلك؟ انتهى.[٣]

قلتُ: المَقَدُوني نسبة إلى بلدة مِن بلاد الروم غربيَّ دار السلطَنة السنيّة قُسطنطينيّةَ المَحميّة، لا زالَت مشحونة بالشعائر الدينيّة، بينهما مِن المسافة مسيرة خمسةَ عشرَ يومًا أو نحو ذلك عند مدينة سَيروزَ، اسمُها بلغة اليونانيّين مَقَدُونْيا، كانت سرير مُلك هذا الإسكندر،[٤] وهي اليوم بلقَع لا يقيم بها أحد، ولكن فيها علائمُ تحكي كمال عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكة واليها وسلطانِها، ولقد مررتُ بها عند[٥] القُفول عن[٦] بعض المغازي السُلطانيّة، فعاينتُ فيها مِن تعاجيب الآثار ما فيه عِبرة لأولي الأبصار.[٧]

﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ أي: سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: مِن ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبأ مذكورًا، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المَتلوّ حكايةً عن جهة الله عزّ وجلّ قيل: «سَأَتْلُواْ» في شأنه، أو«سَأَتْلُواْ» مِن جهته تعالى «ذِكْرًا» أي: قرآنًا، و"السين" للتأكيد والدلالة على التحقّق المناسب

---

١ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٥٤١/٢-٥٤٢.

٢ وفي هامش م: ابن كثير.

٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٥٤٢/٢.

٤ وفي هامش م: ومَن نسب إليها ذا القرنين الأكبر، ثمّ استشهد على أنّه مَلَك المَشارق والمَغارب بأبيات التُبّع اليماني فقد أبدع وأغرب. «منه».

٥ س: عن.

٦ ط س: مِن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ أشيرَ في دراسة هذا التحقيق إلى تلك المغازي وما ذكره المصنّف مِن مشاهدته.

لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتّةَ، كما في قول مَن قال:

سأشكر عَمْرًا إن تراخت منيّتي أيادِيَ لم تُمنَن وإن هي جلَّتِ[١]

لا للدلالة على أنّ التلاوة ستقع فيما يُستقبَل كما قيل، لأنّ هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصّة؛ بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه السلام عنه وعن الروح / وعن أصحاب الكهف، فقال لهم عليه السلام: «ائتوني غدًا أخبرْكم»،[٢] فأبطأ عليه الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا أو أربعين كما ذُكر فيما سلف. [٤٢٧ظ]

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في تلاوة الذِّكر المعهود حسبما هو الموعود. والتمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، يقال: مكّنه ومكّن له، ومعنى الأوّل جعَله قادرًا وقويًا، ومعنى الثاني جعَل له قدرة وقوّة، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمَل كلٌّ منهما في محلّ الآخر كما في قوله عزّ وعلا: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: جعلناهم قادرين مِن حيث القُوى والأسباب والآلات على أنواع التصرّفات فيها ما لم نجعله لكم مِن القوّة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنّه قيل: ما لم نُمكِّنكم فيها، أي: ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكّنّا لهم في الأرض ما لم نمكِّنْ لكم.

وهكذا إذا كان التمكين مأخوذًا مِن المكان بناءً على توهّم ميمه أصليّة، كما أشيرَ إليه في سورة يوسفَ عليه السلام،[٣] والمعنى إنّا جعلنا له مَكِنة وقدرة على التصرّف في الأرض مِن حيث التدبير والرأي والأسباب، حيث سُخِّر له السحاب،

---

١ مختلف في نسبته: فهو لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في ملحق ديوانه، ص ١٤٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٥؛ وهو له أو لعمرو بن كُمَيل في الحماسة البصرية للبصري، ٢/٤٢١؛ ولإبراهيم الصولي في ديوانه، ص ١٣٠ (ضمن الطرائف الأدبيّة للميمني)؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٦/٣٨٤؛ وهو لأبي الأسود الدؤلي في ملحق ديوانه، ص ٣٨٨؛ ولمحمّد بن سعيد في رسائل الجاحظ، ١/٣٨؛ ولمحمّد بن سعد الكاتب التميمي في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٢١.

٢ مضى بتخريجه عند تفسير الكهف، ١٨/٢٣.

٣ في الآية الحادية والعشرين منها.

ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواءً، وسُهِّل عليه السير في الأرض، وذُلّلت له طرقها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده مِن مُهمّات مُلكه ومقاصده المتعلِّقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا يُوصِله إليه، وهو كلُّ ما يُتوصَّل به إلى المقصود مِن عِلم أو قدرة أو آلة.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقَطع، أي: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا﴾ يُوصِله إليه، ولعلّ قصْدَ بلوغ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركة الشمسيّة، وقُرئ: "فَاتَّبَعَ"[1] مِن الافتعال، والفرق أنّ الأوّل فيه معنى الإدراك والإسراع دون الثاني.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض مِن جهة المغرِب بحيث لا يتمكّن أحد مِن مجاوزته، ووقف على حافّة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه / الجزائر المسمّاة بالخالدات[2] التي هي مبدأ الأطوال على [٤٢٨و] أحد القولين، ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأة: وهي الطين الأسود مِن "حمِئت البئر" إذا كثرت حَمْأتها، وقُرئ: "حَامِيَةٍ"،[3] أي: حارّة.

رُوي أنّ معاويةَ رضي الله عنه قرأ: "حَامِيَةٍ" وعنده ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فقال معاويةُ لعبد الله بن عمرو بن العاص:[4] «كيف تقرأ؟» قال:

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

[2] الخالدات: هي الجزائر الخالدات، هي ستّ جزائر واغلة في البحر المحيط، وهي ببلاد المغرب، وقيل: بإزاء طنجة في المحيط، وقيل: هي جزائر السعادة؛ لأنّ فيها أصناف الفواكه العجيبة الطيّبة، وأرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/١٣٢.

[3] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

[4] عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ القرشي السهمي (ت. ٦٥هـ/٦٨٤م). مِن قريش مِن أهل مكّة، صحابي عالم فاضل حافظ مِن النسّاك، كان يكتب في الجاهليّة ويحسن السريانيّة، وأسلم قبل أبيه، واستأذن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب ما يسمع منه فأذن له، »

«كما يقرأ أمير المؤمنين»، ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: «كيف تجد الشمس تغرب؟» قال: «في ماء وطين»، ورُوي "في ثَأْط"[١] فوافَق قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

وليس بينهما منافاة قطعيّة لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء في الثانية منقلبة مِن "الهمزة" لانكسار ما قبلها. وأمّا رجوع معاويةَ إلى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما بما سمعه مِن كعب مع أنّ قراءته أيضًا مسموعة قطعًا،[٣] فلكون قراءةِ ابن عبّاس قطعيّة في مدلولها وقراءتِه محتمَلةً.

ولعلّه لمّا بلغ ساحل المحيط رآها كذلك؛ إذ ليس في مطمَح بصره غيرُ الماء كما يلوِّح به قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ قيل: كان لباسهم جلود الوحوش وطعامُهم ما لفَظه البحر، وكانوا كفّارًا فخيّره الله جلّ ذِكره بين أن يُعذّبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل مِن أوّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: أمرًا ذا حُسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع.

ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع صلته إمّا الرفع على الابتداء أو الخبريّة، وإمّا النصب على المفعوليّة، أي: إمّا تعذيبك واقع،[٤] أو إمّا أمرك تعذيبك،[٥] أو إمّا تفعَل تعذيبَك،[٦] وهكذا الحال في "الاتّخاذ".[٧] ومَن لم يقل بنبوّته قال: كان[٨] الخطاب بواسطة

< وكان كثير العبادة، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين وحمل راية أبيه يوم اليرموك، وشهد صفّين مع معاوية، وعمي في آخر حياته، ومات بمكّة، وقيل: في مصر. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٩٥٦/٣-٩٥٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١١١/٤.

١ وفي هامش م: جمع ثأطة: وهي الحَمْأة. «منه».

٢ بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٥/١٥-٣٧٦؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢-٥٤٦.

٣ وفي هامش م: وليس مدار الاختلاف هو السماع وإلّا لَما سأل كعبًا سؤاله المذكور. «منه».

٤ وفي هامش م: على الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الثاني.

٦ وفي هامش م: على الثالث.

٧ وفي هامش م: هذا ما قالوا. والأظهر هو الرفع على الخبريّة، بتقدير المقدّر قبل ﴿إِمَّا﴾، أي: أمرك إمّا تعذيبُك لهم وإمّا إحسانُك إليهم، أو النصبُ على المفعوليّة، أي: اختر إمّا تعذيبَك لهم وإمّا إحسانَك إليهم. «منه».

٨ س + ذلك.

نبيّ في ذلك العصر، / أو كان ذلك إلهامًا لا وحيًا بعد أن كان ذلك التخيير [٤٢٨ظ]
موافقًا لشريعة ذلك النبيّ.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لذلك النبيّ[١] أو لمَن عنده[٢] مِن خواصّه بعد ما تلقّى[٣] أمره تعالى مختارًا للشقّ الأخير: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه مِن الظلم العظيم الذي هو الشِّرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل. وعن قتادةَ أنه كان يطبُخ مَن كفَر في القدور ومَن آمن أعطاه وكساه.[٤]

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنّ مقاولته كانت مع النبيّ أو مع مَن عنده مِن أهل مشورته.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجَب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبة الحسنى أو الفِعلة الحسنى أو الجنّة جزاء، على أنّه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة قُدِّم على المبتدأ اعتناء به، أو منصوب بمضمَر، أي: نجزي بها جزاء، والجملةُ حاليّة أو معترِضة بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو حال،[٥] أي: مجزيًّا بها، أو تمييز. وقُرئ منصوبًا غيرَ منوّن[٦] على أنّه سقَط تنوينه لالتقاء الساكنين، ومرفوعًا منوّنًا[٧] على أنّه المبتدأ، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدله، والخبرُ الجارّ والمجرور.

---

١ وفي هامش م: على تقدير شمول الخطاب بطريق الوحي إليه. «منه».
٢ وفي هامش م: أي: على التقديرين. «منه».
٣ وفي هامش م: مِن النبيّ أو منه تعالى بطريق الإلهام. «منه».
٤ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦. ولم أقف عليه في مظانّه.
٥ السياق: على أنّه مصدر... أو حال...
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والضحّاك وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨١.

وقيل: خُيِّر بين القتل والأسْر، والجواب مِن باب الأسلوب الحكيم؛ لأنّ الظاهر التخيير بينهما وهم كفّار، فقال: أمّا الكافر فيُراعى في حقّه قوّة الإسلام وأمّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلّا بما يجب. ويجوز أن تكون ﴿إِمَّآ﴾ و﴿إِمَّآ﴾[١] للتوزيع دون التخيير، أي: ليكن شأنك معهم إمّا التعذيبَ وإمّا الإحسانَ، فالأوّل لمَن بقيَ على حاله والثاني لمَن تاب.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي: ممّا نأمر به ﴿يُسۡرٗا﴾ أي: سهلًا متيسِّرًا غيرَ شاقّ، وتقديره: ذا يُسر، أو أُطلِق عليه المصدر مبالغة، وقُرئ بضمّتين.[٢]

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾﴾

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا راجعًا مِن مغرِب الشمس موصِلًا إلى مَشرِقها.

[٤٢٩و] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ / يعني الموضِع الذي تطلع عليه الشمس أوّلًا مِن معمورة الأرض. وقُرئ بفتح "اللام"[٣] على تقدير مضاف، أي: مكان طلوع الشمس فإنّه مصدر. قيل: بلَغه في اثنتي عشرةَ سنةً. وقيل: في أقلَّ مِن ذلك بناء على ما ذُكر مِن أنه سُخِّر له السحاب وطُوي له الأسباب.[٤]

﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ مِن اللباس والبناء. قيل: هم الزَّنج. وعن كعب: أنّ أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحب يعرِف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلُع الشمس، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة

---

[١] كلاهما في الكهف، ١٨/٨٦.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وحُميد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨١.

[٤] ما وقفت عليهما فيما بين يديّ مِن المظانّ.

فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن، فلما طلعَت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سِرْبًا لهم، فلمّا ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم.[١]

وعن مجاهد: مَن لا يلبَس الثيابَ مِن السودان عند مطلِع الشمس أكثرُ مِن جميع أهل الأرض.[٢]

﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رِفعة المحلّ وبَسطة المُلك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرِب مِن التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدر محذوف لـ﴿وَجَدَ﴾ أو ﴿نَجۡعَل﴾[٣] أو صفةَ ﴿قَوۡمٖ﴾،[٤] أي: على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم، أو سترًا / مثلَ ستركم مِن اللباس والأكنان والجبال وغير ذلك. [٤٢٩ظ]

﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ﴾ مِن الأسباب والعَدد والعُدد ﴿خُبۡرٗا﴾ يعني أنّ ذلك مِن الكثرة بحيث لا يحيط به إلّا عِلمُ اللطيف الخبير، هذا على الوجه الأوّل. وأمّا على الوجوه الباقية فالمراد بـ﴿مَا لَدَيۡهِ﴾ ما يتناول ما جرى عليه وما صدَر عنه وما لاقاه، فتأمّل.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا ثالثًا معترِضًا بين المشرِق والمغرِب آخذًا مِن الجنوب إلى الشمال.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

٣ وفي هامش م: فيها نوع تكلّف: أمّا في الوجه الأوّل فلأنّ الوجدان في المشبّه متعلّق بالشمس وفي المشبّه به بالقوم، وأمّا في الثاني فلأنّه ليس المشبّه جَعْل حتّى يشبّه به هذا الجَعْل. «منه».

٤ في الآية السابقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين اللذين سَدّ ما بينهما، وهو منقطَع أرض التُّرك ممّا يلي المشرِق، لا جبلا إرمينيّةَ وأذربيجان[١] كما تُوهِّم،[٢] وقُرئ بالضمّ.[٣] قيل: ما كان مِن خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان مِن عمل الخَلْق فهو مفتوح.[٤] وانتصاب ﴿بَيْنَ﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه مبلوغ، وهو مِن الظروف التي تستعمل أسماء أيضًا كما ارتفع في قوله تعالى: "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ"[٥] [الأنعام، ٩٤/٦]، وانجرّ في قوله تعالى: ﴿فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف، ٧٨/١٨].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: مِن ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي: أمّة مِن الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلّة فِطنتهم. وقُرئ مِن باب الإفعال،[٦] أي: لا يُفهمون السامعَ كلامَهم.

واختلفوا في أنّهم مِن أيّ الأقوام، فقال الضحّاك: هم جيل مِن التُّرك، وقال السُّدّي: التُّرك سريّة مِن يأجوجَ ومأجوجَ، خرجت فضرَب ذو القرنين السَّدّ فبقيت خارجةً فجميع التُّرك منهم، وعن قتادةَ: أنّهم اثنتان وعشرون قبيلةً سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التُّركَ لأنّهم تُركوا خارجين.[٧]

قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سامٌ وحامٌ ويافثُ، فسامٌ أبو العرب والعجم والروم، وحامٌ أبو الحبشة والزّنج والنُّوبة،[٨] ويافثُ أبو التُّرك

---

[١] أَذْرَبيجان: هي اليوم واحدة مِن ستّ دول تركيّة مستقلّة في منطقة القوقاز في أوراسيا تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقيّة وآسيا الغربيّة، انظر لِما قيل فيها في المصادر: معجم البلدان للحموي، ١٢٨/١.

[٢] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

[٣] قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

[٤] وفي هامش م: في الضمّ والفتح ما لا يخفى مِن النكتة. «منه». | والقول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[٦] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

[٧] الأقوال الثلاثة في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥.

[٨] النُّوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبيّ مصر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٠٩/٥.

والخَزَر[١] والصقالبة[٢] ويأجوجَ ومأجوجَ.[٣]

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

/ ﴿قَالُواْ﴾ أي: بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين [٤٣٠و] كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم مِن جملة ما آتاه الله تعالى مِن الأسباب. ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قد ذكرنا أنّهما مِن أولاد يافث بن نوحٍ عليه السلام. وقيل: يأجوجُ مِن التُّرك ومأجوجُ مِن الجِيل.[٤] واختُلف في صفاتهم، فقيل: في غاية صِغر الجُثّة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد. وقيل: في نهاية عِظَم الجسم وطول القامة يبلغ قدُودهم نحوَ مائة وعشرين ذراعًا وفيهم مَن عَرضه كذلك. وقيل: لهم مخالبُ وأضراس كالسباع.[٥] وهما اسمان أعجميّان بدليل مَنْع الصرف، وقيل: عربيّان مِن "أجّ الظليم" إذا أسرَع.[٦] وأصلها "الهمزة"، كما قرأ عاصم، وقد قُرئ بغير همزة،[٧] ومَنْعُ صرفهما للتعريف والتأنيث.

---

١ الخَزر: هم جيل خُرز العيون، ينسبون إلى خزر بن يافث بن نوح. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٦٧/٢.

٢ الصقالبة: مختلف فيهم، قيل: جيل حمر الألوان صُهب الشعور، وقيل: أجناس مختلفة مساكنهم بالحربي إلى شلو المغرب وبينهم حروب، ومنهم نصارى يعقوبيّة، ومنهم لا كتاب له ولا شريعة وهم جاهلون، وقيل: مِن أبناء يافث بن نوح عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤١٦/٣.

٣ الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢. | يأجوج ومأجوج: قيل: هما ابنا يافث بن نوح عليه السلام، وهما قبيلتان مِن خلق. قيل: أربع وعشرون أمّةً، وقيل: هم أمَم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله، وهم قصار صلع، عراض الوجوه، يبلغ طول الواحد منهم نصف طول الرجل المربوع لهم مخاليب في مواضع الأظفار، ولهم أضراس وأنياب كالسباع، وقد بنى ذو القرنين سدًّا بينهم وبين الأمّة التي استجارت به منهم. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٩٧/٢، ٣٥١-٣٦٩.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢. | الجِيل: هم أهل جِيلان؛ وهي بلاد كثيرة مِن وراء بلاد طبرستان، وقد نُسب إليها ما لا يُحصى مِن أهل العلم في كلّ فنّ، وقيل: جيلان ابن يافث بن نوح عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٠٢/٢، ٤٢٠/٥.

٥ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢، وبعضها في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

٧ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع. قيل: كانوا يخرُجون أيّام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلّا أكلوه ولا يابسًا إلّا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناسَ أيضًا.[١]

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: جُعْلًا مِن أموالنا. "الفاء" لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض. وقُرئ: "خَرَاجًا"[٢] وكلاهما واحد كـ"النَّول" و"النَّوال". وقيل: الخراجُ ما على الأرض والذِّمة والخَرْج المصدر.[٣] وقيل: الخَرْج ما كان على كلّ رأس والخراجُ ما كان على البلد. وقيل: الخَرْج ما تبرّعتَ به والخَراج ما لزِمك أداؤه.[٤] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وقُرئ بالضمّ.[٥]

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقُرئ بالفكّ، أي: ما مكّنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ وجعلني فيه مكينًا قادرًا مِن المُلك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممّا تريدون أن تبذلوه إليّ مِن الخَرْج فلا حاجةَ بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بفَعَلة / وصُنّاع [٤٣٠ظ] يُحسنون البناء والعمل وبآلات لا بدّ منها في البناء، و"الفاء" لتفريع الأمر بالإعانة على خيريّة ما مكّنه الله تعالى فيه مِن مالهم أو على عدم قَبول خَرْجهم.

﴿أَجْعَلْ﴾ جواب للأمر ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ تقديم إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعَوه في قولهم: بيننا وبينهم. ﴿رَدْمًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا وبرزخًا متينًا، وهو أكبر مِن السدّ وأوثق، يقال: ثوب مُرَدَّم، أي: فيه رِقاع فوق رِقاع، وهذا إسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.
٤ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢-٥٦٥.
٥ قرأ بها نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ جمع "زُبْرة" كـ"غُرَف" في "غُرفة" وهي القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافي ردّ خراجهم لأنّ المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوَصْل الهمزة، أي: جيئوني بزُبَر الحديد على حَذْف "الباء"، كما في "أمرتُك الخير"، ولأنّ إيتاء الآلة مِن قبيل الإعانة بالقوّة دون الخَراج على العمل، ولعلّ تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها[1] دون سائر الآلات مِن الصخور والحطب ونحوهما لِما أنّ الحاجة إليها أمسّ؛ إذ هي الرُّكن في السدّ ووجودها أعزّ.

قيل: حفَر للأساس حتّى بلغ الماء وجعل الأساسَ مِن الصخر والنحاس المذاب والبنيانَ مِن زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان مائةَ فرسخ،[2] وذلك قوله عزّ قائلًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي: آتَوه إيّاها فأخذ يبني شيئًا فشيئًا،[3] حتّى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين مِن البنيان مساويًا لهما في السَّمْك على النهج المحكيّ. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع وعَرضه خمسين ذراعًا.[4] وقُرئ: "سَوَّى"[5] مِن التسوية و"سُوْوِيَ"[6] على البناء للمجهول.

﴿قَالَ﴾ للعَمَلة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ أي: بالكِيران في الحديد المبنيّ ففعلوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارٗا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة. / وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنّه فِعْل الفَعَلة للتنبيه على أنّه العُمدة [٤٣١و] في ذلك وهم بمنزلة آلاته. ﴿قَالَ﴾ للذين يتولّون أمرَ النُّحاس مِن الإذابة ونحوِها: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ أي: آتوني قِطرًا، أي: نُحاسًا مذابًا أفرغْ عليه قِطرًا، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. وقُرئ بالوصل،[7] أي: جيئوني كأنّه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ. وإسنادُ الإفراغ إلى نفسه للسرّ الذي وقفت عليه آنفًا، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿سَاوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَجۡعَلۡ﴾.[8]

---

١ وفي هامش م: "الباء" متعلّقة بالتخصيص. «منه».

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢.

٣ وفي هامش م: فإنّ "حتّى" يستدعي التدريج. «منه».

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٥٦٧/١٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي أميّة عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٤.

٧ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٨ في الآية السابقة.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧﴾

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذَرًا عن تلاقي المتقارِبَين، وقُرئ بالإدغام،[١] وفيه جمع بين الساكنين على غير حدّه، وقُرئ بقلب "السين" صادًا،[٢] و"الفاء" فصيحة، أي: فعلوا ما أُمروا به مِن إيتاء القِطْر أو الإتيانِ،[٣] فأفرغَه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلًا صَلْدًا، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ لصلابته وثخانته.

وهذه معجزة عظيمة؛[٤] لأنّ تلك الزُبَر الكثيرة إذا أثّرت فيها حرارة النار لا يقدِر الحيوان على أن يحُوْم حولها فضلًا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطْر عليها فكأنّه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال، فكان ما كان، والله على كلّ شيء قدير.

«وقيل: بناه مِن الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب مِن حديد ونُحاس مُذاب في تجاويفها»،[٥] بحيث لم يبقَ هناك فُرجة أصلًا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨﴾

[٤٣١ظ] ﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمَن عنده مِن أهل تلك الديارِ وغيرهم / ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدّ. وقيل: إلى تمكينه مِن بنائه،[٦] والفضل للمتقدّم، أي: هذا الذي ظهر على يديّ وحصَل بمباشرتي مِن السدّ الذي شأنه ما ذُكر مِن المتانة وصعوبةِ المنال ﴿رَحۡمَةٞ﴾ أي: أثرُ رحمة عظيمة عُبّر عنه بها مبالغة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ على كافّة العباد لاسيّما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنّه ليس مِن قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة؛ بل هو إحسان إلهي مَحض وإن ظهر بمباشرتي. والتعرُّض لوَصف الربوبيّة لتربية معنى الرحمة.

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الشُمُوني. المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ١١٨٤.

٣ وفي هامش م: للإعانة على قراءة الوصل. «منه».

٤ وفي هامش م: ومَن لا يقول بنبوّته يجعل ذلك معجزةً لنبيّ ذلك العصر. «منه».

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل،[١] إذ لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه مِن خروجهم وخروج الدجّال ونزولِ عيسى عليه السلام ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قيل،[٢] فإنّ بعضَ الأمور[٣] التي ستُحكى يقع بعد مجيئه حتمًا.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته، وفيه مِن الجزالة ما ليس في توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور. ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضًا مستوية، وقُرِئ: "دَكًّا"،[٤] أي: مدكوكًا مُسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ ومنه "الجَمَل الأدَكّ"، أي: المنبسِط السنامِ، وهذا الجَعْل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيان لِعِظَم قدرته عزّ وجلّ بعد بيان سَعة رحمته.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: وعده المعهود، أو كلُّ ما وعَد به، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًا. ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتّةَ. وهذه الجملة تذييل مِن ذي القرنين لِما ذكَره مِن الجملة الشرطيّة ومقرِّر[٥] لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي مِن قصّته.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مَسوق مِن جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[٦] ومحقِّق لمضمونه، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلِط إنسهم وجنّهم حَيارى مِن شدّة الهول، ولعلّ ذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون مِن السدّ مزدحِمين في البلاد.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.
٢ في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢.
٣ وفي هامش م: كالنفخ في الصور والجمع وعرض جهنّم ونحو ذلك. «منه».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥.
٥ م: مؤكّد ["صح" في الهامش].
٦ في الآية السابقة.

رُوي أنّهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابّه ثمّ يأكلون الشجر ومَن ظفِروا به ممّن لم يتحصّن منهم مِن الناس، ولا يقدِرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله عزّ وجلّ نغَفًا[١] في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة، / فيرسل الله تعالى عليهم طيرًا فتُلقيهم في البحر، ثمّ يرسِل [٤٣٢و] مطرًا يغسل الأرض ويطهِّرها مِن نَتْنهم حتّى يترُكها كالزَّلَفة،[٢] ثمّ يوضع فيها البركة، وذلك بعد نزولِ المسيح عليه الصلاة والسلام وقَتْل الدجّال.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ﴾. ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكر النفخة الأولى لأنّها داهية عامّة ليس فيها حالة مختصّة[٣] بالكفّار، ولئلّا يقع الفَصْل بين ما يقع في النشأة الأولى مِن الأحوال والأهوال، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة، أي: جمعنا الخلائق بعدما تفرّقت أوصالهم وتمزّقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء. ﴿جَمۡعٗا﴾ أي: جمعًا عجيبًا لا يُكتَنه كُنهه.

﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾

﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائق كافّة. ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَونها ويسمعون لها[٤] تغيّظًا وزفيرًا. ﴿عَرۡضًا﴾ أي: عرضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره. وتخصيص[٥] العَرض بهم مع أنّها بمرأى مِن أهل الجمع قاطبةً؛ لأنّ[٦] ذلك لأجلهم خاصّة.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ كثيف وغِشاوة غليظة مُحاطة بذلك مِن جميع الجوانب. ﴿عَن ذِكۡرِي﴾ عن الآيات المؤدّيةِ لأولي الأبصار

---

[١] وفي هامش م: وهو دُود يكون في أنوف الغنَم. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «نغف».

[٢] الزَّلَفة: البركة والروضة والمرآة. لسان العرب لابن منظور، «زلف».

[٣] س: فخصّة.

[٤] س - لها.

[٥] وفي هامش م: مبتدأ.

[٦] وفي هامش م: خبر.

المتدبِّرين فيها إلى ذِكري بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم.

﴿وَكَانُواْ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفَرْط تصامّهم عن الحقّ وكمال عداوتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَمْعًا﴾ استماعًا لذِكري وكلامي الحقّ الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلّة السمعيّة، كما أنّ الأوّل تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهَدة بالأبصار. والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمّهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن عرَض جهنّمَ لهم، فإنّ ذلك إنّما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عُرض لهم في الدنيا مِن الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسبابًا منجّية عمّا ابتُلوا به في الآخرة.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ / أي: كفروا بي، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾، والحُسبان بمعنى الظنّ، وقد قُرئ: "أفظَنَّ".[١] والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحِه، كما في قولك: أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوع،[٢] كما في قوله: أأضرِب أبي؟ و"الفاء" للعطف على مقدَّر يُفصِح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفَين جميعًا، كما إذا قُدِّر المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] منفيًّا، أي: ألا تسمعون فلا تعقلون، لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدِّر مُثبتًا، أي: أتسمعون فلا تعقلون. [٤٣٢ظ]

والمعنى أكفَروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ﴾ مِن الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين ينصُرونهم مِن بأسي. وما قيل: إنّها للعطف على ما قبلها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

٢ وفي هامش م: كما قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾... إلخ [النحل، ٤٥/١٦]، مِن أنّ "الفاء" للعطف على مقدّر تنبئ عنه الصلة، أي: أمَكَر فأمِن الذين... إلخ.

مِن قوله تعالى: ﴿كَانَتْ﴾... إلخ، ﴿وَكَانُواْ﴾... إلخ،[١] دلالة على أنّ الحُسبان ناشئ مِن التعامي والتصامّ وأُدخِل عليها همزة الإنكار ذمًّا على ذمّ وقطعًا له عن المعطوف عليهما لفظًا لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمّ، يأباه[٢] تَرْك الإضمار والتعرّض لوَصْف آخرَ غير التعامي والتصامّ على أنّهما أُخرجا مُخرَج الأحوال الجِبِلّيّة لهم، ولم يُذكرا بعنوان[٣] أنّهما مِن أفعالهم الاختياريّة الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعه عليهما، وأيضًا فإنّه دِين قديم لهم لا يمكن جعلُه ناشئًا عن تصامّهم عن كلام الله عزّ وجلّ.

وتخصيص الإنكار بحُسبانهم المتأخّر عن ذلك تعسُّف لا يخفى، وما في حيّز صلةِ ﴿أَن﴾ سادٌّ مسدّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة، ٧١/٥]، أي: أفحسبوا أنّهم يتّخذونهم أولياءَ على معنى أنّ ذلك ليس مِن الاتّخاذ في شيء لِما أنّه إنّما يكون مِن الجانبين، وهم عليهم السلام منزّهون عن وَلايتهم بالمرّة لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ، ٤١/٣٤].

وقيل: مفعوله الثاني محذوف، أي: أفحسِبوا اتّخاذهم نافعًا لهم.[٤] والوجهُ هو الأوّل لأنّ في هذا تسليمًا لنفس الاتّخاذ واعتدادًا به في الجملة، وقُرئ: "أفحَسْبُ الّذِينَ كَفَرُوا"،[٥] أي: أفمُحسِبهم وكافيهم أن يتّخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو الفعل والفاعل،[٦] فإنّ النعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل في العمل، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عُدل عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعارًا بأنّ ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل. ﴿نُزُلًا﴾ أي: شيئًا يتمتّعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي: الضيف ممّا حضَر مِن الطعام، وفيه تخطئة لهم في حسبانهم / وتهكُّم بهم حيث كان [٤٣٣و]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: وما قيل... يأباه...

٣ م ط س: مِن حيث [صُحِّح في هامش م].

٤ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن ومجاهد وعاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٦ وفي هامش م: وفيه ما فيه مِن نوع تسليم لنفس الاتّخاذ. «منه».

اتّخاذهم إيّاهم أولياءَ مِن قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنّه قيل: إنّا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم مِن العُدة والذُّخر جهنمَ عُدّة.

وفي إيراد النُّزُل إيماء إلى أنّ لهم وراءَ جهنّمَ مِن العذاب ما هي أنموذج له. وقيل: النُّزل موضع النزول.[١] ولذلك فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما بالمثوى.[٢]

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ، والجَمْع في صيغة المتكلِّم لتعيينه مِن أوّل الأمر، وللإيذان بمعلوميّة النبأ للمؤمنين أيضًا. ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ نصب على التمييز، والجمع للإيذان بتنوّعها، وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم مِن الأعمال الحسَنة في أنفسها، وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غِبَّ بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيِّئة في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال، أي: ضاع وبطَل بالكلّيّة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلّق بالسعي لا بالضلال لأنّ بُطلان سعيهم غير مختصّ بالدنيا. قيل: المراد بهم أهل الكتابين، قاله ابن عبّاس وسعد بن أبي وقّاص ومجاهد،[٣] ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه مِن الأحكام المنسوخة المتعلّقة بالعبادات. وقيل: الرَّهابِنة الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة.[٤] ولعلّه ما يعمّهم وغيرَهم مِن الكفرة. ومحلُّ الموصول الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف لأنّه جواب للسؤال، كأنّه قيل: مَن هم؟ فقيل: الذين... إلخ.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧١/١٢.

٢ في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

٣ في جامع البيان للطبري، ٤٢٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

٤ مَرويٌّ عن عليّ بن أبي طالب والضحّاك وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٤٢٣/١٥؛ وهو بلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

وجعلُه مجرورًا على أنّه نعت للأخسرين أو بدل منه أو منصوبًا على الذمّ على أنّ الجواب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[١] الآية،[٢] يأباه أنّ صدره ليس مُنبئًا عن خُسران الأعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب. والتفريع الأوّل وإن دلّ على حبوطها لكنّه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدة في تحقيق معنى الخسران مِن الوثوق بترتّب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا، على أنّ التفريع الثانيَ ممّا يقطع ذلك الاحتمال رأسًا، إذ لا مجالَ لإدراجه تحت الأمر بقضيّة نون العظمة.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتي، أي: يحسَبون أنّهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها.

[٤٣٣ظ] والجملة حال مِن فاعل ﴿ضَلَّ﴾، / أي: بطَل سعيُهم المذكور، والحال أنّهم يحسَبون أنّهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو مِن المضاف إليه لكونه في محلّ الرفع،[٣] نحو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس، ٤/١٠]، أي: بطل سعيُهم والحال أنّهم... إلخ. والفرق بينهما أنّ المقارِن لحال حُسبانهم المذكور في الأوّل ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم، والأوّل أدخَل في بيان خطئهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنَف مِن جنابه تعالى مَسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم، بحيث ينطبق[٤] على المخاطَبين غيرَ داخل تحت الأمر، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر[٥] مِن ضلال السعي مع الحسبان المزبور. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلًا ونقلًا، والتعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة تقبيح حالِهم في الكفر المذكور.

---

١ في الآية التالية.

٢ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٧/٢.

٣ وفي هامش م: ولاتّحاد العامل في الحال وصاحبها. «منه».

٤ وفي هامش م: التعريف؛ س + التعريف.

٥ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وما يتبعه مِن أمور الآخرة على ما هي عليه، ﴿فَحَبِطَتْ﴾ لذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المعهودة حُبوطًا كليًا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرّ مِن حُبوط الأعمال، وقُرئ بالياء.[1] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا؛ لأنّ مداره الأعمال الصالحة وقد حبِطت بالمرّة، وحيث كان هذا الازدراء مِن عواقب حبوط الأعمال عُطف عليه بطريق التفريع.

وأمّا ما هو مِن أجزية الكفر فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانًا؛ لأنّه إنّما يُوضَع لأهل الحسنات والسيّئات مِن الموحِّدين ليتميَّز به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتَّب عليه التكفير أو عدمه، لأنّ ذلك[2] في الموحِّدين بطريقِ الكمِّيّة، وأمّا الكفر فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيّة دون الكمِّيّة فلا يُوضَع لهم الميزان قطعًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم إثرَ بيان مآل أعمالهم المحبَطة بذلك،[3] أي: الأمر ذلك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيّنة له، أو ذلك مبتدأ والجملةُ خبره والعائد محذوف، أي: جزاؤهم به، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلُه و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبره و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأنّ ما ذُكر جزاء لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: / ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي: مهزوًّا بهما، فإنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الكفر بالآيات والرسل؛ بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضًا. [٤٣٤و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتّصفوا بأضداد ما اتّصفت به الكفرة إثرَ بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: آمنوا بآيات ربّهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير ومجاهد وابن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[2] وفي هامش م: أي: تكفير الطاعات للمعاصي وإحباط المعاصي للطاعات. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: بكفرهم.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الأعمال ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ فيما سبق مِن حُكم الله تعالى ووعده. وفيه إيماءٌ إلى أنّ أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزليّة، بخلاف ما مرّ مِن جَعْل جهنّم للكافرين نُزُلًا، فإنّه بموجَب ما حدَث مِن سوء اختيارِهم.

﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ عن مجاهد: أنّ الفردوس هو البستان بالروميّة.[١] وقال عكرمةُ: هو الجنّة بالحبشيّة. وقال الضحّاك: هي الجنّة الملتفّة الأشجار. وقيل: هي الجنّة التي تُنبت ضروبًا مِن النبات. وقيل: هي الجنّة مِن الكَرْم خاصّة. وقيل: ما كان غالبه كَرْمًا. وقال المبرّد: هو فيما سمعتُ مِن العرب الشجر الملتفُّ، والأغلب عليه أن يكون مِن العِنَب.[٢] وعن كعب: أنّه ليس في الجِنان أعلى مِن جنّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المُنكَر.[٣] وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «في الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجة مسيرةُ مائة عامٍ، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهار الأربعة، فإذا سألتُم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإنّ فوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنّة».[٤]

﴿نُزُلًا﴾ خبرُ ﴿كَانَتۡ﴾ والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف على أنّه حال مِن ﴿نُزُلًا﴾، أو على أنّه بيان أو حال مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾، والخبرُ هو الجارّ والمجرور، فإن جُعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنّات الفردوس نُزُلًا، أو جُعلت نفس الجنّات نُزُلًا مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأنّها عند ما أعدّ الله لهم على ما جرى على لسان النبوّة مِن قوله: «أعددْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر»،[٥] بمنزلة النُّزل بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المُنزل، فالمعنى ظاهر.

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٣٢/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢.

٢ هذه الأقوال الستّة في اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢-٥٧٦؛ وأكثرها في معالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥-٢١٢.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٣١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

٤ بلفظ قريب في صحيح البخاري؛ وجامع البيان للطبري، ٤٣٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥.

٥ مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المائة مِن سورة هود.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ مصدر كـ"العِود" و"الصِغَر"، أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها، إذ لا يُتصوَّر أن يكون شيء أعزّ عندهم وأرفعَ منها حتّى تُنازِعهم إليه أنفسهم وتطمَح نحوه أبصارهم. ويجوز أن يراد نفيُ التحوّل وتأكيدُ الخلود، والجملة حال مِن صاحب ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو مِن ضميره فيه، فيكون حالًا متداخِلة.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: جنس البحر ﴿مِدَادٗا﴾ وهو ما تُمِدّ به الدواة مِن الحِبْر ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلماتِ عِلمه وحكمته التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن الآيات الداعية إلى التوحيد المحذِّرة مِن الإشراك ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ مع كثرته، ولم يبقَ منه شيء / لتناهيه ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ﴾ وقُرئ بالياء،[1] والمعنى مِن غير أن تنفَد ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لعدم تناهيها، فلا دلالةَ للكلام على نَفادها بعد نَفاد البحر. [٤٣٤ظ]

وفي إضافة الكلمات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم في الموضعين مِن تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى. وإظهار ﴿ٱلۡبَحۡرُ﴾ و"الكلماتِ" في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

﴿وَلَوۡ جِئۡنَا﴾ كلام مِن جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد، و"الواو" لعطف الجملة على نظيرتها المستأنَفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة، أي: لنفِد البحر مِن غير نَفاد كلماته تعالى لو لم نجِئ بمثله مَدَدًا، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ عونًا وزيادة؛ لأنّ مجموع المتناهيَين مُتناهٍ، بل مجموع ما يدخل تحت الوجود مِن الأجسام لا يكون إلّا متناهيًا لقيام الأدلّة القاطعة على تناهي الأبعاد.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

وقُرئ: "مِدَدًا"[١] جمع "مِدّة": وهي ما يستمدّه الكاتب، وقُرئ: "مِدَادًا".[٢]

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ١١٠﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بعد ما بيّنتَ لهم شأن كلماته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة بكلماته التامّة ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن تلك الكلماتِ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له في الخَلْق ولا في سائر أحكام الألوهيّة، وإنّما تميّزتُ عنكم بذلك.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء: توقُّع وصول الخير في المستقبل. والمراد بلقائه تعالى كرامتُه. وإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنّ اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمَن استمرّ على رجاء كرامته تعالى، ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل تلك الطِّلْبة العزيزة ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ في نفسه لائقًا بذلك المرجوّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ إشراكًا جليًّا كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهل الرياء ومَن يطلب به أجرًا. وإيثار وضعِ المُظهَر موضعَ المُضمر في الموضعين[٣] مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلّيّة العنوان / للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلًا وتركًا. [٤٣٥و]

رُوي أنّ جُندُب بن زهير[٤] رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرّني»، فقال عليه السلام:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والنقّاش عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس والأعمش ومجاهد وحُميد والأعرج وابن مِقسَم وابن مُحيصن وسليمان التّيمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

[٣] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ﴾. «منه».

[٤] هو جندب بن زهير بن الحارث بن كثير بن سبع بن مالك الأزدي الغامدي، مختلف في صحبته للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: كان مع عليّ في صفّين، وهو عند أكثرهم قاتل الساحر بين يدي الوليد بن عقبة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٢٥٨/١؛ والإصابة لابن حجر، ٥٠٧/١.

«إن الله لا يقبل ما شُورك فيه»،[١] فنزلت تصديقًا له. ورُوي أنّه عليه السلام قال له: «لك أجران أجْر السرّ وأجْر العلانية»،[٢] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به. وعنه عليه السلام: «اتّقوا الشِّرك الأصغر»، قيل: «وما الشِّركُ الأصغرُ؟» قال: «الرِّياء».[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكهف مِن آخرها كانت له نورًا مِن قَرْنه[٤] إلى قدَمه، ومَن قرأها كلّها كانت له نورًا مِن الأرض إلى السماء».[٥]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ عند مضجعه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾... إلخ [الكهف، ١١٠/١٨]، كان له مِن مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكّةَ، حَشْوُ ذلك النورِ ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم، وإن كان مضجعه بمكّةَ كان له نورًا يتلألأ مِن مضجعه إلى البيت المعمور، حَشْوُ ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ».[٦]

الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.[٧]

---

١ أسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٢ سنن ابن ماجه، ٣٠٥/٥ (٤٢٢٦)؛ سنن الترمذي، ٣٩٦/٤ (٢٣٨٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٢٤١/٩ (٦٦١٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥١/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣١٥/٢-٣١٦.

٤ وفي هامش م: والقَرْن: جانب الرأس.

٥ الحديث بمعناه في سنن الدارمي، ٢١٤٣/٤ (٣٤٥٠)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٨٦/٤ (٢٢٢٠)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥١/٢.

٦ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/١٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥١/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣١٧/٢.

٧ ط س - وحسبنا الله ونعم الوكيل. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه، غُرّةَ ذي القعدة الحَرام، لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. والله عزّ سلطانه أسأل متضرّعًا أن ييسّر لي إعادةَ النظر إليه بلطفه وفضله وإتمامَه بمنّه وكرمه، إنّه هو البرّ الكريم، وصلّى الله على جميع الأنبياء والملائكة أجمعين.

سورة الكهف

ويقال: سورةُ أصحابِ الكهف، كما في حديثٍ أَخرجه ابنُ مردويه[1]، وروى البيهقيُّ[2] من حديث ابن عباسٍ مرفوعاً أَنَّها «تُدعَى في التوراة الحائلة، تحول بين قارئها وبين النَّار» إلا أَنَّه قال: إِنَّه منكر.

وهي مكِّية كلُّها في المشهور، واختاره الداني، ورُوي عن ابن عباسٍ وابنِ الزبير رضي الله عنهما، وعدَّها بعضُهم من السُّوَر التي نزلت جملة؛ لما أَخرج الديلميُّ في «مسند الفردوس»[3] عن أنس، عن النبيِّ ﷺ قال: «نزلت سورةُ الكهفِ جملة، معها سبعون ألفاً من الملائكة». وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أَنَّها مكِّية إِلَّا قولَه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ الآية [٢٨] فمدنيّ، ورُوي ذلك عن قتادة. وقال مقاتلٌ: هي مكِّية إِلَّا أولَها إلى «جرزاً» وقولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الآية:١٠٧] إلى آخرها فمدنيّ.

وهي مئةٌ وإِحدى عشرةَ آيةً عند البصريين، ومئةٌ وعشرةٌ عند الكوفيين، ومئةٌ وستٌّ عند الشاميين، ومئةٌ وخمسٌ عند الحجازيين.

ووجهُ مناسبةِ وضعها بعدَ الإِسراء - على ما قيل - افتتاحُ تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في الميزان وسائرِ الكلام، نحو: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر:٩٨] فسبحانَ اللهِ وبحمده. وأيضاً تشابُه اختتام تلك وافتتاحِ هذه؛ فإِنَّ في كلٍّ منهما حمداً، نعم فرِّق بينهما بأَنَّ الحمدَ الأَوَّلَ ظاهرٌ في الحمد الذاتيّ، والحمدَ المفتتحَ به في هذه يدلُّ على الاستحقاق الغيرِ الذاتي.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، كما في الدر المنثور ٤/ ٢٠٩، وورد ذلك أيضاً في حديث النواس بن سمعان عند الترمذي (٢٢٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٧١٧).

(٢) في الشعب ٢/ ٤٧٥.

(٣) برقم (٦٨١٢)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي، وهو متروك الحديث كما في التقريب.

وقال الجلالُ السيوطيُّ(١) في ذلك: إنَّ اليهودَ أَمروا المشركين أن يسألوا النبيَّ ﷺ عن ثلاثةِ أشياء: عن الرُّوح، وعن قصَّة أصحابِ الكهف، وعن قصة ذي القَرنين، وقد ذُكر جوابُ السؤالِ الأوَّل في آخر السورةِ الأولى، وجوابُ السؤالين الآخرَين في هذه، فناسب اتصالَهما، ولم تُجمع الأَجوبة الثلاثةُ في سورة لأنَّه لم يقع الجوابُ عن الأوَّل بالبيان، فناسب أن يُذكرَ وحدَه في سورة، واختيرت سورةُ الإسراءِ لما بين الروحِ وبين الإسراء من المشاركة بأنَّ كلًّا منهما ممَّا لا يكاد تصلُ إلى حقيقته العقولُ. وقيل: إنمَّا ذكر هناك لِمَا أنَّ الإسراء متضمِّن العروجَ إلى المحلِّ الأرفع، والروحَ متصفةٌ بالهبوط من ذلك المحلّ؛ ولذا قال ابنُ سينا فيها:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفعِ ... ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنُّعِ(٢)

ثم قال: ظهر لي وجهٌ آخر، وهو أنَّه تعالى لمَّا قال في تلك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية: ٨٥] والخطابُ لليهود، استظهر على ذلك بقصَّة موسى نبيِّ بني إسرائيلَ مع الخَضِر عليهما السلام، التي كان سببَها ذِكرُ العلمِ والأَعلم وما دلَّت عليه من كثرة معلوماتِ الله تعالى التي لا تحصَى، فكانت هذه السورةُ كإقامة الدليلِ لمَا ذُكر من الحكم في تلك السورة. وقد ورد في الحديث أنَّه لمَّا نزل (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) قال اليهود: قد أُوتينا التوراةَ فيها علمُ كلِّ شيء، فنزل ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] فتكون هذه السورةُ من هذه الجهةِ جواباً عن شُبهة الخصوم فيما قرِّر في تلك، وأيضاً لمَّا قال سبحانه هناك: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الآية: ١٠٤] شرح ذلك هنا وبَسَطه بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الآية: ٩٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الآية: ٩٩-١٠٠] اهـ. وللمناسبة أوجُهٌ أُخَرُ تظهر بأدنى تأمُّل.

وأمَّا فضلُها فمشهور.

---

(١) في تناسق الدرر ص٦٤.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٦٠، والخزانة ١١/ ١٦٨.

وقد أَخرج ابنُ مردويه عن ابن عمرَ مرفوعاً: «من قرأ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعة، سطع له نورٌ من تحت قدمِه إلى عَنان السماء، يُضيءُ له إلى يومِ القيامة، وغُفر له ما بينَ الجُمُعتين»[١].

وروى غيرُ واحدٍ عن أبي سعيدٍ الخُدْري: مَن قرأ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعة، أَضاء له من النُّور ما بينه وبينَ البيتِ العتيق[٢].

وكان الحسنُ بن عليٍّ ﷺ - كما أَخرج أبو عُبَيدٍ والبيهقيُّ عن أمِّ موسى - يقرؤها كلَّ ليلة[٣].

وأخرج ابنُ مردويه عن عبد اللهِ بن مغفَّلٍ مرفوعاً: «البيتُ الذي تُقرأ فيه سورةُ الكهفِ لا يدخله شيطانٌ تلك الليلة»[٤].

وإلى سُنِّية قراءتِها يومَ الجمعةِ وكذا ليلتَها ذهب غيرُ واحدٍ من الأئمَّة، وقالوا بندب تكرارِ قراءتها.

وأخرج أحمدُ، ومسلم، وأبو داودَ، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ حِبَّان[٥]، وجماعةٌ عن أبي الدَّرداء، عن النبيِّ ﷺ: «مَن حفظ عشرَ آياتٍ من أوَّل سورةِ الكهف، عُصم من فتنة الدجَّال». وفي روايةٍ أخرى عنه رواها أحمدُ، ومسلمٌ، والنسائيّ، وابن حبانَ أيضاً[٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشرَ الأواخرَ من سورة الكهف، عُصِم من فتنة الدجَّال».

---

(١) ذكره ابن كثير في أول تفسير سورة الكهف وقال: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٣١، والدارمي (٣٤١٠)، وأخرجه مرفوعاً الحاكم ٢/ ٣٦٨ وقال: صحيح الإسناد.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٣٢، وشعب الإيمان ٢/ ٤٧٥.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٩.

(٥) مسند أحمد (٢١٧١٢)، وصحيح مسلم (٨٠٩)، وسنن أبي داود (٤٣٢٣)، والسنن الكبرى (١٠٧٢١)، وصحيح ابن حبان (٧٨٥).

(٦) مسند أحمد (٢٧٥١٦)، وصحيح مسلم (٨٠٩)، والسنن الكبرى (١٠٧٢٠)، وصحيح ابن حبان (٧٨٦).

وأخرج الترمذيُّ وصحَّحه[1] عنه مرفوعاً: «مَن قرأ ثلاثَ آياتٍ من أوَّل الكهفِ عُصم. . . » إلخ.

وجاءَ في حديثٍ أَخرجه ابنُ مردويه عن عائشةَ ﵂ مرفوعاً أنَّ: «مَن قرأ الخمسَ الأواخرَ منها عند نومِه، بعثه اللهُ تعالى أيَّ الليلِ شاء»[2] وقد جرَّبت ذلك مِراراً، فلْيُحفظ، واللهُ تعالى الموفِّق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكاملَ الغنيَّ عن الوصف بالكمال، المعروفَ بذلك من بين سائرِ الكتب، الحقيقَ باختصاص اسمِ الكتاب به. وهو إمَّا عبارةٌ عن جميع القرآن، ففيه تغليبُ الموجودِ على المترقَّب، وإما عبارةٌ عن الجميع المنزَّل حينئذ، فالأمرُ ظاهر.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعِلِّية ما في حيِّز الصلةِ لاستحقاق الحمدِ الدالِّ عليه اللامُ، على ما صرَّح به ابنُ هشامٍ وغيرُه، وإيذانٌ بعِظَم شأنِ التنزيلِ الجليل، كيف لا، وهو الهادي إلى الكمال الممكنِ في جانبَي العلمِ والعمل.

وفي التعبير عن الرَّسول ﷺ بالعبد مضافاً إلى ضميره تعالى من الإِشارة إلى تعظيمه عليه الصلاة والسلام ـ وكذا تعظيم المنزَّل عليه ـ ما فيه. وفيه أيضاً إشعارٌ بأنَّ شأن الرسولِ أن يكونَ عبداً للمرسِل، لا كما زعمت النصارَى في حقِّ عيسى عليه السلام.

وتأخيرُ المفعولِ الصريح عن الجارِّ والمجرورِ مع أن حقَّه التقديمُ عليه ليتَّصلَ به قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾ أي: للكتاب ﴿عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ أي: شيئاً من العِوَج باختلال اللفظِ من جهة الإعراب، ومخالفةِ الفصاحةِ وتناقُض المعنى، وكونِه مشتملاً على ما ليس بحقّ، أو داعياً لغير اللهِ تعالى.

---

(١) في جامعه (٢٨٨٦).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٩، وضعَّف سنده الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٣٠٢.

والعِوَج ـ وكذا العَوَج ـ: الانحرافُ والميلُ عن الاستقامة، إلَّا أنَّه قيل: هو بكسر العينِ ما يُدرَك بفتح العين، وبفتح العينِ ما يُدرَك بفتح العين[1]، فالأوَّل: الانحرافُ عن الاستقامة المعنويةِ التي تُدرَك بالبصيرة، كعِوَج الدِّين والكلام، والثاني: الانحرافُ عن الاستقامة الحسيةِ التي تُدرَك بالبصر، كعَوَج الحائطِ والعُود.

وأُورد عليه قولُه تعالى في شأن الأرض: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧] فإنَّ الأرضَ محسوسة، واعوجاجُها وكذا استقامتُها مما يدرك بالبصر، فكان ينبغي ـ على ما ذُكر ـ فتحُ العين.

وأُجيب بأنَّه لمَّا أُريد به هنا ما خفي من الاعوجاجِ حتى احتاج إثباتهُ إلى المقاييس الهندسيةِ المحتاجةِ إلى إعمال البصيرة، أُلحق بما هو عقليٌّ صِرْف، فأُطلق عليه ذلك لذلك.

وتعقِّب بأنَّ«لا ترى» ظاهرٌ في أنَّ المنفيَّ ما يُدرَك بالبصر، فيحتاج إلى أن يرادَ به الإِدراك.

وعن ابن السِّكِّيت أنَّ المكسورَ أعمُّ من المفتوح[2]. واختار المرزوقيُّ في شرح «الفصيح» أنَّه لا فرقَ بينهما.

﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً، كما أَخرجه ابنُ المنذر عن الضحَّاك، ورُوي أيضاً عن ابن عباس. والمرادُ مما قبلُ أنَّه لا خللَ في لفظه ولا في معناه، والمرادُ من هذا أنه معتدلٌ لا إفراطَ فيما اشتمل عليه من التكاليفِ حتى يشقَّ على العباد، ولا تفريطَ فيه بإهمالِ ما يحتاج إليه حتى يحتاجَ إلى كتابٍ آخَرَ، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] ولذا كان آخرَ الكتبِ المنزَّلَ على خاتَم الرسلِ عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المرادُ منه ما أُريد ممَّا قبله، وذَكَره للتأكيد.

وقال الفرَّاء[3]: المراد: قيِّماً على سائر الكتبِ السماويَّة شاهداً بصحَّتها.

---

(١) جاء في هامش الأصل: «ما» الأولى نافية و«ما» الثانية موصولة. اهـ منه.
(٢) ينظر إصلاح المنطق ص ١٨٥.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٣.

وقال أبو مسلم: المراد: قيِّماً بمصالحِ العباد، متكفِّلاً بها وببيانها لهم؛ لاشتماله على ما ينتظم به المعاشُ والمعاد.

وهو على هذين القولَين تأسيسٌ أيضاً لا تأكيد، فكأنَّه قيل: كتاباً صادقاً في نفسه مصدِّقاً لغيره، أو: كتاباً خالياً عن النقائص حالياً بالفضائل.

وقيل: المرادُ على الأخير أنه كاملٌ في نفسه ومكمِّل لغيره.

ونصبه بمضمَر، أي: جعله قيِّماً، على أنَّ الجملةَ مستأنفة، أو: وجعله قيِّماً، على أنَّها معطوفةٌ على ما قبل، إلَّا أنَّه قيل: إنَّ حذفَ حرفِ العطفِ مع المعطوف تكلُّف. وكان حفصٌ يسكت على «عوجا» سكتةً خفيفةً ثم يقول: «قيماً»(١).

واختار غيرُ واحدٍ أنَّه على الحالِ من الضمير في «له»، أي: لم يجعلْ له عِوَجاً حالَ كونِه مستقيماً. ولا عِوَجَ فيه على ما سمعتَ أوَّلاً من معنى المستقيم؛ إذ محصِّله أنَّه تعالى صانه عن الخَلَل في اللفظ والمعنى حالَ كونِه خالياً عن الإفراط والتفريط، وكذا على القولَين الأخيرين.

نعم قيل: إنَّ جَعْلَه حالاً من الضمير مع تفسير المستقيم بالخالي عن العِوَج ركيك. وتعقَّبه بعضُهم بأنَّه تندفع الركاكةُ بالحمل على الحالِ المؤكِّدة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وفيه بحث.

وجوِّز أن يكونَ حالاً من الكتاب. واعتُرِض بأنَّه يلزم حينئذٍ العطفُ قبل تمامِ الصِّلة؛ لأنَّ الحالَ بمنزلة جزءٍ منها. وأُجيب بأنَّه يجوز أن يجعلَ «ولم يجعل» إلخ من تتمَّة الصلةِ الأولى على أنه عطفٌ بياني، حيث قال تعالى: (أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ) الكاملَ في بابه [ثم](٢) عقَّبه بقوله سبحانه: (وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا) فحينئذٍ لا يكون الفصلُ قبل تمامِ الصِّلة، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] على قول.

وأيضاً يجوز أن يكونَ الواوُ في «ولم يجعل» للحال، والجملةُ بعده حالٌ من «الكتاب» كـ «قيِّماً». واختاره الأصبهانيّ.

---

(١) التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقال أبو حيَّان[١]: إنَّ ذاك على مذهب مَن يجوِّز وقوعَ حالَين من ذي حالٍ واحدٍ بغير عطف، وكثيرٌ من أصحابنا على منعه.

وقال آخَر: إنَّ قياسَ قولِ الفارسيِّ في الخبر أنَّه لا يتعدَّد مختلفاً بالإفراد والجملية أن يكونَ الحالُ كذلك.

وأُجيب بأنَّه غيرُ وارد؛ إذ ما ذكره الفارسيُّ خلافُ مذهبِ الجمهور، مع أنَّه قياسٌ مع الفارق، فلا يُسمَع. وكذا ما ذكره أبو حيَّانَ عن الكثير خلافُ المعوَّل عليه عند الأكثر. نعم فِراراً من القيل والقال جعل بعضُهم الواوَ للاعتراض والجملةَ اعتراضية، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والأصل: الحمدُ لله الذي أَنزل على عبده الكتابَ قيِّماً ولم يجعل له عِوَجاً. ورُوي القولُ بالتقديم والتأخيرِ عن ابن عباسٍ ومجاهد. وذَكَرَ السمينُ أنَّ ابن عباسٍ حيث وقعت جملةٌ معترضةٌ في النَّظم يجعلها مقدَّمةً من تأخير[٢]، ووجِّه ذلك بأنَّها وقعت بين لفظَين مرتبطين، فهي في قوَّة الخروجِ من بينهما، ولما كان «قيماً» يُفيد استقامةً ذاتيةً أو ثابتةً[٣]؛ لكونه صفةً مشبَّهة أوصيغةَ[٤] مبالغة، وما من شيءٍ كذلك إلَّا وقد يتوهَّم فيه أدنَى عِوَج، ذُكر قولُه تعالى: «ولم يجعل» إلخ للاحتراس، وقدِّم للاهتمام، كما في قوله:

أَلا يا اسلمي يا دارَ ميٍّ على البِلى ... ولا زال منهلًّا بجرعائك القَطْرُ[٥]

ومن هنا يُعلَم أنَّ تفسير القيِّم بالمستقيم بالمعنى المتبادِر، وأنَّ قول الزمخشريِّ: فائدةُ الجمعِ بينه وبين نفي العِوَج التأكيدُ، فرُبَّ مستقيمٍ مشهودٍ له بالاستقامة ولا يخلو من أدنَى عِوَج عند السَّبر والتصفُّح[٦] = غيرُ ذي عِوَجٍ عند السَّبر والتصفُّح، وأنَّه لا يَرِد قولُ الإمام[٧]: إنَّ قولَه تعالى: «لم يجعل له عوجا»

---

(١) في البحر٦/ ٩٦.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٦٧-٦٨، ونقله بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٧٣، وما بعده منه.

(٣) في حاشية الشهاب: أو تابعة، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) في الأصل و(م): وصيغة، والمثبت من حاشية الشهاب.

(٥) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه١/ ٥٥٩.

(٦) في الكشاف٢/ ٤٧٢.

(٧) في التفسير الكبير٢١/ ٧٤.

يدلُّ على كونه مكمَّلاً في ذاته، وقولَه سبحانه: «قيماً» يدلُّ على كونه مكمِّلاً لغيره، فثبت بالبرهان العقليِّ أنَّ الترتيب الصحيحَ كما ذكره اللهُ تعالى، وأنَّ ما ذكروه من التقديم والتأخيرِ فاسدٌ يمتنع العقلُ من الذهاب إليه. انتهى.

ولَعمري إنَّ هذا الكلامَ لا ينبغي من الإمام إنْ صحَّ عنده أنَّ القولَ المذكورَ مرويٌّ عن ابن عباسٍ ومجاهد؛ فإنَّ الأولَ تَرجمانُ القرآن وناهيكَ به جلالةً ومعرفةً بدقائق اللِّسان، وقد قيل في الثاني: إذا جاءكَ التفسيرُ عن مجاهدٍ فحسْبُك.

وقال صاحبُ«حلّ العقد»: يمكن أن يكونَ «قيِّماً» بدلاً من قوله تعالى: «ولم يجعل له عوجاً» قال أبو حيَّان[1]: ويكون حينئذٍ بدلَ مفردٍ من جملة، كما قالوا في: عرفتُ زيداً أبو مَن هو: إنَّه بدلُ جملةٍ من مفرَد، وفي جواز ذلك خلاف.

هذا وزعم بعضُهم أنَّ ضميرَ«له» عائدٌ على«عبده» وحينئذٍ لا يتأتَّى جميعُ التخاريجِ الإعرابيةِ السابقة.

وقرأ أَبانُ بن تَغلب[2]: «قِيَماً»بكسر القاف وفتح الياء المخفَّفة. وفي بعض مصاحفِ الصحابة: «ولم يَجعلْ له عِوَجاً لكنَّه قيِّماً»[3] وحُمل ذلك على أنَّه تفسيرٌ لا قراءة.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ «أَنزلَ»، واللامُ للتعليل، واستدلَّ به مَن قال بتعليل أفعالِ الله تعالى بالأغراض، كالسلف والماتُريدية، ومَن يأبَى ذلك يجعلها لامَ العاقبة، وزعم الحوفيُّ أنَّه متعلِّق بـ «قيِّماً». وليس بقيِّم.

والفاعلُ ضميرُ الجلالة، وكذا في الفعلَين المعطوفين عليه.

وجوِّز أن يكونَ الفاعلُ في الكلِّ ضميرَ «الكتاب»، أو ضميرَه ﷺ.

وأَنذر يتعدَّى لمفعولَين، قال تعالى: ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠] وحُذف هنا المفعولُ الأوَّل واقتُصر على الثاني، وهو قولُه تعالى: ﴿بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ إيذاناً بأنَّ

(١) في البحر٦/ ٩٦.
(٢) في الأصل و(م): ثعلب، والقراءة في القراءات الشاذة ص٧٨، والدر المصون ٧/ ٤٣٤.
(٣) في تفسير الطبري١٥/ ١٤١، والبحر٦/ ٩٦، والدر المصون ٧/ ٤٣٥: «لكن جعله قيِّماً».

ما سيق له الكلامُ هو المفعولُ الثاني، وأنَّ الأولَ ظاهرٌ لا حاجةَ إلى ذِكره، وهو: الذين كفروا، بقرينةِ ما بعدُ، والمراد: الذين كفروا بالكتاب.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من البأس الشديدِ عذابُ الآخرةِ لا غير. وقيل: يحتمل أن يندرجَ فيه عذابُ الدنيا.

﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادراً مِن عندِه تعالى نازلاً من قِبَله بمقابلة كفرِهم، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً ثانيةً للبأس.

و«لَدُن» هنا بمعنى عند كما رُوي عن قتادة. وذكر الراغبُ[1] أنه أخصُّ منه؛ لأنَّه يدلُّ على ابتداءِ نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لَدُن طلوعِ الشمسِ إلى غروبها، وقد يوضع موضعَ عند، وقال بعضُهم: إنَّ «لدن» أبلغُ من عند وأخصّ. وفيه لغات. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصمٍ بإشمام الدال[2]، بمعنى تضعيفِ الصوتِ بالحركة الفاصلةِ بين الحرفين، فيكون إخفاءً لها، وبكسر النونِ لالتقاء الساكنين، وكسرِ الهاءِ للإتْباع.

ويُفهَم من كلام بعضِهم أنَّه قرأ بالإسكان مع الإشمام، بمعنى الإشارةِ إلى الحركة بضمِّ الشفتين مع انفراجٍ بينهما، فاستُشكل في«الدُّر المصون»[3] وغيرِه بأنَّ هذا الإشمامَ إنما يتحقَّق في الوقف على الآخِر، وكونُه في الوسَط كما هنا لا يتصوَّر؛ ولذا قيل: إنَّه يؤتَى به هنا بعدَ الوقفِ على الهاء.

ودُفع الاعتراضُ بأنَّه لا يدلُّ حينئذٍ على حركة الدال، وقد علِّل به بأنَّه متعيِّن؛ إذ ليس في الكلمة ما يصلحُ أن يشارَ إلى حركته غيرُها. ولا يخفَى ما فيه، وما قدَّمناه حاسمٌ لمادَّة الإشكال.

وقرأ الجمهورُ بضمِّ الدالِ والهاءِ وسكونِ النون، إلَّا أنَّ ابنَ كثيرٍ يصل الهاءَ بواو، وغيرُه لا يَصِل[4].

---

(١) في المفردات (لدن).

(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر٢/ ٣١٠.

(٣) ٧/ ٤٣٨.

(٤) التيسير ص١٤٢، والنشر٢/ ٣١٠.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالنصب عطفٌ على «ينذر» وقُرئ شاذّاً بالرفع[1].

وقرأ حمزةُ والكِسائي: «ويَبْشُرَ» بالتخفيف[2].

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين بالكتاب، كما يُشعر به ـ وكذا بما تقدَّم ـ ذكرُ ذلك بعد الامتنانِ بإنزال الكتاب (ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) أي: الأعمالَ الصالحةَ التي بيِّنت في تضاعيفه.

وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في الصِّلة للإشعار بتجدُّد العملِ واستمراره، وإجراءُ الموصولِ على موصوفه المذكورِ لمَا أنَّ مدارَ قبولِ العمل الإيمان.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم بمقابلة إيمانهم وعملِهم المذكورِ ﴿أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ هو ـ كما قال السُّدِّي وغيرُه ـ الجنة، وفيها من النعيم المقيمِ والثوابِ العظيم ما فيها، ويؤيِّد كونَ المرادِ به الجنةَ ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أي: مقيمين في الأجر ﴿أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ من غير انتهاءٍ لزمان مُكثهم.

ونصبُ «ماكثين» على الحالِ من الضمير المجرورِ في«لهم» والظرفان متعلِّقان به، وتقديمُ الإنذارِ على التبشير لإظهار كمالِ العناية بزجر الكفارِ عمَّا هم عليه، مع مراعاة تقديمِ التخليةِ على التحلية.

وتكريرُ الإنذارِ بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ متعلِّقاً بفرقةٍ خاصَّة ممن عمَّه الإنذارُ السابقُ من مستحقِّي البأسِ الشديد؛ للإيذان بكمال فظاعةِ حالهم، لغاية شناعةِ كفرِهم وضلالهم، كما ينبئُ عنه ما بعد، أي: ويُنذرَ مِن بين هؤلاء الكفرةِ المتفوِّهين بمثل هاتيك العظيمةِ خاصَّة، وهم العربُ القائلون: الملائكةُ بناتُ اللهِ تعالى، واليهودُ القائلون: عُزَير ابنُ اللهِ سبحانه، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن اللهِ عزَّ وجلّ.

وتركُ إجراءِ الموصولِ على الموصوف كما في قوله تعالى: (وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) إلخ للإيذان بكفاية ما في حيِّز الصلةِ في الكفر على أقبح الوجوه؛ وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة؛ للدَّلالة على تحقُّق صدورِ تلك الكلمةِ القبيحةِ عنهم فيما سبق.

---

(١) البحر٦/ ٩٦.

(٢) التيسير ص٨٧، والنشر٢/ ٢٣٩.

وجعل بعضُهم المفعولَ المحذوفَ فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة، وفي الآية صنعةُ الاحتباك، حيث حُذف من الأوَّل ما ذُكر فيما بعد، وهو المنذَر، وحُذف مما بعدُ ما ذُكر في الأوَّل، وهو المنذَرُ به.

وتعقِّب بأنَّه يؤدِّي إلى خروج سائرِ أصناف الكفرةِ عن الإنذار والوعيد.

وأُجيب بأنَّه يُعلَم إنذارُ سائرِ الأَصناف ودخولُهم في الوعيد من باب الأَوْلى؛ لأنَّ القول بالتبنِّي ـ وإن كَبُرَ كلمةً ـ دون الإشراك، وفيه نظر.

وقدَّر ابنُ عطية[1]: العالَم، وأبو البقاءِ[2]: العباد، فيعمُّ المؤمنين أيضاً.

وتعقِّب بأنَّ التعميمَ يقتضي حملَ الإنذارِ على معنى مجرَّد الإخبار بالأمر الضارِّ من غير اعتبارِ حلولِ المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس:٢] وهو يفضي إلى خلوِّ النظمِ الكريم عن الدَّلالة على حلول البأسِ الشديدِ على مَن عدا هذه الفرقة، فتأمَّل.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتِّخاذه سبحانه وتعالى ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوعُ المحلِّ على الابتداء، أو الفاعلية، لاعتماد الظرف. و«مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والجملةُ حاليَّة، أو مستأنفة، لبيان حالِهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيءٌ من العلم أصلاً، لا لإخلالهم بطريق العلمِ مع تحقُّق المعلومِ أو إمكانه، بل لاستحالته في نفسه، ومعها لا يستقيم تعلُّق العلم.

واستُظهر كونُ ضميرِ «به» عائداً على الولد، وعدمُ العلم وكذا حالُ الجملةِ على ما سمعت. وزعم المهدويُّ أنَّ الجملةَ على هذا صفةٌ لـ «ولداً». وليس بشيء.

وجوِّز أن يعودَ على القول المفهومِ من«قالوا» أي: ليس قولُهم ذلك ناشئاً عن علمٍ وتذكُّرٍ ونظرٍ فيما يجوز عليه تعالى وما يمتنع.

وقال الطبريّ[3]: هو عائدٌ على الله تعالى، على معنى: ليس لهم علمٌ بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ الذين قالوا مِثلَ ذلك ناسبين التبنِّي إليه

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥.
(٢) في الإملاء ٣/ ٥٠٤.
(٣) في تفسيره ١٥/ ١٤٧.

عزَّ وجلّ. والتعرُّضُ لنفي العلمِ عنهم لأنَّهم قدوةُ هؤلاء.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عَظُمت مقالتُهم هذه في الكفرِ والافتراء؛ لمَا فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليقُ بكبريائه جلَّ وعلا، وكَبُر ـ وكذا كلُّ ما كان على وزن فَعُلَ موضوعاً على الضمّ، كظَرُف، أو محوَّلاً إليه من فَعَلَ أو فَعِل ـ ذهب الأخفش[١] والمبرِّد إلى إلحاقه بباب التعجُّب، فالفاعلُ هنا ضميرٌ يرجع إلى قوله تعالى: «اتخذ» إلخ بتأويل المقالة، و«كلمةً» نصبٌ على التمييز، وكأنَّه قيل: ما أكبرَها كلمة! وقولُه تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفةُ «كلمة» تفيد استعظامَ اجترائهم على النُّطق بها وإخراجِها من أفواههم، فإنَّ كثيراً ممَّا يوسوس به الشيطانُ وتحدِّث به النفسُ لا يمكن أن يتفوَّهَ به، بل يُصرَف عنه الفكر، فكيف بمِثل هذا المنكر؟

وذهب الفارسيُّ وأكثرُ النُّحاة إلى إلحاقه بباب نِعمَ وبئس، فيَثْبُتُ له جميعُ أحكامه، ككون فاعلِه معرَّفاً بأل، أو مضافاً إلى معرَّف بها، أو ضميراً مفسَّراً بالتمييز. ومن هنا جوِّز أن يكونَ الفاعلُ هنا ضميرَ «كلمة» وهي أيضاً تمييز، والجملةُ صفتها، ولا ضيرَ في وصف التمييزِ في باب نِعَم وبئس. وجوَّز أبو حيانَ[٢] وغيرُه أن تكونَ صفةً لمحذوف هو المخصوصُ بالذمّ، أي: كبرت كلمةٌ كلمةٌ خارجةٌ من أفواههم.

وظاهرُ كلام الأخفش تغايُرُ المذهبَين. وفي«التسهيل»[٣] أنَّه من باب نِعمَ وبئسَ وفيه معنى التعجُّب، والمرادُ به هنا تعظيمُ الأمرِ في قلوب السامعين. وهذا ظاهرٌ في أنه لا تغايرَ بينهما، وإليه يميل كلامُ بعضِ الأئمَّة.

وقيل: نُصبت على الحال، ولا يَخفَى حاله. وتسميةُ ذلك كلمةً على حدِّ تسميةِ القصيدة بها.

وقُرئ: «كَبْرَتْ» بسكون الباء، وهي لغةُ تميم[٤]، وجاء في نحو هذا الفعل ضمُّ العين، وتسكينُها، ونقلُ حركتها إلى الفاء.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١٦.
(٢) في البحر ٦/ ٩٧.
(٣) انظر ص ١٢٨، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٧٥.
(٤) البحر٦/ ٩٧.

وقرأ الحسنُ وابن يَعمَر وابنُ محيصنٍ والقوَّاس عن ابن كثير: «كلمةٌ» بالرَّفع على الفاعلية(١). والنصبُ أبلغُ وأوكد.

واستدلَّ النَّظَّام على أنَّ الكلامَ جسمٌ بهذه الآية؛ لوصفه فيها بالخروج الذي هو من خواصِّ الأجسام.

وأُجيب: بأنَّ الخارجَ حقيقةً هو الهواءُ الحاملُ له، وإسنادُه إلى الكلام الذي هو كيفيةٌ مجازٌ.

وتعقِّب بأنَّ النظَّام القائلَ بجسمية الكلام يقول: هو الهواءُ المكيَّف لا الكيفية. واستدلالُه على ذلك مبنيٌّ على أنَّ الأصلَ هو الحقيقة. إلَّا أنَّ الخلافَ لفظيٌّ لا ثمرةَ فيه.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ أي: ما يقولون في ذلك الشأنِ إلَّا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدقِ أصلاً، والضميرانِ لهم ولآبائهم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: قاتلٌ ﴿نَّفْسَكَ﴾ وفي معناه ما في «صحيح البخاريِّ»(٢): مُهلِك. والأوَّل مرويٌّ عن مجاهدٍ والسُّدِّي وابن جبير وابنِ عباس، وأنشد لابن الأزرق إذ سأله قولَ لبيدِ بن ربيعة:

لعلك يوماً إنْ فقدتَ مزارها على بُعده يوماً لنفسك باخعُ(٣)

وفي «البحر»(٤) عن الليث: بَخَعَ الرجلُ نفسَه بَخْعاً وبُخوعاً: قتلها من شدَّة الوَجْد، وأنشد قولَ الفرزدق(٥):

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه لشيءٍ نَحَتْه عن يديه المقادِرُ

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٨، والمحتسب٢/ ٢٤، والبحر ٦/ ٩٧. والقواس: هو الإمام أبو الحسن أحمد بن محمد المكي النبَّال المقرئ، قرأ عليه قنبل وغيره، توفي سنة (٢٤٠ أو ٢٤٥هـ). معرفة القراء الكبار١/ ٣٧٠-٣٧١.

(٢) قبل حديث (٤٧٢٤).

(٣) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٨٩، والدر المنثور٤/ ٢١١.

(٤) ٦/ ٩٢.

(٥) كذا نقل المصنف عن البحر ٦/ ٩٢، والصواب أن البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٣٧.

وهو من: بَخَعَ الأرضَ بالزِّراعة، أي: جعلها ضعيفةً بسبب متابعةِ الزراعة، كما قال الكِسائي.

وذكر الزمخشريُّ[١] أنَّ البخعَ أن يبلغَ الذبحُ البِخَاع، بالباء، وهو عِرقٌ مستبطنُ القفا، وقد ردَّه ابنُ الأثير[٢] وغيرُه بأنّه لم يوجد في كتب اللغةِ والتشريح، لكنَّ الزمخشريَّ ثقةٌ في هذا البابِ واسعُ الاطِّلاع.

وقرئ: «باخعُ نفسِك» بالإضافة[٣]، وهي خلافُ الأصلِ في اسم الفاعلِ إذا استوفى شروطَ العملِ عند الزمخشريّ، وأشار إليه سيبويه في «الكتاب»[٤]. وقال الكِسائي: العملُ والإضافةُ سواء، وزعم أبو حيّان[٥] أنَّ الإضافةَ أحسنُ من العمل.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي: مِن بعدِهم. يعني: من بعدِ تولِّيهم عن الإيمان وتباعدِهم عنه. أخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّ عتبةَ بن ربيعةَ وشيبةَ بن ربيعة وأبا جهلٍ بنَ هشام والنضرَ بن الحارث وأميةَ بن خلفٍ والعاصيَ بن وائلٍ والأسودَ بن المطلب وأبا البَخْتريِّ في نفرٍ من قريشٍ اجتمعوا، وكان رسولُ اللهِ ﷺ قد كَبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومِه إياه وإنكارهم ما جاء به من النَّصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل اللهُ تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ) إلخ[٦]. ومنه يُعلَم أنَّ ما ذكرنا أوفقُ بسبب النزولِ من كون المراد: مِن بعدِ موتِهم على الكفر.

﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الجليلِ الشأن، وهو القرآنُ المعبَّر عنه في صدر السورةِ بالكتاب، ووصفُه بذلك ـ لو سُلِّمَ دلالتُه على الحدوث ـ لا يضرُّ الأشاعرةَ وأضرابَهم القائلين بأنَّ الألفاظَ حادثة.

و«إنْ» شرطية، والجملةُ بعدها فعلُ الشرط، والجوابُ محذوفٌ ثقةً بدَلالة ما سبق عليه عندَ الجمهور. وقيل: الجواب: «فلعلك..» إلخ المذكور، وهو مقدَّم لفظاً مؤخَّر معنًى، والفاءُ فيه فاءُ الجواب.

---

(١) في الفائق (بخع).
(٢) في النهاية (بخع) والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٧٥.
(٣) البحر ٦/ ٩٧.
(٤) انظر ١/ ١٨١ فما بعد، والكلام من البحر ٦/ ٩٧-٩٨.
(٥) في البحر ٦/ ٩٨.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢١١.

وقُرئ: «أَنْ لم يؤمنوا»[١] بفتح همزةِ «أنْ» على تقدير الجارّ، أي: لأنْ، وهو متعلِّق بـ «باخع» على أنَّه عِلَّة له. وزعم غيرُ واحدٍ أنَّه لا يجوز إعمالُه على هذا؛ إذ هو اسمُ فاعلٍ، وعملُه مشروطٌ بكونه للحالِ أو الاستقبال، ولا يعمل وهو للمُضِيّ، و«إن» الشرطيةُ تقلب الماضيَ بواسطة «لم» إلى الاستقبال، بخلاف أن المصدرية، فإنَّها تدخلُ على الماضي الباقي على مُضِيِّه، إلَّا إذا حُمِل على حكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار الصورةِ للغرابة.

وتعقَّبه بعضُ الأجِلَّة بأنَّه لا يلزم من مُضيِّ ما كان عِلَّةً لشيءٍ مُضيُّه، فكم من حزنٍ مستقبلٍ على أمرٍ ماض، سواء استمرَّ أو لا، فإذا استمرَّ فهو أَوْلى؛ لأنه أشدُّ نكاية، فلا حاجةَ إلى الحمل على حكايةِ الحال.

ووجَّه ذلك في «الكشف» بأنَّه إذا كانت علةُ البخعِ عدمَ الإيمان، فإن كانت العلَّةُ قد تمَّت، فالمعلولُ كذلك، ضرورةَ تحقُّق المعلولِ عند العلَّة التامَّة، وإن كانت بعد، فكمِثلٍ، ضرورةَ أنَّه لا يتحقَّق بدون تمامِها.

وتعقِّب بأنَّه غيرُ مسلَّم، لأنَّ هذه ليست علَّةً تامةً حقيقيةً حتى يلزمَ ما ذُكر، وإنَّما هي منشأٌ وباعث، فلا يضرُّ تقدُّمها.

وقيل: إنَّه تفوت المبالغةُ حينئذٍ في وَجْده ﷺ على تولِّيهم؛ لعدم كونِ البخع عقبَه، بل بعدَه بمدَّة، بخلاف ما إذا كان للحكاية.

وتعقِّب أيضاً بأنه لا وجهَ له، بل المبالغةُ في هذا أقوى؛ لأنَّه إذا صدر منه لأمرٍ مضى، فكيف لو استمرَّ أو تجدَّد؟ ولعل في الآية ما يترجَّح له البقاءُ على الاستقبال، فتدبَّر.

وانتصابُ قولِه تعالى: ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ بـ «باخع» على أنَّه مفعولٌ من أجله. وجوِّز أن يكونَ حالاً من الضمير فيه بتأويلِ متأسِّفاً؛ لأنَّ الأصلَ في الحال الاشتقاق، وأن ينتصبَ على أنَّه مصدرُ فعلٍ مقدَّر، أي: تأسفُ أسفاً.

والأسف على ما نُقل عن الزجّاج[٢]: المبالغةُ في الحزنِ والغضب. وقال

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٨.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٦٩.

الراغب: الأَسف: الحزنُ والغضبُ معاً، وقد يقال لكلٍّ منهما على الانفراد، وحقيقتُه ثَوَرانُ دم القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان على مَن دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على ما فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما عن الحزن والغضبِ فقال: مَخرجُهما واحدٌ واللفظُ مختلف، فمَن نازع مَن يقوَى عليه، أَظهره غيظاً وغضباً، ومَن نازع مَن لا يقوَى عليه، أَظهره حزناً وجزَعاً. وبهذا النظرِ قال الشاعر:

فحزنُ كلِّ أخي حزنٍ أخو الغضبِ[1]

وإلى كون الأسفِ أعمَّ من الحزن والغضب، وكونِ الحزنِ على مَن لا يملك ولا هو تحت يدِ الآسف، والغضبِ على مَن هو في قبضته وملكه ذهب منذرُ بن سعيد[2]، وفسَّر الأسفَ هنا بالحزن، بخلافه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وإذا استُعمل الأسفُ مع الغضب، يراد به الحزنُ، على ما قيل في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] وجُعل كلٌّ منهما فيه بالنِّسبة إلى بعضٍ من القوم.

وعن قتادةَ تفسيرُ الأسفِ هنا بالغضب، وفي روايةٍ أخرى بالحزن. وفي «صحيح البخاريِّ»[3] تفسيرُه بالندم. وعن مجاهدٍ تفسيرُه بالجَزَع. وأهلُ الحزنِ أكثر.

و«لعل» للترجِّي، وهو الطمعُ في الوقوع أو الإشفاقُ منه، وهي هنا استعارة، أي: وصلتَ إلى حالةٍ يَتوقَّع منك الناسُ ذلك؛ لمَا يشاهَد من تأسُّفك على عدم إيمانهم.

وقال العسكريّ: هي هنا موضوعةٌ موضعَ النهي، كأنَّه قيل: لا تبخعْ نفسَك. وقيل: موضعَ الاستفهام. وجعله ابنُ عطيةَ[4] إنكاريًّا على معنى: لا تكن كذلك.

---

(١) مفردات القرآن (أسف) وصدر البيت: جزاك ربُّك بالأحزان مغفرةً. وهو للمتنبي في ديوانه ١/ ٢٢٣.

(٢) في الأصل و(م): سعد، وهو تصحيف، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ٩٨.

(٣) بعد حديث (٤٧٢٣).

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ ونقل المصنف كلامه وكلام العسكري من البحر ٦/ ٩٧.

والقولُ بمجيءِ «لعل» للاستفهام قولٌ كوفيّ، والذي يظهر أنَّها هنا للإشفاق الذي يُقصَد به التسلِّي والحثُّ على ترك التحزُّن والتأسُّف، ويمكن أن يكونَ مرادُ العسكريِّ ذلك.

وفي الآية عند غيرِ واحدٍ استعارةٌ تمثيلية، وذلك أنَّه مثَّل حالَه ﷺ في شدَّة الوجدِ على إعراض القومِ وتولِّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ الحزنِ عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاكُ نفسِه إثرَ فوتِ ما يحبُّه عند مفارقةِ أحبَّته، تأسُّفاً على مفارقتهم، وتلهُّفاً على مهاجرتهم، ثم قيل ما قيل، وهو أَوْلى من اعتبار الاستعارةِ المفردةِ التبعيَّة في الأطراف.

وجوَّز أن تكونَ من باب التشبيه؛ لذِكر طرفيه، وهما النبيُّ ﷺ وباخع، بأن يشبَّهَ عليه الصلاة والسلام لشدَّة حرصِه على الأمر بمن يريد قتلَ نفسِه لفواتِ أمر. وهو كما ترى.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الظاهرُ عمومُ «ما» جميعَ ما لا يعقل، أي: سواءٌ كان حَيَواناً أو نباتاً أو معدناً، أي: جعلنا جميعَ ما عليها من غيرِ ذوي العقول ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ تتزيَّن به وتتحلَّى، وهو شاملٌ لزينة أهلِها أيضاً، وزينةُ كلِّ شيءٍ بحسَبه[1].

وقيل: لا يدخل في ذلك ما فيه إيذاءٌ من حَيَوان ونبات، ومَن قال بالعموم قال: لا شيءَ مما على الأرض إلَّا وفيه جهةُ انتفاع، ولا أقلَّ من الاستدلالِ به على الصانع ووحدتِه.

وخصَّ بعضُهم «ما» بالأشجار والأنهار، وآخَرُ بالنبات؛ لمَا فيه من الأزهار المختلفةِ الألوانِ والمنافع، وآخَرُ بالحيوان المختلفِ الأشكالِ والمنافعِ والأفعال، وآخَرُ بالذهب، والفضَّة، والرَّصاص، والنُّحاس، والياقوت، والزَّبرجد، واللؤلؤ، والمرجان، والألماس، وما يَجري مَجرَى ذلك من نفائس الأَحجار. وقالت فِرقة: أُريد بها الخُضرة، والمياه، والنّعم، والملابسُ، والثمار. ولعَمري إنه تخصيصٌ لا يقبله الخواصُّ على العموم.

(١) بعدها في (م): بالحقيقة وإنما هو زينة لأهلها.

وقيل: إنَّ «ما» هنا لمَن يعقل، والمرادُ بذلك ـ على ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن جُبَير والحسنِ وجاءَ في روايةٍ عن ابن عباس ـ الرِّجال، وعلى ما أخرج أبو نصرٍ السِّجْزيُّ[1] في «الإبانة» عن ابن عباس: العلماءُ، وعلى ما روى عِكرمة: الخلفاءُ والعلماءُ والأمراء.

وأنت تعلم أنَّ جَعْلَ «ما» لمن يعقل مع إرادة ما ذُكر بعيدٌ جدًّا، ولعل أولئك الأَجِلَّة أرادوا مِن «ما» العقلاءَ وغيرَهم، تغليباً للأكثر على غيره، و«ما على الأَرض» بهذا المعنى ليس إلَّا بعضَ العناصرِ الأربعةِ والمواليدِ الثلاثة، وأشرفُ ذلك المواليدُ، وأشرفُها نوعُ الإنسان، وهو متفاوتُ الشَّرفِ بحسَب الأَصناف، فيمكن أن يكونَ ما ذكروه من باب الاقتصارِ على بعض أَصنافِ هذا الأَشرف؛ لداعٍ لذلك[2].

وقد يقال: المرادُ بـ «ما» عمومُ ما لا يعقل ومَن يعقل، فيدخل مَن توجَّه إليه التكليفُ وغيرُه، ولا ضيرَ في ذلك؛ فإنَّ للمكلَّف جهتين: جهةً يدخل بها تحتَ الزينة، وجهةً يدخل بها تحت الابتلاءِ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ وقد نصَّ سبحانه على بعض المكلَّفين بأنَّهم زينةٌ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] ومن هنا يُعلَم ما في قول القاضي[3]: الأَوْلى أَلَّا يدخلَ المكلَّف؛ لأنَّ ما على الأرض ليس زينةً لها بالحقيقة، وإنَّما هو زينةٌ لأهلها لغرض الابتلاءِ، فالذي له الزينةُ يكون خارجاً عن الزِّينة.

ونصبُ «زينة» على أنه مفعولٌ ثانٍ للجعل إنْ حُمِل على معنى التصيير، أو على أنَّه حال أو مفعولٌ له ـ كما قال أبو البقاءِ وأبو حيَّان[4] ـ إنْ حُمِل على معنى الإِبداع، واللامُ الأولى إمَّا متعلِّقة به، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: زينةً كائنةً لها، واللامُ الثانيةُ متعلِّقة بـ «جعلنا»، والكلامُ على هذا وجَعْلِ «زينةً» مفعولاً

---

(١) هو عبيد الله بن سعيد الوائلي البكري السِّجستاني، شيخ الحرم. وهو راوي الحديث المسلسل بالأولية، توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥٤ وهذه الأخبار منقولة من الدر المنثور ٤/ ٢١١.

(٢) بعدها في (م): أصناف.

(٣) هو القاضي عبد الجبار، وكلامه في تفسير الرازي ٢١/ ٨٠، وغرائب القرآن للنيسابوري ١٥/ ١٠٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) الإملاء ٣/ ٥٠٥، والبحر ٦/ ٩٨.

له نحوُ: قمتُ إجلالاً لك لتقابلَني بمثل ذلك، وضميرُ الجمعِ عائدٌ على سكَّان الأرضِ من المكلَّفين المفهومِ من السِّياق. وجوِّز أن يعودَ على «ما» على تقديرِ أن تكونَ للعقلاء.

والابتلاءُ في الأصل الاختبار، وجوَّز ذلك على اللهِ سبحانه هشامُ بن الحكم[(١)]، بناءً على جهله وزعمِه أنَّه عزَّ وجلَّ لا يعلم الحوادثَ إلَّا بعد وجودِها؛ لئلَّا يلزمَ نفيُ قدرته تعالى على الفعلِ أو الترك.

وردَّه أهلُ السنَّة في محلِّه وقالوا: إنَّه تعالى يعلم الكلِّياتِ والجزئياتِ في الأزل، وأوَّلوا هذه الآيةَ أنَّ المراد: لنعاملَهم معاملةَ مَن يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ فنجازي كلًّا بما يَليق به وتقتضيه الحكمة.

وحسنُ العملِ: الزهدُ في زينة الدنيا وعدمُ الاغترارِ بها، وصرفُها على ما ينبغي، والتأمُّل في شأنها، وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقِها، والتمتُّع بها حَسْبما أَذِنَ الشرع، وأداءُ حقوقها، والشكرُ على ما أُوتي منها، لا اتِّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراضِ الفاسدةِ كما تفعله الكفرةُ وأصحابُ الأهواء.

ومراتب الحَسَن متفاوتة، وكلَّما قوي الزُّهد مثلاً كان أحسن. وسأل ابنُ عمرَ رضي الله عنهما النبيَّ ﷺ عن الأحسن عملاً ـ كما أخرج ذلك ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ في «التاريخ» ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «أحسنُكم عقلاً، وأورعُ عن محارم اللهِ تعالى، وأسرعُكم في طاعته سبحانَه»[(٢)].

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الحسن أنَّه قال: أحسنُهم عملاً: أشدُّهم للدنيا تركاً. وأخرج نحوَه عن سفيانَ الثوريّ[(٣)].

وذكر بعضُهم أنَّ الأحسنَ مَن زهد وقنع من الدُّنيا بزاد المسافر، ووراءَه حَسَنٌ، وهو مَن استكثر من حلالها وصَرَفه في وجوهه، وقبيح: مَن احتطب حلالَها

---

(١) المتكلم الكوفي الرافضي المشبِّه، له نظر وجدل، وتواليف كثيرة. السير ١٠/ ٥٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٥، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٥)، وفي إسناده: داود بن المحبَّر، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٨٦: داود ساقط.

(٣) الخبران في الدر المنثور ٤/ ٢١١، وعنه نقل المصنف.

وحرامَها وأنفقه في شهواته. وكلامُ النبيِّ ﷺ في بيان الأحسنِ أحسن ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وإيرادُ صيغةِ التفضيلِ مع أنَّ الابتلاءَ شاملٌ للفريقين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيحِ أيضاً، لا إلى الحسن والأحسنِ فقط؛ للإشعار بأنَّ الغاية الأصليةَ للجعل المذكور إنَّما هو ظهورُ كمالِ إحسان المحسنين.

و«أيُّ» إمَّا استفهامية، فهي مرفوعةٌ بالابتداء و«أحسنُ» خبرُها، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بفعل الابتلاء؛ ولِما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبتِهِ، كالسؤال والنظرِ ومكانِ الاستفهام، علِّق عن العمل. وإمَّا موصولةٌ بمعنى الذي، فهي مبنيةٌ على الضمِّ محلُّها النصبُ على أنها بدلٌ من ضمير النصبِ في «نبلوهم» و«أحسن» خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة صلةٌ لها، والتقدير: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملاً.

ويُفهَم من «البحر» أنَّ مذهبَ سيبويه في «أيُّ» إذا أُضيفت وحذف صدرُ صلتِها كما هنا، جوازُ البناءِ لا وجوبُه، وتحقيقُ الكلامِ في مذهبه لا يخلو عن إشكال، وأفعلُ التفضيلِ باقٍ ـ على الصَّحيح ـ على حقيقته كما أشرنا إليه، والمفضَّل عليه محذوف، والتقدير كما قال أبو حيَّان[(١)]: لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً ممَّن ليس أحسنَ عملاً.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمرِ الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ ممَّا جعلناه زينة. والإظهارُ في مقام الإضمار لزيادة التقرير، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكونَ هذا أعمَّ مما جعل زينة؛ ولذا لم يؤتَ بالضمير.

والجعلُ هنا بمعنى التصيير، أي: مصيِّرون ذلك ﴿صَعِيدًا﴾ أي: تراباً ﴿جُرُزًا ۝٨﴾ أي: لا نباتَ فيه. قاله قتادة.

وقال الراغب[(٢)]: الصعيدُ وجهُ الأرض. وقال أبو عبيدة[(٣)]: هو المستوي من الأرض. ورُوي ذلك عن السدِّي. وقال الزجَّاج[(٤)]: هو الطريقُ الذي لا نباتَ فيه.

---

(١) ٦/ ٩٨.

(٢) في المفردات (صعد).

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٩٣.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٩.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ[١] أنَّ الجُرُز الخراب. والظاهرُ أنَّه ليس معنًى حقيقيًا، والمعنى الحقيقيّ ما ذكرناه، وقد ذكره غيرُ واحدٍ من أئمَّة اللغة. وفي «البحر»[٢]: يقال: جَرَزَتِ الأرضُ فهي مجروزة: إذا ذهب نباتُها بقحطٍ أو جراد، وأَرَضون أجراز: لا نباتَ فيها، ويقال: سَنَة جُرُز وسِنونَ أجراز: لا مطرَ فيها، وجُرُز الأرض: الجرادُ والشاةُ والإبلُ إذا أكلت ما عليها، ورجلٌ جَروز: أَكول، أو سريعُ الأكل، وكذا الأنثى، قال الشاعر:

إنَّ العجوزَ خَبَّةً جَروزا تأكل كلَّ ليلةٍ قفيزا[٣]

وفي «القاموس»[٤]: أرض جُرُز وجُرْز وجَرْز وجَرَز[٥]: لا تُنبت، أو أُكل نباتُها، أو لم يُصِبها مطر. وفي المثل: لا ترضَى شانئةٌ إلَّا بجَرْزة، أي: بالاستئصال.

والمراد: تصييرُ ما على الأرض تراباً ساذجاً بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظَّار، وتستلذُّ بمشاهدته الأبصار. وظاهرُ الآيةِ تصييرُ ما عليها بجميع أجزائه كذلك، وذلك إنَّما يكون بقلب سائرِ عناصرِ المواليد إلى عنصر التُّراب، ولا استحالةَ فيه؛ لوقوع انقلابِ بعض العناصرِ إلى بعضٍ اليومَ.

وقد يقال: إنَّ هذا جارٍ على العرف؛ فإنَّ الناسَ يقولون: صار فلانٌ تراباً: إذا اضمحلَّ جسدُه ولم يبقَ منه أثرٌ إلَّا التراب. وحديثُ انقلابِ العناصر ممَّا لا يكاد يخطرُ لهم ببال، وكذا زَعْمُ محقِّقي الفلاسفةِ بقاءَ صورِ العناصرِ في المواليد، ويوشك أن يكونَ تركُّب المواليدِ من العناصر أيضاً كذلك، وهذا الحديثُ لا تكاد تسمعُه عن السَّلف الصالح، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) عن سعيد بن جبير كما في الدر المنثور ٤/ ٢١١.

(٢) ٦/ ٩٢.

(٣) الرجز في كتاب العين ٦/ ٦٤، والنوادر لأبي زيد ص١٧٢، ~~والبحر ٦/ ٩٢~~، والدر المصون ٤/ ٤٩٠ و٧/ ٤٤٥، واللباب ١٢/ ٤٢٩ دون نسبة.

(٤) مادة (جرز).

(٥) جاء في هامش الأصل: الأول على وزن كتب جمع كتاب، والثاني كقفل، والثالث كسهم، والرابع كسبب. اهـ منه.

ووجهُ ربطِ هاتين الآيتين بما قبلَهما ـ على ما قاله بعضُ المحقِّقين ـ أنَّ قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا) إلخ تعليلٌ لِمَا في «العل» مِن معنى الإشفاق، وقولَه سبحانه: (وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ) إلخ تكميلٌ للتعليل، وحاصلُ المعنى: لا تحزنْ بما عاينتَ من القوم من تكذيبِ ما أنزلنا عليك من الكتاب؛ فإنَّا قد جعلنا ما على الأرضِ من فنون الأشياءِ زينةً لها لنختبرَ أعمالَهم، فنجازيَهم بحسَبها، وإنَّا لَمُفْنونَ ذلك عن قريب، ومجازون بحسَب الأعمال. وفي معنى ذلك ما قيل: إنَّه تسكينٌ له عليه الصلاة والسلام، كأنَّه قيل: لا تحزن؛ فإنَّا ننتقم لك منهم.

وظاهرُ كلام بعضِهم جعلُ ما يُفهَم من أوَّل السورةِ تعليلاً للإشفاق، حيث قال: المعنى: لا يعظُمْ حزنُك بسبب كفرِهم؛ فإنَّا بعثناك منذراً ومبشِّراً، وأمَّا تحصيلُ الإيمان في قلوبهم فلا قدرةَ لك عليه. قيل: ولا يضرُّ جعلُ ما ذُكر تعليلاً لذلك أيضاً؛ لأنَّ العِلَل غيرُ حقيقية.

وقيل في وجهِ الربط: إنَّ ما تقدَّم تضمَّن نهيَه ﷺ عن الحزن، وهذا تضمَّن إرشادَه إلى التخلُّق ببعض أخلاقِه تعالى، كأنَّه قيل: إنِّي خلقت الأرضَ وزينتَها ابتلاءً للخلق بالتكاليف، ثم إنَّهم يتمرَّدون ويكفرون، ومع ذلك لا أَقطعُ عنهم نِعَمي، فأنت أيضاً يا محمدُ لا تترك الاشتغالَ بدعوتهم بعدَ ألَّا تأسف عليهم، والجملةُ الثانيةُ لمجرَّد التزهيدِ في الميل إلى زينة الأرض. ولا يخفَى عليك بُعْدُ هذا الرَّبط، بل لا يكاد ينساق الذِّهن إليه، فتأمَّل.

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ والمقصودُ غيره، كما ذهب إليه غيرُ واحد. و«أم» منقطعةٌ مقدَّرة بـ «بل» ـ التي هي للانتقال من كلامٍ إلى آخَرَ، لا للإبطال ـ وهمزةِ الاستفهامِ عند الجمهور، وببل وحدَها عند بعضٍ، وقيل: هي هنا بمعنى الهمزة.

والحقُّ الأوَّل، أي: بل أَحسبتَ ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة ونومِهم مدةً طويلةً من الدَّهر ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: مِن بين دلائلنا الدالَّة على القدرة والألوهية ﴿عَجَبًا ۝٩﴾ أي: آيةً ذاتَ عجب، وضعاً له موضعَ المضاف، أو وصفاً لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ «كانوا»، و«من آياتنا» حالٌ منه، كما هو قاعدةُ نعتِ النكرةِ إذا تقدَّم عليها.

وجوَّز أبو البقاءِ[1] أن يكونَ «عجباً» و«من آياتنا» خبرَين، وأن يكونَ «عجباً» حالاً من الضمير في الجارِّ والمجرور. وليس بذاك.

والمعنى: إنَّ قصَّتهم وإن كانت خارقةً للعادة ليست بعجيبةٍ بالنِّسبة إلى سائر الآياتِ التي من جملتها ما تقدَّم. ومن هنا يُعلمُ وجهُ الربط. وفي «الكشف» أنَّه تعالى ذكر من الآيات الكلِّية ـ وإن كان لتسليته ﷺ، وأنَّه لا ينبغي أن يبخعَ نفسَه على آثارهم، فالمسترشدُ يكفيه أدنى إشارة، والزائغُ لا تجدي فيه آياتُ النذارةِ والبشارة ـ ما يشتمل على أمَّهات العجائب، وعقَّبه سبحانه بقوله: (أَمْ حَسِبْتَ) إلخ، يعني أنَّ ذلك أعظمُ من هذا، فمَن لا يتعجَّب من ذلك لا ينبغي أن يتعجَّبَ من هذا، وأُريد من الخطاب غيرُه ﷺ؛ لأنَّه كان يعرف مِن قدرته تعالى ما لا يتعاظمه لا الأوَّلُ ولا الثاني، فأنكر اختلافَهم في حالهم تعجُّباً، وإضرابَهم عن مثل تلك الآياتِ البيِّنات.

والاعتراضُ عليه بأنَّ الإضرابَ عن الكلام الأوَّلِ إنَّما يَحسُنُ إذا كان الثاني أغربَ ليحصلَ الترقِّي، وإيثار أنَّ الهمزةَ للتقرير، وهو قولٌ آخَرُ في الآية لذلك = غيرُ قادح؛ لأنَّ تعجُّبهم عن هذا دون الأوَّلِ هو المنكر، وهو الأغرب، فافهم. وبأنَّ المنكَرَ ينبغي أن يكون مقرَّراً عند السامعِ معلوماً عنده، وهذا ابتداءُ إعلامٍ منه تعالى على ما يُعرَف من سبب النزولِ = كذلك؛ لأنَّ الإنكارَ من تعجُّبهم، ويكفي في ذلك معرفتُها إجمالاً وكانت حاصلة، كيف وقد علمتَ أنَّه راجعٌ إلى الغير، أعني أصحابَ الكتابِ الذين أَمروا قريشاً بالسؤال وكانوا عالمين، ثم إنَّه مشتركُ الإلزام؛ لأنَّ التقريرَ أيضاً يقتضي العلم، بل أَوْلى. انتهى.

وقال الطبريّ[2]: المرادُ إنكار ذلك الحِسبانِ عليه عليه الصلاة والسلام، على معنى: لا يعظُمْ ذلك عندك بحسَب ما عظَّمه عليك السائلون من الكَفَرة؛ فإنَّ سائرَ آياتِ الله تعالى أَعظمُ من قصَّتهم. وزعَمَ أنَّ هذا قولُ ابنِ عباس ومجاهدٍ وقتادةَ وابن إسحاق. وفي القلب منه شيء.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥٠٥.

(٢) انظر تفسيره ١٥/ ١٥٥ فما بعد.

وقيل: المرادُ من الاستفهام إثباتُ أنَّهم عجب، كأنَّه قيل: اِعلم أنَّهم عجب، كما تقول: أَعلمتَ أنَّ فلاناً فعل كذا؟ أي: قد فعل فاعلمه، والمقصودُ بالخطاب رسولُ اللهِ ﷺ أيضاً. وليس بشيءٍ.

وزعم الطيبيُّ أنَّ الوجهَ أن يجريَ الكلامُ على التسلِّي والاستفهامُ على التنبيه، ويقالَ: إنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا أخذه من الكآبة والأسفِ من إباء القومِ عن الإيمان ما أخذه، قيلَ له ما قيل، وعلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ إلى آخره، على معنى: إنَّا جعلنا ذلك لنختبرَهم، وحين لم تتعلَّق إرادتُنا بإيمانهم تشاغلوا به عن آياتنا، وشُغلوا عن الشُّكر، وبدَّلوا الإيمانَ بالكفران، فلم نبالِ بهم، وإنَّا لجاعلون أبدانَهم جُرُزاً لأسيافكم، كما إنَّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً، ألا ترى إلى أولئك الفتيانِ كيف اهتدَوا وفرُّوا إلى الله تعالى، وتركوا زينةَ الدنيا وزُخرفَها، فأوَوْا إلى الكهف قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ وكما تعلَّقت الإرادةُ بإرشادهم فاهتدَوا، تتعلَّق بإرشاد قومٍ من أمَّتك يحبُّهم ويحبُّونه، أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين. اهـ. ويكاد يكونُ أعجبَ من قصَّة أهلِ الكهف، فتأمَّل.

والحِسبان إمَّا بمعنى الظنّ، أو بمعنى العلم، وقد استُعمل بالمعنيين. والكهف: النَّقب المتَّسع في الجبل، فإنْ لم يكن واسعاً فهو غار. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ[عن الضحاك] أنَّه غارُ الوادي(١). وعن مجاهدٍ أنَّه فُرجةٌ بين الجبلين. وعن أنسٍ هو الجبل، وهو غيرُ مشهورٍ في اللغة.

والرقيم: اسمُ كلبِهم على ما رُوي عن أنسٍ والشعبيّ، وجاءَ في روايةٍ عن ابن جُبَير، ويدلُّ عليه قولُ أميةَ بنِ أبي الصلت:

وليس بها إلَّا الرقيمُ مجاوراً ... وصيدهمُ والقومُ في الكهف هُجَّدا(٢)

وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن جُبَير أنَّه لوحٌ من حجارةٍ كتبوا فيه قصةَ أصحابِ الكهف وأَمْرَهم، ثم وُضع على بابِ الكهف.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١١، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٥/ ١٥٨، ولفظ الدر: غار في الوادي.

(٢) في ديوان أمية ص٤٧: هُمَّدُ.

وقيل: لوحٌ من حجارةٍ كُتِب فيه أسماؤهم وجُعِل في سور المدينة، ورُوي ذلك عن السُّدِّي.

وقيل: لوحٌ من رصاصٍ كُتِب فيه شأنُهم ووُضِع في تابوتٍ من نحاسٍ في فم الكهف.

وقيل: لوحٌ من ذهبٍ كُتِب فيه ذلك، وكان تحت الجدارِ الذي أقامه الخَضِرُ عليه السلام.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّه كتابٌ كان عندهم فيه الشرعُ الذي تمسَّكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقيل: من دينٍ قبلَ عيسى عليه السلام. فهو لفظٌ عربيٌّ، وفعيلٌ بمعنى مفعول.

وأخرج ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ من طريق العَوفيِّ عن ابن عباسٍ أنَّه وادٍ دون فلسطين قريبٌ من أيلة[1]. والكهفُ ـ على ما قيل ـ في ذلك الوادي، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبِه. وأخرجا ـ هما ـ وجماعةٌ من طريقٍ آخَرَ عنه ﵁ أنَّه قال: لا أدري ما الرَّقيم، وسألت كعباً فقال: اسمُ القريةِ التي خرجوا منها[2]. وعلى جميع هذه الأقوالِ يكون أصحابُ الكهفِ والرقيمِ عبارةً عن طائفةٍ واحدة.

وقيل: إنَّ أصحابَ الرقيمِ غيرُ أصحابِ الكهف، وقصَّتُهم في الصحيحين وغيرهما. فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ[3] والنَّسائي وابنُ المنذرِ عن ابن عمرَ ﵄ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «بينما ثلاثةُ نفرٍ ممَّن كان قبلَكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأَوَوا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضُهم لبعض: إنَّه واللهِ يا هؤلاء لا يُنجيكم إلَّا الصدق، فلْيَدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يعلم أنَّه قد صَدَق فيه، فقال واحدٌ منهم: اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي أجيرٌ عمل على فَرَق من أَرُزّ، فذهب وتركه، وإنِّي عمدت إلى ذلك الفَرَق فزرعته، فصار من أمره أنَّني اشتريتُ منه بقراً، وأنَّه أتاني يطلب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٥٧-١٥٨، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٥٧، والدر المنثور ٤/ ٢١٢، ولفظ الطبري: يزعم كعب أن الرقيم القرية.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٥)، وصحيح مسلم (٢٧٤٣).

أجرَه، فقلت: اِعمَدْ إلى تلك البقرِ فسُقها، فقال لي: إنَّما لي عندك فَرَقٌ من أُرُز، فقلتُ: اِعمد إلى تلك البقرِ فإنَّها من ذلك الفَرَق، فساقها، فإنْ كنتَ تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، فانساخت عنهم الصَّخرة، فقال الآخَر: اللهمَّ إن كنت تعلم أنَّه كان لي أبوان شيخانِ كبيران، فكنتُ آتيهما كلَّ ليلةٍ بلبنِ غنمٍ لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئتُ وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغَون من الجوع، فكنت لا أَسقيهم حتى يشربَ أبواي، فكرهتُ أن أوقظَهما، وكرهت أن أدعَهما فيستكِنَّا[1] لشَرْبتهما، فلم أزل أنتظرُ حتى طلع الفجر، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، فانساخت عنهم الصخرةُ حتى نظروا إلى السماءِ، فقال الآخَر: اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي ابنةُ عمٍّ مِن أحبِّ الناسِ إليّ، وإني راودتها عن نفسها فأَبت إلَّا أن آتيَها بمئةِ دينار، فطلبتها حتى قَدَرت، فأتيتُها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلمَّا قعدتُ بين رِجليها قالت: اِتَّقِ اللهَ تعالى ولا تفضَّ الخاتَمَ إلَّا بحقِّه، فقمتُ وتركت المئةَ دينار، فإنْ كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، ففرَّج اللهُ تعالى عنهم فخرجوا».

ورُوي نحوُ ذلك عن ابن عباسٍ وأنسٍ والنعمانِ بن بشير، كلٌّ يرفعه إلى رسول اللهِ ﷺ.

والرَّقيم ـ على هذا ـ بمعنى محلٍّ في الجبل. وقيل: بمعنى الصَّخرة. وقيل: بمعنى الجبل. ويكون ذِكْر ذلك تلميحاً إلى قصَّتهم، وإشارةً إلى أنَّه تعالى لا يُضيع عملَ أحدٍ خيراً أو شرًّا، فهو غيرُ مقصودٍ بالذات. ولا يخفَى أنَّ ذلك بعيدٌ عن السِّياق. وليس في الأخبار الصحيحةِ ما يضطرُّنا إلى ارتكابه، فتأمَّل.

﴿إِذْ أَوَى﴾ معمولُ «عجباً» أو «كانوا» أو: اذكر، مقدَّراً. ولا يجوزُ أن يكونَ ظرفاً لـ «حسبتَ»؛ لأنَّ حِسبانه لم يكن في ذلك الوقت، أي: حين التجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ واتَّخذوه مأوًى ومكاناً لهم.

---

(١) في (م): فيستكينا. قال القسطلاني في إرشاد الساري ٥/ ٤٢٨: بتشديد النون من الاستكنان، أي: يلبثا في كنِّهما منتظرين لشربتهما، أو بتخفيف النون كما أفهمه كلام الكرماني، وتفسير الحافظ ابن حجر مقتصراً عليه حيث قال: أي: يضعفا لأنه عشاؤهما، وترك العشاء يُهرِم. . .

والفِتية جمعُ قِلَّة لفتًى، وهو ـ كما قال الراغبُ[(١)] وغيرُه ـ الطَّريُّ من الشبَّان، ويُجمَع أيضاً على فتيان، وقال ابن السرَّاج: إنه اسمُ جمع. وقال غيرُ واحد: إنَّه جمع فَتِيّ، كصبيٍّ وصبية، ورجِّح بكثرة مثلِه.

والمرادُ بهم أصحابُ الكهف، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار لتحقيقِ ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفُتوَّة، فقد رُوي أنَّهم كانوا شبَّاناً من أبناء أشرافِ الرُّوم وعظمائهم، مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب، وقيل: لأنَّ صاحبيَّة الكهفِ من فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارُها معهم قبلَ بيانه، والظاهرُ مع الضمير اعتبارُها، وليس الأمرُ كذلك مع هذا الظاهر وإنْ كانت أل فيه للعهد.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ عظيمة، أو نوعاً من الرحمة، فالتنوينُ للتعظيم أو للنَّوع، و«من» للابتداء متعلِّق بـ «آتنا»، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ وقع حالاً من «رحمة»، قدِّم عليها لكونها نكرةً، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها.

وفسِّرت الرحمةُ بالمغفرة والرزقِ والأمن، والأَوْلى تفسيرُها بما يتضمَّن ذلك وغيرَه.

وفي ذِكر «من لدنك» إيماءٌ إلى أنَّ ذلك من باب التفضُّل لا الوجوب، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا تفضَّلْ علينا برحمةٍ ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مُهاجَرة الكفارِ والمثابرةِ على طاعتك.

وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهري: «وهيِّي» بياءَين من غيرِ همز[(٢)]، يعني أنَّهم أَبدلوا الهمزةَ الساكنةَ ياء.

وفي كتاب ابنِ خالويه[(٣)]: قرأ الأعشَى عن أبي بكرٍ عن عاصم: «وهَيِّ» بلا همز. انتهى. وهو يَحتمل أن يكونَ قد أَبدل الهمزةَ ياء، وأن يكونَ حَذَفها، والأوَّل إبدالٌ قياسي، والثاني مختلفٌ فيه: أَينقاس حذفُ الحرفِ المبدَل من الهمزة في الأمر والمضارعِ المجزومَين أم لا؟

---

(١) في المفردات (فتى).

(٢) النشر ١/ ٣٩٠-٣٩١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٠٢.

(٣) ص٧٨، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١٠٢.

وأصلُ التهيئة: إحداثُ الهيئة، وهي الحالةُ التي يكون عليها الشيء، محسوسةً أو معقولة، ثم استُعمل في إحضار الشيءِ وتيسيرِه، أي: يسِّر لنا من أَمرِنا ﴿رَشَدًا ۝١٠﴾ إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه.

وقرأ أبو رجاء: «رُشْداً» بضمِّ الراء وإسكان الشين[١]، والمعنى واحد، إلَّا أن الأَوفقَ بفواصل الآياتِ قراءةُ الجمهور.

وإلى اتِّحاد المعنى ذهب الرَّاغب، قال: الرَّشَد بفتحتين: خلافُ الغيّ، ويُستعمل استعمالَ الهداية، وكذا الرُّشْدُ بضمٍّ فسكون. وقال بعضُهم: الرَّشَد ـ أي: بفتحتين كما في بعض النُّسخ المضبوطة ـ أخصُّ من الرُّشد؛ لأن الرُّشدَ بالضمِّ يقال في الأمور الدُّنيويةِ والأخروية، والرَّشَد يقال في الأمور الأُخرويةِ لا غير[٢]. اهـ. وفيه مخالفةٌ لِمَا ذكره ابنُ عطية[٣]، فإنه قال: إنَّ هذا الدعاءَ منهم كان في أمرِ دنياهم، وألفاظُه تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقةٍ من رشد الآخرةِ ورحمتها، وينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يجعلَ دعاءه في أمر دنياه لهذه الآية، فإنَّها كافية. ويحتمل أن يرادَ بالرحمة رحمةُ الآخرة. اهـ.

نعم فيما قاله نظر، والأَوْلى جعلُ الدعاءِ عامًّا في أمر الدُّنيا والآخرة، وإنْ كان تعقيبُه بما بعدُ ظاهراً في كونه خاصًّا في أمر الأُولى.

واللامُ و«مِن» متعلِّقان بـ «هيِّئ»، فإن اختلف معناهما بأن كانت الأُولى للأَجْل والثانيةُ ابتدائية، فلا كلامَ، وإنْ كانتا للأَجْل، احتاجت صحةُ التعلُّق إلى الجواب المشهور.

وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بهما وإبراز الرغبةِ في المؤخَّر، وكذا الكلامُ في تقديم «من لدنك» على «رحمة» على تقدير تعلُّقه بـ «آتنا». وتقديمُ المجرورِ الأوَّل على الثاني للإيذان من أوَّل الأمرِ بكون المسؤولِ مرغوباً فيه لديهم.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٢.

(٢) المفردات (رشد).

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

وقيل: الكلامُ على التجريد، وهو أن ينتزعَ من أمرٍ ذي صفةٍ آخَرُ مثله مبالغة، كأنَّه بلغ إلى مرتبةٍ من الكمال بحيث يمكنُ أن يؤخذَ منه آخَر، كرأيتُ منك أسداً، أي: اجعل أمرَنا كلَّه رشداً.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً يمنع السَّماع، فالمفعولُ محذوف، كما في قولهم: بنى على امرأته، والمراد: أنمناهم إنامةً ثقيلةً لا تنبِّههم فيها الأَصوات، بأن يجعلَ الضربُ على الآذان كنايةً عن الإنامة الثقيلة، وإنَّما صلح كناية؛ لأنَّ الصوتَ والتنبيهَ طريقٌ من طرق إزالة النَّوم، فَسَدُّ طريقِه يدلُّ على استحكامه، وأمَّا الضربُ على العين وإنْ كان تعلُّقه بها أشدَّ، فلا يصلُح كناية؛ إذ ليس المبصرَاتُ من طرق إزالته حتى يكونَ سدُّ الأبصارِ كناية، ولو صلح كناية، فعن ابتداءِ النوم لا النومةِ الثقيلة.

واعترض القطبُ جعلَه كنايةً عما ذُكر بما لا يخفَى ردُّه، وخرَّج الآيةَ على الاستعارة المَكنيَّة، بأن يقال: شبّه الإنامة الثقيلة بضرب الحجابِ على الآذان، ثم ذكر «ضربنا» وأُريد: أنمنا، وهو وجهٌ فيها.

وجوِّز أن تكونَ من باب الاستعارةِ التمثيلية، واختاره بعضُ المحقِّقين.

ومن الناس مَن حمل الضربَ على الآذانِ على تعطيلها، كما في قولهم: ضرب الأميرُ على يد الرَّعية، أي: منعهم عن التصرُّف. وتعقِّب بأنَّه مع عدم ملاءمته لما سيأتي إن شاء اللهُ تعالى من البعث، لا يدلُّ على إرادة النوم، مع أنَّه المرادُ قطعاً. وأُجيب بأنَّه يمكن أن يكونَ مرادُ الحاملِ التوصُّلَ بذلك إلى إرادة الإنامة، فافهم.

والضربُ إمَّا من: ضربتُ القُفلَ على الباب، أو من: ضربت الخِباءَ على ساكنه. والفاءُ هنا مثلُها في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٦] بعد قولِهِ سبحانه: (إِذۡ نَادَىٰ) فإنَّ الضربَ المذكورَ وما يترتَّب عليه من التقليب ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ والبعثِ وغيرِ ذلك من آثار استجابةِ دعائهم السابق.

﴿فِى ٱلۡكَهۡفِ﴾ ظرفٌ لـ «ضربنا»، وكذا قولُه عزَّ وجلّ: ﴿سِنِينَ﴾ ولا مانعَ من ذلك، لا سيَّما وقد تغايرا بالمكانية والزَّمانية ﴿عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذواتِ عدد، على

أنَّه مصدرٌ وصف بالتأويل الشائع. وقيل: إنَّه صفةٌ بمعنى: معدودة. وقيل: إنَّه مصدرٌ لفعل مقدَّر، أي: تُعَدُّ عدداً.

والعددُ ـ على ما قال الراغبُ وغيرُه[1] ـ قد يراد به التكثير؛ لأنَّ القليلَ لا يحتاج إلى العدِّ غالباً، وقد يُذكَر للتقليل في مقابلة ما لا يحصَى كثرة، كما يقال: بغير حساب، وهو هنا يحتمل الوجهين، والأوَّلُ هو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرة، والثاني هو الأَليقُ بمقام إنكار كونِ القصَّة عجباً من بين سائرِ الآياتِ العجيبة؛ فإنَّ مدةَ لَبثهم وإن كَثُرت في نفسها، فهي كبعض يومٍ عند اللهِ عزَّ وجلّ.

وفي «الكشف» أنَّ الكثرةَ تناسب نظراً إلى المخاطَبين، والقلَّةَ تناسب نظراً إلى المخاطب. اهـ.

وقد خَفِي على العزِّ بن عبدِ السلام أمرُ هذا الوصفِ وظنَّ أنَّه لا يكون للتكثير، وأنَّ التقليلَ لا يمكن هاهنا. وهو غريبٌ من جلالة قدرِه، وله في «أماليه» أمثالُ ذلك. وللعلَّامة ابنِ حجرٍ في ذلك كلامٌ ذكره في «الفتاوى الحديثية»[2] لا أظنُّه شيئاً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أَيقظناهم وأَثرناهم من نومِهم ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: منهم، وهم القائلون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الآية:١٩] والقائلون (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ).

وقيل: أحدُ الحزبَين الفتيةُ الذين ظنُّوا قِلَّةَ زمانِ لَبثهم، والثاني أهلُ المدينةِ الذين بُعث الفتيةُ على عهدهم، وكان عندهم تاريخُ غَيبتهم. وزعم ابنُ عطية[3] أنَّ هذا قولُ جمهورِ المفسِّرين.

وعن ابن عباسٍ أنَّ أحدَ الحزبين الفتية، والآخَرَ الملوكُ الذين تداولوا ملكَ المدينةِ واحداً بعد واحدٍ.

وعن مجاهد: الحِزبان قومُ أهلِ الكهف، حزبٌ منهم مؤمنون وحزبٌ كافرون.

---

(١) انظر المفردات (عدد).

(٢) ص٢٦١-٢٦٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

وقال الفرَّاء[١]: الحزبان: مؤمنان كانوا في زمنهم، واختلفوا في مدَّة لبثهم.

وقال السُّدِّي: الحزبان كافران، والمراد بهما اليهودُ والنصارَى الذين علَّموا قريشاً سؤالَ رسولِ الله ﷺ عن أهل الكهف.

وقال ابنُ بحر[٢]: الحزبان: اللهُ سبحانه وتعالى، والخلقُ، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والظاهرُ هو الأوَّل؛ لأنَّ اللامَ للعهد، ولا عهدَ لغير مَن سمعت.

﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: ضَبَط، فهو فعلٌ ماض، وفاعلُه ضمير «أيٌّ» واختار ذلك الفارسيُّ والزمخشريُّ وابنُ عطية[٣]. و«ما» في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدرية، والجارُّ والمجرورُ حالٌ مقدَّم عن قوله تعالى: ﴿أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وهو مفعولُ «أحصى».

والأمدُ ـ على ما قال الراغب[٤] ـ مدَّةٌ لها حدّ، والفرقُ بينه وبين الزمانِ أنَّ الأمدَ يقال باعتبار الغاية، بخلاف الزَّمان، فإنَّه عامٌّ في المبدأ والغاية، ولذلك قال بعضُهم: المدى والأمدُ يتقاربان، وليس اسماً للغاية حتى يكونَ إطلاقُه على المدَّة مجازاً، كما أُطلقت الغايةُ عليها في قولهم: ابتداءُ الغايةِ وانتهاؤها، أي: ليعلمَ أيُّهم أحصى مدَّةً كائنةً للَبثهم.

والمرادُ من إحصائها ضبطُها من حيث كميتُها المنفصلةُ العارضةُ لها، باعتبار قسمتِها إلى السِّنين وبلوغِها من تلك الحيثيةِ إلى مراتب الأعداد، كما يرشدك إليه كونُ المدةِ عبارةً عما سبق من السِّنين، وليس المرادُ ضبطَها من حيث كميتُها المتصلةُ الذاتية؛ فإنَّه لا يسمَّى إحصاء.

وقيل: إطلاقُ الأمدِ على المدَّة مجاز، وحقيقتُه غايةُ المدَّة. ويجوز إرادةُ ذلك بتقدير المضاف، أي: لنعلمَ أيُّهم ضبط غايةً لزمان لَبثهم، وبدونه أيضاً؛ فإنَّ اللَّبث

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.

(٢) في الأصل و(م): حرب، والمثبت من البحر ٦/ ١٠٤، والكلام منه، وهو علي بن إبراهيم بن سلمة بن بحر.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

(٤) في المفردات (أمد).

عبارةٌ عن الكون المستمرِّ المنطبقِ على الزمان المذكور، فباعتبار الامتدادِ العارضِ له بسببه يكون له أمدٌ وغايةٌ لا محالة، لكن ليس المرادُ ما يقع غايةً ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرِّ باعتبار كمِّيته المتصلةِ العارضةِ له بسبب انطباقِه على الزمان الممتدِّ بالذات، وهو آنُ انبعاثِهم من نومهم؛ فإنَّ معرفتَه من تلك الحيثيةِ لا تخفَى على أحد، ولا تسمَّى إحصاءً أيضاً، بل باعتبار كميتِه المنفصلةِ العارضةِ له بسبب عروضِها لزمانه المنطبقِ هو عليه باعتبار انقسامِه إلى السِّنين، ووصولِه إلى مرتبةٍ معيَّنة من مراتبِ العدد.

والفرقُ بين هذا وما سبق أنَّ ما تعلَّق به الإحصاءُ في الصورة السابقةِ نفسُ المدةِ المنقسمةِ إلى السنين، فهو مجموعُ ثلاثِ مئةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرةِ منتهى تلك المدةِ المنقسمة إليها، أعني التاسعةَ بعد الثلاث مئة. وتعلُّق الإحصاءِ بالأمد بالمعنى الأوَّل ظاهر، وأمَّا تعلُّقه به بالمعنى الثاني، فباعتبار انتظامِه لما تحته من مراتب العددِ واشتمالِه عليها. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ ظاهرَ كلامِ الراغب ـ وهو هو في اللغة ـ يقتضي أنَّ الأمدَ حقيقةٌ في المدَّة، وأنَّه في الغاية مجاز، وأنَّ توجيهَ إرادةِ الغايةِ هنا بما ذُكِر تكلُّف لا يُحتاج إليه على تقدير كونِ «ما» مصدرية. نعم يُحتاج إليه على تقدير جعلِها موصولةً حُذِف عائدُها من الصِّلة، أي: لنعلمَ أيُّهم أَحصى أمداً كائناً للذي لبثوه، أي: لبثوا فيه من الزَّمان.

وقيل: «ما لبثوا» في موضع المفعولِ له؛ وجيءَ بلام التعليلِ لكونه غيرَ مصدرٍ صريح، وغيرَ مقارنٍ أيضاً. وليس بذاك.

وقيل: اللامُ مزيدة، و«ما» موصولة، وهي المفعولُ به، وعائدُها محذوف، أي: أَحصى الذي لبثوه، والمراد: الزمانَ الذي لبثوا فيه، و«أمداً» على هذا تمييزٌ للنسبة، مفسِّر لما في نسبة المفعولِ من الإبهام، محوَّل عن المفعول، وأصله: أحصى أمدَ الزمانِ الذي لبثوا فيه.

وزَعْمُ أنه لا يصحُّ أن يكونَ تمييزاً للنسبة لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ محوَّلاً عن الفاعلِ ولا يمكن ذلك هنا، ليس بشيء؛ لأنَّ اللَّابُدِّية في حيِّز المنع، والذي تحقَّق في المعتبَرات ـ كشروح «التسهيل» وغيرِها ـ أنَّه يكون محوَّلاً عن المفعول، كـ :

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] كما يكون محوَّلاً عن الفاعل، ك: تصبَّب زيدٌ عرقاً، ولو جُعل تمييزاً لَمَا كان تمييزاً لمفرَد، ولم يقل أحدٌ باشتراط التحويلِ فيه أصلاً.

وجوَّز في «ما» على هذا التقديرِ أن تكونَ مصدرية، وهو بعيد، وضعَّف القولُ بزيادة اللامِ هنا بأنَّها لا تزاد في مثلِ ذلك.

واختار الزجَّاج[1] والتِّبريزيُّ كونَ «أحصى» أفعلَ تفضيل؛ لأنَّه الموافقُ لما وقع في سائر الآياتِ الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية: ٧] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] إلى غير ذلك مما لا يُحصَى، ولأنَّ كونَه فعلاً ماضياً يُشعر بأنَّ غاية البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدِّم على البعث، لا بالإِحصاء المتأخِّر عنه، وليس كذلك.

واعتُرض أوَّلاً: بأنَّ بناءَ أفعل التفضيلِ من غير الثلاثيِّ المجرَّد ليس بقياس، وما جاء منه شاذٌ، ك: أعدَى من الجَرَب، وأفلسُ من ابن المُدلَّق[2].

وأُجيب بأنَّ في بناء أفعل من ذلك ثلاثةَ مذاهب: الجوازُ مطلقاً، وهو ظاهرُ كلامِ سيبويه. والمنعُ مطلقاً، وما ورد شاذٌّ لا يقاس عليه، وهو مذهبُ أبي عليّ. والتفصيلُ بين أن تكونَ الهمزةُ للنقل، فلا يجوز، أو لغيره، كأَشكل الأمرُ، وأَظلم الليلُ، فيجوز، وهو اختيارُ ابنِ عُصفور. فلعلَّهما يريان الجوازَ مطلقاً كسيبويه، أو التفصيلَ كابن عُصفور، والهمزةُ في «أحصى» ليست للنقل.

وثانياً: بأنَّ «أمداً» حينئذٍ إنْ نُصب على أنَّه مفعولٌ به، فإن كان بمضمَرٍ كما في قول العباسِ بن مِرْداس:

فلم أرَ مثلَ الحيِّ حيًّا مصبَّحاً ... ولا مثلَنا لمَّا التقينا فوارسا
أكرَّ وأَحمَى للحقيقة منهمُ ... وأَضربَ منَّا بالسيوف القَوانِسا[3]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١.

(٢) المدلَّق: يروى بالدال والذال، وهو رجل من بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة، لم يكن يجد في بيته قوت ليلة، وأبوه وأجداده يعرفون بالإفلاس. جمهرة الأمثال ٢/ ١٠٧.

(٣) الأصمعيات ص٢٠٥، والحماسة البصرية ١/ ٥٥. والحقيقة: ما يحق على المرء أن يحميه، والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الرأس.

لزم الوقوعُ فيما فرَّا منه، حيث لم يجعلا المذكورَ فعلاً ثم قدَّرا، وإنْ كان به فليس صالحاً لذلك، وإنْ نصب بـ «لبثوا»، لا يكونُ المعنى سديداً؛ لأنَّ الضبط لمدَّة اللَّبث وأَمدِه لا للَّبث في الأمد. ولا يقال: فليكن نظيرَ قولكم: أيُّكم أضبطُ لصومه في الشهر، أي: لأيام صومِه، والمعنى: أيُّهم أضبطُ لأيام اللبثِ أو ساعاتِه في الأمد، ويراد به جميعُ المدَّة؛ لِمَا قيل: يعضل حينئذٍ تنكيرُ «أمداً». والاعتذارُ بأنَّهم ما كانوا عارفين بتحديده يوماً أو شهراً أو سَنَة، فنكَّر على أنَّه سؤالٌ إما عن الساعات، أو الأيام[1]، أو الأشهر، غيرُ سديد؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه أمدُ زمانِ اللَّبث، فليعرَّف إضافةً أو عهداً، ويكون الاحتمالُ على حاله.

ووجَّه أبو حيان[2] نصبَه بأنَّه على إسقاط حرفِ الجرّ، وهو بمعنى المدَّة، والأصل: لِمَا لبثوا مِن أمد، ويكون مِن أمدٍ تفسيراً لما أُبهم في لفظ «ما» كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة:١٠٦] ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:٢] ولمَّا سقط الحرفُ وصل إليه الفعل. وهو كما ترى. وتَعقَّب منعَ صلاحيةِ أفعل لنصب المفعولِ به بأنَّه قولُ البصريين دون الكوفيين، فلعل الإمامَين سلكا مذهبَ الكوفيين، فجعلا «أحصى» أفعلَ تفضيل، و«أمداً» مفعولاً له.

والحقُّ أنَّ الذاهبَ إلى كون «أحصى» أفعلَ تفضيلٍ جعل «أمداً» تمييزاً، وهو يعمل في التمييز على الصَّحيح، والقولُ بأنَّ التمييزَ يجب كونُه محوَّلاً عن الفاعل قد مُيِّزت حالُه.

وثالثاً: بأنَّ توهُّم الإشعار بأنَّ غايةَ البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنَّ صيغةَ الماضي باعتبار حالِ الحكاية، ولا يكاد يتوهَّم من ذلك الإشعارُ المذكور.

ورابعاً: بأنَّه يلزم حينئذٍ أن يكونَ أصلُ الإحصاءِ متحقِّقاً في الحزبين إلَّا أنَّ بعضَهم أفضلُ والبعضَ الآخَر أدنى، مع أنَّه ليس كذلك.

وفي «الكشف» أنَّ قولَ الزجَّاج ليس بذلك المردود، إلَّا أنَّ ما آثره الزمخشريُّ أحقُّ بالإيثار لفظاً ومعنًى، أما الأوَّل فظاهر، وأما الثاني؛ فلأنَّه تعالى حكى تساؤلَهم

---

(١) في (م): والأيام.

(٢) في البحر ٦/ ١٠٥.

فيما بينهم وأنَّه عن العارف لا عن الأعرف، وغيرُهم أَوْلى به. انتهى، فافهم.

و«أيُّ» استفهاميةٌ مبتدأ، وما بعدها خبرُها، وقد علَّقت «نَعلَمَ» عن العمل كما هو شأنُ أدواتِ الاستفهام في مثل هذا الموضع، وهذا جارٍ على احتمالَي كونِ «أحصى» فعلاً ماضياً، وكونِه أفعلَ تفضيل.

وجوِّز جعلُ «أيُّ» موصولة؛ ففي «البحر»[1]: إذا قلنا بأنَّ «أحصى» أفعلُ تفضيل، جاز أن تكونَ «أيُّ» موصولاً مبنيّاً على مذهب سيبويه؛ لوجود شرطِ جواز البناءِ فيه، وهو كونُ «أيُّ» مضافةً حُذف صدرُ صلتها، والتقدير: لنعلمَ الفريقَ الذي هو أحصى لِمَا لبثوا أمداً من الذين لم يُحصوا، وإذا كان فعلاً ماضياً امتنع ذلك؛ لأنَّه حينئذٍ لم يُحذَف صدرُ صلتها؛ لوقوع الفعلِ مع فاعله صلة، فلا يجوزُ بناؤها لفوات تمامِ الشرط، وهو حذفُ صدرِ الصلة. انتهى.

وقرأ الزُّهري: «ليَعلَمَ»[2] بالياء على إسناد الفعل إليه تعالى بطريق الالتفات.

وأيًّا ما كان، فالعلمُ غايةٌ للبعث، وليس ذلك على ظاهره، وإلَّا تكن الآيةُ دليلاً لهشامٍ على ما يزعمه[3]، تعالى اللهُ تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فقيل: هو غايةٌ بجعله مجازاً عن الإظهار والتمييز. وقيل: المراد: ليتعلَّقَ علمُنا تعلُّقاً حاليًّا مطابقاً لتعلُّقه أوَّلاً تعلُّقاً استقباليًّا، كما في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣].

واعترضه بعضُ الأجلَّة بأنَّ بعثَ هؤلاء الفتيةِ لم يترتَّب عليه تفرُّقُهم إلى المحصَى وغيرِه حتى يتعلَّقَ بهما العلمُ تعلُّقاً حاليًّا أو الإظهارُ والتمييز، ويتسنَّى نظمُ شيءٍ من ذلك في سلك الغاية، كما ترتَّب على تحويل القِبلة انقسامُ الناسِ إلى متَّبع ومنقلب، فصحَّ تعلُّقُ العلمِ الحاليِّ والإظهارِ بكلٍّ من القسمين، وإنَّما الذي ترتَّب على ذلك تفرُّقهم إلى مقدِّرٍ تقديراً غيرَ مصيب، ومفوِّضِ العلمَ إلى الله عزَّ وجلّ، وليس في شيءٍ منهما إحصاءٌ أصلاً.

---

(١) ٦/ ١٠٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٣) سلف كلامه ص١٩٨ من هذا الجزء.

ثم قال: إنَّ جعل ذلك غايةً بحمل النظم الكريمِ على التمثيل المبنيِّ على جعل العلمِ عبارةً عن الاختبارِ مجازاً، بإطلاق اسم المسبَّب على السبب، وليس من ضرورة الاختبارِ صدورُ الفعلِ المختبَر به عن المختبر قطعاً، بل قد يكون لإظهاره عجزَه عنه على سنن التكاليفِ التعجيزية، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] وهو المرادُ هنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملَهم معاملَةَ مَن يختبرهم أيُّهم أحصى لِمَا لبثوا أمداً فيظهرَ لهم عجزُهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنع اللهُ تعالى بهم من حفظ أبدانِهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرتِه تعالى وعلمِه، ويستبصروا به أمرَ البعث، ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانِهم، وآيةً بيِّنة لكفارهم، وقد اقتصر هاهنا من تلك الغاياتِ الجليلةِ على مبدئها الصادرِ عنه سبحانه، وفيما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدِّي إليها، وهذا أَوْلى من تصوير التمثيلِ بأن يقال: بعثناهم بعثَ مَن يريد أن يعلم؛ إذ ربَّما يتوهَّم منه استلزامُ الإرادة لتحقُّق المراد، فيعود المحذور، فيصار إلى جعل إرادة العلمِ عبارةً عن الاختبار، فاختبِر واختَر. انتهى.

وتعقَّبه الخفاجيُّ[1] بأنَّ ما ذكره مع تكلُّفه وقلةِ جدواه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ الاختبارَ الحقيقيَّ لا يتصوَّر ممَّن أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، فحيث وقع جعلوه مجازاً عن العلم أو ما يترتَّب عليه، فلزمه بالآخَرَةِ الرجوعُ إلى ما أنكره، واختار جعلَ العلمِ كنايةً عن ظهور أمرِهم ليطمئنَّ بازدياد الإيمان قلوبُ المؤمنين وتنقطعَ حجَّة المنكرين، وعِلمُ اللهِ تعالى حيث تعذَّر إرادةُ حقيقتِه في كتابه تعالى جُعِلَ كنايةً عن بعض لوازمِه المناسبةِ لموقعه، والمناسبُ هنا ما ذكر.

ثم قال: وإنَّما علِّق العلمُ بالاختلاف في أمده، أي: المفهومِ من «أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً»، لأنَّه أدعَى لإظهاره، وأقوى لانتشاره.

وفي «الكشف» توجيهاً لِمَا في «الكشاف»: أراد أنَّ العلمَ مجازٌ عن التمييز والإظهار، كأنَّه قيل: لنُظهرَ ونميِّز لهم العارفَ بأمدِ ما لبثوا ولينظر مَن هذا العارف؛ فإنَّه لا يجوز أن يكونَ أحداً منهم، لأنَّهم بين مفوِّض ومقدِّر غيرِ مصيب.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٧٩.

والفرقُ بين ما في «الكشف» وما ذكره الخفاجيُّ لا يخفَى على بصير، وما في «الكشف» أقلُّ مؤونةً منه. وتصويرُ التمثيلِ بأن يقال: بعثناهم بعثَ مَن يريد أن يعلم، أحسنُ عندي من التصوير الأوَّل، والتوهُّم المذكورُ ممَّا لا يكاد يُلتفَت إليه، فتدبَّر جدًّا.

وقُرئ: «ليُعْلِمَ» مبنيًّا للفاعل[1]، من الإعلام، وخرِّج ذلك على أنَّ الفاعل ضميرُه تعالى، والمفعولَ الأوَّل محذوفٌ لدَلالة المعنى عليه، و«أيُّ الحزبين» إلخ من المبتدأ والخبرِ في موضع مفعولَي «يُعلِم» الثاني والثالث، والتقدير: ليُعلِمَ اللهُ الناسَ أيُّ الحزبين.. إلخ، وإذا جُعِل العلم عرفانيًّا، كانت الجملةُ في موضع المفعولِ الثاني فقط، وهو ظاهر.

وقُرئ: «ليُعلَمَ» بالبناء للمفعول[2]، وخرِّج على أنَّ نائبَ الفاعلِ محذوفٌ، أي: ليُعلَمَ الناسُ، والجملة بعدُ إمَّا في موضع المفعولَين أو المفعول، حسبما سمعت. وقال بعضُهم: إنَّ الجملةَ هي النائبُ عن الفاعل. وهو مذهبٌ كوفيٌّ، ففي «البحر»[3]: البصريُّون لا يجوِّزون كونَ الجملةِ فاعلاً ولا نائباً عنه، وللكوفيين مذهبان: أحدُهما أنَّه يجوز الإسنادُ إلى الجملة مطلقاً. والثاني: أنَّه لا يجوز إلَّا إذا كان المسندُ ممَّا يصحُّ تعليقُه، وتحقيقُ ذلك في محلِّه.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجمل فيما سلف، أي: نحن نُخبرك بتفصيل خبرِهم الذي له شأنٌ وخطر.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أو حالٌ من ضمير «نقصُّ» أو مِن «نبأهم» أو صفةٌ له على رأي مَن يرى جوازَ حذفِ الموصولِ مع بعض الصِّلة، أي: نقصُّ قَصصاً ملتبساً بالحقّ، أو نقصُّه ملتبسين به، أو نقصُّ نبأَهم ملتبساً به، أو نبأَهم الملتبسَ به.

ولعل في التقييد «بالحق» إشارةً إلى أنَّ في عهده ﷺ مَن يقصُّ نبأهم لكن لا بالحقّ.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٣.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٣) ٦/ ١٠٣.

وفي «الكشف» بعد نقلِ شعر أميةَ بن أبي الصلتِ السابقِ ما نصُّه: وهذا يدلُّ على أنَّ قصةَ أصحابِ الكهفِ كانت من علم العربِ وإنْ لم يكونوا عالِميها على وجهها.

ونبؤهم ـ حسبما ذكره ابنُ إسحاقَ وغيرُه(١) ـ أنَّه مَرِجَ أهلُ الإنجيلِ وعَظُمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكُهم، فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطَّواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيحِ عليه السلام متمسِّكين بعبادة اللهِ تعالى وتوحيدِه، وكان ممَّن فعل ذلك من ملوكهم وعتا عتوًّا كبيراً دقيانوس، وفي رواية: دقيوس، فإنَّه غلا غلوًّا شديداً، فجاس خلالَ الديارِ والبلاد، وأكثرَ فيها الفساد، وقتل مَن خالفه من المتمسِّكين بدين المسيحِ عليه السلام، وكان يتتبَّع الناسَ فيخيِّرهم بين القتل وعبادةِ الأوثان، فمَن رغب في الحياةِ الدُّنيا انقاد لأمره وامتثله، ومَن آثر عليها الحياةَ الأبديةَ لم يبالِ بأيِّ قِتلةٍ قتله، فكان يقتلُ أهلَ الإيمانِ ويقطع أجسادَهم ويجعلها على سور المدينةِ وأبوابِها، فلمَّا رأى الفتيةُ ذلك ـ وكانوا عظماءَ مدينتهم، واسمُها على ما في بعض الرِّوايات: أفسوس، وفي بعضها: طرسوس، وقيل: كانوا من خواصِّ الملك ـ قاموا فتضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلّ، واشتغلوا بالصلاة والدُّعاء، فبينما هم كذلك، دخل عليهم الشُّرَط فأخذوهم وأعينُهم تفيض من الدَّمع ووجوهُهم معفَّرة بالتُّراب، وأحضروهم بين يدي الجبَّار، فقالوا لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذَّبحَ لآلهتنا؟ وخيَّرهم بين القتل وعبادة الأوثان، فقالوا: إنَّ لنا إلهاً ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروتُه، لن ندعوَ من دونه أحداً، ولن نُقرَّ بما تدعونا إليه أبداً، فاقضِ ما أنت قاض، وأوَّل مَن قال ذلك أكبرُهم مكسلمينا، فأمر الجبارُ فنُزِع ما عليهم من الثياب الفاخرةِ وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينةٍ أخرى، قيل: هي نينوى، لبعض شأنِه، وأمهلهم إلى رجوعه، وقال: ما يمنعني أن أعجِّلَ عقوبتَكم إلَّا أني أراكم شبَّاناً، فلا أحبُّ أن أهلكَكم حتى أجعلَ لكم أجلاً تتأمَّلون فيه وترجعون إلى عقولِكم، فإنْ فعلتم فبها، وإلَّا أهلكتكم، فلمَّا رأوا خروجَه اشتوروا فيما بينهم، واتَّفقوا على أن يأخذَ كلٌّ منهم نفقةً من بيت أبيه فيتصدَّقَ ببعضها ويتزوَّد بالباقي وينطلقوا إلى كهفٍ قريبٍ من المدينة يقال له: بنجلوس،

---

(١) أخرجه الطبري مطولاً ١٥/ ١٦٣-١٧٢.

ففعلوا ما فعلوا، وأَوَوا إلى الكهف، فلبثوا فيه ليس لهم عملٌ إلَّا الصلاةُ والصيامُ والتسبيحُ والتحميد، وفوَّضوا أمرَ نفقتِهم إلى فتًى منهم اسمُه يمليخا، فكان إذا أصبح يتنكَّر ويدخل المدينةَ ويشتري ما يهمُّهم ويتجسَّس ما فيها من الأَخبار ويعود إليهم، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبارُ مدينتَهم، فتطلَّبهم وأَحضر آباءهم، فاعتذروا بأنَّهم عَصَوهم ونهبوا أموالَهم وبذروها في الأسواق وفرُّوا إلى الجبل، وكان يمليخا إذ ذاك في المدينة، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليلُ طعام، فأخبرهم بما شاهد من الهول، ففزعوا إلى اللهِ تعالى وخرُّوا له سجَّداً، ثم رفعوا رؤوسَهم وجلسوا يتحدَّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرب اللهُ عزَّ وجلَّ على آذانهم، فناموا ونفقتُهم عند رؤوسهم وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد، فأصابه ما أصابهم، فخرج الجبارُ في طلبهم بخيله ورَجِله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإِخراجهم، فلم يُطِق أحدٌ أن يدخلَه، فلمَّا ضاق بهم ذرعاً قال قائلٌ منهم: أليس لو كنتَ قَدَرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم بابَ الكهفِ ودَعْهم يموتوا جوعاً وعطشاً، ولْيكن كهفُهم قبراً لهم، ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصَّ اللهُ تعالى عزَّ وجلّ.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّهم كانوا في مملكة ملكٍ من الجبابرة يدعو الناسَ إلى عبادة الأَوثان، فلمَّا رأوا ذلك، خرجوا من تلك المدينة، فجمعهم اللهُ تعالى على غيرِ ميعاد، فجعل بعضُهم يقول لبعض: أين تريدون، أين تذهبون؟ فجعل بعضُهم يخفي عن بعض؛ لأنه لا يدري هذا علام خرج هذا، ولا يدري هذا علام خرج هذا، فأخذوا العهودَ والمواثيقَ أن يخبر بعضهم بعضاً، فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضاً، فاجتمعوا على كلمةٍ واحدة، فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى: ﴿مِّرْفَقًا﴾ ثم انطلقوا حتى دخلوا الكهفَ، فضرب اللهُ تعالى على آذانهم فناموا، وفُقدوا في أَهلهم، فجعلوا يطلبونهم فلم يظفروا بهم، فرُفع أمرُهم إلى الملك، فقال: لَيكوننَّ لهؤلاء القومِ بعد اليوم شأن، ناسٌ خرجوا لا ندري أين ذهبوا في غير جنايةٍ ولا شيءٍ يُعرَف، فدعا بلوحٍ من رصاص، فكتب فيه أسماءهم ثمَّ طرح في خزانته، ثم كان من شأنهم ما قصَّه اللهُ سبحانه وتعالى.

وكانوا ـ على ما أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي جعفر ـ صيارفة[١].

وأَخرج عبدُ الرزَّاق وابنُ المنذر[٢] عن وهب بنِ منبِّه قال: جاء رجلٌ من حواريِّي عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحابِ الكهف، فأراد أن يدخلَها، فقيل: على بابها صنمٌ لا يدخل أحدٌ إلَّا سجد له، فكره أنْ يدخل، فأتى حمَّاماً قريباً من المدينة، وآجر نفسَه من صاحبه، فكان يعملُ فيه، ورأى صاحبُ الحمامِ البركةَ والرزق، وجعل يسترسل إليه، وعَلِقه فتيةٌ من أهل المدينة، فجعل يُخبرهم عن خبر السماءِ وخبرِ الآخرة، حتى آمنوا وكانوا على مِثل حالِه في حُسن الهيئة، وكان يشترط على صاحب الحمَّام أنَّ الليلَ لي، ولا تحولُ بيني وبين الصلاةِ إذا حضرت، حتى جاءَ ابنُ الملكِ بامرأةٍ يدخل بها الحمَّام، فعيَّره الحواريُّ فقال: أنت ابنُ الملكِ وتدخل مع هذه المرأةِ التي صفتُها كذا وكذا، فاستحيا فذهب، فرجع مرةً أخرى، فسبَّه وانتهره، فلم يلتفتْ حتى دخل ودخلت معه، فباتا في الحمَّام جميعاً، فماتا فيه، فأُتي الملكُ فقيل له: قتل ابنَك صاحبُ الحمام، فالتُمس فلم يُقدَر عليه، وهرب مَن كان يصحبه، والتُمس الفتيةُ، فخرجوا من المدينة، فمرُّوا بصاحبٍ لهم في زرعٍ له وهو على مثل أمرِهم، فذكروا له أنَّهم التُمسوا، فانطلق معهم حتى أَواهم الليلُ إلى كهف، فدخلوا فيه فقالوا: نبيت هاهنا الليلةَ ثم نصبح إن شاء اللهُ تعالى فنرى رأيَنا، فضُرب على آذانهم، فخرج الملكُ بأصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، فكلَّما أراد الرجلُ منهم أن يدخلَه أُرعب فلم يُطِق أن يدخل، فقال للملك قائل: ألستَ لو قدرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم بابَ الكهفِ ودَعْهم يموتوا عطشاً وجوعاً، ففعل، ثم كان ما كان. ورُوي غير ذلك، والأخبارُ في تفصيل شأنِهم مختلفة.

وفي «البحر»[٣]: لم يأتِ في الحديث الصحيحِ كيفيةُ اجتماعِهم وخروجهم، ولا معوَّلَ إلَّا على ما قصَّ اللهُ تعالى من نبئهم.

---

(١) هذا الخبر والذي قبله نقلهما المصنف عن الدر المنثور ٤/ ٢١٢، ٢١٣.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٩٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢١٥.

(٣) ٦/ ١٠١.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال من قِبَل المخاطَب، وتقدَّم الكلامُ آنفاً في الفتية ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بسيِّدهم والناظرِ في مصالحهم. وفيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، وأُوثر للإشعار بعِلِّية وصفِ الرُّبوبية لإيمانهم ولِمَا صدر عنهم من المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ بالتثبيت على الإيمان، والتوفيقِ للعمل الصالح، والانقطاعِ إلى الله تعالى، والزُّهدِ في الدنيا.

وفي «التحرير»: المراد: زدناهم ثمراتِ هدًى، أو يقيناً، قولان، وما حصلت به الزيادةُ امتثالُ المأمورِ وتركُ المنهيّ، أو إنطاقُ الكلبِ لهم بأنَّه على ما هم عليه من الإيمان؛ أو إنزالُ مَلَكٍ عليهم بالتبشير والتثبيت، وإخبارُهم بظهور نبيٍّ من العرب يكون به الدينُ كلُّه لله تعالى، فآمنوا به ﷺ قبل بَعثه. اهـ.

ولا يلزمُ من القول بإنزال مَلَكٍ عليهم بذلك القولُ بنبوَّتهم كما لا يخفَى.

وفي «زدناهم» التفاتٌ من الغيبة إلى التكلُّم الذي عليه سبكُ النظمِ الكريمِ سباقاً وسياقاً. وفيه من تعظيم أمرِ الزِّيادة ما فيه.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قوَّيناها بالصبر، فلم تزحزحها عواصفُ فراقِ الأَوطان، وتركِ الأهلِ والنعيمِ والإخوان، ولم يزعجْها الخوفُ من ملكهم الجبَّار، ولم يَرُعها كثرةُ الكفار.

وأصلُ الربطِ الشدُّ المعروف، واستعمالُه فيما ذُكر مجازٌ كما قال غيرُ واحد. وفي «الأساس»[1]: ربطت الدابَّة: شددتها برِباط، والمِرْبَط: الحبل، ومن المجاز: ربط اللهُ تعالى على قلبه: صبَّره، ورابطُ الجأش.

وفي «الكشف»: لمَّا كان الخوفُ والقلقُ[2] يزعج القلوبَ عن مقارِّها ـ أَلَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] قيل في مقابله: ربط قلبَه، إذا تمكَّن وثبت، وهو تمثيل.

---

(١) مادة (ربط).

(٢) في (م): والتعلُّق.

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييلية، وعُدِّي الفعلُ بـ «على» وهو متعدٍّ بنفسه؛ لتنزيله منزلةَ اللازمِ، كقوله:

... يَجرحْ في عراقيبها نَصْلي[1]

﴿إِذْ قَامُواْ﴾ متعلِّق بـ «ربطنا»، والمرادُ بقيامهم انبعاثُهم بالعزم على التوجُّه إلى الله تعالى ومنابذةِ الناس، كما في قولهم: قام فلانٌ إلى كذا: إذا عزم عليه بغاية الجِدّ. وقريبٌ منه ما قيل: المرادُ به انتصابُهم لإظهار الدِّين.

أَخرج ابنُ المنذرِ وابن أبي حاتمٍ [عن مجاهد] أنَّهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءَها على غيرِ ميعاد، فقال رجلٌ منهم هو أشبههم: إني لأَجد في نفسي شيئاً ما أظنُّ أحداً يجده، قالوا: ما تجد؟ قال: أجد في نفسي أنَّ ربي ربُّ السماواتِ والأرض، فقالوا أيضاً: نحن كذلك، فقاموا جميعاً ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقد تقدَّم آنفاً عن ابن عباسٍ القولُ باجتماعهم على غيرِ ميعادٍ أيضاً، إلَّا أنَّه قال: إنَّ بعضَهم أخفَى حالَه عن بعض، حتى تعاهدوا فاجتمعوا على كلمةٍ فقالوا ذلك.

وقال صاحبُ «الغنيان»: المرادُ به وقوفُهم بين يدي الجبّارِ دِقيانوس، وذلك أنَّهم قاموا بين يديه حين دعاهم إلى عبادة الأوثان، فهدَّدهم بما هدَّدهم، فبينما هم بين يديه، تحرَّكت هِرَّة ـ وقيل: فأرة ـ ففزع الجبارُ منها، فنظر بعضُهم إلى بعض، فلم يتمالكوا أن قالوا ذلك غيرَ مكترثين به.

وقيل: المرادُ قيامُهم لدعوة الناسِ سرًّا إلى الإيمان.

وقال عطاء: المرادُ قيامُهم من النوم. وليس بشيء. ومثلُه ما قيل: إنَّ المرادَ قيامُهم على الإيمان.

وما أحسنَ ما قالوا؛ فإنَّ ربوبيَّته تعالى للسماوات والأرضِ تقتضي ربوبيتَه لِمَا فيهما ـ وهم مِن جملته ـ أيَّ اقتضاء، وأَردفوا دعواهم تلك بالبراءة من إلهٍ غيرِه

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمّة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ١٦١.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢١٤، وما بين حاصرتين منه.

عزَّ وجلّ، فقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، وجاؤوا بـ «لن» لأنَّ النفيَ بها أبلغُ من النفي بغيرها، حتى قيل: إنَّه يفيد استغراقَ الزمان، فيكون المعنى: لا نعبد أبداً مِن دونه إلهاً، أي: معبوداً آخر، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

قيل: وعدلوا عن قولهم: ربًّا، إلى قولهم: «إلهاً» للتنصيص على ردِّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامَهم آلهة، وللإشعار بأنَّ مدارَ العبادةِ وصفُ الأُلوهية، وللإيذان بأنَّ ربوبيَّته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكيةِ المجازية.

وقد يقال: إنَّهم أشاروا بالجملة الأُولى إلى توحيد الرُّبوبية، وبالجملة الثانيةِ إلى توحيد الأُلوهية، وهما أمران متغايران، وعبدةُ الأوثانِ لا يقولون بهذا ويقولون بالأوَّل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وحكى سبحانه عنهم أنَّهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وصحَّ أنهم يقولون أيضاً: لبَّيك لا شريكَ لك، إلَّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وجاؤوا بالجملة الأُولى ـ مع أنَّ ظاهر القصَّة كونُهم بصدد ما تُشير إليه الجملةُ الثانيةُ من توحيد الأُلوهية؛ لأنَّ الظاهر أنَّ قومَهم إنَّما أشركوا فيها، وهم إنَّما دعوا لذلك الإشراك ـ دلالةً على كمال الإيمان، وابتدؤوا بما يُشير إلى توحيد الرُّبوبية؛ لأنَّه أولُ مراتبِ التوحيد، والتوحيدُ الذي أقرَّت به الأرواحُ في عالَم الذَّرِّ يومَ قال لها سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفي ذِكر ذلك أوَّلاً وذكرِ الآخر بعده تدرُّج في المخالفة؛ فإنَّ توحيدَ الربوبيةِ يشير إلى توحيد الأُلوهية، بناءً على أنَّ اختصاصَ الرُّبوبيةِ به عزَّ وجلَّ علَّةٌ لاختصاص الأُلوهيةِ واستحقاقِ المعبوديةِ به سبحانه وتعالى، وقد أَلزم جلَّ وعلا الوثنيةَ القائلين باختصاص الربوبيةِ بذلك في غيرِ موضعٍ، ولكون الجملةِ الأولى ـ لكونها مشيرةً إلى توحيد الربوبيةِ ـ مشيرةً إلى توحيد الأُلوهية قيل: إنَّ في الجملة الثانيةِ تأكيداً لها، فتأمَّل، ولا تَعجَلْ بالاعتراض.

والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من النَّكرة بعده، ولو أُخِّر لَكان صفة، أي: لن ندعوَ إلهاً كائناً مِن دونه تعالى.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بُعدٍ عن الحقِّ مُفرِط، أو قولاً هو عينُ الشططِ والبُعد المفرطِ عن الحقّ، على أنَّه وُصِف بالمصدر مبالغةً، ثم

اقتُصر على الوصف مبالغةً على مبالغة. وجوَّز أبو البقاءِ[1] كونَ «شططاً» مفعولاً به لـ «قلنا». وفسَّره قتادةُ بالكذب، وابنُ زيدٍ بالخطأ، والسُّدِّيُّ بالجَور. والكلُّ تفسيرٌ باللازم، وأصلُ معناه ما أشرنا إليه؛ لأنَّه مِن شطَّ: إذا أفرط في البُعد، وأنشدوا:

شطَّ المرادُ بحزوَى وانتهى الأملُ[2]

وفي الكلام قَسَمٌ مقدَّر، واللامُ واقعةٌ في جوابه، «وإذاً» حرفُ جوابٍ وجزاء، فتدلُّ على شرطٍ مقدَّر، أي: لو دَعونا وعبدنا مِن دونه إلهاً واللهِ لقد قلنا. . . إلخ، واستلزامُ العبادةِ القولَ؛ لمَا أنَّها لا تَعرَى عن الاعتراف بأُلوهية المعبودِ والتضرُّعِ إليه، وفي هذا القولِ دلالةٌ على أنَّ الفِتية دُعوا لعبادة الأصنامِ ولِيموا على تركها. وهذا أوفقُ بكون قيامِهم بين يدي الملك.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارةِ تحقيرٌ لهم ﴿قَوۡمُنَا﴾ عطفُ بيانٍ له لا خبر؛ لعدم إفادته، ولا صفة؛ لعدم شرطِها، والخبرُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى شأنُه ﴿ءَالِهَةٗۖ﴾ أي: عملوها ونحتوها لهم.

قال الخفاجيّ[3]: فيفيد أنَّهم عبدوها، ولا حاجةَ إلى تقديره كما قيل بناءً على أنَّ مجردَ العملِ غيرُ كافٍ في المقصود.

وتفسيرُ الاتخاذِ بالعمل أحدُ احتمالَين ذكرهما أبو حيَّان[4]، والآخَرُ تفسيرُه بالتصيير، فيتعدَّى إلى مفعولَين أحدُهما «آلهة» والثاني مقدَّر، وجوِّز أن يكونَ «آلهة» هو الأوَّل، و«من دونه» هو الثاني. وهو كما ترى. وأيًّا ما كان، فالكلامُ إخبارٌ فيه معنى الإنكار، لا إخبارٌ محض، بقرينة ما بعدَه، ولأنَّ فائدةَ الخبرِ معلومة.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ تحضيضٌ على وجه الإنكارِ والتعجيز؛ إذ يستحيل أنْ يأتوا ﴿عَلَيۡهِم﴾ بتقديرِ مضاف، أي: على أُلوهيَّتهم، أو على صحَّة اتِّخاذِهم لها آلهة

(١) في الإملاء ٣/ ٥٠٧.
(٢) وعجزه: فلا خيالٌ ولا عهدٌ ولا طللُ، والبيت لعمرو بن الأحمر، وهو في ديوانه ص١٣٣، وفيه: شط المزار بجَدْوَى وانتهى. . .
(٣) في حاشيته ٦/ ٨٠.
(٤) في البحر ٦/ ١٠٦.

﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجَّة ظاهرةِ الدَّلالة على مدَّعاهم؛ فإنَّ الدِّين لا يؤخذ إلَّا به، واستدلَّ به على أنَّ ما لا دليلَ عليه من أمثال ما ذُكر مردود.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ بنسبة الشريكِ إليه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. وقد مرَّ تحقيقُ المرادِ من مثل هذا التركيب. وهذه المقالةُ يحتمل أن يكونوا قالوها بين يدي الجبَّار تبكيتاً له وتعجيزاً، وتأكيداً للتبرِّي من عبادةِ ما يدعوهم إليه بأسلوبٍ حَسَن، ويحتمل أن يكونوا قالوها فيما بينهم لمَّا عزموا لِمَا عزموا عليه.

وخبرُ ابن عباسٍ ﵄ السابقُ نصٌّ في أنَّ هذه المقالةَ وما قبلَها وما بعدها إلى «مرفقاً» مقولةٌ فيما بينهم، ودعوى أنَّه إذا كان المرادُ من القيام فيما مرَّ قيامَهم بين يدي الجبَّار يتعيَّن كونُ هذه المقالةِ صادرةً عنهم بعد خروجِهم من عنده = غيرُ مسلَّمةٍ كما لا يخفَى.

نعم ينبغي أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ مقولاً فيما بينهم مطلقاً خاطَبَ به بعضُهم بعضاً. وفي «مَجمَع البيان»[1] عن ابن عباسٍ أنَّ قائلَه يمليخا.

والاعتزالُ تجنُّب الشيءِ بالبدن، أو بالقلب، وكلا الأمرين محتملٌ هنا. والتعزُّل بمعناه، ومن ذلك قولُه:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ موكَّلُ[2]

و«ما» يحتمل أن تكونَ موصولة، وأن تكونَ مصدرية، والعطفُ في الاحتمالَين على الضمير المنصوب.

والظاهرُ أنَّ الاستثناءَ فيهما متَّصل، ويقدَّر على الاحتمال الثاني مضافٌ في جانب المستثنى ليتأتَّى الاتصال، أي: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم الذين يعبدونهم إلَّا اللهَ تعالى، أو: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتَهم إلَّا عبادةَ اللهِ عزَّ وجلَّ. وتقديرُ مستثنًى منه على ذلك الاحتمالِ لذلك ـ نحو: عبادتهم لمعبوديهم ـ تكلُّف.

ويحتمل أن يكونَ منقطعاً.

---

(١) ١٥/ ١٢٧.

(٢) البيت للأحوص، وهو في ديوانه ص ١٥٢، وسلف ١٤/ ٥٥٤.

وعلى الأوَّل يكون القومُ عابدين اللهَ تعالى وعابدين غيرَه، كما جاءَ ذلك في بعض الآثار؛ أَخرج سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتمٍ وأبو نُعَيم عن عطاءٍ الخراسانيِّ أنَّه قال: كان قومُ الفتيةِ يعبدون اللهَ تعالى ويعبدون معه آلهةً شتَّى، فاعتزلت الفتيةُ عبادةَ تلك الآلهةِ ولم تعتزل عبادةَ اللهِ تعالى[1].

وعلى الثاني يكونون عابدين غيرَه تعالى فقط؛ قيل: وهذا هو الأوفقُ بقوله تعالى أوَّلاً: (هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ) فتأمَّل.

وجوِّز أن تكونَ «ما» نافية، والاستثناءُ مفرَّغ، والجملةُ إخبارٌ من الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد، معترضةٌ بين «إذ» وجوابِه، أعني قولَه تعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ ووجهُ الاعتراضِ ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ قولَه تعالى: «وإذ اعتزلتموهم. . . فأووا» معناه: وإذ اجتنبتم عنهم وعمَّا يعبدون، فأَخلِصوا له العبادةَ في موضعٍ تتمكَّنون منه، فدلَّ الاعتراضُ على أنَّهم كانوا صادقين، وأنَّهم أقاموا بما وصَّى به بعضُهم بعضاً، فهو يؤكِّد مضمونَ الجملة. وإلى كون «فأووا» جوابَ «إذ» ذهب الفرَّاء[2].

وقيل: إنَّه دليلُ الجواب، أي: وإذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقاديًّا، فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيًّا، أو: إذ أردتم الاعتزالَ الجسمانيَّ فافعلوا ذلك.

واعتُرض كلا القولَين بأنَّ «إذ» بدون «ما» لا تكون للشَّرط، وفي «همع الهوامع» أنَّ القولَ بأنَّها تكون له قولٌ ضعيفٌ لبعض النُّحاة، أو تسامح؛ لأنَّها بمعناه، فهي هنا تعليلية، أو ظرفيَّة، وتعلُّقها قيل: بأَوَوْا محذوفاً دلَّ عليه المذكور، لا به؛ لمكان الفاءِ، أو بالمذكور، والظرفُ يُتوسَّع فيه ما لا يتوسَّع في غيره.

وقال أبو البقاءِ[3]: «إذ» ظرفٌ لفعل محذوف، أي: وقال بعضُهم لبعض. وظاهرُه أنَّه عنَى بالفعل المحذوفِ قال. وأقول: هو من أَعجب العجائب.

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٠٠، والدر المنثور ٤/ ٢١٦.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.
(٣) في الإملاء ٣/ ٥٠٧.

وفي مصحف ابنِ مسعود ـ كما أَخرج ابنُ جَرير[١] وابنُ أبي حاتمٍ عن قتادة ـ: «وما يعبدون مِن دونِ الله».

وقال هارون: في بعض المصاحف[٢]: «وما يعبدونَ مِن دونِنا» وهذا يؤيِّد الاعتراض.

وفي «البحر» أنَّ ما في المصحفين تفسيرٌ لا قراءة؛ لمخالفته سوادَ الإمام، وزَعَمَ أنَّ المتواترَ عن ابن مسعودٍ ما فيه[٣].

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾ يبسُطْ لكم ويوسِّع عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم الذي هداكم للإيمان ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾ يسهِّل ﴿لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده، من الفِرار بالدِّين والتوجُّهِ التامِّ إلى الله تعالى ﴿مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به وهو مفعولُ «يهيئ»، ومفعولُ «ينشر» محذوف، أي: الخيرَ، ونحوَه. و«من أمركم» ـ على ما في بعض الحواشي ـ متعلِّق بـ «يهيِّئ»، و«من» لابتداءِ الغاية، أو للتبعيض، وقال ابنُ الأنباريّ: للبدل، والمعنى: يهيِّئ لكم بدلاً عن أمركم الصعبِ مرفقاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التوبة: ٣٨] وقولِه:

فليت لنا من ماءِ زمزمَ شَربةً ... مبرَّدةً باتت على طَهيَانِ[٤]

وجوِّز أن يكونَ حالاً من «مرفقاً» فيتعلَّق بمحذوف. وتقديمُ «لكم» لِمَا مرَّ مراراً من الإيذان من أوَّل الأمرِ بكون المؤخَّر من منافعهم، والتشويقِ إلى وروده.

والظاهرُ أنَّهم قالوا هذا ثقةً بفضل اللهِ تعالى، وقوَّةً في رجائهم؛ لتوكُّلهم عليه سبحانه، ونُصوعِ يقينهم، فقد كانوا علماءَ بالله تعالى. فقد أَخرج الطبرانيُّ وابنُ المنذر وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: ما بعث اللهُ تعالى نبيًّا إلَّا وهو شابّ، ولا أُوتي العلمَ عالمٌ إلَّا وهو شابّ، وقرأ: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٨٢ وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢١٦.

(٢) هو مصحف عبد الله بن مسعود كما في البحر ٦/ ١٠٦.

(٣) أي: ما في السواد. البحر ٦/ ١٠٦.

(٤) البيت ليعلى الأحول كما في الأغاني ٢٢/ ١٤٧، والخزانة ٥/ ٢٧٦، وسلف ٤/ ٤٩.

﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] و﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] و(﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾)[١].

وجوَّز أن يكونوا قالوه عن إخبار نبيٍّ في عصرهم به، وأن يكونَ بعضُهم نبيًّا أُوحي إليه ذلك فقاله. ولا يخفَى أنَّ ما ذُكر مجرَّدُ احتمالٍ من غيرِ داع.

وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وحميد، وابنُ سعدان، ونافع، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ في رواية الأعشى والبُرجُميِّ والجُعفيِّ عنه، وأبو عَمرٍو في رواية هارون: «مَرفِقاً» بفتح الميم وكسرِ الفاء[٢]. ولا فرقَ بينه وبين ما هو بكسر الميمِ وفتحِ الفاء معنًى، على ما حكاه الزجَّاج[٣] وثعلب، فإنَّ كلًّا منهما يقال في الأمر الذي يُرتفق به وفي الجارحة.

ونقل مكِّي عن الفرَّاء أنَّه قال: لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كلِّ شيءٍ إلَّا كسرَ الميم.

وأنكر الكسائيُّ أن يكونَ المرفقُ من الجارحة إلَّا بفتح الميمِ وكسرِ الفاء، وخالفه أبو حاتمٍ وقال: المَرفِق بفتح الميم: الموضعُ كالمسجد.

وقال أبو زيد: هو مصدرٌ جاء على مَفعِل، كالمرجع. وقيل: هما لغتان فيما يُرتفق به، وأمَّا من اليد فبكسر الميمِ وفتح الفاءِ لا غير.

وعن الفرَّاء أنَّ أهلَ الحجازِ يقولون: مَرفِقاً، بفتح الميم وكسر الفاءِ، فيما ارتفقت به، ويكسرون مِرفَق الإنسان، وأمَّا العربُ فقد يكسرون الميمَ منهما جميعاً[٤]. اهـ.

وأجاز معاذٌ فتحَ الميمِ والفاء[٥].

---

(١) المعجم الأوسط (٦٤٢١) والدر المنثور ٤/ ٢١٥-٢١٦.
(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٠٧.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢.
(٤) انظر معاني القرآن ٢/ ١٣٦ ونقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٦/ ١٠٧.
(٥) القراءات الشاذة ص٧٨، والبحر المحيط ٦/ ١٠٧.

هذا واستُدل بالآية على حُسن الهجرةِ لسلامة الدِّين، وقُبحِ المقامِ في دار الكفرِ إذا لم يمكن المقامُ فيها إلَّا بإظهار كلمةِ الكفر، وبالله تعالى التوفيق.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيانٌ لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح سبحانه به تعويلاً على ما سبق من قولِه تعالى: (إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ) وما لحق من إضافة الكهفِ إليهم وكونِهم في فجوةٍ منه.

وجوِّز أن يكونَ إيذاناً بعدم الحاجةِ إلى التصريح؛ لظهور جَرَيانِهم على موجَب الأمر، لكونه صادراً عن رأيٍ صائب. وقد حَذَفَ سبحانه وتعالى أيضاً جُمَلاً أخرى لا تخفَى.

والخطابُ لرسول اللهِ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلح له، وهو للمبالغة في الظهور.

وليس المرادُ الإخبارَ بوقوع الرؤية، بل الإنباءَ بكون الكهفِ لو رأيتَه ترى الشمسَ ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ أي: تتنحَّى، وأصلُه: تتزاور بتاءين، فحُذف أحدُهما تخفيفاً، وهي قراءةُ الكوفيين، والأعمش، وطلحة، وابنِ أبي ليلى، وخَلَف، وابنِ سعدان، وأبي عُبَيدة[1]، وأحمدَ بن جُبَير الأنطاكي، ومحمدِ بن عيسى الأصبهاني.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «تزَّاور» بفتح التاءِ وتشديدِ الزاي[2]، وأصلُه أيضاً: تتزاور، إلَّا أنَّه أُدغمت التاءُ في الزاي بعد قلبها زاياً.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق، وابنُ عامر، وقتادة، وحميد، ويعقوبُ عن العُمري: «تَزْوَرُّ» كتحمرّ[3]، وهو من بناء الافعلالِ[4] من غير العيوبِ والألوان، وقد جاء ذلك نادراً.

وقرأ جابر، والجَحدري، وأبو رجاءٍ، والسَّختياني، وابنُ أبي عبلة، ووردان عن أبي أيُّوب[5]: «تَزْوارُّ» كتحمارّ، وهو في البناءِ كسابقه.

---

(١) في البحر المحيط ٦/ ١٠٧: أبو عبيد. وقراءة الكوفيين في التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٣) التيسير ص ١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠ عن ابن عامر ويعقوب، والكلام من البحر ٦/ ١٠٧.
(٤) في (م): الأفعال.
(٥) في البحر ٦/ ١٠٨: وورد عن أيوب. وانظر القراءات الشاذة ص٧٨، والمحتسب ٢/ ٢٥.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وأبو المتوكِّل: «تَزْوَئرُّ» بهمزةٍ قبل الراءِ المشدَّدة[1]، كتطمئنُّ. ولعله إنَّما جيء بالهمزة فراراً من التقاءِ الساكنين وإنْ كان جائزاً في مثل ذلك ممَّا كان الأولُ حرفَ مدٍّ والثاني مُدْغماً في مثله.

وكلُّها من الزَّوَر، بفتحتين مع التخفيف، وهو الميل. وقيَّده بعضُهم بالخلقي، والأكثرون على الإطلاق، ومنه الأَزوَر: المائلُ بعينه إلى ناحية، ويكون في غير العين، قال ابنُ أبي ربيعة:

..... وجَنْبي خِيفةَ القومِ أَزْوَرُ[2]

وقال عنترة:

فازورَّ من وَقعِ القنا بلَبانه وشكا إليَّ بعَبرةٍ وتَحمحُمِ[3]

وقال بِشرُ بن أبي حازم:

تؤمُّ بها الحداةُ مياهَ نخلٍ وفيها عن أَبانَيْنِ ازورارُ[4]

ومنه: زاره: إذا مالَ إليه. والزُّور، أي: الكذب؛ لميله عن الواقع وعدمِ مطابقتِه له، وكذا الزُّورُ بمعنى الصنمِ في قوله:

جاؤوا بزُورَيْهم وجئنا بالأصمّ[5]

وقال الراغب[6]: إنَّ الزَّوَر، بتحريك الواو، مَيلٌ في الزَّوْر، بتسكينها، وهو أَعلى الصَّدر، والأَزور: المائلُ الزَّور، أي: الصدر، وزرت فلاناً: تلقَّيته بزَوري، أو قصدت زَورَه، نحو: وَجَهتُه، أي: قصدت وجهَه. والمشهورُ ما قدَّمناه.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٨، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٢) البحر ٦/ ٩٣، ورواية الديوان ص٩٦:

وخُفِّضَ عني الصوتُ أقبلتُ مِشيةَ الـ حُبَابِ وشخصي خشيةَ الحيِّ أَزْوَرُ

(٣) الديوان ص٣٠.

(٤) الديوان ص١٠٢. وأبانان: جبلان في البادية كما في اللسان (أبن).

(٥) الرجز للأغلب العجلي كما في العقد الفريد ٥/ ٢٠٦، وبعده: شيخٌ لنا قد كان من عهد إرَمْ.

(٦) في المفردات (زور).

وحُكي عن أبي الحسنِ أنَّه قال: لا معنى لـ «تزورُّ» في الآية؛ لأنَّ الازورارَ الانقباض. وهو طعنٌ في قراءة ابنِ عامرٍ ومَن معه بما يوجِب تغييرَ الكُنية.

وبالجملة المراد: إذا طلعت تروغُ وتميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ الذي أَوَوا إليه، فالإضافةُ لأدنى ملابسة ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ يمينِ الكهف عند توجُّه الداخلِ إلى قعره، أي: جانِبه الذي يَلي المغرب، أو جهةَ ذاتِ يمينِ الفتية، ومآلُه كسابقه، وهو نصبٌ على الظرفية؛ قال المبرِّد في «المقتضَب»: ذاتُ اليمينِ وذاتُ الشِّمال من الظروف المتصرِّفة، كيميناً وشمالاً.

﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عندَ غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تَعْدِلُ عنهم. قال الكِسائي: يقال: قرضتُ المكانَ، إذا عَدَلْتَ عنه ولم تَقرَبْه ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمالِ الكهف، أي: جانبه الذي يلي المشرق.

وقال غيرُ واحد: هو من القرضِ بمعنى القطع، تقول العرب: قرضت موضعَ كذا، أي: قطعته. قال ذو الرمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقرِضنَ أقوازَ مُشرِفٍ شِمالاً وعن أيمانهنَّ الفوارسُ[١]

والمراد: تتجاوزهم ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متَّسعٍ من الكهف، وهي - على ما قيل - من الفَجَا، وهو تباعُدُ ما بين الفخذين، يقال: رجل أَفجَى وامرأةٌ فجواء، وتجمع على: فِجَاء وفُجًا وفَجَوات.

وحاصلُ الجملتين أنَّهم كانوا لا تُصيبهم الشمسُ أصلاً فتؤذيهم وهم في وسط الكهفِ بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء[٢]، ولا يؤذيهم كَربُ الغارِ ولا حرُّ الشمس، وذلك لأنَّ بابَ الكهف - كما قال عبدُ الله بنُ مسلم وابنُ عطية[٣] - كان في مقابلة بناتِ نعش[٤]، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاته مشرقُ رأسِ السَّرطان

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٢٠. وجاء في هامش الأصل: القوز بالقاف والزاي المعجمة: الكثيب الصغير، ويروى: أجواز، والمشرف: اسم رملة معروفة، والفوارس: رمال معروفة بالدهناء. اهـ منه.

(٢) رَوْح الهواء بفتح الراء: نسيمه. حاشية الشهاب ٦/ ٨٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.

(٤) سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبِّهت بحَمَلة النعش. المعجم الوسيط (نعش).

ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارُها مدارَه تطلع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأيمن، وهو الذي يَلي المغرب، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسرِ، فيقع شعاعُها على جنبه، وتحلِّل عفونتَه وتعدِّل هواه، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادَهم وتُبلي ثيابَهم، ولعل ميلَ البابِ إلى جانب المغربِ كان أكثر، ولذلك وقع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم.

وقال الزجَّاج[1]: ليس ذلك لما ذُكر، بل لمحض صرفِ اللهِ تعالى الشمسَ بيد قدرتِه عن أن تصيبَهم، على منهاج خرقِ العادةِ كرامةً لهم، وجيءَ بقوله تعالى: (وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ) حالاً مبيِّنةً لكون ما ذُكر أمراً بديعاً، كأنَّه قيل: ترى الشمسَ تميل عنهم يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولَهم، مع كونهم في متَّسع من الكهف معرَّضٍ لإصابتها، لولا أنْ كفَّها عنهم كفُّ التقدير. واحتجَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث جعل «ذلك» إشارةً إلى ما ذُكر من التزاوُر والقرضِ في الطلوع والغروبِ يميناً وشمالاً.

ولا يظهر كونُه آيةً على القول السابقِ ظهورَه على قوله؛ فإنَّ كونَه آيةً دالَّة على كمال قدرةِ الله تعالى وحقِّية التوحيدِ وكرامةِ أهله عنده سبحانه على هذا أظهرُ من الشَّمس في رابعة النَّهار. وكان ذلك قبل سدِّ بابِ الكهفِ على ما قيل.

وقال أبو عليّ: معنى تَقرضهم: تُعطيهم من ضوئها شيئاً، ثم تزول سريعاً وتستردُّ ضوءها، فهو كالقرض يستردُّه صاحبُه. وحاصلُ الجملتين عنده أنَّ الشمسَ تميل بالغُدوة عن كهفهم، وتُصيبهم بالعَشيِّ إصابةً خفيفة.

ورُدَّ بأنَّه لم يُسمَع للقرض بهذا المعنى فعلٌ ثلاثيٌّ ليفتحَ حرفُ المضارعة.

واختار بعضُهم كونَ المرادِ ما ذُكر، إلَّا أنَّه جعل «تَقرضَهم» من القرض بمعنى القطع، لا بالمعنى الذي ذكره أبو عليّ؛ لِمَا سمعت، وزعم أنَّه من باب الحذفِ والإيصال، والأصل: تقرض لهم، وأنَّ المعنى: وإذا غربت تقطع لهم مِن ضوئها شيئاً. والسببُ لاختياره ذلك توهُّمه أنَّ الشمسَ لو لم تُصِب مكانَهم أصلاً، لفَسد هواؤه وتعفَّن ما فيه، فيصير ذلك سبباً لهلاكهم. وفيه ما فيه.

---

(١) انظر معاني القرآن ٣/ ٢٧٣-٢٧٤.

وأكثرُ المفسِّرين على أنَّهم لم تُصِبهم الشمسُ أصلاً وإن اختلفوا في منشأ ذلك. واختار جمعٌ أنه لمحض حَجبِ الله تعالى الشمسَ على خلافِ ما جرت به العادة، قالوا: والإشارة تؤيِّد ذلك أتمَّ تأييد، والاستبعادُ ممَّا لا يلتفت إليه، لا سيَّما فيما نحن فيه، فإنَّ شأنَ أصحابِ الكهف كلَّه على خلافِ العادة.

وبعضُ مَن ذهب إلى أنَّ المنشأ كونُ بابِ الكهف في مقابلة بناتِ نعشٍ جعل ذلك إشارةً إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنُه. وبعضٌ آخَرُ جعله إشارةً إلى حفظ اللهِ تعالى إياهم في ذلك الكهفِ المدَّةَ الطويلة. وآخَرُ جعله إشارةً إلى إطلاعه سبحانه رسولَه ﷺ على أخبارهم. واعتُرض على الأخيرين بأنَّه لا يساعدهما إيرادُ ذلك في تضاعيف القصَّة. وجعله بعضُهم إشارةً إلى هدايتهم إلى التوحيد، ومخالفتِهم قومَهم وآباءهم، وعدمِ الاكتراثِ بهم وبمَلِكهم، مع حداثتهم وإيوائهم إلى كهفٍ شأنُه ذلك. ولا يخلو عن حُسن، وإليه أَمِيل، واللهُ تعالى أعلم.

وقرئَ: «يَقرضهم» بالياء آخرِ الحروف، ولعل الضميرَ عائدٌ على غروب الشمس. وقال أبو حيَّان[١]: أي: يَقرضهم الكهف. وهو كما ترى[٢].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ مَن يدلُّه سبحانه دلالةً موصولةً إلى الحقِّ ويوفِّقه لما يحبُّه ويرضاه ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الفائزُ بالحظِّ الأَوفر في الدَّارين.

والمرادُ إما الثناءُ على أصحاب الكهفِ والشهادةُ لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقُّق ما أمَّلوه من نشر الرحمةِ وتهيئةِ المرفق، أو التنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كثيرة، ولكنَّ المنتفع[٣] بها مَن وفَّقه اللهُ تعالى للتأمُّل فيها والاستبصارِ بها، فالمرادُ بـ «مَن» إمَّا الفتية، أو ما يعمُّهم وغيرَهم، وفيه ثناءٌ عليهم أيضاً. وهو كما ترى.

وجعله بعضُهم ثناءً على الله تعالى؛ لمناسبة قولِه سبحانه: «وزدناهم هدى» و«ربطنا» وملاءمةِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يَخلقْ فيه الضَّلال؛ لِصرف

(١) في البحر ٦/١٠٨، والقراءة فيه.
(٢) قوله: وهو كما ترى، ليس في (م).
(٣) في (م): المشفع.

اختيارِه إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبداً، وإنْ بالغتَ في التتبُّع والاستقصاءِ ﴿وَلِيًّا﴾ ناصراً ﴿مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ يَهديه إلى الحقِّ ويخلِّصه من الضلال؛ لاستحالة وجودِه في نفسه، لا أنَّك لا تجده مع وجودِه أو إمكانه، إذ لو أُريد مدحُهم لاكتفى بقوله تعالى: (فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ) وفيه أنَّه لا يطابق المقام، والمقابلةُ لا تنافي المدح، بل تؤكِّده، ففيه تعريضٌ بأنَّهم أهلُ الولايةِ والرَّشاد؛ لأنَّ لهم الوليَّ المرشد، ولعل في الآية صنعة الاحتباك.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ بفتح السِّين. وقرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، والكِسائيُّ بكسرها[(١)]، أي: تظنُّهم، والخطابُ فيه كما فيما سبق.

والظاهرُ أنَّ هذا إخبارٌ مستأنف، وليس على تقديرِ شيء.

وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: ولو رأيتَهم تحسَبهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمعُ يَقِظ، بكسر القاف، كأنكاد ونَكِد، كما في «الكشَّاف»[(٢)] وبضمِّها، كأعضاد وعَضُد، كما في «الدُّر المصون»[(٣)].

وفي «القاموس»: رجلٌ يقظ، كنَدُس وكَتِف[(٤)]. فحكى اللغتين: ضمَّ العينِ وكسرَها، وهو اليقظان، ومدارُ الحِسبانِ انفتاحُ عيونِهم على هيئة الناظرِ كما قال غيرُ واحد.

وقال ابنُ عطية[(٥)]: يحتمل أن يَحسَبَ الرائي ذلك لشدَّة الحفظِ الذي كان عليهم وقلَّةِ التغيُّر؛ وذلك لأنَّ الغالبَ على النِّيام استرخاءٌ وهيئاتٌ يقتضيها النوم، فإذا لم تكن لنائمٍ يحسَبه الرائي يقظانَ وإنْ كان مسدودَ العينين، ولو صحَّ فتحُ أعينِهم بسندٍ يقطع العذر كان أَبينَ في هذا الحِسبان.

وقال الزجَّاج[(٦)]: مدارُه كثرةُ تقلُّبهم، واستدلَّ عليه بذِكر ذلك بعد. وفيه أنَّه

---

(١) التيسير ص٨٤، والنشر ٢/ ٢٣٦.
(٢) ٢/ ٤٧٥.
(٣) ٧/ ٤٥٩.
(٤) القاموس (يقظ)، والندس: الرجل الفَهِم.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.
(٦) قاله بعد قوله: وقيل. معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

لا يلائمه ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ جمعُ راقد، أي: نائم. وما قيل: إنَّه مصدرٌ أُطلق على الفاعل واستوى فيه القليلُ والكثيرُ كرُكوع وقُعود لأنَّ فاعلاً لا يُجمَع على فُعول = مردود؛ لأنه نصَّ على جمعه كذلك النُّحاة، كما صرَّح به في «المفصَّل» و«التسهيل»[(١)]، وهذا تقريرٌ لما لم يُذكَر فيما سلف، اعتماداً على ذِكره السابقِ من الضَّرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رَقدتهم كثيراً ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جهةً تلي أيمانَهم ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلَهم كيلا تأكلَ الأرضُ ما عليها من أبدانهم، كما أخرجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن ابن جُبَير.

واستُبعد ذلك، وقال الإمام[(٢)]: إنَّه عجيب؛ فإنَّ اللهَ تعالى الذي قَدَرَ على أن يُبقيَهم أحياءً تلك المدةَ الطويلة، هو عزَّ وجلَّ قادرٌ على حفظ أبدانِهم أيضاً من غيرِ تقليب.

وأُجيب بأنَّه اقتضت حكمتُه تعالى أن يكونَ حفظُ أبدانِهم بما جرت به العادةُ وإنْ لم نعلم وجهَ تلك الحكمة. ويجري نحوُ هذا فيما قيل في التزاوُر وأخيه.

وقيل: يمكن أن يكونَ تقليبُهم حفظاً لما هو عادتُهم في نومهم من التقلُّب يميناً وشمالاً اعتناءً بشأنهم.

وقيل: يحتمل أن يكونَ ذلك إظهاراً لعظيم قدرتِه تعالى في شأنهم، حيث جمع تعالى شأنُه فيهم الإنامةَ الثقيلةَ المدلولَ عليها بقوله تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ) والتقليبَ الكثير، وممَّا جرت به العادةُ أن النومَ الثقيلَ لا يكون فيه تقلُّب كثير. ولا يخفى بُعده.

واختُلف في أوقات تقليبِهم، فأخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّهم كانوا يقلَّبون في كلِّ ستة أشهرٍ مرَّة[(٣)]. وأخرج غيرُ واحدٍ عن أبي عياضٍ نحوَه. وقيل: يقلَّبون في كلِّ سنةٍ مرَّة، وذلك يومَ عاشوراء. وأخرج ابنُ المنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ

(١) ينظر التسهيل ص ٢٧٣.
(٢) في التفسير الكبير ٢١/١٠١.
(٣) الدر المنثور ٤/٢١٦، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أخبار.

عن مجاهدٍ أنَّ التقليبَ في التِّسع سنينَ الضميمةِ ليس فيما سواها. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّ هذا التقليبَ في رَقدتهم الأولى، يعني الثلاثَ مئة سنة، وكانوا يقلَّبون في كلِّ عامٍ مرةً، ولم يكن في مدَّة الرقدةِ الثانية، يعني التِّسع.

وتعقَّب الإمامُ[1] ذلك بأنَّ هذه التقديراتِ لا سبيلَ للعقل إليها، ولفظُ القرآنِ لا يدلُّ عليها، وما جاء فيها خبرٌ صحيح. انتهى.

وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على الكثرة؛ لمكان المضارعِ الدالِّ على الاستمرار التجدُّدي، مع ما فيه من التثقيل.

والظاهرُ أنَّ «ونقلبهم» إخبارٌ مستأنف. وجوَّز الطِّيبي ـ بناءً على ما سمعتَ عن الزجَّاج ـ كونَ الجملةِ في موضع الحال. وهو كما ترى.

وقُرئ: «ويُقلِّبهم» بالياء آخرِ الحروفِ مع التشديد، والضميرُ لله تعالى. وقيل: للمَلَك.

وقرأ الحسنُ ـ فيما حكى الأهوازيُّ في «الإقناع»: ـ «ويَقْلِبُهم» بياء مفتوحةٍ وقافٍ ساكنةٍ ولامٍ مخفَّفة.

وقرأ ـ فيما حكى ابنُ جِنِّي[2] ـ: «وتَقلُّبَهم» على المصدر منصوباً، ووجهُه أنَّه مفعولٌ لفعل محذوفٍ يدلُّ عليه «وتحسبهم»، أي: وترى أو تشاهد تقلُّبَهم.

ورُوي عنه أيضاً أنَّه قرأ كذلك إلَّا أنَّه رفع، وهو على الابتداءِ كما قال أبو حاتم، والخبرُ ما بعد، أو محذوف، أي: آيةٌ عظيمة، أو: مِن آيات اللهِ تعالى.

وحكى ابنُ خالويه هذه القراءةَ عن اليمانيّ، وذَكَرَ أنَّ عكرمةَ قرأ: «وتَقْلِبُهم» بالتاء ثالثةِ الحروف، مضارعُ قَلَبَ مخففاً[3]. ووجِّه بأنَّه على تقدير: وأنت تَقلِبهم، وجَعلِ الجملةِ حالاً من فاعل «تحسبهم»، وفيه إشارةٌ إلى قوَّة اشتباهِهم بالأيقاظ، بحيث أنهم يُحسَبون أيقاظاً في حال سبرِ أحوالِهم وقلبِهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ١٠١.

(٢) في المحتسب ٢/ ٢٦. ونقل المصنف هذه القراءات عن البحر ٦/ ١٠٩.

(٣) البحر ٦/ ١٠٩ وفي المطبوع من القراءات الشاذة ص٧٨: وتقلُّبهم.. الحسن، وتقلبهم، عكرمة. ولم يذكر ضبطهما.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ الظاهرُ أنه الحيوانُ المعروفُ النبّاح، وله أسماءٌ كثيرةٌ أفرد لها الجلالُ السيوطيُّ رسالة. قال كعبُ الأحبار: هو كلبٌ مرُّوا به، فتَبِعهم فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك مراراً، فقال لهم: ما تريدون منِّي؟ لا تخشَوا جانبي، أنا أُحبُّ أحبَّاءَ اللهِ تعالى، فناموا وأنا أَحرسكم.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّه كلبُ راعٍ مرُّوا به، فتبع دينَهم وذهب معهم وتَبِعهم الكلب. وقال عُبَيد بن عمير: هو كلبُ صيدِ أحدِهم. وقيل: كلبُ غنمِه.

ولا بأسَ في شريعتنا باقتناء الكلبِ لذلك، وأمَّا فيما عداه وما عدا ما أُلحق به، فمنهيٌّ عنه؛ ففي البخاريِّ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما[1]: «مَن اقتنى كلباً ليس بكلب صيدٍ أو ماشية، نقص كلَّ يومٍ من عمله قيراطان» وفي رواية: «قيراط»[2].

واختُلف في لونه، فأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق سفيانَ قال: قال لي رجلٌ بالكوفة يقال له: عبيد، وكان لا يُتَّهم بكذبٍ: رأيت كلبَ أصحابِ الكهف أحمرَ كأنَّه كساءٌ أَنْبِجاني. وأخرج عن كثيرٍ النَّوَّاء[3] قال: كان الكلبُ أصفر. وقيل: كان أَنمرَ[4]. ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ. وقيل غيرُ ذلك.

وفي اسمه، فأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الحسن أنَّه قِطمير. وأَخرج عن مجاهدٍ أنَّه قطمورا. وقيل: ريَّان. وقيل: ثور. وقيل غيرُ ذلك.

وهو في الكِبَر ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ فوقَ القَلَطي ودون الكردي. وأَخرج ابن أبي حاتم عن عبيدٍ أنَّه قال: رأيته صغيراً زينيًّا. قال الجلالُ السُّيوطي: يعني صينيًّا[5]. وفي «التفسير الخازني»[6] تفسيرُ القلطيِّ بذلك.

وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بالكلب هنا الأسد، وهو ـ على ما في

---

(١) مرفوعاً، كما في صحيح البخاري (٥٤٨٠-٥٤٨٢)، وصحيح مسلم (١٥٧٤).

(٢) هي عند مسلم (١٥٧٤): (٥٣).

(٣) هو كثير بن إسماعيل، أو ابن نافع، النوَّاء، بالتشديد، أبو إسماعيل التيمي الكوفي. تقريب التهذيب ص٣٩٥، ونقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/ ٢١٦.

(٤) جاء في هامش الأصل: فيه نمرة بيضاء ونمرة سوداء. اهـ منه.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢١٦، ووقع في مطبوعه: صيفيًّا.

(٦) ٤/ ٢٠٥.

«القاموس»(١) ـ أحدُ معانيه. وقد جاء أنَّه ﷺ دعا على كافرٍ بقوله: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك»(٢) فافترسه أسد. وهو خلافُ الظاهر. وأخرج ابنُ المنذر، عن ابن جُرَيج أنَّه قال: قلت لرجلٍ من أهل العلم: زعموا أنَّ كلبَهم كان أسداً، فقال: لَعَمرُ اللهِ ما كان أسداً، ولكنَّه كان كلباً أحمرَ خرجوا به من بيوتهم يقال له: قطمورا.

وأبعدُ من هذا زعمُ مَن ذهب إلى أنَّه رجلٌ طبَّاخ لهم تَبِعهم، أو أحدُهم قعد عند البابِ طليعةً لهم. نعم حكى أبو عَمرٍو(٣) الزاهديُّ غلامُ ثعلبٍ أنَّه قُرِئ: «وكالئُهم» بهمزةٍ مضمومةٍ بدلَ الباءِ وألفٍ بعد الكاف، من: كلأَ، إذا حفظ. ولا يَبعدُ فيه أن يرادَ الرجلُ الرَّبيئة، لكن ظاهر القراءةِ المتواترةِ يقتضي إرادةَ الكلبِ المعروفِ منه أيضاً، وإطلاقُ ذلك عليه لحفظه ما استُحفظ عليه وحراستِه إيَّاه. وقيل في هذه القراءة: إنَّها تفسيرٌ أو تحريف.

وقرأ جعفرٌ الصادقُ رضي الله عنه: «وكالِبُهم»(٤) بباء موحَّدةٍ وزِنَة اسمِ الفاعل، والمراد صاحبُ كلبِهم، كما تقول: لابنٌ وتامر، أي: صاحبُ لبنٍ وتمر.

وجاء في شأن كلبِهم أنَّه يدخل الجنةَ يومَ القيامة، فعن خالد بنِ مَعدان: ليس في الجنَّة من الدوابِّ إلَّا كلبُ أصحابِ الكهف وحمارُ بلعم.

ورأيتُ في بعض الكتبِ أنَّ ناقةَ صالحٍ وكبشَ إسماعيلَ أيضاً في الجنة، ورأيتُ أيضاً أنَّ سائرَ الحيواناتِ المستحسنةِ في الدنيا، كالظِّباء والطواويسِ، وما يَنتفع به المؤمن، كالغنم، تدخل الجنة على كيفيةٍ تليق بذلك المكانِ وتلك النَّشأة.

وليس فيما ذُكر خبرٌ يعوَّل عليه فيما أَعلم، نعم في الجنة حيواناتٌ مخلوقةٌ

---

(١) مادة (كلب).

(٢) أخرجه الحارث (٥١١ - بغية الباحث)، والحاكم ٢/ ٥٣٩ من حديث أبي نوفل، وسلف ٧/ ٤٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أبو عمر، وهو محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد، العلامة اللغوي المحدث، لازم ثعلباً فأكثر عنه إلى الغاية. مات سنة (٣٤٥هـ). السير ١٥/ ٥٠٨.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٠٩.

فيها، وفي خبرٍ يُفهَم من كلام الترمذيِّ صحتُه التصريحُ بالخيل منها[١]، والله تعالى أعلم.

وقد اشتهر القولُ بدخول هذا الكلبِ الجنة، حتى إنَّ بعضَ الشيعةِ يسمُّون أَبناءهم بكلب عليّ، ويؤمِّل مَن سُمِّيَ بذلك النجاةَ بالقياس الأولويِّ على ما ذُكر، ويُنشد:

فتيةُ الكهفِ نجا كلبُهمُ كيف لا ينجو غداً كلبُ علي

ولَعَمري إنْ قَبِله عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه كلباً له نجا، ولكن لا أظنُّ يقبله؛ لأنَّه عَقور.

﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ مادُّهما، والذِّراع من المرفق إلى رأس الأُصبعِ الوسطى. ونصب «ذراعيه» على أنَّه مفعولُ «باسط»، وعَمِلَ مع أنَّه بمعنى الماضي ـ واسمُ الفاعلِ لا يعمل إذا كان كذلك ـ لأنَّ المرادَ حكايةُ الحالِ الماضية. وذهب الكسائيُّ وهشامٌ وأبو جعفر بنُ مضاءٍ إلى جواز عملِ اسم الفاعلِ كيفما كان، فلا سؤال ولا جواب.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بموضع البابِ ومحلِّ العبورِ من الكهف، وأنشدوا:

بأرضِ فضاءٍ لا يُسَدُّ وصيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ[٢]

وهو المرادُ بالفِناء في التفسير المرويِّ عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وعطية.

وقيل: بالعتبة، والمرادُ بها ما يحاذي ذلك من الأرض لا المتعارَف، فلا يقال: إنَّ الكهفَ لا بابَ له ولا عتبة، على أنَّه لا مانعَ من ذلك.

وأخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن جُبَيرٍ أنَّ الوصيدَ الصعيد. وليس بذاك.

وذكروا في حكمةِ كونِه بالوصيد غيرَ ثاوٍ معهم أنَّ الملائكةَ عليهم السلام لا تدخل بيتاً فيه كلب[٣]. وقد يقال: إنَّ ذلك لكونه حارساً، كما يُشير إليه

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٣) من حديث بريدة ﷺ.
(٢) البيت في سيرة ابن هشام ١/ ٣٠٥ منسوباً لعُبيد بن وهب العبسي، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١١٩ منسوباً لزهير بن أبي سلمى.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة ﷺ.

ما أَخرجه ابنُ المنذرِ عن ابن جُرَيج قال: باسطٌ ذراعيه بالوصيد يُمسك عليهم بابَ الكهف، وكان ـ فيما قيل ـ يكسر أُذنَه اليمنى وينام عليها إذا قُلِّبوا ذاتَ اليمين، ويكسر أذنَه اليسرى وينام عليها إذا قُلِّبوا ذاتَ الشِّمال.

والظاهرُ أنَّه نام كما ناموا، لكن أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن عبد الله بنِ حميد المكِّي أنَّه جُعل رزقُه في لَحس ذراعيه، فإنَّه كالظاهر أنَّه لم يستغرق نومُه كما استغرق نومُهم.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لو عاينتَهم وشاهدتَهم. وأصلُ الاطِّلاعِ الوقوفُ على الشيءِ بالمعاينة والمشاهدة.

وقرأ ابنُ وثَّابٍ والأعمش: «لوُ اطَّلعتَ» بضمِّ الواو[1]، تشبيهاً لها بواو الضمير؛ فإنَّها قد تضمُّ إذا لَقِيها ساكن، نحو: رَموُا السِّهام. ورُوي ذلك عن شيبةَ وأبي جعفر[2].

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: لأَعرضتَ بوجهك عنهم وأوليتَهم كشحك.

ونصب «فراراً» إمَّا على المصدر لـ «ولَّيت»؛ إذ التوليةُ والفرارُ من وادٍ واحد، فهو كـ: جلست قعوداً، أو لِفررتَ محذوفاً، وإمَّا على الحاليَّة بتأويله باسم الفاعل، أو بجعله مِن باب:

فإنَّما هي إقبالٌ وإدبار[3]

وإمَّا على أنَّه مفعولٌ لأجله، أي: لَرجعتَ لأَجل الفرار.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ أي: خوفاً يَملأ الصدر، ونصب على أنَّه مفعولٌ ثان، ويجوز أن يكونَ تمييزاً، وهو محوَّل عن الفاعل، وكونُ الخوفِ يملأ مجازٌ في عِظَمه مشهور، كما يقال في الحُسن: إنَّه يملأ العيون.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٠٩.

(٢) البحر ٦/ ١٠٩.

(٣) شطر بيت للخنساء، وهو في ديوانها ص ٤٨، وسلف ٨/ ١٢٥.

وفي «البحر»(١) : أَبعدَ مَن ذهب إلى أنَّه تمييزٌ محوَّل عن المفعول، كما في قوله تعالى شأنُه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢] لأنَّ الفعلَ لو سلِّط عليه ما تعدَّى إليه تعدِّيَ المفعولِ به، بخلاف ما في الآية.

وسببُ ما ذُكر أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَلقى عليهم من الهيبة والجلالِ ما أَلقى.

وقيل: سببُه طولُ شعورِهم وأَظفارِهم، وصُفرةُ وجوهِهم وتغيُّر أَطمارهم.

وقيل: إظلامُ المكان وإيحاشُه.

وتعقَّب ذلك أبو حيَّان(٢) بأنَّ القولين ليسا بشيء؛ لأنَّهم لو كانوا بتلك الصفة، أَنكروا أحوالَهم ولم يقولوا: «لبثنا يوماً أو بعض يوم» ولأنَّ الذي بُعث إلى المدينة لم ينكر إلَّا المعالمَ والبناءَ لا حالَ نفسه، ولأنَّهم بحالةٍ حسنة، بحيث لا يفرِّق الرائي بينهم وبين الأيقاظ وهم في فجوة موصوفةٍ بما مرّ، فكيف يكون مكانُهم موحشاً؟ اهـ.

وأُجيب بأنَّهم لا يَبعد عدمُ تيقُّظِهم لحالهم؛ فإنَّ القائمَ من النوم قد يذهل عن كثيرٍ من أموره، ويُدَّعى استمرارُ الغفلةِ في الرسول، وإنكارُه للمعالم لا ينافي إنكارَ الناسِ لحاله وكونَه على حالةٍ منكرةٍ لم يتنبَّه لها، وأيضاً يجوز أنَّهم لم يطَّلعوا على حالهم ابتداءً فقالوا: «لبثنا يوما أو بعض يوم» ثم تنبَّهوا له فقالوا: «ربكم أعلم بما لبثتم»، وأيضاً يجوز أن يكونَ هذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ، وذلك الحالُ إنَّما حدث بعد انتباهِهم الذي بَعثوا فيه رسولَهم إلى المدينة. وعلى هذا لا يضرُّ عدمُ إنكارِ الرسولِ حالَ نفسه؛ لأنَّه لم يحدثْ له ما ينكر بعد، وإيحاشُ المكانِ يجوز أن يكونَ حدث بعدُ ـ على هذا ـ أيضاً، وذلك بتغيُّره بمرور الزمان. اهـ.

ولا يخفَى على مُنصفٍ ما في هذه الأجوبة، فالذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه أنَّ السببَ في ذلك ما أَلقى اللهُ تعالى عليهم من الهيبةِ وهم في كهفهم، وأنَّ شعورَهم وأظفارَهم إن كانت قد طالت، فهي لم تَطُل إلى حدٍّ يُنكره مَن يراه.

---

(١) ٦/ ١٠٩.

(٢) في البحر ٦/ ١٠٩-١١٠.

واختار بعضُ المفسِّرين أنَّ اللهَ تعالى لم يغيِّر حالَهم وهيئتَهم أصلاً؛ ليكونَ ذلك آيةً بيِّنة.

والخطابُ هنا كالخطاب فيما سبق. وعلى احتمال أن يكونَ له ﷺ يَلزم أن يكونوا باقين على تلك الحالةِ التي توجب فرارَ المطَّلعِ عليهم ومزيدَ رُعبِه إلى ما بعد نزولِ الآية، فمَن لا يقول به لا يقول به.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابنُ المنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ قال: غزونا مع معاويةَ غزوةَ المضيقِ نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحابُ الكهفِ الذي ذكر اللهُ تعالى في القرآن، فقال معاوية: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابنُ عباس: ليس ذلك لك، قد منع اللهُ تعالى ذلك مَن هو خيرٌ منك فقال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلمَ علمهم، فبعث رجالاً وقال: اِذهبوا فادخُلوا الكهفَ وانظروا، فذهبوا، فلمَّا دخلوه، بعث اللهُ تعالى عليهم ريحاً فأخرجتهم[1].

قيل: وكأنَّ معاويةَ إنَّما لم يَجرِ على مقتضَى كلامِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما ظنًّا منه تغيُّرَ حالِهم عمَّا كانوا عليه، أو طلباً لعلمهم مهما أمكن.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن شَهْر بن حَوْشَبٍ قال: كان لي صاحبٌ ماضٍ شديدُ النفس، فمرَّ بجانب الكهفِ فقال: لا أَنتهي حتى أنظرَ إليهم، فقيل له: لا تفعل، أَمَا تقرأ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ؟ فأبى إلَّا أن ينظر، فأشرف عليهم، فابيضَّت عيناه وتغيَّر شعرُه، وكان يُخبر الناسَ بأنَّ عِدَّتهم سبعة.

وربَّما يُستأنَس بمثل هذه الأخبارِ لوجودهم اليوم، بل لبقائهم على تلك الحالةِ التي لا يستطاع معها الوقوفُ على أحوالهم، وفي ذلك خلاف:

فحكى السُّهيلي[2] عن قومٍ القولَ به، وعن ابن عباسٍ إنكارَه، فقد أَخرج عبدُ الرزاقِ وابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمةَ أنَّ ابن عباسٍ غزا مع حبيب بنِ مسلمة، فمرُّوا

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٣.

(٢) في الروض الأنف ٢/ ٥٤.

بالكهف، فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظامُ أهلِ الكهف، فقال ابن عباس: لقد ذهبت عظامُهم منذ أكثرَ من ثلاث مئةِ سنة[1].

ولا يخفَى ما بين هذا الخبرِ والخبرِ السابق عنه، بل والآخَرِ أيضاً، من المخالفة، والذي يميل القلبُ إليه عدمُ وجودِهم اليوم، وأنَّهم إنْ كانوا موجودين، فليسوا على تلك الحالةِ التي أشار اللهُ تعالى إليها، وأنّ الخطابَ الذي في الآية لغير معيَّن، وأنَّ المرادَ منها الإخبارُ عن أنَّهم بتلك الحالةِ في ذلك الوقت ـ وما أخرجه ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أصحابُ الكهفِ أعوانُ المهدي»[2] على تقدير صحَّته لا يدلُّ على وجودهم اليومَ على تلك الحالة ـ وأنَّه عليه الصلاة والسلام على القول بعموم الخِطاب ليس من الأفراد المعيَّنة به؛ لأنَّه ﷺ اطَّلع على ما هو أعظمُ منهم من ملكوت السماوات والأرض، ومَن جعله ﷺ معيَّناً قال: المراد: لو اطَّلعتَ عليهم لولَّيت منهم فراراً ولَملئت منهم رُعباً بحكم جَري العادةِ والطبيعة البشرية، وعدمُ ترتُّب الجزاءِ على اطّلاعه ﷺ على ما هو أعظمُ منهم أمرٌ خارقٌ للعادة، ومنوطٌ بقوَّةٍ مَلَكية، بل بما هو فوقَها، أو المراد: لو اطَّلعتَ عليهم بنفسك من غير أن نُطلعَك عليهم لولَّيتَ منهم فراراً. . . إلخ، واطّلاعه عليه الصلاة والسلام على ما اطَّلع عليه كان بإطلاع اللهِ عزَّ وجلَّ إياه، وفرقٌ بين الاطّلاعين.

يُحكَى أنَّ موسى عليه السلام وَجِعه بطنُه، فشكى إلى ربِّه سبحانه، فقال له: اذهب إلى نباتٍ كذا في موضعٍ كذا فكُلْ منه، فذهب وأكل، فذهب ما كان يجد، ثم عاوَدَه ذلك بعدَ سنوات، فذهب إلى ذلك النباتِ فأكل منه، فلم ينتفعْ به، فقال: يا ربِّ، أَنت أَعلم، وجعني بطني في سَنَة كذا، فأَمرتَني أن أذهَب إلى نبات كذا، فذهبتُ فأكلت فانتفعت، ثم عاوَدَني ما كنت أَجد، فذهبت إلى ذلك وأكلتُ فلم أنتفع، فقال سبحانه: أَتدري يا موسى ما سببُ ذلك؟ قال: لا ياربِّ، قال: السببُ أنَّك في المرَّة الأولى ذهبت منَّا إلى النبات، وفي المرة الثانيةِ ذهبتَ من نفسك إليه.

وممَّا يُستهجَن من القول ما يُحكَى عن بعض المتصوِّفةِ أنَّه سمع قارئاً يقرأ هذه

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٤، وهو في تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٦ من طريق قتادة عن ابن عباس.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢١٥، وفتح الباري ٦/ ٥٠٣، وسنده ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر.

الآية فقال: لو اطَّلعتُ أنا ما ولَّيت منهم فراراً، وما ملئتُ منهم رُعباً. وما نُقل عن بعضهم من الجواب بأنَّ مرادَ قائلِه إثباتُ مرتبةِ الطفوليةِ لنفسه؛ فإنَّ الطفلَ لا يهاب الحيةَ مثلاً إذا رآها، ولا يفرِّق بينها وبين الحبل، على تقدير تسليمِ أنَّ مرادَه ذلك، لا يَدفع الاستهجان، وذلك نظيرُ قولِ مَن قال: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم الغيبَ، على معنى أنَّه لا غيبَ بالنِّسبة إليه عزَّ وجلَّ ليتعلَّقَ به علمُه، ولَنِعمَ ما قال عمرُ رضي الله عنه: كلِّموا الناسَ بما يفهمون، أتريدون أن يكذَّبَ اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ؟

هذا وقرأ ابنُ عباسٍ والحِرْمِيان وأبو حَيوةَ وابنُ أبي عبلة: «ولَملِّئتَ» بتشديد اللامِ والهمزة. وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ بتشديد اللامِ وقلبِ الهمزة ياءً. وقرأ الزهريُّ بالتخفيف والقلب[1].

وقرأ أبو جعفرٍ وعيسى: «رُعُباً» بضمِّ العين[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم هذه الإنامةَ الطويلة ـ وهي المفهومةُ مما مرّ ـ أيقظناهم، فالمشبَّه الإيقاظ، والمشبَّه به الإنامة المشارُ إليها، ووجهُ الشَّبه كونُ كلٍّ منهما آيةً دالَّة على كمال قدرتِه الباهرةِ عزَّ وجلّ.

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسألَ بعضُهم بعضاً، فيترتَّب عليه ما فُصِّل من الحِكَم البالغة، وجَعْلُه علَّةً للبعث المعلَّلِ بما سبق فيما سبق قيل: من حيث إنَّه من أحكامه المترتِّبةِ عليه، والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثارِه. وجعل غيرُ واحدٍ اللامَ للعاقبة، واستظهره الخَفَاجي[3]، وادَّعى أنَّ مَن فعل ذلك لاحظَ أنَّ الغرضَ من فعله تعالى شأنُه إظهارُ كمالِ قدرته، لا ما ذُكر من التساؤل، فتأمَّل.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ لبيان تساؤلهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قيل: هو كبيرُهم مكسلمينا، وقيل: صاحبُ نفقتِهم يمليخا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم يوماً أقمتم نائمين، وكأنَّه قال ذلك لِمَا رأى من مخالفة حالِهم لِمَا هو المعتادُ في الجملة. وقيل: راعَهُم ما فاتهم من الصلاةِ فقالوا ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٠، وقراءة الحرميين في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة أبي جعفر في النشر.

(٢) البحر ٦/ ١١٠، وهي قراءة ابن عامر والكسائي ويعقوب. التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) في حاشيته ٦/ ٨٤.

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضُهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ «أو» للشكِّ كما قاله غيرُ واحد، والمراد: لم نتحقَّق مقدارَ لَبثنا، أي: لا ندري أنَّ مدةَ ذلك هل هي مقدارُ مدةِ يومٍ أو مقدارُ مدَّة بعضٍ منه. والظاهرُ أنَّهم قالوا ذلك لأنَّ لُوثةَ النومِ لم تذهب من بصرهم وبصيرتِهم، فلم ينظروا إلى الأمارات، وهذا مما لا غبارَ عليه، سواءٌ كان نومُهم وانتباهُهم جميعاً أو أحدُهما في النهار، أم لا.

والمشهورُ أنَّ نومَهم كان غُدوةً وانتباهُهم كان آخرَ النهار، فلم يدروا أنَّ انتباهَهم في اليوم الذي ناموا فيه أم في اليوم الذي بعده، فقالوا ما قالوا.

واعتُرض بأنَّ ذلك يقتضي أن يكونَ التردُّد في بعض يومٍ ويومٍ وبعض، ومن هنا قيل: إنَّ «أو» للإضراب، وذلك أنَّهم لمَّا انتبهوا آخرَ النهارِ وكانوا في جوف الغارِ ولُوثةُ النومِ لم تفارقْهم بعد، قالوا قبلَ النظر: «لبثنا يوماً» ثم لمَّا حقَّقوا أنَّ الشمسَ لم تغرب بعد، قالوا: «أو بعض يوم».

وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ أنَّها للشك، والاعتراضُ مندفعٌ بإرادة ما سمعتَ منه، نعم هو في ذلك مجاز.

وحكى أبو حيَّان[1] أنَّها للتفصيل، على معنى: قال بعضُهم: لبثنا يوماً، وقال آخَرون: لبثنا بعضَ يوم، وقولُ كلٍّ مبنيٌّ على غالب الظنِّ على ما قيل، فلا يكون كذباً.

ولا يخفَى أنَّ القولَ بأنَّها للتفصيل ممَّا لا يكاد يذهب إليه الذِّهن، ولا حاجةَ إلى بناء الأمرِ على غالب الظنِّ لنفي أن يكونَ كذباً، بناءً على ما ذكرنا من أنَّ المرادَ: لم نتحقَّق مقدارَه، كما ذكره أهلُ المعاني في قول النبيِّ ﷺ - وقد سلَّم سهواً من صلاةٍ رُباعيةٍ فقال له ذو اليدين: أَقَصُرَتْ الصلاةُ أم نسيتَ يا رسولَ الله؟ -: «كلُّ ذلك لم يكن»[2].

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضٌ آخَرُ منهم، استدلالاً أو إلهاماً: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) في البحر ٦/ ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. ولفظ البخاري: «لم أنسَ ولم تقصر».

﴿لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدَّةَ لَبثكم، وإنَّما يعلمها اللهُ سبحانه، وهذا ردٌّ منهم على الأوَّلين على أحسنِ ما يكون من مراعاة حُسنِ الأدب، وبه ـ كما قيل ـ يتحقَّق التحزُّب إلى الحِزبين المعهودَين فيما سبق.

وقيل: قائلُ القولين متَّحد، لكن الحالةَ مختلفة.

وتعقِّب بأنَّه لا يساعده النظمُ الكريم؛ فإنَّ الاستئنافَ في الحكاية والخطابَ في المحكيِّ يقضي بأنَّ الكلامَ جارٍ على منهاج المحاورةِ والمجاوبة، وإلَّا لقيل: ثم قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

﴿فَابْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾ أي: واحداً منكم، ولم يقل: واحدَكم؛ لإيهامه إرادةَ سيِّدكم، فكثيراً ما يقال: جاء واحدُ القوم، ويراد سيِّدُهم.

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: بدراهمكم المضروبة، كما هو مشهورٌ بين اللغويين، وقيل: الوَرِق: الفضةُ مضروبةً أو غيرَ مضروبة، واستُدلَّ عليه بما وقع في حديث عَرْفَجةَ أنَّه لما قُطِع أنفُه اتَّخذ أنفاً من وَرِق، فأنتن، فاتَّخذ أنفاً من ذهب[1]. فإنَّ الظاهرَ أنَّه أطلق فيه الوَرِق على غير المضروبِ من الفضَّة. وقولُ الأصمعيِّ ـ كما حكى عنه القُتيبي ـ: الوَرَق في الحديث بفتح الرَّاء، والمرادُ به الوَرَقُ الذي يُكتب فيه؛ لأنَّ الفضةَ لا تُنتن = لا يعوَّل عليه، والنَّتْنُ الذي ذكره لا صحَّة له.

وقرأ أبو عَمرو، وحمزة، وأبو بكر، والحسن، والأعمش، واليزيديّ، ويعقوبُ في رواية، وخَلَف، وأبو عُبَيد، وابنُ سعدان: «بِوَرْقِكم» بإسكان الراء[2].

وقرأ أبو رجاءٍ بكسر الواو وإسكانِ الراءِ وإدغام القافِ في الكاف. وكذا إسماعيلُ عن ابن مُحَيصن، وعنه أيضاً أنَّه قرأ كذلك إلَّا أنَّه كسر الراء[3]، لئلَّا يلزمَ التقاءُ الساكنين على غير حدِّه كما في الرِّواية الأخرى، وبهذا اعتُرض عليها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٦٩)، وأبو داود (٤٢٣٢)، والترمذي (١٧٧٠) ـ وحسَّنه ـ من حديث عرفجة بن أسعد رضي الله عنه.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١١٠، وقراءة أبي عمرو وحمزة وأبي بكر في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة يعقوب وخلف في النشر.

(٣) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٦/ ١١٠-١١١.

وأُجيب بأنَّ ذلك جائزٌ وواقعٌ في كلام العرب، لكن على شذوذ. وقد قُرئ: «نِعْمَّا» بسكون العينِ والإدغام[١]، وما قيل: إنَّه لا يمكن التلفُّظ به، قيل عليه: إنَّه سهو.

وحكى الزجَّاج أنَّه قُرئ بكسر الواوِ وسكونِ الراءِ من غير إدغام[٢].

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: «بوارقكم» على وزن فاعل، جعله اسمَ جمع، كباقر وحامل.

ووصفُ الوَرِق بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ يُشعر بأنَّ القائلَ أحضرها ليناولَها بعضَ أصحابه، وإشعارُه بأنَّه ناولها إيَّاه بعيد، وفي حملهم لها دليلٌ على أنَّ التأهُّب لأسباب المعاشِ لمن خرج من منزله بحمل النفقةِ ونحوِها لا ينافي التوكُّلَ على الله تعالى، كما في الحديث: «اِعقِلها وتوكَّل»[٣] نعم قال بعضُ الأجِلَّة: إنَّ توكُّل الخواصِّ تركُ الأسبابِ بالكلِّية، ومن ذلك ما رُوي عن خالد بنِ الوليد من شُرب السُّمّ، ومشي سعدِ بن أبي وقَّاص وأبي مسلم الخَولانيِّ بالجيوش على متنِ البحر، ودخولِ تميمٍ في الغار التي خرجت منه نارُ الحرَّة ليردَّها بأمر عمرَ ﵁[٤].

وقد نصَّ الإمامُ أحمدُ وإسحاقُ وغيرُهما من الأئمَّة على جواز دخولِ المفاوزِ بغير زاد، وتركِ التكسُّب والتطبُّبِ لمن قَوِي يقينُه وتوكُّله، وفسَّر الإمامُ أحمدُ التوكُّلَ بقطع الاستشرافِ باليأس من المخلوقين، واستدلَّ عليه بقول إبراهيمَ عليه السلام حين عرض له جبريلُ عليه السلام يوم أُلقي في النار وقال له: ألكَ حاجة؟: أمَّا إليك فلا[٥].

وليس طرحُ الأسبابِ سبيلَ توكُّلِ الخواصِّ عند الصوفيةِ فقط كما يُشعر به كلامُ بعضِ الفضلاء، بل جاءَ عن غيرهم أيضاً.

(١) التيسير ص٨٤، والنشر ٢/ ٢٣٥-٢٣٦.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١١١، وكذا ما بعده.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس ﵁، وسلف ٥/ ٩٨، و١٢/ ٤١٤.
(٤) قصة خالد أخرجها أحمد في فضائل الصحابة (١٤٧٨) و(١٤٨١)، وقصة سعد ذكرها الطبري في تاريخه ٤/ ٩، وقصة أبي مسلم أخرجها البيهقي في الدلائل ٦/ ٥٤ وصحح إسنادها، وقصة تميم أخرجها بحشل في تاريخ واسط ص ٢٣١، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٨٠.
(٥) طبقات الحنابلة ١/ ٣٧٢، وجامع العلوم والحكم ص ٤١٢-٤١٣ (طبعة دار المعرفة).

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المعهودة، وهي المدينةُ التي خرجوا منها، قيل: وتسمَّى الآن طرسوس، وكان اسمُها يومَ خرجوا منها أفسوس، وبهذا يجمع بين الرِّوايتين السابقتين، وكان هذا القولُ صدر منهم إعراضاً عن التعمُّق في البحث، وإقبالاً على ما يهمُّهم بحسب الحالِ كما ينبئُ عنه الفاء.

وذكر بعضُهم أنَّ ذلك من باب الأُسلوبِ الحكيم، كقوله:

أَتَت تشتكي عندي مزاولةَ القِرَى وقد رأتِ الضِّيفانَ يَنحونَ منزلي
فقلت كأني ما سمعتُ كلامَها هم الضيفُ جِدِّي في قِراهم وعجِّلي[1]

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أَحلُّ؛ فإنَّ أهلَ المدينةِ كانوا في عهدهم يذبحون للطواغيت، كما روى سعيدُ بن منصورٍ وغيرُه عن ابنِ عباس. وفي روايةٍ أخرى أنَّهم كانوا يذبحون الخنازير. وقال الضحَّاك: إنَّ أكثرَ أموالهِم كانت مغصوبة.

فأزكَى من الزكاة، وأصلُها النموُّ والزيادة، وهي تكون معنويةً أخروية، وحسِّيةً دنيوية، وأُريد بها الأولى؛ لما في توخِّي الحلالِ من الثواب وحُسنِ العاقبة.

وقال ابنُ السائبِ ومقاتل: أي: أَطيب. فإنْ كان بمعنى أحلّ ـ لأنَّه يُطلَق عليه ـ رجع إلى الأوَّل، وإنْ كان بمعناه المتبادر، فالزيادةُ قيل: حِسِّيةٌ دنيوية.

وقال عِكرمة: أي: أكثر. وقال يمان بنُ ريَّان[2]: أي: أَرخص. وقال قتادة: أي: أَجود. وهو أَجود. وعليه وكذا على سابقَيه ـ على ما قيل ـ تكونُ الزيادةُ حِسِّيةً دنيويةً أيضاً.

وزعم بعضُهم أنَّهم عَنَوا بالأزكى الأَرُزّ. وقيل: التمر. وقيل: الزَّبيب. وحُسنُ الظنِّ بالفتية يقتضي أنَّهم تحرَّوا الحلال.

والنظرُ يحتمل أن يكونَ من نظر القلب، وأن يكونَ من نظر العين، و«أي» استفهامٌ مبتدأ، و«أزكى» خبرُه، والجملةُ معلَّق عنها الفعلُ للاستفهام.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص٧٦ دون نسبة.

(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر ٦/ ١١١، ولعل الصواب: يمان بن رئاب. ينظر البحر ١/ ٢١ و٤/ ٣٥٣، والميزان ٤/ ٤٦٠.

وجوِّز أن تكونَ «أي» موصولاً مبنيًّا مفعولاً لـ «ينظر»، و«أزكى» خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو صدرُ الصلة.

وضميرُ «أيها» إمَّا للمدينة، والكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: أيُّ أهلِها، وإمَّا للمدينة مراداً بها أهلُها مجازاً، وفي الكلام استخدامٌ ولا حذف، وإمَّا لِمَا يُفهَم من سياق الكلام، كأنَّه قيل: فلْينظرْ أيُّ الأطعمةِ أو المَآكلِ أزكى طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك الأزكَى طعاماً، فـ «من» لابتداء الغاية، أو التبعيض.

وقيل: الضميرُ للوَرِق، فتكون «مِن» للبدل.

ثم إنَّ الفتيةَ إنْ لم يكن تحرَّوا الحلالَ سابقاً، فليكن مرادُهم بالرِّزق هنا الحلالَ وإنْ لم يكن مختصًّا به عندنا.

واستُدلَّ بالآية ـ وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى ما يُعلَم منه ما فيه ـ على صحَّة الوكالةِ والنِّيابة. قال ابنُ العربي(١): وهي أقوى آيةٍ في ذلك، وفيها ـ كما قال الكيا(٢) ـ دليلٌ على جواز خلطِ دراهم الجماعة والشراءِ بها، والأكلِ من الطعام الذي بينهم بالشَّركة وإنْ تفاوتوا في الأكل، نعم لا بأسَ للأكول أن يزيدَ حصَّتَه من الدراهم.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وليتكلَّف اللطفَ في المعاملة؛ كيلا تقعَ خصومةٌ تجرُّ إلى معرفته. أو: ليتكلَّف اللطفَ في الاستخفاءِ دخولاً وخروجاً.

وقيل: ليتكلَّف ذلك كي لا يُغبَن، فيكون قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ ـ أي: لا يفعلنَّ ما يؤدِّي إلى شعور أحدٍ من أهل المدينة بكم ـ تأسيساً على هذا، وهو على الأوَّلَين تأكيدٌ للأمر بالتلطُّف وتفسيرُه بما ذُكر من باب الكناية، نحو: لا أرينَّك هاهنا، وفسَّره الإمام(٣) بـ: لا يُخبِرَنَّ بكم أحداً، فهو على ظاهره.

وقرأ الحسن: «وليتلطَّفْ» بكسر لامِ الأمر. وعن قتيبة الميَّال: «وليُتَلَطَّفْ» بضمِّ

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢١٦.
(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٢٦٥.
(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ١٠٣.

الياءِ مبنيًّا للمفعول. وقرأ هو وأبو صالحٍ ويزيدُ بن القعقاع: «ولا يَشعُرن بكم أحدٌ» ببناءِ الفعلِ للفاعل ورفعِ «أحد» على أنَّه الفاعل[1].

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليلٌ لما سبق من الأمر والنَّهي، والضميرُ للأهل المقدَّر في «أيُّها»، أو للكفَّار الذي دلَّ عليه المعنى، على ما اختاره أبو حيَّان، وجوَّز أن يعودَ على «أحد» لأنَّه عامّ، فيجوز أن يُجمعَ ضميرُه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧][2].

﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطَّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، أو: يظفروا بكم، وأصلُ معنى ظَهَرَ: صار على ظهر الأرض. ولمَّا كان ما عليها يشاهَد ويتمكَّن منه، استُعمل تارةً في الاطِّلاع، وتارةً في الظَّفَر والغَلَبة، وعُدِّي بـ «على».

وقرأ زيدُ بن عليّ: «يُظهَروا» بضمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعول[3].

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ إنْ لم تفعلوا ما يريدونه منكم وثبتُّم على ما أنتم عليه. والظاهرُ أنَّ المرادَ القتلُ بالرَّجم بالحجارة، وكان ذلك عادةً فيما سلف فيمَن خالف في أمرٍ عظيم؛ إذ هو أشفَى للقلوب، وللناس فيه مشاركة. وقال الحجَّاج[4]: المرادُ الرجم بالقول، أي: السَّبّ، وهو للنفوس الأبيةِ أعظمُ من القتل.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يصيِّروكم إليها ويُدخلوكم فيها مكرَهين، والعودُ في الشيءِ بهذا المعنى لا يقتضي التلبُّسَ به قبل. ورُوي هذا عن ابن جُبَير.

وقيل: العَودُ على ظاهره، وهو رجوعُ الشخصِ إلى ما كان عليه، وقد كان الفتيةُ على مِلَّة قومِهم أوَّلاً.

وإيثارُ كلمةِ «في» على كلمة إلى، قال بعضُ المحقِّقين: للدَّلالة على الاستقرار الذي هو أشدُّ كراهة، وتقديمُ احتمالِ الرَّجم على احتمال الإِعادة؛ لأنَّ الظاهرَ من حالهم هو الثباتُ على الدِّين المؤدِّي إليه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١١، وقتيبة هو ابن مهران الأزاذاني صاحب الإمالات المنكرة، صحب الكسائيَّ وغيره. معرفة القراء الكبار ١/ ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١١١.

(٤) لعله حجاج بن محمد المصِّيصي، فقد أخرجه الطبري ١٥/ ٢١٥ من طريقه عن ابن جريج.

وضميرُ الخطابِ في المواضع الأربعةِ للمبالغة في حمل المبعوثِ على ما أُريد منه، والباقين على الاهتمامِ بالتوصية؛ فإنَّ إِمحاضَ النصحِ أَدخلُ في القَبول، واهتمامَ الإِنسان بشأن نفسِه أكثرُ وأوفر.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: إنْ دخلتم فيها حقيقةً ولو بالكُره والإِلجاء، لن تفوزوا بخير، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة. ووجهُ الارتباطِ على هذا أنَّ الإكراهَ على الكفر قد يكون سبباً لاستدراج الشيطانِ إلى استحسانه والاستمرارِ عليه، وبما ذُكر سقط ما قيل: إنَّ إظهارَ الكفرِ بالإِكراه مع إبطان الإِيمان معفوٌّ في جميع الأَزمان، فكيف رتِّب عليه عدمُ الفلاحِ أبداً؟ ولا حاجةَ إلى القول بأنَّ إظهارَ الكفرِ مطلقاً كان غيرَ جائزٍ عندهم، ولا إلى حملِ «يعيدوكم في ملتهم» على: يميلوكم إليها بالإِكراه وغيرِه، فتدبَّر.

ثم إنَّ الفتيةَ بعثوا أحدَهم وكان ـ على ما قال غيرُ واحد ـ يمليخا، فكان ما أَشار اللهُ تعالى إليه بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أَنمناهم وبعثناهم، فالإِشارةُ إلى الإِنامة والبعث، والإِفرادُ باعتبار ما ذُكر ونحوِه. وقال العزُّ بن عبدِ السلام في «أماليه»: الإِشارةُ إلى البعث المخصوص، وهو البعثُ بعد تلك الإِنامةِ الطويلة.

وأصلُ العثور ـ كما قال الراغب[1] ـ السقوطُ للوجه، يقال: عثر عُثوراً وعِثاراً: إذا سقط لوجهه، وعلى ذلك قولُهم في المَثَل: الجوَادُ لا يكاد يعثر، وقولُهم: مَن سلك الجَدَدَ أَمِنَ العِثار، ثم تجوَّز به في الاطِّلاع على أمرٍ من غير طلبِه.

وقال الإمام المطرِّزي: لمَّا كان كلُّ عاثرٍ ينظر إلى موضع عَثرته، وَرَدَ العثورُ بمعنى الاطِّلاع والعِرفان[2]، فهو في ذلك مجازٌ مشهورٌ بعلاقة السببية، وإنْ أوهم ذِكر اللغويين له أنَّه حقيقةٌ في ذلك، وجعله الغوريُّ حقيقةً في الاطِّلاع على أمرٍ كان خفيًّا، وأمرُ التجوُّز على حاله.

---

(١) في المفردات (عثر).

(٢) انظر المُغْرِب (عثر) ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٦/٨٦.

ومفعولُ «أعثرنا» الأوَّلُ محذوفٌ لقصد العموم، أي: وكذلك أطلعنا الناسَ عليهم. وقال أبو حيَّان[1]: أهلَ مدينتِهم.

﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أَطلعناهم عليهم بما عاينوا من أَحوالهم العجيبةِ ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه سبحانه وتعالى بالبعث، على أنَّ الوعدَ بمعناه المصدريّ، ومتعلَّقه مقدَّر. أو موعودَه تعالى شأنُه الذي هو البعث، على أنَّ المصدرَ مؤوَّل باسم المفعول، والمراد: موعودَه المعهود، ويجوز أن يرادَ كلُّ وعدِه تعالى، أو كلُّ موعودِه سبحانه، ويدخل في ذلك ما ذُكر دخولاً أوليًّا.

﴿حَقّٞ﴾ صادقٌ لا خُلفَ فيه، أو ثابتٌ متحقِّق سيقع ولا بدّ، قيل: لأنَّ نومَهم الطويلَ المخالفَ للمعتاد وانتباهَهم كالموت والبعث.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ التي هي في لسان الشرعِ عبارةٌ عن وقت بعثِ الخلائقِ جميعاً للحساب والجزاءِ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ أي: ينبغي ألَّا يرتابَ الآن في إمكان وقوعِها؛ لأنَّه لا يبقَى بيد المرتابين في ذلك بعدَ النظرِ والبحثِ سوى الاستنادِ إلى الاستبعاد، وعلمُهم بوقوع ذلك الأمرِ الغريبِ والحال العجيبِ الذي لو سمعوه ولم يتحقَّقوا وقوعَه لَاستبعدوه وارتابوا فيه ارتيابَهم في ذلك، يكسرُ شوكةَ ذلك الاستبعاد، ويَهدمُ ذلك الاستناد، فينبغي حينئذٍ ألَّا يرتابوا.

وقال بعضُ المحقِّقين في توجيه ترتُّب العلمِ بما ذُكر على الاطِّلاع: إنَّ مَن شاهد أنَّه جلَّ وعلا توفَّى نفوسَهم وأَمسكها ثلاثَ مئة سنةٍ وأكثر، حافظاً أبدانَها من التحلُّل والتفتُّت، ثم أَرسلها إليها، لا يبقَى معه شائبةُ شكٍّ في أنَّ وعدَه تعالى حقّ، وأنَّه تعالى يبعث مَن في القبور، فيردُّ عليهم أرواحَهم، فيحاسبهم ويجازيهم بحسَب أعمالِهم. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ في استفادة العلمِ بالمحاسبة والمجازاةِ من الاطِّلاع على حال القومِ نظراً.

واعتُرض بأنَّ المطلوبَ في البعث إعادةُ الأبدانِ بعد تفرُّق أجزائها، وما في القصَّة طولُ حفظِ الأبدان، وأين هذا مِن ذاك؟ والقولُ بأنَّه متى صحَّ طولُ حفظِ

(١) في البحر ٦/ ١١٢.

الأَبدان المحتاجةِ إلى الطَّعام والشَّراب، صحَّ قدرتُه سبحانه على إعادتها[١] بعد تفرُّق أجزائها بطريق الأَوْلى = غيرُ مسلَّم.

وأُجيب بأنَّ طولَ الحفظِ المذكورِ يدلُّ على قدرته تعالى على ما ذُكر بطريق الحدسِ، فليُتدبَّر.

ولعل الأَظهرَ توجيهُ الترتُّب بما ذكره أوَّلاً، وتوضيحُه: أنَّ حالَ الفتيةِ حيث ناموا في تلك المدَّةِ المديدة، والسنينَ العديدة، وحُبست عن التصرُّف نفوسُهم، وتعطَّلت مشاعرُهم وحواسُّهم، من غير تصاعدِ أبخرةِ شرابٍ وطعام، أو نزولِ عللٍ وأسقام، وحُفظت أبدانُهم عن التحلُّل والتفتُّت، وأُبقيت على ما كانت عليه من الطَّراوة والشبابِ في سالف الأعوام، حتى رجعت الحواسُّ والمشاعرُ إلى حالها، وأُطلقت النفوسُ من عِقالها، وأُرسلت إلى تدبير أبدانِها، والتصرُّفِ في خدَّامها وأَعوانها، فرأت الأمرَ كما كان، والأعوانَ هم الأعوان، ولم تُنكر شيئاً عهدته في مدينتها، ولم تتذكَّر طولَ حبسِها عن التصرُّف في سرير سلطنِتها، وحالَ الذين يقومون من قبورهم، بعدما تعطَّلت مشاعرُهم وحُبِست نفوسُهم، ثم لمَّا أُطلقت وجدت ربوعاً عامرة، ومنازلَ كأنَّها لم تكن دائرة، قائلين قبل أن يكشّرَ عن أنيابه العَنا: مَن بعثنا مِن مرقدنا = في الغرابة[٢] من صُقعٍ واحد، ولا ينكر ذلك إلَّا جاهلٌ أو معاند، ووقوعُ الأوَّلِ يزيل الارتيابَ في إمكان وقوعِ الثاني، حيث كان مستنداً إلى الاستبعاد في الحقيقة كما سمعتَ فيما قبلُ لبطلان أدلَّةِ النافين للحشر الجسمانيّ.

نعم في ترتُّب العلمِ بأنَّ البعثَ سيقع لا محالةَ على نفس الاطِّلاع على حال الفتيةِ خفاء؛ فإنَّ الظاهرَ أنَّ العلمَ المذكورَ إنما يترتَّب على إخبار الصادقِ بوقوعه وعلى إمكانه في نفسه، لكن لمَّا كان الاطلاعُ المذكورُ سبباً للعلم بالإمكان، وكان كالجزءِ الأخير من العِلَّة بالنسبة للكفَّار الذين بلغهم خبرُ الصادق، قيل بترتُّب العلمِ بذلك عليه، وكذا في ترتُّب العلمِ بأنَّ كلَّ ما وعده الله تعالى حقٌّ على نفس الاطِّلاع خفاء. ولم أرَ مَن تعرَّض لتوجيهه من الفضلاء، فتأمَّل.

---

(١) في (م): إعادتهما.

(٢) خبر لقوله: أن حال الفتية...

ثم لا يخفى أنَّ ذِكرَ قولِه تعالى: (وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ) بعد قولِه سبحانه: (أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) على التفسير الذي سمعتَ مما لا غبارَ عليه، وليس ذلك من ذِكر الإمكانِ بعد الوقوعِ ليلغوَ كما زعمه مَن زعمه.

وقال بعضُهم: إنَّ الظاهرَ أنَّ يفسَّر قولُه تعالى: (أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) بأنَّ كلَّ ما وعده سبحانه متحقِّق، ويُجعلَ قولُه تعالى: (وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ) تخصيصاً بعد تعميم، على معنى: لا ريبَ في تحقُّقها، وهو وجهٌ في الآية، إلَّا أنَّ في دعوى الظهورِ مقالاً، فلا تغفُل.

﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لـ «أعثرنا عليهم»؛ قدَّم عليه الغايةُ إظهاراً لكمال العنايةِ بذِكرها. وجوَّز أبو حيَّان وأبو البقاءِ[1] وغيرُهما كونَه ظرفاً لـ «يعلموا». وتعقِّب بأنه يدلُّ على أنَّ التنازعَ يحدث بعد الإعثار، مع أنَّه ليس كذلك، وبأنَّ التنازعَ كان قبلَ العلمِ وارتفع به، فكيف يكون وقتُه وقتَه؟ وللمناقشة في ذلك مجال. وجوِّز أن يكونَ ظرفاً لـ «حَق»، أو لـ «وعد». وهو كما ترى.

وأصلُ التنازعِ التجاذبُ، ويعبَّر به عن التخاصُم، وهو باعتبار أصلِ معناه يتعدَّى بنفسه، وباعتبار التخاصمِ يتعدَّى بـ «في»، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [النساء: ٥٩].

وضميرُ (يَتَنَـٰزَعُونَ) لِمَا عاد عليه ضميرُ «ليعلموا» أي: وكذلك أعثرنا على أصحاب الكهفِ الناسَ - أو أهلَ مدينتِهم - حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ويتخاصمون فيه؛ ليرتفعَ الخلافُ ويتبيَّن الحقّ. وضميرُ «أمرهم» قيل: عائدٌ أيضاً على مفعول «أعثرنا».

والمرادُ بالأمر البعث، ومعنى إضافتِه إليهم اهتمامُهم بشأنه، والوقوفُ على حقيقة حالِه. وقد اختلفوا فيه، فمن مُقرٌّ به وجاحد، وقائلٍ يقول: تُبعث الأَرواحُ دون الأَجساد، وآخَر يقول ببعثهما معاً، كما هو المذهبُ الحقُّ عند المسلمين.

رُوي أنَّه بعد أن ضرب اللهُ تعالى على آذان الفتيةِ ومضى دهرٌ طويل، لم يبقَ أحدٌ من أمَّتهم الذين اعتزلوهم، وجاء غيرُهم، وكان مَلِكُهم مسلماً، فاختلف أهلُ

---

(١) البحر ٦/ ١١٢-١١٣، والإملاء ٣/ ٥١٠.

مملكتِه في أمر البعثِ حَسبما فصَّل، فشقَّ ذلك على الملك، فانطلق فلبس المُسوحَ وجلس على الرَّماد، ثم دعا اللهَ عزَّ وجلَّ فقال: أيْ ربِّ، قد ترى اختلافَ هؤلاء، فابعثْ لهم آيةً تبيِّن لهم، فقيَّض اللهُ تعالى راعيَ غنمٍ أدركه المطر، فلم يزل يعالج ما سدَّ به دقيانوس بابَ الكهف، حتى فتحه وأدخل غنمَه، فلمَّا كان الغدُ بُعثوا من نومهم، فبَعثوا أحدَهم ليشتريَ لهم طعاماً، فدخل السُّوق، فجعل يُنكر الوجوهَ ويعرف الطُّرق، ورأى الإيمانَ ظاهراً بالمدينة، فانطلق وهو مستخفٍ حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً، فلمَّا نظر الوَرِق أنكرها، حيث كانت من ضربِ دقيانوس كأنَّها أَخفافُ الرُّبَعِ[1]، فاتَّهمه بكنزٍ وقال: لَتدلَّني عليه أو لأَرفعنَّك إلى الملك، فقال: هي مِن ضرب الملك، أَليس ملكُكم فلاناً؟ فقال الرجل: لا بل ملكُنا فلان، وكان اسمُه يندوسيس، فاجتمع الناسُ وذهبوا به إلى الملكِ وهو خائف، فسأله عن شأنه، فقصَّ عليه القِصّة، وكان قد سمع أنَّ فتيةً خرجوا على عهدِ دقيانوس، فدعا مشيخةَ أهلِ مدينته، وكان رجلٌ منهم عنده أَسماؤهم وأنسابُهم، فسأله فأَخبره بذلك، وسأل الفتى فقال: صَدَق، ثم قال الملك: أَيُّها الناس، هذه آيةٌ بعثها اللهُ تعالى لكم، ثم خرج هو وأهلُ المدينةِ ومعهم الفتى، فلمَّا رأى الملكُ الفتية، اعتنقهم وفَرِحَ بهم، ورآهم جلوساً مشرقةً وجوهُهم لم تَبلَ ثيابُهم، فتكلَّموا معه وأَخبروه بما لقُوا من دقيانوس، فبينما هم بين يديه قالوا له: نستودعُك اللهَ تعالى، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ تعالى، حفظك اللهُ تعالى وحفظ ملكَك، ونعيذُك بالله تعالى من شرِّ الإنس والجِنّ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فتوفَّاهم اللهُ تعالى، فقام الملكُ إليهم وجعل ثيابَه عليهم، وأمر أن يُجعلَ كلٌّ منهم في تابوتٍ من ذهب، فلمَّا كان الليلُ ونام، أَتوه في المنام فقالوا: أردتَ أن تجعلَ كلًّا منَّا في تابوتٍ من ذهب، فلا تفعلْ، ودعْنا في كهفنا، فمن التراب خُلقنا وإليه نعود، فجعلهم في توابيتَ من ساجٍ وبنَى على باب الكهفِ مسجداً.

ويُروى أنَّ الفتى لمَّا أُتي به إلى الملك قال: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل هذه المدينة، وذكر أنَّه خرج أمسِ أو منذ أيَّام، وذكر منزلَه وأقواماً لم يعرفْهم أحد، وكان الملكُ قد سمع أنَّ فتيةً قد فُقدوا في الزمان الأوَّل، وأن أَسماءهم مكتوبةٌ على

(١) يعني الإبل الصغار. تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٥، وتفسير الطبري ١٥/ ١٩٨.

لوحٍ في الخزانة، فدعا باللَّوح ونظر في أسمائهم، فإذا هو من أولئك القوم، فقال الفتى: وهؤلاء أصحابي، فركب القومُ ومَن معه، فلمَّا أتَوا بابَ الكهفِ قال الفتى: دعوني حتى أدخلَ على أصحابي فأبشِّرَهم؛ فإنَّهم إذا رأوكم معي رُعبوا، فدخل فبشَّرهم، وقبض اللهُ تعالى أرواحَهم، وعُمِّي على الملك ومَن معه أَثرُهم، فلم يهتدوا إليهم، فبنَوا عليهم مسجداً، وكان وقوفُهم على حالهم بإخبار الفتى وقد اعتمدوا صِدقَه. وهذا هو المرادُ بالإعثار عليهم. ورُوي غيرُ ذلك.

وقيل: ضميرُ «أمرهم» للفتية، والمرادُ بالأمر الشأنُ والحالُ الذي كان قبل الإعثار، أي: وكذلك أعثرنا الناسَ على أصحاب الكهفِ حين تذاكُرِهم بينهم أمرَهم، وما جرى لهم في عهد الملكِ الجبَّار من الأحوال والأهوال، ولعلهم قد تلقَّوا ذلك من الأساطير وأفواهِ الرِّجال، لكنَّهم لم يعرفوا هل بقُوا أحياءً أم حلَّ بهم الفَناء؟

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ﴾ بناءً على القول الأوَّل فصيحةٌ بلا ريب، على دأب اختصارات القرآن، كأنَّه قيل: وكذلك أعثرنا الناسَ على أصحاب الكهفِ حين تنازُعِهم في أمر البعث، فتحقَّقوا ذلك وعلموا أنَّ هؤلاء آيةٌ من آياتنا، فتوفَّاهم اللهُ تعالى بعد أنْ حصل الغرضُ من الإعثار، فقالوا: ابنوا... إلى آخره.

وكذلك على القولِ الثاني، كأنَّه قيل: وكذلك أعثرنا الناسَ على أصحاب الكهفِ حين تذاكُرِهم أمرَهم وما جرى لهم في عهد الملكِ الجبَّار ولم يكونوا عارفين بما هم عليه، فوقفوا من أحوالهم على ما وقفوا، واتَّضح لهم ما كانوا قد جهلوا، فتوفَّاهم اللهُ تعالى بعد أن حصل الغرضُ من الإعثار، فقالوا ابنوا.. إلى آخره، أي: قال بعضُهم: ابنوا ﴿عَلَيۡهِم﴾ أي: على باب كهفِهم ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ به.

وهو ـ كما قال الرَّاغب(١) ـ واحدٌ لا جمعَ له، وقال أبو البقاءِ(٢): هو جمعُ بنيانة، كشَعير وشعيرة. وقيل: هو نصبٌ على المصدرية.

---

(١) في المفردات (بني).

(٢) في الإملاء ٣/ ٥١٠.

وهذا القولُ من البعض عند بعضٍ كان عن اعتناءٍ بالفتية، وذلك أنَّهم ضنُّوا بتُربتهم، فطلبوا البناءَ على باب كهفِهم لئلَّا يتطرَّقَ الناسُ إليهم.

وجوَّزوا في قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بعدَ القولِ بأنه اعتراضٌ أن يكونَ من كلام المتنازعين المُعْثَرين، كأنَّهم تذاكروا أمرَهم، وتناقلوا الكلامَ في أنسابهم وأحوالِهم ومدَّة لَبثهم، فلمَّا لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك، فوَّضوا العلمَ إلى الله تعالى علَّامِ الغيوب.

وأن يكونَ من كلامه سبحانه ردًّا للخائضين في أمرهم: إمَّا من المعثَرين، أو ممَّن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب، وحينئذٍ يكون فيه التفاتٌ على أحدِ المذهبين.

وقيل: ضميرُ «أمرهم» للفتية، والمرادُ بالأمر الشأنُ والحالُ الذي كان بعد الإعثار، على أنَّ المعنى: إذ يتنازعون بينهم تدبيرَ أمرِهم وحالهم حين توفُّوا كيف يفعلون بهم، وبماذا يُجِلُّون قدرَهم. أو: إذ يتنازعون بينهم أمرَهم من الموت والحياة، حيث خفي عليهم ذلك بعدَ الإعثار، فلم يدروا هل ماتوا أو ناموا كما في أوَّل مرة.

وعلى هذا تكون «إذ» معمولاً لـ: اذكرْ مضمَراً، أو ظرفاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ ويكون قولُه تعالى: «فقالوا» معطوفاً على «يتنازعون» وإيثارُ صيغةِ الماضي للدَّلالة على أنَّ هذا القولَ ليس مما يستمرُّ ويتجدَّد كالتنازع.

وصرَّح بعضُ الأجِلَّة أنَّ الفاءَ على أوَّل المعنيين للتعقيب، وعلى ثانيهما فصيحة، كأنَّه قيل: اذكر حين يتنازعون في أنَّهم ماتوا أو ناموا، ثم فرغوا من التنازُع في ذلك، واهتمُّوا بإجلال قدرِهم وتشهيرِ أمرهم، فقالوا: ابنوا... إلى آخره.

وذكر الزمخشريُّ[1] احتمالَ كونِ ضميرِ «أمرهم» للمعثَرين، وأنَّ المرادَ من «أمرهم» أمرُ دينهم، وهو البعث، واحتمالَ كونِ الضميرِ للفتية، والمعنى حينئذ: إذ

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٧.

يتذاكر الناسُ بينهم أمرَ أصحابِ الكهف، ويتكلَّمون في قصَّتهم وما أَظهر اللهُ تعالى من الآية فيهم. أو: إذ يتنازعون بينهم تدبيرَ أمرِهم حين توفُّوا كيف يُخفون مكانَهم، وكيف يَسدُّون الطريقَ إليهم، وجَعَلَ «إذ» في الأَوجه ظرفاً لـ «أعثرنا».

وذكر صاحبُ «الكشف» أنَّ الفاءَ على الأوَّل فصيحةٌ لا محالة، وعلى الأخيرَين للتعقيب، أمَّا على الثاني منهما فظاهر، وأمَّا على الأوَّل؛ فلأنَّهم لمَّا تذاكروا قصَّتَهم وحالَهم وما أَظهر اللهُ تعالى من الآية فيهم، قالوا: دعوا ذلك وابنُوا عليهم بنياناً، أي: خذوا فيما هو أهم... إلى آخر ما قال.

واحتمالُ جعلِ الفاءِ فصيحةً على هذا الأوَّل غيرُ بعيد، وتعلُّق الظرفِ بـ «أَعثرنا» على الوجهين الأَخيرين ـ وكذا على ما نقلناه آنفاً ـ ليس بشيء؛ لأنَّ إِعثارهم ليس في وقت التنازُع فيما ذكر، بل قبلَه. وجعلُ وقتِ التنازعِ ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ تعسُّفٌ لا يخفى، مع أنَّه لا مخصِّصَ لإِضافته إلى التنازع، وهو مؤخَّر في الوقوع.

وحكى في «البحر»[1] أنَّ ضميرَ «ليعلموا» عائدٌ على أصحاب الكهف، والمراد: أَعثرنا عليهم ليزدادوا علماً بأنَّ وعدَ اللهِ حقّ... إلى آخره. وجعل ذلك غايةً للإِعثار بواسطة وقوفِهم بسببه على مدَّة لَبثهم بما تحقَّقوه من تبدُّل القرون، وجعل «إذ يتنازعون» على هذا ابتداءَ إخبارٍ عن القوم الذين بُعثوا في عهدهم، وخصَّ الأمر المتنازَع فيه بأمر البناءِ والمسجد، ويُختار حينئذٍ تعلُّقُ الظرفِ باذكر، ولا يخفَى أنَّ جعلَ ذلك الضميرِ للفتية وإنْ دعا لتأويلِ «يعلموا» بما سمعتَ ليس ببعيد الإِرادة من النَّظم الكريمِ إذا قُطع النظرُ عن الأمور الخارجيةِ كالآثار.

ولم يذهب أحدٌ فيما أَعلم إلى احتمال كونِ الضمائرِ في قوله تعالى: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» عائدةً على الفتية، كضمير «يعلموا»، و«إذ» ظرفُ «أعثرنا»، والمرادُ بالأمر المتنازَعِ مقدارُ زمنِ لَبثهم، وتنازُعُهم فيه قولُ بعضِهم: «لبثنا يوماً أو بعض يوم» وقولُ الآخَر ردًّا عليه: «ربكم أعلم بما لبثتم» وحيث لم يتَّضح الحالُ ولم يحصل الإِجماعُ على مقدارٍ معلوم، كان التنازعُ في حكم الباقي، فكان زمانه

---

(١) ٦/ ١١٣.

ممتدًّا، فصحَّ أن يكونَ ظرفاً للإعثار، وضميرُ «فقالوا» للمعثرين، والفاءُ فصيحة، أي: وكذلك أعثرنا الناسَ على الفتية وقتَ تنازعِهم في مدَّة لَبثِهم ليزدادوا علماً بالبعث، فكان ماكان، وصار لهم بين الناسِ شأنٌ أيُّ شأن، فقالوا: ابنوا.. إلى آخره.

وكأنَّ ذلك لما فيه من التكلُّف مع عدم مساعدةِ الآثارِ إياه.

ثم ما ذُكر من احتمال كونِ «ربهم أعلم بهم» من كلامه سبحانه جيءَ به لردِّ المتنازعين من المعثَرين لا يخلو عن بُعد، وأمَّا الاحتمالُ الأخير فبعيدٌ جدًّا، والظاهرُ أنَّه حكايةٌ عن المعثرين، وهو شديدُ الملاءمةِ جدًّا لكون التنازعِ في أمرهم من الموتِ والحياة.

والذي يقتضيه كلامُ كثيرٍ من المفسِّرين أنَّ غرضَ الطائفتين: القائلين: «ابنوا...» إلى آخره، والقائلين: «لنتخذن» إلى آخره تعظيمُهم وإجلالهم.

والمرادُ من الذين غَلبوا على أَمرهم ـ كما أَخرج عبدُ الرزاق وابنُ أبي حاتم عن قتادة ـ الولاة، ويلائمه «لنتخذن» دون اتَّخِذوا بصيغة الطلبِ المعبِّر بها الطائفةُ الأولى، فإنَّ مثلَ هذا الفعلِ تنسبه الولاةُ إلى أنفسها. وضمير «أمرهم» هنا قيل: للموصول المراد به الولاة، ومعنى غَلَبتهم على أَمرهم أَنَّهم إذا أرادوا أمراً لم يتعسَّر عليهم ولم يَحُلْ بينه وبينهم أحد، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وذكر بعضُ الأفاضلِ أنَّ الضميرَ لأَصحاب الكهف، والمرادُ بالذين غَلبوا قيل: الملكُ المسلم، وقيل: أولياءُ أصحابِ الكهف، وقيل: رؤساءُ البلد؛ لأنَّ مَن له الغلبةُ في هذا النِّزاع لا بدَّ أن يكونَ أحدَ هؤلاء، والمذكورُ في القصَّة أنَّ الملكَ جعلَ على باب الكهفِ مسجداً، وجعل له في كلِّ سنةٍ عيداً عظيماً. وعن الزجَّاج[1] أنَّ هذا يدلُّ على أنَّه لمَّا ظهر أمرُهم، غَلَبَ المؤمنون بالبعث؛ لأنَّ المساجدَ إنَّما تكون للمؤمنين به. انتهى.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٧.

ويُبعد الأوَّلَ التعبيرُ بما يدلُّ على الجمع، والثاني ـ إن أُريد من الأولياء الأولياءُ من حيث النَّسبُ كما في قولهم: أولياءُ المقتول ـ أنَّه لم يوجد في أثرٍ أنَّ لأصحاب الكهفِ حين بُعثوا أولياءَ كذلك.

وفسَّر غيرُ واحدٍ الموصولَ بالملك والمسلمين، ولا بُعدَ في إطلاق الأولياءِ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] ويدلُّ هذا على أنَّ الطائفةَ الأولى لم تكن كذلك، وقد رُوي أنَّها كانت كافرة، وأنَّها أرادت بناءَ بِيعةٍ أو مصنعٍ لكفرهم، فمانَعَهم المؤمنون وبنَوا عليهم مسجداً.

وظاهرُ هذا الخبرِ أنَّ المسجدَ مقابلُ البِيعة، وما أخرج ابنُ أبي حاتم عن سعيد بنِ جُبَير من أنَّ الملكَ بنى عليهم بيعةً فكتب في أعلاها: أبناءُ الأراكنة أبناء الدَّهاقين(١) = ظاهرٌ في عدم المقابلة، ولعله الحقّ؛ لأنَّه لا يصحُّ أن يرادَ بالمسجد هنا ما يُطلَق عليه اليومَ من مصلَّى المحمَّديين، بل المرادُ به معبدُ المؤمنين من تلك الأمَّة، وكانوا على ما سمعتَ أوَّلاً نصارى ـ وإن كان في المسألة قولٌ آخَرُ ستسمعه إن شاء اللهُ تعالى قريباً ـ ومعبدُهم يقال له: بِيعة.

وظاهرُ ما تقدَّم أنَّ المسجدَ اتُّخذ لأنْ يَعبدَ اللهَ تعالى فيه مَن شاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدي أنَّ الملكَ قال: لأَتخذنَّ عند هؤلاء القومِ الصالحين مسجداً، فلأَعبدنَّ اللهَ تعالى فيه حتى أموت. وعن الحسن أنه اتُّخذَ ليصلِّيَ فيه أصحابُ الكهفِ إذا استيقظوا، وهذا مبنيٌّ على أنَّهم لم يموتوا، بل ناموا كما ناموا أوَّلاً، وإليه ذهب بعضُهم، بل قيل: إنَّهم لا يموتون حتى يظهرَ المهديُّ ويكونوا من أنصاره، ولا معوَّلَ على ذلك، وهو عندي أشبهُ شيءٍ بالخرافات.

ثم لا يخفى أنَّه على القول بأنَّ الطائفةَ الأولى الطالبةَ لبناء البنيانِ عليهم إذا كانت كافرةً لم تكن غايةُ الإعثار متحقِّقةً في جميع المعثَرين، ولا يتعيَّن كونُ «ربهم أعلم بهم» مُساقاً لتعظيم أمرِ أصحابِ الكهف، ولعل تلك الطائفةَ لم تتحقَّق حالَهم وأنَّهم ناموا تلك المدةَ ثم بُعثوا، فطلبت انطماسَ الكهفِ عليهم، وأَحالت أمرَهم إلى ربِّهم سبحانه، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٧، والأراكنة جمع الأُركون، وهو رئيس القرية ودهقانها العظيم. اللسان (ركن).

وقرأ الحسنُ وعيسى الثقفيُّ: «غُلِبوا» بضمِّ الغينِ وكسرِ اللام[١] على أنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمفعول، ووجِّه ذلك بأنَّ طائفةً من المؤمنين المعثَرين أرادت ألَّا يُبنَى عليهم شيءٌ ولا يُتعرَّضَ لموضعهم، وطائفةً أخرى منهم أرادت البناءَ وألَّا يطمسَ الكهف، فلم يُمكن للطائفة الأُولى منعُها، ووجدت نفسَها مغلوبة، فقالت: إنْ كان بنيانٌ ولا بدَّ فلنتخذنَّ عليهم مسجداً.

هذا واستُدلَّ بالآية على جواز البناءِ على قبور الصُّلحاءِ واتِّخاذِ مسجدٍ عليها، وجوازِ الصلاةِ في ذلك، وممَّن ذكر ذلك الشِّهاب الخفاجيُّ في حواشيه على البيضاويّ[٢]. وهو قولٌ باطلٌ عاطل، فاسدٌ كاسد، فقد روى أحمدُ، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ ماجه[٣]، عن ابن عباس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لعن اللهُ تعالى زائراتِ القبور، والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُج» ومسلم[٤]: «ألَا وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبورَ أنبيائهم مساجد، فإنِّي أنهاكم عن ذلك» وأحمدُ عن أسامة[٥]، وهو، والشَّيخان، والنَّسائي، عن عائشة[٦]، ومسلمٌ عن أبي هريرة[٧]: «لعن اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى؛ اتَّخذوا قبورَ أَنبيائهم مساجد» وأحمدُ، والشيخان، والنَّسائي[٨]: «إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجلُ الصالحُ فمات، بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شِرارُ الخلقِ يوم القيامة» وأحمدُ، والطَّبراني[٩]: «إنَّ مِن شرار الناسِ مَن تُدركهم الساعةُ وهم

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٣، ونسبها في القراءات الشاذة ص٧٩ للحسن فقط.

(٢) ٦/ ٨٧.

(٣) مسند أحمد (٢٠٣٠)، وسنن أبي داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي ٤/ ٩٤-٩٥، وابن ماجه (١٥٧٥).

(٤) في صحيحه (٥٣٢) من حديث جندب بن جنادة ﷺ.

(٥) المسند (٢١٧٧٤).

(٦) مسند أحمد (١٨٨٤)، وصحيح البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، والمجتبى ٢/ ٤٠-٤١.

(٧) صحيح مسلم (٥٣٠).

(٨) المسند (٢٤٢٥٢)، وصحيح البخاري (٣٢٧)، ومسلم (٥٢٨)، والمجتبى ٢/ ٤١ من حديث عائشة ﵂.

(٩) المسند (٣٨٤٤)، والمعجم الكبير (١٠٤١٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

أَحياء، ومَن يتَّخذ القبورَ مساجد» وعبدُ الرزاق[١]: «مِن شرار أُمَّتي مَن يتَّخذ القبورَ مساجد» وأيضاً: «كانت بنو إسرائيل اتَّخذوا القبورَ مساجد، فلعنهم اللهُ تعالى»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحةِ والآثارِ الصريحة.

وذكر ابنُ حجرٍ في «الزواجر» أنَّه وقع في كلام بعضِ الشافعيةِ عدُّ اتخاذِ القبورِ مساجدَ والصلاةِ إليها واستلامِها والطوافِ بها ونحوِ ذلك من الكبائر، وكأنَّه أخذ ذلك ممَّا ذُكر من الأحاديث، ووجهُ اتخاذِ القبرِ مسجداً واضح[٣]؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لعن مَن فعل ذلك في قبور الأنبياءِ عليهم السلام، وجَعَلَ مَن فعل ذلك بقبور الصلحاءِ شرارَ الخلقِ عند اللهِ تعالى يومَ القيامة، ففيه تحذيرٌ لنا. واتخاذُ القبرِ مسجداً معناه الصلاةُ عليه أو إليه، وحينئذٍ يكون قولُه: والصلاة إليها، مكرَّراً، إلَّا أنْ يرادَ باتِّخاذها مساجدَ الصلاةُ عليها فقط، نعم إنَّما يتَّجه هذا الأخذُ إن كان القبرُ قبرَ معظَّم من نبيٍّ أو وليٍّ، كما أشارت إليه رواية: «إذا كان فيهم الرجلُ الصالح» ومن ثَمَّ قال أصحابُنا: تحرم الصلاةُ إلى قبور الأنبياءِ والأولياءِ تبرُّكاً وإعظاماً، فاشترطوا شيئَين: أن يكونَ قبرَ معظَّم، وأن يقصدَ الصلاة إليها، ومثلُ الصلاةِ عليه التبرُّكُ والإعظام[٤]، وكونُ هذا الفعلِ كبيرةً ظاهرٌ من الأحاديث، وكأنَّه قاس عليه كلَّ تعظيمٍ للقبر، كإيقاد السُّرجِ عليه تعظيماً له وتبرُّكاً به، والطواف به كذلك، وهو أخذٌ غيرُ بعيد، سيَّما وقد صرّح في بعض الأحاديثِ المذكورةِ بلعن مَن اتَّخذ على القبر سراجاً، فيحمل قولُ الأصحابِ بكراهة ذلك على ما إذا لم يَقصِد به تعظيماً وتبرُّكاً بذي القبر.

وقال بعضُ الحنابلة: قصدُ الرجلِ الصلاةَ عند القبرِ متبرِّكاً به عينُ المحادَّةِ لله تعالى ورسولِه ﷺ، وإبداعُ دينٍ لم يأذنْ به اللهُ عزَّ وجلّ؛ للنَّهي عنها ثم إجماعاً؛ فإنَّ أعظمَ المحرَّماتِ وأسبابِ الشِّرك الصلاةُ عندها، واتخاذُها مساجدَ أو بناؤها

(١) في المصنف (١٥٨٦) من طريق معمر والثوري، عن علي موقوفاً، وقال: وأحسب معمراً رفعه.

(٢) المصنف (١٥٩١) من طريق عمرو بن دينار عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) العبارة في الزواجر ١/ ١٣٨: ووجهُ أَخْذِ اتخاذِ القبر مسجداً منها واضح.

(٤) في الزواجر: وأن يقصد بالصلاة إليه ومِثْلُها الصلاةُ عليه التبركَ والإعظام.

عليها، وتجب المبادرةُ لهدمها وهدمِ القبابِ التي على القبور؛ إذ هي أضرُّ من مسجد الضِّرار، لأنَّها أُسِّست على معصية رسولِ اللهِ ﷺ، لأنَّه عليه الصلاة والسلام نهى عن ذلك، وأمر بهدم القبورِ المشرِفة، وتجب إزالةُ كلِّ قنديلٍ أو سراجٍ على قبر، ولا يصحُّ وقفُه ولا نذرُه. اهـ.

وفي «المنهاج» وشرحِه للعلَّامة المذكور[1]: ويُكره تجصيصُ القبر، والبناءُ عليه في حريمه وخارجه في غير المسبلَة، إلَّا إنْ خُشي نبشٌ أو حفرُ سبعٍ أو هدمُ سيل، ويَحرم البناءُ في المسبلَة، وكذا تُكره الكتابةُ عليه؛ للنَّهي الصحيحِ عن الثلاثة، سواءٌ كتابةُ اسمِه وغيرِه، في لوحٍ عند رأسِه أو في غيره. نَعَم بحث الأَذرعيُّ حرمةَ كتابةِ القرآن؛ لتعريضه للامتهان بالدَّوس، والتنجيسِ بصديد الموتى، عند تكرُّر الدفنِ ووقوعِ المطر، ونُدب كتابةُ اسمِه لمجرَّد التعريفِ به على طول السِّنين، لاسيَّما قبورُ الأنبياءِ والصالحين؛ لأنَّه طريقٌ للإعلام المستحبّ. ولمَّا روى الحاكمُ النَّهيَ قال: ليس العملُ عليه الآن؛ فإنَّ أئمَّة المسلمين من المشرق والمغربِ مكتوبٌ على قبورهم، فهو عملٌ أخذ به الخلفُ عن السلف. ويُرَدُّ بمنع هذه الكلِّية، وبفرْضها، فالبناءُ على قبورهم أكثرُ من الكتابة عليها في المقابر المسبلةِ كما هو مشاهَد، لاسيَّما بالحرمين ومِصرَ ونحوِها، وقد علموا بالنَّهي عنه، فكذا هي. فإنْ قلتَ: هو إِجماعٌ فعلي، فهو حجَّة كما صرَّحوا به، قلتُ: ممنوع، بل هو أكثريٌّ فقط؛ إذ لم يُحفَظ ذلك حتى عن العلماءِ الذين يرون منعَه، وبفرْض كونِه إجماعاً فعليًّا، فمحلُّ حجيَّته ـ كما هو ظاهر ـ إنَّما هو عند صلاح الأَزمنة، بحيث ينفَّذ فيها الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، وقد تعطَّل ذلك منذ أَزمنة.

ولو بُني نفسُ القبرِ لغير حاجةٍ مما مرَّ كما هو ظاهر، أو نحوُ تحويطٍ أو قبةٍ عليه في مقبرةٍ مسبلَة، كأرضٍ مواتٍ اعتادوا الدفنَ فيها، أو موقوفةٍ لذلك، بل هي أَوْلى، هُدِم وجوباً؛ لحُرمته كما في «المجموع»[2] لِمَا فيه من التضييق، مع أنَّ البناءَ يتأبَّد بعد انمحاقِ الميِّت، فيُحْرَمُ الناسُ تلك البقعة، وهل من البناءِ ما اعتيد مِن جعل أربعةِ أحجارٍ مربَّعة محيطةٍ بالقبر مع لصق كلِّ رأسٍ منها برأس الآخر

(١) أي: ابن حجر الهيتمي.
(٢) ٥/ ٢٦٣.

بجصٍّ مُحكَم، أو لا لأنَّه لا يسمَّى بناءً عرفاً؟ والذي يتَّجه الأوَّل؛ لأنَّ العِلَّة من التأبيد موجودةٌ هنا، وقد أَفتى جمعٌ بهدم كلِّ ما بقرافةِ مصرَ من الأَبنية، حتى قبَّةِ الإمام الشافعيِّ عليه الرحمةُ التي بناها بعضُ الملوك، وينبغي لكلِّ أحدٍ هدمُ ذلك مالم يخشَ منه مفسدة، فيتعيَّن الرفعُ للإمام أخذاً من كلام ابنِ الرِّفعة في الصُّلح. انتهى.

وفي «صحيح مسلم»[1] عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أَبعثُكَ على ما بعثني عليه رسولُ اللهِ ﷺ: ألَّا تدعَ تمثالاً إلَّا طمسته، ولا قبراً مشرِفاً إلَّا سوَّيتَه. قال ابنُ الهُمام في «فتح القدير»[2]: وهو محمولٌ على ما كانوا يفعلونه من تعلية القبورِ بالبناءِ الحسنِ العالي.

والأحاديثُ وكلامُ العلماءِ المنصفين المتَّبعين لما ورد عن النبيِّ ﷺ وجاء عن السَّلف الصالحِ أكثرُ من أن يحصَى.

لا يقال: إنَّ الآيةَ ظاهرةٌ في كون ما ذُكر من شرائع مَن قبلَنا، وقد استُدلَّ بها، فقد رُوي أنَّه ﷺ قال: «مَن نام عن صلاةٍ أو نَسِيها...» الحديثَ، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤][3]، وهو مقولٌ لموسى عليه السلام، وسياقُه الاستدلال. واحتجَّ محمدٌ على جواز قسمةِ الماءِ بطريق المهايأةِ بقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ الآيةَ [الشعراء: ١٥٥] و﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [القمر: ٢٨] وأبو يوسفَ على جَري القَوَدِ بين الذَّكر والأُنثى بآية ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٥] والكرخيُّ على جَريه بين الحرِّ والعبدِ والمسلمِ والذميِّ بتلك الآيةِ الواردةِ في بني إسرائيل، إلى غير ذلك = لأنَّا نقول[4]: مذهبُنا في شرع مَن قبلنا وإن كان أنَّه يلزمنا على أنَّه شريعتُنا، لكن لا مطلقاً، بل إنْ قصَّه اللهُ تعالى علينا بلا إنكار، وإنكارُ رسولِه ﷺ كإنكاره عزَّ وجلّ، وقد سمعتَ أنَّه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتَّخذون المساجدَ على القبور.

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) ١/ ٤٧٢.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) جواب لقوله: لا يقال...

على أنَّ كونَ ما ذُكر من شرائع مَن قبلَنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكونَ اتخاذُ المساجدِ على القبور من الشَّرائع المتقدِّمةِ مع ما سمعتَ من لعن اليهودِ والنَّصارى حيث اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد، والآيةُ ليست كالآيات التي ذكرنا آنفاً احتجاجَ الأئمَّة بها، وليس فيها أكثرُ من حكاية قولِ طائفةٍ من الناس وعزمِهم على فعل ذلك، وليست خارجةً مَخرجَ المدحِ لهم والحضِّ على التأسِّي بهم، فمتى لم يثبت أنَّ فيهم معصوماً، لا يدلُّ فعلُهم ـ فضلاً عن عزمهم ـ على مشروعيةِ ما كانوا بصدده. ومما يقوِّي قلَّةَ الوثوقِ بفعلهم القولُ بأنَّ المرادَ بهم الأمراءُ والسلاطينُ كما رُوي عن قتادة.

وعلى هذا لقائلٍ أن يقول: إنَّ الطائفةَ الأُولى كانوا مؤمنين، عالمين بعدم مشروعيةِ اتِّخاذ المساجدِ على القبور، فأشاروا بالبناءِ على باب الكهفِ وسدِّه وكفِّ كفِّ التعرُّضِ عن أصحابه، فلم يقبل الأمراءُ منهم، وغاظهم ذلك حتى أقسموا على اتِّخاذ المسجد، وكأنَّ الأوَّلين إنَّما لم يُشيروا بالدَّفن مع أنَّ الظاهرَ أنَّه هو المشروعُ إذ ذاك في الموتى كما أنَّه هو المشروعُ عندنا فيهم؛ لعدم تحقُّقهم موتَهم، ومَنَعهم من تحقيقه أنَّهم لم يقدروا ـ كما أَخرج عبدُ الرزاق وابنُ المنذر عن وهب بنِ منبِّه[1] ـ على الدُّخول عليهم لِمَا أُفيض عليهم من الهَيبة؛ ولهذا قالوا: «ربهم أعلم بهم».

وإن أبيتَ إلَّا حسنَ الظنِّ بالطائفة الثانية، فلكَ أن تقول: إنَّ اتِّخاذَهم المسجدَ عليهم ليس على طَرزِ اتِّخاذ المساجدِ على القبور المنهيِّ عنه الملعونِ فاعلُه، وإنَّما هو اتخاذُ مسجدٍ عندهم وقريباً من كهفهم، وقد جاء التصريحُ بالعنديَّة في رواية القصَّةِ عن السُّدِّي ووهب، ومثلُ هذا الاتخاذِ ليس محظوراً، إذ غايةُ ما يلزم على ذلك أنْ يكون نسبةُ المسجدِ إلى الكهف الذي هم فيه كنسبة المسجدِ النبويِّ إلى المرقد المعظَّم صلَّى اللهُ تعالى على مَن فيه وسلَّم، ويكون قولُهم: «لنتخذنَّ عليهم» على هذا لمشاكلة قولِ الطائفة: «ابنوا عليهم».

وإن شئتَ قلت: إنَّ ذلك الاتخاذَ كان على الكهف فوقَ الجبلِ الذي هو فيه، وفي خبر مجاهدٍ أنَّ الملكَ تركهم في كهفهم وبنى على كهفهم مسجداً، وهذا أقربُ لظاهر اللفظِ كما لا يخفَى.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٧-٣٩٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٣١٥.

وهذا كلُّه إنَّما يُحتاج إليه على القول بأنَّ أصحابَ الكهفِ ماتوا بعد الإعثار عليهم، وأمَّا على القول بأنَّهم ناموا كما ناموا أوَّلاً، فلا يُحتاج إليه على ما قيل.

وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنَى رشدٍ أن يذهبَ إلى خلاف ما نطقت به الأَخبارُ الصحيحةُ والآثارُ الصريحة، معوِّلاً على الاستدلال بهذه الآية؛ فإنَّ ذلك في الغَواية غاية، وفي قلَّة النُّهى نهاية. ولقد رأيتُ مَن يُبيح ما يفعله الجهلةُ في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالجصِّ والآجُرّ، وتعليقِ القناديل عليها، والصلاةِ إليها، والطوافِ بها واستلامِها، والاجتماعِ عندها في أوقاتٍ مخصوصة، إلى غير ذلك، محتجًّا بهذه الآيةِ الكريمة، وبما جاءَ في بعض رواياتِ القصَّة من جعل الملكِ لهم في كلِّ سَنةٍ عيداً، وجعلِه إيَّاهم في توابيتَ من ساج، ومقيساً البعضَ على البعض، وكلُّ ذلك محادَّة لله تعالى ورسولِه ﷺ، وإبداعُ دِينٍ لم يأذنْ به اللهُ عزَّ وجلَّ.

ويكفيكَ في معرفة الحقِّ تتبُّعُ ما صنع أصحابُ رسولِ الله ﷺ في قبره عليه الصلاة والسلام، وهو أفضلُ قبرٍ على وجه الأرض، بل أفضلُ من العرش، والوقوفُ على أفعالهم في زيارتهم له والسلامِ عليه عليه الصلاة والسلام، فتتبَّع ذاك، وتأمَّل ما هنا وما هناك، واللهُ سبحانه وتعالى يتولَّى هُداك.

ثم اعلمْ أنَّهم اختلفوا في تعيين موضعِ المسجدِ والكهف، وقد مرَّت عليك بعضُ الأقوال. وفي «البحر»: إنَّ في الشام كهفاً فيه موتَى، ويزعم مجاوروه أنَّهم أصحابُ الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرَّقيم، ومعهم كلبٌ رِمَّة، وبالأَندلس في جهة غرناطةَ بقُرب قريةٍ تسمَّى لوشة كهفٌ فيه موتى ومعهم كلب رمَّة، وأكثرُهم قد انجرد لحمُه، وبعضُهم متماسك، وقد مضت القرونُ السالفةُ ولم نجد مَن عَلِمَ شأنَهم، ويزعم ناسٌ أنَّهم أصحابُ الكهف، قال ابنُ عطية[1]: دخلتُ عليهم فرأيتهم سنةَ أربعٍ وخمسِ مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ وقريبٌ منهم بناءٌ روميٌّ يسمَّى الرقيم، كأنَّه قصرٌ مُخْلَق[2]، قد بقي بعضُ جدرانِه، وهو في فلاةٍ من الأرض خَرِبة، وبأَعلى حصنِ غرناطةَ ممَّا يلي القِبلةَ آثارُ مدينةٍ قديمةٍ يقال لها: مدينةُ دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب. انتهى.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١، والكلام من البحر ٦/ ١٠٢.

(٢) أي: متهدِّم، وقد فسَّرتها العبارة الآتية بعدها، وفي اللغة: أَخلَق الثوبُ: بلي، فهو مُخْلَق.

وحين كنَّا بالأندلس، كان الناسُ يزورون هذا الكهف، ويذكرون أنَّهم يَغلطون في عِدَّتهم إذا عدُّوهم، وأنَّ معهم كلباً، ويرحل الناسُ إلى لوشةَ لزيارتهم. وأمَّا ما ذكره من المدينةِ القديمة، فقد مررتُ عليها مِراراً لا تحصَى، وشاهدت فيها حجارةً كباراً، ويترجَّح كونُ ذلك بالأندلس؛ لكثرة دينِ النصارَى بها، حتى إنَّها هي بلادُ مملكتِهم العظمى، ولأنَّ الإخبارَ بما هو في أقصَى مكانٍ من أرض الحجازِ أغربُ وأبعدُ أن يعرفَ[1] إلَّا بوحي من اللهِ تعالى. انتهى.

وما تقدَّم من خبر ابنِ عباسٍ ومعاويةَ يُضعِف ما ادَّعى ترجُّحَه؛ لأنَّ معاويةَ لم يدخل الأَندلس، وتسميةُ الأندلسيين نصارى الأندلسِ بالرُّوم في نثرهم ونظمِهم ومخاطبةِ عامَّتهم ـ كما في «البحر»[2] ـ أيضاً لا يُجدي نفعاً، وقد عوَّل الكثيرُ على أنَّ ذلك في طرسوس، واللهُ تعالى أعلم.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ فيه وفي الفعلين بعدُ ـ كما اختاره ابنُ عطيةَ[3] وبعضُ المحقِّقين ـ لليهودِ المعاصرين له ﷺ، الخائضين في قصَّة أصحابِ الكهف، وأُيِّد بذلك قولُ الحسنِ وغيرِه: إنَّهم كانوا قبلَ بعثِ موسى عليه السلام؛ لدَلالته أنَّ لهم علماً في الجملة بأحوالهم، وهو يستلزم أن يكونَ لهم ذِكرٌ في التوراة. وفيه ما فيه.

والظاهرُ أنَّ هذا إخبارٌ بما لم يكن واقعاً بعد، كأنَّه قيل: سيقولون إذا قصصتَ قصةَ أصحابِ الكهف، أو: إذا سُئلوا عن عدَّتهم: هم ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: ثلاثةُ أشخاص ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ أي: جاعلُهم أربعةً بانضمامه إليهم ﴿كَلْبُهُمْ﴾ فـ «ثلاثةٌ» خبرُ مبتدأ محذوف، و«رابعهم كلبهم» مبتدأٌ وخبر، ولا عملَ لاسم الفاعل؛ لأنَّه ماض، والجملةُ في موضع النعتِ لـ «ثلاثة»، والضميرانِ لها لا للمبتدأ، ومن ثَمَّ استُغني عنه بالحذف، وإلَّا كان الظاهرُ أن يقال: هم ثلاثةٌ وكلب، لكن لـمَّا أُريد اختصاصُها بحكم بديعِ الشأن، عُدِل إلى ما ذُكر؛ لينبَّهَ بالنعت الدالِّ على التَّفضلة والتمييزِ على أنَّ أُولئك الفتيةَ ليسوا مثلَ كلِّ ثلاثةٍ اصطحبوا، ومن ثَمَّ قرن اللهُ تعالى

---

(١) في الأصل: أن لا يعرف. والمثبت موافق لما في البحر.
(٢) ٦/ ١٠٢.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

في كتابه العزيزِ أخسَّ الحيواناتِ ببركة صحبتِهم مع زمرة المتبتِّلين إليه المعتكفين في جواره سبحانه، وكذا يقال فيما بعد.

وإلى هذا الإعرابِ ذهب أبو البقاءِ[1]، واختاره العلَّامة الطِّيبي، وهو الذي أَشار إلى ما أُشير إليه من النُّكتة، ونَظَمَ في سلكها مع الآيةِ حديثَ: «ما ظنُّك باثنين اللهُ تعالى ثالثُهما»[2] فأَوجب ذلك أنْ شنَّع بعضُ أجلَّةِ الأفاضلِ عليه، حتى أَوصله إلى الكفر ونسبه إليه، ولَعمري لقد ظلمه، وخفي عليه مرادُه فلم يفهمْه.

ولم يجوِّز ابنُ الحاجبِ كونَ الجملةِ في موضع النَّعت، كما لم يجوِّز هو ولا غيرُه ـ كأبي البقاء[3] ـ جَعْلَها حالاً، وجَعَلَها خبراً بعد خبرٍ للمبتدأ المحذوف، وسيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى تمامُ الكلامِ في ذلك.

وتقديرُ تمييزِ العدد: أشخاص، أَوْلى من تقديره: رِجال؛ لأنَّه لا تصير الثلاثةُ الرِّجالِ أربعةً بكلبهم، لاختلاف الجِنسين. وعدمُ اشتراطِ اتِّحاد الجنسِ في مثل ذلك يأباه الاستعمالُ الشائع، مع كونِه خلافَ ما ذكره النُّحاة.

والقولُ بأنَّ الكلبَ بشرف صُحبتِهم أُلحق بالعقلاء تخيُّلٌ شِعريّ.

وقرأ ابنُ مُحَيصن: «ثلاثة» بإدغام الثاءِ في التاء[4]، تقول: ابعث تلك. وحَسُن ذلك لقُرب مخرجِهما وكونِهما مهموسَين.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ عطفٌ على «سيقولون» والمضارعُ وإنْ كان مشتركاً بين الحالِ والاستقبال، إلَّا أنَّ المرادَ منه هنا الثاني بقرينةِ ما قبلَه؛ فلذا اكتُفي عن السِّين فيه، وإذا عطفتَه على مدخولِ السين، دخل معه في حكمها واختصَّ بالاستقبال بواسطتها، لكن قيل: إنَّ العطفَ على ذلك تكلُّف.

وقرأ شبلُ بن عبادٍ عن ابن كثير: «خَمَسةٌ» بفتح الميم، وهو كالسُّكون لغةٌ فيها، نظيرُ الفتحِ والسكونِ في العشرة.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٠-٥١١.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) عن أنس رضي الله عنه، وسلف ١٠/ ٣٢٨.

(٣) الإملاء ٣/ ٥١٠-٥١١.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٣.

وقرأ ابنُ محيصنٍ بكسر الخاءِ والميم، وبإدغام التاءِ في السِّين. وعنه أيضاً إدغامُ التنوينِ في السين بغير غنَّة[١].

﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: رمياً بالخبر الغائبِ الخفيِّ عنهم الذي لا مُطْلِعَ لهم عليه، وإتياناً به أو ظنًّا بذلك، وعلى الأوَّل استُعير الرجمُ ـ وهو الرميُ بالحجارة التي لا تُصيب غرضاً ومرمًى ـ للتكلُّم من غير علمٍ وملاحظةٍ بعد تشبيهه به.

وفي «الكشف» أنَّه جعل الكلام الغائب عنهم عِلمُه بمنزلة الرِّجامِ المَرْميِّ به لا يُقصَد به مخاطَب معيَّن، ولو قَصد لأخطأ؛ لعدم بنائه على اليقين، كما أنَّ الرجَّام قلَّما يصيب المرجومَ على السَّداد، بخلاف السهمِ ونحوِه؛ ولهذا قالوا: قذفاً بالغيب ورجماً به، ولم يقولوا: رمياً به، وأمَّا الرميُ في السبِّ ونحوِه، فالنظرُ إلى تأثيره في عِرْض المرميِّ تأثيرَ السَّهمِ في الرمية. انتهى.

وعلى الثاني شبَّه ذِكرُ أمرٍ من غير علمٍ يقينيٍّ واطمئنانِ قلبٍ بقذف الحجرِ الذي لا فائدةَ في قذفه ولا يُصيب مرماه، ثم استُعير له ووضع الرجمُ موضعَ الظنِّ حتى صار حقيقةً عرفيةً فيه.

وفي «الكشف» أيضاً أنَّه لمَّا كثر استعمالُ قولِهم: رجماً بالظنّ، فهموا من المصدر معناه دونَ النظرِ إلى المتعلَّق، فقالوا: رجماً بالغيب، أي: ظنًّا به، وعلى ذلك جاءَ قولُ زهير:

وما الحربُ إلَّا ما علمتمْ وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ[٢]

حيث أراد المظنون.

وانتصابُ «رجماً» هنا ـ على الوجهَين ـ إمَّا على الحاليةِ من الضمير في الفعلين، أي: راجمين، أو على المصدريةِ منهما؛ فإنَّ الرجمَ والقولَ واحد. وفي «البحر» أنَّه ضمَّن القولُ معنى الرَّجم[٣]. أو من محذوفٍ مستأنف، أو

(١) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٦/ ١١٤، وانظر القراءات الشاذة ص٧٩.
(٢) ديوان زهير ص١٨.
(٣) البحر ٦/ ١١٤.

واقعِ موقعَ الحالِ من ضمير الفعلَين معاً، أي: يرجمون رجماً. وجوَّز أبو حيانَ[1] كونَه منصوباً على أنَّه مفعولٌ من أجله، أي: يقولون ذلك لرميهم بالغيب، أو لظنِّهم بذلك، أي: الحاملُ لهم على القولِ هو الرجمُ بالغيب. وهو كما ترى.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ المرادُ الاستقبالُ أيضاً، والكلامُ في عطفِه كالكلام في عطف سابقِه، والجملةُ الواقعةُ بعد العددِ في موضع الصفةِ له كالجملتين السابقتَين على ما نصَّ عليه الزمخشريّ[2]، ولم يَجعل الواوَ مانعةً عن ذلك، بل ذكر أنَّها الواوُ التي تدخل على الجملة الواقعةِ صفةً للنكرة، كما تدخل على الواقعةِ حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجلٌ ومعه آخر، و: مررت بزيدٍ وفي يده سيف، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتُها توكيدُ لصوقِ الصفةِ بالموصوف، والدلالةُ على أنَّ اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرّ، وهي التي آذَنَتْ هنا بأنَّ قائلي ما ذُكر قالوه عن ثباتِ علمٍ وطمأنينةِ نفس، ولم يرجموا بالظنِّ كما رَجَمَ غيرُهم، فهو الحقُّ دون القولَين الأوَّلين.

والدليلُ على ذلك أنَّه سبحانه وتعالى أَتبعهما قولَه تبارك اسمُه: «رجماً بالغيب» وأَتبع هذا قولَه عزَّ وجلّ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: أَقوى وأقدمُ في العلم بها ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: ما يعلم عدَّتَهم، على ما ينساق إلى الذِّهن نظراً إلى المقام ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وعلى إيذان الواوِ بما ذُكر يدلُّ كلامُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما، فقد رُوي أنَّه قال: حين وقعت الواوُ انقطعت العدَّة، أي: لم يبقَ بعدها عِدةُ عادٍّ يُلتفت إليها، وثبت أنَّهم سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم على القطع والبَتات.

وقد نصَّ عطاءٌ على أنَّ هذا القليلَ من أَهل الكتاب، وقيل: من البشر مطلقاً، وهو الذي يقتضيه ما أَخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباسٍ أنَّه

(١) في البحر ٦/ ١١٤.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٧٨.

قال: أنا من أولئك القليل. وأَخرجه عنه غيرُ واحدٍ من طرقٍ شتَّى[١]، وأَخرج نحوَه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن مسعود[٢].

وزَعْمُ بعضِهم أنَّ المرادَ: إلَّا قليلٌ من الملائكة عليهم السلام، لا يرتضيه أحدٌ من البشر، والمثبتُ في هذا الاستثناءِ هو العالِمية، وذلك لا يضرُّ في كون الأَعلميةِ له عزَّ وجلَّ.

هذا وإلى كون الواوِ كما ذَكَرَ الزمخشريُّ ذهب ابنُ المنير[٣]، وقال بعد نقلِه: وهو الصَّواب، لا كالقول بأنَّها واوُ الثمانية، فإنَّ ذلك أمرٌ لا يستقرُّ لمثبِته قَدَم، وردَّ ما ذكروه من ذلك، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى في موضعه التنبيهُ عليه.

وقال أبو البقاءِ[٤]: الجملةُ إذا وقعت صفةً للنَّكرة جاز أن يدخلَها الواو، وهذا هو الصحيحُ في إدخال الواوِ في «ثامنهم».

واعتَرضَ على ذلك غيرُ واحد، فقال أبو حيَّان[٥]: كونُ الواوِ تدخل على الجملة الواقعةِ صفةً دالَّةً على لصوق الصفةِ بالموصوف وعلى ثبوتِ اتِّصاله بها شيءٌ لا يعرفه النَّحويون، بل قرَّروا أنَّه لا تعطف الصفةُ التي ليست بجملةٍ على صفةٍ أخرى إلَّا إذا اختلفت المعاني، حتى يكونَ العطفُ دالًّا على المغايرة، وأمَّا إذا لم تختلف، فلا يجوزُ العطف، هذا في الأَسماء المفرَدة، وأما الجملُ التي تقع صفة، فهي أَبعدُ من أن يجوزَ ذلك فيها.

وقد ردُّوا على مَن ذهب إلى أنَّ قولَ سيبويه: وأمَّا ما جاء بالمعنى وليس باسمٍ ولا فعل[٦]، إلى أنَّ: وليس باسمٍ.. إلخ، صفةٌ لمعنًى، وأنَّ الواوَ دخلت في الجملة = بأنَّ ذلك ليس من كلامِ العرب، وليس من كلامِهم: مررتُ برجلٍ ويأكل،

---

(١) المعجم الأوسط (٦١١٣) وتفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٠، وفضائل الصحابة لأحمد (١٥٥٧)، والطبري ١٥/ ٢١٩.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢١٧.
(٣) في الانتصاف ٢/ ٤٧٨.
(٤) في الإملاء ٣/ ٥١١.
(٥) في البحر ٦/ ١١٤-١١٥.
(٦) الكتاب ١/ ١٢.

على تقديرِ الصفة، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] فالجملةُ فيه حاليَّة، ويكفي ردًّا لقول الزمخشريِّ أنَّا لا نعلم أحداً من علماء النحوِ ذهب إليه. اهـ.

وقال صاحب «الفرائد»: دخولُ الواوِ بين الصفةِ والموصوفِ غيرُ مستقيم؛ لاتِّحاد الصفةِ والموصوفِ ذاتاً وحكماً، وتأكيدُ اللصوقِ يقتضي الاثنينية، مع أنَّا نقول: لا نسلِّم أنَّ الواوَ تفيد التأكيدَ وشدَّةَ اللُّصوق، غايةُ ما في الباب أنَّها تفيد الجمع، والجمعُ ينبئُ عن الاثنينية، واجتماعُ الصفةِ والموصوفِ ينبئُ عن الاتِّحاد بالنظر إلى الذَّات.

وقد ذكر صاحبُ «المفتاح»[1] أنَّ قولَ مَن قال: إنَّ الواوَ في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ داخلةٌ بين الصفةِ والموصوفِ، سهوٌ منه[2]، وإنَّما هي واوُ الحال، وذو الحالِ «قرية» وهي موصوفة، أي: وما أَهلكنا قريةً من القرى إلَّا ولها... إلخ.

وأمَّا: جاءني رجلٌ ومعه آخَر، ففيه وجهان: أحدُهما: أن يكونَ جملتين متعاطفتين، وثانيهما: أن يكونَ: آخَرُ، معطوفاً على رجل، أي: جاءني رجلٌ ورجلٌ آخَرُ معه، وعدل عن: جاءَني رجلان؛ ليفهمَ أنَّهما جاءا مصاحبَين. وأمَّا الواوُ في: مررتُ بزيدٍ وفي يده سيف، فإنَّما جاز دخولُها بين الحالِ وذِيْها؛ لكون الحالِ في حكم جملة، بخلاف الصفةِ بالنِّسبة إلى الموصوف، فإنَّ: جاء زيدٌ راكباً، في حكم: جاءَ وهو راكب، بخلاف: جاءَ زيدٌ الراكب، فافهَمْه.

سلَّمنا أنَّها داخلةٌ بين الصفةِ والموصوفِ لتأكيد اللُّصوق، لكن الدَّلالةَ على أنَّ اتصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرٌّ غيرُ مسلَّم، وأين الدليلُ عليه؟ وكونُ الواوِ هي التي آذنت بأنَّ القولَ المذكورَ عن ثباتِ علم وطُمأنينة نفسٍ في غاية البعد، والقولُ بأنَّ الإِتْباع يدلُّ على ذلك، إنْ أُريد منه أنَّه يدلُّ على إيذان الواوِ بما ذكر، فبطلانُه

(١) ص٢٥٠-٢٥١.

(٢) جاء في هامش الأصل: الحكم بأنه سهو سهو؛ فقد تكرر من الزمخشري مع بسط وتفصيل، فتدبر ما قلنا ولا تعجل. اهـ منه.

ظاهر، وإنْ أُريد منه أنَّه يدلُّ على صدق قائلي القولِ الأخيرِ وعدمِ صدقِ قائلي القولَين الأوَّلين، فمسلّمٌ أنَّ إتباع القولَين الأوَّلين بـ «رجماً بالغيب» يدلُّ على عدم الصِّدق دلالةً لا شبهةَ فيها، لكن لا نسلِّم أنَّ عدمَ إتباع القولِ الأخيرِ به وإتباعَه بما أُتبع يدلُّ على ذلك، وإن سلَّمنا فهو يدلُّ دلالةً ضعيفة، ولا نسلِّم أيضاً دلالةَ كلام ابن عباسٍ على ما ذكر، والظاهر أنَّه عَلِمَ أنَّ القول الأخيرَ صادقٌ من الصادق المصدوقِ ﷺ، وأنَّ مرادَه من قوله: حين وقعت الواوُ انقطعت العِدَّة، أنَّ الذي هو صدقٌ ما وقعت الواوُ فيه وانقطعت العِدَّة به، فالحقُّ أنَّ الواوَ واو عطف، والجملةُ بعدَه معطوفةٌ على الجملة قبلَه.

وانتصر العلَّامة الطِّيبي للزمخشريّ، وأَجاب عمَّا اعتُرض به عليه فقال: اِعلَم أنَّه لا بدَّ قبل الشُّروع في الجواب من تبيين المقصودِ تحريراً للبحث، فالواوُ هنا ليست على الحقيقة، ولا يُعتبَر في المجاز النقلُ الخصوصيّ، بل المعتبرُ فيه اعتبارُ نوعِ العلاقة، وذكروا أنَّ المجازَ في عُرف البلاغةِ أَوْلى من الحقيقة وأبلغ، وأنَّ مدارَ علمِ البيان الذوقُ السليمُ الذي هو أنفعُ من ذوقِ التعليم، ولا يتوقَّف على التوقيف، وليس ذلك كعلم النَّحو، والمجازُ لا يختصُّ بالاسم والفعل، بل قد يقع في الحروف.

وقد نقل شارحُ «اللباب» عن سيبويه أنَّ الواوَ في قولهم: بِعت الشاةَ ودرهماً، بمعنى الباء، وتحقيقُه أنَّ الواوَ للجمع والباءَ للإلصاق، وهما من وادٍ واحد، فسُلك به طريقُ الاستعارة، وكم وكم. وإذا عُلم ذلك فلْيُعلَم أنَّ معنى قولِه: فائدتُها توكيدُ لصوقِ الصفةِ بالموصوف، أنَّ للصفة نوعَ اتِّصالٍ بالموصوف، فإذا أُريد توكيدُ اللُّصوق وسِّط بينهما الواو؛ ليؤذنَ أنَّ هذه الصفةَ غيرُ منفكَّة عن الموصوف، وإليه الإشارةُ فيما بعدُ من كلامه، وأنَّ الحالَ في الحقيقة صفةٌ لا فرقَ إلَّا بالاعتبار، أَلَا ترى أنَّ صفةَ النكرةِ إذا تقدَّمت عليها وهي بعينها تصير حالاً، ولو لم يكونا متَّحدين لم يصحَّ ذلك.

ثم إنَّ قولَك: جاءني رجلٌ ومعه آخَر، وقولَك: مررتُ بزيدٍ ومعه آخر، لمَّا كانا سواءً في الصورة، اللهمَّ إلَّا في اعتبار المعرفةِ والنكرة، كان حكمُهما سواءً في الواو، وهو مرادُ الزمخشريِّ من إيراد المثالَين، لا كما فهم بعضُهم.

وأما قولُ الفرائديِّ(١) في تعليل امتناعِ دخولِ الواو بين الصفةِ والموصوف: لاتِّحادهما ذاتاً وحكماً، وهو منافٍ لما يقتضيه دخولُ الواوِ من المغايرة، فمبنيٌّ على أنَّ الواوَ عاطفة؛ لأنَّها هي التي تقتضي المغايرةَ كما قال السكاكي، وقد بيَّن وجهَ مجازِه لمجرَّد الربط.

وأما قولُه في جاءني رجلٌ ومعه آخَر: إنَّه جملتان، فهو كما تراه. وأمَّا قوله: إنَّ: جاء زيدٌ راكباً، في حكمِ: جاء زيدٌ وهو راكب، فمن المعكوس؛ فإنَّ الأصلَ في الحال الإفراد، كما يدلُّ عليه كلامُ ابنِ الحاجب وغيرِه من الأعيان. وأمَّا تسليمُه الدخولَ لتأكيد اللُّصوقِ ومنه الدَّلالةُ على أنَّ الاتِّصافَ أمرٌ ثابتٌ مستقرٌ، فمن العجائب، فكيف يسلِّم التأكيدُ ولا يسلِّم فائدتُه؟

ويَدفع الاعتراضاتِ الباقية أنَّ ما استند إليه الزمخشريُّ ليس من بابِ الأدلَّة اليقينية، بل هي من باب الأَمارات، وتكفي في هذه المقامات.

وقال ابنُ الحاجب: لا يجوز أن يكونَ «رابعهم كلبهم» و«سادسهم كلبهم» صفةً لما قبل، ولا حالاً؛ لعدم العاملِ مع عدمِ الواو، ويجوز أن يكونَ كلٌّ منهما خبراً بعد خبرٍ للمبتدأ المحذوف، والأخبارُ إذا تعدَّدت جاز في الثاني منها الاقترانُ بالواو وعدمُه، وهذا إنْ سلِّم أنَّ المعنى في الجمل واحد، أمَّا إذا قيل: إنَّ قولَه تعالى: «وثامنهم كلبهم» استئنافٌ منه سبحانه لا حكايةٌ عنهم، فيفهم أنَّ القائلين: سبعةٌ، أَصابوا، ولا يلزم أن يكونَ خبراً بعدَ خبر، ويقوِّيه ذِكر «رجماً بالغيب» قبلَ الثالثة، فدلَّ على أنَّها مخالفةٌ لما قبلَها في الرَّجم بالغيب، فتكون صدقاً البتَّة، إلَّا أنَّ هذا الوجهَ يَضعُف من حيث إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فلو جُعل «وثامنهم كلبهم» تصديقاً منه تعالى لمن قال: سبعة، لَوجب أن يكونَ العالِمُ بذلك كثيراً، فإن أخبارَ اللهِ تعالى صدق، فدلَّ على أنَّه لم يَصْدُقْ منهم أحد، وإذا كان كذلك، وجب أن تكونَ الجملةُ كلُّها متساويةً في المعنى، وقد تعذَّر أن تكونَ الأخيرةُ وصفاً، فوجب أن يكونَ الجميعُ كذلك. انتهى.

ويفهم أنَّ الواوَ هي المانعةُ من الوصفية، والداءُ هو الداء، فالدواءُ هو الدواء.

---

(١) يعني صاحب الفرائد، وقد سلف قوله قريباً.

وقولهُ: وإذا كان كذلك وجب. . . إلخ، كلامٌ بمراحلَ عن مقتضَى البلاغة؛ لأنَّ في كلِّ اختلافٍ فوائد، والبليغُ مَن ينظر إلى تلك الفوائد، لا مَن يردُّه إلى التطويل والحشوِ في الكلام، وأيضاً لا بدَّ من قولٍ صادقٍ من الأقوال الثلاثةِ لينطبقَ قولُه تعالى: «ما يعلمهم إلا قليل» مع قولِه سبحانه: «رجماً بالغيب» لأنَّه قد اندفع به القولان الأوَّلان، فيكون الصادقُ هذا. وتعقيبُه به أَمارةٌ على صِدقه، وذلك مفقودٌ على ما ذهب إليه السائل، ومع هذا أين طلاوةُ الكلام، وأين اللطفُ الذي تستلذُّه الأفهام؟

وما ذكره من لزوم كونِ العالِم بذلك كثيراً على تقديرِ كون «وثامنهم كلبهم» استئنافاً منه تعالى لأنَّ أخبارَ اللهِ تعالى صِدق = لا يخلو عن بحث؛ لأنَّ المصدِّق حينئذٍ هم المسلمون، وهم قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم، ولا اختصاصَ للقليل بما دونَ العشرةِ، وإنْ أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن وهب بنِ منبِّه أنَّه قال: كلُّ قليلٍ في القرآن فهو دونَ العشرة. فإنَّ ذلك في حيِّز المنع، ودون إثباته التعبُ الكثير، على أنَّه يمكن أنْ يقال: المرادُ قِلَّة العالِمين بذلك قبل تصديقِه تعالى، ولا يَبْعد أن يكونوا قليلين في حدِّ أنفسهم، من المسلمين كانوا أو من أهل الكتابِ أو منهما، نَعَم القولُ بالاستئناف ممَّا لا ينبغي أن يلتفتَ إليه وإنْ ذهب إليه بعضُ المفسِّرين.

هذا ووافق في الانتصار جماعةٌ، منهم سيِّد المحقِّقين وسندُ المدقِّقين(١) فقال: الظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: «وثامنهم كلبهم» صفةٌ لسبعةٍ كما يشهد به أخواه، وأيضاً ليس «سبعةٌ» في حكم الموصوفةِ كما قيل في «قرية» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤] حتى يصحَّ الحملُ على الحال اتِّفاقاً، ولا شكَّ أنَّ معنى الجمعِ يناسب معنى اللُّصوق، وبابُ المجازِ مفتوح، فلْتُحمَل هذه الواوُ عليه تأكيداً لِلُصوق الصفةِ بالموصوف، فتكونُ هذه أيضاً فرعاً للعاطفة كالتي بمعنى مع، والحاليَّة، والاعتراضية. وأُيِّد ذلك أيضاً بما رُوي عن ابنِ عباس.

وأُورد على تعليل منعِه للحاليَّة بعدم كونِ النَّكرة في حكم الموصوفةِ أنَّه لا ينحصر مسوِّغُ مجيءِ الحالِ من النَّكرة في كونها موصوفةً أو في حكم

---

(١) هو الشريف علي بن محمد الجرجاني.

الموصوفة، كما في الآية التي ذكرها، فقد ذَكَرَ في «المغني»[1] أنَّ من المسوِّغات اقترانَ الجملةِ الحاليةِ بالواو، فلْيحفظ.

وقد وافق ابنُ مالكٍ الرادِّين له، فقال في «شرح التسهيل»: ما ذهب إليه صاحبُ «الكشَّاف» من توسُّط الواوِ بين الصفةِ والموصوفِ فاسدٌ من خمسة أوجه:

أَحدُها: أنَّه قاسَ في ذلك الصفةَ على الحال، وبينهما فروقٌ كثيرة؛ لجواز تقدُّمِ الحالِ على صاحبها، وجوازِ تخالُفهما في الإعراب والتعريفِ والتنكير، وجواز إغناء الواوِ عن الضمير في الجملة الحاليَّة، وامتناعِ ذلك في الواقعة نعتاً، فكما ثبت مخالفةُ الحالِ الصفةَ في هذه الأَشياء، ثبتت مخالفتُها إيَّاها بمقارنة الواوِ الجملةَ الحالية، وامتناعُ ذلك في الجملة النعتيَّة.

الثاني: أنَّ مذهبَه في هذه المسألةِ لا يُعرَف بين البصريِّين والكوفيين، فوجب أَلَّا يلتفتَ إليه.

الثالث: أنه معلَّل بما لا يناسب، وذلك أنَّ الواوَ تدلُّ على الجمع بين ما قبلَها وما بعدَها، وذلك مستلزمٌ لتغايرهما، وهو ضدٌّ لِمَا يراد من التوكيد، فلا يصحُّ أن يقالَ لعاطفٍ: مؤكِّد.

الرابع: أنَّ الواوَ فَصَلت الأوَّلَ من الثاني، ولولاها لَتلاصقا، فكيف يقال: إنَّها أكَّدت لصوقَهما؟!

الخامس: أنَّ الواوَ لو صَلَحت لتأكيد لصوقِ الموصوفِ بالصفة، لَكان أَوْلى المواضعِ بها موضعاً لا يصلُح للحال؛ بخلاف جملةٍ تصلحُ في موضعها الحال. اهـ.

ويُعلَم ما فيه بالتأمُّل الصادقِ فيما تقدَّم. والعجبُ ممَّا ذكره في الوجهِ الرابع، فهو توهُّم يستغرَب من الأَطفال، فضلاً عن فحول الرِّجال، فتأمَّل ذاك، واللهُ تعالى يتولَّى هداك.

وقال بعضُهم: إنَّ ضمائرَ الأفعالِ الثلاثِ للخائضين في قصَّة أصحابِ الكهفِ

---

(١) ص٤٧٧-٤٧٨.

في عهد النبيِّ ﷺ من أهلِ الكتابِ والمسلمين، لا على وجه إسناد كلٍّ من الأفعال إلى كلِّهم، بل إلى بعضهم، فالقولُ الأوَّل لليهود على ما أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي. وقيل: لسيِّدٍ من ساداتِ نصارى العربِ النَّجرانيين، وكان يعقوبيًّا، وكان قد وفد مع جماعةٍ منهم إلى رسول الله ﷺ، فجرى ذِكرُ أصحابِ الكهف، فذكر من عدَّتهم ما قصَّه اللهُ تعالى شأنُه، ولعل التعبيرَ بضمير الجمعِ لموافقة مَن معه إيَّاه في ذلك.

والقولُ الثاني ـ على ما رُوي عن السُّدِّي أيضاً ـ للنصارى، ولم يقيِّدهم. وقيل: العاقبُ ومَن معه من نصارى نَجران، وكانوا وافدين أيضاً، وكان نسطوريًّا[1].

والقولُ الثالث: لبعض المسلمين. وكأنَّه عزَّ اسمُه لمَّا حكى الأَقوالَ قبل أن تقال[2]، لقَّنهم الحقَّ وأَرشدهم إليه بعدم نظمِ ذلك القولِ في سلك الرَّجم بالغيب كما فَعَلَ بأَخويه، وتغييرِ سَبكه بإقحام الواو، وتعقيبِه بما عقَّبه به على ما سمعتَ من كونِ ذلك أمارةً على الحقِّية، والمرادُ بالقليل ـ على هذا ـ مَن وفَّقه الله تعالى للاسترشاد بهذه الأَمارات، كابن عباسٍ ﵄، وقد مرَّ غيرَ بعيدٍ أَنَّه عدَّ من ذلك وذكر ما ظاهرُه الاستشهادُ بالواو.

وقيل: إنَّهم علموا تلك العدَّةَ من وحي غير ما ذكر، بأنْ يكونَ قد أَخبرهم ﷺ بذلك عن إعلام اللهِ تعالى إيَّاه به.

وتُعقِّب بأنَّه لو كان كذلك لَمَا خفي على الحَبر، ولَما احتاج إلى الاستشهاد، ولكان المسلمون أُسوةً له في العلم بذلك.

وأُجيب بأنَّه لا مانعَ من وقوف الحبرِ على الخبر مع جماعةٍ قليلةٍ من المسلمين، ولا يَلزم من إخباره ﷺ بشيءٍ وقوفُ جميعِ الصحابةِ عليه، فكم مِن خبرٍ تضمَّن حكماً شرعيًّا تفرَّد بروايته عنه عليه الصلاة والسلام واحدٌ منهم ﵃،

(١) جاء في هامش الأصل: نسبة إلى نسطور كان زمن الفترة كما في الكامل، وليس هو الذي في زمن المأمون كما توهم ليحتاج إلى التكلف في الجواب كما في الكشف. اهـ منه.

(٢) بعدها في (م): على ذلك.

فما ظنُّك بما هو من باب القصصِ التي لم تتضمَّن ذلك؟ واستشهادُه رضي الله عنه نصًّا لا ينافي الوقوف، بل قد يجامعه بناءً على ما وقفتَ عليه آنفاً، فهو ليس نصًّا في عدم الوقوف.

وقد أُورد على القول بأنَّ منشأَ العلمِ التلقُّنُ من هذا الوحي لما تضمَّن من الأمارات أنَّه يلزمُ من ذلك كونُ الصحابةِ السامعين للآية أسوةً لابن عباسٍ في العلم نحو ما ذكره المتعقِّب، لأنَّهم(١) العربُ الذين أُرضعوا ثديَ البلاغةِ في مهد الفصاحة، وأشرقت على آفاقِ قلوبهم وصفحاتِ أذهانهم مِن مطالع إيمانهم الاستوائيةِ أنوارُ النبوَّة المفاضةِ من شمس الحضرةِ الأحدية، وقلَّما تنزل آيةٌ ولا تُلقي عصاها في رباع أسماعِهم؛ لوفور رغبتِهم في الاستماع، ومزيدِ حرصِه ﷺ على إسماعهم، ومتى فَهِمَ الزمخشريُّ وأضرابُه من هذه الآيةِ ما فهموا، فلِمَ لمْ يفهم أصحابُه عليه الصلاة والسلام ذلك وهم هم؟ أيخطر ببالِ من له أدنَى عقلٍ أنَّ الأعجامَ شعروا وأكثرَ أولئك العربِ لم يشعروا؟ أم كيف يتصوَّر تجلِّي أسرارِ بلاغةِ القرآن لمن لا يعرف إعجازَه إلَّا بعد المشقَّةِ وتُحجب عمَّن يعرف ذلك بمجرَّد السَّليقة؟

ولا يكاد يُدفع هذا الإيرادُ إلَّا بالتزام أنَّ السامعين لهذه الآيةِ قليلون؛ لأنَّها نزلت في مكَّةَ وفي المسلمين هناك قِلَّة، مع عدم تيسُّر الاجتماعِ لهم برسول اللهِ ﷺ - وكذا اجتماعُ بعضِهم مع بعض - نحو تيسُّر ذلك في المدينة، أو بالتزام القولِ بأنَّ الملتفتين إلى ما فيها من الشَّواهد كانوا قليلين. وهذا كما ترى.

وقيل: إنَّ الضمائرَ لنصارى نَجران، تناظروا مع رسول اللهِ ﷺ في عدد أَصحابِ الكهف، فقالت المَلكانيةُ الجملةَ الأولى، واليعقوبيةُ الجملةَ الثانية، والنّسطوريةُ الجملةَ الثالثة. ويُروَى هذا عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وهو أَوْلى من القول السابقِ المحكيِّ عن بعضهم.

وقال الماورديُّ واستظهره أبو حيَّان(٢): إنَّ الضمائرَ للمتنازعين في حديثهم قبلَ ظهورِهم عليهم، فيكون قد أخبر سبحانه نبيَّه ﷺ بما كان من اختلاف قومِهم في عددهم.

---

(١) قبلها في (م): بل.
(٢) في البحر ٦/ ١١٣، وكلام الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٩٧.

ولا يخفَى أنَّه يُبعد هذا القولَ حكايةُ تلك الأقوالِ بصيغة الاستقبالِ مع تعقيبِها بقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وقد تقدَّم روايةُ أنَّ القومَ حين أَتَوا بابَ الكهفِ مع المبعوثِ لاشتراء الطعام، قال: دعوني أَدخلْ إلى أصحابي قبلَكم، فدخل وعُمِّيَ على القوم أثرُهم، وفي رواية أنَّهم كلَّما أراد أن يدخلَ عليهم أحدٌ منهم رعبوا، فتُركوا وبُني عليهم مسجد.

فلو قيل على هذا: إنَّ الضمائرَ للمعثَّرين، اختلفوا في عددهم لعدم تمكُّنهم من رؤيتهم والاجتماعِ معهم، فقالت كلُّ طائفةٍ منهم ما قالت، ولعلَّ الطائفةَ الأخيرةَ استخبرت الفتى فأخبرها بتلك العدَّة، فصدَّقته وأَخذت كلامَه بالقَبول، وتأيَّد بما عندهم من أَخبار أسلافِهم، فقالت ذلك عن يقين، ورجمت الطائفتان المتقدِّمتان لعدم ثبوتِ ما يفيد العلمَ عندهما، ولعلَّهما كانتا كافرتين = لم يَبْعُد[1] بعدَ ما نُقل عن الماورديّ، فتدبَّر.

ومن غريبِ ما قيل: إنَّ الضميرَ في «يقولون سبعة» لله عزَّ وجلّ، والجمعَ للتعظيم.

وأسماؤهم على ما صحَّ عن ابن عبَّاس: مكسلمينا، ويمليخا، ومرطولس، وثبيونس، ودردونس، وكفاشيطيطوس، ومنطنواسيس وهو الرَّاعي، والكلبُ اسمُه قطمير. ورُوي عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّ أَسماءهم: يمليخا، ومكشلينيا، ومثلينيا، وهؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش، وهؤلاء أصحابُ يسارِه، وكان يستشير السِّتَّة، والسابعُ الراعي، ولم يُذكَر في هذه الروايةِ اسمُه، وذكر فيها أنَّ اسمَ كلبِهم قطمير.

وفي صحَّة نسبةِ هذه الرِّوايةِ لعليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه مقال، وذكر العلَّامة السيوطيُّ في حواشي البيضاويِّ أنَّ الطبرانيَّ روى ذلك عن ابن عباسٍ في «معجمه الأَوسط» بإسنادٍ صحيح، والذي في «الدُّر المنثور»[2] روايةُ الطبرانيِّ في «الأَوسط» بإسنادٍ صحيحٍ ما قدَّمناه عن ابن عباس، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) جواب لقوله: فلو قيل. . .

(٢) ٢١٧/٤ وينظر ما سلف ص٢٦٩-٢٧٠ من هذا الجزء.

وقد سُمُّوا في بعض الرواياتِ بغير هذه الأسماء، وذكر الحافظُ ابنُ حجرٍ في شرح البخاريّ(١) أنَّ في النُّطق بأسمائهم اختلافاً كثيراً، ولا يقع الوثوقُ من ضبطها. وفي «البحر»(٢) أنَّ أسماءَ أصحابِ الكهفِ أعجميةٌ لا تنضبط بشكلٍ ولا نَقط، والسندُ في معرفتها ضعيف.

وذكروا لها خواصًا، فقال النيسابوريُّ(٣) عن ابن عباس: إنَّ أسماءَ أصحابِ الكهفِ تصلح للطَّلب، والهرب، وإطفاءِ الحريق، تكتب في خِرقةٍ ويُرمَى بها في وسَط النار، ولبكاء الطِّفل، تكتب وتوضع تحتَ رأسهِ في المهد، وللحرث، تكتب على القِرطاس ويرفع على خشبٍ منصوبٍ في وسَط الزَّرع، وللضَّرَبان(٤)، وللحمَّى المُثلِثة(٥)، والصُّداع، والغنى، والجاه، والدُّخولِ على السَّلاطين، تُشدُّ على الفَخِذ اليمنى، ولعُسر الولادة، تُشدُّ على الفخذ الأيسر، ولحفظ المال، والركوبِ في البحر، والنَّجاةِ من القتل. انتهى.

ولا يصحُّ ذلك عن ابن عباس ولا عن غيره من السَّلف الصالح، ولعله شيءٌ افتراه المتزيُّون بزيِّ المشايخ لأخذ الدَّراهمِ من النساء وسَخَفة العقول، وأنا أعدُّ هذا من خواصِّ أسمائهم؛ فإنَّه صحيحٌ مجرَّب.

وقرئ: «وثامنُهم كالِبُهم»(٦) أي: صاحبُ كلبِهم. واستدلَّ بعضُهم بهذه القراءة على أنَّهم ثمانيةُ رجال، وأوَّل القراءةَ المتواترةَ بأنَّها على حذف مضاف، أي: وصاحبُ كلبِهم. وهو كما ترى.

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ الفاءُ لتفريع النَّهي على ما قبلَه، والمماراةُ ـ على ما قال الرَّاغب(٧) ـ المحاجَّة فيما فيه مِرية، أي: تردُّد، وأصلُ ذلك مِن: مريتُ الناقة، إذا

---

(١) ٦/ ٥٠٥.
(٢) ٦/ ١٠١.
(٣) في غرائب القرآن ١٥/ ١١٠.
(٤) الضربان: مَوَجان العروق بالألم، وضَرَبَ العِرْقُ: هاج دمُه واختلج. ينظر شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٧٧، والمعجم الوسيط (ضرب).
(٥) أي: تعتاد المريض في اليوم الثالث.
(٦) البحر المحيط ٦/ ١١٤.
(٧) في المفردات (مري).

مسحتَ ضَرعَها للحلب. وفسَّرها غيرُ واحدٍ بالمجادلة، وهي المحاجَّة مطلقاً، أي: إذ قد وقفتَ على أنَّ في الخائضين مخطئاً ومصيباً فلا تجادِلْهم ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في شأن الفتيةِ ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ غيرَ متعمَّقٍ فيه، وذلك بالاقتصار على ما تعرَّض له الوحيُ المبينُ من غير تجهيلٍ لجميعهم؛ فإنَّ فيهم مصيباً وإن قلّ، ولا تفضيحٍ وتعنيفٍ للجاهل منهم؛ فإنَّ ذلك مما يُخلُّ بمكارم الأخلاقِ التي بُعثتَ لإتمامها.

وقال ابنُ زيد: المراءُ الظاهر: القولُ لهم: ليس كما تعلمون. وحكى الماورديُّ[١] أنَّ المراءَ الظاهرَ ما كان بحجَّةٍ ظاهرة. وقال ابن الأنباريّ: هو جدالُ العالِم المتيقِّن بحقيقة الخبر. وقال ابنُ بحر: هو ما يَشهده الناس. وقال التِّبريزي: المرادُ من الظاهر: الذاهبُ بحجَّة الخصم، يقال: ظهر، إذا ذهب، وأنشد:

وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢]

أي: ذاهب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ ولا تطلب الفُتيا ﴿فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الخائضين ﴿أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ فإنَّ فيما أفتيناك غنًى عن الاستفتاء، فيحمل على التفتِّي المنافي لمكارم الأخلاق؛ إذ الحالُ لا تقتضي تطييبَ الخواطرِ أو نحوَ ذلك.

وقيل: المعنى: لا ترجِعْ إليهم في شأن الفتية، ولا تصدِّق القولَ الثالثَ من حيث صدورُه منهم، بل من حيث التلقِّي من الوحي.

وقيل: المعنى: إذ قد عرفتَ جهلَ القولَين، فلا تجادلْهم في شأنهم إلَّا جدالاً ظاهراً، قَدْرَ ما تعرَّضَ له الوحيُ من وصفهم بالرَّجم بالغيب، ولا تستفتِ فيهم من أولئك الطائفتَين أحداً؛ لاستغنائك بما أُوتيت، مع أنَّهم لا علمَ لهم بذلك. وهو خلافُ الظاهرِ كما لا يخفى.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لأجل شيءٍ تعزمُ عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: فيما يُستقبل من الزَّمان مطلقاً، وهو تأكيدٌ لما يدلُّ عليه اسمُ الفاعل، بناءً على أنَّه حقيقةٌ في الاستقبال، ويدخل فيه الغدُ بمعنى اليومِ الذي يلي

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٢٩٨.

(٢) شطر بيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في شرح أشعار الهذليين ١/ ٧٠، وسلف ١٣/ ١٦٥.

يومَك ـ وهو المتبادِر ـ دخولاً أوّليًا؛ فإنَّ الآيةَ نزلت حين سألت قريشٌ النبيَّ ﷺ عن الرُّوح وأصحابِ الكهف وذي القَرنين، فقال عليه الصلاة والسلام: غداً أُخبرُكم، ولم يستثنِ، فأبطأ عليه ﷺ الوحيُ خمسةَ عشرَ يوماً ـ على ما رُوي عن ابن إسحاق[١]، وقيل: ثلاثةَ أيام، وقيل: أربعين يوماً ـ فشقَّ ذلك عليه عليه الصلاة والسلام، وكذَّبته قريشٌ، وحاشاه.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يبقَى على المعنى المتبادِر، وما بعدَه بذلك المعنى يُعلَم بطريق دَلالةِ النصّ. وتُعقِّب بأنَّ ما بعدَه ليس بمعناه في مناط النَّهي، وهو احتمالُ المانع؛ فإنَّ الزمانَ إذا اتَّسع قد ترتفع فيه الموانعُ أو تخفّ. وليس بشيء؛ لأنَّ المانعَ شاملٌ للموت، واحتمالُه في الزمان الواسعِ أقوَى.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ متعلِّق بالنَّهي على ما اختاره جمعٌ من المحقِّقين، وقولُ ابنِ عطيةَ[٢] اغتراراً بردِّ الطبريّ[٣]: إنَّه من الفسادِ بحيث كان الواجبُ ألَّا يُحكَى = خروجٌ عن الإنصاف.

وهو مفرَّغ من أعمِّ الأَحوال. وفي الكلام تقديرُ باءٍ للملابسة داخلةٍ على «أنْ»، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: لا تقولَنَّ ذلك في حالٍ من الأَحوال إلَّا حالَ ملابستِه بمشيئة اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تذكر.

قال في «الكشف»: إنَّ التباسَ القولِ بحقيقة المشيئةِ محال، فبقي أن يكونَ بذِكرها، وهو: إن شاءَ اللهُ تعالى، ونحوُه مما يدلُّ على تعليقه الأمورَ بمشيئة اللهِ تعالى. ورُدَّ بما يصلح أن يكونَ تأييداً لا ردًّا.

وجوِّز أن يكونَ المستثنَى منه أعمَّ الأوقات، أي: لا تقولَنَّ ذلك في وقتٍ من الأوقات إلَّا في وقت مشيئةِ اللهِ تعالى ذلك القولَ منك، وفسِّرت المشيئةُ على هذا بالإِذن؛ لأنَّ وقتَ المشيئةِ لا يُعلَم إلَّا بإعلامه تعالى به وإذنِه فيه، فيكون مآلُ المعنى: لا تقولَنَّ إلَّا بعد أن يؤذنَ لك بالقول.

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٠١، وهو في السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٠٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨-٥٠٩.

(٣) في تفسيره ١٥/ ٢٢٤-٢٢٥.

وجوِّز أيضاً أن يكونَ الاستثناءُ منقطعاً، والمقصودُ منه التأبيد، أي: ولا تقولَنَّ ذلك أبداً. ووجَّه ذلك في «الكشف» بأنَّه نهيٌ عن القول إلَّا وقتَ مشيئةِ الله تعالى، وهي مجهولة، فيجب الانتهاءُ أبداً، وأشار إلى أنَّه هو مرادُ الزمخشري[(١)]، لا ما يتوهَّم من جعلِه مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] من أنَّ التأبيدَ لعدم مشيئته تعالى فِعْلَ ذلك غداً؛ لقبحه، كالعَود في مِلَّة الكفر؛ لأنَّ القبحَ فيما نحن فيه على إطلاقه غيرُ مسلَّم. والتخصيصُ بما يتعلَّق بالوحي على معنى: لا تقولَنَّ فيما يتعلَّق بالوحي: إني أُخبرُكم به إلَّا أن يشاءَ اللهُ تعالى، واللهُ تعالى لم يشأ أن تقولَه من عندك، فإذن لا تقولنَّه أبداً = يأباه النَّكرةُ في سياق النَّهي المتضمِّنِ للنفي والتقييدِ بالمستقبل. وأنَّ قولَه: «فاعلٌ ذلك غداً» - أي: مخبرٌ عن أمرٍ يتعلَّق بالوحي غداً - غيرُ مؤذِنٍ بأنَّ قولَه في الغد يكون مِن عنده لا عن وحي، فالتشبيهُ في أنَّ الاستثناءَ بالمشيئة استُعمل في معرض التأبيدِ وإنْ كان وجهُ الدَّلالة مختلفاً، أخذاً من متعلَّق المشيئةِ تارةً ومن الجهل بها أخرى. ولا يخفى أنَّ الظاهرَ في الآية الوجهُ الأوَّل، وأنَّ أمَّته ﷺ وهو في الخطاب الذي تضمَّنته سواءٌ[(٢)].

ولا يجوزُ أن يكونَ الاستثناءُ متعلِّقاً بقوله تعالى: «إني فاعل» بأن يكونَ استثناءً مفرَّغاً ممَّا في حيِّزه من أعمِّ الأحوالِ أو الأوقات؛ لأنَّه حينئذٍ إمَّا أن تعتبرَ تعلُّقَ المشيئةِ بالفعل، فيكون المعنى: إني فاعلٌ في كلِّ حالٍ أو في كلِّ وقتٍ إلَّا في حالِ أو وقتِ مشيئةِ الله تعالى الفعل، وهو غيرُ سديد، أو يُعتبرَ تعلُّقُها بعدمه، فيكون المعنى: إنِّي فاعلٌ في كلِّ حالٍ أو في كلِّ وقتٍ إلَّا في حالٍ أو وقت مشيئةِ اللهِ تعالى عدمَ الفعل. ولا شبهةَ في عدم مناسبتِه للنَّهي، بل هو أمرٌ مطلوب.

وقال الخَفاجي[(٣)]: إذا كان الاستثناءُ متعلِّقاً بـ «إني فاعلٌ» والمشيئةُ متعلِّقةٌ بالعدم، صار المعنى: إنِّي فاعلٌ في كلِّ حالٍ إلَّا إذا شاء اللهُ تعالى عدمَ فعلي، وهذا لا يصحُّ النهيُ عنه، أمَّا على مذهب أهلِ السُّنَّة فظاهر، وأمَّا على مذهب

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) بعدها في (م): مخصوصاً بالنبي ﷺ.

(٣) في حاشيته ٦/ ٩١.

المعتزلة؛ فلأنَّهم لا يشكُّون في أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى لعدم فعلِ العبدِ الاختياريِّ إذا عرضت دونَه بإيجادِ ما يعوقُ عنه من الموت ونحوِه منعت عنه وإنْ لم تتعلَّق عندهم بإيجاده وإعدامِه، وكذا لا يصحُّ النهيُ إذا كانت المشيئةُ متعلِّقةً بالفعل في المذهبين، فما قيل: إنَّ تعلُّقَ الاستثناءِ بما ذُكر صحيح، والمعنى عليه النهيُ عن أن يذهبَ مذهبَ الاعتزالِ في خلق الأعمالِ فيضيفَها لنفسه، قائلاً: إنْ لم تقترن مشيئةُ اللهِ تعالى بالفعل فأنا فاعلُه استقلالاً، فإن اقترنت فلا = لا يخفَى ما فيه على نبيه، فتأمَّل.

وقد شاع الاعتراضُ على المعتزلة في زعمهم أنَّ المعاصيَ واقعةٌ من غير إرادة اللهِ تعالى ومشيئته، وأنَّه تعالى لا يشاء إلَّا الطاعات: بأنَّه لو كان كذلك، لَوَجب فيما إذا قال الذي عليه دَينٌ لغيره قد طالبه به: واللهِ لأُعطينَّك حقَّك غداً إن شاءَ اللهُ تعالى، أن يكونَ حانثاً إذا لم يفعل؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد شاء ذلك، لكونه طاعة، وإنْ لم يقع فتلزمه الكفارةُ عن يمينه ولم ينفعْه الاستثناء، كما لو قال: واللهِ لأُعطينَّك إنْ قام زيد، فقام ولم يفعل، وفي التزام الحنثِ في ذلك خروجٌ عن الإِجماع.

وقد أَجاب عنه المرتضَى بأنَّ للاستثناء الداخلِ في الكلام وجوهاً مختلفة، فقد يدخل في الأَيمان والطلاقِ والعتاقِ وسائرِ العقود وما يَجري مَجراها من الأَخبار، وهذا يقتضي التوقُّفَ عن إِمضاء الكلام، والمنعَ من لزوم ما يلزمُ به، ويصير به الكلامُ كأنَّه لا حكمَ له، ويصحُّ في هذا الوجهِ الاستثناءُ في الماضي، فيقال: قد دخلتُ الدارَ إن شاء اللهُ تعالى، ليخرجَ بذلك من أن يكونَ خبراً قاطعاً أو يلزمَ به حكم، ولا يصحُّ في المعاصي؛ لأنَّ فيه إظهارَ الانقطاعِ إلى الله تعالى، والمعاصي لا يصلُح ذلك فيها.

قال: وهذا الوجهُ أحدُ محتملاتِ الآية، وقد يدخل في الكلام ويرادُ به التسهيلُ والإِقدار والتخليةُ والبقاءُ على ما هو عليه من الأَحوال، وهذا هو المرادُ إذا دخل في المباحات، وهو ممكنٌ في الآية، وقد يدخل لمجرَّد غرضِ الانقطاعِ إلى الله تعالى، ويكون على هذا غيرَ معتدٍّ به في كون الكلامِ صادقاً أو كاذباً، وهو أيضاً ممكنٌ في الآية، وقد يدخل ويراد به اللطفُ والتسهيل، وهذا يختصُّ بالطاعات،

ولا يصحُّ أن تُحمَلَ الآيةُ عليه؛ لأنَّها تتناول كلَّ ما لم يكن قبيحاً[١]. وقولُ المديونِ السابقِ إنْ قُصِد به هذا المعنى، لا يلزمُ منه الحنثُ إذا لم يفعل، ويديَّن المديون وغيرُه إن ادَّعى قصدَ ما لا يلزمه فيه شيءٌ، فلا ورودَ لما اعترضوا به. والإنصافُ أنَّ الاعتراضَ ليس بشيء، والردُّ عليهم غنيٌّ عن مِثل ذلك.

هذا ثمَّ اعلمْ أنَّ إطلاقَ الاستثناءِ على التقييد بإنشاء اللهُ تعالى، بل على التقييد بالشَّرط مطلقاً، ثابتٌ في اللغةِ والاستعمال، كما نصَّ عليه السيرافيُّ في شرح «الكتاب».

وقال الراغب[٢]: الاستثناءُ دفعُ ما يوجبه عمومٌ سابق، كما في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلخ [الأنعام: ١٤٥]، أو دفعُ ما يوجِبه اللفظ، كقوله: امرأتُه طالقٌ إن شاءَ اللهُ تعالى. انتهى.

وفي الحديث: «مَن حلف على شيءٍ فقال: إن شاءَ اللهُ تعالى، فقد استثنَى»[٣] فما قيل: إنَّ كلمةَ: إن شاء اللهُ تعالى، تسمَّى استثناءً لأنَّه عبَّر عنها هنا بقولِه سبحانه: (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) ليس بسديد، فكذا ما قيل: إنَّها أشبهت الاستثناءَ في التخصيص فأُطلق عليها اسمُه، كذا قال الخَفاجي[٤]. ولا يخفَى أنَّ في الحديث نوعَ إباءٍ لدعوى أنَّ إطلاقَ الاستثناءِ على التقييد بإن شاء اللهُ تعالى لغويّ؛ لأنَّه ﷺ لم يُبعَث لإِفادة المدلولاتِ اللغوية، بل لتبليغ الأحكامِ الشرعيَّة، فتذكَّر.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مشيئةَ ربِّك، فالكلامُ على حذفِ مضاف، وذِكرُ مشيئته تعالى ـ على ما يدلُّ عليه ما قبل ـ أن يقال: إن شاءَ اللهُ تعالى، وقد قال ذلك رسولُ اللهِ ﷺ حين نزلت.

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا فرط منك نسيانُ ذلك ثم تذكَّرتَه؛ فإنَّه ما دام ناسياً لا يؤمر بالذِّكر، وهو أمرٌ بالتدارك عند التذكُّر، سواءٌ قَصُرَ الفصلُ أم طال. وقد

(١) أمالي المرتضى ٢/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) في المفردات (ثني).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٦١)، والترمذي (١٥٣١) وحسَّنه، والنسائي ٧/ ٢٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند النسائي ٧/ ٢٥، وابن ماجه (٢١٠٦) بألفاظ قريبة.

(٤) في حاشيته ٦/ ٩٠.

أَخرج ابن جَريرٍ والطبرانيُّ وابنُ المنذر وغيرُهم عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه كان يرى الاستثناءَ ولو بعد سَنَةٍ ويقرأ الآية(١)، ورُوي ذلك عن أئمَّة أهلِ البيتِ ﵃، وهو روايةٌ عن الإمام أحمدَ عليه الرحمة.

وأخرج ابنُ المنذرِ عن ابن جُبَير في رجلٍ حلف ونسي أن يستثني، قال: له ثُنياه إلى شهر.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق عَمرِو بن دينار، عن عطاءٍ أنَّه قال: مَن حلف على يمين فله الثُّنيا حلبَ ناقة، قال: وكان طاوسٌ يقول: ما دام في مجلسِه.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ أيضاً عن إبراهيمَ قال: يَستثني ما دام في كلامِه(٢).

وعامةُ الفقهاءِ على اشتراط اتِّصال الاستثناءِ في عدم الحِنث، ولو صحَّ جوازُ الفصلِ وعدمُ تأثيرِه في الأَحكام، لاسيَّما إلى الغاية المرويَّةِ عن ابن عباس، لَمَا تقرَّر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عتاق، ولم يُعلَم صِدقٌ ولا كَذِب.

ويُحكَى أنَّه بلغ المنصورَ أنَّ أبا حنيفةَ ﵁ خالف ابنَ عباسٍ في هذه المسألة، فاستحضره ليُنكرَ عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجعُ إليك، إنَّك تأخذ البَيعةَ بالأَيمان، أَفترضَى أنْ يخرجوا مِن عندِك فيستثنوا فيَخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامَه.

ومن غريبِ ما يُحكَى أنَّ رجلاً من علماء المغربِ أحبَّ أن يرى علماءَ بغدادَ ويتحقَّقَ مبلغَ علمِهم، فشدَّ الرَّحلَ للاجتماع معهم، فدخل بغدادَ من باب الكرخ، فصادف رجلَين يمشيان أَمامه يبيعان البقلَ في أَطباقٍ على رؤوسهما، فسمع أحدَهما يقول لصاحبه: يا فلان، إنِّي لأَعجبُ من ابن عباسٍ ﵄ كيف جوَّز فصلَ الاستثناءِ وقال بعدم تأثيره في الأَحكام، ولو كان الأمرُ كما يقول، لأَمر اللهُ تعالى نبيَّه أيوبَ عليه السلام بالاستثناء لئلَّا يحنث؛ فإنَّه أقلُّ مؤنةً ممَّا أَرشده سبحانه إليه بقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤] وليس بين [illegible]

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٢٥، والمعجم الأوسط (١١٩)، والكبير (١١٠٦٩)، والدر المنثور ٤/٢١٨.

(٢) نقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/٢١٨.

بما ذُكِر أكثرُ من سَنَة. فرجع ذلك الرجلُ إلى بلده واكتفى بما سمع ورأى، فسئل: كيف وجدتَ علماءَ بغداد؟ فقال: رأيتُ مَن يبيع البقلَ على رأسه في الطُّرقات من أَهلها بلغ مبلغاً من العلمِ يعترض به على ابن عباسٍ ﵄، فما ظنُّك بأهل المدارسِ المنقطعين لخدمة العلم؟

والإنصافُ أنَّ هذا الاعتراضَ على عِلَّاته[1] يُستكثَر ممَّن يبيع البقل، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّة النقل. لا يقال: إنَّ ظاهرَ الآيةِ ـ على ما سمعتَ ـ يطابقُ ما ذهب إليه الحبر، وإلَّا لم يكن للتدارك معنًى، وكذا ما جاءَ في الخبر = لِمَا قالوا: إنَّ التداركَ فيما يرجع إلى تفويض العبدِ يحصل بذِكره بعد التنبُّه[2]، أمَّا في التأثيرِ في الحكم حتى يُخرجَه عن الجزم، فليست الآيةُ مسوقةً له، ولا دالَّةً عليه بوجه.

وقال بعضُهم: إنَّ ذلك من خصائصه ﷺ، فله عليه الصلاة والسلام أن يستثنيَ ولو بعد حين؛ بخلاف غيرِه. فقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه والطبرانيُّ في «الكبير» بسندٍ متَّصل عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال في الآية: إذا نسيتَ الاستثناءَ فاستثنِ إذا ذكرت، ثم قال: هي خاصَّة لرسول الله ﷺ، وليس لأَحدنا أن يستثنيَ إلَّا في صِلةِ يمين[3].

وقيل: ليس في الآية والخبرِ أنَّ الاستثناءَ المتداركَ من القولِ السابق، بل من مقدَّر مدلولٍ به عليه، والتقديرُ في الآية: كلَّما نسيتَ ذِكرَ اللهِ تعالى اذكُرْه حين التذكُّر إن شاء الله تعالى، وفي الحديث[4]: لا أنسى المشيئةَ بعد اليومِ ولا أَتركها إن شاء اللهُ تعالى. أو: أقولُ: إن شاءَ اللهُ تعالى، إذا قلتُ: إني فاعلٌ أمراً فيما بعد. ولا يخفَى أنَّه خلافُ الظاهرِ جدًّا.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: واذكُرْ ربَّك بالتسبيح والاستغفارِ إذا نسيتَ الاستثناء، والمرادُ من ذلك المبالغةُ في الحثِّ عليه، بإيهام أنَّ تركَه من الذُّنوب التي يجب لها التوبةُ والاستغفار.

---

(١) في (م): علامة.

(٢) في الأصل: التنبيه.

(٣) المعجم الكبير (١١١٤٣)، والدر المنثور ٤/ ٢١٨.

(٤) أي: والتقدير في الحديث...

وقيل: المعنى: واذكُرْ ربَّك وعقابَه إذا تركتَ بعضَ ما أمرك به؛ ليبعثَك ذلك على التدارُك. وحملُ النسيانِ على الترك مجازٌ لعلاقة السببيةِ والمسبَّبية. أو: اذكُر ربَّك إذا عرض لك نسيانٌ ليذكِّرَك المَنسيّ، و«نسيتَ» على هذا مُنزلٌ منزلةَ اللازم، ولا يخفَى بُعدُ ارتباطِ الآيةِ على هذين المعنيَين بما سبق.

وحَمَلَ قتادةُ الآيةَ على أداء الصلاةِ المنسيةِ عند ذِكرها. فإنْ أراد أنَّ المرادَ من الآية: واقضِ الصلاةَ المنسيةَ إذ ذكرتَها، فهو كما ترى، وأمرُ الارتباطِ كما في سابقه. وإنْ أراد أنَّها تدلُّ على الأمر بقضاء الصلاةِ المنسيةِ عند ذِكرها، لِمَا أنَّها دلَّت على الأمر بذكر الاستثناءِ المنسيّ، وأمرُ الصلاةِ أشدّ، والاهتمامُ بها أعظم = فالأمرُ أسهل، ولكن ظاهر كلامِهم أنَّه أراد الأوَّل.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» وغيرُهما عن عكرمةَ أنَّه قال في الآية: أي: اذكر ربَّك إذا غضبت[١]. ووجهُ تفسيرِ النِّسيان بالغضب أنَّه سببٌ للنسيان. وأمرُ هذا القولِ نظيرُ ما مرّ.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي: يوفِّقني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيءٍ أقربَ وأظهرَ من نبأ أصحابِ الكهف، من الآيات والدَّلائلِ الدالَّة على نبوَّتي ﴿رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ إرشاداً للناس ودَلالةً على ذلك. وإلى هذا ذهب الزجَّاج[٢].

وقد فعل ذلك عزَّ وجلَّ حيث آتاه من الآيات البيِّنات ما هو أعظمُ من ذلك وأبيَن، كقصص الأنبياءِ عليهم السلام المتباعدةِ أيامُهم، والحوادثِ النازلةِ في الأعصار المستقبلةِ إلى قيام السَّاعة، وكأنَّه تهوينٌ منه عزَّ وجلَّ لأمر قصةِ أصحابِ الكهف، كما هوَّنه جلَّ وعلا أوَّلاً بقوله سبحانه: (أَمْ حَسِبْتَ) إلخ.

وهو متعلِّق بمجموع القِصَّة، وعَطَفه بعضُ الأفاضلِ على العاملِ في قوله تعالى: (إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ) كأنَّه قيل: اذكر إذ أوى الفتية... إلخ، وقل: عسى أن يهديَني ربِّي لِمَا هو أَظهرُ من ذلك دلالةً على نبوَّتي.

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧١: إذا عصيت. ثم قال: وقال بعضهم: إذا غضبت. وفي شعب الإيمان ٦/ ٣٠٢ كما ذكر المصنف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٨.

وقال الجبَّائي: هو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ إلى آخره. والمعنى عنده: ادعُ ربَّك سبحانه وتعالى إذا نسيتَ شيئاً أن يذكِّرَك إيَّاه، وقل إنْ لم يذكِّرك سبحانه: عسى أن يهديَني لشيءٍ أقربَ من المنسيِّ خيراً ومنفعةً، فـ «هذا» إشارةٌ إلى المنسيّ، والرَّشَد: الخيرُ والمنفعة، و«أقرب» على معناه الحقيقيّ. ولا يخفَى أنَّ هذا أقربُ من جهة المتعلَّق وأبعدُ من جهات.

وقيل: إنَّه متعلِّق بالمتعاطفات قبلَه، و«هذا» إشارةٌ إلى ما تضمَّنته من الخير أمراً ونهياً، كأنَّه قيل: اِفعلْ كذا ولا تفعلْ كذا، واطمعْ من ربِّك أن يهديَك لأقربَ مما أُرشدتَ إليه في ضمن ما سمعتَ من الأمر والنهيِ خيراً ومنفعة. وقد هُدي ﷺ في ضمن ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام بعدَ ذلك من الأوامر والنَّواهي إلى ما هو أقربُ من ذلك منفعة، ولا يكاد يُحصَى. وهو كما ترى. ولعله - على عِلَّاته - أقربُ ممَّا نقل عن الجبَّائي.

وقال ابنُ الأنباري: معنى الآية: عسى أن يعرِّفَني ربِّي جوابَ مسائلِكم قبل الوقتِ الذي حدَّدتُه لكم، ويعجِّلَ لي من جهته الرَّشاد. ولا يكاد يُستفاد هذا المعنى من الآية، وعلى فَرْض الاستفادةِ تكون نظيرَ استفادةِ المعاني المرادةِ من المعمَّيات، ويَجلُّ كتابُ اللهِ تعالى الكريمُ عن ذلك.

وأخرج البيهقيُّ(١) من طريق المعتمرِ بن سليمانَ قال: سمعت أبي يحدِّث عن رجلٍ من أهل الكوفةِ أنَّه كان يقول: إذا نسي الإنسانُ الاستثناء، فتوبتُه أن يقول: «عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً» وحكاه أبو حيَّان عن محمدٍ الكوفيِّ المفسِّر(٢)، والظاهرُ أنَّه الرجلُ الذي ذكره المعتمِر(٣). وهو قولٌ لا دليلَ عليه.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ أحياءً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ وهي جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنة - كما قال مجاهد - لِمَا أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ واختار ذلك غيرُ واحد.

---

(١) في الأسماء والصفات (٣٦٧)، وابن جرير في تفسيره ١٥/ ٢٢٨.

(٢) البحر ٦/ ١١٦.

(٣) وهو كذلك، فقد جاء في الأسماء والصفات وتفسير ابن جرير: عن أبيه، عن محمد رجل من أهل الكوفة كان يفسر القرآن. . .

قال في «الكشف»: فعلى هذا قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ تقريرٌ لكون المدَّةِ المضروبِ فيها على آذانهم هي هذه المدَّة، كأنَّه قيل: قل: اللهُ أعلمُ بما لبثوا، وقد أعلَم، فهو الحقُّ الصحيحُ الذي لا يحوم حولَه شكٌّ قط.

وفائدةُ تأخيرِ البيانِ التنبيهُ على أنَّهم تنازعوا في ذلك أيضاً؛ لذِكره عقيبَ اختلافِهم في عدَّة أشخاصهم، وليكونَ التذييلُ بـ «قُل اللهُ أعلمُ» محاكياً للتَّذييل بقوله سبحانه: (قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم) وللدَّلالة على أنَّه من الغيب الذي أُخبر به عليه الصلاة والسلام ليكونَ معجزاً له، ولو قيل: فضربنا على آذانِهم سنينَ عدداً، وأُتي به مبيَّناً أوَّلاً، لم يكن فيه هذه الدَّلالةُ البتَّة. فهذه عدَّةُ فوائد، والأصلُ الأخيرة. انتهى.

ويُحتاج ـ على هذا ـ إلى بيان وجهِ العدولِ عن المتبادِر، وهو ثلاثُ مئةٍ وتسعُ سنين، مع أنَّه أخصَرُ وأظهر، فقيل: هو الإشارةُ إلى أنَّها ثلاثُ مئةٍ بحساب أهلِ الكتابِ واعتبارِ السَّنَة الشمسيَّة، وثلاثُ مئةٍ وتسعٌ بحساب العربِ واعتبارِ السَّنة القمرية، فالتِّسعُ مقدارُ التفاوت. وقد نقله بعضُهم عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه.

واعتُرض بأنَّ دلالةَ اللفظِ على ما ذُكر غيرُ ظاهرة، مع أنَّه لا يوافق ما عليه الحُسَّاب والمنجِّمون، كما قاله الإمام[١]؛ لأنَّ السنةَ الشمسيةَ ثلاثُ مئةٍ وخمسٌ وستُّون يوماً وخمسُ ساعاتٍ وتسعٌ وأربعون دقيقةً على مقتضَى الرَّصدِ الإيلخاني، والسَّنةَ القمريةَ ثلاثُ مئةٍ وأربعةٌ وخمسون يوماً وثمانِ ساعاتٍ وثمانٍ وأربعون دقيقة، فيكون التفاوتُ بينهما عشرةَ أيامٍ وإحدى وعشرين ساعةً ودقيقةً واحدة، وإذا كان هذا تفاوتَ سَنَة، كان تفاوتُ مئة سَنَةٍ ألفَ يوم وسبعةً وثمانين يوماً وثلاث[٢] عشرةَ ساعةً وأربعَ دقائق، وهي ثلاثةُ سنينَ وأربعةٌ وعشرون يوماً وإحدى عشرة ساعةً وستَّ عشرةَ دقيقة، فيكون تفاوتُ ثلاثِ مئةِ سنةٍ تسعَ سنينَ وثلاثاً وسبعين يوماً وتسعَ ساعاتٍ وثمانياً وأربعين دقيقة[٣]؛ ولذا قيل: إنَّ روايتَه عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه لم تثبت.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ١١٢.

(٢) في الأصل و(م): وثلاثة.

(٣) جاء في هامش الأصل: وإذا اعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا أربعة وعشرين يوماً وإحدى عشرة ساعة وإحدى وعشرين دقيقة. اهـ. منه.

وبحث فيه الخفاجيُّ[1] بأنَّ وجهَ الدلالةِ فيه ظاهر؛ لأنَّ المعنى: لبثوا ثلاثَ مئةِ سنةٍ على حساب أهلِ الكتابِ الذين علَّموا قومَك السؤالَ عن شأنهم، وتسعاً زائدةً على حساب قومِك الذين سألوكَ عن ذلك، والعدولُ عن الظاهر يُشعر به، ودعوى أنَّ التفاوتَ تسعُ سنين مبنيَّةٌ على التقريب؛ لأنَّ الزائدَ لم يبلغ نصفَ سنة، بل ولا فصلاً من فصولِها، فلم يعبأْ به، وكونُ التفاوتِ تسعاً تقريباً جارٍ على سائر الأقوالِ في مقدار السنةِ الشمسيةِ والسنةِ القمرية؛ إذ التفاوتُ في سائرها لا يكاد يبلغ رُبعاً فضلاً عن نصف.

وقال الطِّيبي في توجيهِ العدول: إنَّه يمكن أن يقال: لعلهم لمَّا استكملوا ثلاثَ مئةِ سنة، قَرُبوا من الانتباه، ثم اتَّفق ما أوجب بقاءهم نائمين تسعَ سنين.

وتعقَّب بأنَّ هذا يقتضي أن يكونَ المراد: وازدادوا نوماً، أي: قَوِي نومُهم في تِسع سنين، ولا يخفَى ما فيه.

وقال أيضاً: يجوز أن يكونَ أهلُ الكتابِ قد اختلفوا في مدَّة لَبثهم كما اختلفوا في عِدَّتهم، فجاء قولُه تعالى: «ولبثوا...» إلخ رافعاً للاختلاف مبيِّناً للحقّ، ويكون «وازدادوا تسعاً» تقريراً ودفعاً للاحتمال، نظير الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وسيجيءُ بيانُه إن شاء الله تعالى، ولا يخلو عن حُسْن.

وقيل: إنَّهم انتبهوا قليلاً ثم رُدُّوا إلى حالتهم الأُولى؛ فلذا ذُكر الازدياد، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادةَ المارُّ في قوله تعالى: (وَنُقَلِّبُهُمْ) إلخ، وهو ـ فيما أرى ـ أقربُ مما تقدَّم من حديث السنينَ الشمسيةِ والقمرية.

وقال جمع: إنَّ الجملةَ من كلام أهلِ الكتاب، فهي مِن مقول «سيقولون» السَّابق، وما بينهما اعتراضٌ. ونُسب ذلك إلى ابن عباس، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عنه رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ الرجلَ لَيفسِّر الآيةَ يرى أنَّها كذلك، فيَهوي أبعدَ ما بين السماءِ والأرض، ثم تلا: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ) الآيةَ، ثم قال: كم لبثَ

(١) في حاشيته ٦/ ٩٢.

القوم؟ قالوا: ثلاثَ مئةٍ وتسعَ سنين، فقال: لو كانوا لبثوا كذلك، لم يقل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ ولكنَّه سبحانه حكى مقالةَ القومِ فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ فأخبر أنَّهم لا يعلمون وقال: سيقولون: لبثوا في كهفهم ثلاثَ مئةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً[1].

ولعل هذا لا يصحُّ عن الحَبر رضي الله عنه، فقد صحَّ عنه القولُ بأن عِدَّةَ أصحابِ الكهف سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم، مع أنَّه تعالى عقَّب القولَ بذلك بقوله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ولا فرقَ بينه وبين قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ فلمَ دلَّ هذا على الردِّ ولم يدلَّ ذاك؟

نعم قرأ ابنُ مسعود: «وقالوا لَبِثوا في كهفِهم»[2] وهو يقتضي أن يكونَ من كلام الخائضين في شأنهم، إلَّا أنَّ التعقيبَ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ كتعقيب القولِ الثالثِ في العِدَّة بما سمعتَ في عدم الدَّلالةِ على الردّ.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ «وازدادوا» على هذا القولِ لأَصحاب الكهف، كما أنَّه كذلك على القولِ السابق.

وقال الخَفاجي[3]: إنَّ الضميرَ عليه لأَهل الكتاب، بخلافه على الأوَّل، ويظهر فيه وجهُ العدولِ عن ثلاث مئةٍ وتسع سنين؛ لأنَّ بعضَهم قال: لبثوا ثلاثَ مئةٍ، وبعضهم قال: إنَّه أَزيدُ بتسعة. اهـ. ولا يخفَى ما فيه.

وعلى القولين الظاهرُ أنَّ «بما لبثوا» إشارةٌ إلى المدَّة السابق ذِكرُها، وزعم بعضُهم أنَّه إشارةٌ إلى المدَّة التي بعد الإِطلاعِ عليهم إلى زمن الرَّسولِ ﷺ. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا قال: «وازدادوا تسعاً» كانت التِّسعُ مبهمة، لا يدرَى أنَّها سِنونَ أم شهورٌ أم أيامٌ أم ساعات، واختلف في ذلك بنو إسرائيل، فأُمر ﷺ بردِّ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٨.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣١، والكشاف ٢/ ٤٨١، والبحر المحيط ٦/ ١١٦. وجاء في الأصل و(م): لبثوا كهفهم، والمثبت من المصادر.

(٣) في حاشيته ٦/ ٩٣.

العلم إليه عزَّ وجلَّ في التِّسع فقط. اهـ، وليس بشيء؛ فإنَّه إذا سبق عددٌ مفسَّر وعُطف عليه ما لم يفسَّر، حُمِل تفسيرُه على السابق، ف : عندي مئةُ درهمٍ وعشرة، ظاهرٌ في: وعشرةِ دراهم، وليس بمجمَلٍ كما لا يخفَى.

هذا ونصب «تسعاً» على أنَّه مفعولُ «ازدادوا» وهو ممَّا يتعدَّى إلى واحد. وقال أبو البقاءِ[1]: إنَّ زَادَ يتعدَّى إلى اثنين، وإذا بُني على افتعل تعدَّى إلى واحد. وظاهرُ كلامِ الراغبِ[2] وغيرِه أنَّ زاد قد يتعدَّى إلى واحد، يقال: زدتُه كذا، فزادَ هو وازداد كذا. ووجهُ ذلك ظاهرٌ فلا تغفُل.

والجمهورُ على أنَّ «سنين» في القراءة بتنوين «مئة» منصوب، لكن اختلفوا في توجيهِ ذلك:

فقال أبو البقاءِ[3] وابنُ الحاجب: هو منصوبٌ على البدليَّة من «ثلاث مئة».

وقال الزَّمخشريّ[4]: على أنَّه عطفُ بيانٍ لـ «ثلاث مئة» وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه لا يجوز على مذهب البصريِّين[5].

وادَّعى بعضُهم أنه أَوْلى من البدلية؛ لأنَّها تستلزم ألَّا يكونَ العددُ مقصوداً، ويؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ وابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتمٍ عن الضحَّاك قال: لمَّا نزلت هذه الآيةُ ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ قيل: يا رسولَ الله، أياماً أم أشهراً أم سنين؟ فأنزل اللهُ تعالى ﴿سِنِينَ﴾[6].

وجوَّز ابنُ عطية[7] الوجهين.

وقيل: على التميز. وتُعقِّب بأنَّه يلزم عليه الشذوذُ من وجهَين، وستعلم وجهَه قريباً إن شاء اللهُ تعالى، وبما نقل في «المفصَّل» عن الزجَّاج أنَّه يلزمُ أن يكونوا

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٣.
(٢) في المفردات (زيد).
(٣) في الإملاء ٣/ ٥١٣.
(٤) في الكشاف ٢/ ٤٨١.
(٥) البحر ٦/ ١١٧.
(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٠، والدر المنثور ٤/ ٢١٨، وعنه نقل المصنف.
(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

لبثوا تسعَ مئةِ سنة[1]، قال ابنُ الحاجب: ووجهُه أنَّه فهم من لغتهم أنَّ مميِّزَ المئةِ واحدٌ من مئة، كما إذا قلت: مئة رجل، فـ «رجل» واحدٌ من المئة، فلو كان «سنين» تمييزاً، لَكان واحداً من ثلاث مئة، وأقلُّ السنين ثلاثة، فكان كأنَّه قيل: ثلاثُ مئةِ ثلاثِ سنين، فيكون تسعَ مئةِ سنة.

ويُردُّ بأنَّ ما ذُكر مخصوصٌ بما إذا كان التمييزُ مفرَداً، وأمَّا إذا كان جمعاً، فالقصدُ فيه كالقصد في وقوع التمييزِ جمعاً في نحو: ثلاثةُ أثواب، مع أنَّ الأصلَ في الجميع الجمعُ، وإنَّما عدلوا إلى المفرَد لعِلَّة كما بيِّن في محلِّه، فإذا استُعمل التمييزُ جمعاً استُعمل على الأصل، وما قال إنَّما يلزم لو كان ما استُعمل جمعاً استُعمل كما استُعمل المفرد، فأمَّا إذا استُعمل الجمعُ على أَصله فيما وضع له العددُ، فلا. انتهى.

وقد صرَّح الخفاجيُّ[2] أنَّ ذلك كتقابُل الجمعِ بالجمع.

وجوَّز الزجَّاج[3] كونَ «سنين» مجروراً على أنَّه نعتُ «مئة» وهو راجعٌ في المعنى إلى جملةِ العدد، كما في قولِ عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلوبةً ... سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأَسحمِ[4]

حيث جعل سوداً نعتاً لحَلوبةً، وهي في المعنى نعتٌ لجملة العدد.

وقال أبو عليّ[5]: لا يمتنع أن يكونَ الشاعرُ اعتبر حَلوبةً جمعاً، وجعل سُوداً وصفاً لها، وإذا كان المرادُ به الجمع، فلا يمتنعُ أن يقعَ تفسيراً لهذا الضربِ من العددِ من حيث كان على لفظ الآحاد، كما يقال: عشرون نفراً، وثلاثون قَبيلاً.

وقرأ حمزة، والكِسائي، وطلحة، ويحيى، والأعمش، والحسن، وابنُ أبي ليلى، وخَلَف، وابنُ سعدان، وابنُ عيسى الأصبهاني، وابن جُبَيرٍ الأنطاكي:

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٦/ ٢١.
(٢) في حاشيته ٦/ ٩٣.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٨.
(٤) الديوان ص١٧.
(٥) في الحجة ٥/ ١٣٨.

«ثلاثَ مئةِ سنين»[١] بإضافة «مئة» إلى «سنين»، وما نُقل عن الزجّاج يَرِد هنا أيضاً، ويُرَدُّ بما رُدَّ به هناك، ولا وجهَ لتخصيص الإيراد بنصب «سنينَ» على التمييز، فإنَّ منشأَ اللزومِ على فَرْض تسليمِه كونُه تمييزاً، وهو متحقِّق إذا جُرَّ أيضاً، وجرُّ تمييزِ المئةِ بالإضافة أحدُ الأمرَين المشهورَين فيه استعمالاً، وثانيهما كونُه مفرداً، ولكون الإفراد مشهوراً في الاستعمال أُطلق عليه الأَصل، فهو أصلٌ بحسَب الاستعمال.

ولا ينافي هذا قولُ ابنِ الحاجب: إنَّ الأصلَ في التمييز مطلقاً الجمع، كما سمعتَ آنفاً؛ لأنَّه أراد أنَّه الأصلُ المرفوضُ قياساً، نظراً إلى أنَّ المئةَ جمعٌ كثلاثةٍ وأربعةٍ ونحوِهما، كذا في «الكشف»، وقد يَخرج عن الاستعمالِ المشهورِ فيأتي مفرداً منصوباً، كما في قوله:

إذا عاش الفتى مئتينِ عاماً   فقد ذهب اللَّذاذةُ والفَتاءُ[٢]

وقد يأتي جمعاً مجروراً بالإضافة، كما في الآية على قراءة الكِسائيِّ وحمزةَ ومَن معهما، لكن قالوا: إنَّ الجمعَ المذكورَ فيها قد أُجري مُجرَى العاري عن علامةِ الجمع؛ لِمَا أنَّ العلامةَ فيه ليست متمحِّضةً للجمعية، لأنَّها كالعِوَض عن لام مفردِه المحذوفة، حتى إنَّ قوماً لا يُعربونه بالحروف، بل يُجرونه مُجرَى حين، ولم أجدْ فيما عندي من كتب العربيةِ شاهداً من كلام العربِ لإضافة المئةِ إلى جمع، وأكثرُ النَّحويين يوردون الآيةَ على قراءة حمزةَ والكسائيِّ شاهداً لذلك، وكفى بكلام اللهِ تعالى شاهداً.

وقرأ أُبَيّ: «ثلاثَ مئةِ سَنَة» بالإضافة والإفراد[٣]، كما هو الاستعمالُ الشائع، وكذا في مصحفِ ابنِ مسعود[٤].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٧ وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة خلف في النشر.
(٢) قائله الربيع بن ضَبُع الفَزاري، كما في الكتاب ١/ ٢٠٨، والخزانة ٣/ ٣٠٦ (دار صادر).
(٣) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٧.
(٤) البحر ٦/ ١١٧.

وقرأ الضحَّاك: «ثلاثَ مئةٍ سِنون» بالتنوين ورفعِ «سِنونَ» على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي سِنون[١].

وقرأ الحسنُ وأبو عَمرٍو في رواية اللؤلؤيِّ عنه: «تَسعاً» بفتح التاءِ[٢]، وهو لغةٌ فيه فاعلَمْ، واللهُ تعالى أعلم.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: جميعُ ما غاب فيهما، وخَفِي من أحوال أهلِهما، فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائبِ والخفيّ، جُعل عينَه للمبالغة، واللامُ للاختصاص العلميّ، أي: له تعالى ذلك علماً، ويلزم منه ثبوتُ علمِه سبحانَه بسائر المخلوقات؛ لأنَّ مَن عَلِمَ الخفيَّ عَلِمَ غيرَه بالطريق الأَوْلى.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ صيغتا تعجُّب، والهاءُ ضميرُه تعالى، والكلامُ مندرجٌ تحت القول، فليس التعجُّب منه سبحانه ليقال: ليس المرادُ منه حقيقتَه لاستحالتِه عليه تعالى، بل المرادُ أنَّ ذلك أمرٌ عظيمٌ مِن شأنه أن يُتعجَّبَ منه كما قيل، ولا يمتنع صدورُ التعجُّب من بعض صفاتِه سبحانه وأفعالِه عزَّ وجلَّ حقيقةً من غيره تعالى.

وفي الحديث[٣]: «ما أَحلمَك عمَّن عصاك، وأقربَك ممَّن دعاك، وأعطفَك على مَن سألك» ولهم في هذه المسألةِ كلامٌ طويل، فليرجعْ إليه مَن أَراده، ولابن هشامٍ رسالةٌ في ذلك.

وأيًّاما كان، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ شأنَ بصرِه تعالى وسمعِه عزَّ وجلّ ـ وهما صفتان غيرُ راجعتَين إلى صفة العلم ـ خارجٌ عمَّا عليه بصرُ المبصِرين وسمعُ السامعين، فإنَّ اللطيفَ والكثيف، والصغيرَ والكبير، والجليَّ والخفيّ، والسِّرَّ والعلن، على حدٍّ سواءٍ في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعِه تبارك وتعالى، بل مِن الناس مَن قال: إنَّ المعدومَ والموجودَ في ذلك سواء، وهو مبنيٌّ على شيئيَّة المعدوم، والخلافُ في ذلك معلوم، ولعل تقديمَ ما يدلُّ على عِظَم شأنِ بصرِه عزَّ وجلَّ لِمَا أنَّ ما نحن بصدده مِن قَبيل المُبصَرات.

---

(١) البحر ٦/ ١١٧.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٧.
(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ٩٣، ولم نقف عليه حديثاً.

والأصل: أَبْصَرَ وأَسْمَعَ، والهمزةُ للصَّيرورة، لا للتعدية، أي: صار ذا بَصَر، و: صار ذا سَمْع، ولا يقتضي ذلك عدمَ تحقُّقِهما له تعالى، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، وفيهما ضميرٌ مستترٌ عائدٌ عليه سبحانه، ثم حوِّلا إلى صيغة الأمر، وبرز الضميرُ الفاعلُ لعدم لِيَاقةِ صيغةِ الأمر لتحمُّل ضميرِ الغائب، وجُرَّ بالباءِ الزائدة، فكان له محلَّان: الجرُّ لمكان الباء، والرفعُ لِمكان كونِه فاعلاً، ولكونه صار فَضلةً صورةً، أُعطي حكمَها، فصحَّ حذفُه من الجملة الثانيةِ مع كونِه فاعلاً، والفاعلُ لا يجوز حذفُه عندهم، ولا تكاد تُحذَف هذه الباءُ في هذا الموضعِ إلَّا إذا كان المتعجَّب منه إنْ وصِلَتَها، نحو: أَحسِنْ أن تقولَ، وهذا الفعلُ لكونه ماضياً معنًى قيل: إنَّه مبنيٌّ على فتحٍ مقدَّر مَنَعَ مِن ظهوره مجيئُه على صورةِ الأمر، وهذا مذهبُ سيبويه في هذا التركيب.

قال الرَّضِيّ: وضعَّف ذلك بأنَّ الأمرَ بمعنى الماضي ممَّا لم يُعهَد، بل جاءَ الماضي بمعنى الأمر، كما في حديث: «اتَّقى اللهَ امرؤٌ فعل خيراً يُثَبْ عليه»(١) وبأنَّ: صار ذا كذا، قليلٌ، ولو كان ما ذكر منه، لَجاز: أَلحِمْ بزيدٍ وأَشحِم بزيد، وبأنَّ زيادةَ الباءِ في الفاعل قليل، والمطَّرد زيادتُها في المفعول.

وتعقِّب بأنَّ كونَ الأمرِ بمعنى الماضي ممَّا لم يُعهَد غيرُ مسلَّم، ألا ترى أنَّ كفَى به بمعنى اكتفِ به عند الزجَّاج، وقصد بهذا النقلِ الدَّلالة على أنَّه قصد به معنًى إنشائيّ هو التعجُّب، ولم يقصد ذلك من الماضي؛ لأنَّ الإنشاءَ أَنسبُ بصيغة الأمرِ منه؛ لأنه خبرٌ في الأكثر، وبأنَّ كثرةَ أَفْعَلَ بمعنى: صار ذا كذا، لا تخفَى على المتتبِّع، وجوازُ أَلحِم بزيدٍ على معنى التعجُّب لازم، ولا محذورَ فيه، وعلى معنًى آخرَ غيرُ لازم، نعم ما ذكر من قِلَّة زيادةِ الباءِ في الفاعل ممَّا لا كلامَ فيه.

والإنصافُ أنَّ مذهبَ سيبويه في هذه المسألةِ لا يخلو عن تعسُّف، ومذهبُ الأخفش ـ وعزاه الرَّضيُّ إلى الفرَّاء ـ أنَّ أَفعِلْ في نحو هذا التركيبِ أمرٌ لفظاً ومعنًى، فإذا قلت: أَحسِن بزيد، فقد أمرتَ كلَّ واحدٍ بأن يجعلَ زيداً حسناً، ومعنى

(١) شاهد نحوي هو قول لبعض العرب، ولم نقف عليه حديثاً، ينظر مغني اللبيب ص ١٤٤ و٥٢٢، وكتاب سيبويه ٣/ ١٠٠، وفيه: فعل خيراً بالواو، ومعناه: ليتَّق وليفعل.

جعلِه كذلك وصفُه به، فكأنَّك قلت: صفْه بالحُسن كيف شئتَ؛ فإنَّ فيه منه كلَّ ما يمكن أن يكونَ في شخص، كما قال الشاعر[1]:

لقد وجدتَ مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ فإنْ وجدتَ لساناً قائلاً فقُلِ

وهذا المعنى مناسبٌ للتعجُّب، بخلاف تقديرِ سيبويه، وأيضاً همزةُ الجعلِ أكثرُ من همزةِ صار ذا كذا، وإنْ لم يكن شيءٌ منهما ـ على ما قال الرَّضِي ـ قياساً مطَّرداً. واعتُبر الفاعلُ ضميرَ المأمور، وهو: كلُّ أحد؛ لأنَّ المرادَ أنَّه لظهور الأمرِ يؤمر كلُّ أحدٍ لا على التعيينِ بوصفه بما ذُكر، ولم يتصرَّف في أفعِل على هذا المذهبِ فيُسندَ إلى مثنًّى أو مجموعٍ أو مؤنَّث؛ لِمَا ذكروا من عِلَّة كونِ فعل التعجُّبِ غيرَ متصرِّف، وهي مشابهتُه الحروفَ في الإنشاء، وكونُ كلِّ لفظٍ من ألفاظه صار عَلَماً لمعنًى من المعاني وإنْ كان هناك جملة، فالقياسُ ألَّا يتصرَّفَ فيه احتياطاً؛ لتحصيل الفهم، كأسماءِ الأعلام، فلذا لم يتصرَّف في نِعمَ وبئسَ في الأمثال، وسهَّل ذلك هنا انمحاءُ معنى الأمرِ فيه، كما انمحى معنى الجعلِ وصار لمحض إنشاء التعجُّب، ولم يبقَ فيه معنى الخطاب، والباءُ زائدةٌ في المفعول.

وأجاز الزجَّاجُ أن تكونَ الهمزةُ للصَّيرورة، فتكون الباءُ للتعدية، أي: صيَّره ذا حُسن. ثم إنَّه اعتذر لبقاءِ أَحسِن في الأحوال على صورةٍ واحدة؛ لكون الخطابِ لمصدر الفعل، أي: يا حُسنُ أَحسِن بزيد، وفيه تكلُّف وسَمَاجة.

وأيضاً نحن نقول: أَحسِن بزيدٍ يا عَمرو، ولا يخاطَب شيئان في حالةٍ إلَّا أن يقول: معنى خطابِ الحُسن قد انمحى، وثمرةُ الخلافِ بين سيبويه وغيره تظهر فيما إذا اضطرَّ إلى حذف الباء، فعلى مذهبِ سيبويه يلزم رفعُ مجرورِه، وعلى غيره يلزم نصبُه.

هذا وقال ابنُ عطية[2]: يحتمل أن يكونَ معنى الآية: أَبصِر بدين اللهِ تعالى وأَسمِع به، أي: بُصِر بهُدى اللهِ تعالى وسُمِع به، فترجع الهاءُ إمَّا على الهدى، وإمَّا على الاسمِ الجليل. ونُقل ذلك عن ابن الأنباري، وليس بشيءٍ.

---

(١) هو المتنبي، والبيت في ديوانه ٣/ ٢٠٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

وقرأ عيسى: «أَبصرَ به وأَسمعَ»[١] بصيغة الماضي فيهما، وخرَّج ذلك أبو حيَّان[٢] على أنَّ المرادَ الإخبارُ لا التعجُّب، والضميرُ المجرورُ لله تعالى، أي: أَبصرَ عبادَه بمعرفته سبحانَه وأسمَعَهم.

وجوِّز أن يكونَ «أَبْصَرَ» أفعلَ تفضيل، وكذا «أَسمَعَ» وهو منصوبٌ على الحاليَّة من ضميرِ «له»، وضميرُ «به» عائدٌ على الغيب، وليس المرادُ حقيقةَ التفضيل، بل عِظَم شأنِ بَصَره تعالى وسَمْعه عزَّ وجلّ. ولعل هذا أَقربُ ممَّا ذكره أبو حيَّان.

وحاصلُ المعنى عليه أنَّه جلَّ شأنُه يعلم غيبَ السماواتِ والأرضِ بصيراً به وسميعاً على أتمِّ وجهٍ وأعظمِه.

﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماواتِ والأرضِ المدلولِ عليه بذِكرهما ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مَن يتولَّى أمورَهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه تعالى ﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ كائناً مَن كان، ولا يجعلُ له فيه مَدخلاً.

وقيل: يحتمل أن يعودَ الضميرُ لأَصحاب الكهف، وإضافةُ «حكم» للعهد، على معنى: ما لهم مَن يتولَّى أمرَهم ويحفظُهم غيره سبحانه، ولا يُشرك في حكمه الذي ظهر فيهم أحداً من الخلق.

وجوَّز ابن عطيةَ[٣] أن يعودَ على معاصري رسولِ اللهِ ﷺ من الكفَّار المشاقِّين له عليه الصلاة والسلام، وجَعَلَ الآيةَ اعتراضاً بتهديد.

وقيل: يحتمل أن يعودَ على مؤمني أهلِ السماواتِ والأرض، والمرادُ أَنَّهم لن يتَّخذوا من دونِه تعالى وليًّا.

وقيل: يعود على المختلفين في مدَّة لَبثِ أصحابِ الكهف، أي: لا يتولَّى أمرَهم غيرُ اللهِ تعالى، فهم لا يَقدرون بغير إقداره سبحانه، فكيف يعلمون بغير إِعلامِه عزَّ وجلّ. والكلُّ كما ترى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٩.
(٢) في البحر ٦/ ١١٧.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١.

ثم لا يخفَى عليك أنَّ ما في النَّظم الكريمِ أبلغُ في نفي الشريكِ من أن يقال: مِن وليٍّ ولا شريك.

وقرأ مجاهدٌ: «ولا يُشرِكْ» بالياء آخرِ الحروفِ والجزم[1]. قال يعقوب: لا أَعرف وجهَ ذلك. ووجَّهه بعضُهم بأنَّه سكَّن بنيَّة الوقف.

وقرأ ابنُ عامر، والحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريّ، وأبو حَيْوة، وزيد، وحُميد بنُ الوزير عن يعقوب، والجُعفيّ واللؤلؤيُّ عن أبي بكر: «ولا تُشرِكْ»[2] بالتاء ثالثِ الحروفِ والجزم، على أنَّه نهيٌ لكلِّ أحدٍ عن الشِّرك، لا نهيٌ له ﷺ، ولو جُعِل له عليه الصلاة والسلام لَجُعل تعريضاً بغيره، كقوله: إياكِ أَعني واسمعي يا جارة، فيكون مآله إلى ذلك.

وجوِّز أن يكونَ الخطابُ له ﷺ، ويجعل معطوفاً على «لا تقولن» والمعنى: لا تسألْ أحداً عمَّا لا تعرفه من قصَّة أصحابِ الكهفِ ولبثهم، واقتصرْ على ما يأتيكَ في ذلك من الوحي. أو: لا تسألْ أحداً عمَّا أَخبرك اللهُ تعالى به من نبأ مدَّةِ لَبثهم، واقتصرْ على بيانهِ سبحانه.

ولا يخفَى ما فيه من كثرة مخالفةِ الظاهرِ وإنْ كان أشدَّ مناسبةً لقوله تعالى﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ ووجهُ الربطِ على القراءةِ المشهورة ـ حَسبما تقدَّم من تفسيرها ـ أنَّه سبحانه لمَّا ذكر قصةَ أصحابِ الكهفِ وكانت من المغيَّبات بالإضافة إليه ﷺ ودلَّ اشتمالُ القرآنِ عليها على أنَّه وحيٌ معجزٌ من حيثية الاشتمالِ وإنْ كانت جهةُ إعجازِه غيرَ منحصرةٍ في ذلك، أَمَره جلَّ شأنُه بالمواظبة على دَرسِه بقوله سبحانه: «واتل. . .» إلخ. وهو أمرٌ من التِّلاوة بمعنى القراءة، أي: لازِمْ تلاوةَ ذلك على أَصحابك، أو مطلقاً، ولا تكترثْ بقول مَن يقول لك: ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله.

وجوِّز أن يكونَ «اتل» أمراً من التُّلوّ، بمعنى الاتِّباع، أي: اِتَّبع ما أُوحي إليك والزم العملَ به.

---

(١) البحر ٦/ ١١٧.
(٢) البحر ٦/ ١١٧. وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠.

وقيل: وجهُ الربطِ أنَّه سبحانه لمَّا نهاه عن المِراء المتعمَّق فيه وعن الاستفتاء، أَمَره سبحانه بأنْ يتلوَ ما أُوحي إليه من أَمرهم، فكأنَّه قيل: اِقرأ ما أُوحي إليك مِن أمرهم واستغنِ به ولا تتعرَّضْ لأكثرَ من ذلك، أو: اتَّبع ذلك وخُذْ به، ولا تتعمَّق في جدالهم، ولا تستفتِ أحداً منهم. فالكلامُ متعلِّق بما تقدَّم من النَّواهي، والمرادُ بـ «ما أُوحي» إلخ هو الآياتُ المتضمِّنة شرحَ قصةِ أصحابِ الكهف.

وقيل: متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: قل لهم ذلك واتلُ عليهم إِخبارَه عن مدَّة لَبثهم، فالمراد بـ «ما أُوحي» إلخ: ما تضمَّن هذا الإِخبار. وهذا دونَ ما قبلَه بكثير، بل لا ينبغي أنْ يلتفتَ إليه، والمعوَّل عليه أنَّ المرادَ بـ «ما أُوحي» ما هو أعمُّ ممَّا تضمَّن القصةَ وغيره من كتابه تعالى.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ لا يَقدِر أحدٌ على تبديلها وتغييرِها غيرُه، وأمَّا هو سبحانه فقدرتُه شاملةٌ لكلِّ شيء، يمحو ما يشاءُ ويُثبت. ويُعلَم ممَّا ذُكر اندفاعُ ما قيل: إنَّ التبديلَ واقع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ [النحل: ١٠١] الآيةَ.

والظاهرُ عمومُ الكلماتِ الأخبارَ وغيرَها، ومن هنا قال الطبرسيّ[1]: المعنى: لا مغيِّرَ لِمَا أَخبر به تعالى ولا لِمَا أَمر، والكلامُ على حذفِ مضاف، أي: لا مبدِّلَ لحكم كلماتِه. انتهى.

لكن أنت تعلم أنَّ الخبرَ لا يقبل التبديلَ، أي: النَّسخ، فلا تتعلَّق به الإرادةُ حتى تتعلَّقَ به القدرة، لئلَّا يلزمَ الكَذِبُ المستحيلُ عليه عزَّ شأنُه.

ومنهم مَن خصَّ الكلماتِ بالأخبار؛ لأنَّ المقامَ للإخبار عن قصَّة أصحابِ الكهف، وعليه لا يُحتاج إلى تخصيص النكرةِ المنفيَّة؛ لِمَا سمعتَ من حال الخبر، وقولُ الإمام[2]: إنَّ النسخَ في الحقيقةِ ليس بتبديل؛ لأنَّ المنسوخَ ثابتٌ في وقته إلى وقت طَريانِ الناسخ، فالناسخُ كالمغاير[3]، فكيف يكون تبديلاً = توهُّمٌ لا يُقتدَى به.

---

(١) في مجمع البيان ١٥/ ١٤٧.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ١١٤.

(٣) في التفسير الكبير: كالغاية.

ومن الناس مَن خصَّ الكلماتِ بمواعيده تعالى لعباده الموحِّدين، فكأنَّه قيل: اتلُ ما أُوحي إليك ولا تبالِ بالكَفَرة المعاندين، فإنَّه قد تضمَّن من وعد الموحِّدين ما تضمَّن، ولا مبدِّلَ لذلك الوعد، ومآلُه: اتلُ ولا تبال، فإنَّ الله تعالى ناصرُك وناصرُ أصحابِك. وهو كما ترى وإنْ كان أشدَّ مناسبةً لما بعدُ.

والضميرُ ـ على ما يظهر من «مَجمَع البيان»[(١)] ـ للكتاب، ويجوز أن يكونَ للربِّ تعالى، كما هو الظاهرُ في الضمير في قولِه سبحانه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ أي: ملجأً تعدل إليه عند إِلمام مُلمَّة. وقال الإمامُ: في البيان والإرشاد[(٢)]، وأصلُه من الالتحادِ بمعنى الميل. وجوَّز الراغب[(٣)] فيه أن يكونَ اسمَ مكان، وأن يكونَ مصدراً. وفسَّره ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما هنا بالمدخل في الأرض، وأنشد عليه ـ حين سأله نافعُ بن الأرزقِ ـ قولَ خصيبِ الضَّمري:

يا لهفَ نفسي ولهفٌ غيرُ مُجديةٍ عني وما عن قضاءِ اللهِ ملتحدُ[(٤)]

ولا داعيَ فيه لتفسيره بالمدخل في الأرض لِيُلتجأَ إليه.

ثمَّ إذا كان المعنيُّ بالخطاب سيِّدَ المخاطَبين ﷺ، فالكلامُ مبنيٌّ على الفرْض والتقدير؛ إذ هو عليه الصلاة والسلام بل خلَّصُ أمَّتِه لا تحدِّثهم أنفسُهم بطلب ملجأٍ غيره تعالى، نسأله سبحانه أن يجعلَنا ممَّن التجأ إليه، وعوَّل في جميع أمورِه عليه، فكفاه جلَّ وعلا ما أهمَّه، وكشف عنه غياهبَ كلِّ غُمَّه.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قد تقدَّم أنَّ مقامَ العبوديةِ لا يُشابهه مقامٌ ولا يدانيه، ونبيُّنا ﷺ في أعلى مراقيه. وقد ذُكِر أنَّ العبدَ الحقيقيَّ مَن كان حرًّا عن الكونَين، وليس ذاك إلَّا سيِّدُهما ﷺ.

---

(١) ١٥/ ١٤٧.
(٢) أي: ولن تجد من دونه ملتحداً في البيان والإرشاد. تفسير الرازي ٢١/ ١١٤.
(٣) في المفردات (لحد).
(٤) أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ٩٠.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ قد تقدَّم في التفسير أنَّ الضميرَ المجرورَ عائدٌ على «الكتاب»، وجَعَله بعضُ أهلِ التأويلِ عائداً على «عبده»، أي: لم يجعلْ له عليه الصلاة والسلام انحرافاً عن جنابِه وميلاً إلى ما سواه، وجَعَله مستقيماً في عبوديَّته سبحانه، وجَعَلَ الأمرَ في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] أمرَ تكوين.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ وهو بأسُ الحجاب، والبُعدِ عن الجناب، وذلك أشدُّ العذاب ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي الأعمالُ التي أُريد بها وجهُ اللهِ تعالى لا غير. وقيل: العملُ الصالح: التبرِّي من الوجودِ بوجود الحقِّ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي رؤيةُ المولى ومشاهدةُ الحقِّ بلا حجاب.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فيه إشارةٌ إلى مزيد شفقتِه ﷺ واهتمامِه وحرصِه على موافقة المخالفين وانتظامِهم في سِلك الموافقين.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأنهار والأشجارِ والجبالِ والمعادنِ والحَيَوانات ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أي: لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيجعل ذلك مرآةً لمشاهدة أنوارِ جلالِه وجمالِه سبحانه عزَّ وجلّ. وقال ابنُ عطاء: حسنُ العمل: الإعراضُ عن الكلّ. وقال الجنيد: حُسنُ العمل: اتِّخاذُ ذلك عِبرةً وعدمُ الاشتغالِ به. وقال بعضُهم: أهلُ المعرفةِ بالله تعالى والمحبَّةِ له هم زينةُ الأرض، وحسنُ العملِ: النظرُ إليهم بالحُرمة.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ كناية عن ظهور فَناءِ ذلك بظهور الوجودِ الحقَّاني والقيامةِ الكبرى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ قال الجنيدُ قدَّس اللهُ سرَّه: أي: لا تتعجَّبْ منهم، فشأنُك أعجبُ من شأنهم، حيث أَسرى بك ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، وبلغ بك سِدرةَ المنتهى، وكنتَ في القُرب كقابِ قوسَين أو أدنى، ثم ردَّك قبل انقضاءِ الليلِ إلى مضجعك.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قيل: هم فتيانُ المعرفةِ الذين جُبلوا على سجيَّة الفُتُوَّة، وفتوَّتُهم إعراضُهم عن غير اللهِ تعالى، فأَوَوا إلى كهف الخلوةِ به سبحانه

﴿فَقَالُوا﴾ حين استقاموا في منازل الأُنس، ومشاهدِ القدس، وهيَّجهم ما ذاقوا إلى طلب الزِّيادة، والترقِّي في مراقي السَّعادة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ معرفةً كاملةً، وتوحيداً عزيزاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ بالوصول إليك، والفن١٠اءِ فيك.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ كناية عن جعلهم مستغرقين فيه سبحانه، فانين به تعالى عمَّا سِواه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ إشارةٌ إلى ردِّهم إلى الصَّحو بعد السُّكر، والبقاءِ بعد الفناء. ويقال أيضاً: هو إشارةٌ إلى الجَلوةِ بعد الخَلوة. وهما قولانِ متقاربان.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الإيمانَ العلميَّ ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بأَنْ أَحضرناهم وكاشفناهم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ سكَّناها عن التزلزُل بما أَسكنَّا فيها من اليقين، فلم يسنحْ فيها هواجسُ التخمين، ولا وساوسُ الشياطين. ويقال أيضاً: رفعناها من حضيض التلوينِ إلى أَوج التمكين.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بنا لنا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مالكُ أمرِهما ومدبِّرُهما، فلا قيامَ لهما إلَّا بوجوده، المفاضِ من بحار جودِه ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ إذ ما من شيءٍ إلَّا وهو محتاجٌ إليه سبحانه، فلا يصلحُ لأن يُدعَى ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ كلاماً بعيداً عن الحقّ، مُفرِطاً في الظلم.

واستدلَّ بعضُ المشايخِ بهذه الآيةِ على أنَّه ينبغي للسالكين إذا أرادوا الذِّكرَ وتحلَّقوا له أنْ يقوموا فيذكروا قائمين. قال ابنُ الفَرس(١): وهو استدلالٌ ضعيف، لا يقوم به المدَّعى على ساقٍ.

وأنت تعلم أنَّه لا بأسَ بالقيام والذِّكر، لكن لا على ما يفعله المتشيِّخون اليوم؛ فإنَّ ذلك لم يكن في أُمَّةٍ من الأُمم، ولم يجئْ في شريعة نبيِّنا ﷺ، بل لَعَمري إنَّ تلك الحِلَقَ حبائلُ الشيطان، وذلك القيامُ قعودٌ في بُحبوحة الخِذلان.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذ خرجتم عن صُحبة أهلِ الهوى، وأَعرضتم عن السِّوى ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فاخلُوا بمحبوبكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ

(١) في (م): الغرس، ولم تجوَّد في الأصل، والمثبت من الإكليل للسيوطي ص ١٧٠، وعنه نقل المصنف.

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مطويٌّ معرفتِه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما تنتفعون به من أنوار تجلِّياته، ولطائفِ مشاهداتِه.

قال بعضُ العارفين: العزلةُ عن غير اللهِ تعالى توجب الوُصلةَ بالله عزَّ وجلّ، بل لا تحصل الوُصلةُ إلَّا بعدَ العزلة، ألا ترى كيف كان رسولُ اللهِ ﷺ يتحنَّث بغار حِراءَ حتى جاءه الوحيُ وهو فيه؟

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ لئلَّا يكثرَ الضوءُ في الكهف، فيقلَّ معه الحضور، فقد ذكروا أنَّ الظلمةَ تُعين على الفِكر وجمعِ الحواسّ، ومن هنا ترى أهلَ الخلوةِ يختارون لخلوتهم مكاناً قليلَ الضِّياء، ومع هذا يُغمضون أعينَهم عند المراقبة.

وفي «أسرار القرآن» أنَّ في الآية إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى حَفِظهم عن الاحتراق في السُّبُحات، فجعل شمسَ الكبرياءِ تَزَاور عن كهف قُربهم ذاتَ يمينِ الأزلِ وذاتَ شِمال الأبد، وهم في فجوةِ وصالِ مشاهدةِ الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قَهر سلطانِ صرفِ الذَّات الأزليةِ التي تتلاشى الأكوانُ في أوَّل بوادي إشراقِها.

وفي الحديث[١]: «حجابُه النُّور، لو كشفه لأَحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيءٍ أدركه بصرُه».

وقيلَ في تأويله: إنَّ شمسَ الرُّوح أو المعرفة والوِلاية، إذا طلعت من أُفق الهداية، وأَشرقت في سماءِ الواردات، وهي حالةُ السُّكر وغَلَبَةِ الوجد، لا تنصرفُ في خَلْوتهم إلى أمرٍ يتعلَّق بالعُقبَى، وهو جانبُ اليمين، وإذا غربت، أي: سكنت تلك الغَلَبَةُ وظهرت حالةُ الصَّحو، لا تلتفت هِمَمُ أرواحِهم إلى أمرٍ يتعلَّق بالدنيا، وهو جانبُ الشِّمال، بل تنحرف عن الجهتَين إلى المولى، وهم في فراغٍ عمَّا يَشغلهم عن اللهِ تعالى.

وذُكر أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ نورَ ولايتهم يغلب نورَ الشمسِ ويردُّه عن الكهف، كما يغلب نورُ المؤمنِ نار جهنم. وليس هذا بشيءٍ وإنْ رُوي عن ابنِ عطاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وسلف ١/ ١٣٢.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي رُفعت عنه الحُجُبُ ففاز بما فاز ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ لأنَّه لا يَخذُله سبحانه إلَّا لسوء استعدادِه، ومتى فُقد الاستعدادُ تعذَّر الإرشاد.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم مع الخلق بأبدانهم، ومع الحقِّ بأَرواحهم. وقال ابنُ عطاء: هم مقيمون في الحضرة كالنَّومَى، لا علمَ لهم بزمانٍ ولا مكان، أحياءٌ موتى، صرعَى مُفيقون، نومَى منتبهونَ.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: ننقلُهم من عالَم إلى عالَم. وقال ابنُ عطاء: نقلِّبهم في حالتَي القبضِ والبسط، والجمعِ والفرق. وقال آخر: نقلِّبهم بين الفناءِ والبقاء، والكشفِ والاحتجاب، والتجلِّي والاستتار. وقيل: في الآية إشارةٌ إلى أنَّهم في التسليم كالميِّت في يد الغاسل.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال أبو بكرٍ الورَّاق: مجالسةُ الصالحين ومجاورتُهم غنيمةٌ وإن اختلف الجِنس، أَلَا ترى كيف ذكر اللهُ سبحانه كلبَ أصحابِ الكهفِ معهم لمجاورته إيَّاهم.

وقيل: أُشير بالآية إلى أنَّ كلاب نفوسِهم نائمةٌ معطَّلة عن الأَعمال.

وقيل: يمكن أن يرادَ أنَّ نفوسَهم صارت بحيث تُطيعهم جميعَ الأحوالِ وتَحرُسهم عما يَضرُّهم.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لو اطَّلعتَ من حيث أنت على ما أَلبسْتُهم من لباس قهرِ ربوبيَّتي وسَطواتِ عَظَمتي ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ أي: من رؤيةِ ما عليهم من هَيبتي وعَظَمتي ﴿فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ كما فرَّ موسى كليمي من رؤيةِ عصاه حين قلبتُها حيَّةً وأَلبستُها ثوباً من عَظَمتي وهَيبتي، وهذا الفرارُ حقيقةً منَّا؛ لأنَّه مِن عظمتنا الظاهرةِ في هاتيك المرآة. كذا قرَّره غيرُ واحد، ورُوي عن جعفرٍ الصادقِ رضي الله عنه.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ رددناهم إلى الصَّحو بعد السُّكر ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنَّهم كانوا مستغرقين لا يَعرفون اليومَ من الأَمس، ولا يميِّزون القمرَ من الشمس. وقيل: إنَّهم استقلُّوا أيامَ الوِصال، وهكذا شأنُ عشَّاقِ الجمال، فسَنَة الوصل في سُنَّتهم سِنَة، وسِنَةُ الهجرِ سَنَة.

ويقال: مقامُ المحبِّ مع الحبيبِ وإنْ طالَ قصير، وزمانُ الاجتماعِ وإنْ كَثُرَ يسير؛ إذ لا يُقضَى من الحبيب وَطَر، وإنْ فَنِي الدهرُ ومرَّ، ولا يكاد يَعدُّ المحبُّ الليال، إذا كان قريرَ العينِ بالوصال، كما قيل:

أَعدُّ الليالِيْ ليلةً بعدَ ليلةٍ وقد عِشتُ دهراً لا أَعدُّ اللياليا[1]

ثم إنَّهم لمَّا رجعوا من السُّكر إلى الصَّحو، ومن الرُّوحانية إلى البشرية، طلبوا ما يعيشُ به الإنسان، واستعملوا حقائقَ الطريقة، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ والإشارةُ فيه أَوَّلاً إلى أنَّ اللائقَ بطالبي اللهِ تعالى تركُ السؤال، ويُرَدُّ به على المتشيِّخين الذين دِينُهم ودَيدنُهم السؤال، وليتَه كان من الحلال.

وثانياً: إلى أنَّ اللائقَ بهم ألَّا يختصَّ أحدُهم بشيءٍ دونَ صاحِبه، أَلا ترى كيف قال قائلُهم: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ فأضاف الوَرِقَ إليهم جملةً، وقد كان ـ فيما يروى ـ فيهم الرَّاعي ولعلَّه لم يكن له وَرِق.

وثالثاً: إلى أنَّ اللائقَ بهم استعمالُ الورع، أَلا ترى كيف طلب القائلُ الأزكى، وهو ـ على ما في بعض الرِّوايات ـ الأحلّ؛ ولذلك قال ذو النُّون: العارفُ مَن لا يُطفِئُ نورُ معرفتِه نورَ ورعِه. والعجبُ أنَّ رجلاً من المتشيِّخين كان يأخذُ من بعض الظَّلَمةِ دنانيرَ مقطوعاً بحُرمتها، فقيل له في ذلك، فقال: نعم هي جَمَرات، ولكن تُطفئُ حرارةَ جوعِ السالكين، ومع هذا وأمثالِه له اليومَ مرقدٌ يطوف به مَن يزور، وتوقَد عليه السُّرج وتنذر له النُّذور.

ورابعاً: إلى أنَّه ينبغي لهم التواصي بحُسن الخُلق، وجميلِ الرِّفق، أَلا ترى كيف قال قائلُهم: «وليتلطف» بناءً على أنَّه أمرٌ بحسن المعاملةِ مع مَن يشتري منه.

وقال بعضُ أهلِ التأويل: إنَّه أمرٌ باختيار اللطيفِ من الطَّعام؛ لأنَّهم لم يأكلوا مدَّة، فالكثيفُ يضرُّ بأجسامهم. وقيل: أرادوا اللطيفَ لأنَّ أرواحَهم من عالَم القُدس، ولا يناسبها إلَّا اللُّطف، وعن يوسفَ بنِ الحسين[2] أنَّه كان يقول: إذا

---

(١) قائله مجنون ليلى، وهو في ديوانه ص٢٩٤.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، الإمام العارف، شيخ الصوفية. أخذ عن ذي =

اشتريتَ لأَهل المعرفةِ شيئاً من الطعام، فلْيكن لطيفاً، وإذا اشتريتَ للزُّهّاد والعبَّاد، فاشترِ كلَّ ما تَجِد، لأنَّهم بعدُ في تذليل أنفسِهم. وقال بعضُهم: طعامُ أهلِ المجاهداتِ وأصحابِ الرِّياضات ولباسُهم الخَشِنُ من المأكولاتِ والملبوسات، والذي بلغ المعرفةَ فلا يوافقه إلَّا كلُّ لطيف. ويُروَى عن الشيخِ عبدِ القادر الكيلانيِّ قدَّس اللهُ سرَّه أنَّه كان في آخر أمرِه يلبَس ناعماً ويأكل لطيفاً.

وعندي أنَّ التزامَ ذلك يُخلُّ بالكمال، وما يُروَى عن الشيخ قدِّس سرُّه وأمثاله إن صحَّ يحتمل أن يكونَ أمراً اتفاقيًّا، وعلى فرْض أنَّه كان عن التزام، يحتمل أنَّه كان لغرضٍ شرعيّ، وإلَّا فهو خلافُ المأثورِ عن النبيِّ ﷺ، وعن كبار أصحابِه ﷺ، فقد بيِّن في الكتب الصحيحةِ حالُهم في المأكلِ والملبس، وليس فيها ما يؤيِّد كلامَ يوسفَ بنِ الحسين وأضرابِه، واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: من الأغيارِ المحجوبين عن مطالعة الأنوار والوقوفِ على الأسرار.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بأحجار الإنكار ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ التي اجتمعوا عليها ولم يُنزِل الله تعالى بها من سلطان، ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ لأنَّ الكفرَ حينئذٍ يكون كالكفر الإبليسيِّ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إرشادٌ إلى محض التجريد والتفريد، ويُحكى عن بعض كبار الصوفية أنَّه أَمَرَ بعضَ تلامذته بفعل شيء، فقال: أفعله إن شاء الله تعالى. فقال له الشيخ بالفارسية ما معناه: يا مجنون، فإذاً مَن أنت؟! والآية تأبى هذا الكلامَ غايةَ الإباء، وفيه على مذهب أهل الوحدة أيضاً ما فيه.

وقيل: الآيةُ نهيٌ عن أن يخبر ﷺ عن الحقِّ بدون إذن الحقِّ سبحانه. ففيه إرشادٌ للمشايخ إلى أنه لا ينبغي لهم التكلُّم بالحقائق بدون الإذن، ولهم أماراتٌ للإذن يعرفونها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: أي: إذا نسيتَ الكونَ بأَسْره حتى نفسَك، فإنَّ

= النون المصري وأحمد بن حنبل وغيرهما. من كلامه: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. مات سنة (٣٠٤ هـ). السير ١٤/ ٢٤٨.

الذكر لا يصفو إلا حينئذٍ. وقيل: إذا نسيتَ الذكر، ومن هنا قال الجنيد قُدِّس سرُّه: حقيقةُ الذكر الفناءُ بالمذكور عن الذكر. وقال قُدِّس سِرُّه في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾: إنَّ فوق الذكر منزلةً هي أقرب منزلةً من الذكر وهي تجديد النعوت بذكره سبحانه لك قبل أن تذكره جلَّ وعلا.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ زعم بعضُ أهل التأويل أنَّ مجموعَ ذلك خمس وعشرون سنة، واعتبر السنةَ التي في الآية شهراً، وهو زعمٌ لا داعي إليه إلا ضعفُ الدين ومخالفةُ جماعة المسلمين، وإلا فأيُّ ضررٍ في إبقاء ذلك على ظاهره وهو أمرٌ ممكنٌ أخبر به الصادق، ومما يدلُّ على إمكان هذا اللبث أنَّ أبا عليّ ابن سينا ذكر في باب الزمان من «الشفاء» أنَّ أرسطو ذكر أنَّه عُرِضَ لقوم من المتألِّهين حالةٌ شبيهةٌ بحالة أصحاب الكهف. قال أبو عليٍّ: ويدلُّ التاريخ على أنَّهم قبلَ أصحاب الكهف. انتهى.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى أنَّ المريدَ الذي يربِّيه الله سبحانه بلا واسطة المشايخ يصل في مدَّةٍ مديدةٍ وسنين عديدة، والذي يربِّيه جل جلاله بواسطتهم يتمُّ أمرُه في أربعينيات، وقد يتمُّ في أيامٍ معدودات. وأنا أقول: لا حجرَ على الله سبحانه، وقد أوصل جلَّ وعلا كثيراً من عباده بلا واسطة في سُويعاتٍ.

﴿لَهُۥ﴾ تعالى شأنه ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عالم العلوِّ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ عالم السفلِ، ولا يخفى أنَّ عنوان الغيبية إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين، وإلا فلا غيبَ بالنسبة إليه جلَّ جلاله، ومن هنا قال بعضهم: إنه سبحانه لا يعلم الغيبَ بمعنى أنَّه لا غيبَ بالنسبة إليه تعالى ليتعلَّق به العلمُ. لكن أنت تعلم أنه لا يجوز التكلُّم بمثل هذا الكلام ـ وإن أوِّل بما أُوِّل ـ لِمَا فيه ظاهراً من مصادَمة الآيات. وإلى الله تعالى نشكو أقواماً ألغزوا الحقَّ وفتنوا بذلك الخلقَ.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره تعالى وما أسمعه؛ لأنَّ صفاتِه عينُ ذاتِه، ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ إذ لا فعلَ لأحدٍ سواه تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ لكمال قدرته سبحانه وعَجْز غيرِه عزَّ شأنه. هذا، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❀ ❀ ❀

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي: احبِسْها وثَبِّتْها، يقال: صَبَرتُ زيداً، أي: حَبَستُه، وفي الحديث النهيُ عن صبرِ الحيوان[١]، أي: حبسِه للرمي، واستعمالُ ذلك في الثبات على الأمر وتحمُّلِه توسُّعٌ، ومنه الصبر بمعناه المعروف، ولم يُجْعل هذا منه لتعدِّي هذا ولزومِه.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: مصاحبةً مع الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: يعبُدونه دائماً، وشاع استعمالُ مثلِ هذه العبارة للدوام، وهي نظيرُ قولِهم: ضَرَب زيدٌ الظهرَ والبطنَ، يريدون به ضربَ جميع بدنه.

وأبقى غيرُ واحدٍ الغداةَ والعشيَّ على ظاهرِهما، ولم يُرِد عمومَ الأوقات، أي: يعبدونه في طَرَفَي النهار، وخُصَّا بالذكر؛ لأنَّهما محلُّ الغفلةِ والاشتغالِ بالأمور.

والمرادُ بتلك العبادة قيل: ذكرُ الله تعالى، ورُوي ذلك من طريق مُغيرة عن إبراهيم. وقيل: قراءةُ القرآن، ورُوي ذلك عن عبيد الله بن عبد الله بن عديِّ بن الخيار[٢]. وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن جبير أنَّ المرادَ بها المفاوَضةُ في الحلال والحرام[٣].

وعن ابن عمر ومجاهد: هي شهودُ الصلوات الخمس. وعن قتادة: شهودُ صلاة الصبح والعصر[٤]. وفيما تقدَّم ما يؤيِّد ثاني الأقوال، وفيما بعدُ ما يؤيِّد ظاهرُه أولَها، فتدبَّر جِدًّا.

والمراد بالموصول فقراءُ الصحابة: عمار وصهيب وسلمان وابن مسعود وبلال وأضرابُهم؛ قال كفَّارُ قريش كأميَّة بن خَلَف وغيره من صناديدِ أهل مكة: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالَسْناك، فإنَّ ريحَ جِبابِهم تُؤذينا. فنزلت الآية[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٦)، وابن ماجه (٣١٨٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) قول إبراهيم وعبيد الله عزاهما السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠ لابن أبي حاتم.
(٣) عزاه للحكيم الترمذي السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢، وقول ابن عمر أخرجه الطبري ٩/ ٢٦٥.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٨، وأسباب النزول للواحدي ص٢١٣، وللسيوطي ص٢٤١.

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن سلمان قال: جاءت المؤلَّفةُ قلوبُهم إلى رسول الله ﷺ، عيينةُ بن بدر والأقرعُ بن حابسٍ فقالوا: يا رسول الله، لو جلستَ في صدر المجلس، وتغيَّبْتَ عن هؤلاءِ وأرواحِ جبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذرٍّ وفقراءَ المسلمين، وكانت عليهم جِبابُ الصوف ـ جالسْناك أوحدَّثْناك وأخذْنا عنك. فأنزل الله تعالى ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ يتهدَّدهم بالنار[(١)].

ورَوى أبو الشيخ عن سلمان أنَّها لمَّا نزلت قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يلتمِسُهم، حتى أصابهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله تعالى، فقال: «الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى أَمَرني أن أصْبِرَ نفسي مع رجالٍ من أمتي، معكم الحياةُ والمماتُ»[(٢)].

والآية على هذا مدنية، وعلى الأول مكية، قال أبو حيان[(٣)]: وهو أصحُّ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ.

وأقول: أكثرُ الروايات تؤيِّد الثاني، وعليه تكون الآيات مستثناةً من حكم السورة، وكم مثل ذلك، وقد أخرج ما يؤيِّد الأولَ ابنُ مردويه من طريق جويبر عن الضحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٤)]، ولعلَّ الآيات بعدُ تؤيِّده أيضاً.

والتعبيرُ عن أولئك بالموصول لتعليل الأمر بما في حيِّز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامةِ الصُّحبة.

وقرأ ابن عامر: «بالغُدْوة»[(٥)]. وخُرِّج ذلك على ما ذكره سيبويه والخليل من أنَّ بعضَ العربِ ينكِّر غدوةً فيقول: جاء زيد غدوةً. بالتنوين[(٦)]. على أنَّ الرضي قال:

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٤٥، وشعب الإيمان (١٠٤٩٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢١٩.

(٢) عزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢١٩.

(٣) في البحر ٦/ ١١٨.

(٤) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في أسباب النزول ص٢٤١، وفي الدر ٤/ ٢٢٠.

(٥) التيسير ص١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٨.

(٦) سلف ٨/ ١٨٠، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٩٥.

إنه يجوز استعمالها نكرةً اتفاقاً. والمشهورُ أنَّ الأكثرَ استعمالُها عَلَمَ جِنْسٍ ممنوعاً من الصرف، فلا تدخلُ عليها «أل»؛ لأنه لا يجتمع في كلمةٍ تعريفان، ومتى أُرِيد إدخالُها عليها قُصِد تنكيرُها، فأدخِلَت، كما قُصِد تنكيرُ العَلَم الشخصيِّ في قوله:

وقد كان منهم صاحبٌ وابنُ عمِّه أبو جَندلٍ والزيدُ زيدُ المعارِكِ[1]

والقراءةُ المذكورةُ مخرَّجة على ذلك، واختارَ بعضُ المحقِّقين التخريجَ الأول، وقال: إنه أحسنُ درايةً وروايةً؛ لأنَّ التنكيرَ في العلَم الشخصيِّ ظاهرٌ، وأمَّا في الجنسيِّ ففيه خفاءٌ؛ لأنَّه شائعٌ في أفراده قبل تنكيرِه، فتنكيرُه إنما يُتصوَّرُ بتركِ حضورِه في الذهن الفارقِ بينه وبين النكرة، وهو خفيٌّ، فلذا أنكره الفناريُّ[2] في حواشيه على «التلويح» في تنكيرِ رَجَب علَمِ الشهر[3]. انتهى، وللبحث فيه مجال.

وهذه الآية كما في «البحر»[4] أبلغُ من التي في «الأنعام»، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية: ٥٢].

﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك الدعاءِ ﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي: رضاه سبحانه وتعالى دون الرياء والسمعة، بناءً على ما قاله الإمام السُّهيلي من أنَّ الوجهَ إذا أضيفَ إليه تعالى يُراد به الرضا والطاعةُ المرضيةُ مجازاً؛ لأنَّ مَن رَضِيَ على شخصٍ يُقْبل عليه، ومن غَضِب يُعرِض عنه.

وقيل: المرادُ بالوجهِ الذاتُ، والكلامُ على حذفِ مضافٍ. وقيل: هو بمعنى التوجُّه، والمعنى: يريدون التوجُّهَ إليه تعالى والزُّلفَى لديه سبحانه. والأول أولى.

والجملةُ في موضع الحال من فاعل «يدعون»، أي: يدعون مُرِيدين ذلك.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تَصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى أبناءِ الدنيا، والمراد النهيُ عن احتقارِهم وصرف النظر عنهم لرَثاثةِ حالِهم إلى غيرِهم، فـ «عدا»

(١) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص ٢٧٥، وفيه: حاجب، بدل: صاحب.

(٢) هو المولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري الحنفي، محقق وصاحب الحواشي المفيدة، توفي سنة (٨٨٦ هـ). هدية العارفين ١/ ٢٨٨، وكشف الظنون ١/ ٤٩٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٩٥.

(٤) ٦/ ١١٨.

بمعنى «صَرَف» المتعدِّي إلى مفعولٍ بنفسه وإلى آخرَ بـ «عن»، قال في «القاموس»: يقال: عَدَاه عن الأمر عَدْواً وعُدْواناً: صَرَفه[١]. واختار هذا أبو حيان[٢]، وهو الذي قدَّر المفعولَ كما سمعت، وقد تتعدَّى «عدا» إلى مفعولٍ واحدٍ بـ «عن»، كما تتعدَّى إليه بنفسها، فتكون بمعنى: جَاوَزَ وتَرَكَ؛ قال في «القاموس»: يقال: عدا الأمرَ وعنه: جاوزه وتَركه[٣]. وجوِّز أن يكونَ معنى الآية على ذلك، كأنه قيل: لا تتركهم عيناك.

وقيل: إنَّ «عدا» حقيقةً معناه: تَجاوَزَ، كما صرَّح به الراغبُ[٤]، والتجاوُز لا يتعدَّى بـ «عن» إلا إذا كان بمعنى العفو، كما صرَّحوا به أيضاً، وهو هنا غيرُ مرادٍ، فلا بُدَّ من تضمينِ عدا معنى نبا وعلا في قولك: نَبَتْ عنه عينُه، و: علَتْ عنه عينُه: إذا اقتحَمَتْه ولم تعلقْ به، وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ ثم قال: لم يقل: ولا تعدهم عيناك، أو: ولا تَعْلُ عيناك عنهم، وارتُكِب التضمينُ؛ ليُعطِي الكلامُ مجموعَ معنيَينِ، وذلك أقوى من إعطاءِ معنًى فذٍّ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تَقْتَحِمْهم عيناك مُجاوِزتَيْن إلى غيرهم[٥].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ التضمينَ لا ينقاس عندَ البصريين، وإنما يذهب إليه عندَ الضرورة، أما إذا أمكن إجراءُ اللفظ على مدلوله الوضعيِّ فإنه يكون أولى[٦].

واعتُرِض أيضاً ما قيل بأنَّه لا يلزم من اتحادِ الفعلَيْن في المعنى اتحادُهما في التعدية، فلا يلزم من كون «عدا» بمعنى «تجاوز» أن يتعدَّى كما يتعدَّى، ليقال: إنَّ التجاوُزَ لا يتعدَّى بـ «عن»، إلا إذا كان بمعنى العفو، وهو غيرُ مراد، فلا بدَّ من تضمينِ «عدا» معنى «فعل» متعدٍّ بـ «عن». ويكفي كلامُ «القاموس» مستنَداً لمن خالف الزمخشريَّ، فتدبَّر ولا تغفل.

---

(١) القاموس (عدو).

(٢) في البحر ٦/ ١١٩.

(٣) القاموس (عدو).

(٤) في المفردات (عدو).

(٥) الكشاف ٢/ ٤٨١. ووقع في الأصل و(م): لا تقحمهم عيناك. . .، والمثبت من المصدر.

(٦) البحر ٦/ ١١٩.

وقرأ الحسن: «ولا تُعْدِ عَيْنَيْك» بضمِّ التاء وسكونِ العين وكسرِ الدال المخفَّفة، من: أعداه، ونَصْبِ العينين. وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرؤوا: «ولا تُعَدِّ عَينيك» بضمِّ التاء وفتح العين وتشديدِ الدال المكسورة، من عدَّاه يُعدِّيه، ونصبِ العينين أيضاً[(١)].

وجعل الزمخشريُّ[(٢)] وصاحبُ «اللوامح» الهمزةَ والتضعيفَ للتعدية. وتعقَّب ذلك في «البحر» بأنه ليس بجيِّدٍ، بل الهمزةُ والتضعيفُ في هذه الكلمةِ لموافَقةِ أفْعَلَ وفَعَّلَ للفعل المجرَّد، وذلك لأنَّه قد أقرَّ الزمخشريُّ بأنَّها قبلَ ذَينك الأمرين متعدِّيةٌ بنفسها إلى واحدٍ، وعُدِّيت بـ «عن» للتضمين، فمتى كان الأمران للتعدية لَزِم أن تتعدَّى إلى اثنين، مع أنها لم تتعدَّ في القراءتين المذكورتين إليهما[(٣)].

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالَسةَ مَن لم يكن مثلَهم من الأغنياء وأصحابِ الدنيا. والجملةُ على القراءة المتواترة حالٌ من كاف «عيناك»، وجازت الحالُ منه لأنه جزءُ المضاف إليه. والعاملُ ـ على ما قيل ـ معنى الإضافة، وليس بشيء.

وقال في «الكشف»: العاملُ الفعلُ السابق كما تقرَّر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ولك أن تقول ها هنا خاصَّةً: العينُ مقحَمةٌ للتأكيد، ولا يبعُد أن يُجْعل حالاً من الفاعل، وتوحيدُ الضمير إما لاتحاد الإحساس، أو للتنبيه على مكانِ الإقحام، أو للاكتفاءِ بأحدهما عن الآخَر، أو لأنهما عُضْوٌ واحدٌ في الحقيقة، واستبشاعُ إسنادِ الإرادة إلى العين مندفِعٌ بأنَّ إرادتَها كنايةٌ عن إرادةِ صاحبِها، ألا ترى إلى ما شاع من نحوِ قولهم: يَستلِذُّه العينُ أو السمعُ، وإنَّما المستلِذُّ الشخصُ، على أنَّ الإرادةَ يُمكِن جعلُها مجازاً عن النظر للَّهْو لا للعِبَر. اهـ. ولا يخفى أنَّ فيه عدولاً عن الظاهر من غير داعٍ.

وقولُ بعضِهم: إنَّه لا يجوز مجيء الحالِ من المضافِ إليه في مثلِ هذا الموضع لاختلافِ العامل في الحال وذِيها = لا يصلُح داعياً؛ لظهورِ ضَعفِه.

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص٧٩، والمحتسب ٢/ ٢٧، والبحر ٦/ ١١٩.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٢.
(٣) البحر ٦/ ١١٩.

ثم الظاهرُ أنه لا فرقَ في جوازِ كونِ الجملة حالاً من المضافِ إليه أوِ المضافِ على تقديرِ أن يفسَّر «تَعْدُ» بـ «تُجاوِزْ»، وتقديرِ أن تفسَّر بـ «تَصْرف».

وخصَّ بعضُهم كونَها حالاً من المضافِ إليه على التقديرِ الأول، وكونَها حالاً من المضافِ على التقديرِ الثاني، ولعلَّه أمرٌ استحسانيٌّ، وذلك لأنَّ في أولِ الكلام على التقديرِ الثاني إسنادَ ما هو من الأفعال الاختيارية ليس إلَّا ـ وهو الصرفُ ـ إلى العين، فناسب إسنادَ الإرادة إليها في آخره، ليكونَ أولُ الكلام وآخرُه على طِرْزٍ واحدٍ، مع رعايةِ ما هو الأكثرُ في أحوالِ الأحوال من مجيئها من المضاف دون المضافِ إليه، وتضمَّن ذلك عدمَ مواجَهةِ الحبيب ﷺ بإسناد إرادةِ الحياة الدنيا إليه صريحاً وإن كانت مصبَّ النهْي.

وليس في أول الكلام ذلك على التقدير الأول، إذ الظاهرُ أنَّ التجاوُزَ ليس من الأفعال الاختيارية لا غير، بل يتصفُ به المختارُ وغيرُه، مع أنَّ في جعلِ الجملة حالاً من الفاعل على هذا التقدير ـ مع قول بعض المحقِّقين: إنَّ المتجاوِزَ في الحقيقة هو النظرُ ـ احتياجاً إلى اعتبارِ الشيء وتركِه في كلامٍ واحدٍ، وليس لك أن تجعلَه استخداماً بأنْ تُرِيدَ من العينين أولاً النظرَ مجازاً، وتُريدَ عند عَودِ ضميرِ «تُرِيْدُ» منهما الحقيقةَ؛ لأنَّ التَّثْنيةَ تأبى ذلك، وإن اعتُبِر ذلك أولاً وآخِراً ولم يُتْرَك احتِيجَ إلى مؤنٍ لا تخفى على المتأمِّل، فتأمَّل وتدبَّر.

وهي على القراءتين الشاذَّتَيْن حالٌ من فاعل الفعل المستَترِ، أي: لا تُعْدِ ـ أو: لا تُعَدِّ ـ عينيك عنهم مريداً ذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحيةِ الفقراء عن مجلِسِك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلنا قلبَه غافلاً ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ لبطلانِ استعدادِه للذكر بالمرَّةِ، كأولئك الذين يَدْعُونك إلى طردِ الفقراء، فإنَّهم غافلون عن ذكرنا، على خلافِ ما عليه أولئك الفقراءُ مِن الدعاء في الغَداة والعَشيِّ. وفيه تنبيهٌ على أنَّ الباعثَ لهم إلى استدعاء الطرد غفلةُ قلوبِهم عن جنابِ الله تعالى شأنُه وملاحظةِ المعقولات وانهماكُه في الحسِّيَّات، حتى خفي عليه[1] أنَّ الشرَفَ بحليةِ النفس لا بزينةِ الجسد.

---

(١) قوله: وانهماكه في الحسيات حتى خفي عليه، كذا في الأصل و(م) بإفراد الضمير في «انهماكه» و«عليه»، والأنسب للسياق جمعه، ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢١٩.

ومعنى الذكر ظاهر، وفسَّره المفضل بالقرآن(١). والآيةُ ظاهرةٌ في مذهب أهل السنة، وأوَّلَها المعتزلةُ، فقيل: المراد: أغفلنا قلبَه بالخِذْلان، وهذا هو التأويل المشهور عندهم في أمثالِ ذلك، وحالُه معلوم عندَك.

وقيل: المرادُ: صادفناه غافلاً، كما في قولهم: سألناكم فما أفحمناكم، وقاتلناكم فما أَجْبَنَّاكم(٢).

وتعقِّب بأنه لا ينبغي أن يتجرَّأَ على تفسيرِ فعلٍ أسنده الله تعالى إليه بالمصادفة التي تُفْهِم وجدانَ الشيء بغتةً عن جهلٍ سابقٍ وعدَمِ علمٍ.

وقيل: المراد: نسبناه إلى الغفلة، كما في قول الكميت:

وطائفةٌ قد أكفروني بحبِّكم ... وطائفةٌ قالوا مسيءٌ ومذنبُ(٣)

وهو كما ترى.

وقال الرماني(٤): المراد: لم نَسِمْ قلبَه بالذكر، ولم نجعله من القلوب التي كتبْنا فيها الإيمان كقلوب المؤمنين، من قولهم: أغفل فلانٌ إبلَه: إذا تَرَكها غفلاً من غير سِمَةٍ وعلامةٍ بكَيٍّ ونحوِه، ومنه إغفالُ الخطِّ لعدم إعجامِه، فالإغفالُ المذكورُ استعارةٌ لِجعْلِ ذكرِ الله تعالى الدالِّ على الإيمان به كالسِّمَة لأنَّه علامةٌ للسعادة، كما جُعل ثبوتُ الإيمان في القلب بمنزلة الكتابة(٥).

وهو تأويلٌ رقيقُ الحاشية لطيفُ المعنى وإن كان خلافَ الظاهر، فهو ممَّا لا بأسَ به لمن لم يكن غرضُه منه الهربَ من مذهبِ أهل السنة.

واحتجَّ بعضُهم على أنه ليس المرادُ ظاهرَ الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في طلب الشهوات؛ حيثُ أُسنِد اتِّباعُ الهوى إلى العبد، فيدلُّ على أنَّه فعلُه

---

(١) البحر ٦/ ١٢٠.

(٢) أي: فما وجدناكم جبناء. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٩٦. وقائل هذا هو عمرو بن معدي كرب كما في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ أنه قال لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألناكم فما أبخلناكم، وقاتلناكم فما أجبنَّاكم، وهاجيناكم فما أفحمناكم.

(٣) ديوان الكميت ص٥١٩، برواية: فطائفة قد أكفرتني... وطائفة قالت....

(٤) ورد في هامش الأصل و(م): وقد كان معتزليًّا، فليحفظ. اهـ.

(٥) البحر ٦/ ١٢٠.

لا فعلُ الله تعالى، ولو كان ذلك فِعْلَ اللهِ سبحانه والإسنادُ مجازيٌّ لقيل: فاتَّبَع، بالفاء السببية لتفرُّعِه عليه.

وأجيب بأنَّ فِعلَ العبد لكونه بكسبه وقدرته وخلْقِ اللهِ تعالى يجوز إسنادُه إليه بالاعتبار الأول، وإلى الله تعالى بالثاني، والتنصيصُ على التفريع ليس بلازم فقد يُترَكُ لنكتةٍ كالقصدِ إلى الإخبارِ به استقلالاً لأنه أَدْخَلُ في الذمِّ، وتفويضاً إلى السامع في فهمه، ولا حاجةَ إلى تقدير فقيل: «واتبع هواه».

وقرأ عمر بن فائد وموسى الأسواري وعمرو بن عبيد: «أغفَلَنا» بفتح الفاء واللام، «قلبُه» بالرفع على أنه فاعلُ: «أغْفَلَنا»[1]، وهو على هذه القراءة مِن: أغفَلَه إذا وجده غافلاً، والمراد: ظنَّنَا وحَسِبَنا غافلين عن ذكرنا له ولصنيعه بالمؤاخَذة، بجعلِ ذكر الله تعالى له كنايةً عن مُجازاتِه سبحانه.

واستشكل النهْيُ عن إطاعةِ أولئك الغافلين في طردِ أولئك المؤمنين بأنَّه وَرَدَ أنَّهم أرادوا طردَهم ليؤمنوا، فكان ينبغي تحصيلُ إيمانِهم بذلك، وغايةُ ما يَلْزَم ترتُّبُ نفعٍ كثيرٍ وهو إيمانُ أولئك الكَفَرة على ضررٍ قليلٍ وهو سقوطُ حرمةِ أولئك البرَرَة، وفي عدم طردِهم لزِمَ ترتُّب ضررٍ عظيمٍ وهو بقاءُ أولئك الكَفَرةِ على كُفْرهم على نفعٍ قليلٍ. ومن قواعد الشرع المقرَّرة: تُدْفَعُ المفسدةُ الكُبرى بالمفسدةِ الصغرى.

وأجيب بأنَّه سبحانه علم أنَّ أولئك الكَفَرة لا يؤمنون إيماناً حقيقيًّا، بل إنْ يؤمنوا يؤمنوا إيماناً ظاهريًّا، ومثلُه لا يُرتَكَب له إسقاطُ حرمة أولئك الفقراء الأبرارِ، فلذا جاء النهْيُ عن الإطاعة.

وقد يقال: يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى قد عَلِم أنَّ طردَ أولئك الفقراءِ السابقين إلى الإيمانِ المنقطِعين لعبادة الرحمن وكسْرَ قلوبهم وإسقاطَ حُرمتِهم لجلبِ الأغنياء وتطييبِ خواطرِهم يُوجِب نفرةَ القلوب وإساءةَ الظنِّ برسوله ﷺ، فربَّما يرتدُّ مَن هو قريبُ عهدٍ بإسلام، ويقِلُّ الداخلون في دينه بعد ذلك عليه

(١) القراءات الشاذة ص٧٩، والمحتسب ٢/ ٢٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٥-٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.

الصلاة والسلام، وذلك ضررٌ عظيم فوقَ ضررِ بقاءِ شِرْذِمةٍ من الكفَّار على الكفر، فلذا نَهَى جلَّ وعلا عن إطاعةِ مَن أغفل قلبَه واتبع هواه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ في اتباع الهوى وترك الإيمان ﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: ضياعاً وهلاكاً، قاله مجاهد(١)، أو متقدِّماً على الحقِّ والصواب نابذاً له وراءَ ظهره، من قولهم: فرسٌ فُرُطٌ، أي: متقدِّم للخيل، وهو في معنى ما قاله ابن زيد: مخالفاً للحقِّ(٢).

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكونَ الفُرُط بمعنى التفريط والتضييع، أي: كان أمرُه الذي يجب أن يلزَمَ ويهتمَّ به من الدين تفريطاً، ويحتمل أن يكونَ بمعنى الإفراط والإسراف، أي: كان أمرُه وهواه الذي هو سبيلُه إفراطاً وإسرافاً(٣). وبالإسراف فسَّره مقاتل.

والتعبيرُ عن صناديد قريش المستدعين طردَ فقراء المؤمنين بالموصول للإيذان بعلِّيَّةِ ما في حيِّز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الذين أغفلْنا قلوبَهم عن الذكر واتبعوا هواهم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الذي أوحِي إليَّ الحقُّ، و«من ربكم» حالٌ مؤكِّدة، أو خبرٌ بعد خبرٍ، والأول أولى، والظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ من تمام القول المأمورِ به، فالفاء لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها بطريق التهديد، أي: عقيبَ تحقيقِ أنَّ ذلك حقٌّ لا ريبَ فيه لازمُ الاتباعِ مَن شاء أن يؤمِنَ به ويتبعَه فليفعل كسائر المؤمنين ولا يتعلَّلْ بما لا يكاد يصلُح للتعلُّلِ، ومن شاء أن يكفرَ به وينبذَه وراء ظهره فليفعل، وفيه من التهديد وإظهارِ الاستغناء عن متابعَتِهم التي وَعَدُوها في طردِ المؤمنين وعدمِ المبالاة بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى.

وجوَّز أن يكونَ «الحقُّ» مبتدأً، خبرُه «من ربكم».

واختار الزمخشريُّ هنا الأول(٤)، قال في «الكشف»: ووجهُ إيثارِ الحذف أنَّ

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٢.

المعنى عليه أتمَّ التئاماً؛ لأنَّه لمَّا أمره سبحانه بالمداومة على تلاوةِ هذا الكتابِ العظيم الشأنِ في جملةِ التالِين له حقَّ التلاوة المريدين وجهَه تبارك وتعالى غيرَ ملتفتٍ إلى زخارف الدنيا، فمن أُوتِيَ هذه النعمةَ العظمى فله بشكرها اشتغالٌ عن كلِّ شاغلٍ = ذيَّله لإزاحة الأعذار والعِلَل بقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ﴾ إلخ، أي: هذا الذي أُوحي هو الحقُّ، فمن شاء فليدخُلْ في سلكِ الفائزين بهذه السعادة، ومَن شاء فليكن في الهالكين انهماكاً في الضلالة.

أمَّا لو جُعِل مبتدأً، فالتعريفُ إن كان للعهد رَجع إلى الأول مع فوات المبالغة، وإن كان للجنس على معنى: جميعُ الحقِّ من ربِّكم لا من غيره، ويشملُ الكتابَ شمولاً أولياً، لم يُطبِّقِ المَفْصِل؛ إذ ليس ما سيق له الكلامُ كونَه منه تعالى لا غير، بل كونَه حقًّا لازمَ الاتباع لا غير. اهـ.

وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق، ويُشعِر ظاهرُه بحمل الدعاءِ على ثاني الأقوالِ فيه وكونِ المشار إليه الكتابَ مطلقاً، لا المتضمِّنَ الأمرَ بصبر النفس مع المؤمنين وتركِ الطاعة للغافلين كما جوَّزه ابن عطية[1].

وعلى تقدير أن يكون الحقُّ مبتدأً، قيل: المرادُ به القرآنُ، كما كان المرادَ من المشارِ إليه على تقدير كونِه خبراً، وهو المرويُّ عن مقاتل. وقال الضحَّاك: هو التوحيدُ. وقال الكرماني: الإسلام والقرآن[2].

وقال مكي: المراد به التوفيقُ والخِذلانُ، أي: قل: التوفيقُ والخِذلانُ من عند الله تعالى، يهدي مَن يشاء فيوفِّقُه فيؤمنُ، ويُضِلُّ مَن يشاء فيَخذُله فيكفُر، ليس إليَّ مِن ذلك شيءٌ[3]. وليس بشيء كما لا يخفى.

وجوَّز أن يكونَ قولُه سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ إلخ تهديداً من جِهته تعالى غيرَ داخلٍ تحت القول المأمورِ به، فالفاءُ لترتيبِ ما بعدها من التهديد على نفس الأمر، أي: قل لهم ذلك، وبعدَ ذلك مَن شاء أن يؤمِنَ به أو أن يصدِّقَك فيه فليفعل، ومن

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣.
(٢) الأقوال الثلاثة في البحر ٦/ ١٢٠.
(٣) نقله المصنف من البحر ٦/ ١٢٠.

شاء أن يكفُرَ به أو أن يكذِّبك فيه فليفعل. وعلى الوجهين ليس المرادُ حقيقةَ الأمر والتخييرِ، وهو ظاهرٌ.

وذكر الخفاجي[١] أنَّ الأمرَ بالكفر غيرُ مراد، وهو استعارةٌ للخِذْلان والتخليةِ بتشبيه حالِ مَن هو كذلك بحالِ المأمور بالمخالفة، ووجهُ الشَّبَهِ عدمُ المبالاة والاعتناء، وهذا كقَولِ كُثيِّر:

أَسِيئي بنا أو أحسِني لا ملومةً[٢]

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العبد مستقلٌّ في أفعاله موجدٌ لها؛ لأنه عُلِّق فيها تحقُّقُ الإيمان والكفرِ على محضِ مشيئته؛ لأنَّ المتبادِرَ من الشرط أنَّه علَّةٌ تامَّةٌ للجزاء فدلَّ على أنَّه مستقلٌّ في إيجادِهما، ولا فرقَ بين فعلٍ وفعلٍ فهو الموجِد لكلِّ أفعاله.

وأُجيبَ بأنَّا لو فرضْنا أنَّ مشيئةَ العبد مؤثِّرة وموجِدةٌ للأفعال لا يتمُّ المقصودُ؛ لأنَّ العقلَ والنقلَ يدُلَّان على توقُّفها على مشيئة الله تعالى وإرادتِه، أما الأولُ فلأنَّهم قالوا: لو لم تتوقَّف على ذلك لزِمَ الدورُ أو التسلسلُ، وأمَّا الثاني فلأنَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] ومع هذا التوقُّفِ لا يتمُّ أمرُ الاستقلال، ويثبُت أنَّ العبدَ مضطرٌّ في صورةِ مختارٍ، وهو مذهبُ الأشاعرة.

وفي «الإحياء» لحجَّةِ الإسلام: فإن قلت: إني أجدُ في نفسي وجداناً ضروريًّا أنِّي إن شئتُ الفعلَ قدَرْتُ عليه، وإن شئتُ التركَ قدرتُ عليه، فالفعلُ والتركُ بي لا بغيري.

قلت: هَبْ أنَّك تَجدُ مِن نفسِك هذا المعنى، ولكن هل تجِدُ من نفسِك أنَّك إن شئتَ مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئةُ، أو لم تشأ تلك المشيئةَ لم تحصُل؟ لأنَّ العقلَ يشهَدُ بأنَّه يشاء الفعلَ لا لسبقِ مشيئةٍ أُخْرى على تلك المشيئة، وإذا شاء الفعلَ وجب حصولُ الفعل من غير مكنةٍ واختيارٍ، فحصولُ المشيئةِ في القلب أمرٌ

---

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٩٧.

(٢) ديوان كثير ص٨٠ وعجزه: لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ، ونسب البيت إلى جرير وهو في ديوانه ص٧٢، وقال في اللسان وتاج العروس (قلي): تقلَّى: أي: تبغَّض، وأنشدوا هذا البيت، ونسبوه إلى كثيِّر. وقوله: مقلية: أي: مكروهة ومبغوضة.

لازمٌ، وترتُّبُ الفعل على حصولِ المشيئة أيضاً أمرٌ لازمٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ الكلَّ من الله تعالى[(١)]. انتهى.

وبعضُهم يكتفي في إثباتِ عدم الاستقلالِ بثبوت توقُّفِ مشيئةِ العبد على مشيئة الله تعالى وتمكينِه سبحانه بالنصِّ، ولا يذكر حديثَ لزومِ الدورِ أو التسلسُل لِمَا فيه من البحث، وتمامُ الكلام في ذلك في كتب الكلام، وسنذكر إن شاء الله تعالى طرفاً لائقاً منه في الموضع اللائق به.

وقال السديُّ[(٢)]: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩]. ولعلَّه أراد أن لا يرادَ المتبادِرُ منها للآية المذكورة، وإلا فهو قولٌ باطلٌ.

وحَكى ابنُ عطية عن فرقة أنَّ فاعلَ «شاء» في الشرطيتين ضميرُه تعالى[(٣)]. واحتُجَّ له بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: من شاء الله تعالى له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفرَ كَفَر.

والحقُّ أنَّ الفاعلَ ضميرُ «مَن»، والرواية عن الحبر أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»[(٤)]، فإذا صحَّت يحتمل أن يكونَ ذلك القولُ لبيان أنَّ من شاء الإيمانَ هو من شاءَ اللهُ تعالى له الإيمانَ، ومن شاء الكفرَ هو مَن شاء اللهُ سبحانه له ذلك، لا لبيانِ مدلولِ الآية وتحقيقِ مرجعِ الضمير، ويؤيِّد ذلك قولُه في آخر الخبر الذي أخرجه الجماعةُ: وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]. والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو السمَّال قعنب: «وقُلَ الحق» بفتح اللام حيث وقع[(٥)]، قال أبو حاتم: وذلك رديء في العربية.

---

(١) نقله المصنف من التفسير الكبير ٢١/ ١١٩، وهو في الإحياء ٤/ ٢٥٣ بنحوه.
(٢) كما في البحر ٦/ ١٢٠.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٣.
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٤، والأسماء والصفات (٣٧٧)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠.
(٥) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٠، والكلام منه.

وعنه أيضاً ضمُّ اللام حيث وقع، كأنه إتباعٌ لحركة القاف، وقرأ أيضاً: «الحقَّ» بالنصب، وخرَّجه صاحبُ «اللوامح» على تقدير: قُلِ القولَ الحقَّ[١]، و«من ربكم» قيل: حالٌ، أي: كائناً من ربِّكم، وقيل: صفةٌ، أي: الكائنَ من ربِّكم. وفيه بحث.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفيُّ: «فلِيُؤْمِنْ» و«لِيكفُرْ» بكسر لام الأمر فيهما[٢].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين بالحقِّ بعدما جاء من اللهِ سبحانه، والتعبيرُ عنهم بـ «الظالمين» للتنبيه على أنَّ مشيئةَ الكفر واختيارَه تجاوُزٌ عن الحدِّ ووَضْعٌ للشيءِ في غير موضعه، والجملةُ تعليلٌ للأمر بما ذُكر من التخيير التهديديِّ.

وجَعَلها مَن جَعَل «فمن شاء» إلخ تهديداً من قِبَلِه تعالى = تأكيداً للتهديد وتعليلاً لِمَا يُفيده من الزجرِ عن الكفرِ. وجوَّز كونُها تعليلاً لِمَا يُفْهَم من ظاهرِ التخيير من عدَمِ المبالاة بكفرهم وقلَّةِ الاهتمام بشأنهم.

و«أعتدنا» من العتادِ، وهو في الأصل: ادِّخارُ الشيء قَبل الحاجة إليه. وقيل: أصلُه: أعدَدْنا، فأُبدل من إحدى الدالين تاء، والمعنى واحدٌ، أي: هيَّأنا لهم ﴿نَارًا﴾ عظيمةً عجيبةً ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي: فسطاطُها، شُبِّه به ما يُحِيط بهم من لهبها المنتشرِ منها في الجهاتِ، ثم استُعِير له استعارةٌ مصرِّحةٌ. والإضافة قرينةٌ والإحاطةُ ترشيحٌ.

وقيل: السرادقُ: الحجزةُ التي تكون حولَ الفُسطاطِ تمنع من الوصول إليه، ويُطلَق على الدخانِ المرتفع المحيط بالشيء، وحَمَل عليه بعضُهم ما في الآية، وهو أيضاً مجازٌ كإطلاقه على اللَّهَب، وكلامُ «القاموس» يُوهِم أنَّه حقيقةٌ[٣]، والمرويُّ عن قتادة تفسيرُه بمجموع الأمْرَين اللهبِ والدخانِ[٤].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه حائط من نار[٥].

وحكى الكلبيُّ أنه عُنُقٌ يخرُجُ من النار فيُحِيط بالكفَّار.

---

(١) البحر ٦/ ١٢٠.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.
(٣) القاموس (سردق) وحاشية الشهاب ٦/ ٩٨.
(٤) مجمع البيان ١٥/ ١٥١.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦.

وحكى القاضي الماورديُّ[(١)] أنه البحر المحيط بالدنيا يكون يومَ القيامة ناراً ويحيط بهم، واحتجَّ له بما أخرجه أحمد والبخاريُّ في «التاريخ» وابن أبي حاتم والحاكم[(٢)] وصحَّحه والبيهقيُّ في «البعث» وآخرون عن يعلى بن أمية أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ البحرَ هو من جهنَّم» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾[(٣)].

والسرادق: قال الراغب: فارسيٌّ معرَّب، وليس من كلامِهم اسمٌ مفردٌ ثالثُه ألفٌ وبعدَه حرفان[(٤)]. انتهى، وقد أصاب في دعوى التعريب فإنَّ عامَّةَ اللغويِّين على ذلك، وأمَّا قوله: وليس من كلامهم.. إلخ، فيكذِّبه وُرودُ عُلابِط وقُرامِص وجُنادِف وحُلاحل[(٥)]، وكلُّها بِزِنَةِ سُرادق، ومثلُ ذلك كثيرٌ، والغفلةُ مع تلك الكثرَةِ من هذا الفاضل بعيدةٌ، فليُنظَر ما مرادُه؟!.

ثم إنه معرَّبُ: سرَايَرْدَه، أي: سترُ الديوان، وقيل: سَراطاق، أي: طاقُ الديوان، وهو أقربُ لفظاً إلا أنَّ الطاقَ معرَّبٌ أيضاً وأصلُه: تا، أو: تاك، وقال أبو حيان وغيره: معرَّبُ: سرادَر، وهو: الدهليز[(٦)]. ووقَع في بيت الفرزدق:

تمنيتهم حتى إذا ما لَقِيتهم ... تركت لهم قبل الضِّرابِ السُّرادِقا[(٧)]

ويُجمع كما قال سيبويه بالألف والتاء وإن كان مذكَّراً، فيقال: سُرادِقات.

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣.

(٢) سقطت كلمة «الحاكم» من الأصل و(م)، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٢٢٠ وعنه نقل المصنف.

(٣) مسند أحمد (١٧٩٦٠)، والتاريخ الكبير ١/ ٧٠، والمستدرك ٤/ ٥٩٦، وسنن البيهقي الكبرى ٤/ ٣٣٤، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٤٦-٢٤٧. وإسناده ضعيف، فيه محمد بن حيي، وهو مجهول، ورواية المصادر عدا التاريخ الكبير والدر: «...هو جهنم»، ليس فيه: من.

(٤) المفردات (سردق).

(٥) العلابط: الضخم، وقطيع الغنم. وقرامص: اللبن القارص، أي: الحامض. وجنادف: الجافي، والجسيم من الناس والإبل. وحلاحل: السيد الشجاع. القاموس (علبط) (قرمص) (جندف) (حلل).

(٦) البحر المحيط ٦/ ٩٣، والمعرب للجواليقي ص٢٤٨، وقوله: «سرادر» كذا في الأصل و(م)، وهو في البحر والمعرَّب: «سرادار» بزيادة ألف قبل الراء.

(٧) ديوان الفرزدق ٢/ ٤٧.

وفسَّره في «النهاية» بكلِّ ما أحاط بموضعٍ من حائطٍ أو مضربٍ أو خِباءٍ[١]. وأَمْرُ إطلاقِه على اللهب أو الدخانِ أو غيرِهما مما ذُكر على هذا ظاهرٌ.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من العطَش بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، وقيل: مما حلَّ بهم من أنواع العذاب، و«المهل» على ما أخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس وابن جُبَير: ماءٌ غليظٌ كدُردِيِّ الزيت[٢]. وفيه حديثٌ مرفوعٌ؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابن حبان والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ وآخرون عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: (كَٱلْمُهْلِ) قال: «كعَكَرِ الزيت، فإذا قُرِّب إليه سقطَتْ فَرْوَةُ وجهِه فيه»[٣].

وقال غير واحد: هو ما أُذِيبَ من جواهِرِ الأرض. وقيل: ما أُذِيبَ من النحاس، وأخرج الطبرانيُّ وابن المنذر وابن جرير عن ابن مسعود أنه سُئل عنه فدعا بذهبٍ وفضَّةٍ فأذابَه، فلمَّا ذاب قال: هذا أشبهُ شيءٍ بالمُهل الذي هو شرابُ أهل النار، ولونُه لونُ السماء، غيرَ أنَّ شرابَ أهل النار أشدُّ حرًّا من هذا[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن مجاهد أنه القيحُ والدمُ الأسود[٥].

وقيل: هو ضَربٌ من القَطِران.

وقولُه سبحانه: «يغاثوا» إلخ خارجٌ مخرجَ التهكُّم بهم، كقول بِشْر بن أبي خازم:

---

(١) النهاية (سردق)، والكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ٦١٥.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٩، وكتاب الزهد لهناد (٢٨٣) و(٢٨٥). ودُرْدِيُّ الزيت: ما يبقى أسفلَه. القاموس (درد).

(٣) مسند أحمد (١١٦٧٢)، وسنن الترمذي (٢٥٨١)، وصحيح ابن حبان (٧٤٧٣)، والمستدرك ٢/ ٥٠١، والبعث والنشور (٦٠٦). وهو في منتخب عبد بن حميد (٩٣٠)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٥٠. وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلّا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلِّم فيه. قوله: عَكَر الزيت: قال في تاج العروس (عكر): عَكَرُ الشرابِ: آخِرُه وخاثِره.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٥، والمعجم الكبير (٩٠٨٢) و(٩٠٨٣)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١، وعنه نقل المصنف.

(٥) عزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١.

غَضِبَت تميمٌ أن تُقَتَّلَ عامرٌ يوم النِّسار فأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ[(١)]

﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ يُنْضِجها إذا قدِّم ليُشْرَبَ مِن فَرْط حرارتِه، حتى إنَّه يُسقِط جلودَها كما سمعتَ في الحديث، فالوجوهُ جمع وجهٍ، وهو العضْوُ المعروف، والظاهرُ أنه المرادُ لا غير، وقيل: عبَّر بالوجوه عن جميع أبدانهم.

والجملة صفةٌ ثانيةٌ لـ «ماءٍ»، والأولى «كالمهل»، أو حالٌ منه كما في «البحر»[(٢)]؛ لأنَّه قد وُصِف. أو حال من «المهل» كما قال أبو البقاء[(٣)].

وظاهرُ كلام بعضِهم جوازُ كونها في موضع الحال من الضمير المستتر في الكاف؛ لأنها اسمٌ بمعنى: مُشابِه، فيستَتِرُ الضميرُ فيها كما يستَتِر فيه. وفيه ما لا يخفى من التكلُّف؛ لأنها ليست صفةً مشتقَّةً حتى يستَتِر فيها، ولم يُعهَد مشتقٌّ على حرفٍ واحدٍ، قاله الخفاجي[(٤)]، وذَكَر أنَّ أبا عليٍّ الفارسيَّ مَنَعَ في «شرح الشواهد»[(٥)] جَعْلَ «ذؤابتي» في قول الشاعر:

رأَتْني كأُفْحُوصِ القطاةِ ذُؤَابَتي[(٦)]

مرفوعاً بالكاف؛ لكونها بمنزلة: مِثْل، وقال: إنَّ ذلك ليس بالسهل؛ لأنَّ الكافَ ليست على ألفاظ الصفات.

وجوِّز أن تكونَ في موضع الحال من الضمير المستتِر في الجارِّ والمجرور. وقيل: يجوز أن يكونَ مرادَ ذلك البعض، إلا أنَّه تسامح.

---

(١) ديوان بشر ص١٩١، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٧٨، والصحاح واللسان وتاج العروس (عتب)، وفي المفضليات ص ٣٤٦: فأعقبوا، وفي الخزانة ٩/ ٢٨٥ «حنيفة» بدل تميم، وقد أشير إلى هذه الرواية في هامش الأصل بقوله: في نسخة: حنيفة. ومعنى «أعتبوا بالصيلم» كما في الصحاح: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. اهـ. ومعنى أعقبوا: جُعل ذلك عاقبة أمرهم، فلا شاهد فيه على هذه الرواية كما ذكر الشهاب في الحاشية ٦/ ٩٨.

(٢) ٤/ ١٢١.

(٣) في الإملاء ٣/ ٥١٥.

(٤) في حاشيته ٦/ ٩٨.

(٥) واسمه «كتاب الشعر»، أو «شرح الأبيات المشكلة الإعراب»، وقول أبي علي فيه ١/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٦) شطر بيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص٦٥، وعجزه: وَمامسَّها مِن مُنعمٍ يستثيبها.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك الماء الذي يُغاثُون به ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: متَّكأً، كما قال أبو عبيدة[(١)] وروي عن السديِّ، وأصلُ الارتفاق ـ كما قيل ـ الاتِّكاءُ على مِرفَق اليد؛ قال في «الصحاح»: يقال: بات فلانٌ مُرتَفِقاً، أي: مُتَّكِئاً على مِرفَق يده[(٢)]، وقيل: نصبُ المرفق تحتَ الخدِّ. ف «مرتفقاً» اسمُ مكان ونصبُه على التمييز.

قال الزمخشريُّ: وهذا لمشاكلةِ قولِه تعالى: (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاقَ لأهل النار ولا اتكاءَ إلا أن يكونَ من قوله:

إنِّي أرِقْتُ فبِتُّ الليلَ مُرتفِقاً كأنَّ عَينيَ فيها الصابُ مَذْبُوح[(٣)]

أي: فحينئذٍ لا يكون من المشاكلة، ويكون الكلامُ على حقيقته بأن يكونَ لأهل النار ارتفاقٌ فيها، أي: اتكاءٌ على مرافقِ أيديهم كما يفعله المتحزِّنُ المتحسِّرُ.

وقد ذكر في «الكشف» أنَّ الاتكاءَ على الحقيقة كما يكون للتنعُّم يكون للتحزُّن. وتعقِّب بأنَّ ذلك وإن أمكن عقلاً إلا أنَّ الظاهرَ أنَّ العذابَ أشغَلَهم عنه، فلا يتأتَّى منهم حتى يكونَ الكلامُ حقيقةً لا مشاكلةً.

وجوِّز أن يكونَ ذلك تهكُّماً، أو كنايةً عن عدم استراحتهم. ورُوي عن ابن عباس أنَّ المرتفق المنزلُ. وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن قتادة[(٤)]، وفي معناه قول عطاء[(٥)]: المقرُّ، وقولُ القتبي[(٦)]: المجلسُ.

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٠.

(٢) الصحاح (رفق).

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٣، والبيت لأبي ذؤيب كما في مجاز القرآن ١/ ٤٠٠، والكامل للمبرد ٣/ ١٤٣٣، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٠٤، وتفسير الماوردي ٣/ ٣٠٤، والخزانة ٥/ ١٣٧ برواية صدره: نام الخليُّ وبتُّ الليلَ مُشتَجِرا. والخليُّ: الذي لا همَّ له. والمشتجر: الذي قد وضع حنكه أو فَمَه على يده عند الهمِّ. والصاب: شجرة مُرَّةٌ لها لبن يحرق العين إذا أصابها. والمذبوح: المشقوق. ينظر الخزانة ٥/ ١٣٨، وديوان الهذليين ١/ ١٠٤.

(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢١، وقول ابن عباس في زاد المسير ٥/ ١٣٦، والبحر ٦/ ١٢١.

(٥) في الأصل و(م): ابن عطاء، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ١٦٠، وتفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٣، والبحر ٦/ ١٢١.

(٦) في الأصل و(م): العتبي، والمثبت من المصادر السابقة، وكلامه في كتابه غريب القرآن ص٢٦٧.

وقيل: موضعُ الترافُق، أي: ساءت موضِعاً للترافُق والتصاحُب، وكأنه مرادُ مجاهد في تفسيره بالمجتمع، فإنكارُ الطبري[١] أنْ يكونَ له معنًى مكابرةٌ.

وقال ابن الأنباري: المعنى: ساءت مطلباً للرفق؛ لأنَّ مَن طلب رِفقاً من جهنَّم عَدِمه[٢].

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ المرتَفَقُ مصدراً ميميًّا بمعنى الارتفاق والاتكاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محلِّ التعليل للحثِّ على الإيمان المنفهِم من التخيير، كأنه قيل: وللذين آمنوا، ولعلَّ تغييرَ السَّبك للإيذان بكمالِ تنافي حالَي الفريقَيْنِ، أي: إنَّ الذين آمنوا بالحقِّ الذي يُوحَى إليك ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بيِّن في تضاعيفِه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾.

وقرأ عيسى الثقفي: «لا نضيِّع» بالتضعيف[٣]، وعلى القراءتين الجملة خبرُ «إنَّ» الثانية، وخبرُ «إنَّ» الأولى الثانيةُ بما في حيِّزها، والرابطُ ضميرٌ محذوفٌ تقديرُه: مَن أحسَن عملاً مِنْهم، ولا يَرِدُ أنَّه يقتضي أنَّ منهم من أحسَنَ ومنهم من لم يُحسِن؛ لأنَّ ذلك على تقدير كونِ «مِن» تبعيضية، وليس بمتعيِّنٍ لجوازِ كونها بيانيةً، ولو سلِّم فلا بأسَ به؛ فإنَّ الإحسانَ زيادةُ الإخلاص الوارد في حديث الإحسان: «أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه»[٤] لكن يبقى على هذا حكمُ مَن لم يُحسِن بهذا المعنى منهم.

أو الرابطُ الاسمُ الظاهرُ الذي هو المبتدأ في المعنى على ما ذهب إليه الأخفش مِن جَعْلِه رابطاً؛ فإنَّ مَن أحسن عملاً في الحقيقة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. واعتُرِض بأنَّه يأباه تنكير «عملاً»؛ لأنَّه للتقليل. وأجيب بأنَّه غيرُ متعيّن لذلك، إذ النكرةُ قد تعمُّ في الإثبات، ومقامُ المدح شاهدُ صدقٍ.

أو الرابط عمومُ «مَن» بناءً على أنَّ العموم قد يكونُ رابطاً كما في: زيدٌ نِعْمَ الرجلُ، على قولٍ. وفيه مناقشةٌ ظاهرةٌ.

---

(١) في تفسيره ١٥/ ٢٥٣، وقول مجاهد فيه، وينظر البحر ٦/ ١٢١.
(٢) البحر ٦/ ١٢١.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٢.
(٤) قطعة من حديث جبريل الطويل، وسلف ١/ ٢٩٥.

ولعلَّ الأولى كونُ الخبر جملةَ قولِه تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ وجملة «إنا» إلخ معترِضَةٌ، ونحوُ هذا من الاعتراض ـ كما قال ابنُ عطية وغيرُه ـ قولُه:

إنّ الـخـلـيـفـةَ إنَّ اللهَ ألـبَـسَـهُ سِربالَ ملك به ترجى الخواتيم[1]

وأنت تَعلم أنَّ الاعتراضَ فيه غيرُ متعيّنٍ أيضاً، وعلى الاحتمالِ السابقِ يحتمل أن تكونَ هذه الجملةُ مستأنَفةً لبيانِ الأجرِ، ويحتمل أن تكونَ خبراً بعدَ خبرٍ على مذهبِ مَن لا يشترِطُ في تعدُّد الأخبارِ كونَها في معنى خبرٍ واحدٍ، وهو الحقُّ.

أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة لهم جناتُ إقامةٍ، على أنَّ العَدْنَ بمعنى الإقامةِ والاستقرارِ، يقالُ: عَدَن بالمكان: إذا أقام فيه واستقرَّ، ومنه المعدِن؛ لاستقرارِ الجواهرِ فيه.

وعن ابن مسعود: عَدْن: جنةٌ من الجِنان، وهي بُطنانُها[2]، ووجهُ إضافةِ الجِنانِ إليها بأنَّها لِسِعَتِها كأنَّ كلَّ ناحيةٍ منها جنةٌ.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهم في الغُرُفاتِ آمنون.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ «مِن» الأولى للابتداء والثانية للبيان، والجارُّ والمجرورُ في موضع صفةٍ لـ «أساور»، وهذا ما اختاره الزمخشريُّ وغيرُه[3].

وجوَّز أبو البقاء في الأولى أن تكونَ زائدةً في المفعول على قولِ الأخفش، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ﴾ [الإنسان: ٢١]، وأن تكونَ بيانيةً، أي: شيئاً، أو حُلِيًّا من أساور[4]. وجوَّز غيرُه فيها أن تكونَ تبعيضيةً واقعةً موقعَ المفعولِ كما جوَّز هو وغيرُه ذلك في الثانية، وجوِّز فيها أيضاً أن تتعلَّقَ بـ «يحلون»، وهو كما ترى.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٤، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، والأمالي للزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٦، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفةَ أنَّ اللهَ سَرْبلَه سربالَ مُلكٍ به تُرجى الخواتيم

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٦٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٢، وتفسير البيضاوي ٦/ ٩٩.

(٤) الإملاء ٣/ ٥١٦.

والأَسَاوِرُ، جمعُ: أَسْوِرَةٍ، جمعِ: سوَار، بالكسر والضَّمِّ، وهو ما في الذِّراع من الحلي، وهو عربيٌّ، وقال الراغبُ: معرَّبُ: دَسْتوَارَه[(١)]. وقيل: جمعُ: أَسْوَارٍ، جمعِ: سِوَار، وأصلُه: أَسَاوِيرُ، فخُفِّف بحذفِ يائه. فهو على القولين جمعُ الجمع، ولم يجعلوه من أوَّل الأمر جمعَ سِوارٍ؛ لِمَا رَأوا أنَّ فِعالاً لا يُجمَع على أفاعِلَ في القياس.

وعن [أبي] عمرو بن العلاء أنَّ الواحدَ إسوَار[(٢)]، وأنشد ابن الأنباري:

والله لــولا صـبـيـةٌ صِـغـارُ
كـأنَّـمـا وُجـوهُـهـم أَقْـمـارُ
تَـضُـمُّـهـم مِـن الـعَـتـيـك دارُ
أخـافُ أن يـصـيـبَـهـم أقْـتـارُ
أو لاطـمٌ لـيـس لـه إسـوارُ
لـمَـا رآنـي مَـلِـكٌ جَـبَّـارُ
بـبـابِـه مـا وَضَـحَ الـنَّـهـارُ[(٣)]

وفي «القاموس»: السِّوارُ ككتابٍ وغُرابٍ: القُلْبُ، كالأُسوارِ، والجمعُ أَسْوِرَةٌ وأَساوِرُ وأساوِرَةٌ وسُورٌ وسُؤُورٌ[(٤)]. وهو موافقٌ لِمَا نُقِل عن ابن العلاء، ونُقِل ذلك أيضاً عن قُطرب وأبي عبيدة[(٥)]، ونُكِّرت لتعظيمِ حُسْنِها من الإحاطة.

وقد أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً من أهل الجنَّةِ اطَّلعَ فبدَتْ أساورُه لطَمَس ضَوءه ضوءَ الشمس كما تَطمِسُ ضوءَ النُّجوم»[(٦)].

---

(١) المفردات (سور).
(٢) الصحاح واللسان (سور) وما سلف بين حاصرتين منهما.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٤-٥١٥، والبحر ٦/ ٩٣ وعنه نقل المصنف. والعَتيك من الأيام: الشديد الحرّ. وأقتار: القَتْر: الرُّمقةُ من العيشِ، والقدْرُ. القاموس: (عتك) و(قتر).
(٤) القاموس (سور).
(٥) مجاز القرآن ١/ ٤٠١، وقول قطرب في البحر ٦/ ٩٩.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٢١، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٧)، والترمذي (٢٥٣٨).

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أنَّ أدنى أهلِ الجنة حِلْيَةً عُدلت حِليتُه بحِلْية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يُحلِّيه اللهُ تعالى به في الآخرة أفضل من حِلْية أهلِ الدنيا جميعاً»[١].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: إنَّ أهلَ الجنَّةِ يُحَلَّون أَسْوِرَةً من ذهبٍ ولؤلؤٍ وفضَّةٍ هي أخفُّ عليهم من كلِّ شيء، إنَّما هي نورٌ[٢].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تبلُغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء»[٣].

وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن كعب الأحبار قال: إنَّ لله تعالى ملكاً ـ وفي رواية: في الجنة ملكٌ ـ لو شئت أن أُسميه أَسْميتُه، يَصوغُ حُلِيَّ أهلِ الجنةِ من يوم خُلق إلى أن تقومَ الساعةُ، ولو أنَّ حُليًّا منها أُخرِج لردَّ شعاع الشمس[٤].

والسؤال بأنَّ لبسَ الرجالِ الأساورَ عيبٌ في الدنيا، فكيف يُحَلَّونها في الآخرة؟ مندفِعٌ بأنَّ كونَه عيباً إنَّما هو بين قومٍ لم يعتادوه، لا مطلقاً، ولا أظنُّكَ في مرية من أنَّ الشيءَ قد يكون عيباً بين قومٍ ولا يكون عيباً بين آخرين، وليس فيما نحن فيه أمرٌ عقليٌّ يُحكَم بكونه عيباً في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكانٍ وبين كلِّ قومٍ، وإن التزمتَ أنَّ فيه ذلك فقد حلَّيتَ نفسَك بحِليةِ الجَهل وخَرجتَ من رِبْقَةِ العقل.

هذا وقرأ أبان عن عاصم: «من أَسْوِرَة» بحذف ألفٍ وزيادةِ هاءٍ[٥]، وهو أَحَدُ الجموع لسِوارٍ كما سمعتَ.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأنَّ الخُضْرة أحسنُ الألوان، والنفسُ تنبَسِطُ بها أكثرَ مِن غيرها، ورُوي في أثرٍ أنها تزيد في ضوء البصر[٦]. وقيل:

---

(١) المعجم الأوسط (٨٨٧٤)، والبعث والنشور (٣٣١).

(٢) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٠)، وأخرجه بنحوه البخاري (٥٩٥٣)، وهو في مسند أحمد (٨٨٤٠).

(٤) كتاب العظمة (٣٣٧)، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١ لابن أبي حاتم.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٢٢.

(٦) روي من قول علي وعائشة وابن عمر وأبي سعيد ﷺ: ثلاثٌ يزدن في قوَّة البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن. وفي أسانيدها جميعاً كلام. ينظر فيض =

ثـلاثـةٌ مُـذهِـبـة لـلـحَـزَن الـماءُ والـخُـضْـرةُ والـوجـهُ الـحَسَـن(١)

والظاهرُ أنَّ لباسَهم غيرُ منحصرٍ فيما ذُكر، إذْ لهم فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذُّ الأعيُنُ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سُليم بن عامرٍ أنَّ الرجلَ يُكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوباً، وأنَّ أدناها مثلُ شقيق النعمان(٢).

وقيل: يحتمل الانحصارُ، و: لهم فيها ما تشتهي الأنفسُ، لا يأباه؛ لجوازِ أنَّهم لا يشتهُون ولا تلذُّ أعينُهم سوى ذلك من الألوان.

والتنكيرُ لتعريفِ أنَّها لا يكاد يُوصَف حسنُها؛ وقد أخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال: لو أنَّ ثوباً من ثيابِ أهل الجنة نُشِر اليومَ في الدنيا لصَعِق مَن ينظر إليه، وما حَمَلتْه أبصارُهم(٣).

وقرأ أبان عن عاصم وابن أبي حماد عن أبي بكر: «ويلبِسون» بكسر الباء(٤).

﴿مِّن سُندُسٍ﴾ قال الجواليقي: هو رقيقُ الديباج بالفارسية. فهو معرَّبٌ، وفي «القاموس»: هو ضربٌ من البُزْيونِ أو ضربٌ من رَقيق الدِّيباج معرَّبٌ بلا خلافٍ. وقال الليث: لم يختلف أهلُ اللغة والمفسِّرون في أنه معرَّبٌ(٥). وأنت تعلم أنَّ فيه خلافَ الشافعيِّ عليه الرحمة، والقولُ بأنَّه ليس من أهل اللغة والمفسِّرين في النفس منه شيء. وقال شَيْذَلَة: هو رقيق الديباج بالهندية(٦). وواحدُه على ما نقل عن ثعلب: سُنْدُسَة.

= القدير ٣/ ٣١٣. وفي حديث آخر أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٣٥٩ عن ابن عباس موقوفاً: ثلاث يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، والإثمد عند النوم، والوجه الحسن.

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في كشف الخفاء ١/ ٣٨٧ بلفظ:

ثـلاثـة مـذهِـبـةٌ عـنّـا الـحَـزَن الـمـاء والـخـضـرةُ والـوجـهُ الـحَـسَـن

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢. وشقائق النعمان: زهر، سميت «شقائق» لحمرتها تشبيهاً بشقيقة البرق، وأضيفت إلى النعمان لأنه حمى أرضاً فكثر فيها ذلك. الصحاح والقاموس (شقق).

(٣) المصدر السابق.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٥) المعرَّب ص٢٢٥، والقاموس (سندس). وقول الليث في تهذيب اللغة ١٣/ ١٥٣.

(٦) الرسالة للشافعي ص٤٢، وقول شيذلة في الإتقان ١/ ٤٣٦.

وزعم بعضُهم: أنَّ أصلَه: سِنْدِي، وكان هذا النوعُ من الديباج يُجلَب من السِّنْد، فأبدلت الياءُ سِيناً كما فُعل في سادي، فقيل: سادِس، وهو كلامٌ لا يَرُوج إلا على سندِيٍّ أو هنديٍّ.

ويُحكَى أنَّ جماعةً من أهل الهند من بلدٍ يقالُ له: بَرُوج بالجيم الفارسية، وكانوا يتكلَّمون بلغة تُسمَّى سنسكريت، جاؤوا إلى الإسكندر الثاني بهدية من جملتها هذا الديباجُ، ولم يكن رآه فقال: ما هذا؟ فقالوا: سَنْدُون، بالنون في آخِرِه، فغيَّرته الرومُ إلى سَنْدوس، ثم العربُ إلى سندُس، فهو معرَّبٌ قطعاً من ذلك اللفظ الذي أطلقَتْه أولئك الجماعةُ عليه، لكن لا جزمَ في أنه اسمٌ له في الأصل بِلغتِهم، أو اسمٌ للبلدةِ المجلوبِ هو منها أُطلِق عليه كما في أسماءِ كثيرٍ من الأمتعة اليومَ. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة عن عكرمة أنَّه غليظُ الديباج[1]. وقال ابن بحر: هو ديباجٌ منسوجٌ بذهب.

وفي «القاموس»: هو الديباجُ الغليظ، أو ديباجٌ يُعمَل بالذهب، أو ثيابُ حرير صِفاقٌ نحوَ الديباج، أو قِدَّة حمراء كأنها قِطَعُ الأوتار[2]. اهـ.

والذي عليه الأكثرون من المفسِّرين واللغويين الأولُ، وهو كما أخرج ابن أبي حاتم عن الضحَّاك معرَّبٌ: إستَبْرَه، وهي كلمةٌ عَجَمِيَّةٌ، ومعناها: الغليظ[3]. والمشهورُ أنه يقال للغليظ بالفارسية: إستبر، بلا هاءٍ، وقال ابن قتيبة: هو روميٌّ عُرِّب، وأصله: إستَبْرَه، فأبدلوا الهاء قافاً[4]. ووقع في شعر المرقِّش قال:

تـراهـنَّ يَـلـبـسْـنَ الـمـشـاعـرَ مـرَّةً ... وإستبرقُ الديباج طوراً لباسُها[5]

وقال ابن دُريد[6]: هو سريانيٌّ عرِّب، وذَكَر من أصله ما ذكروا.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧.
(٢) القاموس (برق).
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢١.
(٤) البحر ٦/ ٩٣، وورد في غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧: فارسيٌّ معرَّب... إلخ.
(٥) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٠٥، والبحر ٦/ ٩٤.
(٦) في جمهرة اللغة ٣/ ٥٠٢.

وقيل: أصلُه: إستَفْره بحرف بعد التاء بين الفاء والباء الموحَّدة.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الإستبرقَ الديباجُ الغليظُ الحَسَنُ في اللغة العربية والفارسية، ففيه توافُقُ اللُّغتَيْن، ونُقل عن الأزهري أنه استصوب هذا[١].

ويُجمَع على أبارق. ويصغَّر كما في «القاموس» وغيرِه على أُبَيْرِق[٢].

وقرأ ابن محيصن: «وَاسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة وفتح القاف حيثُ وقع[٣]، جَعَله ـ كما يقتضيه ظاهرُ كلام ابن خالويه ـ فعلاً ماضياً على وزن اسْتَفْعَلَ من البريق[٤]، إلا أنَّ اسْتَفْعَلَ فيه موافِقٌ للمجرَّدِ الذي هو بَرَق. وظاهرُ كلامِ الأهوازيِّ في «الإقناع» أنه وحدَه قرأ كذلك، وجَعَله اسماً ممنوعاً من الصرف ولم يجعلْه فعلاً ماضياً[٥].

وقال صاحبُ «اللوامح»: قرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقٍ» بوصل الهمزة في جميع القرآن مع التنوين. فيجوز أنه حذفَ الهمزةَ تخفيفاً على غيرِ قياس، ويجوز أنه جعلَه كلمةً عربيةً من بَرَق الثوبُ يبرِق بريقاً: إذا تلألأَ بجدَّتِه ونَضَارتِه، فيكون وزنُه: استَفْعَل من ذلك، فلمَّا سُمِّي به عاملَه معاملةَ الفعل في وصل الهمزة، ومعاملةَ المتمكِّن من الأسماء في الصرفِ والتنوينِ. وأكثرُ التفاسيرِ على أنَّه عربيٌّ وليس بمستعرَبٍ. انتهى. ولا يخفى أنه مخالِفٌ للنقلَيْن السابقَيْنِ.

ويمكن أن يقال: إنَّ لابن محيصن قراءتين فيه، الصرفُ والمنعُ منه، فنقَلَ بعضٌ قراءةً وبعضٌ آخَرُ أُخْرَى، لكنْ ذكر ابن جني أنَّ قراءة فتح القاف سهوٌ، أو كالسهو. قال أبو حيان: وإنما قال ذلك لأنَّ جعْلَه اسماً ومنْعَه من الصرف لا يجوز، لأنه غيرُ عَلَم، فتكون سهواً، وقد أمكن جعلُه فعلاً ماضياً فلا تكون سهواً[٦]. انتهى.

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٢.

(٢) القاموس (برق)، والمعرّب ص٦٣، وقوله: أبارق، تصحف في الأصل إلى: أباريق.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٥، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩-٨٠، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٥) البحر ٦/ ١٢٢. وما بعده منه.

(٦) البحر ٦/ ١٢٢، وكلام ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٩.

وفي الجمع بين السندُس والإستبرق إشعارٌ ما بأنَّ لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون، ونُكِّرا لتعظيم شأنِهما، وكيف لا، وهما وراءَ ما يشاهَدُ من سُندُسِ الدنيا وإستبرَقها، بل وما يُتخيَّل من ذلك؟ وقد أخرج البيهقيُّ عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: وفي الجنة شجرةٌ تُنبِت السُّندُسَ، منه تكون ثيابُ أهل الجنةِ[١].

وأخرج الطيالسيُّ والبخاريُّ في «التاريخ» والنسائيُّ وغيرُهم عن ابن عمرو[٢] قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أَخبِرْنا عن ثياب أهل الجنة، أَخَلْقاً تُخلَق أم نَسْجاً تُنْسَج؟ فقال ﷺ: «بل يتشقَّقُ عنها ثمرُ الجنة». وظاهرُه أنها من سُندُسٍ كانت أو من إستبرق كذلك.

وقدِّمت التحليةُ على اللباس؛ لأنَّ الحُلي في النفس أعظمُ، وإلى القلب أحبُّ، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى. وبُني فعلُه للمفعول؛ إشعاراً بأنَّهم لا يتعاطَون ذلك بأنفسهم، وإنما يفعله الخَدَمُ، كما قال الشاعر:

غَرائرُ في كِنٍّ وصَونٍ ونِعمةٍ ... يُحلَّينَ ياقوتاً وشذْراً مُفقَّرَا[٣]

وكذلك سائرُ الملوك في الدنيا يُلبِسهم التيجانَ ونحوَها من العلامات المرصَّعةِ بالجواهر خدَمُهم، وأُسنِد اللبسُ إليهم لأنَّ الإنسانَ يتعاطَى ذلك بنفسه، خصوصاً إذا كان فيه سترُ العورة.

وقيل: بُني الأولُ للمفعول والثاني للفاعل؛ إشارةً إلى أنَّ التَّحْليةَ تفضُّلٌ من الله تعالى واللبسُ استحقاقُهم. وتعقِّب بأنَّ فيه نزغةً اعتزاليةً، ويُدفع بالعناية.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمعُ: أريكة وهو ـ كما قال غير واحد ـ: السريرُ في

---

(١) البعث والنشور (٣٣٤).

(٢) في الأصل و(م): ابن عمر، وهو تحريف، والحديث في مسند الطيالسي (٢٢٧٧)، والتاريخ الكبير ٣/ ١١٢، والسنن الكبرى (٥٨٤١)، وأخرجه أحمد (٦٨٩٠).

(٣) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٥٩. وقوله: غرائر؛ وقع في الأصل و(م): غرائز، وهو تصحيف. ومعنى الغرائر: الغوافل عن الدهر لصيانتهن وتنعُّمِهنَّ، والكِنُّ: ما يُكتَنُّ به عن الحرّ والبرد. والشذْر: قطع الذهب، والمفقَّر: المصوغ على هيئة فِقار الجرادة، وهو مربع.

الحَجَلة، فإن لم يكن فيها فلا يسمَّى أريكةً. وأخرج ذلك البيهقيُّ عن ابن عباس[(١)].

وقال الراغب: الأريكةُ: حَجَلَةٌ على سريرٍ، وتسميتُها بذلك إما لكونِها في الأرض متخَذة من أراك، وهو شجرٌ معروفٌ، أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم: أَرَكَ بالمكانِ أُرُوكاً، وأصلُ الأُروك: الإقامة على رَعْي الأراك، ثم تُجوِّز به في غيره من الإقامات[(٢)]. ورُوي تفسيرُها بذلك عن عكرمة.

وقال الزجَّاج: الأرائك: الفُرُش في الحِجَال[(٣)].

والظاهرُ أنَّها على سائر الأقوال عربيةٌ، وحَكَى ابن الجوزي في «فنون الأفنان» أنها السُّرُر بالحبشية.

وأيًّا ما كان فالكلامُ على ما قاله بعضُ المحقِّقين كنايةٌ عن تنعُّمِهم وترفُّهِهم، فإنَّ الاتكاءَ على الأرائك شأنُ المتنعِّمين المترفِّهين، والآثارُ ناطقةٌ بأنَّهم يتَّكؤون ويتنعَّمون؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الرجلَ ليتَّكئُ المتَّكأ مقدارَ أربعين سنةً، ما يتحوَّل منه ولا يمَلُّه، يأتيه ما اشتهَتْ نفسُه ولذَّت عينُه»[(٤)].

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عباس أنَّ على الأرائك فُرشاً منضودةً في السماء مقدارَ فَرْسَخٍ[(٥)].

وقرأ ابن محيصن: «عَلَّرائِكِ» بنقلِ حركةِ الهمزة إلى لام التعريف وإدغام لامِ «على» فيها[(٦)]، فيُحذف ألفُ «على» لتوهُّم سكونِ لام التعريف، ومثلُه قول الشاعر:

---

(١) البعث والنشور (٣٣٤) والحجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. المعجم الوسيط (حجل).

(٢) المفردات (أرك).

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٤.

(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وهو مرسل.

(٥) عزاه لابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٥.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٢٢.

فما أصبحتْ علَّرْضِ نفسي بَرِيّةً[١]

يريد: على الأرض.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك الذي وُعِدوا به من الجنةِ ونعيمِها ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي: الأرائكُ أو الجناتُ ﴿مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ متكأً، وقد تقدم آنفاً الكلامُ فيه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ للمؤمنينِ الذين يَدْعُون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ، والكفرةِ الذين طلبوا طردَهم ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ مفعولانِ لـ «اضرب»، ثانيهما أوَّلُهما؛ لأنه المحتاجُ إلى التفصيل والبيانِ، قاله بعضُهم، وقد مرَّ تحقيقُ هذا المقام[٢]، فتذكَّر. والمرادُ بالرجلين إما رجلان مقدَّران على ما قيل، وضَربُ المثلِ لا يقتضي وجودَهما، وإما رجلان موجودان، وهو المعوَّلُ عليه، فقيل: هما أخوَان من بني إسرائيل، أحدُهما كافرٌ اسمه: فرطوس، وقيل: اسمه: قطفير، والآخرُ مؤمنٌ اسمُه: يَهُوذا، في قولِ ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه: يمليخا[٣].

وعن ابن عباس أنَّهما ابنا ملِكٍ من بني إسرائيل أنفق أحدُهما مالَه في سبيل الله تعالى، وكَفَر الآخَرُ واشتغل بزينة الدنيا وتنميةِ ماله[٤]. ورُوي أنهما كانا حدَّادَيْنِ كسبا مالاً.

ورُوي أنَّهما وَرِثا من أبيهما ثمانيةَ آلاف دينار فتشاطَراها، فاشترى الكافرُ أرضاً بألفٍ، فقال المؤمن: اللَّهم أنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألفٍ، فتصدَّقَ به، ثم بَنَى أخوه داراً بألف، فقال: اللَّهمَّ إنِّي أشتري منك داراً في الجنة بألف، فتصدَّق به، ثم تزوَّج أخوه امرأةً بألف، فقال: اللهمَّ إنِّي جعلتُ ألفاً صَداقاً للحُور، فتصدَّق به، ثم اشترى أخوه خَدَماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهمَّ إنِّي أشترِي منك الوِلدانَ المخلَّدين بألف، فتصدَّق به، ثم أصابته حاجةٌ فجلس لأخيه على طريقه،

---

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في البحر ٦/ ١٢٣ برواية: نَفْسٌ، وفي الدر المصون ٧/ ٤٨٥ برواية: نفس بريئةٌ. وعجزه كما في البحر والدر المصون:

ولا غيرها إلّا سليمان نالها

(٢) في سورة إبراهيم عند الآية (٢٤).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦١.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٨-١٣٩.

فمرَّ به في حَشَمه فتعرَّض له، فطرده ووبَّخه على التصدُّق بماله[١].

وقيل: هما أخوان من بني مخزوم: كافرٌ هو: الأسود بن عبد الأسد، ومؤمنٌ هو: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد[٢].

والمرادُ: ضربُهما مثَلاً للفريقَيْن المؤمِنيْنَ والكافرينَ، لا من حيثُ أحوالهما المستفادة مما ذُكِر آنفاً من أنَّ للمؤمنين في الآخرة كذا، وللكافرين فيها كذا، بل من حيثُ عصيانُ الكَفَرةِ مع تقلُّبِهم في نِعَمِ الله تعالى، وطاعةُ المؤمنين مع مكابَدتهم مشاقَّ الفقر، أي: اضرب لهم مثلاً من حيثيةِ العصيان مع النعمةِ، والطاعةِ مع الفقر، حالَ رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانَيْنِ، لم يعيِّن سبحانه مكانَهما؛ إذ لا يتعلَّق بتعيينِه كبيرُ فائدة.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه: «عجائب البلاد» أنَّ بُحَيْرَةَ تِنِّيس كانت هاتينِ الجنَّتينِ، فجَرى ما جرى، ففرَّقهما الله تعالى في ليلةٍ واحدة[٣]. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يُعلم منه قولٌ آخرُ.

والجملةُ بتمامها تفسيرٌ للمَثَلِ، فلا موضعَ لها من الإعراب، ويجوز أن تكونَ في موضع الصفة لـ «رجلين» فموضعُها النصب.

﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كرومٍ متنوِّعةٍ، فالكلامُ - على ما قيل - إما على تقديرِ مضافٍ، وإما الأعنابُ فيه مجازٌ عن الكروم، وهي أشجارُ العنب، والمفهومُ من ظاهرِ كلام الراغب أنَّ العنبَ مشترَكٌ بين الثمرة والكَرْم[٤]، وعليه فيُرادُ الكرومُ من غير حاجةٍ إلى التقديرِ أو ارتكابِ المجاز، والداعي إلى إرادةِ ذلك أنَّ الجنةَ لا تكون من ثمرٍ بل من شجرٍ.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٦١، والكشاف ٢/ ٤٨٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٦/ ١٢٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٥، والبحر المحيط ٦/ ١٢٤. و«تِنِّيس»: جزيرة في بحر مصر، قريبةٌ من البرِّ، ما بين فرما ودمياط، والفرما في شرقيها. معجم البلدان ٢/ ٥١. وقد وقع في الأصل و(م): «تينيس» بياء بعد التاء، والمثبت من المصادر. وإبراهيم بن القاسم هو المعروف بالرقيق القيرواني، له: تاريخ إفريقيا والمغرب، وكتاب الراح والارتياح، وكتاب الأغاني، وغيرها، وله شعر، توفي نحو (٤٢٥هـ). معجم الأدباء ١/ ٢١٦، والأعلام ١/ ٥٧.

(٤) المفردات (عنب) وفيه: العنب يقال لثمرة الكَرْم، وللكَرْم نفسه.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا النخلَ مُحيطةً بهما، مُطيفَة بحِفَافَيهما، أي: جانبَيْهما، مؤزَّراً بها كرومُهما، يقال: حفَّه القومُ: إذا طافوا به، وحفَفْته بهم: إذا جعلتَهم حافِّين حولَه، فتَزيده الباءُ مفعولاً آخَرَ، كقولك: غشِيتُه به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطَهما ﴿زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ لتكونا جامعتَيْن للأقوات والفواكهِ، متواصِلَتَي العمارةِ على الهيئة الرائقةِ والوضعِ الأنيق.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل. و«كلتا» اسمٌ مفردُ اللفظِ مثنَّى المعنى عند البصريِّين، وهو المذهب المشهور، ومثنًّى لفظاً ومعنًى عند البغداديِّيْن، وتاؤُه منقلبةٌ عن واوٍ عند سيبويه، فأصلُه: كِلْوَى، فالألفُ فيه للتأنيث[١]. ويُشكل على هذا إعرابُه بالحروفِ بشرطه، ويُجاب بما أُجيبَ به عن الإشكال في الأسماء الخمسة.

وعند الجرمي: الألفُ لامٌ منقلبةٌ عن أصلها، والتاءُ زائدةٌ للتأنيث[٢]. ويَرِد عليه أنه لا يُعرف: فَعْتَل، وأنَّ التاءَ لا تقع حَشْواً ولا بعدَ ساكنٍ صحيحٍ.

وعلى المشهور يجوز في ضميره مراعاةُ لفظه ومراعاةُ معناه، وقد رُوعِيَ الأولُ هنا والثاني فيما بعد.

وفي مصحفِ عبد الله: «كِلَا الجنتَين» أَتَى بصيغة التذكير؛ لأنَّ تأنيثَ الجنَّتَيْن مجازيٌّ. ثم قرأ: «آتت» فأنَّث؛ لأنَّه ضميرُ مؤنَّثٍ[٣]. ولا فرقَ بين حقيقيِّه ومجازيِّه، فالتركيبُ نظيرُ قولك: طلع الشمسُ وأشرقت. وقال [الفراء]: إنَّ عبد الله قرأ: «كُلُّ الجنتَيْن آتى أُكُلَه» فذكَّر وأعاد الضمير على «كلّ»[٤].

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ﴾ أي: لم تنقُصْ من أُكُلها ﴿شَيْئًا﴾ من النقص، على خلافِ ما يُعهد في سائر البساتين، فإنَّ الثمارَ غالباً تكثُر في عامٍ وتقِلُّ في عامٍ، وكذا بعضُ الأشجار تأتي بالثمار في بعضِ الأعوام دونَ بعض.

---

(١) ينظر الكتاب ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، والصحاح (كلي).

(٢) الصحاح (كلي).

(٣) البحر ٦/ ١٢٤.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٣، والبحر ٦/ ١٢٤، والكلام وما بين حاصرتين منه.

وجوِّز أن يكونَ «تَظْلِم» متعدِّياً و«شيئاً» مفعولَه، والمآل واحد.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ أي: فيما بين كلتا الجنتين ﴿نَهَرًا ٣٣﴾ ليدومَ شِربُهما ويزيدَ بهاؤُهما، قال يحيى بن أبي عمرو السيباني: وهذا النهر هو المسمَّى بنهر أبي فرطس، وهو على ما قال ابن أبي حاتم: نهرٌ مشهور في الرَّمْلَة[1].

وقيل: المعنى: فجَّرنا فيما بين كلٍّ من الجنتين نهراً على حدة، فيكون هناك نهران على هذا، ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر.

وتشديد «فجَّر» قيل: للمبالغة في سعة التفجير. وقال الفراء: لأنَّ النهرَ ممتدٌّ، فكأنه أنهارٌ[2].

وقرأ الأعمش وسلَّام ويعقوب وعيسى بن عمر: «فجَرنا» بالتخفيف على الأصل[3].

وقرأ أبو السمَّال والفياض بن غزوان[4] وطلحة بن سليمان: «نَهْراً» بسكون الهاء، وهو لغةٌ جاريةٌ فيه وفي نظائره.

ولعلَّ تأخيرَ ذكر التفجير عن ذكر الإيتاء ـ مع أنَّ الترتيبَ الخارجيَّ على العكس ـ للإيذان باستقلال كلٍّ من إيتاءِ الأُكُل وتفجير النَّهَر في تكميل محاسِن الجنتَيْنِ، كما في قصَّة البقرة ونحوها[5]، ولو عَكَس لانْفهم أنَّ المجموعَ خصلةٌ واحدةٌ بعضُها مترتِّبٌ على بعضٍ، فإنَّ إيتاءَ الأكل متفرِّع على السقْي عادةً، وفيه

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٦/ ٢٢٢. ويحيى بن أبي عمرو السَّيباني: بالسين المهملة ـ وقد وقع في الأصل و(م) بالمعجمة ـ هو أبو زرعة الحمصي، روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي والنسائي وابن ماجه. والرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، عمّرها سليمان بن عبد الملك. معجم البلدان ٣/ ٦٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٦، والبحر ٦/ ١٢٤.

(٤) وقع في الأصل و(م): العياض بن غزوان، وهو تصحيف، والمثبت من البحر ٦/ ١٢٥، والكلام منه. وفياض بن غزوان هو الضبي الكوفي، قرأ القرآن على طلحة بن مصرف، وحدّث عن مالك بن مغول وغيره. تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٩٥١.

(٥) ينظر ما سلف ٢/ ٢٢٨.

إيماءٌ إلى أنَّ إيتاءَ الأكل لا يتوقَّفُ على السقْي كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥]. قاله شيخ الإسلام[١].

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ أي: للأحد المذكور وهو صاحبُ الجنتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواعُ المال، كما في «القاموس» وغيرِه[٢]، ويقال: ثَمَرَ: إذا تموَّل، وحَمْلُه على حَمْلِ الشجر كما فعل أبو حيان[٣] وغيره غيرُ مناسب للنظم.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن عامر وحمزة والكسائيُّ وابن كثير ونافع وقراء المدينة: «ثُمُرٌ» بضمِّ الثاء والميم، وكذا في «بثمره» الآتي[٤]، وهو جمعُ: ثِمَارٍ بكسر الثاء، جمعِ: ثَمَرٍ بفتحتين، فهو جمعُ الجمع، ومعناه على نحو ما تقدَّم، أي: أموالٌ كثيرةٌ من الذهبِ والفضَّة والحيوان وغيرها، وبذلك فسَّره ابن عباس وقتادة وغيرهما. وقال مجاهد: يراد به الذهبُ والفضَّة خاصَّةً.

وقرأ الأعمش وأبو رجاء وأبو عمرو بضمِّ الثاء وإسكانِ الميم تخفيفاً[٥]، هنا وفيما بعدُ، والمعنى على ما سمعتَ.

وقرأ أبو رجاء في رواية: «ثَمْر» بالفتح والسكون[٦].

وفي مصحفِ أُبَيٍّ ـ وحُمِل على التفسير ـ: «وآتيناه ثَمَراً كَثِيراً»[٧].

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمنِ، والمرادُ بالصاحب المعنى اللغويُّ، فلا ينافي هذا العنوانُ القولَ بأنَّهما كانا أخوين، خلافاً لمن وَهِم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يحاور صاحبَه، فالجملةُ في موضع الحال من القائل. والمحاوَرةُ: مراجَعة الكلام، من حارَ: إذا رَجَع، أي: يُراجِعه الكلامَ في إنكارِه البعثَ وإشراكِه بالله تعالى.

---

(١) في تفسيره إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٢١.
(٢) القاموس (ثمر)، وكذا في اللسان (ثمر).
(٣) في البحر ٦/ ١٢٥، وهو قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٦.
(٤) التيسير ص١٤٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦، والبحر ٦/ ١٢٥، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٥) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٦/ ١٢٥.
(٦) البحر ٦/ ١٢٥.
(٧) المصدر السابق.

وجوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من «صاحبه»، فضميرُ «هو» عائدٌ عليه، وضميرُ «صاحبه» عائدٌ على القائل، أي: والصاحبُ المؤمنُ يراجع بالوعظ والدعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ ذلك الكافرَ القائلَ له:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ حشماً وأعواناً، وقيل: أولاداً ذكوراً، ورُوي ذلك عن قتادة ومقاتل، وأيِّد بمقابلته «أقل منك مالاً وولداً»، وتخصيصُ الذكور لأنَّهم الذين ينفِرون معَه لمَصالِحِه ومعاوَنتِه.

وقيل: عشيرةً، ومِن شأنِهم أنَّهم ينفِرون مع مَن هو منهم، واستُدِلَّ بذلك على أنَّه لم يكن أخاه؛ لأنَّ العشيرةَ مشتركةٌ بينَهما، وملتزِمُ الأخُوَّةِ لا يفسِّر بذلك. ونصبُ «مالاً» و«نفراً» على التمييز، وهو ـ على ما قيل ـ محوَّلٌ عن المبتدأ، والظاهرُ أنَّ المرادَ من أفعل التفضيل معناه الحقيقيُّ، وحينئذٍ يُرَدُّ بذلك ما في بعض الروايات من أنَّ الأخَ المؤمنَ بقي بعدَ التصدُّقِ بماله فقيراً محتاجاً، فسأل أخاه الكافرَ ولم يُعطِه ووبَّخه على التصدُّق[1].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ أي: كلَّ ما هو جنةٌ له يتمتَّعُ بها، بناءً على أنَّ الإضافةَ للاستغراق والعمومِ، فتُفيد ما أفادته التثنيةُ مع زيادةٍ، وهي الإشارةُ إلى أنَّه لا جنةَ له غيرُ ذلك، ولا حظَّ له في الجنة التي وُعِد المتقون، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[2]، وهو معنى لطيفٌ دقَّ تصوُّرُه على أبي حيان فتعقَّبه بما تعقَّبه، واختارَ أنَّ الإفرادَ لأنَّ الدخولَ لا يُمكِن أن يكونَ في الجنتَيْن معاً في وقتٍ واحدٍ، وإنما يكون في واحدةٍ واحدةٍ[3]. وهو خالٍ عمَّا أُشيرَ إليه من النكتة. وكذا ما قيل: إنَّ الإفرادَ لاتصالِ إحداهما بالأخرى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ أنه قال في قوله تعالى: (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ) إلخ الجنةُ: البستانُ، فكان له بستانٌ واحدٌ وجدارٌ واحدٌ، وكان بينهما نهرٌ فلذلك كان جنتَيْن، وسمَّاه سبحانه جنة من قِبَل الجدار المحيط به[4]. وهو كما ترى.

(١) ينظر ما سلف ص٣٣٥-٣٣٦ من هذا الجزء.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٤.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٢٥.
(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢.

والذي يدلُّ عليه السياقُ والمحاورة أنَّ المرادَ: ودخل جنتَه مع صاحبه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ جملةٌ حاليةٌ، أي: وهو ضارٌّ لنفسه بكفره، حيثُ عَرَّضها للهلاك وعَرَّض نعمتَها للزوال، أو: واضعٌ الشيءَ في غير موضعه، حيثُ كان اللائقُ به الشكرَ والتواضُعَ، لا ما حُكِي عنه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من ذكر دخولِ جنته حالَ ظُلمِه لنفسه، كأنه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل: قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تَهلكَ وتَفنَى، يقال: بادَ يبيد بَيْداً وبُيُوداً وبَيْدُودةً: إذا هلك.

﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الجنةُ ﴿أَبَدًا ٣٥﴾ أي: طولَ الحياةِ، فالمرادُ بالتأبيد طولُ المُكْث لا معناه المتبادِر. وقيل: يجوز أن يكونَ أراد ذلك؛ لأنه لجهلِه وإنكارِه قيامَ الساعة ظنَّ عدمَ فناءِ نوعِها، وإن فَنِي كلُّ شخصٍ من أشجارها، نحوَ ما يقوله الفلاسفةُ القائلون بقِدَم العالم في الحركات الفلكية، وليس بشيء.

وقيل: ما قَصَد إلا أنَّ هذه الجنةَ المشاهَدةَ بشخصِها لا تَفنَى، على ما يقوله الفلاسفةُ على المشهور في الأفلاك أنفسِها، وكأنَّ حُبَّ الدنيا والعُجبَ بها غَشَّى على عقلِه فقال ذلك، وإلا فهو مما لا يقوله عاقلٌ. وهو مما لا يرتضيه فاضلٌ.

وقيل: «هذه» إشارةٌ إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية من السماوات والأرض وأنواعِ المخلوقات، أو إشارةٌ إلى الدنيا، والمآلُ واحدٌ، والظاهرُ ما تقدَّم.

وأيَّاما كان فلعلَّ هذا القولَ كان منه بمقابلةِ موعِظةِ صاحبِه وتذكيرِه بفَناء جنَّتَيْه ونهْيِه عن الاغترار بهما وأمرِه بتحصيل الصالحات الباقيات، ولعلَّه خوَّفه أيضاً بالساعة فقال له: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنةً فيما سيأتي، فالقيامُ الذي هو من صفاتِ الأجسام مجازٌ عن الكون والتحقُّق، لكنَّه جارٍ في العُرف مَجرى الحقيقة.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعثِ عندَ قيامها كما زعمتَ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ حينئذٍ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من هذه الجنة.

وقرأ ابن الزبير وزيد بن عليٍّ وأبو بحريَّة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد

وابن مُناذِر ونافع وابن كثير وابن عامر: «منهما» بضمير التثنية(١)، وكذا في مصاحفِ مكة والمدينة والشام(٢)، أي: من الجنتين.

﴿مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ أي: مرجعاً وعاقبةً لفناءِ الأولى وبقاءِ الأخرى على زعمك، وهو تمييزٌ محوَّلٌ من المبتدأ على ما نصَّ عليه أبو حيان(٣)، ومدارُ هذا الطمعِ واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنَّه تعالى إنَّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقِه الذاتيِّ وكرامته عليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى حكايةً: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ولم يَدْرِ أنَّ ذلك استدراجٌ، وكأنه لسبقِ ما يشقُّ عليه فراقُه ـ وهي الجنة التي ظنَّ أنها لا تبيد ـ جاء هنا: «رُدِدتُ»، ولعدمه فيما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى من آية ﴿حمٓ﴾ المذكورة جاء: ﴿رُّجِعْتُ﴾ [فصلت: ٥٠] فليتأمَّل.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئنافٌ كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جملةٌ حاليةٌ كالسابقة، وفائدتُها التنبيهُ من أوَّلِ الأمر على أنَّ ما يتلوها كلامٌ معتنًى بشأنه مسوقٌ للمحاورة.

وقرأ أبيٌّ ـ وحُمل ذلك على التفسير ـ: «وهو يخاصمه»(٤).

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: في ضمن خلقِ أصلِك منه، وهو آدمُ عليه السلام؛ لِمَا أنَّ خَلْقَ كلِّ فردٍ من أفرادِ البشر له حظٌّ من خَلْقِه عليه السلام، إذ لم تكن فطرتُه الشريفةُ مقصورةً على نفسه، بل كانت أنموذجاً مُنطوياً على فطرةِ سائر أفرادِ الجنس انطواءً إجماليًّا مستتبعاً لجَريان آثارِها على الكلِّ، فإسناد الخلق من تراب إلى ذلك الكافر حقيقةٌ باعتبارِ أنه مادَّةُ أصلِه. وكونُ ذلك مبنيًّا على صحَّةِ قياسِ المساواة خيالٌ واهٍ.

---

(١) التيسير ص١٤٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٦، والنشر ٢/ ٣١١. وأبو بحريَّة هو عبد الله بن قيس السَّكوني، حمصي مشهور بكنيته، مخضرم ثقة. روى له أصحاب السنن الأربعة. مات سنة (٧٧هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠٦. وابن مُناذِر هو محمد أبو ذريح، شاعر فصيح، أخذ الأدب واللغة عن الخليل وأبي عبيدة، كان قارئاً تروى عنه حروف يقرأ بها، وله معرفة بالحديث، لم يكن مرضيًّا في أفعاله، توفي سنة (١٩٨هـ). معجم الأدباء ١٩/ ٥٥، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٩٠.

(٢) البحر ٦/ ١٢٦، والنشر ٢/ ٣١١.

(٣) في البحر ٦/ ١٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٧.

وقيل: خَلَقَك منه؛ لأنَّه أصلُ مادتِك، إذ ماءُ الرجل يتولَّد من أغذيةٍ راجعةٍ إلى التراب. فالإسنادُ مجازٌ من إسنادِ ما للسبب إلى المسبَّب، فتدبَّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادَّتُك القريبةُ، فالمخلوقُ واحدٌ والمبدأ متعدِّدٌ، ونُقل أنَّه ما من نطفةٍ قدَّر الله تعالى أن يخلُقَ منها بشراً إلا وملكٌ موكَّل بها يُلقِي فيها قليلاً من ترابٍ، ثم يَخلُق الله تعالى منها ما شاء من ذكر أو أنثى. وتعقَّبه في «البحر»[1] بأنه يحتاج إلى ثبوت صحَّته. وأنا أقول: غالب ظنِّي أنِّي وقفتُ على تصحيحه، لكن في تخريج الآية عليه كلامٌ لا يخفى.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ عدَلك وكمَّلك إنساناً ذكراً، وأصلُ معنى التسوية: جعلُ الشيء سواءً، أي: مستوياً كما فيما: ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] ثم إنَّه يُستعمَل تارةً بمعنى الخَلْق والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، فإذا قُرِن بالخَلْق والإيجاد كما هنا فالمرادُ به الخَلْقُ على أتمِّ حالٍ وأعدلِه، حسبَما تقتضيه الحكمةُ بدون إفراطٍ ولا تفريطٍ، ونصبُ «رجلاً» على ما قال أبو حيان[2] على الحال، وهو مُحْوِجٌ إلى التأويل. وقال الحوفي: نصب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «سوّى»، والمراد: ثمَّ جَعَلك رجلاً، وفيه ـ على ما قيل ـ تذكيرٌ بنعمةِ الرجولية، أي: جعلك ذَكَراً ولم يجعلْك أنثى.

والظاهرُ أنَّ نسبةَ الكفر بالله تعالى إليه لشكِّه في البعث وقولِه: «ما أظن الساعة قائمة»، والشاكُّ في البعث ـ كما في «الكشف» ـ كافرٌ من أوجُهٍ: الشكُّ في قدرته تعالى، وفي إخباره سبحانه الصدق، وفي حكمته، ألا ترى إلى قولِه عزَّ وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذا هو الذي يقتضيه السياقُ؛ لأنَّ قولَه: «أكفرت» إلخ وقع ردًّا لقوله: «ما أظن الساعة قائمة»، ولذلك رتِّب الإنكارُ بخلقه من ترابٍ ثم من نطفة الملوِّح بدليل البعثِ، وعليه أكثرُ المفسرين ونُوقِشوا فيه.

وقال بعضُهم: الظاهرُ أنه كان مشرِكاً كما يدلُّ عليه قولُ صاحبه تعريضاً به: «ولا أشرك بربي أحداً» وقولُه: «يا ليتني لم أشرك بربي أحداً»، وليس في قوله:

---

(١) ٦/ ١٢٧.

(٢) في البحر ٦/ ١٢٧، وقول الحوفي الآتي فيه.

«إن رددت إلى ربي» ما يُنافيه؛ لأنه على زعمِ صاحبِه كما مرَّ، مع أنَّ الإقرار بالربوبية لا يُنافي الإشراكَ، فعبَدَة الأصنامِ مُقِرُّونَ بها وهم مشركون، فالمراد بقوله: «أكفرت»: أأشركتَ. اهـ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بعضُ ما يتعلَّق به.

وقرأ ثابت البنانيُّ، وحُمل ذلك على التفسير كنظائره المتقدِّمة: «ويلكَ أكفرتَ»[1].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أصله: لكنْ أنا، وقد قرأ به أبيٌّ والحسنُ، وحَكَى ابن عطية ذلك عن ابن مسعود[2]، فنُقِل حركةُ همزةِ «أنا» إلى نون «لكن»، فحُذِفت الهمزة، ثم حُذِفت الحركةُ، ثم أُدغِمَت النونُ في النون. وقيل: حُذِفت الهمزةُ مع حركتها، ثم أُدغِم أحدُ المِثْلَين في الآخَر، وهو أقربُ مسافةً إلَّا أنَّ الحذف المذكور على خلاف القياس، وقد جاء الحذفُ والإدغامُ في قوله:

وتَرمِينَني بالطَّرْفِ أي أَنْتَ مُذنِبٌ ... وتَقْلِينَنِي لكنَّ إياكِ لا أَقْلِي[3]

فإنه أراد: لكنْ أنا لا أقليك، وهو أَولى من جَعْلِهم التقديرَ: لكنَّه إياكِ، على حذفِ ضميرِ الشأن، وأبعدُ منه جَعْلُ الأصل: لكنَّني إياكِ، على حذف اسمِ «لكن» كما في قوله:

فلو كنتَ ضبِّيًّا عرفتَ قَرابَتِي ... ولكنَّ زِنْجيٌّ عظيمُ المَشَافِرِ[4]

أي: لكنَّك مع نون الوقاية.

وبإثباتِ الألف آخراً في الوقف، وحذفِها في الوصل كما هو الأصلُ في «أنا» وقفاً ووصلاً قرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير ونافع في رواية ورش وقالون[5].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٢٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٤، والبحر ٦/ ١٢٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٠، والخزانة ١١/ ٢٢٥. وقلاه يقليه: أبغضه.

(٤) البيت في البحر ٦/ ١٢٨، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٢٣ دون نسبة، ونسب في الكتاب ٢/ ١٣٦، والمحتسب ٢/ ١٨٢، وشرح المفصل ٨/ ٨١ للفرزدق. ورواية المحتسب: غليظ المشافر. والمشافر جمع مشفر، أصله للبعير وجعله لشفة مَن يهجوه.

(٥) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ وهي قراءة يعقوب في رواية روح.

وأبدلَها هاءً في الوقف أبو عمرو في روايةٍ فقال: «لكنَّهْ» ذكره ابن خالويه(١).

وقال ابن عطية: روى هارون عن أبي عمرو: «لكنَّهُ هو الله ربي» بضميرٍ لَحِقَ «لكنَّ»(٢).

وقرأ ابن عامر وزيد بن عليٍّ والحسن والزهريُّ بإثبات الألف وقفاً ووصلاً، وهو روايةٌ عن نافع ويعقوب وأبي عمرو وورش وأبي جعفر وأبي بحريَّة(٣). وجاء ذلك على لغةِ بني تميم فإنَّهم يُثبِتون ألفَ «أنا» في الوصل اختياراً، وأما غيرُهم فيُثبِتها فيه اضطراراً. وقال بعضهم: إنَّ إثباتَها في الوصل غيرُ فصيحٍ لكنَّه حَسُن هنا لمشابهة «أنا» بعدَ حذفِ همزتِه لضميرِ «نا» المتصلِ، ولأنَّ الألفَ جُعِل عوضاً عن الهمزة المحذوفةِ فيه. وقيل: أُثبِتَت إجراءً للوصل مجرى الوقف، وفي إثباتها دفعُ اللبس بـ «لكنَّ» المشدَّدة، ومن إثباتها وصلاً قولُ الشاعر:

أنا شيخُ العَشِيرَةِ فاعرِفوني حُميداً قد تَذَرَّيتُ السَّنَامَا(٤)

وفي رواية الهاشميِّ عن أبي جعفر حذفُها وصلاً ووقفاً، وروي ذلك أيضاً عن [ابن] أبي عبلة وأبي حيوة وأبي بحريَّة(٥).

وقرئ: «لكنَنَا» بحذف الهمزة وتَخْفيفِ النونَيْن(٦).

و«لكن» في جميع هذه القراءات حرفُ استدراك لا عملَ له، و«أنا» مبتدأٌ أوَّل، و«هو» ضميرُ الشأن مبتدأٌ ثانٍ، و«الله ربِّي» مبتدأٌ وخبرٌ، والجملةُ خبرُ ضميرِ الشأن، وهي غنيةٌ عن الرابط، وجملةُ ضميرِ الشأنِ وخبرِه خبرُ المبتدأ الأوَّلِ،

---

(١) في القراءات الشاذة ص٨٠ والكلام من البحر ٦/ ١٢٨.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧-٥١٨، والبحر ٦/ ١٢٨.
(٣) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ عن نافع وأبي جعفر ويعقوب في رواية رويس، والكلام من البحر ٦/ ١٢٧.
(٤) البيت في حجة القراءات لابن زنجلة ص٤١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٣٤٦، وتاريخ مدينة دمشق ١١/ ٣٦٩ دون نسبة، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٤، وأساس البلاغة (ذرى)، والخزانة ٥/ ٢٤٢ برواية: سيف العشيرة، ونسبه الزمخشري والبغدادي لحميد بن بحدل. وقال الزمخشري: تذرَّى السنامَ: إذا شرُف وعلا، وارتفع أمره.
(٥) البحر ٦/ ١٢٨ وما بين حاصرتين منه.
(٦) المصدر السابق.

والرابطُ ضميرُ المتكلِّم المضافِ إليه، والتركيبُ نظيرُ قولك: هندٌ هو زيد ضاربها.

وجوَّز أن يكونَ «هو» مبتدأ ثانياً، والاسمُ الجليلُ بدلاً منه، و«ربِّي» خبرُه، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأوَّلِ، والرابطُ الياء أيضاً.

وفي «البحر» أنَّ «هو» ضميرُ الشأن وثَمَّ قولٌ محذوفٌ، أي: لكنْ أنا أقولُ: هو الله ربِّي، ويجوز أن يعودَ على «الذي خلقك»، أي: لكن أنا أقول: الذي خلقك اللهُ ربي، فخبرُه الاسمُ الجليل، و«ربِّي» نعتٌ، أو عطفُ بيانٍ، أو بدلٌ[(١)]. انتهى. ثم جَوَّز عدمَ تقدير القول واقتَصَرَ على جَعْلِ «هو» ضميرَ الشأن حينئذٍ حسبما سمعتَ.

ولا يخفى أنَّ احتمالَ تقدير القول بعيدٌ في هذه القراءة، ولعلَّ احتمالَ كونِ الاسم الجليل بدلاً أقربُ معنًى من كونه خبراً وعودِ الضمير على «الذي خَلقك».

وجوَّز أبو عليٍّ كونَ «نا» ضميرَ الجماعة كالتي في: خَرَجْنا وضربْنا، ووقع الإدغامُ لاجتماعِ المثلَيْنِ، إلا أنَّه أُرِيد بها ضميرُ المعظِّم نفسَه، فوُحِّد «ربِّي» على المعنى، ولو اتُّبِع اللفظُ لقيل: ربُّنا[(٢)]. ولا يخفى ما فيه من البُعد.

وقال ابن عطية في الآية: يجوز أن تكونَ «لكن» هي العاملةُ من أخواتِ «إنَّ»، واسمُها محذوفٌ، وحذْفُه فصيحٌ إذا دلَّ عليه الكلامُ، والتقديرُ: لكنَّ قولي: هو اللهُ ربي، لكنَّ ذلك إنَّما يتمُّ لو قُرِئ بحذفِ الألف وقفاً ووصلاً، وأنا لا أعرِفُ أحداً قرأ بذلك[(٣)]. انتهى. وأنتَ قد عرفتَ من قرأ به، وقد ذكر غيرهم قرؤوا أيضاً: أبو القاسم يوسفُ بن عليٍّ الهُذَليُّ[(٤)] في كتابه: «الكامل في القراءات»، لكن لا أظنُّك تستَحْسِن التخريجَ على ذلك.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٤٦-١٤٧. ونقله المصنف من البحر ٧/ ١٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧.

(٤) المغربي، مقرئ، رحل في طلب القراءات، وصنف كتابه «الكامل في القراءات المشهورة والشواذ»، فيه خمسون رواية من أكثر من ألف طريق. توفي سنة (٤٦٠ هـ) أو قريباً منها. تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ١٣٥.

وقرأ عيسى الثقفيُّ: «لكنْ هو الله» بسكون نون «لكنْ»، وحكاه ابن خالويه عن ابن مسعود، والأهوازيُّ عن الحسن، وإعرابه ظاهرٌ جدًّا[١].

وقرئ: «لكنْ أنا هو الله لا إله إلا هو ربي»[٢]. ويعلم إعرابه مما مرَّ.

وخرَّج أبو حيان قراءةَ أبي عمرو على رواية هارون على أن يكونَ «هو» تأكيداً لضمير النصب في «لكنه»، وجعله عائداً على «الذي خلقك»، ثم قال: ويجوز أن يكونَ فصلاً؛ لوقوعه بين معرفتَيْن، ولا يجوز أن يكونَ ضميرَ شأنٍ؛ لأنه لا عائدَ حينئذٍ على اسمِ «لكن» من الجملة الواقعة خبراً[٣]. انتهى.

ويا ليت شعري ما الذي منعه من تجويزِ أنْ يكونَ ضميرُ «لكنه» للشأن، ويكونُ «هو» مبتدأً عائداً على «الذي خلقك»، والاسمُ الجليلُ خبرُه، و«ربِّي» نعتاً، أو عطفَ بيان، أو بدلاً، والجملةُ خبرُ ضميرِ الشأن المنصوبِ بـ «لكن»، أو يكونُ «هو» مبتدأً، والاسمُ الجليلُ بدلاً منه، و«ربِّي» خبراً، والجملةُ خبرُ الضمير.

هذا وقولُه: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ عطفٌ على إحدى الجملتَيْن، والاستدراكُ على «أكَفَرْتَ»، وملخَّصُ المعنى لمكان الاستفهام الذي هو للتقرير على سبيل الإنكار: أنتَ كافرٌ بالله تعالى لكنِّي مؤمنٌ موحِّدٌ. وللتغايرِ الظاهرِ بين الجملتين وقعت «لكنْ» موقعَها فقد قالوا: إنها تقعُ بين كلامَيْن متغايرَيْن نحو: زيدٌ حاضرٌ لكنْ عمرو غائبٌ، وإلى كون المعنى ما ذُكر ذهب الزمخشريُّ وغيره[٤].

وذَكَر في «الكشف» أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الكفرَ بالله تعالى يقابله الإيمانُ والتوحيدُ، فجاز أن يُستدرَكَ بكلٍّ منهما وبهما معاً، أي: كما هنا؛ فإنَّ الإيمانَ مفادُ: أنا هو الله ربِّي، والتوحيدَ مفادُ: «لا أشرك بربِّي أحدا»، وأنتَ تعلم أيضاً أنَّ الشركَ كثيراً ما يُطلَق على مُطلَق الكفرِ، وجعلوا منه قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحتسب ٢/ ٩٢، والبحر ٦/ ١٢٨.

(٢) لم نقف على هذه القراءة، وفي القراءات الشاذة ص٨٠: «لكن هو الله ربي لا إله إلّا هو» عن ابن مسعود. وفي الكشاف ٢/ ٤٨٥ عنه: «لكن أنا لا إله إلّا هو ربي». اهـ.

(٣) البحر ٦/ ١٢٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٥، وتفسير البيضاوي ٧/ ١٠٢.

يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:١١٦] وأنه يمكن أن يكون الغرضُ من مجموعِ الكلام إثباتَ الإيمان على الوجهِ الأكيد، ولعلَّ شركَ صاحبه الذي عرَّض به في الجملة الثانية ـ كما صرَّح به غير واحد ـ بهذا المعنى.

وقيل: الشركُ فيه بالمعنى المتبادِر، وإثباتُه لصاحبه تعريضاً باعتبارِ أنَّه لمَّا أنْكر البعثَ فقد عَجَّز الباري جلَّ جلالُه، ومَن عَجَّزه سبحانه وتعالى فقد سوَّاه بخلقه تعالى في العجز، وهو شِرْكٌ.

وقيل: باعتبارِ أنه لمَّا اغترَّ بدنياه وزَعَم الاستحقاقَ الذاتيَّ وأضاف ما أضاف لنفسه، كان كأنه أشرك، فعرَّض به المؤمنُ بما عرَّض، فكأنه قال: لكنْ أنا مؤمنٌ ولا أرى الغنى والفقرَ إلا مِن الله تعالى، يُفقِر مَن يشاء ويُغني من يشاء، ولا أرى الاستحقاقَ الذاتيَّ، على خلافِ ما أنت عليه.

والإنصافُ أنَّ كلًّا مِن القولين تكلُّفٌ.

وقيل: في الكلام تعريضٌ بشركِ صاحبِه، ولا يلزَم أن يكونَ مدلولاً عليه بكلامِه السابقِ، بل يَكْفيه ثبوتُ كونِه مشركاً في نفس الأمر وفيما بعدُ ما هو ظاهرٌ فيه، فتأمَّل.

ثم اعْلَم أنَّ ما تضمَّنته الآيةُ ذكرٌ جليلٌ؛ وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنتِ عميس قالت: علَّمني رسولُ الله ﷺ كلماتٍ أقولُهن عند الكرب: «اللهُ ربِّي لا أشركُ به شيئاً»[1].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ حضٌّ على القول وتوبيخٌ على تركه، وتقديمُ الظرف على المحضَّضِ عليه؛ للإيذان بتحتُّم القول في آنِ الدخول من غير رَيثٍ [لا][2] للقصر، وجاز تقديمُه لذلك وجعلُه فاصلاً بين «لولا» وفعلها لتوسُّعِهم في الظروف، أي: هلَّا قلتَ عندما دخلتها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٠٨٢)، وأبو داود (١٥٢٥) وابن ماجه (٣٨٨٢)، وجاء في المصادر عدا مسند أحمد: «الله الله ربِّي»، بتكرارِ لفظ الجلالة.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٣.

ما شاء الله، أو: ما شاء الله تعالى كائنٌ، على أنَّ «ما» موصولةٌ مرفوعةُ المحلِّ إمَّا على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو على أنَّها مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ. ويجوزُ أن تكونَ شرطيةً في محلِّ نصبٍ بـ «شاء»، والجوابُ محذوفٌ، أي: أيَّ شيءٍ شاء اللهُ تعالى كان.

وأيًّاما كان فالمرادُ تحضيضُه على الاعترافِ بأنَّ جنَّتَه وما فيها بمشيئةِ الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أبادَها، ودلالةُ الجملة على العموم الداخلِ فيه ما ذُكر دخولاً أوليًّا على التقدير الأولِ؛ لأنَّ تعريفَ الأمر للاستغراق، والجملةُ على هذا تفِيدُ الحصرَ، وأمَّا على غيرِه فقيل: لأنَ «ما» شرطيةٌ، أو موصولةٌ وهي في معنى الشرط، والشرطُ وما في معناه يُفيد توقُّفَ وجودِ الجزاء على ما في حيِّزه، فيُفيد عدمَه عند عدمِه، فيكون المعنى: ما شاء كان وما لم يشأ[1] لم يكن، ولا غبارَ على ذلك عند مَن يقول بمفهوم الشرط.

وقدَّر بعضُهم في الثاني من احتمالَي الموصولة: ما شاء الله هو الكائن، حتى تُفيد الجملةُ ما ذُكر. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وزعم القفَّال من المعتزلة أنَّ التقديرَ: هذا ما شاءه الله تعالى، والإشارةُ إلى ما في الجنة من الثمار ونحوها، وهذا كقول الإنسان إذا نظر إلى كتابٍ مثلاً: هذا خطُّ زيد. ومرادُه نفي دلالة الآية على العموم؛ ليسْلَمَ له مذهبُ الاعتزال، وكذلك فَعَلَ الكعبيُّ والجبَّائيُّ حيث قالا: الآية خاصَّةٌ فيما تولى اللهُ تعالى فعلَه، ولا تشملُ ما هو من فعل العباد، ولا يمتنع أن يحصُلَ في سلطانه سبحانه ما لا يريد كما يحصل فيه ما ينهى عنه. ولا يخفى على مَن له ذوقٌ سليمٌ وذهنٌ مستقيمٌ أنَّ المنساقَ إلى الفهم العمومُ، وكم للمعتزلة عدولٌ عن ذلك.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ من مَقولِ القول أيضاً، أي: هلَّا قلتَ ذلك اعترافاً بعجزك وإقراراً بأنَّ ما تيسَّر لك من عمارتها وتدبيرِ أمرها إنما هو بمَعُونتِه تعالى وإقدارِه جلَّ جلالُه!.

---

(١) في (م): وإن لم يشأ، وهو تحريف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ١٠٢، والكلام منه.

وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذكراً جليلاً أيضاً؛ فقد أخرج أحمدُ عن أبي هريرة قال: قال لي نبيُّ الله ﷺ: «ألا أدلُّك على كنزٍ من كنوز الجنةِ تحت العرش»؟ قلتُ: نعم. قال: «أن تقولَ: لا قوَّةَ إلا بالله». قال عَمرو بن ميمون: قلتُ لأبي هريرة: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآيةَ[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرَّة قال: إنَّ من أفضلِ الدعاء قولَ الرجل: ما شاء الله[(٢)].

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم اللهُ تعالى على عبدٍ نعمةً في أهل أو مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله. إلا دفع الله تعالى عنه كلَّ آفة حتى تأتيه منيَّته»، وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ إلخ[(٣)].

وأخرج ابن أبي حاتم من وجهٍ آخَرَ عن أنس قال: من رأى شيئاً من ماله فأعجَبَه فقال: ما شاء الله لا قوَّةَ إلا بالله. لم يُصِب ذلك المالَ آفةٌ أبداً، وقرأ الآيةَ، وأخرجه البيهقيُّ في «الشعب» عن أنس مرفوعاً[(٤)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن مطرِّفٍ قال: كان مالك إذا دخل بيتَه يقول: ما شاء الله. قلتُ لمالك: لِمَ تقول هذا؟ قال: ألا تسمع اللهَ تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٥)]. ونُقِل عن ابن العربي أنَّ مالكاً يستدِلُّ بالآية على استحباب ما تضمَّنته من الذِّكْر لكلِّ مَن دخل منزلَه[(٦)].

---

(١) مسند أحمد (٨٤٢٦)، وإسناده حسن.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٢٣، وهو في شعب الإيمان (٤٣٦٩) دون ذكر الآية، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٤٢٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٠: فيه عبد الملك بن زرارة، وهو ضعيف.
(٤) شعب الإيمان (٤٣٧٠) دون ذكر الآية، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٥) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٢٧-١٢٢٨.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الشعب» عن عروة أنه كان إذا رأى من مالِه شيئاً يُعجِبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ويتأوَّل قولَ الله تعالى: (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ) الآية[١].

ويفهم من بعض الروايات استحبابُ قول ذلك عندَ رؤيةِ ما يُعجِب مطلقاً، سواءٌ كان له أو لغيرِه، وأنه إذا قال ذلك لم تُصِبه عينُ الإعجاب[٢].

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ إلخ «أنا» توكيدٌ للضميرِ المنصوب على المفعولية في «ترني»، وقد أقيم ضميرُ الرفع مقامَ ضمير النصب، والرؤيةُ إن كانت عِلميةً فـ «أقلَّ» مفعولٌ ثانٍ، وإن كانت بصريةً فهو حالٌ من المفعول، ويجوز أن يكونَ «أنا» فصلاً، وحينئذٍ يتعيَّن أن تكونَ الرؤيةُ علميةً؛ لأنَّ الفصلَ إنما يقعُ بينَ مبتدأ وخبرٍ في الحال أو في الأصل.

وقرأ عيسى بن عمر: «أقلُّ» بالرفع[٣]، فيكون «أنا» مبتدأً، و«أقلُّ» خبرَه، والجملةُ في موضع المفعول الثاني على الأول من احتمالَي الرؤية، أو الحال على الثاني منهما.

و«مالاً وولداً» تمييزٌ على القراءتين وما فيهما من الاحتمال، وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ قائمٌ مقامَ جوابِ الشرط، أي: إن ترنِ كذلك فلا بأسَ، عسى ربِّي... إلخ. وقال كثيرٌ: هو جوابُ الشرط، والمعنى: إن ترني أفقرَ منكَ فأنا أتوقَّع من صَنيع الله تعالى أن يقلِبَ ما بي وما بك من الفقر والغِنى، فيرزُقني لإيماني جنةً خيراً من جنَّتِك، ويسلبك بكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنتك.

وقيَّد بعضُهم هذا الإيتاءَ بقوله: في الآخرة، وقال آخر: في الدنيا أو في الآخرة، وظاهرُ ما ذُكر أنه في الدنيا كالإرسال في قوله: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس[٤].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٢٣، وهو في شعب الإيمان (٢٢٣٠).
(٢) ينظر حديث أنس ﷺ في عمل اليوم والليلة لابن السني (٢٠٧).
(٣) البحر ٧/ ١٢٩.
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٦.

وأخرج الطستيُّ عنه أنَّ نافع بن الأزرق قال له: أَخبِرْني عن قوله تعالى: (حُسْبَانًا) فقال: ناراً، وأنشد له قولَ حسَّان:

بقيةُ معشرٍ صُبَّت عليهم شآبيبٌ من الحُسبان شُهْبُ[1]

وأخرج ذلك ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الضحَّاك أيضاً[2].

وقال الزمخشريُّ: هو مصدرٌ كالبطلان والغفرانِ، بمعنى الحِساب، والمراد به المحسوب والمقدَّر، أي: مقدَّراً قدَّره الله تعالى وحَسَبه وهو الحُكْمُ بتخرِيبها[3].

والظاهرُ أنَّ إطلاقه على الحكم المذكورِ مجازٌ. والزجَّاجُ جعل الحسبانَ بمعنى الحساب أيضاً، إلا أنه قدَّر مضافاً، أي: عذابَ حسابٍ، وهو حسابُ ما كسبَتْ يداه[4]. ولا يخفى أنه يجوز أن يرُاد من الحسبان بهذا المعنى العذابُ مجازاً، فلا يحتاج إلى تقديرِ مضافٍ. وظاهر عبارة «القاموس»[5] وكذا ما رُوي أولاً عن ابن عباس أنَّ إطلاقَ الحُسبان على العذاب حقيقةٌ، ويُمكِن على ما قيل أن يكونَ إطلاقُه على النار باعتبارِ أنَّها من العذاب أو من المقدَّر، ونقل الزمخشريُّ أنَّ «حسباناً» جمع: حُسبانةٍ، وهي المرماة، أي: ما يُرمَى به كالسهمِ والصاعِقةِ، وأُريد بها هنا الصواعق[6]. وقيل: أعمُّ من ذلك، أي: يُرسِل عليها مَرامي من عذابِه إمَّا بَرَداً وإما حجارةً وإما غيرَهما مما يشاء.

﴿فَتُصْبِحَ﴾ لذلك ﴿صَعِيدًا﴾ أي: أرضاً ﴿زَلَقًا ۝٤٠﴾ ليس فيها نباتٌ، قاله الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم عن السديِّ[7].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٢٤، وأخرجه من طريق الطستي السيوطي في الإتقان ١/ ٤٠٥. وشآبيب: جمع شؤبوبٍ، وهو الدفعة من المطر. القاموس (شأب).

(٢) عزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٤، ولم نقف عليه في مطبوع المصنف.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٩٠.

(٥) مادة (حسب).

(٦) الكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٧) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٤.

قيل: وأصلُ معنى الزَّلَقِ: الزلَلُ في المشي لوَحَلٍ أو نحوه، لكن لمَّا كان ذلك فيما لا يكون فيه نبتٌ ونحوُه مما يَمنع منه، تُجوِّز به أو كُني عنه، وعُبِّر بالمصدر عن المَزلَقة مبالغةً.

وقيل: الزَّلَقُ من: زَلَق رأسَه بمعنى حلَقه، والكلامُ على التشبيه، أي: فتُصبِحَ أرضاً ملساء ليس فيها شجرٌ ولا نباتٌ، كالرأس الذي حُلقَ. وفيه بُعدٌ.

وقيل: المرادُ بالزَّلَق: المَزلَقةُ بالمعنى الحقيقيِّ الظاهر، والمعنى: فتُصبح أرضاً لا نبات فيها ولا يَثْبُت فيها قَدَمٌ، وحاصلُه: فتُصبح مسلوبةَ المنافع حتى منفعة المشْي عليها، فتكونُ وحَلاً لا تُنبِت ولا يثبُت عليها قَدَمٌ، وظاهرُ صنيع أبي حيان اختيارُه[1].

وقال مجاهد: أي: فتُصبح رملاً هائلاً[2].

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، والتعبيرُ بالمصدر للمبالغة نظيرَ ما مرَّ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ تحرُّكاً وعملاً في ردِّه وإخراجِه، والمراد نفْي استطاعةِ الوصول إليه، فعُبِّر عنه بنفْي الطلب إشارةً إلى أنَّه غيرُ ممكنٍ، والعاقلُ لا يطلبُ مثله.

وقيل: ضميرُ «له» للماء مطلقاً لا للماءِ المخصوصِ، أي: فلن تستطيعَ لماءٍ لها بدلَ ذلك الماء الغائرِ طلباً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الماورديِّ[3]، إلَّا أنه خلافُ الظاهر.

والظاهرُ أنَّ «يُصبِحَ» عطفٌ على «تُصبحَ»، وحينئذٍ لا بدَّ أن يرادَ بالحُسبانِ ما يصلُح ترتُّبُ الأمرين عليه عادةً كالحكم الإلهيِّ بالتخريبِ، إذ ليس كلُّ آفةٍ سماويةٍ يترتَّبُ عليها إصباحُ الجنة صعيداً زلقاً يترتَّبُ عليها إصباحُ مائِها غوراً.

وجوِّز أن يكونَ العطفُ على «يُرسِل»، وحينئذٍ يجوز أن يرادَ بالحسبانِ أيُّ معنًى كان من المعاني السابقة، وعلى هذا يكونُ المؤمنُ قد ترجَّى هلاكَ جنَّةِ

---

(١) ينظر البحر المحيط ٦/ ١٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٨.

صاحبِه الكافر إما بآفةٍ سماويةٍ، أو بآفةٍ أرضيةٍ وهو غورُ مائِها، فيتلَفُ كلُّ ما فيها من الشجر والزرع، لكنَّه لم يُصرّح بما يترتَّبُ على الغور من الضررِ والخرابِ، ولعلَّ ذلك لظهوره والاكتفاءِ بالإشارة إليه بقوله: «فلن» إلخ.

وتعقِّب بأنَّه لا يخفى أنه لا فسادَ في هذا العطف لا لفظاً ولا معنًى، إلا أنَّه كان الظاهرُ أن يقال: أو يَجعل ماءَها غوراً، أو نحوَ ذلك مما فيه إسنادُ الفعل إلى الله تعالى، ولا يظهرُ للعدول إلى ما في النظم الكريم وجهٌ، فتأمَّل.

ثم إنَّ أكثرَ العلماء على أنَّ قولَه: «إنْ تَرَنِ» إلخ في مقابلة قول الكافر: «أنا أكثر منك مالاً» إلخ، وكأنَّهم عنَوا المقابلةَ في الجملة، لا المقابلةَ التامَّةَ، أما إذا لم يتَّحد المرادُ بالنفَر والولد فظاهرٌ، وأما إذا اتَّحد بأنْ فُسِّر النفرُ بالولد فلأنَّ هناك أمرين: أكثريةً وأعزِّيَّةً، ولم يُذكر هنا إلا مقابلُ أحدِهما وهو الأقلِّيةُ المنسوبةُ في المعنى إلى المال والولد، نعم قيل: إنَّ أقلِّيَّةَ الولدِ قد تستلزم الأذلِّيَّةَ، والأكثريةُ قد تستلزم الأعزِّيَّةَ كما يُشاهَد في عرَب البادية.

هذا، وكان الظاهرُ أن يتعرَّضَ في الجزاء لأمرِ الولد كما تعرَّض لأمر المال بأن يقال: وعسى أن يؤتيني خيراً من ولدك ويُصيبَهم ببلاءٍ فيُصبِحوا هَلْكَى، أو نحو ذلك.

وأجيب بأنَّه إنَّما لم يتعرَّضْ لذلك إشارةً إلى استيلاء حبِّ المال على قلبِ ذلك الكافر، وأنَّه يكفي في نِكايته وإغاظته تلَفُ جنَّتِه وإعطاءُ صاحبِه المؤمن خيراً منها.

وقيل: إنما لم يتعرَّض لذلك لِمَا فيه من ترجِّي هلاكِ مَن لم يصدرُ منه مكالمةٌ ومحاورةٌ، ولم يُنقل عنه مقاومَةٌ ومفاخرةٌ لمجرَّدِ إغاظة كافرٍ حاوَرَ وكاثَرَ وفاخَرَ، وتركُه أفضلُ للكاملِ وأكملُ للفاضل، والدعاءُ على الكَفَرة وذرارِيهم الصادرُ من بعض الأنبياءِ عليهم السلام ليس مِن قبيل هذا الترجِّي كما لا يخفى على المتأمِّل. وحيثُ أراد ترْكَ هذا الترجِّي ترَكَ ترجِّي الولد لنفسه تبعاً له، أو لكونه غيرَ مُهمٍّ له.

وقيل: إنه ترجَّاه في قوله: «خيراً من جنتك»؛ لأنَّ المرادَ: شيئاً خيراً من جنتك، والنكرةُ قد تعمُّ بمَعونةِ المقام فيندرجُ الولدُ. وليس بشيء.

وقيل: أراد ما هو الظاهرُ، أي: جنةً خيراً من جنتك، إلا أنَّ الخيريَّةَ لا تِتمُّ من دونِ الولد إذ لا تكمُل لذَّةٌ بالمال لمن لا ولدَ له، فترجِّي جنةٍ خيرٍ من تلك الجنة متضمِّنٌ لترجِّي ولدٍ خيرٍ من أولئك الولد، ولم يترجَّ هلاكَ ولده ليكون بقاؤهم بعدَ هلاكِ جنته حملاً عليه. ولا يخفى أنَّه لا يتبادَرُ إلى الذهن من خيريَّةِ الجنة إلا خيريَّتُها فيما يعود إلى كونها جنةً من كثرةِ الأشجار وزيادةِ الثمار وغزارةِ مياه الأنهار ونحوِ ذلك. وفي قوله: ليكونَ... إلخ منعٌ ظاهرٌ.

وقيل: لم يترجَّ الولدَ؛ اكتفاءً بما عنده منهم، فإنَّ كثرةَ الأولادِ ليس مما يرغَب فيه الكاملون، وفيه نظرٌ.

وقيل: إنه لم يقرِنْ ترجِّيَ إيتاءِ الولد مع ترجِّي إيتاءِ الجنة؛ لأنَّ ذلك الإيتاء المترجَّى في الآخرة، وهي ليست محلًّا لإيتاءِ الولد لانقطاع التولُّدِ هناك. ولا يخفى أنَّ هذا ـ بعدَ تسليم أنَّه لا يؤتى الولُد لمن شاءه في الآخرة ـ ليس بشيء.

وقيل: يمكن أن يكونَ ترجِّي الولد في قوله: ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، بناءً على أنَّه أراد من جنته جميعَ ما مُتِّع به من الدنيا، وتكونُ الضمائرُ بعدها عائدةً عليها بمعنى البستان على سبيل الاستخدام. وهو كما ترى، فتدبَّر، والله تعالى أعلم بأسرارِ كتابه وأخبر.

وقرأت فرقة: «غُؤوراً» بضمِّ الغين وهمزةٍ بعدها وواوٍ بعدهما[1].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أموالُه المعهودةُ من جنَّتيه وما فيهما، وهو مأخوذٌ من إحاطةِ العدوِّ وهي استدارتُه به من جميع جوانبِه، استُعمِلت في الاستيلاء والغلبة، ثم استُعمِلت في كلِّ هلاكٍ، وذكر الخفاجيُّ أنَّ في الكلام استعارةً تمثيليةً: شُبِّهَ إهلاكُ جنتيه بما فيهما بإهلاك قوم حاط بهم عدوٌّ وأوقع بهم بحيثُ لم ينجُ أحدٌ منهم، ويحتمل أن تكونَ الاستعارةُ تبعيَّةً، وبعضٌ يجوِّز كونَها تمثيليَّةً تبعيَّةً[2]. انتهى.

وجَعْلُ ذلك من باب الكناية أظهرُ، والعطفُ على مقدَّر، كأنه قيل: فوَقَع بعضُ ما ترجَّى وأُحيط... إلخ، وحُذِف لدلالة السِّباقِ والسِّياقِ عليه.

(١) زاد المسير ٥/١٤٦، والبحر ٦/١٢٩.
(٢) حاشية الشهاب ٦/١٠٣.

واستُظْهِر أنَّ الإهلاكَ كان ليلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾. ويحتمل أن تكونَ «أصبح» بمعنى «صار»، فلا تدلُّ على تقييدِ الخبر بالصباح، ويَجرِي هذان الأمران في «تُصبحَ» و«يُصبحَ» السابقين.

ومعنى تقليبِ الكفَّين على ما استظهره أبو حيان[1] أن يُبدِي بطنَ كلٍّ منهما ثم يُعوج يدَه حتى يبدو ظهرُ كلٍّ، يفعل ذلك مراراً. وقال غيرُ واحد: هو أن يضعَ باطنَ إحداهما على ظهرِ الأخرى ثم يعكِس الأمرَ ويُكرِّر ذلك. وأيًّا ما كان فهو كنايةٌ عن الندَم والتحسُّر، وليس ذلك من قولهم: قلبتُ الأمرَ ظهراً لبطنٍ، كما في قول عُمر بن أبي ربيعة[2]:

وضَرَبْنا الحديثَ ظهراً لبطنٍ وأتَيْنا مِن أمْرِنا ما اشتَهَيْنا

فإنَّ ذلك مجازٌ عن الانتقال من بعضِ الأحاديث إلى بعضٍ.

ولكونه كنايةً عن الندم عُدِّي بـ «على» في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ فالجارُّ والمجرورُ ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بـ «يقلب»، كأنه قيل: فأصبَحَ يندَمُ على ما أنفق، ومنه يُعلم أنَّه يجوز في الكناية أن تُعدَّى بصلةِ المعنى الحقيقيِّ كما في قولهم: بَنَى عليها، وبصلةِ المعنى الكنائيِّ كما هنا، فيجوز: بَنَى بها، ويكون القولُ بأنه غلط غلطاً.

ويجوز أن يكونَ الجارُّ والمجرور ظرفاً مستقِرًّا متعلَّقه خاصٌّ، وهو حالٌ من ضميرِ «يقلب»، أي: متحسِّراً على ما أنفق، وهو نظراً إلى المعنى الكنائيِّ حال مؤكِّدة على ما قيل؛ لأن التحسُّرَ والندَمَ بمعنًى. وقال بعضُهم: إنَّ التحسُّرَ الحزنُ، وهو أخصُّ من الندم، فليُراجَع. وأيًّاما كان فلا تضمينَ في الآية كما تُوهِّم.

وقرئ: «تَقَلَّبُ كفَّاه» أي: تَتَقلَّب[3]، ولا يخفى عليك أمرُ الجارِّ والمجرور على هذا.

---

(١) في البحر ٦/ ١٣٠.
(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: عمرو ابن ربيعة، والصواب المثبت، والبيت في ديوانه ص٣٠٥، وأساس البلاغة (ظهر).
(٣) الإملاء ٣/ ٥١٩.

و«ما» إمَّا مصدريةٌ، أي: على إنفاقه في عمارتها، وإمَّا موصولةٌ، أي: على الذي أنفقَه في عمارتها من المال، ويقدَّر على هذا مضافٌ إلى الموصول من الأفعال الاختياريَّةِ إذا كان متعلَّق الجارِّ «يقلِّب»، مراداً منه: يَندم؛ لأنَّ الندمَ إنما يكون على الأفعال الاختياريَّة، ويُعلم من هذا وجهُ تخصيصِ الندم على ما أنفق بالذكر دون هلاك الجنة. وقيل: لعلَّ التخصيصَ لذلك؛ ولأنَّ ما أنفق في عمارتها كان مما[1] يمكن صيانتُه عن طوارقِ الحَدَثان وقد صَرفه إلى مصالحِها رجاءَ أن يتمتَّعَ بها أكثرَ مما يتمتَّعُ به، وكان يرى أنَّها لا تنالُها أيدي الرَّدَى، ولذلك قال: «ما أظن أن تبيدَ هذه أبداً»، فلمَّا ظهر له أنها مما يَعتريه الهلاكُ نَدِم على ما صنع بناءً على الزعم الفاسد من إنفاق ما يُمكِن ادِّخارُه في مثل هذا الشيء السريع الزوال. انتهى.

والظاهرُ أنَّ إهلاكَها واستئصالَ نباتِها وأشجارِها كان دفعيًّا بآفةٍ سماويةٍ، ولم يكن تدريجيًّا بإذهاب ما به النماءُ وهو الماءُ، فقد قال الخفاجيُّ: إنَّ الآية تدلُّ على وقوع استئصالِ نباتِها وأشجارِها عاجلاً بآفةٍ سماويةٍ صريحاً لقوله تعالى: «فأصبح» بالفاءِ التعقيبية، والتحسُّرُ إنما يكون لِمَا وقع بغتةً[2]. فتأمَّل.

﴿وَهِىَ﴾ أي: الجنةُ من الأعناب المحفوفة بنخلٍ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي: ساقطةٌ، وأصلُ الخواء ـ كما قيل ـ الخلاءُ، يقال: خَوى بطنُه من الطعام يخوي خوًى وخواءً: إذا خلا. وفي «القاموس»: خوتِ الدارُ: تهدَّمَت. وخَوَّت[3] وخَوِيت خَيًّا وخُوِيًّا وخَواء وخَوايةً: خلت من أهلها. وأريد السقوطُ هنا لتعلُّقِ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بذلك.

والعروشُ: جمع عرشٍ، وهو هنا ما يُصنَع من الأعمِدةِ لتُوضَع عليه الكرومُ، وسقوطُ الجنة على العروش لسقوطِها قبلَها، ولعلَّ ذلك لأنَّه قد أصابَ الجنةَ من العذاب ما جعلها صعيداً زلقاً لا يثبُت فيها قائم.

ولعلَّ تخصيصَ حالِ الكروم بالذكر دونَ النخلِ والزرعِ إمَّا لأنَّها العُمدةُ وهما من متمِّماتها، وإمَّا لأنَّ ذكرَ هلاكِها ـ على ما قيل ـ مغنٍ عن ذكر هلاك

(١) في الأصل و(م): ما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٤، والكلام منه.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ١٠٣.

(٣) كذا وقعت في القاموس بالتشديد، وقال في تاج العروس: الصحيح خَوَت. اهـ.

الباقي؛ لأنَّها حيثُ هلكت وهي مسنَدةٌ بعروشها فهلاكُ ما عداها بالطريق الأولى، وإمَّا لأنَّ الإنفاقَ في عمارتها أكثرُ.

ثم هذه الجملةُ تُبعِد ما رُوي من أنَّ اللهَ تعالى أرسل عليها ناراً فأحرَقَتْها وغار ماؤُها، إلَّا أن يرادَ منها مطلقُ الخراب، وحينئذٍ يجوز أن يرادَ من «هي» الجنةُ بجميع ما اشتَمَلَتْ عليه.

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على «يقلِّب»، وجوَّز أبو البقاء[1] وغيرُه أن يكونَ حالاً من الضمير المستترِ فيه بتقديرِ: وهو يقول، لأنَّ المضارعَ المثبت لا يقترِنُ بالواو الحالية إلَّا شذوذاً.

﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ كأنه تذكَّر موعظةَ أخيهِ وعَلِم أنَّه إنَّما أُتِي من قِبَل شِرْكه، فتمنَّى لو لم يكن مشركاً فلم يُصِبه ما أصابه، قيل: ويحتمل أن يكونَ توبةً من الشرك وندماً عليه، فيكون تجديداً للإيمان؛ لأنَّ ندمَه على شركه فيما مضى يُشعِر بأنَّه آمن في الحال، فكأنه قال: آمنتُ بالله تعالى الآنَ، وليت ذلك كانَ أولاً. لكن لا يخفى أنَّ مجرَّد الندمِ على الكفر لا يكون إيماناً، وإن كان الندمُ على المعصية قد يكون توبةً إذا عزمَ على أن لا يعودَ، وكان الندمُ عليها من حيث كونها معصيةً كما صرَّح به في «المواقف»[2].

وعلى فرض صحَّةِ قياسِه بها لم يتحقَّق هنا من الكافر ندمٌ عليه من حيثُ هو كفرٌ، بل بسببِ هلاك جنتيه، والآيةُ فيما بعدُ ظاهرةٌ أيضاً في أنَّه لم يتُب عمَّا كَفَر به وهو إنكارُ البعث، والقولُ بأنَّه إنَّما لم تُقبل توبتُه عن ذلك لأنَّها كانت عندَ مشاهَدةِ البأسِ، والإيمانُ إذ ذاك غيرُ مقبول = غيرُ مقبول، إذ غايةُ ما في الباب أنه إيمانٌ بعد مشاهدة إهلاك مالِه، وليس في ذلك سلبُ الاختيار الذي هو مناطُ التكليف، لا سيَّما إذا كان ذلك الإهلاكُ للإنذار، نعم إذا قيل: إنَّ هذا حكايةٌ لِمَا يقوله الكافرُ يومَ القيامة كما ذهب إليه بعضُ المفسرين، كان وجهُ عدمِ القبول ظاهراً؛ إذ لا ينفع تجديدُ الإيمان هناك بالاتفاق.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٩.

(٢) المواقف مع شرح الجرجاني ٨/ ٣١٤.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرأ الأخوان ومجاهد وابن وثَّاب والأعمش وطلحة وأيوب وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابن جرير: «يكن» بالياء التحتيَّة[(١)]؛ لأنَّ المرفوعَ به - أعني قولَه تعالى: ﴿فِئَةٌ﴾ - غيرُ حقيقيِّ التأنيث، والفعلُ مقدَّمٌ عليه، وقد فُصِل بينهما بالمنصوب، وقد رُوعي في قوله سبحانه: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ المعنى، فأتي بضمير الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ولم تكن له فئة تنصره»[(٢)]، مراعاةً للفظ فقط.

والمرادُ من النصرة لازِمُها وهو القدرةُ عليها، أي: لم تكن له فئةٌ تقدِر على نصره إما بدفعِ الهلاك قبلَ وقوعه، أو بردِّ المُهلَك بعينه على القول بجواز إعادةِ المعدوم بعينه، أو بردِّ مثلِه على القول بعدم جوازِ ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّه سبحانه وتعالى القادرُ على نصره وحدَه، وارتُكب المجازُ لأنَّه لو أُبقي ذلك على ظاهره لاقتضى نصرةَ الله تعالى إياه؛ لأنَّه إذا قيل: لا ينصر زيداً أحدٌ دون بكرٍ، فُهِم منه نصرةُ بكرٍ له في العرف، وليس ذلك بمرادٍ، بل المرادُ ما سمعتَ، وحاصلُه: لا يقدِرون على نَصره إلا اللهَ تعالى القدير. ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ ممتنِعاً بقوَّتِه عن انتقام الله تعالى منه.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام وتلك الحالِ التي وقع فيها الإهلاكُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: النصرةُ له تعالى وحدَه لا يقدِرُ عليها أحدٌ، فالجملةُ تقريرٌ وتأكيدٌ لقوله تعالى: (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ) إلخ، أو ينصُر فيها[(٣)] أولياءَه المؤمنين على الكفرة كما نَصَر سبحانه بما فعل بالكافر أخاه المؤمنَ، فالولايةُ بمعنى النُّصرةِ على الوجهين، إلا أنَّها على الأول مطلَقةٌ أو مقيَّدةٌ بالمضطرِّ ومن وقع به الهلاكُ، وعلى هذا مقيَّدة بغير المضطرِّ وهم المؤمنون، ويعضُد أنَّ المرادَ نصرتُهم قولُه تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: عاقبةً لأوليائه، ووجهُ ذلك أنَّ الآيةَ خُتِمت بحالِ الأولياء فيناسِبُ أن يكونَ ابتداؤُها كذلك.

---

(١) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣٠.

(٣) الضمير في قوله: فيها، عائد على قوله: تلك الحال. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٤.

وقرأ الأخوان والأعمش وابن وثَّاب وشيبة وابن غزوان عن طلحة وخلف وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابن جرير: «الوِلاية» بكسر الواو(1)، وهي والوَلاية بالفتح بمعنًى واحدٍ عند بعضِ أهل اللغة، كالوَكالة والوِكالة، والوَصاية والوِصاية. وقال الزمخشريُّ: هي بالفتح: النصرةُ والتولِّي، وبالكسر: السلطانُ والملك(2). أي: هنالك السلطانُ له عزَّ وجلَّ لا يُغلَب ولا يُمتنَع منه ولا يُعبَد غيرُه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فتكون الجملةُ تنبيهاً على أنَّ قولَه: «يا ليتني لم أشرك» إلخ كان عن اضطرارٍ وجَزَعٍ عمّا دهاه، ولم يكن عن ندمٍ وتوبةٍ.

وحُكي عن أبي عمرو والأصمعيِّ أنهما قالا: إنَّ كسرَ الواو لحنٌ هنا؛ لأنَّ فِعالة إنَّما تجيء فيما كان صنعةً ومعنًى متقلَّداً كالكِتابة والإمارة والخِلافة، وليس هنا تولِّي أمرٍ، إنما هي الوَلاية بالفتح بمعنى الدِّين بالكسر(3). ولا يُعوَّل على ذلك.

واستظهر أبو حيان(4) كونَ «هنالك» إشارةً إلى الدار الآخرة، أي: في تلك الدار الولايةُ لله الحقِّ، ويناسِبُ قولَه تعالى: (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) ويكون كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والظاهرُ على جميع ذلك أنَّ الوقفَ على «منتصراً»، وقولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ إلخ ابتداءُ كلامٍ، وحينئذٍ ف «الولاية» مبتدأ، و«لله» الخبرُ، والظرفُ معمولُ الاستقرار، والجملةُ مفيدةٌ للحصر لتعريف المسنَد إليه واقترانِ الخبر بلام الاختصاصِ، كما قُرِّر في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون «هنالك» خبرُ «الولاية»، أو الولايةُ مرفوعةٌ به، و«لله» يتعلَّق بالظرف، أو بالعامل فيه، أو بالولاية، ويجوز أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً منها(5).

---

(1) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٢٧٧ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣٠.
(2) الكشاف ٢/ ٤٨٦.
(3) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر المحيط ٦/ ١٣٠.
(4) في البحر ٦/ ١٣٠.
(5) الإملاء ٣/ ٥٢٠.

وقال بعضُهم: إنَّ الظرفَ متعلِّقٌ بـ «منتصراً» والإشارةُ إلى الدار الآخرة، والمراد الإخبارُ بنفْي أن يَنتصِر في الآخرة بعد نفْي أن تكونَ له فئة تنصره في الدنيا. والزجّاج جعله متعلِّقاً بـ «منتصراً» أيضاً إلا أنَّه قال: وما كان منتصراً في تلك الحالة[1].

و«الحقِّ» نعتٌ للاسم الجليل.

وقرأ النحويان[2] وحميد والأعمش وابن أبي ليلى وابن مُناذر واليزيديُّ وابن عيسى الأصبهانيُّ: «الحقُّ» بالرفع على أنه صفة «الولاية».

وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي ـ أو هو ـ الحقُّ، وأن يكون مبتدأً و«هو» خبرُه[3].

وقرأ أبيٌّ: «هنالك الولاية الحقُّ لله» بتقديم «الحق» ورفعِه[4]، وهو يرجِّح كونَ «الحق» نعتاً لـ «الولاية» في القراءة السابقة.

وقرأ أبو حيوة وزيد بن عليٍّ وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال ويعقوب عن عصمة عن أبي عمرو: «الحقَّ» بالنصب[5]، على أنه مصدَرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملة، والناصبُ له عاملٌ مقدَّرٌ، كما في قولك: هذا عبد الله حقًّا. ويحتمل أنه نعتٌ مقطوعٌ.

وقرأ الحسن والأعمش وحمزة وعاصم وخلف: «عُقْباً» بسكون القاف والتنوين[6]. وعن عاصم: «عُقْبى» بألف التأنيث المقصور[7]، على وزن: رُجعى. والجمهورُ بضمِّ القاف والتنوين، والمعنى في الكلِّ ما تقدَّم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٩.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: الأخوان، والصواب المثبت كما في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١، والبحر ٦/ ١٣١، والكلام منه، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

(٣) الإملاء ٣/ ٥٢٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٥-١٤٦، والبحر ٦/ ١٣١.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣١.

(٦) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٢١٦ عن عاصم وحمزة وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣١.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣١، وهي خلاف المشهور عن عاصم.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اذكر لهم ما يُشبِهها في زهرتها ونَضارتها وسُرعةِ زوالها لئلَّا يغترُّوا بها ولا يضرِبوا عن الآخرة صفحاً بالمرَّة، أو: اذكر لهم صفتَها العجيبةَ التي هي في الغرابة كالمَثَل وبيِّنْها لهم.

﴿كَمَآءٍ﴾ استئنافٌ لبيان المثل، أي: هي كماءٍ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وجوَّزوا أن يكونَ مفعولاً ثانياً لـ «اضْرِب» على أنه بمعنى: صَيِّر. وتعقِّب بأنَّ الكافَ تنبو عنه، إلا أن تكونَ مقحَمةً. ورُدَّ بأنَّه مما لا وجهَ [له][1] لأنَّ المعنى: صيِّر المثلَ هذا اللفظَ، فالمثل بمعنى الكلام الواقع فيه التمثيلُ. وقال الحوفي: الكافُ متعلِّقةٌ بمحذوف صفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ضرباً كماءٍ. وليس بشيء.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاشتبك وخالَط بعضُه بعضاً لكثرته وتكاثُفِه بسبب كثرةِ سقي الماء إياه، أو المرادُ: فدخل الماءُ في النبات حتى رَوِي ورفَّ[2]، وكان الظاهر في هذا المعنى: فاختلط بنبات الأرض، لأنَّ المعروفَ في عُرف اللغة والاستعمال دخولُ الباء على الكثير الغير الطارئ، وإن صدق بحسب الوضع على كلٍّ من المتداخِلَين أنه مختلِط ومختلَطٌ به، إلا أنَّه اختِير ما في النظم الكريم للمبالغة في كثرة الماء حتى كأنه الأصلُ الكثير، ففي الكلام قلبٌ مقبولٌ.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النباتُ الملتفُّ إثرَ بهجتِه ونضارته ﴿هَشِيمًا﴾ أي: يابساً متفتِّتاً، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، وقيل: جمعُ: هَشيمةٍ، و«أصبح» بمعنى: «صار»، فلا يُفيد تقييدَ الخبر بالصباح كما في قوله:

أصبحتُ لا أحمِلُ السلاحَ ولَا ... أملِكُ رَأسَ البَعيرِ إن نَفَرا[3]

وقيل: هي على ظاهرِها مُفيدةٌ لتقييدِ الخبر بذلك؛ لأنَّ الآفاتِ السماويةَ أكثر ما تَطرُق ليلاً. وتعقِّب بأنَّه ليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ اتصافَه بكونه «هَشِيماً» لآفةٍ سماويةٍ، بل المرادُ بيانُ ما يَؤُول إليه بعدَ النضارة من اليُبسِ والتفتُّتِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤-٥].

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٥، والكلام منه.
(٢) قوله: رفَّ، أي: تحرك بلطف لرطوبته ونضرته. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٥.
(٣) سلف البيت للربيع بن ضبع الفزاري، ونسب لغيره، ينظر ما سلف ٧/ ١٨٨.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تُفرِّقه، كما قال أبو عبيدة(١). وقال الأخفش: ترفعه. وقال ابن كيسان: تجيء به وتذهب.

وقرأ ابن مسعود: «تُذْرِيه» من أذرى رباعيًّا، وهو لغةٌ في ذرى(٢).

وقرأ زيد بن عليٍّ والحسن والنخعيُّ والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن محيصن وخلف وابن عيسى وابن جرير: «تَذْرُوه الرِّيحُ» بالإفراد(٣).

وليس المشبَّهُ به نفسَ الماء، بل هو الهيئةُ المنتزعةُ من الجملة، وهي حالُ النبات المنبَت بالماء؛ يكون أخضر مُهتزًّا، ثم يصير يابساً تُطِيره الرياح حتى كأنه لم يكن.

وعبَّر بالفاء في الآية للإشعار بسُرعة زوالِه وصَيرُورتِه بتلك الصفة فليست فصيحةً. وقيل: هي فصيحةٌ والتقديرُ: فزهَا ومَكَث مدَّةً فأصبح هشيماً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاءُ والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ كاملَ القدرة.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانٌ لشأن ما كانوا يفتخِرُون به من محسِّنات الحياة الدنيا كما افتخر الأخُ الكافرُ بما افتخر به من ذلك إثرَ بيانِ شأنِ نفسها بما مرَّ من المثل، وتقديمُ المال على البنين مع كونِهم أعزَّ منه عندَ أكثر الناس لعَرَاقتِه فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقاتِ، فإنَّه زينةٌ وممدٌّ لكلِّ أحدٍ من الآباء والبنين في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأما البنون فزينتُهم وإمدادُهم إنما يكون بالنسبة إلى مَن بلغ الأبوَّةَ، ولأنَّ المالَ مناطٌ لبقاءِ النفس والبنون لبقاء النوع، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ من الحاجة إليهم، ولأنه أقدمُ منهم في الوجود، ولأنَّه زينةٌ بدونهم من غير عكسٍ، فإنَّ مَن له بنون بلا مالٍ فهو في أضْيَقِ حالٍ ونكالٍ. كذا في «إرشاد العقل السليم»(٤).

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٥. والكلام وما بعده من البحر ٦/ ١٣١.

(٢) البحر ٦/ ١٣٣، ووردت قراءة عبد الله في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٦، وللنحاس ٢/ ٤٥٩: «تَذْريه» من ذرى، وفي القراءات الشاذة ص٨٠: «يَذْريه» بالياء.

(٣) البحر ٦/ ١٣٣، وهي قراءة حمزة والكسائي كما في التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٤) ٥/ ٢٢٥.

والزينةُ مصدَرٌ، وأُطلِق على ما يُتزيَّن به للمبالغة ولذلك أُخبِر به عن أمرين، وإضافتُها إلى الحياة الدنيا اختصاصيةٌ، وجوِّز أن تكونَ على معنى «في»، والمعنى أنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يتزيَّنُ به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُرب الاضمحلال، فما الظنُّ بما هو من أوصافِها التي شأنُها أن تزولَ قبلَ زوالها؟

وذُكر أنَّ هذا إشارةٌ إلى ما يَردُّ افتخارَهم بالمال والبنين، كأنه قيل: المالُ والبنون زينةُ الحياة الدنيا، وكلُّ ما كان زينةَ الحياة الدنيا فهو سريعُ الزوال، ينتج: المالُ والبنون سريعا الزوال، أما الصغرى فبديهيةٌ، وأما الكُبرى فدليلُها يُعلم مما مرَّ من بيان شأن نفس الحياة الدنيا، ثم يقال: المالُ والبنون سريعا الزوال، وكلُّ ما كان سريعَ الزوال يقبُح بالعاقل أن يفتخِرَ به، ينتج: المالُ والبنون يَقْبح بالعاقل أن يفتخرَ بهما، وكلتا المقدِّمتينِ لا خفاءَ فيها.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي سعيد الخُدريِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «استكثِرُوا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبيرُ، والتَّهليلُ، والتسبِيحُ، والتحمِيدُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله»(١).

وأخرج الطبرانيُّ وابن شاهين في «الترغيب» وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهُنَّ يحططن الخطايا كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها، وهُنَّ من كنوزِ الجنة»(٢).

---

(١) مسند أحمد (١١٧١٣)، ومسند أبي يعلى (١٣٨٤)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٧٩، والمستدرك ١/ ٥١٢-٥١٣، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٢٥، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٢، وابن ماجه (٣٨١٣). وفي إسناده: عمر بن راشد وهو ضعيف، وقال المنذري في الترغيب ٢/ ٤١٧: رواه الطبراني بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواته محتج بهم في الصحيح، ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات.

وجاء تفسيرُها بما ذُكر في غير ذلك من الأخبارِ عن رسول الله ﷺ(١)، وأخرج ابنُ المنذر وابن أبي شيبة عن ابن عباس تفسيرَها بما ذكر أيضاً لكن بدون الذكرِ الأخير.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في رواية أخرى عنه تفسيرَها بالصلوات الخمس.

وأخرج ابن مردويه وابن المنذر وابن أبي حاتم في رواية أخرى عنه أيضاً تفسيرَها بجميع أعمال الحسنات.

وفي معناه ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن قتادة أنَّها كلُّ ما أُرِيد به وجهُ الله تعالى(٢).

وعن الحسن وابن عطاء أنَّها النِّيَّاتُ الصالحةُ(٣).

واختار الطبريُّ(٤) وغيرُه ما في الرواية الأخيرة عن ابن عباس، ويَندَرِج فيها ما جاء في ما ذُكر من الروايات وغيرِها.

وادَّعى الخفاجيُّ أنَّ كلَّ ما ذكر في تفسيرها غيرَ العامِّ ذكر على طريق التمثيل(٥). ويُبعِد ذلك قولُه ﷺ: «وهُنَّ الباقيات» المفيدُ للحصر بعد التنصيص على ما لا عمومَ فيه، فتأمَّل.

وأيًّاما كان فـ «الباقياتُ» صفةٌ لمقدَّرٍ كالكلماتِ أو الأعمال، وإسنادُ الباقياتِ إلى ذلك مجازٌ، أي: الباقي ثمرتُها وثوابُها، بقرينةِ ما بعدُ، فهي صفةٌ جرت على غيرِ ما هي له بحسب الأصل. أو هناك مقدَّرٌ مرفوعٌ بالوصف مضافٌ إلى ضميرِ الموصوف، واستتر الضميرُ المجرورُ وارتفع بعد حذفه.

---

(١) منها ما أخرجه أحمد (٥١٣) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وإسناده حسن. والطبراني في الدعاء (١٦٩٦) (١٦٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) نقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/ ٢٢٦.

(٣) البحر ٦/ ١٣٣.

(٤) في تفسيره ١٥/ ٢٨١، والبيضاوي في تفسيره ٦/ ١٠٦.

(٥) حاشية الشهاب ٦/ ١٠٦.

وكذا تدخُل أعمالُ فقراءِ المؤمنين الذين يَدعُون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهَه دخولاً أوليًّا، فإنَّ لهم من كلِّ نوعٍ من أنواع الخيرات الحظَّ الأوفَرَ، والكلامُ متضمِّنٌ للتنويه بشأنهم وحطِّ قدر شانِئِهم، فكأنه قيل: ما افتخر به أولئك الكَفَرةُ من المال والبنين سريعُ الزوال لا ينبغي أن يُفتَخَر به، وما جاء به أولئك المؤمنون ﴿خَيْرٌ﴾ من ذلك ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيانٌ لِمَا يظهَرُ فيه آثارُ خيريَّتها بمنزلة إضافةِ الزينةِ إلى الحياة الدنيا، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركة الكلِّ في الأصل؛ إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريَّة في الآخرة.

وقيل: معنى «عند ربك»: في حُكمه سبحانه وتعالى.

﴿ثَوَابًا﴾ جزاءً وأجراً. وقيل: نفعاً ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ حيثُ ينال بها صاحبُها في الآخرةِ ما يُؤمِّله بها في الدنيا، وأمَّا المال والبنون فليس لصاحبهما ذلك. وتكريرُ «خير» للمبالغة، وقيل: لها، وللإشعار باختلاف جهتَي الخيريَّة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ منصوبٌ بـ «اذْكُر» مضمَراً، أي: اذكر يومَ نقلَعُ الجبالَ من أماكنها ونسيِّرها في الجوِّ كالسحاب، كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقيل: نسيِّر أجزاءَها بعدَ أن نجعلَها هباءً مُنبثًّا، والكلامُ على هذا على حذفِ مضافٍ.

وجوِّز أن يكون التسييرُ مجازاً عن الإذهاب والإفناء بذكر السبب وإرادة المسبَّب، أي: واذكر يومَ نذهب بها ونَنسِفُها نسفاً، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

واعتُرِض كِلا الأمرين بأنَّ صَيرُورةَ الجبال هباءً منبثًّا وإذهابَها بعدَ[1] تَسْيِيرها، فقد ذكر بعضُ المحقِّقين أخذاً من الآيات أنَّه أوَّلاً تنفَصِل الجبالُ عن الأرض وتَسِير في الجوِّ، ثم تسقُط فتصِيرُ كثيباً مهيلاً ثم هباءً منبثًّا، والظاهرُ هنا أوَّلُ أحوالِ الجبال، ولا مقتَضَى للصرف عن الظاهر. ثمَّ المرادُ بذكر ذلك تحذيرُ المشركين ما فيه من الدواهي التي هي أعظمُ من ثالثة الأثافي.

---

(١) قوله: بعد، متعلق بخبر «أن» الواقعة في قوله: بأنَّ صيرورة. . .

وجوَّز أبو حيان[1] وغيرُه كونَ «يوم» ظرفاً للفعل المضمَر عند قوله تعالى: (لَّقَدْ جِئْتُمُونَا) إلخ، أي: قلنا يومَ كذا: لقد جئتمونا، وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى هناك.

وغيرُ واحد كونَه معطوفاً على ما قبله من قوله تعالى: (عِندَ رَبِّكَ)، فهو معمولُ «خير»، أي: الباقيات الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربك ويومَ القيامة، وحينئذٍ يتعيَّن أن يكونَ المرادُ من «عندَ ربك»: في حكمه تعالى، كما قيل به.

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو والحسن وشبل وقتادة وعيسى والزهريُّ وحميد وطلحة واليزيديُّ والزبيريُّ عن رجاله عن يعقوب: «تُسيَّر الجبالُ» برفع «الجبال» وبناءِ «تسيَّر» بالتاء ثالثةِ الحروف للمفعول[2]، جرياً على سننِ الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنه.

وعن الحسن أنَّه قرأ كذلك إلا أنه جاء بالياءِ آخرِ الحروف بدلَ التاء[3].

وقرأ أُبيٌّ: «سُيِّرت الجبالُ» بالماضي المبنيِّ للمفعول، ورفعِ «الجبال»[4].

وقرأ ابن محيصن ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «تَسِيرُ الجبالُ» بالمضارع المفتتح بالتاء المثنَّاة من فوق المبنيِّ للفاعل، ورفع «الجبال»[5].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممن يتأتَّى منه الرؤيةُ، أي: وترى جميعَ جوانبِ الأرض ﴿بَارِزَةً﴾ باديةً ظاهرةً، أمَّا ظهورُ ما كان منها تحتَ الجبال فظاهرٌ، وأما ما عداه فكانت الجبالُ تحول بينَه وبين الناظر قبلَ

---

(١) في البحر ٧/ ١٣٤.

(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، والكلام من البحر ٦/ ١٣٤. والزبيري هو الزبير بن أحمد من ولد الزبير بن العوام رضي الله عنه، قرأ على روح ورويس وغيرهما، توفي سنة بضع وثلاث مئة. غاية النهاية ١/ ٢٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠، والبحر ٦/ ١٣٤.

(٤) المصدران السابقان.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٠، والبحر ٦/ ١٣٤. ومحبوب هو لقب محمد بن الحسن بن هلال البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وروى عنه خلف بن هشام وغيره، وحدث عنه أحمد بن حنبل وأخرج له البخاري. غاية النهاية ٢/ ١٢٣.

ذلك، أو تراها بارزةً لذهاب جميع ما عليها من الجِبال والبحارِ والعمران والأشجارِ، وإنما اقتصَرَ على زوال الجبالِ؛ لأنَّه يُعلَم منه زوالُ ذلك بطريقِ الأولى.

وقيل: إسنادُ البروز إلى الأرض مجازٌ، والمراد: ترى أهلَ الأرضِ بارِزين من بطنها. وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ عيسى: «وتُرى الأرضُ» ببناء الفعل للمفعول، ورفع «الأرض»[1].

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلى الموقِف من كلِّ أوب بعد أن أقمناهم من قبورِهم، ولم يُذكَر لظهور إرادته، وعلى ما قيل يكون ذلك مذكوراً، وإيثارُ الماضي بعد «نُسَيِّر» و«تَرَى» للدَّلالة على تحقُّق الحشر المتفرِّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدُور أمرُ الجزاء، وكذا الكلامُ فيما عُطف عليه منفيًّا ومُوجباً.

وقال الزمخشريُّ[2]: هو للدلالة على أنَّ حشرَهم قبلَ التسيير والبروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال والعظائمَ، كأنه قيل: وحشرناهم قبلَ ذلك. اهـ.

واعتُرِض بأنَّ في بعض الآيات مع الأخبار ما يدلُّ على أنَّ التسييرَ والبروزَ عند النفخة الأولى، وفسادَ نظام العالم والحشرَ وما عُطِف عليه عندَ النفخة الثانية، فلا ينبغي حملُ الآية على معنى: وحشرناهم قبل ذلك، لئلَّا تُخالِفَ غيرَها. فليتأمَّل.

ثم لا يخفى أنَّ التعبير بالماضي على الأول مجازٌ، وعلى هذا حقيقةٌ؛ لأنَّ المُضِيَّ والاستقبالَ بالنظر إلى الحكم المقارِن له، لا بالنسبة لزمان التكلُّم، والجملة عليه كما في «الكشف» وغيرِه تحتَمِل العطفَ والحاليَّةَ من فاعل: «نُسَيِّر».

وقال أبو حيان: الأولى جعلُها حالاً على هذا القول[3]. وأوجبه بعضُهم وعلَّله بأنَّها لو كانت معطوفةً لم يكن مُضِيٌّ بالنسبة إلى التسيير والبُروز، بل إلى زمان

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٠.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٧.

(٣) البحر ٦/ ١٣٤.

التكلُّم، فيحتاج إلى التأويل الأول، ثم قال: وتحقيقه أنَّ صِيَغَ الأفعال موضوعةٌ لأزمنة التكلُّم إذا كانت مطلَقة، فإذا جُعلت قيوداً لِمَا يدلُّ على زمانٍ كان مُضيُّها وغيرُه بالنسبة إلى زمانه. اهـ. وليس بشيء، والحقُّ عدمُ الوجوب، وتحقيقُ ذلك أنَّ الجُمل التي ظاهرُها التعاطُف يجوز فيها التوافُقُ والتخالُف في الزمان، فإذا كان في الواقع كذلك فلا خفاءَ فيه، وإن لم يكن فلابدَّ للعُدول من وجهٍ، فإن كان أحدُهما قيداً للآخر وهو ماضٍ بالنسبة إليه فهو حقيقةٌ، ووجهُه ما ذُكر، ولا تكون الجملةُ معطوفةً حينئذٍ، فإن عُطِفت وجُعل المضيُّ بالنسبة لأحدِ المتعاطفَيْنِ فلا مانعَ منه، وهل هو حقيقةٌ أو مجازٌ؟ محلُّ تردُّدٍ، والذي يحكُم به الإنصافُ اختيارُ قول أبي حيان من أولويَّة الحاليَّة على ذلك. والقولُ بأنَّه لا وجهَ له، لا وجهَ له، وحينئذٍ يقدَّر «قد» عندَ الأكثرين، أي: وقد حشرناهم.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: لم نترك، يقال: غادَره وأغْدَره: إذا تركه، ومنه: الغدرُ الذي هو: تركُ الوفاء، والغَدير الذي هو: ماءٌ يترُكه السيلُ في الأرض.

وقرئ: «يُغادِر» بالياء التحتية على أنَّ الضميرَ لله تعالى على طريق الالتفات(١).

وقرأ قتادة: «تُغادِر» بالتاء الفوقية(٢)، على أنَّ الضميرَ للأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، وجوَّز أبو حيان كونَه للقدرة.

وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم كذلك، أو بفتح الدال مبنيًّا للمفعول ورفع «أحد» على النيابة عن الفاعل(٣).

وقرأ الضحاك: «نُغدِر» بضمِّ النون وإسكانِ الغين وكسر الدال(٤).

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ أُحضِروا محلَّ حُكمِه وقضائِه عزَّ وجلَّ فيهم ﴿صَفًّا﴾ مصطفِّين أو مصفُوفِين. فقد أخرج ابن منده في «التوحيد» عن معاذ بن جبل أنَّ

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٠.

(٢) البحر ٦/ ١٣٤، والكلام وما بعده منه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى يُنادِي يومَ القيامة: يا عبادي، أنا اللهُ لا إله إلا أنا، أرْحَمُ الراحمين وأحْكَمُ الحاكمين وأسرعُ الحاسبين، أحضِروا حُجَّتَكم ويَسِّروا جواباً، فإنَّكم مسؤُولون مُحاسَبُون، يا ملائكتي، أَقِيمُوا عبادِي صُفوفاً على أطرافِ أنامل أقدامِهم للحساب»[1].

وفي الحديث الصحيح: «يجمَعُ الله تعالى الأوَّلِين والآخِرين في صعيدٍ واحدٍ صُفوفاً، يُسمِعُهم الداعي وينفُذُهم البصرُ...» الحديثَ بطوله[2].

وقيل: تُقام كلُّ أمَّةٍ وزمرةٍ صفًّا[3]. وفي بعضِ الأخبار: «أهلُ الجنةِ يومَ القيامة مئةٌ وعشرون صفًّا، أنتم منها ثمانون»[4].

وقيل: لا عرضَ بالمعنى المعروف ولا اصطفافَ، والكلامُ خارجٌ مخرجَ الاستعارة التمثيليةِ، شُبِّهت حالُهم في حشرِهم بحالِ جُندٍ عُرِضوا على السلطان ليأمُرَ فيهم بما يأمر.

وقيل: إنَّ فيه استعارةً تبعيةً بتشبيهِ حَشْرِهم بعرضِ هؤلاء، ومعنى «صفًّا» سواءٌ كان داخلاً في الاستعارةِ التمثيلية أو كان ترشيحاً: غيرَ متفرِّقين ولا مختلِطِين، فلا تعرُّضَ فيه لوحدة الصفِّ وتعدُّده. ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنه مفرَدٌ أريد به الجمعُ؛ لكونه مصدراً، أي: صفوفاً، أو يقال: إنَّ الأصلَ: صفًّا صفًّا، على أنَّ هذا مع بُعدِه يَرِدُ عليه أنَّ ما يدلُّ على التعدُّد بالتكرار ـ كـ: باباً باباً، وصفًّا صفًّا ـ لا يجوز حذفُه.

هذا والحقُّ أنَّ إنكارَ الاصطفافِ مما لا وجهَ له بعدَ إمكانِه وصحَّة الأخبار فيه، ولعلَّ ما فسَّرنا به الآيةَ مما لا غُبارَ عليه.

---

(١) عزاه لابن منده القرطبي في كتابه التذكرة ص٢٥٣-٢٥٤، والتفسير ١٣/ ٢٩٦، والسيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦، ولم نقف عليه في مطبوع كتاب التوحيد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٩٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، دون قوله: صفوفاً. ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٣٤.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٥/ ١٥١.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٠)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن حبان (٧٤٥٩) من حديث بريدة رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي الالتفات إلى الغَيبة، وبناءِ الفعل للمفعول، مع التعرُّض لعنوان الربوبية، والإضافةِ إلى ضميره ﷺ، من تربيةِ المهابة والجري على سنن الكبرياءِ وإظهارِ اللطف به عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

وقيل: في قوله تعالى: (عَلَىٰ رَبِّكَ) إشارةٌ إلى غَضبِ الله تعالى عليهم وطردِهم عن ديوان القبول بعدم جَرْيهم على معرفتهم لربوبيته عزَّ وجلَّ.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ خطابٌ للكفَّارِ المُنكِرين للبعث على إضمارِ القول، ويكون حالاً مما تقدَّم، فيقدَّر: قائلين، أو: نقول، إن كان حالاً من فاعلي «حشرنا»، أو: قائلاً، أو: يقول، إن كان من «ربِّك»، أو: مقولاً لهم، أو: يقال لهم، إن كان من ضميرِ «عُرِضوا». وقد يقدَّر فعلاً كـ : قلنا، أو: نقول، لا محلَّ لجملتِه.

وجُوِّز تعلُّق «يوم» السابقِ به على هذا التقدير دونَ تقديرِ الحاليَّة. قال الخفاجيُّ: لأنَّه يصيرُ كـ : غلامُ زيدٍ ضارباً، على أنَّ «ضارباً» حالٌ من «زيدٍ» ناصباً لـ «غلام»، ومثلُه تعقيدٌ غيرُ جائز؛ لا لأنَّ ذلك قبل الحشر وهذا بعدَه؛ ولا لأنَّ معمولَ الحال لا يتقدَّم عليها كما يُتوهَّم، ثم قال: وأما ما أورِد على تعلُّقِه بالفعل في التقدير الثاني من أنَّه يلزَمُ منه أنَّ هذا القولَ هو المقصودُ أصالةً = فتخيُّلٌ أغنى عن الردِّ أنه لا محذورَ فيه[(١)]. اهـ.

والحقُّ أنَّ تعلُّقه بالقول المقدَّر حالاً أو غيرَه مما لا يرتضيه الطبعُ السليمُ والذهن المستقيمُ، ولا يكاد يجوز مثلُ هذا التركيب على تقديرِ الحاليَّة وإن قلنا بجوازِ تقدُّمِ معمولِ الحال عليها، فتدبَّر.

والمرادُ من مجيئهم إليه تعالى مجيئُهم إلى حيثُ لا حكم لأحد غيره سبحانه من المعبوداتِ الباطلةِ التي تزعُم فيها عَبدتُها النفع والضُّرَّ وغير ذلك، نظيرَ ما قالوا في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: مجيئاً كائناً كمجيئِكم عند خَلْقِنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أو حالٌ من الضمير المرفوعِ في «جئتُمونا»، أي: كائنين كما خلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ حُفاةً عُراةً غُرلاً، أو: ما معكم شيءٌ مما تفتخِرون به من

(١) حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨ وفيه: فتخيلٌ غنيٌّ عن الرد إذ لا محذور فيه.

الأموال والأنصارِ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وجُوِّز أن يكونَ المرادُ: أحياءً كخِلقَتِكم الأولى، والكلامُ عليه إعراباً كما تقدَّم، لكن يخالِفُه في وجه التشبيه، وذاك كما قيل أوفقُ بما قبلُ، وهذا بقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ وهو إضرابٌ وانتقالٌ من كلامٍ إلى كلامٍ كلاهما للتوبيخ والتقريع.

والموعِدُ اسمُ زمانٍ، و«أن» مخفَّفةٌ من المثقَّلةِ فُصِلَ بينَها وبينَ خَبرِها بحرفِ النفْي؛ لكونه جملةً فعليةً فعلُها متصرِّفٌ غيرُ دعاءٍ، وفي ذلك يجبُ الفصل بأحدِ الفواصل المعلومة إلا فيما شذَّ.

والجعل إمَّا بمعنى التصْييرِ فالجارُّ والمجرورُ مفعولُه الثاني، و«موعِداً» مفعولُه الأول، وإمَّا بمعنى الخلق والإيجادِ فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحال من مفعولِه وهو «موعِداً»، أي: زعمتُم في الدنيا أنَّه لن نجعلَ لكم وقتاً نُنجز فيه ما وعدْنا من البعث وما يتبعُه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ عطفٌ على «عُرِضوا» داخلٌ تحتَ الأمور الهائلة التي أُريد بذكرِ وقتها تحذيرُ المشركين كما مرّ، وإيرادُ صيغة الماضي للدلالة على التقرُّر، والمرادُ من «الكتاب» كُتُبُ الأعمال، ف «أل» فيه للاستغراق، وَمِنْ وَضْعِه إمَّا جعلُ كلِّ كتابٍ في يدِ صاحبِه اليمينِ أو الشمالِ، وإمَّا جَعْلُ كلٍّ في الميزان، وجُوِّز أن يكونَ المرادُ جَعْلَ الملائكة تلك الكتبَ في البين ليحاسبوا المكلَّفين بما فيها، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد بالكتاب كتاباً واحداً بأن تَجمَعَ الملائكةُ عليهم السلام صحائفَ الأعمال كلَّها في كتابٍ وتَضعَه في البَيْنِ للمحاسَبة، لكن لم أجد في ذلك أثراً، نعم قال اللقانيُّ في شرح قوله في «جوهرة التوحيد»:

وواجبٌ أخذُ العبادِ الصُّحُفَا كما مِنَ القُرآن نصًّا عُرِفَا

جَزَم الغزاليُّ بما قيل: إنَّ صُحُفَ العباد يُنسَخُ ما في جميعِها في صحيفةٍ واحدةٍ. انتهى، والظاهرُ أنَّ جزْمَ الغزاليِّ وأضرابِه بذلك لا يكون إلا عن أثرٍ؛ لأنَّ مثلَه لا يقال مِن قِبَل الرأي كما هو الظاهرُ.

وقيل: وَضْعُ الكتابِ كنايةٌ عن إبرازِ محاسَبةِ الخلق وسُؤالهم، فإنَّه إذ أُريد محاسبةُ العُمَّال جيء بالدفاتر ووُضِعَت بين أيديهم ثم حُوسِبوا، فأُطلِق الملزومُ وأريد لازمُه. ولا يخفى أنه لا داعي إلى ذلك عندَنا وربَّما يدعو إليه إنكارُ وزنِ الأعمال.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ووَضَع الكتابَ» ببناءِ «وَضَع» للفاعل وإسنادِه إلى ضميرِه تعالى على طريق الالتفات ونَصْب «الكتاب» على المفعولية[1]، أي: ووَضَع اللهُ الكتابَ.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبةً، فيدخُل فيهم الكَفَرةُ المُنكِرون للبعث دخولاً أوَّليًّا، والخطابُ نظير ما مرَّ. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي: «الكتابِ» من الجرائم والذنوب لتحقُّقهم ما يترتَّبُ عليها من العذاب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عندَ وقوفِهم على ما في تضاعيفِه نقيراً وقطميراً: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ نداءٌ لهَلَكَتِهم التي هَلكوها من بين الهَلَكَات، فإنَّ الويلةَ كالويل: الهلاكُ، ونداؤُها على تشبيهها بشخصٍ يُطلَب إقبالُه، كأنه قيل: يا هلاكُ أَقبِلْ فهذا أوانُك، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ، وفيه تقريعٌ لهم وإشارةٌ إلى أنَّه لا صاحبَ لهم غيرُ الهلاك، وقد طلبوه ليَهلِكوا ولا يروا العذابَ الأليم.

وقيل: المرادُ نداءُ مَن بحضرتِهم، كأنه قيل: يا مَن بحضرتِنا انظُروا هلَكَتَنا، وفيه تقديرٌ يفوت به تلك النكتةُ.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أيُّ شيءٍ له؟ والاستفهامُ مجازٌ عن التعجُّب من شأنِ الكتاب، ولامُ الجرِّ رُسِمَت في الإمام مفصولةً، وزعم الطبرسيُّ أنه لا وجهَ لذلك[2].

وقال البقاعيُّ[3]: إنَّ في رسمِها كذلك إشارةً إلى أنَّ المجرمين لشدَّةِ الكرب يقفون على بعض الكلمة[4].

---

(١) البحر ٦/ ١٣٤.

(٢) مجمع البيان ١٥/ ١٦٥.

(٣) في نظم الدرر ١٢/ ٧٢، والبقاعي هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، برهان الدين البقاعي، عالم، أديب، مفسر، محدث ومؤرخ، له كتب منها: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» توفي بدمشق سنة (٨٨٥هـ). الضوء اللامع ١/ ١٠١، ومعجم المؤلفين ١/ ٤٩.

(٤) في نظم الدرر: بعض الكتب، والمصنف نقله من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

وفي «لطائف الإشارات»[1]: وَقَفَ على «ما» أبو عمرو والكسائيُّ ويعقوب، والباقون على اللامِ، والأصحُّ الوقفُ على «ما» لأنَّها كلمةٌ مستقلَّةٌ، وأكثرُهم لم يَذكُر فيها شيئاً. اهـ.

وأنتَ تعلم أنَّ الرسمَ العثمانيَّ مُتَّبعٌ ولا يقاس عليه، ولا يكادُ يعرَف وجهُه، وفي حُسن الوقف على «ما» أو اللام توقُّفٌ عندي.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةً﴾ أي: هَنَةً صغيرةً[2] ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ أي: إلا عدَّها، وهو كنايةٌ عن الإحاطة، جملةٌ حاليةٌ محقِّقةٌ لِمَا في الجملة الاستفهامية من التعجُّبِ، أو استئنافيةٌ مبنيَّةٌ على سؤالٍ نشأ من التعجُّب، كأنه قيل: ما شأنُ هذا الكتاب حتى يُتعجَّب منه؟ فقيل: «لا يغادِرُ صَغيرة» إلخ.

وعن ابن جُبير تفسيرُ الصغيرة بالمسيس، والكبيرةِ بالزنى[3].

وأخرج ابن أبي الدنيا في «ذمِّ الغيبة» وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: الصغيرةُ: التبسُّم بالاستهزاء بالمؤمنين. والكبيرةُ: القهقهةُ بذلك[4]. وعلى هذا يُحمَل إطلاقُ ابن مردويه في الرواية عنه رضي الله عنه تفسيرَ الصغيرة بالتبسُّم والكبيرةِ بالضحكِ[5]، ويندفع استشكالُ بعض الفضلاء ذلك، ويُعلم منه أنَّ الضحكَ على الناس من الذنوب.

وعن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب ويَعِظُهم في ضحكهم من الريح الخارجِ بصوتٍ وقال: «علامَ يضحَكُ أحدُكم مما يفعل»[6]؟ بل ذكر بعضُ علمائنا أنَّ مِن الضحك ما يكفُر به الضاحكُ كالضحك على كلمة كفرٍ، وقيَّده

---

(١) لطائف الإشارات لفنون القراءات لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣هـ). كشف الظنون ٢/ ١٥٥١. والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

(٢) الهَنَة بفتح الهاء والنون: الخصلة السيئة. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٧.

(٤) ذم الغيبة والنميمة ص١٣٠، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٦.

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦.

(٦) أخرجه أحمد (١٦٢٢٢)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥)، وورد في رواية أحمد ومسلم: «إلام». وفي رواية البخاري: «لم».

بعضُهم بما إذا قَدَر على أن يملكَ نفسَه، وإلا فلا يكفر، وتمامُ الكلام في ذلك في محلِّه.

وكان الظاهرُ: لا يغادِرُ كبيرةً ولا صغيرةً، بناءً على ما قالوا من أنَّ الترقِّي في الإثبات يكون من الأدنى إلى الأعلى، وفي النفْي على عكسِ ذلك، إذ لا يلزم من فعلِ الأدنى فعلُ الأعلى، بخلاف النفْي، لكن قال المحقِّقون: هذا إذا كان على ظاهرِه، فإن كان كنايةً عن العموم كما هنا وقولِك: ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً، جاز تقديمُ الأدنى على الأعلى في النفْي كما فصَّله ابن الأثير في «المثل السائر»(١).

وفي «البحر»: قُدِّمت الصغيرُة اهتماماً بها، ورَوى عن الفضيل أنَّه كان إذا قرأ الآيةَ قال: ضَجُّوا والله من الصغائرِ قبلَ الكبائرِ(٢).

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: اشتكى القومُ كما تسمعون الإحصاءَ ولم يشتكِ أحدٌ ظلماً، فإيَّاكم والمحقَّرات من الذنوب فإنَّها تجمَعُ على صاحبِها حتى تُهلِكَه(٣).

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا من السيئاتِ، أو جزاءَ ذلك ﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً في كتابِ كلٍّ منهم، أو عتيداً بين أيديهم نقداً غير مؤجَّل، واختير المعنى الأخيرُ وإن كان فيه ارتكابُ خلافِ الظاهر؛ لأنَّ الكلامَ عليه تأسيسٌ محضٌ.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ بما لم يعمله(٤)، أي: منهم، أو: منهم ومن غيرهم، والمرادُ أنه عزَّ وجلَّ لا يتجاوز الحدَّ الذي حَدَّه في الثواب والعقاب وإن لم يَجب ذلك عليه تعالى عقلاً، وتحقيقُه أنَّه تعالى وَعَد بإثابةِ المطيع والزيادةِ في ثوابه، وبتعذيبِ العاصي بمقدارِ جرمه من غير زيادةٍ، وأنه قد يَغفِر له ما سوى الكفر، وأنَّه لا يُعذِّب بغير جنايةٍ، فهو سبحانه وتعالى لا يجاوِزُ الحدَّ الذي حدَّه، ولا يخالِفُ ما جرَت عليه سنَّتُه الإلهيَّةُ، فلا يعذِّب أحداً بما لم يعمَلْه، ولا ينقصُ

---

(١) ٢/ ٣٢-٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ١٠٩.

(٢) البحر ٦/ ١٣٥.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦، وقوله: فإياكم والمحقَّرات... إلخ ورد في حديث مرفوع عن ابن مسعود ﷺ وهو عند أحمد (٣٨١٨).

(٤) قوله: بما لم يعمله، سقط من الأصل.

ثوابَ ما عمِله مما أمَرَ به وارتضاه، ولا يزيد في عقابِه الملائِم لعَملِه الذي نَهَى عنه ولم يرتضه. وهذا مما أجمع عليه المسلمون وإن اختلفوا في أنَّ امتناعَ وقوعِ ما نُفِيَ هل هو سمعيٌّ أو عقليٌّ؟ فذهب إلى الأول أهلُ السنة وإلى الثاني المعتزلةُ.

وهل تسميةُ تلك المجاوَزةِ ظلماً حقيقةٌ أم لا؟ قال الخفاجيُّ[١]: الظاهرُ أنها حقيقةٌ، وعليه لا حاجةَ إلى أن يقال: المرادُ بالآية أنه سبحانه لا يفعل بأحدٍ ما يكون ظلماً لو صدر من العباد كالتعذيب بلا ذنبٍ، فإنَّه لو صدر من العباد يكون ظلماً ولو صدر منه سبحانه لا يكون كذلك؛ لأنه جلَّ شأنُه مالكُ الملك متصرِّفٌ في ملكِه كيف يشاء، فلا يُتصوَّر في شأنِه ـ تعالى شأنُه ـ ظلمٌ أصلاً بوجهٍ من الوجوه عند أهل السنَّة. وأنت تعلم أنَّ هذا هو المشهورُ لدى الجمهور لا ما اقتضاه التحقيقُ، فتأمَّل والله تعالى وليُّ التوفيق.

واستُدِلَّ بعموم الآية على أنَّ أطفال المشركين لا يُعذَّبون، وهو القولُ المنصورُ، وقد أسلَفْنا ـ ولله تعالى الحمدُ ـ ما يؤيِّده من الأخبار[٢].

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: اذكر وقتَ قولنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلِّهم كما هو الظاهر، واستثنى بعضُ الصوفية الملائكةَ المهيمين، وبعضٌ آخرُ ملائكةَ السماءِ مطلقاً، وزعم أنَّ المقولَ له ملائكةُ الأرض.

﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سجودَ تحيةٍ وإكرامٍ، أو: اسجُدُوا لجهتِه على معنى: اتخِذُوه قبلةً لسجودِكم للهِ تعالى، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك. ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلُّهم أجمعون امتثالاً للأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من الساجدين، بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ سيق مساقَ التعليل لِمَا يفيده استثناءُ اللعين من الساجدين. وقيل: حالٌ من المستثنى، و«قد» مقدَّرةٌ، والرابطُ الضميرُ، وهو اختيار أبي البقاء[٣]، والأوَّلُ ألصقُ بالقلب، فكأنَّه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصلُه جِنِّيًّا، وهذا ظاهرٌ في أنَّه ليس من الملائكة. نعم كان

---

(١) في حاشيته ٦/ ١٠٩.

(٢) ينظر ١٤/ ٤٢٩ وما بعد.

(٣) في الإملاء ٣/ ٥٢٢.

معهم ومعدوداً في عدادهم؛ فقد أخرج ابن جرير عن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتِل الجنَّ فسُبي إبليسُ وكان صغيراً، فكان مع الملائكة فتعبّد بالسجود معهم. وأخرج نحوه عن شهر بن حوشب(١).

وهو قول كثيرٍ من العلماء، حتى قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم: قاتل اللهُ تعالى أقواماً زعموا أن إبليسَ من الملائكة، والله تعالى يقول: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢).

وأخرج عنه ابن جرير، وابن الأنباري في «كتاب الأضداد»، وأبو الشيخ في «العظمة» أنه قال: ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عينٍ، وإنَّه لأصلُ الجنِّ، كما أنَّ آدم عليه السلام أصل الإنس(٣). وفيه دلالةٌ على أنَّه لم يكن قبلَه جنٌّ كما لم يكن قبلَ آدم عليه السلام إنسٌ، وفي القلب من صحَّته ما فيه.

وأقرب منه إلى الصحَّة ما قاله جماعةٌ من أنه كان قبلَه جنٌّ إلا أنَّهم هَلَكُوا، أو لم يكن لهم عقبٌ سواه، فالجنُّ والشياطين اليومَ كلُّهم من ذُرِّيَّته، فهو في الجنِّ كنوح عليه السلام في الإنس على ما هو المشهورُ.

وقيل: كان من الملائكةِ والجنُّ قبيلةٌ منهم، وقد أخرج هذا ابنُ جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن عباس(٤).

وفي روايةٍ أخرى عنه ﵄ أنَّ إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمِهم قبيلةً، وكان خازناً على الجِنان، وكان له سلطانُ السماء الدنيا، وكان له مجمعُ البحرَين: بحرِ الروم وبحرِ فارس، وسلطانُ الأرض، فرأى أنَّ له بذلك عظمةً وشرفاً على أهل السماء، فوقع في نفسه كِبرٌ لم يعلم به أحدٌ إلا اللهُ تعالى، فلمَّا أُمِر بالسجود ظهر كِبْرُه الذي في نفسه، فلعنه الله تعالى إلى يوم القيامة(٥). وكان على ما رواه عنه

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٤٠-٥٤١.
(٢) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٣٩-٥٤٠، وكتاب الأضداد ص٣٣٧، والعظمة (١١٤٥).
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٦، والعظمة (١١٤٤)، وشعب الإيمان (١٤٤). وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٧ من رواية ابن جريج عنه.

قتادة يقول: لو لم يكن من الملائكة لم يُؤمَر بالسُّجُود[١]. وأجيب عن هذا بما أشَرْنا إليه آنفاً، وبغيره مما لا يخفى.

وإلى ذلك ذهب ابنُ جبير[٢]، وقد رَوى عنه جماعةٌ أنه قال: الجِنُّ في الآية حيٌّ من الملائكة، لم يزالوا يصُوغون حُليَّ أهلِ الجنة حتى تقومَ الساعةُ[٣]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّ معنى «كان من الجنِّ»: كان من خَزَنَةِ الجنان[٤]. وهو تأويلٌ عجيبٌ، ومثلُه ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن قتادة أنَّ معنى كونِه من الجنِّ أنه أُجِنَّ عن طاعةِ الله تعالى[٥]، أي: سُتِرَ ومُنِعَ.

وروايةُ الكثير عنه أنه قائلٌ بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦].

وقيل: هو من الملائكة، ومعنى «كان من الجن»: صار منهم بالمسخ.

وقيل: معنى ذلك أنه عُدَّ منهم؛ لموافَقتِه إيَّاهم في المعصية حيثُ إنَّهم كانوا من قبلُ عاصين، فبُعثت طائفةٌ من الملائكة عليهم السلام لقتالهم.

وأنت تعلم أنه يشقُّ الجوابُ على مَن ادَّعى أنَّ إبليس من الملائكة مع دعواه عصمتَهم، ولا بدَّ أن يرتكبَ خلاف الظاهر في هذه الآية، نعم مسألةُ عصمتِهم عليهم السلام خلافيةٌ، ولا قاطعَ في العصمة كما قال العلامة التفتازاني. وقد ذكر القاضي عياض أنَّ طائفةً ذهبوا إلى عصمة الرسل منهم والمقرَّبين عليهم السلام، ولم يقولوا بعصمةِ غيرهم[٧]. وإذا ذهب مدَّعي كونِ إبليس من الملائكة إلى هذا لم يتخلَّص من الاعتراض إلا بزعم أنَّه لم يكن من المقرَّبين، ولا تساعده الآثارُ على ذلك، ويبقى عليه أيضاً أنَّ الآية تأبى مدَّعاه، وكذا لو ذهب إلى ما نُقل عن

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٨.

(٢) فإنه قال: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا، تفسير الطبري ١/ ٥٣٨.

(٣) كتاب الأضداد لابن الأنباري ص٣٣٤، والدر المنثور ٤/ ٢٢٧ باللفظ المذكور، وفي العظمة (١١٤٢) بلفظ «حرس» بدل «حي».

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٠، والعظمة (١١٤٠).

(٥) العظمة (١١٣٨)، وهو عند الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٨.

(٦) أي: أنه كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجن. وهو عند الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٨، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) الشفا ٢/ ٣٩٧.

بعض الصوفية مِن أنَّ ملائكةَ الأرض لم يكونوا معصومين، وكان إبليس عليه اللعنةُ منهم.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعتِه سبحانه كما قال الفراء(١)، وأصلُه من: فَسَقَ الرُّطَبُ: إذا خَرَج عن قشره، وسمَّوا الفأرةَ فاسقةً؛ لخروجها من جُحرها من البابَيْن، ولهذا عُدِّي بـ «عن» كما في قول رؤبة:

يَهْوِيْنَ في نجدٍ وغوراً غائِرَا فَواسِقاً عن قصدِها جَوَائرا(٢)

والظاهرُ أنَّ الفسقَ بهذا المعنى مما تكلَّمت به العربُ من قبل، وقال أبو عبيدة: لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثِها، وإنما تكلَّم به العربُ بعد نزول القرآن. ووافقه المبرِّدُ على ذلك فقال: الأمرُ على ما ذكره أبو عبيدة، وهي كلمةٌ فصيحةٌ على ألسنةِ العرب. وكأنَّ ما ذكره الفراءُ بيانٌ لحاصل المعنى؛ إذ ليس الأمرُ بمعنى الطاعة أصلاً، بل هو إمَّا بمعنى المأمور به وهو السجودُ، وخروجُه عنه بمعنى عدم اتصافِه به، وإمَّا قولُه تعالى: «اسجدوا»، وخروجُه عنه مخالفتُه له، وكونُ حاصل المعنى ذلك على المعنيَيْن ظاهرٌ.

وقيل: «عن» للسببية كما في قولهم: كسوتُه عن عُريٍ وأطعمته عن جُوعٍ. أي: فصار فاسقاً كافراً بسببِ أمر الله تعالى الملائكةَ المعدودَ هو في عِدادهم، إذ لولا ذلك الأمرُ ما تحقَّق إباءٌ. وإلى ذلك ذهب قُطرب إلا أنَّه قال: أي: ففسق عن ردِّه أمرَ ربِّه(٣).

ويحتمل أن يكونَ تقديرَ معنًى، وأن يكونَ تقديرَ إعرابٍ. وجوِّز على تقديرِ السببية أن يرادَ بالأمر المشيئةُ، أي: ففسق بسببِ مشيئةِ الله تعالى فسقَه، ولولا ذلك لأطاع. والأظهرُ ما ذُكر أولاً.

والفاءُ سببيةٌ عَطَفت ما بعدها على قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ وأفادت تسبُّبَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٤٧.

(٢) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤٠٦، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤، والبحر ٦/ ١٣٦، وشطره الأول في الكتاب ١/ ٩٤ بلفظ «يذهبن». ونسبه سيبويه للعجاج. وقد سلف ٢/ ٦٩.

(٣) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥.

فسقِه عن كونه من الجنِّ، إذ شأنُهم التمرُّدُ لكدورة مادَّتِهم وخَباثة ذاتِهم، والذي خبُث لا يخرج إلا نكداً، وإن كان منهم مَن أطاع وآمن.

وجوِّز أن يكون العطفُ على ما يُفهَم من الاستثناء، كأنه قيل: فسجدوا إلا إبليس أبى عن السجود ففسق، وتفيد حينئذٍ تسبُّبَ فسقِه عن إبائِه وتركِه السجود.

وقيل: إنَّها هنا غيرُ عاطفةٍ؛ إذ لا يصحُّ تعليلُ تركِ السجود وإبائه عنه بفسقِه عن أمر ربِّه تعالى، قال الرضي: والفاءُ التي لغير العطف ـ وهي التي تسمَّى فاءَ السببيَّة ـ لا تخلو أيضاً من معنى الترتيبِ، وتختصُّ بالجمل، وتدخُل على ما هو جزاءٌ مع تقدُّم كلمةِ الشرط وبدونها. انتهى. وليس بشيء؛ لأنَّه يكفي لصحَّةِ ترتُّبِ الثاني تسبُّبه كما في ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] كما صرَّح به في «التسهيل»[١]، وهنا كذلك. والتعرُّضُ لعنوانِ الربوبية المنافيةِ للفسق لبيانِ قُبح ما فعله.

والمرادُ من الأمر بذكر وقت القصَّة ذكرُ القصَّةِ نفسِها؛ لِمَا فيها من تشديدِ النكير على المتكبِّرين المفتخِرين بأنسابهم وأموالِهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيانِ أنَّ ذلك من صنيع إبليس، وأنَّهم في ذلك تابعون لتسويله كما يُنبئ عنه ما يأتي إن شاء الله تعالى، ومنه يُعلم وجهُ الرابط.

وجوِّز أن يكون وجهُه أنَّه تعالى لمَّا بيَّن حالَ المغرور بالدنيا والمُعرِض عنها، وكان سببَ الاغترار بها حبُّ الشهوات وتسويلُ الشيطان، زهَّدهم سبحانه أوَّلاً بزخارفِ الدنيا بأنها عُرضةُ الزوالِ وشيكةُ الانتقالِ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ ثواباً وأحسنُ أملاً من أنفسِها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطان، بتذكيرِ ما بينَهم من العداوة القديمة.

واختار أبو حيان في وجهه أنَّه سبحانه لمَّا ذكر يومَ القيامة والحشر، وذكر خوفَ المجرمين مما سُطر في كتبهم، وكان إبليسُ اللعينُ هو الذي حملهم على المعاصي واتخاذِ الشركاء = ناسب ذِكْرَ إبليس والتنفيرَ عنه تبعيداً عن المعاصي وعن امتثالِ ما يُوَسوِسُ به ويدعو إليه[٢].

---

(١) ص١٧٥.

(٢) البحر ٦/ ١٣٥.

وأيًّاما كان فلا يعدُّ ذكرُ هذه القصَّة هنا مع ذكرها قبلُ تكراراً؛ لأنَّ ذكرَها هنا لفائدةٍ غيرِ الفائدة التي ذُكرت لها فيما قبلُ، وهكذا ذكرُها في كلِّ موضع ذكرت فيه من الكتاب الجليل، ومثلُ هذا يقال في كلِّ ما هو تكرارٌ بحسب الظاهر فيه. ولا يخفى أنَّ أكثرَ المكرَّرات ظاهراً مختلفةُ الأساليبِ متفاوتةُ الألفاظِ والعباراتِ، وفي ذلك من الأسرار الإلهية ما فيه، فلا يستزلنَّك الشيطانُ.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ الهمزةُ للإنكار والتعجيب، والفاءُ للتعقيب، والمرادُ إمَّا إنكارُ أن يَعقبَ اتخاذُه وذريتَه أولياءَ العلمَ بصدورِ ما صَدر منه مع التعجُّب من ذلك، وإما تعقيبُ إنكار الاتخاذِ المذكور والتعجيب منه إعلامَ الله تعالى بقبح صنيع اللعين، فتأمَّل.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من الذرِّيةِ الأولادُ، فتكونُ الآيةُ دالَّةً على أنَّ له أولاداً، وبذلك قال جماعةٌ، وقد رُوي عن ابن زيد أنَّ الله تعالى قال لإبليس: إني لا أخلُقُ لآدم ذرِّيَّةً إلا ذرأتُ لك مثلَها. فليس يُولَد لآدم ولدٌ إلا وُلد معه شيطانٌ يقرن به[1]. وعن قتادة أنه قال: إنه ينكِح وينسل كما ينسل بنو آدم[2]. وذكر في «البحر» أنَّ من القائلين بذلك أيضاً الضحاكُ والأعمش والشعبيُّ. ونَقَل عن الشعبيِّ أنَّه قال: لا تكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ. فيكونُ قائلاً بالزوجة[3].

والذي في «الدر المنثور» برواية ابن المنذر عنه أنه سُئل عن إبليس: هل له زوجةٌ؟ فقال: إنَّ ذلك لعُرس ما سمعت به[4]. وأخرج ابن أبي الدنيا في «المكائد» وابن أبي حاتم عن مجاهد أنَّه قال: وَلَدُ إبليس خمسةٌ: ثَبْرٌ وهو صاحبُ المصائب، والأعورُ وداسمٌ لا أدري ما يعملان، ومِسوَطٌ وهو صاحبُ الصخب، وزَلَنبور وهو الذي يفرِّق بين الناس ويُبصِّر الرجلَ عيوبَ أهلِه[5].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّ الأعورَ صاحبُ الزنى، ومِسوَط صاحبُ أخبارِ

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر ٦/ ١٣٦.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٢٧.
(٥) عزاه لابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.

الكذِب، يُلقيها على أفواهِ الناس ولا يجدون لها أصلاً، وداسم صاحبُ البيوت، إذا دخل الرجلُ بيتَه ولم يسلِّم دخلَ معه، وإذا أكل ولم يسمِّ أكلَ معه، وزَلَنبور صاحبُ الأسواق، وكان هؤلاء الخمسةُ من خمسِ بيضاتٍ باضها اللعينُ(١).

وقيل: إنَّه عليه اللعنةُ يُدخِل ذَنَبَه في دُبره فيَبِيض، فتنفلقُ البيضةُ عن جماعةٍ من الشياطين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أنَّ جميعَ ذريتِه من خمسِ بيضات باضها، قال: وبلغني أنَّه يجتمع على مؤمنٍ واحدٍ أكثرُ من ربيعة ومضر(٢). والله تعالى أعلم بصحَّةِ هذه الأخبار.

وقال بعضُهم: لا ولدَ له، والمرادُ من الذرية الأتباعُ من الشياطين، وعُبِّر عنهم بذلك مجازاً تشبيهاً لهم بالأولاد.

وقيل ـ ولعلَّه الحقُّ ـ: إنَّ له أولاداً وأتباعاً.

ويجوز أن يرادَ من الذرِّية مجموعُهما معاً على التغليب، أو الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ عند مَن يراه، أو عمومُ المجاز. وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ ممن ينسب إليه بالوِلاد مَن آمن بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا ﷺ، وهو هامة ﵁(٣)، وسبحان مَن يُخرِج الحيَّ من الميِّت، ولا يلزمُنا أن نعلمَ كيفية ولادتِه، فكثيرٌ من الأشياء مجهولُ الكيفية عندنا، ونقول به، فليكن من هذا القبيل إذا صحَّ الخبرُ فيه.

واستدلَّ نافي مَلَكيَّته بظاهر الآية حيث أفادت أنَّه له ذريةٌ، والملائكة ليس لهم ذلك. ولمدَّعيها أن يقول بعد تسليم حَملِ الذرية على الأولاد: إنَّه بعد أن عصى مُسخ وخَرج عن الملكيَّة فصار له أولادٌ، ولم تُفِد الآيةُ أنّ له أولاداً قبلَ العصيان، والاستدلالُ بها لا يتمُّ إلا بذلك.

---

(١) أخرجه عن مجاهد أبو الشيخ في العظمة (١١٥٠)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٩٢ بنحوه.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) روي فيه حديث مرفوع، وقال جعفر المستغفري: لا يثبت إسناد خبره. الإصابة ١٠/ ٢٢٧.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِي﴾ في موضع الحال، أي: أفتتخذونهم أولياءَ مجاوِزين عنِّي إليهم، وتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدلَ طاعتي ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحالُ أنَّ إبليسَ وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداءٌ كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧] وقولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤]، وإنَّما فُعل به ذلك تشبيهاً بالمصادر نحو القَبول والوُلوع. وتقييدُ الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيدِ الإنكار وتشديدِه، فإنَّ مضمونَها مانعٌ من وقوع الاتخاذ ومُنافٍ له قطعاً:

ومِن نَكَد الدنيا على الحُرِّ أن يَرَى عدوًّا له ما مِن صَداقتِه بُدُّ[١]

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين للشيء في غير موضِعه ﴿بَدَلًا ۝٥٠﴾ أي: مِن الله سبحانه، وهو نصبٌ على التمييز، وفاعلُ «بئس» ضميرٌ مستترٌ يفسِّره «هو»، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، أي: بِئس البدلُ من الله تعالى للظالمين إبليسُ وذريته.

وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضعَ ضمير المخاطَبين من الإيذان بكمالِ السخط والإشارةِ إلى أنَّ ما فعلوه ظلمٌ قبيحٌ = ما لا يخفى.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ عدم استحقاق إبليس وذريتِه للاتخاذِ المذكور في أنفسِهم، بعدَ بيانِ الصوارف عن ذلك من خَباثة الأصلِ والفسقِ والعداوةِ، أي: ما أحضرتُ إبليسَ وذريتَه ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيثُ خلقتُهما قبلَ خَلْقهم ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعضٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] فكِلا ضميرَي الجمع المنصوبِ والمجرورِ عائدٌ على إبليس وذريتِه، وهم المراد بالمضلِّين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾، وإنَّما وُضع ذلك موضعَ ضميرهم؛ ذمًّا لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لِمَا سبق من إنكارِ اتخاذِهم أولياءَ.

والعضُد في الأصل: ما بين المِرْفَق إلى الكَتِف، ويُستعار للمُعين كاليد، وهو المرادُ هنا، ولكونه نكرةً في سياق النفي عمَّ وفُسِّر بالجمع، والإفرادُ لرؤوس الآي. وقيل: إنما لم يُجمع لأنَّ الجميعَ في حكم الواحد في عدم الصلاحية

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٩٣.

للاعتضاد، أي: وما كنتُ متخذَهم أعواناً في شأن الخلق، أو: في شأنٍ من شؤوني حتى يُتوهَّمَ شركتُهم في التولِّي فضلاً عن الاستبدال الذي لَزِم فعلَهم بناءً على الشركة في بعضِ أحكامِ الربوبيَّة.

وإرجاعُ ضميرِ «أنفسهم» إلى إبليس وذريته قد قال به كلُّ مَن ذهب إلى إرجاع ضميرِ «أشهدتهم» إليهم، وعَلَّل ذلك العلَّامةُ شيخُ الإسلام بقوله: حذَراً من تفكيكِ الضميرَين، ومحافظةً على ظاهرِ لفظ الأنفس، ثم قال: ولك أن تُرجِع الضميرَ الثاني إلى «الظالمين» وتَلتزم التفكيكَ بناءً على عودِ المعنى إليه، فإنَّ نفْي إشهاد الشياطين الذين يتولَّونهم هو الذي يدور عليه إنكارُ اتخاذهم أولياءَ، بناءً على أنَّ أدنى ما يصحِّح التولِّي حضورُ الوليِّ خَلْقَ المتولِّي، وحيثُ لا حصولَ لا مصحِّحَ للتولِّي قطعاً، وأما إشهادُ بعضِ الشياطين خلقَ بعضٍ منهم فليس من مَداراته الإنكارُ المذكورُ في شيء، على أنَّ إشهادَ بعضِهم خلقَ بعض إن كان مصحِّحاً لتولِّي الشاهد بناءً على دلالتِه على كمالِه باعتبارِ أنَّ له مدخلاً في خلق المشهود في الجملة فهو مُخلٌّ بتولِّي المشهودِ بناءً على قصورِه عمن شَهِد خلقَه، فلا يكون نفْي الإشهادِ المذكور متمحِّضاً في نفْي الكمال المصحِّح للتولِّي عن الكلِّ وهو المناطُ للإنكار المذكورُ.

وفي الآية تهكُّم بالكفارِ، وإيذانٌ بكمالِ ركاكةِ عُقولهم وسخافةِ آرائهم، حيث لا يفهَمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُله والصبيانِ فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثارُ نفي الإشهاد على نفي شهودِهم، ونفيِ اتخاذِهم أعواناً على نفي كونهم كذلك؛ للإشعار بأنَّهم مقهورون تحتَ قُدرته تعالى، تابعون لمشيئته سبحانه وإرادتِه عزَّ وجلَّ، بمعزلٍ من استحقاق الشهود والمَعونة من تلقاءِ أنفسهم من غير إحضارٍ واتخاذٍ، وإنَّما قُصارى ما يُتوهَّم فيهم أن يبلغوا ذلك المبلغَ بأمر الله جلَّ جلالُه، ولم يكد ذلك يكون[1]. اهـ.

وهو كلامٌ يلوحُ عليه مخايلُ التحقيق، لكن قيل عليه: يجوز أن يُرادَ من «السماوات والأرض» ما يشمَلُ أهلَها، وكثيراً ما يُراد منهما ذلك، فيدخُل فيه الكفَّارُ، فتفيدُ الآيةُ نفي إشهادِ الشياطين خلقَهم الذي مِن مَداراته الإنكارُ المذكورُ، من غير حاجةٍ إلى التزام التفكيكِ الذي هو خلافُ المتبادر.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٨.

وظاهرُ كلامِه وكذا كلام كثيرٍ حملُ الإشهادِ المنفيِّ على حقيقته. وجوِّز أن يرادَ به المشاورةُ مجازاً، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ ما في «البحر»[1]، ولا مانعَ على هذا أن يرادَ من «السماوات والأرض» ما يشمَلُ أهلَهما، فكأنه قيل: ما شاورتُهم في خلق أحدٍ لا الكفَّارِ ولا غيرِهم، فما بالُ هؤلاء الكفَّار يتولَّونَهم؟! وأدنى ما يصحِّح التولِّي كونُ الوليِّ ممن يُشاوَر في أمر المتولِّي أو أمرِ غيره. ويكونُ نفْي اتخاذِهم أعواناً مطلَقاً في شيءٍ من الأشياء بعد نفي مشاورَتِهم في الخلق ليؤدِّي الكلامُ ظاهراً عمومَ نفْي مدخليَّتِهم بوجهٍ من الوجوه رأياً وإيجاداً وغيرَ ذلك في شيءٍ من الأشياء، ولعلَّ الآية حينئذٍ نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] من وجهٍ.

وقيل: قد يرادُ مِن نفْي الإشهادِ في جانب المعطوفِ نفْيُ المشاورةِ، ومنه نفْي أن يكونوا خُلِقوا حسبَ مشيئتِهم، ومنه نفْيُ أن يكونوا خُلقوا كاملين، فإنه يقال: خُلِق كما شاء، بمعنى خُلِق كاملاً قال الشاعر:

خُلقتَ مبرَّأً مِن كلِّ عيبٍ كأنَّك قد خُلِقتَ كما تشاءُ[2]

وعلى هذا يكون في الخَلْق مَن أُشهِد خَلْقَ نفسه بمعنى أنه خُلق كاملاً. ولا يخفى ما فيه، وقد يُكتفى بدلالة ذلك على أنَّ نفْي الكمال بأقلَّ مِن هذه المؤونة، فافهَم. وزَعمُ أنَّ الكاملين شهدوا حقيقةً خلقَ أنفسهم بمعنى أنَّهم رأوا وهم أعيانٌ ثابتةٌ خلقَهم، أي: إفاضةَ الوجود الخارجيِّ ـ الذي لا يتصِفُ به المعدومُ ـ عليهم = لا أرى أنَّ كاملاً يُقْدِمُ عليه أو يُصغي إليه.

وقال الإمام بعد حكاية القول برجوع الضميرَين إلى الشياطين: الأقرب عندي عودُهما على الكفَّار الذين قالوا للرسول ﷺ: إن لم تَطرُد عن مجلسك هؤلاء الفقراءَ لم نُؤمِن بك. فكأنه تعالى قال: إنَّ هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراحِ الفاسدِ والتعنُّت الباطل ما كانوا شُركائي في تدبير العالم، بدليلِ أنِّي ما أشهدتُهم خلقَ السماواتِ والأرضِ ولا خلقَ أنفسهم، ولا اعتضَدتُ بهم في تدبيرِ الدنيا والآخرةِ، بل هم كسائرِ الخلق، فلِمَ أَقْدَموا على هذا الاقتراحِ الفاسدِ؟! ونظيرُه أنَّ مَن اقترح

---

(١) ٦/ ١٣٦.

(٢) البيت لحسان ﷺ، وهو في ديوانه ص ٦٦، وقد سلف ١١/ ١٢.

عليك اقتراحاتٍ عظيمةً فإنَّك تقول له: لستَ بسلطانِ البلد حتى نَقبَل منك هذه الاقتراحاتِ الهائلَة، فلِمَ تُقدِم عليها؟! والذي يؤكِّد هذا أنَّ الضميرَ يجب عودُه على أقرب المذكورات، وهو في الآية أولئك الكفار؛ لأنَّهم المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1]. انتهى.

وقيل: المعنى على تقدير عودِ الضميرَيْنِ على أولئك الكَفَرة: إنَّ هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلمُ في الأزل من أحوالِ السعادة وضدِّها؛ لأنَّهم لم يكونوا شاهدين خلقَ العالم، فكيف يمكنُهم أن يحكُموا بحُسنِ حالهم عند الله تعالى وبشَرَفهم ورِفعتهم عند الخلق، وبأضدادِ هذه الأحوال للفقراء؟!.

وقيل: المعنى عليه: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما أطلعتُهم على أسرارِ التكوين، وما خصَصتُهم بخصائصَ لا يحويها غيرُهم حتى يكونوا قدوةً للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تلتفِتْ إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين، فإنَّه لا ينبغي لي أن أعتَضِد لديني بالمضلِّين. ويعضده قراءةُ أبي جعفر والجحدريِّ والحسن وشيبة: «وما كنتَ» بفتح التاء[2]، خطاباً له ﷺ، والمعنى: ما صَحَّ لك الاعتضادُ بهم، ولعلَّ وصفَ أولئك الظالمين بالإضلال لِمَا أنَّ قصدَهم بطردِ الفقراء تنفيرُ الناس عنه ﷺ، وهو إضلالٌ ظاهرٌ.

وقيل: كلُّ ضالٍّ مضلٌّ؛ لأنَّ الإضلالَ إما بلسانِ القال أو بلسان الحال، والثاني لا يخلو عنه ضالٌّ.

وقيل: الضميران للملائكة، والمعنى: ما أشهدتُهم ذلك ولا استعنتُ بهم في شيء، بل خلقتُهم ليعبدوني فكيف يُعبَدُون؟! ويَردُّه «وما كنت متخذ المضلين عضداً»، إلا أن يقال: هو نفْيٌ لاتخاذ الشياطين أعواناً، فيستفاد من الجملتين نفْيُ صحَّةِ عبادةِ الفريقَيْن.

وقال ابن عطية: الضميران عائدان على الكفَّار وعلى الناس بالجملة، فتتضمَّن الآيةُ الردَّ على طوائفَ من المنجِّمين وأهلِ الطبائع والأطباء ومَن سواهم ممن

---

(١) التفسير الكبير ٢١/ ١٣٨.
(٢) النشر ٢/ ٣١١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٣٧.

يخوض خوضَهم، وإلى هذا ذهب عبد الحق الصَّقَليُّ، وذكره بعض الأصوليين(١). انتهى. ويقال عليه في الجملة الأخيرة نحوُ ما قيل فيها آنفاً.

واستُدِلَّ بها على أنَّه لا ينبغي الاستعانةُ بالكافر، وهو في أمور الدين كجهاد الكفار وقتال أهل البغي مما ذهب إليه بعضُ الأئمة، ولبعضهم في ذلك تفصيلٌ، وأمَّا الاستعانةُ بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر أنَّه لا بأسَ بها، سواءٌ كانت في أمرٍ مُمتهنٍ كنزح الكنائف، أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والخياطة ونحوِها، ولعلَّ: افْرِضِ اليهوديَّ أو الكلبَ قد مات، في كلام الفاروق ﷺ = لعدِّ ما استُخْدِمَ فيه من الأمور الدينية، أو هو مبنيٌّ على اختيار تفصيلٍ في الأمور الدنيوية أيضاً.

وقد حكى الشيعةُ أنَّ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهَه قال حين صمَّم على عزلِ معاوية وأشار عليه ابنُ عباس ﷺ بإبقائه على عمله إلى أن يستفحلَ أمر الخلافة: يمنعني من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فلا أتخِذ معاويةَ عضُداً أبداً. وهو كذِبٌ لا يعتقده إلا ضالٌّ مضلٌّ.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والسختيانيُّ وعون العقيليُّ وابن مقسم: «ما أشهدناهم» بنون العظمة(٢).

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: «متخذاً المضلِّين» على إعمال اسم الفاعل(٣).

وقرأ الحسن وعكرمة: «عُضْداً» بسكون الضاد ونقْل حركتِها إلى العين(٤).

وقرأ عيسى: «عَضْداً» بسكون الضاد للتخفيف، كما قالوا في رَجُلٍ وسَبُعٍ: رَجْلٌ وسبْعٌ بالسكون، وهي لغةٌ عن تميم، وعنه أيضاً أنه قرأ بفتحتين(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وعبد الحق هو ابن محمد بن هارون أبو محمد السهمي المالكي، له: النكت والفروق لمسائل المدونة، وتهذيب الطالب. السير ١٨/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) النشر ٢/ ٣١١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٣٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٠، والكشاف ٢/ ٤٨٨، والبحر ٦/ ١٣٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، والبحر ٦/ ١٣٧.

(٥) قراءة سكون الضاد في القراءات الشاذة ص٨٠، وقراءة الفتحتين في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٣٧.

وقرأ شيبة وأبو عمرو في رواية هارون وخارجة والخفاف وأبي زيد[١]: «عُضُداً» بضمَّتين، ورُوي ذلك عن الحسن أيضاً، وكذا رُوي عنه أيضاً أنَّه قرأ بفَتحَتَيْنِ[٢]، وهو على هذا إما لغةٌ في العَضُد كما في «البحر» ولم يذكره في «القاموس»[٣]، وإما جمعُ: عاضِدٍ، كخَدَم جمعُ خادمٍ، مِن عضَدَه بمعنى قوَّاه وأعانه، فحينئذٍ لا استعارةَ.

وقرأ الضحاك: «عِضَداً» بكسر العين وفتح الضاد ولم نجد ذلك من لغاته، نعم في «القاموس» عَدَّ «عَضِد» كـ: «كَتِف» منها[٤]، وهو عكسُ هذه القراءة.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله تعالى للكفَّار توبيخاً وتعجيزاً بواسطةٍ أو بدونها، وقرأ الأعمش وطلحة ويحيى وابن أبي ليلى وحمزة وابن مقسم: «نقول» بنون العظمة[٥].

والكلام على معنى: اذكر، أيضاً، أي: واذكر يومَ يقول: ﴿نَادُواْ﴾ للشفاعة لكم ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: زعمتموهم شفعاءَ، والإضافةُ باعتبارِ ما كانوا يزعمون أيضاً، فإنَّهم كانوا يزعمون أنهم شركاء كما يزعمون أنَّهم شفعاءُ، وقد جوَّز غيرُ واحدٍ هنا أن يكونَ الكلامُ بتقديرِ: زعمتموهم شركاء، والمرادُ بهم إبليسُ وذريتُه، وجعلُهم بدلاً فيما تقدَّم مبنيٌّ على ما لزِمَ من فعلِ عَبَدَتِهم المطيعين لهم فيما وسوسوا به، أو كلُّ ما عُبِد من دون الله تعالى.

وقرأ ابن كثير: «شُرَكَايَ» مقصوراً مضافاً إلى الياء[٦].

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادَوْهم للإغاثة، وفيه بيانٌ بكمالِ اعتنائهم بإغاثتهم على طريق الشفاعة؛ إذ معلومٌ أنْ لا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم؛ إذ لا إمكانَ لذلك، قيل: وفي إيراده مع ظهوره تهكُّم بهم وإيذانٌ بأنَّهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به.

---

(١) كذا وقع في الأصل و(م) قوله: وأبي زيد، وليس هو في البحر ٦/ ١٣٧، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص٨١.
(٣) البحر ٦/ ١٣٢، والقاموس (عضد).
(٤) القاموس (عضد)، والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٣، والبحر ٦/ ١٣٧.
(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن حمزة، والكلام من البحر ٦/ ١٣٧.
(٦) البحر ٦/ ١٣٧.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي: بين الداعين والمدعوين ﴿مَّوْبِقًا ۝﴾، اسمُ مكانٍ من: وَبَق وُبُوقاً كـ: وثب وثوباً، أو: وَبِق وَبَقاً كـ: فَرِح فرَحاً: إذا هلك، أي: مهلِكاً يشتركون فيه وهو النارُ، وجاء عن ابن عمر وأنس ومجاهد أنه وادٍ في جهنَّم يجري بدمٍ وصديدٍ. وعن عكرمة أنه نهرٌ في النار يسيل ناراً، على حافَّتَيْه حياتٌ أمثالُ البغَال الدُّهْم، فإذا ثارت إليهم لتأخذَهم استغاثوا بالاقتحام في النار منها.

وتفسير الموبق بالمهلك مرويٌّ عن ابن عباس ﷺ وعن مجاهدٍ وغيرهما، وعن الحسن تفسيرُه بالعداوة[(١)]، فهو مصدرٌ أطلِق على سببِ الهلاك - وهو العداوةُ - كما أُطلِق التلَفُ على البغضِ المؤدِّي إليه في قول عمر ﷺ: لا يكن حُبُّك كَلَفاً ولا بغضُك تلَفاً[(٢)]. وعن الربيع بن أنس تفسيره بالمحبس.

ومعنى كون الموبِق - على سائر تفاسيره - بينَهم: شمولُه لهم وكونُهم مشتركين فيه، كما يقال: جعلتُ المالَ بين زيدٍ وعمرو، فكأنه ضُمِّن «جعلنا» معنى «قسمْنا»، وحينئذٍ لا يمكن إدخالُ عيسى وعزير والملائكةِ عليهم السلام ونحوِهم في الشركاء على القول الثاني.

وقال بعضُهم: معنى كون الموبق - أي: المَهْلِك، أو: المَحْبِس - بينَهم: أنَّه حاجزٌ واقعٌ في البَين، وجُعِلَ ذلك بينَهم حسماً لأطماع الكَفَرة في أن يصلَ إليهم ممن دعَوه للشفاعة. وجاء عن بعضِ مَن فسَّره بالوادي أنه يفرقُ الله تعالى به بين أهلِ الهدى وأهل الضلالة، وعلى هذا لا مانعَ مِن شمول المعنى الثاني للشركاء لأولئك الأجلَّة.

وقال الثعالبي في «فقه اللغة»[(٣)]: الموبق بمعنى البرزَخ البعيد. على أنَّ «وبق» بمعنى «هلك» أيضاً، أي: جعلنا بينَهم أمداً بعيداً يهلك فيه الأشواط[(٤)] لفرطِ بُعدِه،

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥٩٨)، والكَلَف: الوُلوع بالشيء مع شُغْلِ قلبٍ ومشقة. أي: لا يكن حبُّك حبّاً مفرطاً يؤدي إلى الولع والهيام. ينظر النهاية (كلف)، وحاشية الشهاب ٦/ ١١١.

(٣) ص٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ١١١.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب: بالأشواط.

وعليه أيضاً يجوز الشمولُ المذكورُ لأنَّ أولئك الكرام عليهم السلامُ في أعلى الجنان، وهؤلاء اللئام في قعر النيران، ولا يخفى على مَن له أدنى تأمُّلٍ الحالُ فيما إذا أريد بالموبق العداوة.

و«بينهم» على جميعِ ما ذُكر ظرفٌ، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل» إنْ جُعِلَ بمعنى «صيَّر»، و«موبقاً» مفعولُه الأول، وإنْ جُعِلَ بمعنى «خلق» كان الظرفُ متعلِّقاً به، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لمفعولِه قُدِّم عليه لرعايةِ الفواصل فتحوَّل حالاً.

وقال الفراء والسيرافي: البين هنا بمعنى الوصل فإنه يكونُ بمعناه كما يكون بمعنى الفِراق[1]، وهو مفعولٌ أول لـ «جعلنا»، و«موبقاً» بمعنى هلاكاً مفعوله الثاني، والمعنى: جعلنا تواصلَهم في الدنيا هلاكاً يومَ القيامة.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضِع المظهرُ في مقام المضمَر تصريحاً بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك، والرؤيةُ بصريَّةٌ، وجاء عن أبي سعيد الخدريِّ ـ كما أخرجه عنه أحمد وابن جرير والحاكم وصحَّحه ـ عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الكافرَ ليرى جهنَّم من مسيرِ أربعين سنةً»[2].

﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: علموا، كما أخرجه عبدُ الرزاق وجماعةٌ عن قتادة[3]، وهو الظاهرُ من حالهم بعد قولِ الله تعالى ذلك واستغاثتِهم بشركائهم وعدمِ استجابتهم لهم وجعلِ الموبق بينَهم.

وقيل: الظنُّ على ظاهره وهم لم يتيقَّنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ ـ أي: مخالِطوها واقعون فيها ـ لعدم يأسِهم من رحمة الله تعالى قبل دخولهم فيها.

وقيل: إنَّهم لمَّا رأوها من بعيدٍ ـ كما سمعتَ في الحديث ـ ظنُّوا أنَّها تخطفهم في الحال، فإنَّ اسمَ الفاعل موضوعٌ للحال، فالمتيقَّن أصلُ الدخول، والمظنونُ الدخولُ حالاً.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١١١.
(٢) مسند أحمد (١١٧١٤)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٩٩، بزيادة «ويظنُّ أنَّها مُوَاقِعَتُه» بعد لفظة: «جهنم»، ولم نقف عليه عند الحاكم، وأخرجه ابن حبان (٧٣٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٤، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٨ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وفي مصحف عبد الله: «ملاقوها»، وكذلك قرأ الأعمش وابن غزوان عن طلحة[١]. واختير جعلُها تفسيراً لمخالفَتِها سوادَ المصحف.

وعن علقمة أنَّه قرأ: «مُلافُّوها» بالفاء مشدَّدةً[٢]، من: لفَّ الشيءَ.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ أي: مكاناً ينصرفون إليه؛ قال أبو كبير الهذليّ:

أزُهيرُ هَل عَن شَيبةٍ من مَصْرِفِ ... أم لَا خُلُودَ لبـاذِلٍ مُتَكَلِّفِ[٣]

فهو اسمُ مكانٍ، وجُوِّز أن يكونَ اسمَ زمانٍ، وكذا جوَّز أبو البقاء وتبِعه غيرُه أن يكونَ مصدراً، أي: انصرافاً[٤].

وفي «الدر المصون» أنَّه سهوٌ، فإنَّه جعلَ «مَفعِل» بكسر العين مصدراً من صحيحٍ مضارعُه «يفعِل» بالكسر، وقد نصُّوا على أنَّ مصدرَه مفتوحُ العين لا غير، واسمُ زمانِه ومكانِه مكسورُها. نعم إنَّ القولَ بأنَّه مصدرٌ مقبولٌ في قراءةِ زيدِ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «مصرَفاً» بفتح الراء[٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا وردَّدْنا على وجوهٍ كثيرةٍ من النظم ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ الجليلِ الشأنِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: كلَّ مثل، على أنَّ «من» سيفُ خطيبٍ على رأي الأخفش، والمجرورُ مفعولُ «صرَّفنا»، أو: مَثَلاً من كلِّ مَثَلٍ، على أنَّ «مِن» أصليةٌ، والمفعولُ موصوفُ الجارِّ والمجرورِ المحذوفِ. وقيل: المفعولُ مضمونُ «مِن كلِّ مثَل» أي: بعضَ كلِّ جنسِ مثلٍ. وأيًّا ما كان فالمرادُ من المثل إما معناه المشهورُ، أو الصفةُ الغريبة التي هي في الحُسن واستجلابِ النفس كالمثل، والمراد أنَّه تعالى نوَّع ضربَ الأمثالِ وذِكرَ الصفاتِ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٤، والبحر ٦/ ١٣٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أبو كبير هو عامر بن الحُلَيْس، شاعر صحابيٌّ اشتهر بكنيته، أحد بني سهل بن هذيل. والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٠٤، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٩٩، وفي اللسان (حرف): مَحْرِف، بدل: مَصْرِفٍ. قوله: زُهَيرُ، ترخيم زهيرة وهي ابنته، وشيبة: صديقه يرثيه.

(٤) الإملاء ٣/ ٥٢٥، وينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٩.

(٥) الدر المصون ٧/ ٥١٠بنحوه. وقراءة زيد بن علي في البحر ٦/ ١٣٨.

الغريبة، وذَكَر مِن كلِّ جنسٍ محتاجٍ إليه داعٍ إلى الإيمان نافعٍ لهم مثلاً، لا أنَّه سبحانه ذَكَر جميعَ أفرادِ الأمثال، وكأنَّ في الآية حذفاً، أو هي على معنى: ولقد فعلنا ذلك ليُقبِلوا، فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جبلَّته ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ أي: أكثرَ الأشياءِ التي يتأتَّى منها الجدلُ، وهو كما قال الراغب[1] وغيرُه: المنازَعةُ بمفاوَضةِ القول. والأليقُ بالمقام أن يرادَ به هنا الخصومةُ بالباطل والمماراةُ، وهو الأكثر في الاستعمال. وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه مأخوذٌ من الجَدْل وهو الفَتْلُ، والمجادَلةُ: الملاواة؛ لأنَّ كلًّا من المتجادِلَيْنِ يلتوي على صاحبه. وانتصابه على التمييز، والمعنى أنَّ جَدَلَ الإنسان أكثرُ من جَدَلِ كلِّ مجادِلٍ، وعُلِّل بسعة مضطرَبه فإنَّه بين أوج المَلَكيَّة وحَضيضِ البهيميَّة، فليس له في جانبَي التصاعُدِ والتسفُّلِ مقامٌ معلومٌ.

والظاهرُ أنَّه ليس المرادُ إنساناً معيَّناً، وقيل: المرادُ به النضرُ بن الحارث. وقيل: ابنُ الزِّبَعْرى. وقال ابن السائب: أُبيُّ بن خلفَ، وكان جدالُه في البعث حين أتى بعظمٍ قد رمَّ، فقال: أيقدِرُ اللهُ ـ تعالى ـ على إعادةِ هذا؟! وفتَّه بيده[2].

والأولُ أولى، ويؤيِّده ما أخرجه الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّ النبيَّ ﷺ طرقه وفاطمةَ ليلاً، فقال: «ألا تصليان؟» فقلتُ: يا رسول الله، إنَّما أنفُسُنا بيدِ الله تعالى إن شاء أن يبعثَنا بَعَثَنا. فانصرف حين قلتُ ذلك ولم يَرجِع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه يضرب فخذَه ويقول: (وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[3]. فإنَّه ظاهرٌ في حمل «الإنسان» على العموم، ولا شبهةَ في صحَّة الحديث إلا أنَّ فيه إشكالاً يُعرفُ بالتأمُّل، ولا يدفَعُه ما ذكره النوويُّ حيث قال: المختارُ في معناه أنَّه ﷺ تعجَّب من سرعةِ جوابه، وعدم موافقتِه له على الاعتذارِ بهذا، ولهذا ضرب فخذَه، وقيل: قال ﷺ ذلك تسليماً لعذرِهما وأنَّه لا عتبَ[4]. اهـ. فتأمَّل.

---

(١) في المفردات (جدل).

(٢) زاد المسير ٥/ ١٥٧، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٧٨) من سورة يس.

(٣) صحيح البخاري (٧٣٤٧)، وصحيح مسلم (٧٧٥)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ٦٥.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عطية وغيره: المرادُ بهم كفَّارُ قريش الذين حُكِيت أباطيلُهم[(١)]. و«ما» نافية، وزعم بعضُهم ـ وهو من الغرابة بمكان ـ أنَّها استفهاميةٌ، أي: أيُّ شيءٍ منعهم.

﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: من إيمانهم بالله تعالى وتركِ ما هم فيه من الإشراك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآنُ العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له، أو: الرسولُ ﷺ، وإطلاقُ «الهدى» على كلٍّ للمبالغة.

﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بالتوبة عمَّا فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جُملتها مجادَلتُهم الحقَّ بالباطل، وفائدةُ ذكرِ هذا بعد الإيمان التعميمُ على ما قيل.

واستدَلَّ به مَن زعم أنَّ الإيمانَ إذا لم ينضمَّ إليه الاستغفارُ لا يجُبُّ ما قبله، وهو خلافُ ما اقتضتْه الظواهرُ.

وقال بعضُهم: لاشكَّ أنَّ الإيمانَ مع الاستغفار أكملُ من الإيمان وحدَه، فذُكِر معه لتُفِيدَ الآيةُ ما منعهم من الاتصاف بأكمل ما يُراد منهم. ولا يخفى أنه ليس بشيء.

وقيل: ذِكرُ الاستغفار بعد الإيمان لتأكيدِ أنَّ المرادَ منه الإيمانُ الذي لا يشوبه نفاقٌ، فكأنَّه قيل: ما منعهم أن يؤمنوا إيماناً حقيقيًّا.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهم مَن أُهلِك من الأمم السالفة، وإضافةُ السُّنَّة إليهم قيل: لكونها جاريةً عليهم، وهي في الحقيقة سنةُ الله تعالى فيهم، والمراد بها الإهلاكُ بعذابِ الاستئصال، وإذا فسِّرت السُّنَّةُ بالهلاك لم تحتَج لِمَا ذكر، و«أنْ» وما بعدها في تأويل المصدر وهو فاعلُ «منع»، والكلامُ بتقديرِ مضافٍ، أي: ما منعهم من ذلك إلَّا طلبُ الهلاك في الدنيا. قاله الزجَّاج[(٢)].

وجوَّز صاحبُ «الغنيان»[(٣)] تقديرَ: انتظار، أي: ما منعهم إلا انتظارُ الهلاك. وقدَّر الواحديُّ: تقدير، أي: ما منعَهم إلا تقديرُ الله تعالى إتيانَ الهلاك عليهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٩.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٦.
(٣) في الأصل و(م): الغينان، والتصويب من البحر ٦/ ١٣٩، والكلام منه.

وقال: إنَّ الآيةَ فيمن قُتل ببدرٍ وأُحُدٍ من المشركين[1]. ويأباه بحسب الظاهر كونُ السورة مكيةً إلَّا ما استُثني.

والداعي لتقدير المضاف أنَّه لو كان المانعُ من إيمانهم واستغفارِهم نفسَ إتيانِ الهلاك كانوا معذورين، وأنَّ عذابَ الآخرةِ المعدَّ للكفارِ المرادَ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ منتظرٌ قطعاً، وقيل: لأنَّ زمانَ إتيان العذاب متأخِّرٌ عن الزمان الذي اعتُبِر لإيمانِهم واستغفارِهم، فلا يتأتَّى مانِعيَّتُه منهما.

واعتُرِض تقديرُ الطلبِ بأنَّ طلبَهم سنةَ الأولين لعدم إيمانهم، وهو لمنعهم عن الإيمان، فلو كان منعُهم للطلب، لزم الدورُ.

ودُفِع بأنَّ المرادَ بالطلب سببُه، وهو تعنُّتُهم وعنادُهم الذي جعلَهم طالبين للعذاب بمثل قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] إلخ.

وتُعقِّب بأنَّ فيهم مَن يُنكِر حقيَّةَ الإسلام كما أنَّ فيهم المعاند، ولا يظهر وجهُ كون الطلب ناشئاً عن إنكارِ الحقيَّة، وكذا لا يظهر كونُه ناشئاً عن العناد.

واعتُرِض أيضاً بأنَّ عدمَ الإيمان متقدِّمٌ على الطلب مستمرٌّ، فلا يكون الطلب مانعاً.

وأجيب بأنَّ المتقدِّمَ على الطلب هو عدمُ الإيمان السابق وليس الطلب بمانعٍ منه، بل هو مانعٌ مما تحقَّق بعدُ. وهو كما ترى.

وقيل: المراد من الطلب الطلبُ الصوريُّ اللسانيُّ، لا الحقيقيُّ القلبيُّ، فإنَّ مَن له أدنى عقلٍ لا يطلبُ الهلاكَ والعذابَ طلباً حقيقيًّا قلبيًّا، ومِن الطلب الصوريِّ منشؤُه وما هو دليلٌ عليه وهو تكذيبُ النبيِّ ﷺ بما أَوْعَدَ به من العذاب والهلاكِ مَن لم يؤمن بالله عزَّ وجلَّ، فكأنه قيل: ما منعهم من الإيمان بالله تعالى الذي أمر به النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلا تكذيبُهم إياه بما أَوْعَدَ على تركه. ولا يخلو عن دغدغةٍ.

---

(١) الوسيط ٣/ ١٥٤.

وقيل: الحقُّ أنَّ الآيةَ على تقديرِ الطلب من قولك لمن يعصيك: أنت تريد أن أضربك. وهو على تنزيل الاستحقاق منزلةَ الطلب، فكأنه قيل: ما منعهم من ذلك إلا استحقاقُ الهلاك الدنيويِّ أو العذاب الأخرويِّ.

وتُعقِّب بأنَّ عدمَ الإيمان والاتصافَ بالكُفر سببٌ للاستحقاق المذكور فيكون متقدِّماً عليه، ومتى كان الاستحقاقُ مانعاً منه انعكس أمرُ التقدُّم والتأخُّرِ، فيلزم اتصافُ الواحد بالشخص بالتقدُّم والتأخرِ، وأنَّه باطل.

وأجيب بمنع كون عدم الإيمان سبباً للاستحقاق في الحقيقة وإنَّما هو سببٌ صوريٌّ، والسبب الحقيقيُّ سوءُ استعداداتِهم وخَباثةُ ماهياتهم في نفس الأمر، وهذا كما أنَّه سببٌ للاستحقاقِ كذلك هو سببٌ للاتصاف بالكفر، وإن شئتَ فقل: هو مانعٌ من الإيمان، ومن هنا قيل: إنَّ المرادَ من الطلب الطلبُ بلسان الاستعداد، وأنَّ مآلَ الآية: ما منعهم من ذلك إلا استعداداتُهم وطلبُ ماهياتهم لضدِّه، وذلك لأنَّ طلبَ استعداداتهم للهلاك أو العذاب المترتِّب على الضدِّ استعدادٌ للضدِّ وطلبٌ له. وربما يقال بناءً على هذا: إنَّ المفهومَ من الآيات أنَّ الكفارَ لو لم يأتهم رسولٌ ينبِّهُهم من سِنَة الغَفلة يحتجُّون لو عُذِّبوا بعدم إتيانه، فيقولون: منَعَنا من الإيمان أنَّه لم يأتِنا رسولٌ. ومآله: منعنا من ذلك الغفلةُ، ولا يجدون من حُجَّة أبلغَ من ذلك وأنفعَ في الخلاص، وأما سوءُ الاستعداد وخباثةُ الذات فبمراحلَ مِن أن يحتجُّوا به ويجعلوه مانعاً، فلا بُعدَ في أن يقدَّر الطلبُ ويراد منه ظاهرُه، وتكون الآيةُ من قبيل قوله:

ولا عيب فيهم............. البيت[1]

والمراد نفْي أن يكونَ لهم مانعٌ من الإيمان والاستغفارِ بعد مجيء الرسول ﷺ يصلُح أن يكونَ حجَّةً لهم أصلاً، كأنه قيل: لا مانعَ لهم من أن يؤمنوا أو يستغفروا ربَّهم، ولا حجَّةَ بعد مجيء الرسول الذي بلَّغ ما بلَّغ من الهدى إلا طلب ما أُوعِدوا به من إتيان الهلاك الدنيويِّ أو العذاب الأخرويِّ، وحيث إنَّ ذلك على فرض تحقُّقِه منهم لا يصلُح للمانعيَّة والحجيَّة لم يبقَ مانعٌ وحجَّةٌ عندهم أصلاً. انتهى.

---

(١) قائله النابغة، وقد سلف ٥/ ٤٠٧؛ وتمامه:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائب

ولا يخفى أنَّه ـ بعد الإغضاء عمَّا يَرِد عليه ـ بعيدٌ، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، والأولى تقديرُ: التقدير، وهو مانعٌ بلا شبهةٍ، إلَّا أنَّ القائلين بالاستعداد حسبما تعلم يجعلون منشأه الاستعدادَ، وفي معناه تقديرُ الإرادة، أي: إرادتُه تعالى، وعليه اقتصر العزُّ بن عبد السلام، ودَفَع التنافي بين الحصر المستفادِ من هذه الآية والحصرِ المستفادِ من قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] بأنَّ الحصرَ الأول في المانع الحقيقيِّ، فإنَّ إرادةَ الله تعالى هي المانعةُ على الحقيقة، والثاني في المانع العاديِّ وهو استغرابُ بعثِ بشرٍ رسولٍ؛ لأنَّ المعنى: وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلا استغرابُ ذلك، وقد تقدَّم في الإسراء[(١)] ما ينفعك في الجمع بين الحصرَيْن، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

وادَّعى الإمام تعدُّدَ الموانع، وأنَّ المرادَ من الآية فقدانُ نوعٍ منها، فقال: قال الأصحابُ: إنَّ العلم بعدَم إيمانِهم مضادٌّ لوجود إيمانهم، فإذا كان ذلك العلمُ قائماً كان المانع قائماً، وأيضاً حصولُ الداعي إلى الكفر قائمٌ، وإلَّا لَمَا حصل؛ لأنَّ حصولَ الفعل الاختياريِّ بدون الداعي محالٌ، ووجودُ الداعي إلى الكفر مانعٌ من حصول الإيمان، فلا بدَّ أن يقالَ: المرادُ فقدانُ الموانع المحسوسة[(٢)]. انتهى، فليتأمَّل فيه.

والقُبُل ـ بضمَّتين ـ جمعُ قبيلٍ، وهو النوعُ، أي: أو يأتيهم العذابُ أنواعاً وألواناً، أو هو بمعنى «قِبَلاً» بكسر القاف وفتح الباء كما قَرأ به غيرُ واحد[(٣)]، أي: عِياناً، فإنَّ أبا عبيدة حكاهما معاً بهذا المعنى[(٤)]، وأصلُه بمعنى المقابلَة، فإذاً دلَّ على المعاينَة.

ونصبُه على الحال، فإن كان حالاً من الضمير المفعول فمعناه: مُعايِنين، بكسر الياء، أو بفتحِها، أي: معايَنين للناس ليفتضحوا، وإن كان من «العذاب» فمعناه: معايَناً لهم أو للناس.

---

(١) ينظر ص١٢٢ من هذا الجزء.

(٢) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٠.

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب كما في التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٤٠٧.

وقرأت طائفة: «قِبْلاً» بكسرِ القاف وسكون الباء، وهو كما في «البحر»(١) تخفيفُ «قِبَل» على لغة تميم.

وذكر ابن قتيبة والزمخشريُّ أنَّه قُرِئ: «قَبَلاً» بفتحتين(٢)، أي: مستقبَلاً.

وقرأ أبيُّ بن كعب وابن غزوان عن طلحة: «قَبِيلاً» بقاف مفتوحة وباء مكسورةٍ بعدَها ياءٌ ساكنة(٣)، أي: عِياناً ومقابلةً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم متلبِّسين بحالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَۚ﴾ للكَفَرة والعُصاة بالعقاب، ولم نرسلهم ليُقترحَ عليهم الآيات بعد ظهور المعجزات ويُعامَلوا بما لا يليق بشأنهم ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح ذلك والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنُّتاً، وقولِهم لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] إلى غير ذلك. وتقييدُ الجدال بـ «الباطل» لبيان المذمومِ منه فإنَّه كما مرَّ غيرَ بعيدٍ عامٌّ لغةً، لا خاصٌّ بالباطل ليُحمل ما ذكر على التجريد، والمراد به هنا معناه اللغويُّ، وما يُطلَق عليه اصطلاحاً مما يصدُق عليه ذلك.

﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أي: ليُزيلوا ويُبطلوا ﴿بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّۖ﴾ الذي جاءت به الرسلُ عليهم السلام، وأصلُ الإدحاض: الإزلاقُ، والدحضُ: الطين الذي يُزلَق فيه، قال الشاعر:

وَرَدْتُ ونَجَّى اليشكريَّ حذارُه ... وحادَ كما حادَ البعيرُ عن الدحْضِ(٤)

وقال آخر:

أبا منذرٍ رمتَ الوفاء وهبتَه ... وحِدتَ كما حاد البعيرُ المدحض(٥)

---

(١) ٦/ ١٣٩.
(٢) غريب القرآن ص٢٦٩، والكشاف ٢/ ٤٨٩.
(٣) البحر ٦/ ١٣٩.
(٤) البيت في البحر ٦/ ١٣٢، وهو في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥ بلفظ: نجاؤُه، بدل: حذارُه، ولم ينسباه، وفي تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٢، وجمهرة اللغة ٢/ ١٢٣، واللسان (دحض) بلفظ: رَدِيتُ، بدل: وردت، ونسبه ابن دريد وابن منظور لطرفة، وهو في ديوانه ص١٧٢.
(٥) البيت في الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ٢/ ٣٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣١٢، =

واستعماله في إزالة الحق قيل: من استعمال ما وضع للمحسوس في المعقول، وقيل: لك أن تقول: فيه تشبيهُ كلامهم بالوَحل المستكره، كقول الخفاجيِّ:

أتـانـا بـوحـلٍ لأفـكـارِه ... لـيُـزلِـق أقـدامَ هَـدْي الـحُـجَـج[١]

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ التي أيَّدتُ بها الرسلَ، سواء كانت قولاً أو فعلاً ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: والذي أُنذروه من القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو: إنذارَهم ﴿هُزُوٗا ٥٦﴾ أي: استهزاءً وسخريةً. وقرأ حمزة: «هُزْأً» بالسكون مهموزاً، وقرأ غيرُه وغير حفص من السبعة بضمَّتَيْنِ مهموزاً[٢]، وهو مصدرٌ وصف به للمبالغة، وقد يؤوَّل بما يُستهزَأُ به.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الأكثرون على أنَّ المرادَ بها القرآنُ العظيم؛ لمكان «أن يفقهوه»، فالإضافةُ للعهد. وجوِّز أن يرادَ بها جنسُ الآيات ويدخل القرآن العظيم دخولاً أوليًّا، والاستفهامُ إنكاريٌّ في قوة النفْي، وحقَّق غيرُ واحد أنَّ المرادَ نفْي أن يساوِي أحد في الظلم مَن وُعِظ بآيات الله تعالى ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ فلم يتدبَّرها ولم يتعظ بها، ودلالةُ ما ذكر على هذا بطريق الكناية، وبناء الأظلمية على ما في حيِّز الصلة من الإعراض؛ للإشعار بأنَّ ظُلمَ مَن يجادل في الآيات ويتخذُها هزواً خارجٌ عن الحدِّ.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ أي: عملَه من الكفر والمعاصي التي من جملتها المجادلةُ بالباطل والاستهزاءُ بالحقِّ، ونسيانُ ذلك كنايةٌ عن عدم التفكُّر في عواقبه.

والمرادُ من «مَن» عند الأكثرين مشركو مكة. وجوِّز أن يكونَ المرادُ منه المتصف بما في حيِّز الصلة كائناً مَن كان، ويدخل فيه مشركو مكة دخولاً أوليًّا، والضميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لهم على الوجهين، ووجه الجمع ظاهرٌ، والجملة استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما علَّةُ الإعراض والنسيان؟ فقيل: علته

= وتاج العروس (دحض) منسوب لطرفة، وهو في ديوانه ص١٧٣، ورَوَوْه بلفظ: فهِبْتَه، بدل: وهبته، و: عن الدحض، بدل: المدحض. وهو في البحر ٦/ ١٣٢، والدر المصون ٧/ ٥١٢، برواية المصنف إلا أن في الدر المصون: فهبتَه.

(١) حاشية الشهاب للخفاجي ٦/ ١١٣.

(٢) التيسير ص٧٤، والنشر ٢/ ٢١٥-٢١٦. وقرأ حفص بضمِّ الزاي وإبدالِ الهمزة واواً.

أنَّا جعلنا على قلوبهم ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً، جمعُ: كنانٍ، والتنوينُ ـ على ما يشيرُ إليه كلامُ البعض ـ للتكثير.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الضميرُ المنصوب عند الأكثرين للآيات، وتذكيرُه وإفرادُه باعتبار المعنى المرادِ منها وهو القرآن. وجوِّز أن يكونَ للقرآن لا باعتبار أنه المرادُ من الآيات.

وفي الكلام حذفٌ، والتقديرُ: كراهة أن يفقهوه. وقيل: لئلا يفقهوه، أي: فقهاً نافعاً.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: وجعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ أي: ثِقَلاً أن يسمعوه سماعاً كذلك ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: مدَّةَ التكليف كلّها، و«إذاً» جزاءٌ وجوابٌ كما حقِّق المرادُ منه في موضعه، فتدلُّ على نفْي اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ بمعنى أنَّهم جعلوا ما يجب أن يكونَ سببَ وجودِ الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنَّه جوابٌ للرسول عليه الصلاة والسلام على تقدير قوله ﷺ: مالي لا أدعوهم؟ حرصاً على اهتدائهم ـ وإن ذُكر له ﷺ من أمرهم ما ذُكر ـ رجاءَ أن تنكشفَ تلك الأكنَّة وتمزَّق بيد الدعوة، فقيل: «وإن تدعهم» إلخ. قاله الزمخشري(١).

وفي «الكشف» في بيانِ ذلك: أما الدلالةُ فصريحُ تخلُّلِ «إذاً» يدلُّ على ذلك؛ لأنَّ المعنى: إذاً لو دعوتَ، وهو من التعكيس بلا تعسُّفٍ، وأما أنَّه جوابٌ على الوجه المذكور فمعناه أنَّه ﷺ نزِّل منزلةَ السائل مبالغةً في عدم الاهتداء المرتَّب على كونهم مطبوعاً على قلوبهم، فلا ينافي ما آثروه من أنه على تقديرِ سؤالٍ: لِمَ لَمْ يهتدوا؟ فإنَّ السؤالَ على هذا الوجه أوقع. اهـ.

وهو كلامٌ نفيس، به ينكشف الغطا، ويُؤمَن من تقليد الخَطَا، ويستغني به المتأمِّلُ عما قيل: إنَّ تقديرَ: ما لي لا أدعوهم؟ يقتضي المنعَ من دعوتهم، فكأنه أُخِذ من مثلِ قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وقيل: أُخِذ من قوله تعالى: (عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً). وقيل: من قوله سبحانه: (وَإِن تَدْعُهُمْ).

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٨٩.

هذا، ولا يخفى عليك المرادُ من «الهدى»، وقد يُراد منه القرآنُ، فيكون من إقامة الظاهر مقامَ الضمير، ولعلَّ إرادةَ ذلك هنا ترجُّح إرادة القرآن في «الهدى» السابق، والله تعالى أعلم.

والآية في أناسٍ عَلِم الله تعالى موافاتَهم على الكفر من مشركي مكة حين نزولها، فلا ينافي الإخبارَ بالطبع، وأنَّهم لا يؤمنون تحقيقاً ولا تقليداً إيمانَ بعض المشركين بعد النزول. واحتمالُ أنَّ المرادَ جميعُ المشركين على معنى: وإن تدعهم إلى الهدى جميعاً فلن يهتدوا جميعاً، وإنما يهتدي بعضُهم = كما ترى.

واستدلَّت الجبريَّةُ بهذه الآية على مذهبهم، والقدريَّةُ بالآية التي قبلها، قال الإمام: وقلَّ ما تجد في القرآن آيةً لأحدِ هذين الفريقين إلا ومعها آيةٌ للفريق الآخَر، وما ذاك إلا امتحانٌ شديدٌ مِن الله تعالى ألقاه الله تعالى على عباده ليتميَّزَ العلماءُ الراسخون من المقلِّدين[1].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، وقولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ - أي: صاحبُها، والموصوفُ بها - خبرٌ بعد خبر، قال الإمام: وإنما ذُكر لفظُ المبالغة في المغفرة دونَ الرحمة؛ لأنَّ المغفرةَ تركُ الإضرار والرحمةَ إيصال النفع، وقدرةُ الله تعالى تتعلَّقُ بالأول؛ لأنَّه تركُ مضارٍّ لا نهايةَ لها، ولا تتعلَّق بالثاني لأنَّ فعلَ ما لا نهايةَ له محالٌ[2].

وتعقَّبه النيسابوريُّ بأنَّه فرقٌ دقيقٌ لو ساعده النقلُ، على أنَّ قولَه تعالى: «ذو الرحمة» لا يخلو عن مبالغةٍ، وفي القرآن «غفورٌ رحيمٌ» بالمبالغة في الجانبَيْنِ كثيراً، وفي تعلُّق القدرة بترك غير المتناهي نظرٌ؛ لأنَّ مقدوراته تعالى متناهيةٌ لا فرق بين المتروك وغيره[3]. اهـ.

وقيل عليه: إنَّهم فسَّروا «الغفَّار» بمُريدِ إزالة العقوبة عن مستحقِّها، و«الرحيمَ» بُمريدِ الإنعام على الخَلْق، وقصدُ المبالغة من جهةٍ في مقامٍ لا ينافي تركَها في آخرَ

(١) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٥/ ١٤٤.

لعدم اقتضائِه لها، وقد صرَّحوا بأنَّ مقدوراتِه تعالى غيرُ متناهية، وما دخل منها في الوجود متناهٍ ببرهان التطبيق. اهـ، وهو كلامٌ حسنٌ اندفع به ما أُورد على الإمام.

وزعمت الفلاسفة أنَّ ما دخل في الوجود من المقدورات غيرُ متناهٍ أيضاً، ولا يجري فيه برهانُ التطبيق عندهم؛ لاشتراطهم الاجتماعَ والترتُّبَ، ولعَمري لقد قفَّ شعري من ظاهرِ قول النيسابوري أنَّ مقدوراته تعالى متناهية، فإنَّ ظاهرَه التعجيزُ، تعالى اللهُ سبحانه عمَّا يقوله الظالمون علوًّا كبيراً، ولكن يدفع بالعناية، فتدبَّر.

ثم إنَّ تحريرَ نكتةِ التفرقة بين الخبرَيْنِ هاهنا على ما قاله الخفاجيُّ[1] أنَّ المذكورَ بعدُ عدمُ مؤاخذتهم بما كسبوا من الجرم العظيم وهو مغفرةٌ عظيمةٌ، وتركُ التعجيل رحمةٌ منه تعالى سابقةٌ على غضبه لكنه لم يُرد سبحانه إتمامَ رحمته عليهم وبلوغَها الغايةَ، إذ لو أراد جلَّ شأنُه ذلك لهداهم وسلَّمهم من العذاب رأساً، وهذه النكتةُ لا تتوقَّفُ على حديث التناهي وعدم التناهي الذي ذكره الإمام وإن كان صحيحاً في نفسه كما قيل.

والاعتراض عليه بأنه يقتضي عدمَ تناهي المتعلّقات في كلٍّ ما نسب إليه تعالى بصيغ المبالغة، وليس بلازم؛ إذ يمكن أن تُعتبَر المبالغةُ في المتناهي بزيادة الكمية وقوَّةِ الكيفية، ولو سلِّم ما ذكر لزِمَ عدمُ صحة صيغ المبالغة في الأمور الثبوتية كـ «رحيم» و«رحمن»، ولا وجهَ له = مدفوعٌ بأنَّ ما ذكره نكتةٌ لوقوعِ التفرقة بين الأمرَيْنِ هنا بأنَّه اعتُبِرَت المبالغةُ في جانب الترك دونَ مقابِله؛ لأنَّ التركَ عدميٌّ يجوز فيه عدمُ التناهي بخلاف الآخر، ألا ترى أنَّ تركَ عذابهم دالٌّ على ترك جميع أنواع العقوبات في العاجل وإن كانت غيرَ متناهيةٍ؟ كذا قيل، وفيه نظرٌ.

وربما يقال في توجيه ما قاله النيسابوريُّ من أنَّ «ذو الرحمة» لا يخلو عن المبالغة: إنَّ ذلك إمَّا لاقتران الرحمة بـ «أل» فتفيد الرحمةَ الكاملةَ، أو الرحمةَ المعهودةَ التي وسعت كلَّ شيء، وإمَّا لـ «ذو» فإنَّ دلالتَه على الاتصاف في مثل هذا التركيب فوقَ دلالة المشتقَّات عليه، ولا يكاد يدلُّ سبحانه على اتصافِه تعالى بصفةٍ

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٥/ ١١٤.

بهذه الدلالة إلا وتلك الصفةُ مرادةٌ على الوجه الأبلغ، وإلا فما الفائدةُ في العدول عن المشتقِّ الأخصر الدالِّ على أصل الاتصافِ ك: الراحم ـ مثلاً ـ إلى ذلك.

ولا يعكِّر على هذا أنَّ المبالغةَ لو كانت مرادةً فلِمَ عُدل عن الأخصر أيضاً المفيدِ لها ك «الرحيم» أو «الرحمن» إلى ما ذُكر؟ لجوازِ أن يقال: إنَّه أريد أن لا تُقيَّد الرحمةُ المبالغُ فيها بكونها في الدنيا أو في الآخرة، وهذان الاسمان يفيدان التقييدَ على المشهور ولذا عُدل عنهما إلى «ذو الرحمة».

وإذا قلت: هما مثله في عدم التقييد. قيل: إنَّ دلالتَه على المبالغة أقوى من دلالتهما عليها بأنْ يُدَّعى أنَّ تلك الدلالةَ بواسطة أمرين لا يعدلهما في قوَّة الدلالة ما يتوسَّط في دلالة الاسمين الجليلين عليها، وعلى هذا يكون «ذو الرحمة» أبلغَ من كلِّ واحدٍ من «الرحمن» و«الرحيم» وإن كانا معاً أبلغَ منه، ولذا جيء بهما في البسملة دونه، ومَن أنصف لم يشكَّ في أنَّ قولك: فلانٌ ذو العلم، أبلغُ مِن قولك: فلان عليمٌ، بل ومن قولك: فلان العليمُ، من حيث إنَّ الأولَ يفيدُ أنَّه صاحب ماهيةِ العلم ومالكُها، ولا كذلك الأخيران، وحينئذٍ يكون التفاوتُ بين الخبرين في الآية بأبلغية الثاني، ووجه ذلك ظاهرٌ، فإنَّ الرحمةَ أوسعُ دائرةً من المغفرة كما لا يخفى، والنكتة فيه هاهنا مزيدُ إيناسه ﷺ بعد أن أخبره سبحانه بالطبع على قلوب بعض المرسَل إليهم وآيَسه من اهتدائهم مع علمه جلَّ شأنه بمزيد حرصه عليه الصلاة والسلام على ذلك، وهو السرُّ في إيثار عنوان الربوبية مضافاً إلى ضميره ﷺ. انتهى.

وهو كلامٌ واقف في أعراف الردِّ والقبولِ في النظر الجليل، ومن دقَّق عَلِم ما فيه من الأمرين.

وإنما قُدِّم الوصفُ الأول لأنَّ التخليةَ قبلَ التحلية، أو لأنه أهمُّ بحسب الحال والمقام، إذ المقامُ على ما قاله المحقِّقون مقامُ بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قولُه تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد مؤاخذتَهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: فعلوا، وكَسْبُ الأشعريِّ لا تفهمه العرب[1]، و«ما»

(١) ينظر ما سلف ٤/ ٣٤٦ وما بعدها.

إما مصدريةٌ، أي: بكسبهم، وإمَّا موصولةٌ، أي: بالذي كسبوه من المعاصي التي من جملتها ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربِّهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، قيل: وإيثارُ المؤاخذة المُنبِئة عن شدَّة الأخذ بسرعةٍ على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأنَّ النفي المستفادَ من مقدَّم الشرطية متعلِّقٌ بوصف السرعة كما يُنبئ عنه تاليها، وإيثارُ صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضيِّ لإفادة أنَّ انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب استمرارِ عدم إرادة المؤاخَذَة، فإنَّ المضارع الواقعَ موقعَ الماضي يفيد استمرارَ الفعل فيما مضى.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يومُ بدرٍ، أو يومُ القيامة، على أنَّ الموعِدَ اسمُ زمان، وجوِّز أن يكون اسمَ مكان والمرادُ منه جهنَّم، والجملة معطوفةٌ على مقدَّر، كأنه قيل: لكنَّهم ليسوا مؤاخَذين بغتة بل لهم موعدٌ ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ قال الفراء: أي: منجاً[1]؛ يقال: وَأَلَتْ نفسُ فلان: نَجَتْ، وعليه قول الأعشى:

وقد أُخَالِسُ ربَّ الدارِ غفلتَه وقد يُحاذِرُ منِّي ثمَّ ما يَئِلُ[2]

وقال ابن قتيبة[3]: هو الملجأ، يقال: وَأَلَ فلانٌ إلى كذا يَئِل وَألاً ووُؤولاً: إذا لجأ، والمعنى واحدٌ، والفرقُ إنما هو بالتعدي بـ «إلى» وعدمه. وتفسيرُه بالملجأ مرويٌّ عن ابن عباس. وفسَّره مجاهد بالمَحْرِز، والضحاكُ بالمخلص، والأمر في ذلك سهل، وهو على ما قاله أبو البقاء[4]: يحتمل أن يكونَ اسمَ زمان وأن يكون اسمَ مكان. والضميرُ المجرورُ عائدٌ على الموعد كما هو الظاهرُ. وقيل: على العذاب. وفيه من المبالغة ما فيه؛ لدلالته على أنَّهم لا خلاصَ لهم أصلاً، فإنَّ من يكون ملجؤه العذابَ كيف يرى وجهَ الخلاص والنجاة.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ١٤٨.

(٢) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦، والبحر ٦/ ١٣٢، وخزانة الأدب ١١/ ٣٥٢ بلفظ: البيت، بدل: الدار، وكذا في ديوان الأعشى ص١٧٤، وفيه: فقد، بدل: وقد.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩.

(٤) في الإملاء ٣/ ٥٢٦.

وأنت تعلم أنَّ أمرَ المبالغة موجودٌ في الظاهر أيضاً.

وقيل: يعود على الله تعالى، وهو مخالفٌ للظاهر مع الخلوِّ عن المبالغة.

وقرأ الزهريُّ: «مَوَّلاً» بتشديد الواو من غير همزٍ ولا ياء.

وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه: «مَوِلا» بكسر الواو خفيفةً من غير همزٍ ولا ياءٍ أيضاً[١].

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: أهل القرى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، والإشارةُ لتنزيلهم ـ لعلمِهم بهم ـ منزلةَ المحسوس، وقدَّر المضافُ في «البحر» قبلَ «تلك»[٢]، وكلا الأمرين جائزٌ. و«تلك» يشارُ بها للمؤنَّث من العقلاء وغيرهم، وجوِّز أن تكون القرى عبارةً عن أهلها مجازاً.

وأيًّا ما كان فاسم الإشارة مبتدأٌ، و«القرى» صِفته، والوصفُ بالجامد في باب الإشارة مشهورٌ، والخبرُ جملةُ «أهلكناهم». واختار أبو حيان كونَ «القرى» هو الخبرَ، والجملةُ حاليةٌ، كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ [النمل: ٥٢]، وجوِّز أن تكونَ «تلك» منصوباً بإضمار فعلٍ يفسِّره ما بعدَه، أي: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم[٣].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: حين ظلمهم كما فعل مشركو مكة ما حُكي عنهم من القبائح. وتركُ المفعول إما لتعميم الظلم، أو لتنزيله منزلةَ اللازم، أي: لمَّا فعلوا الظلمَ.

و«لمَّا» عند الجمهور ظرفٌ كما أشير إليه، وليس المرادُ به الحينَ المعيَّن الذي عملوا فيه الظلمَ، بل زمانٌ ممتدٌّ من ابتداءِ الظلم إلى آخرِه. وقال أبو الحسن ابن عصفور: هي حرف، ومما استَدلَّ به على حرفيَّتها هذه الآيةُ حيث قال: إنها تدلُّ على أنَّ علة الإهلاك الظلمُ، والظرفُ لا دلالةَ له على العلية[٤]. واعتُرِض بأنَّ

(١) القراءتان في البحر ٦/ ١٤٠.

(٢) البحر ٦/ ١٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البحر ٦/ ١٤٠.

قولَك: أهلكته وقتَ الظلم، يُشعِر بعليَّة الظلم وإن لم يدلَّ الظرفُ نفسُه على العليَّة. وقيل: لا مانعَ من أن تكون ظرفاً استعمل للتعليل.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ لهلاكِهم ﴿مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾وقتاً معيَّناً لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون، فـ «مَفعِل» الأول مصدرٌ والثاني اسم زمان، والتعيينُ من جهة أنَّ الموعد لا يكون إلا معيَّناً، وإلا فاسمُ الزمان مبهمٌ، والعكس ركيك.

وزعم بعضُهم أنَّ المهلِكَ على هذه القراءة ـ وهي قراءة حفصٍ في الرواية المشهورة عنه، أعني: القراءةَ بفتح الميم وكسر اللام[1] ـ من المصادر الشاذَّة كالمرجِع والمحيض. وعُلِّل ذلك بأنَّ المضارع يهلِكُ بكسر اللام، وقد صرَّحوا بأنَّ مجيء المصدر الميمي مكسوراً فيما عينُ مضارعِه مكسورةٌ شاذٌّ.

وتعقِّب بأنَّه قد صرَّح في «القاموس»[2] بأنَّ هلك جاء من باب: ضَرب ومَنَع وعَلِم، فكيف يتحقَّق الشذوذُ؟ فالحقُّ أنَّه مصدرٌ غيرُ شاذٍّ، وهو مضافٌ للفاعلِ ولذا فُسِّر بما سمعتَ.

وقيل: إنَّ «هلك» يكون لازماً ومتعديًا، فعن تميم: هلكني فلانٌ، فعلى تعديتِه يكون مضافاً للمفعول، وأنشد أبو عليٍّ في ذلك:

ومَـهْـمَـهٍ هـالـكِ مَـن تـعـرَّجـا[3]

أي: مُهلِكه. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يتعيَّن ذلك في البيت، بل قد ذهب بعضُ النحويين ألى إنَّ هالكاً فيه لازمٌ، وأنَّه من باب الصفة المشبَّهة، والأصل: هالكٍ مَن تعرجا، بجعل «مَن» فاعلاً لـ «هالك»، ثم أُضمِر في «هالك» ضميرُ «مهمه» وانتصب «مَن» على التشبيه بالمفعول، ثم أُضيف مِن نَصْبٍ. والصحيحُ جواز

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٢) مادة (هلك).

(٣) الحجة لأبي عليٍّ الفارسي ٥/ ١٥٦، والرجز للعجاج وبعده:

هـائـلـةٍ أهـوالُـه مَـن أدلـجـا

وهو في ديوانه ص٣٣٤. قوله: مهمه، المَهْمَهُ: الأرض القفر المستوية. والكلام وما بعده من البحر ٦/ ١٤٠.

استعمال الموصول في باب الصفة المشبهة، وقد ثبت في أشعار العرب، قال عمر بن أبي ربيعة:

أسيلاتُ أبدانٍ دِقاقٌ خُصُورها وثِيراتُ ما التفَّت عليها الملاحِفُ[(١)]

وقرأ حفص وهارون وحماد ويحيى عن أبي بكر: بفتح الميم واللام[(٢)].

وقراءة الجمهور بضمِّ الميم وفتح اللام[(٣)]، وهو مصدرٌ أيضاً. وجعلُه اسمَ مفعول على معنى: وجعلنا لمن أهلكناه منهم في الدنيا موعداً ننتقم فيه منه أشدَّ انتقامٍ وهو يومُ القيامة أو جهنم = لا يخفى ما فيه.

والظاهر أنَّ الآية استشهادٌ على ما فُعِل بقريش من تعيين الموعد ليعتبروا ولا يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم، وهي ترجِّح حملَ الموعد فيما سبق على يوم بدر، فتدبَّر والله تعالى أعلم وأخبر.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أمرٌ بصحبة الفقراء الذين انقطعوا لخدمة مولاهم، وفائدتُها منه عليه الصلاة والسلام تعود عليهم، وذلك لأنهم عُشَّاق الحضرة، وهو ﷺ مرآتُها وعرشُ تجلِّيها ومعدنُ أسرارها ومشرقُ أنوارها، فمتى رأوه ﷺ عاشوا، ومتى غاب عنهم كئبوا وطاشوا.

وأما صحبة الفقراء بالنسبة إلى غيره ﷺ ففائدتها تعود إلى مَن صَحِبهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسُهم، وقال عمرو المكيُّ: صحبةُ الصالحين والفقراء الصادقين عيشُ أهل الجنة، يتقلَّب معهم جليسُهم من الرضا إلى اليقين، ومن اليقين إلى الرضا.

---

(١) البحر ٦/ ١٤٠، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٦٤، وفيه: عليه، بدل: عليها. وقوله: أسيلات، الأسيل: الأملس المستوي، والطويل المسترسل. وقوله: وثيرات، الوثيرة: كثيرة اللحم. القاموس (أسل) و(وثر).

(٢) التيسير ص ١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن أبي بكر، وهي خلاف المشهور عن حفص كما سلف.

(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

ولأبي مدين من قصيدته المشهورة التي خمَّسها الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه:

ما لذَّة العيش إلا صحبةُ الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحَبْهمُ وتأدَّب في مجالسهم ... وخَلِّ حظَّك مهما قدَّموك ورا
واستغنِم الوقتَ واحضُر دائماً معهم ... واعلَمْ بأنَّ الرضا يختصُّ مَن حضرا
ولازِم الصمتَ إلا إن سُئلتَ فقُلْ: ... لا علمَ عندي وكُنْ بالجهل مستَتِرا

إلى أن قال:

وإن بدا منك عيبٌ فاعتَرِفْ وأقِمْ ... وجْهَ اعتذارِك عما فيك مِنك جَرا
وقل عُبَيْدُكمُ أولى بصفحكمُ ... فسَامِحُوا وخُذُوا بالرفق يا فُقَرا
هم بالتفضُّل أولى وهْو شيمتُهم ... فلا تخَفْ دركاً منهم ولا ضَرَرا

وعنى بهؤلاء السادةِ الصوفيةَ، وقد شاع إطلاقُ الفقراء عليهم؛ لأنَّ الغالبَ عليهم الفقرُ بالمعنى المعروف، وفقرُهم مقارنٌ للصلاح وبذلك يُمدَح الفقرُ، وأما إذا اقترن بالفساد فالعياذ بالله تعالى منه، فمتى سمعتَ الترغيبَ في مُجالسَة الفقير فاعلم أنَّ المرادَ منه الفقيرُ الصالح، والآثارُ متضافرةٌ في الترغيب في ذلك:

فعن ابن عُمر رضي الله عنهما موقوفاً: تواضعوا وجَالِسوا المساكينَ تكونوا من كبار عَبيد الله تعالى وتخرُجوا من الكِبْر[(١)].

وفي «الجامع»: «الجلوسُ مع الفقراء من التواضع، وهو من أفضل الجهاد»[(٢)].

وفي رواية: «أَحِبُّوا الفقراء وجالسوهم»[(٣)].

ومن فوائد مجالستهم أنَّ العبد يرى نعمةَ الله تعالى عليه، ويقنع باليسير من الدنيا، ويأمن في مجالستهم من المداهنة والتملُّق وتحمُّل المنِّ وغير ذلك، نعم إنَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٩٧ عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: غريب. وهو في مسند الفردوس (٢٢٦٢).

(٢) الجامع الصغير (٣٦٢٢) من حديث أنس، ورمز السيوطي لضعفه وعزاه لمسند الفردوس، وهو فيه (٢٦٤٦). وقال المناوي في فيض القدير ٣/ ٣٥٦: فيه محمد بن الحسين السلمي الصوفي، قال محمد بن يوسف القطان: كان يضع الحديث. اهـ.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٢ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وصحَّحه.

مجالستَهم خلافُ ما جُبِلت عليه النفس، ولذا عَظُم فضلُها، وقيل: إنَّ في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ دونَ: ودُم مع الذين.. إلخ إشارةً إلى ذلك، ولكن ذلك بالنسبة إلى غيره ﷺ، فإنَّ نفسَه الشريفةَ فُطِرت على أحسنِ فطرةٍ وطُبِعت على أحسنِ طبيعة.

وقال بعض أهل الأسرار: إنَّما قيل: «واصبر نفسك» دون: واصبر قلبَك، لأنَّ قلبه الشريفَ ﷺ كان مع الحقِّ، فأُمِر ﷺ بصحبة الفقراء جهراً بجهرٍ، واستخلَصَ سبحانه قلبَه له سرًّا بسرٍّ.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسةَ الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا، وهي مذمومة مع الميل إليهم والتواضُعِ لغناهم، وقد جاء في الحديث: «من تذلَّل لغنيٍّ لأجلِ غناه ذهب ثلثا دينه، فليتَّقِ الله تعالى في الثلث الآخَر»[1]. ومضارُّ مجالستِهم كثيرةٌ ـ ولا تخفى على مَن عَلِم فوائدَ مجالسة الفقراء ـ وأدناها ضرراً تحمُّل مَنِّهم، فإنَّه قلَّما يسلم الغنيُّ من المنِّ على جليسه الفقير ولو بمجرَّد المجالسة، وهو حملٌ لا يطاق، ومن نوابغ الزمخشريِّ: طعم الآلاء أحلى من المنِّ، وهي أمرُّ من الآلاء عند المنِّ[2]، وقال بعض الشعراء:

لنا صاحبٌ ما زال يُتْبِعُ بِرَّه ... بمَنٍّ وبَذْلُ المَنِّ بالبرِّ لا يسوَى
تركناه لا بُغضاً ولا عن ملالةٍ ... ولكنْ لأَجْلِ المنِّ يستعْمِل السلوى

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ نهيٌ عن إطاعة المحجوبِين الغافلين، وكانوا في القصة يريدون طردَ الفقراء وعدمَ مجالسة النبيِّ ﷺ لهم، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يطاع عند أهل الإشارة

---

(١) أخرجه البيهقي مرفوعاً في شعب الإيمان (١٠٠٤٤) عن أنس، و(١٠٠٤٥) عن ابن مسعود نحوه، وإسنادهما ضعيف كما نقل العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣١٦ عن السيوطي. وأخرج أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٨ والبيهقي في الشعب (١٠٠٤٣) عن وهب بن منبه قال: قرأت في التوراة... وذكر نحوه.

(٢) الكشاف ١/ ٣٩٣-٣٩٤. وقال خالد بن عبد الله الأزهري النحوي في موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب ص٢٧: أراد بالآلاء الأولى النِّعَم، وبالثانية الشجر المرَّ، وأراد بالمنّ الأولِ المذكورَ في قوله تعالى ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، وبالثاني تعديدَ النِّعَم.

الغافلُ المحجوب في كلِّ شيء فيه هوى النفس، وعَدُّوا من إطاعته التواضعَ له؛ فإنَّه يطلبه حالاً وإن لم يُفصِح به مقالاً.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ قالوا: فيه إشارةٌ إلى عدم كتم الحقِّ وإن أدَّى إلى إنكار المحجوبين وإعراض الجاهلين، وعَدَّ من ذلك في «أسرار القرآن» كشفَ الأسرار الإلهية وقال: إنَّ العاشق الصادقَ لا يبالي تهتُّكَ الأسرار عند الأغيار، ولا يخاف لومةَ لائم، ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارِهم، فإنَّ لذَّة العشق بذلك أتمُّ، ألا ترى قولَ القائل:

ألا فاسْقِني خمراً وقُل لي هي الخمرُ ... ولا تسقِني سرًّا إذا أمْكَنَ الجهرُ
وبُح باسمِ مَن أهوى ودَعْني من الكُنى ... فلا خيرَ في اللذَّات من دونها سترُ[(١)]

ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ المنصور عند الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم؛ فإنَّهم حافَظوا على كتم الأسرار عن الأغيار وأَوْصوا بذلك، ويكفي حجَّةً في هذا المطلب ما نُسب إلى زين العابدين ﵁ وهو:

إنِّي لأكتمُ من علمي جواهرَه ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصَّى قبلَه الحَسَنا
فربَّ جَوهرِ علمٍ لو أبُوح به ... لقيل لي أنتَ ممن يَعبُد الوثَنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبحَ ما يأتونه حَسَنا

نَعَمْ المغلوبُ ـ وكذا المأمورُ ـ معذورٌ، وعند الضرورة يباحُ المحظورُ، وما أحسن قولَ الشهاب القتيل[(٢)]:

وارحمتا للعاشقين تكلَّفوا ... سترَ المحبة، والهوى فضَّاحُ

---

(١) البيتان لأبي نواس، وهما في ديوانه ص٢٤٢، وزهر الآداب ١/ ٤١٣ بلفظ: من تهوى، بدل: من أهوى.

(٢) هو شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش السهروردي، فقيه شافعي أصولي، أديب شاعر حكيم، من تصانيفه: التلويحات في الحكمة والتنقيحات في أصول الفقه، والمعارج، والمقامات، ومن أشهر شعره قصيدته الحائية، المنقول من أبياتها هنا. معجم الأدباء ١٩/ ٣١٤.

بالسرِّ إن باحوا تُباحُ دماؤُهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإذا هُمُ كَتَموا يحدِّثُ عنهمُ عند الوُشاة المدمَعُ السحَّاحُ[1]

وما ذُكر أوَّلاً يكون مستمسكاً في الذبِّ عن الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه وأضرابِه، فإنَّهم لم يبالوا في كشف الحقائق التي يدَّعونها بكونه سبباً لضلالِ كثيرٍ من الناس وداعياً للإنكار عليهم، وقد استدلَّ بعضٌ بالآية في الردِّ عليهم بناءً على أنَّ المعنى الحقَّ ما يكون من جهته تعالى، وما جاؤوا به ليس من جهته سبحانه؛ لأنَّه لا تشهَدُ له آيةٌ ولا يصدِّقه حديثٌ ولا يؤيِّده أثرٌ.

وأجيب بأنَّ ذلك ليس إلَّا من الآيات والأحاديث إلا أنَّه لا يستنبط منها إلا بقوةٍ قدسيةٍ وأنوارٍ إلهيةٍ، فلا يلزم من عدم فهم المنكِرين لها من ذلك ـ لحرمانهم تلك القوَّةَ واحتجابِهم عن هاتيك الأنوار ـ عدمُ حقِّيَّتها، فكم من حقٍّ لم تصل إليه أفهامهم.

واعترض بأنَّه لو كان الأمر كذلك لظهر مثلُ تلك الحقائق في الصدر الأول، فإنَّ أربابَ القُوى القدسية والأنوارِ الإلهية فيه كثيرون، والحرصُ على إظهار الحقِّ أكثر.

وأجيب بأنَّه يحتمل أن يكونَ هناك مانعٌ أو عدمُ مقتضٍ لإظهارِ ما أظهر من الحقائق. وفيه نوعُ دغدغةٍ، ولعلَّه سيأتيك إن شاء الله تعالى ما عسى أن ينفعَك هنا.

وبالجملة أمرُ الشيخ الأكبر وأضرابِه قدَّس الله تعالى أسرارَهم فيما قالوا ودوَّنوا عندي مشكلٌ، لاسيما أمرُ الشيخ، فإنه أتى بالداهية الدهياء مع جلالة قدره التي لا تنكر، ولذا ترى كثيراً من الناس يُنكِرون عليه ويكِرُّون، وما ألطف ما قاله فرق جبين[2] العصابة الفاروقية والراقي في مراقي التنزُّلات الموصلية في قصيدته التي

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ٣١٧، وسلفت ١٣/ ٣٧٣.

(٢) في (م): جنين، وهو خطأ. والمراد به عبد الباقي بن سليمان العمري أفندي الموصلي، شاعر مؤرخ، ولي بالموصل وببغداد أعمالاً حكومية. توفي سنة (١٢٧٩هـ). له: الترياق الفاروقي ديوان شعره، ونزهة الدهر في تراجم علماء العصر، وغير ذلك. الأعلام ٣/ ٢٧١-٢٧٢.

عقَد إكسيرَها في مدح الكبريت الأحمر، فغدا شمساً في آفاق مدائح الشيخ الأكبر، وهو قوله:

يُنكِر المرءُ منه أمراً فيَنْهـا ه نُهاه فيُنكِر الإنكارا
تَنْثَني عنه ثم تُثْني عليه ألسُنٌ تشبه الصُّحاةَ سُكارَى

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قيل: هي إشارةٌ إلى أنَّهم يُحلَّون حقائقَ التوحيد الذاتيِّ ومعاني التجلِّيات العينية الأحدية، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم متصفون بصفاتٍ بهيجةٍ حسنةٍ نَضِرةٍ موجبةٍ للسرور، ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ الأحوال والمواهب، وعبِّر عنها بالسندس لكونها ألطف ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب، وعبِّر عنها بالإستبرق لكونها أكثف، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قيل: أي: أرائك الأسماء الإلهية.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلخ، فيه من تسلية الفقراء المتوكِّلين على الله تعالى وتنبيه الأغنياء المغرورين ما فيه.

وقال النيسابوريُّ: الرجلان هما النفسُ الكافرةُ والقلبُ المؤمنُ ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو النفسُ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ هما الهوى والدنيا ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ الشهواتِ ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ حبُّ الرياسة، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ من التمتعات البهيمية، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ من القوى البشرية والحواسِّ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ من أنواع الشهوات ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يُجاذِب النفسَ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ أي: ميلاً ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ من الأوصاف المذمومة ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهوى ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ قال ذلك غروراً بالله تعالى وكرمه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من العمر وحسن الاستعداد[1]. انتهى. وقد التزم هذا النمطَ في أكثر الآيات، ولا بدعَ فهو شأنُ كثيرٍ من المؤوِّلين.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ قال ابن عطاء: للطالبين له سبحانه لا للجنة ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ للمريدين.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قيل: هي المحبةُ الدائمة، والمعرفةُ الكاملة، والأنسُ بالله

(١) غرائب القرآن ١٥/ ١٣٦.

تعالى، والإخلاصُ في توحيده سبحانه، والانفرادُ به جلَّ وعلا عن غيره، فهي باقيةٌ للمتصف بها وصالحةٌ لا اعواجاجَ فيها، وهي خيرُ المنازل، وقد تفسَّر بما يعمُّها وغيرَها من الأعمال الخالصة والنيَّات الصادقة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال ابن عطاء: دلَّ سبحانه بهذا على إظهار جبروته وتمام قدرته وعظيمِ عزته ليتأهَّب العبدُ لذلك الموقفِ ويُصلح سريرتَه وعلانيتَه لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ إخبارٌ عن جميع بني آدم وإن كان المخاطب في قوله سبحانه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ إلخ بعضَهم، ذكر أنه يُعرَض كلُّ صنفٍ صفًّا، وقيل: الأنبياء عليهم السلام صفٌّ، والأولياءُ صفٌّ، وسائر المؤمنين صفٌّ، والمنافقون والكافرون صفٌّ، وهم آخر الصفوف، فيقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ على وصف الفطرة الأولية عاجزين منقطعين إليه سبحانه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: الكُتُب، فيوضع كتابُ الطاعات للزهَّاد والعبَّاد، وكتابُ الطاعات والمعاصي للعموم، وكتابُ المحبة والشوق والعشق للخصوص، ولبعضهم:

وأودعتُ الفؤادَ كتابَ شوقٍ سيُنشَر طيُّه يومَ الحساب

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ قال أبو حفص: أشدُّ آية في القرآن على قلبي هذه الآية.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: أي: ما أشهدتهم أسرارَ ذلك والدقائقَ المودَعةَ فيه، وإنما أشهدَ سبحانه ذلك أحِبَّاءَه وأولياءَه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ لأنه مظهر الأسماء المختلفة والعالَمُ الأصغرُ الذي انطوى فيه العالَم الأكبر. هذا، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو ابنُ عمران نبيُّ بني إسرائيل عليه السلام على الصحيح؛ فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائيُّ وجماعةٌ من طريق سعيد بن جبير قال: قلتُ

لابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ نوفاً البكاليَّ ابن فضالة(١) يزعم أنَّ موسى صاحبَ الخضر ليس موسى صاحبَ بني إسرائيل. فقال: كذب عدوُّ الله(٢). ثم ذكر حديثاً طويلاً فيه الإخبار عن رسول الله ﷺ بما هو نصٌّ في أنَّه موسى بني إسرائيل.

وإلى إنكار ذلك ذهب أيضاً أهلُ الكتاب، وتبعهم مَن تبعهم من المحدِّثين والمؤرِّخين، وزعموا أنَّ موسى هنا هو موسى بن ميشا ـ بالمعجمة ـ بن يوسف بن يعقوب. وقيل: موسى بن إفرائيم بن يوسف، وهو موسى الأول.

قيل: وإنما أنكره أهلُ الكتاب لإنكارهم تعلُّم النبيِّ من غيره.

وأجيب بالتزامِ أنَّ التعلُّم من نبيٍّ، ولا غضاضة في تعلم نبيٍّ من نبيٍّ.

وتعقِّب بأنَّه ولو التزموا ذلك وسلَّموا نبوَّةَ الخضر عليه السلام، لا يسلِّمون أنه موسى بن عمران؛ لأنَّهم لا تسمح أنفسُهم بالقول بتعلُّمِ نبيِّهم الأفضل ممن ليس مِثْلَه في الفضل، فإنَّ الخضر عليه السلام على القول بنبوته ـ بل القول برسالتِه ـ لم يبلغ درجةَ موسى عليه السلام.

وقال بعض المحقِّقين: ليس إنكارُهم لمجرَّد ذلك، بل لذلك ولقولهم: إنَّ موسى عليه السلام بعد الخروج من مصر حصل هو وقومُه في التِّيْه، وتُوفِّي فيه ولم يخرُج قومُه منه إلا بعدَ وفاته، والقصةُ تقتضي خروجَه عليه السلام من التِّيْه؛ لأنها لم تكن وهو في مصر بالإجماع، وتقتضي أيضاً الغيبةَ أياماً، ولو وقعت لعَلِمَها كثيرٌ

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصُّه: هو ابن امرأة كعب، وقيل: ابن أخيه، والمشهور الأول، وهو من أصحاب أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه. و«بكال» قيل: بضمِّ الباء، حيٌّ من اليمن. وعن المبرد: البِكالي ـ بكسر الباء ـ نسبة إلى بكالة من اليمن.
وفي شرح مسلم للنووي [١٥/ ١٣٦]: البكالي: ضبطه الجمهور بكسر الباء الموحدة، وتخفيف الكاف، ورواه بعضهم بفتحها وتشديد الكاف. قال القاضي: وهذا ضبط أكثر الشيوخ وأصحاب الحديث، والصواب الأول، وهو قول المحققين، وهو منسوب إلى بني بِكَال، بطنٍ من حمير. وقيل: من همدان. اهـ منه.
والقاضي المذكور ـ هو ـ عياض، وكلامه في إكمال المُعْلِم ٧/ ٣٦٤. وقال الذهبي في تاريخ الإسلام ٢/ ١٠١٣ عن نوف: كان يقص. وقال عنه ابن حجر في التقريب: مستور.

(٢) صحيح البخاري (١٢٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وسنن الترمذي (٣١٤٩)، والسنن الكبرى (١١٢٤٥)، وهو عند أحمد في مسنده (٢١١١٤).

من بني إسرائيل الذين كانوا معه، ولو عُلِمَت لنُقلَت؛ لتضمُّنها أمراً غريباً تتوافر الدواعي على نقله، فحيث لم يكن لم تكن.

وأجيب بأنَّ عدمَ سماحِ نفوسِهم بالقول بتعلُّم نبيِّهم عليه السلام ممن ليس مثله في الفضل أمرٌ لا يساعده العقلُ، وليس هو إلَّا كالحميَّة الجاهلية إذ لا يبعُد عقلاً تعلُّم الأفضل الأعلم شيئاً ليس عنده ممن هو دونه في الفضل والعلم. ومن الأمثال المشهورة: قد يوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط. وقالوا: قد يوجد في المفضول مالا يوجد في الفاضل.

وقال بعضُهم: لا مانعَ من أن يكونَ قد أخفى اللهُ سبحانه وتعالى علمَ المسائل التي تضمنَتْها القصةُ عن موسى عليه السلام على مزيد علمه وفضله لحكمةٍ، ولا يقدح ذلك في كونه أفضلَ وأعلمَ من الخضر عليه السلام. وليس بشيء كما لا يخفى.

وبأنه سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً القولُ بأنَّ القصةَ كانت بعد أن ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بني إسرائيل واستقرَّ بعد هلاك القبط، فلا إجماع على أنها لم تكن بمصر، نعم اليهودُ لا يقولون باستقرارهم في مصر بعد هلاك القبط، وعليه كثيرٌ منَّا، وحينئذٍ يقال: إنَّ عدمَ خروج موسى عليه السلام من التِّيْه غيرُ مسلَّم، وكذلك اقتضاءُ ذلك الغَيبةَ أياماً؛ لجواز أن يكونَ على وجهٍ خارقٍ للعادة كالتِّيْه الذي وقعوا فيه، وكنتق الجبل عليهم، وغيرِ ذلك من الخوارق التي وقعت فيهم.

وقد يقال: يجوز أن يكون عليه السلام خرج وغاب أياماً لكن لم يعلموا أنَّه عليه السلام ذهب لهذا الأمر، وظنُّوا أنَّه ذهب يُناجي ويتعبَّد، ولم يُوقِفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع؛ لعلمه بقصور فهمهم، فخاف من حطِّ قدره عندهم فهم القائلون: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] و﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] وأوصى فتاه بكتم ذلك عنهم أيضاً. ويجوز أن يكونَ غاب عليه السلام وعَلِموا حقيقة غيبته لكن لم يتناقلوها جيلاً بعد جيلٍ لتوهُّم أنَّ فيها شيئاً مما يحطُّ من قدره الشريفِ عليه السلام، فلا زالت نَقَلَتُها تقِلُّ حتى هلكوا في وقتِ بُخْتنصَّر كما هلك أكثرُ حَمَلَة التوراة. ويجوز أن يكونَ قد بقي منهم أقلُّ قليلٍ إلى زمن

نبيِّنا ﷺ، فتواصوا على كتمها وإنكارِها ليوقعوا الشكَّ في قلوب ضعفاء المسلمين، ثم هلك ذلك القليلُ فلم تُنقَل عنه.

ولا يخفى أنَّ باب الاحتمال واسعٌ، وبالجملة لا يُبالى بإنكارهم بعد جواز الوُقوع عقلاً وإخبارِ الله تعالى به ورسولِه ﷺ، فإن الآيةَ ظاهرةٌ في ذلك، ويقرُب من هذا الإنكار إنكارُ النصارى تكلُّمَ عيسى عليه السلام في المهد، وقد قدَّمنا أنه لا يلتفَتُ إليه بعد إخبار الله تعالى به[1]، فعليك بكتاب الله تعالى ودَعْ عنك الوساوسَ.

و«إذ» نصبٌ على المفعولية بـ «اذكر» محذوفاً، والمراد: قل: قال موسى ﴿لِفَتَـٰنُهُ﴾ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام، فإنه كان يخدمه ويتعلَّم منه، ولذا أضيف إليه، والعربُ تسمِّي الخادمَ فتًى، لأنَّ الخَدَمَ أكثرُ ما يكونون في سنِّ الفتوة، وكان فيما يقال ابنَ أخت موسى عليه السلام. وقيل: هو أخو يوشع عليه السلام، وأنكر اليهود أن يكونَ له أخٌ.

وقيل: لعبده، فالإضافة للملك، وأطلق على العبد فتًى لِمَا في الحديث الصحيح: «ليقُل أحدكم: فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدي وأمتي»[2]. وهو من آداب الشريعة، وليس إطلاقُ ذلك بمكروهٍ ـ خلافاً لبعضٍ ـ بل خلاف الأولى.

وهذا القولُ مخالفٌ للمشهور، وحَكَم النوويُّ بأنَّه قولٌ باطلٌ[3]. وفي حلِّ تملُّك النفس في بني إسرائيل كلامٌ، ومثله في البطلان القول الثاني لمنافاته كلَّ الأخبار الصحيحة.

﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ من «برِحَ» الناقص، كزال يزال، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبرُ اعتماداً على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجُّه إلى السفر، واتكالاً على ما يعقبه من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ إذ الغايةُ لابدَّ لها من مُغيًّا، والمناسبُ لها هُنا السيرُ، وفيما بعدُ أيضاً ما يدلُّ على ذلك، وحذفُ الخبرِ فيها قليلٌ كما ذكره الرضي، ومنه قول الفرزدق:

---

(١) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٩.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١٣٨.

فما بَرِحُوا حتى تهادَتْ نِساؤُهم ببطحاءِ ذي قارٍ عِيابَ اللَّطَائِمِ[1]

وقال أبو حيان: نصَّ أصحابُنا على أنَّ حذفَ خبرِ «كان» وأخواتِها لا يجوز وإن دلَّ الدليلُ على حذفه إلا ما جاء في الشعر من قوله:

لهفي عليك كلهفةٍ من خائفٍ يبغي جِوارَك حين ليس مُجِيرُ

أي: حينَ ليس في الدنيا[2].

وجوَّز الزمخشريّ وأبو البقاء أن يكون الأصل: لا يبرَحُ سيري حتى أبلغَ، فالخبرُ متعلَّقُ «حتى» مع مجرورِها، فحُذف المضافُ[3] وهو سير، فانقلب الضمير من البروز والجرِّ إلى الرفع والاستتار، وانقلب الفعل من الغيبة إلى التكلم.

قيل: وكذا الفعلُ الواقعُ في الخبر ـ وهو «أَبْلُغَ» ـ كان أصله: يَبلُغ، ليحصل الربط، والإسناد مجازيٌّ، وإلا يخلو الخبر من الرابط إلا أن يقدَّر: حتى أبلغَ به، أو يقال: إنَّ الضميرَ المستترَ في «كائن» يكفي للربط، أو أنَّ وجودَ الربط بعد التغيير صورةً يكفي فيه وإن كان المقدَّر في قوَّة المذكور.

وعندي لا لطف في هذا الوجه وإن استلطفه الزمخشريُّ. وجوَّز أيضاً أن يكون «أَبْرَحُ» من «بَرحَ» التام كزال يزول، فلا يحتاج إلى خبر[4].

نعم قيل: لابدَّ من تقدير مفعولٍ ليتمَّ المعنى، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

---

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ٢١٧. وقوله: عِياب: واحدُ عَيْبةٍ، وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها. واللطائم: واحد لطِيمَة: المسك. والبيت في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٠، والبحر ٦/ ١٤٣.

(٢) البحر ٦/ ١٤٣، والبيت لعبد الله بن أيوب التيمي في رثاء منصور بن زياد أحد وجوه الدولة العباسية، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨، وعزاه البصري في الحماسة البصرية ١/ ٢٣٠ للشمردل الليثي، وجعله أبو هلال في ديوان المعاني ٢/ ١٧٤ لرجلٍ يرثي عمر بن عبد العزيز، والشطر الثاني فيه: كنتَ المجيرَ له وليس مجير.

(٣) في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/ ١١٥ـ وعنه نقل المصنف ـ: المضاف إليه. والمثبت من الكشاف ٢/ ٤٩٠، والإملاء ٣/ ٥٢٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٩٠.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه يحتاج إلى صحَّة نقل[(١)].

والمجمعُ: الملتقى، وهو اسمُ مكانٍ. وقيل: مصدرٌ، وليس بذاك.

والبحران: بحر فارس والروم، كما رُوي عن مجاهد وقتادة وغيرهما[(٢)]، وملتقاهما مما يلي المشرق، ولعلَّ المرادَ مكانٌ يقرُب فيه التقاؤُهما، وإلا فهما لا يلتقيان إلا في البحر المحيط وهما شعبتان منه.

وذكر أبو حيان أنَّ مجمع البحرين على ما يقتضيه كلام ابن عطية مما يلي برَّ الشام[(٣)].

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب القرظي: هو عند طنجة، حيثُ يجتمع البحر المحيط والبحرُ الخارج منه من دبور إلى صبا. وعن أبيٍّ أنه بإفريقية[(٤)].

وقيل: البحران: الكُرُّ والرسُّ بأرمينية، ورُوي ذلك عن السديِّ.

وقيل: بحر القلزم وبحر الأزرق.

وقيل: هما بحرٌ ملحٌ وبحرٌ عذبٌ، وملتقاهما في الجزيرة الخضراء في جهة المغرب.

وقيل: هما مجاز عن موسى والخضر عليهما السلام لأنهما بحرا علم، والمراد بملتقاهما مكانٌ يتفق فيه اجتماعُهما. وهو تأويلٌ صوفيٌّ والسياق ينبو عنه، وكذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ إذ الظاهر عليه أن يقال: حتى يجتمع البحران، مثلاً.

وقرأ الضحاك وعبد الله بن مسلم بن يسار: «مجمِع» بكسر الميم الثانية، والنضر عن ابن مسلم: «مِجمِع» بالكسر لكلا الحرفين[(٥)]، وهو شاذٌّ على

---

(١) البحر ٦/ ١٤٤.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٩، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً.

(٣) البحر ٦/ ١٤٤، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، ولفظه: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من رواء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي برّ الشام.

(٤) البحر ٦/ ١٤٤، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري ١٥/ ٣٠٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٠، والبحر ٦/ ١٤٤. وعبد الله بن مسلم بن يسار =

القراءتين؛ لأنَّ قياسَ اسم المكانِ والزمانِ من فَعَل يفْعَل ـ بفتح العين فيهما ـ الفتحُ كما في قراءة الجمهور.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ عطفٌ على «أبلغ»، و«أو» لأحد الشيئين، والمعنى: حتى يقع إما بلوغي المجمعَ أو مُضِيِّي حُقُباً، أي: سيري زماناً طويلاً.

وجوِّز أن تكونَ «أو» بمعنى «إلا»، والفعلُ منصوبٌ بعدها بـ «أنْ» مقدَّرةً، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: لازِلتُ أسير في كلِّ حالٍ حتى أبلغَ إلا أن أمضي زماناً أتيقَّنُ معه فواتَ المجمع.

ونقل أبو حيان جوازَ أن تكون بمعنى «إلى»[(١)]، وليس بشيء؛ لأنه يقتضي جزمَه ببلوغ المجمع بعد سيره حُقُباً، وليس بمرادٍ.

والحُقُب بضمتين ـ ويقال بضمٍّ فسكونٍ وبذلك قرأ الضحاك[(٢)] ـ اسمٌ مفردٌ، وجمعُه كما «القاموس»: أَحْقُب وأَحْقَاب. وفي «الصحاح» أن الحُقْب بالضم يجمع على حِقاب مثل قُفٍّ وقِفَاف[(٣)].

وهو على ما روي عن ابن عباس وجماعة من اللغويين الدهرُ[(٤)].

وروي عن ابن عمرو[(٥)] وأبي هريرة أنه ثمانون سنة، وعن الحسن أنَّه سبعون. وقال الفراء: إنه سنةٌ بلغة قريش[(٦)].

وقال أبو حيان: الحُقُب: السنون، واحدها: حِقْبةٌ، قال الشاعر:

= هو مولى طلحة بن عبيد الله ﷺ، كما في طبقات ابن سعد ٧/ ٢٣٩، واسمه كما في مطبوع القراءات الشاذة: عبد الله بن عبيد بن مسلم، ولم نقف له على ترجمة وافية.

(١) البحر ٦/ ١٤٥.

(٢) البحر ٦/ ١٤٥، وهي قراءة الحسن كما في القراءات الشاذة ص٨١.

(٣) القاموس والصحاح (حقب).

(٤) أخرجه عن ابن عباس الطبري في تفسيره ١٥/ ٣١١.

(٥) في الأصل و(م): ابن عُمر. وكذا في النكت والعيون ٣/ ٣٢٢، والمثبت من تفسير الطبري ١٥/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٨، والبحر ٦/ ١٤٤، والكلام منه.

(٦) نقله المصنف من البحر ٦/ ١٤٤، وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٤: قيس، بدل: قريش. وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٢٢: إنه سنة بلغة قيس، قاله الكلبي.

فإن تَنْأَ عنها حِقْبةً لا تُلاقِها فإنَّك مما أحدَثْت بالمجرَّبِ[(١)]

وما ذكره من أنَّ الحُقُبَ السنون ذكره غير واحد من اللغويين، لكنَّ قولَه: واحدُها: حِقْبة، فيه نظرٌ؛ لأنَّ ظاهرَ كلامهم أنَّه اسمٌ مفردٌ، وقد نصَّ على ذلك الخفاجيُّ[(٢)]، ولأنَّ جمعَ الحقبةِ[(٣)] حِقَب بكسرٍ ففتح، قال في «القاموس»: الحِقْبةُ ـ بالكسر ـ من الدهر مدَّةٌ لا وقتَ لها، والسَّنَةُ، وجمعُه: حِقَبٌ كعِنَبٍ، وحُقُوب كحبوب[(٤)]. واقتصر الراغب والجوهريُ على الأول[(٥)].

وكان منشأُ عزيمة موسى عليه السلام على ما ذُكر ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبيٍّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردَّ العلمَ إليه سبحانه، فأوحى الله تعالى إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك» الحديث[(٦)].

وفي رواية أخرى عنه، عن أبي أيضاً، عن رسول الله ﷺ: «أنَّ موسى بني إسرائيل سأل ربَّه فقال: أي ربِّ، إن كان في عبادك أحدٌ هو أعلم مني فدُلَّني عليه؟ فقال له: نعم في عبادي مَن هو أعلم منك. ثم نعت له مكانَه وأذِن له في لُقِيِّه»[(٧)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب وابن عساكر من طريق هارون عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربَّه سبحانه فقال: أي ربِّ، أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيُّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقِّ ولا يتبع الهوى. قال: فأيُّ عبادِك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه، عسى أن يصيبَ كلمةً تهديه إلى هدًى أو تردَّه عن ردًى. قال: وكان حدَّث موسى نفسَه أنه ليس أحدٌ أعلمَ منه، فلمَّا أن قيل له:

---

(١) البحر ٦/ ١٤١، والبيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٤٢.
(٢) في حاشيته ٥/ ١١٦.
(٣) في الأصل و(م): ولأن الحقبة جمع، والصواب ما أثبتناه.
(٤) القاموس (حقب).
(٥) الصحاح والمفردات (حقب).
(٦) صحيح البخاري (٣٤٠١)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).
(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٢٦.

الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه، قال: ياربِّ، فهل في الأرض أحدٌ أعلمُ مني؟ قال: نعم. قال: فأين هو؟ قيل له: عند الصخرة التي عندها العين. فخرج موسى يطلُبه حتى كان ما ذكر الله تعالى(١).

ثم إنَّ هذه الأخبارَ لا دلالةَ فيها على وقوع القصة في مصر أو في غيرها، نعم جاء في بعض الروايات التصريحُ بكونها في مصر؛ فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لمَّا ظهر موسى عليه السلام وقومُه على مصر أنزل قومَه بمصر، فلمَّا استقرت بهم البلد أنزل الله تعالى أن: ذكِّرهم بأيام الله تعالى، فخطب قومَه فذكَر ما آتاهم اللهُ تعالى من الخير والنعم، وذكَّرهم إذ أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وذكَّرهم هلاكَ عدوِّهم وما استخلفهم الله سبحانه في الأرض، وقال: كلَّم الله تعالى نبيَّكم تكليماً، واصطفاني لنفسه، وأنزل عليَّ محبةً منه، وآتاكم من كلِّ شيءٍ ما سألتموه، فنبيُّكم أفضلُ أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراةَ. فلم يترك نعمةً أنعمها الله تعالى عليهم إلا عرَّفهم إياها، فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: فهل على الأرض أعلمُ منك يا نبيَّ الله؟ قال: لا. فبعث الله جبريلَ عليه السلام إلى موسى عليه السلام فقال: إنَّ الله تعالى يقول: وما يُدرِيك أين أضع علمي؟ بلى، إنَّ على ساحل البحر رجلاً أعلم منك. ثم كان ما قصَّ الله سبحانه(٢).

وأنكر ذلك ابن عطية(٣) فقال: ما مرَّ بي(٤) قطُّ أنَّ موسى عليه السلام أنزل قومَه بمصر إلا في هذا الكلام، وما أراه يصحُّ، بل المتضافر أنَّ موسى عليه السلام تُوفِّي في أرضِ التِّيه قبل فتح ديار الجبارين. اهـ.

وما ذكره من عدم إنزال موسى عليه السلام قومَه بمصر هو الأقربُ إلى القبول عندي وإن تعقَّب الخفاجيُّ(٥) كلامَه بعد نقله بقوله: فيه نظر. ثم إنَّ الأخبارَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٢١، وتاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١١، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣٠، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٣، وإسناده ضعيف.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١٤٤.

(٤) في الأصل و(م) والبحر: ما يُرى، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في حاشيته ٦/ ١١٦.

المذكورةَ ظاهرةٌ في أنَّ العبدَ الذي أُرشِد إليه موسى عليه السلام كان أعلم منه، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فذهبا يمشيان إلى مجمع البحرين فلمَّا بلغا ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: البحرين، والأصلُ في «بين» النصبُ على الظرفية. وأُخرج عن ذلك بجرِّه بالإضافة[1] اتساعاً، والمرادُ: مجمعَهما، وقيل: مجمعاً في وسطهما، فيكون كالتفصيل لمجمع البحرين، وذكر أنَّ هذا يناسب تفسيرَ المجمع بطنجة أو إفريقية، إذ يراد بالمجمع مُتشعَّبُ بحر فارس[2] والروم من المحيط، وهو هناك.

وقيل: «بين» اسمٌ بمعنى الوصل. وتعقِّب بأنَّ فيه ركاكةً إذ لا حُسنَ في قولك: مجمعَ وصلهما. وقيل: إنَّ فيه مزيد تأكيدٍ، كقولهم: جَدَّ جِدُّه.

وجوِّز أن يكونَ بمعنى الافتراق، أي: موضع اجتماع افتراق البحرين، أي: البحرين المفترقين.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ التثنية على الاحتمالين للبحرين، وقال الخفاجي: يحتمل على احتمال أن يكونَ بمعنى الافتراق عودُه لموسى والخضر عليهما السلام، أي: وصلا إلى موضعِ وعد اجتماع شملهما فيه، وكذا إذا كان بمعنى الوصل[3]. انتهى. وفيه ما لا يخفى.

و«مجمع» على سائر الاحتمالات اسمُ مكان، واحتمال المصدرية هنا مثله فيما تقدَّم.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانُه أمارةَ وجدانِ المطلوب، فقد صحَّ أنَّ الله تعالى حين قال لموسى عليه السلام: «إنَّ لي بمجمع البحرين مَن هو أعلم. قال موسى: ياربِّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتلٍ،

---

(١) ورد في هامش الأصل و(م): والإضافة بيانية، أو لاميةٌ. اهـ منه.

(٢) في الأصل: إذ يراد بالجمع منشعب مجمع بحرِ فارس... والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ١١٦، والكلام منه.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ١١٧.

فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ. فأخذَ حوتاً وجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه حتى إذا أتيا الصخرةَ، وكانت عند مجمع البحرين، وضعا رؤسَهما فناما، واضطرب الحوتُ في المكتل فخرج منه فسقط في البحر»[١].

والظاهر نسبة النسيان إليهما جميعاً، وإليه ذهب الجمهور، والكلام على تقدير مضافٍ، أي: نسيا حالَ حوتهما، إلا أنَّ الحال الذي نسيه كلٌّ منهما مختلفٌ، فالحال الذي نسيه موسى عليه السلام كونه باقياً في المكتل أو مفقوداً، والحال الذي نسيه يوشع عليه السلام ما رأى من حياته ووقوعه في البحر، وهذا قولٌ بأنَّ يوشع شاهد حياته، وفيه خبرٌ صحيح؛ ففي حديثٍ رواه الشيخان وغيرهما «أنَّ الله تعالى قال لموسى: خذ نوناً ميِّتاً فهو حيثُ يُنفَخ فيه الروحُ. فأخذ ذلك فجعله في مكتلٍ فقال لفتاه: لا أكلِّفك إلا أن تخبرَني بحيث يفارِقُك الحوتُ. قال: ما كلَّفتَ كثيراً. فبينما هما في ظلِّ صخرةٍ إذ تضرَّب[٢] الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه. حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره»[٣].

وفي حديثٍ رواه مسلم وغيره[٤]: أنَّ الله تعالى قال له: «آيةُ ذلك أن تزوَّد حوتاً مالحاً[٥] فهو حيث تفقده. ففعل حتى إذا انتهيا إلى الصخرة انطلق موسى يطلُب، ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة، فاضطرب ودخل البحرَ، فقال فتاه: إذا جاء نبيُّ الله تعالى حدَّثتُه، فأنساه الشيطان».

وزعم بعضٌ أنَّ الناسيَ هو الفتى لا غير، نسي أن يُخبرَ موسى عليه السلام بأمر الحوت، ووجّه نسبة النسيان إليهما بأنَّ الشيء قد يُنسَب إلى الجماعة وإن كان الذي

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ، وهو عند البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٠).

(٢) وقع في (م): إذا اضطرب.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب. ولم نقف عليه بهذا اللفظ في صحيح مسلم.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، ومسند أحمد (٢١١١٨)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

(٥) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصُّه: في رواية: مُملحاً، وفي أخرى: مليحاً. اهـ. والرواية الثانية أخرجها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١٣، والأُولى لم نقف عليها، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٣٢ بلفظ: «مملوحة».

فعله واحداً منهم، وما ذكر هنا نظيرُ: نسي القومُ زادَهم، إذا نسيه متعهِّدُ أمرهم. وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ أي: نسي أحدُهما، والمرادُ به الفتى. وهو كما ترى.

وسببُ حياة هذا الحوت على ما في بعض الروايات عن ابن عباس أنَّه كان عند الصخرة ماءُ الحياة، مَن شَرِبَ منه خُلِّدَ، ولا يقارِبه ميِّتٌ إلا حَيِيَ، فأصاب شيءٌ منه الحوتَ فحَيِيَ(١).

ورُوي أنَّ يوشع عليه السلام توضَّأ من ذلك الماء، فانتضح شيءٌ منه على الحوت فعاش. وقيل: إنَّه لم يُصِبه سوى رَوْح الماء وبَرْده، فعاش بإذن الله تعالى.

وذِكْرُ هذا الماء، وأنَّه ما أصاب منه شيءٌ إلا حَيِيَ، وأنَّ الحوتَ أصاب منه، جاء في صحيح البخاريِّ فيما يتعلَّقُ بسورة الكهف أيضاً(٢)، لكن ليس فيه أنَّه مَن شَرِب منه خُلِّد، كما في بعض الروايات السابقة. ويشكل على هذا البعض أنَّه رُوي أنَّ يوشع شَرِب منه أيضاً مع أنَّه لم يخلَّد(٣)، اللهم إلا أن يقال: إنَّ هذا لا يصحُّ. والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ هذا الحوتَ كان على ما سمعتَ فيما مرَّ مالحاً، وفي روايةٍ: مشويًّا. وفي بعضٍ أنَّه كان في جملة ما تزوَّداه، وكانا يُصيبان منه عندَ العشاء والغداء، فأحياه الله تعالى وقد أكلا نصفَه.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ مسلكاً كالسَّرَب وهو النَّفَقُ؛ فقد صحَّ من حديث الشيخين والترمذيِّ والنسائيِّ وغيرِهم أنَّ الله تعالى أمسَكَ عن الحوت جِرْيَةَ الماءِ فصار عليه مثلُ الطاق(٤)، والمراد به البناءُ المقوَّس كالقنطرة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٢٦-٣٢٧ من حديث ابن عباس عن أبيٍّ، وفي إسناده الحسن بن عمارة، وهو متروك. وينظر التعليق الآتي.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وهذه زيادة عند البخاري أنكرها الداودي فيما نقل عنه ابن حجر في الفتح ٨/ ٤١٥. وينظر كلامه ثمة.

(٣) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٣ لابن عساكر والروياني.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن الحبر: جعل الحوتُ لا يمسُّ شيئاً من البحر إلَّا يَبِس حتى يكون صخرةً[١]. وهذا ـ وكذا ما سبق ـ من الأمور الخارقة للعادة التي يُظهِرها سبحانه على مَن شاء من أنبيائه وأوليائه.

ونقل الدميريُّ بقاءَ أثر الخارق الأول، قال: قال أبو حامد الأندلسيُّ: رأيتُ سمكةً بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي تزوَّده موسى وفتاه عليهما السلام وأكلا منه، وهي سمكةٌ طولُها أكثر من ذراع وعرضُها شبرٌ واحدٌ، [في] جنبيها شوكٌ وعظامٌ وجلدٌ رقيقٌ على أحشائها، ولها عينٌ واحدةٌ ورأسُها نصفُ رأسٍ، مَن رآها من هذا الجانب استقذَرَها وحسب أنها ماكولةٌ ميتةٌ، ونصفُها الآخَرُ صحيحٌ، والناسُ يتبرَّكون بها ويُهدُونها إلى الأماكن البعيدة[٢]. انتهى.

وقال أبو شجاع في كتاب الطبري: أتيتُ به فرأيتُه فإذا هو شقُّ حوتٍ، وليس له إلا عين واحدة[٣].

وقال ابن عطية: وأنا رأيتُه أيضاً، وعلى شقِّه قشرةٌ رقيقةٌ ليس تحتَها شوكة[٤]. وفيه مخالفةٌ لِمَا في كلام أبي حامد، وأنا سألتُ كثيراً من راكبي البحار ومتتبِّعي عجائب الآثار، فلم يذكروا أنَّهم رأوا ذلك، ولا أُهدي إليهم في مملكةٍ من الممالك، فلعلَّ أمرَه ـ إن صحَّ كلٌّ من الإثبات والنفي ـ صار اليومَ كالعنقاء، كانت فعُدِمت، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

والفاءُ على ما يقتضيه كلامُهم فصيحةٌ، أي: فحَيي وسقط في البحر فاتخذ، وقدَّر بعضُهم المعطوفَ عليه الذي تُفصِح عنه الفاءُ بالواو على خلافِ المألوف؛ ليدفع به الاعتراضَ على كون الحال الذي نَسِيه يوشع ما رأى من حياته ووقوعه في البحر بأنَّ الفاء تُؤذِن بأنَّ نسيانَه عليه السلام كان قبلَ حياته ووقوعِه في البحر واتخاذِه سرباً، فلا يصحُّ اعتبارُ ذلك في الحال المنسيِّ.

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٣. وإسناده ضعيف.

(٢) حياة الحيوان للدميري ١/ ٢٦٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٣١٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩، ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٤٦.

وأجيب بأنَّ المعتبرَ في الحال هو الحياةُ والوقوعُ في البحر أنفسُهما من غير اعتبارِ أمرٍ آخر، والواقعُ بعدهما من حيث ترتَّبَ عليهما الاتخاذُ المذكور، فهما من حيث أنفُسُهما متقدِّمان على النسيان، ومن حيث ترتُّبُ الاتخاذ متأخران، وهما من هذه الحيثية معطوفان على «نسيا» بالفاء التعقيبية. ولا يخفى أنه سيأتي في الجواب ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يأبى هذا الجوابَ، إلا أن يُلتزَم فيه خلافُ المشهور بين الأصحاب، فتدبَّر.

وانتصابُ «سرباً» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اتخذ»، و«في البحر» حالٌ منه، ولو تأخَّر كان صفةً، أو من السبيل، ويجوز أن يتعلَّق بـ «اتخذ»، و«في» في جميع ذلك ظرفيةٌ. وربما يُتوهَّم من كلام ابن زيد ـ حيث قال: إنما اتخذ سبيلَه في البرِّ حتى وصل إلى البحر فعام على العادة[1] ـ أنَّها تعليليةٌ، مثلها في: «أنَّ امرأةً دخلت النارَ في هرَّةٍ»[2]، فكأنَّه قيل: فاتخذ سبيله في البر سرباً لأجل وصوله إلى البحر. ووافقه في كون اتخاذ السَّرَب في البرِّ قومٌ، وزعموا أنَّه صَادَفَ في طريقه في البرِّ حجراً فنقبه، ولا يخفى أنَّ القولَ بذلك خلافُ ما ورد في الصحيح مما سمعتَ، والآيةُ لا تكاد تساعده.

وجوِّز أن يكون مفعولَا «اتخذ»: «سبيله» و«في البحر»، و«سَرَباً» حالٌ من السبيل. وليس بذاك.

وقيل: حالٌ من فاعل «اتخذ» وهو بمعنى التصرُّف والجولان، من قولهم: فحلٌ ساربٌ، أي: مهمَلٌ يرعى حيثُ شاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وهو في تأويل الوصف، أي: اتخذ ذلك في البحر متصرِّفاً. ولا يخفى أنه نظير سابقه.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: ما فيه المقصد من مجمع البحرين، صحَّ «أنَّهما انطلقا بقيةَ يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغدُ وارتفع النهارُ أحسَّ موسى عليه السلام بالجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾»[3]. وهو الطعام الذي يؤكل أولَ النهار،

(١) البحر ٦/ ١٤٥. والعوم: السباحة، وبابه قال.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ ﷺ.

والمراد به الحوتُ على ما يُنبئ عنه ظاهرُ الجواب، وقيل: سارا ليلتَهما إلى الغد فقال ذلك.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: تعباً وإعياءً، و«هذا» إشارةٌ إلى سفرهم الذي هم ملتبسون به ولكن باعتبار بعضِ أجزائه، فقد صحَّ أنه ﷺ قال: «لم يجد موسى شيئاً من النصب حتى جاوَزَ المكانَ الذي أُمِر به»[(١)].

وذُكر أنه يُفهم من الفحوى والتخصيصِ بالذكر أنَّه لم ينصَب في سائر أسفاره، والحكمةُ في حصول الجوع والتَّعَب له حين جاوز أن يطلُبَ الغداءَ فيذكر الحوتَ فيرجعَ إلى حيث يجتمع بمراده. وعن أبي بكر غالب بن عطية والد أبي [محمد][(٢)] عبد الحق المفسِّر قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعامٍ، ولمَّا مشى إلى بَشَرٍ لحقه الجوعُ في بعض يوم[(٣)].

والجملة في محلِّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء: إمَّا باعتبارِ أنَّ النصَبَ إنما يعتري بسبب الضَّعف الناشئ عن الجوع، وإمَّا باعتبارِ ما في أثناء التغذِّي من استراحةٍ ما.

وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: «نُصُباً» بضمتين[(٤)]، قال صاحب «اللوامح»: وهي إحدى اللغات الأربع في هذه الكلمة.

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل و(م) ومطبوع البحر ٦/ ١٤٦ وعنه نقل المصنف، والمثبت هو الصواب، ينظر تاريخ الإسلام ١١/ ٧٨٧، وطبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٦٠، وهذا الكلام ذكره أبو محمد ابن عطية عن أبيه في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩.
وأبو بكر غالب هو ابن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان حافظاً للحديث، وعارفاً بأسماء الرجال، وكان ديِّناً فاضلاً. كفَّ بصره في آخر عمره، توفي (٥١٨ هـ). تاريخ الإسلام للذهبي ١١/ ٢٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩، وأبو الفضل الجوهري هو عبد الله بن الحسين المصري الواعظ، روى عن أبي سعد الماليني، وروى عنه أبو عبد الله الحميدي. توفي سنة (٤٨٠هـ). تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ٤٥٣-٤٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٠، والبحر ٦/ ١٤٥. وزاد ابن خالويه أنه قرأ: «سَفْرِنا» بإسكان الفاء. وعبد الله بن عبيد هو أبو الهاشم الليثي المكي، تابعي جليل. مات سنة (١١٣ هـ). غاية النهاية ١/ ٤٣٠.

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما صنع الفتى حين قال له موسى عليه السلام ما قال؟ فقيل: قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وجاء في بعض الروايات الصحيحة أنَّ موسى عليه السلام حين قال لفتاه: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا» قال: قد قطع الله عنك النصب[1]، وعلى هذا فيحتمل أنَّه بعد أن قال ذلك قال: «أرأيت» إلخ.

قال شيخ الإسلام: وذكر الإواء إلى الصخرة مع أنَّ المذكور فيما سبق بلوغُ مجمع البحرين؛ لزيادة تعيين محلِّ الحادثة فإنَّ المجمع محلٌّ متَّسعٌ لا يمكن تحقيقُ المراد بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العذر فإنَّ الإواء إليها والنومَ عندها مما يؤدِّي إلى النسيان عادةً[2]. انتهى.

وهذا الأخير إنَّما يتمُّ على بعض الروايات من أنَّهما ناما عند الصخرة[3].

وذُكر أنَّ هذه الصخرةَ قريبةٌ من نهر الزيت وهو نهرٌ مَعينٌ، عنده كثيرٌ من شجر الزيتون.

و«أرأيت» قيل: بمعنى: أَخبِرْني، وتعقَّبه أبو حيان بأنَّها إذا كانت كذلك فلا بدَّ لها من أمرين: كونُ الاسم المستخبَر عنه معها، ولزومُ الجملة التي بعدها الاستفهام، وهما مفقودان هنا، ونقل هو وناظر الجيش في «شرح التسهيل» عن أبي الحسن الأخفش أنَّه يرى أنَّ «أرأيت» إذا لم يُر بعدها منصوبٌ ولا استفهامٌ، بل جملةٌ مصدَّرةٌ بالفاء كما هنا، مُخْرَجةٌ عن بابها ومضمَّنةٌ معنى «أمَّا» أو «تَنبَّهْ»، فالفاءُ جوابُها لا جوابُ «إذ»؛ لأنَّها لا تُجازَى إلا مقرونةً بـ«ما» بلا خلاف، فالمعنى: أمَّا ـ أو تنبَّهْ ـ إذ أوينا إلى الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

وقال شيخُ الإسلام: الرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامَّة والمشاهدة الكاملة، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جعل فقدانَه علامةً لوجدان

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رضي الله عنه.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣.
(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رضي الله عنه.

المطلوب، وهذا أسلوبٌ معتادٌ بين الناس، يقول أحدُهم لصاحبه إذا نابه خطب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويلَه وتعجيبَ صاحبه منه وأنَّه مما لا يعهَد وقوعُه، لا استخبارَه عن ذلك كما قيل. والمفعولُ محذوفٌ اعتماداً على ما يدلُّ عليه من قوله: «فإني» إلخ، وفيه تأكيدٌ للتعجيب وتربيةٌ لاستعظام المنسيِّ[1]. اهـ. وفيه من القصور ما فيه.

والزمخشريُّ جعله استخباراً فقال: إنَّ يوشع عليه السلام لمَّا طلب منه موسى عليه السلام الغداءَ ذكر ما رأى من الحوت وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدُهِش فطفق يسأل عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت. فحُذِف ذلك[2]. اهـ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مفعولَ «أرأيت» محذوفٌ، وهو إما الجملةُ الاستفهاميةُ إن كانت «ما» في «ما دهاني» للاستفهام، وإما نفسُ «ما» إن كانت موصولةً، وإلى أنَّ «إذ» ظرفٌ متعلِّقٌ بـ «دهاني» وهو سببٌ لِمَا بعدَ الفاء في «فإني» وهي سببية، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١] فإنَّ التقدير: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادُهم فسيقولون.. إلخ، وهو قولٌ بأنَّ «أرأيت» بمعنى: أَخبِرْني، وقد سمعتَ ما قيل عليه.

وفي تقديره أيضاً على الاحتمال الثاني في «ما»[3] حذفُ الموصول مع جزء الصلة بناءً على أنَّ «فإني نسيت» من تتمتها، وعلى العلات ليس المرادُ من الاستخبار حقيقتَه، بل تهويل الأمر أيضاً.

ثم لا يخفى أنَّ «رأى» إن كانت بصريةً أو بمعنى «عرف» احتاجت إلى مفعولٍ واحدٍ، والتقديرُ عند بعض المحقِّقين، أَأَبْصَرتَ، أو: أعرفتَ حالي إذ أوينا، وفيه تقليلٌ للحذف، ولا يخفى حسنه، وإن كانت عِلْميةً احتاجت إلى مفعولين، وعلى هذا قال أبو حيان: يمكن أن تكونَ مما حُذِف منه المفعولان اختصاراً، والتقديرُ: أرأيتَ أمرَنا إذ أوينا ما عاقبته.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٩٢.

(٣) في (م): ما في، بدل: في ما.

وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنَّه المأمورُ بإيتائه قيل: للتنبيه من أول الأمر على أنَّه ليس من قبيلِ نسيانِ [المسافر][(١)] زاده في المنزل، وأنَّ ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء من حيث هو غداءٌ وطعامٌ، بل من حيث هو حوتٌ كسائر الحيتان مع زيادة. وقيل: للتصريح بما في فقده إدخالُ السرور على موسى عليه السلام مع حصول الجواب، فقد تقدَّم رواية أنَّه قال له: لا أكلِّفك إلا أن تخبرَني بحيثُ يفارقك الحوت[(٢)].

ثم الظاهر أنَّ النسيان على حقيقته، وهو ليس متعلِّقاً بذات الحوت بل بذِكْرِه. وجوِّز أن يكونَ مجازاً عن الفَقْد فيكون متعلِّقاً بنفس الحوت. والأكثرون على الأول، أي: نسيتُ أن أذكرَ لك أمرَ الحوت وما شاهدتُ من عجيب أمره.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لعلَّه شغله بوساوسَ في الأهل ومفارَقةِ الوطن، فكان ذلك سبباً للنسيان بتقدير العزيز العليم، وإلا فتلك الحالُ مما لا تُنسى.

وقال بعضهم: إنَّ يوشع كان قد شاهد من موسى عليه السلام المعجزاتِ القاهراتِ كثيراً، فلم يبقَ لهذه المعجزة وقعٌ عظيمٌ لا يؤثِّر معه الوسوسةُ فنسي.

وقال الإمام: إنَّ موسى عليه السلام لما استعظمَ عِلمَ نفسِه، أزال الله تعالى عن قلب صاحبه هذا العلمَ الضروريَّ؛ تنبيهاً لموسى عليه السلام على أنَّ العلم لا يحصُل إلَّا بتعليم الله تعالى وحفظِه على القلب والخاطر[(٣)]. وأنت تعلم أنَّه لو جعل الله تعالى المُشاهِدَ الناسيَ هو موسى عليه السلام كان أتمَّ في التنبيه.

وقد يقال: إنَّه أُنسي تأديباً له بناءً على ما تقدَّم من أنَّ موسى عليه السلام لمَّا قال له: «لا أُكلِّفك» إلخ، قال له: ما كلَّفْتَ كثيراً[(٤)]، حيث استسهل الأمرَ ولم يُظهِر الالتجاءَ فيه إلى الله تعالى بأن يقول: أُخبِرُك إن شاء الله تعالى. وفيه أيضاً عتابٌ لموسى عليه السلام حيث اعتمد عليه في العلم بذهاب الحوت فلم يحصل له حتى نَصَبَ.

---

(١) زيادة من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣، والكلام منه.
(٢) ينظر ص٤٢٢ من هذا الجزء.
(٣) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٦-١٤٧.
(٤) ينظر ص٤٢٢ من هذا الجزء.

ثم إنَّ هذه الوسوسةَ لا تضُرُّ بمقام يوشع عليه السلام وإن قلنا: إنه كان نبيًّا وقتَ وقوعِ هذه القصة.

وقال بعضُ المحقِّقين: لعلَّه نَسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار، وانجذابِ شراشرِهِ إلى جناب القدس بما اعتراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبه إلى الشيطان مع أنَّ فاعلَه الحقيقيَّ هو الله تعالى، والمجازيَّ هو الاستغراق المذكورُ؛ هضماً لنفسه بجعل ذلك الاستغراق والانجذابِ لشَغْلِه عن التيقُّظِ للموعِد الذي ضربه الله تعالى بمنزلة الوساوس، ففيه تجوُّزٌ باستعارةِ الشيطان لمطلَق الشاغل، وفي الحديث: «إنَّه ليُغان على قلبي فأستغفِرُ اللهَ تعالى في اليومِ سبعين مرةً»[1].

أو لأنَّ عدمَ احتمالِ القوَّة للجانبَيْن واشتغالها بأحدِهما عن الآخر يُعدُّ من نقصان صاحبِها وتركِه المجاهداتِ والتصفيةِ، فيكون قد تجوَّزَ بذلك عن النقصان لكونه سببَه.

وضَمَّ حفصٌ الهاءَ في: «أنسَانِيهُ»، وهو قليلٌ في مثل هذا التركيب قِلَّة النسيان في مثل هذه الواقعة، والجمهورُ على الكسرِ[2]، وأمال الكسائيُّ فتحةَ السين[3].

وقولُه تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الهاء، أي: ما أنساني ذكرَه لك إلا الشيطانُ، قيل: وفي تعليق الفعل بضمير الحوتِ أولاً وبذكره له ثانياً على طريق الإبدالِ المُنبِئ عن تنحية المبدَلِ منه إشارةٌ إلى أنَّ متعلَّق النسيان أيضاً[4] ليس نفس الحوت بل ذكر أمره.

وفي مصحف عبد الله وقراءتِه: «أَن أُذكِّرَكَه»[5].

وفي إيثار «أنْ» والفعل على المصدر نوعُ مبالغةٍ لا تخفى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) (٤١) من حديث الأغرّ بن يسار المزني ﷺ، وسلف ١/ ٣٠٤.

(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٣) التيسير ص٤٦، والنشر ٢/ ٣٥.

(٤) لفظة: أيضاً، سقطت من (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣، والكلام منه.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٩٢، وجاء في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩ أن في مصحف عبد الله: «وما أَنسَانِيهُ أن أُذَكِّرَكَه إلَّا الشيطان»، وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٢، والبحر ٦/ ١٤٧ أن فيه: «أن أذكره إلَّا الشيطان».

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ الظاهرُ الذي عليه أكثرُ المفسرين أنَّ مجموعَه كلامُ يوشع، وهو تتمةٌ لقوله: «فإني نسيت الحوت»، وفيه إنباءٌ عن طرفٍ آخر من أمره، وما بينهما اعتراضٌ قُدِّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنه قيل: حَيي واضطَربَ ووقع في البحر واتَّخَذَ سبيله فيه سبيلاً عجباً، فـ «سبيله» مفعولٌ أوّل لـ «اتخذ»، و«في البحر» حالٌ منه، و«عجباً» مفعولٌ ثانٍ.

وفي ذكر السبيل ثم إضافتِه إلى ضمير الحوت ثم جعلِ الظرف حالاً من المضاف تنبيهٌ إجماليٌّ على أنَّ المفعولَ الثاني من جنس الأمور الغريبة، وفيه تشويقٌ للمفعول الثاني، وتكريرٌ مفيدٌ للتأكيد المناسب للمقام، فهذا التركيبُ في إفادة المراد أوفَى لحقِّ البلاغة من أن يقال: واتخذ في البحر سبيلاً عجباً.

وجوِّز أن يكون «في البحر» حالاً من «عجباً»، وأن يكون متعلِّقاً بـ «اتخذ»، وأن يكون المفعولَ الثاني له و«عجباً» صفة مصدرٍ محذوفٍ، أي: اتخاذاً عجباً، وهو كونُ مسلكِه كالطاق والسَّرَب.

وجوِّز أيضاً على احتمال كونِ الظرف مفعولاً ثانياً أن يُنصَب «عجباً» بفعلٍ منه مضمرٍ، أي: أَعجبُ عجباً، وهو من كلام يوشع عليه السلام أيضاً، تَعجَّبَ من أمر الحوت بعد أن أَخبَرَ عنه.

وقيل: إنَّ كلامَ يوشع عليه السلام قد تمَّ عند «البحر»، وقولُ: أعجَبُ عجباً، كلامُ موسى عليه السلام، كأنه قيل: وقال موسى: أعجبُ عجباً من تلك الحال التي أخبرتَ بها. وأنت تعلم أنَّه لو كان كذلك لجيء بالجملة الآتية بالواو العاطفة على هذا المقدَّر.

وقيل: يحتمل أن يكونَ المجموعُ من كلامه عزَّ وجل، وحينئذٍ يحتمل وجهين:

أحدُهما: أن يكون إخباراً منه تعالى عن الحوت بأنَّه اتخذ سبيلَه في البحر عجباً للناس.

وثانيهما: أن يكون إخباراً منه سبحانه عن موسى عليه السلام بأنَّه اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً يتعجَّب منه، و«عجباً» على هذا مفعولٌ ثانٍ، ولا ركاكةَ في تأخير «قال» الآتي عنه على هذا؛ لأنَّه استئنافٌ لبيانِ ما صدر منه عليه السلام بعدُ.

ويؤيِّد كونَه من كلام يوشع عليه السلام قراءةُ أبي حيوة: «واتخاذَ» بالنصب[(١)]، على أنَّه معطوفٌ على المنصوب في «أذكُرَه».

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ أي: الذي كنَّا نطلُبه من حيث إنه أمارةٌ للفوز بما هو المطلوبُ بالذات.

وقرئ: «نَبْغ» بغير ياء في الوصل[(٢)]، وإثباتُها أحسنُ، وهي قراءةُ أبي عمرو والكسائيِّ ونافع[(٣)].

وأما الوقفُ فالأكثر فيه طرحُ الياء اتباعاً لرسم المصحف، وأَثبَتَها في الحالَيْنِ ابنُ كثيرٍ[(٤)].

﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ الأولى، والمراد: طريقهما الذي جاءا منه، ﴿قَصَصٗا ٦٤﴾ أي: يقُصَّانها[(٥)] قصصاً، أي: يتَّبعانها اتِّباعاً، فهو من: قصَّ أثرَه: إذا اتَّبعه، كما هو الظاهر، ونصبُه على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ مقدَّرٍ من لفظه. وجوِّز أن يكونَ حالاً مؤوَّلاً بالوصف، أي: مقتصِّين حتى أتيا الصخرةَ التي فُقِد الحوتُ عندها.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ الجمهورُ على أنَّه الخَضِر، بفتح الخاء وقد تُكسر، وكسر الضاد وقد تسكَّن، وقيل: اليسع. وقيل: إلياس. وقيل: ملكٌ من الملائكة، وهو قولٌ غريب باطلٌ كما في «شرح مسلم»[(٦)].

والحقُّ الذي تشهد له الأخبارُ الصحيحة هو الأول، والخَضرُ لقبُه، ولُقِّب به كما أخرج البخاريُّ وغيره عن رسول الله ﷺ «لأنَّه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فإذا هي

---

(١) القراءات الشاذة ص٨١، والبحر ٦/ ١٤٧.

(٢) التيسير ص ١٤٧، والنشر ٢/ ٣١٦، وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة، ويعقوب وخلف.

(٣) التيسير ص١٤٧، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٣١٦.

(٤) التيسير ص١٤٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٣١٧.

(٥) في (م): يقصانه.

(٦) للنووي ١٥/ ١٣٦.

تهتزُّ مِن خَلفِه خَضْراء»[١]. وأخرج ابن عساكر وجماعة عن مجاهد أنه لُقِّب بذلك لأنَّه إذا صلى اخضرَّ ما حوله[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنَّ ذلك لأنه كان إذا جلس في مكان اخضرَّ ما حوله، وكانت ثيابُه خَضِراً. وأخرج عن السدِّي أنه إذا قام بمكانٍ نبت العشبُ تحت رِجليه حتى يُغطِّي قدميه[٣].

وقيل: لإشراقه وحسنه. والصوابُ ـ كما قال النوويُّ[٤] ـ الأولُ.

وكنيته أبو العباس، واسمه بَلْيا بموحدة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية. وفي آخره ألف، قيل: ممدودةٌ. وقيل: أبليا، بزيادة همزة في أوله. وقيل: عامر.

وقيل: أحمد. ووهَّاه ابن دحية بأنَّه لم يسمَّ قبلَ نبينا ﷺ أحدٌ من الأمم السالفة بأحمد[٥].

وزعم بعضُهم أنَّ اسم الخضر اليسعُ، وأنه إنما سُمِّي بذلك لأنَّ علمه وَسِعَ ستَّ سماوات وستَّ أرضين، ووهَّاه ابن الجوزي[٦]، وأنت تعلم أنه باطلٌ لا واهٍ، ومثله القول بأنَّ اسمَه إلياس.

و اختلفوا في أبيه فأخرج الدارقطني في «الأفراد» وابن عساكر من طريق

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٠٢)، وهو عند أحمد في مسنده (٨١١٣)، وابن حبان في صحيحه (٦٢٢٢)، جميعهم عن أبي هريرة رضي الله عنه. والفروة: أرض بيضاء ليس فيها نبات. ووقع في رواية عند أحمد (٨٢٢٨) الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبهه. قال أحمد: أظن هذا تفسيراً من عبد الرزاق.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠٢، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم في الدر ٤/ ٢٣٤.

(٣) قول عكرمة والسدي عزاهما لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) في شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٣٦.

(٥) عمدة القاري ٢/ ٦٠، وابن دحية هو أبو الخطاب عمر بن حسن، توفي (٦٣٣ هـ)، وكان صاحب علم وفضل، إلّا أنه كان يدعي أشياء لا حقيقة لها. تاريخ الإسلام للذهبي ١٤/ ١١٣.

(٦) المصدر السابق.

مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه ابن آدم لصلبه[١].

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنَّ أمَّه روميةٌ وأبَاه فارسيٌّ[٢]. ولم يذكر اسمه، وذكر أنَّ إلياس أخوه من هذه الأم وهذا الأب.

وأخرج أيضاً عن أسباط عن السديِّ أنَّه ابن ملكٍ من الملوك، وكان منقطعاً في عبادة الله تعالى، وأحبَّ أبوه أن يزوِّجه فأبى، ثم أجاب فزوَّجه بامرأة بكرٍ، فلم يقربْها سنةً، ثم بثيِّبٍ فلم يقربها، ثم فرَّ فطلبه فلم يقدر عليه، ثم تزوَّجت امرأتُه الأولى، وكانت قد آمنت، وهي ماشطةُ امرأة فرعون[٣]. ولم يذكر أيضاً اسمَ أبيه.

وقيل: إنَّه ابنُ فرعون، على ما قيل: إنه أبوه، وسبحان مَن يُخرج الحيَّ من الميت ويُخرج الميِّتَ من الحيِّ.

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» وأبو نعيم في «الحلية» عن كعبِ الأحبارِ أنَّه ابنُ عاميل، وأنَّه رَكب في نفرٍ من أصحابه حتى بلغ بحرَ الهند، وهو بحرُ الصين، فقال: يا أصحابي، دَلُّوني، فدَلَّوه في البحر أياماً وليالي، ثم صعد فقال: استقبلني ملك فقال لي: أيها الآدميُّ الخطَّاء، إلى أين ومن أين؟ فقلتُ: أردتُ أن أنظرَ عمقَ هذا البحر، فقال لي: كيف، وقد أهوى رجلٌ من زمانِ داود عليه السلام، ولم يبلغ ثُلُثَ قعره حتى الساعة، وذلك ثلاث مئة سنة[٤].

وأظنُّك لا تشكُّ بكذب هذا الخبر وإن قيل: حدِّث عن البحر ولا حرج.

وقيل: هو ابن العيص. وقيل: هو ابن كَلْيان، بكاف مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية بعدها ألف ونون.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٦/ ٤٠٠ من طريق الدارقطني، وعزاه للدارقطني السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٤. وقال الحافظ ابن حجر في «الزهر النضر في أحوال الخضر» ص١٨ عن رجال هذا السند: وروَّاد ضعيف، ومقاتل متروك والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١٩.

(٤) العظمة (٩٢٨)، وحلية الأولياء ٦/ ٧.

وقال ابن قتيبة في «المعارف»: قال وهب بن منبه: إنَّه ابن مَلْكان ـ بفتح الميم وإسكان اللام ـ ابن فالغ بن عابر بن شالخ[١] بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ولم يَصحَّ عندي شيءٌ من هذه الأقوال، بيدَ أنَّ صنيع النووي عليه الرحمة في «شرح مسلم» يُشعِر باختيارِ أنَّه بليا بن ملكان[٢]، وهو الذي عليه الجمهورُ، والله تعالى أعلم.

وصحَّ من حديث البخاريِّ وغيرِه أنَّهما «رجعا إلى الصخرة وإذا رجلٌ مسجًّى بثوبٍ قد جعل طرفَه تحت رجليه، وطرفَه الآخرَ تحت رأسه»[٣].

وفي «صحيح مسلم»: «فأتيا جزيرةً فوجدا الخضرَ قائماً يصلِّي على طنْفسَةٍ خضراء على كبد البحر»[٤].

وقال الثعلبي: انتهيا إليه وهو نائم[٥] على طنفسَةٍ خضراء على وجه الماء وهو مسجًّى بثوبٍ أخضر.

وقيل: إنَّ سبيلَ الحوت عاد حجراً، فلما جاءا إليه مَشَيا عليه حتى وصلا إلى جزيرةٍ فيها الخضر.

وصحَّ «أنَّهما لمَّا انتهيا إليه سلَّم موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ. فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم»[٦].

---

(١) كذا في الأصل و(م): بالخاء المعجمة، وفي مطبوع المعارف ص٤٢: شالح، بالحاء المهملة.

(٢) في الأصل و(م): ملكا، بغير نون، والمثبت من شرح مسلم ١٦/ ١٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦) وهو في مسند أحمد (٢١١١٩)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رضي الله عنه.

(٤) لم نقف عليه في صحيح مسلم، وفي الحديث السابق عند أحمد والبخاري: «فوجدا خضراً على طِنْفِسَةٍ خضراء على كبد البحر». وليس فيه: قائماً يصلي. وينظر عمدة القاري ٢/ ١٩٤.

(٥) كذا في الأصل و(م) وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٤، وفي مطبوع قصص الأنبياء المسمى «عرائس المجالس» للثعلبي ص٢٢٧: قائم يصلي.

(٦) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه.

ورُوي أنَّه لـمَّا سلَّم عليه وهو مسجًّى، عرفه أنَّه موسى، فرفع رأسَه فاستوى جالساً وقال: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال موسى: وما أدراك بي، ومَن أخبرك أنِّي نبيُّ بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي ودلَّك عليَّ، ثمَّ قال: ياموسى، أما يكفيك أنَّ التوراةَ بيدك وأنَّ الوحْيَ يأتيك؟ قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعَك وأتعلَّم من علمك.

والتنوين في «عبداً» للتفخيم، والإضافةُ في «عبادِنا» للتشريف والاختصاصِ، أي: عبداً جليلَ الشأن ممن اختصَّ بنا وشرُف بالإضافة إلينا.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قيل: المرادُ بها الرزقُ الحلال والعيشُ الرغد. وقيل: العُزلة عن الناس وعدمُ الاحتياج إليهم. وقيل: طولُ الحياة مع سلامة البنية.

والجمهورُ على أنَّها الوحْيُ والنبوةُ، وقد أُطلِقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس[1]. وهذا قولُ مَن يقول بنبوته عليه السلام، وفيه أقوالٌ ثلاثة، فالجمهورُ على أنَّه عليه السلام نبيٌّ وليس برسولٍ. وقيل: هو رسولٌ. وقيل: هو وليٌّ، وعليه القشيريُّ وجماعةٌ.

والمنصورُ ما عليه الجمهور، وشواهدُه من الآيات والأخبارِ كثيرةٌ، وبمجموعها يكاد يحصلُ اليقين.

وكما وقع الخلافُ في نبوته وقع الخلافُ في حياته اليومَ، فذهب جمعٌ إلى أنَّه ليس بحيٍّ اليومَ، وسئل البخاريُّ عنه وعن إلياس عليهما السلام: هل هما حيَّان؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبيُّ ﷺ - أي: قبل وفاته بقليل -: «لا يبقى على رأسِ المئة ممن هو اليومَ على ظهر الأرض أحدٌ»[2]؟

والذي في «صحيح مُسلم» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ قبلَ موته: «ما من نفْسٍ منفوسةٍ [اليوم] يأتي عليها مئةُ سنةٍ وهي يومئذٍ حية»[3]. وهذا أبعدُ عن التأويل.

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.
(٢) أخرج المرفوع البخاري في صحيحه (١١٦) من حديث ابن عمر، والقصة رواها النقاش كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٦٨.
(٣) صحيح مسلم (٢٥٣٨) وما بين حاصرتين منه.

وسئل عن ذلك غيره من الأئمة فقرأ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: لو كان الخضر حيًّا لوجب عليه أن يأتي إلى النبيِّ ﷺ ويجاهدَ بين يديه ويتعلَّم منه، وقد قال النبيُّ ﷺ يومَ بدر: «اللّهمَّ إن تَهلِك هذه العصابةُ لا تُعبَد في الأرض». فكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماءِ آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذٍ؟!(١).

وسئل إبراهيم الحربيُّ عن بقائه فقال: من أحال على غائبٍ لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطانُ(٢).

ونقل في «البحر» عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسيِّ القولَ بموته أيضاً(٣). ونقله ابنُ الجوزيِّ(٤) عن علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما أيضاً، وكذا عن إبراهيم بن إسحاق الحربيِّ، وقال أيضاً: كان أبو الحسين ابن المنادي(٥) يقبِّح قولَ مَن يقول: إنَّه حيٌّ. وحكى القاضي أبو يعلى موتَه عن بعض أصحاب أحمد(٦).

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٠٠بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن القيم في المنار المنيف ص ٦٨، والحديث قد سلف ١٠/ ٣٧-٣٨.

(٢) المنار المنيف ص ٦٧، وجاء في مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٧: أن السائل هو إبراهيم الحربي والمسؤول أحمد بن حنبل. وإبراهيم الحربي هو ابن إسحاق البغدادي، صاحب التصانيف، والإمام الحافظ العلامة، سمع أحمد وأبا عبيد بن سلَّام ومسدّد وغيرهم، وحدث عنه خلق كثير. كان عابداً زاهداً ورعاً، له ترجمة طويلة في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٦.

(٣) البحر ٦/ ١٤٧، والمرسي محدث مفسر فقيه، ولد سنة (٥٧٠ هـ)، وسمع الكثير من منصور الفُراوي، له تصانيف كثيرة مع زهد وورع وفقر وتعفف. توفي سنة (٦٥٥ هـ). شذرات الذهب ٧/ ٤٦٥.

(٤) كما في المنار المنيف ص٧٢، ولابن الجوزي مؤلَّف في هذه المسألة اسمه: عجالة المنتظر في شرح حال الخضر.

(٥) هو أحمد بن جعفر البغدادي، كان إماماً محدِّثاً، سمع الكثير وصنف كتباً كثيرةً، توفي سنة (٣٣٦ هـ). النجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٦) تحرف في الأصل و(م) إلى محمد. والمثبت من المنار المنيف ص٧٢.

وكيف يُعقَل وجودُ الخضر ولا يُصلِّي مع رسول الله ﷺ الجمعةَ والجماعةَ، ولا يشهد معه الجهادَ، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»[١]. وقولِه عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وثبوتِ أنَّ عيسى عليه السلام إذا نزل إلى الأرض يُصلِّي خلف إمام هذه الأمة، ولا يتقدَّم عليه في مبدأ الأمر[٢]، وما أبعدَ فهمَ مَن يُثبِت وجودَ الخضر عليه السلام ويَنسى ما في طيِّ إثباته من الإعراض عن هذه الشريعة.

ثم قال: وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته:

أحدها: أنَّ الذي قال بحياته قال: إنَّه ابنُ آدم عليه السلام لصلبه. وهذا فاسدٌ لوجهين:

الأوَّلُ: أنه يلزم أن يكونَ عمرُه اليومَ ستةَ آلاف سنة أو أكثر، ومثلُ هذا بعيدٌ في العادات في حقِّ البشر.

والثاني: أنَّه لو كان ولدَه لصلبه أو الرابعَ من أولاده كما زعموا أنَّه وزيرُ ذي القرنين لكان مهولَ الخلقة مُفرِطَ الطول والعرض، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِق آدمُ، طولُه ستون ذراعاً، فلم يزل الخلقُ ينقُص بعدَه»[٣]. وما ذكر أحدٌ ممن يزعم رؤيةَ الخضر أنه رآه على خلقةٍ عظيمةٍ وهو مِن أقدمِ الناس.

والوجه الثاني: أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ولم ينقل هذا أحد.

الثالث: أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ نوحاً عليه السلام لمَّا خرج من السفينة مات مَن معه ولم يبق غيرُ نسله، ودليلُ ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

---

(١) سلف عند الآية: ٤١ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه (١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، وصحيح مسلم (٢٨٤١).

الرابع: أنَّه لو صحَّ بقاءُ بشرٍ من لدن آدم إلى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب، وكان خبرُه في القرآن مذكوراً في مواضع لأنه من آيات الربوبية وقد ذكر سبحانه عزَّ وجلَّ مَن استحياه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً وجعله آيةً، فكيف لا يذكر جلَّ وعلا مَن استحياه أضعافَ ذلك؟!

الخامس: أنَّ القولَ بحياة الخضر قولٌ على الله تعالى بغير علم، وهو حرامٌ بنصِّ القرآن، أما المقدِّمة الثانية فظاهرةٌ، وأما الأولى فلأنَّ حياتَه لو كانت ثابتةً لدلَّ عليها القرآنُ أو السنةُ أو إجماعُ الأمة، فهذا كتابُ الله تعالى فأين فيه حياةُ الخضر؟ وهذه سنةُ رسوله ﷺ فأين فيها ما يدلُّ على ذلك بوجه؟ وهؤلاء علماءُ الأمة فمتى أجمعوا على حياته؟

السادس: أنَّ غاية ما يتمسَّك به في حياته حكاياتٌ منقولةٌ يُخبِر الرجل بها أنَّه رأى الخضر، فيا لله تعالى العجب هل للخضر علامةٌ يعرفه بها مَن رآه؟! وكثيرٌ مِن زاعمي رؤيته يغترُّ بقوله: أنا الخضر. ومعلومٌ أنه لا يجوز تصديقُ قائلِ ذلك بلا برهانٍ من الله تعالى، فمن أين للرائي أنَّ المخبِرَ له صادقٌ لا يكذب؟

السابع: أنَّ الخضرَ فارقَ موسى بن عمران كليمَ الرحمن ولم يصاحبه، وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فكيف يرضى لنفسه بمفارقةِ مثل موسى عليه السلام، ثم يجتمع بجَهَلةِ العباد الخارجين عن الشريعة الذين لا يحضُرون جمعةً ولا جماعةً ولا مجلسَ علم، وكلٌّ منهم يقول: قال لي الخضر، جاءني الخضر، أوصاني الخضر، فيا عجباً له يفارقُ الكليمَ ويدور على صُحبةِ جاهل لا يصحبه إلا شيطانٌ رجيمٌ، سبحانك هذا بهتان عظيم!!

الثامن: أنَّ الأمةَ مُجمِعةٌ على أنَّ الذي يقول: أنا الخضر. لو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا. لم يُلتفَت إلى قوله ولم يُحتجَّ به في الدين، ولا مخلصَ للقائل بحياته عن ذلك إلا أن يقول: إنَّه لم يأت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بايعه. أو يقول: إنه لم يُرسَل إليه. وفي هذا من الكفر ما فيه.

التاسع: أنَّه لو كان حيًّا لكان جهادُه الكفارَ، ورباطُه في سبيل الله تعالى، ومقامُه في الصفِّ ساعةً، وحضورُه الجمعةَ والجماعةَ، وإرشادُ جَهَلةِ الأمة = أفضلَ

بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات[١]. إلى غير ذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما له وما عليه.

وشاع الاستدلال بخبر: لو كان الخضر حيًّا لزارني. وهو ـ كما قال الحفَّاظُ ـ خبرٌ موضوعٌ لا أصلَ له[٢]، ولو صحَّ لأغنى عن القيل والقال، ولا نقطع به الخصامُ والجدال.

وذهب جمهورُ العلماء إلى أنَّه حيٌّ موجودٌ بين أظهرنا، وذلك متفقٌ عليه عند الصوفية قدِّست أسرارُهم. قاله النوويُّ[٣]، ونَقَل عن الثعلبيِّ المفسِّر أنَّ الخضر نبيٌّ معمَّر على جميع الأقوال محجوبٌ عن أبصار أكثر الرجال[٤].

وقال ابن الصلاح[٥]: هو حيٌّ اليومَ عند جماهير العلماء، والعامةُ معهم في ذلك، وإنما ذهب إلى إنكار حياته بعضُ المحدِّثين.

واستدلُّوا على ذلك بأخبارٍ كثيرةٍ منها ما أخرجه الدارقطنيُّ في «الأفراد» وابن عساكر عن الضحَّاك عن ابن عباس أنه قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونُسئ له في أجله حتى يكذِّب الدجَّال[٦]. ومثله لا يقال من قبل الرأي.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر عن ابن إسحاق قال: حدثنا أصحابُنا أنَّ آدم عليه السلام لمَّا حضره الموت جمع بنيه فقال: يا بَنيَّ، إنَّ الله تعالى مُنزلٌ على أهل الأرض عذاباً، فليكن جسدي معكم في المغارة حتى إذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام. فكان جسدُه معهم، فلمَّا بعث الله تعالى نوحاً ضمَّ ذلك الجسدَ، وأرسل الله تعالى الطوفانَ على الأرض فغرقت زماناً، فجاء نوحٌ حتى نزل بابلَ وأوصى بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده إلى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به، فقالوا: الأرضُ وحشةٌ لا أنيسَ بها، ولا نهتدي الطريقَ، ولكن كُفَّ حتى يأمن الناسُ

(١) المنار المنيف ص٧٢-٧٦.
(٢) ينظر المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص١٠٥، وكشف الخفاء ١/ ٥١٣.
(٣) في شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٣٥-١٣٦.
(٤) عرائس المجالس ص٢٢٦.
(٥) كما في شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١٣٦.
(٦) سلف ص٤٣٤ من هذا الجزء، وذكرنا ثمة أن سنده ضعيف ومنقطع.

ويكثُروا. فقال لهم نوح: إنَّ آدم قد دعا الله تعالى أن يطيلَ عمرَ الذي يدفنه إلى يوم القيامة. فلم يزل جسدُ آدم حتى كان الخضرُ هو الذي تولّى دفنَه، فأنجز الله تعالى له ما وعده، فهو يَحيا إلى ما شاء الله تعالى له أن يحيا(١).

وفي هذا سببُ طول بقائه، وكأنه سببٌ بعيدٌ، وإلا فالمشهورُ فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان على مقدمته(٢).

ومنها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن عليٍّ رضي الله عنه وكرَّم وجهَه قال: بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجلٌ متعلِّقٌ بأستار الكعبة يقول: يا مَن لا يشغله سمعٌ عن سمع، ويا مَن لا تغلطه المسائلُ، ويا مَن لا يتبرَّمُ بإلحاح الملحِّين، أَذِقني بردَ عفوك وحلاوةَ رحمتك. قلتُ: ياعبد الله أَعِد الكلامَ. قال: أسمعتَه؟ قلتُ: نعم. قال: والذي نفسُ الخضرِ بيده ـ وكان هو الخضر ـ لا يقولهُن عبدٌ دُبُرَ الصلاة المكتوبة إلا غُفِرَتْ ذنوبُه وإن كانت مثلَ رمل عالج وعددِ المطر وورقِ الشجر(٣).

ومنها ما نقله الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: إنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا تُوفِّي وأخذْنا في جهازه خرج الناسُ وخلا الموضعُ، فلمَّا وضعتُه على المغتسل إذا بهاتفٍ يهتِفُ من زاوية البيت بأعلى صوته: لا تغسلوا محمداً فإنه طاهرٌ طَهِر. فوقع في قلبي شيءٌ من ذلك وقلتُ: ويلك من أنتَ؟ فإنَّ النبيَّ ﷺ بهذا أمَرَنا، وهذه سنَّتُه. وإذا بهاتفٍ آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: غسِّلوا محمداً، فإنَّ الهاتفَ الأول كان إبليس الملعون حسد محمداً ﷺ أن يدخُل قبرَه مغسولاً. فقلت: جزاك الله تعالى خيراً، قد أخبرتني بأنَّ ذلك إبليس، فمن أنتَ؟ قال أنا الخضر، حضرتُ جنازةَ محمد ﷺ.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٧/ ٣٤٨ من طريق أبي جعفر عن أبيه قوله، وفيه: سفيان بن وكيع، وحديثه ساقط.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ١١٨-١١٩، وتاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٢٥ وهو من طريق عبد الله بن محرر، عن يزيد بن الأصم، عن علي ﷺ، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٥٩: هذا ضعيف من جهة عبد الله بن محرر، فإنه متروك الحديث، ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً، ومثل هذا لا يصح.

ومنها ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أنس بن مالك قال: لمَّا توفي رسولُ الله ﷺ واجتمع الصحابة دخل رجل أشهبُ اللحية جسيمٌ صبيحٌ، فتخطَّى رقابَهم فبكى، ثم التفت إلى الصحابة فقال: إنَّ في الله تعالى عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وعوضاً من كلِّ فائتٍ، وخلفاً مِن كلِّ هالكٍ، فإلى الله تعالى فأنيبوا، وإليه تعالى فارغبوا، ونظرُه سبحانه إليكم في البلاء فانظروا، فإنما المصابُ مَن لم يُجبر. فقال أبو بكر وعليٌّ رضي الله عنهما: هذا الخضرُ عليه السلام[١].

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أنَّ إلياس والخضرَ يصومان شهرَ رمضان في بيت المقدس، ويحجَّان في كلِّ سنة، ويشربان من زمزم شربةً تكفيهما إلى مثلها من قابل[٢].

ومنها ما أخرجه ابنُ عساكر أيضاً والعقيليُّ والدارقطنيُّ في «الأفراد» عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «يلتقي الخضرُ وإلياس كلَّ عامٍ في الموسم، فيحلقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبه، ويتفرَّقان عن هذه الكلمات: باسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوَّة إلا بالله»[٣].

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال: بينما عمر بن الخطَّاب يصلِّي على جنازةٍ إذا بهاتفٍ يهتف من خلفه: لا تسبقْنا بالصلاة يرحمك الله تعالى. فانتظره حتى لَحِق بالصفِّ الأوَّل، فكبَّر عمر وكبَّر الناسُ معه، فقال الهاتفُ: إنْ تعذِّبه فكثيراً عصاك، وإن تغفر له ففقيرٌ إلى رحمتك. فنظر عمرُ وأصحابُه إلى الرجل، فلمَّا دُفن الميت وسُوِّي عليه التراب قال: طوبى لك يا صاحب القبر، إن لم تكن عريفاً، أو جابياً، أو خازناً، أو كاتباً، أو شرطيًّا.

---

(١) المستدرك ٣/ ٥٨، وفيه: أصهب، بدل: أشهب، ورواه بلفظ المصنف البيهقي في الدلائل ٧/ ٢٦٩، وقال: فيه عباد بن عبد الصمد، ضعيف، وهذا منكر بمرة. اهـ. وقال الحاكم: فيه عباد بن عبد الصمد ليس من شرط هذا الكتاب. اهـ. ووقع في الأصل و(م) بدل أنس بن مالك: جابر، وهو خطأ.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٢٨، عن ابن أبي روَّاد قوله.

(٣) الضعفاء للعُقيلي ١/ ٢٢٤-٢٢٥، وتاريخ مدينة دمشق ٩/ ٢١١، وعزاه للدارقطني ابنُ حجر في الزهر النضر ص٦١. وفيه الحسن بن رزين، قال العقيلي: مجهول الرواية.

فقال عمر: خذوا لي الرجلَ نسأله عن صلاته وكلامه هذا عمن هو، فتوارى عنهم، فنظروا فإذا أثرُ قدمه ذراعٌ، فقال عمر: هذا والله الذي حدَّثنا عنه النبيُّ ﷺ[(١)].

والاستدلال بهذا مبنيٌّ على أنَّه عنى بالمحدَّث عنه الخضر عليه السلام.

إلى غير ذلك، وكثيرٌ مما ذُكر وإن لم يدلَّ على أنه حيٌّ اليومَ، بل يدلُّ على أنَّه كان حيًّا في زمنه ﷺ، ولا يلزم من حياته إذ ذاك حياتُه اليومَ، إلَّا أنَّه يكفي في ردِّ الخصم، إذ هو ينفي حياته إذ ذاك كما ينفي حياته اليومَ، نعم إذا كان عندنا مَن يُثبتها إذ ذاك وينفيها الآنَ لم ينفع ما ذُكر معه، لكن ليس عندنا مَن هو كذلك، وحكاياتُ الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذِ عنه في سائر الأعصار أكثرُ مَن أن تُحصَر، وأشهرُ مِن أن تذكر. نعم أجمع المحدِّثون القائلون بحياته عليه السلام على أنَّه ليس له روايةٌ عن النبيِّ ﷺ كما صرَّح به العراقيُّ في «تخريج أحاديث الإحياء»[(٢)].

وهذا خلافُ ما عند الصوفية فقد ادَّعى الشيخ علاء الدين استفادةَ الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة. وذكر السهرورديُّ في «السرِّ المكتوم» أنَّ الخضرَ عليه السلام حدثنا بثلاث مئة حديث سمعه من النبيِّ ﷺ شِفاهاً.

واستدلَّ بعضُ الذاهبين إلى حياته الآن بالاستصحاب، فإنَّه قد تحقَّقت من قبلُ بالدليل، فتبقى على ذلك إلى أن يقومَ الدليلُ على خلافها، ولم يقم.

وأجابوا عما استدلَّ به الخصم مما تقدَّم:

فأجابوا عما ذكره البخاريُّ من الحديث الذي لا يُوجِبُ نفْيَ حياته في زمانه ﷺ، وإنما يُوجِب بظاهره نفيَها بعد مئة سنة من زمانِ القول = بأنَّه لم يكن حينئذٍ على ظهر الأرض، بل كان على وجه الماء، وبأنَّ الحديثَ عامٌّ فيما يشاهده الناس بدليلِ استثناء الملائكة عليهم السلام وإخراج الشيطان، وحاصلُه انخرامُ القرن الأول، نعم هو نصٌّ في الردِّ على مدَّعي التعمير كـ : رَتَن بن عبد الله الهنديِّ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٢٤، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٥٩: هذا الخبر فيه مبهم، وفيه انقطاع (يعني بين ابن المنكدر وعمر) ولا يصح مثله.

(٢) على هامش إحياء علوم الدين ١/ ٣٣٦ و٣٥٢.

التبريزيِّ، الذي ظهر في القرن السابع وادَّعى الصحبة وروى الأحاديث[1].

وفيه أنَّ الظاهرَ ممن على ظهر الأرض مَن هو مِن أهل الأرض ومتوطِّنٌ فيها عرفاً، ولا شكَّ أنَّ هذا شاملٌ لمن كان في البحر، ولو لم يُعدَّ مَن في البحر ممن هو على ظهر الأرض لم يكن الحديث نصًّا في الردِّ على رتن وأضرابه، لجواز أن يكونوا حين القول في البحر، بل متى قيل هذا التأويلُ خرج كثيرٌ من الناس من عموم الحديث، وضَعُفَ العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. ولينظر في قول مَن قال: يحتمل أنَّه كان وقتَ القول في الهواء. ففيه أيضاً ما لا يخفى على الناظر.

ويَرِد على الجواب الثاني أنَّ الخضرَ لو كان موجوداً لكان ممن يُشاهده الناس، كما هو الأمر المعتاد في البشر، وكونه عليه السلام خارجاً عن ذلك لا يثبُت إلا بدليل، وأنّى هو؟ فتأمل.

وأجابوا عما قاله الشيخ ابن تيمية بأنَّ وجوبَ الإتيان ممنوعٌ، فكم من مؤمن به ﷺ في زمانه لم يأته عليه الصلاة والسلام، فهذا خيرُ التابعين أويس القرني رضي الله عنه، لم يتيسَّر له الإتيان والمرافقة في الجهاد ولا التعلُّم من غير واسطة، وكذا النجاشيُّ رضي الله عنه، على أنَّا نقول: إنَّ الخضر عليه السلام كان يأتيه ويتعلَّم منه ﷺ لكن على وجه الخفاء؛ لعدم كونه مأموراً بإتيان العلانية لحكمةٍ إلهيةٍ اقتضت ذلك.

وأما الحضورُ في الجهاد فقد روى ابن بشكوال في كتاب «المستغيثين بالله تعالى» عن عبد الله بن المبارك أنَّه قال: كنتُ في غزوة فوقع فرسي ميِّتاً، فرأيتُ رجلاً حَسَن الوجه طَيِّب الرائحة قال: أتحبُّ أن تركَب فرسك؟ قلتُ: نعم. فوضع يدَه على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخَّره، وقال: أقسمتُ عليك أيتها العِلَّة بعزَّة عزَّة الله، وبعظمة عظمة الله، وبجلال جلال الله، وبقُدرة قدرة الله، وبسُلطان سلطان الله، وبلا إله إلا الله، وبما جرى به القلمُ من عند الله، وبلا حول ولا قوة

(١) رتن الهندي: قال الذهبي: شيخ دجال بلا ريب، ظهر بعد الست مئة، فادعى الصحبة، مات سنة (٦٣٢هـ)، ومع كونه كذاباً، رووا عنه جملة كبيرةً من أسمج الكذبِ المحال. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٥، ولسان الميزان ٣/ ٤٥٧. وقد صنف الذهبي جزءاً في تبيين كذبه سماه: «كَسْرُ وَثَنِ رَتَن».

إلا بالله، إلا انصرفت. فوثَب الفرسُ قائماً بإذن الله تعالى وأخذ الرجلُ بركابي وقال: اركَبْ. فركِبتُ ولحقتُ بأصحابي، فلمَّا كان من غداة غدٍ، وظهرْنا على العدوِّ فإذا هو بين أيدينا، فقلت: ألستَ صاحبي بالأمس؟ قال: بلى. فقلتُ: سألتك بالله تعالى مَن أنت؟ فوثب قائماً فاهتزَّت الأرضُ تحته خضراء، فقال: أنا الخضر[١].

فهذا صريحٌ في أنه قد يحضر بعضَ المعارك.

وأما قوله ﷺ: في بدر: «اللَّهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تعبد في الأرض»[٢]، فمعناه: لا تعبد على وجه الظهور والغلبة وقوَّة الأمَّة، وإلا فكم من مؤمنٍ كان بالمدينة وغيرها ولم يحضُر بدراً.

ولا يخفى أنَّ نظم الخضر عليه السلام في سلك أويس القرني والنجاشي وأضرابهما ممن لم يمكنه الإتيانُ إليه ﷺ بعيدٌ عن الإنصاف وإن لم نَقُلْ بوجوب الإتيان عليه عليه السلام، وكيف يقول مُنصِفٌ بإمامته ﷺ لجميع الأنبياء عليهم السلام واقتداءِ جميعهم به ليلةَ المعراج، ولا يرى لزومَ الإتيان على الخضر عليه السلام والاجتماع معه ﷺ، مع أنَّه لا مانعَ له من ذلك بحسب الظاهر، ومتى زعم أحدٌ أنَّ نسبتَه إلى نبينا ﷺ كنسبته إلى موسى عليه السلام فليجدِّد إسلامه. ودعوى أنَّه كان يأتي ويتعلَّم خفيةً لعدم أمره بذلك علانية لحكمةٍ إلهيةٍ مما لم يقم عليها الدليلُ، على أنه لو كان كذلك لذكره ﷺ ولو مرَّةً، وأين الدليل على الذكر؟ وأيضاً لا تظهر الحكمةُ في منعه عن الإتيانِ مرَّةً أو مرتين على نحو إتيان جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبيِّ ﷺ، وإن قيل: إنَّ هذه الدعوى مجرَّدُ احتمال، قيل: لا يلتفت إلى مثله إلا عند الضرورة، ولا تتحقَّقُ إلا بعدَ تحقُّقِ وجودِه إذ ذاك بالدليل، ووجودُه كوجوده عندنا.

---

(١) عزاه لابن بشكوال الدَّميريُّ في حياة الحيوان ٢/ ٢١٩-٢٢٠. وابن بشكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم القرطبي، حافظ الأندلس في عصره ومؤرخها ومسندها، حجة حافظ، ألَّف خمسين تأليفاً في أنواع العلم منها كتاب الصلة في علماء الأندلس، روى عن أبي بكر ابن العربي وطائفة، توفي سنة (٥٧٨ هـ). تاريخ الإسلام ١٢/ ٦١٢.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وسلف ١٠/ ٣٨.

وأما ما رُوِي عن ابن المبارك فلا نسلِّم ثبوته عنه، وأنتَ إذا أمعنتَ النظرَ في ألفاظ القصة استبعدتَ صحَّتها، ومن أنصف يعلم أنَّ حضورَه عليه السلام يوم قال النبيُّ ﷺ لسعد رضي الله عنه: «ارم، فداك أبي وأمي»[1] كان أهمَّ من حضوره مع ابن المبارك، واحتمالُ أنه حضر ولم يره أحدٌ أشبهُ شيءٍ بالسفسطة.

وأما ما ذكروه في معنى الحديث فلقائل أن يقول: إنه بعيدٌ، فإنَّ الظاهرَ منه نفْي أن يُعبَد سبحانه إن أهلك تلك العصابةَ مطلقاً، على معنى أنَّهم إن أُهلِكوا والإسلام غضٌّ ارتدَّ الباقون، ولم يكد يُؤمِن أحدٌ بعدُ، فلا يَعبُده سبحانه أحدٌ من البشر في الأرض حينئذٍ، وقد لا يوسَّط حديث الارتداد بأن يكون المعنى: اللهم إن تهلِك هذه العصابة الذين هم تاجُ رأس الاسلام استولى الكفارُ على سائر المسلمين بعدَهم فأهلكوهم، فلا يعبدُك أحدٌ من البشر حينئذٍ.

وأيًّاما كان فالاستدلال بالحديث على عدم وجود الخضر عليه السلام له وجهٌ، فإن أجابوا عنه بأنَّ المرادَ نفْيُ أن يشاهَد مَن يعبده تعالى بعدُ، والخضر عليه السلام لا يُشاهَد. وَرَدَ عليه ما تقدَّم.

وأجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤] بأنَّ المرادَ من الخلد الدوامُ الأبديُّ، والقائلون بوجوده اليومَ لا يقولون بتأبيده، بل منهم مَن يقول: إنه يقاتِل الدجالَ ويموت. ومنهم من يقول: إنه يموت زمانَ رفع القرآن. ومنهم من يقول: إنه يموت في آخر الزمان. ومراده أحد هذين الأمرين أو ما يقاربهما.

وتعقِّب بأنَّ الخلد بمعنى الخلود، وهو على ما يقتضيه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] حقيقةٌ في طولِ المكث، لا في دوام البقاء، فإنَّ الظاهرَ التأسيسُ لا التأكيد، وقد قال الراغب: كلُّ ما يتباطأ عنه التغييرُ والفسادُ تصفه العربُ بالخلود، كقولهم للأثافي: خوالد. وذلك لطول مكثها لا لدوامها وبقائها[2]. انتهى. وأنت تعلم قوَّةَ الجواب؛ لأنَّ المكثَ الطويل ثبت لبعض البشر كنوح عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢) من حديث سعد رضي الله عنه، وسلف ٢١/٥.

(٢) المفردات (خلد).

وأجابوا عما نُقِل عن ابن الجوزي من الوجوه العقلية:

أما عن الأول من وجهَي فساد القول: بأنَّه ابنُ آدم عليه السلام بعد تسليم صحَّة الرواية، فبأنَّ البعدَ العادي لا يضرُّ القائل بتعميره هذه المدةَ المديدةَ؛ لأنَّ ذلك عندَه من خرق العادات.

وأما عن الثاني: فبأنَّ ما ذكر من عظم خلقة المتقدِّمين خارجٌ مخرج الغالب، وإلا فيأجوجُ ومأجوجُ من صلب يافث بن نوح، وفيهم مَن طولُه قَدْرَ شبرٍ كما رُوي في الآثار، على أنَّه لا بدعَ في أن يكون الخضرُ عليه السلام قد أُعطِيَ قوةَ التشكُّل والتصوُّر بأيِّ صورةٍ شاء كجبريل عليه الصلاة والسلام، وقد أثبت الصوفيةُ قُدِّست أسرارُهم هذه القوةَ للأولياء، ولهم في ذلك حكاياتٌ مشهورة.

وأنت تعلم أنَّ ما ذُكر عن يأجوج ومأجوج من أنَّ فيهم مَن طولُه قدرَ شبرٍ ـ بعد تسليمه ـ لقائل أن يقول فيه: إنَّ ذلك حين يفتح السدُّ، وهو في آخر الزمان ولا يتمُّ الاستنادُ بحالهم إلا إذا ثبت أنَّ فيهم مَن هو كذلك في الزمن القديم.

وما ذكر من إعطائه قوَّة التشكُّلِ احتمالٌ بعيدٌ، وفي ثبوته للأولياء خلافُ كثيرٍ من المحدِّثين. وقال بعض الناس: لو أعطي أحدٌ من البشر هذه القوَّةَ لأعطيها النبيُّ ﷺ يومَ الهجرة، فاستغنَى بها عن الغار وجعلَها حجاباً له عن الكفار، وللبحث في هذا مجالٌ.

وعن الثاني من الوجوه: بأنَّه لا يلزمُ مِن عدم نقلِ كونه في السفينة ـ إن قلنا بأنَّه عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام ـ عدمُ وجوده؛ لجواز أنَّه كان ولم يُنقل، مع أنَّه يحتمل أن يكونَ قد رَكِب ولم يشاهَد. وهذا كما ترى.

وقال بعضُ الناس: إذا كان احتمالُ إعطاءِ قوَّة التشكُّلِ قائماً عند القائلين بالتعمير فليقولوا: يحتمل أنَّه عليه السلام قد تشكَّل فصار في غايةٍ من الطول بحيث خاض في الماء ولم يَحتج إلى الركوب في السفينة على نحوِ ما يزعمه أهلُ الخرافات في عوج بن عوق.

وأيضاً هم يقولون: له قدرةُ الكون في الهواء، فما منعهم من أن يقولوا بأنَّه

يحتمل أنَّه لم يركب وتحفَّظ عن الماء بالهواء، كما قالوا باحتمالِ أنَّه كان في الهواء، في الجواب عن حديث البخاريِّ[١].

وأيضاً ذكر بعضُهم عن العلامي[٢] في تفسيره أنَّ الخضر يدور في البحار يهدي مَن ضلَّ فيها، وإلياس يدور في الجبال يهدي مَن ضلَّ فيها، هذا دأبُهما في النهار، وفي الليل يجتمعان عند سدِّ يأجوج ومأجوج يحفظانه، فلِمَ لم يقولوا: إنَّه عليه السلام بقي في البحر حين ركب غيرُه السفينةَ؟

ولعلهم إنما لم يقولوا ذلك لأنَّ ما ذكر قد رَوَى قريباً منه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أنس مرفوعاً، ولفظه: «إنَّ الخضرَ في البحر، وإلياس في البرِّ، يجتمعان كلَّ ليلةٍ عند الردم الذي بناه ذو القرنين» الخبر[٣]، وقد قالوا: إنَّ سندَه واهٍ.

أو: لأنَّهم لا يُثبِتون له هذه الخدمةَ الإلهية في ذلك الوقت، ويوشك أن يقولوا في إعطائه قوةَ التشكُّل والكون في الهواء كذلك.

وعن الثالث: بأنَّه لا نسلِّم الاتفاقَ على أنه مات كلُّ أهل السفينة، ولم يبق بعد الخروج منها غيرُ نسل نوح عليه السلام، والحصر في الآية إضافيٌّ بالنسبة إلى المكذِّبين بنوح عليه السلام.

وأيضاً المرادُ أنَّه مات كلُّ مَن كان ظاهراً مشاهداً غير نسله عليه السلام، بدليل أنَّ الشيطانَ كان أيضاً في السفينة.

وأيضاً المرادُ من الآية بقاءُ ذريته عليه السلام على وجه التناسُل، وهو لا ينفي بقاءَ مَن عداهم من غير تناسُلٍ، ونحن ندَّعي ذلك في الخضر.

على أنَّ القول بأنَّه كان قبل نوح عليهما السلام قولٌ ضعيفٌ، والمعتمد كونُه بعد ذلك، ولا يخفى ما في بعض ما ذكر من الكلام.

---

(١) في صحيحه برقم (١١٦) وسلف ص٤٣٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، له: فتح المنان في تفسير القرآن، توفي (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٣٥.

(٣) زوائد مسند الحارث للهيثمي (٩٢٦)، وفيه: اليسع، بدل: الخضر، قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢٧٨، فيه ضعفٌ جدًّا.

وعن الرابع: بأنه لا يلزم من كون تعميره من أعظم الآيات أن يُذكَر في القرآن العظيم كرَّاتٍ، وإنَّما ذكر سبحانه نوحاً عليه السلام تسليةً لنبينا ﷺ بما لاقى من قومه في هذه المدَّة مع بقائهم مصرِّين على الكفر حتى أُغرقوا، ولا توجد هذه الفائدةُ في ذكر عمر الخضر عليه السلام لو ذكر، على أنه قد يقال: مِن ذكر طول عمر نوح عليه السلام تصريحاً يُفهَم تجويزُ عمرٍ أطولَ من ذلك تلويحاً.

وتعقِّب بأنَّ لنا أن نعودَ فنقول: لا أقلَّ من أن يذكر هذا الأمرُ العظيم في القرآن العظيم مرَّة، لأنَّه من آيات الربوبية في النوع الإنسانيِّ، وليس المرادُ أنه يلزم عقلاً من كونه كذلك ذِكْرُه، بل ندَّعي أنَّ ذكرَ ذلك أمرٌ استحسانيٌّ، لا سيَّما وقد ذُكر تعميرُ عدوِّ الله تعالى إبليس عليه اللعنة، فإذا ذُكر يكون القرآن مشتملاً على ذكر معمَّرٍ من الجنِّ مُبعَدٍ، وذكرِ معمَّرٍ من الإنس مقرَّبٍ، ولا يخفى حُسنُه. وربَّما يقال: إنَّ فيه أيضاً إدخالَ السرور على النبيِّ ﷺ، وبأنَّ التجويزَ المذكورَ في حيِّز العلاوة مما لا كلامَ فيه، إنَّما الكلام في الوقوع، ودون إثباته الظفرُ بماء الحياة.

وأجابَ بعضُهم بأنَّ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إشارةً إلى طول عمره عليه السلام على ما سمعتَ عن بعضٍ في تفسيره. ورُدَّ بأنَّ تفسيرَه بذلك مبنيٌّ على القول بالتعمير، فإنْ قُبِلَ قُبِل، وإلا فلا.

وعن الخامس: بأنَّا نختار أنَّه ثابتٌ بالسنة، وقد تقدَّم لك طرفٌ منها.

وتعقِّب بما نقله علي القاري عن ابن قيم الجوزية أنَّه قال: إنَّ الأحاديثَ التي يذكر فيها الخضرُ عليه السلام وحياتُه كلُّها كذبٌ، ولا يصحُّ في حياته حديثٌ واحدٌ[١]. ومن ادَّعى الصحَّةَ فعليه البيانُ.

وقيل: يكفي في ثبوته إجماعُ المشايخ العظام وجماهيرُ العلماء الأعلام، وقد نقل هذا الإجماعَ ابنُ الصلاح والنوويُّ[٢] وغيرهما من الأجلَّة الفخام.

وتعقِّب بأنَّ إجماع المشايخ غير مسلَّم، فقد نقل الشيخ صدر الدين إسحاق

---

(١) اللؤلؤ المرصوع للملا علي القاري ١/ ٨٨، وكلام ابن القيم في المنار المنيف ١/ ٦٧.
(٢) في شرح مسلم ١٥/ ١٣٦، وقد سلف ص٤٤٠ من هذا الجزء.

القونويُّ في «تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي»[١] أنَّ وجودَ الخضر عليه السلام في عالم المثال. وذهب عبد الرزاق الكاشي[٢] إلى أنَّ الخضر عبارةٌ عن البسط، وإلياس عن القبض. وذهب بعضُهم إلى أنَّ الخضريةَ رتبةٌ يتولَّاها بعضُ الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمن موسى عليهما السلام. ومع وجود هذه الأقوال لا يتمُّ الإجماع، وكونُها غيرَ مقبولةٍ عند المحقِّقين منهم لا يتمِّمُه أيضاً، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابنُ الصلاح والنوويُّ مسلَّم، لكنه ليس الإجماع الذي هو أحد الأدلة الشرعية، والخصم لا يقنع إلا به، وهو الذي نفاه، فأنَّى بإثباته. ولعلَّ الخصمَ لا يعتبِرُ أيضاً إجماعَ المشايخ قدست أسرارهم إجماعاً هو أحدُ الأدلة.

وعن السادس: بأنَّ له علاماتٍ عند أهله ككون الأرضِ تخضرُّ عند قدمه، وأنَّ طولَ قدمه ذراعٌ، وربما يظهر منه بعضُ خوارق العادات مما يشهد بصدقه، على أنَّ المؤمنَ يصدِّق بقوله بناءً على حسن الظنِّ به، وقد شاع بين زاعمي رؤيته عليه السلام أنَّ من علاماتِه أنَّ إبهامَ يده اليمنى لا عظم فيه، وأنَّ بؤبؤ إحدى عينيه يتحرَّكُ كالزئبق.

وتعقِّب بأنَّه بأيِّ دليل ثبت أنَّ هذه علاماتُه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. والذي ثبت في الحديث الصحيح أنَّه إنما سمِّي الخضر لأنَّه جلس على فروةٍ بيضاء، فإذا هي تهتزُّ من خلفه خضراءَ[٣]. وأين فيه ثبوتُ ذلك له دائماً؟ وكونُ طولِ قدمه ذراعاً إنما جاء في خبر محمد بن المنكدر السابق[٤] عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولا نسلِّم صحتَه. على أنَّ زاعمي رؤيته يزعمون أنَّهم يرونه في صورٍ مختلفةٍ، ولا يكاد يستقرُّ له عليه السلام قدمٌ على صورةٍ واحدةٍ، وظهورُ الخوارق مشتركٌ بينه وبين غيره من أولياء الأمة، فيمكن أن يظهرَ وليٌّ خارقاً ويقول: أنا الخضر. مجازاً لأنه على قدمه، أو لاعتبارٍ آخر،

---

(١) رسالة فارسية في أصول المعارف وقواعد طور الولاية. كشف الظنون ١/ ٣٣٥.

(٢) هو كمال الدين أبو الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي، المتوفى سنة (٧٣٠هـ)، من كتبه: اصطلاحات الصوفية، وتفسير اسمه: تأويلات القرآن. كشف الظنون ١/ ١٠٧ و٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ص٤٣٣ من هذا الجزء.

(٤) ص٤٤٢ من هذا الجزء.

ويَدْعوه لذلك داعٍ شرعيٌّ، وقد صحَّ في حديث الهجرة[1] أنَّه ﷺ لمَّا قيل له: ممن القوم؟ قال: «منْ ماء» فظنَّ السائلُ أنَّ «ماء» اسمُ قبيلةٍ، ولم يَعنِ ﷺ إلَّا أنَّهم خُلِقوا من ماءٍ دافق.

وقد يقال للصوفي: إنَّ «أنا الخضرُ» مع ظهور الخوارق لا يُتيقَّن منه أنَّ القائلَ هو الخضرُ بالمعنى المتبادِر في نفس الأمر، لجواز أن يكونَ ذلك القائلُ ممن هو فانٍ فيه لاتحاد المشرب، وكثيراً ما يقول الفاني في شيخه: أنا فلانٌ. ويذكر اسمَ شيخه، وأيضاً متى وقع من بعضهم قولُ: أنا الحقُّ. و: ما في الجبة إلا الله. لم يبعُد أن يقعَ: أنا الخضر. وقد ثبت عن كثير منهم نظماً ونثراً قول: أنا آدمُ، أنا نوح، أنا إبراهيم، أنا موسى، أنا عيسى، أنا محمد، إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك، وذكروا له محملاً صحيحاً عندهم، فليكن قولُ: أنا الخضر. ممن ليس بالخضر على هذا الطرز، ومع قيام هذا الاحتمال كيف يحصل اليقينُ؟ وحُسن الظنِّ لا يحصل منه ذلك.

وعن السابع: بأنَّا لا نسلِّم اجتماعَه بجَهَلة العبَّاد الخارجين عن الشريعة، ولا يلتفت إلى قولهم، فالكذَّابون الدجَّالون يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، فلا يبعُد أن يكذبوا على الخضر عليه السلام، ويقولوا: قال، وجاء. إنَّما القولُ باجتماعه بأكابر الصوفية والعبَّاد المحافظين على الحدود الشرعية، فإنَّه قد شاع اجتماعُه بهم حتى إنَّ منهم مَن طلب الخضرُ مرافقتَه فأبى، ورُوي ذلك عن عليٍّ الخواص رحمة الله تعالى عليه في سفر حجِّه، وسُئل عن سبب إبائه فقال: خفت من النقص في توكُّلي حيث أعتمدُ على وجوده معي.

وتعقِّب بأنَّ اجتماعَه بهم واجتماعَهم به يحتمل أن يكونَ من قبيل ما يذكرونه من اجتماعهم بالنبيِّ ﷺ واجتماعه عليه الصلاة والسلام بهم، وذلك أنَّ الأرواحَ المقدَّسة قد تظهر متشكِّلة، ويجتمع بها الكاملون من العباد، وقد صحَّ أنه ﷺ رأى موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره[2]، ورآه في السماء[3]، ورآه يطوف

---

(١) الذي في سيرة ابن هشام ١/٦١٦ أنَّ هذا في غزوة بدرٍ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥)، من حديث أنس، وسلف ص١٠٤ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ، وسلف ص١٠٤ من هذا الجزء.

بالبيت[١]. وادَّعى الشيخ الأكبر قدِّس سره الاجتماعَ مع أكثر الأنبياء عليهم السلام، لاسيما مع إدريس عليه السلام، فقد ذكر أنَّه اجتمع به مراراً وأخذ منه علماً كثيراً، بل قد يجتمع الكاملُ بمن لم يولَد بعد كالمهديِّ، وقد ذكر الشيخ الأكبر أيضاً اجتماعه معه، وهذا ظاهرٌ عند مَن يقول: إنَّ الأزلَ والأبد نقطةٌ واحدةٌ، والفرقُ بينهما بالاعتبار عند المتجرِّدين عن جلابيب أبدانهم، ولعلَّ كثرةَ هذا الظهور والتشكُّل من خصوصيات الخضر عليه السلام، ومع قيام هذا الاحتمال لا يحصل يقينٌ أيضاً بأنَّ الخضر المرئيَّ موجودٌ في الخارج كوجود سائر الناس فيه كما لا يخفى.

ومما ينبئ على اجتماعه عليه السلام بالكاملين من أهل الله تعالى بعضُ طرقِ إجازتنا بالصلاة البشيشية[٢] فإني أرويها من بعض الطرق عن شيخي علاء الدين علي أفندي الموصلي، عن شيخه ووالده صلاح الدين يوسف أفندي الموصلي، عن شيخه خاتمة المرشدين السيد علي البندنيجي، عن نبي الله تعالى الخضر عليه السلام، عن الوليِّ الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدِّس سره.

وعن الثامن: بأنَّا نسلِّم[٣] أنَّ القولَ بعدم إرساله ﷺ إليه عليه السلام كفرٌ، وبفرض أنَّه ليس بكفر هو قولٌ باطلٌ إجماعاً، ونختار أنَّه أتى وبايع، لكن باطناً حيث لا يشعُر به أحدٌ، وقد عدَّه جماعةٌ من أرباب الأصول في الصحابة. ولعلَّ عدم قبول روايته لعدم القطع في وجوده وشهوده في حال رؤيته. وهو كما ترى.

وعن التاسع: بأنَّه مجازفةٌ في الكلام، فإنَّه مِن أين يُعلَم نفْي ما ذكره من حضور الجهاد وغيره عن الخضر عليه السلام، مع أنَّ العالم بالعلم اللدنيِّ لا يكون مشتغلاً إلا بما علَّمه الله تعالى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بحسب ما يقتضي الأمرُ والشأن.

---

(١) لم نقف عليه، وعند البخاري (٣٤٤٠) من حديث ابن عمر أنه ﷺ رأى عيسى يطوف بالبيت، و(١٥٥٥) من حديث ابن عباس: «أما موسى: كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبِّي».

(٢) «البشيشية» - ورويت بالميم - هي صلاة على النبي ﷺ بألفاظ مخصوصة تنسب إلى عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر، أحد العارفين، قتله جماعة في سنة (٦٢٢هـ). جامع كرامات الأولياء ٢/ ٦٩، والأعلام ٤/ ٩.

(٣) في (م): لا نسلِّم. وهو خطأ.

وتعقّب بأنَّ النفْي مستندٌ إلى عدم الدليل، فنحن نقول به إلى أن يقوم الدليل، ولعله لا يقوم حتى يقومَ الناسُ لرب العالمين، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في العلم اللدنيّ والعالم به.

وبالجملة قد ظهر لك حالُ معظم أدلَّة الفريقين وبقي ما استدلَّ به البعضُ من الاستصحاب، وأنت تعلم أنه حجةٌ عند الشافعيّ والمزنيّ وأبي بكر الصيرفيّ[1] في كل شيء نفياً وإثباتاً ثبت تحقُّقه بدليلٍ ثم وقع الشك في بقائه إن لم يقع ظنٌّ بعدمه، وأما عندنا وكذا عند المتكلِّمين فهو من الحجَج القاصرة التي لا تصلح للإثبات، وإنما تصلح للدفع بمعنى أن لا يثبُت حكم، وعدمُ الحكم مستندٌ إلى عدم دليله، والأصلُ في العدم الاستمرارُ حتى يظهر دليلُ الوجود، فالمفقود يرث عنده لا عندنا؛ لأنَّ الإرث من باب الإثبات، فلا يثبت به ولا يورث، لأنَّ عدم الإرث من باب الدفع فيثبت به، ويتفرَّعُ على هذا الخلافِ فروعٌ أُخَرُ ليس هذا محلُّ ذكرها.

وإذا كان حكم الاستصحاب عندنا ما ذكر فاستدلال الحنفيّ به على إثبات حياة الخضر عليه السلام اليومَ، وأنَّها متيقَّنةٌ لا يخلو عن شيء، بل استدلال الشافعيّ به على ذلك أيضاً كذلك، بناءً على أنَّ صحةَ الاستدلال به مشروط بعدم وقوع ظنٍّ بالعدم، فإنَّ العادةَ قاضيةٌ بعدم بقاء الآدميّ تلك المدةَ المديدةَ والأحقابَ العديدة.

وقد قيل: إنَّ العادةَ دليلٌ معتبرٌ، ولولا ذلك لم يُؤثِّر خرقُ العادة بالمعجزة في وجوب الاعتقاد والاتباع، فإن لم تُفِد يقيناً بالعدم فيما نحن فيه أفادت الظنَّ به، فلا يتحقَّق شرطُ صحة الاستدلال، وعلى هذا فالمعوَّل عليه الخالصُ من شوب الكدر الاستدلالُ بأحد الأدلة الأربعة، وقد علمتَ حالَ استدلالهم بالكتاب والسنة وما سمَّوه إجماعاً، وأما الاستدلالُ بالقياس هنا فمما لا يُقدِمُ عليه عاقلٌ فضلاً عن فاضلٍ.

ثم اعلم بعد كلِّ حسابٍ أنَّ الأخبار الصحيحة النبوية والمقدِّماتِ الراجحةَ العقليةَ تُساعِد القائلين بوفاته عليه السلام أيَّ مساعدةٍ، وتعاضدُهم على دعواهم أيَّ معاضدةٍ، ولا مقتضي للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلَّا مراعاةُ ظواهرِ الحكايات المرويةِ ـ والله تعالى أعلم بصحتها ـ عن بعض الصالحين الأخيار، وحسنُ الظنِّ

---

(١) هو محمد بن عبد الله الصيرفي، الفقيه الأصولي، الشافعي، توفي بمصر سنة (٣٣٠هـ).

ببعض السادة الصوفية، فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجهٍ لا يقبل التأويلَ السابق، ففي الباب الثالث والسبعين من «الفتوحات المكية»:

اعلم أنَّ الله تعالى في كلِّ نوع من المخلوقات خصائصَ وصَفْوةً، وأعلى الخواصِّ فيه من العباد الرسلُ عليهم السلام، ولهم مقامُ الرسالة والنبوة والولاية والإيمان، فهم أركانُ بيت هذا النوع، والرسولُ أفضلُهم مقاماً وأعلاهم حالاً، بمعنى أنَّ المقامَ الذي أُرسل منه أعلى منزلةً عند الله تعالى من سائر المقامات، وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد الذين يحفظ الله تعالى بهم العالم ويصون بهم بيتَ الدين القائم بالأركان الأربعة: الرسالة والنبوة والولاية والإيمان، والرسالةُ هي الركن الجامعُ، وهي المقصودةُ من هذا النوع، فلا يخلو من أن يكونَ فيه رسولٌ كما لا يزال دين الله تعالى، وذلك الرسول هو القطب الذي هو موضعُ نظر الحقِّ، وبه يبقى النوعُ في هذه الدار ولو كفر الجميعُ، ولا يصحُّ هذا الاسم على إنسان إلا أن يكونَ ذا جسم طبيعيٍّ وروحٍ، ويكون موجوداً في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذَّى وهو مجلَّى الحقِّ من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة.

ولمَّا توفي رسول الله ﷺ بعد ما قرَّر الدينَ الذي لا يُنسخ والشرع الذي لا يُبدَّل، ودخل الرسلُ كلُّهم عليهم السلام في ذلك الدين، وكانت الأرض لا تخلو من رسول حسيٍّ بجسمه لأنه قطبُ العالم الإنساني، وإن تعدَّد الرسلُ كان واحد منهم هو المقصود = أبقى الله تعالى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار أربعةً: إدريسَ وإلياس وعيسى والخضر عليهم السلام، والثلاثة الأُوَل متفقٌ عليهم، والأخير مختلفٌ فيه عند غيرنا لا عندَنا، فأسكن سبحانه إدريسَ في السماء الرابعة، وهي وسائر السماوات السبع من الدار الدنيا؛ لأنها تتبدَّل في الدار الأخرى كما تتبدَّل هذه النشأةُ الترابيةُ مِنَّا بنشأة أخرى، وأبقى الآخرين في الأرض، فهم كلُّهم باقُون بأجسامهم في الدار الدنيا، وكلُّهم الأوتاد، واثنان منهم الإمامان، وواحدٌ منهم القطبُ الذي هو موضع نظر الحقِّ من العالم، وهو ركنُ الحجر الأسود من أركان بيت الدين، فما زال المرسَلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة، وإن كانوا على شرع نبينا ﷺ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبالواحد منهم يحفظ الله تعالى الإيمانَ، وبالثاني الولايةَ، وبالثالث النبوةَ، وبالرابع الرسالةَ، وبالمجموع الدينَ الحنفيَّ، والقطبُ من هؤلاء لا يموت أبداً، أي: لا يصعَقُ. وهذه المعرفةُ لا يعرفها من أهل طريقتنا إلا الأفراد الأمَناء، ولكلِّ واحدٍ منهم من هذه الأمة في كلِّ زمان شخصٌ على قلبه مع وجودِهم ويقال لهم: النُّوَّاب، وأكثر الأولياء من عامة أصحابنا لا يعرفون إلا أولئكَ النوَّابَ، ولا يعرفون أولئك المرسَلين، ولذا يتطاوَلُ كلُّ واحدٍ من الأمة لنيل مقام القطبية والإمامية والوتدية، فإذا خُصُّوا بها عرفوا أنَّهم نُوَّابٌ عن أولئك المرسلين عليهم السلام.

ومن كرامة نبيِّنا ﷺ أن جعل مِن أمته وأتباعه رسلاً، وإن لم يُرسَلوا، فهم من أهل هذا المقام الذي منه يُرسَلون وقد كانوا أُرسِلوا، فلهذا صلى ﷺ ليلةَ الإسراء بالأنبياء عليهم السلام لتصحَّ له الإمامةُ على الجميع حيًّا بجسمانيته وجسمه، فلمَّا انتقل عليه الصلاة والسلام بقي الأمرُ محفوظاً بهؤلاء الرسُل عليهم السلام، فثبت الدينُ قائماً بحمد الله تعالى وإن ظهر الفسادُ في العالم، إلى أن يرثَ الله تعالى الأرضَ ومَن عليها، وهذه نكتةٌ فاعرف قدرَها فإنك لا تراها في كلام أحدٍ غيرنا. ولولا ما أُلقي عندي مِن إظهارها ما أظهرتُها لسرٍّ يعلمه الله تعالى ما أعلَمَنا به. ولا يَعرِف ما ذكرناه إلا نوابهم دون غيرهم من الأولياء، فاحمدوا الله تعالى يا إخواننا، حيث جعلكم الله تعالى ممن قرع سمعَه أسرارُ الله تعالى المخبوءةُ في خلقه، التي اختصَّ بها مَن شاء من عباده، فكُونُوا لها قابلين، وبها مؤمنين، ولا تُحرَموا التصديقَ بها فتُحرَموا خيرَها(١). انتهى.

وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قولٌ مرجوحٌ عند جمهور العلماء، والقولُ بحياته وبقائه إلى يوم القيامة، وكذا بقاء عيسى عليه السلام، والمشهورُ أنَّه بعد نزوله إلى الأرض يتزوَّج ويُولَد له، ويُتوفَّى ويُدفَن في الحجرة الشريفة مع رسول الله ﷺ، وليُنظر ما وجهُ قولِه قدِّس سرُّه بإبقاء عيسى عليه السلام في الأرض، وهو اليومَ في السماء كإدريس عليه السلام.

ثم إنك إن اعتبرتَ مثل هذه الأقوال وتلقَّيتَها بالقبول لمجرَّد جلالة قائلِها

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٥-٦.

وحُسن الظنّ فيه فقل بحياة الخضر عليه السلام إلى يوم القيامة، وإن لم تَعتبِر ذلك وجعلتَ الدليلَ وجوداً وعدماً مداراً للقبول والردِّ، ولم تغُرَّك جلالةُ القائل ـ إذ كلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويردُّ ما عدا رسول الله ﷺ، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: لا تنظر إلى مَن قال، وانظر ما قال ـ فاستفتِ قلبك بعد الوقوف على أدلَّة الطرفين، وما لها وما عليها، ثم اعمل بما يفتيك.

وأنا أرى كثيراً من الناس اليومَ بل في كثير من الأعصار يُسمُّون مَن يخالف الصوفية في أيِّ أمرٍ ذهبوا إليه: منكِراً، ويعدُّونه سيِّئ العقيدة، ويعتقدون بمن يوافقهم ويؤمن بقولهم الخيرَ، وفي كلام الصوفية أيضاً نحو هذا، فقد نقل الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في الباب السابق عن أبي يزيد البسطاميِّ قدِّس سرُّه أنه قال لأبي موسى الدبيلي[1]: يا أبا موسى، إذا رأيتَ مَن يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك، فإنه مجابُ الدعوة[2].

وذكر أيضاً أنه سمع أبا عمران موسى بن عمران الإشبيلي يقول لأبي القاسم بن عفير الخطيب، وقد أنكر ما يذكر أهلُ الطريقة: يا أبا القاسم، لا تفعل، فإنك إن فعلتَ هذا جمعنا بين حرمانين لا ندري ذلك من نفوسنا، ولا نؤمن به مِن غيرنا، وما ثمَّ دليلٌ يردُّه ولا قادحٌ يقدح فيه شرعاً أو عقلاً. انتهى.

ويُفهم منه أنَّ ما يردُّه الدليل الشرعيُّ أو العقليُّ لا يقبل، وهو الذي إليه أذهب وبه أقول، وأسأل الله تعالى أن يوفقني وإياك لكلِّ ما هو مرضيٌّ لديه سبحانه ومقبول.

والتنوين في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةً﴾ للتفخيم، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾﴾ أي: علماً لا يُكتنه كنهُه ولا يقادَرُ قدرُه، وهو علمُ الغيوب وأسرارُ العلوم الخفية، وذكر «الدنا» قيل: لأنَّ العلمَ مِن أخصِّ صفاته تعالى الذاتية، وقد قالوا: إنَّ القدرةَ لا تتعلَّقُ بشيءٍ ما لم تتعلَّق الإرادةُ، وهي لا تتعلَّق ما لم يتعلَّق العلم، فالشيء يُعلَم أوَّلاً، فيراد، فتتعلَّق به القدرةُ فيوجد.

---

(١) هو ابن أخت أبي يزيد البسطامي، ينظر الطيوريات (١١٤٠).
(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٦.

وذُكر أنَّه يفهم من فحوى «من لدنا» أو من تقديمه على «علماً» اختصاصُ ذلك بالله تعالى، كأنه قيل: علماً يختصُّ بنا، ولا يُعلَم إلا بتوفيقنا(١)، وفي اختيارِ «علَّمناه» على «آتيناه» من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه.

وهذا التعليم يحتمل أن يكونَ بواسطة الوحي المسموع بلسان الملك، وهو القسم الأولُ من أقسام الوحي الظاهريِّ، كما وقع لنبينا ﷺ في إخباره عن الغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم، وأن يكون بواسطةِ الوحي الحاصل بإشارة الملك من غير بيانٍ بالكلام، وهو القسم الثاني من ذلك، ويسمَّى بالنفث كما في حديث: «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي أنَّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله تعالى وأجمِلوا في الطلب»(٢).

والإلهامُ على ما يشير إليه بعض عباراتِ القوم من هذا النوع، ويُثبِتون له مَلَكاً يسمونه مَلَكَ الإلهام، ويكون للأنبياء عليهم السلام ولغيرهم بالإجماع، ولهم في الوقوف على المغيَّبات طرقٌ تتشعَّبُ من تزكية الباطن.

والآية عندهم أصلٌ في إثبات العلم اللَّدنيِّ، وشاع إطلاقُ علمِ الحقيقة والعلمِ الباطن عليه، ولم يَرتضِ بعضُهم هذا الإطلاقَ، وقال العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعرانيُّ عليه الرحمة في كتابه المسمَّى بـ «الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة» ما لفظه: وأما زُبدةُ علم التصوُّف الذي وضع القومُ فيه رسائلَهم فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة، فمن عمِل بما علم تكلَّم بما تكلَّموا، وصار جميعُ ما قالوه بعضَ ما عنده؛ لأنَّه كلَّما ترقَّى العبد في باب الأدب مع الله تعالى دقَّ كلامُه على الأفهام، حتى قال بعضهم لشيخه: إنَّ كلامَ أخي فلان يدقُّ عليَّ فهمه، فقال: لأنَّ لك قميصين، وله قميصٌ واحد، فهو أعلى مرتبةً منك، وهذا هو الذي دعا الفقهاءَ ونحوَهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بالعلم الباطن، وليس ذلك بباطنٍ، إذ الباطنُ إنما هو علمُ الله تعالى، وأما جميعُ ما علَّمه

---

(١) في الأصل و(م): بتوقيفنا، وهو تحريف، والمثبت من تفسير البيضاوي ٦/ ١١٩ (بهامش حاشية الشهاب) والكلام منه.

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١١٥١) عن ابن مسعود بهذا اللفظ، وأخرجه البزار (٢٩١٤) من حديث حذيفة بلفظ: «. . . هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي. . .»

الخلقَ على اختلاف طبقاتهم فهو من العلم الظاهر، لأنَّه ظهر للخلق فاعلم ذلك[١]. انتهى.

والحقُّ أنَّ إطلاقَ العلم الباطن اصطلاحاً على ما وقفوا عليه صحيح، ولا مشاحَّةَ في الاصطلاح، ووجهُه أنه غيرُ ظاهرٍ على أكثر الناس، ويتوقَّف حصولُه على القوَّة القدسية دون المقدِّمات الفكرية، وإن كان كلُّ علم يتصف بكونه باطناً وكونه ظاهراً بالنسبة للجاهل به والعالم به، وهذا كإطلاقِ «العلم الغريب» على علم الأوفاق والطِّلَّسمات والجفر[٢]، وذلك لقلَّةِ وجوده والعارفين به، فاعرف ذلك.

وزعم بعضُهم أنَّ أحكامَ العلم الباطن وعلمِ الحقيقة مخالفةٌ لأحكام الظاهر وعلم الشريعة، وهو زعمٌ باطلٌ عاطلٌ، وخيالٌ فاسدٌ كاسدٌ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نقلُ نصوص القوم فيما يردُّه، وأنَّه لا مستندَ لهم في قصة موسى والخضر عليهما السلام.

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو: «لَدُنَا» بتخفيف النون[٣]، وهي إحدى اللغات في «لَدُنْ».

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من السياق، كأنه قيل: فما جرى بينهما من الكلام؟ فقيل: قال له موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانٌ منه عليه السلام في اتباعه له بشرط التعليم، ويُفهَم ذلك من «على» فقد قال الأصوليون: إنَّ «على» قد تُستَعمل في معنًى يُفهَم منه كونُ ما بعدها شرطاً لِمَا قبلها، كقوله تعالى: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ [الممتحنة:١٢] أي: بشرط عدم الإشراك، وكونُها للشرط بمنزلة الحقيقة عند الفقهاء كما في «التلويح»، لأنَّها في أصل الوضع للإلزام، والجزاءُ لازمٌ للشرط، ويلوح بهذا أيضاً كلامُ الفناري في

(١) الدرر المنثورة ص ٥٦، وسلف ٤/ ١١٧ و٧/ ٣١٣.

(٢) علم الأوفاق من فروع علم العدد، والوفق جداول مربعة، لها بيوت مربعة، يوضع في تلك البيوت أرقام عددية، أو حروف بدل العدد بشروط، وتترتب عليه آثار وتصرفات عجيبة. أبجد العلوم ٢/ ٧٩ وسلف الكلام عن الطلمسات ٢/ ٣٦٧، وعن الجفر ٤/ ٢١٦.

(٣) البحر ٦/ ١٤٧.

«بدائع الأصول»، وهو ظاهرٌ في أنها ليست حقيقةً في الشرط، وذكر السرخسيُّ(١) أنَّه معنًى حقيقيٌّ لها، لكن النحاةَ لم يتعرَّضُوا له، وقد تردَّد السبكيُّ في وُرُوده في كلام العرب، والحقُّ أنَّه استعمالٌ صحيحٌ يشهدُ به الكتابُ، حقيقةً كان أو مجازاً، ولا ينافي انفهامُ الشرطية تعلُّقَ الحرف بالفعل الذي قبله؛ كما قالوا فيما ذكرنا من الآية، كما أنَّه لا ينافيه تعلُّقَه بمحذوفٍ يقع حالاً كما قيل به هنا، فيكون المعنى: هل أتبعك باذلاً تعليمَك إياي؟ ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: علماً ذا رُشدٍ، وهو إصابةُ الخير.

وقرأ أبو عمرو والحسن والزهريُّ وأبو بحرية وابن محيصن وابن مناذر ويعقوب وأبو عبيد واليزيديُّ: «رَشَداً» بفتحتين(٢)، وأكثرُ السبعة بالضمِّ والسكون(٣)، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل.

ونصبُه في الأصل على أنه صفةٌ للمفعول الثاني لـ «تعلِّمني»، ووُصِف به للمبالغة، لكن أقيم مقامَه بعد حذفه، والمفعول الثاني لـ «عُلِّمت» الضمير العائد على «ما» الموصولة، أي: مِن الذي عُلِّمته، والفعلان مأخوذان من «عَلِمَ» المتعدِّي إلى مفعول واحد.

وجوِّز أن يكون «مما علِّمتَ» هو المفعول الثاني لـ «تعلِّمني»، و«رشدا» بدلٌ منه، وهو خلافُ الظاهر. وأن يكون «رشداً» مفعولاً له لـ «أتبعك»، أي: هل أتبعك لأجل إصابة الخير، فيتعيَّن أن يكونَ المفعولُ الثاني لـ «تعلِّمني» «مما علِّمت»؛ لتأويله بـ: بعض ما عُلِّمت، أو: علماً مما علِّمت. وأن يكون مصدراً بإضمار فعله - أي: أَرْشُد رشداً - والجملة استئنافية والمفعول الثاني «مما علمت» أيضاً.

واستشكل طلبه عليه السلام بأنه رسولٌ من أولي العزم، فكيف يتعلَّم من غيره، والرسولُ لا بدَّ أن يكونَ أعلمَ أهل زمانه؟ ومن هنا قال نوف وأضرابه: إنَّ موسى هذا ليس هو ابن عمران(٤). وإن كان ظاهر إطلاقه يقتضي أن يكونَ إياه.

---

(١) في أصوله ١/ ٢٢٢.
(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١-٣١٢ عن أبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٦/ ١٤٨.
(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٢.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٠).

وأجيب بأنَّ اللازمَ في الرسول أن يكونَ أعلم في العقائد وما يتعلَّق بشريعته، لا مطلقاً، ولذا قال نبينا ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1]. فلا يضرُّ في منصبه أن يتعلَّم علوماً غيبيةً وأسراراً خفيةً لا تعلُّقَ لها بذلك من غيره، لا سيما إذا كان ذلك الغير نبيًّا أو رسولاً أيضاً، كما قيل في الخضر عليه السلام، ونظيرُ ما ذكر من وجهٍ تعلُّمُ عالمٍ مجتهدٍ كأبي حنيفة والشافعيِّ رضي الله عنهما علمَ الجفر مثلاً ممن دونه، فإنَّه لا يخلُّ بمقامه، وإنكارُ ذلك مكابرة.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّ علمَ الغيب ليس علماً ذا رُشدٍ، أي: إصابةِ خيرٍ، وموسى عليه السلام كان بصددِ تعلُّمِ علم يصيب به خيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال بعضهم: اللازم كونُ الرسول أعلمَ من أمته، والخضر عليه السلام نبيٌّ لم يُرسَل إليه، ولا هو مأمورٌ باتباع شريعته، فلا ينكَر تفرُّدُه بما لم يعلمه غيرُه، ولا يخفى أنَّه على هذا ليس الخضرُ عليه السلام من بني إسرائيل؛ لأنَّ الظاهرَ إرسالُ موسى عليه السلام إليهم جميعاً. كذا قيل.

ثم إنَّ الذي أميل إليه أنَّ لموسى عليه السلام علماً بعلم الحقيقة المسمَّى بالعلم الباطن والعلم اللدني، إلا أنَّ الخضر أعلم به منه، وللخضر عليه السلام سواءٌ كان نبيًّا أو رسولاً علماً بعلم الشريعة المسمَّى بالعلم الظاهر، إلا أنَّ موسى عليه السلام أعلمُ به منه، فكلٌّ منهما أعلمُ مِن صاحبه من وجهٍ، ونعت الخضر عليه السلام في الأحاديث السابقة بأنَّه أعلمُ من موسى عليه السلام، ليس على معنى أنه أعلمُ منه من كلِّ وجهٍ، بل على معنى أنه أعلمُ من بعض الوجوه وفي بعض العلوم، لكن لمَّا كان الكلامُ خارجاً مخرج العتب والتأديب أُخرِج على وجهٍ ظاهرُه العمومُ، ونظيرُ هذا آياتُ الوعيد على ما قيل من أنها مقيَّدةٌ بالمشيئة؛ لكنها لم تُذكر لمزيد الإرهاب.

وأفعل التفضيل وإن كان للزيادة في حقيقة الفعل إلا أنَّ ذلك على وجهٍ يعمُّ الزيادةَ في فردٍ منه، ويدلُّ على ذلك صحةُ التقييد بقسم خاصٍّ، كما تقول: زيد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وسلف ١٤/ ٢٦٣.

أعلمُ من عمرو في الطبِّ، وعمرو أعلم منه في الفلاحة. ولو كان معناه الزيادةَ في مطلق العلم كان قولك: زيدٌ أعلمُ من عمرو، مستلزماً لأن لا يكونَ عمرو أعلمَ منه في شيء من العلوم، فلا يصحُّ تفضيلُ عمرو عليه في علم الفلاحة، وإنكارُ صدق الأعلم المطلق مع صدق المقيد التزامٌ لصدق المقيَّد بدون المطلق، وقد جاء إطلاقُ أفعل التفضيل والمرادُ منه التفضيلُ من وجهٍ على ما ذكره الشيخ ابن الحاجب في «أمالي القرآن» ضمنَ عدادِ الأوجه في حلِّ الإشكال المشهور في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف:٤٨] من أنَّ المراد: إلا هي أكبرُ من أختها من وجه، ثم قال: وقد يكون الشيئان كلٌّ واحدٍ منهما أفضلُ من الآخر من وجه.

وقد أشبع الكلامَ في هذا المقام مولانا جلال الدين الدواني فيما كتبه على «الشرح الجديد للتجريد» وحقَّقه بما لا مزيد عليه.

ومما يدلُّ على أنَّ لموسى عليه السلام علماً ليس عند الخضر عليه السلام ما أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ من حديث ابن عباس مرفوعاً، أن الخضر عليه السلام قال: «يا موسى، إني على عِلْمٍ من عِلْم الله تعالى علَّمنيه، لا تعلمه أنت، وأنتَ على علمٍ من علم الله تعالى علَّمكه الله سبحانه لا أعلمه»[(١)].

وأنت تعلم أنه لو لم يكن قولُه تعالى لموسى عليه السلام المذكورُ في الأحاديث السابقة: «إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلمُ منك»[(٢)]. على معنى: أعلم في بعض العلوم، بل كان على معنى: أعلم في كلِّ العلوم، أَشْكَلَ الجمعَ بينه وبين ما ذكرنا من كلام الخضر عليه السلام.

ثم على ما ذكرنا ينبغي أن يراد من العلم الذي ذكر الخضرُ أنه يعلمه هو ولا يعلمه موسى عليهما السلام بعضُ علم الحقيقة، ومن العلم الذي ذكر أنه يعلمه موسى ولا يعلمه هو عليهما السلام بعضُ علم الشريعة، فلكلٍّ من موسى

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وسنن الترمذي (٣١٤٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٢٤٥) وهي قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب ﷺ، وهو عند أحمد (٢١١١٤).

(٢) المصادر السابقة.

والخضر عليهما السلام علمٌ بالشريعة والحقيقة إلا أنَّ موسى عليه السلام أزيَدُ بعلم الشريعة، والخضرَ عليه السلام أزيَدُ بعلم الحقيقة، ولكن نظراً للحالة الحاضرة كما ستعلم وجهَه إن شاء الله تعالى، وعدمُ علم كلٍّ ببعضٍ ما عند صاحبه لا يضرُّ بمقامه.

وينبغي أن يُحمَل قولُ مَن قال كالجلال السيوطيِّ: ما جُمِعت الحقيقةُ والشريعةُ إلا لنبينا ﷺ، ولم يكن للأنبياء إلا أحدُهما = على معنى أنَّها ما جُمعت على الوجه الأكمل إلا له ﷺ، ولم يكن للأنبياء عليهم السلام على ذلك الوجه إلا أحدهما.

والحملُ على أنَّهما لم يُجمَعا على وجه الأمر بالتبليغ إلا لنبينا ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بتبليغ الحقيقة كما هو مأمورٌ بتبليغ الشريعة لكن للمستعدِّين لذلك = لا يخلو عن شيء.

ويُفهَم من كلام بعض الأكابر أنَّ علم الحقيقة من علوم الولاية، وحينئذٍ لا بدَّ أن يكون لكل نبيٍّ حظٌّ منه، ولا يلزم التساوي في علومها. ففي «الجواهر والدرر»: قلتُ للخواص عليه الرحمة: هل يتفاضَل الرسلُ في العلم؟ فقال: العلم تابعٌ للرسالة، فإنَّه ليس عند كلِّ رسولٍ من العلم إلا بقدرِ ما تحتاج إليه أمتُه فقط. فقلتُ له: هذا من حيث كونهم رسلاً، فهل حالُهم من حيث كونهم أولياء كذلك؟ فقال: لا، قد يكون لأحدهم من علوم الولاية ما هو أكثر من علوم ولايةِ أولي العزم من الرسل الذين هم أعلى منهم. انتهى.

وأنا أرى أنَّ ما يحصُل لهم من علم الحقيقة ـ بناءً على القول بأنه من علوم الولاية ـ أكثرُ مما يحصل للأولياء الذين ليسوا بأنبياء. ولا تراني أُفضِّل وليًّا ليس بنبيٍّ في علم الحقيقة على وليٍّ هو نبيٌّ، ولا أقول بولاية الخضر عليه السلام دون نبوته، وقائلو ذلك يلزمهم ظاهراً القولُ بأنَّ ما عنده من علم الحقيقة مع كونه وليًّا أكثرُ مما عند موسى عليه السلام منه، إن أثبتوا له عليه السلام شيئاً من ذلك مع كونه نبيًّا، ولكنهم لا يرون في ذلك حطًّا لقدر موسى عليه السلام. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّه عليه السلام لم يُؤتَ شيئاً من علم الحقيقة أصلاً، ومع هذا لا ينحطُّ قَدْرُه عن قَدْرِ الخضر عليهما السلام إذ له جهاتُ فضلٍ أُخَرُ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُ ما يقوله الذاهبون إلى ولايته عليه السلام.

ثم ما أراه أنا ولله تعالى الحمدُ أبعدُ عن القول بما نقل عن بعض الصوفية من أنَّ الولايةَ مطلقاً أفضلُ من النبوَّةِ، وإن كان الوليُّ لا يبلُغ درجةَ النبيِّ. وهو مردودٌ عند المحقِّقين بلا تردُّد، نعم، قد يقع تردُّدٌ في نبوة النبيِّ وولايته أيهما أفضل؟ فمن قائلٍ بأنَّ نبوتَه أفضلُ من ولايته، ومن قائلٍ بأنَّ ولايتَه أفضل. واختار هذا بعضُ العرفاء معلِّلاً له بأنَّ نبوةَ التشريع متعلِّقةٌ بمصلحة الوقت، والولايةُ لا تعلُّقَ لها بوقتٍ دون وقتٍ، وهي في النبيِّ على غاية الكمال. والمختارُ عندي الأول.

وقد ضلَّ الكراميةُ في هذا المقام فزعموا أنَّ الوليَّ قد يبلغ درجة النبيِّ بل أعلى، وردُّه ظاهرٌ، والاستدلالُ له بما في هذه القصة بناءً على القول بولاية الخضر عليه السلام ليس بشيء كما لا يخفى.

هذا، ولا يخفى على مَن له أدنى ذوقٍ بأساليب الكلام ما راعاه[1] موسى عليه السلام في سوق كلامه على علوِّ مقامه من غايةِ التواضُع مع الخضر عليه السلام، ونهايةِ الأدب واللطف، وقد عدَّ الإمامُ من ذلك أنواعاً كثيرةً أوصلها إلى اثني عشر نوعاً، إن أردتَها فارجع إلى تفسيره[2]، وسيأتي إن شاء الله عزَّ وجلَّ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ في سرد ما تدلُّ عليه آياتُ القصة بأسرها مما ذكر في كتب الحديث وغيرها.

﴿قَالَ﴾ أي: الخضرُ لموسى عليهما السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ نفيٌ لأن يصبرَ معه على أبلغ وجهٍ، حيث جيء بـ «إنَّ» المفيدةِ للتأكيد، وبـ «لن» ونفيُها آكدُ من نفي غيرها، وعُدِل عن: لن تصبر، إلى «لن تستطيع» المفيدِ لنفي الصبر بطريقٍ برهانيٍّ؛ لأنَّ الاستطاعةَ مما يَتوقَّف عليه الفعلُ فيلزم من نفيِه نفيُه، ونُكِّر «صبراً» في سياق النفي وذلك يفيدُ العمومَ، أي: لا تصبر معي أصلاً شيئاً من الصبر، وعلَّلَ ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إيذاناً بأنَّه عليه السلام يتولَّى أموراً خفيَّةَ المدار[3] منكَرةَ الظواهرِ، والرجلُ الصالح لا سيَّما صاحبُ الشريعة لا يتمالَكُ أن يشمئزَّ عند مشاهدَتِها، وكأنه عَلِم مع ذلك حدَّةَ موسى عليه السلام ومزيدَ غيرته التي أوصلته إلى أن أَخَذَ برأس أخيه يجرُّه.

---

(١) في الأصل: رعاه. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ١١٩، والكلام منه.
(٢) ٢١/ ١٥١.
(٣) في (م): المراد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٤، والكلام منه.

ونصبُ «خُبراً» على التميز المحوَّلِ عن الفاعل، والأصلُ: ما لم يُحِط به خُبرُك، وهو من «خَبر» الثلاثيِّ من باب نصر وعلم، ومعناه: عَرَف، وجوِّز أن يكون مصدراً وناصبُه «تُحِطْ»، لأنَّه يلاقيه في المعنى؛ لأنَّ الإحاطةَ تُطلَق إطلاقاً شائعاً على المعرفةِ، فكأنَّه قيل: لم تَخْبَرْه خبراً.

وقرأ الحسن وابن هرمز «خُبُرا» بضم الباء[1].

واستدلوا بالآية كما قال الإمام[2] وغيرُه على أنَّ الاستطاعةَ لا تحصُل قبلَ الفعل، قالوا: لو كانت الاستطاعةُ حاصلةً قبلَ حصول الفعل لكانت الاستطاعةُ على الصبر حاصلةً قبلَ حصول الصبر، فيكون نفيُها كذباً، وهو باطلٌ، فتعيَّن أن لا تكون قبلَ الفعل.

وأجاب الجبائيُّ بأنَّ المرادَ من هذا القول أنَّه يثقُل عليك الصبرُ، كما يقال في العرف: إنَّ فلاناً لا يستطيع أن يرى فلاناً وأن يُجالِسَه. إذا كان يثقُل عليه ذلك[3].

وتعقَّبه الإمامُ بأنَّه عدولٌ عن الظاهرِ، وأيَّد الاستدلالَ بما أيّد.

والإنصاف أنَّ الاستدلالَ بها على ما ذكر غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ المراد ليس إلا نفيَ الصبر بنفي مَا يتوقَّف هو عليه، أعني: الاستطاعة، وهذا حاصلٌ سواء كانت حاصلةً قبلُ أو مقارنةً، ثم إنَّ القولَ بأنَّ الاستطاعةَ قبل الفعل ليس خاصًّا بالمعتزلة، بل المفهوم من كلام الشيخ إبراهيم الكوراني أنه مذهبُ السلف أيضاً، وتحقيقُ ذلك في محله.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترضٍ عليك ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾﴾ عطفٌ على «صابراً»، والفعلُ يُعطَف على المفرد المشتقِّ كما في قوله تعالى ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك:١٩] بتأويلِ أحدهما بالآخر، والأَولى فيما نحن فيه التأويلُ في جانب المعطوف، أي: ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، وفي وعدِ هذا الوجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر وترك

(١) البحر ٦/١٤٨.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/١٥٢.

(٣) المصدر السابق، والكلام وما بعده منه.

العصيان، أو على «ستجدني»، والجملةُ على الأول في محل نصبٍ لأنها معطوفةٌ على المفعول الثاني للوجدان، وعلى الثاني لا محلَّ لها من الإعراب على ما في «الكشاف»[(١)].

واستشكل بأنَّ الظاهرَ أنَّ محلَّها النصبُ أيضاً لتقدُّم القول. وأجيب بأنَّ مقولَ القول هو مجموعُ المعطوف والمعطوفِ عليه، فلا يكون لأجزائه محلٌّ باعتبار الأصل.

وقيل: مرادُ الزمخشريِّ بيانُ حال العطف في القول المحكيِّ عن موسى عليه السلام. وقيل: مرادُه أنَّه ليس مؤوَّلاً بمفردٍ كما في الأول. وقيل: إنَّه مبنيٌّ على أنَّ مقول القول محذوفٌ وهذه الجملة مفسِّرةٌ له.

والظاهرُ الجواب الأول. وأوَّلُ الوجهين في العطف هو الأَوْلَى؛ لِمَا عرفتَ، ولظهور تعلُّقِ المعطوف بالاستثناء عليه. وذكر المشيئةِ إن كان للتعليق فلا إشكال في عدم تحقُّق ما وعد به.

ولا يقال إنه عليه السلام أخلف وعدَه وإن كان للتيمُّن، فإن قلنا: إنَّ الوعدَ كالوعيد إنشاءٌ لا يحتمل الصدق والكذب، أو إنَّه مقيَّدٌ بقيدٍ يُعلم بقرينة المقام ك: إن أردتُ، أو: إن لم يمنع مانعٌ شرعيٌّ، أو غيره = فكذلك لا إشكال.

وإن قلنا: إنه خبرٌ، وإنه ليس على نية التقييد، جاء الإشكالُ ظاهراً، فإنَّ الخُلف حينئذٍ كَذِبٌ، وهو غيرُ لائق بمقام النبوة لمنافاته العصمة.

وأجيب بأنَّ ما صدر منه عليه السلام في المرتين الأخيرتين كان نسياناً كما في المرَّةِ الأولى، ولا يضرُّ مثلُ هذا الخلف بمقام النبوة؛ لأنَّ النسيان عذرٌ.

وتعقِّب بأنَّه لا نسلِّم النسيانَ في المرتين الأخيرتين، ففي البخاري وشرحه لابن حجر: «وكانت الأولى نسياناً، والثانيةُ شرطاً، والثالثة عمداً». وفي رواية: «والثانيةُ عمداً والثالثةُ فراقاً»[(٢)].

---

(١) ٢/ ٤٩٣.

(٢) الرواية الأولى في صحيح البخاري (٤٧٢٦)، والثانية أخرجها ابن مردويه كما ذكر الحافظ في فتح الباري ٨/ ٤١٩، وفيه: عذر، بدل: عمد.

وقال بعضُهم: لك أن تقول: لم يقع منه عليه السلام ما يُخلُّ بمقامه؛ لأنَّ الخُلفَ في المرة الأولى معفوٌّ عنه، وحيث وقع لم تكن الأخيرتان خلفاً. وفيه تأمُّلٌ.

وقال القشيريُّ: إنَّ موسى عليه السلام وَعَد من نفسه بشيئين: بالصبر وقَرَنه بالمشيئة، فصبر فيما كان من الخضر عليه السلام من الفعل، وبأنْ لا يعصيه، فأطلَقَ ولم يَقرنه بالمشيئة، فعصاه حيث قال: «فلا تسألني»، فكان يسأله، فما قرنه بالاستثناء لم يُخلِف فيه، وما أطلقه وقع فيه الخُلف[1]. انتهى.

وهو مبنيٌّ على أنَّ العطف على «ستجدني»، وقد علمتَ أنه خلافُ الأَولى، وأيضاً المرادُ بالصبر الثباتُ والإقرارُ على الفعل وعدمُ الاعتراض، كما يُنبئ عنه المحاورةُ الآتية، وهو لم يتحقَّق منه عليه السلام، وأيضاً يبقى الكلامُ في الخلف كما لا يخفى، وأنت تعلم أنه يبعُد من حال موسى عليه السلام القطعُ بالصبر وعدمِ عصيان الأمر بعد أن أشار له الخضر عليه السلام أنه سيصدُر منه أمورٌ منكَرةٌ مخالِفةٌ لقضيةِ شريعته، فلا يبعُد منه اعتبارُ التعليق في الجملتين، ولم يأت به بعدَهما بل وسَّطه بين مفعولي الوجدان من الجملة الأولى لمزيد الاعتناء بشأنه، وبه يرتفع الإشكال من غير احتياج إلى القيل والقال، وفيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبد بمشيئته تعالى لأنه إذا صدر بعض الأفعال الاختيارية بمشيئته سبحانه لزم صدورُ الكلِّ بها؛ إذ لا قائلَ بالفرق.

والمعتزلةُ اختاروا أنَّ ذكرَ المشيئة للتيمُّن، وهو لا يدلُّ على ما ذكر، وقال بعضُ المحققين: إنَّ الاستدلالَ جارٍ أيضاً على احتمال التيمُّن؛ لأنَّه لا وجهَ للتيمُّن بما لا حقيقةَ له، وقد أشار إلى ذلك الإمامُ[2] أيضاً فافهم، وقد استَدَلَّ بالآية على أن الأمرَ للوجوب، وفيه نظرٌ.

ثم إنَّ الظاهرَ أنَّه لم يُرَد بالأمر مقابلُ النهي، بل أريد مطلقُ الطلب، وحاصلُ الآية نَفْي أن يعصيَه في كلِّ ما يطلبه.

---

(١) لطائف الإشارات ٢/٤٠٩.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/١٥٣.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ إذنٌ له عليه السلام في الاتباع بعد اللتيَّا والتي، والفاءُ لتفريع الشرطية على ما مرَّ من وعد موسى عليه السلام بالصبر والطاعة.

﴿فَلَا تَسْئَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تُشاهِده من أفعالي فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: حتى أبتَدِئَك ببيانه. والغايةُ ـ على ما قيل ـ مضروبةٌ لِمَا يُفهَم من الكلام، كأنه قيل: أَنكِرْ بقلبك على ما أفعل حتى أبيِّنه لك، أو هي لتأبيد تركِ السؤال، فإنه لا ينبغي السؤالُ بعد البيان بالطريق الأولى، وعلى الوجهين فيها إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما يصدُر عنه فله حكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ البتةَ.

وقيل: «حتى» للتعليل، وليسَ بشيء.

وقرأ نافع وابن عامر: «فلا تسئَلَنِّي» بالنون المثقَّلة مع الهمز[1]، وعن أبي جعفر: «فلا تَسَلَنِّي» بفتح السين واللام والنون المثقَّلة من غير همز[2].

وكلُّ القراء كما قال أبو بكر[3] بياءٍ في آخره، وعن ابن عامر[4] في حذف الياء خلافٌ غريبٌ.

﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضرُ عليهما السلام، ولم يُضمَّ يوشع عليه السلام لأنه في حكم التبع، وقيل: ردَّه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل.

أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن ابن عباس مرفوعاً: «أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت بهما سفينةٌ، فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوهما بغير نَولٍ»[5].

---

(١) التيسير ص١٤٢.

(٢) البحر ٦/١٤٧، وفي النشر ٢/٣١٢ أنَّه قرأ مثل قراءة نافع وابن عامر.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أبو علي، كما في البحر ٦/١٤٨.

(٤) في الأصل و(م): ابن عباس رضي الله عنهما، والمثبت من البحر ٦/١٤٨ والكلام منه، والقراء العشرة أجمعوا على إثبات الياء ما عدا ابن ذكوان (الراوي عن ابن عامر)، فروي عنه الإثبات والحذف في الحالين. التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/٣١٢.

(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٠) ومسند أحمد (٢١١١٤).

وفي رواية ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس: أنَّ أهل السفينة ظنُّوا أنَّهم لصوصٌ لأنَّ المكان كان مخوفاً فأبوا أن يحملوهم، فقال كبيرُهم: إني أرى رِجالاً على وجوههم النورُ، لأحملنَّهم. فحملهم(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ «أل» فيها لتعريف الجنس؛ إذ لم يتقدَّم عهدٌ في سفينةٍ مخصوصةٍ، وكانت ـ على ما في بعض الروايات ـ سفينةً جديدةً وثيقةً لم يمرَّ بهما من السفن سفينةٌ أحسنُ منها ولا أجملُ ولا أوثق(٢). وكانت أيضاً على ما يدلُّ عليه بعضُ الروايات الصحيحة من سفن صغارٍ يُحمل بها أهلُ هذا الساحل إلى أهل الساحل الآخر(٣). وفي رواية أبي حاتم أنَّها كانت ذاهبةً إلى أيلة.

وصحَّ: أنهما حينَ رَكِبا جاء عصفورٌ حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: «ما نَقَصَ عِلْمي وعِلْمُك من عِلْم الله تعالى إلَّا مثلَ ما نقص هذا العصفورُ من البحر»(٤). وهو جارٍ مَجرى التمثيل.

واستعمالُ الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة «في» مع تجريده عنها في مثل قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [النحل:٨] على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه، قد مرَّت الإشارة إلى وجهه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ [هود:٤١].

وقيل: إنَّ ذلك لإرادة معنى الدخول؛ كأنه قيل: حتى إذا دخلا في السفينة.

﴿خَرَقَهَاۖ﴾ صحَّ أنهما لمَّا ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواحها بالقدوم، فقال له موسى عليه السلام: قومٌ حملونا بغير نَولٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتَها(٥).

وصحَّ أيضاً أنه عليه السلام خرقها ووَتَد فيها وتداً(٦).

وقيل: قلع لَوْحَيْن مما يلي الماء.

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/٢٣٨.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/٣٢٨ عن ابن عباس عن أُبيّ.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).
(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٥) و(٤٧٢٧)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٦) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

وفي رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً: «أنَّهما لمَّا ركبا واطمأنَّا فيها ولجَّجَت بهما مع أهلها أخرج مثقاباً له ومِطرَقةً، ثم عَمد إلى ناحيةٍ منها، فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحاً فطبَّقه عليها، ثم جلس عليها يَرقَعُها»[(١)].

وهذه الرواية ظاهرةٌ في أنَّ خرْقَه إياها كان حين وصولها إلى لُجِّ البحر، وهو معظمُ مائه، وفي الرواية عن الربيع أنَّ أهلَ السفينة حملوهما فساروا حتى إذا شارفوا على الأرض خرقها[(٢)]. ويمكن الجمع بأنَّ أولَ العزم كان وهي في اللُّجِّ، وتمامُ الفعل كان وقد شارفت على الأرض.

وظاهرُ الأخبار يقتضي أنه عليه السلام خرقها وأهلُها فيها، وهو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، سواءٌ كانت اللام للعاقبة بناءً على أنَّ موسى عليه السلام حَسَّنَ الظنَّ بالخضر، أو للتعليل بناءً على أنه الأنسب بمقام الإنكار، وبعضهم لم يجوِّز هذا توهُّماً منه أنَّ فيه سوءَ أدبٍ، وليس كذلك، بل يوشك أن يتعيَّن كونُها للتعليل لأنَّ الظاهرَ بناءُ الجواب عليه كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أخرجه عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه قال: «فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة فخرج مَن كان فيها، وتخلَّف ليخرقها، فقال له موسى: تخرقها لتُغرق أهلها؟ فقال له الخضر ما قصَّ الله تعالى»[(٣)].

وهذا ظاهرٌ في أنَّه عزم على الخرق فاعترض عليه موسى عليه السلام، وهو خلاف ما تقتضيه الآية، فإن أُوِّل بأنه بتقدير: وتخلَّف ليخرقها فخرقها، وأنَّ تعبيرَ موسى عليه السلام بالمضارع استحضاراً للصورة، أو قيل بأنَّه وقع من الخضر

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٣٢٨، من حديث ابن عباسٍ عن أبيٍّ، وفي إسناده: الحسن بن عمارة وهو متروك. وقوله: لجَّجت، أي: فاضت اللُّجَّة، بالضمِّ، وهي معظم الماء. تاج العروس (لجج).

(٢) سلف تخريجه ص ٤٦١.

(٣) مسند عبد بن حميد (١٦٩)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وهو عند أحمد (٢١١١٨)، ولم يسق مسلم لفظه.

عليه السلام أولاً تصميمٌ على الخرق وتهيئةٌ لأسبابه، وثانياً خرقٌ بالفعل، ووقع من موسى عليه السلام اعتراضٌ على الأوَّل أوَّلاً، وعلى الثاني ثانياً، فنُقِل في الحديث أوَّلُ ما وقع من كلٍّ في هذه المادَّةِ، وفي الآية ثاني ما وقع من كلٍّ فيها = بقي بين ظاهر الحديث وظاهر الآية مخالفةٌ أيضاً = على ما قيل، من حيث إنَّ الأولَ يقتضي أنَّ أهلَ السفينة لم يكونوا فيها إذ خُرقت، والثاني يقتضي أنَّهم كانوا فيها حينئذٍ.

وأجيب أنَّه ليس في الحديث أكثرُ من أنَّهم خرجوا منها وتخلَّف للخرق، وليس فيه أنهم خرجوا فخرقها، فيمكن أن يكونَ عليه السلام تخلَّف للخرق إذ خرجوا، لكنه لم يفعله إلا بعد رجوعهم إليها وحصولهم فيها.

وأنتَ تعلم أنَّه ينافي هذا ما قيل في وجه الجمع بين الرواية عن سعيد والرواية عن الربيع؛ وبالجملة الجمعُ بين الأخبار الثلاثة وبينها وبين الآية صعبٌ، وقال بعضهم في ذلك: إنَّه يحتمل أنَّ السفينةَ لمَّا لجَّجت بهم صادفوا جزيرةً في اللُّجِّ فخرجوا لبعض حوائجهم وتخلَّف الخضرُ عازماً على الخرق ومعه موسى عليه السلام، فأحسَّ منه ذلك، فعجَّل بالاعتراض، ثم رجع أهلُها وركبوا فيها، والعزم هو العزم، فأخذ عليه السلام في مباشرةِ ما عزم عليه ولم يشعُر موسى عليه السلام حتى تمَّ، وقد شارفت على الأرض. ولا يخفى ما في ذلك من البعد.

وذكر بعضُهم أنَّ ظاهرَ الآية يقتضي أنَّ خرقَه إياها وقع عقب الركوب؛ لأنَّ الجزاءَ يعقب الشرطَ.

وأجيب بأنَّ ذلك ليس بلازم، وإنما اللازم تسبُّبُ الجزاء عن الشرط ووقوعه بعده، ألا تراك تقول: إذا خرج زيدٌ على السلطان قتله، وإذا أعطيتَ السلطان قصيدةً أعطاك جائزةً. مع أنَّه كثيراً ما لا يعقب القتلُ الخروجَ، والإعطاءُ الإعطاءَ، وقد صرَّح ابنُ الحاجب بأنَّه لا يلزم وقوعُ الشرط والجزاءِ في زمانٍ واحدٍ؛ فيقال: إذا جئتني اليومَ أُكرمك غداً، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] ومَن التزم ذلك كالرضي جعل الزمان المدلولَ عليه بـ «إذا» ممتدًّا، وقدَّر في الآية المذكورة: أإذا ما متُّ وصرتُ رميماً، وعليه أيضاً لا يلزم التعقيبُ.

نعم، قال بعضُهم: إنَّ خبرَ «لمَّا ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضرُ قد قلع لوحاً من ألواحها»[١] يدلُّ على تعقيب الخرق للركوب، وأيضاً جَعْلُ غايةِ انطلاقهما مضمونَ الجملة الشرطية يقتضي ذلك؛ إذ لو كان الخرقُ متراخياً عن الركوب لم يكن غايةُ الانطلاق مضمونَ الجملة؛ لعدم انتهائه به.

وأجيب بأنَّ المبادرةَ التي دلَّ عليها الخبر عرفيَّةٌ[٢]، بمعنى أنه لم تمضِ أيام ونحوه، وبأنَّه لا مانعَ من كون الغاية أمراً ممتدًّا، ويكون انتهاءُ المغيَّا بابتدائه؛ كقولك: ملك فلانٌ حتى كانت سنةُ كذا ملكه. فتأمَّل.

ثم إنَّ في القلب من صحة رواية الربيع شيئاً، والله تعالى أعلم بصحَّتها.

والظاهر أنَّ أهل السفينة لم يروه لمَّا باشر خَرْقَها، وإلا لمَا مكَّنوه، وقد نصَّ على ذلك علي القاري، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية من طريق حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب أنَّه قال: كان الخضر عبداً لا تراه إلا عينُ مَن أراد الله تعالى أن يُريه إياه، فلم يره مِن القوم إلا موسى عليه السلام، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة، وكذا بينه وبين قتل الغلام[٣]. وليس هذا بالمرفوع، والله تعالى أعلم بصحته. نعم، سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً عن الربيع أيضاً أنَّهم علموا بعد ذلك أنَّه الفاعل.

والظاهر أيضاً أنَّ موسى عليه السلام لم يُرِد إدراجَ نفسه الشريفة في قوله: «لتغرق أهلها»، وإن كان صالحاً لأن يدرج فيه بناءً على أنَّ المراد من «أهلها» الراكبين فيها.

وقرأ الحسن وأبو رجاء: «لتُغرِّق» بالتشديد، لتكثير المفعول[٤].

وقرأ حمزة والكسائيُّ وزيد بن عليٍّ والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ: «ليغرَق أهلُها» على إسناد الفعل إلى

---

(١) سلف ص٤٦٨.

(٢) في (م): عرفته، وهو خطأ.

(٣) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٨١.

الأهل[١]، وكونُ اللام على هذه القراءة للعاقبة ظاهرٌ جدًّا.

﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: داهياً منكَراً، من أَمِرَ الأمرُ، بمعنى كَثُر، قاله الكسائيُّ، فأصله: كثيرٌ، والعربُ ـ كما قال ابن جني في «سر الصناعة» ـ تصف الدواهي بالكثرة[٢]. وهو عند بعضهم في الأصل على وزن «كَبِد» فخُفِّف. قيل: ولم يقل: أمراً إمْراً، مع ما فيه من التجنيس؛ لأنَّه تكلُّفٌ لا يلتفت إلى مثله في الكلام البليغ، كما صرَّح به الإمام المرزوقي في شرح قول السموءل:

يقرِّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

ردًّا لاختيارِ بعضهم رواية: يقصِّر حبُّ الموت، وأيَّد ذلك بقول أبي ذؤيب الهذليِّ:

وشيكَ الفُصُول بعيدَ القُفُول

حيث أمكن له أن يقول: بطيء القفول، ولم يقل[٣].

وربما يقال هنا: إنَّه لم يقل ذلك لِمَا ذكر مع إيهامه خلافَ المراد، وقصورِه عن درجةِ ما في النظم الجليل من زيادةِ التفظيع. وفي الرواية عن الربيع أنَّ موسى عليه السلام لمَّا رأى من الخضر ما رأى امتلأ غضباً وشدَّ عليه ثيابَه وأراد أن يقذف الخضرَ عليه السلام في البحر، فقال: أردتَ هلاكَهم فستعلم أنك أولُ هالكٍ. وجعل كلَّما ازداد غضباً استعر البحرُ، وكلَّما سكن كان البحرُ كالدهن، وأنَّ يوشع بن نون قال له: ألا تذكر العهدَ والميثاق الذي جعلتَ على نفسك، وأنَّ الخضر عليه السلام أقبل عليه يذكِّره ما قاله من قبل ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[٤] وهو متضمِّنٌ للإنكار على عدمِ وقوع الصبر منه عليه السلام، فأدركه عند ذلك الحلمُ.

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٢ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٤٩.
(٢) سرّ صناعة الإعراب ص٦٢٣، وقول الكسائي فيه.
(٣) شرح ديوان الحماسة ١/ ١١٦، وقيل: البيت للحارثي، والسموءل: هو ابن عاديا اليهودي، صاحب الحصن المعروف بالأبلق، يضرب به المثل في الوفاء. الأغاني ٢٢/ ١١٧، وبيت أبي ذؤيب في شرح ديوان الهذليين ١/ ٣٠٣، وتمامه: إلّا مُشاحاً به أو مُشِيحا.
(٤) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٨ لابن أبي حاتم، وقد سلف ص٤٦٨.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ اعتذارٌ بنسيان الوصية على أبلغ وجهٍ؛ كأنَّ نسيانه أمرٌ محقَّقٌ عند الخضر عليه السلام لا يحتاج أن يفيدَه إياه استقلالاً، وإنما يُلتَمس منه تركُ المؤاخذة به، فـ «ما» مصدريةٌ، والباء صلةُ المؤاخذة، أي: لا تؤاخذ بنسياني وصيتَك في ترك السؤال عن شيءٍ حتى تُحدِثَ لي منه ذكراً، والتَمَسَ تركَ المؤاخذة بالنسيان لأنَّ الكاملَ قد يُؤاخَذ به، وهي مؤاخذةٌ بقلة التحفُّظ التي أدَّت إليه كما وقعت لأول ناسٍ وهو أولُ الناس، وإلا فالمؤاخذةُ به نفسه لا تصحّ؛ لأنَّه غيرُ مقدور.

وقيل: الباءُ للسببية وهي متعلِّقةٌ بالفعل، والنسيانُ وإن لم يكن سبباً قريباً للمؤاخَذة، بل السبب القريبُ لها هو ترك العمل بالوصية، لكنه سببٌ بعيدٌ؛ لأنَّه لولاه لم يكن التركُ.

وجوِّز أن تكونَ متعلِّقةً بمعنى النهي، كما قيل في «بنعمة ربك» من قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [ن: ٢]: إنَّه متعلِّق بمعنى النفي، فيكون النسيانُ سبباً للنهي عن المؤاخذة بترك العمل بالوصية. وزعم بعضُهم تعيُّنَ كونِها للملابسة.

ويجوز في «ما» أن تكونَ موصولةً، وأن تكونَ موصوفةً، أي: لا تؤاخذني بالذي - أو بشيء - نسيتُه، وهو الوصيةُ، لكن يحتاج هذا ظاهراً إلى تقدير مضافٍ، أي: بتركِ ما نسيتُه، لأنَّ المؤاخذة بترك الوصية، أي: تركِ العمل بها، لا بنفس الوصية.

وقيل: قد لا يحتاج إلى تقدير المضاف، فإنَّ الوصية سببٌ للمؤاخذة، إذ لولاها لم يكن تركُ العلم ولا المؤاخذةُ، ونظيرُ ذلك ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ثمَّ كونُ ما ذُكر اعتذاراً بنسيان الوصية هو الظاهرُ، وقد صح في البخاري: أنَّ المرة الأولى كانت نسياناً[(١)].

وزعم بعضهم أنَّه يحتمل أنَّه عليه السلام لم ينسَ الوصية، وإنما نهى عن مؤاخذته بالنسيان مُوهِماً أنَّ ما صدر منه كان عن نسيانها مع أنَّه إنَّما عنى نسيانَ شيءٍ آخر، وهذا من مَعاريض الكلام التي يُتَّقى بها الكذبُ مع التوسُّل إلى

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

الغرض، كقول إبراهيم عليه السلام: «هذه أختي»، و«إني سقيم»[(١)]. وروى هذا ابنُ جرير عن أبي بن كعب وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

وجوِّز أن يكون النسيانُ مجازاً عن الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أوَّلَ مرة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ لا تَغْشَني[(٣)] ولا تحمِّلني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتِّباعه إياه ﴿عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: صعوبةً، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «تُرْهِقْني»، والمراد: لا تُعسِّر عليَّ متابعتك ويَسِّرها عليَّ بالإغضاء وترك المناقشة.

وقرأ أبو جعفر: «عُسُراً» بضمَّتين[(٤)].

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ الفاء فصيحة، أي: فقبل عذرَه، فخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان على الساحل، كما في الصحيح[(٥)]، وفي رواية «أنَّهما مرَّا بقرية»[(٦)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ يزعمون ـ كما قال البخاريُّ ـ أنَّ اسمَه: جيسور، بالجيم، ورُوي بالحاء[(٧)]، وقيل: إن اسمه جنبتور[(٨)]، وقيل غير ذلك. وصحَّ أنه كان يلعب مع الغلمان، وكانوا ـ على ما قيل ـ عشرةٌ، وأنه لم يكن فيهم أحسنُ ولا أنظفُ منه فأخذه[(٩)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سلف ١/ ٤٣٢.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣٨. ولم نقف على رواية ابن أبي حاتم. وذكره عن ابن عباس أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٣٠٧.
(٣) من غشيَه كذا: إذا عرض له، وهو تفسير للإرهاق. حاشية الشهاب ٦/ ١٢١-١٢٢.
(٤) النشر ٢/ ٢١٦، وإتحاف الفضلاء ص١٨٥، والبدور الزاهرة ص١٩٤، وتحرف في مطبوع النشر إلى: أبي عمرو.
(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٠).
(٦) مسند أحمد (٢١١١٤)، وسنده صحيح على شرط الشيخين.
(٧) في مطبوع البخاري (٤٧٢٦) وفتح الباري ٨/ ٤٢٠ بالحاء، وقال الحافظ: وفي رواية بالجيم.
(٨) القاموس المحيط (جبر).
(٩) في صحيح البخاري (٤٧٢٦) «غلاماً كافرا ظريفاً»، وفي مسند أحمد (٢١١١٨) «ليس في الغلمان غلام أنظف منه» وليس فيهما أنهم عشرة، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٣٢٨.

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ أخرج البخاريُّ في روايةٍ: «أنَّه عليه السلام أخذ برأسه من أعلاه فاقتلعه بيده»[١]. وفي رواية أخرى «أنه أخذه فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين»[٢]. وقيل: ضرب رأسه بالجدار حتى قتله. وقيل: رضَّه بحَجَر[٣]. وقيل: ضربه برجله فقتله. وقيل: أدخل أصبعه في سُرَّته فاقتلعها فمات.

وجُمع بين الروايات الثلاث الأُوَل بأنه ضرب رأسَه بالجدار أولاً، ثم أضجعه وذبحه، ثم اقتلع رأسه، وربما يجمع بين الكلِّ، وفي كلا الجمعين بُعدٌ.

والظاهر أنَّ الغلام لم يكن بالغاً؛ لأنه حقيقةُ الغلام الشائعةُ في الاستعمال، وإلى ذلك ذهب الجمهور، وقيل: كان بالغاً شابًّا، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أنه كان ابن عشرين سنة[٤]. والعرب تُبقي على الشابِّ اسمَ الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية في الحجاج:

شفاها من الداء الذي قد أصابها ... غُلامٌ إذا هزَّ القناةَ سَقاها[٥]

وقوله:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عنِّي فإنَّني ... غلامٌ إذا هوجيتُ لستُ بشاعر[٦]

وقيل: هو حقيقةٌ في البالغ لأنَّ أصلَه من الاغتلام، وهو شدَّة الشَّبَق، وذلك إنما يكون فيمن بلغ الحُلُمَ، وإطلاقه على الصبيِّ الصغير تجوُّزٌ من باب تسمية الشيء باسم ما يَؤُول إليه.

ويؤيِّد قولَ الأولين قولُه تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ﴾ أي: طاهرةً من الذنوب، فإنَّ البالغَ قلَّما يزكو من الذنوب. وقد جاء في

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٣) البحر ٦/ ١٥٠.
(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.
(٥) البيت في البحر المحيط ٦/ ١٥٠، وفيه رواية أخرى، سلفت ٤/ ١٧٨.
(٦) البيت لصفوان بن معطل، قاله لحسان بن ثابت، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٨، ودلائل النبوة ٤/ ٧٥، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٣١، والبحر ٦/ ١٥٠، ولفظ الدلائل: عنك، بدل: عنِّي. وذباب السيف: حدُّه. القاموس (ذبب).

حديث ابن جبير عن ابن عباس مرفوعاً تفسيرُ «زكية» بصغيرةٍ[١]، وهو تفسيرٌ باللازم.

ومَن قال: كان بالغاً، قال: وَصَفه عليه السلام بذلك لأنَّه لم يره أَذْنَب، فهو وصفٌ ناشئٌ من حُسن الظنِّ.

واستُدلَّ على كونه بالغاً بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير حقِّ قصاص لك عليها، فإنَّ الصبيَّ لا قصاصَ عليه.

وأجاب النوويُّ والكرمانيُّ بأنَّ المراد التنبيهُ على أنَّه قتله بغير حقٍّ، إلا أنَّه خصَّ حقَّ القصاص بالنفي؛ لأنَّه الأنسبُ بمقام القتل، أو أنَّ شرعَهم كان إيجابَ القصاص على الصبيِّ[٢]. وقد نقل المحدِّثون كالبيهقي في كتاب «المعرفة» أنَّه كان في شرعنا كذلك قبل الهجرة[٣]. وقال السبكيُّ: قبل أُحُدٍ، ثم نُسِخ.

والجارُّ والمجرور قال أبو البقاء: متعلِّقٌ بـ «قتلتَ»، كأنه قيل: أي: قتلتَ نفساً بلا حقٍّ، وجوَّز أن يتعلَّق بمحذوفٍ، أي: قتلاً بغير نفس، وأن يكون في موضع الحال، أي: قَتَلْتَها ظالماً لها، أو مظلومة[٤].

وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد والزهريُّ ونافع واليزيديُّ وابن مسلم وزيد وابن بكير عن يعقوب ورويس عنه أيضاً وأبو عبيد وابن جبير الأنطاكيُّ وابن كثير وأبو عمرو: «زاكية» بتخفيف الياء وألفٍ بعد الزاي[٥].

و(زَكِيَّةً) بالتشديد من غير ألف ـ كما قرأ زيد بن عليٍّ والحسن والجحدريُّ وابن عامر والكوفيون ـ أبلغُ من ذلك؛ لأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الثبوت، مع كون

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٢٨.
(٢) شرح النووي ١٥/ ١٤٠. وقول الكرماني نقله المصنف من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٣.
(٣) معرفة السنن والآثار ٩/ ٩٥، وفيه: إنما صارت الأحكام متعلقة بالبلوغ بعد الهجرة. اهـ. وينظر السنن الصغير ٢/ ٣٥٠. والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٣.
(٤) الإملاء ٣/ ٥٢٩-٥٣٠.
(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٣ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ورويس، والكلام من البحر ٦/ ١٥٠.

«فعيل» المحوَّل من «فاعل» ـ كما قال أبو حيان[1] ـ يدلُّ على المبالغة.

وفرَّق أبو عمرو بين «زاكية» و«زكية» بأنَّ «زاكية» بالألف هي التي لم تُذنِب قطُّ، و«زكيَّة» بدون الألف هي التي أذنبت ثم غُفِرت[2].

وتعقِّب بأنَّه فرقٌ غيرُ ظاهر؛ لأنَّ أصلَ معنى الزكاة النموُّ والزيادة، فلذا وردت للزيادة المعنوية وأُطلِقت على الطهارة من الآثام ولو بحسب الخلقة والابتداء كما في قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩] فمن أين جاءت هذه الدلالة؟ ثم وجِّه ذلك بأنه يحتمل أن تكونَ لكون «زاكية» بالألف من زَكِيَ اللازم، وهو يقتضي أنَّه ليس بفعلٍ آخر وأنَّه ثابتٌ له في نفسه، و«زكية» بمعنى مزكَّاة، فإن «فعيلاً» قد يكونُ من غير الثلاثيِّ، كرضيع بمعنى مُراضِع، وتطهيرُ غيره له من الذنوب إنما يكون بالمغفرة، وقد فهمه من كلام العرب فإنه إمام العربية واللغة، فتكون بهذا الاعتبار «زاكية» بالألف أبلغ وأنسب بالمقام، بناءً على أنه يرى أنَّ الغلام لم يبلغ الحُلُم، ولذا اختار القراءةَ بذلك وإن كان كلٌّ من القراءتين متواتراً عنه ﷺ.

وهذا ـ على ما قيل ـ لا ينافي كونَ «زكية» بلا ألف أبلغَ باعتبار أنها تدلُّ على الرفع، وهو أقوى من الدفع. فافهم.

وأيًّا ما كان فوصف النفس بذلك لزيادة تفظيع ما فعل، وقد أخرج ابن مردويه عن أبيٍّ بن كعب أنَّ الخضر عليه السلام لمَّا قتل الغلام ذُعِر موسى عليه السلام ذعرةً منكَرة، وقال: أقتلتَ نفساً زكيةً بغير نفس[3]؟!

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ منكراً جدًّا.

قال الإمام: النُّكر[4] ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس، وهو أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر. وقيل بالعكس.

---

(١) في البحر ٦/ ١٥٠.

(٢) حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٢٤.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) في (م): المنكر، والمثبت من الأصل والتفسير الكبير ٢١/ ١٥٥.

وقال الراغب: النُّكر[1]: الدهاء والأمرُ الصعبُ الذي لا يعرف. ولهذه الأبلغية قال بعضهم: المراد شيئاً أَنْكَرَ من الأول.

واختار الطيبيُّ أنَّه دونَ الإمر، وقال: إنَّ الذي يقتضيه النظمُ أنه ذَكَر الأغلظ ثم تنزَّل إلى الأهون، فقتلُ النفس أهونُ من الخرق لِمَا فيه من إهلاك جماعةٍ، وأغلظُ من إقامة الجدار بلا أجرة[2].

وقال في «الكشف»: الظاهر أبلغيةُ النُّكرِ، أما بحسب اللفظ فظاهرٌ، ألا ترى كيف فسَّر الشاعرُ، أي: في قوله:

لقد لقي الأقرانُ منِّي نُكراً ... داهيةً دهياءَ إدّاً إمرا[3]

النُّكْرَ بداهيةٍ من صفتها كيت وكيت، وجعل الإمرَ بعضَ أوصافها. وأما بحسب الحقيقة فلأنَّ خرق السفينة تسبُّبٌ إلى الهلاك، وهذا مباشَرةٌ، على أنَّ ذلك لم يكن سبباً مفضياً، وقول من قال: إنه تنزُّلٌ، استدلالاً بأنَّ إقامةَ الجدار أهونُ من القتل = ليس بشيء؛ لأنَّه حكي على ترتيب الوجود لا تنزُّلَ فيه ولا ترقِّي، وإنما يلاحظ ذلك بالنسبة إلى ما ذيِّل. انتهى.

وروي القولُ بالأبلغية عن قتادة[4]، ومما يؤيِّد ذلك ما حكاه القرطبيُّ عن صاحب «العرس والعرائس»[5] أنَّ موسى عليه السلام حين قال للخضر عليه السلام ما قال، غضب الخضرُ واقتلع كتفَ الصبيِّ الأيسر، وقشر اللحمَ عنه، وإذا مكتوبٌ فيه: كافرٌ لا يؤمن بالله تعالى أبداً.

وبُني وجهُ تغيير النظم الجليل على أقبحيَّة القتل، فقيل: إنما غيِّر النظمُ إلى

---

(١) في (م): المنكر، والمثبت من الأصل والمفردات (نكر).
(٢) حاشية الطيبي عند تفسير هذه الآية.
(٣) ورد هنا في هامش الأصل و(م): في نسخة: منكم. اهـ. أي: بدل: مني. والرجز في مجاز القرآن ١/ ٤٠٩، وتفسير الطبري ١٥/ ٣٣٧، وفيه: منك، والصحاح (أمر)، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٩، واللسان (أمر). وعند الجميع: قد، بدل: لقد، ولم ينسبوه.
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٢.
(٥) كذا ذكر، والصواب: عرائس المجالس، وهو اسم كتاب قصص الأنبياء للثعلبي، والكلام فيه ص ٢٢٨، وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٣٣١.

ما ترى لأنَّ القتلَ أقبحُ، والاعتراضُ عليه أدخل وأحقُّ، فكان الاعتراضُ جديراً بأن يُجعَل عمدةَ الكلام، وهو مبنيٌّ على أنَّ الحكم في الكلام الشرطيِّ هو الجزاءُ، والشرطُ قيدٌ له بمنزلة الحال عند أهل العربية. وتحقيق ذلك في «المطول» وحواشيه.

وكان العطفُ بالفاء التعقيبيَّة ليفيدَ أنَّ القتلَ وقع عقيبَ اللقاء من غير ريثٍ كما يُشعِر به الاعتراض؛ إذ لو مضى زمانٌ بين اللقاء والقتل أمكن ـ نظراً للأمور العادية ـ اطِّلاعُ الخضر فيه من حاله على ما لم يطَّلع عليه موسى عليه السلام، فلا يعترض عليه هذا الاعتراض، ولا يضرُّ في هذا ادعاءُ أنَّ الخرقَ أيضاً كذلك؛ لأنَّ المقصودَ توجيهُ اختيار الفاء دون الواو أو «ثم» بعد توجيه اختيار أصل العطف بأنَّ ذلك لِيتأتَّى[1] جَعْلُ الاعتراضِ عمدةً، والحاصل أنَّه لمَّا كان الاعتراضُ في القصة الثانية معتنًى بشأنه وأهمَّ، جُعل جزاءَ «إذا» الشرطية، وبعد أن تعيَّن للجزائية لذلك لم يكن بدٌّ من جعل القتل من جملة الشرط بالعطف، واختيرت الفاءُ من بين حروفه ليفاد التعقيبُ، ولمَّا لم يكن الاعتراضُ في القصة الأولى مثلَه في الثانية جُعِل مستأنفاً، وجُعل الخرقُ جزاءً.

وزعم التاشكنديُّ[2] جوازَ كون الاعتراضَين في القصَّتين مستأنفين، والجزاءُ فيهما فعلُ الخضر عليه السلام، إلا أنَّه لا بدَّ من تقدير «قد» في الجزاء الثاني؛ لأنَّ الماضي المثبَت الغير المقترن بها لفظاً أو تقديراً لا يصلح للجزائية، واعتبر هذا في الثانية ولم يعتبر مثله في الأول؛ لأنَّ القتل أقبحُ فهو جديرٌ بأن يؤكَّد، ولا كذلك الخرقُ.

وتعقَّبه بعض الفضلاء بأنَّ الفاءَ الجزائيةَ لا يجوز أن تدخُل على الماضي المثبت إلا بتقدير «قد»، لتحقُّق تأثير حرف الشرط فيه بأن يقلب معناه إلى الاستقبال، فلا حاجةَ إلى الرابطة في كونه جواباً، وأما بتقدير «قد» فتدخل الفاءُ لعدم تأثير حرف الشرط فيه، فهو محتاجٌ إلى الرابطة، فقوله تعالى: ﴿خَرَقَهَا﴾

---

(١) في (م): يتأتى، دون اللام.

(٢) هو محمد كمال الدين الشاشي الحنفي، له حاشية على تفسير البيضاوي. توفي سنة (٩٨٠هـ). إيضاح المكنون ١/ ١٤١.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ لكونهما مستقبَلين بالنسبة إلى ما قبلهما يقعان جزاءً بلا حاجةٍ إلى ربط الفاء الجزائية، فلا مجالَ في الثاني لجعل الفاء جزائيةً، وكذا لا مجالَ في الأول لفرض تقدير «قد» لإصلاح[1] إدخالِ الفاء عليه. فتدبَّر فإنَّه لا يخلو عن شيء.

وقال مير بادشاه[2] في الردِّ على ذلك: إنَّ الذوق السليم يأبى عن تقدير «قد» لو جعل القتلُ جزاءً؛ لعدم اقتضاء المقام إياها، كيف وقد سبق الخرقُ جزاءً بدونها، وقد عُلم أنه يصدُر عن الخضر عليه السلام ما لا يستطيع المتشرِّع أن يصبر عليه، وما المحتاج إلى التحقيق إلا اعتراضُ موسى عليه السلام ثانياً بعد ما سلف منه من الكلام وكونِه عليه السلام مرسَلاً منه تعالى للتعلُّم.

وفيه إعراضٌ عن بيان النكتة في التحقيق وعدمُ التفاتٍ إليها، وغفلةٌ ـ على ما قال بعضُ الفضلاء ـ عن موضع الفاء الجزائية وتقدير «قد»، ولعلَّ الحقَّ أن يقال: إنَّ التقديرَ ـ وإن جاز ـ خلافُ الظاهر جدًّا.

وزعم أيضاً أنه يمكن أن يقال في بيان إخراج القصتين على ما أُخرِجَتا[3] عليه: إنَّ لقاء الغلام سببٌ للشفقة والرفق لا القتلِ، فلذا لم يحسن جعلُه جزاءً، وجُعل جزاءَ الشرط، وركوبُ السفينة قد يكون سبباً لخرقها فلذا جُعل جزاءً.

وفيه أنَّ للخصم أن يمنع الفرقَ ويقول: كما أنَّ لقاءَ الغلام سببٌ للرفق لا القتل، كذلك ركوبُ السفينة سببٌ لحفظها وصيانتِها لا الخرق، كيف وسلامتُها سببٌ لسلامة الخضر عليه السلام ظاهراً، ومن الأمثال العامية: لا تَرْمِ في البئر التي تشرب منها حجراً. وإذا سلّم له أن يقول: إنَّ لقاء الغلام سببٌ للرفق لا للقتل، فالقتلُ أغربُ، والاعتراض عليه أدخلُ، فالاعتراض جديرٌ بأن يجعل جزاءً، فيؤُول الأمرُ في بيان النكتة إلى نحو ما تقدَّم، والأمرُ في هذا سهلٌ كما لا يخفى.

---

(١) في (م): لاصطلاح.

(٢) هو محمد أمين بن الشريف، المعروف بـ: أمير بادشاه البخاري الحنفي، من تصانيفه حاشية على تفسير البيضاوي، وتيسير التحرير لابن الهمام، وشرح ألفية العراقي، توفي في حدود (٩٧٢هـ). هدية العارفين ٢/ ٢٤٩.

(٣) في (م): أخرجنا.

وقال شيخ الإسلام في وجه التغيير: إنَّ صدورَ الخوارق عن الخضر عليه السلام خرَّج بوقوعه مرَّةً مخرج العادة، واستأنست النفسُ به كاستئناسها بالأمور العادية، فانصرفت عن ترقُّب سماعه إلى ترقُّب سماع حالِ موسى عليه السلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده عند مشاهدة خارقٍ آخر، أو يسارعُ إلى المناقشة كما في المرة الأولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدر عنه عليه السلام، فجُعل الجزاءُ اعتراضَه دون ما صَدر عن الخضر عليهما السلام، ولله تعالى درُّ شأن التنزيل.

وأما ما قيل من أنَّ القتل أقبحُ والاعتراضُ عليه أدخلُ فكان جديراً بأن يُجعل عمدةَ الكلام، فليس من دفع الشبهة في شيء، بل هو مؤيِّد لها، فإنَّ كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلَّة صدوره عن المؤمن العاقل، وندرةِ وصول خبره إلى الأسماع، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصوداً، وكون الاعتراض عليه أدخلَ من موجبات كثرة صدوره عن كلِّ عاقلٍ فضلاً عن النبيِّ، وذلك لا يقتضي جعلَه كذلك[1]. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكره من النكتة ـ على تقدير تسليمه ـ لا يضرُّ مَن بينها بما تقدم؛ إذ لا تزاحُمَ في النكات، وأما اعتراضه فقوله: مما يستدعي جعله مقصوداً، إن أراد أنه مقصودٌ في نفسه فليس بصحيح، وإن أراد أنه مقصودٌ بأن يُعترض عليه ويُمنع منه، فهذا يقتضي جعلَ الاعتراض جزاءً كما مرَّ. وأما كونُه من موجبات كثرةِ صدوره عن كلِّ عاقلٍ فمقتضٍ للاهتمام بالاعتراضِ عليه.

وأنت تعلم أنَّ الشيء كلَّما ندر كان الإخبارُ به وإفادتُه السامعَ أوقعَ في النفس، وأنَّ الأخبارَ الغريبةَ يُهتمُّ بإفادتها ما لا يُهتمُّ بإفادة غير الغريبة، إذ العالِمُ بالغريب قليلٌ بخلاف العالم بغيره، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، فمراد الشيخ أنَّ كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلَّة صدوره عن المؤمن العاقل، وندرةِ وصول خبره إلى الأسماع، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصوداً بالإفادة كما هو شأنُ الأمور القليلة الصدورِ النادرة الوقوعِ، وكون الاعتراض عليه أدخلَ من مُوجِبات كثرة الصدور، وذلك لا يقتضي أن يعامَل كذلك، وعلى هذا لا غبارَ على ما ذكره عند المُنْصِف.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٦.

ثم إنَّ ما ذكره من النكتة يتأتى على القول بأنَّ القتلَ أقبحُ من الخرق، وعلى القول بالعكس أيضاً، وهذا بخلاف ما تقدَّم، فإنَّه كان مبنيًّا على أقبحية القتل، فمَن لايقول بها يَحتاج في بيان النكتة إلى غير ذلك، وقد رُجِّح بذلك على ما تقدَّم.

واستأنس له أيضاً بأنَّ مساق الكلام من أوَّله لشرح حال موسى عليه السلام، فجعلُ اعتراضِه عمدةَ الكلام أوفَقُ بالمساق، إلا أنَّه عُدِل عن ذلك في قصة الخرق وجُعل ما صدر عن الخضر عليه السلام عمدةً دون اعتراضِه لأنَّ النفس لمَّا سمعَتْ وصفَ الخضر ظمأَتْ لسماع ما يصدُر منه؛ فبُلَّ غليلُها وجُعل ما صدر منه مقصوداً بالإفادة لأنَّه مطلوبٌ للنفس وهي منتظرةٌ إياه، ثم بعد أن سمعتْ ذلك وسكن أُوامها سُلك بالكلام مسلكه الأول وقُصد بالإفادة حالُ من سِيقَ الكلامُ مِن أوله لشرح حاله.

ولا يخفى أنَّ هذا قولٌ بأنَّ الأصل نظراً إلى السوق أن تكون القصةُ الأولى على طرز القصة الثانية، إلا أنه عُدِل عن ذلك لِمَا ذكر، والخروجُ عن الأصل يُتقدَّر بقدر الحاجة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:١٧٣] وهو مخالفٌ لِمَا يُفهم من كلام الشيخ في الجملة، فافهم والله تعالى أعلم.

وقرأ نافع وأبو بكر وابن ذكوان وأبو جعفر وشيبة وطلحة ويعقوب وأبو حاتم: «نُكُراً» بضمتين، حيث كان منصوباً[(١)].

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥﴾ زيادةُ «لك» لزيادة المكافحة على رفض الوصيَّة وقلَّةِ التثبُّت والصبر لمَّا تكرَّر منه الاشمئزاز والاستنكار، ولم يرعوِ بالتذكير، حتَّى زادَ في النكير في المرة الثانية.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ﴾ تفعلُه من الأعاجيب ﴿بَعۡدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة، أو بعد هذه المسألة ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾.

وقرأ عيسى ويعقوب: «فلا تَصحبني»[(٢)] بفتحِ التاء من صحِبَه، أي: فلا تكن صاحبي.

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٦/ ٢١٦ عن نافع وابن ذكوان وأبي بكر وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٦/ ١٥٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، والبحر المحيط ٦/ ١٥١، وانظر قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣١٣. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ لعيسى وابن عامر في رواية عنه.

وعن عيسى أيضاً: «فلا تُصحِبني» بضمِّ التاء وكسر الحاء، من أَصْحَبَه، ورواها سهل عن أبي عمرو[١]، أي: فلا تُصحبني إيَّاك ولا تجعلني صاحبَك، وقدَّر بعضُهم المفعولَ الثاني: عِلْمَك، وليس بذاك.

وقرأ الأعرج: «فلا تَصْحَبَنِّي» بفتح التاء والباء وشدِّ النون[٢]، والمراد المبالغة في النهي، أي: فلا تكن صاحبي البتة. وهذا يؤيِّدُ كونَ المراد من النهي فيما لا تأكيد فيه التحريم، والمراد به الحزمُ بالترك والمفارقة، لا الترخيص؛ على معنى: إن سألتُك بعدُ فأنت مرخَّصٌ في ترك صحبتي.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: وجدت عذراً من قِبَلي، وقال النوويُّ: معناه: قد بلغتَ إلى الغاية التي تُعذَرُ بسببها في فراقي[٣]، حيثُ خالفتُك مرَّةً بعد مرَّة.

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ قال: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صبرَ على صاحبه لرأى العجب، لكن أخذتهُ من صاحبه ذَمامة، فقال ذلك»[٤].

وقرأ نافع وعاصم: «من لَدني» بتخفيف النون[٥]، وهي حجَّةٌ على سيبويه في منعه ذلك[٦]. والأكثرون على أنَّه حَذَف نون الوقاية، وأبقى النونَ الأصليَّة المكسورةَ، على ما هو القياس في الأسماء المضافة من أنَّها لا تلحقُها نونُ الوقاية، كوطني ومقامي.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، والبحر المحيط ٦/ ١٥١. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ للجحدري والنخعي.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥١، ونسبها في القراءات الشاذة ص٨١ لابن مسعود ﷺ.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤١.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ١٤٤-١٤٥: وقوله: «ذمامة» بفتح الذال المعجمة، أي: استحياء لتكرار مخالفته. وقيل: ملامة. والأول هو المشهور.

(٥) وضمِّ الدال، وكذا قرأ أبو جعفر من العشرة، وقرأ عاصم - برواية أبي بكر عنه - بإسكان الدال مع إشمامها الضم كما سيذكر المصنف قريباً، وقراءة حفص عن عاصم كقراءة الجمهور: لَدُنِّي. انظر التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٣.

(٦) انظر الكتاب ٢/ ٣٧٠.

وقيل: إنَّه يحتملُ أنْ يكون المذكورُ نونَ الوقاية، والمضافُ إنَّما هو «لد» بلا نون، لغةٌ في لدن، فلا حذفَ أصلاً.

وتُعقِّبَ بأنَّ نون الوقاية إنَّما هي في المبنيِّ على السكون لتَقِيَه الكسر، و«لد» بلا نون مضموم.

ورُدَّ بأنَّه لا مانعَ أن يقال: إنَّها وَقَتْه من زوال الضم.

وأشمَّ شعبةُ الضمَّ في الدال، ورُوي عن عاصم أنَّه سكَّنَها. وقال [ابن] مجاهد: هو[1] غلط[2]، ولعله أراد روايةً، وإلَّا فقد ذكروا أنَّ «لَدْ» بالفتح والسكون لغةٌ في «لدن»[3].

وقرأ عيسى: «عُذُراً» بضمِّ الذال، ورويت عن أبي عمرو. وعن أبيّ: «عذري» بالإضافة إلى ياء المتكلِّم[4].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ الجمهور على أنها أنطاكية، وحكاه الثعلبيُّ عن ابن عباس[5]، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عنه أنَّها برقة[6]، وهي ـ كما في «القاموس» ـ اسمٌ لمواضع[7]. وفي «المواهب» أنَّها قريةٌ بأرض الروم، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): سوء. بدل: هو. وهو تحريف.
(٢) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٦/ ١٥١، والذي خطأه ابن مجاهد في السبعة ص٣٥٩ تسكينُ الدال مع ضمِّ اللام: «لُدْني» وليس تسكينَ الدال فحسب. وانظر الحجة لأبي علي ٥/ ١٦٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، ومعجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ٥/ ٢٧٣.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥١، وما سلف بين حاصرتين منه. وانظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥١. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٥) عرائس المجالس ص٢٢٩.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٧) القاموس (برق).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن السُّدِّيِّ أنَّها باجروان[١]. وهي أيضاً اسمٌ لمتعدِّد، إلَّا أنه ذكرَ بعضهم أنَّ المرادَ بها قرية بنواحي أرمينية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين أنَّها الأُبُلَّة بهمزةٍ وباء موحَّدة ولامٍ مشددة[٢].

وقيل: قريةٌ على ساحل البحر يقال لها ناصرة، وإليها تنسبُ النصارى، قال في «مجمع البيان»: وهو المروي عن أبي عبد الله رضي الله عنه[٣].

وقيل: قريةٌ في الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس.

قال ابن حجر: والخلاف هنا كالخلافِ في مجمع البحرين، ولا يوثَقُ بشيءٍ منه[٤].

وفي الحديث: «أتيا أهل قريةٍ لئاماً»[٥].

﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ في محلِّ الجر، على أنَّه صفةٌ لـ «قرية»، وجوابُ «إذا»: «قال» الآتي إن شاء الله تعالى، وسلك بذلك نحو ما سلك في القصة الثانية من جعل الاعتراض عمدةَ الكلام؛ للنكتة التي ذكرها هناك شيخ الإسلام[٦]. وذهب أبو البقاء وغيره إلى أنَّه هو الجواب[٧]، والآتي مستأنفٌ نظير ما في القصَّة الأولى، والوصفيَّة مختارُ المحققين، كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وهاهنا سؤالٌ مشهورٌ، وقد نظمَه الصلاحُ الصفديُّ ورفعه إلى الإمام تقيِّ الدين السبكيِّ فقال:

أسيدَنا قاضي القضاةِ ومن إذا ... بدا وجهُه استحيى له القمرانِ
ومن كفُّه يومَ الندى ويراعُه ... على طِرْسِهِ بحرانِ يلتقيانِ

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٣) مجمع البيان ١٦/ ١٩٢.
(٤) فتح الباري ٨/ ٤٢٠.
(٥) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٦) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٦. وسلف عند تفسير الآية (٧٤) من هذه السورة.
(٧) الإملاء ٣/ ٥٣١.

ومن إن دَجَتْ في المشكلات مسائلٌ جلاها بفكرٍ دائمِ اللمعانِ
رأيتُ كتابَ الله أعظمَ معجزٍ لأفضل من يُهْدَى به الثقلانِ
ومن جملةِ الإعجاز كونُ اختصاره بإيجاز ألفاظٍ وبسطِ معاني
ولكنني في «الكهف» أبصرتُ آيةً بها الفكرُ في طول الزمان عناني
وما هي إلَّا «استطعما أهلها» فقد نرى[1] استطعماهم مثلَه ببيانِ
فما الحكمةُ الغرَّاء في وضعِ ظاهرٍ مكانَ ضميرٍ إنَّ ذاك لشانِ[2]
فأرشِدْ على عاداتِ فضلك حَيرتي فما لي إلى هذا الكلام يدانِ

فأجاب السبكيُّ بأنَّ جملةَ «استطعما» محتَمِلةٌ لأنْ تكونَ في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ «قرية»، وأن تكون في محلِّ نصب صفة لـ «أهل»، وأن تكون جواب «إذا»، ولا احتمال لغير ذلك، ومن تأمَّل عَلِمَ أنَّ الأوَّلَ متعيِّنٌ معنًى، وأنَّ الثاني والثالث ـ وإن احتمَلَتْهُما الآيةُ ـ بعيدان عن مغزاها؛ أمَّا الثالث فلأنَّه يلزمُ عليه كون المقصود الإخبار بالاستطعام عند الإتيان، وأنَّ ذلك تمامُ معنى الكلام، ويلزمه أنْ يكونَ معظمُ قصدهما أو هو: طلبَ الطعام، مع أنَّ القصدَ هو ما أرادَ ربُّك ممَّا قصَّ بعدُ، وإظهارُ الأمر العجيب لموسى عليه السلام.

وأمَّا الثاني فلأنَّه يلزمُ عليه أنْ تكون العنايةُ بشرح حالِ الأهل من حيث هم هم، ولا يكون للقرية أثرٌ في ذلك، ونحن نجدُ بقيَّةَ الكلام مشيراً إليها نفسِها، فيتعيَّنُ الأول، ويجبُ فيه: «استطعما أهلها» ولا يجوزُ استطعماهم أصلاً؛ لخلوِّ الجملةِ عن ضمير الموصوف.

وعلى هذا يفهم من مجموع الآيات أنَّ الخضرَ عليه السلام فعلَ ما فعل في قريةٍ مذمومٍ أهلُها، وقد تقدَّم منهم سوءُ صنيعٍ من الإباء عن حقِّ الضيف مع طلبه، وللبقاعِ تأثيرٌ في الطباع، ولم يهم فيها مع أنَّها حَرِيَّةٌ بالإفساد والإضاعة، بل باشرَ الإصلاح لمجرَّد الطاعة، ولم يعبأ عليه السلام بفعلِ أهلها اللئام.

---

(١) في فتاوى السبكي ـ والأبيات فيه ـ ١/ ٧٥: يرى.
(٢) هذا البيت ليس في فتاوى السبكي. وهو في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٤٦.

وينضاف إلى ذلك من الفوائد أن «الأهل» الثاني يحتملُ أن يكونوا هم الأوَّلون، أو غيرَهم، أو منهم ومن غيرهم، والغالب أنَّ مَن أتى قريةً لا يجدُ جملةَ أهلِها دفعةً، بل يقعُ بصرُه أوّلاً على البعض، ثمَّ قد يستقريهم، فلعلَّ هذين العبدين الصالحين لما أتيا قدَّرَ الله تعالى لهما استقراء الجميع على التدريج؛ ليتبيَّن به كمال رحمته سبحانه وعدم مؤاخذته تعالى بسوء صنيع بعض عباده، ولو قيل: استطعماهم، تعيَّنَ إرادةُ الأوَّلين، فأتى بالظاهر إشعاراً بتأكيد العمومِ فيه، وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها حتى استطعماه وأبى، ومع ذلك قُوبلوا بأحسن الجزاء.

فانظر إلى هذه الأسرار كيفَ احتجبت عن كثيرٍ من المفسّرين تحت الأستار، حتى إنَّ بعضهم لم يتعرَّض لشيءٍ، وبعضَهم ادَّعى أنَّ ذلك تأكيدٌ، وآخرُ زعم ما لا يعوَّلُ عليه، حتى سمعتُ عن شخصٍ أنَّه قال: إنَّ العدولَ عن استطعماهم؛ لأنَّ اجتماع الضميرين في كلمةٍ واحدة مستثقلٌ. وهو قولٌ يُحكَى ليُرَدّ، فإنَّ القرآنَ والكلامَ الفصيح مملوءٌ من ذلك، ومنه ما يأتي في الآية.

ومن تمامِ الكلام فيما ذكر أنَّ «استطعما» إن جُعِل جواباً فهو متأخِّرٌ عن الإتيان، وإذا جعلَ صفةً احتمل أنْ يكون الإتيان قد اتَّفقَ قبلَ هذه المرَّة، وذُكر تعريفاً وتنبيهاً على أنَّه لم يحملهما على عدم الإتيان لقصد الخير، فهذا ما فتحَ الله تعالى عليَّ، والشعرُ قد يضيقُ عن الجواب، وقد قلت:

لأسرارِ آياتِ الكتاب معاني ... تَدِقُّ فلا تبدو لكلِّ مُعاني
وفيها لمرتاضٍ لبيبٍ عجائبٌ ... سنا برقِها يعنو له القمرانِ
إذا بارقٌ منها لقلبيَ قد بدا ... هَممت قريرَ العين بالطيرانِ
سروراً وإبهاجاً وصولاً على العلا ... كأني عَلَا فوقَ السماك مكاني
فما المُلْكُ والأكوان ما البيض والقنا[1] ... وعندي وجوهٌ أسفرت بتهاني
وهاتيك منها قد أبحتُك سرَّها ... فشكراً لمن أولاك حسنَ بياني
أرى «استطعما» وصفاً على «قرية» جرَى ... وليس لها[2] والنحوُ كالميزانِ

---

(١) في (م): ما القنا. وهذا البيت ليس في فتاوى السبكي. وهو في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٥١.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي: صفة جرت على غير من هي له. اهـ منه.

صناعتُه تقضي بأنَّ استتارَ ما يعودُ عليه ليس في الإمكانِ
وليس جواباً لا ولا وصفَ أهلها فلا وجهَ للإضمار والكتمانِ
وهذي ثلاثٌ ما سواها بممكنٍ تعيَّن منها واحدٌ فسباني
ورُضْتُ بها فكري إلى أنْ تمخَّضت به زبدةُ الأحقاب منذ زمانِ[1]
وإنَّ حياتي[2] في تموُّجِ أبحرٍ من العلم في قلبي يمدُّ لساني[3]

إلى آخرِ ما تحمَّسَ به، وفيه من المناقشةِ ما فيه.

وقد اعترضَ بعضُهم بأنَّه على تقدير كون الجملةِ صفةً للقرية يمكنُ أن يؤتَى بتركيبٍ أخصَر ممَّا ذُكِر، بأنْ يُقالَ: فلما أتيا قريةً استطعما أهلها، فما الداعي إلى ذكر الأهل أوَّلاً على هذا التقدير؟

وأُجيبَ بأنَّه جيء بالأهل للإشارة إلى أنَّهم قُصِدوا بالإتيان في قريتهم، وسُئلوا فمَنعوا، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ في اللؤم، وأبعدُ عن صدور جميلٍ في حقِّ أحدٍ منهم، فيكون صدور ما صدر من الخضر عليه السلام غريباً جدًّا. لا يقال: ليكن التركيب كذلك، وليكنْ على إرادة[4] الأهل تقديراً أو تجوُّزاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ لأنَّا نقول: إنَّ الإتيان ينسبُ للمكان، كـ: أتيتُ عرفات، ولمن فيه، كـ: أتيتُ أهلَ بغداد، فلو لم يذكر كان فيه تفويتاً[5] للمقصود، وليس ذلك نظيرَ ما ذُكر من الآية؛ لامتناعِ سؤال نفسِ القريةِ عادةً.

واختارَ الشيخُ عزُّ الدين[6] عليٌّ الموصليُّ في جواب الصفديِّ أنَّ تكرار الأهلِ

---

(١) من البيت السابع إلى هنا ليست في فتاوى السبكي.
(٢) في فتاوى السبكي ١/ ٧٧: جناني.
(٣) فتاوى السبكي ١/ ٧٥-٧٨، والمسألة في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٤٥-١٥٣ شعراً ونثراً مع زيادة في الأبيات على ما في الفتاوى وعلى ما ذكره الآلوسي رحمه الله.
(٤) في (م): الإرادة.
(٥) كذا في الأصل و(م).
(٦) لقبه ـ كما في كتب التراجم، وكما سيذكر المصنف ص ٤٨٤ من هذا الجزء ـ: زين الدين، وهو ابن شيخ العوينة، علي بن الحسين بن القاسم بن منصور، أبو الحسن توفي سنة (٧٥٥هـ). انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٢١/ ٥٢-٦٢. وذُكر فيها سؤال الصفدي له، وجوابه عليه.

والعدول عن استطعماهم إلى «استطعما أهلها» للتحقير، وهو أحدُ نكات إقامة الظاهر مقام الضمير، وبسطَ الكلامَ في ذلك نثراً، وقال نظماً:

سألتَ لماذا «استطعما أهلها» أتى ... عن استطعماهم إنَّ ذاك لشانِ
وفيه اختصارٌ ليس ثَمَّ ولم تقف ... على سبب الرُّجحان منذُ زمانِ
فهاكَ جواباً رافعاً لنقابهِ ... يصيرُ به المعنى كرأي عيانِ
إذا ما استوى الحالانِ في الحكم رُجِّحَ الضـ ... ـميرُ وأمَّا حين يختلفانِ
بأنْ كان في التصريح إظهارُ حكمةٍ ... كرفعةِ شانٍ أو حقارة جاني
كمثل أمير المؤمنين يقول ذا ... وما نحنُ فيه صرَّحوا[1] بأمانِ
وهذا على الإيجازِ والبسطِ جاء في ... جوابي منثوراً بحسن بيانِ

وذكر في النثر وجهاً آخر للعدول[2]، وهو ما نقله السبكيُّ وردَّه، وقد ذكره أيضاً النيسابوريُّ[3]، وهو لعمري كما قال السبكيُّ، ويؤول إلى ما ذُكر من أنَّ الإظهار للتحقير قولُ بعض المحققين: إنَّه للتأكيد المقصودِ منه زيادةُ التشنيع، وهو وجهٌ وجيهٌ عندَ كل نبيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية [البقرة: ٥٩] ومثلُه كثيرٌ في الفصيح.

وقال بعضُهم: إنَّ الأهلَيْنِ متغايران، فلذا جيء بهما معاً. وقولهم: إذا أُعيدَ المذكورُ أوَّلاً معرفةً كان الثاني عينَ الأوَّل، غيرُ مطَّرِدٍ؛ وذلك لأنَّ المرادَ بالأهل الأول البعض، إذ في ابتداء دخول القرية لا يتأتَّى عادةً إتيانُ جميعِ أهلها، لا سيما على ما رُوي من أنَّ دخولَهما كان قبل غروب الشمس، وبالأهل الثاني الجميع؛ لما ورد أنَّهما عليهما السلام كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم، فلو جيء بالضمير لَفُهِمَ أنَّهما استطعما البعض.

---

(١) في الوافي بالوفيات ٢١/٥٧: صوحوا.
(٢) انظر الجواب في الوافي بالوفيات ٢١/٥٧-٦١، وأعيان العصر ٣/٣٣٨-٣٤٣، والأشباه والنظائر ٧/١٥٤-١٦٠.
(٣) في غرائب القرآن ١٦/١٣.

وعكسَ بعضُهم الأمر فقال: المراد بالأهل الأول الجميع، ومعنى إتيانهم الوصول إليهم والحلول فيما بينهم؛ وهو نظيرُ إتيانِ البلد، وهو ظاهرٌ في الوصول إلى بعضٍ منه والحلول فيه، وبالأهل الثاني البعض، إذ سؤال فردٍ فردٍ من كبار أهل القرية وصغارهم وذكورهم وإناثهم وأغنيائهم وفقرائهم مستبعدٌ جدًّا، والخبر لا يدلُّ عليه، ولعلَّهُ ظاهرٌ في أنَّهما استطعما الرجال. وقد رُوي عن أبي هريرة ـ والله تعالى أعلم بصحة الخبر ـ أنَّه قال: أطعمتهما امرأةٌ من بربرٍ بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما، فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم. فلذا جيء بالظاهر دون الضمير، ونُقِل مثلُه عن الإمام الشافعيِّ عليه الرحمة في «الرسالة»(١).

وأورد عليهما أنَّ فيهما مخالفة لما هو الغالبُ في إعادة الأول معرفةً، وعلى الثاني أنَّه ليس في المغايرة المذكورة فيه فائدةٌ يعتدُّ بها، ولا يوردُ هذا على الأوَّل؛ لأنَّ فائدة المغايرة المذكورة فيه زيادةُ التشنيع على أهل القرية، كما لا يخفى.

واختار بعضُهم على القول بالتأكيد أنَّ المرادَ بالأهل في الموضعين الذين يُتوقَّع من ظاهر حالهم حصولُ الغرض منهم، ويحصلُ اليأس من غيرهم باليأس منهم، من المقيمين المتوطِّنين في القرية، ومن لم يُحَكِّم العادةَ يقول: إنَّهما عليهما السلام أتوا الجميع وسألوهم؛ لما أنَّهما ـ على ما قيل ـ قد مسَّتهما الحاجة.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقرأ ابنُ الزبير والحسن وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن(٢) وعاصم في رواية المفضَّل وأبان بالتخفيف من الإضافة، يقال: ضافَه إذا كان له ضيفاً، وأضافَه وضيَّفه: أنزله وجعله ضيفاً، وحقيقةُ ضاف: مال، من ضافَ السهمُ عن الهدف يضيفُ، ويقال: أضافتِ الشمس للغروب وتضيَّفَتْ: إذا مالت، ونظيره زارَه من الازورار.

ولا يخفى ما في التعبير بالإباء من الإشارة إلى مزيد لؤمِ القوم؛ لأنَّه ـ كما قال الراغب ـ شدَّةُ الامتناع(٣)، ولهذا لم يقل: فلم يضيفوهما، مع أنَّه أخصُ، فإنَّه دون ما في النظم الجليل في الدلالة على ذمِّهم.

---

(١) ص٥٥ في باب بيان ما نزل من الكتاب عامًّا يراد به العام، ويدخله الخصوص.
(٢) في الأصل و(م): وأبو محيصن. والمثبت من البحر المحيط ٦/ ١٥١، وعنه نقل المصنف.
(٣) المفردات (أبى).

ولعلَّ ذلك الاستطعام كان طلباً للطعام على وجهِ الضيافة، بأن يكونا قد قالا: إنَّا غريبان فضيِّفونا، أو نحو ذلك، كما يشيرُ إليه التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ دون: فأبوا أن يطعموهما، مع اقتضاء ظاهر «استطعما أهلها» إيَّاه. وإنَّما عبَّر بـ «استطعما» دون استضافا؛ للإشارة إلى أنَّ جُلَّ قصدهما الطعامُ، دونَ الميل بهما إلى منزل، وإيوائهما إلى محلّ.

وذكر بعضُهم أنَّ في «أبوا أن يضيفوهما» من التشنيع ما ليس في: أبوا أن يطعموهما؛ لأنَّ الكريمَ قد يردُّ السائلَ المستطعِمَ، ولا يُعاب، كما إذا ردَّ غريباً استضافه، بل لا يكادُ يردُّ الضيفَ إلَّا لئيم. ومن أعظم هجاءِ العرب: فلانٌ يطردُ الضيف.

وعن قتادة: شرُّ القُرى التي لا يُضَافُ فيها الضيفُ، ولا يُعرَفُ لابن السبيل حقُّه.

وقال زينُ الدين الموصلي: إنَّما خصَّ سبحانه الاستطعامَ بموسى والخضر عليهما السلام والضيافةَ بالأهل لأنَّ الاستطعامَ وظيفة السائل، والضيافة وظيفة المسؤول؛ لأنَّ العرفَ يقضي بذلك، فيدعو المقيمُ القادمَ إلى منزله يسأله، ويحمله إليه. انتهى[١]. وهو كما ترى.

وممَّا يضحكُ منه العقلاء ما نقلَه النيسابوريُّ وغيرُه أنَّ أهلَ تلك القرية لمَّا سمعوا نزولَ هذه الآية استحيوا، وأتوا إلى رسول الله ﷺ بحِمْلٍ من ذهب، فقالوا: يا رسولَ الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء من «أبوا» تاء، فأبى عليه الصلاة والسلام[٢].

وبعضُهم يحكي وقوعَ هذه القصة في زمن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، ولا أصلَ لشيءٍ من ذلك، وعلى فرض الصحة يُعلَم منه قلَّة عقولِ أهل القرية في الإسلام، كما عُلِم لؤمُهم من القرآن والسنة من قبل.

---

(١) انظر كلام زين الدين الموصلي في الوافي بالوفيات ٢١/ ٦٠، وأعيان العصر ٣/ ٣٤١-٣٤٢، والأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٥٩.

(٢) غرائب القرآن ١٦/ ١٤.

﴿فَوَجَدَا﴾ عطفٌ ـ كما قال السبكيُّ ـ على «أتيا»[(١)] ﴿فِيهَا جِدَارًا﴾ رُوِيَ أنَّهما التجأا إليه حيث لم يجدا مأوًى، وكانت ليلتُهما ليلةً باردةً، وكان على شارع الطريق.

﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط، وماضيه انقضَّ على وزن انفعلَ، نحو انجرَّ، والنون زائدةٌ؛ لأنَّه من قضضته بمعنى كسرته، لكن لمَّا كان المنكسر يتساقط، قيل الانقضاض للسقوط[(٢)]، والمشهورُ أنَّه السقوطُ بسرعة، كانقضاضِ الكوكب والطير.

قال صاحب «اللوامح»: هو من القِضَّة، وهي الحصى الصغار، ومنه طعامٌ قَضَضٌ: إذا كان فيه حصًى، فعلى هذا: المعنى: يريد أنْ يتفتَّتَ فيصير حصى. انتهى.

وذكر أبو علي في «الإيضاح» أنَّ وزنَه افْعَلَّ من النقض، كاحمرَّ. وقال السهيليُّ في «الروض»[(٣)]: هو غلط. وتحقيق ذلك في محلِّه. والنون على هذا أصليَّة.

والمراد من إرادة السقوط قربُه من ذلك، على سبيل المجاز المرسل بعلاقةِ تسبُّبِ إرادة السقوط لقربه، أو على سبيل الاستعارة بأن يُشَبَّهَ قربُ السقوط بالإرادة؛ لما فيهما من الميل، ويجوز أنْ يعتبر في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ وتخييليةٌ، وقد كثر في كلامهم إسنادُ ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم، ومن ذلك قوله:

يـريـدُ الـرمـحُ صـدرَ أبـي بـراءٍ ... ويـعـدلُ عـن دمـاءِ بـنـي عـقـيـلِ[(٤)]

وقول حسان رضي الله عنه:

إنَّ دهـراً يـلـفُّ شـمـلـي بـجُـمْـلٍ ... لـزمـانٌ يَـهُـمُّ بـالإحـسـان[(٥)]

---

(١) فتاوى السبكي ١/ ٧٧، والأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٥٠.
(٢) في (م): السقوط.
(٣) ٣/ ١٢٩.
(٤) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤١٠ منسوباً للحارثي. وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧، والأضداد للأنباري ص١٧٢، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣، والصناعتين ص٢٨٤ دون نسبة.
(٥) ونسبه لحسان أيضاً الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٤، والأساس (لفف)، والخفاجي في حاشيته ٦/ ١٢٦. وأنشده الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٥٦، والطبري ١٥/ ٣٤٨ دون نسبة. والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص٢٩١ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، وفيه: بسعدى، بدل: بجمل.

وقول الآخر:

أبتِ الروادفُ والثُّديُّ لقُمْصِها مسَّ البطون وأنْ تمسَّ ظهورا(١)

وقول أبي نواس:

فاستنْطِق العودَ قد طالَ السكوتُ به لا ينطقُ اللهو حتى ينطقَ العودُ(٢)

إلى ما لا يُحصى كثرةً، حتى قيل: إنَّ من له أدنى اطلاعٍ على كلام العرب لا يحتاجُ إلى شاهدٍ على هذا المطلب. ونقل بعض أهل أصول الفقه عن أبي بكر محمد بن داود الأصبهانيِّ أنَّه ينكرُ وقوعَ المجاز في القرآن، فيؤوِّل الآيةَ بأنَّ الضميرَ في «يريد» للخضر أو لموسى عليهما السلام. وجُوِّزَ أنْ يكونَ الفاعلُ الجدار، وأنَّ الله تعالى خلق فيه حياةً وإرادةً، والكلُّ تكلُّفٌ وتعسُّفٌ تُغْسَلُ به بلاغةُ الكلام.

وقال أبو حيان: لعلَّ النقل لا يصحُّ عن الرجل، وكيف يقولُ ذلك وهو أحدُ الأدباء الشعراء الفحول المُجيدين في النظم والنثر(٣).

وقرأ أبيّ: «يُنقَضَ» بضمِّ الياء وفتح القاف والضاد مبنيّاً للمفعول(٤)، وفي حرف عبد الله وقراءة الأعمش: «يريد ليُنْقَضَ»(٥) كذلك، إلَّا أنَّه منصوبٌ بـ «أن» المقدَّرة بعد اللام.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعكرمة وخليد بن سعد ويحيى بن يعمر:

---

(١) أمالي القالي ١/ ٢٣، والحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١٢٨٤، والعقد الفريد ٣/ ٤٦٢، قال البكري في سمط اللآلي ١/ ١٠٧: لا أعلم أحداً نسب هذا الشعر. اهـ. ويصف فيه امرأة بأنها ناهدة الثديين عظيمة الرِّدف، فالثُّديُّ تمنع القُمص أن تلتصق ببطنها، والرِّدف يمنعها أن تلتصق بظهرها.

والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٩٢ ضمن الشعر المنسوب إليه، وليس في أصول ديوانه.

(٢) ديوان أبي نواس ص١٨٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣١ للنبي ﷺ.

(٥) المحتسب ٢/ ٣١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.

«يَنْقاصَ» بالصاد المهملة مع الألف[1]، ووزنه ينفعل اللازم، من: قِصْته فانقَاصَ، إذا كسَرته فانكسر، وقال ابن خالويه: تقولُ العرب: انقاصت السنُّ إذا انشقَّت طولاً[2]. قال ذو الرمة يصفُ ثورَ وحش:

يَغشَى الكِناس بِرَوْقَيْهِ ويَهْدِمُهُ ... من هائل الرمل مُنْقَاصٌ ومُنْكَثِبُ[3]

وفي «الصحاح»: قَيْصُ السنِّ: سقوطُها من أصلِها، وأنشدَ قولَ أبي ذؤيب:

فراقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ فالصبرَ إنَّه ... لِكُلِّ أناسٍ عثرةٌ وحبورُ[4]

وقال الأمويُّ: انقاصَتِ البئر: انهارت. وقال الأصمعيُّ: المُنْقاسُ: المُنْقَعِر. والمنقاض ـ بالضاد المعجمة ـ: المُنْشَقُّ طولاً. وقال أبو عمرو: هما بمعنى واحد[5].

وقرأ الزهريُّ: «يَنْقَاض» بألفٍ وضادٍ معجمة[6]، والمشهورُ تفسيره بينهدم.

وذكر أبو عليٍّ: أنَّ المشهورَ عن الزهريِّ أنه «يَنْقَاص» بالمهملة.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ مسحَهُ بيده فقام، كما روي عن ابن عباس وابن جبير. وقال القرطبيُّ: إنَّه هو الصحيح، وهو أشبه بأحوالِ الأنبياء عليهم السلام[7].

واعترضَ بأنَّه غيرُ ملائمٍ لما بعد؛ إذ لا يستحقُّ بمثله الأجر.

ورُدَّ بأنَّ عدمَ استحقاقِ الأجر مع حصول الغرض غيرُ مسلَّم، ولا يضرُّه سهولتُه على الفاعل.

وقيل: أقامَه بعمودٍ عمده به. وقال مقاتل: سوَّاه بالشِّيد.

وقيل: هدمَه، وقعَدَ يبنيه.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٨١.
(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ٨٨.
(٤) كذا بالحاء المهملة في الأصل و(م). وهي في شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٦، وأمالي أبي علي القالي ٢/ ٢٣ بالجيم: وجبور. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ وفيه: عبرة وحبور. ثم قال: ويروى: عثرة وجبور، بالثاء والجيم.
(٥) الصحاح (قيص).
(٦) البحر المحيط ٦/ ١٥٢.
(٧) تفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٩-٣٤٠.

وأخرج ابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن أبيٍّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنَّه قرأ: «فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ يَنقضَّ فهدمَه ثم قعدَ يبنيه»[١].

وكان طولُ هذا الجدارِ إلى السماء ـ على ما نقل النوويُّ عن وهب بن منبه ـ مئةَ ذراع[٢]، ونقل السفيريُّ عن الثعلبيّ أنَّه كان سمكه مئتي ذراعٍ بذراعِ تلك القرية[٣]، وكان طولُه على وجه الأرض خمسَ مئة ذراع، وكان عرضُه خمسين ذراعاً، وكان الناسُ يمرُّون تحتَه على خوفٍ منه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ تحريضاً للخضر عليه السلام، وحثّاً على أخذِ الجعل والأجرة على فعلِه؛ ليحصل لهما بذلك الانتعاشُ والتقوّي بالمعاش، فهو سؤالٌ له؛ لِمَ لَمْ يأخذ الأجرة؟ واعتراضٌ على تركِ الأخذ، فالمراد لازمُ فائدةِ الخبر، إذ لا فائدةَ في الإخبار بفعله.

وقيل: لم يقل ذلك حثّاً، وإنَّما قاله تعريضاً بأنَّ فعلَه ذلك فضولٌ وتبرُّعٌ بما لم يُطْلَب منه، من غير فائدةٍ ولا استحقاقٍ لمن فُعِل له، مع كمال الاحتياج إلى خلافه. وكانَ الكليمُ عليه السلام لمَّا رَأى الحرمانَ ومساسَ الحاجةِ والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبرَ فاعترض.

واتخذ: افتعلَ، فالتاءُ الأولى أصليَّة، والثانية تاء الافتعال، أُدغِمت فيها الأولى، ومادَّته تَخِذَ، لا أخذ، وإنْ كان بمعناه؛ لأنَّ فاءَ الكلمة لا تبدل إذا كانت همزةً أو ياءً مبدلةً منها، ولذا قيل: إن اتَّزر[٤] خطأٌ أو شاذٌّ، وهذا شائعٌ في فصيح الكلام، وأيضاً إبدالها في الافتعال لو سلِّم لم يكن لقولهم: «تخذ» وجهٌ. وهذا مذهب البصريين. وقال غيرُهم: إنَّ[٥] الاتخاذ افتعالٌ من الأخذ، ولا يسلّم

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤١.

(٣) جاء في عرائس المجالس ص٢٢٩: أن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن.

(٤) في الأصل و(م): ايتزر، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٦، والكلام منه، ومثله في الدر المصون ١/ ٣٥٥.

(٥) في (م): إنه.

ما تقدَّم، ويقول: المَدَّةُ العارضة تُبدَلُ تاءً أيضاً، ولكثرة استعماله هنا أجروه مُجْرَى الأصليِّ، وقالوا: تَخِذ، ثلاثيّاً جرياً عليه، وهذا كما قالوا: تَقِيَ من اتَّقى.

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وأبو بحريَّة وابنُ محيصن وحميد واليزيديُّ ويعقوب وأبو حاتم وابنُ كثير وأبو عمرو: «لتَخِذت» بتاءٍ مفتوحةٍ وخاءٍ مكسورةٍ[١]، أي: لأخذت، وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمها باقي السبعة[٢].

﴿قَالَ﴾ أي: الخضر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعاً، وابن الحاجب يجعلُ الإضافة في مثله على معنى «في» وقد تقدَّم ما ينفعك هنا فتذكَّر.

وقرأ ابن أبي عبلة: «فراقٌ بيني» بالتنوين[٣]، ونصب «بين» على الظرفية.

وأعيد «بين» وإن كان لا يضاف إلَّا لمتعددٍ؛ لأنَّه لا يعطفُ على الضمير المجرور بدون إعادة الجار. قال أبو حيان: والعدولُ عن «بيننا»؛ لمعنى التأكيد[٤].

والإشارةُ إلى الفراق المدلول عليه بقوله قبل: «لا تصاحبني». والحمل مفيدٌ؛ لأنَّ المخبَرَ عنه الفراقُ باعتبار كونه في الذهن، والخبر الفراق باعتبار أنَّه في الخارج كما قيل. أو إلى الوقتِ الحاضر، أي: هذا الوقت وقتُ فراقنا. أو إلى الاعتراض الثالث، أي: هذا الاعتراضُ سببُ فراقنا حسبما طلبت، فوجهُ تخصيصِ الفراق بالثالث ظاهر.

وقال العلَّامة الأول: إنَّما كان هذا سبب الفراق دون الأولين؛ لأنَّ ظاهرهما منكر، فكان معذوراً، بخلاف هذا، فإنَّه لا يُنْكَرُ الإحسانُ للمسيء، بل يُحْمَد.

---

(١) التيسير ص ١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤ عن ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر ٦/ ١٥٢.

(٢) التيسير ص٤٤، والنشر ٢/ ١٥-١٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٩٥، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٥٢.

وروي عن ابن عباس ﷺ في وجهه أنَّ قول موسى عليه السلام في السفينة والغلام كان لله تعالى، وفي هذا لنفسه لطلب الدنيا، فكان سببَ الفراق. وحَكى القشيريُّ[(١)] نحوَه عن بعضهم.

ورَدَّ ذلك في «الكشف» بأنَّه لا يليقُ بجلالتهما، ولعلَّ الخبرَ عن الحبر غيرُ صحيح.

ونقل في «البحر» عن أرباب المعاني أنَّ هذه الأمورَ التي وقعت لموسى مع الخضر حجَّةٌ على موسى عليه السلام؛ وذلك أنَّه لمَّا أنكرَ خرقَ السفينة نوديَ: يا موسى أين كان تدبيرُك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ ولما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارُك هذا ووكز القبطيِّ والقضاء عليه؟ ولما أنكر إقامةَ الجدار نودي: أينَ هذا من رفعك الحجرَ لبنات[(٢)] شعيب عليه السلام بدون أجرة؟[(٣)].

ورأيتُ أنا في بعض الكتب أنَّ الخضرَ عليه السلام قال: يا موسى، اعترضت عليّ بخرقِ السفينة وأنت ألقيتَ ألواحَ التوراة فتكسَّرت، واعترضتَ عليَّ بقتل الغلام وأنتَ وكزتَ القبطيَّ فقضي عليه، واعترضتَ عليَّ بإقامة الجدار بلا أجرٍ وأنتَ سقيتَ لبنات شعيب أغنامهن[(٤)] بلا أجرٍ، فمَن فَعَلَ نحوَ ما فعلتُ لن يعترض عليَّ.

والظاهرُ أنَّ شيئاً من ذلك لا يصحّ، والفرقُ ظاهرٌ بين ما صدرَ من موسى عليه السلام وما صدرَ من الخضر، وهو أجلُّ من أنْ يَحتجَّ على صاحب التوراة بمثل ذلك، كما لا يخفى.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وابن عساكر عن أبي عبد الله ـ وأظنُّه الملطيّ ـ قال: لمَّا أرادَ الخضرُ أنْ يفارقَ موسى قال له: أوصني. قال: كن نفَّاعاً ولا تكن ضَرَّاراً، كن بشَّاشاً[(٥)] ولا تكن غضباناً، ارجع

---

(١) في لطائف الإشارات ٢/ ٤١١.

(٢) في (م): لبنتي، والمثبت من الأصل والبحر.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥٣. وانظر عرائس المجالس للثعلبي ص٢٣١-٢٣٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٤٧.

(٤) في (م): لبنتي شعيب أغنامهما.

(٥) في (م): بشاشياً.

عن اللجاجة، ولا تمشِ من غير حاجة، ولا تعيِّر امرأً بخطيئته، وابكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران[١].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن يوسف بن أسباط قال: بلغني أنَّ الخضرَ قال لموسى لما أراد أن يفارقه: يا موسى تعلَّم العلمَ لتعملَ به، ولا تعلَّمْه لتحدِّث به[٢].

وبلغني أنَّ موسى قال للخضر: ادعُ لي، فقال الخضر: يَسَّرَ اللهُ تعالى عليك طاعتَه. والله تعالى أعلم بصحَّة ذلك أيضاً.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وقرأ ابن أبي وثاب: «سأنبيك» بإخلاص الياء من غير همز[٣]. والسين للتأكيد لعدم تراخي الإنباء، أي: أخبرك البتة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ والظاهر أنَّ هذا لم يكن عن طلبٍ من موسى عليه السلام. وقيل: إنَّه لمَّا عزمَ الخضر على فراقه، أخذَ بثيابه وقال: لا أفارقُكَ حتى تخبرني بما أباح لك فعلَ ما فعلت ودعاك إليه، فقال: «سأنبئك» إلخ.

والتأويلُ ردُّ الشيء إلى مآله، والمراد به هنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبَّأ به، دون التأويل بالمعنى المذكور.

و«ما» عبارةٌ عن الأفعال الصادرة من الخضر عليه السلام، وهي خرقُ السفينة، وقتلُ الغلام، وإقامةُ الجدار، ومآلُها خلاصُ السفينة من اليدِ الغاصبة، وخلاصُ أبوي الغلام من شرِّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز.

وفي جعل الموصول عدمَ استطاعة موسى عليه السلام للصبر دون أنْ يقال: بتأويل ما فعلتُ، أو بتأويل ما رأيتَ، ونحوهما = نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب. ويجوز أن يُقال: إنَّ ذلك لاستتارةِ[٤] مزيدِ توجُّهه وإقباله لتلقِّي ما يُلقى إليه.

---

(١) شعب الإيمان (٦٦٩٤)، وتاريخ دمشق ١٦/٤١٦. وقوله: أظنه الملطي. هو من كلام البيهقي.
(٢) الدر المنثور ٤/٢٣٩، وهو في تاريخ دمشق ١٦/٤١٦.
(٣) البحر ٦/١٥٢.
(٤) في (م): لاستشارة. وهو تصحيف.

و«صبراً» مفعول «تستطع»، و«عليه» متعلِّقٌ به، وقُدِّمَ رعايةً للفاصلة.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها[1] ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، جمعُ مِسكين بكسر الميم وفتحها، ويجمعُ على مساكين ومسكينون؛ وهو الضعيف العاجز، ويشمل هذا ما إذا كان العجزُ لأمرٍ في النفس أو البدن، ومن هنا قيل: سُمُّوا مساكين لزمانتهم.

وقد كانوا عشرةً خمسةٌ منهم زَمْنَى، وإطلاق مساكين عليهم على هذا من باب التغليب.

وهذا المعنى للمسكين غير ما اختلف الفقهاء في الفرق بينَه وبين الفقير، وعليه لا تكون الآيةُ حجَّةً لمن يقول: إنَّ المسكينَ من يملكُ شيئاً ولا يكفيه؛ لأنَّ هذا المعنى مقطوعٌ فيه النظر عن المال وعدمه. وقد يُفَسَّر بالمحتاج، وحينئذٍ تكونُ الآيةُ ظاهرةً فيما يدَّعيه القائلُ المذكور.

وادَّعى من يقول: إنَّ المسكينَ من لا شيءَ له أصلاً ـ وهو الفقير عند الأول ـ أنَّ السفينة لم تكنْ ملكاً لهم، بل كانوا أُجَراء فيها. وقيل: كانت معهم عاريةً، واللام للاختصاص لا للملك.

ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر، ولا يُقْبَلُ بلا دليل.

وقيل: إنَّهم نُزِّلُوا منزلة من لا شيءَ له أصلاً، وأطلق عليهم المساكين ترحُّماً.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «لمسَّاكين» بتشديد السين[2]، جمع تصحيح لمسَّاك، فقيل: المعنى: لملَّاحين. وقيل: المسَّاكُ من يُمسِكُ رجل السفينة، وكانوا يتناوبون ذلك.

وقيل: المسَّاكون دَبَغَةُ المُسُوك، وهي الجلود واحدها مَسْك، ولعلَّ إرادة الملَّاحين أظهر.

---

(١) في (م): خرقها.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٣، والدر المصون ٧/ ٥٣٦. قال السمين الحلبي: ولا أظنُّها إلا تحريفاً على أمير المؤمنين.

﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: يعملون بها فيه، ويتعيَّشُون بما يحصلُ لهم، وإسناد العمل إلى الكلِّ على القول بأنَّ منهم زَمْنَى على التغليب، أو لأنَّ عملَ الوكلاء بمنزلة عمل الموكِّلين.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيبٍ بالخرق، ولم أُرِد إغراقَ من بها كما حسبت. ولإرادة هذا المعنى جيء بالإرادة، ولم يقل: فأعبتها. وهذا ظاهرٌ في أنَّ اللام في الاعتراض للتعليل، ويحتاجُ حملُها على العاقبة إلى ارتكاب خلاف الظاهر هنا، كما لا يخفى على المتأمِّل.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامهم، وبذلك قرأ ابنُ عباس وابن جبير(١)، وهو قولُ قتادةَ وأبي عُبيد وابنِ السكِّيت والزَّجَّاج(٢). وعلى ذلك جاء قول لبيد:

أليسَ ورائي إنْ تراخت منيَّتي لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ(٣)

وقول سوار بن المضرَّب السعدِيّ:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا(٤)

وقول الآخر:

أليس ورائي أنْ أدبَّ على العصا فيأمنَ أعدائي ويسأَمَني أهلي(٥)

وفي القرآن كثيرٌ أيضاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٦/ ١٥٤. وأخرجها البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٤ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٤، وانظر كلام ابن السكيت في الأضداد له ص١٧٦، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٠٥.

(٣) ديوان لبيد ص١٧٠.

(٤) النوادر لأبي زيد ص٤٥، والكامل للمبرد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمّان، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٤٩٥ للفرزدق.

(٥) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص١١٤. وفيه: فيشمت. بدل: فيأمن.

ولا خلافَ عند أهل اللغة في مجيء وراء بمعنى أمام، وإنَّما الخلافُ في غير ذلك، وأكثرُهم على أنَّه معنًى حقيقيٌّ يصحُّ إرادتُه منها في أيِّ موضعٍ كان، وقالوا: هي من الأضداد، وظاهرُ كلام البعض أنَّ لها معنًى واحداً يشملُ الضِّدَّين، فقال ابنُ الكمال نقلاً عن الزمخشريّ[1]: إنَّها اسمٌ للجهة التي يُواريها الشخص من خلفٍ أو قُدَّام.

وقال البيضاويُّ ما حاصلُه: إنَّها في الأصل مصدرُ وَرَا يَرِي، كقضى يقضي، وإذا أضيف إلى الفاعل يُراد به المفعول، أعني المستور، وهو ما كان خلفاً، وإذا أُضيف إلى المفعول يراد به الفاعل، أعني[2] الساتر، وهو ما كان قدَّاماً[3]. ورُدَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]، فإنَّ «وراء» أضيفت فيه إلى المفعول، والمراد بها الخلف.

وقال الفرَّاء: لا يجوزُ أن يُقَال للرجل بين يديك: هو وراءك، وكذا في سائر الأجسام، وإنَّما يجوزُ ذلك في المواقيتِ من الليالي والأيَّام[4].

وقال أبو عليّ: إنَّما جاز استعمالُ «وراء» بمعنى أمام على الاتِّساع؛ لأنَّها جهةٌ مقابلةٌ لجهة، فكانت كلُّ واحدةٍ من الجهتين وراءَ الأخرى إذا لم يُرَدْ معنى المواجهة، ويجوز ذلك في الأجرام التي لا وجهَ لها، مثل حجرين متقابلين، كلُّ واحدٍ منهما وراءَ الآخر.

وقيل: أي: خلفهم، كما هو المشهور في معنى وراء.

واعتُرض بأنَّه إذا كانَ خلفهم، فقد سَلِموا منه.

وأُجيب بأنَّ المرادَ أنَّه خلفهم، مدركٌ لهم ومارٌّ بهم، أو بأنَّ رجوعَهم عليه.

واسمه ـ على ما يزعمون ـ هُدَدُ بن بَدَد، وكان كافراً. وقيل: جُلَنْدى بن كركر،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥١٠.
(٢) قوله: الفاعل أعني. ليس في الأصل.
(٣) انظر تفسير البيضاوي ١/ ١٧٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٧.

ملك غسان. وقيل: مفوار[1] بن الجلند بن سعيد الأزدي، وكان بجزيرة الأندلس.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحةٍ، وقد قرأ كذلك أبيُّ بنُ كعب[2]، ولو أُبقيَ العمومُ على ظاهره لم يكن للتعييب فائدةٌ.

﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ من أصحابها، وانتصابُه على أنَّه مصدرٌ مبيِّنٌ لنوع الأخذ، والظاهرُ أنَّه كان يغصبُ السفنَ من أصحابها، ثم لا يردُّها عليهم. وقيل: كان يسخِّرها ثمَّ يردُّها.

والفاء في «فأردت» للتفريع، فيفيد أنَّ سببَ إرادة التعييب كونُها لقومٍ مساكين عجزةٍ، لكن لمَّا كانت مناسبةُ هذا السبب للمسبَّب خفيَّةً بَيَّنَ ذلك بذكرِ عادة الملك في غصب السفن، ومآلُ المعنى: أمَّا السفينةُ فكانت لقومٍ مساكين عجزة يكتسبون بها، فأردتُ بما فعلت إعانتَهم على ما يخافونه ويعجزون عن دفعه من غصبِ ملكٍ وراءهم عادتُه غصب السفن الصالحة.

وذكرَ بعضُهم أنَّ السببَ مجموعُ الأمرين؛ المسكنة والغصب، إلَّا أنَّه وَسَّطَ التفريعَ بين الأمرين ـ وكان الظاهرُ تأخيرَه عنهما ـ للعناية[3] به من حيث إنَّ ذلك الفعل كان هو المنكر المحتاج إلى بيان تأويله، وللإيذان بأنَّ الأقوى في السببيَّة هو الأمر الأول، ولذلك لم يبال بتخليص سفنِ سائر الناس، مع تحقُّق الجزء الأخير من السبب، ولأنَّ في تأخيره فصلاً بين السفينة وضميرها، مع توهُّم رجوعه إلى الأقرب. فليفهم.

---

(١) في (م): مفواد، وفي تفسير البيضاوي ٣/ ٢٣٣: منوار، وفي فتح الباري ٨/ ٤٢٠، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٨، وحاشية الشهاب ٦/ ١٢٧: منولة، وكذا في تفسير البيضاوي المطبوع بهامشه.

(٢) أخرجها الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٣٥٦ عن ابن عباس عن أبيٍّ، وهي عنه أيضاً في الكشاف ٢/ ٤٩٥، وفي البحر المحيط ٦/ ١٥٤.
وأخرجها البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس.
وأخرجها الطبري ١٥/ ٣٥٦ عن ابن مسعود، وذكرها عنه أيضاً الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ١٥٤.
وأوردها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٣٤٩ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) في (م): للغاية. وهو تصحيف.

وظاهرُ الآية أنَّ موسى عليه السلام ما عَلِمَ تأويل هذا الفعل قبلُ، ويشكلُ عليه ما جاء عن الربيع أنَّ الخضرَ عليه السلام بعدَ أن خرقَ السفينةَ، وسلمت من الملك الظالم أقبلَ على أصحابها، فقال: إنَّما أردتُ الذي هو خيرٌ لكم، فحمدوا رأيَه وأصلحَها لهم كما كانت[1]. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّه عليه السلام أوقفَهم على حقيقة الأمر، والظاهرُ أنَّ موسى عليه السلام كان حاضراً يسمعُ ذلك. وقد يقال: إنَّ هذا الخبر لا يعوَّل عليه. واحتمال صحَّته مع عدم سماع موسى عليه السلام ممَّا لا يُلتفَت إليه.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتله ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأمُّه، ففيه تغليب. واسم الأب ـ على ما في «الإتقان» ـ كازير، والأم سهوا[2].

وفي مصحف أبيٍّ وقراءة ابن عباس: «وأمَّا الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[3]، والمعنى على ذلك في قراءة السبعة، إلَّا أنَّه تُرِكَ التصريحُ بكفره إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر؛ لظهوره، واستَدلَّ بتلك القراءة من قال: إنَّ الغلام كان بالغاً؛ لأنَّ الصغيرَ لا يوصفُ بكفرٍ وإيمانٍ حقيقيين.

وأجاب النوويُّ عن ذلك بوجهين؛ الأوَّلُ: أنَّ القراءةَ شَاذَّةٌ لا حجَّةَ فيها، الثاني: أنَّه سمَّاه بما يؤول إليه لو عاش[4].

وفي «صحيح مسلم»: «أنَّ الغلامَ طُبعَ يوم طُبعَ كافراً»[5]، وأوِّلَ بنحو هذا. وكذا ما مرَّ من خبرِ صاحب العرس والعرائس[6]، لكن في صحَّتِه توقُّفٌ عندي؛ لأنَّه ربما يقتضي بظاهره علمَ موسى عليه السلام بتأويل القتل قبل الفراق.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس كما في الدر المنثور ٤/ ٢٣٨-٢٣٩ مطولاً.
(٢) في الإتقان ٢/ ١٠٩٧ والتعريف والإعلام ص١٠٥: اسم الأب: كازيرا.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥٤. وأخرج حرف أبيٍّ الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٣٥٧، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦. وأخرج قراءة ابن عباس البخاريُّ (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤٠.
(٥) صحيح مسلم (٢٣٨٠) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٦) يريد كتاب عرائس المجالس للثعلبي، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (٧٤) من هذه السورة.

وعلى ما سمعت من التأويل لا يَرِدُ شيءٌ ممَّا ذُكر على القول المنصورِ في الأطفال، وهو أنَّهم مطلقاً في الجنَّة، على أنَّه قيلَ: الكلامُ في غير من أَخْبَرَ الصادقُ بأنَّه كافر.

وقرأ أبو سعيد الخدريُّ والجحدريُّ: «فكان أبواه مؤمنان»[1]، وخرَّجه الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة وأبو الفضلِ الرازيُّ على أنَّ في «كان» ضمير الشأن، والجملة في موضع الخبر لها[2]، وأجاز أبو الفضل أنْ يكون «مؤمنان» على لغة بني الحارث بن كعب، فيكون منصوباً، وأجاز أيضاً أن يكون في «كان» ضمير «الغلام»، والجملة في موضع الخبر.

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ فخفنا خوفاً شديداً أنْ يَغشَى الوالدين المؤمنين لو بقي حيّاً ﴿طُغْيَنًا﴾ مجاوزةً للحدود الإلهية ﴿وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ بالله تعالى، وذلك بأنْ يَحملهُما حبُّه على متابعته، كما رُوي عن ابن جبير. ولعلَّ عطف الكفر على الطغيان؛ لتفظيع أمره، ولعلَّ ذكرَ الطغيان ـ مع أنَّ ظاهر السياق الاقتصارُ على الكفر ـ ليتأتَّى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أنْ يدنِّس إيمانَهما أوّلاً ويزيلَه آخِراً، ويُلتزم على هذا القولُ بأنَّ ذلك أشنعُ وأقبحُ من إزالتِه بدون سابقيَّة تدنيس.

وفسَّر بعض شُرَّاح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنَّه لو أدركَ وبلغَ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه ويدخلان معه في دينه لفرطِ حبِّهما إيَّاه.

وقيل: المعنى: خشينا أن يُغشيهما طغياناً[3] عليهما، وكفراً لنعمتهما عليه، من تربيتهما إيَّاه وكونهما سبباً لوجوده؛ بسبب عقوقه وسوء صنيعه، فيلحَقَهُما شرٌّ وبلاء.

وقيل: المعنى: خشينا أنْ يُغشيهما، ويَقرِنَ بإيمانهما طغيانَه وكفرَه، فيجتمعَ في بيتٍ واحدٍ مؤمنان وطاغٍ كافرٌ.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والكشاف ٢/ ٤٩٥، والبحر ٦/ ١٥٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥، وعنه نقل المصنف.
(٣) قوله: يغشيهما، من الإفعال أو التفعيل، أي: يعرض لهما منه ذلك. حاشية الشهاب ٦/ ١٢٨.

وفي بعض الآثار أنَّ الغلام كان يفسِدُ، وفي روايةٍ: يقطع الطريق، ويقسمُ لأبويه أنَّه ما فعل، فيقسمان على قسمِه، ويحميانِه ممن يطلبُه. واستَدلَّ بذلك من قال: إنَّه كان بالغاً.

والذاهبُ إلى صغره يقول: إنَّ ذلك لا يصحُّ. ولعلَّ الحقَّ معه.

والظاهر أنَّ هذا من كلام الخضر عليه السلام، أجاب به موسى عليه السلام من جهته.

وجوَّزَ الزمخشريُّ(١) أنْ يكون ذلك حكايةً لقول الله عزَّ وجلَّ، والمراد: فكرهنا، بجعل الخشيةِ مجازاً مرسلاً عن لازمها، وهو الكراهة على ما قيل.

قال في «الكشف»: وذلك لاتحاد مقامِ المخاطبة، كأنَّ سؤالَ موسى عليه السلام منه تعالى، والخضرُ عليه السلام بإذن الله تعالى يجيبُ عنه، وفي ذلك لطفٌ، ولكنَّ الظاهرَ هو الأول. انتهى.

وقيل: هو على هذا الاحتمال بتقدير: فقال الله: خشينا، والفاء من الحكاية. وهو أيضاً بعيدٌ، ولا يكادُ يلائمُ هذا الاحتمالُ الآيةَ بعد، إلَّا أن يُجعل التعبيرُ بالظاهر فيها التفاتاً.

وفي مصحف عبد الله وقراءة أبيٍّ: «فخاف ربُّك»(٢). والتأويل ما سمعت.

وقال ابن عطية: إنَّ الخوفَ والخشيةَ ـ كالترجِّي بلعلَّ ونحوها الواقعِ في كلامه تعالى ـ مصروفٌ إلى المخاطبين، وإلَّا فالله جلَّ جلالُه منزَّهٌ عن كلِّ ذلك(٣).

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ بأنْ يرزقَهما بدلَه ولداً خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾ قال ابن عباس: أي: ديناً، وهو تفسيرٌ باللازم، والكثيرُ قالوا: أي: طهارةً من الذنوبِ والأخلاقِ الرديئة.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٩٥-٤٩٦.

(٢) أخرج الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٧ قراءة ابن مسعود ﷺ، وذكرها عنه أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والقرطبيُّ في تفسيره ١٣/ ٣٥٢، وأبو حيان في البحر ٦/ ١٥٥.
وقراءة أبيّ ذكرها الفراء في معانيه ٢/ ١٥٧، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٥.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.

وفي التعرُّضِ لعنوان الربوبيَّة والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: رحمة، قال رؤبةُ بن العجاج:

يا مُنْزِل الرُّحمِ على إدريسَا ومُنْزِلَ اللعنِ على إبليسَا[(١)]

وهما مصدران كالكُثر والكَثرة، والمراد: أقرب رحمةً عليهما، وبرّاً بهما. واستظهرَ ذلك أبو حيان[(٢)]، ولعلَّ وجهَه كثرةُ استعمال المصدر مبنيّاً للفاعل، مع ما في ذلك هنا من موافقة المصدر قبله.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطيَّة أنَّ المعنى: هما به أرحمُ منهما بالغلام[(٣)]، ولعلَّ المراد على هذا أنَّه أحبُّ إليهما من ذلك الغلام، إمَّا لزيادة حسن خُلقه أو خَلْقه، أو الاثنين معاً.

وهذا المعنى أقربُ للتأسيس من المعنى الأول، على تفسير المعطوف عليه بما سمعت، إلَّا أنه يؤيِّد ذلك التفسيرَ ما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّهما أُبدِلَا جاريةً ولدت نبيّاً[(٤)].

وقال الثعلبيُّ: إنها أدركت يونس بن متَّى، فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت نبيّاً هدى الله تعالى على يده أمَّةً من الأمم[(٥)]. وفي رواية ابن المنذر عن يوسف بن عمر[(٦)] أنَّها ولدت نبيين.

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس وجعفر الصادق رضي الله عنهما أنَّها ولدت سبعين نبيّاً.

---

(١) الرجز في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥. والبيت الأول منه في ديوان رؤبة ص١٧٥ (الملحق) وفيه: إدريسِ، بدل: إدريسا.
(٢) في البحر ٦/ ١٥٥.
(٣) عزاه لابن المنذر عن عطية ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٢١، وورد ضمن حديث ابن عباس عن أبيٍّ عند البخاري (٤٧٢٦).
(٤) عزاه ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٢٢ للنسائي.
(٥) عرائس المجالس ص٢٣٠.
(٦) في مطبوع الدر المنثور ٤/ ٢٣٨ـ والخبر فيه ـ: عمر بن يوسف. وهو خطأ. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٤١٤، والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ١٢٦، ولسان الميزان ٢/ ٢٨١.

واستبعد هذا ابنُ عطيَّة، وقال: لا يعرفُ كثرةُ الأنبياء عليهم السلام إلَّا في بني إسرائيل، ولم تكن هذه المرأة منهم[١]. وفيه نظرٌ ظاهر.

ووجهُ التأييد أنَّ الجاريةَ بحسب العادة تحبُّ أبويها وترحمهما وتعطفُ عليهما وتبرُّ بهما أكثرَ من الغلام.

وقيل: أبدلهما غلاماً مؤمناً مثلهما.

وانتصابُ المصدرين على التميز، والعامل ما قبل كلٍّ من أفعل التفضيل.

ولا يخفى ما في الإبهام أوَّلاً ثم البيان ثانياً من اللطف، ولذا لم يقل: فأردنا أن يبدلهما ربُّهما أزكى منه وأرحم، على أنَّ في: خير زكاة، من المدح ما ليس في أزكى، كما يظهر بالتأمُّل الصادق.

وذكر أبو حيان أنَّ «أفعل» ليس للتفضيل هنا؛ لأنَّه لا زكاة في ذلك الغلام ولا رحمة[٢].

وتُعقِّب بأنَّه كان زكيّاً طاهراً من الذنوب بالفعل إنْ كان صغيراً، وبحسب الظاهر إنْ كان بالغاً؛ فلذا قال موسى عليه السلام: «نفساً زكيَّةً» وهذا في مقابلته، فخيرٌ منه[٣] زكاةً مَنْ هو زكيٌّ في الحال والمآل بحسب الظاهر والباطن، ولو سلِّم فالاشتراك التقديريُّ يكفي في صحة التفضيل، وأن قوله: ولا رحمة، قولٌ بلا دليل. انتهى.

وقال الخفاجيُّ: إنَّ الجواب الصحيح هنا أنْ يُكتفى بالاشتراك التقديريّ؛ لأنَّ الخضر عليه السلام كان عالماً بالباطن، فهو يعلم أنَّه لا زكاةَ فيه ولا رحمة، فقوله: إنَّه لا دليلَ عليه، لا وجه له[٤].

وأنت تعلمُ أنَّ الرحمة على التفسير الثاني ممَّا لا يصحُّ نفيها؛ لأنَّها مدارُ الخشية، فافهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٥.
(٣) في الأصل و(م): من، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٦/ ١٢٩.

والظاهر أنَّ الفاء للتفريع، فيفيدُ سببيَّةَ الخشية للإرادة المذكورة، ويفهم منه تفريع القتل، ولم يفرعه نفسَه ـ مع أنَّه المقصود تأويلهُ ـ اعتماداً على ظهور انفهامه من هذه الجملة على ألطف وجه، وفيها إشارةٌ إلى ردِّ ما يلوِّحُ به كلامُ موسى عليه السلام من أنَّ قتله ظلمٌ وفسادٌ في الأرض.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة وحميد والأعمش وابنُ جرير: «يُبَدِّلهما» بالتشديد[(١)].

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ـ في رواية ـ ويعقوب وأبو حاتم: «رُحُماً» بضمِّ الحاء[(٢)].

وقرأ ابن عباس ﷺ: «رَحِماً» بفتح الراء وكسر الحاء[(٣)].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهود ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ قيل: إنهما أصرم وصريم ﴿يَتِيمَيْنِ﴾ صغيرين مات أبوهما، وهذا هو الظاهر؛ لأنَّ يُتْمَ بني آدمَ بموت الأب، وفي الحديث: «لا يُتْمَ بعد بلوغ»[(٤)].

وقال ابن عطية: يحتمل أنَّهما كانا بالغين، والتعبيرُ عنهما بما ذُكِرَ باعتبار ما كان على معنى الشفقة عليهما[(٥)]. ولا يخفى أنَّه بعيدٌ جدّاً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٥. وانظر قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٥. وانظر قراءة ابن عامر وأبي جعفر ويعقوب في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) زاد المسير ٥/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٧ من حديث علي ﷺ مرفوعاً، ولفظه: «لا يتم بعد احتلام».
قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠١: وقد أعلَّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه. ورواه البيهقي في الصغير [(٢٢٦٦)] بسند آخر عن علي، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده [(١٨٧٦) من حديث جابر] وفي الباب حديث حنظلة بن حنيفة عن جده، وإسناده لا بأس به، وهو في الطبراني [في الكبير (٣٥٠٢)] وغيره. وعن جابر رواه ابن عدي في ترجمة حرام بن عثمان [٢/ ٨٥٢-٨٥٣] وهو متروك. وعن أنس.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلَّ التعبير عنها بالمدينة هنا؛ لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها، وهو أبوهما الصالح.

ولمَّا كان سوقُ الكلام السابق على غير هذا المساق عبَّر بالقرية فيه.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مالٌ مدفونٌ من ذهبٍ وفضَّةٍ، كما أخرجه البخاريُّ في «تاريخه» والترمذيُّ والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء[(١)]، وبذلك قال عكرمة وقتادة. وهو في الأصل مصدرٌ، ثمَّ أريد به اسم المفعول.

قال الراغب: الكنز: جعلُ المال بعضَه على بعض وحفظُه، وأصله من: كَنَزْتُ التمرَ في الوعاء[(٢)].

واستشكل تفسير الكنز بما ذُكر بأنَّ الظاهر أنَّ الكانزَ له أبوهما؛ لاقتضاء «لهما» له؛ إذ[(٣)] لا يكون لهما إلَّا إذا كان إرثاً أو كانا قد استخرجاه، والثاني منتفٍ، فتعيَّن الأول، وقد وُصِفَ بالصلاح، ويعارض ذلك ما جاء في ذمِّ الكانز.

وأجيب بأنَّ المذمومَ ما لم تؤدَّ منه الحقوق، بل لا يقال لما أُدِّيت منه كنزٌ شرعاً، كما يدلُّ عليه عند القائلين بالمفهوم حديثُ: «كلُّ مالٍ لا تؤدَّى زكاته فهو كنز»[(٤)]، فإنَّ النبيَّ ﷺ بصدد بيان الأحكام الشرعية، لا المفاهيم اللغوية؛ لأنَّها

---

(١) التاريخ الكبير ٨/ ٣٦٩، وسنن الترمذي (٣١٥٢)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٣٦٩ وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: بل يزيد بن يوسف متروك، وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز. اهـ. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٤.

(٢) المفردات (كنز).

(٣) في الأصل و(م): إذا.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧١٤٠)، (٧١٤١)، (٧١٤٢)، والشافعي في مسنده ١/ ٨٧، والبيهقي في الكبرى ٤/ ٨٢ عن ابن عمر موقوفاً. وأخرجه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٨٢٧٩).
وقال الطبراني: لم يرفع هذا الحديث عن عبيد الله بن عمر إلا سويد بن عبد العزيز. اهـ.
ورجح الموقوف البيهقيُّ في الكبرى ٤/ ٨٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٤، والذهبي في ميزان الاعتدال ترجمة سويد بن عبد العزيز برقم (٣٤٥١). وانظر فتح الباري ٣/ ٢٧٢.
وأخرج ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٤٧ نحوه من حديث جابر مرفوعاً. وفي إسناده يحيى بن =

معلومةٌ للمخاطَبين، ولا يعتبرُ في مفهومه اللغويِّ ـ المرادِ هنا ـ شيءٌ من الإخراج وعدمه، والوصف بالصلاح قرينةٌ على أنَّه لم يكن من الكنز المذموم، ومن قال: إنَّ الكنز حرامٌ مطلقاً، ادَّعى أنَّه لم يكن كذلك في شرع من قبلنا، واحتجَّ عليه بما أخرجه الطبرانيُّ عن أبي الدرداء في هذه الآية قال: أحلَّت لهم الكنوز وحُرِّمت عليهم الغنائم، وأحلَّت لنا الغنائمُ وحرِّمت علينا الكنوز[1].

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك، وفيه: فلا يعجبنَّ الرجلُ فيقول: ما شأن الكنز حلَّ لمن قبلنا وحُرِّمَ علينا، فإنَّ الله تعالى يُحلُّ من أمره ما يشاء، ويُحرِّمُ ما يشاء، وهي السنن والفرائض تَحلُّ لأمةٍ، وتحرم على أخرى[2].

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أنَّه قال: ما كان ذهباً ولا فضَّةً، ولكن كان صحف علم[3]. وروي ذلك أيضاً عن ابن جبير[4].

وأخرجَ ابنُ مردويه من حديث عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً، والبزَّارُ عن أبي ذرٍّ كذلك، والخرائطيُّ عن ابن عباس موقوفاً أنَّه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها، لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله ﷺ[5].

= أبي أنيسة، وهو ضعيف. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ١٩٠ موقوفاً على جابر. وفي الباب عند أبي داود (١٥٦٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قال ﷺ: «ما بلغ أن تؤدَّى زكاته فزكي، فليس بكنز» وينظر ما سلف ١٠/ ٣٠٥.

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٤: رواه الطبراني، وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٧، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٨، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٥.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٦٩.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٦٢.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٣٤، وحديث أبي ذرٍّ مرفوعاً في مسند البزار (٤٠٦٥)، قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن أبي ذر إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

=

وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنَّه مكتوبٌ في أحد شقيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت.. إلخ، وفي الشقِّ الآخر: أنا الله لا إله إلَّا أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشرَّ، فطوبى لمن خلقتُه للخير، وأجريتُه على يديه، والويل لمن خلقتُه للشرِّ، وأجريته على يديه.

وجمع بعضُهم بأنَّ المرادَ بالكنز ما يشملُ جميع ذلك، بناءً على أنَّه المالُ المدفونُ مطلقاً، وكلٌّ من المذكورات مالٌ كان مدفوناً، إلَّا أنَّه اقتصرَ في كلٍّ من الروايات على واحدٍ منها.

وفيه أنَّه ـ على بعده ـ يأباه ظاهرُ قول ابن عباس ﵄: ما كان ذهباً ولا فضَّة.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ الظاهرُ أنَّه الأبُ الأقرب الذي وَلدهما، وذُكر أنَّ اسمه كاشح، وأنَّ اسم أمِّهما دهنا. وقيل: كان الأبَ العاشر. وعن جعفر الصادق ﵁ أنه كان الأب السابع.

وأيًّاما كان ففي الآية دلالةٌ على أنَّ صلاح الآباء يفيدُ العناية بالأبناء، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: قال عيسى عليه السلام: طوبى لذرية المؤمن، ثمَّ طوبى لهم كيف يُحفظون مِن بعدِه. وتلا خيثمةُ هذه الآية(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب قال: إنَّ الله تعالى ليحفظُ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس(٢).

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣: رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. اهـ.
وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: بشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة، قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم.
وخبر ابن عباس أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٥.
وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٤.

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٨. وهو في الزهد لأحمد ص٧٢، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٤٩ من قول خيثمة دون نسبة لعيسى عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣٨.

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما أنَّه قال لبعض الخوارج في كلامٍ جرى بينهما: بم حفظ الله تعالى مالَ الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي خيرٌ منه. فقال الخارجيُّ: أنبأنا الله تعالى أنَّكم قومٌ خَصِمون[1].

وذُكر من صلاح هذا الرجل أنَّ الناس كانوا يضعون عنده الودائع، فيردُّها إليهم كما وضعوها. ويروى أنَّه كان سياحاً.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ مالكك ومدبِّرُ أمورك. ففي إضافة الربِّ إلى ضمير موسى عليه السلام دونَ ضميرهما تنبيهٌ له على تحتُّم كمالِ الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبهما؛ التي يشمُّ منها طلبُ ما يحصل به تربيةُ البدن وتدبيره.

﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قيل: أي: الحلم وكمال الرأي، وفي «الصحاح»: القوة[2]. وهو ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين، وهو واحدٌ جاء على بناء الجمع، مثل آنُك[3]، ولا نظير لهما. ويقال: هو جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، مثل: آسال، وأبابيل، وعباديد، ومذاكير، وكان سيبويه يقول: واحدُه: شِدَّة، وهو حسنٌ في المعنى؛ لأنَّه يقال: بلغ الغلام شدَّتَه، ولكن لا يجمع فِعْلة على أَفْعُل، وأما أَنْعُم، فإنما هو جمع نُعْم، من قولهم: يوم بُؤس ويوم نُعْم، وأمَّا قول من قال: واحدُه شَدٌّ مثل كلب وأكلب، أو شِدٌّ مثل ذئب وأذؤب، فإنَّما هو قياسٌ، كما يقولون في واحد الأبابيل: إبَّول، قياساً على عِجَّول، وليس هو شيئاً يُسمعُ من العرب.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار، ولولا أنِّي أقمتُه لانقضَّ، وخرج الكنزُ من تحته قبلَ اقتدارهما على حفظه والانتفاع به.

وذكروا أنَّ اليتيمين كانا غير عالمين بالكنز، ولهما وصيٌّ يعلمُ به، لكنه كان غائباً، والجدارُ قد شارفَ، فلو سقطَ لضاع، فلذا أقامه.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٦، والرازي في التفسير الكبير ٢١/ ١٦٢، وجاء في الكشاف: الحسين، بدل: الحسن.
(٢) الصحاح (شدد).
(٣) بالمدّ وضم النون، وهو الرصاص. اللسان (أنك).

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعولٌ له لـ «أراد»، وأقيم الظاهرُ مقامَ الضمير، وليس مفعولاً له لـ «يستخرجا» لاختلاف الفاعل، وبعضهم أجازَ ذلك؛ لعدم اشتراطه الاتحاد، أو جعلَ المصدر من المبنيِّ للمفعول، وأجازَ أن يكون النصب على الحال، وهو من ضمير «يستخرجا» بتأويل مرحومَين، والزمخشريُّ(١) النصبَ على أنَّه مفعولٌ مطلق لـ «أراد»، فإنَّ إرادة ذلك رحمةٌ منه تعالى.

واعترض بأنَّه إذا كان «أراد ربك» بمعنى رحم كانت الرحمةُ من الربِّ لا محالةَ، فأيُّ فائدةٍ في ذكر قوله تعالى: «من ربك»، وكذا إذا كان مفعولاً له.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: فعلتُ ما فعلت رحمةً من ربِّك، فهو حينئذٍ مفعولٌ له بتقدير: إرادةَ أو رجاءَ رحمةِ ربك، أو منصوبٌ بنزع الخافض.

والرحمةُ بمعنى الوحي، أي: برحمة ربِّك ووحيه، فيكون قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ـ أي: عن رأيي واجتهادي ـ تأكيداً لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من العواقب المنظومة في سلك البيان، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته في الفخامة.

﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: تستطع، وهو مضارعُ اسطَاع بهمز الوصل، وأصله استطاعَ على وزن استفعل، ثم حذفَ تاء الافتعال تخفيفاً، وبقيت الطَّاءُ التي هي أصل.

وزعم بعضهم أنَّ السينَ عوضُ قلب الواو ألفاً، والأصل: أطاع. ولا حاجةَ تدعو إلى أنَّ المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل، ثم دعوى أنَّهم أبدلوا من تاء الافتعال طاءً لوقوعها بعد السين.

ويقال: تستتيع بإبدال الطاء تاءً، و: تستيع، بحذف تاء الافتعال، فاللغاتُ أربعٌ كما قال ابن السكيت.

وما ألطف حذفَ أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقعَ عنده ذهابُ الخضر عن موسى عليهما السلام.

---

(١) في الكشاف ٢/٤٩٦.

وقال بعض المحققين: إنَّما خص هذا بالتخفيف؛ لأنَّه لمَّا تكرَّر في القصة ناسبَ تخفيف الأخير.

وتُعقِّب بأنَّ ذلك مكرَّرٌ أيضاً، وذاك أخف منه، فلِمَ لم يؤت به؟ وفيه أنَّ الفرقَ ظاهرٌ بين هذا وذلك.

وقيل: إنَّما خُصَّ بالتخفيف للإشارة إلى أنَّه خفَّ على موسى عليه السلام ما لقيه ببيان سببه.

وتُعقِّبَ بأنَّه يبعده أنَّه في الحكاية لا المحكيّ، وأنت تعلم هذا، وكذا ما ذكرناه زهرةٌ لا تتحمَّل الفركَ، والتأويلُ بالمعنى السابق الذي ذكر أنَّه المراد، أي: ذلك مآلُ وعاقبةُ الذي لم تستطع ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ من الأمور التي رأيتَ، فيكون إنجازاً للتنبئة الموعودة.

وجُوِّزَ أن تكون الإشارة إلى البيان نفسه، فيكون التأويل بمعناه المشهور. وعلى كلِّ حالٍ فهو فذلكةٌ لما تقدَّم.

وفي جعل الصلة عينَ[1] ما مرَّ تكريرٌ للتنكير[2]، وتشديدٌ للعتاب.

قيل: ولعلَّ إسناد الإرادة أوَّلاً إلى ضمير المتكلِّم وحدَه لأنه[3] الفاعلُ المباشر للتعييب، وثانياً إلى ضمير المتكلم ومعه غيره؛ لأنَّ إهلاكَ الغلام بمباشرته وفعلِه، وتبديلُ غيره موقوفٌ عليه، وهو بمحضِ فعل الله تعالى وقدرته، فضمير «نا» مشتركٌ بين الله تعالى والخضر عليه السلام، وثالثاً إلى الله تعالى وحده؛ لأنَّه لا مدخلَ له عليه السلام في بلوغ الغلامين.

واعترض توجيهُ ضمير الجمع بأنَّ اجتماعَ المخلوق مع الله تعالى في ضميرٍ واحدٍ ـ لا سيَّما ضمير المتكلم ـ فيه من ترك الأدب ما فيه، ويدلُّ على ذلك ما جاء من أنَّ ثابت بن قيس بن شماس كان يخطُبُ في مجلسه ﷺ إذا وردت وفودُ

---

(١) في (م): غير. وهو خطأ. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٩، والكلام منه.
(٢) في تفسير أبي السعود: للنكير.
(٣) في الأصل و(م): أنه، والصواب ما أثبتناه. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ١٣٠.

العرب، فاتَّفقَ أنْ قدِمَ وفدُ تميم، فقام خطيبهم وذكر مفاخرهم ومآثرهم، فلمَّا أتمَّ خطبته، قام ثابت وخطب خطبةً قال فيها: من يطع الله عزَّ وجلَّ ورسولَه ﷺ فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له النبيُّ ﷺ: «بئس خطيبُ القوم أنت»(١).

وصرَّح الخطابيُّ أنَّه عليه الصلاة والسلام كره منه ما فيه من التسوية(٢).

وأجيب بأنَّه قد وقع نحو ذلك في الآيات والأحاديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فإنَّ الظاهرَ أنَّ ضميرَ «يصلُّون»(٣) راجعٌ إلى الله تعالى وإلى الملائكة، وقوله ﷺ في حديث الإيمان: «أنْ يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»(٤). ولعلَّ ما كرهه ﷺ من ثابتٍ أنَّه وقفَ على قوله «يعصهما» لا التسوية في الضمير، وظاهر هذا أنَّه لا كراهةَ مطلقاً في هذه التسوية، وهو أحدُ الأقوال في المسألة، وثانيها ما ذهبَ إليه الخطابيُّ أنَّها تكرهُ تنزيهاً، وثالثها ما يفهمه كلام الغزاليِّ أنَّها تكرهُ تحريماً.

وعلى القول بالكراهة التنزيهية استظهر بعضُهم أنَّها غير مطَّردةٍ، فقد تكره في مقامٍ دونَ مقام، وبنى الجواب عمَّا نحن فيه على ذلك، فقال: لمَّا كان المقامُ الذي قام فيه ثابتٌ مقام خطابةٍ وإطناب، وهو بحضرة قوم مشركين، والإسلام غضٌّ طريٌّ، كَرِهَ ﷺ التسويةَ منه فيه، وأمَّا مثل هذا المقام الذي القائلُ فيه والمخاطَبُ مَنْ عرفتَ، وقصد فيه نكتة وهو عدم استقلاله، فلا كراهةَ للتسوية فيه.

وخصَّ بعضُ الكراهةَ بغير النبيِّ ﷺ، وحينئذٍ يَقوَى الجوابُ عمَّا ذُكِر؛ لأنَّه إذا جازت للنبيِّ ﷺ فهو في كلام الله تعالى وما حكاه سبحانه بالطريق الأولى.

وخلاصةُ ما قُرِّر في المسألة أنَّ الحقَّ أنَّه لا كراهةَ في ذلك في كلام الله تعالى

---

(١) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ١٣٠ أن الخطيب هو ثابت بن قيس رضي الله عنه، ولعله وهم، فالذي في صحيح مسلم (٨٧٠) من حديث عديِّ بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال. . . فذكره، وأخرجه بنحوه أبو داود (٤٩٨١)، والنسائي ٦/ ٩٠. وليس في مصادر التخريج ذكر اسم الخطيب.

(٢) معالم السنن ٤/ ١٣١.

(٣) بعدها في (م): على.

(٤) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورسوله ﷺ كما أشير إليه في شروح البخاريِّ، وأمَّا في حقِّ البشر، فلعلَّ المختارَ أنَّه مكروهٌ تنزيهاً في مقامٍ دون مقام.

هذا وأنا لا أقول باشتراك هذا الضمير بينَ الله تعالى والخضر عليه السلام، لا لأنَّ فيه تركَ الأدب، بل لأنَّ الظاهرَ أنَّه كضمير «خشينا»، والظاهر في ذاك عدم الاشتراك؛ لأنَّه مُحوِجٌ لارتكاب المجاز، على أنَّ النكتة التي ذكروها في اختيار التشريك في ضمير «أردنا» لا تَظهر في اختياره في ضمير «فخشينا»؛ لأنَّه لم يتضمَّن الكلامُ الأولُ فعلين على نحو ما تضمَّنهما الكلامُ الثاني، فتدبَّر.

وقيل في وجه تغاير الأسلوب: إنَّ الأوَّلَ شرٌّ، فلا يليقُ إسناده إليه سبحانه، وإن كان هو الفاعل جلَّ وعلا، والثالث خيرٌ، فأفرد إسناده إلى الله عزَّ وجلَّ، والثاني ممتزجٌ خيره وهو تبديله بخيرٍ منه، وشرُّه وهو القتل، فأسند إلى الله تعالى وإلى نفسه نظراً لهما.

وفيه أنَّ هذا الإسناد في «فخشينا» أيضاً، وأين امتزاجُ الخير والشرِّ فيه؟ وجَعْلُ النكتة في التعبير بـ «نا» فيه مجرَّدَ الموافقة لتاليه، ليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقيل: الظاهرُ أنَّه أسندَ الإرادة في الأوَّلين إلى نفسه، لكنَّه تفنَّنَ في التعبير، فعبَّر عنها بضمير المتكلِّم مع الغير بعد ما عبَّر بضمير المتكلِّم الواحد؛ لأنَّ مرتبةَ الانضمام مؤخَّرةٌ عن مرتبة الانفراد، مع أنَّ فيه تنبيهاً على أنَّه من العظماء في علوم الحكمة، فلم يُقْدِم على هذا القتل إلَّا لحكمةٍ عاليةٍ، بخلاف التعييب، وأسندَ فعل الإبدالِ إلى الله تعالى إشارةً إلى استقلاله سبحانه بالفعل، وأنَّ الحاصلَ للعبد مجرَّدُ مقارنة إرادة الفعل دون تأثيرٍ فيه، كما هو المذهب الحقُّ. انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ الإبدالَ نفسه ممَّا ليس لإرادة العبد مقارنةٌ له أصلاً، وإنَّما لها مقارنةٌ للقتل الموقوف هو عليه، على أنَّ في هذا التوجيه بعدُ ما فيه.

وفي «الانتصاف»: لعلَّ إسناد الأوَّل إلى نفسه خاصةً من باب الأدب مع الله تعالى؛ لأنَّ المراد ثَمَّ عيبٌ، فتأدَّبَ ـ عليه السلام ـ بأنْ نَسبَ الإعابةَ إلى نفسه. وأما إسناد الثاني إلى «نا» فالظاهر أنَّه من باب قول خواصِّ الملك: أمرنا بكذا،

ودبَّرنا كذا، وإنَّما يعنون: أَمَرَ الملكُ العظيم ودَبَّر. ويدلُّ على ذلك قوله في الثالث: «فأرادَ ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما»[(١)]. وهو كما ترى.

وقيل: اختلافُ الاسلوب لاختلاف حال العارف بالله سبحانه، فإنَّه في ابتداء أمره يَرى نفسَه مؤثِّرةً، فلذا أسندَ الإرادة أوَّلاً إلى نفسه، ثم يتنبَّه إلى أنَّه لا يستقلُّ بالفعل بدون الله تعالى، فلذا أسندَ إلى ذلك الضمير، ثم يرى أنَّه لا دخلَ له، وأنَّ المؤثِّر والمريدَ[(٢)] إنَّما هو الله تعالى، فلذا أسندَه إليه سبحانه فقط، وهذا مقامُ الفناء، ومقام: كان الله ولا شيء معه، وهو الآن كما كان.

وتُعقِّب بأنَّه إن أريد أنَّ هذه الأحوالَ مرَّت على الخضر عليه السلام واتَّصفَ بكلٍّ منها أثناءَ المحاورة؛ فهو باطلٌ، وكيف يليقُ أنْ يكون إذ ذاكَ ممَّن يتَّصفُ بالمرتبة الثانية فضلاً عن المرتبة الأولى وهو الذي قد أوتي من قبلُ العلمَ اللدنيَّ، وإن أريدَ أنَّه عبَّر تعبيرَ من اتَّصفَ بكلِّ مرتبةٍ من تلك المراتب وإنْ كان هو عليه السلام في أعلاها، فإنْ كان ذلك تعليماً لموسى عليه السلام، فموسى عليه السلام أجلُّ من أن يعلِّمه الخضرُ عليه السلام مسألة خلق الأعمال، وإنْ كان تعليماً لغيره عليه السلام، فليس المقامُ ذلك المقام، على تقدير أنْ يكونَ هناك غيرٌ يسمعُ منه هذا الكلام، وإن أريد أنَّه عبَّر في المواضع الثلاثة بأسلوبٍ مخصوصٍ من هاتيك الأساليب، إلَّا أنَّه سبحانه عبَّر في كلِّ موضعٍ بأسلوب، فتعدَّدت الأساليب في حكايته تعالى القصَّة لنا تعليماً وإشارةً إلى هاتيك المراتب، وإنْ لم يكن كلامُ الخضر عليه السلام كذلك، فالله تعالى أجلُّ وأعظمُ من أنْ ينقل عن أحدٍ كلاماً لم يقله، أو لم يقل ما بمعناه، فالقول بذلك نوعُ افتراءٍ عليه سبحانه.

والذي يخطرُ ببال العبد الفقير أنَّه رُوعي في الجواب حالُ الاعتراض وما تضمَّنه وأشارَ إليه، فلمَّا كان الاعتراضُ الأوَّل ـ بناءً على أنَّ لام «التغرق» للتعليل ـ متضمِّناً إسنادَ إرادة الإغراق إلى الخضر عليه السلام، وكان الإنكار فيه دون الإنكار فيما يليه؛ بناءً على ما اختاره المحقِّقون من أنَّ «نكراً» أبلغُ من

---

(١) الانتصاف ٢/ ٤٩٦.

(٢) في الأصل: والمؤيد، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ١٣١، والكلام منه.

«إمراً» = ناسبَ أنْ يُصرِّح[١] بإسناد إرادة التعييب إلى نفسه، المشير إلى نفي إرادة الإغراق عنها، التي يشير كلام موسى عليه السلام إليها، وأنْ لا يأتيَ بما يدلُّ على التعظيم، أو ضمِّ أحدٍ معه في الإرادة؛ لعدمِ تعظيم أمرِ الإنكار المحوجِ لأنْ يقابَلَ بما يدلُّ على تعظيم إرادة خلافِ ما حسبَه عليه السلام وأنكرَه.

ولمَّا كان الاعتراضُ الثاني في غاية المبالغة، والإنكارُ هناك في نهاية الإنكار، ناسبَ أن يشيرَ إلى أنَّ ما اعترِض عليه وبُولِغَ في إنكاره قد أريد به أمرٌ عظيم، ولو لم يقع لم يؤمَنْ من وقوع خطبٍ جسيمٍ، فلذا أسندَ الخشيةَ والإرادة إلى ضميرِ المعظِّمِ نفسَهُ، أو المتكلِّم ومعه غيرُه، فإنَّ في إسناد الإرادة إلى ذلك تعظيماً لأمرها، وفي تعظيمه تعظيم أمر المراد، وكذا في إسناد الخشية إلى ذلك تعظيمُ أمرها، وفي تعظيمه تعظيمُ أمر المخشيِّ. وربما يقال ـ بناء على إرادة الضمِّ منا ـ: إنَّ في ذلك الإسناد إشارة إلى أنَّ ما يُخشَى وما يراد قد بلغ في العظم إلى أنْ يشارِكَ موسى عليه السلام في الخشية منه وفي إرادته الخضر، لا أن يستقلَّ بإنكار ما هو من مبادي ذلك المراد، وبه ينقطعُ عن الأصلين عِرْقُ الفساد.

ولما كان الاعتراض الثالث هيِّناً جدّاً، حيث كان بلفظٍ لا تصلُّبَ فيه ولا إزعاجَ في ظاهره وخافيه، ومع هذا لم يكن على نفس الفعل، بل على عدم أخذ الأُجرة عليه ليُستعانَ بها على إقامة جدار البدن، وإزالة ما أصابَهُ من الوهن، فناسب أنْ يلين في جوابه المقام، ولا ينسب لنفسه استقلالاً ولا[٢] مشاركةً شيئاً ما من الأفعال، فلذا أسندَ الإرادة إلى الربِّ سبحانه وتعالى، ولم يكتفِ بذلك حتى أضافه إلى ضميره عليه السلام، ولا ينافي ذلك تكرير النكير والعتاب؛ لأنَّه متعلِّقٌ بمجموع ما كان أوَّلاً من ذلك الجناب.

هذا والله تعالى أعلم بحقيقة أسرار الكتاب، وهو سبحانه الموفق للصواب.

واستَدلَّ بقوله: «وما فعلته عن أمري» القائلون بنبوَّته عليه السلام، وهو ظاهرٌ في ذلك، واحتمالُ أنْ يكون هناك نبيٌّ أمرَه بذلك عن وحيٍ ـ كما زعمه القائلون

(١) في (م): يشرح.
(٢) في (م): أو.

بولايته ـ احتمالٌ بعيدٌ، على أنَّه ليس في وصفه بقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ على هذا كثيرُ فائدة، بل قد يقال: أيُّ فائدةٍ في هذا العلم اللَّدُنِّيِّ إذا احتاج في إظهار العجائب لموسى عليه السلام إلى توسيط نبيٍّ مثله؟

وقال بعضهم: كان ذلك عن إلهام، ويلزمُه القول بأنَّ الإلهامَ كان حُجَّةً في بعض الشرائع، وأنَّ الخضرَ من المكلَّفين بتلك الشريعة، وإلَّا فالظاهرُ أنَّ حُجِّيَّتهُ ليست في شريعة موسى عليه السلام، وكذا هو ليس بحجَّةٍ في شريعتنا على الصحيح، ومن شذَّ وقال بحجِّيَّته اشترطَ لذلك أن لا يعارضَهُ نصٌّ شرعيٌّ، فلو أطلعَ اللهُ تعالى بالإلهام بعضَ عباده على نحو ما أطلع عليه الخضرَ عليه السلام من حال الغلام؛ لم يحلَّ له قتله، وما أخرجه الإمام أحمد عن عطاء أنَّه قال: كتب نجدة الحروريُّ إلى ابن عباس يسألُه عن قتل الصبيان، فكتب إليه: إنْ كنتَ الخضرَ تعرفُ الكافر من المؤمن فاقتلهم[1] = إنَّما قصد به ابن عباس ـ كما قال السبكيُّ ـ المحاجَّةَ والإحالة على ما لم يمكن قطعاً؛ لطمعه في الاحتجاج بقصَّة الخضر، وليس مقصودُه ـ رضي الله عنه ـ أنَّه إن حصلَ ذلك يجوزُ القتل، فما قاله اليافعيُّ في «روضه» من أنَّه لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبسَ ثوبَ حريرٍ مثلاً، وعلم الإذن يقيناً، فلبسه، لم يكن منتهكاً للشرع، وحصولُ اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله للغلام، إذ هو وليٌّ لا نبيٌّ على الصحيح. انتهى = عثرةٌ يكاد أنْ لا يقال لصاحبها: لعا[2]؛ لأنَّ مظنَّة حصول اليقين اليوم الإلهام، وهو ليس بحجَّة عند الأئمة، ومن شذَّ اشترط ما اشترط، وحصولُه بخبر عيسى عليه السلام إذا نزل متعذِّرٌ؛ لأنَّه عليه السلام ينزلُ بشريعة نبينا ﷺ، ومن شريعته تحريمُ لبس الحرير على الرجال إلَّا للتداوي، وما ذكره من نفي نبوَّةِ الخضر لا يعوَّلُ عليه ولا يلتفتُ إليه.

وممَّن صرَّح بأنَّ الإلهام ليس بحجَّة من الصوفية الإمام الشعرانيُّ، وقال: قد زلَّ في هذا الباب خلقٌ كثير، فضلُّوا وأضلُّوا، ولنا في ذلك مؤلَّفٌ سميته: «حدُّ الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام» وهو مجلدٌ لطيفٌ. انتهى.

---

(١) مسند أحمد (١٩٦٧)، وأخرجه بنحوه مسلم (١٨١٢).

(٢) أي: أن لا يُدْعى له بالسلامة؛ لأن قولهم: لعاً له، دعاء للعاثر بأن ينتعش، أي: يسلم وينجو.

وقال أيضاً في كتابه المسمَّى بـ «الجواهر والدرر»: قد رأيتُ من كلام الشيخ محيي الدين قدِّس سره ما نصُّه: اعلم أنَّا لا نعني بمَلَكِ الإلهام حيثُ أطلقناه إلَّا الدقائقَ الممتدَّةَ من الأرواح الملكيَّة، لا نفس الملائكة، فإنَّ المَلَكَ لا ينزلُ بوحي على غير قلب نبيٍّ أصلا، ولا يأمرُ بأمرٍ إلهيٍّ جملةً واحدة، فإنَّ الشريعةَ قد استقرَّت، وتبيَّن الفرضُ والواجبُ وغيرهما، فانقطعَ الأمر الإلهيُّ بانقطاع النبوَّة والرسالة، وما بقيَ أحدٌ يأمرُه الله تعالى بأمرٍ يكون شرعاً مستقلًّا يُتعبَّد به أبداً؛ لأنَّه إنْ أمَره بفرضٍ كان الشارعُ قد أمر به، وإن أمره بمباحٍ فلا يخلو؛ إمَّا أن يكونَ ذلك المباحُ المأمورُ به صار واجباً أو مندوباً في حقِّه، فهذا عينُ نسخ الشرع الذي هو عليه، حيث صيَّر المباحَ الشرعيَّ واجباً أو مندوباً، وإن أبقاه مباحاً كما كان، فأيُّ فائدةٍ للأمر الذي جاء به ملكُ الإلهام لهذا المدَّعي؟ فإن قال: لم يجئني ملكُ الإلهام بذلك، وإنَّما أمرني الله تعالى بلا واسطة. قلنا: لا يصدَّق في مثل ذلك، وهو تلبيسٌ من النفس. فإن ادَّعى أنَّ الله سبحانه كلَّمه كما كلَّم موسى عليه السلام، فلا قائل به، ثمَّ إنه تعالى لو كلَّمه ما كان يلقي إليه في كلامه إلَّا علوماً وأخباراً، لا أحكاماً وشرعاً، ولا يأمره أصلاً. انتهى[١].

وقد صرَّح الإمام الربانيُّ مجدِّدُ الألف الثاني قُدِّس سرُّه العزيز في «المكتوبات» في مواضعَ عديدة، بأنَّ الإلهام لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّمُ حلالاً، ويعلم من ذلك أنَّه لا مخالفةَ بين الشريعة والحقيقة والظاهرِ والباطن.

وكلامُه قُدِّس سرُّه في «المكتوبات» طافحٌ بذلك، ففي المكتوب الثالث والأربعين من الجلد الأول: إنَّ قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة يتخيَّلون أنَّ المقصودَ الأصليَّ وراء الشريعة، حاشا وكلَّا، ثمَّ حاشا وكلَّا، نعوذُ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد السوء، فكلٌّ من الطريقة والشريعة عينُ الآخر لا مخالفةَ بينهما بقدر رأس الشعيرة، وكلُّ ما خالف الشريعة مردودٌ، وكلُّ حقيقةٍ رَدَّتها الشريعةُ فهي زندقة[٢].

وقال في أثناء المكتوب الحادي والأربعين من الجلد الأول أيضاً في مبحث

---

(١) انظر الفتوحات المكية ٣/ ٣٨.

(٢) المكتوبات ١/ ٥٧-٥٨.

الشريعة والطريقة والحقيقة: مثلاً عدمُ نطق اللسان بالكذب شريعةٌ، ونفيُ خاطر الكذب عن القلب، إنْ كان بالتكلُّف والتعمُّل؛ فهو طريقةٌ، وإن تيسَّر بلا تكلُّفٍ؛ فهو حقيقة، ففي الجملة: الباطنُ الذي هو الطريقة والحقيقة مكمِّلٌ الظاهرَ الذي هو الشريعة، فالسالكونَ سبيلَ الطريقة والحقيقة، إنْ ظهر منهم في أثناء الطريق أمورٌ ظاهرُها مخالفٌ للشريعة ومنافٍ لها، فهو من سُكْر الوقت وغَلَبَة الحال، فإذا تجاوزوا ذلك المقامَ، ورَجعوا إلى الصحو، ارتفعت تلك المنافاةُ بالكلِّيَّة، وصارت تلك العلوم المضادَّة[1] بتمامها هباءً منثوراً.

وقال ـ نفعنا الله تعالى بعلومه في أثناء المكتوب السادس والثلاثين من الجلد الأول ـ أيضاً: للشريعة ثلاثةُ أجزاء: علمٌ وعملٌ وإخلاص، فما لم تتحقَّق هذه الأجزاء لم تتحقَّق الشريعة، وإذا تحقَّقت الشريعةُ حصلَ رضاءُ الحقِّ سبحانه وتعالى، وهو فوق جميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] فالشريعة متكفِّلةٌ بجميع السعادات، ولم يبق مطلبٌ وراء الشريعة، فالطريقةُ والحقيقةُ اللتان امتازَ بهما الصوفيَّة، كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصودُ منهما تكميلُ الشريعة، لا أمرٌ آخر وراء ذلك. إلى آخر ما قال[2].

وقال عليه الرحمة في أثناء المكتوب التاسع والعشرين من الجلد المذكور بعد تحقيقٍ كثير: فتقرَّر أنَّ طريقَ الوصول إلى درجاتِ القرب الإلهيِّ جلَّ شأنه ـ سواءٌ كان قرب النبوَّة، أو قرب الولاية ـ منحصرٌ في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وصار مأموراً بها في آيةِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] وآيةُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] تدلُّ على ذلك أيضاً، وكلُّ طريقٍ سوى هذا الطريق ضلالٌ ومنحرفٌ عن المطلوب الحقيقيِّ، وكلُّ طريقةٍ ردَّتها الشريعة فهي زندقةٌ، وشاهدُ ذلك آية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] وآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]، وحديثُ: خطَّ لنا النبيُّ ﷺ،

(١) في المكتوبات ١/ ٥٤ ـ والكلام فيه ـ: المتضادة.
(٢) المكتوبات ١/ ٥٠.

الخبر[١]، وحديث: «كلُّ بدعةٍ ضلالة»[٢]، وأحاديثُ أخر. إلى آخر ما قال عليه رحمةُ الملك المتعال.

وقال قُدِّس سرُّه في معارف الصوفية: اعلم أنَّ معارفَ الصوفية وعلومَهم في نهاية سيرهم وسلوكهم إنَّما هي علومُ الشريعة، لا أنَّها علومٌ أخر غير علوم الشريعة، نعم يَظهرُ في أثناء الطريق علومٌ ومعارفُ كثيرة، ولكن لا بدَّ من العبور عنها، ففي نهايات[٣] النهايات علومُهم علومُ العلماء، وهي علوم الشريعة، والفرق بينهم وبين العلماء أنَّ تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظريَّةٌ واستدلاليَّةٌ، وبالنسبة إليهم تصيرُ كشفيَّةً وضروريَّةً.

وقال أيضاً: اعلم أنَّ الشريعةَ والحقيقة متَّحدان في الحقيقة، ولا فرقَ بينهما إلَّا بالإجمال والتفصيل، وبالاستدلال والكشف، وبالغيب والشهادة، وبالتعمُّل وعدم التعمُّل، وللشريعة من ذلك الأوَّل، وللحقيقة الثاني، وعلامةُ الوصول إلى حقيقة حقِّ اليقين مطابقةُ علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها، وما دامت المخالفةُ موجودةً، ولو أدنى شعرة، فذلك دليلٌ على عدم الوصول، وما وقع في عبارة بعض المشايخ من أنَّ الشريعة قشرٌ والحقيقة لبٌّ، فهو وإن كان مشعراً بعدم استقامة قائله، ولكن يمكنُ أنْ يكونَ مرادُه أنَّ المجملَ بالنسبة إلى المفصَّل حكمُه حكم القشر بالنسبة إلى اللبِّ، وأنَّ الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك، والأكابرُ المستقيمةُ أحوالُهم لا يجوِّزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة. إلى غير ذلك من عباراته الشريفة التي لا تكادُ تحصى[٤].

وقال سيدي القطبُ الربانيُّ الشيخ عبد القادر الكيلانيُّ قدِّس سرُّه: جميعُ الأولياء لا يستمدُّون إلَّا من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يعملون إلَّا بظاهرهما.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٤١٤٢)، (٤٤٣٧)، وابن حبان (٦)، (٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذه سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

(٢) هو قطعة من حديث جابر في خطبة النبي ﷺ، أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٣) في (م): نهاية.

(٤) انظر المكتوبات ١/ ٢٠-٢١.

وقال سيِّدُ الطائفة الجنيد قدِّسَ سرُّه: الطرقُ كلُّها مسدودةٌ إلَّا على من اقتفى أثرَ الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا العلم؛ لأنَّ علمنا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة.

وقال السَّريُّ السقطيُّ: المتصوِّف[١] اسمٌ لثلاثة معانٍ؛ وهو لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلَّم بسرٍّ باطنٍ في علمٍ ينقضُه عليه ظاهرُ الكتاب، ولا تحملُه الكرامات على هتك محارم الله.

وقال أيضاً قدِّس سرُّه: من ادَّعى باطنَ علمٍ ينقضُه ظاهرُ حكم فهو غالط.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيتَه يدَّعي مع الله تعالى حالةً تخرجُه عن حدِّ العلم الشرعيِّ فلا تقربه، ومن رأيتَه يدَّعي حالةً لا يشهدُ لها حفظ[٢] ظاهر فاتَّهمه على دينه.

وقال أبو سعيدٍ الخرَّاز: كلُّ فيضٍ باطنٍ يخالفُه ظاهرٌ فهو باطل.

وقال أبو العباس أحمد الدينوريُّ: لسانُ الظاهر لا يغيِّرُ حكمَ الباطن.

وفي «التحفة» لابن حجر: قال الغزاليُّ: من زعمَ أنَّ له مع الله تعالى حالاً أسقطَ عنه نحوَ الصلاة أو تحريمَ شرب الخمر؛ وجب قتلُه، وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، وقتلُ مثله أفضلُ من قتل مئة كافر؛ لأنَّ ضررَه أكثر. انتهى.

ولا نظرَ في خلوده؛ لأنَّه مرتدٌّ؛ لاستحلاله ما عُلِمت حرمتُه، أو نفيهِ وجوبَ ما علِم وجوبه ضرورةً فيهما، ومن ثَمَّ جزمَ في «الأنوار» بخلوده. انتهى.

وقال في «الإحياء»: من قال: إنَّ الباطن يخالفُ الظاهر، فهو إلى الكفر أقربُ منه إلى الإيمان[٣]. إلى غير ذلك. وفي «رسالة القشيري» طرفٌ منه.

---

(١) في (م): التصوف.

(٢) في الأصل: حسن. وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٢.

(٣) الإحياء ١/ ١٠٠.

والذي ينبغي أنْ يُعلَم أنَّ كلام العارفين المحقِّقين، وإنْ دلَّ على أنَّه لا مخالفةَ بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الحقيقة؛ لكنَّه يدلُّ أيضاً على أنَّ في الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبيَّةً، ولذا تراهم يقولون: علم الحقيقة: هو العلم اللدنيُّ، وعلمُ المكاشفة، وعلم الموهبة، وعلم الأسرار، والعلم المكنون، وعلم الوراثة، إلَّا أنَّ هذا لا يدلُّ على المخالفة، فإنَّ الكشوفَ والعلوم الغيبيَّةَ ثمرةُ الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة، فهي بالحقيقة مترتِّبةٌ على الشريعة ونتيجةٌ لها، ومع هذا لا تغيِّرُ تلك الكشوفُ والعلوم الغيبية حكماً شرعيّاً، ولا تقيِّدُ مطلقاً، ولا تطلقُ مقيَّداً، خلافاً لما توهمه ساجقلي زاده[1]، حيث قال في شرح عبارة «الإحياء» السابقة آنفاً: يريدُ الغزاليُّ من الباطن ما ينكشفُ لعلماء الباطن من حِلِّ بعض الأشياء لهم، مع أنَّ الشارع حرَّمه على عباده مطلقاً، فيجب أن يقال: إنَّما انكشفَ حِلُّه لهم لِمَا انكشف لهم من سببٍ خفيٍّ يُحلّله لهم، وتحريمُ الشارع تعالى ذلك على عباده مقيَّدٌ بانتفاء انكشاف السبب المحلِّل لهم، فمن انكشفَ له ذلك السببُ حَلَّ له، ومَن لا فلا، لكنَّ الشارع سبحانه حرَّمه على عباده على الإطلاق، وترك ذلك القيد لندرةِ وقوعه، إذ من ينكشفُ له قليلٌ جدًّا، مثاله: انكشافُ محلِّل خرق السفينة وقتلِ الغلام للخضر عليه السلام، فحلَّ له بذلك الانكشافِ الخرقُ والقتلُ، وحِلُّهما له مخالفٌ لإطلاق نهي النبيِّ ﷺ أمَّته عن الضرر وعن قتل الصبيّ، لكنَّهما مقيَّدان، فالأوَّل مقيَّدٌ بما إذا لم يُعلم هناك غاصبٌ مثلاً، والثاني بما إذا لم يُعلم أنَّ الصبيَّ سيصير ضالًّا مُضِلًّا، لكنَّ الشارع تركَ القيدين لندرة وقوعهما، واعتماداً على فهم الراسخين في العلم إيَّاهما. إلى آخر ما قال، فإنَّ النصوصَ السابقة تنادي بخلافه كما سمعت.

ثمَّ إنَّ تلك الغيوبَ والمكاشفات ـ بل سائر ما يحصل للصوفية من التجلِّيات ـ ليست من المقاصد بالذات، ولا يقف عندها الكاملُ ولا يَلتفتُ إليها.

وقد ذكر الإمام الربانيُّ قُدِّس سرُّه في المكتوب السادس والثلاثين المتقدِّمِ نقلُ بعضِه: أنَّها تَربَّى بها أطفالُ الطريق، وأنَّه ينبغي مجاوزتُها والوصولُ إلى مقام

---

(١) هو محمد المرعشي، له «تسهيل الفرائض»، و«ترتيب العلوم» وغيرها، توفي سنة (١١٥٠هـ). معجم المؤلفين ٣/ ٧١١.

الرضى الذي هو نهايةُ مقامات السلوك والجذبة، وهو عزيزٌ لا يصلُ إليه إلَّا واحدٌ من ألوف.

ثم قال: إنَّ الذين هم قليلو النظر يَعُدُّون الأحوالَ والمواجيدَ من المقامات، والمشاهدات والتجلّيات من المطالب، فلا جرم بَقُوا في قيد الوهم والخيال، وصاروا محرومين من كمالات الشريعة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. انتهى(١).

ويُعلم منه أنَّ الكاملين في الشريعة يَعبُرون على ذلك، ولا يلتفتونَ إليه، ولا يعدُّونه مقصداً، وجلُّ مقصدِهم تحصيلُ مقام الرضى، وعلى هذا يخرَّج بيت «المثنوي»(٢) حيث يقول:

زَان طَرَف كِه عِشْق مي أَفْزُود دردْ   بـو حنيفة شافعي دَرْسِي نَكَرْد(٣)

وقد يحجبُ الكامل عن جميع ذلك، ويُلحَق من هذه الحيثيَّة بعوامِّ النَّاس.

ويعلم ممَّا ذُكرَ أنَّ موسى عليه السلام أكملُ من الخضر، وأعلميَّةُ الخضر عليه السلام بعلم الحقيقة كانت بالنسبة إلى الحالة الحاضرة، فإنَّ موسى عليه السلام عَبَرَ على ذلك، ولم يقف عنده؛ لأنَّه في مقام التشريع، ولعلَّ طلبَه التعليم كان بالأمر ابتلاءً له بسبب تلك الفلتة. وقد ذكروا أنَّ الكاملَ كلَّما كان صعودُه أعلى كان هبوطُه أنزل، وكلَّما كان هبوطُه أنزل كان في الإرشاد أكمل، وفي الإفاضة أتم؛ لمزيد المناسبة حينئذٍ بين المرشد والمسترشد، ولهذا قالوا فيما يُحكى أنَّ الحسن البصريَّ وقفَ على شطِّ نهرٍ ينتظرُ سفينةً، فجاء حبيب العجميُّ(٤)، فقال له: ما تنتظر؟ فقال: سفينة، فقال: أيُّ حاجةٍ إلى السفينة، أَمَا لَكَ يقين؟ فقال الحسن:

---

(١) المكتوبات ١/ ٥٠.

(٢) لجلال الدين محمد بن محمد القونوي الرومي، المتوفى سنة (٦٧٠ هـ). كشف الظنون ٢/ ١٥٨٧.

(٣) المعنى العام للبيت: إن أمراً أو مقاماً زاد به عشقي هو أمر لم يعلِّمني إياه أبو حنيفة والشافعي.

(٤) هو حبيب بن محمد، زاهد أهل البصرة وعابدهم، كان مجاب الدعوة. انظر تهذيب الكمال ٥/ ٣٩١، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٥٢.

أَمَا لَكَ علم؟ ثم عبر حبيبٌ على الماء بلا سفينة، ووقف الحسن: إنَّ الفضل للحسن، فإنَّه كان جامعاً بين علم اليقين وعين اليقين. وعَرف الأشياءَ كما هي، وفي نفس الأمر جُعلت القدرة مستورةً خلف الحكمة، والحكمة في الأسباب، وحبيب صاحبُ سكرٍ لم يرَ الأسباب، فعوملَ برفعها. ومن هنا يظهرُ سرُّ قلَّةِ الخوارق في الصحابة، مع قول الإمام الربانيِّ: إنَّ نهاية أويسٍ سيد التابعين بدايةُ وحشيٍّ قاتلِ حمزة يوم أسلم، فما الظنُّ بغير أويس مع غير وحشيٍّ؟

وأنا أقول: إنَّ الكامل وإن كان مَن عَلِمْتَ، إلَّا أنَّ فوقه الأكمل، وهو من لم يزل صاعداً في نزوله، ونازلاً في صعوده، وليس ذلك إلَّا رسولُ الله ﷺ، ولولا ذلك ما أمدَّ العالم العلويَّ والسفليَّ، وهذا مرجعُ الحقيقة والشريعة له عليه الصلاة والسلام على الوجه الأتمِّ كما أشرنا إليه سابقاً، والحمد لله تعالى على أنْ جعلنا من أمَّته وذريَّته.

ولا يعكِّر على ما ذكرنا ما قاله الإمام الغزاليُّ في «الإحياء»، وهو أنَّ علم الآخرة قسمان: علم مكاشفة، وعلم معاملة؛ أمَّا علم المكاشفة فهو علم الباطن، وهو غايةُ العلوم، وهو علم الصديقين والمقرَّبين، وهو عبارةٌ عن نورٍ يظهرُ في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة، وينكشف بذلك ما كان يسمعُ من قبل أسمائها، ويتوهَّمُ لها معانٍ مجملةً غير متضحة، فتتضحُ إذ ذاك حتى تحصلَ المعرفةُ بذات الله تعالى، وبصفاته التامَّات، وبأفعاله، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة. انتهى(١) = لأنَّ المراد أنَّ ذلك من علم الباطن الذي هو علمُ الحقيقة، وهذا البعضُ لا يمكن أن يخلو منه نبيٌّ، كيف ورتبةُ الصديقين دون رتبة الأنبياء عليهم السلام، كما قرروه في آية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]؟

وممَّا ذكرنا من عدم المخالفة بين الشريعة والحقيقة يُعْلَم ما في كلام البلقيني في دفع ما استشكله من قول الخضر لموسى عليهما السلام: «إنِّي على علم» الحديث السابق(٢)، حيثُ زعم أنَّه يدلُّ بظاهره على امتناع تعليم العلمين معاً، مع

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٩-٢٠.

(٢) سلف ص٤٦١ من هذا الجزء.

أنَّه لا يمتنع، وأجاب بأنَّ علم الكشوف والحقائق ينافي علم الظاهر، فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أنْ يعلمَ الحقائقَ؛ للتنافي، وكذا لا ينبغي للعالم بالحقيقة أنْ يعلم العلمَ الظاهر الذي ليس مكلَّفاً به وينافي ما عنده من الحقيقة.

ولعمري لقد أخطأ فيما قال، وبالحقِّ تعرفُ الرجال، وكأنَّه لم يعتمد عليه، فأردفه بجوابٍ آخر هو خلافُ الظاهر، وأنت تعلمُ أنَّه لا حاجةَ إلى شيءٍ من ذلك، والاستشكالُ من ضعف النظر.

ثمَّ إنَّ قصة الخضر عليه السلام لا تصلحُ حجَّةً لمن يزعمُ المخالفة بين العلمين؛ فإنَّ أعظمَ ما يُشكل فيها قتل الغلام؛ لكونه طبعَ كافراً، وخُشي من بقائه حيّاً ارتدادُ أبويه، وذلك أيضاً شريعةٌ، لكنها مخصوصةٌ به عليه السلام؛ لأنَّه ـ كما قال العلَّامة السبكيُّ ـ أوحيَ إليه أنْ يعملَ بالباطن وخلافِ الظاهر الموافق للحكمة، فلا إشكال فيه، وإنْ عُلم من شريعتنا أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ كائناً مَن كان قتلُ صغيرٍ، لا سيما بين أبوين مؤمنين، وكيف يجوزُ قتلُه بسببٍ لم يحصل، والمولودُ لا يوصف بكفرٍ حقيقيٍّ، ولا إيمانٍ حقيقيٍّ، واتفاقُ الشرائع في الأحكام ممَّا لم يذهب إليه أحدٌ من الأنام، فضلاً عن العلماء الأعلام، وهذا ظاهرٌ على القول بنبوَّته.

وأمَّا على القول بولايته: فيقال: إنَّ عملَ الوليِّ بالإلهام كان إذ ذاك شرعاً، أو كما قيل: إنَّه أُمر بذلك على يد نبيٍّ غير موسى عليه السلام.

وأمَّا إقامةُ الجدار بلا أجر فلا إشكالَ فيها؛ لأنَّها إحسانٌ، وغاية ما يُتخيَّل أنَّه للمسيء، فليكن كذلك ولا ضيرَ، فإنَّه من مكارم الأخلاق.

وأمَّا خرق السفينة لتسلَم من غصب الظالم، فقد قالوا: إنَّه ممَّا لا بأسَ به، حتى قال العزُّ بن عبد السلام: إنَّه إذا كان تحت يد الإنسان مالُ يتيمٍ أو سفيهٍ أو مجنونٍ، وخاف عليه أنْ يأخذه ظالمٌ، يجبُ عليه تعييبُه؛ لأجل حفظه، وكان القولُ قولَ من عيَّب مال اليتيم ونحوِه إذا نازعَه اليتيمُ ونحوُه بعد الرشد ونحوِه، في أنَّه فعلَه لحفظِه على الأوجه، كما قال القاضي زكريا في «شرح الروض» قبيلَ باب الوديعة.

ونظيرُ ذلك ما لو كان تحت يده مالُ يتيم مثلاً، وعلم أنَّه لو لم يَبذُل منه شيئاً لقاضي سوءٍ، لانتزعَه منه وسلَّمهُ لبعضِ الخوَنة، وأدَّى ذلك إلى ذهابه، فإنَّه يجبُ

عليه أنْ يدفعَ إليه شيئاً، ويتحرَّى في أقلِّ ما يمكنُ إرضاؤه به، ويكون القولُ قوله أيضاً.

وقال بعضهم: قصارى ما تدلُّ عليه القصة ثبوتُ العلم الباطن، وهو مسلَّم، لكنَّ إطلاقَ الباطن عليه إضافيٌّ كما تقدم. وكان في قوله ﷺ: «إنَّ من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلَّا العلماء بالله تعالى، فإذا قالوه لا ينكرُه إلَّا أهل الغرة بالله تعالى»[1] إشارةً إلى ذلك، والمراد بأهل الغرة علماء الظاهر الذين لم يؤتوا ذلك. وبعض مثبتيه يستدلُّون بقول أبي هريرة: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءَيْن من العلم، فأمَّا أحدهما فبثثتُه، وأمَّا الآخرُ فلو بثثتُه لقُطعَ مني هذا البلعوم[2]. واستُدِلَّ به أيضاً على المخالفة بين العلمين.

وأنت تعلم أنَّه يحتملُ أنْ يكون أراد بالآخر الذي لو بثَّه لقُتِل علمَ الفتن، وما وقعَ من بني أمية، وذمَّ النبيِّ ﷺ لأناسٍ معينين منهم، ولا شكَّ أنَّ بثَّ ذلك في تلك الأعصار يجرُّ إلى القتل. وعلى تسليم أنَّه أرادَ به العلم الباطن المسمَّى بعلم الحقيقة، لا نسلِّمُ أنَّ قطعَ البلعوم منه على بثِّه لمخالفته العلم الظاهر في نفس الأمر، بل لتوهم من بيده الحلُّ والعقدُ والأمر والنهي من أمراء ذلك الزمان المخالفةَ. فافهم.

واستدلَّ العلماء بما في القصَّة حسبما ذكره شُرَّاح الحديث وغيرهم على استحبابِ الرحلة للعلم، وفضل طلبه، واستحباب استعمال الأدب مع العالم، واحترام المشايخ، وترك الاعتراض عليهم، وتأويل ما لا يُفهَم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والوفاءِ بعهودهم، والاعتذار عند مخالفتهم، وعلى جواز اتِّخاذِ الخادم في السفر، وحملِ الزاد فيه، وأنَّه لا ينافي التوكُّل، ونسبةِ النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدُّباً عن نسبتها إلى الله تعالى، واعتذارِ العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه ممَّا لا يحتمله طبعُه، وتقديمِ المشيئة في الأمر، واشتراطِ المتبوع على التابع، وعلى أنَّ النسيانَ غيرُ مؤاخَذ به،

(١) أورده الديلمي في الفردوس (٨٠٢). قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ص٢٠: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٢٠). وسلف ٧/ ٣١٢.

وأنَّ للثلاث اعتباراً في التكرار ونحوه، وعلى جوازِ ركوب السفينة، وفيه الحكمُ بالظاهر حتى يتبيَّن خلافُه؛ لإنكار موسى عليه السلام، وعلى جواز أن يطلب الإنسان الطعامَ عند احتياجه إليه، وعلى أنَّ صنعَ الجميل لا يترك ولو مع اللئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأنَّ المسكينَ لا يخرج عن المسكنة بملكِ آلةٍ يكتسبُ بها، أو شيءٍ لا يكفيه، وأنَّ الغصبَ حرامٌ، وأنَّه يجوزُ دفنُ المال في الأرض. وفيه إثباتُ كرامات الأولياء، على قول من يقول: الخضرُ وليٌّ، إلى غير ذلك ممَّا يظهرُ للمتتبِّع أو للمتأمِّل.

وبالجملة قد تضمَّنت هذه القصة فوائدَ كثيرة، ومطالبَ عاليةً خطيرة، فأمعِنِ النظرَ في ذاك، والله سبحانه يتولَّى هداك.

❀ ❀ ❀

ومن باب الإشارة في الآيات على ما ذكره بعض أهلِ الإشارة:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ لله تعالى خواصَّ أضافهم سبحانه إليه[1]، وقطعَهم عن غيره، وأخصُّ خواصِّه عزَّ وجل من أضافه إلى الاسم الجليل، وهو اسم الذات الجامع لجميع الصفات، أو إلى ضمير الغيبة الراجع إليه تعالى، وليس ذاك إلَّا حبيبه الأكرمُ ﷺ.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي مرتبةُ القرب منه عزَّ وجلَّ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ وهو العلمُ الخاصُّ الذي لا يُعلم إلَّا من جهته تعالى.

وقال ذو النون: العلمُ اللدنيُّ هو الذي يَحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

وقال الجنيدُ قدِّس سرُّه: هو الاطِّلاع على الأسرار من غير ظنٍّ فيه ولا خلافِ واقع، لكنَّه مكاشفاتُ الأنوار عن مكنون المغيَّبات، ويحصلُ للعبد إذا حفظ جوارحَه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كلِّ الإرادات، وكان شبحاً بين يدي الحقِّ بلا تمنِّي ولا مراد.

---

(١) في الأصل: إليهم.

وقيل: هو علمٌ يُعرِّفُ به الحقُّ سبحانه أولياءَه ما فيه صلاحُ عباده.

وقال بعضهم: هو علمٌ غيبيٌّ يتعلَّقُ بعالَم الأفعال، وأخصُّ منه الوقوف على بعض سرِّ القدر قبلَ وقوع واقعته، وأخصُّ من ذلك علمُ الأسماء والنعوت الخاصَّة، وأخصُّ منه علم الذات.

وذكر بعض العارفين أنَّ من العلوم ما لا يعلمُه إلَّا النبيُّ، واستدلَّ له بقوله ﷺ في حديثِ المعراج ـ كما ذكره القسطلانيُّ في «مواهبه» وغيره ـ: «وسألني ربِّي فلم أستطع أن أُجيبَه، فوضعَ يده بين كتفيَّ، فوجدت بردها، فأورثني علمَ الأوَّلين والآخرين، وعلمني علوماً شتى؛ فعِلْمٌ أخذ عليَّ كتمانَه، إذ عَلِمَ أنَّه لا يقدرُ على حملهِ أحدٌ غيري، وعلمٌ خيَّرني فيه، وعلَّمني القرآن، فكان جبريلُ عليه السلام يذكِّرني به، وعلمٌ أمرني بتبليغه إلى العامِّ والخاصِّ من أمَّتي». انتهى[1]. ولله تعالى علمٌ استأثر به عزَّ وجلَّ، لم يُطلِع عليه أحداً من خلقه.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قاله عن ابتلاءٍ إلهيٍّ كما قدمنا. وقال فارس كما في «أسرار القرآن»: إنَّ موسى عليه السلام كان أعلمَ من الخضر فيما أخذَ عن الله تعالى، والخضر كان أعلمَ من موسى فيما وقعَ إلى موسى عليه السلام.

وقال أيضاً: إنَّ موسى كان باقياً بالحقِّ، والخضر كان فانياً بالحقِّ.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ قيل: عَلِمَ الخضرُ أنَّ موسى عليه السلام أكرمُ الخلق على الله تعالى في زمانه، وأنَّه ذو حدَّةٍ عظيمةٍ، ففزعَ من صحبته؛ لئلَّا يقعَ منه معه ما لا يليقُ بشأنه.

وقال بعضهم: آيسهُ من نفسه؛ لئلَّا يشغله صحبته عن صحبة الحقِّ.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ قال بعضهم: لو قال كما قال الذبيحُ عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

(١) المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني) ٦/ ٩٣-٩٤. ونقل الزرقاني عن الشامي أنه قال في هذا الخبر: وهو كذب بلا شك.

لوفِّقَ للصبر كما وفِّقَ الذبيح. والفرقُ أنَّ كلام الذبيحِ أظهرُ في الالتجاء وكسر النفس، حيثُ علَّق بمشيئة الله تعالى وِجْدَانَهُ واحداً من جماعةٍ متَّصفين بالصبرِ، ولا كذلك كلام موسى عليه السلام.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ سلكا طريقَ السؤالِ الذي يتعلَّقُ بذلِّ النفس في الطريقة، وهو لا ينافي التوكُّل، وكذا الكسب.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كأنَّه عليه السلام أرادَ دفعَ ما أحوجهما إلى السؤال من أولئك اللئام، وفيه نظرٌ إلى الأسباب، وهو من أحوال الكاملين، كما مرَّ في حكاية الحسن البصري وحبيب، ففي هذا إشارةٌ إلى أنَّه أكملُ من الخضر عليهما السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: حسبما أردت. وقال النصرأبادي: لما علمَ الخضرُ بلوغَ موسى إلى منتهى التأديب، وقصورَ علمه عن علمه، قال ذلك؛ لئلَّا يسأله موسى بعدُ عن علمٍ أو حالٍ فيفتضح.

وقيل: خافَ أن يسأله عن أسرار العلوم الربانيَّة الصفاتيَّة الذاتيَّة فيعجزَ عن جوابه، فقال ما قال.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قيل: كانَ حسنَ الوجه جدًّا، وكان محبوباً في الغاية لوالديه، فخشي فتنتهما به.

والآيةُ من المشكل ظاهراً؛ لأنَّه إن كان قد قَدَّر اللهُ تعالى عليهما الكفرَ، فلا ينفعهما قتلُ الولد، وإنْ لم يكن قدَّر سبحانه ذلك، فلا يضرُّهما بقاؤه.

وأجيبَ بأنَّ المقدَّر بقاؤهما على الإيمان إن قُتِل، وقتلَه ليبقيا على ذلك.

وقيل: إنَّ المقدَّرَ قد يغيَّر، ولا يلزم من ذلك سوى التغيُّر في تعلُّق صفته تعالى، لا في الصفة نفسها ليلزم التغيُّر فيه عزَّ وجلَّ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

واستشكل أيضاً بأنَّ المحذورَ يزولُ بتوفيقه للإيمان، فما الحاجة إلى القتل؟

وأجيب بأنَّ الظاهرَ أنَّه غيرُ مستعدٍّ لذلك، فهو منافٍ للحكمة، وكأنَّ الخضرَ عليه السلام علم[1] أنَّ فيما قال نوعَ مناقشةٍ، فتخلَّصَ من ذلك بقوله: «وما فعلته عن أمري» أي: بل فعلتُه بأمرِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يُسأل سبحانه عمَّا أمرَ وفعلَ، ولعلَّ قوله لموسى عليه السلام ما قال حين نقرَ العصفورُ في البحر[2] سدٌّ لبابِ المناقشة فيما أمرَ الله تعالى شأنه، ولعلَّ علمَ مثل هذه المسائل من العلم الذي استأثرَ الله سبحانه به ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأوَّلَ بعضُهم مجمعَ البحرين بمجمع ولايةِ الشيخ وولاية المريد، والصخرةَ بالنفس، والحوتَ بالقلب المملَّح بملح حبِّ الدنيا وزينتها، والسفينة بالشريعة، وخَرْقَها بهدم الناموس في الظاهر مع الصلاح في الباطن، وإغراقَ أهلها بإيقاعهم في بحار الضلال، والغلامَ بالنفس الأمَّارة، وقتلَه بذبحه بسيف الرياضة، والقريةَ بالجسد، وأهلَها بالقوى الإنسانيَّة من الحواسِّ، واستطعامَهم بطلب أفاعيلها التي تختصُّ بها، وإباءَ الضيافة بمنعِها إعطاءَ خواصِّها كما ينبغي؛ لكلالها وضعفها، والجدارَ بالتعلُّق الحائل بين النفس الناطقة وعالم المجرَّدات، وإرادةَ الانقضاض بمشارفة قطع العلائق، وإقامتَه بتقوية البدن والرفق بالقوى والحواس، ومشيئةَ اتخاذِ الأجر بمشيئة الصبر على شدَّة الرياضة؛ لنيل الكشوف وإفاضة الأنوار، والمساكينَ بالعوام، والبحرَ الذي يعملون فيه ببحر الدنيا، والمَلِكَ بالشيطان، والسفن التي يغصبُها العبادات الخالية عن الانكسار والذلِّ والخشوع، والأبوين المؤمنين بالقلب والروح، والبدلَ الخيِّر بالنفس المطمئنة والملهمة، والكنز بالكمالات النظريَّة والعلميَّة[3]، والأبَ الصالح بالعقل المفارق الذي كمالاته بالفعل، وبلوغَ الأشُدِّ

(١) في (م): رأى.

(٢) يشير إلى قطعة من حديث أبيٍّ الطويل الذي أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) مرفوعاً. وفيه: «فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلَّا كنقرة هذا العصفور في البحر».
وسلف بعض هذا الحديث في مواضع.

(٣) في غرائب القرآن للنيسابوري ١٦/١٨: العملية.

بوصولهما بتربية الشيخ وإرشاده إلى المرتبة الكاملة. وهذا ما اختاره النيسابوريُّ[(١)]، واختار غيرُه تأويلاً آخر هو أدهى منه.

هذا والله تعالى الموفِّقُ للصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ كان السؤال على وجه الامتحان، والسائلون في المشهور قريشٌ بتلقين اليهود. وقيل: اليهودُ أنفسهم، وروي ذلك عن السُّدِّيِّ.

وأكثر الآثار تدلُّ على أنَّ الآية نزلت بعد سؤالهم، فالتعبيرُ بصيغة[(٢)] الاستقبال، لاستحضار الصورة الماضية؛ لِمَا أنَّ في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ﷺ ما شاهدوا نوعَ غرابة.

وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب.

وبعض الآثار يدلُّ على أنَّ الآيةَ نزلت قبلُ، فعن عقبة بن عامر قال: إنَّ نفراً من أهل الكتاب جاؤوا بالصحف أو الكتب، فقالوا لي: استأذن لنا على رسول الله ﷺ لندخلَ عليه، فانصرفتُ إليه عليه الصلاة والسلام فأخبرته بمكانهم، فقال ﷺ: «مالي ولهم، يسألونني عمَّا لا أعلم، إنَّما أنا عبدٌ لا علم لي إلَّا ما علَّمني ربِّي» ثم قال: «ائتني بوَضوء أتوضَّأ به» فأتيتُه فتوضأ، ثمَّ قام إلى مسجد في بيته، فركع ركعتين، فانصرفَ حتى بدا السرورُ في وجهه، ثم قال: «اذهبْ فأَدْخِلْهُم ومَن وجدتَ بالباب من أصحابي» فأدخلتُهم، فلمَّا رآهم النبيُّ ﷺ قال: «إنْ شئتم أخبرتُكم بما سألتموني عنه، وإنْ شئتم غير ذلك فافعلوا»[(٣)]، والجمهور

---

(١) في غرائب القرآن ١٦/ ١٧-١٨.

(٢) في الأصل: بصورة.

(٣) في الدر المنثور ٤/ ٢٤١: «إن شئتم أخبرتكم بما جئتم تسألوني عنه من قبل أن تكلموا، وإن شئتم فتكلموا قبل أن أقول» وكذا في بقية المصادر ما هو قريب منه. وهو قطعة من خبر طويل أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣-١٠٤، والطبري في تفسيره ١٥/ ٣٦٨-٣٦٩، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥-٢٩٦. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية بعد ذكر قطعة منه: وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل.

على الأوَّل، ولم تثبتْ صحَّة هذا الخبر.

واختُلف في ذي القرنين، فقيل: هو مَلَكٌ أهبطَه الله تعالى إلى الأرض وآتاه من كل شيءٍ سبباً، وروي ذلك عن جبير بن نفير، واستُدِلَّ على ذلك بما أخرجه ابنُ عبد الحكم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباريِّ في كتاب «الأضداد» وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه سمع رجلاً ينادي بمنى: يا ذا القرنين، فقال له عمر: هاأنتم قد سمَّيتم بأسماءِ الأنبياء، فما لكم وأسماء الملائكة[(١)]؟!

وهذا قولٌ غريبٌ، بل لا يكادُ يصحُّ، والخبرُ على فرض صحَّته ليس نصًّا في ذلك، إذ يحتملُ ـ ولو على بعد ـ أن يكونَ المراد أنَّ هذا الاسم من أسماء الملائكة عليهم السلام، فلا تسمَّوا به أنتم، وإن تسمَّى به بعضُ مَن قبلكم من الناس.

وقيل: هو عبدٌ صالحٌ ملَّكه الله تعالى الأرضَ، وأعطاه العلمَ والحكمة، وألبسَهُ الهيبةَ، ولا نعرف من هو، وذكر في تسميته بذي القرنين وجوه:

الأول: أنَّه دعا إلى طاعة الله تعالى، فضُرِبَ على قرنه الأيمن فمات، ثم بعثَه الله تعالى، فدعا، فضُرِب على قرنه الأيسر فمات، ثم بعثه الله تعالى، فسُمِّيَ ذا القرنين ومَلك ما مَلك، وروي هذا عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

والثاني: أنَّه انقرضَ في وقته قرنان من الناس.

الثالث: أنَّه كانت صفحتا رأسه من نحاس، وروي ذلك عن وهب بن منبه.

الرابع: أنَّه كان في رأسه قرنان كالظلفين، وهو أوَّل من لبس العمامة ليسترهما، وروي ذلك عن عبيد بن يعلى.

الخامس: أنَّه كان لتاجه قرنان.

السادس: أنَّه طافَ قرنَي الدنيا، أي: شرقها وغربها، وروي ذلك مرفوعاً[(٢)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤١، وهو في فتوح مصر ص١٠٥، والأضداد ص ٣٥٣، والعظمة (٩٨٧)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٩٠. وهو من طريق خالد بن معدان عن عمر، وخالد لم يدرك عمر رضي الله عنه.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٠٤: لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه الدارقطني في «المؤتلف»، من رواية عبد العزيز بن عمران، عن سليمان بن أسيد، عن =

السابع: أنَّه كان له غديرتان، وروي ذلك عن قتادة ويونس بن عبيد.

الثامن: أنَّه سُخِّر له النورُ والظُّلمة، فإذا سَرى يهديه النورُ من أمامه، وتمتدُّ الظلمة من ورائه.

التاسع: أنَّه دخلَ النور والظلمة.

العاشر: أنَّه رأى في منامه كأنَّه صعد إلى الشمس وأخذ بقرنيها.

الحادي عشر: أنَّه يجوزُ أن يكون قد لُقِّبَ بذلك لشجاعته، كأنَّه ينطح أقرانه، كما لقب أزدشيربهمن بطويل اليدين؛ لنفوذ أمره حيث أراد.

ولا يخفى أنَّه يَبعدُ عدمُ معرفة رجلٍ مُكِّن له ما مُكِّن في الأرض، وبلغَ من الشهرةِ ما بلغ في طولها والعرض، وأمَّا الوجوه المذكورة في وجه تسميته، ففيها ما لا يكادُ يصحُّ، ولعلَّه غيرُ خفيٍّ عليكَ.

وقيل: هو فريدون بن أثفيان بن جمشيد، خامس ملوك الفرس الفيشدادية، وكان ملكاً عادلاً مطيعاً لله تعالى.

وفي كتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي أنَّه كان مؤيَّداً بالوحي.

وفي عامَّة التواريخ أنَّه مَلَكَ الأرضَ وقسَّمها بين بنيه الثلاثة: إيرج وسلم وتور، فأعطى إيرج العراقَ والهند والحجاز، وجعله صاحب التاج، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب، وأعطى تور الصين والترك والمشرق، ووضعَ لكلٍّ قانوناً يحكمُ به، وسُمِّيت القوانين الثلاثة سياسةً، فهي معربة سي إيسا، أي: ثلاثة قوانين.

ووجهُ تسميته ذا القرنين أنَّه مَلَكَ طرفي الدنيا، أو طُول أيام سلطنته، فإنها كانت ـ على ما في «روضة الصفاء»[1] ـ خمسَ مئة سنة، أو عِظَمُ شجاعته وقهره الملوك.

= الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها.

(١) في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، فارسي، لميرخواند المؤرخ، محمد بن خاوند شاه بن محمود المتوفى سنة (٩٠٣هـ). انظر كشف الظنون ١/ ٩٢٦-٩٢٧.

ورُدَّ بأنَّه قد أجمعَ أهل التاريخ على أنَّه لم يسافر لا شرقاً ولا غرباً؛ وإنما دَوَّخَ له البلاد كاوه الأصفهانيُّ الحداد الذي مَزَّقَ الله تعالى على يده ملكَ الضحَّاك، وبقي رئيسَ العساكر إلى أن مات.

ويلزم على هذا القول أيضاً أنْ يكون الخضر عليه السلام على مقدِّمته، بناءً على ما اشتهر أنَّه عليه السلام كان على مقدمة ذي القرنين، ولم يذكر ذلك أحدٌ من المؤرِّخين.

وأجيبَ بأنَّ من يقول: إنَّه الإسكندر، يثبتُ جميع ما ثبتَ للإسكندر في الآيات والأخبار، ولا يبالي بعدم ذكر المؤرِّخين لذلك، وهو كما ترى.

وقيل: هو إسكندر اليونانيُّ ابن فيلقوس، وقيل: قلفيص، وقيل: قليص.

وقال ابنُ كثير: هو ابن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطي بن يونان بن يافث بن نونة بن شرخون بن تونط بن يوفيل بن رومى بن الأصفر بن العزير بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام[1].

وكان سريرُ ملكه مقدونيا، وهي بلدةٌ من بلاد الروم غربي دار السلطنة السنية قسطنطينية المحميَّة، بينهما من المسافة قدر خمسة عشر يوماً أو نحو ذلك عند مدينة شيروز.

وقول ابن زيدون: إنَّها مصر، وهمٌ.

وهو الذي غلب دارا الأصغر، واستولى على ملك الفرس، وكان مولدُه في السنة الثالثة عشر من ملك دارا الأكبر. وزعم بعضُهم أنَّه أبوه، وذلك أنَّه تزوَّج بنتَ فيلقوس، فلمَّا قربها وجد منها رائحةً منكرةً، فأرسلَها إلى أبيها وقد حملت بالإسكندر، فلما وضعته بقي في كفالة أبيها، فنسب إليه.

---

(١) نص نسبه كما في مطبوع البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٥٤١-٥٤٢: هو ابن فيليبس بن مضريم بن هرمس بن هردس بن ميطون بن رُومى بن لِنْطى بن يونان بن يافث بن نونة بن سرحون بن رومة بن ثرنط بن توفيل بن رومى بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقيل: إنَّ دارا الأكبر تزوَّج بنتَ ملك الزنج هلابي، فاستخبثَ ريحها، فأمر أنْ يُحتال لذلك، فكانت تغتسلُ بماء السندروس، فأذهبَ كثيراً من ذفرها، ثمَّ عافها وردَّها إلى أهلها، فولدت الإسكندر، وكان يسمَّى الإسكندروس.

ويدلُّ على أنَّه ولده أنَّه لما أدرك دارا الأصغر بن دارا الأكبر وبه رمقٌ، وضع رأسه في حجره وقال له: يا أخي أخبرني عمَّن فعل هذا بك لأنتقم منه. وهو زعمٌ باطل، وقوله: يا أخي، من باب الإكرام ومخاطبة الأمثال.

وإنما سُمِّيَ ذا القرنين لملكه طرفي الأرض، أو لشجاعته، واستُدِلَّ لهذا القول بأنَّ القرآن دلَّ على أنَّ الرجلَ بلغ ملكُه إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال، وذلك تمامُ المعمور من الأرض، ومثلُ هذا الملك يجبُ أن يبقى ذكرهُ مخلَّداً.

والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنَّه بلغَ ملكُه إلى هذا الحدِّ ليس إلَّا هذا الإسكندر، وذلك لأنَّه لمَّا مات أبوه جمعَ ملوك الروم والمغرب وقهرهم[1]، وانتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، وبَنَى الإسكندرية، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل، وورد بيتَ المقدس، وذَبح في مذبحه، ثمَّ انعطفَ إلى أرمينية وباب الأبواب، ودانت له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على دارا، وقصد الهند والصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى خراسان، وبنى المدن الكثيرة، ورجع إلى العراق، ومرض بشهرزور وماتَ بها.

وقيل: مات برومية المدائن، ووضعوه في تابوت من ذهب، وحملوه إلى الإسكندرية، وعاش اثنين وثلاثين سنةً، ومدَّةُ ملكه اثنا عشرة سنة.

وقيل: عاش ستّاً وثلاثين، ومدَّةُ ملكِه ست عشرة سنة. وقيل غير ذلك.

فلما ثبتَ بالقرآن أنَّ ذا القرنين مَلَكَ أكثر المعمورة، وثبتَ بالتواريخ أنَّ الذي هذا شأنه هو الإسكندر، وجبَ القطعُ بأنَّ المرادَ بذي القرنين هو الإسكندر، كذا

---

(١) في الآثار الباقية عن القرون الخالية ص٣٦-٣٧، وتفسير الرازي ٢١/ ١٦٣- والكلام منه -: جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف، ثم قصد ملوك المغرب وقهرهم.

ذكره الإمام[١]. ثم قال: وهذا القول هو الأظهر للدليل المذكور، إلَّا أنَّ فيه إشكالاً قويّاً، وهو أنَّه كان تلميذَ أرسطو الحكيم المقيم بمدينة أثينة، أسلمه إليه أبوه، فأقام عنده خمس سنين، وتعلَّم منه الفلسفة وبرع فيها، وكان على مذهبه، فتعظيمُ الله تعالى إيَّاه يوجبُ الحكم بأنَّ مذهب أرسطو حقٌّ، وذلك ممَّا لا سبيل إليه[٢].

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّم أنَّه كان على مذهبه في جميع ما ذهبَ إليه، والتلمذةُ على شخصٍ لا توجبُ الموافقةَ في جميع مقالات ذلك الشخص، ألا ترى كثرةَ مخالفة الإمامين لشيخهما الإمام أبي حنيفة ﷺ، فيَحتملُ أنْ يكون مخالفاً له فيما يوجِبُ الكفر، وفي ذبحه في مذبح بيت المقدس دليلٌ على أنَّه لم يكن يَرى جميعَ ما يراه الحكماء.

ولا يخفى أنَّه احتمالٌ بعيد، والمشهورُ أنَّه كان قائلاً بما يقوله الحكماء، والذبحُ المذكورُ غير متحقِّق، والاستدلال به ضعيف.

وقيل: إنَّ قوله بذلك وتَمَذْهُبَه بمذهب أرسطو لا يوجبُ كفرَه إذ ذاك؛ فإنَّه كان مُقِرّاً بالصانع تعالى شأنه، معظِّماً له، غيرَ عابدٍ سواه من صنم أو غيره، كما يدلُّ عليه ما نقله الشهرستانيُّ أنَّ الحكماءَ تشاوروا في أن يسجدُوا له إجلالاً وتعظيماً، فقال: لا يجوزُ السجود لغير بارئ الكلّ[٣].

ولم يكن مبعوثاً إليه رسولٌ، فإنَّه كان قبل مبعث عيسى عليه السلام بنحو ثلاثِ مئة سنة، وكان الأنبياء عليهم السلام إذ ذاك من بني إسرائيل، ومبعوثين إليهم، ولم يكن هو منهم، فكان حكمه حكم أهل الفترة.

وتُعقِّبَ بأنَّه على تسليم ذلك لا يحسم مادة الإشكال؛ لأنَّ الله تعالى لا يكاد يعظِّم مَن حُكْمُه حُكْمَ أهل الفترة مثلَ هذا التعظيم الذي دلَّت عليه الآيات والأخبار، وأيضاً الثابت في التواريخ أنَّ الإسكندر المذكورَ كان أرسطو بمنزلة

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٣.

(٢) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٥.

(٣) الملل والنحل ٢/ ١٣٨. ووقع في (م): بادئ الكل.

الوزير عنده، وكان يستشيره في المهمَّات، ويعمل برأيه، ولم يُذكر فيها أنَّه اجتمع مع الخضر عليه السلام فضلاً عن اتخاذه إيَّاه وزيراً، كما هو المشهور في ذي القرنين.

واعترضَ أيضاً بأنَّ إسكندر المذكور لم يتحقَّق له سفرٌ نحو المغرب في كتب التواريخ المعتبرة، وقد نبَّه على ذلك كاتب جلبي عليه الرحمة(١).

وقيل: هو الإسكندر الروميُّ، وهو متقدِّمٌ على اليونانيِّ بكثير، ويقال له: ذو القرنين الأكبر. واسمه قيل: مرزبان بن مردبة من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وكان أسود.

وقيل: اسمه عبد الله بن الضحَّاك.

وقيل: مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان.

وجعل بعضُهم هذا الخلاف في اسم ذي القرنين اليونانيّ، بعد أن نقل القول بأنَّ اسمه الإسكندر بن فيلقوس، وذكر في اسم الروميّ ونسبه ما نقل سابقاً عن ابن كثير.

وذهب بعض المحققين إلى أنَّ الإسكندرَ اليونانيّ والإسكندر الروميّ كلاهما يطلقان على غالب دارا الأصغر، والتاريخُ المشهور بالتاريخ الرومي - ويسمى أيضاً السريانيّ والعجمي - يُنسَبُ إليه في المشهور، وأوَّله(٢) شروق يوم الاثنين من أول سنةٍ من سني ولايته عند ابن البنَّاء(٣)، ومن أوَّل السنة السابعة، وهي سنة

---

(١) هو مصطفى بن عبد الله، المعروف بحاج خليفة، المؤرخ البحاثة، التركي الأصل. له «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، قال الزركلي: وهو أنفع وأجمع ما كتب في موضوعه بالعربية، وتحفة الكبار في أسفار البحار، وتقويم التواريخ؛ وهو جداول تاريخية بلغ بها سنة (١٠٥٨هـ) وغيرها توفي سنة (١٠٦٧هـ). الأعلام ٧/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: قوله: وأوله.. إلى آخره، وقع استطراداً. اهـ منه.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، أبو العباس، رياضيٌّ باحث، من أهل مراكش، له: حاشية على الكشاف، وكليات في المنطق وشرحها، وكتاب في النجوم، وغيرها. توفي سنة (٧٢١ هـ). الأعلام ١/ ٢٢٢.

خروجه لتملك البلاد، كما في «زيج الصوفي»[١]، أو من أوَّل السنة التي مات فيها، كما في «المبادي والغايات»[٢].

وبعضُ المحققين ينسبُه إلى سولونس بن الطبوخوس الذي أمر ببناء أنطاكية، وهو الذي صحَّحه ابن أبي الشكر[٣]، وتوقَّف بعضهم كألغ بك[٤] عن نسبتِهِ إلى أحدهما؛ لتعارض الأدلَّة. ونَفى بعضُهم أن يكون في الزمن المتقدِّم بين الملوك إسكندران، وزعم أنَّه ليس هناك إلَّا الإسكندر الذي غلب دارا، واستولى على ملك فارس، وقال: إنَّ ذا القرنين المذكور في القرآن العظيم يحتملُ أنْ يكون هو، ويحتمل أنْ يكون غيره.

والذي عليه الكثير أنَّ المسمَّى بالإسكندر بين الملوك السالفة اثنان، بينهما نحو ألفي سنة، وأنَّ أوَّلهما هو المراد بذي القرنين، ويسمِّيه بعضُهم الروميّ، وبعضُهم اليونانيّ، وهو الذي عُمِّر دهراً طويلاً، فقيل: عُمِّر ألفاً وستَّ مئة سنة، وقيل: ألفي سنة، وقيل: ثلاثة آلاف سنة. ولا يصحُّ في ذلك شيء.

وذكر أبو الريحان البيرونيُّ[٥] المنجِّم في كتابه المسمَّى بـ «الآثار الباقية عن

---

(١) الزيج: كتاب يحسب فيه سير الكواكب، وتستخرج التقويمات، أعني: حساب الكواكب سنة سنة، وهو بالفارسية: زه، أي: الوَتَر، ثم عُرِّب فقيل: زيج. وجمعوه على زيجة كقردة. تاج العروس (زوج).
وزيج الصوفي ذكره صاحب كشف الظنون ٢/ ٩٧٠ فقال: زيج الشيخ أبي الفتح الصوفي الذي تصدى فيه لإصلاح الزيج السمرقندي.

(٢) للشيخ أبي علي حسن بن علي المراكشي. كان حيّاً سنة (٧٥٠هـ) كما في هدية العارفين ١/ ٢٨٦.

(٣) يحيى بن محمد بن أبي الشكر، محيي الدين، أبو الفتح، ويعرف بالحكيم المغربي، عالم بالفلك، أندلسي من أهل قرطبة. صنف كتباً، منها: الأربع مقالات في النجوم، وملخص المجسطي، توفي نحو (٦٨٠هـ). الأعلام ٨/ ١٦٦.

(٤) هو محمد بن شاه رخ بن تيمورلنك، ويعرف بألوغ بك صاحب سمرقند من قبل أبيه، وصنع به رَصَدًا عظيماً، ودام على ذلك إلى أن قتله ولده عبد اللطيف سنة أربع وخمسين وثمانمئة. وله زيج سمي به. انظر الضوء اللامع للسخاوي ٧/ ٢٦٥، والدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردي ١/ ١٥٤، وكشف الظنون ٢/ ٩٦٦.

(٥) في الأصل و(م)، ومطبوع تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٩: البيروتي. وهو خطأ.

=

القرون الخالية» أنَّ ذا القرنين هو أبو كرِب سمي بن عمير بن إفريقيس[1] الحميري، وهو الذي افتخرَ به تُبَّع اليمانيُّ، حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدِّيَ مسلماً ... مَلِكاً علا في الأرض غيرَ مُفَنَّدِ[2]

بلغ المغاربَ والمشارقَ يَبتغي ... أسبابَ مُلكٍ من حكيمٍ مرشدِ

فرأى مغيبَ الشمس عند غروبها ... في عين ذي خُلُبٍ وثَأطٍ حرْمدِ[3]

ثم قال: ويشبهُ أن يكون هذا القول أقربَ؛ لأنَّ الأذواءَ كانوا من اليمن، كذي المنار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن. واختارَ هذا القول كاتب چلبي، وذَكر أنَّه كان في عصر إبراهيم عليه السلام، وأنَّه اجتمع معه في مكَّة المكرمة، وتعانقا، وأنَّ شهرةَ بلوغ مُلْكِ الإسكندر اليونانيِّ تلميذِ أرسطو الغايةَ القصوى في كتب التواريخ ـ كما ذكر الإمام ـ دون هذا إنَّما هي لقربِ زمان اليونانيِّ بالنسبة إليه، فإنَّ بينهما نحو ألفي سنة.

وتواريخ هاتيك الأعصار قد أصابها إعصار، ولم يبقَ ما يعوَّل عليه، ويُرْجَع في حلِّ المشكلات إليه، وربما يقال: إنَّ عدمَ شهرة من ذُكِرَ تُقَوِّي كونَه المسؤول عنه، إذ غرضُ اليهود من السؤال الامتحان، وذلك إنَّما يحسنُ فيما خفيَ أمرُه ولم يُشهَر، إذ الشهرةُ ـ لا سيَّما إذا كانت تَامَّةً ـ مظنَّةُ العلم.

وإلى كون ذي القرنين في زمان إبراهيم عليه السلام ذهبَ غيرُ واحد، وقد ذكر الأزرقيُّ أنَّه أسلمَ على يده عليه السلام وطافَ معه بالكعبة، وكان ثالثهما إسماعيل

= والبيروني هو محمد بن أحمد الخوارزمي، فيلسوف رياضي مؤرخ، من مؤلفاته: الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب، والجماهر في معرفة الجواهر، وتاريخ الأمم الشرقية، وغيرها. توفي سنة (٤٤٠هـ). الأعلام ٥/ ٣١٤.

(١) في مطبوع الآثار الباقية ص٤٠: شمَّر يرعش بن إفريقيس... وانظر ما سيذكره المصنف في هذا التحريف بعد قليل.

(٢) في البحر المحيط ٦/ ١٥٨: غير مبعد، بدل: غير مفند، ووقع في فتوح مصر ١/ ١٠٣، وتاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٢: ملكاً تَدين له الملوك وتَحْسُد. وفي البداية والنهاية ٢/ ٥٤٠: وتُحْشَد. وفي عرائس المجالس ص٣٦٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٠: وتسجد. وأورده بمثل ما ذكر المصنف الرازيُّ في تفسيره ٢١/ ١٦٤.

(٣) الحرمد، كجَعْفَر، وكزِبْرِج: الطين الأسود. القاموس (حرمد).

عليه السلام، ورويَ أنَّه حجَّ ماشياً، فلمَّا سمع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقَّاه ودعا له وأوصاه بوصايا(١).

وقيل: أُتيَ بفرسٍ ليركب، فقال: لا أركبُ في بلدٍ فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب، ومُدَّ له في الأسباب، وبَشَّره إبراهيم عليه السلام بذلك، فكانت السحابةُ تحملُه وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوَ قومٍ. وهؤلاء لم يصرِّحوا بأنَّ ذا القرنين هذا هو الحميريُّ الذي ذُكر، لكنَّ مقتضى كلامِ كاتب چلبي أنَّه هو.

وذكر أنَّه يمكن أن يكون إسكندر لقباً لمن ذُكر معرَّباً عن أَلِكْسَنْدر، ومعناه في اللغة اليونانية آدميٌّ جيد.

وربَّما يقال: إنَّ من قال: اسم الإسكندر مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور، إلى آخر النسب السابق المنتهي إلى قحطان، عنى هذا الرجل الحميريَّ لا الرومي، ولا اليوناني، لكن وهم الناقل؛ لأنَّه لم يقل أحدٌ بأنَّ الروم من أبناء قحطان وكذا اليونان.

نعم ذكر يعقوب بن إسحاق الكنديُّ أنَّ يونان أخو قحطان، وردَّ عليه أبو العباس الناشئ في قصيدته، حيث قال:

أبا يوسفٍ إنِّي نظرتُ فلم أجد ... على الفحصِ رأياً صحَّ منك ولا عقدا
وصرتَ حكيماً عند قوم إذا امرؤٌ ... بلاهُمْ جميعاً لم يجد عندهم عهدا
أتقرنُ إلحاداً بدينِ محمَّدٍ ... لقد جئتَ شيئاً يا أخا كندة إدًّا
وتخلطُ يوناناً بقحطان ضلَّةً ... لعمري لقد باعَدْتَ بينهما جدّا(٢)

والمذكورُ في كتب التواريخ أنَّ ملوكَ اليمن إلى أن غلبت الحبشةُ عليها من أبناء قحطان.

وأورد على هذا القول في ذي القرنين أنَّه لم يوجد في كتب التواريخ المعتبرة سمي بن عمير بن إفريقيس في عداد ملوك اليمن، والمذكورُ إنَّما هو شَمَّر بصيغة

---

(١) ينظر تاريخ مكة لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ١/ ٧٤.
(٢) الأبيات في مروج الذهب ٢/ ٢٤٥، وفي الديوان المجموع لأبي العباس الناشئ، المقطوعة ٣١، مطبوع في مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد ١١/ ١٩٨٢.

فِعل الماضي من التشمير، بن إفريقيس، ولم يذكروا بينه وبين إفريقيس عميراً، وقد ذكر بعضُهم فيه أنَّه ذو القرنين، وقالوا: إنه يقال له: شمّر يرعش؛ لارتعاش كان فيه، فلعلَّ: سمي محرَّفٌ عن شمر، وابن عمير محرف من يرعش.

وقد ذكروا في أبيه إفريقيس أنَّه غزا نحو المغرب في أرض البربر، حتى أتى طنجة، ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم اليوم، وأنَّه هو الذي بنى إفريقية، وبه سمِّيت، وكان ملكه مئةً وأربعاً وستين سنة.

وفيه أنَّه خرج نحو العراق، وتوجَّه نحو الصين، وأنه قلعَ المدينة التي تسمَّى اليوم سمرقند، وقالوا: إنَّها معرَّب شمركند، وإلى ذلك يشيرُ دِعبل الخزاعيُّ بقوله يفتخر بملوك اليمن:

هُمُ كتبوا الكتابَ بباب مرو وباب الشاش كانوا الكاتبينا
وهم سموا بشمرٍ سمرقندا وهم غرسوا هناك النابتينا[1]

وأنَّه إنَّما لُقِّب بذي القرنين لذؤابتين كانتا له، وكان ملكه ـ على ما قال ابن قتيبة ـ مئةً وسبعاً وثلاثين سنةً، وعلى ما قال المسعوديُّ: ثلاثاً وخمسين سنةً، وعلى ما قال غيرهما: سبعاً وثمانين سنةً، ثم إنَّ هذا لم يكن بأبي كرب، وإنَّما المكنَّى به ـ على ما رأيناه في بعض التواريخ ـ أسعدُ بن كليكرب، ويقال له تبع الأوسط، ويذكر أنَّه آمن بنبينا ﷺ قبل مبعثه، وفي ذلك يقول:

شهدتُ على أحمدَ أنَّه رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدَّ عمري إلى عمره لكنتُ وزيراً له وابن عم[2]

وذكروا أنَّه كانَ شديدَ الوطأة، كثيرَ الغزو، فملَّهُ قومُه، فأغروا ابنه حسان على قَتْلِه فقتَلَه.

ولا يخفى أنَّ كلا هذين الشخصين لا يصحُّ أنْ يكونَ المراد بذي القرنين الذي ذُكر أنَّه لقيَ إبراهيم السلام، أمَّا الأولُ، فلأنَّهم ذكروا أنَّه ملك بعد ياسر ينعم بن

(١) ديوان دعبل ص٢٥٦، وفيه: التبتينا.
(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٦٠، والعمدة لابن رشيق ٢/ ٢٢٦.

عمرو، وملك ياسر بعدَ بلقيس زوجة سليمان عليه السلام، وكان عمَّها، فكيف يتصوَّر أنْ يكونَ هذا ذاك، مع بُعْدِ زمان ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام؟

وأمَّا الثاني، فلأنَّه بعدَ هذا بكثيرٍ، مع أنَّه لم يُطلِق عليه أحدٌ ذا القرنين، ولا نَسب إليه غزواً في مشارق الأرض ومغاربها.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ في زمن منوجهر بن إيرج بن أفريدون بُعثَ موسى عليه السلام، وكان ملك اليمن في زمانه شمر أبا الملوك، وكان في طاعته. انتهى.

وعليه أيضاً لا يمكنُ أنْ يكون شمر هذا هو ذا القرنين السابق، وهو ظاهر.

وإذا أسقطتَ جميع هذه الأقوال عن الاعتبار؛ بناءً على ما قيل: إنَّ أخبار ملوك اليمن مضطربةٌ، لا يكاد يوقَفُ على روايتين متفقتين فيها، واعتبرتَ القولَ بأنَّه كان في زمن إبراهيم عليه السلام ملكٌ منهم هو ذو القرنين، بناءً على حسن الظنِّ بقائل ذلك، أشكل الأمرُ من وجهٍ آخر، وهو أنَّ كتب التواريخ قاطبةً ناطقةٌ بأنَّ فريدون كان في زمان إبراهيم عليه السلام، وأنَّه قسَّم المعمورةَ بين بنيه الثلاثة حسبما تقدَّم، فكيف يتسنَّى مع هذا القولُ بأنَّ ذا القرنين رجلٌ من ملوك اليمن كان في ذلك الزمان أيضاً.

ويجيء نحوُ هذا الإشكال إذا قلنا: إنَّ ذا القرنين هو أحد الإسكندرين اليوناني والرومي، وقلنا بأنَّه كان في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً.

والحاصل أنَّ القولَ بأنَّ فريدون كان في ذلك الزمان وكان مالكاً المعمورة ـ كما في عامة تواريخ الفرس ـ يمنعُ القولَ بأنَّ ذا القرنين في ذلك الزمان غيره، بل القول بوجودِ أحد الثلاثة من فريدون وذي القرنين التُّبَّعيّ وأحد الإسكندرين في ذلك الزمان وملْكِه المعمورة يمنعُ من القول بوجود غيره منهم في ذلك الزمان وملكه المعمورة أيضاً، واستشكل كونُ ذي القرنين أيّاً كان من هؤلاء الثلاثة في زمان إبراهيم عليه السلام بأنَّ نمرود كان في زمانه أيضاً، وقد جاء: ملك الدنيا مؤمنان وكافران؛ أمَّا المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين، وأمَّا الكافران فنمرود وبختنصر[1]. ولا مخلصَ من ذلك ـ على تقدير صحَّة الخبر ـ إلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٦٤ والطبري ٤/ ٥٧١-٥٧٢ من قول مجاهد.

بأن يقال: كان زمان إبراهيم عليه السلام ممتدّاً، ووقع ملكُهما الدنيا متعاقباً. وهو كما ترى.

ورأيتُ في بعض الكتب القولَ بأنَّ ذا القرنين مَلَكَ بعد نمرود، وينحلُّ به الإشكال.

وقال بعضهم: الذي تقتضيه كتبُ التواريخ عدمُ صحة الخبر أو تأويلُه، إذ ليس في شيءٍ منها عمومُ ملك سليمان عليه السلام أو ملك نمرود أو بختنصر، والظاهر عدم الصحة.

واستشكل أيضاً كونه في ذلك الزمان بأنَّه لم يُذكر في التوراة، كما يدعيه اليهود اليوم كافَّةً، ويَبعدُ ذلك غايةَ البعد على تقدير وجوده، فالظاهر من عدم ذكره عدمُ كونه موجوداً.

وأُجيب بأنَّا لا نُسلِّم عدمَ ذكره، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنَّ اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمد إنَّك إنَّما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين لأنَّك سمعتَ ذكرهم منَّا، فأخبرنا عن نبيٍّ لم يذكره الله تعالى في التوراة إلَّا في مكانٍ واحد، قال: «ومن هو»؟ قالوا: ذو القرنين. الخبر[1]، بل الظاهر من سؤالهم أنَّ له ذكراً في كتابهم، وإنكارُهم اليومَ ذلك لا يُلتفتُ إليه، على أنَّ ما ذُكر في الاستشكال مجرَّدُ استبعاد، ولا يخفى أنَّه ليس مانعاً قويّاً.

هذا وبالجملة لا يكاد يَسلمُ في أمر ذي القرنين شيءٌ من الأقوال عن قيل وقال، وكأنِّي بك بعد الاطلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختارُ أنَّه الإسكندر بن فليقوس غالبُ دارا، وتدَّعي أنَّه يقالُ له اليوناني، كما يقال له الروميّ، وأنَّه كان مؤمناً بالله تعالى لم يرتكب مكفِّراً من عَقْدٍ أو قولٍ أو فعل، وتقول: إنَّ تلمذَتَه على أرسطو لا تمنعُ من ذلك:

فموسى الذي ربَّاه جبريلُ كافرٌ ... وموسى الذي ربَّاه فرعون مرسلُ[2]

وقد تتلمذَ الأشعريُّ على المعتزلة، ورئيسُ المعتزلة على الحسن، وقد خالفَ أرسطو أفلاطون في أكثر المسائل وكان تلميذه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٠.

(٢) سلف عند التفسير الإشاري للآيات [٦٥-٩١] من سورة آل عمران.

والقولُ بأنَّ أرسطو كان بمنزلة الوزير عنده وكان يستشيره في المهمَّات ويعملُ برأيه، لا يدلُّ على اتِّباعه له في سائر اعتقاداته، فإنَّ ذلك على تقدير ثبوته إنَّما هو في الأمور الملكية، لا المسائل الاعتقاديَّة، على أنَّ المُلَّا صدر الدين الشيرازيّ(١) ذَكرَ أنَّ أرسطو كان حكيماً عابداً موحِّداً قائلاً بحدوث العالم ودثوره المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وما شاعَ عنه في أمر العالم توهُّمٌ ناشئٌ من عدم فهم كلامه، ومثله في ذلك سائر أساطين الحكماء.

ولا نسلِّم عدم سفره نحو المغرب، ولا ثبوتَ أنَّ الخضر كان وزير ذي القرنين، وإن اشتهرَ، ليقدح عدمُ كونه وزيراً عنده في كونه ذا القرنين.

وقيل: إنَّه كان وزيراً عند ملكٍ يقال له ذو القرنين أيضاً، لكنَّه غير هذا، ووقع(٢) الاشتباه في ذلك.

وقيل: يمكن أنْ يكونَ عليه السلام في جملة الحكماء الذين معه، وكان كالوزير عنده، ولا يقدح في ذلك استشارةُ غيره في بعض الأمور، وكان مشتهراً إذ ذاك بالحكمة دون النبوَّة، وفي الأعصار القديمة كانوا يسمُّون النبيَّ حكيماً، ولعلَّه كان مشتهراً أيضاً باسمٍ آخر، وعدمُ تعرُّض المؤرِّخين لشيءٍ من ذلك لا يدلُّ على العدم.

وقيل: لا نسلِّم عدم التعرُّض، بل قولُهم: إنَّ الخضرَ كان وزير ذي القرنين، قولٌ بأنَّه كان وزيرَ الإسكندر المذكور عند القائل بأنَّه ذو القرنين، ولا يمنع من ذلك كون الخضرِ على الأصحِّ نبياً والإسكندر ليس كذلك، كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى قريباً عن الجمهور؛ لأنَّ المرادَ من وزارته له تدبيرُ أموره ونصرتُه، ولا ضررَ في نصرة نبيٍّ وتدبيرِه أمورَ ملكٍ صالح غيرِ نبيّ، وهو واقعٌ في بني إسرائيل.

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي، فيلسوف من القائلين بوحدة الوجود، فارسي المحتد، عربي التصانيف، من كتبه: الأسفار الأربعة في الحكمة، وشرح أصول السكاكي، وغيرها، توفي سنة (١٠٥٩هـ). الأعلام ٥/٣٠٣.

(٢) في الأصل: ودفع.

وإن لم تختر ما ذُكر، فإن اخترتَ أنَّه من ملوك اليمن، أو إسكندرٌ آخر، يلزمُكَ إمَّا القولُ بأنَّه لم يكن في زمن إبراهيم عليه السلام، وإمَّا القولُ بأنَّه كان في زمنه بعد نمرود، أو معه، إلَّا أنَّه تحت إمرته، ولم يكن فريدون إذ ذاك، ويلزمك طيُّ الكشح عن كتب التواريخ، كما يلزمُك على أتمِّ وجهٍ لو اخترت أنه فريدون.

والأقرب عندي لإلزام أهل الملل والنحل الضالِّين الذين يشقُّ عليهم نبذُ كتب التواريخ وعدمُ الالتفات إلى ما فيها بالكليَّة مع كثرتِها وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها، وتباينِ أديان مؤلِّفيها، واختلافِ أعصارهم = اختيارُ أنَّه الإسكندر بن فيلقوس غالبُ دارا:

وما عليَّ إذا ما قلتُ معتقدي ... دَعِ الجهولَ يظنّ الجهلَ عدوانا[١]

واليهودُ قاطبةً على هذا، لكنَّهم لعنهم الله تعالى وقعوا في الإسكندر، ونسبوهُ أقبحَ نسبة، مع أنَّهم يذكرونَ أنَّه أكرمَهم حين جاء إلى بيت المقدس، وعظَّم أحبارهم، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ السؤالَ ليس عن ذاتِ ذي القرنين، بل عن شأنه، فكأنَّه قيل: ويسألونك عن شأن ذي القرنين ﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ الخطاب للسائلين، والهاء لذي القرنين، و«من» تبعيضيَّة، والمراد: من أنبائه وقصصه، والجارُّ والمجرور صفةُ «ذكراً» قُدِّم عليه فصار حالاً، والمراد بالتلاوة الذكر، وعُبِّرَ عنه بذلك لكونه حكايةً من[٢] جهة الله عزَّ وجلَّ، أي: سأذكر لكم نبأً مذكوراً من أنبائه.

ويجوزُ أن يكون الضمير له تعالى، و«من» ابتدائية، ولا حذف، والتلاوة على ظاهرها، أي: سأتلو عليكم من جهته سبحانه وتعالى في شأنه ذكراً، أي: قرآناً.

والسين للتأكيد والدلالةِ على التحقُّق المناسب لتقدُّم تأييده ﷺ وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتَّة، كما في قوله:

---

(١) البيت لتاج الدين السبكي في مطلع قصيدة يمدح بها والده تقيَّ الدين. طبقات الشافعية الكبرى ١٠/ ١٤٣. وفيه: السوء، بدل: الجهل.

(٢) في (م): عن.

سأشكرُ عمراً إنْ تراخت منيَّتي أيادي لم تُمنن وإن هي جلَّتِ[1]

لا للدلالة على أنَّ التلاوةَ ستقعُ فيما يستقبلُ كما قيل؛ لأنَّ هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة، بل موصولةً بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ شروعٌ في تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود، والتمكينُ هاهنا: الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب، يقال: مكَّنه، ومكَّن له، كنصحتُه ونصحتُ له، وشكرتُه وشكرتُ له. وفُرِّقَ بينهما بأنَّ معنى الأول: جعلَه قادراً، ومعنى الثاني: جَعَلَ له قدرةً وقوَّةً، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعملُ كلٌّ منهما في محلِّ الآخر. وهكذا إذا كان التمكينُ مأخوذاً من المكان بناءً على توهُّم ميمه أصليَّةً، والمعنى: إنَّا جعلنا له مُكنةً وقدرةً على التصرُّف في الأرض من حيث التدبيرُ والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار.

وقيل: تمكينُه في الأرض من حيث إنَّه سُخِّر له السحاب، ومُدَّ له في الأسباب، وبُسط له النور، فكان الليلُ والنهار عليه سواءً، وفي ذلك أثرٌ، ولا أراه يصحّ.

وقيل: تمكينُه بالنبوَّة وإجراء المعجزات، ورَوى القول بنبوَّته أبو الشيخ في «العظمة» عن أبي الورقاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[2]، وإلى ذلك ذهب مقاتل، ووافقه الضحَّاك، ويعارضُه ما أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وابن أبي عاصم في «السنة» وابن مردويه من طريق أبي الطفيل[3] أنَّ ابنَ الكوَّاء سأل عليّاً كرَّم الله تعالى وجهَه عن ذي القرنين: أنبيّاً كان أم مَلِكاً؟ قال: لم يكن نبيّاً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً صالحاً أحبَّ الله تعالى فأحبَّه، ونصح الله تعالى فنصحه[4].

---

(١) سلف ١٣/ ٢٣٢.

(٢) العظمة (٩٧٠).

(٣) في الأصل و(م): الفضل، والتصويب من المصادر الآتية.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٤١، وهو في فتوح مصر لابن عبد الحكم ١/ ١٠٥، والسنة لابن أبي عاصم (١٣١٨). وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٧٠.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنَّه قال: ذو القرنين بلغ السدَّين وكان نذيراً، ولم أسمع بحقٍّ أنَّه كان نبيًّا(١).

وإلى أنَّه ليس بنبيٍّ ذهبَ الجمهور، وتوقَّفَ بعضُهم؛ لِمَا أخرجَه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتُبَّع كان لعيناً أم لا، وما أدري أذو القرنين كان نبيّاً أم لا، وما أدري الحدود كفاراتٌ لأهلها أم لا»(٢).

وأنت تعلم أن هذا النفي لم يكن ليستمر لرسول الله ﷺ، فيمكنُ أنْ يكون دَرَى عليه الصلاة والسلام فيما بعد أنَّه لم يكن نبيّاً كما يدلُّ عليه ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فإنَّه لم يكن يقول ذلك إلَّا عن سماع، ويشهدُ لذلك ما أخرجه ابنُ مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه عن ذي القرنين: أنبيٌّ هو؟ فقال: سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «هو عبدٌ ناصَحَ الله تعالى فنصحه»(٣).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده من مهمَّات ملكه ومقاصده المعلَّقة بسلطانه.

﴿سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: طريقاً يوصلُه إليه، وهو كلُّ ما يُتَوصَّلُ به إلى المقصود من علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ، لا العلم فقط، وإن وقع الاقتصارُ عليه في بعض الآثار.

و«من» بيانية، والمبيَّنُ «سبباً»، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: من أسباب كلِّ شيءٍ. والمراد بذلك الأسباب العادية، والقول بأنَّه يلزمُ على التقدير المذكور أنْ يكونَ لكلِّ شيءٍ أسبابٌ لا سبب وسببان، ليس بشيءٍ.

وجُوِّز أنْ تكون «من» تعليليَّة، فلا تقدير، واختارَهُ بعضُهم، فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٤٠، وهو في المستدرك ٢/ ٤٥٠، ومن طريق عبد الرزاق أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٥٣)، وذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٥٥٠ أنه لا تعارض بين هذا الحديث وحديث عبادة بن الصامت عند البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) الذي فيه أن الحدود كفارة؛ لاحتمال أن يكون حديث أبي هريرة قبل حديث عبادة، فلم يعلم أولاً حتى أعلمه الله أخيراً.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٤٠-٢٤١.

واستدلَّ بعضُ من قال بنبوَّته بالآية على ذلك، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقطع، والفاء فصيحة، والتقدير: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يوصلُه إليه، ولعلَّ قَصْدَ بلوغ المغرب ابتداءً لأنَّه أقربُ إليه. وقيل: لمراعاة الحركة الشمسيَّة، وليس ذلك لكون جهة المغرب أفضلَ من جهة المشرق كما زعمه بعضُ المغاربة، فإنَّه ـ كما قال الجلال السيوطيُّ ـ لا قَطْعَ بتفضيل إحدى الجهتين على الأخرى؛ لتعارضِ الأدلَّة.

وقرأ نافع وابن كثير: «فاتَّبَعَ» بهمزة الوصل وتشديد التاء(١)، وكذا فيما يأتي، واستظهرَ بعضُهم أنَّهما بمعنًى، ويتعديان لمفعولٍ واحد.

وقيل: إنَّ «أتبعَ» بالقطع يتعدَّى لاثنين، والتقدير هنا: فأتبعَ سبباً سبباً آخر، أو فأتبع أمرَه سبباً، كقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢].

وقال أبو عبيد: «اتّبع» بالوصل في السير، و«أتبع» بالقطع معناه اللحاق، كقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وقال يونس: «أتبع» بالقطع للمُجِدِّ المسرِع الحثيث الطلب، و«اتَّبع» بالوصل إنَّما يتضمَّن مجردَ الانتقال والاقتفاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكَّنُ أحدٌ من مجاوزته، ووقف كما هو الظاهر على حافَّةِ البحر المحيط الغربيِّ الذي يقال له: أوقيانوس، وفيه الجزائر المسمَّاة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال على أحد الأقوال.

﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأَةٍ، وهي الطينُ الأسود، من حَمِئَت البئرُ تَحْمَأُ حَمْأً: إذا كثُرت حمأتُها.

وقرأ عبدُ الله وطلحةُ بن عبيد الله وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وابن عمر

---

(١) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو من السبعة، وأبو جعفر ويعقوب من العشرة. انظر التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤.

ومعاوية والحسن وزيد بن عليّ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ: «حاميةٌ» بالياء، أي حارَّةٌ[١].

وأنكر هذه القراءة ابنُ عباس رضي الله عنهما أوّلَ ما سمعها، فقد أخرج عبدُ الرزاق وسعيد بن منصور وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر[٢] أنَّ ابنَ عباسٍ ذَكَر له أنَّ معاوية قرأ: «في عينٍ حامية»، فقال له: ما نقرؤها إلَّا «حمئة»، فسأل معاويةُ عبدَ الله بن عمرو، كيف تقرؤها؟ فقال: كما قرأتَها. فقلت: في بيتي نزلَ القرآنُ، فأَرْسَلَ إلى كعب، فقال له: أين تجدُ الشمسَ تغربُ في التوراة، فقال كعب: سل أهل العزيمة[٣]، فإنَّهم أعلمُ بها، وأمَّا أنا، فإنِّي[٤] أجدُ الشمسَ تغربُ في التوراة في ماءٍ وطين، وأشارَ بيده إلى المغرب، قال ابن أبي حاضر: لو أنِّي عندكما أيَّدتُك بكلامٍ تُزاد به بصيرةً في «حمئة». قال ابنُ عباس: وما هو؟ قلت: قول تبَّع فيما ذَكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتِّباعه إيَّاه:

قـــد كـــان ذو الـــقـــرنـــيـــن

إلى آخر الأبيات الثلاثة السابقة، ومحلُّ الشاهدِ قوله:

فرأى مغيبَ الشمس عند غروبها ... في عين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حرْمدِ

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قال ابن أبي حاضر: الطين بكلامهم، فقال: فما الثأط؟ قال: الحمأة، فقال: فما الحرمد؟ قال: الأسود، فدعا ابنُ عباس غلاماً فقال: اكتب ما يقولُ هذا الرجل[٥].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٩. وقراءة ابن عامر وحمزة والكسائي في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤، وقرأ بها أيضاً من السبعة شعبة عن عاصم، ومن العشرة أبو جعفر وخلف.

(٢) كذا في تفسير عبد الرزاق، والدر المنثور، وجاء في تفسير الطبري: عثمان بن حاضر. وكذا ذكره المزي في تهذيب الكمال. ثم قال: وقال عبد الرزاق: عثمان بن أبي حاضر. اهـ، ووهَّم الحافظ في التقريب من قال: ابن أبي حاضر.

(٣) كذا في الأصل و(م). وهو تحريف. والصواب: العربية. وانظر مصادر تخريج الخبر.

(٤) بعدها في (م): لم.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٤٨، وهو في تفسير عبد الرزاق ١/ ٤١١، وتفسير الطبري ١٥/ ٣٧٥ =

ولا يخفى أنَّه ليس بين القراءتين منافاةٌ قطعيةٌ؛ لجواز كون العين جامعةً بين الوصفين، بأنْ تكونَ ذات طينٍ أسود، وماؤها حارّ، ولجواز كون القراءة بالياء أصلُها من المهموز، قلبت همزتُه ياءً لانكسار ما قبلها، وإنْ كان ذلك إنَّما يطَّرِدُ إذا كانت الهمزةُ ساكنةً، كذا قيل.

وتُعقِّبَ بأنَّه يأباهُ ما جرى بين ابن عباس ومعاوية.

وأُجيبَ بأنَّه إذا سلِّم صحته فمبناه السماع، والتحكيمُ لترجيح إحدى القراءتين، وظاهر ما سمعتَ ترجيحُ قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وكأنَّ رجوع معاوية لقراءة ابن عباس ـ على ما ذكرهُ القرطبيُّ[1] ـ كان لذلك.

نعم ما أخرجَه ابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي ذرٍّ قال: كنتُ رِدْفَ رسول الله ﷺ وهو على حمار، فرأى الشمسَ حين غربت، فقال: «أتدري حيث تغرب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّها تغربُ في عين حامية» غيرَ مهموزة[2] = يوافق قراءة معاوية، ويدلُّ على أنَّ «في عين» متعلِّق بـ «تغرب» كما هو الظاهر.

وقول بعض المتعسِّفين: إنه[3] متعلِّقٌ بمحذوف وقع حالاً من فاعل «وجدها» ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه، وكأنَّ الذي دعاه إلى القول بذلك لزومُ إشكالٍ على الظاهر، فإنَّ جرم الشمس أكبر من جرم الأرض بأضعافٍ مضاعفة، فكيف يمكن دخولُها في عين ماءٍ في الأرض؟

وهو مدفوعٌ بأنَّ المراد: وجدها في نظر العين كذلك، إذ لم ير هناك إلَّا الماء،

= وأخرجه أيضاً الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٦٦، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن أبي حاتم بإسناده، واللفظ له.

(١) لم يرد في تفسير القرطبي ذِكْرُ رجوع معاوية إلى قراءة ابن عباس، بل جاء فيه ١٣/ ٣٧٠ إثر ذكر كلام كعب في الحادثة: فوافق ابن عباس. اهـ. يقصد أن كعباً وافق ابن عباس. والله أعلم.

(٢) الدر المنثور ٤/٢٤٨، وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٦٠) مطولاً، وأبو داود (٤٠٠٢). وليس عندهما قوله: غير مهموزة.

(٣) في (م): بأنه.

لا أنَّها كذلك حقيقةً، وهذا كما أنَّ راكبَ البحر يراها كأنَّها تطلعُ من البحر، وتغيبُ فيه، إذا لم ير الشطّ، والذي في أرض ملساء واسعة يراها أيضاً كأنَّها تطلعُ من الأرض وتغيبُ فيها.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّه عبّر بـ «وجد»، والوجدان يدلُّ على الوجود؛ لما أنَّ «وجد» يكون بمعنى رأى، كما ذكره الراغب(١)، فليكنْ هنا بهذا المعنى. ثمَّ المراد بالعين الحمئة؛ إمَّا عينٌ في البحر، أو البحر نفسه، وتسميتُه عيناً ممَّا لا بأسَ به، خصوصاً وهو بالنسبة لعظمة الله تعالى كقطرة، وإن عَظُم عندنا.

وزعم بعض البغداديين أنَّ «في» بمعنى عند، أي: تغرب عند عين.

ومن الناس من زعم أنَّ الآيةَ على ظاهرها، ولا يُعجز اللهَ تعالى شيءٌ. ونحن نقرُّ بعِظَم قدرة الله عزَّ وجلَّ، ولا نلتفتُ إلى هذا القول، ومثلُه ما نقلَه الطرطوشيُّ(٢) من أنَّها يبلعُها حوتٌ، بل هذا كلامٌ لا يقبلُه إلَّا الصبيان ونحوهم، فإنَّها قد تبقى طالعةً في بعض الآفاقِ ستَّةَ أشهرٍ، وغاربةً كذلك، كما في أفق عرض تسعين، وقد تغيبُ مقدارَ ساعةٍ ويظهر نورها من قبل المشرق في بعض العروض، كما في بلغار في بعض أيام السنة، فالشمسُ على ما هو الحقُّ لم تزل سائرةً طالعةً على قومٍ، غاربةً على آخرين بحسب آفاقهم، بل قال إمامُ الحرمين: لا خلافَ في ذلك. ويدلُّ على ما ذُكر ما أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس قال: الشمسُ بمنزلةِ الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت الليلَ في فلكها تحت الأرض، حتى تطلع من شرقها، وكذلك القمر(٣).

وكذا ما أخرجه ابنُ عساكر عن الزهريِّ أنَّ خزيمة بن حكيم السُّلمي سأل رسول الله ﷺ عن سخونة الماء في الشتاء وبرده في الصيف، فقال: «إنَّ الشمس

---

(١) في المفردات (وجد).

(٢) هو محمد بن الوليد بن خلف، الفهري الأندلسي، شيخ المالكية، له كتاب «سراج الملوك»، وغيره، توفي سنة (٥٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠، ونقل المصنف كلامه عن الحاوي للسيوطي ٢/ ٥١٨.

(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٣) من سورة إبراهيم.

إذا سقطت تحت الأرض سارت حتى تطلع من مكانها، فإذا طال الليلُ كثر لبثها في الأرض، فيسخن الماء لذلك، فإذا كان الصيفُ مرَّت مسرعةً، لا تلبث تحت الأرض لقصر الليل، فثبتَ الماء على حاله بارداً»[١].

ولا يخفى أنَّ هذا السير تحتَ الأرض تختلفُ فيه الشمسُ من حيث المسامتة بحسب الآفاق والأوقات، فتُسامِتُ الأقدامَ تارةً، ولا تسامتُها أخرى، فما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال: إذا غربتِ الشمسُ دارت في فلك السماء ممَّا يلي دبر القبلة، حتى ترجع إلى المشرق الذي تطلعُ منه، وتجري منه في السماء من شرقها إلى غربها، ثم ترجعُ إلى الأفق ممَّا يلي دبر القبلة إلى شرقها، كذلك هي مسخَّرةٌ في فلكها، وكذلك القمر[٢] = لا يكاد يصحُّ.

ويشكل على ما ذُكر ما أخرجهُ البخاريُّ عن أبي ذرٍّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغربُ الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّها تذهبُ حتى تسجدَ تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[٣] [يس: ٣٨]».

وأجيب بأنَّ المراد أنَّها تذهب تحت الأرض حتى تصلَ إلى غاية الانحطاط، وهي عند وصولها دائرةٌ نصفَ النهار في سمت القدم بالنسبة إلى أفق القوم الذين غربت عنهم، وذلك الوصول أشبهُ شيءٍ بالسجود، بل لامانعَ أنْ تسجدَ هناك سجوداً حقيقيّاً لائقاً بها، فالمراد من «تحت العرش» مكاناً مخصوصاً مسامتاً[٤] لبعض أجزاء العرش، وإلَّا فهي في كلِّ وقتٍ تحت العرش وفي جوفه، وهذا مبنيٌّ على أنَّه جسمٌ كريٌّ محيطٌ بسائر الأفلاك والفلكيات، وبه تحدَّد الجهات، وهذا قول الفلاسفة، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في سورة طه ما يتعلَّق بذلك.

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٧٤-٣٧٥، وهو قطعة من حديث طويل، وإسناده ضعيف مع انقطاعه، وفي لفظه نكارة، وينظر الإصابة ٣/ ٩٧.

(٢) العظمة (٦٣٤).

(٣) صحيح البخاري (٤٨٠٢)، وأخرجه مسلم أيضاً (١٥٩).

(٤) كذا في الأصل و(م).

وعلى ما ذُكر فالمرادُ بمستقرِّها محلُّ انتهاء انحطاطها، فهي تجري عند كلِّ قوم لذلك المحلِّ، ثمَّ تشرع في الارتفاع.

وقال الخطابيُّ(١): يَحتملُ أن يكون المرادُ باستقرارها تحت العرش أنَّها تستقرُّ تحته استقراراً لا نُحيطُ به نحن، وليس في سجودها كلَّ ليلةٍ تحت العرش ما يعيقُ عن دورانها في سيرها. انتهى. وسيأتي إنْ شاء الله تعالى تمامُ الكلام في ذلك في سورة يس.

وبالجملة لا يلزمُ على هذا التأويل خروجُ الشمس عن فلكها الممثل، بل ولا عن خارج المركز، وإن اختلفَ قربها وبعدها من العرش بالنسبة إلى حركتها في ذلك الخارج.

نعم ورد في بعض الآثار ما يدلُّ على خروجها عن حيزها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الشمسَ إذا غربت رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة، وتحبسُ تحت العرش، فتستأذنُ من أين تؤمر بالطلوع، ثم ينطلقُ بها ما بين السماء السابعة وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة، فتنحدرُ حيال المشرق من سماءٍ إلى سماء، فإذا وصلت إلى هذه السماء، فذلك حين ينفجر الصبح، فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء، فذلك حين تطلعُ الشمس.

وهو وإن لم تأباه قواعدنا من شمول قدرة الله تعالى سائرَ الممكنات، وعدم امتناع الخرق والالتئام على الفلك مطلقاً، إلَّا أنَّه لا يتسنَّى مع تحقُّق غروبها عند قومٍ وطلوعها عند آخرين، وبقائها طالعةً نحو ستة أشهر في بعض العروض، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يخفى، فلعلَّ الخبرَ غيرُ صحيح، وقد نصَّ الجلال السيوطيُّ على أنَّ أبا الشيخ رواه بسندٍ واهٍ(٢).

ثمَّ إنَّ الظاهر على رواية البخاري ورواية ابن أبي شيبة ومن معه أنَّ أبا ذرّ رضي الله عنه سُئِل مرتين، إلَّا أنَّه ردَّ العلمَ في الثانية إلى الله تعالى ورسوله ﷺ؛ طلباً لزيادة الفائدة، ومبالغةً في الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم.

---

(١) في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ٣/ ١٨٩٣، ١٨٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الحاوي ٢/ ٥٢٠.

(٢) الحاوي للسيوطي ٢/ ٥٢١، والأثر في العظمة (٦٤٧) مطولٌ.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند تلك العين على ساحل البحر ﴿قَوْمًا﴾ لباسهم ـ على ما قيل ـ جلود السباع وطعامُهم ما لفَظَه البحر.

وقال وهب بن منبه: هم قومٌ يقال لهم: ناسك، لا يحصيهم كثرةً إلَّا الله تعالى.

وقال أبو زيد السهيليُّ: هم قومٌ من نسل ثمود كانوا يسكنون جابرسا[1]؛ وهي مدينةٌ عظيمة لها اثنا عشر باباً، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا. وروي نحو ذلك عن ابن جريج.

وزعمَ ابنُ السائب أنَّه كان فيهم مؤمنون وكافرون، والذي عليه الجمهور أنَّهم كانوا كفَّاراً فخيَّره الله تعالى بين أن يعذِّبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإيمان، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل من أوَّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: أمراً ذا حُسنٍ، على حذف المضاف، أو على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة، وذلك بالدعوة إلى الحقِّ والإرشادِ إلى ما فيه الفوزُ بالدرجات؛ ومحلُّ «أنْ» مع صلته: إمَّا الرفع على الابتداء، أو على الخبر، وإمَّا النصب على المفعوليَّة؛ [أي:][2] إمَّا تعذيبُك واقعٌ، أو: إمَّا أمرك تعذيبك، أو: إمَّا تفعل أو توقع تعذيبَك، وهكذا الحال في الاتِّخاذ.

وقدَّم التعذيبَ؛ لأنَّه الذي يستحقونه في الحال لكفرهم. وفي التعبير بـ «إمَّا أنْ تتخذَ فيهم حسناً» دونَ: إمَّا أنْ تدعوَهم، مثلاً = إيماءٌ إلى ترجيح الشقِّ الثاني.

واسْتَدَلَّ بالآية من قال بنبوَّته، والقولُ عند بعضهم بواسطة ملك، وعند آخرين كفاحاً.

ومن لم يقل بنبوَّته قال: كان الخطابُ بواسطة نبيٍّ في ذلك العصر، أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً، بعد أن كان ذلك التخييرُ موافقاً لشريعة ذلك النبيّ.

وتُعقِّب هذا بأنَّ مثل هذا التخيير المتضمِّن لإزهاق النفوس لا يجوزُ أن يكون بالإلهام دون الإعلام، وإن وافق الشريعة.

---

(١) في مطبوع التعريف والإعلام ص١٠٨: جابرس.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٢، والكلام منه.

ونُقض ذلك بقصَّة إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بالرؤيا، وهي دون الإلهام.

وفيه أنَّ رؤيا الأنبياء عليهم السلام وإلهاماتهم وحيٌ كما بُيِّن في محلِّه. والكلام هنا على تقدير عدم النبوَّة وهو ظاهر.

وقال عليُّ بن عيسى: المعنى: قلنا: يا محمد قالوا ـ أي: جندُه الذين كانوا معه ـ: يا ذا القرنين، فحذف القول اعتماداً على ظهور أنَّه ليس بنبيٍّ.

وهو من التكلُّف بمكان، وقريبٌ منه دعوى أنَّ القائلَ العلماءُ الذين معه، قالوه عن اجتهاد ومشاورةٍ له بذلك، ونسبَه اللهُ تعالى إليه مجازاً.

والحقُّ أنَّ الآيةَ ظاهرةُ الدلالة في نبوَّته، ولعلَّها أظهر في ذلك من دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ على نبوَّة الخضر عليه السلام. وكأنَّ الداعيَ إلى صرفها عن الظاهر الأخبارُ الدالَّة صريحاً[1] على خلافها، وحينئذٍ فلعلَّ الأولَى في تأويلها أنْ يقال: كان القولُ بواسطة نبيٍّ.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لذلك النبيِّ أو لمن عنده من خواصِّه بعد أنْ تَلقَّى أمرَه تعالى مختاراً للشقِّ الأخير من شقَّي التخيير حسبما أرشد إليه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه، ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل، والظاهرُ أنَّه كان بالسيف.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ قال: كان عذابُه أنْ يجعلَهم في بقر من صُفْرٍ، ثم يوقدَ تحتهم النار حتَّى يتقطَّعوا فيها[2]. وهو بعيدٌ عن الصحَّة.

وأتى بنون العظمة على عادة الملوك، وإسنادُ التعذيب إليه لأنَّه السببُ الآمر، ودعوى صدور ذلك منه بالذات في غاية البعد.

وقيل: أرادَ من الضمير الله تعالى ونفسه، والإسناد باعتبار الخلق والكسب. وهو أيضاً بعيدٌ، مع ما فيه من تشريك الله تعالى مع غيره في الضمير، وفيه من الخلاف ما علمت.

---

(١) لفظة: صريحاً. ليست في (م).
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٤٩.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ أي: منكراً فظيعاً، وهو العذابُ في نار جهنم. ونصب «عذاباً» على أنَّه مصدر «يعذِّبه». وقيل: تَنازعَ فيه هو و«نعذِّبه».

والمراد بالعذاب النكر ـ نظراً إلى الأول ـ ما روي عن السُّدِّيِّ، وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

وفي قوله: «إلى ربِّه» دون إليك دلالةٌ على أنَّ الخطابَ السابق لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنَّ مقاولته كانت مع النبيِّ أو مع خواصه.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبةُ الحسنى، أو: الفعلة الحسنى، أو: الجنَّةُ جزاءً، على أنَّ «جزاء» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، قُدِّمَ على المبتدأ اعتناءً به، أو منصوبٌ بمضمرٍ، أي: يُجزى بها جزاءً، والجملة حاليةٌ أو معترضةٌ بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو هو حالٌ، أي: مجزيًّا بها. وتعقَّب ذلك أبو الحسن بأنَّه لا تكادُ العربُ تتكلَّمُ بالحال مقدَّماً إلَّا في الشعر. وقال الفرَّاء: هو نصبٌ على التمييز(١).

وقرأ ابنُ عباس ومسروق: «جزاءَ» منصوباً غيرَ منوَّن(٢)، وخرَّجَ ذلك المهدويُّ على حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وخرَّجه غيرُه على أنَّه حذف للإضافة، والمبتدأ محذوفٌ لدلالة المعنى عليه، أي: فله الجزاءُ جزاءَ الحسنى.

وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق بالرفع والتنوين(٣)، على أنَّه المبتدأ(٤)، و«الحسنى» بدله، والخبر الجارُّ والمجرور.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة بالرفع بلا تنوين(٥)، وخُرِّجَ على أنَّه مبتدأ مضاف.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٦/ ١٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٠، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٦/ ١٦٠. ووقع في الدر المصون ٧/ ٥٤٣ واللباب لابن عادل ١٢/ ٥٥٩: عبد الله وابن أبي إسحاق.

(٤) في (م): للمبتدأ. وهو خطأ.

(٥) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وشعبة راوية عاصم، كما في التيسير =

قال أبو عليّ: والمراد على الإضافة: جزاء الخلال الحسنة التي أتاها وعملها[1]، أو المراد بالحسنى: الجنة، والإضافةُ كما في: دار الآخرة.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ممَّا نَأمرُ به ﴿يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: سهلاً ميسَّراً غيرَ شاقٍّ، وتقديره: ذا يسر، وأُطلِقَ عليه المصدرُ مبالغةً.

وقرأ أبو جعفر: «يُسُراً» بضمتين، حيث وقع هذا[2].

وقال الطبريُّ: المراد من اتِّخاذ الحُسن الأسرُ[3]، فيكون قد خُيِّر بين القتل والأسر. والمعنى: إمَّا أنْ تعذِّب بالقتل، وإمَّا أنْ تُحسِن إليهم بإبقاء الروح والأسر.

وما حُكي من الجواب على هذا الوجه، قيل: من الأسلوب الحكيم؛ لأنَّ الظاهر أنَّه تعالى خيَّره في قتلهم وأسرهم وهم كفار، فقال: أمَّا الكافرُ فيُراعَى فيه قوَّة الإسلام، وأمَّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلَّا بما يجب.

وفي «الكشف» أنَّه روعي فيه على الوجهين نكتةٌ بتقديم ما مِنَ الله تعالى في جانب الرحمة؛ دلالة على أنَّ ما منه تابعٌ وتتميمٌ، وما منه في جانب العذاب رعايةً لترتيب الوجود مع الترقِّي ليكون أغيظ. وكأنَّه حمل «فله» إلخ على معنى: فله من الله تعالى.. إلخ، وهو الظاهر.

وجُوِّز حمل «إمَّا أنْ تُعذِّبَ وإمَّا أن تتَّخذَ» على التوزيع دون التخيير، والمعنى ـ على ما قيل ـ: ليكن شأنُك معهم إمَّا التعذيب وإمَّا الإحسان؛ فالأوَّل لمن بقيَ على حاله، والثاني لمن تاب. فتأمَّل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: طريقاً راجعاً من مغربِ الشمس موصلاً إلى مشرقها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضعَ الذي تطلعُ عليه الشمس أوَّلاً من معمورة الأرض، أي: غايةَ الأرض المعمورة من جهة المشرق.

= ص١٤٥. وقرأ بها أيضاً أبو جعفر ويعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣١٥.

(١) الحجة ٥/ ١٧٠.

(٢) النشر ٢/ ٢١٦.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٣٧٩.

وقرأ الحسن وعيسى وابنُ محيصن: «مطلَع» بفتح اللام، ورُويت عن ابن كثير وأهل مكَّة[١]. وهو عند المحققين مصدرٌ ميميٌّ، والكلام على تقدير مضاف، أي: مكانَ طلوع الشمس، والمراد: مكاناً تطلعُ عليه.

وقال الجوهريُّ[٢]: إنَّه اسمُ مكان، كمكسور اللام. فالقراءتان متَّفقتان من غير تقدير مضاف.

وقد صرَّحَ بعضُ أئمَّة التصريف أنَّ المطلعَ جاء في المكان والزمان فتحاً وكسراً.

وما آثره المحقِّقون مبنيٌّ على أنَّه لم يرِد في كلام الفصحاء بالفتح إلَّا مصدراً، ولا حاجةَ إلى تخريج القرآن على الشاذِّ؛ لأنَّه قد يُخِلُّ بالفصاحة.

وقال أبو حيان: إنَّ الكسرَ سماعٌ في أحرفٍ معدودة، وهو مخالفٌ للقياس، فإنَّه يقتضي أنْ يكونَ مضارعه تطلِع بكسر اللام. وكان الكسائيُّ يقول: هذه لغةٌ ماتت في كثيرٍ من لغات العرب، يعني ذهبَ من يقول من العرب: تطلِع، بكسر اللام، وبقي مطلِع بكسرها في اسم الزمان والمكان على ذلك القياس. انتهى[٣]. فافهم.

ثمَّ إنَّ الظاهرَ من حال ذي القرنين وكونه قد أوتي من كل شيءٍ سبباً أنَّه بلغ مطلع الشمس في مدَّةٍ قليلة. وقيل: بلغه في اثنتي عشرةَ سنة، وهو خلاف الظاهر، إلَّا أنْ يكون أقامَ في أثناء سيره، فإنَّ طول المعمورة يقطعه بأقلَّ من هذه المدَّة بكثير السائرُ على الاستقامة، كما لا يخفى على العارف بالمساحة.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أخرج ابنُ المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن جريج قال: حُدِّثت عن الحسن، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦١، وهي في القراءات الشاذة ص٨١-٨٢ عن عيسى وابن محيصن وابن كثير في رواية شبل.

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦١.

سِتْرًا﴾ بناءً، لم يُبْنَ فيها بناءٌ قط، كانوا إذا طلعت الشمسُ دخلوا أسراباً لهم حتى تزولَ الشمس»[(١)].

وأخرجَ جماعةٌ عن الحسن ـ وذَكَر أنَّه حديث سمرة ـ أنَّ أرضَهم لا تحملُ البناء، فإذا طلعت الشمسُ تغوَّروا في المياه، فإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم[(٢)].

وقيل: المراد: لا شيء لهم يسترُهم من اللباس والبناء، وهم ـ على ما قيل ـ قومٌ من الزنج. وقيل: من الهنود. وعن مجاهد: من لا يلبسُ الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثرُ من أهل الأرض.

وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزتُ الصين، فسألتُ عن هؤلاء، فقالوا: بينك وبينهم مسيرةُ يومٍ وليلة، فبلغتُهم، فإذا أحدهم يفرشُ إحدى أذنيه ويلبس الأخرى، ومعي صاحبٌ يعرفُ لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظرُ كيف تطلع الشمس، فبينما نحن كذلك إذ سمعنَا كهيئة الصَّلصلة، فغشيَ عليَّ، ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدهن، فلمَّا طلعت الشمسُ على الماء، إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سِرْباً لهم، فلمَّا ارتفعَ النهار، خرجوا إلى البحر يصطادون السمك، ويطرحونَه في الشمس فينضجُ لهم. انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ مثلَ هذه الحكايات لا ينبغي أنْ يُلتفتَ إليها ويعوَّلَ عليها، وما هي إلَّا أخبارٌ عن هيَّان بن بيَّان[(٣)]، يحكيها العجائز وأمثالهنَّ لصغار الصبيان.

وعن وهب بن منبِّه أنَّه يقال لهؤلاء القوم: منسك.

وظاهر الآية ـ لوقوع النكرة فيها في سياق النفي ـ يقتضي أنَّهم ليس لهم ما يسترُهم أصلاً، وذلك ينافي أنْ يكون لهم سرب ونحوه.

وأجيبَ بأنَّ ألفاظَ العموم لا تتناولُ الصور النادرة، فالمراد نفي الساتر المتعارف، والسرب ونحوه ليس منه.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤٩، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٧٩).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٨٢، وجاء في آخره: ثم قال الحسن: هذا حديث سمُرة.
(٣) تقول العرب إذا ذكرت من لا يعرف: هذا هيَّان بن بيَّان. اللسان (ببب).

وأنت تعلمُ أنَّ عدم التناول أحدُ قولين في المسألة.

وقال ابنُ عطيَّة: الظاهرُ أنَّ نفي جعل ساترٍ لهم من الشمس عبارةٌ عن قربها إليهم، وتأثيرِها بقدرة الله تعالى فيهم، ونيلها منهم، ولو كانت لهم أسرابٌ لكان لهم سترٌ كثيف. انتهى[1].

وحينئذٍ فالنكرةُ على عمومها. وأنا أختارُ ذلك إلى أن تثبتَ صحَّةُ أحدِ الأخبار السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرُ ذي القرنين كذلك[2]، والمشار إليه ما وصف به قبلُ من بلوغ المغرب والمشرق وما فعله، وفائدةُ ذلك تعظيمُه وتعظيم أمره. أو: أمرُه فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار.

ويجوزُ أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ «وجد»، أي: وجدَها تطلعُ وجداناً كوجدانها تغربُ في عينٍ حمئة.

أو صفة مصدرٍ محذوف لـ «نجعل» أي: لم نجعل لهم ستراً جعلاً كائناً كالجعل الذي لكم فيما تفضَّلنا به عليكم من الألبسة الفاخرة والأبنية العالية.

وفيه أنَّه لا يتبادرُ إلى الفهم.

أو صفة «ستراً» والمعنى عليه كسابقه، وفيه ما فيه.

أو صفة «قوم» أي: على قومٍ مثل ذلك القبيل الذي تغربُ عليهم[3] الشمس في الكفرِ والحكمِ.

أو معمول «بلغ» أي: بلغ مغربها كما بلغ مطلعها.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ علماً تعلَّق بظواهره وخفاياه، ويفيد هذا على الأوَّل زيادةَ تعظيم الأمر، وأنَّه وراءَ ما وصف بكثير ممَّا لا يحيطُ به إلَّا علمُ اللطيف الخبير.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١.

(٢) في الأصل و(م): ذلك، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٣٤، والكلام منه.

(٣) في (م): عليه.

وهو على الأخير تهويلٌ لما قاسى في السَّير إلى أنْ بلغَ، فيكون المعنى: وقد أحطنا بما لاقاه وحصَلَ له في أثناء سيره خُبْراً، أو: تعظيمٌ للسبب الموصل إليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، أي: أحطنا بما لديه من الأسباب الموصلة إلى هذا الموضع الشاسع مما لم نؤتِ غيره، وهذا ـ كما في الكشف ـ أظهرُ من التهويل.

وعلى الثاني تتميمٌ يفيدُ حسن اختياره، أي: أحطنا بما لديه من حُسنِ التلقِّي وجودةِ العمل خُبْراً.

وعلى الثالث لبيان أنَّه كذلك في رأي العين، وحقيقتُه لا يحيطُ بعلمها غيرُ الله تعالى.

وعلى الرابع والخامس تذييلٌ للقصة أو القصتين، فلا يأباهما كما تُوهِّم.

وعلى السادس تتميمٌ يؤكِّدُ أنَّه سنَّ بهم سنَّته فيمن وجدهم في مغرب الشمس.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ أي: الجبلين، قال في «القاموس»: السدُّ: الجبل والحاجز[١]. وإطلاقُ السدِّ عليه؛ لأنَّه سَدَّ فجّاً من الأرض. وقيل: إطلاقُ ذلك عليه هنا لعلاقة المجاورة، وليس بذاك.

وقرأ نافع وابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وأبو بكر ويعقوب بضمِّ السين[٢]. والمعنى ـ على ما قال الكسائيُّ ـ واحد.

وقال الخليل وسيبويه: السدُّ بالضمِّ الاسم، وبالفتح المصدر.

وقال ابن أبي إسحاق: الأوَّل ما رأته عيناك، والثاني ما لا تريانه.

وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: الأوَّلُ ما كان من خلق الله تعالى لا دخل لصنع البشر فيه، والثاني ما كان لصنع البشر دخلٌ فيه[٣]، ووجهُ

(١) القاموس (سدد).

(٢) التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٤١٤.

دلالة المضموم على ذلك أنَّه بمعنى مفعول، ولكونه لم يذكر فاعلُه فيه دلالة على تعيُّنه وعدم ذهاب الوهم إلى غيره، فيقتضي أنَّه هو الله تعالى، وأمَّا دلالةُ المفتوح على أنَّه من عمل العباد، فللاعتبار بدلالة الحدوث، وتصويرِ أنَّه هاهو ذا يفعله، فليشاهد[1]، وهذا يناسبُ ما فيه مدخل العباد، على أنَّه يكفي فيه فوات ذلك التفخيم.

وأنتَ تعلمُ أنَّ القراءةَ بهما ظاهرةٌ في توافقهما، وعدم ذكر الفاعل والحدوث أمران مشتركان.

وعكسَ بعضهم فقال: المفتوحُ ما كان من خلقه تعالى، إذ المصدر لم يذكر فاعله، والمضموم ما كان بعمل العباد؛ لأنَّه بمعنى مفعول، والمتبادر منه ما فعله العباد. وضعفُه ظاهر.

وانتصاب «بين» على المفعوليَّة؛ لأنَّه مبلوغ، وهو من الظروف المتصرِّفة ما لم يركَّب مع آخر مثله.

وقيل: إنَّه ظرفٌ، والمفعول به محذوفٌ، وهو: ما أراده، أو نحوه.

وهذان السدَّان فيما يقرب من عرض تسعين من جهة الشمال، وهو المراد بآخر الجربياء في كتاب حزقيال عليه السلام. وقد ذكر بعضُ أحبار اليهود أنَّ يأجوجَ ومأجوج في منتهى الشمال، حيث لا يستطيعُ أحدٌ غيرهم السكنى فيه، وهم في زاويةٍ من ذلك، لكنهم لم يتحقَّق عندهم أنَّهم فيما يلي المشرقَ من الشمال أو فيما يلي المغرب منه، وهذا موافقٌ لما ذكرناه في موضع السدَّين، وهو الذي مال إليه كاتب چلبي.

وقيل: هما جبلا أرمينية وأَذْرَبيجان، ونسب ذلك إلى ابن عباس ﵄، وإليه يميلُ صنيعُ البيضاويّ[2].

وتُعقِّبَ بأنَّه توهُّمٌ، ولعلَّ النسبةَ إلى الحبر غيرُ صحيحة، وكأنَّ من يَزعُم ذلك يَزعُم أنَّ سدَّ ذي القرنين هو السدُّ المشهور في باب الأبواب، وهو ـ مع استلزامه

---

(١) في حاشية الخفاجي ٦/ ١٣٤ـ والكلام فيه بنحوه ـ: وتصويره بأنه هاهو ذا يفعل ويشاهد.

(٢) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٦/ ١٣٤.

أنْ يكونَ يأجوجُ ومأجوج الخزر[١] والترك ـ خلافُ ما عليه المؤرِّخون، فإنَّ باني ذلك السدِّ عندهم كسرى أنوشروان، وقيل: إسفنديار، وهو أيضاً لم يبقَ إلى الآن، بل خرب من قبل هذا بكثير، وزَعْمُ أنَّ السدَّ ويأجوج ومأجوج هناك، وأنَّ الكلَّ قد تلطَّف بحيث لا يُرى ـ كما يراه عصريُّنا رئيسُ الطائفة المسماة بالكشفيَّة السيد كاظم الرشتي ـ ضربٌ من الهذيان، وإحدى علامات الخذلان.

وقال ابنُ سعيد[٢]: إنَّ ذلك الموضع حيثُ الطول مئة وثلاثة وستون درجةً، والعرض أربعون درجةً.

وفيه أنَّ في هذا الطول والعرض بلاد الختا والجين، وليس هناك يأجوج ومأجوج، نعم هناك سدٌّ عظيمٌ يقرب من مئتين وخمسين ساعةً طولاً، لكنَّه ليس بين السدَّين، ولا بانيه ذو القرنين، ولا يكاد يَصدُقُ عليه ما جاء في وصف سدِّه. ويمنعُ من القول بذلك أيضاً ما لا يخفى.

وقيل: هو بموضعٍ من الأرض لا نعلمه، وكم فيها من أرضٍ مجهولةٍ، ولعلَّه قد حال بيننا وبين ذلك الموضع مياهٌ عظيمةٌ، ودعوى استقراءِ سائر البراري والبحار غيرُ مسلَّمة، ويجوِّزُ العقل أنْ يكون في البحر أرضٌ نحو أمريقا[٣] لم يُظفَر بها إلى الآن، وعدم الوجدان لا يستلزمُ عدمَ الوجود، وبَعْدَ إخبارِ الصادق بوجود هذين السدَّين وما يتبعهما يلزمُنا الإيمان بذلك، كسائر ما أخبر به من الممكنات، والالتفاتُ إلى كلام المنكرين ناشئٌ من قلَّة الدين.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي السدَّين ﴿قَوْمًا﴾ أمَّةً من الناس، قيل: هم الترك. وزعم بعضُهم أنَّ القومَ كانوا من الجان، وهو زعمٌ باطلٌ، لا بعيدٌ كما قال أبو حيان[٤].

---

(١) في (م): الخزز.

(٢) هو المغربي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، أبو الحسن، نور الدين، من ذرية عمار بن ياسر، مؤرِّخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، من تأليفه: وصف الأرض، وبسط الأرض؛ كلاهما في الجغرافيا. توفي سنة (٦٨٥هـ). بغية الوعاة ٢/٢٠٩، والأعلام ٥/٢٦.

(٣) يعني أمريكا.

(٤) في البحر المحيط ٦/١٦٣.

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾ من أقوال أتباع ذي القرنين، أو من أقوال مَن عَدَاهم؛ لغرابة لغتهم، وبعدها عن لغات غيرهم، وعدم مناسبتها لها، مع قلَّة فطنتهم، إذ لو تقاربت فهموها، ولو كثرت فطنتهم فهموا ما يراد من القول بالقرائن، فتعلَّموه.

والظاهر إبقاء القول على معناه المتبادر، وزعم بعضُهم أنَّ الزمخشريَّ جعله مجازاً عن الفهم مطلقاً، أو عمَّا من شأنه أن يقال؛ ليشمل الإشارة ونحوها، حيث قال: أي: لا يكادون يفهمونه إلَّا بجهدٍ ومشقَّة من إشارةٍ ونحوها[1]. وفيه نظر. والظاهر أنَّه فهمَ من نفي «يكاد» إثباتَ الفهم لهم، لكن بعسرٍ، وهو بناء على قولِ بعضهم: إنَّ نفيها إثباتٌ، وإثباتَها نفيٌ، وليس بالمختار.

وقرأ الأعمشُ وابن أبي ليلى وخلف وابنُ عيسى الأصبهانيُّ وحمزة والكسائيُّ: «يُفقِهونَ»[2] من الإفعال، أي: لا يكادون يُفهِمونَ الناسَ؛ لتلعثمهم وعدم تبيينهم الحروف.

﴿قَالُوا﴾[3] بواسطة مترجمهم، فإسنادُ القول إليهم مجازٌ، ولعلَّ هذا المترجِم كان من قومٍ بقرب بلادهم، ويؤيِّدُ ذلك ما وقع في مصحف ابنِ مسعود: «قال الذين من دونهم»[4].

أو بالذات على أنْ يكون فهمُ ذي القرنين كلامَهم وإفهامه إيَّاهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب.

وقال بعضهم: لا يبعدُ أن يقال: القائلون قومٌ غيرُ الذين لا يفهمون قولاً، ولم يقولوا ذلك على طريق الترجمة لهم، وأيِّد بما في مصحف ابن مسعود، وأياً ما كان، فلا منافاة بين «لا يكادون يفقهون قولاً» و«قالوا».

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٨.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٣، وانظر قراءة حمزة والكسائي وخلف في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٣) بعدها في (م): أي. وضرب عليها في الأصل.

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٣٥.

﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وبه جزم وهب بن منبِّه وغيره، واعتمده كثيرٌ من المتأخِّرين.

وقال الكسائيُّ في «العرائس»[١]: إنَّ يافث سار إلى المشرق، فولد له هناك خمسةُ أولادٍ: جومر وبنرش وأشار وأسقويل ومياشح، فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح جميعُ أصناف العجم، ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم، ومن أسقويل جميع الترك، ومن بنرش القفجق واليونان.

وقيل: كلاهما من الترك، وروي ذلك عن الضحاك.

وفي كلام بعضهم أنَّ الترك منهم؛ لما أخرجه ابنُ جرير وابن مردويه من طريق السُّدِّيِّ من أثرٍ قويٍّ: الترك سريَّةٌ من سرايا يأجوج ومأجوج، خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد، فبقوا خارجين عنه[٢].

وفي رواية عبد الرزاق عن قتادة أنَّ يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلةً، بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وكانت واحدةٌ منهم خارجةً للغزو، فبقت خارجة، وسميت الترك لذلك[٣].

وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الديلم. وقيل: من الجيل.

وعن كعب الأحبار أنَّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم عليه السلام من غير حواء، وذلك أنَّه عليه السلام نام فاحتلم، فامتزجت نطفتُه في التراب، فخلق منها يأجوج ومأجوج.

ونقل النوويُّ في «فتاواه» القولَ بأنَّهم أولادُ آدم عليه السلام من غير حواء عن

---

(١) كذا قال المصنف، وكتاب العرائس ـ وهو قصص الأنبياء المسمى «عرائس المجالس» ـ هو لأبي إسحاق الثعلبي، وللكسائي هذا وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله كتاب اسمه قصص الأنبياء أيضاً. ينظر الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص ١٦٠، وتفسير القرطبي ٨/ ٤٣٧.

(٢) لم أقف على من نسبه لابن جرير، ونسبه السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٥٦، وابن حجر في فتح الباري ١٣/ ١٠٧، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨ لابن مردويه فقط.

(٣) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٥٦، وابن حجر في فتح الباري ١٣/ ١٠٧، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٠، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨-٣٩ لابن أبي حاتم. ولم أقف على من نسبه لعبد الرزاق.

جماهير العلماء، وتَعقَّب دعوى الاحتلام بأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يحتلمون.

وأُجيبَ بأنَّ المنفيَّ الاحتلامُ بمن لا تحلُّ لهم، فيجوزُ أن يحتلموا بنسائهم، فلعلَّ احتلامَ آدم عليه السلام من القسم الجائز. ويحتمل أيضاً أنْ يكون منه عليه السلام إنزالٌ من غير أنْ يرى نفسَه أنَّه يجامعُ، كما يقع كثيراً لأبنائه.

واعتُرِضَ أيضاً بأنَّه يلزمُ على هذا أنَّهم كانوا قبل الطوفان ولم يهلكوا به.

وأجيبَ بأنَّ عموم الطوفان غيرُ مجمعٍ عليه، فلعلَّ القائل بذلك ممَّن لا يقول بعمومه.

وأنا أرى هذا القول حديثَ خرافة.

وقال الحافظ ابنُ حجر: لم يَرِد ذلك عن أحدٍ من السلف إلَّا عن كعب الأحبار، ويردُّه الحديثُ المرفوع أنَّهم من ذرِّيَّة نوح عليه السلام، ونوح من ذرِّيَّة حواء قطعاً[1].

وكأنه عَنَى بالحديث غيرَ ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العربُ وفارس والروم، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة»، فإنَّه صرَّح بأنَّه ضعيفٌ[2].

وفي التوراة في السفر الأول في الفصل العاشر التصريحُ بأنَّ يأجوج من أبناء يافث[3]. وزعم بعضُ اليهود أنَّ مأجوجَ اسمٌ للأرض التي كان يسكنُها يأجوج، وليس اسماً لقبيلة، وهو باطلٌ بالنصِّ.

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٠٧. وقال ابن حجر في موضع آخر من الفتح ٦/ ٣٨٦: وهو قول منكر جدًّا، لا أصل له إلا عن بعض أهل الكتاب.

(٢) في الفتح ١٣/ ١٠٧، وأخرجه البزار (٢١٨ - كشف الأستار)، وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد. اهـ.
وأخرجه أحمد في العلل ٣/ ٣٥، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٢-٤٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.
وسيذكر المصنف نحو هذا الخبر، عند تفسير الآية (٧٧) من سورة الصافات، ويقول بعده: ولا أعرف حال الخبر!؟

(٣) العهد القديم، سفر التكوين ص٨٣.

والظاهر أنَّهما اسمان أعجميَّان، فمنع صرفهما للعَلَمية والعجمة. وقيل: عربيان، من أجَّ الظليمُ إذا أسرع، وأصلهما الهمزة، كما قرأ عاصم والأعمش ويعقوب في رواية(١)، وهي لغة بني أسد، ووزنهما مفعول، وبناء مفعول من ذلك مع أنَّه لازمٌ؛ لتعدِّيه بحرف الجر.

وقيل: إنْ كان ما ذُكر منقولاً فللتعدِّي، وإنْ كان مرتجلاً فظاهر.

وقال الأخفش: إنْ جعلنا ألفهما أصليَّة، فيأجوج يفعول، ومأجوج مفعول، كأنَّه من أجيج النار، ومن لم يهمزهما جعلها زائدةً، فياجوج من يججت، وماجوج من مججت(٢).

وقال قطرب في غير الهمز: ماجوج فاعول من المجِّ، وياجوج فاعول من اليج.

وقال أبو الحسن علي بن عبد الصمد السخاويُّ(٣): الظاهرُ أنَّه عربيٌّ، وأصله الهمز، وتركه على التخفيف، وهو إمَّا من الأجَّة وهو الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ [الكهف: ٩٩]، أو من الأجِّ، وهو سرعة العَدْو، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أو من الأَجَّة، وهي شدَّة الحرِّ، أو من أجَّ الماء يؤجُّ أجوجاً إذا كان مِلْحاً مرّاً. انتهى.

وعلَّة منع الصرف على القول بعربيتهما العلميَّة والتأنيثُ باعتبار القبيلة.

وقرأ العجاج ورؤبة ابنه: «آجوج» بهمزة بدل الياء(٤).

وربما يقال: جوج، بلا همزة ولا ياء في غير القرآن، وجاء بهذا اللفظ في كتاب حزقيال عليه السلام(٥).

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٣، وانظر قراءة عاصم في التيسير ص١٤٥-١٤٦، والنشر ١/ ٣٩٤-٣٩٥.
(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٢١.
(٣) هو العلامة شيخ القراء، علم الدين، له شرح الشاطبية، وجمال القراء، وغيرها، توفي سنة (٦٤٣ هـ). سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٢٢-١٢٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٣.
(٥) العهد القديم، سفر حزقيال ص١٨٣٢.

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب، وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر.

وقيل: بأخذ الأقوات وأكلها، روي أنَّهم كانوا يخرجونَ أيام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضر إلَّا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن حبيب الأوصافيّ(١) أنَّه قال: كان فسادهم أنَّهم يأكلون الناس.

واستُدِلَّ بإسناد «مفسدون» إلى «يأجوج ومأجوج» على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان، وليس بشيءٍ أصلاً.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: جعلاً من أموالنا، والفاء لتفريع العرض على إفسادهم في الأرض.

وقرأ الحسن والأعمش وطلحة وخلف وابنُ سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابنُ جبير الأنطاكيُّ وحمزة والكسائيُّ: «خراجاً» بألف بعد الراء(٢)، وكلاهما بمعنى واحد، كالنول والنوال.

وقيل: الخرج المصدر أطلق على الخراج، والخراجُ الاسم لما يخرج.

وقال ابن الأعرابيّ: الخرجُ على رؤوس، يقال: أدِّ خراج رأسك، والخراج على الأرض، يقال(٣): أدِّ خراج أرضك.

وقال ثعلب: الخرج أخصُّ من الخراج.

وقيل: الخرج المال يُخْرَجُ مَرَّةً، والخراج الخرج المتكرِّر.

وقيل: الخرج ما تبرَّعْتَ به، والخراج ما لزمك أداؤه.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا. وقرأ نافع

---

(١) في الدر المنثور ٤/ ٢٥١: الأرجاني.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٤. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥، وقراءة خلف من العشرة في النشر.
(٣) من قوله: أدِّ خراج.. إلى هنا ساقط من (م).

وابن عامر وأبو بكر: «سُدًّا» بضم السين(١).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقرأ ابنُ كثير وحميد بالفكِّ(٢)، أي: الذي مكنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾، وجعلني فيه سبحانه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممَّا تريدون أنْ تبذُلوه إليَّ من الخرج، فلا حاجةَ بي إليه.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بما يُتقوَّى به على المقصود من الآلات، كزُبَر الحديد، أو من الناس، أو(٣) الأعمِّ منهما.

والفاءُ لتفريع الأمر بالإعانة على خيريَّة ما مكَّنهُ الله تعالى فيه من مالِهم، أو على عدم قبول خرجهم.

﴿أَجْعَلْ﴾ جواب الأمر ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ تقديمُ إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج؛ لإظهار كمال العناية بمصالحهم، كما راعوه في قولهم: «بيننا وبينهم».

﴿رَدْمًا ۝٩٥﴾ أي: حاجزاً حصيناً، وحجاباً متيناً، وهو أكبر من السدِّ وأوثق، يقال: ثوبٌ مُرَدَّمٌ، أي: فيه رقاعٌ فوق رقاع، ويقال: سحابٌ مُرَدَّمٌ، أي: متكاثفٌ بعضُه فوق بعض.

وذُكر أنَّ أصلَ معناه: سدُّ الثُّلمة بالحجارة ونحوها، وقيل: سدُّ الخلل مطلقاً، ومنه قول عنترة:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ(٤)

ثمَّ أُطلِق على ما ذكر.

وقيل: هو والسدُّ بمعنى.

---

(١) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٤، وقراءة ابن كثير في التيسير ص١٤٦، والنشر ١/ ٣٠٣ و٢/ ٣١٥.
(٣) بعدها في الأصل: من.
(٤) هو صدر البيت الأول من معلقة عنترة، وعجزه:
أم هل عرفت الدار بعد توهُّم
انظر ديوان عنترة ص١٨٢. طبعة المكتب الإسلامي.

ويؤيِّدُ الأولَ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: هو كأشدِّ الحجاب[1]، وعليه يكون قد وعدَهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه، وهو اللائق بشأن الملوك.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ﴾ جمع زُبرة، كغُرَف في غرفة، وهي القطعة العظيمة، وأصل الزبر الاجتماع، ومنه زَبرتُ الكتابَ: جمعت حروفه، وزُبرة الأسد لما اجتمعَ على كاهله من الشَّعر. وأخرج الطستيُّ عن ابن عباس أنَّ نافع بنَ الأزرق سأله عن «زبر الحديد» فقال: قطعه، وأنشدَ قول كعب بن مالك:

تلظَّى عليهم حين شدَّ حميُّها ... بزبر الحديد والحجارة شاجرُ[2]

وطَلَبُ إيتاءِ الزبر لا ينافي أنَّه لم يَقبل منهم شيئاً؛ لأنَّ المراد من الإيتاء المأمور به الإيتاءُ بالثمن، أو مجرد المناولة والإيصال، وإن كان ما آتوه له، لا إعطاء ما هو لهم، فهو معونةٌ مطلوبة، وعلى تسليم كون الإيتاء بمعنى الإعطاء لا المناولة يقال: إنَّ إعطاءَ الآلة للعمل لا يلزمه تملُّكها، ولو تملَّكها لا يعدُّ ذلك جُعلاً، فإنَّه إعطاءُ المال لا إعطاء مثل هذا، وينبئ عن أنَّ المرادَ ليس الإعطاءَ قراءةُ أبي بكر عن عاصم: «ردماً ائتوني» بكسر التنوين ووصل الهمزة[3]، من أتاه بكذا: إذا جاء به له، وعلى هذه القراءة نصب «زبراً» بنزع الخافض، أي: جيئوني بزبر الحديد.

وتخصيص زبرِ الحديد بالذكر دون الصخور والحطب ونحوهما؛ لما أنَّ الحاجة إليها أمسُّ، إذ هي الركن القويُّ في السدِّ، ووجودُها أعزُّ.

وقرأ الحسن: «زُبُر» بضمِّ الباء كالزاي[4].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فآتوه إيَّاها، فأخذَ يبني شيئاً

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥١. والبيت في ديوان كعب ص١٦٧ بلفظ:

تلظى عليهم وهي قد شب حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر

(٣) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٨٦، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين جانبَي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلوِّ، فـ «بين» مفعولُ «ساوى»، وفاعله ضميرُ ذي القرنين.

وقيل: الفاعل ضميرُ السدِّ المفهومُ من الكلام، أي: فآتوه إيَّاها، فأخذَ يسدُّ بها حتى إذا ساوى السدُّ الفضاءَ الذي بين الصدفين، ويفهم من ذلك مساواةُ السدِّ في العلوِّ للجبلين.

والصدفُ كما أشرنا إليه جانبُ الجبل، وأصله على ما قيل: الميل، ونقل في «الكشف» أنَّه لا يقال للمنفرد صدف، حتى يصادفَه الآخر، ثم قال: فهو من الأسماء المتضايفة، كالزوج وأمثاله.

وقال أبو عبيدة: هو كلُّ بناءٍ عظيمٍ مرتفع. ولا يخفى أنَّه ليس بالمراد هنا.

وزعم بعضهم أنَّ المرادَ به هنا الجبل، وهو خلاف ما عليه الجمهور.

وقرأ قتادةُ: «سَوَّى» من التسوية[(١)].

وقرأ ابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم: «سُووِيَ» بالبناء للمجهول[(٢)].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر والزهريُّ ومجاهد والحسن: «الصُّدُفين» بضمِّ الصاد والدال[(٣)]، وهي لغة حِمير، كما أنَّ فتحهما في قراءة الأكثرين لغةُ تميم[(٤)].

وقرأ أبو بكر وابن محيصن وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن: «الصُّدْفين» بضمٍّ فسكون[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦٤، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦. وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٤) هي قراءة نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبي جعفر وخلف. انظر التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٦٤. وقراءة أبي بكر ـ راوية عاصم ـ في التيسيرص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.

وقرأ ابنُ جندب بفتح فسكون، وروي ذلك عن قتادة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قرأ بضمٍّ ففتح، وهي قراءةُ أبان عن عاصم، وقرأ الماجشون بفتحٍ فضم[١].

﴿قَالَ﴾ للعَمَلَة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ أي: بالكيران في زبر الحديد الموضوعة بين الصدَفين، ففعلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: جعل المنفوخَ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة، فهو من التشبيه البليغ، وإسنادُ الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنَّه فِعْلُ الفَعَلة؛ للتنبيه على أنَّه العمدةُ في ذلك، وهم بمنزلة الآلة.

﴿قَالَ﴾ للذين يتولَّون أمرَ النحاس من الإذابة وغيرها. وقيل: لأولئك النافخين، قال لهم بعد أن نفخوا في ذلك حتى صار كالنار، وتمَّ ما أراده منهم أوّلاً: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ من الذين يتولَّون أمرَ النحاس ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ۝٩٦﴾ أي: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسَّك البصريُّون على أنَّ إعمال الثاني في باب التنازع أولى، إذ لو كان «قطراً» مفعول «آتوني» لأضمر مفعول «أفرغ»، وحذفُه وإن جاز لكونه فَضْلةً إلَّا أنَّه يوقعُ في لبس.

والقطر كما أشرنا إليه النُّحاسُ المذاب، وهو قول الأكثرين. وقيل: الرصاص المذاب. وقيل: الحديدُ المذاب. وليس بذاك.

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة وأبو بكر بخلافٍ عنه: «ائتوني» بهمزة الوصل[٢]، أي: جيئوني، كأنَّه يستدعيهم للإعانة[٣] باليد عند الإفراغ، وإسناد الإفراغ إلى نفسه للسرِّ الذي وقفت عليه آنفاً، وكذا الكلام في قوله: «أجعل»، وقوله: «ساوى» على أحد القولين.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين في المخرج، وهما الطاء والتاء.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٤-١٦٥. وانظر المحتسب ٢/ ٣٤، والقرطبي ١٣/ ٣٨٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٥، وقراءة حمزة وأبي بكر راوية عاصم في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.
(٣) في (م): للإغاثة.

وقرأ حمزة وطلحة بإدغام التاء في الطاء[1]، وفيه جمعٌ بين الساكنين على غير حده، ولم يجوِّزهُ أبو عليّ[2]، وجوَّزه جماعة.

وقرأ الأعشى عن أبي بكر: «فما اصطاعوا» بقلب السين صاداً لمجاورة الطاء[3].

وقرأ الأعمش: «فما استطاعوا» بالتاء من غير حذف[4].

والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أُمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان، فأفرغَ عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلداً، فجاء يأجوجُ ومأجوج، وقصدُوا أنْ يعلوه وينقبوه، فما اسطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾[5] أي: يعلوه ويرقوا فيه؛ لارتفاعه وملاسته، قيل: كان ارتفاعُه مئتي ذراع، وقيل: ألف وثمان مئة ذراع.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾ لصلابته وثخانته. قيل: وكان عرضه خمسين ذراعاً، وكان أساسه قد بلغ الماء، وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب، وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض، ولا يخفى أنَّ إفراغ القطر عليها بعد أن أثَّرت فيها حرارةُ النار حتى صارت كالنار، مع ما ذكروا من أنَّ امتدادَ السدِّ في الأرض مئة فرسخ = لا يتمُّ إلَّا بأمرٍ إلهيٍّ خارج عن العادة، كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال، وإلَّا فمثلُ تلك الحرارة عادةً ممَّا لا يقدرُ حيوانٌ على أن يحومَ حولها، ومثل ذلك النفخُ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون ناراً.

ويجوزُ أنْ يكون كلٌّ من الأمرين بواسطة آلاتٍ غريبةٍ، أو أعمالٍ أُوتيها هو أو أحدٌ ممَّن معه، لا يكاد أحدٌ يعرفها اليوم، وللحكماء المتقدِّمين ـ بل والمتأخرين ـ أعمالٌ عجيبةٌ يتوصَّلون إليها بآلاتٍ غريبةٍ تكادُ تخرجُ عن طور العقل، وهذا ممَّا لا شُبهة فيه، فليكن ما وقعَ لذي القرنين من ذلك القبيل.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٥، وقراءة حمزة في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.
(٢) في الحجة ٥/ ١٧٨.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦٥.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٨٩، والبحر المحيط ٦/ ١٦٥.
(٥) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: أي: يظهروا عليه، فحذف، وأوصل الفعل. اهـ منه.

وقيل: كان بناؤه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذابٍ في تجاويفها، بحيث لم يبق هناك فرجةٌ[1] أصلاً.

وأخرج ابنُ جرير وابن مردويه عن أبي بكرة الثقفي[2] أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لي»، قال: كالبُرْد المحبَّر، طريقةٌ سوداء، وطريقةٌ حمراء. قال: «قد رأيتَه»[3].

والظاهر أنَّ الرؤيةَ بصريَّةٌ لا مناميَّة، وهو أمرٌ غريبٌ إنْ صحَّ الخبر.

وأمَّا ما ذكره بعضُهم من أنَّ الواثق بالله العباسي أرسلَ سلاماً الترجمان للكشف عن هذا السدِّ، فذهبَ جهة الشمال في قصَّة تطول، حتى رآه ثم عاد، وذكر له من أمره ما ذكر؛ فثقاتُ المؤرِّخين على تضعيفه، وعندي أنَّه كذبٌ؛ لما فيه ممَّا تأبى عنه الآية، كما لا يخفى على الواقف عليه تفصيلاً.

ولا يخفى لطفُ الإتيان بالتاء في «استطاعوا» هنا.

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدِّ. وقيل: إلى تمكُّنه من بنائه، والفضل للمتقدِّم ليتَّحد مرجع الضمير المتأخِّر، أي: هذا الذي ظهر على يدي، وحصل بمباشرتي من السدِّ الذي شأنُه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: أَثَرُ رحمةٍ عظيمةٍ، وعبَّر عنه بها

---

(١) في (م): فجوة.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: الشفي، وفي مطبوع الدر المنثور ٤/ ٢٥٠- وعنه نقل المصنف - إلى: النسفي.

(٣) لم أقف عليه في تفسير الطبري عن أبي بكرة الثقفي، بل أخرجه عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله...، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨) من طريق قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي أن رجلاً أتى النبي ﷺ... فذكر نحوه.
وأخرجه الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ١٢ عن قتادة عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبي ﷺ... فذكر نحوه ثم قال: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح؛ لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور؛ لأنهم كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه عن قتادة...
ثم بين الحافظ ابن حجر الخلاف عن قتادة، ذاكراً طرق الحديث، ومبيناً ما فيها، فانظره ثمة إن شئت.

للمبالغة ﴿مِن رَّبِّي﴾ على كافَّة العباد، لا سيما على مجاوريه.

وكون السد رحمةً على العباد ظاهرٌ، وإذا جعلتَ الإشارةَ إلى التمكُّن، فكونه رحمةً عليهم باعتبار أنَّه سببٌ لذلك، وربما يرجَّح المتقدِّم أيضاً باحتياج المتأخِّر إلى هذا التأويل، وإنْ كان الأمرُ فيه سهلاً.

وفي الإخبار عنه بما ذُكر إيذانٌ ـ على ما قيل ـ بأنَّه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ محضٌ، وإن ظهر بالمباشرة.

وفي التعرُّض لوصف الربوبيَّة تربيةُ معنى الرحمة.

وقرأ ابن أبي عبلة: «هذه رحمة»[1] بتأنيث اسم الإشارة، وخُرِّجَ على أنَّه رعاية للخبر، أو جعل المشار إليه القدرة والقوة على ذلك.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: وقت وعده تعالى، فالكلام على حذف مضاف، أو الإسنادُ[2] إلى الوعد مجاز، وهو لوقته حقيقة. ويجوزُ أن يكون الوعدُ بمعنى الموعود، وهو وقته أو وقوعه، فلا حذف ولا مجاز في الإسناد، بل هناك مجازٌ في الطرف.

والمراد من وقت ذلك يوم القيامة. وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج. وتُعقِّب بأنَّه لا يساعده النظم الكريم.

والمراد بمجيئه ما ينتظمُ مجيئَه ومجيء مباديه، من خروجهم، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قال الزمخشريُّ[3] وغيره، فإنَّ بعضَ الأمور التي ستُحكى تقعُ بعد مجيئه حتماً.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته ﴿دَكَّآءَ﴾ بألف التأنيث الممدودة، والموصوفُ مؤنَّثٌ مقدَّر، أي: أرضاً مستوية. وقال بعضهم: الكلامُ على تقدير مضاف، أي: مثل دكاء. وهي ناقةٌ لا سنامَ لها، ولا بد من التقدير؛ لأنَّ السدَّ مذكَّرٌ لا يوصف بمؤنَّث.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٠، والبحر المحيط ٦/ ١٦٥.
(٢) في (م): والإسناد.
(٣) في الكشاف ٢/ ٤٩٩.

وقرأ غير الكوفيين: «دكّاً»[1] على أنَّه مصدر دكَكْتُه، وهو بمعنى المفعول، أي: مدكوكاً مسوًّى بالأرض، أو على ظاهره والوصف به للمبالغة، والنصب على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، وهي بمعنى صيَّر.

وزعم ابنُ عطية أنها بمعنى خلق[2]. وليس بشيء.

وهذا الجعلُ وقتَ مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيانٌ لعظم قدرته تعالى شأنه بعد بيان سعة رحمته عزَّ وجل.

وكأنَّ علمه بهذا الجعل ـ على ما قيل ـ من توابع علمه بمجيء الساعة، إذ من مباديها دكُّ الجبال الشامخة الراسخة ضرورةَ أنَّه لا يتمُّ بدونها، واستفادتُه العلمَ بمجيئها ممَّن كان في عصره من الأنبياء عليهم السلام، ويجوزُ أنْ يكون العلم بجميع ذلك بالسماع من النبيِّ، وكذا العلمُ بمجيء وقت خروجهم، على تقديرِ أن يكون ذلك مراداً من الوعد، يجوز أن يكون عن اجتهاد، ويجوز أنْ يكون عن سماع.

وفي كتاب حزقيال عليه السلام الإخبارُ بمجيئهم في آخر الزمان من آخر الجربياء في أممٍ كثيرةٍ لا يحصيهم إلَّا الله تعالى، وإفسادهم في الأرض، وقصدهم بيت المقدس، وهلاكهم عن آخرهم في بريته بأنواعِ من العذاب، وهو عليه السلام قبل إسكندر غالب دارا، فإذا كان هو ذا القرنين، فيمكنُ أن يكون وقفَ على ذلك فأفاده علماً بما ذكر. والله تعالى أعلم.

ثمَّ إنَّ في الكلام حذفاً، أي: وهو يستمرُّ إلى آخر الزمان، فإذا جاء وعدُ ربِّي جعله دكاء.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: وعده سبحانه المعهود، أو كلُّ ما وعدَ عزَّ وجلَّ به، فيدخلُ فيه ذلك دخولاً أوَّليًّا.

﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة، وهذه الجملة تذييلٌ من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية، وتأكيدٌ لمضمونها، وهو آخر ما حكي من قصَّته.

---

(١) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٢٧١.

(٢) المحرر الوجيز ٦/ ٥٤٤.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جنابه سبحانه وتعالى، وضمير الجمع المجرور عند بعض المحققين للخلائق، والتركُ بمعنى الجعل، وهو من الأضداد، والعطفُ على قوله تعالى: (جَعَلَهُ دَكَّآءَ)، وفيه تحقيقٌ لمضمونه، ولا يضرُّ ذلك كونُه محكيّاً عن ذي القرنين، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعدُ بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم. والموجُ مجازٌ عن الاضطراب، أي: يضطربون اضطرابَ البحر، يختلطُ إنسهم وجنُّهم من شدَّة الهول، وروي هذا عن ابن عباس، ولعلَّ ذلك لعظائم تقعُ قبل النفخة الأولى.

وقيل: الضمير للناس، والمراد: وجعلنا بعضَ الناس يوم إذ جاء الوعدُ بخروج يأجوج ومأجوج يموجُ في بعضٍ آخر؛ لفزعهم منهم وفرارهم. وفيه بعد.

وقيل: الضميرُ للناس أيضاً، والمراد: وجعلنا بعض النَّاس يوم إذ تمَّ السدُّ يموجُ في بعضهم؛ للنظر إليه والتعجُّب[1] منه. ولا يخفى أنَّ هذا يُتعجَّب منه.

وقال أبو حيَّان: الأظهر كونُ الضمير ليأجوج ومأجوج[2]، أي: وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموجُ في بعض آخر منهم حين يخرجون من السدِّ مزدحمين في البلاد، وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام، ففي «صحيح مسلم» من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجَّال وهلاكه بباب لُدٍّ على يده عليه السلام: «ثمَّ يأتي عيسى عليه السلام قوماً[3] قد عصمهم الله تعالى من الدجَّال، فيمسحُ [عن] وجوههم، ويحدِّثُهم بدرجاتهم في الجنَّة، فبينما هو[4] كذلك، إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إنِّي قد أخرجتُ عباداً لي لا يدانِ لأحدٍ بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور[5]، ويبعث الله تعالى يأجوجَ ومأجوج، فيخرجون على الناس فينشفون الماء، ويتحصَّن الناسُ منهم في حصونهم، ويضمُّون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض، حتى إنَّ بعضَهم ليمرُّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه

(١) في (م): والتعجيب.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٥.

(٣) في صحيح مسلم: «قومٌ».

(٤) في الأصل و(م): هم. والمثبت من صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧): (١١٠)، وما سلف بين حاصرتين منه.

يبساً، حتى إنَّ مَنْ يمرُّ من بعدهم ليمرُّ بذلك النهر، فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرَّةً[١]، ويُحصَر عيسى نبيُّ الله وأصحابُه، حتى يكون رأسُ الثور ورأسُ الحمار لأحدهم خيراً من مئة دينار»[٢].

وفي رواية مسلم وغيره: «فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلمَّ نقتل من في السماء، فيرمونَ نشابهم إلى السماء، فيردُّها الله تعالى عليهم مخضوبةً دماً»[٣] للبلاء والفتنة، «فيرغبُ نبيُّ الله وأصحابه إلى الله تعالى، فيرسل عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فَرْسى»[٤]. وفي رواية: «دُوداً[٥] كالنَّغَفِ في أعناقهم فيصبحونَ موتى، كموت نفسٍ واحدة، لا يسمع لهم حسٌّ، فيقول المسلمون: ألَا رجلٌ يشري لنا نفسه، فينظر ما فعلَ هذا العدوُّ، فيتجرَّد رجلٌ منهم محتسباً نفسه، قد وطَّنها على أنَّه مقتولٌ، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشرَ المسلمين، ألا أبشروا، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد كفاكم عدوَّكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، فيسرِّحون مواشيهم، فما يكون لها مرعى إلَّا لحومُهم، فتشكر أحسنَ ما شكرت عن شيء».

«ويهبط نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدونَ فيها موضع شبرٍ إلَّا ملأه زهمهم ونتنهم»[٦] «فيستغيثون بالله تعالى فيبعثُ الله سبحانه ريحاً يمانيةً غبراء، فتصيرُ على الناس غمّاً ودخاناً، ويقع عليهم الزكمةُ، ويكشف

---

(١) من قوله: «ويبعث الله تعالى يأجوج. . . إلى هنا ليس في صحيح مسلم، بل أخرجه ابن ماجه (٤٠٧٩)، وأحمد (١١٧٣١)، والطبري ١٥/ ٣٩٩-٤٠٠، وابن حبان (٦٨٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. ثم عاد إلى رواية النواس.

(٢) من قوله: «ويحصر عيسى. . . إلى هنا» تتمة حديث النواس، وقوله: «ورأس الحمار» ليس في صحيح مسلم ولم أقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٧): (١١١).

(٤) من قوله: «فيرغب نبي الله» إلى هنا عاد إلى رواية النواس.

(٥) في (م): داود. وهو تحريف. وهذه الرواية من بقية حديث أبي سعيد الخدري السالف بعضه قريباً. ووقع في سنن ابن ماجه: دواب. بدل: دوداً.

(٦) من قوله: «ويهبط نبي الله عيسى. . .» إلى هنا في صحيح مسلم من تتمة حديث النواس بن سمعان السالف بعضه قريباً.

ما بهم بعد ثلاثة أيام، وقد قذفت الأرضُ جيفَهم في البحر»[١] وفي رواية: «فيرغب نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عزَّ وجلَّ فيرسل طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى»[٢] وفي رواية: «فترميهم في البحر» وفي أخرى: «في النار» ولا منافاةَ كما يظهر بأدنى تأمُّل.

ثمَّ يرسلُ الله عزَّ وجلَّ مطراً لا يُكِنُّ منه بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزلقة[٣]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذٍ تأكلُ العصابةُ من الرمانة، ويستظلُّون بقِحْفِها، ويبارك في الرِّسْلِ، حتى إنَّ اللّقحةَ من الإبل لتكفي الفئام[٤] من الناس»[٥].

و«يوقد المسلمون من قسيِّ يأجوجَ ومأجوجَ ونشابهم وأترستهم سبع سنين»[٦].

ولعلَّ الله تعالى يحفظُ ذلك في الأودية ومواضع السيول زيادةً في سرور المسلمين، أو يحفظُها حيث هلكوا، ، ولا يلقيها معهم حيث شاء، ولا يُعجِز اللهَ تعالى شيءٌ.

والحديث يدلُّ على كثرتهم جدّاً، ويؤيِّدُ ذلك ما أخرجه ابنُ حبَّان في «صحيحه» عن ابن مسعود مرفوعاً: «إنَّ يأجوجَ ومأجوج أقلُّ ما يتركُ أحدهم من صلبه ألفاً من الذريَّة»[٧]. وحملَه بعضُهم على طول العمر.

---

(١) أخرجها نعيم بن حماد كما ذكر ابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم» ١/ ١٣٣ ضمن حديث طويل تحت عنوان: خبر عجيب ونبأ غريب. ثم قال في آخره: قال شيخنا الذهبي: وهذا الحديث شبه موضوع. .

(٢) هي قطعة من حديث النواس بن سمعان عند مسلم.

(٣) في صحيح مسلم: كالزلفة. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/ ٦٩: روي بفتح الزاي واللام والقاف، وروي: «الزُّلْفَة» بضم الزاي وإسكان اللام وبالفاء، وروي: «الزَّلَفة» بفتح الزاي واللام وبالفاء. وقال القاضي: روي بالفاء والقاف وبفتح اللام وبإسكانها. وكلها صحيحة.

(٤) جاء فوق هذه الكلمة في الأصل ما نصه: بالفاء: الجماعة. اهـ منه.

(٥) قطعة من حديث النواس السالف.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٠٧٦) من حديث النواس بلفظ: «سيوقد المسلمون. . .».

(٧) صحيح ابن حبان (٦٨٢٨).

وفي «البحر» أنَّه قد اختُلِفَ في عددهم وصفاتهم، ولم يصحَّ في ذلك شيء[١].

وأعجبُ ما روي في ذلك قولُ مكحول: الأرضُ مسيرةُ مئة عام؛ ثمانون منها يأجوج ومأجوج، وهي أمَّتان، كلُّ أمَّةٍ أربعمئة ألف أمَّة، لا تشبهُ أمَّةٌ الأخرى. وهو قولٌ باطل. ومثله ما روي عن أبي الشيخ عن أبي أمامة: الدنيا سبعةُ أقاليم، فليأجوج ومأجوج ستَّة، وللباقي إقليمٌ واحدٌ[٢]. وهو كلامُ من لا يعرفُ الأرض ولا الأقاليم.

نعم أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكاليّ، عن ابن عمر[٣]: أنَّ الله تعالى جَزَّأ الإنس عشرةَ أجزاء؛ فتسعةٌ منهم يأجوج ومأجوج، وجزءٌ سائرُ الناس[٤]. إلَّا أنِّي لم أقف على تصحيحه لغيرِ الحاكم، وحُكم تصحيحه مشهورٌ.

ويعلم ممَّا تقدَّم وممَّا سيأتي إنْ شاءَ الله تعالى بطلانُ ما يزعمه بعض الناس من أنَّهم التاتار الذين أكثروا الفسادَ في البلاد وقتَّلوا الأخيار والأشرار، ولعمري إنَّ ذلك الزعم من الضلالة بمكان، وإنْ كان بين يأجوج ومأجوج وأولئك الكفرة مشابهةٌ قويةٌ[٥] لا تخفى على الواقفين على أخبار ما يكون وما كان[٦].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الظاهر أنَّ المرادَ النفخةُ الثانية؛ لأنَّه المناسبُ لما بعد. ولعلَّ عدمَ التعرُّض لذكر النفخة الأولى؛ لأنَّها داهيةٌ عامَّةٌ، ليس فيها حالةٌ مختصَّةٌ بالكفَّار. وقيل: لئلَّا يقعَ الفصلُ بين ما يقعُ في النشأة الأولى من الأحوال والأهوال، وبين ما يقعُ منها في النشأة الآخرة.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥٠، وهو في العظمة (٩٤٤). وفيهما: عن عبدة بن أبي لبابة، بدل: عن أبي أمامة.

(٣) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٢٤٩. والصواب عبد الله بن عمرو كما في المصادر على ما يأتي التخريج الآتي ذكرها.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٨، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٤٥، والمستدرك ٤/ ٤٩٠ وهو عند عبد الرزاق عن البكالي قوله.

(٥) في (م): تامة.

(٦) بعدها في (م): إبطال ما يزعمه بعض الناس من أنهم التتار. وليست في الأصل.

والصُّورُ قرنٌ، جاء في الآثار من وصفه ما يُدهش العقول. وقد صحَّ عن أبي سعيد الخدريِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنْعَم وقد التقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنا جبينه، وأصغى سمعَه، ينتظر أنْ يؤمرَ فينفخ»[(١)].

وزعمَ أبو عبيدة أنَّه جمع صورة[(٢)]، وأُيِّد بقراءة الحسن: «الصُّوَر» بفتح الواو[(٣)]، فيكون كسُورةٍ وسُوَر.

ورَدُّ ذلك أظهرُ من أن يخفى، ولذلك قال أبو الهيثم على ما نقل عنه الإمام القرطبيُّ[(٤)]: من أنكرَ أنْ يكون الصورُ قرناً فهو كمن أنكر العرشَ والصراطَ والميزان، وطلب لها تأويلات. وذكر[(٥)] أنَّ الأمَمَ مجمعةٌ على أنَّ النافخَ فيه إسرافيل عليه السلام.

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي: الخلائق بعدما تفرَّقت أوصالُهم وتمزَّقت أجسادُهم، في صعيدٍ واحدٍ للحساب والجزاء ﴿جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: جمعاً عجيباً لا يُكتنَه كنهُه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائقَ كافَّةً ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ منهم حيثُ جعلناها بحيثُ يرونَها ويسمعونَ لها تغيُّظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادر قَدْرُه.

وتخصيصُ العرض بهم مع أنَّها بمرأًى من أهل الجمع قاطبةً؛ لأنَّ ذلك لأجلهم خاصَّةً.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ كثيفٍ وغِشاوةٍ غليظةٍ محاطةٍ بذلك من جميع الجوانب ﴿عَن ذِكْرِي﴾ عن الآياتِ المؤدِّية لأولي الأبصار المتدبِّرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيد. فالذكر مجازٌ عن الآيات المذكورةِ، من باب

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).
(٢) مجاز القرآن ١/ ١٩٦، ٤١٦، ٢/ ١٦٢.
(٣) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٠٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ١٦١ كلاهما عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.
(٤) تفسيره ١٣/ ٤٣٠.
(٥) أي: القرطبي.

إطلاق المسبَّب وإرادة السبب، وفيه أنَّ من لم ينظر نظراً يؤدِّي به إلى ذكرِ التعظيم؛ كأنَّه لا نظرَ له البتة. وهذا فائدةُ التجوُّز.

وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: عن آيات ذكري. وليس بذاك.

ويجوزُ أنْ يكون المرادُ بالأعين البصائرَ القلبيَّة، والمعنى: كانت بصائرُهم في غطاءٍ عن أنْ يذكروني على وجهٍ يليقُ بشأني، أو عن ذكري الذي أنزلته على الأنبياء عليهم السلام، ويجوزُ أن يُخَصَّ بالقرآنِ الكريم.

﴿وَكَانُوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ نفيٌ لسماعهم على أتمِّ وجه، ولذا عدل عن: وكانوا صمًّا، الأخصرِ إليه. والمرادُ أنَّهم مع ذلك كفاقدي حاسَّة السمع بالكليَّة، وهو مبالغةٌ في تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدُهم إلى ما ينفعُهم بعد تصويرِ تعاميهم عن الآيات المشاهَدَةِ بالأبصار، فلا حاجةَ إلى تقدير: لذكري، المراد منه القرآن، أو مطلق الشرائع الإلهيَّة، فإنَّه بعد تخصيص الذكر المذكور في النظم الكريم أوَّلاً بالآيات المشاهدة لا يصيرُ قرينةً على هذا الحذف.

قال ابن هشام في «المغني»: إنَّ الدليلَ اللفظيَّ لا بدَّ من مطابقته للمحذوف معنًى، فلا يصحُّ: زيدٌ ضاربٌ وعمرٌو، أي: ضاربٌ، على أنَّ الأول بمعناه المعروف، والثاني بمعنى مسافر[1]. وتقديرُ ذلك، وإرادة معنى الآيات منه مجازاً لتحقُّق الآيات في ضمن الكلام المعجِز = لا يخفى حالُه، وحالُ إرادةِ الآيات ثمَّ إرادة الكلام المعجز منها مجازاً بعد المجاز = أظهرُ.

وقال بعض المحققين: إنَّ تقديرَ ذلك إنَّما هو بقرينة قوله تعالى: ﴿سَمْعًا﴾، وأنَّ الكافرين هذا حالُهم، لا بقرينة ذكر الذكر قبلُ ليجيء كلام ابن هشام.

ولا يخفى أنَّه لا كلامَ في تقدير الذكر بمعنى القرآن أو الشرائع الإلهيَّة إذا أريد من الذكر المذكور ذلك.

والموصولُ نعتُ الكافرين، أو بدلٌ منه، أو بيانٌ جيء به لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، وللإشعار بعلِّيته لإصابة ما أصابهم من عَرْضِ جهنَّم لهم.

---

(١) مغني اللبيب ص٧٩٠.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كفروا بي، كما يُعْرِب عنه قوله تعالى: (عِبَادِى)، والحسبان بمعنى الظنّ، وقد قرأ عبدُ الله: «أفظنَّ»(١).

والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، على معنى إنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدَّرٍ يُفصِح عنه الصلة، على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى(٢) المعطوفين جميعاً على ما اختاره شيخُ الإسلام(٣). والمعنى: أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ من الملائكة وعيسى ونحوهم عليهم السلام من المقرَّبين، كما تشعر به الإضافة، فإنَّ الأكثر أنْ تكونَ في مثل هذا اللفظ لتشريف المضاف.

واقتصرَ قتادة في المراد من ذلك على الملائكة، والظاهرُ إرادة ما يعمُّهم وغيرَهم ممَّن ذكرنا، واختارَه أبو حيان(٤) وغيرُه.

وروي عن ابن عباس أنَّ المرادَ منه الشياطين. وفيه بعد، ولعلَّ الرواية لا تصحُّ.

وعن مقاتل أنَّ المرادَ الأصنامُ. وهو كما ترى.

وجَوَّزَ بعضُ المحقِّقين أنْ يُرَاد ما يعمُّ المذكورين والأصنامَ وسائرَ المعبودات الباطلة من الكواكبِ وغيرها تغليباً، ولعلَّ المقام يقتضي أنْ لا تكونَ الإضافةُ فيه للتشريف، أي: أفظنُّوا أنْ يتَّخذوا عبادي الذينَ هم تحتَ ملكي وسلطاني ﴿مِن دُونِىٓ﴾ أي: مجاوزينَ لي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: معبودين أو أنصاراً لهم من بأسي.

وما في حيِّز صلة «أنْ»؛ قيل: سادٌّ مسدَّ مفعولي «حسب»، أي: أفحسبوا أنَّهم يتَّخذونهم أولياء. وكان مصبُّ الإنكار أنَّهم يتخذونهم كذلك، إلَّا أنَّه أقحمَ الحسبان للمبالغة.

وقيل: المراد ما ذكر على معنى أنَّ ذلك ليس من الاتِّخاذ في شيءٍ؛ لما أنَّه إنَّما يكونُ من الجانبين، والمتَّخَذون بمعزلٍ عن ولايتهم؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٦.
(٢) في (م): وإلى. وهو خطأ.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨.
(٤) في البحر المحيط ٦/ ١٦٥.

وقيل: «أن» وما بعدها في تأويل مصدر مفعولٍ أوّل لـ «حسب». والمفعول الثاني محذوف، أي: أفحسبوا اتخاذَهم نافعهم، أو سبباً لرفع العذاب عنهم، أو نحو ذلك. وهو مبنيٌّ على تجويز حذف أحد المفعولين في باب علم، وهو مذهبُ بعض النحاة.

وتُعقِّب بأنَّ فيه تسليماً لنفس الاتّخاذ واعتداداً به في الجملة، والأوْلَى ما خلا عن ذلك.

هذا وفي «الكشف» أنَّ التحقيقَ أنَّ قوله تعالى: (أَفَحَسِبَ) معطوفٌ على «كانت» و«كانوا» دلالةً على أنَّ الحسبان ناشئٌ عن التعامي والتصامِّ، وأدخلَ عليه همزة الإنكار ذمّاً على ذمٍّ، وقطعاً له عن المعطوف عليهما لفظاً لا معنًى؛ للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمِّ، كأنَّه قيل: لا يزيلون ما بهم من مَرَضَي الغشاوة والصمم، ويزيدون عليهما الحسبان المترتِّب عليهما. وقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) من وضع الظاهر مقامَ المضمر زيادةً للذمِّ. انتهى.

وفي «إرشاد العقل السليم» ـ بعد نقل ما ذكر إلى قوله: كأنَّه قيل.. إلخ ـ: أنَّه يأبى ذلك تركُ الإضمار، والتعرُّض لوصفٍ آخرَ غير التعامي والتصامِّ، على أنَّهما أُخرجا مخرجَ الأحوال الجِبليَّة لهم، ولم يذكرا من حيث إنَّهما من أفعالهم الاختياريَّة الحادثة كحسبانهم ليحسنَ تفريعُه عليهما، وأيضاً فإنَّه دينٌ قديمٌ لهم لا يمكن جعله ناشئاً عن تصامِّهم عن كلام الله عزَّ وجلَّ، وتخصيصُ الإنكار بحسبانهم المتأخِّر عن ذلك تعسُّفٌ لا يخفى. انتهى[1]. ولا يخلو عن بحثٍ فتأمَّل.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وزيد بن علي بن الحسين ﵃، والشافعيُّ عليه الرحمة، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن ميسرة، والضحاك، وابن أبي ليلى، وابنُ محيصن، وأبو حيوة، ومسعود بن صالح، وابن كثير ويعقوب بخلافٍ عنهما: «أفحسْبُ» بإسكان السين وضم الباء، مضافاً إلى «الذين»[2]، وخُرِّجَ ذلك على أنَّ «حسب» مبتدأ، وهو بمعنى مُحْسِب، أي: كافي،

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٦، وانظر القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٤، وقراءة ابن كثير ويعقوب المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

و«أنْ يتَّخذوا» خبرُه، أي: أفكافيهم اتِّخاذهم عبادي من دوني أولياء، وفيه دلالةٌ على غاية الذمِّ؛ لأنَّه جعل ذلك مجموعَ عدَّتهم يوم الحساب، وما يكتفون به عن سائر العقائد والفضائل التي لا بدَّ منها للفائز في ذلك اليوم.

وجعل الزمخشريُّ[1] المصدرَ المتحصِّلَ من «أنْ» والفعل فاعلاً لـ «حَسْب»؛ لأنَّه اعتمدَ على الهمزة، واسم الفاعل إذا اعتمدَ ساوى الفعل في العمل.

واعترض عليه أبو حيَّان بأنَّ «حَسْب» مؤوَّلٌ باسم الفاعل، وما ذكر مخصوصٌ بالوصف الصريح. ثم أشار إلى جوابه بأن سيبويه أجاز في: مررت برجلٍ خيرٌ منه أبوه، وبرجلٍ سواءٌ عليه الخير والشرُّ، وبرجلٍ أبٌ له صاحبه، وبرجلٍ أيُّما[2] رجلٍ هو، وبرجلٍ حسبُك من رجل [هو][3] = الرفع[4] بالصفات المؤوَّلة، وذكرَ أنَّهم أجازوا في: مررتُ برجلٍ أبي عشرةٍ أبوه، ارتفاعَ أبوه بأبي عشرة؛ لأنَّه في معنى والد عشرة، وحينئذٍ فلا كلام فيما ذكر الزمخشريُّ.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها، وهو ظاهرٌ في أنَّها مخلوقةٌ اليوم ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عدلَ عن الإضمار ذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل.

﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: شيئاً يتمتَّعون به عند ورودهم، وهو ما يُقامُ به للنزيل ـ أي: الضيف ـ ممَّا حضرَ من الطعام، واختارَ هذا جماعةٌ من المفسرين. وفي ذلك ـ على ما قيل ـ تخطئةٌ لهم في حِسْبانهم، وتهكُّمٌ بهم[5]، حيث كان اتِّخاذُهم إيَّاهم أولياءَ من قبيل إعتادِ العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنَّه قيل: إنَّا أعتدنا لهم مكانَ ما أعدُّوا لأنفسِهم من العِدَّة والذخر جهنَّمَ عدَّةً.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٥٠٠.

(٢) في الأصل و(م): إنما. والتصويب من البحر المحيط ٦/ ١٦٦ـ وعنه نقل المصنف ـ وكتاب سيبويه ٢/ ٢٦، والدر المصون ٧/ ٥٥٢.

(٣) ما بين حاصرتين من الكتاب والدر المصون.

(٤) في الأصل: بالرفع.

(٥) في الأصل و(م): به، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨، والكلام منه.

وفي إيرادِ النزل إيماءٌ إلى أنَّ لهم وراءَ جهنَّم من العذاب ما هي أنموذجٌ له، ولا يأبى ذلك قولُه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف: ١٠٦]؛ لأنَّ المرادَ هناك أنَّها جزاؤهم بما فيها. فافهم.

وقال الزَّجَّاج: النزل موضع النزول[1]. وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: هو جمعُ نازل، ونصبه على الحال.

وقرأ أبو حيوة وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «نُزْلاً» بسكون الزاي[2].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ خطابٌ للكفرة، وإذا حُمِل الاستفهامُ على الاستئذان كان فيه من التهكُّم ما فيه، والجمع في صيغة المتكلِّم؛ قيل: لتعيينه من أوَّل الأمر، وللإيذان بمعلوميَّة النبأ للمؤمنين أيضاً.

﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ نصب على التمييز. وجُمِع مع أنَّ الأصل في التمييز الإفراد، والمصدرُ شاملٌ للقليل والكثير كما ذكر ذلك النحاة؛ للإيذان بتنوُّع أعمالهم، وقصد شمول الخسران لجميعها.

وقيل: جُمع لأنَّ ما ذكره النحاة إنَّما هو إذا كان المصدرُ باقياً على مصدريَّته، أمَّا إذا كان مؤوَّلاً باسم فاعل، فإنَّه يعاملُ معاملته، وهنا عمل بمعنى عامل، فجمع على أعمال، والمراد عاملين، والصفةُ تقع تمييزاً، نحو: لله تعالى درُّه فارساً.

وزعم بعضهم أنَّ «أعمالاً» جمع عامل. وتُعقِّب بأنَّ جمع فاعل على أفعال نادرٌ، وقد أنكره بعض النحاة في غير ألفاظٍ مخصوصة؛ كأشهاد جمع شاهد.

وقيل: جمع عَمِل، ككتف، بمعنى ذو عَمَل، كما في «القاموس»[3]. وهو كما ترى.

وزعم بعضُ المتأخِّرين أنَّه إذا اعتبر «أعمالاً» بمعنى عاملين؛ كان «الأخسرين» بمعنى الخاسرين؛ لأنَّ التمييز إذا كان صفةً كان عبارةً عن المنتصِب عنه، متَّحداً

---

(١) ونصُّ كلام الزجاج، كما في معاني القرآن له ٣/ ٣١٤: ونزلاً بمعنى منزلاً.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٦.
(٣) مادة (عمل).

معه بالذات، محمولاً عليه بالمواطأة، حتى إنَّ النحاةَ صرَّحوا بأنَّه يحتملُ[(١)] الحال أيضاً، وهو خبرٌ عن ذي الحال معنًى، ومن البيِّن أنَّ أفعل التفضيل يمتنعُ أن يتَّحدَ مع اسم الفاعل؛ لمكان الزيادة، فحيث وقع اسمُ الفاعل تمييزاً وانتصبَ بـ «أفعل»، وجبَ أنْ يكونَ بمعنى فاعل ليتَّحدا.

وتعقَّبه بعضهم بأنَّ «أفعل» لا يكون مع اللام مُجَرَّداً عن معنى التفضيل، كما أنَّه لا يكون مجرَّداً عنه مع الإضافة، وإنَّما يكون ذلك إذا كان مع «من» كما صرَّح به ابنُ مالك في «التسهيل»[(٢)] وذكره الرضيّ.

ولا يَخفى عليك ما في جميع ذلك من النظر، والحقُّ أنَّ الجمعيَّة ليست إلَّا لما ذكر أوَّلاً. نعم ذكر أبو البقاء أنَّه جمع لكونه منصوباً على أسماء الفاعلين[(٣)]، وأوِّل ذلك بأنَّه أراد باسم الفاعل المعنى اللغويَّ، وأراد أنَّه جمع ليفيد التوزيع. على أنَّه لا يخلو عن شيء.

ثم إنَّ هذا ـ على ما في «إرشاد العقل السليم» ـ بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صَدَرَ عنهم من الأعمال الحسنة في أنفسها، وفي حِسبانهم أيضاً، حيث كانوا معجبين بها، واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها، غبَّ بيانِ أحوالهم باعتبار أعمالهم السيئة في أنفسها مع كونها حسنة في حسبانهم[(٤)].

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي: ضاعَ وبطل بالكلية عندَ الله عزَّ وجلَّ ﴿سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بـ «سعي» لا: «ضَلَّ»؛ لأنَّ بطلان سعيهم غيرُ مختصٍّ بالدنيا.

قيل: المراد بهم أهل الكتابين، وروي ذلك عن ابن عباس وسعد بن أبي وقاص ومجاهد، ويدخل في الأعمال حينئذٍ ما عملوه من الأحكام المنسوخة المتعلِّقة بالعبادات.

---

(١) في (م): يجعل. وهو تحريف.
(٢) ص١٣٤.
(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٠٩.
(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٩.

وقيل: الرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع، ويحملونَها على الرياضات الشاقَّة.

وقيل: الصابئة، وسأل ابنُ الكواء عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه عنهم فقال: منهم أهل حروراء، يعني الخوارج.

واستشكل بأنَّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلخ يأباهُ؛ لأنَّهم لا ينكرون البعث، وهم غير كفرة.

وأجيب بأنَّ «من» اتصالية، فلا يلزم أن يكونوا متصلين بهم من كلِّ الوجوه، بل يكفي كونهم على الضلال، مع أنَّه يجوزُ أنْ يكون ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ معتقداً لكفرهم، واستُحسِن أنَّه تعريضٌ بهم على سبيل التغليظ، لا تفسير للآية.

والمذكور في «مجمع البيان» أنَّ العياشيَّ روى بسنده أنَّ ابن الكوَّاء سأل أمير المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه عن أهل هذه الآية فقال: أولئك أهلُ الكتاب كفروا بربِّهم، وابتدعوا في دينهم، فحبطت أعمالهم، وما أهل النهر منهم ببعيد[1]. وهذا يؤيِّد الجوابَ الأول، وأخبر أنَّ المراد ما يعمُّ سائر الكفرة.

ومحلُّ الموصول الرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف؛ لأنَّه جوابٌ للسؤال، كأنَّه قيل: من هم؟ فقيل: الذين.. إلخ. وجُوِّز أنْ يكون في محل جرٍّ، عطف بيان على «الأخسرين». وجُوِّزَ أنْ يكون نعتاً أو بدلاً، وأنْ يكونَ منصوباً على الذمِّ، على أنَّ الجواب ما سيأتي إنْ شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ.

وتُعقِّبَ بأنَّه يأبى ذلك أنَّ صدره ليس منبئاً عن خسران الأعمال وضلال السعي، كما يستدعيه مقام الجواب، والتفريعُ الأول، وإنْ دلَّ على هبوطها، لكنَّه ساكتٌ عن إنباءٍ بما هو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتُّب الربح، واعتقادِ النفع فيما صنعوا، على أنَّ التفريع الثاني ممَّا يقطعُ ذلك الاحتمال رأساً، إذ لا مجال لإدراجه تحتَ الأمر بقضية نون العظمة. والجواب عن ذلك لا يتمُّ إلَّا بتكلُّفٍ، فتأمَّل.

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ٢١٣.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الإحسان: الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزمُ لحسنها الذاتي، أي: يعتقدون أنَّهم يعملونَ ذلك على الوجهِ اللائق؛ لإعجابهم بأعمالهم التي سعوا في إقامتها، وكابدوا في تحصيلها.

والجملة حالٌ من فاعل «ضلَّ»، أي: ضلَّ سعيُهم المذكور، والحالُ أنَّهم [يحسبون أنهم](١) يحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو من المضاف إليه في «سعيهم»؛ لكونه في محلِّ الرفع، أي: بطل سعيهم والحال أنهم.. إلخ.

والفرقُ بين الوجهين أنَّ المقارِنَ لحال حِسبانهم المذكور في الأول ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم. قيل: والأول أدخلُ في بيان خطئهم.

ولا يخفى ما بين «يحسبون» و«يحسنون» من تجنيس التصحيف، ومثل ذلك قولُ البحتري(٢):

ولم يكن المغترُّ بالله إذْ سرى ليُعْجِزَ والمعتزُّ بالله طالبه

﴿أُولَٰئِكَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جنابه تعالى، مسوقٌ لتكميل تعريف «الأخسرين»، وتبيينِ خُسرانهم وضلال سعيهم، وتعيينهم بحيثُ ينطبقُ التعريف على المخاطبين، غيرُ داخلٍ تحت الأمر كما قيل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر من ضلال السعي والحِسبان المذكور ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله سبحانه الداعيةِ إلى التوحيد، الشاملة للسمعيَّة والعقليَّة. وقيل: بالقرآن، والأوَّل أولى.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبيَّة لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور.

﴿وَلِقَائِهِ﴾ هو حقيقةٌ في مقابلة الشيء ومصادفته، وليس بمراد، والأكثرون على أنَّه كنايةٌ عن البعث والحشر وما يتبع ذلك من أمور الآخرة، أي: لم يؤمنوا بذلك على ما هو عليه.

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: لقاء عذابه تعالى. وليس بذاك.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٩، والكلام منه.
(٢) ديوانه ١/ ٢١٥.

﴿فَحَبِطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ ابنُ عباس وأبو السمَّال بفتحها[1]، والفاء للتفريع، أي: فحبطت لذلك ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرَّ من حبوط الأعمال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي: فنزدري بهم ونحتقرُهم، ولا نجعلُ لهم مقداراً أو اعتباراً؛ لأنَّ مدارَ الاعتبار والاعتناء الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالمرَّة.

وحيث كان هذا الازدراءُ والاحتقارُ من عواقب حبوط الأعمال عُطِفَ عليه بطريق التفريع، وأمَّا ما هو من أجزية الكفر، فسيجيء إنْ شاء الله تعالى بعد ذلك.

وزعم بعضهم أنَّ حقَّه على هذا أنْ يُعطف بالواو عَطْفَ أحد المتفرِّعين على الآخر؛ لأنَّ منشأ ازدرائهم الكفرُ لا الحبوط، وبه اعترض على ذلك، وهو ناشئٌ من فرط الذهول كما لا يخفى.

أو: لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً؛ لأنَّها قد حبطت وصارت هباءً منثوراً.

ونفي هذا بعد الإخبار بحبوطها من قبيل التأكيد، بخلاف النفي على المعنى الأول، ولذلك رجح عليه، وليس من الاعتزال في شيء.

وقرأ مجاهد وعبيد بن عمير: «فلا يقيم» بالياء[2]؛ لتقدُّم قوله تعالى: (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ).

وعن عبيد أيضاً: «فلا يَقيم»[3] بفتح ياء المضارعة، كأنَّه جعل قام متعدِّياً.

وعن مجاهد وابن محيصن ويعقوب بخلافٍ عنهم: «فلا يَقومُ لهم يوم القيامة وزنٌ» على أن «يقوم» مضارع قام اللازم، و«وزنٌ» فاعله[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن ابن عباس فقط.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن مجاهد، وفي القراءات الشاذة ص٨٢ عن عبيد بن عمير.

(٣) كذا في الأصل و(م). ولعله تصحيف، فقد وقع في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧ - وعنه نقل المصنف - والدر المصون ٧/ ٥٥٤: «يقوم».

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن مجاهد فقط.

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيانٌ لمآل كفرهم وسائر معاصيهم، إثر بيان أعمالهم المحبَطة بذلك، وهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملةٌ مفسِّرة له، فلا محلَّ لها من الإعراب.

وجُوِّز أن يكون «ذلك» مبتدأ و«جزاؤهم» بدل منه بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ كلٍّ من كلٍّ، إن كانت الإشارة إلى الجزاء الذي في الذهن، و«جهنم» خبره، والتذكير - وإن كان الخبرُ مؤنَّثاً - لأنَّ المشار إليه الجزاء، ولأنَّ الخبر في الحقيقة للبدل.

وأن يكون «ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» خبره، و«جهنم» عطف بيان للخبر، والإشارة إلى جهنم الحاضرة في الذهن.

وأن يكون مبتدأ، و«جزاؤهم جهنم» مبتدأ وخبر خبرٌ له، والعائدُ محذوف، والإشارة إلى كفرهم وأعمالهم، والتذكيرُ باعتبار ما ذُكر، أي: ذلك جزاؤهم به جهنم.

وتُعقِّب بأنَّ العائد المجرور إنَّما يكثرُ حذفه في مثل ذلك إذا جُرَّ بحرفِ تبعيض(١)، أو ظرفيَّةٍ، أو جرَّ عائدٌ قبلَه بمثل ما جُرَّ به، كقوله:

... فالذي تُدْعَى به أنت مفلحُ(٢)

أي: به.

وجَوَّز أبو البقاء(٣) أن يكون «ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» بدل أو عطف بيان، و«جهنم» بدل من جزاء، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو جهنم، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ خبرُ «ذلك». وقال بعد أن ذكرَ من وجوه الإعراب ما ذَكر: إنَّه لا يجوز أن يتعلَّق الجارُّ بـ «جزاؤهم» للفصل بينهما بـ «جهنم».

---

(١) في الأصل و(م): بتبعيض، والمثبت من الدر المصون ٧/ ٥٥٥، وجاء في حاشية الشهاب ٦/ ١٣٩: إذا جُرَّ بتبعيض....

(٢) أورده السمين في الدر المصون ٧/ ٥٥٥، والشهاب في الحاشية ٦/ ١٣٩، وعزاه محقق الدر إلى كتاب المساعد لابن عقيل ١/ ٢٣٤، وتمامه:

أصخ فالذي تدعى به أنت مفلحُ فلا تك إلَّا في الفلاح منافساً

(٣) في الإملاء ٣/ ٥٤١.

وقيل: الظاهر تعلُّقه به، ولا يضرُّ الفصل في مثل ذلك، وهو تصريحٌ بأنَّ ما ذُكر جزاءٌ لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى المعطوف على «كفروا»: ﴿وَاتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: مهزوءاً بهما، فإنَّهم لم يقنعوا بمجرَّد الكفر بالآيات والرسل عليهم السلام، بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضاً.

وجُوِّزَ أنْ تكون الجملةُ مستأنفةً. وهو خلاف الظاهر.

والمراد من «الآيات» قيل: المعجزات الظاهرة على أيدي الرسل عليهم السلام، والصحف الإلهية المنزلةُ عليهم عليهم الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيانٌ بطريق الوعد لمآل الذين اتَّصفوا بأضداد ما اتَّصف به الكفرة، إثر بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: إنَّ الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده، فالمضيُّ باعتبار ما ذكر.

وفيه ـ على ماقال شيخ الإسلام ـ إيماءٌ إلى أنَّ أثرَ الرحمة يصلُ إليهم بمقتضى الرأفة الأزليَّة، بخلاف ما مرَّ من جعل جهنَّم للكافرين نزلاً، فإنَّه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم[(١)].

وقيل: يجوزُ أنْ يكون ما وعدوا به لتحقُّقه نُزِّلَ منزلةَ الماضي، فجيء بـ «كان» إشارةً إلى ذلك.

ولم يقل: أعتدنا لهم، كما قيل فيما مرَّ؛ للإشارة إلى أنَّ أمرَ الجنات لا يكادُ يتمُّ، بل لا يزال ما فيها يزدادُ، فإنَّ إعتاد[(٢)] الشيء وتهيئتَه يقتضي تماميَّة أمره وكماله، وقد جاء في الآثار أنَّه يُغْرَس للمؤمن بكلِّ تسبيحةٍ يسبِّحُها شجرةٌ في الجنة[(٣)].

وقيل: التعبيرُ بما ذُكر أظهرُ في تحقُّق الأمر من التعبير بالإعتاد، ألا ترى أنَّه قد تُهيَّأ دارٌ لشخصٍ ولا يسكنها، ولا يخلو عن لطفٍ فافهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٠.

(٢) في الأصل: اعتبار.

(٣) يشير إلى ما أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة».

﴿جَنَّتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنَّ الفردوسَ هو البستان بالروميَّة(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنَّه الكَرْمُ بالنبطية، وأصله فرداسا(٢).

وأخرج ابن أبي شيبةَ وغيره عن عبد الله بن الحارث أنَّ ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس فقال: هي جنَّةُ الأعناب بالسريانية(٣).

وقال عكرمة: هي الجنَّة بالحبشيَّة.

وقال القفال: هي الجنة الملتفَّةُ بالأشجار.

وحَكى الزَّجَّاج أنَّها الأودية التي تُنبت ضروباً من النبات(٤).

وقال المبرِّد: هي فيما سمعت من العرب الشجرُ الملتفُّ، والأغلب عليه العنب.

ونصَّ الفرَّاء(٥) على أنَّه عربيٌّ أيضاً، ومعناه البستان الذي فيه كرم، وهو ممَّا يذكَّر ويؤنَّث.

وزعم بعضُهم أنَّها لم تُسمع في كلام العرب إلَّا في قول حسان:

وإنَّ ثوابَ الله كلَّ موحِّدٍ جنانٌ من الفردوس فيها يخلَّدُ(٦)

وهو لا يصح، فقد قال أميَّةُ بن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً فيها الفراديسُ ثم الفوم والبصلُ(٧)

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٣٢.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٩ من طريق عبد الله بن الحارث عن كعب، ولم يذكر ابن عباس، وليس فيه قوله: بالسريانية.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٤-٣١٥.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٦) ديوان حسان بن ثابت ص٩٢، طبعة دار صادر.

(٧) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٩٨. وفيه: والفومان. بدل: ثم الفوم.

وجاء في شعر جرير في أبياتٍ يَمدحُ بها خالد بن عبد الله القسريّ، حيث قال:

وإنَّا لنرجو أن نرافقَ رفقة يكونون في الفردوس أوَّل واردِ[١]

وممَّا سمعه أهلُ مكة قبل إسلام سعد قولُ هاتف:

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيا على الله في الفردوس مُنية عارفِ[٢]

والحق أنَّ ذكرَها في شعر الإسلاميين كثيرٌ، وفي شعر الجاهليين قليل.

وأخرج البخاريُّ ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنَّه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه[٣] تفجَّر أنهار الجنة»[٤].

وعن أبي عبيدة بن الجرَّاح مرفوعاً: «الجنَّة مئة درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتين ما بين السماء والأرض، والفردوسُ أعلى الجنة، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس»[٥].

وروي عن كعب أنَّه ليس في الجنَّة أعلى من جنَّة الفردوس، وفيها الآمرونَ بالمعروف والناهونَ عن المنكر[٦].

وصحَّ أنَّ أهل الفردوسِ ليسمعونَ أطيط العرش[٧].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٦٠٤. وفيه: ترافق، بدل: نرافق.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في هواتف الجنان (٧٥)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٥٣، والضمير في «أجيبا» يعود على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ﷺ.

(٣) في (م): ومنها.

(٤) صحيح البخاري (٢٧٩٠)، ولم أره في صحيح مسلم، والمصنف تبع السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٤ في نسبته لمسلم. وانظر تحفة الأشراف ١٠/ ٢٧٨. وسلف بعضه ٤/ ٥٧.

(٥) أخرجه النجاد في جزء التراجم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٤-٢٥٥.
وأخرج الترمذي (٢٥٣٠)، وابن ماجه (٤٣٣١)، وأحمد (٢٢٠٨٧) نحوه من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وأخرج الترمذي (٢٥٣١)، وأحمد (٢٢٦٩٥) نحوه أيضاً من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٣١، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٨٠.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٦٦) من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٨: وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً: «الفردوسُ مقصورةُ الرحمن»[(١)].

وكلُّ ذلك لا ينافي كونَ الفردوس في اللغة البستان كما تُوهِّم، إذ لا مانعَ من أن يكون أعلى الجنة بستاناً، لكنَّه لكونه في غاية السعة أُطلِق على كلِّ قطعةٍ منه جنَّة، فقيل: جنَّات الفردوس، كذا قيل.

واستُشكِل بأنَّ الآيةَ حينئذٍ تُفيدُ أنَّ كلَّ المؤمنين في الفردوس المشتمل على جنات، وهذا لا يصحُّ على القول بأنَّ الفردوسَ أعلى الدرجات، إذ لا شبهةَ في تفاوت مراتبهم. وكونُ المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات طائفةً مخصوصةً من مطلق المؤمنين، مع كونه في مقابلة الكافرين = ليس بشيء.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ معنى «جنَّات الفردوس»: بساتينُ حول الفردوس، ولذا أضيفت الجنَّاتُ إلى الفردوس[(٢)].

وأنت تعلم أنَّ هذا لا يشفي الغليل؛ لما أنَّ الآيةَ حينئذٍ تفيدُ أنَّ جميع المؤمنين في جناتٍ حول الفردوس، ومن المعلوم أنَّ منهم من هو في الفردوس.

وقيل: الأمر كما ذكر أبو حيَّان، إلَّا أنَّه يلتزم الاستخدام في الآية، بأن يراد مطلق الجنَّات فيما بعد. وفيه ـ مع كونه خلافَ الظاهر ـ ما لا يخفى.

وقيل: المراد من جنَّات الفردوس جميع الجنات، والإضافة إلى الفردوس التي هي أعلاها باعتبار اشتمالها عليها، ويكفي في الإضافة هذه الملابسة.

ولعلك تختارُ أنَّ الفردوسَ في الآثار بمعنًى، وفي الآية بمعنًى آخر، وتختار من معانيه ما تكلف في الإضافة فيه، كالشجر الملتفِّ ونحوه، وظاهرُ بيت حسان وبيت أمية شاهدٌ على أنَّ للفردوس معنًى غير ما جاء في الآثار، فليتدبَّر.

واعلم أنَّه استشكل أيضاً ما جاء من أمر السائل بسؤال الفردوس لنفسِه، مع كونه أعلى الجنَّة، بخبر أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا صلَّيتُم عليَّ، فاسألوا الله

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٨.

تعالى ليَ الوسيلة؛ أعلى درجةٍ في الجنَّة، لا ينالها إلَّا رجلٌ واحدٌ، وأرجو أنْ أكون أنا هو»[1].

وأجيبَ بأنَّه لا مانعَ من انقسام الدرجة الواحدة إلى درجات بعضُها أعلى من بعض، وتكون الوسيلةُ عبارةً عن أعلى درجات الفردوس التي هي أعلى درجات الجنان، ونظيرُ ذلك ما قيل في حدِّ الإعجاز، فتذكَّر.

وقيل: المراد من الدرجة في حديث الوسيلة درجةُ المكانة لا المكان، بخلافها فيما تقدَّم، فلا إشكال.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوف؛ على أنَّه حالٌ من قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾، أو على أنه بيانٌ كما في: سقياً[2] لك، وخبر «كان» في الوجهين «نزلاً»، أو على أنَّه الخبر، و«نزلاً» حالٌ من «جنات»، فإنْ جُعل بمعنى ما يُهيَّأ للنازل، فالمعنى: كانت لهم ثمارُ جنات الفردوس نزلاً أو جعلت نفسُ الجنات نزلاً، مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذانٌ بأنَّها عند ما أعدَّ الله تعالى لهم على لسان النبوة من قوله تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر»[3] = بمنزلةِ النزل بالنسبة إلى الضيافة، وإنْ جعلت بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية، وهي حالٌ[4] مقدَّرةٌ عند البعض، وحقق أنَّها حالٌ مقارنة، والمعتبر في المقارنة زمانُ الحكم، وهو كونهم في الجنَّة، وهم بعد حصولهم فيها مقارنون له، إذ لا آخر له، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ هو ـ كما قال ابن عيسى وغيره ـ مصدرٌ كالعِوَج والصغر والعِوَد في قوله: عادني حبها عِوَداً[5]، أي: لا يطلبون عنها تحوُّلاً، إذ

---

(١) مسند أحمد (٧٥٩٨) من طريق ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، به وأخرجه الترمذي (٣٦١٢) دون قوله: «إذا صلَّيتم عليَّ» وقال: هذا حديث غريب، إسناده ليس بالقوي، وكعب ليس هو بمعروف، ولا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم. اهـ. وليث بن أبي سليم ضعيف، ولسؤال الوسيلة للنبي ﷺ شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (٣٨٤).

(٢) في (م): سعيا.

(٣) سلف ١٤/ ٣٦.

(٤) لفظة: حال. ليست في (م).

(٥) في الأصل: عادني من حبها عِوَد.

لا يُتصوَّر أنْ يكون شيءٌ أعزَّ عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وتطمح عنه أبصارهم، وإن تفاوتت درجاتهم، والحاصلُ أنَّ المراد من عدم طلب التحوُّل عنها كونُها أطيبَ المنازل وأعلاها.

وقال ابن عطيَّة: كأنَّه اسم جمع، وكأنَّ واحده حوالة[1]. ولا يخفى بعده.

وقال الزَّجَّاج عن قوم: هو بمعنى الحيلة في التنقل[2]. وهو ضعيفٌ متكلَّفٌ.

وجُوِّزَ أنْ يُراد نفيُ التحوُّل والانتقال، على أنْ يكون تأكيداً للخلود؛ لأنَّ عدمَ طلب الانتقال مستلزمٌ للخلود، فيؤكِّدُه، أو لأنَّ الكلامَ على حدِّ:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحر[3]

أي: لا يتحوَّلون عنها فيبغوه.

وقيل في وجه التأكيد: إنهم إذا لم يريدوا الانتقال لا ينتقلون؛ لعدم الإكراه فيها، وعدم إرادة النقلة عنها، فلم يبق إلَّا الخلود، إذ لا واسطة بينهما كما قيل.

والجملة حالٌ من صاحب «خالدين»، أو من ضميره فيه، فتكون حالاً متداخلة، وفيها إيذانٌ بأنَّ الخلودَ لا يورثهم مللاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: جنسُ البحر ﴿مِدَادًا﴾ هو في الأصل اسمٌ لكلِّ ما يُمَدُّ به الشيء، واختصَّ في العرف لما تُمَدُّ به الدواةُ من الحبر.

﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي: معدًّا لكتابة كلماته تعالى، والمراد بها ـ كما روي عن قتادة ـ معلوماتُه سبحانه، وحكمته عزَّ وجلَّ.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ مع كثرته، ولم يبق منه شيءٌ لتناهيه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ لعدم تناهيها.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ عوناً وزيادةً؛ لأنَّ مجموعَ المتناهيين متناهٍ، بل

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦.

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٥.

(٣) عجز بيت لعمرو بن أحمر سلف عند تفسير الآية (١٥١) من سورة آل عمران، وصدره:

لا تُفْزِعِ الأرنبَ أهوالُها

جميعُ ما يدخل في الوجود على التعاقب أو الاجتماع متناهٍ ببرهان التطبيق وغيره من البراهين.

وهذا كلامٌ من جهته تعالى شأنُه غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله على أتمِّ وجه.

والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها، المحذوفةِ لدلالة المذكور عليها دلالةً واضحةً، أي: لنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفدَ كلماته تعالى، لو لم نجئ بمثله مدداً، ولو جئنا بمثله مدداً. والكلام في جواب «لو» مشهور.

وليس قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ للدلالة على أنَّ ثَمَّ نفاداً في الجملة محقَّقاً أو مقدَّراً؛ لأنَّ المراد منه: لنفِدَ البحرُ وهي باقيةٌ، إلَّا أنَّه عدلَ إلى المنزَّل لفائدةِ المزاوجة، وأنَّ ما لا ينفدُ عند العقول العامية ينفدُ دون نفادها، وكلَّما فرضتَ من المدِّ فكذلك، والمِثْلُ للجنس شائعٌ على أمثالٍ كثيرةٍ تُفْرَض كلٌّ منه مدداً، وهذا كما في «الكشف» أبلغُ من وجهٍ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، وذلك أبلغ من وجهٍ آخر، وهو ما في تخصيصِ هذا العدد من النكتة، ولم يرد تخصيص العدَّة، ثمَّ فيه زيادةُ تصوير لما استقرَّ في عقائد العامَّة من أنَّها سبعةٌ، حتى إذا بالغوا فيما يتعذَّرُ الوصول إليه قالوا: هو خلفَ سبعة أبحر.

وفي إضافة الكلماتِ إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضافِ وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى.

وإظهارُ البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

ونصب «مدداً» على التمييز كما في قوله:

فإنَّ الهوى يَكْفِيكَه مثله صبرا[1]

---

(١) هو في البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٨، واللباب ١٢/ ٥٧٨ دون نسبة. ونسبه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ٢/ ٣٨٣ لجرير، وصدره:

إذا خفت يوماً أن يلج بك الهوى

وليس في ديوانه.

وجَوَّز أبو الفضل الرازيُّ نصبه على المصدر، على معنى: ولو أمددنا بمثله إمداداً، وناب المدد عن الإمداد على حدٍّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] وفيه تكلُّفٌ.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وعمرو بن عبيد والأعمشُ وطلحة وابنُ أبي ليلى: «قبل أنْ ينفدَ» بالياء آخر الحروف(١).

وقرأ السلميُّ: «أن تنفَّد» بالتشديد على تفعَّل على المضي، وجاء كذلك عن عاصم وأبي عمرو فهو مطاوع نَفَّد مشدداً، نحو كسَّرته فتكسَّر(٢).

وقرأ الأعرجُ: «بمثله مِدداً» بكسر الميم(٣)، على أنَّه جمع مُدَّة، وهو ما يستمدُّه الكاتب فيكتب به.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد، والأعمش بخلاف، والتيميُّ وابن محيصن وحميد، والحسن في روايةٍ، وأبو عمرو كذلك، وحفص كذلك أيضاً: «مِدَاداً» بألف بين الدالين وكسر الميم(٤).

وسبب النزول أنَّ حيي بن أخطب ـ كما رواه الترمذيُّ عن ابن عباس(٥) ـ قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(٦). ومراده الاعتراض بأنَّه وَقع في كتابكم تناقضٌ بناءً

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦. وهي أيضاً قراءة خلف من العشرة.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٧-٥٥٨. وقراءة عاصم وأبي عمرو المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٣) القراءات الشاذة ص٨٢، والكشاف ٢/ ٥٠١، والبحر المحيط ٦/ ١٦٩.
(٤) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، وانظر القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٥.
(٥) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ١٤١، ولم نقف عليه في سنن الترمذي، وينظر التعليق الذي بعده.
(٦) أورده بهذا اللفظ الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠١، ولم يعزه.
وأخرج الترمذي (٣١٤٠) عن ابن عباس ﷺ قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
=

على أنَّ الحكمةَ هي العلم، وأنَّ الخير الكثير هو عينُ الحكمة لا آثارها وما يترتَّب عليها؛ لأنَّ الشيءَ الواحد لا يكون قليلاً وكثيراً في حالةٍ واحدة، فالآية جوابٌ عن ذلك بالإرشاد إلى أنَّ القلَّة والكثرةَ من الأمور الإضافيَّة، فيجوز أن يكون الشيء كثيراً في نفسه، وهو قليلٌ بالنسبة إلى شيءٍ آخر، فإنَّ البحر مع عظمته وكثرته خصوصاً إذا ضُمَّ إليه أمثاله قليلٌ بالنسبة إلى كلماته عزَّ وجلَّ.

وقيل: سبب ذلك أنَّ اليهود قالوا للرسول ﷺ: كيف تزعم أنَّك نبيُّ الأمم كلِّها، ومبعوثٌ إليها، وأنك أُعطيتَ من العلم ما يحتاجه الناس، وقد سئلتَ عن الروح فلم تُجب فيه؟ ومرادهم الاعتراض بالتناقض بين دعواه عليه الصلاة والسلام وحاله في زعمهم، بناءً على أنَّ العلم بحقيقة الروح ممَّا يحتاجُه الناس، وأنه ﷺ لم يفده عبارةً ولا إشارة. والجواب عن هذا منعُ كون العلم بحقيقة الروح ممَّا يحتاجُه الناس في أمر دينهم المبعوث له الأنبياء عليهم السلام، والقائل: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم»[1] لا يدَّعي علمَ ما يحتاجُه الناس مطلقاً. وأنت تعلم أنَّ الآيةَ لا تكونُ جواباً عمَّا ذُكر على تقدير صحَّة كونِ ذلك سببَ النزول إلَّا بضمِّ الآية الآتية إليها، ومع هذا يَحتاجُ ذلك إلى نوع تكلُّف.

﴿قُلْ﴾ بعد أنْ بيَّنتَ شأن كلماته عزَّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدَّعي الإحاطة بكلماته جلَّ وعلا ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنَّما تميَّزتُ عنكم بذلك، و«أنْ» المفتوحة ـ وإنْ كُفَّت بـ «ما» ـ في تأويل المصدر القائم مقام فاعل «يُوحَى»، والاقتصارُ على ما ذُكر لأنَّه ملاك الأمر.

والقصرُ في الموضعين ـ بناءً على القول بإفادة «إنَّما» بالكسر و«أنَّما» بالفتح الحصرَ ـ من قصر الموصوف على الصفة قصرَ قلب، والمقصور عليه في الأول «أنا»، والمقصور البشريَّةُ مثل المخاطبين، وهو على ما قيل مبنيٌّ على تنزيلهم ـ لاقتراحهم عليه عليه الصلاة والسلام ما لا يكون من بشرٍ مثلِهم ـ منزلةَ من

= قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ إلى آخر الآية.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(1) سلف ١٤/ ٢٦٣.

يعتقدُ خلافَه، أو على تنزيلهم منزلةَ من ذُكر؛ لزعمهم أنَّ الرسالة التي يدَّعيها ﷺ مبرهنةً بالبراهين الساطعة تنافي ذلك.

وقيل: إنَّ المقصودَ بأنْ يقصر عليه الإيحاء إليه ﷺ على معنى أنَّه ﷺ مقصورٌ على إيحاء ذلك إليه[1]، لا يتجاوزه إلى عدم الإيحاء، كما يزعمون.

والمقصور في[2] الثاني «إلهكم» أي: معبودكم بالحقِّ[3]، والمقصور عليه الوحدانية المعبَّر عنها بـ «إله واحد» أي: لا يتجاوزُ معبودُكم بالحقِّ تلك الصفة التي هي الوحدانية ـ أي: الوحدة في الألوهية ـ إلى صفةٍ أخرى كالتعدُّد فيها الذي تعتقدونه أيُّها المشركون.

وزعم بعضُهم أنَّ القصرَ في الثاني من قصر الصفة على الموصوف قصرَ إفراد، وأنَّ المقصور الألوهيَّة مصدر «إلهكم»، والمقصور عليه هو الله تعالى المعبَّر عنه بـ «إله واحد». ولا يخفى ما فيه من التكلُّف والعدول عما هو الأليق.

وممَّا يوضح ما ذكرنا أنَّه لو قيل: إنَّما إلهكم واحدٌ، لم يكن إلَّا من قصر الموصوف على الصفة، فزيادة «إله» للتوطئة للوصف بـ «واحد»، والإشارةُ إلى أنَّ المرادَ الوحدةُ في الألوهية لا تُغيِّرُ ذلك.

وأمَّا جعله من قصر الصفة على الموصوف قصرَ إفراد، على أنَّ الله تعالى هو المقصور عليه، والوحدانيَّةُ هي المقصور، فباطلٌ قطعاً؛ لأنَّ قصر الصفة على الموصوف كذلك إنَّما يُخاطَب به من يعتقدُ اشتراكَ الصفة بين موصوفَين ـ كما تقرَّر في محلِّه ـ وهذا الاعتقادُ لا يُتصوَّر هنا من عاقلٍ؛ لبداهة استحالة اشتراك موصوفين في الوحدانية، أي: الوحدة في الألوهية، وما يوهم إرادة هذا القصر من كلام الزمخشريِّ في نظير هذه الآية مؤوَّلٌ كما لا يخفى على المنصف.

وجُوِّزَ أنْ يكون من قصر التعيين، وليس بذاك، فتأمَّل جميع ذلك، والله تعالى يتولَّى هداك.

---

(١) في الأصل: عليه.
(٢) لفظة: في. ليست في (م).
(٣) في (م): الحق.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاءُ: طمعُ حصول ما فيه مسرَّةٌ في المستقبل، ويستعمل بمعنى الخوف، وأنشدوا:

إذا لسعَتْهُ النحلُ لم يرجُ لَسْعَها وحالفها في بيت نُوبٍ عواملِ[1]

ولقاءُ الربِّ سبحانه هنا؛ قيل: مَثَلٌ للوصول إلى العاقبة؛ من تلقِّي ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء، مُثِّلت تلك الحالُ بحال عبدٍ قَدِم على سيِّده بعد عهدٍ طويل، وقد اطَّلع مولاهُ على ما كان يأتي ويَذر، فإمَّا أن يلقاه ببشرٍ وترحيب؛ لما رَضِيَ من أفعاله، أو بضدِّ ذلك؛ لما سخطه منها، فالمعنى على هذا وحَمْلِ الرجاء على المعنى[2] الأول: من كان يأمل تلك الحال، وأنْ يلقى فيها الكرامةَ من ربِّه تعالى والبشرى ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل ذلك والفوز به ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وقيل: هو كنايةٌ عن البعث وما يتبعُه، والكلامُ على حذف مضاف، أي: من كان يؤمِّلُ حسنَ البعث، فليعمل إلخ.

وقيل: لا حذف، والمراد: من توقَّعَ البعث فليعمل صالحاً، أي: إنَّ ذلك العمل مطلوبٌ ممَّن يتوقَّع البعثَ، فكيف من يتحقَّقه؟!

وقيل: اللقاءُ على حقيقته، والكلام على حذف مضاف أيضاً، أي: من كان يؤمِّلُ لقاءَ ثواب ربِّه فليعمل.. إلخ.

وقيل: المراد منه رؤيته سبحانه، أي: من كان يؤمِّل رؤيتَه تعالى يومَ القيامة وهو راضٍ عنه فليعمل.. إلخ.

وجُوِّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف، على معنى: من خاف سوء لقاءِ ربِّه، أو خافَ لقاءَ جزائه تعالى فليعمل.. إلخ.

وتفسير الرجاء بالطمع أولى، وكذا كون المرجوِّ الكرامة والبشرى، وعلى هذا فإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنَّ اللائقَ بحال العبد الاستمرارُ والاستدامة على رجاء الكرامة من ربِّه، فكأنَّه قيل: فمن استمرَّ على رجاء كرامتِه

(١) سلف ١١/٣٨.
(٢) قوله: المعنى. ليس في الأصل.

تعالى، فليعمل عملاً صالحاً في نفسه، لائقاً بذلك المرجوّ، كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ إشراكاً جليّاً، كما فعله الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائِه، ولا إشراكاً خفيًّا، كما يفعلُه أهلُ الرياء، ومن يطلب بعمله دنيا. واقتصر ابنُ جبير على تفسير الشرك بالرياء، وروي نحوُه عن الحسن.

وصحَّ في الحديث تسميتُه بالشرك الأصغر(١)، ويؤيِّدُ إرادةَ ذلك تقديمُ الأمر بالعمل الصالح على هذا النهي، فإنَّ وجهه حينئذٍ ظاهرٌ؛ إذ يكون الكلام في قوَّة قولك: من كان يرجو لقاء ربِّه فليعمل عملاً صالحاً في نفسه، ولا يراءِ بعمله أحداً فيفسده. وكذا ما روي من أنَّ جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: إنِّي أعملُ العملَ لله تعالى، فإذا اطُّلِع عليه سرَّني، فقال(٢): «إنَّ الله تعالى لا يقبلُ ما شُورك فيه» فنزلت الآية تصديقاً له ﷺ(٣).

نعم لا يأبى ذلك إرادة العموم كما لا يخفى. وقد تضافرت الأخبار أنَّ كلَّ عملٍ عُمِل لغرضٍ دنيويٍّ لا يقبل، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ يرويه عن ربه تعالى أنَّه قال: «أنا خيرُ الشركاء، فمن عمل عملاً أشركَ فيه غيري فأنا بريءٌ منه، وهو للذي أشرك»(٤).

وأخرج البزَّار والبيهقيُّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرَضُ أعمال بني آدم بين يدي الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة في صحفٍ مختَّمة، فيقول الله تعالى: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا ربِّ، والله ما رأينا منه إلَّا خيراً، فيقول الله سبحانه: إنَّ عملَه كان لغير وجهي، ولا أقبلُ اليومَ من العمل إلَّا ما أريدَ به وجهي»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦٣٠)، (٢٣٦٣١)، (٢٣٦٣٦) عن محمود بن لبيد.

(٢) بعدها في (م): لي.

(٣) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٠٥: ذكره الواحدي في أسباب النزول [ص٣٠٨] عن ابن عباس ولم يَسُقْ سنده.

(٤) مسند أحمد (٧٩٩٩)، وصحيح مسلم (٢٩٨٥). وسلف ١٤/ ٤٥٨.

(٥) مسند البزار (٣٤٣٥ - كشف الأستار)، وشعب الإيمان (٦٨٣٦). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٢٦٠٣) و(٦١٣٣)، والدارقطني في السنن (١٣٢).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه البزار.

وأخرج أحمد والنسائيُّ وابنُ حبان والطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه عن يحيى بن الوليد بن عبادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلَّا عقالاً، فله ما نوى»[1].

وأخرج أبو داود والنسائيُّ والطبرانيُّ بسندٍ جيِّدٍ عن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، فأعادها ثلاثَ مرار، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لا شيء له»، ثم قال: «إنَّ الله تعالى لا يقبلُ من العمل إلَّا ما كان له خالصاً، وابتُغِيَ به وجهه»[2]. إلى غير ذلك من الأخبار.

واستُشكِل كونُ السرور بالعمل إشراكاً فيه محبطاً له، مع أنَّ الإتيان به ابتداءً كان بإخلاص النية، كما يدلُّ عليه: إنِّي أعملُ العمل لله تعالى.

وأجيبَ بما أشار إليه في «الإحياء» من أنَّ العمل لا يخلو إذا عُمِلَ من أن ينعقدَ من أوَّله إلى آخره على الإخلاص من غير شائبةِ رياء، وهو الذهبُ المصفَّى، أو ينعقدَ من أوَّله إلى آخره على الرياء، وهو عملٌ محبَطٌ لا نفع فيه، أو ينعقدَ من أوَّل أمره إلى الإخلاص، ثم يطرأ عليه الرياء، وحينئذٍ لا يخلو طروُّه عليه من أن يكون بعد تمامه أو قبلَه، والأوَّل غيرُ مُحبِطٍ، لا سيما إذا لم يتكلَّف إظهاره، إلَّا أنَّه إذا ظهرت رغبةٌ وسرورٌ تامٌّ بظهوره يُخشى عليه، لكن الظاهر أنه مثابٌ عليه، والثاني ـ وهو المراد هنا ـ فإن كان باعثاً له على العمل أو مؤثِّراً فيه فسدَ ما قارنه وأحبطَه، ثمَّ سرى إلى ما قبله[3].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٦٩٢)، والمجتبى ٦/ ٢٤، وصحيح ابن حبان (٤٦٣٨)، والمستدرك ٢/ ١٠٩.

(٢) أخرجه النسائي ٦/ ٢٥، والطبراني في الكبير (٧٦٢٨). ولم أقف عليه في سنن أبي داود. وانظر تحفة الأشراف ٤/ ١٦٨، وتبع المصنفُ السيوطيَّ في الدر المنثور ٤/ ٢٥٦، في عزوه له.
ونسبه لأبي داود أيضاً المنذري في الترغيب والترهيب (١٩٩١)، وابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٨. وقال ابن القطان كما في فيض القدير ٢/ ٢٧٥: إنه ليس عنده. وفي سنن أبي داود قريبٌ منه من حديث أبي هريرة برقم (٢٥١٦).

(٣) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٧-٣٠٨.

وأخرج ابنُ منده وأبو نعيم في «الصحابة» وغيرهما من طريق السُّدِّيِّ الصغير، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلَّى أو صام أو تصدَّق فذُكِرَ بخيرٍ ارتاحَ له، فزاد في ذلك لمقالة الناس، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ الآية[١]، ولا شكَّ أنَّ العملَ الذي يقارِنُ ذلك محبَطٌ.

وذكر بعضُهم: قد يثاب الرجل على الإعجاب إذا اطّلع على عمله، فقد رَوى الترمذيُّ وغيره عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله إني أعملُ العمل فيُطَّلع عليه، فيعجبني، فقال عليه الصلاة والسلام: «لك أجران؛ أجر السرِّ، وأجرُ العلانية»[٢].

وهذا محمولٌ على ما إذا كان ظهورُ عمله لأحدٍ باعثاً له على عمل مثله والاقتداء به فيه ونحو ذلك، ولم يكن إعجابُه بعمله ولا بظهوره، بل بما يترتَّب عليه من الخير، ومثله دفع سوء الظنّ، ولذا قيل: ينبغي لمن يُقتَدى به أنْ يُظهِر أعماله الحسنة.

والظاهر أنَّ النبيَّ ﷺ علم حال كلٍّ من هذا الرجل وجندب بن زهير، فأجابَ كلّاً على حسب حاله، وما ألطف جوابه عليه الصلاة والسلام لجندب، كما لا يخفى على الفطن.

وأخرج ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن عباس ﷺ أنَّه قال: أنزلت الآيةُ في المشركين الذين عَبدوا مع الله تعالى إلهاً غيره، وليست في المؤمنين[٣].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٥، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١١/ ٣٠٤ والكلبي وكذا السدي الصغير ـ وهو محمد بن مروان ـ متهمان بالكذب.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٤)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٧٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقد رَوَى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن النبي ﷺ مرسلاً. وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه عن أبي هريرة ﷺ. وقال ابن أبي حاتم في العلل ١/ ١٠١-١٠٢: قال أبي: الصحيح عندي مرسل. وكذا رجح أبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٥٠، والدارقطني في العلل ٨/ ١٨٣-١٨٤ المرسل. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٥.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٥٥، وهو في شعب الإيمان (٦٨٥٣).

وهو ظاهرٌ في أنَّه حمل الشرك على الجليّ، وأنت تعلم أنَّه لا يظهرُ حينئذٍ وجهُ تقديم الأمر بالعمل الصالح على النهي عن الشرك المذكور إلَّا بتكلُّفٍ، فلعلَّ العموم أولى، وإن كان الشرك أكثر شيوعاً في الشرك الجليّ.

ويدخل في العموم قراءة القرآن للموتى بالأجرة، فلا ثواب فيها للميِّت ولا للقارئ أصلاً، وقد عمَّت البلوى بذلك، والناس عنه غافلون، وإذا نُبِّهوا لا يتنبَّهون، فإنَّا لله تعالى وإنَّا إليه راجعون.

وقد بالغ في العموم من جعل الاستعانة في الطاعات كالوضوء شركاً منهيّاً عنه، فقد قال الراغب في «المحاضرات»: إنَّ عليَّ بن موسى الرضا ﷺ كان عند المأمون، فلمَّا حضر وقتُ الصلاة رأى الخدمَ يأتونَه بالماء والطست، فقال الرضا ﷺ: لو تولَّيتَ هذا بنفسك، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

ولعلَّ المرادَ بالنهي هذا مطلقُ طلب الترك؛ ليعمَّ الحرامَ والمكروه. والظاهرُ أنَّ الفاء للتفريع على قصر الوحدانية عليه تعالى، ووجهُ ذلك على أنَّ كون الإله الحقِّ واحداً يقتضي أن يكون في غاية العظمة والكمال، واقتضاءُ ذلك عملَ الطامع في كرامته عملاً صالحاً وعدم الإشراك بعبادته ممَّا لا شبهة فيه، كذا قيل.

وقيل: الأمر بالعمل الصالح متفرِّعٌ على كونه تعالى إلهاً، والنهي عن الشرك متفرِّعٌ على كون الإله واحداً، وجعل هذا وجهاً لتقديم الأمر على النهي على ما روي عن ابن عباس، وهو كما ترى.

وقيل: التفريعُ على مجموع ما تقدَّم، فليفهم.

ووضع الظاهر موضعَ الضمير في الموضعين مع التعرُّض لعنوان الربوبيَّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلِّيَّة العنوان للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً.

وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: «ولا تشرك» بالتاء الفوقية[2] على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ويكون قوله تعالى: «بربِّه» التفاتاً أيضاً من الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٢.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٨.

هذا وعن معاوية بن أبي سفيان أنَّ هذه الآية: «فمن كان يرجو» إلخ آخرُ آية نزلت. وفيه كلامٌ، والحقُّ خلافُه، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

ومن باب الإشارة في الآيات: قيل: «ذو القرنين» إشارةٌ إلى القلب. وقيل: إلى الشيخ الكامل. و«يأجوج ومأجوج» إشارةٌ إلى الدواعي والهواجس الوهميَّة، والوساوس والنوازع الخياليَّة. وقيل: إشارةٌ إلى القوى والطبائع، و«الأرض» إشارةٌ إلى البدن.

وهكذا فعلوا في باقي ألفاظِ القصة، وراموا التطبيق بين ما في الآفاق وما في الأنفس، ولعمري لقد تكلَّفوا غايةَ التكلُّف، ولم يأتوا بما يشرحُ الخاطرَ ويسرُّ الناظر. ولعلَّ الأولى أن يقال: الإشارةُ في القصَّة إلى إرشاد الملوك لاستكشاف أحوالِ رعاياهم، وتأديب مسيئهم، والإحسان إلى محسنهم، وإعانة ضعفائهم، ودفع الضَّرر عنهم، وعدم الطمع بما في أيديهم، وإن سمحت به أنفسهم لمصلحتهم.

وقد يقال: فيها إشارةٌ إلى اعتبار الأسباب. وقال الأشاعرة: الأسباب في الحقيقة ملغاةٌ، وعلى هذا قول شيخهم: يجوزُ لأعمى الصين أنْ يرى بقة[1] أندلس. ومذهب السلف أنَّها معتبرة، وإن لم يتوقَّف عليها فعلُ الله تعالى عقلاً، وتحقيق هذا المطلب في محلِّه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ إشارةٌ إلى المرائين على ما في «أسرار القرآن»، ومنهم الذين يجلسونَ في الخانقاه؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس إليهم، واصطياد أهل الدنيا بشباك حيلهم، وذكر من خسرانهم في الدنيا افتضاحَهم فيها، وإظهارَ الله تعالى حقيقةَ حالهم للناس.

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَم[2]

(١) في (م): بقعة.
(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٣٢.

وأمَّا خسرانهم في الآخرة فالطَّردُ عن الحضرة والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إشارةٌ إلى جهة مشاركته ﷺ للناس، وجهة امتيازه، ولولا تلك المشاركة ما حصلت الإفاضة، ولولا ذلك الامتيازُ ما حصلت الاستفاضة.

وقد أشار مولانا جلال الدين القونويُّ قدس سره إلى ذلك بقوله:

كفت بيغمبر كِه أصحابي نجوم	ره روان راشمع وشيطان را رجوم
هركسي راكر نظر بودي زدور	كو كرفتي زا فتاب جرخ نور
كي ستاره حاجتي بوداي ذليل	كي بدي برنور خورشيد أودليل
ماه ميكويد بأبر وخاك في	من بشر من مثلكم يوحى إلي
چون شما تاريك بودم درنهاد	وحي خورشيدم چنين نوري بداد
ظلمتي دارم به نسبت باشموس	نور دارم بهر ظلمات نفوس
زان ضعيفم تاتو بابي آوري	كه ني مردي آفتاب أنوري

هذا ونسأل الله تعالى بحرمة نبيِّه المكرَّم المعظَّم ـ ﷺ ـ أنْ يوفِّقنا لما يرضيه، ويوقِفَنا على أسرار كتابه الكريم ومعانيه.